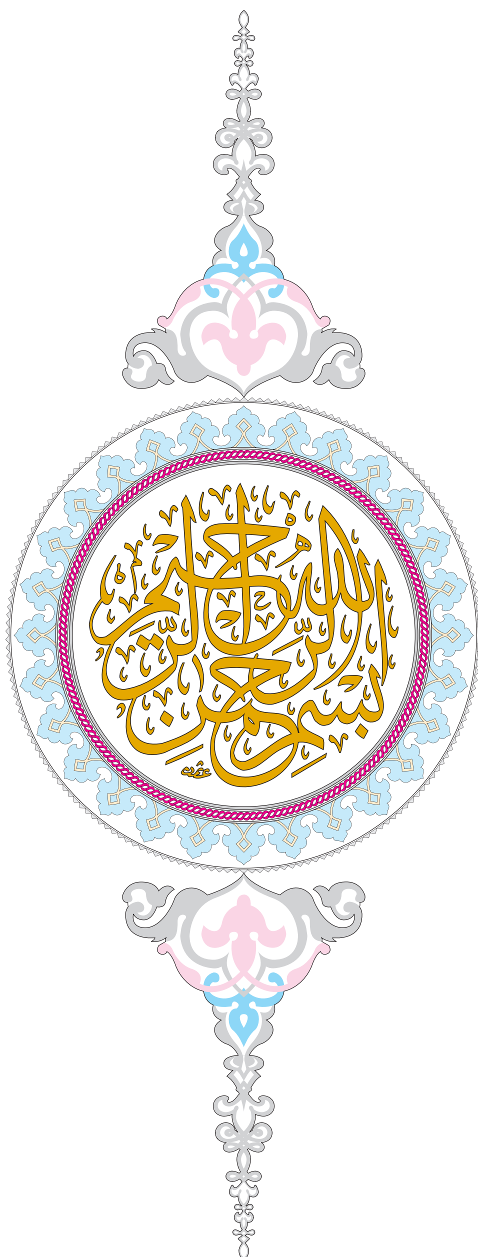
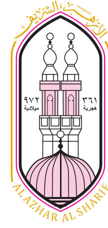
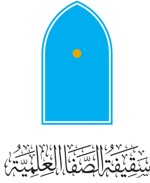




٣٢


بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

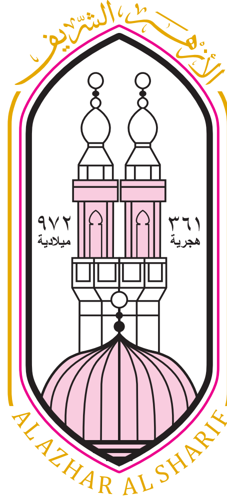
٣٢

المجلد الحادي والثلاثون ـ القسم الثاني

السنة ١٣٧٩هـ

الأزهر الشريف

سقيفة الصفا العلمية



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت: ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء السادس — جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩ هـ — ديسمبر سنة ١٩٥٩ م — المجلد الحادي والثلاثون

الفهرس

قرآن الفجر

بقلم: أحمد حسن الزيات

سهرت بجانب المذياع ليلة استمع إلى أم كلثوم فى حفلتها الإذاعية الشهرية، وكان صوتها ينبعث من الجهاز رخيما عذبا فيملأ جوانب نفسى وحسى كأنما كنت أسمعه بجسمى كله. فإذا انقطعت (الوصلة) أخذ المذيع يثرثر بالفارغ وبعض الملآن فينتملنى من نشوة النغم المرفه إلى صحوة السأم الممض، إلى أن أقبلت هوادى الليل واستأنفت المطربة العظيمة الغناء فى وصلتها الأخيرة، وكان الشارع قد سكن، والبيت قد نام، والمذيع قد فتر، فأحسست أن الصوت الساحر ينسكب فى مسمعى نقيا كرنين الفضة، نديا كترجيع البلبل، تقياً كتسبيح الملائكة، فاعترتنى حال من الصوفية الشاعرة، فيها الحب والشوق، وفيها الفناء والعبادة. حتى إذا انتهى الغناء الآسر، وانفض السامر النشوان، أويت إلى مضجعى ألتمس النوم فامتنع على، ووجدت بى نزوعا إلى اجتلاء الطبيعة فى مجتلاها الرحب، فصعدت إلى سطح البيت المنعزل وأرسلت عينى تجولان حول البيوت المظلمة النائمة، ومن ورائهما خيالى ينفذ من وراء الجدر والستور إلى أنماط شتى من الناس تفاوتوا فى الحظوظ وتباينوا فى الأحوال؛ فمن خلى ينام ملء جفنيه نوم الطفل لا يعوده طيف ولا يزعجه حلم! ومن شجى يسامره الهم ويساوره القلق فلم تكتحل عيناه بغمض؛ ومن مريض يتململ على فراشه النابى فلا يسكن إلا ليتقلب، ولا يسكت الا ليئن. ومن حبيب يخلو إلى حبيبه خلوة النوال بعد الرغبة، أو الوصال بعد القطيعة، وثالثهما شيطان يحرض أو ملك يحرس. ومن زوج يسكن إلى زوجه سكون المودة والرحمة. وتحت جناحيهما فراخهما الزغب ينعمون بالنوم السعيد فى العش الهادئ الدافى. ومن مجرم يطوى أحناء صدره على السوء، فهو يبيت بليل ما سيقترف غداً من العدوان والإثم، ولا يجد من ضميره الغافى حسابا على ما اقترف بالأمس من المنكر والبغى. ومن مؤمن قضى موهنا من الليل يتهجد بالصلاة ويتعبد بالذكر ثم غفا قليلا ليهب على نسيم السحر ودعاء المؤذن إلى بيت الله القريب، كل هؤلاء ضمنتهم هذه البيوت

المتجاورة المتغايرة كما تضمن السرائر نوازع القلوب ونوازى الأنفس فلا يعلمها إلا الله الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

ثم نظرت نظرة فى النجوم وهى تسبح فى أفلاكها بين متألق وخاب . ودان وقاص ، وصاعد ومنحدر ، فتواردت على خاطرى مختلف الآراء التى استقرت فى أذهان الناس عنها فى القديم والحديث ، فقد اختلفوا فى النظر إليها كما اختلفوا فى النظر إلى حقائق المعانى الثابتة كالحق والعدل ، كل يفهمها على حسب ما يستفيد منها أو يعلم عنها أو يتأثر بها ... فالمؤمن يراها مصابح للدجى ومعالم للهدى ورجوما للشياطين . والشاعر يراها لآلئ قد رصعت رقيع السماء ، أو أزاهر بيضا قد طفت على وجه الماء . والبدوى يراها صنوراً من الأحياء على هيئة الإنسان والحيوان والطير ، تحب وتبغض ، وتسالم وتحارب ، فهو يضع لها الأسماء ، ويسرج حولها الأحاديث ، ويؤلف عنها الأساطير ، ويقول فيها الشعر . والمنجم يراها مطالع السعد والنحس ، ومفاتح للسر والغيب . والعالم يراها أجراما هائلة تجرى فى الفضاء بتقدير العزيز العليم ، فيها الجبال والأغوار والأخاديد ، وليس فيها الجمال ولا الحياة ولا التأثير ولا الأمل . فهل آن للعلم الروسى أو الأمريكى أن يجوس بالإنسان خلال هذه الكواكب فيرود المجهول ويعلم الغيب ويحتل السماء ، وتصبح العوالم الأخرى مدبرة بمشيئته مسخرة لأمره ؟ .

* * *

كنت مشغولا بفكرى وخيالى فى الكونين الأدنى والاعلى حين وقع فى مسمعى تسبيح المؤذن على منارة (قايتباى) فعدت من التفكر فى الملكوت إلى التفكر فى الملك ، وانتقلت من التوجه إلى المخلوق إلى التوجه إلى الخالق . وانبعث آنئذ من جانب البيت الملاصق صوت خاشع يقرأ سورة الإسراء بتجويد بين وترتيل حسن ، وكان القارئ المتهجد قد بلغ فى قراءته قول الله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً » فأصغيت بسمعى وقلبى إلى كلمات الله وهى تصعد إليه من فم هذا الرجل فى جلوة السحر وخلوة المكان وقد سجا الليل ، ورق الظلام ، وعمق النوم . واختلط سنا (الزهرة) بتباشير الفجر فابيض الأفق الشرقى ابيضاض اللؤلؤ ، وتجاوب أذان المؤذن وترتيل المرتل تجاوب الوحى والدعوة ، فذكرت بالقرآن الله الذى أوحى ، وبالأذان الرسول الذى بلغ . واتحد الصوتان

فى نفسى بصوت إيمانى القوى بالموحى . والمبلغ ، ففنى وجودى المادى فى وجودى الروحى ، فلم أعد أشعر بالفلك ولا بالزمن ولا بالعالم . وانمحى من مسمعى ماكان يشغلهما من الأصداء الملحة لشدو أم كلثوم ولحن السنباطى ونظم رامى . وبقيا فارغين خالصين لسبحان السحر وقرآن الفجر يتقبلانهما بقوة ولذة واستيعاب فيسريان فى كيانى ووجدانى مسرى البرء فى السقم ، أو الروح فى البدن . أو الإيمان فى القلب ، لا لحسن الصوت ولا لجمال الإيقاع ، ولكن لشعور سماوى لا تدركه حاسة ، ولا تصفه لغة ، ولا يعرفه إلا من وقف هذه الوقفة مستحضرا فى ذهنه جلال الله ، مستشعراً فى نفسه جمال الطبيعة ...

انا لنسمع القرآن والأذان فى كل يوم وفى كل صلاة ؛ ولكننا حين نسمعهما لا نجد فى أنفسنا تلك الجلوة التى تنشأ عن الصفاء ، ولا ذلك الاستغراق الذى يصل ما بينها وبين السماء . ذلك لأن مشاعرنا تكون فى النهار مشغولة بضجة العمل وزحمة العيش فلا تخلص لمواحى الروح فى العالم الآخر .

أما الاستماع إليهما وقد هب المتقون من إغفاءة الفجر اللذيذة حين لا يكون المرء إلا روحا تمض وفكراً يجول وخيالا يحلق ونفساً تصلى ، فتلك هى ساعة التجلى ، ساعة يندمج فيها الشاهد فى المشهود ، وينفعل العابد بالمعبود ، ويشعر ابن آدم القليل الضئيل المرتفق على سور السطح أنه شعاعة من نور الله إذا انقطعت عن مدده خمدت ، وهباءة فى فضاء الكون إذا أفلتت من جذبه فقدت :

* * *

وقف القارئ عند قول الله تعالى اسمه : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » حين قال المؤذن : حى على الصلاة : حى على الفلاح : الصلاة خير من النوم . الله أكبر ، الله أكبر لا إله إلا الله ! ثم غابت غرفة القارئ ومنارة المؤذن فى السكون الشامل ؛ وأخذ الفجر ينسج من خيوطه البيض غلالة شفة على وجه المشرق ، وأخذ الصبح الجميل يتنفس رويداً بين فرعى النيل الكبير والصغير من منيل الروضة ؛ وبدأت القاهرة الراقدة تتثاءب وتتمطى استعداداً لليقظة ؛ فسمعت من قريب سيارة نقل تتحرك ، ومن بعيد قطار حلوان يصفر ، فهبطت من السطح لأقيم صلاتى وأدرك قليلا من النوم ، قبل أن أبدأ عمل اليوم !

أحمد حسن الزيات

الثقافتان

للأستاذ عباس محمود العقاد

من مباحث اليوم فى دوائر الثقافة الانجليزية مسألة الثقافة الإنسانية فى العصر الحاضر، وأصح من ذلك أنها مسألة الثقافتين التى يخشى منها على الثقافة الإنسانية، ويريدون بهما ثقافة العلوم والصناعات من جانب وثقافة الآداب والفنون من جانب آخر. وكلتاهما نافعة إذا لم تنفرد بالفكر الإنسانى كل الانفراد، ولكنها ناقصة النفع بل وشيكة أن تضر — إذا حجبت عن الفكر ما عداها من متممات التهذيب والتقويم ...

أثار هذه المسألة فى الأيام الأخيرة العالم الأديب (سير شارل سنو) فى محاضرة من محاضراته المسموعة القيمة، ولخص فيها مشكلة الإنسان المتعلم فى القرن العشرين، فإن اتساع ميادين المعرفة مع شيوع التخصص فى حدوده الضيقة قد شطر الإنسان كما يقول شطرين، وجعله نصف إنسان لا يكتفى به فى حسن الفهم وحسن التقدير وحسن التصرف، وقد عزله عن الفطرة التى تعتمد على العرف السليم ولم يعوضه عنها ما يغنيه ويهديه، لأنه أعطاه النظر من ناحية واحدة، وهو أخطر الأنظار.

ولم تسمع فى هذا العام محاضرة كان لها من الصدى ما كان لهذه المحاضرة منذ إلقائها إلى اليوم، أو محاضرة تلاحق التعقيب عليها كما يتلاحق من تعقيبات الصحافة والإذاعة والأندية الفكرية فى موضوعها، وهو موضوع الثقافتين.

قال الأديب جون شارب فى إذاعته: إنها أخطر بحث عن التعليم تناوله الباحثون منذ صدر تقرير هاداو Hadaw قبل ثلاثين سنة.

وقال ناقد الملحق الأدبى لصحيفة التيمس: إن الفراغ بين القوتين ليس من الأمور المزهود فيها، فلولا الفراغ لما أمكن سريان الشرارة الكهربائية، ولولاه لما تحركت السيارة التى نركبها، فإذا وجد فراغ بين نوعين من التعليم فليس من الحتم أن يئول ذلك إلى ضرر أو خسارة، وإنما الواجب أن يأتى الفراغ فى الموضع الملائم وبالقدر المطلوب.

ثم عاد الناقد المطلع إلى مسألة الفراغ بين الثقافتين العلمية والفنية فى العصر الحاضر فقال: إنها فى الحق من المشكلات الجسام يخففها إلى حين أن الإنسان المهذب فى زماننا — سواء كان من العلميين أو الفنيين — لا يكتفى

بنصيبه من العلم أو الفن ولا يستغنى عن شاغل من شواغل الرياضة البدنية أو من شواغل الموسيقى كالعزف على آلة من آلاتها والاستماع إلى أدوارها المحفوظة فى قوالبها المسجلة ، أو الاستماع إلى طرائف الإذاعة فى مختلف الموضوعات .

إلا أنه يتمنى على الرغم من هذا العزاء الموقوت لو تعالج هذه المشكلة بما يجمع الفائدة من كلتا الثقافتين ويكفل اللقاء للشطرين الإنسانيين فى بنية واحدة، لا تشتكى الزيغ والانحراف فى نظرتها إلى دنياها .

وقال الفيلسوف الرياضى الكبير برتراند رسل من كلمة نشرتها مجلة المساجلة Encounter إن القطيعة بين الثقافتين لم تبلغ فى الأزمنة الماضية ما بلغته الآن ، إذ كانت القنطرة بين العدوتين قائمة على طول أو على قصر ، ولكنها فى الحقبة الأخيرة يوشك أن تنفصم فلا تلتقى إحداهما بالأخرى ولا تسلم الثقافة من كلفة الادعاء والحذلقة ، كما يحدث دائما عند الشعور بالنقص والرغبة فى مداراة الجهل والسذاجة .

ويرى بعض المعقبين أن العلة ناشئة من تراكم الفضول والحشو على مواد الثقافة جريا مع التقليد والعادة ، فلو أعيد النظر فى برنامج التعليم لم يتعذر إصلاح الخطأ وتصفية الفضول وإبقاء البقية الصالحة من ثقافة العلم وثقافة الفن التى لا يصعب تحصيلها على المتعلم ، مع إعطاء التخصص حقه فى عصره .

والذى نراه من جملة ما طالعناه من مباحث هذه المشكلة أن العلة فيها عند الغربيين راجعة إلى سبب أصيل لم يبتدئ فى هذا القرن العشرين ولم تأت به الدراسة العلمية أو الحركة الصناعية فى هذه السنوات منذ أربعين أو خمسين سنة .

إن العلة فيما نرى راجعة إلى قسمة الثقافة عند القوم إلى ثقافة إلهية وثقافة إنسانية ، وراجعة قبل ذلك إلى قسمة الإنسان بين هذا العالم وبين العالم السماوى ، وإلى المقابلة بينهما كما تتقابل مملكة السماء ومملكة العالم الدنيوى ، أى مملكة الشيطان .

فمن قبل هذا العصر ـ عصر العلم والصناعة ـ كان الأوربيون يقسمون الثقافة إلى قسم العلوم اللاهوتية وقسم العلوم التى سموها بالإنسانية تمييزاً لها من علوم اللاهوت وما يلحق بها من دراسة تعين عليها ، وقد سرى هذا التقسيم منهم إلى الشرق مع سريان الحضارة إلينا من بلادهم ، فسمعنا بيننا من يتحدث عن العلوم الدينية والعلوم الدنيوية ، بعد أن كان العلم عندنا واحدا يطلبه المتعلم لدينه ولدنياه .

فالدين الإسلامى يأمر المسلم بالنظر فى السماوات والأرض ليعلم كل ما يؤدى إليه النظر فيهما وفيما بينهما ، ويأمره بأن ينظر فى سريرة الإنسان وفى أحوال الأمم فلا يفوته العلم بالإنسان الفرد ولا بالجماعات البشرية .

وأثر هذا الإحساس « بالوحدة الذهنية » أن تتم ثقافة المتعلم ويسلم العقل من داء

الفصام الثقافى الذى يفصل بين روحه وبدنه وبين دينه ودنياه.

وأثره فى تاريخ التفكير أن نرى تلك الثقافة الواحدة فى العالم الفقيه الفيلسوف الأديب، مع اشتغال بالطب أو بالوزارة أو بسياسة الأمور العامة، ولا نرى له نظيرا فى الأزمنة الحديثة، ولم نر له من قبل نظيرا فى الأزمنة الغابرة، لأن الثقافة فيها بطبيعتها كانت تنحصر بين حدودها التى لا تتفرق ولا تدعو إلى التخصيص، لقلة محصولها فى مختلف العلوم.

ولم تتأثر قواعد هذه الثقافة التامة بانتقال المسلمين إلى البلاد الغربية، بل هى أثرت هناك فى تلاميذها من الغربيين فرفعت أمامهم أمثلة نادرة من «الإنسان المثقف» كما ينبغى أن يكون.

من هذه الأمثلة أبو بكر بن زهر الذى يقول فيه صاحب نفح الطيب: «هو عين ذلك البيت وإن كانوا كلهم أعيانا علماء، رؤساء حكماء وزراء».

ويقول فيه صاحب المطرب من أشعار أهل المغرب: «كان شيخنا الوزير أبو بكر ابن زهر بمكان من اللغة مكين، ومورد من الطب عذب معين، وكان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب والمنزلة العلياء عند أهل المغرب، ومع سمو النسب وكثرة الأموال والنشب».

وصاحب هذه المعارف والرئاسات هو الذى يقول من الشعر فى شوقه إلى طفله الصغير:

ولى واحد مثل فرخ القطا
صغير تخلف قلبى لديه
نأت عنه دارى فيا وحشتا
لذاك الشُخَيْص وذاك الوُجَيْه
تشوقنى وتشوقته
فيبكى على وأبكى عليه

وهو الذى يقول وقد نظر فى مشيبه إلى المرآة:

إنى نظرت إلى المرآة إذ جليت
فأنكرت مقلتاى كل ما رأتا
رأيت فيها شيخا لست أعرفه
وكنت أعهد فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذى بالأمس كان هنا
متى ترحل من هذا المكان متى؟
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة
إن الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادى يا أُخَىّ وقد
صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا

وهو الذى يقول فى إحدى موشحاته:

سلم الأمر للقضا
فهو للنفس أنفع
واغتنم حين أقبلا
وجه بدر تهللا
لا تقل بالهموم لا
كل ما فات وانقضى
ليس بالحزن يرجع

ومثل هذا الشعر يسلك بقائله فى عداد

النخبة من شعراء عصره وشعراء كل عصر ، لو أنه تخصص للشعر ولم يزد عليه فضلا من أفضال العلم أو الحكمة أو الرئاسة ، ولكنه زاد عليه من كل فضل ما يسلكه بين خاصة أهله ، ولم يفرضه عليه واجب من واجبات المنصب ولا حاجة من حاجات النفس إلى المال والمتعة ، بل ترك من المتعة بمقدار ما استفاد من حكمة وأدب : متعة لا يبذل فيها هذا الثمن من يجهل كيف يكون متاع الأرواح والألباب .

ولقد كان هذا التوسع فى المعرفة من نصيب البيوت والأسر ولم يكن من نصيب نابغة فيها يعدونه فلتة من الفلتات النادرة بين أبنائها ، فليس بالنادر بينهم أن يتعاقب على النبوغ ثلاثة أجيال ، يميزون بينهم باسم الأب والابن والحفيد ، لأنهم كلهم فى شهرة العلم والنبوغ سواء .

* * *

إن « الثقافة التامة » على هذه السنة مستطاعة فى كل زمن ، مستطاعة فى زماننا هذا على الوجه الأمثل مع وفرة علومه وتعدد ألوان الثقافة فيه ، لأنه كما تعددت فيه ألوان الثقافة تعددت فيه وسائل نشرها وتقريبها والوصول إليها فى مصادرها ، فمن لم يتسع وقته للاطلاع على المطولات لم يضق به الوقت عن الإلمام بالوسيط أو الوجيز فى ضروريات المعرفة ، ومن فاته الاطلاع لم يفته الشهود والاستماع ، ومن فاته كل ذلك لم تفته مراجعة الصحف ومناقشة العارفين ومتابعة الأخبار مع السؤال والاستفسار .

وليس المطلوب بالبداهة إلغاء التخصص ولا الوقوف بالمعرفة الخاصة دون الغاية من الاستقصاء . فإن الإجادة فى عمل الإنسان المثقف لا تنال بغير هذا الاستقصاء إلى غاية مداه المستطاع . ولكن إتقان التخصص هو الذى يوجب على صاحب العلم والفن أن ينطلق من قيوده ولا يغلق عليه أبواب علمه وفنه فلا سبيل إلى إتقان شىء من الأشياء وراء الجدران المحكمة والأبواب المقفلة ، ولا يعرف الحسن من يراه فى وجه واحد ، أو يعرف سكنى الدور من لم يخرج قط من داره ، أو يعرف عقله من لم يعرف عقولا أخرى لا مشابهة بينها وبينه .

فمن أجل التخصص نعرف ما حوله ، وقوام الأمر من المعرفة الصحيحة فى عصر « التخصص » أن نعرف كل ما يعرف من علم واحد ، وألا نجهل الصلة بينه وبين سائر العلوم ، فلا نلتقى بأصحابها لقاء الغرباء من عالم آخر ، وما هو فى الحقيقة غير العالم الذى نعيش فيه .

وزينة الثقافة ، بل ضرورتها القصوى ، ألا يكون المرء عالما فى بابه وأميا فى سائر الأبواب ، فإن هذه الأمية فى نقصها وسوء مغبتها أجدر بالمحو من أمية الجاهل بالألف والباء ؟

عباس محمود العقاد

المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام

للأستاذ الدكتور محمد البهى

– ٢ –

الفصل الثانى

الاستشراق والمستشرقون :

(١) نشأة الاستشراق :

يرجع تاريخ الاستشراق فى بعض البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادى. وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك ، غير أن المصادر التى بين أيدينا لا تلقى الضوء الكافى على الموضوع وإن أشارت إلى بعض المستشرقين كأفراد ، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق انتشر فى أوروبا بصفة جدية بعد فترة « عهد الإصلاح الدينى » ـ كما يشهد بذلك التاريخ فى هولانده والدانيمارك وغيرهما (١).

(١) راجع الصفحات ٣ ، ٥٤ ، ٨٦ ، ٢٥٢ ، ٣٦٧ من المجلد الثالث الصادر فى عام ١٩٢٣ من « مجلة المجمع العلمى العربى » ، والصفحات ٦٤ ، ١٧٠ ، ٢٠٤ ، ٢٦٤ ، ٢١٦ ، ٤٢٤ من المجلد الرابع الصادر فى عام ١٩٢٤ من المجلة نفسها .

(٢) أسباب الاستشراق :

والسبب الرئيسى المباشر الذى دعا الأوروبيين إلى الاستشراق هو سبب دينى فى الدرجة الأولى. فقد تركت الحرب الصليبية فى نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة . وجاءت حركة الإصلاح الدينى المسيحى فشعر المسيحيون : بروتستانت وكاثوليك ، بحاجات ضاغطة لإعادة النظر فى شروح كتبهم الدينية ، ولمحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التى تمخضت عنها حركة الإصلاح . ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية . وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية ، لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى ، وخاصة ما كان منها متعلقا بالجانب اللغوى . وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العربية(١) .

(١) راجع المصدر السابق ، وكتاب المستشرقون لنجيب العقيقى، ومجلة الإسلام بالإنجليزية al - Islam ص ١١٢ من عدد ١٥ فبراير سنة ١٩٥٨ .

ومن جهة أخرى رغب المسيحيون فى التبشير بديهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامى . والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم ، واعتمد عليهم فى بسط نفوذه فى الشرق . وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن « المسيحية » ستكون قاعدة الاستعمار الغربى فى الشرق . وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته ، وزودوهم بالمال والسلطان ، وهذا هو السبب فى أن الاستشراق قام فى أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار .

وبجانب هذا وذاك ، كان هناك أسباب أخرى فرعية لنشأة الاستشراق : أسباب تجارية ، وأسباب سياسية ديبلوماسية ، وأسباب شخصية مزاجية عند بعض الناس الذين تهيأ لهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة فى السفر أو فى الاطلاع على ثقافات العالم القديم ، ويبدو أن فريقا من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية ، أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء فى العلوم الأخرى ، أو دخلوه تخلصا من مسئولياتهم الدينية المباشرة فى مجتمعاتهم المسيحية . أقبل هؤلاء على الاستشراق تبرئة لذمتهم الدينية أمام إخوانهم فى الدين ، وتغطية لعجزهم الفكرى ، وأخيرا بحثا عن لقمة العيش إذ أن التنافس فى هذا المجال أقل منه فى غيره من أبواب الرزق(١).

وهنالك ملاحظة لبعض الباحثين تتعلق بالمستشرقين اليهود خاصة . فالظاهر أن هؤلاء أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية ـ وهى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بادعاء أن اليهودية ، فى نظرهم ، هى مصدر الإسلام الأول ، ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية : فكرة أولا ، ثم دولة ثانيا ، هذه وجهة نظر ربما لا تجد مرجعا مكتوبا يؤيدها ، غير أن الظروف العامة ، والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه ، وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى .

وقد تركزت أهداف الاستشراق ، مع تنوعها ، أخيرا فى خلق التخاذل الروحى

(١) راجع الصفحات ١٩ وما بعدها ، ٢٨ وما بعدها ، ٤٠ وما بعدها من كتاب « المستشرقون » وراجع المجلدين الثالث والرابع من مجلة المجمع العلمى العربى لعامى ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ وراجع مجلة الإسلام بالانجليزية Al - Islam فى أعدادها الصادرة فى فبراير وأبريل ومارس ومايو من عام ١٩٥٨ .

وإيجاد الشعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة ، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية .

« ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية ، أو يستخدمون غيرهم فى سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية ، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية (التى يعدونها نصرانية ؛ لأن أمم الغرب تدين بالنصرانية) ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية ، وبالتالى إلى إبراز نواحى النشاط الثقافى فى الغرب وتفضيلها على أمثالها فى تاريخ العرب والإسلام . وما غايتهم من ذلك إلا خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية[1] .

٣ — من مظاهر نشاط المستشرقين :

حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل : ألفوا الكتب ، وألقوا المحاضرات والدروس ، و« بشروا » بالمسيحية بين المسلمين ، جمعوا الأموال وأنشأوا الجمعيات ، وعقدوا المؤتمرات ، وأصدروا الصحف ، وسلكوا كل مسلك ظنوه محققاً لأهدافهم .

وهذه نماذج من صور نشاطهم المتعدد الجوانب .

(ا) فى عام ١٧٨٧ أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى فى عام ١٨٢٠ ، وإصدار « المجلة الآسيوية » .

(ب) وفى لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية فى عام ١٨٢٣ ، وقبل الملك أن يكون ولى أمرها ، وأصدرت « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » .

(ج) وفى عام ١٨٤٢ أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم « الجمعية الشرقية الأمريكية » ، وفى العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم ، وكذلك فعل المستشرقون فى كل من النمسا وإيطاليا وروسيا .

(د) ومن المجلات التى أصدرها المستشرقون الأمريكيون فى هذا القرن « مجلة جمعية الدراسات الشرقية » وكانت تصدر فى مدينة جامبير Gambier بولاية أهايو Ohio ولها فروع فى لندن وباريس وليبزج ، وتورونتو فى كندا ، ولا يعرف إن كانت تصدر الآن ،

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١٧ .

وطابعها العام على كل حال طابع الاستشراق السياسى وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية ، وخاصة فى باب الكتب .

(هـ) ويصدر المستشرقون الأمريكيون فى الوقت الحاضر « مجلة شئون الشرق الأوسط » . وكذلك « مجلة الشرق الأوسط » ، وطابعها على العموم طابع الاستشراق السياسى كذلك .

(و) وأخطر المجلات التى يصدرها المستشرقون الأمريكيون فى الوقت الحاضر هى مجلة « العالم الإسلامى » ،

The Muslim World أنشأها صمويل زويمر S. Zweimer فى سنة ١٩١١ ، وتصدر الآن من هارتفورد Hartford بأمريكا ورئيس تحريرها كنيث كراج K. Cragg وطابع هذه المجلة تبشيرى سافر .

(ز) وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة « العالم الإسلامى » فى روحها واتجاهها العدائى التبشيرى واسمها أيضاً:

• Le Monde Musulman

(ح) ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار « دائرة المعارف الإسلامية » بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التى صدرت بها الدائرة ، وقد بدءوا فى الوقت الحاضر فى إصدار طبعة جديدة تظهر فى أجزاء ، ومصدر الخطورة فى هذا العمل هو أن المستشرقين عبئوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراساتهم ، على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين .

(ط) واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجمع اللغوى فى مصر ، والمجمع العلمى العربى فى دمشق والمجمع العلمى فى بغداد .

(ك) ويعتمد المستشرقون - فيما يعتمدون - على عقد المؤتمرات العامة من وقت لآخر لتنظيم نشاطهم ، وأول مؤتمر عقدوه كان فى سنة ١٧٨٣ ، وما زالت مؤتمراتهم تتكرر حتى اليوم .

(ل) وفى العصر الحديث تقوم المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية فى الغرب بما كان يقوم به الملوك والأمراء فى الماضى من الإغداق على المستشرقين وحبس الأوقاف والمنح على من يعملون فى حقل الاستشراق .

(م) واتجه المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار إلى مجال التربية ، محاولين غرس مبادئ التربية الغربية فى نفوس

المسلمين حتى يشبوا « مستغربين » في حياتهم وتفكيرهم ، وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية (انظر ص١١٤ من مجلة «الإسلام» Al Islam الصادرة في ١٦ مارس سنة ١٩٥٨) .

(س) وليس نشاط المستشرقين موجها فقط إلى المسلمين ، إنهم يفتحون عيونهم لكل الاتجاهات وهم يقظون لكل حركة قد تعوق سيرهم أو تفسد خططهم ، فإن حاول أحدهم أن يبدو محايدا أو يتخفف من أثقال التعصب تجد بقية المستشرقين يهبون في وجهه يطالبونه بأن يكون « موضوعيا » ، وأن يستخدم الطريقة العلمية ويلجأ إلى النقد ذي المستوى العالي وهكذا . ومثال ذلك ما كتبه الفردجيوم Alfred Guilaume تعليقا على كتاب « محمد في مكة » من تأليف مونتجمري وات M. Watt هاجم جيوم وات ، لأن وات خرج عن الخط التقليدي للمستشرقين في بعض الاتجاهات (انظر ص١٣٨ من مجلة «الإسلام» Al-Islam الصادر في ١٥ أبريل سنة ١٩٥٨) .

(ع) ولا يعرف العقل ولا المنطق حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامي ، وتشويه لمبادئ الإسلام وثقافته ، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله ، وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي لعبه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية .

إن المستشرقين جميعا فيهم قدر مشترك في هذا الجانب والتفاوت - إن وجد بينهم - إنما هو في الدرجة فقط ؛ فبعضهم أكثر تعصبا ضد الإسلام وعداوة له من البعض الآخر ولكن يصدق عليهم جميعا أنهم أعداؤه [1] .

وإذا كان الاستشراق قد قام على أكتاف الرهبان والمبشرين في أول الأمر ثم اتصل من بعد ذلك بالمستعمرين - فإنه ما زال حتى اليوم يعتمد على هؤلاء وأولئك ولو أن أكثرهم يكرهون أن تتكشف حقيقتهم ويؤثرون أن يختفوا وراء مختلف العناوين والأسماء .

الدكتور محمد البهي
المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر

---

(١) انظر المجلات والكتب التي ورد ذكرها في هذه النقطة ، وخاصة العالم الإسلامي « الانجليزية » The Muslim World ، « والإسلام » التي تصدر بالانجليزية في كراتشي - باكستان في أعداد فبراير ومارس وأبريل ومايو لسنة ١٩٥٨ و« موجز دائرة المعارف الإسلامية » .

رجة البعث الجديد في كلية الشريعة

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى

— ١ —

إن الأزهر هو الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة بتاريخها وأهدافها ورسالتها فى العالم.

فهى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى فى عقائده ومبادئه العليا، وفى شريعته الغراء أصولها وفروعها، وفى لغته وتاريخه وآدابه وسائر ثمراته الفكرية التى انتجتها القرون المتوالية، والعقول المثابرة المتضافرة فى ظلال كثير من المدنيات والحضارات والشعوب.

وهو بذلك جامعة غير متكررة، ومن حقه على الأمة، أن يبقى أبدا؛ لأنه يحمل رسالة يجب أن تبقى أبدا ومن حقه أيضا أن يكون بقاؤه بقاء مثمراً نافعاً، لا أن يكون مجرد بقاء رسمى ظلى.

وليس المخاطب بهذا الحق ولاة الأمر من الحاكمين وأصحاب التصريف فقط، ولكن أهله أيضا مخاطبون بذلك، بل لعل الخطاب إليهم أكثر توجها، وأشد إيجابا.

وأهم ما يجب عليهم فى سبيل الاحتفاظ بمعهدهم الأكبر، وكفالة الحياة المثمرة النافعة له أن يفكروا دائما فيما يجعله متطوراً متجاوبا مع الأمة فى حدود رسالته التى يحمل لواءها، فإن التطور والتجاوب هما أبرز علامات الحياة، كما أن الجمود والركود؛ هما أظهر علامات الموت، وأول مقدمات الانحلال الذى يعقبه الفناء.

— ٢ —

وكلية الشريعة هى أهم ركن من الأركان الأساسية العملية، التى يقوم عليها صرح الجامعة الأزهرية.

وفيها معنى الانفراد برسالة معينة لا يشاركها فى القيام عليها كلية أخرى فى أية جامعة من جامعات العالم.

إنها الكلية التى تحتضن الشريعة الإسلامية أصولها وفروعها، والتى تدرسها دراسة عميقة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله والأصول العلمية والعقلية المستندة إلى هذين المصدرين الساميين، وهى فى سبيل ذلك تدرس الفقه فى مدارسه المختلفة، التى اصطلح الناس على تسميتها بالمذاهب، وتدرس

أصول الفقه التي هي قوانين الفهم والاستنباط لدى أصحاب تلك المدارس ، وتدرس « فقه القرآن والسنة » الذي اصطلح الناس على تسميته بتفسير آيات الأحكام ، وأحاديث الأحكام وتدرس كل ما يعين على تسديد الخطوات المنهجية في ذلك كله من ، منطق ، ورواية ، ومصطلح ، وتاريخ للمذاهب أو للرجال .

وكان ينقصها أمران أساسيان ، فلم ير العهد الجديد ، عهد الإصلاح في الأزهر ، بدا من استكمالها . وهذان الأمران هما :

١ — استيفاء أركان المقارنة في الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية .

٢ — والتزود من الدراسات القانونية بما يفتح للناظر في الشريعة آفاقا جديدة تعينه على ما هو بصدده ، وتجعله ملما بما حول التفكير الفقهي الذي يزاوله من تيارات ملائمة أو معارضة .

إن الباحث في الشريعة الإسلامية لا يسعه أن يغض النظر عن هذين الجانبين ، ولو أنه غض النظر عنهما لكان نظره ناقصا ومتحيزا ، لأن الفقه ليس هو مجرد تحصيل الفروع ومعرفة الأحكام المستقاة من المذاهب ، وإنما هو مجموع النظر والمقارنة والترجيح ، فلو عرف الناظر بعض الاتجاهات الفقهية وجهل بعضا لكان الركن الأكبر في الفقه منهدما عنده ، لأن احتمالا قويا يبقى قائما أمامه كأنه يناديه ويلح عليه وتقول له : لعل الذي أعرضت عنه هو الحق والصواب ، ولعلك إذا قارنته بما عرفته تحول نظرك ، وتغير حكمك .

ثم إن الفقه في واقع أمره إنما هو قانون تنظيم الحياة للفرد في نفسه ومع غيره فردا أو مجتمعا ، وما سنت القوانين الوضعية إلا لذلك ، فكيف يعيش الفقيه الإسلامي في دائرة فقهه وحده وهو يرى أوضاع الناس وقوانين حياتهم مصطبغة اصطباغا تاما بغير هذا الفقه ؟ أيظل معرضا عن هذا الواقع العملي جاهلا ، أو مغضيا عن مبادئه ، وأصوله ، وقواعده ، وإذن يعتزل الناس كما اعتزلوه ، ويسخر منهم كما سخروا منه ؟ أم يقف موقفا عمليا ، فيعرف ، ويدرس ، ويحيط بما حوله ، ويوازن بينه وبين ما عنده ، وإذن يكون متسلحا بالعلم والمعرفة ، قادراً على أن يقنع الناس بأسلوبهم ، وأن يخطو بالفقه الإسلامي خطوات تقربه من الناس وتحببه إليهم ؟ .

إن المدارس الفقهية المعروفة بالمذاهب الإسلامية ، إنما قامت على أساس دراسة أحوال الناس وأعرافهم وظروف مجتمعهم ، ثم استنبطت لذلك كله من الأحكام العملية

ما هو متمش مع الصالح العام الذى هو أساس شريعة الله ، فمن ظن أن الفقهاء قد انقطعوا فى نظرهم عن فقه الحياة ، أو عن المجتمع ، أو عن الظروف والملابسات التى توضع لها القوانين ـ من ظن ذلك فإنه لم يصب كبد الحقيقة .

ولذلك لم يكن بد من أن تستكمل كلية الشريعة هاتين الناحيتين .

— ٣ —

ولم يغب عنا أن اتجاه عهد الإصلاح فى الأزهر إلى استكمال هاتين الناحيتين ؛ سوف لا يمر مرآ خفيفا بفريق من الناس لهم من ظروفهم الاجتماعية أو الفكرية ، ما يجعلهم يسارعون إلى المعارضة فى كل ما لم يألفوه ، مع أنهم لو تدبروا الأمر منصفين لما وجدوا إلا الخير والصلاح .

ولذلك لم نعجب حين سمعنا أن من الناس من لا يرحب بإدخال فقه الشيعة فى كلية الشريعة ، وأن منهم من يقاوم إدخال الدراسات القانونية فيها .

بيد أننا نحب أن نكون صرحاء مع هؤلاء جميعا ، فنذكر وجوه اعتراضاتهم ، ومايدور فى أذهانهم وتفصح عنه ألسنتهم ، ثم نبين رأينا فيه :

* * *

١ ـ فمثلا نرى بعض الناس يقول :

كيف تدخلون فقه الشيعة فى الأزهر ، مع أن هذا المذهب هو مذهب الذين يعتقدون أن جبريل إنما بعث بالرسالة إلى علىّ فأخطأه ونزل بها على محمد ، وأن عليا قد حل فيه جزء من الإله ؟ .

وهؤلاء نقول لهم :

إن كلمة : « الشيعة » تطلق على عشرات المذاهب التى تنسب إلى الإسلام حقا أو باطلا ، وبعض هذه المذاهب ضال منحرف عن الأصول الإسلامية ، وبعضها مهتد مستمسك بما يجب الإيمان به ، مثله فى ذلك كمثل مذاهب السنة ، وإن خالفهم فى بعض الفروع الفقهية أو النظريات والمسائل التى هى من قبيل المعارف الكلامية .

والفريق الأول من المسمّين باسم الشيعة وهم الضالون المنحرفون ، لا يعدون من أهل الإسلام وإن ادعوه ؛ لأن العبرة فى ثبوت الإسلام إنما هى بالإيمان بأصول العقائد الإسلامية ، وعدم إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وهؤلاء ليسوا كذلك ، وليسوا منا ولسنا منهم ، وقد انقرضوا ولم يعد لهم أثر فى العالم الإسلامى ، وهم كفار خارجون على ملة الإسلام ، ملعونون من أهل السنة ومن الشيعة .

أما الشيعة الذين تقرر إدخال فقههم فهم :

١ ـ الشيعة الإمامية الاثناعشرية ، وقد

لقبوا « بالإمامية »، لأنهم يقولون بأن إمامة على ثابتة بالنص ، ولقبوا « بالاثناعشرية »، لأنهم يسوقون الإمامة إلى اثنى عشر إماما أولهم على بن أبى طالب ، وآخرهم محمد ابن الحسن العسكرى الملقب بالحجة .

وهم يسكنون إيران والعراق وسوريا ولبنان والباكستان والهند ، وغيرها من البلاد العربية والإسلامية ويؤمنون بأصول الإسلام كلها ، ولا يستطيع أحد من أهل القبلة أن يحكم بكفرهم ، وكل ما بينهم وبين السنة من اختلاف ، إنما هو فيما وراء الأصول التى يجب الإيمان بها لتحقق مفهوم الإسلام ، وينسب فقههم إلى أئمتهم من أهل البيت النبوى ، واشتهر باسم الفقه الجعفرى نسبة إلى أحد هؤلاء الأئمة ، وهو جعفر الصادق بن محمد الملقب بالباقر .

وهؤلاء الشيعة الإمامية يلعنون أهل المذاهب المنسوبة إلى الشيعة من الغلاة فى شأن على ، ويتبرءون منهم ، ويحكمون بكفرهم ونجاستهم .

ولهم كتبهم فى العقائد والفقه والأصول وأسرار الشريعة والأخلاق والتصوف ، وعلوم اللغة العربية وغيرها ، وقد نبغ منهم كثير من الفقهاء وأهل الحديث والرواية ، والأدباء والأصوليين والمتكلمين وغيرهم ، ولهم أثر واضح فى العلوم الإسلامية فى مختلف العصور .

٢ — الشيعة الزيدية ، وهم يسكنون اليمن غالبا ، ومذهبهم منسوب إلى الإمام زيد بن على زين العابدين ، وهو أقرب مذاهب الشيعة إلى مذاهب السنة .

ولا ينازع أحد فى شأنهم مع كونهم أيضا ملقبين بلقب « الشيعة » .

وإذن ، فلا يستقيم القول بأن الشيعة كلها تقول برسالة على أو ألوهيته ، أو تغالى فى شأنه ، فإن هذا القول على إطلاقه خطأ ، ويجب التفريق بين الشيعة المهتدين ، والشيعة الضالين أو المنحرفين ، كما يجب الحذر عند سماع أى نقل عن الشيعة ، والتحرى عن القائل منهم بذلك حتى لا يحمل قول ضال على فرقة مهتدية لم تقله .

٢ — ونرى بعض الناس يقول : إذا درس الأزهر المذهب الشيعى ليرد عليه ، ويبين زيفه وأخطاءه ، كان ذلك داعياً إلى الفتن وإيقاظ العداوات ، وإن درسه على أنه حق لا زيف فيه كان ذلك دعاية له وإلقاء للتعلين بين براثنه ، وهذا ما تؤيده الفتوى بجواز التعبد به .

ونحن نقول لهؤلاء :

ينبغى أن يفهم هنا الفرق بين دراسة مذهبى الإمامية والزيدية على سبيل الاستقلال ، ودراستهما ضمن الفقه المقارن ، فليس الذى قرره الأزهر هو دراسة هذين المذهبين

استقلالا على معنى أن تكون المذاهب التى تدرس فى كلية الشريعة ستة، هى الأربعة السنية المعروفة، والاثنان الشيعيان: الإمامية والزيدية، لا، ولكن الذى تقرر من أول يوم، والذى كان موضع البحث من أول يوم هو إدخال هذين المذهبين فى منهاج «الفقه المقارن»، ودراسة الفقه المقارن تقوم على أساس ضرورى، هو أن يدخل الباحثون فيها غير متأثرين بحكم سابق ضد هذا المذهب أو ذاك، ولذلك يجب أن يخلع الباحث العلمى ثوبه المذهبى قبل أن يدخل قاعة الدرس، وإلا كان الزعم بأن ما يفعله مقارنة بين المذاهب زعماً غير صحيح، بل كان أشبه بالظهور بالمظاهر التمثيلية.

ولذلك لا نفهم السر فى التشقيق الذى أتى به المعترض فى قوله: «هل يدرس لبيان زيفه أو على أنه حق»، ونقول له: كيف فاتك أن الدرس يجب أن يكون على أساس من الإنصاف والمعدلة وخلو الذهن من حكم سابق، وإلا لم يكن درساً، ولم يكن منهجا علميا محترما. إن البحث والدليل والبرهان هى الأساس فى الحكم، وليس هناك من يزعم أن مذهباً ما من المذاهب الإسلامية حق كله، وأن مذهبا آخر باطل كله، ولكن كل مجتهد متعرض لأن يخطئ ويصيب، ويؤخذ منه ويرد عليه.

وقبل أن نترك الحديث فى هذه النقطة نحب أن نقول: إن ما قرره الأزهر من الاكتفاء بدراسة مذهبى الإمامية والزيدية ضمن منهاج الفقه المقارن؛ لم يكن مرجعه فى نظره أنه يستنكر دراسة هذين المذهبين على سبيل الاستقلال، كلا، ولكن لأن الدراسة الجامعية الحقة هى الدراسة المقارنة، وليس مما يهم الأزهر أن يزيد مذهباً على مذاهبه الأربعة كى يدرس مثلها على سبيل الاستقلال، بل لعله يرمى إلى مستقبل تكون فيه جميع الدراسات الفقهية فى كلية الشريعة وأقسام التخصص دراسات مقارنة.

ولعل قائلا يقول: ولماذا تحفلون بما تسمونه «الفقه المقارن» إلى هذا الحد، وتعدون دراسته هى الدراسة الجامعية الحقة، وترتكبون فى سبيله ما لم يرتكبه أحد من قبلكم؟ فنقول له:

إن «الفقه المقارن» هو الفقه على الحقيقة، وهو صناعة الفقيه على الحقيقة، أما الحافظ للفروع الذى لا يعرف إلا سرد الأحكام؛ فما ذاك بالفقيه.

وهذا الذى نقرره هو ما تقرره كتبكم المعتمدة التى تدرسونها، وتنقطعون لخدمتها، ألا ترون أنهم يقولون: «الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية»، ويقولون: «من لم توجد عنده ملكة العلم

بالأحكام على هذا الوجه فلا يعد فقيها ولو حفظ جميع أحكام الفروع ، ومن وجدت عنده الملكة ولو فى بعض المسائل فهو الفقيه. وقد سئل مالك عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع منها ، وقال فى ست وثلاثين : لا أدرى! ولم يمنعه ذلك من أن يكون فقيهاً ؛ لأن ملكة الفقه وجدت عنده » .

ثم إن هذه الدراسة قائمة جارية على أيدى العلماء فى كل عصر ، وكتب المذاهب عامرة بها ، وكتب الحديث والتفسير والأصول الأمهات ، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحاتها ، وكم رجح المالكى قولا للشافعى ، ورجح الحنفى قولا لغير أبى حنيفة ، وأصحاب أبى حنيفة وتلاميذه ومن ينتسبون إليه كثيراً ما يقررون غير ما قرره الإمام ، لضعف مأخذه عندهم ، أو لانكشاف دليل لهم لم ينكشف له . وكذلك كل أصحاب الأئمة وأتباع المذاهب .

ولا شك أن هذا منهج مستقيم من الناحية العلمية الفقهية ، ومن الناحية الإسلامية :

فأما استقامته من الناحية الفقهية فلأن الفقيه المنصف الذى لا هدف له إلا البحث عن الحق ، لا يسعه أن يغض الطرف عن قول قاله مجتهد ما فى المسألة التى يبحثها ، ما دام لا يصادم نصا قطعيا من كتاب أو سنة ، ولا يسعه أن يعرض عن دليله ، فقد يكون هذا الدليل سليما ، ولو أن فقيها باحثا ارتضى لنفسه أن يغض النظر عن قول غيره ودليل غيره ؛ لكان من الذين قال الله فيهم « ألا إنهم يستغشون ثيابهم ليستخفوا منه » . ولا شك أن منهجه حينئذ لا يكون إلا منهجا فاسداً غير معتد به من العلماء .

وأما استقامة هذا المنهج من الناحية الإسلامية ؛ فلأن المسلمين أمة واحدة لا ينبغى التفريق بينهم ، بل ينبغى أن ينظر كل فريق منهم إلى الفريق الآخر على أنهم جميعا إخوة متعاونون على معرفة الحق ، والعمل به ، ولا يستقيم ذلك إلا إذا كان أهل القبلة جميعا ، وأهل الدين الواحد ، والأصول المشتركة ؛ أحراراً فى الإدلاء بآرائهم ما دامت فى الدائرة الإسلامية ، وقد قلنا من قبل : إنه لا فرق بين السنة والإمامية والزيدية فى أصل جوهرى من أصول الإيمان .

٣ — ونرى بعض الناس يقول : ياليتكم وقفتم عند تدريس الفقه المقارن بين المذاهب ومن بينها الشيعة ، ولكن فضيلة الأستاذ الأكبر صرح فى حديث له بأن مذهب الإمامية يجوز التعبد به ، مع أن هؤلاء الإمامية يعتقدون أن القرآن قد دخله النقصان ، ويروون عن فاطمة أن الذى بقى منه نصف الذى نزل ، أو ما فى معنى ذلك .

فكيف تجيزون تقليد غير الأربعة وكيف

إذ أجزتم ذلك — تجيزون تقليد هؤلاء الإمامية بالذات ؟.

ونحن نقول لهم :

١ — أما تقليد غير الأربعة فجائز شرعا، وفضيلة الأستاذ الأكبر قد أشار فى فتواه إلى ذلك ويحسن بنا أن نسجل هنا كلاما جاء فى كتابه « مقارنة المذاهب » الذى يدرس منذ سنة ١٩٣٦ فى كلية الشريعة ، فإنه فصل الخطاب فى هذا الشأن ، قال : « إن المتأخرين حينما تحكمت فيهم روح الخلاف وملكتهم العصبية المذهبية ، راحوا يضعون من القوانين ما يمنع الناس من الخروج عن مذاهبهم وانتقلت المذاهب بهذا الوضع عن أن تكون أفهاما يصح أن تناقش فترد أو تقبل ، إلى التزامات دينية لا يجوز لمن نشأ فيها أن يخالفها ، أو يعتنق غيرها ، وحرموا بذلك النظر فى كتاب الله وسنة رسوله ، أو حرموا العمل بثمرة النظر فيهما ونشأ عن ذلك أن فترت الهمم ، ووقف الفقه الإسلامى واشتغل علماء المذاهب بالانتصارات المذهبية ، واختصار المطولات ، وشرح المختصرات ، وهكذا حرم الناس الفقه ، وحرموا ملكة الفقه ، وقد وصف الشيخ عز الدين بن عبد السلام موقف هؤلاء المتأخرين فقال : « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه ، بحيث لا يجد لضعفه مدفعا وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة له ، ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده » ثم قال : « لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ، ولا إنكار على أحد من السائلين ، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال ، كأنه نبى أرسل ، وهذا نأى عن الحق، وبعد عن الصواب، لا يرضى به أحد من ذوى الألباب » .

وقال الإمام أبو شامة : « ينبغى لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب إمام ، ويعتقد فى كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة ، وذلك سهل عليه إذا حصل العلوم المتقدمة (وسائل الاجتهاد) وليجتنب التعصب والنظر فى طرائق الخلاف المتأخرة ، فإنها للزمن مضيعة ، ولصفوه مكدرة ، فقد صح عن الشافعى أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره ، قال صاحبه المزنى فى أول مختصره : « اختصرت هذا من علم الشافعى ومن معنى قوله لأقربه على من أراد، مع إعلامية نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ، ويحتاط لنفسه » .

إن واجب المسلم إذا تعذر عليه أن ينال الأحكام من أدلتها أن يسأل أهل الذكر ، وليس عليه أن يلتزم مذهبا معيناً ، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة ، قال شارح مسلم الثبوت : « فإيجابه تشريع شرع جديد » ثم قال : « ولك أن تستدل عليه بأن اختلاف العلماء رحمة بالنص ، وترفيه فى حق الخلق ، فلو ألزم العمل بمذهب معين كان هذا نقمة وشدة » اهـ .

٢ — وأما أن الإمامية يعتقدون نقص القرآن فمعاذ الله ، وإنما هى روايات رويت فى كتبهم كما روى مثلها فى كتبنا ، وأهل التحقيق من الفريقين قد زيفوها وبينوا بطلانها ، وليس فى الشيعة الإمامية أو الزيدية من يعتقد ذلك ، كما أنه ليس فى السنة من يعتقده .

ويستطيع من شاء أن يرجع إلى مثل كتاب « الإتقان » للسيوطى السنى[1] ليرى فيه أمثال هذه الروايات .

وقد ألف أحد المصريين فى سنة ١٩٤٨ كتابا اسمه « الفرقان » حشاه بكثير من أمثال هذه الروايات السقيمة المدخولة المرفوضة ، ناقلا لها عن الكتب المصادر عند أهل السنة ، وقد طلب الأزهر من الحكومة مصادرة هذا الكتاب بعد أن بين بالدليل والبحث العلمى أوجه البطلان والفساد فيه ، فاستجابت الحكومة لهذا الطلب وصادرت الكتاب ، فرفع صاحبه دعوى يطلب فيها تعويضا ، فحكم القضاء الإدارى فى مجلس الدولة برفضها .

أفيقال : إن أهل السنة ينكرون قداسة القرآن ، أو يعتقدون نقص القرآن ، لقول قاله فلان ، أو لكتاب ألفه فلان ؟ !

فكذلك الشيعة الإمامية، إنما هى روايات فى بعض كتبهم كالروايات التى فى بعض كتبنا ، وفى ذلك يقول الإمام العلامة السعيد أبو الفضل ابن الحسن الطبرسى ، من كبار علماء الإمامية فى القرن السادس الهجرى ، فى كتابه « مجمع البيان لعلوم القرآن » ، وهو بصدد الكلام عن الروايات الضعيفة التى تزعم أن نقصا ما دخل القرآن - يقول هذا الإمام ما نصه: « روى جماعة من أصحابنا ، وقوم من حشوية العامة ، أن فى القرآن تغييراً ونقصانا ، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه ، وهو الذى نصره المرتضى قدس الله روحه ، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء فى جواب المسائل الطرابلسيات ، وذكر فى مواضع : أن العلم بصحة نقل

(١) انظر ص ٣٠ من الجزء الثانى من كتاب الاتقان .

القرآن ، كالعلم بالبلدان ، والحوادث الكبار والوقائع العظام ، والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدت ، والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه ؛ لأن القرآن معجزة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية ، والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شىء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيراً ، أو منقوصاً مع العناية الصادقة ، والضبط الشديد ؟ .

« وقال أيضا ـ قدس الله روحه ـ : إن العلم بتفسير القرآن وأبعاضه ، فى صحة نقله ، كالعلم بجملته وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنفة ، ككتاب سيبويه والمزنى ، فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما ، حتى لو أن مدخلا أدخل فى كتاب سيبويه بابا فى النحو ليس من الكتاب ؛ لعرف وميز وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب ، وكذلك القول فى كتاب المزنى ، ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء » .

« وذكر أيضا ـ رضى الله عنه ـ : أن القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجموعا مؤلفا على ما هو عليه الآن ، واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه فى ذلك الزمان ، حتى عين جماعة من الصحابة فى حفظهم له ، وأنه كان يعرض على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويتلى عليه ، وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وغيرهما ختموا القرآن على النبى صلى الله عليه وآله وسلم عدة ختمات ، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعا مرتبا غير مبتور ولا مبثوث ، وذكر أن من خالف ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد بخلافهم ، فإن الخلاف فى ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها ، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته » (1) .

فهذا كلام صريح واضح فى الدلالة على أن الإمامية كغيرهم فى اعتقاد أن القرآن لم يضع منه حرف واحد ، وأن من قال بذلك فإنما يستند إلى روايات ظنها صحيحة وهى باطلة .

وقد كتب فضيلة الأستاذ الشيخ محمد حداد مغنيه وهو من كبار رجال الشيعة الإمامية فى لبنان ، وقد ولى مناصب القضاء حتى وصل إلى رياسة المحكمة الشرعية العليا ، كتب فضيلته يقول :

---

(1) ص ١٨ من الجزء الاول من كتاب [مجمع البيان] طبع دار التقريب فى ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م بالقاهرة .

« ألفت نظر من يحتج على الشيعة ببعض الأحاديث الموجودة فى كتب بعض علمائهم ـ ألفت نظره إلى أن الشيعة تعتقد أن كتب الحديث الموجودة فى مكتباتهم، ومنها الكافى، والاستبصار، والتهذيب، ومن لا يحضره الفقيه، فيها الصحيح والضعيف، وأن كتب الفقه التى ألفها علماؤهم، فيها الخطأ والصواب، فليس عند الشيعة كتاب يؤمنون بأن كل ما فيه حق وصواب من أوله إلى آخره غير القرآن الكريم، فالأحاديث الموجودة فى كتب الشيعة لا تكون حجة على مذهبهم، ولا على أى شيعى بصفته المذهبية الشيعية، وإنما يكون الحديث حجة على الشيعى الذى ثبت عنده الحديث بصفته الشخصية، وهذه نتيجة طبيعية لفتح باب الاجتهاد لكل من له الأهلية، فإن الاجتهاد يكون فى صحة السند وضعفه، كما يكون فى استخراج الحكم من آية أو رواية، ولا أغالى إذا قلت: أن الاعتقاد بوجود الكذب والدس بين الأحاديث ضرورة من ضرورات دين الإسلام، من غير فرق بين مذهب ومذهب، حيث اتفقت على ذلك كلمة جميع المذاهب الإسلامية »[1].

انتهى كلام الشيخ مغنيه.

* * *

هذه أمثلة مما يقال اعتراضا على إدخال فقه الإمامية والزيدية بين مناهج الفقه المقارن فى كلية الشريعة. ويتبين مما ذكرناه من الرد عليها أن الأمر يحتاج إلى تأمل من المعترضين، ودرس للمسائل قبل الإقدام على النقد، وما هذه المسائل إلا أمثلة يمكننا أن نسوق كثيراً منها، وأن نبين وجه الحق فيه، ولولا خوف التطويل لأتينا على كل ما عسى أن يراود الخائفين.

* * *

أما الذين يحاولون أن يشككوا فى جدوى الدراسات القانونية فى كلية الشريعة، فمن العجيب أنهم ليسوا من الأزهريين، ولا من علماء الدين، وإنما هم أفراد من الذين يتخيلون أن إدخال هذه الدراسات فى الأزهر سيكون سببا فى مزاحمة خريجى كليات الحقوق بالجامعات الأخرى.

وقد كنا نعرف أن الأزهريين قد أتى عليهم عهد طلب إليهم فيه أن يصوغوا من الشريعة بعض القوانين فرفضوا ذلك احتجاجا بأن صياغة أحكام الإسلام على أسلوب القوانين الوضعية يجر إلى الاستهانة بها، وتشبيهها بما هو غير مقدس من الأحكام.

كنا نعرف ذلك ونعرف أن الناس قد اتجهوا إلى قوانين أخرى غير مستمدة من الشريعة لما يئسوا من علماء الشريعة، فكان ذلك هو السبب فى أن فقهنا القانونى كان وضعيا ولم يكن شرعيا.

(١) ص ٣٨٩ من المجلد الثانى من مجلة (رسالة الإسلام).

والآن لا نجد فى الأزهر ـ والحمدلله ـ من يعترض على إدخال الدراسات القانونية ، لأنهم قدأدركوا أن هذا النوع من الدراسات يخدم الفقه الإسلامى ، ويعين على المقارنة بينه وبين غيره ، ويبرز مزاياه ، وأن من شأنه أيضا أنه يعرف الأزهريين بأسلوب جديد يستعينون بمعرفته على عرض ما عندهم عرضا جديدا ، وتنظيمه تنظيما يفيد فى تقريب الانتفاع به ، كما أن هذه الدراسات ستكون إلى جانب الدراسات الشرعية ، سلاحا لهم فى حياتهم المادية ، حيث يستطيعون أن يتقدموا إلى مناصب القضاء ، ومراكز التوجيه القانونى فى الدولة . ويومئذ لا يقال لهم إنكم غير أهل لها .

إن أبناء الأزهر قد عرفوا ذلك فرحبوا بهذه الدراسات ، وأصبحت كلية الشريعة تستقبل أساطين القانون فى كل فرع من فروعه وتستمع إليهم فى شغف وإقبال ، وتطلب كتبهم ومذكراتهم ومراجعهم ، كما تطلب مراجع الفقه وأصول الأحكام !

فياله من بعث جديد ! .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

الصبر والشكر

ألم تر أن الصبر والشكر توءم   وأنهما ذخران فى العسر واليسر
فشكرا إذا أوتيت خيرا ونعمة   وصبرا إذا نابتك نائبة الدهر
فلم أر مثل الشكر حارس نعمة   ولا ناصرا عند الشدائد كالصبر
فما طاب نشر الروض إلا لأنه   شكور لما أسدت إليه يد القطر
ولا فضل الإبريز إلا لأنه   صبور إذا ما مسه وهج الجمر

نفحات القرآن

موقف الإسلام من الوحدة والتفرق

تبرئة الله لرسوله من المفرقين

لفضيلة الأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، لست منهم فى شىء .
(ب) إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون .

تمهيد :

لم يكن تشريع الدين من جانب الله ليتشعب الناس فيه ، ويختلفوا حوله ، وإنما ليجمعهم تحت راية الإخاء فى الإنسانية ، وليكون هذا الإخاء دائما موثقا بحبل من الله سبحانه فيكون الناس على صلة بالله ، وعلى تضامن وتعاطف فيما بينهم ، حتى يتهيأ لهم أن يؤدوا رسالتهم فى دنياهم على أتم وجه من الكمال المنشود .

ومن هذه الإلمامة يكون واضحا أن التشريع السماوى من مظاهر تكريم الله لعباده ، حيث لم يتركهم سدى ، ولم يجعل همهم فى الحياة أن يملئوا بطونهم من بطاح الأرض ونجادها ثم يعودوا آخر النهار كما تعود الأطيار إلى وكناتها ، أو الأنعام إلى مرابضها . بل ناجاهم ، وشرع لهم ، ووعدهم الثواب وفضلهم على كثير من خلقه تفضيلا .

فكان طبيعيا فى ميزان الحكمة أن يكون الدين فى وضعه : عقيدة وشريعة ، وأن تكون العقيدة أصلا ، لا يختلف باختلاف العصور ، ولا يمسه تعديل فى عهد نبى بعد نبى ممن أرسل الله إلى الناس .

ويكون طبيعيا كذلك فى ميزان الحكمة أن يكون الجانب الثانى : وهو التشريع العملى مسايرا للعقول فى تدرجها ونضجها ، وملائما للحياة فى واقعها ، وملابساتها .

فالعقيدة إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالقضاء والقدر : خيره وشره ، وباليوم الآخر ، وهذا ديدن للأمم جميعا ، وعليه تطابقت رسالات الرسل ، وتوافقت كتب السماء .

والتشريع العملى هو النظام الذى يحدد رسوم العبادات وأشكالها ، فى الصلاة أو الصوم ونحوهما .

ويرسم طريق التعامل بين الناس فى الأموال وفى النظم الاجتماعية : كالميراث ، والزواج ، والقضاء ، ونحو هذا مما يتصل بالعلاقات ، ويتجه بالناس نحو العدل فيما بينهم دائما إلى زمن ما ، أو إلى الأبد .

ولا يضير العقيدة المتحدة أن يتطور فى ظلها التشريع بتطور الزمن وتجدد الرسالات آنفا .

فالدنيا كما أراد الله فى تجدد ، وحاجات الناس فى توسع ، وعقولهم فى تكامل ، فشرائعهم لا تقف بهم عند وضع واحد ، وإلا كانت حياة جامدة ، لا تتسع للتجديد ، وكان حجرا على المواهب أن تشرق ، والله - سبحانه - أمر عباده أن يفسحوا خطاهم بالسير فى مناكبها ، وأن يتخذوا من فجاجها مصانع وحقولا يستثمرونها بمواهبهم ، ويتمتعون بما يتاح لهم من ثمراتها ، وإنتاجها .

وازاء هذا - وهو سياق يطول - يكون الدين فى أصله - من ناحية العقيدة - واحدا .

ولا يقال : إنه متعدد بتعدد شرائعه العملية ، فإن الشرائع بالنسبة للعقيدة كالأمر الإضافى ، واختلاف الأمر الإضافى لا يعتبر تعدداً فى الأصل القائم مقام المحور فى وسط الدائرة .

وقد جرت سنة الله فى خلقه ألا يواجهوا الدين فى أى عصر من عصوره بالقبول التام والاطمئنان ، بل كانت للأهواء الجامحة ، وللجهالات الفاشية ، وللعصبيات المتحكمة : كانت لهذه العوامل وسواها مشادة فى الدين ، ومناوآت للرسل ، وللأنبياء .

فأناس نبذوا التدبر جملة ، وكذبوا رسل الله وأنبياءه ، وقالوا ماقالوا من الكفريات

وآخرون تدينوا ، ولكن غيروا ، وبدلوا بالحذف ، والإضافة فيما شرع الله لهم ، بل وفى العقيدة نفسها ، وافتروا من بشائع الأكاذيب على الله ، وعلى رسله ما يظاهر أهواءهم الباطلة .

وفريق ثالث أخير : نشئوا على دين حق ، ثم طغت عليهم نزعات الإباحية ، والتقاليد الجريئة فأخذوا يتدخلون فى تشريع الله ، ويتعرضون لكتابه الكريم بالمناقشات المتبجحة ، وينكرون بعض أحكامه ، ويتجاهلون الكثير من آياته ، ظانين أنها حرية رأى ، وأن القرآن نفسه يرضى لهم بتلك الحرية الطائشة التى هى الكفر الصراح بعينه - وذلك سفه وجحود لا غير - وهذه النزعات على اختلافها تباين الوحدة فى العقيدة ، إذ فيها تكذيب للرسل ، أو لبعضهم ، وفيها تكذيب لكتب السماء أو لبعضها ، وبالتالى فيها تكذيب للدعوة الموجهة إلينا من عند الله .

وكان المفروض أن نستقبل الدين المبلغ إلينا فى كل عصر من عصوره بالقبول ، وأن نقول ـ آمنا به ، كل من عند ربنا ـ لا نفرق بين أحد من رسله .

(ا) ولكن شاءت حكمة الله كما سلف ، أن يوجد مفرقون، وأن يحاسب هؤلاء المفرقون على ما اجترحوا بميولهم ، واختيارهم .

وكان النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يود أن لو آمن الناس جميعاً ، ويجهد نفسه كثيراً فى إقناع من يحاوره ، غير عالم بماسبق به القضاء فى شأن أولئك المتمردين ، حتى يخبره الله بما كان خافيا عليه ، ويصرفه عن مناقشتهم ويعزيه عن تخلفهم ، حتى لا يكون فى نفسه شىء من أسف على هؤلاء .

ومن هـذا قوله فى الآية التى سقناها :

« إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، لست منهم فى شىء » .

يريد الله ـ وهو الأعلم ـ تبرئة رسوله من تبعات المفرقين للدين على اختلاف منازعهم ، وأنه بنجوة من شأنهم كلهم ، فالمتشبثون بدين قديم ، وهم يجافون الدعوة الجديدة ، والمشككون فى الدعوة الجديدة ، أوممزقوها وجاعلوها أبعاضا يأخذون ببعضها ويتركون بعضها ، والمتظاهرون بالقبول ، وهم يشقون لأنفسهم طريقا غيرطريق الجماعة كل أولئك فى حيز غـير حيز القرآن ، وهم فى قطيعة عن جانب الله ، ومحمد ليس ذا صلة بما هم عليـه ، ولا هو متبوع لهم وإن زعموا ، ولا شافع فيهم ، وإن تعلقوا بالرجاء فى ذلك (لست منهم فى شىء) .

(ب) ثم يأتى ما بقى من الآية فيصرح بأن أمرهم إلى الله ، وأنه ـ تعالى ـ سينبئهم بما كانوا يفعلون .

وهذه الإحالة إلى الله ليست مظنة الرفق بهم ، وإنما هى لإعلانهم بالهول المرتقب لهم ، فإنهم فرقوا ما جمع الله ، وكذبوا وجحوا ، وكنى بهـذا خروجا على الله ، وانحيازا إلى غير جانبه .

فالأولى بهم أن يحرموا من رعاية الله ، وأن يتركوا فى قطيعة عن ربهم ، كمن يخر من السماء ، فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

قد يقال : إن ذلك حديث معاد ، وليس فيه من توجيه جديد ! ! .

ولـكن هذا شأن بالغ الخطورة ، والعود إليه من قبيل الجـديد ؛ فإنا نلاقى فى عصرنا هذا شيئا من التفريق لا يهون خطره بجانب ما كان ، فإن كان للأولين عذر : من جهالة ، أو استسلام للدسائس فما عذرنا اليوم ؟ .

ونحن إذا رجعنا إلى المـاضى فإنا نرى فى ضوئه من المخاوف لنـا ما يثير عندنا رهبة من النكسة فى تلك الضلالات .

يحكى لنا القرآن : أن الناس كانوا أمة واحدة : على البداوة والجهالة .

« فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه إلخ » .

ونرى من خلال هذه الآية ، وأمثالها أن انقسام الناس حول دينهم ، وتفرقهم فيه ، ما وقع إلا من أهل الكتاب السماوى أنفسهم ، وقد ظل التفرق مسترسلا فى طوائفهم ، حتى رأيناهم بعد : لا يرضون إلا باحتكارهم الدين وتسميته باسم طائفتهم وما هو إلا دين واحد سماه الله بتسمية من عنده « إن الدين عند الله الإسلام » .

ونحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام كان - بعد رسل سبقوه - الدوحة التى تفرعت منها النبوات ، حيث جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب كله ، ولم يكن لإبراهيم كتاب ، وكانت رسالته للدعوة إلى التوحيد ، ثم كانت تراثا للأنبياء والرسل من بعده ، حتى كانت التوراة فى عهد موسى وفى بنى إسرائيل .

ومن عهد التوراة وما يليها ، تزلزلت الوحدة الدينية ، ونجم فى بنى إسرائيل ربانيون وقراءون ، وغيرهما وتعرضت التوراة لشىء يقال فيه ما يقال ، ثم جاء زمن عيسى عليه السلام فكانت دعـــوته مثار الانقسام والتفرق من جديد كما يفاد من الآيات السابقة ونحوها فى غير إسهاب من جانبنا ، فإن ذلك مجال فسيح .

ونحن نعلم أن العرب وأهل الكتاب جميعا يدينون لإبراهيم ، ويصدقون برسالته ، وأنهم يتسابقون فى الانتساب إليه ، فإذا كان فى الانتساب إليه فخار واعتزاز — وهو بحق فخار واعتزاز - فقد كان إبراهيم على دين هو - عند الله - الإسلام وليس الإسلام باسم جديد خاص بشريعة محمد صلوات الله عليه وإنما هو الدين السماوى الذى بعث به إبراهيم والأنبياء جميعاً ، إلى خاتمهم محمد بن عبد الله رغم المخالفين - وإبراهيم لم يحمل لدينه عنوانا غير الإسلام ، فلم يكن مبتدعا لاسم طائفى من الأسماء التى اخترعت بعد .

ولكن تعاقب الأزمان ، أفسح للأباطيل أن تمتد إلى دين إبراهيم ، فجثمت عليه فى بلاد العرب . جاهلية وجثمت عليه فى غير بلاد العرب عصبيات ومن خلال هذه الفجوات التى أحدثتها الجهالة والعصبيات تسربت إلى دين إبراهيم تحريفات أو تسميات ، وشقاق ، ومنازعات ، ولم تعد للوحدة الدينية صبغتها . ولا وقفت المنازعات عند حدودها ، بل كانت وثنية ، وطائفية ولم تكن حقا إلا عند من عصمهم الله ، وكان الأولى - لو أراد الله ، ولم يغلب على الجماعات

تيار العصبية — أن يراعى الناس وحدتهم فى الدين كما كان إبراهيم ، وهم يحرصون على الانتساب إليه ! ! ؟.

وفى هذا يقول القرآن : « ما كان إبراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفاً مسلما ، وما كان من المشركين » : ـ ويقول ـ إن أولى الناس بإبراهيم : للذين اتبعوه ، وهذا النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) والذين آمنوا » .

وهذا تسجيل سماوى فيمن انحاز عن دعوة إبراهيم التى رددتها الكتب السماوية الحقة ، والتى نهض بها الرسل من العرب ـ إسماعيل ومحمد ـ ومن بنى إسرائيل .

فلا يكون من ابتلى بهذا الانحياز متحريا للحق فى الدين كما كانوا يتحرون فى الانتساب والأصالة فيه . ! ! .

ظلت هذه التشقيقات فى الجماعات المتعددة من أتباع الكتب السماوية ، حتى دبت فى ثناياها جميعاً تشقيقات فرعية ، فصارت الطائفة الواحدة متمذهبة بمذاهب متعددة ، يخالف بعضها البعض ، حتى فى أصل العقيدة : لا فى الشريعة العملية فحسب .

لا نتهم تلك الطوائف كذبا ، فلكل طائفة منها أربابها ، وآباؤها ، ومعابدها ومذاهبها وتقاليدها ، ولا يتأتى أن يكون كل ذلك أمرا واحدا ، كما هو الشأن فى الدين الذى جاء من عند الله ، وكان عليه إبراهيم والأنبياء .

ولا نلجأ فى الاستدلال على هذا كله إلى القرآن ، وفى القرآن غنية وفيرة بالأدلة ، حتى لا يقال : إنك تستدل على قوم بغير ما يؤمنون به .

ولكننا نتحدث إلى القراء من ناحية القرآن قليلا ، ومن ناحية العقل والواقع كثيراً ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر.

ولا نخص تلك الطوائف وحدها بتهمة التشقيق أو الابتداع ، أو المساس بتشريع الله ! ! .

فقد أصاب الإسلام شىء كثير من ذلك ، منذ فجره الأول ، إلى ساعتنا هذه .

فما كاد ينبثق نور الإسلام . حتى تربصت له عصابات حانقة عليه من الفرس ، أو اليهود ، أو العرب أنفسهم .

وكان التظاهر بالإسلام سبيل التمكن من بث الدسائس ، وتمزيق الوحدة ، وحشر الأباطيل بين الحق ، حتى انتهى ذلك إلى الانقسام ، والتقاتل ، والخوض فى الدماء الزكية ثم نجمت عن هذا التطاحن اتجاهات مختلفة ، وتكاذب فى فهم الدين ، ومزاعم جريئة ، ومذاهب باطلة .

وليس منها ـ طبعاً ـ مذاهب الأئمة ، فإنها

لا تعدو الاجتهاد فى تطبيق النصوص الصحيحة ، وتحرى المعنى المراد .

والاجتهاد أمر سائغ ما دام بعيداً عن جانب العقيدة ، والابتداع فى الدين .

وما زال الأمر بعد ذلك على إنكار التفرق ، وابتداع النحل ، والتدخل فى التشريع الدينى بتوجيهات غير مستقيمة فى ميزان العقل ، ولا سائرة على هدى البحث العلمى المتزن ، كمذهب البهائية ، وما يشابهه .

وكان الظن أن يكون للثقافة المدنية شىء من تقويم الأفكار ، ومؤازرة الدين فى تهذيبه للأنفس الجامحة ، وإيضاح الصواب للعقول الضالة ، فإن العلم كله : دينياً أو مدنيا أوشاج بين أهله ، ورحم متصلة ، واتجاهات تتلاقى على الحق ، إذا خلصت النيات ، وبحث العلم للعلم ! ! .

ولكن الثقافة المدنية : هى الأخرى ـ أصابها ما أصابها ، فأصبحت فى كثير من أنواعها بوقا مزعجا لنشر الإباحية ، ومعرضا لأنواع الضلالات ، ووسيلة إلى المغالطة فى بدائه المعلومات الدينية .

وإلى جانب هذه الثقافة الموبوءة نفوس مريضة ، تتحين الفرص ، وتتلمس المعذرة للمروق من الدين .

ومن كان يظن أن رجال الصف الأول فى المثقفين ثقافة مدنية يتطفلون على البحوث الإسلامية : لا ليفهموها ، ولكن ليثيروا فيها الشكوك ، ويهدموا قداستها عند الناس ، ويصرفوا المطمئنين إلى دين الله عن التجمع حول دين الله إلى مباذل الشيطان ومساقط الفجور ! .

فهذا إنسان يقلد الشيوعية فى إنكار الإله ، وفى الوقت نفسه يتظاهر ويقر معنا بخطر الشيوعية .

وذاك إنسان يجاهر بالدعوة إلى الأخذ بنظام الزواج المدنى ، وينكر الدين فى هذا ، وينكر القرآن ! ! .

وثالث يتساءل : هل صحيح أن الرجال قوامون على النساء ؟ ؟ والقصد من هذا هدم قاعدة القرآن ! ! .

ذلك كله ، وما يشاكله تفرق فى الدين ، ومفارقة له ، والقائمون به ينتسبون إلى الثقافة ، فهل من ثمرات الثقافة ومما تهدى إليه الثقافة ألا يكون دين ؟ ؟ .

وإذن : تكون ثقافتهم هذه مرادفة للجاهلية الأولى فيما تنزع إليه ، وإن اختلف اللون بينهما بالطلاء والتمويه الجديد .

وإن المتهافتين على زعزعة العقيدة عند الناس ، أو تفريقهم فى المحيط الدينى إلى مذاهب متناكرة ، والحيدة بهم عن التسليم لله لا يقف شرهم عند هذا التفريق فى التدين بل

يمتد ، ويمتد حتما إلى المبادئ الوطنية ، وإلى تمزيق الوحدة الاجتماعية .

فإن الدين أول ما يكفل تربية الضمير ، ويغرس الخشية من الله فى قلوب الناس ، ويذكرهم بأن القعود عن واجب الوطن خيانة عظمى للجماعة المتواطنة ، وتمكين للأعداء من كبت الدين وأهله ، والتحكم فيهم بما يكرهون حتى لا يبقى للدين دولة ، ولا يبقى لدولة الدين كيانا ، ولا مهابة .

وقصارى الحديث : أن الدين أوثق رباط شرع من جانب الله لجمع الصفوف ، وحراسة الوطن .

والماضى الذى لا ينبغى تجاهله يذكرنا دائما بما بلغ المسلمون أولا من بأس وسلطان ، وبما أصابهم بعد ، بسبب التفرق ، واشتغالهم بالحزبيات ، ووقوف بعضهم فى وجه البعض

فالناعقون اليوم بأصوات الغربان حول الدين ، وتعاليمه يجنون على الوطن من حيث يقصدون ، أو لا يقصدون . وهؤلاء بحاجة إلى التنكر لهم ، والأخذ على أيديهم .

وإنهم لا يؤتمنون على مبدأ ، بعد أن هان عليهم الدين . . . وتبت أيديهم . . . ولعنوا بما قالوا . والله من ورائهم محيط . ؟

عبد اللطيف السبكى

عضو جماعة كبار العلماء

وأستاذ فى كلية الشريعة

مجلة الأزهر

فى حديث مستفيض لصاحب الفضيلة مدير الشئون العامة بالأزهر عن ثورة الأزهر الإصلاحية تكلم عن مجلة الأزهر فقال : مجلة الأزهر واضح الآن نهضتها ونشاطها ، ونعرف كيف جمعت لها كبار الشخصيات التى يحترمها العالم الإسلامى ، ويحرص على القراءة لها ، مما أدى إلى الإقبال عليها ، كما لم تعد المجلة قاصرة على قراء العربية ، وإنما أصبحت مجلة عالمية بنشرها البحوث القيمة باللغة الانجليزية .

مُثُل عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمّد يوسف موسى

نحن — معشر العرب والمسلمين — نعيش هذه الأيام فى إبان نهضة كاملة شاملة لكل نواحى الحياة وشئونها ، وذلك بعد أن أحسسنا حقا بأننا خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعمل لتحيا حياة العز والكرامة والمجد ؛ وبعد أن آمنا حقا بديننا الذى رضيه الله لنا وللناس كافة ، لا فرق بين جنس وجنس ، إلى آخر الزمان .

وكان من هذا وذاك ، أن آمنا بقوميتنا إيمانا تتحول الأرض عن مدارها ولا يتحول ، وعزمنا أن نسير سيرة أسلافنا الأمجاد من أبناء العروبة والإسلام عزما تتزايل الجبال الرواسى ولا يتزلزل ؛ وذلك فجر البعث ، وبداية النصر الذى يؤتيه الله المؤمنين الذين يعتقدون ويعملون وفق ما يعتقدون .

لقد نشأ العرب على صفات وأخلاق طبيعية أصيلة فيهم ، وهى أخلاق وخلال تؤهلهم حقا للمجد والشرف : من الشجاعة والنجدة ، والوفاء ورعاية الحقوق ، والكرم والإيثار والغيرة والشهامة ، ونحوهذا وذاك كله مما سجله التاريخ الأمين لهم .

وجاء الدين الحق فجعل من العرب أمة واحدة قوية خالدة ، وضمن لها البقاء على الزمان ، وأزال بها قوى الظلم والطغيان والاستعباد ، هذه القوى التى كانت ممثلة فى دولة الفرس من ناحية ودولة الرومان من ناحية أخرى ، وأنبتت من العرب قادة وهداة ومصلحين لا تزال البشرية تطلع دون أن تصل إلى بعض ما كانوا عليه .

لذلك نرى أنه مما يثبت إيماننا بديننا وقوميتنا ، وبماضينا المجيد الذى ينبغى أن يكون التمثل به أساس حاضرنا ومستقبلنا الزاهر السعيد ، أن نتذكر بعض ما ضربه لنا أولئك القادة والهداة من مثل رائعة لاتزال خالدة على الزمان ، فلعل فى هذا ذكرى لقوم يعلمون ويؤمنون .

صدق الإيمان وقوة اليقين :

إن المؤمن الصادق يوقن تماما بما يؤمن به حين يشتد الأمر ، ويتسلط الشك على قلوب كثير من الناس الذين حوله ، وكان سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه على رأس من ضربوا لنا فى ذلك أروع الأمثال ، وذلك بعد الرسول صلى الله عليه وسلم طبعا ؛ فإن

حياته وسيرته الشريفة كانت كلها مثلا رائعة منقطعة النظير من أى النواحى نظرت إليها .

لقد أسرى بالنبى الصادق الأمين من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالشام كما جاء به القرآن العظيم ، فاستنكر المشركون ذلك وكذبوه ، وارتد بعض من لم يكن الإيمان قد استقر فى قلبه واطمأن إليه وأيقن به ، وذهب الناس - كما يذكر ابن هشام - إلى أبى بكر يقولون له :

هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة ! فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، ها هو ذا فى المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر : لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ، فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه ! .

ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبى الله : أحدثت هؤلاء القوم بأنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم ، قال : يا نبى الله فصفه لى . فإنى قد جئته . فأخذ الرسول يصفه له ، وهو يقول له كلما وصف له شيئاً منه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، حتى انتهى . وحينئذ قال له الرسول الصادق الأمين : وأنت يا أبا بكر الصديق ، فيومئذ سماه « الصديق » .

ومثل رابع آخر لقوة يقين أبى بكر رضى الله عنه ، وإيمانه حق الإيمان بكل ما يكون منه صلى الله عليه وسلم . ذلك أن المسلمين رأوا فى شروط صلح « الحديبية » إجحافا شديداً ، وبخاصة أنهم كانوا لا يشكون فى فتح مكة فى هذه السنة لرؤيا رآها الرسول صلى الله عليه وسلم .

فلما جرى الصلح بين المسلمين والمشركين ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب وقال لأبى بكر : أليس برسول الله ؟ قال : بلى قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر ! الزم غرزه ، فإنى أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى عمر الرسول وسأله مثل ما سأل الصديق ، ولما قال له : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال له : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى . فكان عمر بعد هذا يقول : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق عن الذى صنعت يومئذ ، مخافة لكلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا .

٢ — الثبات على العزم :

ومن صفات المؤمن الزعيم والقائد الأمين، أنه إذا عزم على ما يراه حقاً لم يرجع عن عزمه ، ومضى لما أراد متوكلا على الله الذى ينصر عباده المؤمنين به ، مصداقا لقوله تعالى: « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

فقد ارتد كثير من الأعراب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من هؤلاء جماعة لم يخالط الإيمان قلوبهم حقا ، ومنهم من منعوا الزكاة أنفة منهم ، وكان رأى سيدنا عمر موادعة هؤلاء الآخرين والاستعانة بهم على قتال الأولين .

ولكن الصديق رأى غير هذا وعزم على قتال الفريقين ، وقال فى ذلك قولته المشهورة : والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لجاهدتهم عليه ، وكانت عقل الصدقة على أهلها مع الصدقة نفسها كما يقول الطبرى فى تاريخه .

وكان بين الصاحبين العظيمين فى هذا محاورة يعرفها التاريخ وانتهى الأمر باقتناع الفاروق بما رأى الصديق ، وبانتصار الإسلام والمسلمين على المرتدين جميعا ، وذلك بفضل ثبات أبى بكر على ما عزم عليه واستنصاره بالله على الذين أرادوا أن يخالفوا عن أمر الله ورسوله .

ومثل رائع آخر فى هذه الناحية . فقد كان النبى قبل وفاته قد جهز جيشا لغزو الروم بالشام ومن والاهم ، وأمر عليه أسامة بن زيد وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره . فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى والجيش لم يفارق المدينة ، قال الناس لأبى بكر :

إن هؤلاء جل المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين .

فما كان من أبى بكر إلا أن قال : والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته ! .

هكذا يصمم خليفة رسول الله على ما عزم عليه ، إذ كان فى إنفاذه تحقيق لما أمر به الرسول نفسه ، وذلك على أن الأمر كان شديدا ، وعلى أن الموقف كان رهيبا يوجب حقا النظر فيه وفى عواقبه المحتملة ، حتى إن أسامة كان الذى أرسل إلى الخليفة يستأذنه ـ بعد أن قبض الرسول ـ فى أن يرجع بالناس مخافة أن يتخطف المشركون المسلمين . ثم زاد الأمر حرجا حين رأى الأنصار أن يكون الأمير رجلا أسن من أسامة إن كان لا بد من إنفاذ بعثه .

فخرج عمر ـ وكان فى الجيش ـ بأمر أسامة

وأبلغ أبا بكر رسالاته والإذن له بالرجوع بجيشه ، فقال أبو بكر : لو تخطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أبلغه بعد ذلك رسالة الأنصار بأن يولى على الجيش رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالسا فأخذ بلحية عمر وقال له : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه !.

وكان أن انتهى الأمر بإنفاذ البعث ، فذهب وعاد سالما منتصرا غانما ، وكان هذا توفيقا من الله لخليفة رسوله ، كما كان فاتحة خير للمسلمين . فإنه لو عدل الخليفة الأول عن إنفاذ ما أمر به الرسول قبل وفاته ، لكان ذلك سابقة خطيرة لها عواقبها الوبيلة ، وكان فاتحة لآخرين يجرءون على مخالفة بعض ما أمر به الرسول من غير نكير عليهم من أحد .

٣ — الإحساس بالمسئولية :

وتسيير الأمور على ما ينبغي بالنسبة للأمة والدولة إذ أحس كل من أبنائها بما عليه من مسئولية ، وبخاصة الوالى الأكبر ، وفى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى هذه الناحية مثلا رائعة لا نجد فى تاريخ غير الإسلام والمسلمين لها مثيلا أو مقاربا .

يذكر ابن سعد فى طبقاته أن أول خطبة كانت لعمر بعد استخلافه أن قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد : فقد ابتليت بكم وابتليتم بى ، وخلفت فيكم بعد صاحبي ؛ فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ، ومهما غاب عنا وليناه أهل القوة والأمانة . فمن يحسن نزده حسناً ، ومن يسئ نعاقبه ويغفر الله لنا ولكم .

كما يذكر الطبرى أنه خطب الناس فقال : والذى بعث محمداً بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات ، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب ؛ يعنى بذلك نفسه .

ويروون أنه من فرط مراقبته نفسه ، وإحساسه بما عليه من تبعات جسام ، وخوفه من الله تجاه ما وليه من أمر المسلمين سمع يقول لنفسه وهو فى جوف حائط ، (أى بستان) ! عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ بخ ! والله ، بُنَىّ الخطاب ، لتتقين الله ، أو ليعذبنك !.

كما روى الزهرى ، عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، أن عمر كان إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال : لا أعلمن أحدا وقع فى شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة .

وكان مع رقابته الشديدة لولاته وعماله، وأمرهم بالإحسان إلى من تحت أيديهم ورعاية شئونهم، يحس تمام الإحساس أنه مسئول عما يعمله أولئك الولاة والعمال، ولذلك يروى ابن سعد أنه قال: أيما عامل لى ظلم أحدا، فبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته !.
كما كان يقول: إنى لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه.

وحرم على نفســـه اللحم والسمن عام « الرمادة » الذى لقى منه الناس بلاء شديدا، فكان إذا أمسى أتى بخبز قد ثرد بالزيت، إلى أن نحروا يوما جزورا فأطعمها الناس وأبى أن يذوق شيئا منها، وأمر غلامه يرفأ أن يأتيه بما تعوده من الخبز والزيت، وأخذ يكسر الخبز بيده ويجعله فى الزيت، ثم قال: ويحك يا يرفأ ! احمل هـذه الجفنة حتى تأتى بها أهل بيت بثمغ فإنى لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم.

وبعد: تلك بعض المثـل العليا، وهى لا تحصى فى تاريخ العرب والإسلام، المثل التى ينبغى أن نقاربها، وفى الكلمة الآتية نأتى ببعض آخر منها والله ولى التوفيق ؟

الدكتور
محمد يوسف موسى

من هنا اتفقا . . . !

رأى مالك بن دينار يوما حمامة مع غراب، فعجب من اتفاقهما وليسا من شكل واحد. فلما مشيا إذاهما أعرجان فقال: من هنا اتفقا !.

اللجام لى . . . !

قال أبو عبيدة: أجريت الخيل، فطلع منها فرس سابق، فجعل رجل من النظارة يكبر ويثب من الفرح. فقال له رجل إلى جانبه: يا فتى، هذا الفرس فرسك ؟.

قال: لا، ولكن اللجام لى . . . !

قصص الأنبياء

بين القرآن الكريم وأسفار العهدين الجديد والقديم

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

ذكرنا فى مقال سابق أن أسفار العهدين القديم والجديد ليست هى الكتب السماوية التى يذكر لنا القرآن أن الله أنزلها على من أرسله من الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام [1] . وإنما هى أسفار من صنع اليهود والنصارى ، وقد أشار القرآن الكريم فى أكثر من موضع إلى أنهم فى أسفارهم هذه قد حرفوا ما أنزل عليهم وبدلوه ، وزادوا عليه ، ونسوا حظا منه ، وأخفوا بعضه ، وحذفوا ما شاءت لهم أهواؤهم أن يحذفوه . ولم تقتصر أعمالهم هذه على العقائد والشرائع والعبادات ، بل تناولت كذلك القصص على العموم ، وقصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بوجه خاص .

هذا ، وبالموازنة بين ما ورد فى أسفارهم من قصص الأنبياء والمرسلين ، وما ورد من هذه القصص فى القرآن الكريم ، يتبين أن ما ورد منها فى أسفارهم ينقسم خمسة أقسام : قسم لم يعرض له القرآن ، ويتضمن وقائع تتعارض مع المعقول أو مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء ، أو مع طبيعة النظام الاجتماعى العام ؛ وقسم لم يعرض له القرآن ولكنه لا يتضمن وقائع تتعارض مع أمر من هذه الأمور ؛ وقسم عرض له القرآن فى صورة تختلف عن الصورة التى وردت فى هذه الأسفار ، ونص القرآن صراحة على ما ورد فى روايتها له من تحريف ، وقسم عرض له القرآن فى صورة تختلف كذلك عن صورته فى هذه الأسفار بدون أن يشير القرآن إلى روايتها له ، وقسم لا تكاد تختلف روايتها له عن رواية القرآن [1] .

وسنضرب فيما يلى مثالا لكل قسم من هذه الأقسام ، مبينين ما يجب على المسلم اعتقاده بشأنه :

١ — فمن أمثلة القسم الأول ، وهو الذى لم يعرض له القرآن وينطوى على وقائع تتعارض مع المعقول أو مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء أو مع طبيعة النظام الاجتماعى

---

(١) انظر عدد شوال ١٣٧٨ .

(١) نقول « لا تكاد » لأننا لا نكاد نعثر على قصة من قصص الأنبياء والمرسلين تتفق رواية هذه الأسفار لها كل الاتفاق مع ما ورد بشأنها فى القرآن الكريم .

العام ، ما ورد فى العهد القديم عن قصة لوط من أن بنتيه قد تآمرتا عليه فأسكرناه وتمكنتا بذلك من إغرائه وهو فى نشوة الخمر بالاتصال بهما ، وأنهما كانتا تقصدان بذلك ألا تنقطع ذريته بعد أن أهلك الله امرأته وأهل قريته جميعا ، وأنه قد تم لهما ما أرادتاه ، فحملت كلتاهما من أبيها ، وولدت كبراهما ابنا سمته مؤاب وكان من نسله المؤابيون Moabites وولدت الصغرى ابنا سمته ابن عمون وكان من نسله العمونيون Ammonites [(١)] .

وغنى عن البيان أن هذا القسم من القصص يجب على المسلم اعتقاد بطلانه واختلاقه ؛ بل إن العقل نفسه وطبائع العمران الإنسانى ومناهج النظم الاجتماعية لتحكم بزيف كثير من أمثلته [(٢)] .

٢ — ومن أمثلة القسم الثانى ، وهو الذى لم يعرض له القرآن ولكنه لا يتضمن وقائع تتعارض مع المعقول أو مع طبيعة النظام الاجتماعى العام أو مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء ، وما ورد فى العهد القديم بصدد إسماعيل ونسبته إلى سارة فى مبدأ أمره . فقد ورد فى العهد القديم ما يفيد أنه قد جرت العادة عند قدامى العبريين حينما لا ترزق الزوجة الشرعية ابنا أن تتنازل لجارية زوجها أو لجاريتها عن فراشها ابتغاء أن يأتى منها زوجها بابن يخلد ذكرى الأسرة ، وأن من كانت تأتى به الجارية من ثمرات هذا الفراش كان يعد ولدا للزوجة الشرعية لا للجارية التى ولدته ، فكانت الزوجة هى أمه فى نظر القانون على حين أن الجارية كانت تعتبر مجرد أداة استخدمت للإتيان به ، وأن هذا النظام قد طبق على إسماعيل الذى جاء به إبراهيم من جاريته هاجر قبل أن ترزق زوجه الأصيلة سارة بابنها إسحق وطبق على دان ونفتالى اللذين جاء بهما يعقوب من جاريته بيلها قبل أن ترزق زوجه الأصيلة راشيل بيوسف وبنيامين [(١)] .

وفيما يلى نص ما ورد فى « سفر التكوين » بصدد إسماعيل عليه السلام : « لم تنجب سارة زوجة إبراهيم أولاداً له . وكانت لها جارية مصرية تدعى هاجر . فقالت سارة لإبراهيم لقد جعلنى الله عاقراً ، فأرجوك أن تقرب

---

(١) فقرات ٣٠ — ٣٩ إصحاح ١٩ ، سفر التكوين

(٢) نقول « كثير من أمثلته » ؛ لأن بعضها لا يتعارض مع العقل ولا مع طبائع العمران الإنسانى ولكنه يتعارض مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء . وهذا يجب على المسلم اعتقاد بطلانه لتعارضه مع ما يقرره الإسلام من صفات الأنبياء والمرسلين .

(١) سفر التكوين إصحاح ١٦ ، وفقرات ١ — ١٤ من إصحاح ٣٠ .

جاريتى ، فعسى أن يكون لى أولاد عن طريقها » (١) .

فالقرآن الكريم لم يعرض لموضوع نسبة إسماعيل لسارة أو عدم نسبته إليها . وكل ما ورد من قصص إسماعيل عليه السلام فى القرآن ، يتعلق بإسكان أبيه له مع أمه بواد غير ذى زرع (آية ٣٧ من سورة إبراهيم) واشتراكه مع أبيه فى بناء الكعبة (آية ١٢٧ من سورة البقرة) وعزم أبيه على ذبحه تصديقا لرؤياه وفدائه بذبح عظيم (آيات ١٠٢ - ١١١ من سورة الصافات) .

غير أن ما جاء فى العهد القديم بصدد نسبة إسماعيل إلى سارة لا يتعارض مع المعقول ولا مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء ولا مع طبيعة النظام الاجتماعى العام . فمن بحوث علم الاجتماع يتبين لنا أن القرابة فى المجتمعات الإنسانية تعتمد أولا وبالذات على مصطلحات يرتضيها العقل الجمعى وقواعد تختارها الشعوب ، وأن هذه المصطلحات والقواعد قد تتعارض مع الوشائج الطبيعية وصلات الدم . وقد بسطنا هذه الحقيقة فى كتابنا « الأسرة والمجتمع » ، وذكرنا لها شواهد كثيرة من نظم الأسرة فى مختلف الشرائع وشتى الشعوب .

(١) فقرتى ١، ٢ إصحاح ١٦ من سفر التكوين .

فهذا القسم من القصص لا يمكن القطع باختلاقه ولا ترجيح اختلاقه ما لم يقم دليل على ذلك ولا بأس بقبوله ، وخاصة إذا كان ثمة أدلة أخرى تعضده كما هو الشأن فيما يتعلق بنسبة إسماعيل إلى سارة قبل أن ترزق بولدها إسحق . فمن البحوث التاريخية يتبين لنا أن نسبة ولد الجارية إلى السيدة فى حالة تنازل هذه لتلك عن فراشها كان نظاما سائدا عند قدامى العبريين .

٣ — ومن أمثلة القسم الثالث ، وهو الذى رواه القرآن فى صورة تختلف عن الصورة التى روى بها فى أسفار العهد القديم أو الجديد ونص القرآن صراحة على كذب روايتها له ، ما ورد فى أسفار العهد الجديد بصدد صلب المسيح عليه السلام . فقد أجمعت أناجيل النصارى الأربعة على هذا الصلب وبينت طريقة تنفيذه (١) . ولكن القرآن الكريم كذّب روايتهم هذه إذ يقول : « . . . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه

(١) متى ، إصحاح ٢٧ ، فقرات ٣٢ — ٥٦ — مرقس ، إصحاح ١٥ ، فقرات ٢١ — ٤١ — لوقا ، إصحاح ٢٣ ، فقرات ٢٦ — ٤٩ — يوحنا ، إصحاح ١٩ ، فقرات ١٧ — ٤٢ .

يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما »[١] .

٤ — ومن أمثلة القسم الرابع ، وهو الذى رواه القرآن فى صورة تختلف عن الصورة التى روى بها فى أسفار العهد القديم أو الجديد بدون أن يشير إلى روايتها له ، ما ورد فى العهد القديم خاصا بمسلك داود مع أوريا الحثى . فقد جاء فى الإصحاحين الحادى عشر والثانى عشر من السفر الثانى من سفرى صموئيل: أن داود أرسل إلى قائد جيشه يؤاب Joab أن يضع أوريا الحثى Urie le Héthien فى أخطر منطقة فى جبهة القتال وأن يتخلى عنه حتى يقتل . وكان هدف داود من ذلك أن يحصل على زوجة أوريا الجميلة التى شغف بها حباً إذ وقع بصره عليها وهى تستحم بينما كان هو يمشى على سطح قصره الملكى المطل على بيتها . وقد أنفذ قائد الجيش ما أمر به ، وهلك أوريا فى الميدان ، وبنى داود على زوجه ، على الرغم من أنه كانت له زوجات وجوار كثيرات . فأرسل الله إليه ناثان Nathan وقص عليه قصة رجلين يملك أحدهما قطعانا كبيرة العدد من الأبقار والنعاج بينما لا يملك الآخر إلا نعجة واحدة . وفى يوم قدم ضيف على الغنى فمد يده إلى نعجة الفقير واغتصبها منه وذبحها لضيفه . فغضب داود من فعلة هذا الغنى ، وقال لناثان إن هذا الرجل يستحق الموت . فقال له ناثان : إنك أنت نفسك هذا الرجل ؛ وأخذ يؤنبه ويتوعده بما سيحيق به وبأهله من عذاب ونكال . فاعترف داود بذنبه واستغفر ربه وتاب إليه فغفر له . إلى آخر ما ورد فى هذا السفر .

وقد أورد القرآن قصة احتكام الخصمين إلى داود فى صورة تختلف كل الاختلاف عن هذه الصورة ، وذلك إذ يقول : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم،قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ؛ وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ؛ وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك ؛ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »[١] .

وهذا القسم من القصص يجب على المسلم رفض ما جاء منه فى أسفار اليهود والنصارى

(١) آيتى ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .

(١) آيات ٢١ — ٢٥ من سورة ص .

واعتقاد بطلانه واختلاقه لتعارضه مع رواية القرآن له . هذا إلى أن بعضه تتعارض وقائعه كذلك مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء ، كما هو الشأن فى القصة التى ضربناها مثالا لهذا القسم وهى قصة داود مع أوريا الحثى . ولذلك كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » . أى ضعف حد القذف العادى ؛ لأنه قذف لنبى . وقد زل بعض المفسرين زللا كبيرا إذ حاول تفسير هذه القصة فى القرآن على نحو يتفق مع رواياتها فى الإسرائيليات ، فتعسف كل التعسف فى تأويل الآيات ، وحمل عباراتها العربية الواضحة ما لا تحتمله من مدلول .

٥ — ومن أمثلة القسم الأخير ، وهو الذى لا تكاد تختلف رواية أسفار اليهود أو النصارى له عن رواية القرآن ، ما جاء فى أسفار العهد الجديد خاصا بيوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا عليهما السلام [١] . فقد ذكرت أناجيل النصارى أن الله قد أرسل الملك إلى زكريا ليبشره بأن الله قد استجاب دعاءه ، وأن امرأته أليصابات ستلد له غلاما اسمه يوحنا (يحيى) ، وأن هذا الاسم لم يسم به أحد من قبل فى أسرته ، وأنه سيكون مصدر سرور وسعادة له وللشعب ، وسيكون تقيا زكيا مطهرا من الرجس ، فلا يشرب النبيذ ولا أى شراب مسكر . وسيعيد كثيراً من الضالين من بنى إسرائيل إلى الصراط المستقيم . فقال زكريا للملك كيف يكون لى غلام وامرأتى عاقر وعجوز وقد تقدمت بى السن ؟ ! وما آيتك على ذلك ؟ فقال له الملك أنا جبريل أرسلنى الله لأبشرك بهذه البشرى ، وهذا الأمر هيّن على الله ، وإن آيتك أنك ستصاب بالبكم ، فلن تكلم الناس حتى يتم هذا الأمر ... فخرج زكريا على قومه من محرابه وهو لا يقوى على الكلام ، وأخذ يرمز إليهم بالإشارة ... وفى الشهر السادس من حمل أليصابات بيوحنا أرسل الله جبريل إلى عذراء من أقربائها اسمها مريم ليبشرها كذلك بغلام زكى هو المسيح عيسى بن مريم ... وأن مريم قد ذهبت إلى بيت قريبتها فكفلها زكريا ... ومكثت فى بيته نحو ثلاثة أشهر ثم رجعت إلى بيتها ... ولما بلغ يوحنا أشده أوحى الله إليه وهو فى الصحراء أن يجوب جميع البلاد الواقعة فى نواحى الأردن لينذر الناس ويرشدهم إلى الطريق القويم ، ويحثهم على التوبة من خطاياهم والرجوع إلى الله ويعمدهم بغسلهم فى مياه النهر (ومن ثم سمى المعمدان Jean Baptiste) ؛ وقد عمد المسيح

« البقية على صفحة ٥٦٠ »

(١) انظر تحقيقا لغويا لاسم يوحنا ويحيى فى عدد ربيع الأول ١٣٧٩ ص ٣٧٤ .

النحو الجديد

للأستاذ على العمارى

— ٢ —

يجب عند النظر فى العلوم التى دونها القدماء ومحاولة تبين ما فيها من صحة أو خطأ أن نفرق بين أمور : —

المصطلحات التى يحاول بها العلماء أن يوضحوا مسائل العلم مما تقتضيه الصناعة ، والأصول التى يضعونها بناء على الاستقراء والتتبع ، ثم التطبيق على هذه الأصول ، فمثلا عند ما ينظر علماء البيان فى التشبيه فيجعلون منه تشبيها خياليا وتشبيها وهمياً إنما يضعون أسماء من عندهم ـ لها مناسباتها فى نظرهم ـ ليميزوا بين الأقسام ونستطيع أن نقول : إن هذه الكلمات من أوضاعهم ، ولا دخل للاستقراء فيها ، ولكن عندما يقولون : إن الكلمة عند الاستعمال إما أن يراد بها تمام معناها الذى وضعت له ، وإما جزء هذا المعنى ، وإما لازمه ، إنما يستندون إلى تتبع كلام العرب ، ومعرفة طرق استعمالاتهم وبعد ذلك تأتى مرحلة التطبيق على مثل هذا الأصل .

والأمر كذلك فى النحو : فالنحويون ينظرون فى نوع من الأسماء ورد عن العرب بصور مختلفة ، ويريدون أن يخرجوه حسب مصطلحاتهم ، فيقول فريق مثلا فى (هذا أبوك) : أبوك مرفوع وعلامة رفعه الواو ، ويقول آخرون : بل الضمة الممدودة ، ويقول فريق ثالث : بل الضمة والواو معا ، وهم بذلك يضعون تخريجات من عند أنفسهم ، ولكن عندما يقولون : إذا اجتمع شرط وقسم وجب حذف جواب المتأخر منهما ، إنما يضعون أصلا من الأصول التى يستندون فى وضعها على استقراء كلام العرب ، والشواهد بعد ذلك هى التطبيق .

وهناك أصول عامة كتأصيلهم للمطرد والشاذ ، والراجح والمرجوح ، والقوى

والضعيف . فاذا أردنا أن نعقب على معارفهم كان سبيلنا فى الأمر الأول أن نعارض تخريجاتهم بتخريجات أخرى نراها ، ونستطيع أن نقول حينئذ أن هذا من كلام النحويين أنفسهم ، ولكن عندما نتعرض للأمر الثانى لا ينبغى أن نقف عند قولنا (هذا من مقررات النحويين) بل يجب أن نخطو خطوة أخرى ، فنناقش الأسس التى بنوا عليها هذا الأصل أو ذاك ، فإذا كنا أكثر إنصافا ، وجب إلينا أن نقترب من الحق نظرنا فى الكلام العربى الذى نظروا فيه وأخذوا منه ، فإذا تبين لنا صدق استقرائهم وقفنا عند ما وقفوا . وإذا بان لنا أن استقراءهم ناقص أتممنا فى غير جلبة ولا تبجح مافاتهم ، ولعل من حقى أن أبادر هنا فأقول : إن كل الذين نقدوا علماء النحو وعلماء البلاغة لم يستندوا فى نقدهم إلى إطالة النظر فى كلام العرب ، حتى يستخرجوا منه غير ما قال هؤلاء العلماء ، وإنما اكتفى المحدثون بالشواهد التى ذكرها النحويون والبيانيون ولم يتعدوها ؛ ثم راحوا يقولون : إنهم قصروا وخلطوا ، فمثلا بعض المعقبين على النحاة يقول إن النحاة خصوا اجتماع حرف النداء وأل بالضرورة ، والنحويون مخطئون . ثم لا يجيئون بشاهد واحد غير الشواهد التى ذكرها النحاة ، والتى تمسك بها الكوفيون فأجازوا هذا الأسلوب

ثم نعود إلى القصد فنقول : إن النحويين لم يقولوا هذا مطرد وهذا شاذ ، وهذا راجح وهذا مرجوح لمجرد مضغ الكلام ، وإنما بحثوا واستقروا ، فلو أردنا أن نحاسبهم لا يكفى أن نقول : إن هذا من مقرراتهم ، وإنما علينا أن نبحث الأساس الذى بنوا عليه هذا التفريق فسموا نوعا من الكلام مطرداً ونوعا شاذاً ، وسموا نوعا قليلا ونوعا كثيراً . . . وهكذا .

ولذلك عجبت من قول صاحب (النحو المنهجى) : « وإذا اختلف المتقدمون أخذنا من رأيهم بالأيسر غير ناظرين إلى مدرسة بذاتها أو إلى نحوى بعينه أو إلى راجح ومرجوح أو إلى قوى وضعيف أو إلى مشهور وغير مشهور أو إلى مطرد وشاذ ؛ لأن هذا كله ليس إلا من مقررات النحويين أنفسهم » .

فهل ظن أن مجرد قوله : إن هذا ليس إلا من مقررات النحويين يكفى فى طرح ماسموه شاذا أو ضعيفاً ؟ وهل يرى أنه كلام بعيد عن النظر العلمى الصحيح ؟ لو كان الأمر كذلك - وهو إنما يحتج لما يأخذ وينقد ما يدع - كان عليه أن يناقش الأصول التى بنوا عليها .

والمؤلف يعرف أن أكثر الشواذ فى نحو الكوفيين ، وهو - كما يقول - لا يتحرج من الأخذ بأى شىء منه إذا كان فيه التيسير الذى

ينشده ، ومع ذلك فقد ساق ما عاب به الأقدمون المذهب الكوفى ولم يدافع عنه بكلمة واحدة ، قال : « أما الكوفة فقد وقعت شمالى العراق فهى بعيدة عن البادية ، ولذلك قل نزوح الأعراب الذين صحت لهجاتهم وخلصت لغاتهم إليها ، وهؤلاء القليلون اختلطوا كثيراً بأهل السواد والنبط فتأثرت ألسنتهم ولم يستطيعوا أن يميزوا شعر الفحول ، فدس عليهم شعر كثير منحول » « ولأن الأعراب فيها قلة لانت عربيتهم ، وفسدت ألسنتهم فجاء نحوهم مترفا حضريا » « أما الكوفيون فإنهم احتفلوا بكل ما روى لهم من شعر ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء التأويل ، واستنبطوا القواعد من ظاهر الكلام ، وأباحوا تقليد كل ما روى عن العرب مهما تعددت القواعد ، وطعن فى الشعر الذى روى لهم بأنه غير موثوق برواية راويه ، وبأنه منحول ، فهم احتجوا بالشاهد غير المألوف وبالشاهد الواحد ، وبالشاهد المجهول قائله ، وقالوا كان الكسائى يسمع الشاذ الذى لا يجوز إلا فى الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه » .

ومعنى هذا الصنيع أن المؤلف يقول بصراحة تامة : إننا سنأخذ بالشاذ والضعيف ، والنادر والمرجوح ، مع إيماننا - ولا تنس ما قلته لك من أن هذا الكتاب كالمذكرة التفسيرية لكتاب تحرير النحو - بأن الذين قالوا ببعض هذا دس عليهم شعر كثير منحول ، وبأنهم أخذوا عن أعراب لانت عربيتهم وفسدت ألسنتهم ، فجاء نحوهم مترفا وبأن القائلين بهذه الشواذ كانوا يحتجون بالشاهد غير المألوف ، وبالشاهد الواحد ، وبالشاهد المجهول قائله .

ولو أن المؤلف أراد أن يخدم لغته ، ويسهل على المتعلمين الناشئين لقال : إننى سآخذ بالشاذ والضعيف والنادر إذا رأيت أن طريق ثبوته لا شبهة فى صحته ، وما كان ينبغى أن يبلغ حب التسهيل على المتعلمين أن نعطى لهم القاعدة ونحن نعلم أنها لم تبن على أصل صحيح أو على الأقل لم تؤيد بدليل مقبول عندنا ولا عند العلماء الغير على العربية من قبلنا .

ولا شك أن المؤلف يعرف أن الكوفة تأخرت عن البصرة فى النظر النحوى ، وأنها لذلك ارتكبت السهل والوعر لتنافس البصرة فجاء نحوها كما وصفه العلماء ، ولست أريد بذلك أن ألغى نحو الكوفة ، ولكنى أدعو إلى أن نقتنع أولا بصحة ما جاءنا من قواعد قبل أن نقدم على الأخذ به ، وبالتالى حمل المتعلمين عليه .

والسير فى هذا الاتجاه حمل أصحاب تحرير النحو على أمور أبعد ما تكون عن القبول ؛ فمثلا رأوا بعض النحاة يقول : بأن العلمية

كافية وحدها فى منع الصرف ، فقالوا : «لك فى كل علم أن تمنعه من الصرف اختيارا لا اضطرارا، دون نظر إلى ما ورد عليه أكثر الكلام وأفصحه ، فكيف يصنع التلميذ الذى درس هذه القاعدة حين ينظر فى القرآن الكريم ، فلا يجد فيه علما واحدا منع من الصرف إلا الأنواع الخاصة التى نوه بها علماء النحو ؟ وكيف يصنع إذا قرأ أكثر الجيد من الشعر والنثر فلم يجد أكثر الأعلام إلا مصروفة ؟ .

وحملهم على أن يخرجوا بعض آى القرآن على لغات ضعيفة ، فقد جعلوا قوله تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » من باب قاما الرجلان ، وهى اللغة التى يعبر عنها النحويون بلغة (أكلونى البراغيث) . وإن كان صاحب النحو المنهجى سماها لغة (يتعاقبون فيكم ملائكة) ثم ساق أصحاب تحرير النحو هذا الحديث شاهدا على هذه اللغة ، ومن عجب أن بعض العلماء حين يريدون أن يؤيدوا رأيا لا يبالون فى سبيل ذلك شيئا ، ولا يحبون أن ينتفعوا بتحقيقات العلماء قبلهم إذا كان هذا التحقيق لا يتفق مع وجهة نظرهم .

فهذا الحديث الذى جعلوه عنوانا على هذه اللغة ، قصته معروفة فقد ساقه ابن مالك دليلا على هذه اللغة ثم جاء العلماء من بعده فأثبتوا أن الحديث هكذا - كما ورد فى صحيح البخارى، وكما رواه البزار - : « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » . وهذه اللغة التى خرجوا عليها بعض آى القرآن ، وذكروها فى كتاب تحرير النحو ، يقول فيها صاحب النحو المنهجى : « لغة يتعاقبون فيكم ملائكة شائعة فى العامية المصرية ، ومع ذلك فنحن لا نحب أن يعلمها التلاميذ ، ويستعملوها فى كتاباتهم . وقد سقناها هنا لمجرد الاستشهاد وتعزيز الرأى ».

ومن ذلك قولهم : إن المسند إليه إذا كان جمع تكسير أو جمع مؤنث سالما لغير العقلاء جاز أن تراعى فيه المطابقة وأن يكون مفردا مؤنثاً فيقال : الرجال قوامون على أولادهم أو يقومون أو قوامة أو تقوم ، والنساء رحيمات أو يرحمن أو راحمة ، فيبيحون للتلميذ أن يقول : الرجال قائمة ، والنساء راحمة . وهذا - وإن كان ورد فى كتب النحو - ولكنه غير الأكثر على كل حال . ونحن - باعترافهم لا نريد أن نبلبل أذهان التلاميذ فى هذا الدور المبكر .

ولو أن تيسير النحو اتجه إلى الأخذ - دائما - بالمذهب الراجح لكان فى ذلك غناء أى غناء ، ولتخرج التلميذ من المرحلة الثانوية وهو يعرف النهج الذى يسير عليه أفصح الكلام فى لغته ، أما تتبع المذاهب

الأخذ بالأيسر منها ، فهذا إبعاد للطالب عن النهج السليم فى اللغة ، وحسبنا من الضرر أن يخرج التلميذ وفى ذهنه صورة للغة غير الصورة التى كان عليها الأكثر من أصحابها ، وليس من شك فى أن التلميذ الذى استقر فى ذهنه هذا المنهج الذى يتضمن الضعيف والشاذ ، يتنكر لما يراه من أساليب جرت على القوى والمطرد ، ولقد يكون من العسير أن تنزع من نفسه أن الذى استقر فيها إنما هو أضعف الأساليب ، وبذلك نخرج جيلا من المتعلمين يتعصبون فى بعض أساليب اللغة لما كان يجب أن يعرفوا مكانة الحق منها ، أما إذا عكس الأمر فلم نقدم للتعلمين إلا الراجح والمطرد فلا يضيره ولا يضير اللغة أن يجهل المرجوح والشاذ ، ولا يكون من الخطأ أن يتعصب لهذا الذى تلقاه إبان الحداثة .

ولقد كتب الأستاذ الزيات منذ ثلاثين سنة يقترح أن يوحد النحو ، أو بمعنى آخر الرأى أن يقتصر فى التدريس للطلاب على الرأى الراجح حتى لا يقع المبتدئون فى فوضى الآراء والأقوال ، وذكر أن النحويين أغرقوا القواعد فى الشواذ ، وأفسدوا الأحكام بالاستثناء ، حتى ندر أن تستقيم لهم قاعدة أو يطرد لهم قياس . ثم قال : « نحن اليوم وقبل اليوم إنما نستعمل لغة واحدة ، فلماذا لا نجرد من النحو القواعد الثابتة التى تحفظ هذه اللغة ، وتقوم تلك اللهجة ؛ وندع ذلك الطم والرم لمؤرخى الأدب ، وفقهاء اللغة وطلاب القديم على ألا يطبقوه على الحاضر ولا يستعملوه فى النقد » ثم وصف الذين يتعلقون بالشواذ من اللغة بقوله : « يقعد بهم تخلف الذهن ، وضعف الملكة وكلال الذوق عند هذه البقايا الأثرية ينبشون عنها قبور البلى ثم ينثرونها كالشوك فى طريق الأدباء الموهوبين ويتبجحون . فان هذا اللغو هو اللغة ! » فهل يريد أصحاب تحرير النحو أن نمكن هذه العيوب التى عابها الأستاذ الزيات فى آحاد الناس ، أن نمكنها بطريقة رسمية فى أذهان الآلاف المؤلفة من أبنائنا حتى ينثروها كالشوك فى طريق الأدباء ! .

عجبت من هذا وعجبت كذلك من ترديده فى كتابه (النحو المنهجى) إن الإعراب والبناء والنواصب والجوازم لم تكن معروفة عند العرب . قال فى صفحة ٤٥ : « وأصحاب اللغة أنفسهم ، لم يفكروا فى إعراب ولا بناء ، ولكنهم نطقوا بألفاظ الضمائر كما وصلت إلينا واستعملوها استعمالا صحيحاً » . وقال فى صفحة ٤٦ : « واهتم النحاة بالعوامل اهتماما كبيراً ، وقسموا أبواب النحو متأثرين بهذه العوامل ، مع أن العرب كانت لا تعرف رافعا ولا ناصبا ولا جازما ، ولكنها كانت

تتكلم بالسليقه فترفع وتنصب وتجزم وتجر من غير أن تعرف أن عاملا لفظيا أو معنويا أثر فظهر أثره فى أواخر الكلمات المعربة ».

وقال فى ص ٤٧ « ولكن النحاة يفرضون لكل جار ومجرور ولكل ظرف متعلقاً من فعل أو مشتق فيتكلفون ذلك من غير حاجة إليه ، مع أن العرب نطقوا بمثل هذه العبارات وفهموا المراد منها فهما صحيحاً سليما من غير حاجة إلى تقدير متعلق » وقال فى ص ٧٥ : « والعرب — كما قلنا من قبل — نطقوا بأساليبهم معربة صحيحة جارية على النهج الذى اعتادوا أن ينطقوه ، فلم يقدروا أن حركة قامت مقام حركة أو أن حرفا ناب عن حركة ، ولكنهم تكلموا فأفهموا . وكنى » .

ولا أريد أن أتعرض هنا لحديثه عن العامل ولا عن متعلق الجار والمجرور والظرف ، فلذلك موضعه من هذا البحث ، وإنما أريد أن أعقب على تشبثه بالنص على أن العرب لم يكونوا يعرفون هذه المصطلحات النحوية وكأنه يريد أن يصل من ذلك إلى أنها لا تعنينا ولا قيمة لها ، وأن اللغة واضحة بدونها ، وهو أمر غريب حقا ، فهذه المصطلحات إنما وضعها النحاة لتكون أعلاما على مظاهر ترى فى اللغة ، وبهذا يمكن ضبط القواعد والوصول إلى الطريق التى سلكها واضعو اللغة ، ومن قال بأنه يلزم فى أى علم أو فن أن يكون الذين تدرس لغتهم أو آدابهم عارفين بمصطلحات العلماء التى يتواضعون عليها عند تدوين العلم ؟ وهل نحن مخطئون حين نقول إن الشعر العربى غنائى ، لأن العرب لم يكونوا يعرفون معنى (شعر غنائى) ، وهل نحن مخطئون حين نقول : إن الاستعارة والكناية وردتا فى الشعر الإغريقى القديم وفى الشعر الجاهلى لأن هؤلاء وهؤلاء لا يعرفون كلمة استعارة وكناية ، وإذا كان العرب لم يعرفوا ناصباً ولا جازما فهل يمنعنا ذلك أن نقول : إن نواصب الفعل المضارع فى لغة العرب هى كيت وكيت ؟ .

على أننا حين نتتبع أخبار العرب نجد أنهم كانوا يدركون فى بعض الأحايين معانى بعض المصطلحات . قال ابن جنى : سألت يوما أبا عبد الله محمد بن العساف العقيلى الجوثى التميمى ، فقلت له : كيف تقول ضربت أخوك ، فقال أقول ضربت أخاك فأدرته على الرفع فأبى ، وقال لا أقول أخوك أبداً ، قلت فكيف تقول ضربنى أخوك ، فرفع ، فقلت ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبدا ؟ فقال : إيش هذا ؟ ، اختلفت جهتا الكلام . قال ابن جنى بعد ذلك فهل هذا إلا أدل شىء على تأملهم مواقع الكلام ، وإعطائهم إياه فى كل موضع حقه وحصته

من الإعراب عن ميزة وعلى بصيرة ، وأنه ليس استرسالا ولا ترجيما . وبتعبيرنا أليس كان هــذا العربى يدرك الفرق بين الرفع والنصب وأن لكل منهما موضعا ، فإذا جاء النحويون وقالوا إن العرب ترفع وتنصب بناء على هـذا الأسلوب وما أشبهه نقول إن العرب لم تكن تعرف ناصباً ولا جازما ولا جاراً ، وعلى ذلك فنحن فى حل من طرح كلام النحويين ؟ .

وحكى الأصمعى عن أبى عمرو قال : سمعت رجلا من اليمن يقول فلان لغوب ، جاءته كتابى فاحتقرها . فقلت له : أتقول جاءته كتابى ؟ قال : نعم ، أليس بصحيفة ؟ .

فهذا أعرابى يحتج لتأنيث المذكر ، فهو يفرق بين التذكير والتأنيث ، ويعرف أن لكل مواضع ، بل ويعرف أن المذكر قد يؤنث إذا أريد به لفظ مؤنث ، فهل نصر بعد ذلك على أن نرد مصطلحات النحويين لأن العرب لم يعرفوها ، والنحاة إنما استخرجوها من كلامهم ، ومن أخبارهم أحيانا ؟ .

البقية فى الجزء القادم **على العمارى**

« باقى مقال قصص القرآن المنشور فى صفحة ٥٥٣ »

نفسه ... إلى آخر ما جاء فى هذه القصة (١) .

فبالموازنة بين هذه الرواية وما ورد فى الآيات الثلاث والثلاثين الأولى من سورة مريم والآيات ٣٣ - ٦٠ من سورة آل عمران بشأن قصة زكريا ويحيى : يتبين أن رواية الأناجيل لهذه القصة لا تختلف عن رواية القرآن لها إلا فى أمور قليلة كتحديد المدة التى ظل زكريا فى أثنائها عاجزا عن الكلام ؛ فالقرآن يحددها بثلاثة أيام على حين أن الأناجيل تذكر أنها « تمتد حتى يتم هذا الأمر » .

وفى اتفاق رواية الأسفار لهذا القسم من القصص مع رواية القرآن الكريم دليل على أن مؤلفيها قد توخوا كثيراً من الدقة فى نقلها عن كتبهم المنزلة أو فى قص ما شاهدوه من وقائعها . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنهم لم يجدوا فيما استحدثوه من عقائد وشرائع وعبادات ما يدعوهم إلى تحريف هذا القسم من القصص فسلم من جامح أهوائهم ونجا من زيف التبديل .

دكتور على عبد الواحد وافى

(١) انظر الإصحاحات الثلاثة الأولى من إنجيل لوقا .

الأزهر منذ أربعين سنة

للأستاذ محمد علي غريب

— ٢ —

اقترب اليوم المشهود ، يوم الامتحان فى نصف القرآن الكريم ... جعل يقترب منى فى تؤدة وتمهل ، كما لو أنه مكلف بتعذيبى ، أو لعل الأمر كان كذلك ؛ لأنى رحت أحصى فى لهفة وخوف ، دقائقه وساعاته . ولم يكن أحد يدرى ما أعانيه من هم وقلق ، فقد حرصت على أن أشرب وحدى كأس السم ، ولن يحفل التاريخ باسمى كما حفل باسم (سقراط) فإن هناك فرقا ضئيلا بين صاحبى الاسمين ... سقراط جرع السم دفاعا عن رأيه ، وأنا أجرعه دفاعا عن بلادتى وخمول ذهنى ! .

والامتحان معناه أننى راسب فيه لا محالة، ويقتضى ذلك أن أعود إلى القرية لأشرب من ترابها الذى يملأ فمى وأنفى ، وهو الكحل الأسود الذى تحشى به العينان فى كل وقت ، وسيتبدد الحلم المشرق الباسم الذى عشت فيه طوال هذه الفترة .

إن القاهرة ـ رغم أننا نعيش فى حى فقير ـ حلوة ضاحكة . وفى كل يوم كنا نحرك أقدامنا فى طلاب نزهات جميلة إلى الأحياء التى توجب عليك أن ترفع رأسك وتميل به إلى الوراء حتى لتوشك أن تسقط ، فى سبيل أن ترى رءوس منازلها . وهذه المحال الفاخرة التى تعرض ما فيها بوسائل مثيرة ، وقد كنا نتسكع حول واجهاتها دون أن نشترى شيئا .

والناس يجيئون ويروحون ، وهم يثرثرون حول مشاكل الحياة المعقدة، وكأن مداركهم تهبط كثيراً عن مستوى أطماعهم ، فهم يشقون بهذا التناقض المرعب ، ويبذلون غاية جهدهم فى أن تصبح الرغبات المجنونة حقائق واقعة ! .

ونمضى نحن ـ الأزهريين ـ الذين نحمل على أجسادنا من الثياب ما يميزنا عن سوانا ... نمضى فى الطرقات بغير هدف سوى الفرجة على كل ما هو جديد طريف ، والناس ينظرون إلينا وفيهم من يبتسم ، وفيهم من ينكر على هذه الأسماك الضالة أن تغادر محيطها الأزهرى لتسبح فى الوديان المزدهرة ! .

وكنا لا نهتم بهذه النظرات التى نفهم معانيها جيداً . إذ أن الفقر والمظهر الدينى أورثانا كبرياء خليقة بأن تغمض عيون هؤلاء الفضوليين ، وما شأنهم بنا ؟ وما شأننا بهم ؟ إننا نبغى النزهة ، وهى كما يقول مفكر فرنسى نسيت اسمه (أولى الملذات التافهة) وربما قصدنا - دون أن نعلم - إلى الدراسة والتأمل . فأكثرنا قادم من القرية التى يستطيع وهو نائم أن يحصى جميع مشاهدها دون أن يخطئ ، وليس له عهد بهذه المباهج التى تقدمها الحضارة .

ونعود فى النهاية إلى منازلنا مسرورين ، كما لو أننا ابتعنا كل ما تحويه المحال التجارية من سلع . ونكون قد تعبنا من السير على الأقدام ، فنحس حين نجلس على الفراش نشوة ومتعة ، ويضحك أحدنا لمشهد رآه وحده ، ونروح نسأله : عم يضحك ؟ .

ويحدثنا الزميل عن الرجل الوقور الذى كان يسير فى الطريق ، وهيبته تفسح له مسالك قدميه ، وإذا بشاب أحمق ، راح يطوح ذراعيه فى الهواء عابثا مع رفيق له ، فيسقط (طربوش) الرجل الوقور على الأرض ، فلا يملك إلا أن يقف كالصنم . وقد جرى الشاب الأحمق وغاب فى الزحام ، وتبدد الوقار وزالت الهيبة ، وتجمع الناس وقد ذهلوا قليلا ، ثم انفجروا بعد ذلك فى ضحكات صاخبة ، ومد أحدهم يده إلى الأرض فالتقط (الطربوش) ومسح التراب الذى علق به بطرف كمه ثم أعطاه للرجل فوضعه فوق رأسه وسار بغير وقار وبغير هيبة ! .

وضحكنا من قلوبنا حين سمعنا رواية زميلنا الذى كان قد تخلف وراءنا . . . هل نعرف معنى الضحك من القلب ؟ معناه الحياة كلها . القوة الدافعة التى لا يداخلها زيف ولا وهن ، ونحن اليوم نضحك . وتكاد قهقهاتنا تعلو على فسحة الطريق ولكننا نضحك من شفاهنا وقلوبنا راكدة ركود الرمال المبتلة .

وفى مساء الخميس نعرف أننا سنذهب فى رحلة إلى الهرم . وقد تكتموا جميعاً أمر المسافة بيننا وبين هذه الكومة من الحجارة . وخيل إلى أن الهرم ربما كان فى جوف القاهرة ومع ذلك فإننى لم أخرج لرؤيته كثيراً . فإننى عشت قرابة عامين فى مدينة الأقصر . أحاول فى مدرسة أولية أن أحفظ القرآن الكريم ، وشهدت هناك أكثر الآثار التى تنطق بمرارة خيبة هذا الشعب الذى ولد التاريخ على شاطىء نيله العظيم .

أيمكن أن تكون هذه الخوالد وجدت منذ آلاف السنين؟ لقد حدث هذا فعلا ، فالطلاء الذى يكسو هذا الجدار ويتعرض للشمس منذ آلاف السنين . لم يغير وهجها المحرق منه شيئا ، وننظر إليه فتوقن أنه صنع منذ أيام.

وهذه روسيا التي يكاد يسجد الغافلون بين يدي علمائها العباقرة ، وبهرت عقول الناس جميعا بما ابتدعته من مخترعات مذهلة وصلت بها إلى القمر، ما تزال فيها جثة (لينين) يعاد تحنيطها كل عام . وأجدادنا الذين لم يفتتوا الذرة . عرفوا سر التحنيط منذ آلاف السنين .

ومع ذلك فإن هذا الشعب لم يسترح سنوات . من أهوال الغزو والاستعمار . وكلما دخلت فيه أمة طردتها أمة أخرى . فكان من المؤكد أن يفقد هذا الشعب قدرته على الإبداع في صنع الحضارة والمدنية ، ولا يبقى لنا من هذا الماضي المجيد الرائع سوى الذكريات .

وسألت في خجل واستحياء عما إذا كان الهرم بعيداً عنا أم قريبا ؟ فقالوا : إنها (فركة كعب) ولم أكن أثق كثيراً في أقوال هؤلاء الزملاء الذين فرضوا العذاب على أنفسهم ليدخروا مليمات قليلة ، ولكنني لم أكن أحسب أن (فركة الكعب) هذه تبلغ ثلاثة عشر كيلو مترا .

وفي صباح يوم السبت جاء الامتحان ، وأكاد أذكر أضأل التفاصيل عن هذه اللحظات التي مرت بي منذ أكثر من أربعين عاما . فما أن تهيأت للخروج من المنزل حتى حسبتني متهماً بريئاً يقاد إلى محبس محاكم التفتيش ، ولو أنني كنت أحفظ القرآن الكريم في ذلك الوقت كما أنزله الله وامتحنت فيه ما نطقت بحرف ...

وأين هو اللسان الذي يستطيع أن يؤلف من الحروف كلمات ... أين لساني ؟ أتراني ولدت بدونه ؟ فقد غمرني الخوف وهد كياني وراح أخي الأكبر يسألني عن حقيقة الأمر ولا أدري حتى هذه الساعة كيف أمكنني أن أعترف له بأني لا أحفظ شيئا .

وقال لي أخي ، وهو يحاول أن يسري عني . إنه لا بأس علي من ذلك ، فإن الشيخ توفيق البقشتي أحد مشاهير العلماء سيكون معي أو أنه سيخاطب أعضاء لجنة الامتحان في أن يكتبوا قرارهم بنجاحي .

ولم أكن مطمئنا كثيراً إلى جدوى هذا ولكنني أحسست كما لو أن القيد الذي يضغط على قدمي قد تحطم وبقيت على القلب غاشية من الخوف والاضطراب .

وكان الشيخ توفيق البقشتي - يرحمه الله - من ذوي الأقدار الرفيعة في محيطنا الأزهري وهو من بلدة قريبة من بلدتنا ، ووالدي يعرفه ، فهما أخوان في الطريق الخلوتي . وأباهما الروحي فضيلة السيد الجليل أبو الوفاء الشرقاوي .

وكان اسم الشيخ توفيق البقشتي يحدث دويا في الأزهر . فهو صاحب شخصية قوية عنيفة ،

وعندما كان طالبا فى الأزهر جرت بينه وبين المرحوم الشيخ أحمد نصر الذى أصبح فيما بعد عضو هيئة كبار العلماء خصومة شديدة عرفها الأزهريون جميعا وتحدثوا بها كثيراً .

ويوم امتحن الشيخ توفيق البقشتى فى شهادة العالمية كان الشيخ أحمد نصر عضواً فى لجنة الامتحان ، وجعل يفتش له بهذه الروح الأزهرية القديمة عن المعميات والطلاسم ، وأحس بقية أعضاء اللجنة أن زميلهم الشيخ أحمد نصر يريد أن يفترس الطالب فقاوموه وكان أن فاز الشيخ توفيق البقشتى بشهادة العالمية وعندئذ قال له كلمته المشهورة .

ـ استوت الرءوس يا أبا نصر ! .

أى أن كليهما أصبح عالما . . .

وأعود إلى امتحانى أنا .

كان يقع فى مبنى مشيخة القسم الأولى فى شارع التبانة ، وما زلت أرى بوضوح كيف كان المشهد ... لقد دخلت فى باب واسع إلى فناء مظلم ، ثم ارتقيت بضع درجات من سلم يفضى إلى ردهة ، جلس فيها على مقاعد من (القش) ثلاثة شيوخ أحدهم الشيخ البقشتى والآخران هما عضوا اللجنة ، ولست أذكر الآن اسميهما ولا ملامح وجهيهما ، ولكننى أذكر أنهما كانا يدخنان ، وعلى كرسى بينهما ثلاثة أقداح من الشاى . وكان أحدهما يحمل فوق رأسه عمامة ضخمة ، والعجيب فى الأمر أن منظر هذه العمامة شغلنى عن التفكير فى مأساتى ، فجعلت أحملق فيها وفى صاحبها ، ولم أعد أهتم بشىء آخر .

وقال أحد الشيخين ، ولا بد أنه كان يواصل حديثاً جرى من قبل أن أحضر :

ـ طيب ... نسأله عما يحفظه ... ربما كان يحفظ فاتحة الكتاب ! .

واندفعت فى تلاوة الفاتحة ، فضحك الشيوخ الثلاثة ضحكا عاليا متصلا ، وأحسست الخجل ينتابنى فصمت ، وقال الشيخ توفيق :

ـ إنه يحفظ من القرآن الكريم أكثر مما نحفظ !.

وضحك الشيوخ مرة أخرى ...

ونجحت ...

ولم أحس حلاوة النجاح حينذاك ، ولست أدرى لماذا ؟ ولست أعتقد أنها كانت مسألة ضمير يثور على هذا الزحف ، وربما كان لجلال الأزهر وهيبته وسموه فى نفسى أثر واضح فى حيرتى أمام هذا النجاح ؛ إذ أننى كنت فى هذه الأيام أنظر إلى الحياة من الجانب الدينى وحده ، وكنت متأثراً فى هذا بوالدى الذى أدبنى ذلك الأدب .

وبقيت أمامنا أيام ، يحل بعدها يوم الدراسة ، ولم أكن قد اشتريت الكتب المقررة ، ولم أحتج إلى شرائها فإنها كانت عند أخى ، وقد أعطانيها ، وكانت كثيرة العدد

فى الفقه والنحو والتوحيد والأخلاق والخط والإملاء ، وكتب أخرى لا أذكرها .

وكنت أجلس فى المنزل وأتناول كتابا منها وأقرأ فيه فلا أكاد أفهم منه شيئا ، فإذا خامرنى من جهلى الضيق والهم . اتفقت مع زميل لى على أن نذهب إلى حديقة قصر النيل وهناك كنا نجلس على مقاعد خشبية ونتطلع إلى وجوه المتنزهين والمتنزهات .

وفى هـذا المتنزه المشرق الضاحك ، كان يستحيل على الواحـد منا ألا يحسب نفسه شاعرا ، وهو يتطلع إلى الأغصان وإلى الزهور وإلى الأطيـار ، وفى ذلك الحين ، حاولت جادا أن أنظم شـعرا فخبت ، وربمـا ترجع كراهيتى للشعر إلى هذه الخيبة ، فأنا لا أطيق أن أقرأ قصيدة بأكلها عدا بعض الشعراء القـدامى ، ولا أحفظ من الشعر إلا عشرات الأبيات ...

وكنا نلتقى فى هذا المتنزه بفيلسوف عظيم لعله من اليونان ... أى أنه دون ريب من أحفاد أفلاطون ، وكان الناس يعدونه مجنونا لأنه يهمل ثيابه ويدع شعر رأسـه يتطاير فى الهـواء ، وكثيرا ما يحادث نفسه بصوت مرتفع ، ولـكننا مع ذلك كنا نأنس إليه ، ونستطيب مجلسه .

كان يحدثنا عن خصوم له فى (الأثينا) ـ هكذا كان ينطقها ـ ولم يكن يبدو من حديثه عنهم أنه غاضب عليهم . فهو لا يغضب قط ، ولـكننا كنا نبغضهم من صميم قلوبنا . فهؤلاء الخصوم كانوا من القسوة والفظاظة بحيث جردوه من ثيابه ودفنوه فى الثلج الذى يتوج مشارف الجبال فى اليونان ...

الثلج ! قسم غير حانث إننى فى ذلك الوقت ما عرفت الثلج ولا رأيته ، ولـكننى كنت أتخيل برودته ، وأنا أدرك اليوم لماذا جن هذا المسكين ...

والعجيب فى الأمر أنه كان يضحك وهو يقص علينا نبأ هذه الفاجعة ، ثم يمسك بعود أخضر من شجيرة صغيرة على مقربة من المقعد الخشبى الذى نجلس فوقه ، فيقضمه بأسنانه ، ويخلد إلى الصمت حتى يخيل إلينا أنه لا يحس منا وجوداً .

وهناك فى الحديقة أوغاد كثيرون ... أطفال أشقياء ، وشبان رقعاء ، وكهول سخفاء . يتجمعون من حولنا ويسبون الرجل سبا قبيحا ، حتى إنهم ليعيرونه بجنونه ، وهو يحملق فيهم وفى الفضاء ، ثم ينكس رأسه وتدمع عيناه ! .

وكان هـذا المنظر المحزن الأليم يثير الضحك فى نفوس أولئك الجهلاء ، وقد تمتد إليه أيديهم فيهزونه وقـد يلطمونه ، وهـــو لا يقـوى على أن يصنع شيئاً إلا أن يبكى .

ونعود إلى المنزل مثقلين بالخزى والعار ، لأننا عجزنا عن أن نرد إساءات هؤلاء العابثين إليهم فنحن فتية صغار مهزولون لا نقوى على العراك والصراع .

فى هذه الأيام ذرعت أكثر أحياء القاهرة على قدمى ، وزرنا أهل البيت جميعا ، سيدنا الحسين والسيدة زينب ، والسيدة نفيسة . والسيدة عائشة والسيدة سكينة ، ثم واصلنا مهمة زيارة الأولياء والصالحين .

وكان أخى الأكبر مالكيا فأدخلنى فى مذهبه . واليوم نزور ضريح « الخرشى » وغداً « سيدى أحمد الدردير » وفى الطريق نمضى إلى ضريح « العدوى » و « الصاوى » و ... عشرات من هذه الأضرحة جاهدنا فى سبيل الوصول إليها . فهؤلاء هم « السادة المالكية » وأخى يقدسهم جميعا .

وقبل أن أختم هذه الكلمة أود أن أشير إلى ظاهرة عجيبة شهدتها فى سماء الأزهر . وأرجو أن تكون قد تبددت اليوم حجب التعصب العنيف للمذاهب الفقهية . ولست أخلى من اللوم السادة العلماء فى ذلك الحين فإنهم كانوا ينفخون فى نار الخصومة .

كان المالكية يتهمون بالجمود والتأخر ، والشافعية يرمون بالغفلة والبلاهة . والحنفية يوصفون بالتحرر والابتذال : أما الحنابلة فكانوا قلة .

ويعود هذا التقسيم فى رأيى إلى طبيعة المناطق التى يفد منها طلاب هذه المذاهب ، فأكثر أبناء الصعيد من أتباع مذهب الإمام مالك وكذلك أهل المنوفية والجيزة والبحيرة والغربية . والأحناف من شتى البقاع ، ولكنهم كانوا يطمعون فى تولى القضاء الشرعى ، لذلك كانوا يتهمون بالتفريط والابتذال والتحرر ، والشافعية من أبناء الشرقية .

كذلك لاحظت التعصب الذميم من الناحية الإقليمية (الصعايدة) و (البحاروة) ، وقد وصل الأمر بينهما إلى إثارة معارك قتل فيها أبرياء .

* * *

وفى الساعة السابعة صباحا من يوم السبت ذهبت إلى مسجد ابراهيم أغا لأتلقى أول درس ! .

للحديث بقية — محمد على غريب

رسالة

للأستاذ على الطنطاوى

هذه رسالة شرعت بها ؛ لإرسالها إلى صديق حبيب يدرس فى بلاد الغرب ، ثم كسلت عن إكمالها ، فتركتها ، فلما قعدت أكتب مقالة هذا العدد ، أخرجتها فأتممتها ، وبعثت بها لتنشر لتعم منها الفائدة ، ويشمل النفع ، وليقرأها هذا الصديق مقالة فى المجلة (١) إن فاته أن يقرأها رسالة فى البريد .

أتذكر مقالى لك يوم ودعتك؟ لقد كنت خائفا عليك من هذه البلاد ؛ لأنى أخافها – والله – على نفسى ، وقد شارفت حد الكهولة الأقصى ، وقد أعلنت خوفى يوم سفرك ، أعادك الله بالسلامة والنجاح ، فلما وردت كتبك ، رأيت فيها لسانا فصيحا ، وتفكيراً صحيحا ، وكلام رجل مؤمن . فاطمأننت عليك إلى حين – أقول إلى حين ؛ لأنى أعلم أن المرء كالنبات ، يعيش بنفسه ، وبالأرض التى يمتص غذاءه منها ، والماء الذى يشربه والجو الذى يحيط به ، فإذا نقلته إلى أرض غيرها ، بدلته التربة التى انتقل إليها ، والجو الذى صار إليه ، ما لم يكن من النباتات التى أعطاها الله من القوة والتمكن ، ما يمنع عنها هذا التغيير والتبديل ، وذلك أندر من النادر ، وأقل من القليل .

وليس يظهر هذا التبدل من أول يوم ، بل يحتاج إلى الزمن الطويل ، إنه مرض فى النفس شأنه شأن الأمراض كلها ، لابد لها من زمان تفرخ فيه (جراثيمها ...) وتنمو وتسيطر ، فترى الرجل تحسبه صحيحا وهو سقيم .

والمرء أبدا بين ماضيه وآتيه . يعيش بذكريات الماضى وبآمال المستقبل ، فإذا انتقل من مثل دمشق إلى باريز أو برلين مثلا ، ورأى لونا من الحياة جديداً ، وانطلاقا ميسورا بعد تقيد بقيود الدين والخلق ، ولهوا ممكنا بعد جد دائم ، لم يَبْدُ لهذه الحياة الجديدة أثر فيه وهو يعيش فيها ، بل ربما تنبهت فى نفسه الذخيرة الدينية ، فازداد تمسكا إنما يبدو ذلك ويظهر ، ويعمل عمله ، إذا عاد إلى بلده ، فافتقد ذلك

---

(١) وانظر مقالتى (إلى أخى النازح إلى باريز) نشرت فى الرسالة ٦ ديسمبر ١٩٣٧ وهى فى كتابى (صور وخواطر)

الانطلاق ، وحن إليه ، وضاق بهذه القيود ، وثقلت عليه .

وقد شاهدنا هذا فى ناس من إخواننا عاشوا فى باريز مثل عيش الزهاد والعباد ، فلما رجعوا إلى دمشق هاموا على وجوههم ، كالحيوانات ، تسوقهم شهواتهم وحدها ، لا يهابون حراما ولا يخافون عارا ، ولا يحفلون بشىء . ولولا أنى لا أحب أن أعرض لأحد من الناس بعينه ، ولا يجوز لى أن أعرض لأحد ، لسميت لك رجالا بأسمائهم لتعرفهم .

وأنا ما سردت عليك هذه الفلسفة المزعجة ، إلا لتعلم أنك لا تزال تعيش بذخائر الماضى فى نفسك ، وبقايا آداب الصبا ، وأن الذى تدخره فى نفسك الآن من ذكريات هو الذى ستحيا به بعد عودتك ، فانتبه يا أخى ، بل يا ولدى ، لما ينطبع فيها ... واعلم أن لكل رفيق ترافقه ، وكل مكان تحله ، وكل كتاب تقرؤه ، وكل رأى تسمعه ، لكل من ذلك أثر فى نفسك ، لا تحس به ولكنه موجود كالبذرة الصغيرة فى الأرض : بذرة زيتون مثلا ، لا يراها أحد ولا يلتفت إليها ، ولكنها تصير يوما شجرة تضطر كل من يمر بها إلى أن يراها . وتبقى مائة سنة على حين يظن من ألقاها أنه نبذها ورماها . لذلك قال ابن عطاء الله السكندرى (١) .

« لا تمكن زائغ القلب من أذنيك ، فإنك لا تدرى ما يعلق بهما منه » .

وقد كنت عرضت لهذا المعنى ، فى بعض ما كتبت ، ولكنى أعيده عليك لأن من المعانى ما لا بد فيه من الإعادة ، ولا يضر به التكرار .

ولقد ذهبت إلى مصر وأنا فى مثل سنك اليوم ، وأين مصر يومئذ (سنة ١٩٢٨) من باريس ؟ وكنت فى مصر مثلا مضروبا فى التشدد والبعد عن كل ما يحرم أو يشين ، وعدت منها وأنا أحسب أنى ازددت بسفرى إليها إيمانا وتمسكا ، وإذا المرض الذى داخلنى فيها عدواه قد تمكن منى ، حتى أنى لا أزال إلى اليوم أعانى أثر هذه الفترة فى عواطفى وفى أفكارى ، وما ذاك لفساد مصر بل لأننى غدوت فيها طليقاً . ليس فى الناس من يعرفنى فيراقبنى ، أو أعرفه فأتهيبه . وأنت فى بلد فاسد المحرمات فيه معلنة ، والمنكرات ظاهرة ، وإن إلف رؤية الحرام ، ودوام مشاهدته ، يهون على النفس اقترافه ، ويذهب منها هيبته ، نعرف ذلك من نسائنا المسلمات ، كان عهدنا بالواحدة من نسائنا ، أنها تضطرب وتجزع ، إن لمحها الأجنبى من فتحة الباب ، أو شق النافذة ، وتسرع فتتوارى . فصارت ترى الرجل فتقابل وجهه بوجهها ، وتثبت فى عينيه عينيها . وكان الرجل إذا رأى الأجنبى ينظر إلى زوجه ، استكبر ذلك واستنكره ، وهاج فى نفسه تصون المسلم ، ونخوة العربى . فتراخى الحبل حتى صار

(١) فى (الحكم) وهو كتاب لا يخلو من ضلالات ولكن هذه كلمة حق فيه .

الرجل يماشى امرأته فى الشارع ، ويضاحكها فى الطريق ، ويرافقها إلى السينما . وصار من العرب المسلمين ، من يقدم ابنته إلى الأجنبى ليراقصها ، يدنى صدره من صدرها ، ويلف ذراعه على خصرها ، ويلامس بساقه ساقها ، وصار الأجنبى يأخذ الزوجة فى هذه الحفلات الداعرة الفاجرة من زوجها ، ليرقص معها ، فلا تستعصم المرأة ولا تأبى ، ولا يغضب الزوج ولا يغار ، ولا يعجب الناس ولا ينكرون .

بل لقد سرى هذا الداء ، إلى نساء العلماء والصلحاء ، فصرن يكشفن الوجه حيث تؤمن الفتنة وحيث تخشى ، فإذا كشفنه لم يتحرجن من مسامرة الأجانب من الأقرباء فى السهرة ، ومسايرة الأجانب من الأصدقاء فى السفرة . يفعلن ذلك أولا بحضرة الزوج وإذنه ثم يفعلنه فى غيبة الزوج وبلا علمه ، ثم يتبع الوجه الشعر ثم النحر ، والكف الذراع ثم الصدر ثم يكون هذا الحسور وهذا الفجور .

وهذا كله إنما كان تقليداً للإفرنج نفعله لأنهم يفعلونه . ولأن المستعمرين قد اغتنموا غفلتنا وهجوعنا ، فى المائة سنة التى مضت ، وتأخرنا عنهم فى طريق الحضارة المادية ، فلم يدخروا جهدا ، ولم يألوا وسعا ، فى إشعارنا سبقهم إلى هذه الحضارة وتأخرنا ، وعلمهم بهذه العلوم وجهلنا ، وقوتهم بهذه الأسلحة وضعفنا ، حتى صار تعظيمنا إياهم ، وهيبتنا لهم ، حقيقة راسخة فى نفوسنا ، اعترفنا بها أو أنكرناها .

وكان من نتائجها أن تركنا شريعتنا لقوانينهم ، وأخلاقنا لعاداتهم ، وفضائلنا لرذائلهم ، وكان هذا كله تقليدا على السماع ، ونحن فى بلادنا ، فكيف إذا رآه الواحد منا بالعيان ، وهو فى بلادهم ، وكيف إذا كان الرائى شابا متلهب الغريزة ، متوقد العاطفة ، يحمل بين جنبيه نفسا قد حشيت بالبارود ؟

ماذا يصنع الشاب الذى كان فى بلاده ، يفكر فى المرأة ليله ونهاره ، صورتها أبدا فى خياله ، وحديثها أبدا على لسانه ، يثيره مرآها على بعد مائة متر ، فصار إلى بلد ، يرى فيه حيثما تلفت أسراب الحسان المثيرات ، كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، لا يكلفه نيلهن إلا أن يشير بيده ، فيترامين عليه ، لا يحجزهن دين ، ولا يمنعهن عرف ، ولا يمسكهن حياء . فى معشر يرون من المدنية أن تستباح الأعراض ، ويتسافح الفتيان والفتيات ، قد هانت المرأة حتى صار عرضها يبذل فى ملء بطنها وستر جسدها ، وصارت تنال بغذاء وكساء .

فماذا يصنع الشاب فى هذه المحنة ؟ .

وكيف يغفل الآباء عن هذا البلاء ؟ .

لو سمع الأب أن فى هذا البلد الذى يبعث إليه بابنه وباء فتاكا ، وأن (احتمال) إصابة ولده به واحد فى الألف لما أرسله إليه ولو كان فيه علم الأولين والآخرين ، فكيف يرسله إلى بلد (احتمال) إصابته فيه بخلقه ، وتفريطه فيه بعفافه ، وتهاونه فيه بدينه تسعمائة وتسع وتسعون فى الألف ؟ .

لقد حدثني الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي عما رآه في أوربا لما ذهب إليها للتداوي - عافاه الله وأتم عليه نعمة العافية - فسمعت والله شيئا أعجب من العجب، وأيقنت أنه لو امتحن العجوز العابد بما يمتحن به شبابنا هناك لخيف عليه والله السقوط.

ذلك لأن النفس البشرية مفطورة على ابتغاء اللذة، وقصد الراحة، وترك العناء، ميالة إلى الانطلاق، ولأن الانحدار إلى المعصية أهون من التسامي إلى الطاعة، كالماء أفلته ينحدر إلى قرارة الوادي، وأصعده لا يصعد إلا بمضخة، لذلك قل في الناس الطائعون، وكثر العاصون، وكثرت جرائدهم ومجلاتهم وأماكنهم ووسائلهم إلى ماهم فيه، إن الرجل الفاسد يلوح للشاب الصالح بالجميلات وما يقدر من اللذة بقربهن، والخمر وما يتوهم من اللذة بشربها، والقمار وما يؤمل من الربح بتعاطيه ويأخذه إلى المراقص والمشارب وكل مكان لذة فيفسده. فإلى أين لعمري يأخذه الرجل الصالح ليصلحه، وما الذي يغريه به، إلا أن يعده الآخرة الغائبة بدلا من الدنيا الحاضرة، وذلك مطلب عال لا يصعد إليه إلا بجهد دونه جهد السجن والضرب والقتال. لذلك جعل الله هذه المنزلة لمن يؤمن بالغيب، وكرر الثناء عليه في القرآن، ولذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن سبعة يظللهم الله بظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، يوم الحشر للحساب، منهم الشاب الذي نشأ في طاعة الله، وقاوم مغريات الشباب، ومنهم رجل دعته امرأة ذات جمال حتى إذا تمكن منها، ذكر الله فقام عنها.

* * *

إن سفر الشاب وحده إلى أوربة، خطر مؤكد، ولكن الآباء، لا يتنبهون إليه، ولا يفكرون فيه.

إنهم يربون الولد على العفاف، ويحمونه من فتنة النساء، حتى إذا ما ظنوا أنه استقام وصلح، ووطن نفسه على العفة والتقى، وطوى جوانحه على مثل النار الآكلة من لذع الشهوة. نقلوه إلى بلد كل شيء فيه مباح، الفتن فيه تحف به من كل جانب، وقد زالت الموانع، وسقطت الحدود. فليس دون المعصية حد، لاحد الدين في بلد لا يدين بدين الإسلام، ولاحد العار في بلد لا يرى العار عارا.

فهلا فكر الآباء، في مصير أولادهم حين يبعثون بهم ليدرسوا في ديار الغرب؟.

* * *

وبعد، فقد ذهبت - أنت يا أخي - وقضي الأمر، فاجعل خوف الله بين عينيك، وتصور دائما ذهاب لذة المعصية وبقاء عقابها، وذهاب ألم الصبر عنها وبقاء الثواب عليه.

واسأل الله العون، واستمد منه القوة، والسلام عليك ورحمة الله، وأستودع الله دينك وخلقك.؟

دمشق

علي الطنطاوي
مستشار محكمة النقض

تشقيق المعنى [١]

للدكتور تمام حسان

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم

كل دراسة للغة لابد أن تتجه إلى الكشف عن المعنى مهما كانت طبيعة هذه الدراسة ومهما كان المنهج الذى تستخدمه . غير أن وجهة النظر قد اختلفت حيال المعنى باختلاف المفكرين وباختلاف نواحى تخصصهم . فللفلاسفة نظرة إلى المعنى وللنفسيين أخرى واللغويين ثالثة وهلم جرا . . . فأما الفلاسفة فيعالجون المعنى فى كلامهم فى الإبيستيمولوجيا وهى فرع من الفلسفة يدور حول نظرية المعرفة ويدخلون إلى الكلام فى مشكلة المعنى من مدخل العلاقة بين الدوال والمدلولات . وهذا الاتجاه واضح جداً فى كتاب من تأليف أوجدن وريتشار اسمه : The Meaning of Meaning أو يتخذون هذه الدراسة فرعا من فروع الإيجابية المنطقية Logical Positivism فيتكلمون عن المعنى فى معرض النظر فى تحديد دلالة الكلمات المستعملة فى قضايا المنطق ويتضح هذا الاتجاه فى كتاب ألفه كارناب وجعل عنوانه Logical Syntax كما يشرحه كتاب ألفه جود العالم الانجليزى وعنوانه :

A Critique of Logical Positivism

وأما النفسيون فإنهم يعالجون مسلك النفس فى الربط بين الرمز وبين مايقصد به فيجعلون دراسة المعنى دراسة لعملية عقلية خالصة . وأشهر المدارس النفسية التى ارتبطت برأى خاص فى هذا هى مدرسة السلوكيين . وأما اللغويون فما زالوا يتكلمون عن المعنى فى ظل الفلسفة حينا وفى ظل الدراسة النفسية حينا آخر حتى أهل فجر الدراسات اللغوية الحديثة ونشأت دراسة خاصة للمعنى تسمى السيمانتيك Semantics أو نظرية المعنى .

وإذا كان الكشف عن المعنى هو الهدف الذى تتجه إليه دراسة كل فرع من فروع البحث اللغوى على حدة ، فإن اللغويين قد شققوا المعنى إلى ما يسمى معنى الوظيفة ومعنى المعجم والمعنى الاجتماعى السيمانتيكى وجعلوا من قبيل معنى الوظيفة معنى الصوت فى المنطوق ومعنى الحرف فى الكلمة ومعنى المقطع والنبر والنغمة التى فى المنطوق ثم معنى

الصيغة الصرفية ومعنى الباب النحوى وجعلوا المعنى المعجمى هو معنى الكلمة بالنسبة لمدلولها الذى تدل عليه ، أى مع صرف النظر عن صيغتها وبابها وهلم جرا ... كما جعلوا المعنى الاجتماعى هو المقصود من المنطوق الذى قد يكون مركبا من كلمة واحدة ، أو من جملة طويلة تتألف من عدد كبير من الكلمات . وجعلوا الوصول إلى هذا المعنى الاجتماعى يتم بطريق التحليل الدقيق للملابسات المصاحبة للنطق والتى تسمى context of situation .

ويرى القارئ كل ذلك مفصلا فيما بين صفحتى ١١٦ و ١٢٦ من كتابى « اللغة بين المعيارية والوصفية » فليرجع إليه إن شاء .

وهدفى من هذا المقال أن أضع تخطيطاً جديداً لتشقيق المعنى ينبنى فى أساسه على ما قال به اللغويون المحدثون ، وينفرد بمنهج خاص فى تحديد بعض المصطلحات العربية والانتفاع بها فى الأغراض العملية لهذا المقال . وأول شىء أننى أريد أن أتوقى استعمال لفظى الكلمة والجملة فى غير الكلام عن المعجم ؛ لأن هذين اللفظين محملان بحمل ثقيل ، من تقاليد الاستعمال فى النحو والبلاغة والمعجم ، فلو أننا حولناهما إلى معنى اصطلاحى جديد يخالف ما جرى عليه الاستعمال فلربما وجد القارئ مشقة فى ملاحقة هذا المعنى فى غضون هذا المقال . ولهذا فإننى حين أتكلم عن المعنى الوظيفى من جهة وعن المعنى الاجتماعى من جهة أخرى سأستعمل اصطلاحا جديداً هو المنطوق ليدل على ما يشملهما معاً (أى الكلمة والجملة) وليدل كذلك على أن المعنى الذى ندرسه هو معنى نص حى يجرى على اللسان ولا يستخرج من كتاب . فكل ما يلفظه المتكلم بقصد الاستعمال اللغوى فهو منطوق بالمعنى الذى نقصده هنا . أما حين الكلام عن معنى المعجم فسأعود إلى استعمال لفظى الكلمة والجملة واستخدامهما بمعناهما التقليدى وأود الآن أن أدرس المعنى بواسطة تشقيقه إلى ثلاث نواح هامة هى :

(١) المعنى الوظيفى . . . أو الوظيفة .

(٢) المعنى المعجمى . . . أو الإطلاق .

(٣) المعنى الاجتماعى . . . أو المقصود .

وأنا أفضل بعد الآن أن أستخدم اصطلاحات « الوظيفة » و « الإطلاق » و « المقصود » على المعانى المقارنة لكل منها . وسأشرحها وأبين معناها الاصطلاحى حتى تتضح للقارئ .

فأما الوظيفة فهى معنى الصوت ومعنى الحرف ، ومعنى المقطع ومعنى الظاهرة الموقعية من ظواهر النطق ، ثم هى معنى الأدوات والملحقات والصيغ الصرفية ، ثم هى معنى الأبواب النحوية . فأما الصوت فإنه يؤدى وظيفة هامة فى المنطوق ، من حيث يتميز المنطوق عما يشبه بما به من أصوات وقد يكون معنى المنطوق متوقفاً

على صوت واحد من أصواته ، كالفرق بين «نال» و «مال» أو على صفة من صفات أحد أصواته كالفرق بين الجهر والهمس فى «زاد» و «ساد» . وإذا أمكن للصوت أو صفته أن يكون دعامة يقوم عليها معنى المنطوق ، فلا شك إذن أن الصوت ذو معنى فى نفسه ، وهذا المعنى هو وظيفته التى يؤديها فى المنطوق ويمكن تحديد هذا المعنى تحديداً سلبيا بذكر نواحى الخلاف بين الصوت وشبهه ، كما يمكن أن يحدد تحديدا إيجابيا بذكر مخرجه وصفاته مع ربط ذلك ربطا تاما بالنظام الصوتى فى اللغة التى ينتمى إليها هذا الصوت .

وإذا كان الصوت عمليـة نطقية تدخل فى تركيب المنظمة الصوتية للغة فإن الحرف وحدة فكرية دراسية أو وحدة نفسية (على خلاف بين العلماء) تدخل فى تركيب المنظمة الأبجدية لهذه اللغة . وإذا قام علم الأصوات phonetics على دراسة الصوت دراسة عملية تقوم على الاستماع والتسجيل فإن علم التشكيل الصوتى phonology يقوم على دراسة الحرف دراسة نظرية تقوم على التجريد والتقسيم . وإن الحرف الواحد كالنون مثلا ليضم تحته عدداً من الأصوات التى تختلف من حيث المخرج ، إذ يختلف نطق النون بين الإظهار والإخفاء والإقلاب والإدغام ، وهذا مما يوضح لنا الفرق بين الصوت وبين الحرف بالمعنى الذى نقصده منهما فى هذا المقال .

وكما يفرق بين المنطوق والمنطوق بتحديد وظيفة الصوت يفرق بينهما بتحديد معنى الحرف ، بل إن وضع اللغة فى أساسه لم يقم إلا على أساس التفريق بين الحروف من حيث الوظيفة . ويتضح ذلك حين نستخرج حرفا من الكلمـة (وليسمح لى القارئ باستعمال لفظ الكلمة هنا) أو نضيف إليها حرفا أو نحل حرفا فيها محل حرف منها فنجد المعنى المعجمى يتغير بهذا الإجراء . وإن المنظمة الأبجدية بكل لغة لهى أساس دراستها النظرية إذ تنبنى من الحروف كلمات اللغة وصيغها الصرفية وموادها المعجمية وأصولها وزوائدها وهلم جرا .. وكل ذلك تقوم دراسته على تعيين وظائف الحروف لا على وظائف الأصوات .

وللمقطع وظيفة فى تحديد حدود الصيغة الصرفية وفى خلق الإيقاع الخاص الذى يمتاز به النطق بلغة من النطق بلغة أخرى . فأما وظيفته فى تحديد حدود الصيغة الصرفية فتتضح فى التفريق بين «فعل» و «فاعل» مثلا إذ أن الفرق بين الصيغتين فرق بين المقطع الأول فى هذه وبينه فى تلك إذ هو قصير فى فعل متوسط فى فاعل . وإذا أراد القارئ معرفة المقاطع وكمياتها المختلفة فى اللغة العربية معرفة مفصلة فليرجع إلى كتابى «مناهج البحث فى اللغة» . وأما وظيفة المقطع فى خلق إيقاع خاص باللغة تتميز به عن سواها فهى وظيفة شديدة الصلة كذلك بالنبر ، لأن النبر يرتبط ارتباطاً أساسياً

بترتيب المقاطع وكمياتها فى النطق وسيأتى الكلام عن هذه الوظيفة عند ذكر وظيفة الظواهر الموقعية .

والمقصود بالظواهر الموقعية الظواهر النطقية التى يتوقف ورودها على الموقع الذى تقع فيه من المنطوق ، فهمزة الوصل مثلا تظهر فى مبدأ المنطوق وتختفى فى وسطه ، فظهورها مرتبط بموقع خاص وهى لهذا ظاهرة موقعية . ولقد فصلت الكلام فى الظواهر الموقعية فى اللغة العربية فى كتابى « مناهج البحث فى اللغة » أيضاً . وأشهر هذه الظواهر النبر والتنغيم وذلك لوجودهما فى اللغات جميعها .

ويلاحظ القارئ حين يتكلم أن فى المنطوق أجزاء معينة يعلو الصوت عند نطقها علواً خاصاً وهذا العلو نتيجة لازدياد ضغط الهواء المنبعث من الرئتين عند نطق هذه الأجزاء من المنطوق ضغطاً أشد مما مع نطق بقية الأجزاء . فحين ننطق لفظ الجلالة « الله » نلاحظ أن اللام الثانية أوضح فى الأذن من بقية أصوات هذا المنطوق وحين ننطق « محمد » تكون الحاء أوضح الأصوات وكذلك الميم الثانية فى « محمود » والهمزة فى « أحمد » . وإن بعض اللغات ليتخذ النبر وسيلة صرفية للتمييز بين معانى الصيغ فإذا وقع النبر على الصوت الأول عند نطق الكلمة الانجليزية control فهى اسم وإذا وقع على صوت r كانت الصيغة فعلا والمنبور حينئذ هو المقطع الأخير . أما أشهر وظيفة للنبر فهى خلق الإيقاع الخاص باللغة والذى تفتقده الأذن العربية فى كلام الأجانب باللغة العربية ، حيث لا يمكنهم أن يحددوا أطوال الأصوات تحديداً دقيقا فيطيلون أصوات الحركات ويقصرون أصوات المد ويفردون المشدد ويشددون المفرد ومن ثم يختل البناء المقطعي للكلام ويختفى فى كلامهم الإيقاع العربى المخصوص الذى يعتبر جزءاً لا يتجزأ من المعنى .

والتنغيم رفع الصوت وخفضه بحسب المعنى أثناء الكلام ولكل نغمة فى الكلام معناها الخاص ، ولو أخذنا منطوقا مثل « ياسلام » ثم حاولنا أن نعبر به عن معنى التأثر ثم الشك ثم التأنيب ثم السخرية ، وغير ذلك من المعانى لوجدنا دلالتها على هذه المعانى المختلفة ترتبط بالنغمة ارتباطا تاما ، بل إن للاستفهام نغمة غير نغمة التقرير والنفى ، ولكل ذلك نغمة تختلف عن نغمة التأكيد ، ونغمة الغضب غير نغمة الغزل . والأمر يختلف فى النغمة عن الرجاء والتوسل ، وهلم جرا أى أن النغمة الخاصة المرتبطة بموقع معين من الكلام يتحكم المعنى فى ورودها .

والصيغة الصرفية معنى من حيث هى صيغة أى بقطع النظر عن الكلمة التى توضع على مثالها ، ويجد القارئ فصلا خاصا فى كتب الصرف لتحديد معانى صيغ الزيادة على حين

يرد تحديد معنى الصيغ الأخرى فى عرض الكلام عن كل منها . والملاحظ أن المعانى المذكورة هى فى الحقيقة الوظائف التى تؤديها هذه الصيغ وليست معانى كالمعانى المعجمية العرفية التى تعطى للكلمات المفردة .

أما الأبواب النحوية فليست إلا وظائف تؤديها الكلمات فى السياق ونحن حين نعرب أى مثال من أمثلة النحو لا نقنع بكلمات المثال كما هى ، وإنما ننسب كل كلمة منها إلى باب نحوى خاص هو الوظيفة التى تؤديها فى السياق ، فنقول ضرب فعل ماض ، أى أن الوظيفة التى يؤديها لفظ ضرب هنا أنه يقوم بدور الفعل الماضى فى السياق ، ويقال نفس الكلام عند إعراب « زيد » بأنه فاعل و « عمراً » بأنه مفعول فكل هذه وظائف تؤديها الجزئيات التحليلية التى فى المنطوق ، ولا مهرب من جعل هذه الوظائف جزءاً من المعنى العام ؛ لأننا لو تجاهلنا لم نستطع تحديد هذا المعنى ولساد الغموض فى المنطوق تماما ، ولكان مثلنا مثل الذى يتصدى لتشريح الجسم وهو جاهل تماما بوظائف الأعضاء .

هنا ينتهى الكلام فى « الوظيفة » ويبدأ الكلام فى « الإطلاق » وهو الشق الثانى من المعنى ، ومعنى الإطلاق يختلف فى أساسه عن معنى الوظيفة من حيث : إن الوظيفة معنى الجزىء التحليلى كالصوت والحرف إلخ . وكل ذلك لا يمكن أن ينعزل عن السياق ويستقل عنه ولكن الإطلاق هو المعنى العرفى المعجمى الذى أعطى للكلمة بالوضع ويصلح لأن يسجله المعجم ، كما تصلح الكلمة لأن تستقل عن السياق ، ويمكن تحليل طبيعة هذا المعنى المعجمى الذى سميناه الإطلاق إذا نظرنا فى طبيعة العلاقة بين الكلمة وبين المدلول ونظرنا نظرة أعمق فيما يقصد بلفظ الدلالة هنا .

قلنا : إن العلاقة بين الكلمة وبين مدلولها علاقة عرفية اعتباطية لا سند لها من الطبيعة ولا من المنطق . وإنما لم يكن لها سند من الطبيعة لأن العلاقة الطبيعية بين الرمز ومعناه محكومة إلى حد ما بطرق التأثير الطبيعية وما يتحكم فيها من قوانين ، وذلك كعلاقة النغمة الموسيقية بأثرها فى النفس ، وعلاقة تقلص المعدة بطريقة خاصة بما يفهم منه من معنى الجوع . وإنما قلنا إنها لا سند لها من المنطق ؛ لأن العلاقة المنطقية بين الرمز ومعناه تتحكم فيها قوانين الفكر ، وذلك كالعلاقة بين أثر الأقدام على الرمال وبين المعنى الذى يفهمه من ذلك قصاص الأثر إذ يصل إلى استنباط هذا المعنى بتفكير معين بسيط أو معقد ولكنه منطقى على أى حال .

أما العلاقة بين الكلمة وبين مدلولها فهى علاقة عرفية اعتباطية لا يمكن تعليلها لا بعلة غائية ولا بعلة صورية ، وإنما تقبل قبول

تسليم لأنها جاءت نتيجة التعارف .

دعنا إذن نسم هذه العلاقة الاعتباطية بين الكلمة وبين معناها باسم الدلالة ثم نقل بعد ذلك : إن المعنى المستخرج بواسطة هذا الربط هو ما نقصده باصطلاح « الإطلاق » أو المعنى المعجمى . أى أن موضع الكلمة من المدلول والدلالة يكون على الوضع الآتى :

منطوقة . وأما أنها عامة فلأن الكلمة لا ينطقها الناطق (أى لا تصير منطوقا) فى العادة إلا وله منها مقصود واحد ، ولكن المعجم يسوق للكلمة الواحدة عدداً من المعانى لا يمكن بحال أن يقصد جميعه فى نفس الوقت .

ولتلافى هاتين الناحيتين من نواحى النقص فى « الإطلاق » نلجأ إلى دراسة « المقصود »

الكلمة	الدلالة	المدلول
(أى وحدة اللغة)	(أى العلاقة)	(أى المراد)

وهذا المعنى المعجمى « الإطلاق » معنى عام جدا يقوم على فرض استقلال الكلمة وإمكان دلالتها بمفردها . والكلمة وحدة اللغة (أما المنطوق وسيأتى ذكره فهو وحدة الكلام لا اللغة) ونقصد باللغة هنا مجموع الأنظمة النحوية والصرفية والمعجمية والصوتية . وإن نسبة أى معنى إلى الكلمة لابد أن يكون على أساس دراسى لغوى بحت محروم من العنصر الاجتماعى الذى لا بد أن يتوافر فى حياة اللغة اليومية أى أن المعانى التى ينسبها المعجم إلى الكلمات معان غير اجتماعية من جهة ، وعامة عموماً كاملا من جهة أخرى . أما أنها غير اجتماعية فلأنها لا تستخرج من الكلمات وهى فى المنطوق وإنما تستخرج منها وهى منفصلة تماما عن النطق ؛ لأن الكلمة فى المعجم صامتة غير

وهو المعنى الاجتماعى المراد من المنطوق ، وإذا كان «الإطلاق» مطلقا بحكم تعدد المعانى فيه « فالمقصود » مقيد بما يصاحب تحليله من اعتبار الملابسات الخاصة التى هى «الماجريات» والعلاقة بين المنطوق وبين المقصود تختلف عن العلاقة بين الكلمة وبين المدلول من حيث إن العلاقة بين الكلمة ومدلولها علاقة اعتباطية ويسرى هذا التحديد على كل المعانى الواردة فى المعجم على حين نجد أن العلاقة بين المنطوق وبين المقصود به علاقة اجتماعية . ولو كانت العلاقة بين هذين الأخيرين اعتباطية لانعدمت دقة المعنى ولأصبح المعنى فى بطن الشاعر .

وهذا « المقصود » هو الشق الثالث من المعنى أى أن المعنى إما أن يكون وظيفة أو إطلاقا أو مقصوداً . ونود الآن أن

نقوم بتحليل منطوق تحليلا اجتماعيا لنستخرج منه المقصود أى المعنى الوحيد الذى قصد به ويتم هذا بتحليل « الماجريات » أو ما يسميه علماء اللغـــة context of situation ، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتى :

المنطوق .

التحليل اللغوى .

الماجريات .

نوع المناسبة .

الأثر .

والذى يوضع فى خانة المنطوق هو نص العبارة المنطوقة المراد تحليلها لمعرفة معناها ، وإن تحليل المنطوق تحليلا لغويا لينحصر فى خانة واحـدة على حين تنفرد الاعتبارات الاجتماعية بثلاث من خانات الجدول ، ولن نعمد إلى المنطوق فنذكر كل شىء يمكن ذكره عن تحليله وإنما نختار من خصائصه اللغوية ما يستحق الذكر ، لارتباطه بالاعتبارات الاجتماعية المتقدمة الذكر ، ولاسيما الأثر الذى ترتب على النطق . كأن يكون بالنص خطأ يثير السامعين إلى التصحيح أو بالمتكلم لثغة تثيرهم إلى الضحك أو السخرية . والتصحيح والضحك يوضعان فى خانة الأثر من التوضيح السابق. والمقصود بالماجريات كل الملابسات المادية والاجتماعيـة المحيطة بنص المنطوق ويدخل فيهـا المتـكلم والسامعون ، ونقصد بنوع المناسبة ما إذا كان الموقف موقف تعاون على عمل ما أو موقف زجر أو مدح أو ذم أو تحريض أو غير ذلك . أما المقصود بالأثر فنوع الاستجابة التى أعقبت نطق المنطوق .

ولقد حللت منطوقا معيناً فى ص ١٢٢ وما بعدها من كتابى « اللغة بين المعيارية والوصفية » وكان نص هـذا المنطوق هو « قولوا له يسكت » وإن نوع التنغيم فى هذا المنطوق ليدل على معنى هو جزء من المعنى العـام للمنطوق ولا بد أن يدخل فى تحليله . فقد يقال هـذا المنطوق بصوت خافت فى مناسبة اجتماعية معينة هى الخوف من أن يستدل أحد بكلام هذا المتكلم المطلوب سكوته على مكان الجماعة التى هو منها . وإذا قيلت بصوت ساخر فقد تكون المناسبة هى المفاخرة بين شخصين وهلم جرا . ثم إننا نستطيع أن نحدد من المـاجريات عدد هذه الجماعة على وجه التقريب فمنها المتكلم الذى نطق المنطوق ومنها الشخص الذى تكلم عنه ومنها المخاطبون وهم ثلاثة على الأقـل بدليل واو الجماعة (اثنان فى العامية) كل أولئك إشارات إلى المعنى الاجتماعى المقصود وهو الذى قلنـا : إنه أخص من المعنى المعجمى .

ولن يـكون العنصر الاجتماعى فى المعنى إلا من خصائص النص المنطوق وأما النص المـكتوب فهو داخل فى ماجريات أخرى

قد لا يجرى النطق فيها أبدا ، وقد تكون خلوا من العنصر الاجتماعى تماما كحين يقرأ المرء وهو صامت .

لنفرض إذن أن هذا المنطوق قد جرى فى معرض السخرية ولا بد حينئذ أن نضع فى خانة نوع المناسبة من الجدول السابق أن الموقف كان موقفا تطاول فيه رجل على رجل آخر بمحضر جماعة ولم يكن حقه أن يتطاول عليه ، فأراد هذا الآخر أن يرد عليه فلجأ إلى النطق بهذا المنطوق الساخر. الذى يوحى بأن السامعين يعلمون من نقائص هذا المتطاول شيئا كثيراً يجعلهم بموضع يمكنهم من الحكم عليه بالنقص ، وبهذا لا يكون الشخص الآخر بحاجة إلى الرد عليه بنفسه . وقد نضع فى خانة الماجريات أن السامعين لحرصهم على الوقوف موقف الحياد لم يقولوا للمتطاول شيئا بل صمتوا صمتا فيه شىء من الشعور بالحرج ، وتراوحت نظراتهم بين الإطراق والقلق والرجاء المتجه إلى المتخاصمين أن يكفا عن اللجاج . فماذا نضع فى خانة الأثر ؟ . قد نضع فيها منطوقا آخر يفوه به المتطاول كأن يقول : لا يستطيع أحد أن يسكتنى وليس عندى ما أخجل منه . وقد يقول موجها خطابه للسامعين : بل قولوا له هو يسكت حتى لا يندم على كشف أسراره ومخازيه . وقد يسكت فعلا مخافة أن يفضحه الشخص الآخر.

هنا يقع الفرق بين « الإطلاق » وبين المقصود » أى بين المعنى المعجمى وبين المعنى الاجتماعى . فالمعجم يشرح معنى الكلمات وهذا التحليل يشرح معنى العبارات وحين يتناول المعجم الكلمات بالشرح لا يلتقطها من موقف اجتماعى معين وإنما ينظر إليها فى موقف دراسى بحت . وإذا كان لنا أن نفهم معنى عبارة « قولوا له يسكت » فى ضوء شرح مفرداتها شرحا معجميا لكان مجموع معنى المفردات هو : « اطلبوا إليه أن يكف عن الكلام » ولكننا قد رأينا أن المعنى الاجتماعى لهذه العبارة لا يقصر عند هذا الحد وإنما يشمل ما لا يؤخذ من النص أخذاً مباشراً مثل : أنتم تعلمون مقدار نقصه وتفوقى ولهذا أنا أسخر من تطاوله علىّ .

نخرج من هذا بنتيجة هامة هى أن المعنى هو وظيفة الجزىء التحليلى كالصوت والحرف والمقطع والظاهرة الموقعية والصيغة والباب ويضاف إلى ذلك الإطلاق الذى يعطى كل كلمة معناها المعجمى ولا بد لهذين الشقين فى المعنى من شق ثالث هو العنصر الاجتماعى الذى يكشف عنه بتحليل المنطوق منظورا إليه فى إطار الماجريات .

دكتور تمام حسان

وضع الربا في بناء الاقتصاد القومي

للأستاذ عيسى عبده ابراهيم

الأستاذ المساعد بكلية التجارة فى جامعة عين شمس

تمهيد : (١)

أما بعد ، فهذا حديث عن الربا ... الربا من حيث موضعه فى بناء الاقتصاد القومى . فما هو الربا ؟ وما هو الاقتصاد ؟ وما هو البناء ؟ .

البناء فى المجال الاقتصادى على وجه العموم، وفى المجال القومى على التخصيص .

هذه هى المفهومات التى يطالعنا بها عنوان المحاضرة ، ومن ثم فإنه يتعين عرضها بإيجاز حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نتلمس الموضع الذى يشغله الربا فى المجال المحدد لنطاق البحث .

وفى خصوص المعاملات الربوية ، وردت فى كتاب الله سبحانه وتعالى ، وفى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، طائفة من الأحكام .

ومن الطبيعى أن أتعرض لها بالقدر اللازم فى سياق هذا الحديث ...

وقبل أن أتخذ خطوة كهذه ، أود أن أبين رأيى فى هذا الأمر ... أى فى جملة الأحكام التى قررتها الشريعة الإسلامية بخصوص الربا ، وبخصوص المشكلات الاقتصادية وما يتصل بها من شئون تقع من بعيد أو من قريب فى المجال الذى شغلنى عشرات السنين .

وبالتالى فإن ما أقدمه فى هذه المحاضرة من قول لا هو عفو الساعة ، ولا هو مجرد فرض أتكهن به ، لعله يثبت على البرهنة . بل هو رأى بلغ مرتبة اليقين .

أحكام الإسلام :

فى رأيى أن الأحكام التى جاء بها الدين الحنيف ، لا تقبل التطور ولا التطوير ، لأن التطوير أسلوب تقدمى ، يستهدف الترقى إلى مستويات فوق ما هـو كائن أو مألوف ولا يصح القول بالترقى إلا منسوبا لأمر مشوب .

---

(١) نص المحاضرة التى ألقاها الأستاذ بقاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الآخر .

بمعنى أنه لا بد من ظاهرة يكتنفها النقص أو العجز، ومن ثم يكون التكمل والاستيفاء. ولا بد من أمر أو حكم متواضع حتى يجوز عليه التهذيب والترقى.

ولما كانت أحكام الإسلام مستمدة من القرآن، أو تجد ضوابطها من آيات الله البينات، إذا كان مصدر الحكم بخلاف النصوص القرآنية، كالحديث والاجتهاد؛

ولما كان القرآن هو كلام الله القديم وأنه من عند عالم الغيب والشهادة، فإن أحكاما كهذه، بل هذه الأحكام على سبيل الحصر، قد تميزت على كل حكم أو رأى من قول البشر بأنها تنزلت كاملة شاملة، ومتفردة بالثبات الأبدى الذى يجعلها وحدها المعيار الصالح الذى تقاس به الظاهرات، وتوزن به الآراء والأحكام، لبيان ما فى اجتهاد الإنسان من توفيق أو من فساد:

أحكام الإسلام إذن بدأت منزهة عن النقص والعجز، وهى من أجل ذلك غير قابلة للتكمل ولا التوفية.

وأحكام الإسلام إذن بدأت رفيعة القدر، لتكفل للناس كافة مستوى من الحضارتين المادية والفكرية فوق كل ما يخطر على قلب بشر، ولذلك لا يصح أن يضاف إليها دعوى التطوير بحجة الضرورة الملزمة أو تحقيق المصلحة، لعلها إذا تطورت، كانت مسايرة لمستويات من الحضارة ولأنواع من المعاملات لم تكن معروفة لعهد نزولها.

أما علم الإنسان فهو الذى يجوز عليه التطور والتطوير.

وأما المختزن من المعرفة من مشاهدات الإنسان وتجاربه، جيلا بعد جيل، فهو الذى يصح نسبة النقص إليه، ومن ثم يكون التكمل، ويكون الاستيفاء.

الاستدلال إنما يكون بالأسلوب العلمى:

ولنا أن نتساءل: كيف يستقيم الأسلوب العلمى فى البحث عن مدى الملاءمة بين مجموعة معينة من الأحكام، وبين التطور الحضرى الدائب، إذا كنا نبدأ القول برفع هذه الأحكام إلى مرتبة العقيدة؟.

ذلك أننا نتناول فى موضوعنا هذا بضعة أحكام خاصة بالمال، وهو بعض المتاع فى هذه الحياة الدنيا، وجاءت فيه آيات بينات، ولا نتناول فى بحثنا هذا حجية الكتاب وقدمه.

وأحكام الأموال، بما فيها أحكام الربا، هى فرع على أصل.

وحين نقول بثبوت الأصل، فإن الفرع يكون ثابتا بداهة،، ولا يجوز عليه التأويل

كما لا يجوز عليه التعطيل بحجة المصلحة أو الضرورة .

ومع ذلك فلننظر إلى بعض أحكام الأموال نظرة موضوعية خالصة ، دون أن نتأثر بجلال مصدرها ، قال تعالى فى سورة البقرة :

« ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو » .

وقال أيضا فى سورة الأعراف « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

فى هاتين الآيتين الكريمتين جاء ذكر « العفو » مقرونا بالإنفاق مرة ومقرونا بالأخذ أو بالتلقى والقبول مرة أخرى .

وقد صرفها المفسرون على وجوه كثيرة تشهد لهم بحسن النظر ، وبالإحاطة بفنون الكلام ، مع الحرص على جمع الروايات ما كان منها متواترا وما كان موقوفا وما كان محل إجماع أو دون ذلك .

ومن بين هذه الأقوال ما يصرف الحكم إلى فائض المال أو اليسير منه ... وحده امتناع الإرهاق .

وللمفسرين أقوال أخرى معلومة ، ومنها صرف القول إلى الصفح والمغفرة . وأن الآية الواردة فى سورة الأعراف قد جمعت مكارم الأخلاق ... وكل هذا حسن .

إلا أن الرأى الباده يصرف لفظة العفو فى كل من الموضعين إلى اليسير من المال ، أو الزائد على الحاجة ، بحيث إن إنفاقه لا يوجع ، وبحيث إن أخذه فى صورة زكاة أو مساهمة فى تجهيز غزوة ، مثلا ، لا يوجع أيضا . ولهذا الفهم سنده من أقوال المفسرين الأعلام وهو إن كان قد ورد مع غيره من وجوه التفسير إلا أننا سنصرف النظر عما عداه ، فنقول : الله جلت قدرته يعلم أن المال من زينة الحياة الدنيا ، وأن إخراجه بغير عوض معجل أو حاضر هو من الأمور التى لا تنشط إليها الهمة . ولذلك حث على الإنفاق ، ووعد بالأجر المضاعف فى عديد من الآيات .

إلا أن كلا من الأخذ (كأخذ الزكاة) والإنفاق (كالإنفاق فى سبيل الله من صدقة ونحوها) يجب أن يخضع لمعيار ثابت تطمئن إليه النفس البشرية ، فلا تجزع من تقرير الفرائض المالية التى تنتقص بحكم اللزوم من المال الخاص بغتة ومن غير ضابط .

فأما هذا المعيار الثابت فهو أن يكون حد المال المخرج « عفوا » بمعنى زائدا .

وفى القاموس أن العفو من المال هو أحله وأطيبه ، ومن الماء ما فضل عن الشاربة .

فأما قصر الأخذ على حل المال وأطيبه فلا يتفق مع بقية الأحكام الواردة فى القرآن ، ولا التطبيقات التى ارتآها السلف الصالح ...

قال تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

فإذا كان صاحب المال يخرج بعضه ليطهر نفسه وليزكيها - إذا شاء الله - فإنه ليس حتما أن يكون ماله فى الأصل ، هو أحل المال وأطيبه ... وفى سورة التوبة قوله تعالى «... حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون».

وفيما جمعه القاضى أبو يوسف فى كتابه (الخراج) قوله: « وأيما قوم من أهل الشرك صالحهم الإمام على أن ينزلوا على الحكم والقسم ، وأن يؤدوا الخراج فهم أهل ذمة ، وأرضهم أرض خراج ، ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه ، ويوفى لهم ولا يزاد عليهم.

إذن أخذ المسلمون الجزية كما أخذوا الخراج ، ولا محل للقول بأن المال الذى أخذت منه هذه الفرائض قد كانت من المال أحله وأطيبه .

وقد يحتج على هذا القول بأن الضمير فى قوله تعالى : « خذ من أموالهم ... وفى قوله تعالى ، ويسألونك « ماذا ينفقون » إنما ينصرف إلى أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

إلا أنه يلاحظ أن سيدنا عمر وهو أول من دون الدواوين ، قد اتبع مفهوم لفظة العفو بمعنى الزيادة أو البقية أو الفضل ، فى فرض الجزية فأعفى المسن والمرأة والطفل والمريض ، على أساس العجز أو امتناع توافر ما يؤخذ منه ، وهو العفو من المال كما اتبع فى فرض الخراج تدرجا يحقق من العدالة ما يتفق وأخذ الفريضة من فائض المال . ومن ثم فإن الحكم عام ، ويتعين النظر إلى فائض المال وهو « العفو » عند وضع المبادئ التى تعين الأوعية المالية ، سواء فى ذلك أكانت هذه الأوعية المالية لمسلم أم لذمى .

ومما تقدم يمكن القول باطراح أحد المعنيين الواردين فى القاموس ، وهو القول بأن العفو من المال هو أحله وأطيبه فى خصوص ما نحن بصدده من تحديد معنى العفو فى الآيتين الكريمتين .

وبقى أخيرا المعنى البديهى الذى يتفق مع سياق القول فى كل من الآيتين الكريمتين، والذى يتفق أيضا مع بعض الوجوه التى قال بها المفسرون ، وما فهمه سيدنا عمر ، وهو أن لفظة « العفو » فى الموضعين ، ترمز إلى فضلة من المال ، أو زيادة يكون أخذها أو الأخذ منها فى حدود الطاقة بحيث يكون الحرمان منها محتملا .

فلننظر إذن إلى لفظة واحدة وهى لفظة « العفو » لنرى ما انطوت عليه من تحديد الوعاء الذى يغترف منه ولى الأمر لتحقيق المصالح العليا للمجتمع ، ولتحقيق المصالح العامة أيضا ، وهذا الوعاء بذاته هو الذى

يندب الإنفاق منه فى سبيل الله ، وبيان ذلك : بقيت هذه الآية الكريمة بنصها وبحكمها أربعة عشر قرنا من الزمان دون إضافة أو حذف ، لتقرر حكما فى شئون المال ، وهذا الحكم هو المستقر فى مفهوم قوله تعالى فى وصف الوعاء الذى يؤخذ منه ، بلفظة مفردة هى « العفو » .

ولكن ما هى الأدوار التى مر بها الفقه المالى بعيداً عن حكم القرآن .

كانت الأموال الخاصة تصادر ، وكانت الفرائض تجبى بطرق بدائية فى ظل الإقطاع . وكانت الأرض ومن عليها تعهد إلى المقاولين (ويعرفون فى التاريخ بالملتزمين) لقاء عدد من أكياس الذهب أو الفضة تقدم إلى الخزانة العامة ، أو إلى جيب الوالى ، أو الأمير أو الحاكم به ... وليطلق الملتزم بعد ذلك عماله وأعوانه لتحصيل الفرائض والمكوس بالعنف وبالقسوة . ومن الصور التى حفظها التاريخ لهذا العنف ، الضرب بالسياط ومصادرة المنقول من قوت أو ماشية . ولذلك كانت الإدارة المالية نوعا من التخريب والفوضى . وسادت هذه الحال فى الغرب ، ومن أسف أنها عرفت فى بلاد المسلمين بعد أن مال الميزان حول القرن الرابع عشر ، وزادت لعهد المماليك فى ظل الدولة العثمانية .

ولكننا نريد أن نقترب من نور علم الإنسان ، وقد ظهرت أماراته فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى أوائل القرن التاسع عشر ، بمناسبة التكتل الأوربى والبريطانى لملاقاة نابليون ، وعندئذ عرفت الضرائب المنظمة لأول مرة فى تاريخ الغرب ، ونشط علماء الاقتصاد لوضع نظريات الفرائض المالية فقالوا أولا « بنظرية المنفعة » .

وتتلخص هذه النظرية فى أن حق الدولة على الرعية إنما يقرره ذلك القدر من النفع الذى يعود على الفرد من مباشرة الدولة لوظيفة عامة معينة .

ولئن كانت هذه النظرية قد تخاذلت وأفسحت لما هو خير منها ، إلا أن لها بقية ورثها القرن العشرون ، ولنضرب مثلا يحدد ماهيتها ... وجدير بهذا المثل أن يكون واضحاً كل الوضوح لأنه يحلو واحداً من القيود الفكرية التى ورثها القرن العشرون من العصور الخالية .

ففى رسوم المرور يدفع صاحب سيارة النقل سبعين جنيها — تقريباً — فى السنة ، على تفاوت يسير لا يمس الجوهر . ويدفع صاحب السيارة الصغيرة عشرة جنيهات فى السنة . وهذه الرسوم تجد علتها فى انتفاع كل من الأول والثانى ، بالطرق وبتنظيم المرور .

وأساس الإثقال على سيارة النقل هو أنها تستهلك الطريق وتشغله بما يزيد أضعافا على ما يتأتى من السيارة الصغيرة .

إذن صاحب سيارة النقل ينتفع من الطريق العام بأضعاف ما ينتفع الآخر ، وتقضى العدالة — فى نظر المؤمنين بنظرية المنفعة — بهذا التفاوت فى أوزان الرسوم .

ولا يمكن لفقهاء المال أن يسكتوا عن تبرير هذا الأسلوب المجافى للعدالة ، ولذلك نراهم يقولون بأنه لا يجوز الخلط بين الرسوم وبين الضرائب .

فالرسوم تجبى لقاء خدمة أو منفعة معلومة بذاتها . على حين أن الضرائب تجبى دون نظر إلى مقابل معين بذاته . ويرتبون على هذا الجدل أن تأسيس الرسوم على نظرية المنفعة لا غبار عليه . وفى هذا الدفاع شبهة من الوجاهة ، ولكننا حين ندرس رسوم الجمارك نجد أنها تثقل على الضعيف ، وتخف عن الغنى ، وبالتالى تخرج عن مفهوم العدالة فى توزيع التكاليف فى بعض الحالات (كما فى رسوم التبغ) وإذا سئل فقهاء المال فإنهم يقولون هذا باب، هام من أبواب الإيراد لا يمكن أن نلتزم فيه بتطبيق نظرية المقدرة — وهى أحدث النظريتين — ويكفى لصبغ هذه الفريضة بصبغة العدالة اللفظية أن نطلق عليها هذه التسمية « رسوم » وبعد ذلك نكون فى حل من قيود العدالة المطلقة ...

وكل ما تقدم من أقوال فقهاء المال ، بخصوص رسم السيارة ورسم الجمرك ، لا يثبت على النقد حين يرد إلى المعيار الإلهى فى قوله تعالى : « خذ العفو » ولكن مجال الحديث لا يحتمل مزيداً من الإطالة فى هذا الخصوص، وإنما نضرب الأمثال على ثبات حكم الإسلام فى مستواه الرفيع من ضمان العدالة الاجتماعية، وتعثر العلماء فى اجتهادهم وفى هذا بلاغ .

لم تكن نظرية المنفعة إذن بقادرة على مواجهة النقد المؤسس على تفسير لفظة العدالة فوقف العمل بها — إلا فى حالات أشرنا لبعضها — وقال الفقهاء بنظرية القدرة ، أى قدرة الفرد على إمداد الخزانة العامة ، ببعض ماله الخاص .

وفى أواخر القرن التاسع عشر كان الفقه المالى قد بدأ يتكون كما كان علم المالية العامة قد انسلخ من علم الاقتصاد ، وكان من قبل فرعا منه .

ونشطت الأقلام المقتدرة لتحديد الضوابط والمعايير التى تؤدى إلى تحديد قدرة دافع الضريبة ، خلال القرن التاسع عشر ، إعمالا لنظرية المقدرة .

واتجه الرأى بادئ ذى بدء إلى تقرير نسبة مئوية واحدة مثل ٥ ٪ ثم تبين أن استقطاع خمسة جنيهات من صاحب المائة

فحسب ، هى أشد إيلاما من استقطاع خمسين من صاحب الألف ، مع وحدة النسبة المقررة للضريبة .

ومن ثم فإن النسبة الموحدة لا تحقق العدالة .

فقيل بالتصاعد والتدرج ، لتقريب وقع الضريبة على كل من الغنى والفقير .

... ثم تبين أن صاحب الألف قد يكدح ويشقى فى سبيلها كصاحب المهنة مثلا ، على حين أن غيره من أصحاب الألف أيضاً (كإيراد سنوى) يحصل عليها بغير عناء لأنها تجىء من مورد ثابت كأرض أو عقار ...

وهكذا تبين مرة أخرى أن التصاعد وحده لا يحقق العدالة على وجهها الصحيح ، فدخل التفاوت على الفئات لإثقال التكليف على صاحب الإيراد الثابت ، وتخفيفه عن صاحب الإيراد المكتسب .

ولكن الظروف الاجتماعية لزيد من دافعى الضرائب ، لا تطابق حتما ظروف غيره . فمن الممولين من لا أسرة له ، ومنهم من ينوء بالتبعات للأهل والولد ... ومن ثم قيل بالتخفيف المعين المحدود ، على أساس تقرير ما يعرف بالإعفاءات من أجل نفقة ملزمة لوالد شيخ ، مثلا ، ولنفقة الزوج والولد ، على تفصيل لا يدخل فيما نحن بصدده .

ولئن كان آدم سمث ، أستاذ المنطق والاقتصاد فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر ، قد وضع أسس الضريبة العادلة ، وهو بصدد الكلام عن اقتصاديات الدولة — قبل تجنيب هذه الاقتصاديات فى فرع خاص يعرف بالمالية العامة — إلا أن القرن التاسع عشر كله قد شهد التطور الرتيب فى سبيل تحديد هذا المفهوم الذى تؤمله الإنسانية المتحضرة حضارة مادية خالصة ، ألا وهو العدالة فى توزيع التكاليف المالية على أفراد الرعية .

ولم يكن للأسرة حساب يذكر قبل السنوات الأولى من القرن العشرين ، وكان ذلك تحت ضغط الوعى الذى انتشر فى صفوف الجماهير ، وغالبيتهم من العمال ، والصناع الذين ذاقوا الأمرين فى مراحل التصنيع التى جرت بأوروبا وانجلترا والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر على وجه الخصوص .

ومن ثم نجد البحوث المبكرة فى شئون الأسرة وواجبات رب الأسرة وحقه فى المزيد من الإعفاءات والمزيد من الأجر ، تطالعنا فى مستهل القرن العشرين لا قبل ذلك .

فى خلال قرنين من الزمان ، إذن ، وفى عصر الحضارة المادية الحديثة والحضارة الفكرية الباهرة ، تطورت النظريات المالية لتصل إلى استكمال المعايير التى تؤدى إلى فهم للنظرية المقدرة . أو نظرية القدرة على الدفع .

وجدير بالذكر هنا أن ما قال به العالم

الانجليزى آدم سميث ، وما زاده من بعد كثيرون من علماء الاقتصاد والمالية من أمثال جون ستيوارت مل ، وباستايل ، وسيد جوبك ، وهم جميعا بصدد استكمال هذه المعايير ، قد ورد بوضوح فى القواعد التى وضعها الخليفة الثانى سيدنا عمر . وقد جمع أبو يوسف فى القرن الثانى للهجرة ما انتهى إليه من آثار السياسة المالية لعمر فإذا بها تسبق الغرب بما يقرب من ألف عام .

ولم يكن لهذا الخليفة العظيم ، من معلم سوى القرآن ، فقد فهم ماهية « العفو » فى شئون المال ، فاهتدى بنور القرآن ، وعرف الإعفاءات ، كما عرف الضريبة الصاعدة .

ولو أننا عرضنا الفقه الضريبى والنظرية المالية ، فى أرقى المستويات التى وصلت إليها إلى الآن ، لوجدناها تكاد تقترب من المعيار الذى حددته الآية الكريمة « خذ العفو » ؛ لأن المال لايكون فائضاً عن حاجة من يخرج عنه طوعا أوكرها ، إلا إذا روعيت حاجته وحاجة عياله ، ووسائل تكسبه ، أهى رخصة هينة ، أم شاقة مجهدة ، وجملة إيراده ، أهى كافية لمواجهة ضروريات الحياة أم هى مقصرة عن الوفاء بها ... إلخ .

وإن المرء ، حين يتأمل قوة هذه اللفظة وثباتها وما توحى به من المعانى اللصيقة بها بحكم اللزوم ، حتى يتحدد المدلول الذى ترمز له ، وهو فائض المال الذى يكون محلا للفرائض ... أقول بأن المرء حين يطيل النظر على هذا النحو فإنه يقترب عندئذ من فهم وجه واحد من الوجوه التى يحمل عليها قول الله تعالى ، فى سورة لقمان .

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » .

وقوله تعالى فى سورة الكهف :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولوجئنا بمثله مددا » .

والحق أن كلمة واحدة وهى كلمة « العفو » فى موضعها من الآيتين الكريمتين ، لشديدة الإبانة عن كثير من كلمات ربى .

وما على القارئ إلا أن يصغى إلى الكلمة الواحدة ، فإذا هى تحدثه بكلمات تجل عن الحصر .

وعند هذا الحد من القول قد يبدو وكأن مفهوم الآية الكريمة « خذ العفو » قد تجلى على التلاوة بشىء من الإمعان . ولكن هذا الظن لا يخلو من التسرع ، فلا تزال المعانى العلمية الدقيقة تحف بالنص من كل جانب ...

إذن فلنرجع للتلاوة من جديد :

« خذ العفو » والعفو كما انتهينا إليه فيما تقدم ، هو الفائض الذى يكون الحرمان منه محتملا ...

فإن كان ولا بد من الأخذ الموجع فليكن بأقدار متساوية عند كافة أفراد الرعية . والتسوية فى الحرمان تقضى بتفاوت الفرائض من زوايا كثيرة ، كما تقضى بالتفاوت فى الإعفاءات كما قدمنا . وكل هذا حسن جميل ، وتطمئن إليه النفس ، ولكن هنالك معيار آخر تدل عليه الآية الكريمة ، ولا يقل أهمية عن كل ما ذكرنا ، وبيان ذلك : أن المال لا يكون « عفوا » بمعنى : زائدا أو فائضا ، إلا إذا ارتفع فوق المستوى الحدى لتكلفة المعيشة على صورة إنسانية .

ومؤدى ذلك أن حكم الآية الكريمة يوحى بوجود مستوى من العيش لا هو بالكفاف ولا هو بالغ حد الإتلاف ، ولكنه وسط بين هذين الحدين .

والآية الكريمة تفسرها آية ، والقانون يفسره قانون ، والمادة من القانون تفسرها مادة أو مواد ، وإعمال بعض الأحكام مع بعضها الآخر أولى من إعمال كل منها فى معزل عن غيرها .

هذه أساليب مسلمة فى الاستدلال العقلى على المفهوم الصحيح للأحكام . ولذلك نتلو قول الله سبحانه وتعالى (من سورة الفرقان) « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً » .

ثم نقف عند حد قوله تعالى : « قواما » ونجد أن هذه اللفظة فى موضعها من الآية الكريمة ، تضع المعيار الثابت لحد الاعتدال فى الإنفاق على الشئون الخاصة بالمعيشة العادية ، وهذا الحد من الإنفاق هو الذى يكفل المستوى الوسيط من العيش ، الذى يستنفد من المال قدرا يكون ما فوقه « عفوا » يؤخذ منه ، أو يؤخذ كله .

إذن الآية الكريمة : « خذ العفو » تحمل فى طياتها حكما بأن لكل إنسان مستوى من العيش الذى يحفظ عليه إنسانيته ، وهذا المستوى مصون بأمر الله ، ولا ينبغى لولى الأمر أن يمسه ، لأنه أمر بأن يأخذ العفو أى ما زاد (أو مما زاد) على القدر الضرورى لمواجهة تكاليف الحياة دون تقتير ودون إسراف .

فإذا سلمنا بأن الآية الكريمة تشير إلى المستوى المذكور ، فإن قضية هامة تجىء بالتبعية ، أو بالقياس العكسى ، وذلك أن ولى الأمر حين يأخذ « العفو » ويحفظ على الفرد ـ الذى يؤخذ منه ـ مستواه الإنسانى وذلك بالكف عن المساس بما دون العفو إنما يفعل هذا كله فى سبيل المصلحة العامة ، وصونا للمجتمع من فساد الإسراف وتمكينا

الدولة من مواجهة نفقاتها العامة ، وكل هذا جلى وصحيح .

إلا أن هـذا المستوى الذى حددته الآية الكريمة ليكون حصنا لما تحتـه من مال ، ما خبره عند الفقراء الذين لا ترقى مواردهم إلى مجرد مستوى الإعفاء ، أى الذين لاعفو عندهم ، ولا ما دون العفو ؟ .

وهل يجوز لنا أن نفهم بأن حكم الآية قد نزل لتنظيم الشئون المالية للقادرين على الدفع وحدهم ، ومن أموالهم يكون الأخذ ؟ .

أم هل يجوز لنا القول بأن المستوى المصون من العيش ، هو فى نظر ولى الأمر وقف على القادرين ، فأما من عداهم فهم كم مهمل .

وهل عرف عن أحكام الإسلام أنها تكيل بمكيالين ؟ .

معاذ الله . فإن عدله سبحانه وتعالى يأبى ذلك ...

إذن ما دمنا قد وصلنا إلى القول بأن ولى الأمر ينظر بنفسه وبأدواته التى يستعين بها على الحكم فى الشئون المالية للناس حتى يطمئن إلى تحديد المستوى الإنسانى ، ومن الفائض فوق تكاليف هذا المستوى يأخذ الفرائض ...

وما دمنا قد قررنا بأن ولى الأمر يلتزم أيضا بدراسة هذا المستوى ومدى توافره عند كل فرد ، فإنه يترتب على ذلك أنه إذا كانت بأقوام منهم مسغبة أو متربة فإن علاج أمرهم يدخل فيما يدل عليه المفهوم الاصطلاحى « المصلحة العامة » التى كان تحقيقها قصدا ، وما الأخذ إلا وسيلة .

فكيف يفعل إلى ولى الأمر بالحالات التى ترقى المستوى الحدى الذى تتعين عنده بداية الفائض ، أو بداية العفو ؟ .

هذه هى القضية الأخرى التى لا تقل عن كل ما تقدم ، من حيث الأهمية .

وهى بدووها ، بعض ما تحدثنا به الآية الكريمة الموجزة ، « خذ العفو » حين نحسن الاستماع إلى ما فى كتاب الله من حكم بين ثابت جامع مانع ، لا يقبل التطوير ولا التطور ، بل هو وحده الكفيل بتحقيق الخير فى الأولى وفى الآخرة .

قد يبدو أن ما تقدم من قول متصل بقوله تعالى « خذ العفو » لا يمت إلى موضوع الربا بأية صلة . ومن ثم فإن القدر الذى ذكرناه يحمل على أنه تقديم مطول ! !

وأبادر إلى إزالة هذا اللبس فأقول :

إن الحكم الذى يقضى بأخذ العفو دون غيره من أثمان الضروريات ، وما يتفرع عنه من كفالة ولى الأمر للمستوى الوسيط ، إنما هو مثل للأحكام القرآنية التى تستهدف

صيانة المجتمع من الهزات الاجتماعية ومن الآراء الهدامة ، كما أنه يستهدف كفالة التعاون فيما بين الناس .

أى أنه حكم يحقق الاستقرار ، ومن ثم التقدم والبناء فى ظل وارف من الأمن والطمأنينة ، إذا حسن تطبيق الحكم ... وذلك على حين أن التنظيم الربوى يزيد من الفروق بين الأرزاق ، ويزيد الضعيف ضعفا ، فيكون عبئا ثقيلا على المجتمع ، ومصدرا للتفكير الهدام ، أو للجريمة . كما يزيد الغنى غنى ، فيغريه المال على الفساد والطغيان .

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة العلق « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » فإذا جلونا صورة واحدة من صور الأحكام التى تستهدف البناء الاقتصادى فى ظل الأمن ، فإن النقيض من ذلك يكون جليا واضحا بدوره .

والشاعر يقول : وبضدها تتميز الأشياء .

عند هذا الحد ، إذن ، سأترك الكلام عن مفهوم قوله تعالى « خذ العفو » مع التنبيه ـ بكل احترام ـ إلى أننى لم أزد على النزر اليسير ، وإلى أن هذه الآية الكريمة قد وسعت من علوم المال شيئا كثيراً ، مع فارق هام ، أكرر الإشارة إليه ، وهو أن النص القرآنى واضح وثابت ومرن ، ومن ثم فهو فوق مقتضيات التطوير من لزوم الجمود أو العجز أو النقص أو التخلف ... وهذه شوائب مألوفة فى صناعات البشر ، سواء أكانت هذه الصناعات عروضا ملموسة يجوز عليها التعديل والتحسين ، أم كانت من القضايا الفكرية التى تدركها الأفهام ، ومن ثم يجوز عليها النقد والتصحيح فى سبيل الترقى إلى مستويات الفكر الرفيع .

ماهية النظام الاقتصادى :

النظام الاقتصادى هو الهيكل العام الذى تجتمع فيه مقومات الحياة المادية للإنسان . ومن ثم يقال بأن الاقتصاد هو « العلم الذى يدرس سلوك الإنسان فى معيشته العادية ، أو فى شئون معاشه . وقد أوردنا لفظة المادية عن قصد للتنبيه إلى أنه من عصر النهضة ، واتجاه الفكر الغربى إلى التحرر من قيود تعاليم الكنيسة فى شئون المعاش ، توافرت فى الغرب ظاهرات تحررية (على ما يقولون) يهمنا منها فى مقامنا هذا الفصل التام بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد .

ليس هذا فحسب ، بل إن علم الاقتصاد قد فصل فصلا تاما عن جميع العلوم الفلسفية ومنها الاجتماع .

وكل ذلك نتيجة لثورة الفكر الغربى المتحرر من تضييق الخناق على النشاط الذى يحكم العقل بإجازته (بل يحكم بضرورته) ،

كالتجارة مثلا ، إذ كانت محرمة تحريما باتا ولم يجرؤ أحد من علماء اللاهوت على إباحتها حتى أن تعاليم الأب توما الأكوينى الذى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد (من سنة ١٢٢٥ إلى سنة ١٢٧٤) كانت تجمع بين الجرأة وبين التردد ، ولم يسلم من النقد ، على نحو ما سنرى بعد قليل .

أما علم الاقتصاد فى يومنا هذا (بعد تطوره فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة) فقد وصل إلى القول بأنه لا يعنى إلا بدراسة الظاهرات الوثيقة الصلة بشئون الثروة ، على النحو الذى تتأتى عليه ، من غير تدخل من الباحث . بمعنى أن هذا العلم ينحصر فى القول بما هو كائن وبما سيكون من نتيجة منطقية إذا توافرت مقدمة معينة ، ولا شأن له بما ينبغى أن يكون .

فتقول مثلا : إذا زادت كمية النقود (وبقيت الظاهرات الأخرى على حالها) فإن الأثمان تميل إلى الارتفاع) .

ومعنى ذلك أنه ، إذا توافرت كميات جديدة من النقود ولم يحدث أن ازادت سرعة تداولها ، كما لم يحدث أن توافر قدر إضافى من السلع والطيبات ، فإن مستوى الأسعار يميل إلى الارتفاع ، أو يرتفع حتى يبلغ المستوى الذى يتناسب مع زيادة النقود ، أما إذا زادت كمية النقود وزادت سرعتها فى التداول أيضاً ، فإن ارتفاع الأثمان يكون أسرع وأشد ، بفرض بقاء الظاهرات الأخرى على حالها .

قلنا بأن علم الاقتصاد لا يبحث فيما ينبغى أن تكون عليه الحال ، وهذه قاعدة مطردة مهما بلغت صلة المشكلة التى يبحثها الاقتصادى ، بالأمور الإنسانية كمشكلات العمال مثلا ، أو عقد القرض .

هذا هو علم الاقتصاد البحت أو النظرية الاقتصادية ، وهى فى تطور مستمر ، وقد خضعت فى هذا القرن العشرين إلى التحليل الرياضى ، وآتت من النظريات ما هو جدير بالدرس والتمكن ، إلا أن بقاء هذا الفرع الخاص من فروع المعرفة فى برجه العاجى لم يمنع من قيام الثورة فى نفوس بعض المشتغلين به من المزج بين فلسفة الاجتماع وبين الاقتصاد البحت ، ومن ثم نشأت فروع خاصة ، يقال لواحد منها الاقتصاد الاجتماعى .

وأود التنبيه إلى أن عزل الظاهرات الاقتصادية عزلا تاما عن فلسفة الاجتماع ، وإخضاعها للرياضة (وهى مجموعة من القوانين الثابتة) تنطوى على خطر كبير يتمثل فى جمود العاطفة وإهدار الأمور الإنسانية . وقد ترتب على الأخذ بهذا النظر ، أن نشأت فروع أخرى من المعرفة ما كانت الحضارة الفكرية لتقرها لولا هذه النظرة المادية الخالصة

تطوّر النحو العربيّ

للدكتور عبد الله درويش

— ٢ —

الفلسفة والمنطق والتعليلات :

نرجو أن يكون واضحاً فى الأذهان أن كل فكرة لابد أن تعتمد على فلسفة ما ، وأن مسائل الموضوعات لابد أن تساير المنطق فى عرضها فلا يكون فيها تناقض . وأن الآراء حين تختلف ويراد ترجيح أحدها لابد من ذكر سبب أو تعليل لذلك . ولا نطلب من النحو أن يكون بدعا بين العلوم فيخلو من الفلسفة والمنطق والتعليلات بالمعنى الذى ذكرناه .

حتى المنهج الوصفى فى النحو له فلسفة ، وأفكاره منطقية غير مضطربة ويدعم حججه بالأسباب .

إذن فما مشكلة النحو ومزجه بالفلسفة والمنطق وإسرافه فى التعليل ؟

المشكلة هى أن النحاة بنوا تقسيماتهم فى القواعد على أساس من الفلسفة فاستعاروا الاصطلاحات الفلسفية ومدلولاتها وحاولوا تطبيق النحو عليها . . .

مثال : ذلك : الفاعل . فمعناه الفلسفى من قام بإحداث شىء ، ومعناه النحوى كذلك

فى دراسة الثروة . ومن ذلك تأسيسها على خيال سقيم يسمح بإقامة علم مستحدث فى دوائر الأعمال يقال له « الأخلاق العملية » .

Business Ethics.

هذه هى بعض النتائج التى ترتبت على فصل دراسة الثروة أو الأموال ـ وهى التسمية الثانية التى أقرها فقهاء الإسلام ، وهى الأصلح ـ عن دراسة الفلسفة . أو قل بعبارة صريحة : فصل الاقتصاد عن الدين .

وقبل أن نسرف فى الإعجاب بتطوير النظرية الاقتصادية وما وصلت إليه من تحقيق المادية الصرفة يجمل بنا أن ننظر إلى الأسباب التى أدت إلى العزل الذى أشرنا إليه ، أعنى عزل الاقتصاد عن الدين . وقد كان تحريم الربا فى تعاليم الكنيسة من أهم هذه الأسباب .

البقية فى العدد المقبل

عيسى عبده ابراهيم

فيقولون : كتب محمد ، بات على، فما رأيهم فى ماقام أحمد ؟ فاعل ويستتبع ذلك ، أن نقول فلسفياً : كل فعل لا بد له من فاعل فيلزمنا أن نقول كتب وقام محمد . . . إن فى هذا الأسلوب تنازعا ؛ لأن الفعل كتب يحتاج إلى فاعل ، والفعل قام يحتاج إلى فاعل وكذلك مسألة الاشتقاق .

ما أصل المشتقات المصدر أم الفعل الماضى؟

أما أهل المنطق فقد بنوا قواعدهم فيه على أساس تكملة القسمة العقلية . . فمثلا اجتماع الهمزتين فى كلمة واحدة — مسألة صرفية ، إما أن يكون فى أول الكلمة أووسطها أوآخرها ، وعلى كل إما أن تكونا ساكنتين أو محركتين أو متخالفتين ، وعند محاولتهم تطبيق هذا افترضوا كلمات لم تنطق بها العرب واضطروا أن يقولوا مثلا .

إذا بنيت على مثال جعفر من قرأ

أو على مثال برثن من قرأ .

أو على مثال زبرج من قرأ الخ .

ولكن كما سبق نحن لا نملك أن نخترع اللغة بل نحللها كما وردت إلينا خصوصا فى أصواتها وفى مفرداتها . أما التركيب فنحلل منهجه ونقيس عليه .

وكان إغراق النحويين فى هذه الأشياء مدعاة ليندر الشعراء والعامة عليهم ، كما ذكر السيوطى فى بغية الدعاة ٢٦٥ روايات تشهد على ذلك فهذا أبو حاتم السجستانى فى بعض حلقات الدرس فى بغداد كان يتناول بالشرح اللغوى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » فذكر لتلاميذه أن الأمر للواحد : ق ، وللاثنين قيا ، وللجمع قوا ، فحين تضمها إلى بعضها تقول : ق قيا قوا .

وكان فى ناحية من المسجد رجل يسمع ما يدور بين الأستاذ والتلميذ فقال لصاحبه « احتفظ بثيابى حتى أرجع » وانطلق إلى صاحب الشرطة وقال له إنى ظفرت بقوم من الزنادقة يقرءون القرآن على صياح الديك ، فما شعر أبو حاتم ومن معه إلا بالشرطة يهجمون عليهم . وفى المحضر تقدم أبو حاتم يشرح القصة لرئيس الشرطة . . وقد اجتمع خلق كثير لينتظروا نتيجة المحاكمة . . فما كان من صاحب الشرطة إلا أن عنفه وقال له « مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا ؟ وأمر بأصحابه فضربوا بالسياط وقال لا تعودوا لمثل هذا .

فترك أبو حاتم بغداد ورحل إلى البصرة .

ولم يكن نصيب العروضيين من السخرية بأقل من نصيب النحاة . فهذا أبو جعفر بن النحاس العالم المصرى الذى انتقل على يديه علم البصرة والكوفة إلى مصر . . كان يجلس فى جزيرة الروضة على درج المقياس يقطع أبياتا من العروض ويردد التفعيلات أثناء

التقطيع وكان ذلك مدة الصيف أثناء الفيضان فسمعه بعض العوام فقال : هذا يسحر النيل حتى لايفيض .. وبالتالى ينقص ماؤه فتقل المحاصيل فتغلو الأسعار وتزيد الرواية للقصة خاتمة بائسة فتذكر أن الرجل دفع ابن النحاس برجله فى النيل ، ولم يعثر له على أثر (أنباء الرواة ح ١ ص١٠٢) .

وفى عصرنا الحاضر يعتبر العروض أشبه بكتابة الطلاسم والأحجبة .

هذا ما كان من شأن العامة .

أما الشعراء فكلنا يدرك مدى الخصومة التى كانت بين الفرزدق وعبد الله بن أبى إسحق، فقد كان هذا العالم النحوى يتتبع سقطات الفرزدق حتى إذا كان قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من الناس إلا مسحتا أو مجلف

فقال له ابن إسحق : علام رفعت مجلف فقال الفرزدق : على ما يسوءُك وينوءُك .

ثم هجاه الفرزدق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا

فغلطه ابن أبى إسحاق فى الكلمة الأخيرة وقال إنما هى « موالى » .

ولقد وقف أعرابى (أخبار النحويين ٤٥) على أبى زيد مستمعاً فظن أبو زيد أنه جاء يسأل مسألة فى النحو : فقال له أبو زيد هل لك حاجة إلى أن تسأل عن مسألة فى النحو؟ . فقال الأعرابى على البديهة .

لست للنحو جئتكم
لا ولا فيه أرغب
أنا مالى ولامرئ
أبد الدهر يضرب
خل زيداً لشأنه
حيثما شاء يذهب

وهذا عمار الكلابى يهجو النحاة فيقول :

ماذا لقيت من المستعربين ومن
قياسهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بكراً يكون لها
معنى خلاف الذى قالوا ، وما ذرعوا
قالوا لحنت وهذا الحرف منخفض
وذاك نصب وهذا ليس يرتفع
وضاربوا بين عبد الله واجتهدوا
وبين زيد فطال الضرب والوجع
ما كل قولى مشروحا لكم ، فخذوا
ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

وهكذا كان إغراق النحاة فى الفلسفة والتعليلات مدعاة لنفور الناس من النحو . وزادوا على ذلك بأن عقدوا الأسلوب وصعبوا تراكيب الكلام فى تأليفهم حتى استعصى فهمه على كثير من الخاصة بله العامة .

ولسنا وحدنا الذين ندعى خلط النحو بالفلسفة وتعميق أسلوب التأليف فيه .

فهذا أحد الأساتذة المعاصرين يذكره فى مؤلف جليل له استمع إليه يقول :

« ولما أن استحصدت الفلسفة وأغرم الناس بها دخلت النحو وأثرت فيه كما دخلت

غيره وأثرت فيه ، ولكن على تفاوت واختلاف ، مطاوعة لظروف الحال والبيئة . فكان أبوزكريا الفراء ، وأبو الحسن الرمانى فيمن غلبت الفلسفة على كتبهم وكان كلاهما نحويا من أصحاب الاعتزال (يقصد الفلاسفة المتكلمين) وتحدث الفارسى عن نحو الرمانى ، فقال : إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرمانى فليس معنا منه شىء وإن كان النحو ما نقوله ، فليس معه منه شىء . وتحدث غيره عن نحويهما ونحو السيرافى قال : كنا نحضر عند ثلاثه مشايخ من النحويين ، فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئا . ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض . ومنهم من نفهم جميع كلامه . فأما من لا نفهم من كلامه شيئا فأبو الحسن الرمانى ، وأما من نفهم بعض كلامه فأبو على الفارسى . وأما من نفهم بعض كلامه فأبو سعيد السيرافى .

ويستمر هذا الأستاذ الجليل فيقول :

على أن هناك أسبابا أخرى خاصة كان لها فى غموض النحو الغامض عمل غير مردود . كجمود القريحة ، وضعف ملكة البيان ، وقلة نضوج الموضوع والرغبة فى الإبهام والتعمية ، لماذا ؟.

لئلا يهون شأنه ، وتقل الحاجة إلى أهله ، ولئلا يتيسر فهمه والإفادة منه على غير الخاصة من المنقطعين له وأصحاب المزية فيه .

قال الجاحظ : قلت لأبى الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ . قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجتهم إلى ما فيها وإنما كانت غايتى المنالة ا ه فالمسألة احتكار !.

فهل نلتمس النحويين العذر فى ذلك لأن أكثرهم كان رقيق الحال معرضة عنه الدنيا ، حتى منزلته الاجتماعية كانت أقل من منزلة زملائه من رجال الدين . على أن بعض الفطاحل منهم كالخليل كان زاهدا فى الدنيا راغبا عنها ودعاه سليمان بن حبيب بن المهلب ابن على والى الأهواز لتأديب ولده فاعتذر قائلا :

أبلغ سليمان أنى عنه فى دعة
وفى غنى غير أنى لست ذا مال
سما بنفسى أنى لا أرى أحدا
يموت هزلا ، ولا يبقى على حال

(للبحث بقية) الدكتور

عبد الله درويش

عتاب على كاتب حرف المعنى :

إذا بليتم فاستتروا

للأستاذ الدكتور سليمان دنيا

إن البيان نعمة كبرى فضل الله بها الإنسان على كثير من خلقه ، وفضل بها بعض أفراد الإنسان على بعض قال تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان » وقال عز من قائل على لسان بعض أنبيائه : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » .

ونعم الله على الإنسان هى مزايا مكنه منها لتكون عونا له على ما يصادفه — كفرد وكجماعة ـ من صعوبات .

وإذا كان بعض الكتاب يفهم أن البيان ليس سوى أن يجيد المرء سبك العبارة وتزويق الأسلوب ، وليكن المعنى بعد ذلك ما يكون فهو واهم ؛ فإن البيان كالضوء الذى يكشف غوامض شىء كان يحجبه عنا الظلام ؛ وإذا كان الضوء لا يغير من حقيقة ما يكشفه فإن البيان الذى يستحق اسم البيان ليس إلا كاشفا عن حقيقة شىء كان يحجبه عنا الإبهام .

أقول ذلك عتابا على كاتب كبير كتب فى يوميات الجمهورية الصادرة فى يوم السبت ٧ من نوفمبر سنة ١٩٥٩ تحت عنوان « ساعات معى ... وأيام معه » العبارة التالية :

بطلة القصة فتاة تمردت على تقاليد عتيقة تسلب المرأة حقها فى حرية التفكير وحرية العاطفة ، فليس للمرأة رأى تعبر عنه ، ليس لها أن تحب أحدا أو يحبها أحد .

وهذه التقاليد لا تغفر للمرأة أن تعرف رجلا تحبه علنا ، وتغفر لها أن تزل فى الخفاء ، تطبيقا للقاعدة المعروفة : إذا بليتم فاستتروا .

ولن أقف مع الكاتب الكبير عند سخريته اللاذعة من التقاليد — وما أدراك ما يعنى بالتقاليد ؟ ! — التى تأبى على المرأة أن تحب أحداً أو أن يحبها أحد . والكاتب لا شك يعنى بالأحد من عدا زوجها وسائر محارمها ، ولا شك يعنى بالحب ما هو أوسع من الحب العذرى والعشق الصوفى ، إن الأنوثة الطاغية التى مدح بها الكاتبة قرينة قوية على أنه يريد من الحب الذى ينعى على التقاليد البالية أن تحرمه على المرأة ، الحب الذى يطفئ غلة الشوق ، ويرضى الأنوثة الطاغية .

ورغم ذلك فلن أقف مع الكاتب بجانب هذه المسألة خشية أن يرمينى بالجمود والتأخر والرجعية والتشديد والتصعيب والصلابة ! وما أغنانى عن أن أورط نفسى هذه الورطة

وإذا كنت لا أتفق معه على إباحة الحب بهذا المعنى ، فليكن ذلك سرا بينى وبين نفسى وإن يك أضعف الإيمان .

وإنما الذى أعتب على القارىء من أجله هو تخريجه القاعدة القائلة : « إذا بليتم فاستتروا » على أنها تبيح الرذيلة لمرتكبها ما دام يخفيها ولا يعلنها .

فهل هذا - يا سيدى الكاتب - هو معنى القاعدة ؟ لا ليس هذا معناها . وإنى لا أتهمك لا سرا ولا علنا بأنك لا تفهم معناها ، فمثلك بمن أوتى بيانا ناصعا مشرقا ، وعقلا مدركا راجحا ، لا يخفى عليه ما تتضمنه هذه القاعدة من معنى قوى وفكر سليم ، وإنما الذى أتهمك به أنك استعملت نعمة البيان التى من حقها عليك أن تؤيد بها الحق وتنكر الباطل فى تغيير معناها وحملها على غير ما يراد منها ، تفننا فى القول ، أو تفكها بالسخرية من قول وقائله ، أو تأييداً لصاحبة « أيام معه » .

نعم ليس يخفى عليك معنى القاعدة ، ولو أردت إظهاره فى صورته الحقيقية لقلت فيه قولا أرق من النسيم وأعذب من السلسبيل كما يقولون .

إن معنى القاعدة يا سيدى أن الجريمة إذا أعلنت ، وجدت فى المجتمع من يحاول تجربتها فتشيع وتنتشر ، وفى شيوعها وانتشارها إغراء بالمزيد منها ، فيصبح المجتمع كله مجرما أو يكاد . أما إذا استترت فإنها تتقلص حتى تنعدم أو تكاد . ففشو الإجرام نتيجة إعلان الجريمة هو الذى ألهم المصلحين أن يقولوا : « إذا بليتم فاستتروا » .

وما أظن يا سيدى أن فى القول بأن فى إعلان الجريمة إغراء بها ، وفى إخفائها إماتة لها ، قابلية لإثارة جدل بينى وبينك ، فإن فيما تكتبون أنتم من أحداث فى جريدتكم التى أنتم رؤساء تحريرها شواهد مادية عديدة على ذلك ، ومن أقرب ما نشر حول ذلك حادثة الطفل الذى خرج من السينما فذهب لتوه إلى شجرة من أشجار حديقة منزله وربط بها حبلا ، ثم علق نفسه فيه وتأرجح حتى زهقت روحه ، قاصدا بذلك أن يمثل بعض أحداث الرواية كما تقول صحيفتكم .

وأوضح من ذلك أثرا ما نشرته صحيفتكم فى نفس اليوم الذى جاءت فيه كلمتك التى تسخر فيها من تقاليد وتهون من شأن قاعدة ، قالت صحيفة الجمهورية ص ٤ تحت عنوان : « احتضار الوجودية فى باريس وظهور القمصان السوداء » ما يأتى :

« . . . ومن جرائم عصابة القمصان السوداء سرقة العربات واستخدامها فى رحلات منحلة ، ثم تركها فى عرض الطريق .

وضرب الأزواج من أغرب هذه الجرائم

يتعرض أفراد العصابة للزوجات ، ويوجهون إليهن أقذع الشتائم وأسفلها حتى يثور الزوج وفى هذه اللحظة ينهالون عليه ضربا حتى يفقد وعيه ... ثم يخطفون زوجته .

إن صحف فرنسا وإذاعتها وعلماء النفس والتربية فى ذعر شديد ، إنهم يحاولون علاج هذا الشذوذ ، وهذا الانحراف، الذى هاجم المجتمع الفرنسى فى صورة هذه العصابة .

ثم قالت الصحيفة :

«ومن أفواه أفرادالعصابة تسمع الدوافع والأسباب التى قادت هؤلاء — وهم بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة — إلى هذا الانحراف والشذوذ .

سئلت فتاة عمرها ست عشرة سنةعن سبب انضمامها لعصابة القمصان السوداء، فقالت : إنها رأت أمها وقد تخلت عن كل المثل ، وعاشت الشذوذ والانحراف فقط،ولما عاتبتها ابنتها هددتها بأنها ستلقيها فى مدرسة داخلية .

ثم شكت الصغيرة لوالدها ، وجاء رد الوالد — وكان كالطعنة السامة فى قلب الصغيرة — قال والدها وكأس الخمر تترنح فى يده : كل النساء كذلك .

وانهارت المثل أمام الصغيرة ، وتقدمت بخطى ثابتة نحو الخطيئة وسرعان ما لبست القميص الأسود ، وخرجت فى جرأة إلى دنيا الليل والشذوذ والانحراف .

وشاب آخر صغير ـ فى الخامسة عشرة ـ سألوه عن سبب محنته فقال : إن والده سكير يعيش للكأس فقط ، لهذا السبب انتحرت والدته ، لم يحتمل الفتى الحياة مع والد سكير، فجرفه الشذوذ والانحراف .

ثم قالت الصحيفة :

« إن بعض علماء الاجتماع والنفس يرجعون أسباب هذه الكارثة إلى تحلل روابط المجتمع ، بالإضافة إلى ضيق المسكن وانتشار الخمر والقمار وازدحام المدن ، ومتاعب العمل ، وانشغال الأمهات فى العمل ، وعدم تفرغ الأب لمنزله ، وكثرة حوادث الطلاق.

وصور الانحلال التى تقع عليها عيون الأطفال الغضة البريئة تنتقل بسرعة لتكوّن كثيراً من الانطباعات فى نفوس الجيل الجديد من الأطفال . وأخيراً تطفو هذه الانطباعات على سطح هذه النفوس عندما تبدأ فى الإدراك والفهم والتمييز ، ثم يبدأ الشذوذ والانحراف فى هذه السن المبكرة».

يا لله !! لقد أردت ـ جلت عظمتك ـ أن تحمل نفس جريدة الكاتب ـ فى نفس اليوم الذى حمل فيه حملة مغرضة على مبدأ صحيح يريد أن يهدمه ـ ما هو برهان ناصع على صدق هذا المبدأ ، فإن فى هذه المآسى الأخلاقية التى تردت فيها عصابة القمصان السوداء ، وفيما صور به الشباب بأنفسهم

أسباب جريمتهم، وفيما وضح به علماء النفس والاجتماع أسباب عدوى انتقال الجريمة من الكبار إلى الصغار حين ترتكب أمامهم علنا جهارا بغير اكتراث ولا مبالاة، شرحا وتفسيرا وتوضيحا وتأييدا للقاعدة القائلة: «إذا بليتم فاستتروا» وإن ذلك لبرهان عملى وعلمى على صدقها.

إن الشيء الذى نأسف له كل الأسف، والذى لا يختلف فيه اثنان هو أن الصحافة المصرية أصبحت ـ بما تنشره أقلام كتابها ـ دعوة صريحة جريئة إلى التحلل من تراثنا الإسلامى الأصيل.

لقد أبنت فى مقال سابق لى، فى نفس هذا المكان من مجلة الأزهر، كيف وقفت الأهرام موقفا عدائيا صريحا من الأديان كلها، لا من الإسلام وحده ـ حين نشرت افتياتا شيوعياً على الألوهية، وأبت أن تنشر لنا ردا عليه.

واليوم يؤسفنى أن أقف وقفا مماثلا من كاتب كبير من كتاب جريدة الجمهورية يستعمل قلمه القوى وبيانه الرصين فى السخرية مما سماه تقليدا، أو قاعدة. وهو فى صميمه مبدأ إسلامى أصيل: فإن الإسلام يرى فى الجريمة المعلنة افتياتا على كرامة المجتمع كله إلى جانب ما يجر إعلانها إلى الإغراء بها، وشيوع عدواها؛ فإذا صارت الأقلام الكبيرة لا تبالى أن تقوض أمثال هذه الدعائم تأييدا لكاتبة ـ لا باحثة ـ لم تزد على أن صورت بعض أحداث وقعت لها، كما يقول الكاتب نفسه: إن كتاب «أيام معه» ليس قصة ولكنه لوحات فنية أشبه بالاعترافات، وقد استطاعت الكاتبة أن تعترف بصدق وحرارة وأنوثة.

أقول: إذا صارت أقلام الكتاب الكبار لا تبالى أن تقوض أمثال هذه الدعائم الأصيلة فى تراثنا الإسلامى المجيد تأييداً لكاتبة لم تزد على أن صورت لنا بعض ما كلفتها أنوثتها الطاغية من مغامرات فما أيسر أن نتصور اننا منجرفون بسرعة إلى الهاوية؟ فإنه إذا أصبح الأفراد أغلى علينا وأعز من المبادئ، فنحن إذاً أنانيون لامثاليون.

إن الشيء الذى لست أفهمه أن يجرد الكتاب الصحفيون أقلامهم للطعن على المثل الأخلاقية والمبادئ الإنسانية التى تدعو إليها الأديان، وأن يحس الإنسان فى كتاباتهم رغبة ملحة فى أن يتحلل الناس من دينهم، فلماذا كل هذا؟ فلو كان ما يكتبونه هو أبحاث ونظريات تؤيدها الدلائل والبراهين، لقلنا إنهم فلاسفة ومفكرون، فإما ناظرناهم وإما عذرناهم فإن البرهان حين يتسلط على مبدعه يكون من العبث ثنيه عن نتيجته مالم يتبين فساده. ولكنها حملات تشبه الحملات

السياسية التى يراد بها التشويش على المذهب المخالف بالافتراء عليه وخلق الشبه ضده ، وكثرة التشنيع عليه . وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى . إنى لأتساءل فى حيرة ودهشة عن السر فى تضافر رجال الصحافة على نشر ما من شأنه أن يزعزع العقيدة من نفوس الشعب ؟. فماذا فى الدين من عيب يتنافى مع ما يراد لنا من تقدم ورقى ؟ إن الدين يمكن تلخيصه فى كلمات :

(١) إيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

(٢) وحث على الفضيلة فى جميع صورها ومظاهرها .

(٣) وتحذير من الرذيلة بكل ألوانها .

فهل فى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر مايدعو إلى تأخر أو رجعية ؟ فماذا فى الإيمان بالله الذى يجعل من البشر كلهم مجموعة ليس من حق بعضها أن يطغى على بعض خوفا من الإله الخالق الذى يقدر أن يستذل الطاغية ويسلبه أسباب طغيانه؟ ماذا فى الإيمان بالله واليوم الآخر الذى من شأنه أن يحقق العدالة بين بنى البشر ويجعل كل إنسان ينصف من نفسه حتى فى الوقت الذى لا يطلع على جريمته أحد ، خوفا من المسئولية الأخروية ؟.

ماذا فى الإيمان برسل الله الذين يشهد تاريخ كل منهم بأنه سجل حافل بالتوجيهات الرشيدة والإصلاحات المفيدة لبنى البشر جميعاً .

فهبوا أن هذه العقيدة فى الله ورسله واليوم الآخر ، فى ذاتها ليست صحيحة ، أو هبوها صحيحة ، فما أثر الأخذ بها على المجتمع ؟ هل تستطيعون أن تقولوا لنا : إن هذه العقيدة يمكن أن تكون سببا من أسباب تأخر المجتمع حتى تستحق منكم حربا لا هوادة فيها ؟ بينوا لنا - إن كنتم تجدون - ما عسى يكون فى هذه العقيدة من أثر سيئ على المجتمع . ونحن نلتمس لكم العذر فى هذه الحملة ضدها .

فإذا كانت العقيدة الإسلامية على العكس من ذلك - سواء افترضتموها حقيقة صادقة أو فرية كاذبة - إذهى عامل من أحسن العوامل لإصلاح المجتمع ، فلماذا إذن حربها حربا لا هوادة فيها ؟.

ثم هل فى الأمر بالصدق والوفاء بالعهد والرفق بالضعيف وبر الوالدين ... إلى آخر ما يقع تحت اسم الفضيلة ما يجر إلى عار أو نقيصة ؟.

أو هل فى النهى عن الكذب والنفاق والغيبة والنميمة والزنا والسرقة والغش والقتل ... إلى آخر ما يقع تحت اسم الرذيلة ، ما يسلب الناس حاجات هى لهم ضرورية ؟ .

بالله قولوا لنا وكونوا صرحاء فيما تقولون فإن وجدنا ما تقولونه صوابا ، تبعناكم ؟ فإن الصواب هدف كل عاقل ؛ وإلا دعوناكم

(البقية على صفحة ٤ ٦)

الفنون في تاريخ المسلمين

للأستاذ أحمد الشرباصي

للفنون فى تاريخ المسلمين مكانة جليلة ، ملحوظة ومع ذلك نجد أن الكتب التى وضعت عن الفنون الإسلامية وتاريخها قليلة نادرة فى المكتبتين الشرقية والغربية . إذ نجد فى الفرنسية كتابا واحداً فى هذا الموضوع لجاستون ميجون ، وفى الألمانية كتابين أحدهما لأرنست كوبل والثانى لجلوك ودير وفى الانجليزية كتابا واحداً لديماند . وإليه رجعنا فى استقاء المعلومات المتعلقة بتاريخ الفنون فى الإسلام ، وقد ترجمه الأستاذ أحمد محمد عيسى .

وفى العربية كتابا واحداً للدكتور زكى محمد حسن ؛ وكان يجب تأليف عشرات من الكتب فى مختلف الفنون الإسلامية . ما دامت هذه الفنون تحتل تلك المكانة الجليلة فى تاريخ المسلمين ، وكان يجب على المسلمين ، وعلى العرب منهم بوجه خاص ، أن يزودوا المكتبة العربية بكتب كافية فى دراسة هذه الفنون ، حتى لا يكون البحث فيها محتكراً أو شبه محتكر للمستشرقين الذين ظهرت بحوثهم عن الفنون الإسلامية خلال القرن التاسع عشر بشكل ملحوظ ،واتسمت بحوثهم بسمات الطريقة العلمية وإن كانت المغالاة فى الأحكام قد أصابت الكثير منهم.

وقد قيل : إن الفن الإسلامى قد أخذ عن غيره من الفنون كالفنين المسيحى والساسانى وهذا القول يحتاج إلى نظر وإيضاح ، فمن المسلم به أن الفنون كانت حين ظهور الإسلام ضعيفة ، وأخذت هذه الفنون تقوى شيئاً فشيئاً ، ويشتد ساعدها بمرور الأيام ؛ كما أن من المسلم به أن اقتباس فن من فن آخر سابق أو معاصر ظاهرة عالمية شائعة ، لا تقتصر على الفن الإسلامى ؛ لأن الفنون فى الواقع مواريث إنسانية تسرى بين جموع وارثيها سريان الماء والهواء ؛ وإذا كان الفن الإسلامى قد اقتبس فقد كان يقتبس عن فهم، ويهضم عن قدرة ، ويزيد عن شخصية متميزة، كما اتسم إلى جانب هذا كله بالحيوية والإبداع ؛ ولنضرب لذلك مثلا عاجلا .

لقد اقتبس الفنانون المسلمون شكل المروحة الساسانية بلا تغيير فى بعض الأوقات ولكنهم فى أحوال أخرى ابتكروا أشكالا جديدة مجردة ، وأدى هذا الابتكار إلى ظهور فن زخرفى إسلامى أصيل فى هذه الناحية . ومثل هذا يقال فى نواح فنية كثيرة .

* * *

لقد اتسع نطاق الفن فى البيئة الإسلامية وكلما انفسحت دائرة هذه البيئة اتسع فيها نطاق هذا الفن ، وما كاد المسلمون يفتحون الشام والعراق ومصر حتى فتحوا صدورهم لأنواع الفنون المختلفة ، فعنى الأمويون مثلا ببناء القصور والمساجد والمدن ، واستعانوا بالمهرة من الصناع المختلفى الجنسية ، كما استعانوا بالفنين البيزنطى والساسانى ، واقتبسوا منهما ، وعدلوا فيهما ، وزادوا عليهما .

ومنذ عهد الأمويين ظهر الرسم والتصوير على الحوائط فى كثير من البقاع الإسلامية ، كما ظهرت الأشكال الزخرفية الرمزية ، وصور الحيوانات والأشجار والنباتات . وفى العصر العباسى رسموا على حوائط القصور رسوما لنساء وحيوانات وطيور ، وكانت هذه الرسوم ذات طابع خاص دال على ملامح البيئة الإسلاميه التى ظهرت فيها ؛ وقد استخدم القوم فيها الألوان المختلفة كالأبيض والأحمر والأزرق والأصفر والأسود ، وكان من بين هذه الرسوم بعض اللوحات المتخيلة للشياطين وجاء الرسامون الإسلاميون بعد ذلك فى العصر التركى فرسموا صورا متخيلة للحوريات وعذارى الجنة ذوات الأجنحة .

ولم يقتصر الرسامون المسلمون على تصوير أجزاء الإنسان أو الحيوان ، بل رسموا الأشخاص كاملين منفردين ، كما رسموا الأشخاص كاملين فى مجموعات وطوائف ؛ وكان تصويرهم المتصوفين والنساك الهنود وهم يحادثون الأمراء والحكام ، أو يعظونهم ، من أحب الموضوعات إليهم .

ومنذ القرن التاسع الميلادى اشتهر بين المسلمين - وبخاصة فى مصر - تزيين الكتب القيمة عندهم بالرسوم والصور ، وقد أنشأ الفاطميون بمصر مدرسة خاصة لهذا التزيين ، وكانت مكتبات الخلفاء الفاطميين تضم عدد كبيراً من المخطوطات المختلفة المليئة بالصور ؛ كما كانت هناك مدرسة للتصوير بشمال العراق ، وذلك فى عهد بدر الدين لؤلؤ (١٢٣٣ - ١٢٥٩ م) .

وعرفت المكتبة الإسلامية كتباً كثيرة مصورة ، وبخاصة فى علوم الطب والطبيعة والنبات والحيوان . ومن الكتب التى ازدانت بالصور كتاب : «مقامات الحريرى» . ويقول « ديماند » عن هذا الكتاب المصور ما يلى :

« وأهم نسخة من مخطوطات مقامات الحريرى موجودة فى المكتبة الأهلية بباريس ، كتبها وصورها - سنة ٦٣٤ هـ - ١٢٣٧ م - يحيى بن محمود الواسطى ؛ وصور هذه المخطوطه بديعة رائعة تحوى رسوما آدمية كبيرة تذكرنا ، بالنقوش الحائطية ، وهى تصور مناظر الحياة الاجتماعية تصويرا واقعيا ، فنرى فيها عرب القرن الثالث عشر وهم فى المسجد ، أو الحقل ، أو الصحراء ، أو الخان ، أو المكتبة ؛ كما نراهم يحتفلون بأعيادهم المختلفة ؛ ووجوه كثير

من أشخاص تلك التصاوير غنية بالتعبير، ويختلف بعضها عن الآخر، فتبدو كأنها لأفراد بذاتهم، وهي في الوقت نفسه دراسة دقيقة للشخصيات المختلفة، ومع هذا وبالرغم من محاولة الفنان التعبير عن الواقع، فإن لهذه الصور طابعا زخرفيا واضحا، ولا سيما تلك التي تكونت من عناصر كبيرة وسارت وفق الأساليب الفنية التي أرست قواعدها مدرسة بغداد في القرن الثالث عشر؛ ونجد في هذه الصور كثيراً من الخطوات الأولى للتقاليد التي اتبعت في التصوير الإيراني، في العصرين المغولي والتيموري مثل: تعدد صفوف الأشخاص وتراصهم وتجمعهم، ومثل الخيول التي تظهر في مقدمة المنظر ومؤخرته، والملابس المرسومة بطريقة تخطيطية مقتضبة».

ومن الكتب القديمة المصورة أيضا كتاب «كليلة ودمنة» لبيدبا الفيلسوف، وكتاب «منافع الحيوان» لابن بختيشوع، وكتاب «الشاهنامة» للفردوس، ودواوين الشعراء الإسلاميين الفارسيين مثل نظامي وسعدي وجامي. وكتاب «جامع التواريخ» للمؤرخ رشيد الدين، ومن لوحات هذا الكتاب الأخير لوحة تمثل قصة النبي يونس والحوت، وهناك نسخة من ديوان جامي الذي يذكر قصة «يوسف النبي مع زليخا»، وفيه أربع صور تمثل القصة!.

وفي إيران استعمل المسلمون الرسامون ـ خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادين ـ ألوانا كثيرة في رسوماتهم: استعملوا الوردي والزيتوني والزهري والبنفسجي والبني والذهبي والأخضر والأسود. وقد استعملوها ببراعة وإتقان فوق أرضية بيضاء أو زرقاء فيروزية، فزاد ذلك في جمال الألوان وتناسقها وروعتها.

وأنشأ كثير من حكام المسلمين في بقاع مختلفة من بلاد الإسلام معاهد ودواوين للتصوير والتذهيب والخط والتجليد والزخرفة.

وتوسع الرسامون الإسلاميون فرسموا العازفين والعازفات، والراقصين والراقصات، حتى رسم بعضهم ستة وثلاثين وصفا موسيقيا راقصا، وصوروا قصص الحب، ورسموا الأزهار، حتى رسم أحدهم مائة زهرة في مائة لوحة، ورسموا المئات من الطيور.

وعرف المسلمون منذ أقدم العصور فنونا من الخط، فكتبوا بالخط الكوفي والخط النسخ، والطومار، والتعليق، والنستعليق (أي الخليط من النسخ والتعليق)، والفارسي، والثلث، والديواني، والطغراء. وكتبوا بالمداد الأزرق والأحمر والبنفسجي والأسود والذهبي.

وتفننوا تفننا رائعا في كتابة المصاحف، وزخرفوا صفحات المصحف، كما زخرفوا عناوين السور. وتفننوا في المدات وعلامات

الوقف ، وزخرفوا الأرضية التى امتدت عليها الحروف بتوريدات وتفريعات مذهبة .

وعرفوا فى الخط التذهيب بالضغط ، واستخدموا الزخارف المعقدة . والتزويق بالتخريم ، أو بالشف .

وفى تجليد الكتب زخرف المسلمون الوجه الخارجى لجلدة الكتاب ، كما زخرفوا باطنه ولسانه ، وجلدوا الكتب بالجلد والورق المضغوط المدهون بمادة « اللاكيه » ؛ وزخرفوا جلود الكتب بزخارف مضغوطة من وريدات وخطوط مجدولة ونقط ذهبية مضغوطة وزخارف هندسية متشابكة ؛ وقد نقل الإيطاليون عن المسلمين كثيراً من فنونهم فى تجليد الكتب وزخرفتها .

وعرفت العصور الإسلامية النحت على الحجر والجص والخشب ، نحتوا عليها الحيوانات والطيور والأشكال الآدمية وسط تفريعات وزخارف ، ويظهر ذلك بوضوح فى قصور الخلفاء والأمراء ، وفى المساجد وأعمدتها ومنابرها ومحاريبها ؛ وعرفوا طريقة النحت المشطوف والمائل ... وعرفوا الحفر على الخشب منذ بداية العصر الإسلامى الأول ، ونشأ لهم أسلوب جديد متميز فيه ، وعرفوا فى هذا الحفر الحشوات المقسمة التى تزينها الزخارف الهندسية أو أشكال من النباتات أو الأزهار ، وظهر لهم مهارة فى إظهار التفاصيل ، وتنوع مستويات الحفر واستعملوا فى تلوين حفرياتهم الألوان الزاهيـة .

كما حفر المسلمون منذ عهدهم الأول على العاج والعظم ، وزخرفوا هذا الحفر بنبات العنب ، مع تفريعات وتنسيقات لأوراقها ، وشاعت هذه الطريقة فى العصور الإسلامية والبيئات الإسلامية المختلفة .

كما عرفوا طريقة التطعيم ، والتجميع ، والترصيع . وهى أشكال هندسية تتكون من جمع قطع عديدة من الخشب أو العاج أو العظم أو الصدف . وعرف المسلمون منذ عصورهم الأولى صناعة الأطباق المزخرفة التى تزينها مناظر الصيد ، أو المناظر الأخرى التى تصور قصصا أو أساطير ، كما عرفوا صناعة الخزف والفخار الملون ، وكان لهم ابتكارات رائعة فى هذا الباب ، ووضعوا على قطع الفخار زخارف جميلة رائعة ، كما عرفوا فى صناعة الخزف أسلوب الفسيفساء الخزفية ، وعرفوا صناعة الخزف ذى الزخارف المصنوعة بالبريق المعدنى .

وعرف المسلمون منذ العصر الأول صناعة الزجاج والبلور ، فصنعوا القوارير والزجاجات والزهريات والأكواب وماشابهها .

وظهر للسلمين أسلوب إسلامى متميز فى النسيج ، أخذ ينمو ويتطور وينتشر فى البلاد التى فتحها المسلمون ؛ وأنشأ المسلمون « دور الطراز » ، وهى مصانع الأنسجة المطرزة المزخرفة ، وصنعوا من النسيج

المزخرف المطرز أثوابا رائعة فاخرة كانت تقدم خلعا بمثابة أوسمة من الخلفاء .

وعرف المسلمون صناعة الأبسطة ذات الوبر ، التي ترسم عليها زخارف وصور ، أو تكتب عليها كتابات مختلفة .

وهذه لمحات خاطفة نعرف منها كيف شغلت الفنون جوانب كبيرة في تاريخ المسلمين ، وكيف ارتبطت في بعض هذه الجوانب بالناحية الدينية ، فرأينا ألوانا من الفنون تتعلق بالمساجد والمنابر والمحاريب والمصاحف وأبسطة الصلاة وغيرها ؛ كما نعرف منها أن المسلمين لم يتخلفوا عن غيرهم في ميادين الفنون ، بل سبقوا غيرهم كثيراً .

أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر الشريف

(بقية المنشور على صفحة ٥٩٩)

إلى أن تكونوا معنا ، حتى لا تتفرق كلمتنا ولا يقع بعضنا في بعض ؛ إنا لا نجد فيما تنتهي إليه آراء المفكرين إلا تأييدا لفكرة التدين رغم أن بعض هؤلاء المفكرين هم أنفسهم ليسوا بمتدينين . خذ مثلا الفيلسوف الانجليزي برتراند رسل ، فقد جاء في حديث له ترجمه له الأستاذ سعد مكاوي ونشرته له جريدة الجمهورية الصادرة في ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٩ ، ما يأتي :

« إن الإنسان إذا شاء أن تكون القوى الهائلة المتزايدة التي يكشفها له العلم نعمة لا نقمة ، فإن الأهداف التي يوجه إليها هذه القوى ينبغي أن تكون حكيمة ، وأن تسمو بنفس النسبة التي تتزايد بها هذه القوى ..

فالحياة ليست ذكاء ومعرفة فحسب ، بل تنطوي على الحكمة التي تجعل نمو الشعور الإنساني يسير جنبا إلى جنب مع نمو الذكاء والمعرفة ...

إن المعرفة وحدها لا تكفي ، كما زعم فلاسفة الإغريق ؛ فإن في الإمكان أن نتصور اجتماع عظمة المعرفة وشر القلب » .

هكذا يعتبر الفلاسفة الرحماء بالإنسانية ـ رغم أنهم غير متدينين ـ أن إصلاح القلب عنصر أساسي لصلاح المجتمع إلى جانب إصلاح العقل ، وليس كالدين يصلح القلب ويصقل المشاعر ، ويطهر الأحاسيس .

هاتوا لنا تربية للقلب خيراً من تربية الدين ، ونحن نقركم على مهاجمة الدين ، ونرى لكم في العزوف عنه مندوحة ، وإلا كنتم هادمين للمجتمع حين تهدمون الدين . ؟

دكتور سليمان دنيا
أستاذ الفلسفة المساعد
بكلية أصول الدين

القانون الدولى فى تقدير الإسلام

للشيخ عباس طه

لو جاز لنشأة علم من العلوم أن ترتبط باسم إنسان معين لارتبطت نشأة القانون الدولى العام باسم العالم الهولاندى جروسيوس فقد أخرج سنة ١٦٢٥ مؤلفه الذائع المسمى « فى قانون الحرب والسلم » . ولقد كان لظهور هذا المؤلف الذى تضمن تنظيما يكاد يكون كاملا لما يقوم بين الدول من روابط وعلاقات تأثير بالغ فى النفوس لا يفوقه إلا ما أحدثه ظهور القرآن من تأثير فقد التزمت هذا الكتاب الدول دستوراً لعلاقاتها الخارجية .

فهل للإسلام سياسة دولية من هذا النوع يقوم بناؤها على أصول الحقوق الطبيعية المتفق عليها بين الأمم المدنية اليوم ؟ .

نقول نعم للإسلام سياسة دولية وهى أرقى مما يعرف من الحقوق المتفق عليها اليوم ؛ لأن هذه وضعية لا تزال بعيدة عن المثل العليا وتلك إلهية هى المثل العليا نفسها ولبيان ذلك الإجمال نقول :

أول أساس للسياسة الدولية فى الإسلام هو قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » فالإسلام يعلن بأن الناس جميعاً أبناء أبوين معروفين وهم سواء فى الحقوق ، وأن الأمم والشعوب وإن اختلفت البيئات قد خلقت لتتعارف وتتعاون على تذليل عقبات الحياة ، لا لتتناكر وتتناحر فى سبيل البقاء ولا يجوز أن تكون الفروق فى الأديان والعادات واللغات والألوان بصادة للأمم الرشيدة عن أن تتعارف وتتصافى فى مجال المعاملات ويكون أقربها إلى الله أخشاها له وأوقفها عند حدوده وهو وحده الذى يتولى السرائر .

ولما كان الدين لا يخرج عن معتقدات وعبادات ومعاملات فقد جاءت كلها فى الإسلام إما رامزة إلى هذه الغاية الكريمة أو مهيئة لها ومطابقة لقواعدها العامة كل المطابقة .

أكثر ما تظهر هذه الروح الإسلامية السابقة هو فيما فرضه الكتاب على أهله فى المواطن الخطيرة من الدفاع لحماية أنفسهم أو الهجوم لكسر شرة عدوهم فقد أمروا فيها بمراعاة أصول مشبعة بروح الاستبقاء

والعطف لا بروح الاصطدام والعسف كما يحصل بين أمم كتب عليها أن تعيش مؤتلفة لا متنازعة وإنما دفعتها الضرورات لتحكيم السلاح فيما شجر بينها من خلاف مسايرة لسنن الاجتماع قال الله تعالى: « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » . ولما كان قد يتوهم أن الإسلام يقضى بمقاطعة كل من لا يدين به من الأمم بين الله هذا الأمر على وجه يرفع كل لبس فقال عز من قائل : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فإذا أدت العداوة بين المسلمين وبين بعض الجماعات إلى تحكيم السيف أمرهم الله أن يقاتلوا أعداءهم وأن يستبسلوا فى القتال ولكن على شرط أن لا يحملهم الاستبسال على العدوان والتجنى ، بل أن يباشروا الحرب مستشعرين روح العدل المجرد عن الهوى فكان الإسلام أول من كاشف العالم بأن فى كل شىء عدلا يناسبه حتى فى التناحر المحض قال تعالى: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » . « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا (أى لا يحملنكم بغضكم لهم على أن تعتدوا عليهم) وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

فمن العدل فى الحرب فى شرعة الإسلام ألا تسرف فى القتل، وأن لا تتجنى على المحارب لك ، وألا تتعقب المهزومين وألا تجهز على الجرحى ، وألا تهين الأسرى ، وألا تقتل خدم المحاربين والمرافقين لهم فى الخطوط الخلفية ، فإذا دخلت بلداً معاديا فلا تحرق أشجارها ، ولا تهدم دورها ، ولا تزهق روحا من شيوخها ونسائها وولدانها ورجال دينها . وقد تبرأ النبى صلى الله عليه وسلم ممن ارتكب شيئاً من ذلك حتى أنه نهى أصحابه أن يسبوا قتلى أعدائهم فقال عقب وقعة بدر وقد سب بعض الصحابة قتلى المشركين: « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شىء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا أن البذاء لؤم » . وهذا نهاية ما يؤثر من السمو لشعب دعى لأن يضطلع بخلافة الله فى الأرض وأن يعمل على إقامة دولة الحق فى العالم كله — وإذا كانت هذه أصوله فى المواقف التى تغلى فيها الرءوس تحت تأثير ثورة الغضب والأسنة المدربة ، تزهق الأرواح وتخمد الأنفاس فما ظنك به فى مواطن العافية والسلام ناشر

ألويته، والهمم تتبارى فى التكيف بعقائل المحامد لنيل الدرجات العلى والزلفى من الحق المطلق .

ثم إن الحاجات الاجتماعية قد تدعو لعقد المعاهدات وإبرام الاتفاقات وتقرير المهادنات فإزاء هذه الحاجات قرر الإسلام أن يكون شعار أمته الوفاء المطلق بها من غير نظر إلى فائدة تبدو فى نقضها أو مصلحة تدعو إلى تأويلها فقال تعالى: « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وذكر جل علاه صفات المؤمنين الصادقين فقال: « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » وزاد ذلك تأكيداً فذكر وجوب الوفاء بالعهد ووجوب الصبر فى أشد المحن وأحرج المواقف فقال: « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » وأوصى سبحانه وتعالى بالعهد حتى بالنسبة لمشركى العرب الذين كانوا ينقضون عهدهم فى كل فرصة يظنونها مواتية لهم فى إيذاء المسلمين فقال جل شأنه : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » يوصى الله بالوفاء لهم وهو يعلم أنهم لا يتحرجون من نقض عهدهم لأول بادرة من فائدة تبدو لهم فقال تعالى: « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » . ولكى لا يؤثر غدر المشركين فى قلوب المؤمنين فيحملوهم على مجاراتهم فى رذيلة نقض العهد مقابلة للمثل بالمثل عاد فذكر المسلمين بأن الله يأمر بالعدل بين الناس وبالإحسان وهو فوق العدل وبالبر بذوى القربى وأنه يحرم كل عمل خسيس وكل منكر وظلم باعتبار أن هذه الصفات لذاتها من لوازم الإيمان لا يجوز الهوادة فيها لأى اعتبار كان فقال تعالى: « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون » « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » أى لا يحملنكم كراهتكم لقوم على ما يرتكبونه ضدكم من التعديات المنكرة على أن تتخطوا طريقة العدل فى معاملتهم .

هذه غايات من السمو السياسى لا يزال العالم بعيداً عنها وقد عمل بها المسلمون فى عهد لم يكن للوفاء بالعهد فيه من حافز غير الخوف من انتقام المعاهد ، لأن غرض الإسلام لم يكن توفير المصالح المادية لأهله فحسب ، ولكن تطهير قلوبهم من أقذاء الصفات الحيوانية وجعلهم أمة نموذجية تقوم على حراسة المثل الخلقية العليا فى الأرض .

وقد ثبت من استقراء الحوادث التاريخية أن الاستقامة الخلقية فى السياسة كانت دائما أعود على أهلها بالفوز فى مجالات الحياة الاجتماعية العامة من العوج والتلون والنزول على حكم القوة .

ومن الأخلاق السياسية التى بثها الإسلام فى أهله قبول السفراء واحترامهم والتفاوض معهم على قدم المساواة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحتفل بالوافدين عليه ويحبوهم بألطافه حتى روى أنه فرش عباءته لوفد نصارى نجران وأجلسهم عليها .

ويروى عنه ما هو أعظم من ذلك مما يدل على مرونة سياسية حقة يجب أن تؤثر عنه وتنشر بين الناس ذلك أنه لما كانت السنة السادسة من الهجرة أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يعتمر أى يطوف بالبيت الحرام فى غير أوان الحج فاستنفر الناس لذلك فاجتمع إليه ألف وخمسمائة خرجوا ليس عليهم من السلاح إلا السيوف فلما بلغ ، قريشاً ذلك هاج هائجها فأرسلت بديل ابن ورقاء ليتعرف مقصدهم فعاد إلى قومه وأخبرهم أنهم جاءوا معتمرين فقالت : أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبداً ومناعين تطرف وأرسلوا إليه حليس بن علقمة فلما عاد إليهم أيد قول بديل بن ورقاء ونصحهم بأن يدعوه وما أراد : فلم يقبلوا نصيحته وأرسلوا إليه عروة بن مسعود الثقفى فقال له : « يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت إلى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت تعاهد الله لا تدخلها عليهم أبداً » وكان عروة يتكلم بهذا ويمس لحية رسول الله بيده ، وكان المغيرة بن شعبة وهو أحد الصحابة يقرع عروة كلما هم بذلك ولما عاد إلى قريش أيد رأى صاحبيه فقالوا لا بأس من أن يجئ فى العام المقبل أما هذا العام فلا . وأرسلوا سهيل بن عمرو ليتفق مع النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك فقبل رسول الله هذا العرض وأخذ يملى على علىّ ابن أبى طالب نص العقد فأملاه : بسم الله الرحمن الرحيم : فقال سفير الجاهليين : لا نعرف الرحمن الرحيم .

اكتب باسمك اللهم . فقبل رسول الله

ذلك منه ثم مضى فى إملائه فقال يا على اكتب : هـذا ما صالح عليه محمد رسول الرحمن فاعترض مفوض قريش على هذه العبارة وقال : لو نعلم أنك رسـول الله ما خالفناك فأمر النبى صلى الله عليه وسلم كاتبه أن يمحو ما كتب فكره علىّ محوه فمحاه رسول الله بيده .

يتحكم الجاهلى فى وجوب حذف كلمتى الرحمن الرحيم وهما عربيتان والقصد منهما تمجيد الخالق ويأبى إثبات عبارة (رسول الله) بحجة أن قريشاً لا تعتقد بصحة نبوته وإثبات هذه العبارة فى العقد لا يقتضى إيمانهم به ولكن الجاهليين لا منطق لهم . فاعجب من سمو منطق النبى صلى الله عليه وسلم فى حذفها لأن ذلك الحذف لا يقتضى سلبها منه .

هذه حكمة نبوية لا مرونة سياسية ورسول الله قدوة لأمته وقد جرى خلفاؤه فى أحفل عصور الإسلام بالعظائم على مثل هذه الخطة من المياسرة والملاينة وتحدى المثل العليا فى المعاملة والمجاملة واستشعار أسمى الصفات النفسية حتى فى المخاصمة والمقاتلة ، فوضعوا بذلك أصولا سياسية دولية هى أحكم قواعد وأرسخ وطائد وأجمع لمبادئ الإنسانية من أية سياسة فى الأرض من يوم أن خلق الله الخلق إلى اليوم .

فالمتأمل فى أقوال أقطاب العالم الحديث من أن السياسة لا قلب لها ولا ضمير وإنما يجب أن تبنى على أصول تنازع البقاء ومحاباة الأقوياء ويقارنها بأصول السياسة الإسلامية يجد البون شاسعاً بين المذهبين ، ولا يسعه إلا أن يعترف بأن تلك سياسة جاهلية من آثارها استبقاء الإحن والأحقاد بين الأمم والشعوب وإثارة الحروب بينها مع ما تجره من خراب على العمران وهذه السياسة أساسها العدل المطلق وثمرتها التقريب بين الجماعات البشرية والقضاء على المنازعات المصلحية وردها جميعاً إلى دستور من التعاون والائتلاف جدير بكرامة الإنسانية وملىء بإيجاد زمالة عامة بين البشر كافة مصداقا لقوله تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

عباس طه

المحامى الشرعى

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

بحث فى فعل ظلّ

المشهور أن يقال : ظل محمد مثابراً على عمله أى ظل كذلك دائما على العمل فى النهار أو الليل . وقد كان جمهور اللغويين يرون تخصيص ذلك بالنهار ، إذ إن هذا الفعل مصوغ من الظل الذى يكون فى النهار ، ويقابل ظل فى هذا بات التى تختص بالليل .

وفى اللسان : « ولا تقول العرب : ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون : بات يبيت إلا بالليل » . وفيه : « وقد سمع فى بعض الشعر : ظل ليله » . فترى كيف خص استعمال ظل فى العمل فى الليل بالشعر ، ومنعه فى النثر والاختيار . ويقول الحريرى فى درة الغواص (ص٧ من طبعة الجوائب) : « وقد خالفت العرب بين ألفاظ متفقة المعانى لاختلاف الأزمنة ، وقصرت أسماء أشياء على وقت دون وقت » . ثم قال بعد تعداد جملة ألفاظ : « ومما ينتظم فى سلك هذا السمط قوله : ظل يفعل كذا وكذا إذا فعله نهاراً ، وبات يفعل كذا وكذا إذا فعله ليلا» . وقد علق عليه الشهاب الخفاجى فى شرحه (ص ٢٧) بقوله : « هذا أصل وضعه وقد يأتى من غير دلالة على وقت معين مجازاً ، كما قالوه فى قوله — تعالى — : « فظلتم تفكهون » يريد قوله — تعالى — فى سورة الواقعة : « لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون » ، ولا يخصص ذلك بوقت دون وقت . ومن هذا قوله — تعالى — فى سورة طه فى قصة السامرى : « وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » .

فأما قوله تعالى فى سورة النحل : « وإذا بشر أحدهم ، بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » فيجوز أن يكون (ظل) فيه بمعنى صار أو يراد أن ذلك فى النهار وفى البيضاوى « ظلّ وجهه : صار أو دام النهار كله » : وكتب الشهاب عليه ، يعنى أن أصل معناه : داوم على الفعل فى النهار . فإما أن يكون على أصل معناه ، كان أكثر الوضع يكون ليلا فيبشر به فى يوم ليلته فيظل نهاره مغتما وأنه بمعنى صار ، كما يستعمل أصبح وأمسى بمعنى الصيرورة » .

وفى الأشمونى : « وقد استعمل كان وظلّ

وأضحى وأصبح بمعنى صار كثيراً » .

وإنى أورد هنا بحثا كتبه ابن سعيد المغربى فى حاشيته على الأشمونى إذ يعلق على العبارة السابقة : « زعم لكذة [1] الأصبهانى والمهاباذى [2] شارح اللمع، وقبلهما السيرافى وغيرهم عدم كون ظل بمعنى صار ؛ لاختصاصها عندهم بفعل النهار. قال السيرافى : هى لما يستعمله المرء نهاراً ، وليست إلا ناقصة .

وقال ابن السرَّاج : هى مشتقة من الظلّ ، وإنما تستعمل فيما للشمس فيه ظل من الطلوع للغروب . وقال هشام : « لما بين الصباح والمساء، وعاب لكذة قول الأعشى:

يظل رَجيما لريب المنُون
وللسُقْم فى أهله والحزَنْ

فإنه ليس الظلول إلا نهارا . قال : « أتراه يظل نهاره رجيما لريب المنون ، فإذا جاء الليل أمن ! . ومنع ظل فلان عمره سفيها ، وشهره سائرا إلا وسيره نهارا . ولم يرتض المحققون منهم ذلك » .

(١) هو أبو على الحسن بن عبد الله ويقال لغدة ، كما ذكره صاحب القاموس فى لغد وكان معاصرا لأبى حنيفة الدينورى فى القرن الرابع الهجرى . وله كتاب الرد على الشعراء وقد نقضه عليه أبو حنيفة الدينورى . وانظر معجم الأدباء ٨ — ١٤٨ .

(٢) هو أحمد بن عبد الله أخذ عن عبد القاهر الجرجانى .

قال أبو حنيفة الدينَورىّ ردا على لكْذة : أفترى أنت أن السامرى الذى ظل عاكفا كانت عبادته نهارية فقط ... بل ينبغى على ذلك فى قوله جل ثناؤه : «ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من من بعده يكفرون» أن يكون كفرهم نهاريا لا غير ، وفى قول الشاعر [1] :

وإخوان صدق لست مطلع بعضهم
على سِر بعض غير أنى جماعُها
يظلون شتىَّ فى البلاد وسرهم
إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعُها

أن يكون هؤلاء شَتىَّ بالنهار ، فإذا جن الليل اجتمعوا ، وأحدهم بالغَوْر والآخر بنجد . وقال ذو الرُّمة :

ظللِت تخفـق أحشائى على كبدى
كأننى من حِذار البين مورود [2]

أفترى حِذاره نهاريا، فإذا جنَّ الليل أمن!.

أكثر من كتاب :

يقول الطيب الذكر الشيخ ابراهيم اليازجى فى « لغة الجرائد » (ص ٦١) : « ويقولون رأيته أكثر من مرة ، وجاءنى أكثر من واحـــد ، ومقتضاه إثبات الكثرة للمرة وللواحد ، لأن المفضل عليه لابد أن يشارك

(١) هو مسكين الدارمى وهـــذا الشعر فى الحماسة .

(٢) مورود : محموم .

المفضل فى ذلك المعنى . فقولك : بكر أشرف من خالد يتضمن إثبات الشرف لخالد مع زيادة بكر عليه فيه » .

« والظاهر أن هـذا التعبير منقول عن التركيب الإفرنجى ، والعرب يستعملون هنا لفظ (غير) يقولون : رأيته غير مرة ، وجاءنى غير واحـد ؛ لأن غير الواحد لا بد أن يكون اثنين فما فوق » .

فتراه ينكر أن يقال : عندى أكثر من كتاب ، لأن الكتاب الواحد لا كثرة فيه ؛ على ما هو الأصل فى أفعل التفضيل ، ويذكر أن هذا الأسلوب لم يرد عن العرب ويستظهر أنه منقول عن اللسان الإفرنجى .

وأفعل التفضيل كثيراً ما يأتى على غير الأصل الذى ألف فيه ، وقد جاء فى اللسان (عشش) قول ذى الرمة :

لنا الهامة الأولى التى كل هامة
وإن عظمت منها أدق وأصغر

فقال ابن برى : إن فيـه جواز قولهم : زيد أذل من عمرو ، وليس فى عمرو ذل ؛ على حد قول حسان : فشركما لخيركما الفداء .

فهو لا يريد اشتراكهما فى الخير والشر ، وإنما الشر فى أحدهما والخير فى الآخر .

على أن هذا الاستعمال الذى أنكره اليازجى يفشو فى عبارات المؤلفين من قـديم . ففى درة الغواص فى مبحث : (اجتمع فلان مع فلان) : « لأن لفظة اجتمع على وزن افتعل وهذا النوع من وجوه افتعل ـ مثل اختصم واشترك ـ وما كان أيضا على وزن تفاعل ـ مثل تخاصم وتجادل ـ يقتضى وقوع الفعل من أكثر من واحد » .

وفى اللسان (عرا) من كلام إمامنا الشافعى فى العرايا : « والصنف الثالث من العرايا أن يعرى الرجل الرجـل النخلة أو أكثر من حائطه ليأكل ثمرها ويهديه ويثمره » فقوله: أو أكثر أى من النخلة .

وكان الأب أنستاس الكرملى قد رد على اليازجى فى مجلة المشرق (المجلد سنة ١٩٠٣ ص ٦٣) وذكر أن هذا التعبير ورد فى عبارة لعبد اللطيف البغدادى فى حديثه عن الأهرام إذ يقول : « وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول » .

وبعد فهذا الأسلوب ورد فى قصة تعزى لرجل جاهلى ، وهو سعد بن زيد مناة بن تميم الملقب بالفزر . فلقد عرض على أولاده أن يرعوا معزاه ، فأبوا عليه ذلك ، فوافى بمعزاه الموسم ، فدعا النـاس فلما اجتمعوا قال : انتهبوها ، ولا أحل لأحد أكثر من واحدة جاءت هـذه القصة فى اللسان : (فزر) فى الاشتقاق لابن دريد ص ٢٤٥ .

وترى أن اليـازجى ضيق واسعا من القـول ؟ .

محمد على النجار

ما يقال عن الإسلام

رماد ولا نار

للأستاذ عباس محمود العقاد

يقول الشيوعيون أنهم كفروا بالأديان لأنهم درسوا التاريخ وفسروه ، ودرسوا الأديان وعرفوا خباياها .

فإذا ثبت من كلامهم أنهم لم يدرسوا التاريخ ولم يدرسوا الأديان فالأمر الذى لا شك فيه إذن أنهم أناس مأجورون مسخرون، وأنهم من أخس طغام الأجراء ، لأنهم لا يبالون قداسة الدين ولا شناعة الكفر فى سبيل المال الحرام .

وقد نشر بعض اللصقاء بالإسلام فى العراق رسالتهم التى سموها بالرسالة الرمادية وترجموها أو ترجمت لهم من لغة أجنبية فثبت منها أنهم أجهل خلق الله بتاريخ بلادهم وما جاورها فضلا عن تواريخ الأمم الأخرى، وثبت منها إلى جانب هذا أنهم لا يعرفون شيئا عن تاريخ مكة وتاريخ النبى عليه السلام، لأنهم يذكرون (اللخميديين) ولا يعرفون أنهم اللخميون أقرب العرب الأقدمين إلى وادى النهرين ، ويذكرون قبيلة (السقيف) وهى ثقيف قبيلة الحجاج أشهر من حكم العراق ، ويذكرون القريشيين ولا يوجد إنسان على شىء من الاطلاع على تاريخ مكة وتاريخ بيت النبى فيها يجهل من هم القرشيون أو ينسبهم تلك النسبة التى تنم عن جهل باللغة كالجهل بالتاريخ .

أهؤلاء مسلمون درسوا تاريخ دينهم فأنكروه بعد أن عرفوا خباياه ، أم هم أذناب فتنة مسخرون ، يهرفون بما لا يعرفون ، ويقترفون الكفر البواح وهم لا يبالون ما يفعلون ؟ .

لا حاجة إلى البحث عن التاريخ للعلم بحقيقة هذا الكفر وحقيقة هذه الدعوة ، فإن الحقيقة التى ينطق بها كل حرف من حروف الرسالة (الرمادية) أنهم كفار للبيع ... دراهم معدودات من كل باذل مال ، ولا بد أن يكون بيعا رخيصا

وصفقة خاسرة ، لأنها صفقة جهل يصطفق عليها جهلاء .

وفيما يلي أمثلة شتى تدل على أن هؤلاء «الباحثين العلميين التقدميين العارفين بالتاريخ والدين » لم يطلعوا على كتاب الإسلام ولم يكلفوا أنفسهم مداراة جهلهم بالرجوع إليه بعد وصول الرسالة الرمادية إلى أيديهم ، لأن المهم فى الأمر أن تصل النقود إلى تلك الأيدى، وعلى الدين والدنيا بعدها العفاء !.

يقول الرماديون « واحتفظ الإسلام أيضا بعبادة الأرواح والجن فى حين أن أسماء الآلهة القديمة أصبحت نعوتا لله . وهكذا أصبح اسم الإله رحمانا الذى كانت تمارس طقوسه قبل أن ينشر مسيلمة تعاليم الحنفيين فى مكة ويثرب واليمن » .

هكذا يقال بكل ثقة الجاهل المكابر ، ولو كلف أصحاب هذا المقال أنفسهم نظرة فيما جاء من القرآن الكريم عن الجن لقرءوا فيه من سورة الأنعام « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » ... وقرءوا فيه من سورة الصافات . «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون » .

ولم يقرءوا فيه كلمة واحدة عن الجن توجب لهم عبادة أو رعاية فى أعناق المسلمين .

أما تعاليم « الحنفيين » كما قالوا فمتى نشرها مسيلمة فى مكة والمدينة ؟ ومتى دان المكيون باسم الرحمان وقد اعترضوا فى صلح الحديبية على ابتداء الكلام باسمه ولم يقبلوا البسملة فى مفتتح الكلام ؟.

ومن هو هـــذا الإله صاحب الطقوس والشعائر التى استعارها النبى عليه السلام من اليمانيين ؟ أكانت هذه الطقوس والشعائر عبادة وحدانية كالتى جاء بها الإسلام ؟ فمن هو النبى الذى جاء بها إلى أهل اليمن، ولماذا أحجم هؤلاء عن الدعوة الإسلامية التى استعيرت منهم وجاءتهم باسم ربهم المعبود فيهم ؟ .

أم ترى كان (الرحمان) صفة مستعارة من اليمن ، فمن أين ياترى استعيرت صفات الله التى جاوزت التسعين؟ .

كل ما فى هذه الأسطورة أنها تخريفة من تخريفات اثنين من المستشرقين موردتمان ومولر Mordtmann and Muller يفهمان الأسماء العربية كما فهم بعضهم اسم أبى بكر رضى الله عنه فقال إنه سمى بذلك لأنه كان والد الفتاة البكر التى بنى بها النبى عليه السلام ! . أو كما فهم بعضهم اسم الصعيد فقال إنه سمى بذلك لأنه مصر « السعيدة » أى Egypt Felix ... أو كما فهم بعضهم معنى القصيدة فقال إنها سميت بذلك لأنها معنى مقصود ! .

هذان المخرفان خلطا فى قصة سخيفة عن البسملة يدعى رودويل Rodwell مترجم القرآن أنه فهمها من دراسته للكتاب وفهم من ثم ، لماذا بدئت السور بسم الله الرحمن الرحيم ثم عدل النبي عن ابتداء السور بها فى أخريات أيامه ، فقال رودويل هذا فى هامش الصفحة الحادية والسبعين بعد المائة من ترجمته (إن الكفار سمعوا محمدا يبتهل قائلا : يا الله . يا رحمن . فحسبوا أنه يدعو إلهين اثنين ، ولما سقط هذا الابتداء من سور القرآن الأخيرة أصبح مفهوما أن محمدا كان يريد أن يقرن اسم الرحمن باسم الله ثم خشى أن يحسبهما الناس إلهين اثنين فأمسك بعد ذلك عن ذكر الرحمن . » .

ثم قال برودويل « إن الحميريين كانوا يصفون أربابهم بهذا الاسم ، ولكن جذور هذه الكلمة غير موجودة فى اللغة الحبشية » .

أرأيت دراسة التاريخ ؟ أرأيت دراسة الدين ؟ أرأيت التحقيق العلمى التقدمى الذى يخرج المؤمن من دينه ويذهل الموقن عن يقينه ؟.

إن محمدا قد ترك البسملة وأسقطها من السور الأخيرة لأنه خاف من اسم الرحمن المستعار أن يشارك اسم الله فى عبادات المسلمين ، فما هى السور الأخيرة التى سقط منها اسم الرحمن؟ وكم سورة هى ؟ ولماذا لم يحذف هذا الاسم من بقية السور التى بدئت بالبسملة ولم تزل مقروءة محفوظة فى حياة النبي وبعد وفاته صلوات الله عليه ؟ .

إن العلامة اللبيب مترجم القرآن ودارس اللغات العاربة والمستعربة قد فهم كل هذا من ورود سورة واحدة هى سورة التوبة بغير بسملة ، وسببه كما يعلم كل مطلع على الكتاب أن النبي لم يأمر بها وقال ابن عباس رضى الله عنه : « إن البسملة فيها رحمة وأمان وهذه نزلت لرفع الرحمة والأمان عن المشركين » . فلما نزلت ولم يسمع المسلمون البسملة فى مستهلها تحرجوا من وضعها وحسب بعضهم أنها مكملة لسورة الأنفال كما هو معلوم .

ومثل هذا التحرج البالغ فى إثبات كلمات الكتاب المبين خليق أن يعلم المفترين أنه كتاب لا يزاد فيه حرف لم يسمع فى موضعه ولو سمع مثله فى كل سورة ، ولكن الافتراء أسهل شىء على هؤلاء الجهلاء المضللين ، فلا حرج عندهم بعد علمهم بهذه الأمانة الإسلامية فى نقل القرآن أن يهذروا فى كراستهم الرمادية قائلين : « إن هذا الكتاب يحتوى على ١١٤ فصلا بأطوال مختلفة ألف فى عهد الخلفاء ، فقد وجدت حتى فى القرن التاسع أو العاشر نسخ من هذا الكتاب تختلف عن النسخة الشرعية ... ولم يستطع مؤلفو القرآن إخفاء تلك الاعتراضات بل اكتفوا بحذف بعض الكلمات غير المقبولة . » .

ولا أدل على سهولة التهجم عنـد هؤلاء الناس من علمهم بهذا الحذر الشديد فى جمع آيات القرآن ثم ادعائهم أن الخلفاء يجترئون على تأليفه وأن المسلمين ظلوا إلى القرن العاشر للهجرة ينقحونه ويحذفون منه ويضيفون إليه، فلو كان لهم ذرة من التحقيق التاريخى الذى يزعمونه لما أقدموا على هذه الدعوى بغير سند من الواقع يثبتونه ويثبتون حجته والبينة عليه، وأقل ماينبغى من السند الصحيح فى مثل هذه الدعوى أن يكونوا على علم باسم الخليفة الذى اشترك فى التأليف المزعوم وعلى علم بنص الآية التى مسها التنقيح مع موجباته ودواعيه، أو مع بيان الوسائل التى استطاع بها الخليفة (المؤلف) أن يخفى الأمر على قراء الكتاب المتداول فى أيدى الملايين والمحفوظ فى صدور الألوف ... فأين هو هذا السند ؟ وأى سند أقل منه يكفى للاجتراء على تلك الفرية بتلك الثقة ؟ .

ومن سوء النية والإصرار على الاتهام والتخبط فى التهم بين المتناقضات أن هؤلاء الرماديين يعلنون أن القرآن الكريم غير قاطع فى تحريم الربا ولايسألون أنفسهم ولا يخطر لهم أن أحدا سيسألهم : وكيف يكون النص على تحريم أمر من الأمور إذا كانت نصوص القرآن فى أمر الربا غير قاطعة فى تحريمه ؟ .

فالآيات القرآنية التى يعلقون عليها تقول :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

فكيف تراهم يكتبون نص التحريم ليكون النص قاطعاً فيه ؟ .

إنهم يقولون فى كراستهم إن بعض آيات «القرآن تحرم المراباة حماية للفقراء والمحتاجين وكان ذلك جزءاً من سياسة الأنبياء لجلب رضى الفقراء . وتعتبر هذه السياسة ناقصة ، فما الفائدة من تحريم المراباة عند وجود الآية: « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون؟ . . » .

وتعجب حين تقرأ هذا التعليق فلا تدرى ماذا فهموا منه ؟ هل يفهم منه أحد أن القرآن يبيح الربا لأنه يزجر من يأخذه ولا يبيح له غير أخذ الدين من مدينه بغير زيادة ؟ أهذا هو النص الذى يبطل فائدة التحريم ؟ فما هو النص الذى يفيد فيه .

ولايخفى تخبط القوم فى الاتهام بكل وسيلة، بل فى الاتهام بالحجة ونقيضها فى وقت واحد .

فهل جاء الإسلام من إقطاعيين يحافظون على مصالح الاستغلال والمراباة بالأموال ؟ .

هل جاء الإسلام من هؤلاء أو هو قد جاء من الفقراء والمحتاجين ليرضيهم ويغضب المرابين والمستغلين ؟ .

ينبغي أن يكون قد جاء من هؤلاء ومن هؤلاء فى وقت واحد ، وأن يكون الاتهام قائما على كل حال ، ولا لزوم للدليل فى أية حال ، بل لا لزوم للالتفات إلى التناقض بين الدليلين ، لأن الالتفات إلى تناقضهما يسقط الاتهام ، وماذا يصنع القوم بغير اتهام كيفما كان ، ببرهان أو بلا برهان ؟ .

* * *

ويوشك القوم أن يلحقوا بالقرآن كل خبر من أخبار الدول الإسلامية يدخل فى شعائر الدين أو ينسب إلى ذى شأن أو غير غير ذى شأن من المسلمين .

قالوا عن ثروة الخلفاء « إنها لم تقتصر على المال فحسب ، بل شملت بعض المخلفات الثمينة كالسيف والعصا والعباءة التى قيل إنها كانت تعود إلى النبي محمد . وقد أثبت تحقيق علماء البرجوازيين أن تلك المخلفات كانت مزورة . فقد ذكر (بيريت) فى كتابه الإسلام فى صحيفة ١٤ مجلد ١٧ نشر فى برلين سنة ١٩٢٨ بأن الأدلة تجعلنا نشك فى صحة الأسطورة القائلة بإعطاء الرسول لعباءته إلى الشاعر كياجو بن ذكير والتى كانت الأساس لاعتبار الإسلام لتلك العباءة إحدى الذخائر

ولا يوجد فى أى من المراجع القديمة حتى فى كتاب ابن هشام كلمة واحدة عن إعطاء العباءة أو تقديسها ، ولم نذكر هنا عن المضاربات التى دارت حول هذه الذخيرة . فقد بيعت عباءة الرسول عدة مرات بربح وعرضت للجمهور بعد احتراقها فى بغداد على يد المغول سنة ١٢٥٨ م فى مسجد العبادة المقدسة فى اسطنبول ، وليست أسطورة هذه العباءة بفريدة بين غيرها من الطلاسم والدكاكير فى الإسلام وفى غيره من الأديان الأخرى » .

فالذين نشروا هذه الكراسة الرمادية من الصقعاء بالإسلام فى العراق يجهلون اسم كعب ابن زهير الشاعر المشهور وينقلونه فى مصادرهم المحققة باسم (كياجو بن ذكير) ويدلون بذلك حقاً على أنهم غربلوا التاريخ وفسروه ونفذوا إلى أسراره ومضامينه ولم ينكروا الدين إلا لأنهم فهموه حق فهمه من هذه الدراسة التاريخية على أوفاها ! ...

وهؤلاء هم الذين عرفوا تاريخ النبي عليه السلام وعرفوا كل ما روى عنه من الحقائق والأباطيل ، فعرفوا من بينها شاعرا لم يخلقه الله يسمى كياجو بن ذكير ، وعرفوا بعلمهم الزاخر أنه اسم عربى يتسمى به العرب فى صدر الإسلام .

وهؤلاء هم أصحاب الإلحاد المفسرون

الماديون للتاريخ ولا شيء عندهم غير المادة والتاريخ .

فإذا صح كل ما قالوه ونشروه عن هذا (الكياجو) العربى فما هو ذنب الإسلام ؟ وما هو ذنب النبى عليه السلام ؟ وما هو ذنب المؤرخين أو ذنب مؤرخ النبى ابن هشام ؟ .

بردة قيل إن النبى خلعها على شاعر معلوم أو مجهول ، ولم يقدسها النبى ولا جاء فى كتب دينه أنها من المقدسات أو المحفوظات للتقديس والتبريك . فماذا فى وجود هذه البردة من مطعن فى الكتاب أو فى السنة أو فى شرائع المسلمين ؟ .

وإذا ظهر أحد - مثلا - بخطاب صحيح أو مدسوس على كارل ماركس فتغالى به أتباعه وتوارثته المتاحف بأثمانه وما فوق أثمانه ، فماذا فى ذلك من التفنيد للمادية والماديين ومن البرهان المتين على بطلان هذا الدين ؟ . وما الذى يوجب على المؤمنين بالمادية الاقتصادية أن يدحضوا هـذه الإشاعة الشيوعية أو البرجوازية ؟ .

كان للنبى عليه السلام بردة خلعها على شاعر .

لم يكن للنبى عليه السلام بردة خلعها على شاعر .

كان بعض الناس يصدقون فى هذه الرواية أو يكذبون فيها ، وكانوا يستغلونها على الحالين فيحسنون أو يسيئون استغلالها .

على كل فرض من هذه الفروض ، ماذا فيها جميعا من النقد العلمى الذى يتحراه طلاب الحقيقة عن دعوة الإسلام ؟ بل ماذا يصنع الشيوعيون اليوم فى متاحفهم التاريخية إذا عرض عليهم أثر من تلك الآثار النبوية للشراء أليس فى متاحفهم ما يشترى لقيمته الأثرية بالمال الطائل والجهد الجهيد ؟ أليس الضريح الذى شيدوه للزعيم لينين تراثا له تكاليفه وله حجاجه وطلاب البركة لديه ؟ أليس فى متاحف العلوم المادية حول الكرة الأرضية مخلفات وموروثات تحسب أثمانها بالألوف والمئات وتفتح أبوابها كل يوم للزائرين والزائرات والمعجبين والمعجبات ؟ فلماذا يضنون بشرف كهذا الشرف أو بخير كهذا الخير على المسكين كياجو بن ذكير ... ؟ .

أما إنه لشاعر بليغ هذا الكياجو الذى لا هو فى الأحياء ولا فى الأموات .

إنه لشاعر يكفى اسمه المختلق لتمزيق الكراسة الرمادية على رءوس ناشريها ، وإظهارهم بحقيقتهم التى يكتمونها وإن لم يجهلوها .

حقيقتهم أنهم تجار فى سوق الجهل والضلال يبيعون جهلهم لمن هو أجهل منهم ، لأنه يشتريه بالمال ، وهو عندهم رب الأرباب وموئل الآمال ؟

عباس محمود العقاد

مهبط الوحي

للأستاذ محمد على الحوماني

وقف الشاعر أمام جبل « حراء » فى مكة وثارت شجونه ففاضت عبراته بهذه القصيدة

مهبطَ الوحى ، صلاة وسلاما   هرم الدهر ولم تبرح غلاما
يا قديما لم تزل جِدَّته   قبلة الكائن بدءًا وختاما
كلما ذاق أماليكَ فمٌ   عبقريٌّ ملأ الكون ابتساما

* * *

« جبل النورِ » أقم حيث نرى   كل نور من أعاليك ترامى
فانجلى فى كل أفق قمراً   وعلى كل فم ... دوّى سلاما
اتركونى أتبيّنْ فى ثرى   « مهبط الوحى » أمانىّ الجساما
أسأل الأطلال عن فرقانه   وعن الحكمة هاتيك الرماما
وأسائل تحته رهط « أبى   طالب » كيف يُربُّون اليتامى ؟ ؟
كيف ينشقُّ عن اليُتم بهم   فلق شق عن الفجر الظلاما ؟ ؟

* * *

أوثقونى هاهُنا أطلق فمى   يلثم الصخر ويستفُّ الرغاما
أوثقونى أتنسم بدمى   فى ظلال الوحى ، شيحاً وخزامى
ألصقونى بثراها واهمسوا   بين جنبىّ لياليه الوساما
أضجعونى وأهيلوا رملها   فوق عينىّ نجوداً وتهاما
دثرونى ، وأحيلوا وهدها   ورُباها فىّ لحماً وعظاما
علنى أبصر فى أطلالها   عِزةً قومتِ الكونَ فقاما

لبنات هتف العز بها ... فتسامقن بروجاً ودعاما
أوثقونى أذكر عهد الألى ... أوقظوا الموتى ولم نبرح نياما

* * *

يا جبالا أحدق القفر بها ... واستوت فيه شماريخ صماما
كيف أقفرت من الكرم الذى ... يكلأ الحىّ وأنبت الكراما ؟؟
أين « الحرة (١) » أن تندى ولم ... تزر فى آفاقها حتى الجهاما ؟؟
أنبتت كل دم حر وما ... نبعت أرضاً ولا اخضلت غماما

* * *

من أنادى وأناجى فى ثرى ... حال من بثى حنيناً وهياما
ذكريات عصفت ثورتها ... ملء جنبى ضراماً واضطراما
كدت من تأريثها أن لا أرى ... وأعى إلا صليلا وقتاما
ذكريات حطم الشعر بها ... كل فكر ترك الشعر حطاما

* * *

يا بناة الدين حلت بعدكم ... نكبة سامته خسفاً وانهداما
هانت الأنفس منا فهوى ... شرف قام عليكم فاستقاما
لو أفقتم لرأت أعينكم ... أمة تزدرد الموت الزؤاما
الألى انقضوا على الشرق ظبى ... وانبروا فى أفق الغرب سهاما
والألى لما يزل ناموسهم ... قائماً فى كل أسلوب نظاما
صفقوا « بغداد » فى كل حشا ... وبنوا فى كل تاريخ « شآما »
خلفتكم بعدهم طائفة ... تخذت من كل طاغوت إماما
والأنوف الشم فى أعقابكم ... لبست من كل أقنوم خطاما
الحواريون ضاقت بهم ... رقعة الأرض صلاةً وصياما
والطواغيت على أعوادكم ... يتبارون قعوداً وقياما
يا رسول الله ماذا نتقى ... من رزايانا ومن ذا نتحامى ؟؟؟

محمد على الحوماني

---

(١) الحرة أرض وعرة مقفرة والحرار موجودة بكثرة حول المدينة المنورة .

من المسرح الديني:

أسماء بنت الصّدّيق

للأستاذ محمد ابراهيم نجا

المشهد الأول

« حجرة مؤثثة بالأثاث العربي في غير ترف . . . يظهر باب من الجهة اليمنى . . . أسماء تصلي ، وحين تنتهي من الصلاة ، تناجي ربها » .

أسماء : إلهي يا إله العالمينا — وأكرم من يجيب السائلينا
سألتك أن تعين الخير حتى — يرد الشر مخذولا مهينا
وترعى الحق في الدنيا ليقوى — وتمنح أهله النصر المبينا
سألتك لا لنفسي . . . إن نفسي — قد انصرفت عن الدنيا سنينا
ولا لابني ، فلست أراه إلا — وديعتك التي استودعت فينا
ولكني أرى الضلال جاءوا — يريدون الردى للمهتدينا
إلهي احكم بما ترضى ، فإنا — بما يقضيه حكمك قد رضينا

« تسمع طرقا على الباب »

أسماء : تقدم أيها الطارق — قد جئت على الرحب

« يدخل عبد الله ابنها »

عبد الله : سلام الله يا أمي
أسماء : سلام الله
م تهتف : واكربي !
لأمر هائل جلل — تركت مواطن الحرب !
أذاك فرار منهزم ؟ — فذلك أعظم الخطب !

عبد الله [فى قوة] : معاذ الله . . . كيف يفر مثلى — من الأعداء فى يوم النزال ؟
وكيف يخفينى بأس الأعادى ؟ — وكيف يَروُعنى هول القتال ؟
ولكينى خُدعت ، وفر عنى — رجالى . . آه من جبن الرجال
وصرت كأننى فى الحرب وحدى — أقاتل باليمين وبالشمال
فجئتك أبتغى رأيا سديدا — به أجد الهدى بين الضلال

أسماء : أتخشى القتل عبد الله ؟

عبد الله : كلا — فليس القتل يوم الحرب عاراً
ولكن تعلمين بأن شأنى — أحال ضغينة الحجاج ناراً
فلو أنى قُتلت لمزقونى — كما مزقت ثوبا أو دثاراً

أسماء : أتخشى حين يقتلك الأعادى — جراحات تكون بلا دماء ؟
وقبلك سيد الشهداء أودى — فمزق جسمه حقد النساء
أتدرى الشاة بعد الذبح شيئا — فتصرخ حين تُسلخ للشواء ؟

عبد الله : هذا هو الحق الصراح ، جَلَوْته — لىَ هادياً ، فعرفت ماذا أفعلُ
الآن أذهب للقتال ، وعزمتى — أمضى من السيف الصقيل ، وأقتل

أسماء : الآن حق وداعى — يا أكرم الأبناء
وضعتُ فيك رجائى — وما فقدتُ رجاء
فكن صبوراً ، وقاتل — بهمة وبلاء
وعد بأكرم نصر — أو كن من الشهداء

« تعانقه فتلمس الدرع التى يلبسها ، فتقول فى إنكار »

أسماء : ما تلك عبد الله ؟

عبد الله : درع أتقى — بحديدها ما جاء من أعدائى

أسماء : درع تقيك ضرابهم وطعانهم ؟ — مهلا . فتلك وسيلة الجبناء
المؤمنون دروعهم إيمانهم — ويقينهم بالله فى البأساء
وعزيمة طماحة لا تنثنى — حتى تنال قلائد الجوزاء

عبد الله : أماه قلت صوابا — يا أكرم الأمهات

« ينزع درعه »

الآن أنـــــــزع درعى　　　مستهزئا بعـــــــدائى
وما نـــــــزعت مراسى　　　ولا خلعت ثبـــــاتى
حسبى يقينى وعــــزمى　　　وصارمى وقنـــــاتى
إنى نــــذرت لربى　　　يوم النضال حيـــــاتى
والآن أمضى بقــــلب　　　مستأسد العــــزمات

أسماء : اذهب لأكـــــرم غايه　　　ورافقتك العنـــــايه

« ينصرف عبد الله »

* * *

المشهد الثانى

« نفس الحجرة فى المشهد السابق . . . الوقت ليلا . أسماء تمشى فى إعياء » .

أسماء : أين أيام زمانى الماضيـه　　　وشباب جملته العافيـــه
يوم أن كنت إذا الحرب دنت　　　ثم دارت برحاها العاتيـــه
أحمل الماء لمن يشكو الصدى　　　ثم أعنى بالجراح الداميـــه
ولقد يضرب سيفى فى العدا　　　ضربات ساحقات قاضيه
وأنا الآن مشيب ضارب　　　فى حياة كالغصون الذاويه
لا أطيق الخطو من ضعفى ولا　　　تحمل السيف ذراعى الواهيه
آه لو يحمل سـيفى ساعدى　　　ضارباً تلك الجموع الباغيه

« تسمع صوتا من الخارج »

الصوت : يا أم عبد الله

أسماء : من !

الصوت : أنا وافد　　　من جند عبد الله

أسماء : نعم الوافـد
ادخـــل

الجنـدى : سلام الله للأم التى　　　أعلى أمومَتَـها الكريمُ الماجد

أسماء : وعليك من ربى السلام ورحمة فياضة بالخير والنعماء
ماذا وراءك ؟

الجندى (مترددا) : جئت بالنبأ الذى يا ليته ما كان من أنبائى

أسماء : وإذن فقد قُتل الأمير ؟

الجندى : تجلدى

أسماء : عجباً أتحسبنى من الضعفاء ؟
إن التجلد فى الشدائد شيمتى ودليل إيمانى ، ورمز إبائى
والصابرون ، جزاؤهم من ربهم خير الجزاء . فهل أُضيع جزائى

« بعد لحظة »

والآن حدثنى . . . أقاتل جهده وسقى الأباطح من دم الأعداء ؟
أفكان مثل أبيه صدق عزيمة وجلا دَمَرهفة ، وحسنَ بلاء ؟

الجندى : الله يشهد ما رأيت نظيره أحداً ، ولا أبصرت مثل قتاله
كانت جموع القوم تخشى بأسه فتفر فى فزع من استقباله
فإذا تعرض فارس ليناله قهراً ، طواه الموت قبل مناله
عقروا الجواد ليعجزوه ، فما ونى أوحاد عن إقدامه ونضاله
بل ظل يخترق الصفوف مجندلا أعداءه بيمينه وشماله
حتى أتاه الغدر يسترق الخطا فاغتاله ، تبت يدا مغتاله

أسماء : نعاك عبد الله ، عشت مجاهدا فى الله ، تركب هامة الأخطار
دافعت عن شرف العقيدة ، حاملا سيف العلا بعزيمة الأحرار
وقضيت فى ظل السيوف ، ومن يمت فى ظلها ، يخلد مدى الأدهار
قد كنت فى دنياك مبعث عزتى ولأنت فى منعاك رمز فخارى
عش فى جوار الله جل جلاله وانعم مع الشهداء والأبرار

[ستار]

ابراهيم محمد نجا
المدرس بالمدارس الثانوية للبنات
وخريج كلية اللغة العربية

آراء وأحاديث

وفد أفغانستان فى الأزهر :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمكتبه صباح اليوم الوفد الثقافى الأفغانى ، وكان على رأس الوفد السيد شاه محمد رشاد مدير عام تنوير الأفكار بوزارة الصحافة ، والسيد محمد حيدر زويل المدير العام للعلاقات الثقافية بوزارة الصحافة والسيد محمد بى كوه زاد مدير جريدة أفغانستان ، وكان يرافق الوفد السيد المقدم عبد العزيز هندى مدير العلاقات العامة بوزارة الثقافة والإرشاد والسيد ابراهيم محمد عيسى وكيل الإرشاد الثقافى .

وقد قال السيد رئيس الوفد : إنها لفرصة طيبة تلك التى نلتقى فيها بشيخ الإسلام وإمامهم وأستاذ الأساتذة فى العالم أجمع ، ولا تؤاخذنا إن عجز اللسان عن التعبير .

وهنا رد فضيلة الأستاذ الأكبر فقال : إنما تنطق القلوب وتصغى الأفئدة ، فكم من أفواه تحدثت ولم تنتج شيئا ، وأنا أحس بقلوبكم فإنكم إخوة لنا وأخوتكم صادقة ، فنحن جميعا أحفاد السيد الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى كان له من المبادئ فى التشريع وفى السياسة ما ربط بها أواصر الصلة بين أفغانستان وفيما بين القاهرة ودمشق ، ومن ثم كان هذا الجزء ميدانا خصبا ينثر فيه درره الغوالى .

إن لجمال الدين الأفغانى صلة وثيقة بالأزهر إلى اليوم ، وفى الأزهر رجلان خلدا ذكرى الإمام محمد عبده ، وهما بهذا الاعتبار حفيدان يؤمنان بالمثل والقيم العليا التى آمن بها جمال الدين ، وهما من خيرة أبناء الأزهر : الدكتوران محمد عبد الله ماضى مدير المعاهد الدينية ومحمد البهى مدير عام الثقافة الإسلامية بالأزهر .

وهنا قال الدكتور محمد البهى : إن فضيلة إمامنا الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت هو أصل هذه الصلة . فقد عرفنا السيد جمال الدين عن طريقه وعرفنا الشيخ محمد عبده بمعرفته ، فإن يكن فينا من خير فهو مستمد من فضيلته .

ثم قال الأستاذ الأكبر : إن هذه الصلات يجب أن نحييها على أساس من المحبة والتبادل الروحى ، وإن صلتى بأفغانستان لوثيقة ، فإننى لأذكر أنه فى عام ١٩٤٨ طلب منى أن أسافر إلى « كابول » لأشترك فى التقنين الشرعى الإسلامى ، ولكن ظروفا حالت دون ذلك ، ولعل فى المجمع العلمى الإسلامى ، المشروع الذى تقدمت به إلى سيادة الرئيس زعيم نهضتنا الحديثة الرئيس جمال عبد الناصر ما يحقق الصلة بين المسلمين جميعاً ويربط بعضهم ببعض عن طريق العلم والمعرفة والروح وإننى لأدع التفصيل فيه إلى حيث

داعيا المولى أن يحقق للمسلمين آمالهم فى زعيمهم جمال .

ثم أهدى لهم فضيلته كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » قائلا لهم: هذا بما اشتمل عليه من مبادئ الإسلام وفيه عهد نعاهد أنفسنا عليه فى أن نكون العاملين بدين الله المخلصين له .

هـذا وقد زار الوفد قاعة المحاضرات الأزهرية وكلية الشريعة الإسلامية واستمعوا إلى بعض المحاضرات فى القانون المدنى وتاريخ الفقه الإسلامى وعلم الحديث .

وقد صحبهم إلى كلية الشريعة الشيخ محمد حجاب المدرس بالأزهر والمتخرج من معهد الإعداد والتوجيه وقام بترجمة المحاضرات التى ألقيت .

ثم انصرف الوفد شاكراً حسن استقبال الأزهر لهم .

مستر فيلبس يتحدث إلى الأستاذ الأكبر:

واستقبل فضيلته مستر فيلبس صاحب شركات فيلبس العالمية وكان يرافقه مستر هاير ومستر جيبان والسيد المهندس السيد عبد الرحيم .

وقد تناول الحديث علاقة الدين القوية بالعلم حيث قال فضيلة الاستاذ الأكبر : إن لمن الواجب أن يتفق العلم والدين فى توجيه الإنسانية والعمل على استقرار السلام العالمى وأن يكون دور العلم التعمير لا التخريب وأن يستخدم للنهوض بالإنسانية إلى مستوى أفضل يحقق لها الرخاء والسعادة ، وأن توجه جهود علماء الذرة إلى استخدامها من أجل صالح البشرية لا تدميرها .

كما تطرق الحديث إلى ثقافة المشرفين على الشباب الدينية فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن المشرفين على الشباب قد تربوا تربية دينية صالحة فمنهم من هم من أبناء الأزهر ومنهم الخريجون من وزارة التربية والتعليم الذين تلقوا تعليمهم الدينى من أساتذة متخرجين من الأزهر أو من غيره .

وإن جهود حكومة الثورة وعلى رأسها الشاب المؤمن الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، توحى بأن الشباب العربى ينالون من عظيم العناية ما يؤهلهم لخدمة وطنهم وأداء واجبهم خير أداء .

ثم أجاب فضيلته على سؤال مستر فيلبس نحو توجيه الشباب قائلا : إن إذاعات العالم والصحف ودور الكتب والأندية العلمية والرياضية يجب أن يكون لها أعظم الأثر فى توجيه الشباب توجيهاً صالحاً يقودهم نحو المثل العليا والأهداف السامية .

كما تناول الحديث نواحى مختلفة عن الجهود التى يبذلها الأزهر والجمهورية العربية المتحدة لأبناء المسلمين الذين يفدون إليه لدراسة الدين الإسلامى واللغة العربية ومدى ما يقدمه الأزهر لهؤلاء الطلاب الذين ينتمون إلى أكثر من خمسين جنسية من جميع أنحاء العالم من مختلف أسباب الراحة والاستقرار حيث أعد

لهم مدينة سكنية عظيمة بها إحدى وأربعون عمارة مقامة على الطراز الحديث وتكلفت حوالى مليونين من الجنيهات .

ثم تناول الحديث مشكلة اللاجئين الفلسطينيين فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إنه لمن الخير للإنسانية أن يتعاون العلماء من رجال الدين والسياسة فى أن يعملوا على إعادة هؤلاء اللاجئين إلى أوطانهم إذ أنها مشكلة الإنسانية التى تتطلب منا أن نمد لهم يد العون والمساعدة ، والأمل معقود على الجمهورية العربية المتحدة بزعامة رئيسها الشاب المؤمن الرئيس جمال عبد الناصر .

هذا وقد شكر مستر فيلبس ومرافقوه فضيلة الأستاذ الأكبر على سعة صدره وحسن ترحيبه بهم أثناء زيارتهم لفضيلته اليوم .

زيارة :

واستقبل فضيلته السيد السعدون وزير الأشغال بحكومة الملايو وبعد أن حياه قال له :

إننى آمل دائما أن يكون الناس جميعا متعاونين على البر والتقوى والخير وأن يعم الناس جميعا محبة خالصة وود وصفاء « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وتلكم هى دعوة الإسلام تقوم على المودة والمحبة لا على الغطرسة وحب السيطرة. ولست أوجه الدعوة خاصة بأحد دون أحد ، فكل المسلمين دعاة دين وخير ، فوزير الأشغال صاحب دعوة إلى الحق كوزير التربية والتعليم كوزير العدل كلهم فى ذلك سواء ، إن كل من ولِىَ عملا من الأعمال يجب أن يقوم بأدائه خير قيام وأن يسلك به الطريق المستقيم وأبناء الملايو هم كأبناء أصلابنا فى الجمهورية العربية المتحدة نحرص على الخير لهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وقال السيد الوزير : إننى حين جئت إلى فضيلتكم جئت مدفوعا بحبى وحب أهل الملايو لكم فنحن أبناؤكم الروحيون وقد كلفت رسميا بأن أحمل إلى فضيلتكم تحيات السيد رئيس مجلس الوزراء وجميع إخوانى الوزراء وإنهم لينظرون إلى فضيلتكم نظرة الإمام والقائد .

وهنا قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إنه ليشرفنى أن أكون خادم الإسلام والمسلمين وقد وهبت نفسى طوال حياتى للدعوة الإسلامية بكل جهدى وما آتانى الله من قوة ، فلنكن جميعا دعاة حق وخير ولننتهز هذه الفرصة التى ينهض فيها السيد الرئيس جمال عبد الناصر بالأمة الإسلامية وبالأمة العربية للتعاون على الحق والخير والله يسدد خطانا ويوفقنا .

ثم أهدى فضيلته كتابه الجديد الإسلام عقيدة وشريعة ليكون عهد الله بينه وبين إخوانه المسلمين فى الملايو .

الكتب

نقد وتعريف

الإسلام : عقيدة وشريعة

لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

بقلم : الأستاذ محمد عبد الله السمان

هذا كتاب جديد قيم للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، جاء فى زهاء خمسمائة صفحة .

قدم له الأستاذ الدكتور محمد البهى المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر ، بمقدمة مسهبة جاءت بمثابة تركيز لفكرة اتجاه الثقافة العامة إلى نشر البحوث الإسلامية القوية ، كى تؤدى رسالتها فى إيقاظ الوعى الإسلامى ، وتسجل للأزهر أنه عامل قوى فى اليقظة الإسلامية المعاصرة فى شتى البقاع الإسلامية .

وهذا الكتاب أولا : ليس مجرد كتاب عادى ، ضم بين دفتيه بحوثا عديدة تتصل بالإسلام من حيث هو عقيدة وشريعة ، لتكون خلاصة لما كتبه علماء الإسلام السابقون . وكفى . . ! .

وهذا الكتاب ثانيا : ليس آراء جريئة جاءت لتنقض آراء علماء الإسلام السابقين كما يتوهم بعض قاصرى الفهم من أدعياء العلم . . ! .

وهذا الكتاب ثالثا : ليس مجرد عرض للإسلام ومعانيه ، ليجد العامة وأنصاف المثقفين فيه حاجتهم ، دون أن يجهدوا أذهانهم ، أو يشقوا على عقولهم . . ! .

ولكنه كتاب اعتمد على أصول ثلاثة : منهج ، ودراسة ، وتفكير حر نزيه ، وهذه الأصول الثلاثة إذا تجرد كتاب منها أو من بعضها ، أصبح شبحا لا روح فيه ، وسجلا لألفاظ قضت نحبها فى إهابها قبل أن تتفتح أعينها للحياة . . ! .

وقد عودنا الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى كل بحوثه ، أن يرسم لها التخطيط أولا ، وأن يضع آراءه فى إطار من الدراسة الواعية العميقة ثانيا ، وهو فى مرحلتى التخطيط والدراسة ، المفكر الحر ، والعقلية الأصيلة ، التى لا تهتز لرغاء العقليات المتجمدة ، ولا لصرير الأقلام التى أخذت على عاتقها عبء مهمة التزمت فى دنيا التفكير .

مهد الأستاذ الأكبر لمؤلفه الضخم ببحث مركز عن الإسلام ، دين الله الذى أوصى بتعاليمه فى أصوله وشرائعه إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكلفه بتبليغه للناس كافة ودعوتهم إليه .

وعن القرآن كتاب الله ، الذى أصبح عند من آمنوا به مصدراً لعقائد الدين ولأصول أحكامه وشرائعه .

وعن الفهم الإنسانى — أى الاجتهاد فى الإسلام — أنه ليس دينا يلتزم إنما هو رأى يناقش ، ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر ، وتألقت حرية التفكير والنظر ، أما العقائد الأصلية ، وأصول الشريعة ، فإن نصوصها جاءت فى القرآن بينة واضحة لاتحتمل اجتهاداً ولا أفهاما .

وعن سماحة الإسلام ، الذى دلت طبيعته على أنه دين يتسع للحرية الفكرية العاقلة ، ويساير أنواع الثقافات والحضارات الصحيحة النافعة . ! .

ثم عن الإسلام كعقيدة وشريعة ، وهاتان شعبتان أساسيتان للإسلام ، لاتوجد حقيقته ، ولا يتحقق معناه ، إلا إذا أخذتا حظهما من التحقق والوجود فى عقل الإنسان وقلبه وحياته . والعقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولا ، والشريعة هى الجانب العملى ، شرع الله أصـــول نظمها ، ليأخذ الانسان بها نفسه فى علاقته بربه ، وعلاقته بأخيه المسلم ، وأخيه الإنسان ، والكون والحياة .. ! .

هذا وقد عبر القرآن عن العقيدة بالإيمان وعن الشريعة بالعمل الصالح ، ومن هنا لم يكن الإسلام عقيدة فقط ، كما لم تكن مهمته تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط ، وإنما كان عقيدة ، وكان شريعة توجه الإنسان إلى نواحى الخير فى الحياة ، والعقيدة فى الوضع الإسلامى هى الأصل الذى تبنى عليه الشريعة ، ومن ثم فلا وجود للشريعة فى الإسلام إلا بوجود العقيدة ، كما لا ازدهار للشريعة إلا فى ظل العقيدة ، وإذاً فالإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة ، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى .

وتحدث فى نهاية هذا التمهيد عن المساواة بين بنى الإنسان بالنسبة للإسلام ، حيث يستوى فيه بالنظر إلى عقيدته وشريعته ، جميع بنى الإنسان ، تطالب به جميع الأجناس والطوائف ، ثم عن مساواة المرأة للرجل فى المسئولية الدينية ، وأن مسئولية المرأة مستقلة عن مسئولية الرجل تماما . . .

* * *

والكتاب كما هو واضح من عنوانه شطران :

وفى الشطر الأول : شرح الأستاذ الأكبر العقائد الأساسية فى الإسلام :

أولا : الإيمان بوجود الله ووحدانيته ..!.
ثانيا : « برسله وأنبيائه جميعهم .!.
ثالثا : « بالملائكة ..!.
رابعاً : « بالبعث والجزاء ..!.

ثم أصول الشرائع والنظم التى تضمنتها رسالات الرسل ، والتى ارتضاها الله لعباده . ويرى الأستاذ الأكبر ، أن كلمة الشهادة تجمع عقائد الإسلام وأصول شرائعه : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » وهذه الشهادة هى المفتاح الذى يدخل به الإنسان فى الإسلام وتجرى عليه أحكامه . « فالشهادة بوحدانية الله تتضمن كمال العقيدة فى الله من جهتى الربوبية (الخلق والتربية) والألوهية (العبادة) ، والشهادة برسالة محمد تتضمن التصديق بكمال العقيدة فى الملائكة . والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، وأصول الشريعة والأحكام . » وطريق الإسلام إلى الإيمان ليس فيه إكراه ، لأن طبيعة الإسلام تأبى الإكراه ، ولا يتحقق إيمان بإكراه ، وحجته فيما يتعلق بعقيدة الإله : وجودا ووحدانية وكمالا « دائرة بين النظر العقلى حيث طلب من الإنسان النظر والتفكير فى هذا الكون : فى إحكام وجوده ونظامه ، وبين الوجود الفطرى ، حيث يرشدنا القرآن ويسترعى أنظارنا إلى حقيقة نفسية واقعية تعبر عن قبس الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته ، وعن فطرية الشعور الدينى فى نفس الإنسان .

والإيمان بالرسل لا يعطى فكرة تجريدهم من البشرية ، فهم بشر يتفقون مع سائر البشر فى أخص أوصاف البشرية ، وإن كانت قد لحقتهم عصمة الله فيما يبلغون عنه ، فإنهم فى غيرما يبلغونه عن الله من الآراء والأحكام أو الأحكام الشخصية - كغيرهم - يصيبون فيها ويخطئون .

وفى الفصل الثانى من الشطر الأول : ناقش الأستاذ الأكبر موضوعا دقيقاً ، هو « طريق ثبوت العقيدة » :

ففضيلته يقرر : أن العلماء متفقون على أن الدليل العقلى الذى سلمت مقدماته وانتهت فى أحكامها إلى الحس أو الضرورة ، يفيد ذلك اليقين ويحقق الإيمان المطلوب . أما الأدلة النقلية فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنها لا تفيد اليقين ، والذين يرون غير رأيهم ، شرطوا فى الدليل النقلى أن يكون قطعياً فى وروده ودلالته .

وعلى هذا الأساس ، لا تعتبر المسائل التى لم ترد بطريق قطعى ، أو وردت بطريق قطعى ولكن لابسها احتمال فى الدلالة ، لاتعتبر من العقائد التى يكلفنا بها الدين ويكفر منكرها وفى مقدمة هذه المسائل : رؤية الله بالأبصار ، وما يكون آخر الزمان من ظهور المهدى ،

والدجال والدابة والدخان ونزول عيسى ، وما إلى ذلك مما يذكر فى مثل : خريدة الدردير وجوهرة اللقانى .

وعلى هذا الأساس أيضا ، يعتبر القرآن هو الطريق الوحيد لثبوت العقائد ، فما كان من آياته قطعى الدلالة لا يحتمل معنيين فأكثر ، وثبوت العقيدة بالقرآن وعدمه مبنى على قطعية الدلالة وظنيتها ، أما قطعية الورود فهذا لا شك فيه .

هذا بالنسبة للقرآن ، أما بالنسبة للسنة ، فثبوت العقيدة بها ، لا يكون إلا بنص قطعى فى وروده ودلالته ، لأن الظنية يلحقها من هذين الجانبين ، ومتى لحقت الظنية الحديث من جهة وروده أو من جهة دلالته أو منهما معا ، فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها .

وبعد أن عرض الأستاذ الأكبر لآراء العلماء الأقدمين ، وإجماعهم على أن الحديث الآحاد لا يفيد إلا الظن - لا فرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما ، وعرض أيضا لاختلافهم فى وجود الحديث المتواتر ، فذهب بعضهم إلى أنه لا يوجد حديث واحد متواتر فى الكتب المدونة ، كما ذهب البعض الآخر إلى أن المتواتر كثير فى هذه الكتب ، رأى فضيلته أنه لا يحكم لحديث بالتواتر إلا إذا أخرجته جميع كتب الحديث المشهورة المتداولة ، وتعددت طرق إخراجه تعددا تحيل العادة معه التواطؤ على الكذب ، وثبت هذا التعدد فى جميع طبقاته : أوله وآخره ووسطه .

* * *

أما الشطر الثانى من الكتاب فقد كان بحثا مطولا عن الشريعة .

والشريعة هى الجانب العملى فى الإسلام ، هى اسم للنظم والأحكام التى شرعها الله أو شرع أصولها وكلف المسلمين إياها ، وعلى كثرتها ترجع إلى ناحيتين أساسيتين :

(١) العبادات : وهى ناحية العمل الذى يتقرب به المسلمون إلى ربهم ويستحضرون به عظمته ويكون عنوانا على صدقهم فى الإيمان به ومراقبته والتوجه إليه .

(ب) المعاملات : وهى ناحية العمل الذى يتخذه المسلمون سبيلا لحفظ مصالحهم ، ودفع مضارهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الناس على الوجه الذى به يسود الأمن والاطمئنان .

والعبادات : هى الصلاة والصوم والزكاة والحج ، والمقصود منها مضمومة إلى الإيمان بالله ، هو تطهير القلب وتزكية النفس وقوة مراقبة الله ، ولذلك كانت العمدة التى يبنى عليها الإسلام .

وبعد أن شرح الأستاذ الأكبر العبادات

تفصيلا ، ، أبرز من خلاله فلسفة التشريع ، طرق جانب المعاملات ، تحدث عن نظام الأسرة ، « تكوينها - تعدد الزوجات - وضع المرأة فى نظر الإسلام » والمواريث ، ثم عن الأموال والمبادلات ، ثم عن العقوبات ومسلك الشريعة وهدفها فى تقريرها ، ثم عن وضع الأمة فى الإسلام .

ولقد أثار الأستاذ الأكبر فى هذا القسم كثيراً من المعانى :

١ - حمل كثير من العلماء آية : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ... » على مجرد التنفير من تزوج البغى ...

٢ - أن الإمام الذى تمنحه الشريعة الإسلامية هذا الحق العظيم ، ليس هو من يخلع عليه طائفته أو إقليمه أو طائفة من الناس لقب « الإمام » بل هو الحاكم الذى يعرف فى صدر الإسلام بلقب الخليفة .

٣ - لابد للأمة من إمام يحيى الدين ، ويقيم السنة ،وينتصف المظلومين ، ويستوفى الحقوق ، ويضعها موضعها ... !.

* * *

ولقد ألحق الأستاذ الأكبر بالشطرين السالفين : العقيدة والشريعة قسما ثالثا تحت عنوان : « مصادر الشريعة » وإذا كان فضيلته قد اعتبر القرآن وحده مصدراً للعقيدة فى الإسلام بشرط أن يكون صريحاً حاسما فى معناه ، فإنه يقرر هنا أن مصدر الشريعة أوسع نطاقا ، وقد حصرها فى ثلاثة مصادر :

ا - القرآن نصه ومحتمله .

ب - السنة بشرط صحة نقلها .

حـ - الرأى عن طريق النظر فى محتمل القرآن والسنة .

وبعد أن عرض فضيلته للقرآن فى الوضع اللغوى ، وفى اصطلاح علماء الأصول ، ونهجه فى بيان الأحكام ، كما عرض للسنة أيضا : معناها فى اللغة ، ومعناها فى صدر الإسلام ولسان الشرع ، ومعناها فى اصطلاح علماء الأصول ، ومعناها فى اصطلاح الفقهاء ناقش شبهة المخالفين فى أن السنة مصدر من مصادر التشريع ، وهم الذين رأوا فى القرآن كفيلا ببيان أحكام الله ، كما رأوا فى أن الأحاديث لو كانت تشريعا عاما كالكتاب لأمر الرسول بتدوينها وحفظها .

ورد فضيلته على المخالفين شبهتهم حين ذكر أن رأيهم مخالف لإجماع الذين يعتد بإجماعهم وأن المحققين من العلماء أثبتوا بالسنة قولا وعملا كثيرا من الأحكام التشريعية الدائمة ، وأن العمل المستمر من عهد الرسول إلى يومنا هذا فى نزوع المسلمين فى تعرف أحكامهم إلى السنة المروية ، يجعل شبههم أوهى من خيوط العنكبوت .

على أن فضيلة الأستاذ الأكبر اعتبر أن

السنة كما هى تشريع قد تكون غير تشريع ، فما ورد من أحاديث مدونة من أقواله وأفعاله وتقريراته ، وكان سبيلها سبيل الحاجة البشرية : كالأكل والشرب والنوم وما إلى ذلك ، أو سبيلها سبيل التجارب والعادة الشخصية كشئون الزراعة والطب أو سبيلها سبيل التدبير الإنسانى أخذاً من الظروف الخاصـــة كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية ، هـذه الأحاديث ليست شرعا ، وإنما هى من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول فيها تشريعا ولا مصدر تشريع .

وذكر فضيلة الأستاذ الأكبر عند الكلام عن الرأى ــ كمصدر للتشريع ــ أن عهد الرسول قد تركز فيـه مصدران للتشريع هما القرآن والسنة وكان أصحابه من بعده يرجعون إلى القرآن ثم إلى السنة فإن لم يجدوا حاجتهم بحثوا مستلهمين روح الشريعة ، وكان أخذ الرأى بطريق الاستشارة مصدراً جديداً ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، أو فيما فيه نص محتمل .

وترجع حجية الرأى فى التشريع إلى تقرير القرآن مبدأ الشورى ، وأمره برد المتنازع فيه إلى أولى الأمر ، ثم بعد ذلك إلى ثبوت إقرار النبى لأصحابه الذين كان يبعثهم إلى الأقاليم على الاجتهاد والأخذ بالرأى .

وعلى ذلك يكون « الإجماع » الذى يعتبر فى الإسلام مصدرا من مصادر التشريع هو اتفاق أهل النظر فى المصالح ، ولا عبرة فيه بموافقة من ليس أهلا للنظر ولا بمخالفته . أما الإجمـــاع الذى يصور بأنه : اتفاق الأمة جميعها : مجتهديها وغير مجتهديها : خاصها وعامها ، فليس هو الإجماع المعتبر مصدرا من مصادر الشريعة ، وإنما هو إجماع على العلم بما أجمعت الأمة عليه .

والأستاذ الأكبر يقرر بأنه لا اختصاص لأحد بحق الفهم فى الإسلام، لأنه من حق كل مسلم حائز لأهليـة البحث ، وبأنه ليس فى الإسلام من يجب الأخـذ برأيه كالخليفة والإمام والقاضى ؛ لأن كلا منهم ليس معصوما من الخطأ ، وبأن فتوى المفتى ليست ملزمة لمن يستفتيه ، لأنه إما مجتهد يفتى برأيه أو مقلد يفتى برأى غيره .

وختم الأستاذ الأكبر هـذا البحث بأن الإسلام فتح الباب للاجتهاد الفردى والجماعى لـكل من الناس فى نفسه أهلية النظر ، وقد كان تعدد المذاهب مرده إلى الاختـلاف فى طرق الاجتهاد ، كما كان فى تقرير حق الاجتهاد ما فتح لأهل البحث والاستنباط من علماء الشريعة الإسلامية أوسع الأبواب لتخير القانون الذى تنظم به شئون المجتمعات الإسلامية اختلاف ظروفها ، غير مقيدين إلا بشىء واحـد هو عـدم المخالفة لأصل

من أصول التشريع القطعية مع تحرى وجوه المصلحة ، وسبيل العدل ، وكان ذلك أساساً لدوام الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان . !

وبعد :

فإن هذا عرض يعتبر سريعاً لمؤلف الأستاذ الأكبر : الإسلام عقيدة وشريعة » والذى أستطيع تأكيده أن فضيلته أفاض فى عرضه للإسلام بشطريه. العقيدة والشريعة، بعقلية تحررية مدعمة بالدليل والمنطق ، وإن ماضى الأستاذ الأكبر وحاضره يشهدان بأنه فى طريقة عرضه للإسلام يعنى بالمنهج والدراسة والتحرر العقلى بينما نجد كثيراً ، من العلماء يكتفون بجمع آراء غيرهم دون أن يكون لآرائهم وجود ، وذلك إما لأن طريقة النقل ميسرة سهلة لا إجهاد للذهن فيها ، وإما لأنهم يؤثرون السلامة والهدوء . وتجنب مشاغبات أشياع الجمود والتزمت ، ولو سار الجميع على منوالهم لعجزت الشريعة الإسلامية عن مسايرة الحياة والتجاوب مع تطوراتها ، وأصبحت تراثا مجمدا من تراث الماضى . وكفى ! .

إن كتاب الأستاذ الأكبر سيسد فراغا فى المكتبة الإسلامية ، فلأول مرة على وجه التقريب ـ يخرج إلى عالم الوجود كتاب مستقل يجمع بين دفتيه الإسلام فى عرض مركز ، ودراسة عميقة ، وبروح مشرقة ، وعقلية متحررة . ! ؟

محمد عبد الله السمان

حول كتاب المغير لابن الصديق :

اطلعت على كتاب المغير للشيخ أحمد ابن محمد بن الصديق الغمارى الطنجاوى نزيل القاهرة فوجدت مؤلفه يستعمل ألفاظاً لا تليق بالنقد العلمى الذى يراد به بيان الحقائق فهو ينسب الفلتة إلى الحافظ نور الدين الهيثمى كما أنه يرمى الفقهاء بأنهم (يوردون الأحاديث الموضوعة محتجين بها فى الأحكام) وأن كلامهم هذا (ليحسنوا به بدعة التقليد والمذاهب المبتدعة) وأن المناوى هو مصدر الأوهام والأغلاط وأن عقله السخيف ما أبلده ـ وان (الحنفية أصحاب هذا الرأى وأكثر المقلدة وضعا للحديث حُبّاً فى نصرة مذهبهم) وأن الحافظ السيوطى (لو كان عنده نقد للحديث لاستحى من إيراد مثل هذه الأباطيل) — كما أنه ذكر فى ص ٥٧ عن حديث عبادة (وهو من كذب الحنفية) وقال فى ص ٦٧ (وطالب العلم اليوم شر من الشيطان الرجيم) وقال فى ص ٧٧ (فهل بلغت بك الغفلة يا سيوطى لهذا الحد) والسيوطى المغفل فى زعم ابن الصديق هو الحافظ جلال الدين

عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى الإمام الباحث الحافظ الأديب المؤرخ الذى تورع عن مـنـح الملوك والحكام .

ولست أريد بهذه العجالة نقد الكتاب من جهة الصناعة الحديثية وإنما أريد أن أسأل المؤلف عن الفائدة التى تعود على الإسلام من تزذيل السلف الصالح ورمى مذاهبهم المباركة المتبوعة على طول الزمان بالفساد والابتداع . وإذا انتهى الأمر إلى أن يسب المحدث أصحاب المذاهب ويقع الفقهاء فى الصوفية ويذم الوعاظ المفسرين - إذا انتهينا إلى هذا فهل يمكن لإذاعة إسرائيل أو لملايين الدولارات التى ينفقها المبشرون المستعمرون أن تنال من الإسلام أكثر من هذا - وما هى الفائدة التى تعود على المسلمين من هذا التنابذ والسباب ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى وحدة الكلمة وتأليف القلوب وإعادة اليقين إلى العقول التى تسلطت عليها أمواج الإلحاد والشيوعية . وهلا يمكن للنقد العلمى أن يقوم إلا بهذه الألفاظ البذيئة - وأذكر أنى سمعت المؤلف قبل خمس وعشرين سنة يقول : قال الحافظ فقلت له أى حافظ تعنى؟ فقال : إذا قلت الحافظ فهو ابن حجر ، لأنه بلغ شأواسابقيه وعز على من جاء بعده أن يلحق به ثم هو يقول فى ص ٦ من المغير (ومن الغريب أن الحافظ ذكره فى مقدمة فتح البارى مع تصريحه فى كتاب آخر بأنه من الواهى) وهكذا نرى أن المؤلف لايزال مصراً على استعمال لقب الحافظ دون أى تعريف ، ولكنه يرمى هذا الحافظ بالتناقض ، وبأنه يوهى حديثا ثم يذكره فى مقدمته التى تعتبر دستورا لعلم الحديث فى رأى كثير من المحدثين . فهل التناقض شيمة للحفاظ — أرجو أن يكون الرد على هذا فى مؤلف يفرد لتعقب المغير ونقد ما جاء فيه إن شاء الله تعالى - كما أن المؤلف ذكر فى ص ٩ من المغير «حديث الورع عن ذكر الفاجر» وأنه موضوع مع أن الشيخ نور الدين أبا الحسن على بن أحمد بن أبى بكر الجراح الشافعى - وابن الصديق أعلم الناس به - ذكر فى أول كشف الأستار المسبلة هذا الحديث والجراح المذكور من المحدثين بل من الحفاظ فكيف استشهد بحديث موضوع .

أرجو أن يكون فى هذه الكلمة الهادئة ما يردع الشيخ ابن الصديق عن لحوم العلماء فإنها سموم وأن يتفرغ لإقراء الحديث على طلبة أؤمل ألا يكونوا ببركته أسوأ من الشيطان الرجيم - والله ولى التوفيق والهادى لأقوم طريق .

أحمد خيرى

النشاط الثقافي للأزهر

افتتحت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية موسمها الثقافى الثانى بسلسلة قيمة من المحاضرات لصفوة من كبار المفكرين ألقيت فى قاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى ابتداء من ١٨ ربيع الآخر وهاك ملخصا لكل منها :

ألقى الأستاذ الدكتور محمد البهى المدير العام للثقافة الإسلامية محاضرة عنوانها :

« واجب العلماء »

تحدث فيها عن أصحاب المعرفة الإلهية وأصحاب المعرفة الإنسانية ، وأبرز منهج كل فريق فى البحث . ودعا العلماء من الفريقين أن ينظر كل منهما فيما عند الآخر حتى تلتقى المعرفة الإلهية بمبادئها ومثلها العليا مع المعرفة الإنسانية واختراعاتها وتقدمها المادى .

كما أبان أن صاحب المعرفة الإلهية يعتمد فى تنظيم علاقات المجتمع وإرساء قواعد السلوك على أساس فاضل من الوحى الأعلى أما صاحب المعرفة الإنسانية فيعتمد على المعمل والتجربة وما تؤدى إليه من نتائج ثم دعا فى محاضرته أن يلتقى الفريقان ليتحقق سلام البشرية وأمنها .

* * *

وألقى الأستاذ عيسى عبده إبراهيم الأستاذ بكلية التجارة ـ جامعة عين شمس ـ محاضرة عن

« وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى »

بدأه بالكلام عن البناء فى المجال الاقتصادى على وجه العموم ، وفى المجال القومى على التخصيص . . .

وكان من رأى الأستاذ المحاضر : أن الأحكام التى جاء بها الدين الحنيف لا تقبل التطور ولا التطوير لأن التطوير ترق إلى فوق ما هو مألوف ولا يكون ذلك إلا فى أمر به شوائب . بينما أحكام الإسلام منزهة عن العجز وعن النقص.

ثم شرح مفهوم « العفو » فى قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » وقوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » ثم بين قصور قانون المنفعة ، وقانون المقدرة بالنسبة لقانون « العفو » فى القرآن الكريم . ثم عرض لمشكلة الربا فى الديانات السماوية ، وكيف اتفقت كلها على تحريم الفائدة الربوية .

وتعرض بعد ئذ للتنظيم الاقتصادى كما جاء فى بعض آيات الذكر الحكيم وملاءمته لحاجة

الناس في كل زمان ومكان . وكيف أن فيها غناء لحياة الناس حياة سعيدة بدون أ كل الربا . وعرف الربا بأنه الذى يأكله القوى دون مبرر ، وهو استغلال حاجة الضعيف ، وانتهاز الفرص وتجارة الموت ، والكسب الفاحش ، وما يكسبه صاحبه بلا جهد .

وذكر من أضرار « الربا » أنه : يعتصر الفقير فيزيده فقراً ، ويستغل حاجة المحروم والكادح مما يترتب عليه ضعف المجتمع ، ويطغى الغنى ويبطره ، ويشيع الخوف بين الطبقات ، وينبت الجريمة ، ويزعزع العقيدة ، ويفسد المجتمع بالمادية المسرفة ، وذكر في ختام حديثه بالحقائق والأرقام : أن الإنسانية فى مقدورها التخلص من الربا بتنظيم الائتمان المنزه عن العقد الربوى ، والدليل على ذلك أن جملة الفوائد الربوية فى السنة الأخيرة للمرابين تساوى ١٥ مليونا من الجنيهات . ولا قيمة لذلك القدر بالقياس إلى الدخل الذى يناهز ٩٠٠ مليون من الجنيهات .

وقد كان السيد حسين الشافعى وزير الشئون الاجتماعية والعمل حاضراً وطلب من السيد المحاضر أن يستمر فى بحثه ، وعلق بالتأييد والاستحسان على اتجاهه . وقد نشر فى هذا الجزء النصف الأول من هذه المحاضرات :

* * *

وألقى الأستاذ / سيد أبو المجد ـ المستشار الفنى للمؤتمر الإسلامى محاضرته عن « الملكات العقلية فى القرآن الكريم » .

ذكر فيها : أن الإسلام ليس بمعزل عن الحياة والأحداث . وليس مجرد عقيدة فقط بل هو عقيدة وشريعة ، وعلم وعمل ، وعقل وخلق ، وعبادات ومعاملات ، وفى هذا الإطار تسلسلت المحاضرة عن الملكات العقلية والأسس العلمية التى خطها القرآن لاكتمال العقل ونموه ووظيفته فى الحياة . كما أضافت المحاضرة إلى القيم العلمية قيما أخرى فوق ما كتبه الفلاسفة والمفكرون .

* * *

وألقى الدكتور عثمان أمين . الأستاذ فى كلية الآداب ـ جامعة القاهرة . محاضرة فى فلسفة اللغة العربية .

بدأها بتمجيد هذه اللغة وذكر الأقوال التى قيلت فى فضلها وإيفائها بالغرض فى مقتضيات حياتنا كلها ، ثم عرض بعدئذ للميزات والخصائص التى بها فرضت اللغة العربية نفسها وخلدت .

ومن هذه الخصائص الإعراب وأثره ، والاشتقاق وفضله فى توسيعها وتشقيقها ومرونتها .

وعرض بعض صيغ الاشتقاق للتدليل على ثباتها وتنوعها وعدم تخلفها مما يساعد على سهولة تعلمها . ثم قارن المحاضر بينها وبين غيرها من اللغات الأجنبية ، وكيف أن العربية تفوقها جميعاً فى التراكيب ، والإيجاز ، والفائدة .

وعقد نماذج لهذه المقارنة ظهر فيها فضل

العربية وسر خلودها . ثم شرح كيف أن القوالب العربية تجيء على قدر المعنى المطلوب ومطابقة له تمام المطابقة .

وأن من إيجاز العربية أنها تستغنى عن الفعل أحيانا فى الربط بين المسند إليه والمسند ، بينما غيرها من اللغات لا يستغنى عن الفعل كرابطة فى الجملة لفهم المعنى . .

ندوة اتحاد خريجى الأزهر :

أقام اتحاد خريجى الأزهر ندوة عامة فى قاعة المحاضرات الأزهرية للبحث فى مشكلات الشباب دعا إلى التحدث فيها الأساتذة : الدكتور أحمد زكى وكيل وزارة التربية والتعليم ، ومحمد سعيد العريان مدير العلاقات الداخلية بوزارة التربية والتعليم المركزية ، والدكتورة بنت الشاطىء الأستاذة بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، والدكتور محمد البهى المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر وشهدها جمهور ضخم من الأساتذة والطلاب ومحبى المعرفة . فبدأ الحديث الدكتور أحمد زكى فقال ما ملخصه :

إن الشباب هو عماد الأمة ، وفخرها وذخرها ومناط أملها ...

والشباب الآن تحت قيادة حكيمة شابة زعامة السيد الرئيس جمال عبد الناصر . وإن أيامهم الآن خير من أيام سابقيهم من الشباب .

كما ذكر أن الشباب مرحلة خطرة تجب العناية به فلابد له من مثل عليا يتمثلها ، وقيادة حكيمة تقوده ، وهداة يهدونه سواء السبيل ، ويجنبونه الزلل والانحراف فلنوفر له القيادة والنماذج من التاريخ والمعلمين والأفراد والحكام . ليشب مثلهم .

لأن المثل هو الذى يسيره فى حياته .

وثورتنا تضع دائما المثل العليا أمام الشباب ليحتذيها متى اقتنع بسلامتها .

كما ذكر أن الشباب شفاف يستشف ما حوله ولا يستطيع أحد خداعه .

والواجب أن نهيىء القادة لحمل رسالة المثل الخطيرة . وأن نتيح المساواة لكل الطبقات ، ثقافيا واجتماعيا وفى كل شىء لتزول الحواجز ويسود الإخاء .

ثم تحدث بعده الأستاذ محمد سعيد العريان

فذكر المجد العظيم للأزهر : ثم تحدث عن معنى الأمجاد فى مفهومها الواسع الشامل ... وكيف أن الإسلام فيما حقق من مكاسب إنسانية كبيرة للمجموعة ، لم يحققها لتحصيل مجد . وإنما حققها لأنها فرض إنسانى ، ولأن المكاسب التى حققها جزء من صورة إنسانية كاملة كما أرادها للناس

وقال : إن عظماء المسلمين إنما عملوا ابتغاء رضاء الله وفى سبيل الحق والخير والمثل العليا وسلام البشرية ، لا يبتغون شهرة أو سلطانا ، أو جاها ، أو مالا فى مقابل الأمجاد التى صنعوها .

وكيف أن المجد الذى كونه محمد وأصحابه كون تاريخا للإنسانية .

وتحدث أيضا عن التفاعل بين « الإسلامية » و « القومية العربية » و « الإنسانية » وكيف أن هذه المعانى الرفيعة لهذه الألفاظ يخدم بعضها بعضا ، وتخدم المثل الفاضلة التى تستهدف خير المجموعة البشرية ، ولا تحاول الإضرار بأى مبدأ أو مجتمع .

وختم حديثه بأن الإنسانية التى نعيشها لم تكن قبل محمد وتعاليمه وأصحابه .

ثم تكلمت الدكتورة بنت الشاطىء :

عن دور المرأة المسلمة فى تاريخ الإسلام المليء بالأمجاد الخالدة .

وتكلمت عن حيرة الشباب ، وتعرضت لمشكلاته التى زادها تعقيدا اضطراب القيم ، واختلاط المثل العليا بمعانى الحضارة فى هذا العصر ، فلم يعد الشباب قادراً على التمييز بين النافع منها والضار .

وأخيراً تحدثت عن وجب العلماء والموجهين فى حل مشكلات الشباب ، والأخذ بيده نحو الوجهة السليمة ، والطريق القويم .

قالت : لا يجد الشباب الحائر من يأخذ بيده لأنه جاء بعد حربين كبيرتين أتت على الكثير من الأخضر واليابس ، وإذا راح يلتمس كنه غده وجد كبار الساسة يريدون حربا ضروسا لا تبقى ولا تذر .

وقالت : لا يجد الشباب من يأخذ بيده فى هذه الدوامة العلمية الهائلة التى تعاصره وتريه ما يشبه المعجزات ويقول له : إن ما تراه إنما هو آية من آيات الله الكبرى أتى بها العقل البشرى الذى فطره الله ، وكرم الإنسان حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم البشرى ، فأنت سيد فى هذه الأرض .

وقالت : إن من الخطأ أن نظن أن الإسلام مقالة أو خطبة أو محاضرة تقال للشباب فيكونوا صالحين ، بل لا بد من تمثل حياته فى عمره وتمثل الذى يعانونه وتقدير أخطاره القريبة والمحتملة ، ولذلك نريد قادة لهم قادرين على حمل الرسالة الكبيرة والخطيرة بما أعدوا لهذه المهمة الصعبة من وسائل تعين على الإنجاح .

وختمت الحديث بقولها : إن الأزهر مرجو منه أن يشارك وأن يفعل الكثير فى سبيل القيادة باعتباره البيئة الدينية العريقة ، وأكبر جامعة إسلامية فى العالم .

ثم تحدث الدكتور محمد البهى أخيرا فقال :

إن هناك عقبات تحول دون رؤية الشباب للدين .

وقبل أن يذكر كيف يتصل الشباب بالدين ذكر أن شبابنا فى وقت فصل فيه بين ماضيه

المجيد وقيمه العظيمة وبين حاضرة المغرق فى ماديته الآلية والطبيعية .

وذلك بما رسم الاستعمار من قبل ليظل الشباب تابعاً فى توجيهه لما يرسمه الغرب من فكر يقربه من الغرب ويبعده من مجده التليد . واستشهد على ذلك الأثر الاستعمارى بأقوال المستشرق « جب » الذى ذكر أن سياسة التعليم فى مصر جعلت فى الوطن فريقين بعيدين عن بعضهما : فريق يتبع مواريثه العقلية الروحية الإسلامية ، وفريق أبعد عن ذلك يتلقى نصحه وتوجيهه من الغرب ، واستخف بالقيم والأمجاد التى عند الفريق الأول وأنكر اعتبارها فى حياة الإنسان .

ثم ذكر أن الصحافة المعاصرة من عوامل الإبعاد عن قيمنا وأمجادنا لأنها تعرض مشاكلنا فى ضوء رأى مستورد لا عن دراسة وبحث وفهم واستشارة لمبادئ الإسلام .

فالتربية مثـــلا نريد أن نطبق فيها هنا ما يطبق فى انجلترا مع اعتراف قادة التربية والفكر هناك بأنها تربية لا تصلح لهم . فضلا عن أنها بتطبيقها هنا تحطم قيمنا ...

كما ذكر أن مشاكل الشباب لا تنحصر فى الجنس . إنما تكون أيضا فى تعريفه بالوجهة التى يتجه إليها ، وأزمة القلق والاضطراب فى حياته وذلك راجع إلى تذبذبه بين مرحلتين من حياته : الطفولة والرشد وكيف أنه يلتمس المعين ليتخلص من الطفولة وهنا تبرز قيمة الموجه ، وما يجب أن يتحلى به من خصائص ومميزات تكفل له إنجاح مهمته ...

كما : ذكر أن الطبيعة والدين وكلاهما ضرورى للإنسان :

الطبيعة تدفعه لإدراك مظاهرها ، والدين يبصره بقيمة الإنسان نفسه . ويدفعه إلى أن يسخر الطبيعة ويسخرها بدلا من من أن تسخره وتسترقه .

وإذن فضرورة الدين فى حياة الإنسان أشد من ضرورة الطبيعة ، لأن قيمة الدين خالدة ، والضرورة آلية واضحة .

وقرر أن الذى يحول بين الشباب والدين إما عقبات توضع فى طريقه ، وإما قصور فى فهم تعاليم الدين . أو جود من حاملى الرسالة وتخلفهم عن مسايرة أساليب العرض الحديثة .

أما : كيف يتصل الشباب بالدين فذلك يكون : متى تم الانسجام بين أجهزة التوجيه المتنوعة فى المجتمع ، وحسن الفهم لتعاليم الدين ، وحسن العرض ممن جعلوا دعوته رسالة لهم فى حياتهم ، حتى يكافح الشباب فى سبيل القيم والمثل العليا .

بريد المجلة

أصول الفقه الشيعي ومصادرها :

«فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا» .

فكرة أضعها أمام الأزهر ... وأعرضها على الأستاذ الأكبر ، وقد سبق أن عرضتها من قبل على وزارة الأوقاف ، وفى الأزهر أهل الذكر ، وقد تكون الأوقاف أغنى بالمال .

إن تقرير (الفقه المقارن) فى منهج دراسة الشريعة الاسلامية خطوة جليلة موفقه ، وإن اعتبار (الفقه الشيعى) من بين المذاهب التى تجرى دراسة أحكامها والمقارنة بينها فيه سداد رأى وأمانة علم وسعة أفق . وأعتقد أن إنصاف (الفقه الشيعى) فى عقولنا وقلوبنا ، يحتاج إلى بحث أصوله كما يحتاج إلى الالمام بفروعه .

والقرآن الكريم أصل الأصول عند جميع المسلمين ...

وأما السنة المطهرة فللشيعة شروطهم فى توثيق الرواة ، وانبنى على ذلك أن تكون لهم كتبهم الجامعة للحديث .

ومن دواوين الشيعة الأساسية فى الحديث كتاب (الكافى) ... وهو بمنزلة (صحيح البخارى) عند أهل السنة .

وحبذا لو شكل الأزهر هيئة من علماء الحديث تقوم بطبع هذا الكتاب الهام ، مع تخريج أحاديثه وفقاً لدواوين أهل السنة إن كانت قد وردت فى شىء منها ، أو تقريبها من أحاديث أخرى أو من أحكام الشرع ومقاصده العامة إن لم تكن قد وردت بصورتها فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من كتب الحديث المعتبرة عند أهل السنة ، أو ابراز تفردها إن لم يكن فى تأويل مندوحة .

مثل هذا العمل أصيل سباق ... يرسى محاولات التقريب والمقارنات المذهبية على دعائم راسخة من العلم الصحيح والنهج القويم ، فلا يعادى الناس ما يجهلون ، ولا يهرفون بما لا يعرفون ، ولا يقفون ما ليس لهم به علم ، ومثل هذا العمل مقدمة بين يدى خطة أوسع وأشمل ، لتقديم نماذج من تفسير القرآن وتأويل السنة وأصول الاجتهاد لما يجد من أحداث عند الشيعة ، ولعرض

تاريخ التشريع والفقه حسب دراساتهم ... وهذه (المكتبة الشيعية) تجعل تبادل الفهم وتجاوب العلم بين أهل السنة والشيعة على علم وهدى وكتاب منير .

محمد فتحى عثمان

هجوم على الدين فى غير هوادة

إلى عهد قريب كان صاحب النزعة المنحرفة يحسب للرأى العام حسابه ، ويستحى أن يعرف بالمروق من دينه ، أو الجنوح إلى ضلالة .

ولكن بعض الغواة تدرج فيما يسمونه حرية الرأى ، حتى أصبحت المجانة ، واللادينية من المحامد التى يتباهون بها ، ويجدون فى الصحافة متسعاً لترويجها .

وهذا - محام ... مسلم - يطالعنا بشىء جديد فى باب « الإلحاد ، والزندقة » وجديد فى احتقاره للرأى العام ، ومايدين به الناس فى قداسة واطمئنان منذ شرعت الديانات السماوية

كتب المحامى فى صحيفة صباحية كبرى يوم ١٣ / ١٠ يدعو لجنة الإصلاح لقانون الأحوال الشخصية ألا تعتبر تشريع الزواج والطلاق من مسائل الدين .

ويدعوها كذلك فى إلحاح أن تنزع من رءوس أعضائها تلك الأفكار القديمة التى تخيل إليهم وإلى الناس أن الدين تعرض لذلك .

بل هو يرى ويصرح بأن التعرض من الدين لأمر الزواج والطلاق لا يمكن أن يكون معقولا - عنده - وهكذا من الجرأة التى تثير العجب من محام دارس ، ومثقف مسلم ، يعيش فى بيئة مسلمة ، إذ هو يعلم أن القرآن حافل بتنظيم العلاقة الزوجية . وبما يتصل بها من نظام العشرة والحقوق بين الزوجين ، وبما يقوم عليها من أنساب مرتبة فى درجاتها وبما ينتج عنها من توارث ، ونفقات للأقارب ونحو هذا مما لا يجهله مسلم أمى نشأ فى بيئة مسلمة . . كما نظم القرآن طريق الفرقة بين الزوجين إذا اقتضت الأسباب ، وبين ما يتصل بذلك من أحكام . وهذا باب واسع تعرضت له الكتب السماوية من قبل ، كما أتمها وأوضحها القرآن من بعد ، فهل يبلغ التجديد بنا أن ننكر ما بين يدينا ، وأن نقرر أنه غير معقول » ؟

الحق أن الأستاذ يستهين بالأمر الواقع ، ثم يجد متسعاً فى الصحافة لنشر هذا التهريج الذى لا يمكن أن يبلغ مبلغ الرأى حتى نسميه رأيا يطرح على الناس فى صحيفة الرأى كما زعموها . . وكان حقا علينا أن ننكر على المحامى ، وأن نفند له ما اضطر فيه من خلط وتشكيك ، غير أن حظنا فى نشر الصواب لم يشفع لنا عند صحيفة الأهرام ، كما أفسحت صدرها للهذيان ، بل وعدت بالنشر ، ثم وعدت ثانيا ، ثم أخلفت . . فيا ترى ! ! هل تبدلت رسالة الصحف فأصبحت تناصر

الباطل ، وتحيد عن الإنصاف ، لتمشى مع أولئك المفتونين، ولو كان هما واحداً لاحتملته

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

خطأ مطبعى فى القسم الانجليزى

تحية واحتراما وبعد .

فإنى أحد قراء مجلتكم الغراء « مجلة الأزهر » تلك المجلة التى ولا شك أنها ستكسب كل من يساهم فى تحريرها أجراً كبيراً عند الله ، لما تستوعبه من مقالات قيمة تبث فيها العالم قاطبة التعاليم التى جاء بها الدين الحنيف ، وأن لسانى لعاجز عن وصف هذه المجلة ولذلك فإنى أكتفى بالقول بأنها كنز لا يفنى لمن يقتنيها ويعمل بمقتضى ما تتضمنه من منطق جاء به من لا ينطق عن الهوى ، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لينقذ به البشرية من الظلمات إلى النور .

إن ما أريد أن ألفت نظركم إليه الآن هو أننى أطلعت على خطأ هو فى الواقع خطأ مطبعى ولا شك ، ولكنه يؤدى إلى عكس المعنى المراد به . وقد وقع هذا الخطأ فى القسم الانجليزى من عدد محرم (يوليو ١٩٥٩) فى مقال الدكتور محمد البهى فى الفقرة القبل الأخيرة من صفحة ٢٠ ، حيث تقرأ الجملة التى وقع فيها هذا الخطأ كما يلى :

" And help one another in Sin and Aggression ".

بينما الصحيح هو بإضافة كلمة Not بعد Help وقبل كلمة One لتكون الجملة ترجمة حرفية للآية الشريفة « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » لقد جاءت الترجمة الصحيحة لهذه الآية الكريمة فى أماكن أخرى من المجلة، إلا أننى بالرغم من ذلك رأيت أن ألفت نظركم إلى الخطأ المشار إليه حتى لا يتكرر فى المستقبل فيظن القراء الذين لا يدينون بالاسلام — ولا سيما إذا أطلعوا على هذه الترجمة التى حصل فيها الخطأ ولم يطلعوا على الترجمة الصحيحة فى مكان آخر من المجلة — إن القرآن يأمر بالتعاون على الاثم والعدوان

وفى خطابى هذا لا أقصد مطلقاً نقد المجلة — بل أنى كعربى مسلم — فخور بأنها تقدم إلى جانب القسم الأكبر باللغة العربية مقالات باللغة الانكليزية على مستوى عال وتعبر فى ترجمة الآيات القرآنية بأحسن تعبير ، ولكن غرضى هو — كما ذكرت آنفاً — تفادى مثل تلك الأخطاء المطبعية وخاصة فى ترجمة الآيات القرآنية وذلك خشية أن يؤولها القراء الأجانب تأويلا مخطئا .

والله أسأل التوفيق لكم لتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وترفعوا راية الحق — دين الاسلام — والعروبة عالياً ... إنه سميع عليم مجيب الدعاء .

حسن سعيد صبرى
وادى العيدروس — عدن

ابن سعيد البلوطي أندلسي لا مصري

قرأت مقالة الأستاذ محمود الشرقاوي التي عنوانها (الأزهر ومذاهب الفقه الاسلامي) فرأيت الأستاذ يقول : « غير أني لا أريد أن أخلص من هذا الحديث قبل أن أقول للذين (قد لا ترضيهم هذه الدعوة إن ما يحرصون عليه من رأي أو قول قد لا يكون خير الآراء ولا أسلم الأقوال) الخ ...وأنا أرى أن كل ما يكتب في مجلة الأزهر الزاهرة يجب أن يعتبر فتاوى من الأزهر نفسه يستوى فى ذلك مسائل الدين واللغة والأدب والاجتماع وغيره ، ومن هنا نقول لأخينا الكاتب إن لفظ (قد) الحرفية لا يدخل على فعل منفى بل يدخل على الفعل المثبت ، وإذن فعربية العبارتين ربما لا يرضيهم وربما لا يكون خير الآراء . ورأيته يقول : أريد أن أذكرهم بأن هذه الدعوة المخلصة كانت مصر منبتاً لها ومنيراً ، وكان رجال مصريون هم دعاتها والمبشرين لها حتى قال شاعرهم أبو الحكم ابن سعيد البلوطي المصرى هذا البيت الصارخ المستجير من الشعر :

عذيرى من قوم يقولون كلما
طلبت دليلا هكذا قال مالك

وهنا يجدر بنا بمقتضى الأمانة العلمية أن نقول إلى الأخ الكاتب أن أبا الحكم منذر بن سعيد البلوطى ليس مصريا بل هو أندلسى أصله من (فحص البلوط) بالقرب من قرطبة ولد فى العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ونشأ وتفقه بالأندلس على عبيد الله بن يحي بن يحيي الليثى وأضرابه ، ولم يدخل مصر إلا عندما رحل إلى المشرق بقصد الحج ولقاء العلماء كما كانت عادة علماء إخواننا المغاربة فى تلك الأزمان ؛ ثم رجع إلى وطنه فقلده الخليفة عبد الرحمن الناصر الخطابة وصلاة الجماعة بالمسجد الجامع بمدينة الزهراء ، ثم توفى قاضى قرطبة فولاه الخليفة قضاءها .

والبيت الذى رواه الأخ الشيخ محمود الشرقاوى وحرفه هو من أبيات هكذا :

عذيرى من قوم إذا ما سألتهم
دليلا أجابوا : هكذا قال مالك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله
وقد كان لا تخفى عليه المسالك
فإن قلت قال الله ضجوا وأعولوا
على وقالوا : أنت خصم مما حك

هذا ماعن لى أن أكتب به إلى مجلة الأزهر النافعة . جعلنا الله تعالى ممن يبحثون عن الحق للحق والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والله تعالى حسبنا ونعم الوكيل .

ابو يعلى حافظ البطة
خان يونس — بفلسطين

من الدكتور على عبد الواحد

إلى صاحب الفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكى .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته : وبعد :

١ — فقد ذكرت فى كلمتك الأخيرة أن ردى على أسئلتك كان رد الغاضب على من أساء إليه ؛ مع أنه فيما اعتقد كان ردا هادئا يضع الأمور فى نصابها ، ويدعم كل حقيقة بأدلتها ومراجعها — وكل ما هنالك أننى ذكرت أن بعض ما ورد فى إجاباتى يعد من أوليات المسائل المعروفة فى تاريخ الأديان كمسألة يوحنا المعمدان الذى قلت إنك لا تقر أنه يحيى بن زكريا مع أننا بصدد اسم واحد بلغتين مختلفتين لمسمى واحد ، وكمسألة أخت موسى التى أنكرت أن يكون اسمها مريم مع أن مفسرى القرآن أنفسهم قد ذكروا ذلك . وليس فى الاشارة إلى ثبوت حقيقة ما واشتهارها ما ينم على غضب أو انفعال .

٢ — وذكرت ما يفهم منه أننى اعتد كل الاعتداء بما ورد فى الأناجيل والإصحاحات ، حتى لقد نسبتها إلى فنلت : « أناجيلك وإصحاحاتك » . مع أن مؤلفاتى وبحوثى تشهد بأننى من أشد الكتاب الاسلاميين عداوة لهذه الأناجيل والاصحاحات وأقواهم إيمانا عن بينة بزيف كثير مما جاء فيها وتحريفه واختلاقه ، وأحرصهم على الكشف عما اشتملت عليه من زيف وتحريف واختلاق ، وقد عرضت لذلك بتفصيل فى كثير مما كتبت ، وخاصة فى كتابى « حقوق الانسان فى الإسلام » الذى طبعته وزارة الأوقاف ، وفى بحثى عن « أسفار العهد القديم والتلمود » بمجلة المجمع اللغوى وعن « أسفار العهد الجديد » بمجلة الأزهر عدد شوال من السنة السابقة ، وفى بحث آخر بعثت به إلى المجلة نفسها فى منتصف الشهر السابق ولم يتح نشره وربما نشر فى هذا العدد . ولعلك لم تنس ما نالنى من جراء مواقفى هذه ونال كتابى « حقوق الانسان فى الاسلام » من عنت وأذى . - وكل ما هنالك أننى ذكرت فى مقالى السابق أن بعض ما ورد فى هذه الأسفار من قصص لا تكاد تختلف روايته عن رواية القرآن كقصة يوحنا المعمدان أو يحيى بن زكريا وقابلت بين فقراتها وآياته الكريمة - . وليس فى ذلك ما يدل على نسبته إلى من اعتداء بالأناجيل والاصحاحات .

٣ - أنكرت فى مقالك الأسبق أن يكون لموسى أخت تسمى مريم البتول ، « لأنك تعرف » على حدة فولك « أن مريم البتول هى أم عيسى عليه السلام ، وأن بين مريم وموسى أحقابا » . وقد بينت لك فى ردى أن أخت موسى كانت تسمى كذلك مريم ، وأنها كانت

بتولا أى لم تتزوج ، وأنها هى التى ورد ذكرها فى القرآن إذ يقول : « إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم » وإذ يقول : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » . وقد ذكر مفسرو القرآن أنفسهم أن أخت موسى هذه كان اسمها مريم ، فيقول البيضاوى فى تفسيره للآية الأولى : « فجاءت أخته مريم متفحصة خبره فصادفتهم يطلبون مرضعة يقبل ثديها » . ويقول فى تفسيره للآية الثانية : « وقالت لأخته مريم قصيه أى اتبعى أثره » .

ولكنك بعد أن تبين لك وجه الحق فى جميع ما اعترضت عليه فى مقالك الأسبق عدت فى كلمتك الأخيرة فأوردت إشكالا جديداً فنسبت إلى أننى قلت إن أخت موسى هذه قد شقت طريقا يبسا فى البحر وذكرت أن هذا مخالف لما جاء فى القرآن ، مع أننى لم أقل هذا ، وإنما قاله « ترتوليان » الذى كنت أترجم عبارته . وقد اعتمد فيها على مراجع من أسفار اليهود وذكرها فى معرض الإشادة بالعزوبة وأنها موصلة إلى صفاء النفس وإلى الإتيان بالكرامات والمعجزات . وكنت أنقل أنا عبارته فى معرض التنديد بآراء رجال الكنيسة الكاثوليكية فى العزوبة وذهابهم إلى أنها الطريقة المثلى فى الحياة ، مع أنها منافية لقواعد العمران وبقاء النوع الإنسانى ، فما كان يعنينى أن أتعقب جميع ما جاء فى هذه العبارة ، لأن المفهوم من سياق حديثى أننا بصدد استدلالات فاسدة على نظرية فاسدة - وكل ما فعلته حيالها أننى بينت ما ورد فيها من أسماء الأعلام كيوحنا المعمدان ومريم البتول أخت موسى وما يقابلها فى اللغة العربية ومواطن ورودها فى القرآن إن كانت قد وردت فيه حتى يسهل فهم هذه العبارة . وكان هذا موقفى حيال جميع العبارات التى نقلتها عن آباء الكنيسة .

دكتور على عبد الواحد وافى

* * *

يا حسرتا على العراق !

السيد محرر باب بريد المجلة

قرأت فيما قرأت بالعدد الماضى من مجلة الأزهر المقال الرائع الذى كتبه أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات بعنوان « ياحسرتا على العراق » فحرك هذا المقال الرائع أو ثار قلبى وهاج كوامن نفسى فانسابت الدموع من عينى حزنا على شهداء العراق الأبرار الذين اغتالتهم يد حكام العراق الغاشمة لا لذنب جنوه إلا إيمانهم بدينهم الحنيف وإصرارهم على الاستمساك بعروبتهم وحريتهم من أجل هذا سحلوا وأزهقت أرواحهم الطاهرة لأنهم آمنوا بالله وبرسوله وبعروبتهم

« والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبيناً » .

وعندما تعود بى الذاكرة إلى ذلك اليوم المنحوس الذى قتل فيه أبطال ثورة الرابع عشر من تموز تنساب الدموع من عينى حزنا على هؤلاء الأبطال الذين أبو أن يبيعوا عروبتهم وشرفهم للأعداء وفضلوا أن يعيشوا عربا كرماء شرفاء أو يموتوا عرباً أعزاء . إن هؤلاء الأبطال لم يموتوا بل هم أحياء فى قلب كل عربى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » سلام على شهداء العراق الأحرار سلام عليهم فى جنة الخلد والنعيم وصنع الله للعراق ولأهله أجمعين !

سعيد توفيق حمدى

قتل النفس

يقول السيد محمد فريد طاهر من الأسكندرونة :

كلما قرأت سورة الكهف وبها قصة موسى مع الخضر ، أقف طويلا عند قتل الخضر للغلام !.

أنا مؤمن بما ورد فى القرآن تعليلا لهذا القتل ؛ ولكنى أريد أن أزداد إيمانا بما أسمع من شرح عن هذه الحادثة بالذات .

الحق أنى أرانى فى حاجة إلى أن تجلى لى هذه المسألة ، وهى قتل الخضر للغلام ، بشرح وإسهاب ، لأزداد علما ، وأزداد إيمانا ! .

* * *

والمجلة تقول

التفسير القريب لقصة الخضر عليه السلام أنه نبى ملهم ، حملته العناية العليا رسالة محددة ، لا تزيد على إيصال رحمة الله إلى بعض الفقراء إليها ، بأسلوب يتحقق فيه قول الله جل شأنه ، « عسى أن تكرهو شيئا وهو خير لكم » أو كما قال العرب « رب ضارة نافعة » .

وصلتنا بقصة الخضر لا تعدو وعى هذا الأسلوب فى تلقى قدر الله . أما أن يزعم أحد بأنه نبى كلف بمثل ما كلف به الخضر ، فهذا ما لم يقل به عاقل ، وكذلك توهم أن الله يخص بعض الناس بمثل هذا العلم الذى خص به الخضر . .

فإن النبوات والرسالات انتهت ببعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن قال بغير هذا فقد مرق من الإسلام .

صرف الزكاة للأولاد :

ويسأل السيد محمد حسين القماطى من طرابلس الغرب .

(١) هل تصرف الزكاة للأبناء الراشدين إذا كانوا فقراء ؟ أو كانت البنات متزوجات ؟

(٢) هل يصح أن يدفع ثمن الهدى للفقراء بدل ذبحه ، خصوصاً أن الذبائح لا تجد من يجمعها وينتفع بها ؟

(٣) من العلماء عندنا من يصر على إيقاع الطلاق ثلاثا إذا صدر بلفظ الثلاث ، فبم نأخذ؟

والمجلة تجيب :

(١) الأولاد إذا كانوا فقراء تجب لهم النفقة ، ولا يحل أكلهم من الزكاة - ويمكن إعطاء زوج البنت - إذا كان فقيراً - شيئاً من الزكاة ، على ألا يكون ذلك احتيالا لصرفها إلى الأولاد .

(٢) الذبح مقصود فى الحج مع إطعام الفقراء . . ولا يجوز إبداله بالثمن ، وعلى المسئولين تيسير الانتفاع منه طول السنة ، والوسائل لذلك كثيرة .

(٣) الطلاق الثلاث بلفظ واحد يعتبر طلقة واحدة . وإيقاعه ثلاثا تشديد لا مبرر له ، وخير لنا أن نتبع روح الشريعة ونصوصها فى هذا المجال .

* * *

مكتبة الأزهر ونشر الثقافة الإسلامية :

إلى الأستاذ الدكتور محمد البهى مدير الثقافة الإسلامية . السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فإنك تعلم ما يحيط بالثقافة الاسلامية وما يدبر لها من مكائد على أيدى المبشرين والمستشرقين.

ومما لا ريب فيه أن الأزهر حصن الاسلام المنيع وهو أولى الهيئات والمؤسسات الاسلامية وغيرها على اختلافها بنشر ثقافة الاسلام والمحافظة عليها ، وإحياء التراث العلمى لرجالات الاسلام وفقهائه وأدبائه والعمل على نشر هذه الذخائر الحية فى أمم الأرض كلها ، وأن المكتبة الأزهرية تحوى من النفائس العلمية والذخائر الفكرية مالا يعد ولا يحصى - وأذكر أن المستشرقين كانوا قد قدموا تقريراً عنها بأنها ثانى مكتبة فى العالم لما تحتوى عليه من مخطوطات يندر العثور عليها ولا توجد فى غيرها أبداً .

فهل عمل الأزهر على نشر هذه المخطوطات وطبعها لينتفع بها المسلمون فى العالم الاسلامى؟ وهل نظم هذه المكتبة القيمة بما يتناسب مع روعتها وجلالها ؟ وهل أقام لها البناء الذى يناسبها فى العصر الحديث وعلى غرار المكتبات فى العالم ؟ .

لم لا يكون فى أزهرنا المعمور لجنة للتأليف والترجمة والنشر ، ورد شبهات المبشرين والمستشرقين التى يثيرونها حول الاسلام وثقافته ! ؟ وقد طالعتنا مجلة الأزهر الغراء فى عددها السابق فى جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ هـ بمقالكم القيم عن هؤلاء المبشرين والمستشرقين ومواقفهم من الاسلام وقد كشفتم لنا عن نياتهم الخبيثة وطواياهم السيئة تجاه ديننا ووحدتنا فجزاكم الله عن الدين والأمة خير الجزاء ؟

حسن عمر عمر

schools and, consequently, widened the gap between their followers.

When the exercise of free judgement changes into blind imitation and the faculty of deduction and induction into mere adherence to the founder of any given school, and when the imitator is not even granted freedom to choose his course of imitation - it is only expected that juristic schools will become like different religions in the sense that fanaticism and disputes will dominantly prevail among the adherents. And this actually what heppened in the Muslim society and what gave rise to the so - called the science of " controversies, " which was based on the arguments set by the followers of every school in favour of their doctrines and against those of other schools.

As a result of all these developments the Muslim society weakened in its thinking, faith and in its unity so much so that foreign invaders were tempted to march on the muslim land. Thus the Tatars invaded the Muslim world from the Eastward, and the Crusaders marched on it from the Westward.

This was the situation of the Muslim society in the seventh century after Hejrah. But is it likely that out of weakness springs vigour, and out of disintegration emanates unity, and out of darkness dawns the light of guidance, and out of despair emerges aspiration ? The answer to these questions is the thesis of our discussion of the advocates of unity in the Islamic thought.

the Mutazilite method and ideas. The Mutazilite school, while establishing itself - especially its doctrine of the *absolute unity* of God-fell under the influence of Aristotelian and NeoPlatonic thought. Likewise, Ibn Arabi's exegesis, as already mentioned, was influenced by the Brahman doctrine of consubstantiality and by the Christian conception of incarnation (hulul). Besides, there were the exegeses of Avicenna (Ibn Sina), Ikhwanul - Safa and other extremists who yielded to the foreign thought.

The translation of ascetical works and Eastern mysticism into Arabic made Islamic mysticism a rival of Islamic jurisprudence which was based on the human understanding of the religious texts, whereas Islamic mysticism depended, after faith, on intuition and self-questioning. Thus man's deeds were judged by two criteria : by the injunctions of jurisprudence concerning worships, customs and dealings ; and by intuition and self - questioning, This competition between Islamic jurisprudence and Islamic mysticism intensified and began to take the formula of opposition.

Cessation of The Principle of Dynamisn in the Genuine Islamic Thought

The influence of the rational sciences, which were translated into Arabic, upon the trends of the genuine Islamic thought produced an unhappy end. And besides the unfortunate end to which came some of those trends, Islamic thought was confronted by obstacles that made it unable to continue its creative movment by which it laid its original foundations and which reached the point of culmination at the end of the third century of Hijrah.

The genuine Islamic thought then suffered stagnation and non-creativeness, the exercise of free judgement to establish injunctions and understand the texts was forbidden. The overwhelming majority of Muslims, with the exception of the Prophet Family and the Seceders (Khawarij), came to conceive Islamic jurisprudence as meaning blind and unquestioning imitation. Jurisprudence itself became confined to the interpretation by the *jurist* of some minor points within the rigid framework of the very school which he followed without being capable of advancing anything new or genuine, and without going in his imitation beyond the traditional ranges of the school to which he adhered.

The prohibition of imitating the followers of these schools from inter-adoption and exchange of doctrines increased the barriers between the

basis of free judgement-was creative, dynamic and exempt from subjective denunciations and hatred. Further, we see that Muslims then were people of opinion, sound argument and knowledge in all the various fields of thought in which they were engaged. In connection with this Point Ibn Khaldoun says: " These religious and authoritative sciences were extremely popular among Muslim scholars who acquired comprehensive knowledge of these sciences, perfected their terms, and classified them in magnificent categories. Thus each science of them had its established rules and reliable authorities " (Ibid., P. 364).

The Developments of the Islamic Thought :

In the course of its development the genuine Islamic thought did not accompany the principle of " dynamism, " viz., the principle of free judgement, but fell into the other direction of foreign thought which invaded the Muslim society in the time of the Abbasi Calif al-Maamoun and imposed itself on the Muslim life then and afterwords. Consequently, the interest of Muslims in free judgement grew lesser and lesser, and its range became narrow. As a result, Islam was no longer the only source of Islamic thought but there were other interfering and influential sources. Also the dynamism of Islamic thought became slow and almost non-impressive.

At this stage of interaction between the Islamic thought and foreign culture, the intellectual trends and doctrines previously founded, and grown in the Muslim society had the stamps and traces of the invading foreign thought. Hence, to these known trends were accreted new ones hardly consistent with and often contradictory to the former.

Logic, theosophy, physics, asceticism and illuminism were introduced to the Muslim society through the translation into Arabic of the Greek thought of pagan and Philosophical foundations, and of the Eastern religious thought of illuminism and Brahmanism. Similarly, the introduction of this foreign culture to the Muslim society gave rise to mysticism, witchcraft, talesmanship and the science of the secrets of letters.

It should be noted here that the translated as well as the created sciences were not alien to the trends of the genuine thought of Muslims. In fact, all trends of the genuine Islamic thought represented in exegesis, jurisprudence, the origins of jurisprudence and theology were influenced by these translated and created sciences. The Mutazilite sholar al - Zamakhshari was influenced in his interpretation of the Qur'an, as recorded in the book al - Kashaf, by

purify these bliefs from innovations, doubts and uncertainties " (Ibid., P. 389).

So, exegesis, jurisprudence, origins of jurisprudence and theology are the representatives of the original trends of the Islamic thought. These trends were formed at the motivation of pressing needs and prevailing circumstances in which Muslims lived in different places and successive generations. They were formed to fill a void in the life of the Islamic society and to refute the accusations and doubts which were hurled in the way of Islam. In these trends lies the true picture of the healthy aspects of Islamic thought because they are derived from the original sources of Islam with the right use of the intellectual faculties of the Muslim thinker. The rise of these trends has not to this stage caused any deviation from the straight path of Islam or any conflict among Muslim thinkers however different their notions and approaches might have been.

The Principle of Dynamism in the Islamic Thought and its Result :

All Muslim thinkers were guided by one solid principle which can be expressed in the following words : Whosoever exercises free judgement (ijtihad) and is right will receive two rewards, and whosoever exercises free judgement and is mistaken will receive one reward. Thus all of them will be rewarded because they seek the truth and take the necessary precautions in their approach to such truth. All of them want to be true Muslims in their hearts and their deeds.

Free judgement expresses the active attitude of the Muslim toward both Islam and life, and illustrates his power to adapt his present and future life to Islam in which he believes. Likewise, free judgement bears the spirit of liberty of thinking and elasticity in Muslim thinkers, though it is not absolute.

So, the principle of free judgement's upon which the original Islamic thought was established, is a principle of construction, dynamism, liberty and facilitation and, at the same time, is a principle of magnanimity and leniency; because psychological animosity and extreme intellectual controversy happen only when the self is in a state of distress and agony, when it is forced to follow certain trends and be subjugated, when it is disregarded and treated unjustly, and when it is deprived of the right of free thinking. Thus we see that the genuine Islamic thonght when it was first founded on the

Then the Muslim thinker re-interpreted the Qur'an under the influence of certain trends of doctrinal sectarianism as manifested in the al - Zamakhshari's book entitled al - Kashshaf and Ibn Arabi's book entitled al - Kabreet al Ahmar. The former book is representative of the Mutazilite school, whereas the latter represents the concepts of *manifestation, incarnation* and *consvbstantiality* advanced by late mystics.

Moreover, the Muslim thinker was made to establish the science of jurisprudence which is the knowing of God's injunctions concerning the deeds of responsible adults, at the instigation of socio - political conditions and in response to the expansion of Muslim territories and the spread of Islam among the people of old civilization. Out of this science sprang three famous schools : (a) the school of free judgement (raay) and analogy which was founded by Abu Hanifah and his disciples and which prevailed in Iraq, (b) the school of Traditionalists which was first founded by Malik Ibn Anas and to which adhered the people of Hijaz and out of which came the trend of Muhammad Ibn Idris al-Shafii, who combined the two schools of Medina (al-Madinah) and Iraq after his shift to the latter country, and (c) the school of the Zahiris whose leaders were Daoud Ibn Ali and his son, and who advocated rejection of analogy. They " confined all their concepts to the texts (of the Qur'an and the Traditions) and to consensus. They referred the clear analogy and the stated reason to the text only because the mention of the reason of injunction, from their point of view, means the statement of the very injunction in all its probabilities " (Ibid. , P. 372).

Besides these schools of law which prevailed among the majority of Muslims, there was another peculiar school set up by the Family of the Prophet (the Shiah) and established on the basis of belief in the infallibility of the *imam*, literally meaning the leader. In addition to all these schools, there arise another one of the Seceders (Khawarij) who built their derivation of injunctions from the texts on the basis of their own attitude with respect to the question of Califate and the mutual responsibilities between the Calif and his dependents.

When other creeds clashed with the faith of Islam, Muslims felt urged to defend their faith and so established the science of Muslim theology. "The subject of this science is the dogmatic beliefs which are eonsidered as authenticated by religion, and which can be proved by rational arguments to

These sciences in turn needed subsidiary means of comprehensive knowledge of the Arabic Language, of the rules of logic and the Principles of theology to defend the faith against innovations and disbelief. As a result, all these sciences acquired status of faculties, which demand to be taught, and became included in the category of professional works " (Ibid. , Pp. 477, 479).

In the same reference we find another statement which says : "The origin of all these authoritative sciences (naqliyah) is the religious teachings of the Book and the Traditions as well as other relevant and suplimentary sciences. The authoritative sciences are of many categories because the responsible adult is ordained to know the injunctions of God, Exalted be He, which are derived from the text of the Book and the Traditions or from *consensus* (ijmaa) or *analogy* (qiyas).

So there should be an understanding of the Book of God and this understanding is called the science of exegesis (tafsir). The ascription of the reporting of the Qur'an to the prophet, peace be upon him, and the various forms of reading it narrated by reciters are called the science of intonation (qiraat). And attribriting the Traditions to the prohpet and examining the characters of their reporters to know whether they are true are called the sciences of Traditions (hadith). Besides that, in deducing the Divine injunctions from their source there should be a sound method on which such deduction is based. This is the science of the origins of jurisprodence. The application of this science by knowing the Divine injunctions is called the science of jurisprodence. Moreover, some duties are physical, whereas others are mental concerned with faith, eschatological and theological like the Essence and the Attributes of God, the Day of Resurrection, Paradise, Hell and Destiny. The affirmation of these eschatological matters by rational arguements is the science of theology " (Ibid., P. 3 , 4).

These are the subjects of the genuine Islamic thought which were treated, and elucidated by Muslims in a rational manner. In this connection Ibn khaldoun refers in his Prologue by saying : " The Muslim individual was motivated to exegete the Qur'an and based his first interpretation on the narrations attributed to the authoritative reporters of the early Muslims (salaf). These narrations consisted of the knowledge of the abrogating and abrogated verses, the occasions of revelation and the significence of verses. This method of interpretation included the meagre and the valuable, the accepted and the rejected " (Ibid. , P. 367).

in the land of Muslims. And those who take the Islamic thought for Islam look as if they are making many different kinds of Islam out of the one religion of God the One.

The Reason of the Advent of The Islamic Thoughts.

Because the Islamic thought is the intellectual production of Muslims it came after the coming of the Qur'an and the Tradition. This thought originated from factors which were not completely based on the textual sources of Qur'an and the Traditions. Among the factors which contributed to the building of the Islamic thought were the expansion of the Muslim territories, the rule of Muslims over nations of old cultural as well as material civilzation, the aspiration to mastery and leadership in the Muslim land, and other reasons which required intellectual attempts and rational dialectic.

The Islamic thought was known as such since the Arab Muslims began to have science and industry, and to exercise their power of conception and perception after depending only and thoroughly on the Qur'an and the Traditions. In connection with this point, Ibn Khaldoun says :

" The Muslim nation (millah) was first composed of simple bedouins and so there was no science or industry. The injunctions of the Divine Law (shariah) were then kept in the hearts of men who derived them knowingly from the Qur'an and the Traditions. The people were *Arabs.* They had no experience in education and authorship and were not guided to this direction by any motive or need. This phenomenon prevailed during the time of the Companions and their immediate successors. It was fashionable to call men who kept the Qur'an and the Traditon in their hearts reciters (qurra,) who could read the Qur'an and were not illiterate. In this atmosphere the Qur'an and the Traditions meant everything to the Arabs as the Messenger, peace be upon him said : To you I have bequeathed two things with which you shall never go astray : The Book of God and my Tradition.

" After the time of the four wise Califs (rashidin) there was a pressing need for written exegesis and for recording the Traditions lest they might be forgotten. Then it was demanded to know the attestations of the Traditions for judging their reporters to distinguish the genuine attestations from the otherwise. With elapse of time the deduction of injunctions from the Qur'an and the Traditions increased, and the religious sciences became faculties of deduction, induction and anology.

the faith of Islam and be true believers. The early believers taught their descendants how to depict their faith in a sound picture, how to keep Islam influential among them, and finally how to make themselves a Muslim nation

The preparation of these "hows," the definition of their course and the expression of their meanings in technical books bequeathed from generation to generation - are the substances of Islamic thought. The preparation, the definition and expression of these " hows " necessarily differ according to the different individuals, generations and surrounding circumstances. This difference may reach a point at which it appears in the shape of gap or clear contradiction.

With reference to this point and in connection with the science of jurisprodence, Ibn Khaldoun says in his Prologue : " Jurisprodence is the knowledge of God's injunctions concerning the deeds of responsible adults (mukallafeen) in relation to what is obligatory, forbidden, supererogatory, undesirable but not prohibted and the permissible. When those injunctions are derived from the Book (the Qur'an) and are deduced from the Traditions and other genuine sources ordained by Islam, they are called jurisprodence (fiqh).

The pious forefathers deduced those injunctions from the said sources and differed in their opinions. This difference was inevitable because they established their arguments on the Arabic texts which were commonly interpreted in many ways and gave various meanings. Likewise, the Traditions (Sunnah) were reported through different authorities, and their instructions were interpreted in various ways. Thus the arguments which are dedued from non-textual sources are a subject of difference in opinion. The recorded texts cannot give inequivocal interpretations of all new events. What can be done in such a case, however, is to interpret these new events in the light of other similar events which find clear explanations in the texts. All these facts point to the necessity of difference of opinion, and here lies the reason of difference between the intellectuals of the forefathers (the Salaf) and their supsequent leading thinkers (Imams) (Prologue, P. 372).

Therefore and because of this difference in the Islamic thought, no notion of any Muslim thinker in any trend is a true reprcsentative of Islam. Islam will remain a gift from God, and the Islamic thought will continue to be man's creation

ADVOCATES OF UNITY IN THE ISLAMIC THOUGHT

by

Dr. Muhammad El - Bahay

Director General of The Islamic Culture Administration.

The Islamic thought is not Islam itself. It is the intellectual products of Muslims for the sake of Islam and in accordance with its principles. Islam is the Message of the Divine revelation to the Messenger of God i. e., Muhammad; son of Abdullah, the blessing and peace of God may be upon him. The Book of this message is the holy Qur'an, and in addition to this Book there are the Traditions of the Prophet which expound many of the principles of Islam.

The Islamic thought came after the propagation of the Call of Islam. So it is subject to the law of progression and the factors of retrogression. Conversely, falsehood cannot come at the Book of Islam from before or behind because it is the revelation from the Wise, the Praised One:

The Islamic thought is not beyond mistake or weakness. But Islam has absolute infallibility against all defects. The Book of Islam, viz., the Qur'an, accordingly, is sacred and its injunctions are to be completely obeyed by the believers. Unlike that, the Islamic thought should not be obeyed except inasmuch as it is representative of the Book of God and the Divine message. This is because the Islamic thinking, by nature, is subject to criticism and opposition.

The difference between Islam and Islamic thought is the difference between what belongs to God and what belongs to man, and the relation betweon these two sides is like that of two things of which one is based on and originating from the other not as a total picture of it but as an expression to it.

Thus there is Islam which was revealed from God, and there are Muslims who believed in it, translated its teachings in their behaviour and were solicitous for keeping their faith in their generation as much as they were solicitous to make their successive generations maintain the

The ugliest thing in this materialist injustice is that it does not allow the low to ascend voluntarily. It equalizes the highest and the lowest whenever possible. So if the equals look to their low standard which they call equality, they will find that they have descended to the lowest possible level. This form of " equality " therefore is the lowest point under which no body can ever go, and with it the materialists always avoid looking upwards and do not shun looking downwards.

Equality is an honour only when it elevates the low to a high standard and gives to the noble his right without allowing him to violate the right of others. Likewise, it is an honour when it means justice to the helpless, because it exhorts him to ability, and justice to the able since it prizes him for his merits and does not punish him by deprivation of the rewards of these merits. Moreover, equality is an honour when it in its profoundness means justice to the normal nature which is created on the basis of difference and variation in the space planets as well as in the atomic elements of the inanimate objects. This is the true and good justice, and it is the justice of Islam.

It is this kind of justice which does not deprive the rational being of his spirit and conscience, nor does it abrogate in him the motives of vigour and aspiration to perfection. We can translate it into economical terms and say that it opens the field of enterprise to all earnest people and insures it against the disasters of excessive carefulness and extreme carelessness. It prevents the wealthy from holding the wealth in their hands and the needy from losing their share by virtue of giving them three percent of the wealth of the whole nation. This share is distributed in the form of alms (zakah) or aid or expiation (kaffarah) or supererogatory charity (nafilah), and is taken every year from the total capital not from the surplus profits of that year.

* * *

There are two kinds of equality for humanity to choose. And as long as humanity exists, it will not be perplexing to make the right choice.

make it the basis of dealings in the human societies, except that who is among the meanest people who have accustomed themselves to lowness, and satisfied themselves with ignorance and incapability, and who have feelings of envy and hatred towards those whose capacity raises them to a standard higher than that of the envious.

The question here is not only that of the most useful and beneficial, but of is also that of the possible, the reasonable, which no opposite has ever happened - exen for a short period - and will never happen.

The equality which is claimed by those who approch history from a materialist point of view cannot be accomplished in any human society even if this society is ruled by such materialists for tens of years. On the contrary ; the longer these materialists rule, the remoter from their fictitious equality they become, and the more they feel obliged to yield to the organic and universal factors which do not permit for a moment the abrogation of differences and dexteries among the living beings. In all societies where they imposed their materialist principles, it did not require more than one generation for the shaping of new classes of leaders, experts and directors, who differed from one another first of all in the economical standard of living so far as lodging and clothes, food and sports, influence and fortune, wealth and enjoyment are concerned.

All the production of the fictitious equality is that it deprives the tens of millions of their ability to advance, because it kills in them the motives of hope and precaution which motives urge the stagnant and lazy people to aspire and endeavour. That is so, for the most powerful motive to get rid of stgnation and laziness is the fear by the stagnant of the result of being low as well as their desire to advance and to employ their efficient readiness for activity in acquiring more holdings. It is beyond doubt that millions of people lose this natural motive, when they become certain about a decided destiny irrespective of their being active or otherwise.

Such matirialist equality ends with a prevailing injustice the bad result of which no nations or individuals can escope. The first victims of this injustice are those who imagine themselves promised and assured of equality, justice and care. The unable person whose society deprives him of his energetic motives is the real poor and victim who is so wronged that he himself does not know about his being tyrannized, and feels pleased with those who inflict injustice upon him.

is considered a remote impossibility and an undesirible eventuality if it ever happens - and it will never happen in any case.

What is possible and desirable, however, is the prevention of the unjust classification among people and the permission of the ways of free life to play their role in varying its merits, in realizing dexteries and qualities, and in expanding the sphere of rights as well as duties.

This is what Islam has done, while all supversive doctrines have failed to achieve this aim and they will never do.

Islam makes people equal. It does not allow any distinction among them in their right of justice and transaction. In Islam no one excels others except through his good deeds and sound morals which are expessed in terms of dutifulness. This word embdies all principles concerning the carrying out of duty, observing the rules and limits, and shunning the forbidden. To this point the Qur'an refers by saying : " O mankind, surely We have created you from a male and a female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you " (Surah 49, V. 13). This kind of justice is the truest and most beneficial justice. Equality in any respect beyond that means tyranny and diminution of rights: "Are those who know and those who know not alike ?" (Surah 39, V. 9), "God has made the strivers with their property and their persons to excel the holders - back a (high) degree (Surah 4, V. 95), and " Say : The bad and the good are not equal " (Surah 5, V. 100).

Such difference in qualities produces an indispensable difference in sustenance, but it does not allow the wealthy to consider his wealth a monopoly of his, nor does it permit any group of people to monopolize properties : " And God has made some of you excel others in the means of subsistence; so those who are made to excel give not away their sustenance to those whom their right hands possess, so that they may be equal therein " (Surah 16, V. 71). Further God says : " So that it (wealth) be not taken by turns by the rich among you " (Surah 59, V. 7).

This equality is the necessary truth. It means satisfaction to all people, individuals and groups, because it is not in the interest of the whole of humanity to make equal knowledge and ignornce, activity and laziness, goodness and badness, shrewdness and stupidity. There is no one who wants equality in these respects to

EQUALITY IN ISLAM AND SUBVERSIVE DOCTRINES

BY

Abbas Mahmoud El - Aqqad

Equality is good and profitable when it is meant to give everybody his right, to avoid everyone from violating the right of others and to equate all people in the sphere of dealings. But it is evil and harmful, if it is meant to oppress merits and dexteries to make all people uniform without realizing any difference amongst them in qualities, deeds and morals, and without respecting their distinctions in responsibilities and ends. Equality in the latter sense is an absolute impossibility on the one hand, and a condition which no sensible person wishes, if supposedly it becomes probable, on the other hand.

It is an absolute impossibility because the factors of difference among beings, especially the composed ones, are too profound to be comprehended by any means simple or compound, particularly those means which are by the materialists call economical. It is sufficient for an argument to give one example with reference to the planets, stars and celestial bodies. In these entities there are no economical factors like those working in human societies, yet we do not see among the millions of millions of planets two of them equal in size, light, velocity, position, composition and range of orbit.

If more illustration be needed, let us take the example of plants which are considered organic beings. Go to a forest and choose any tree, take a branch of that tree, pick up one leaf from the branch and examine it. Then you shall not find any similar to it in length, width, shape and construction. Likewise, you shall not find two leaves similar to each other in the variation of colour in their parts

So if the reasons of variation among beings are so deep that no one can approach them, and so genuine that no means can comprehend them, it would be a deforming distortion to confine all human beings in particular to one uninform, while their difference - with their complicated structures is more reasonable than the difference in planets and leaves of trees. This is why absolute equality

no avarice, no breaching to bonds, no falsehood, no fooling and no treachery as well in their dealings with other people.

The Qur'an depicts the true believers.

Nothing shaws the verity of religiousness more vivid than the following verses of the holy Qur'an. They depict as well most vividly the traits of the true believers :

"It is not righteousness that you turn your faces to the East and the West; but righteous is he who believth in Allah and the Last Day and the Angels and the Scripture and the Prophets and giveth away wealth in spite of his love for it to the kinsfolks and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask and to set slaves free and keeps up prayer and pays the poor-rate ; and the performers of their promise when they make a promise, and the patient in distress and affliction and in the time of conflict. These are they who are truthful ; and these are who keep their duty" (Surah 2, V. 177). " They only are believers whose hearts are full of fears when God is mentioned, and when His messages are recited to them they increase them in faith, and in their Lord do they trust " (Surah 8, V. 2).

Such is *religion*: Pure faith, magnanimous soul, sound morals, faithful hearts and the like attributes which are included in this comprehensive statement : " Religion is how to deal with people ".

are far away from the blessings of God.

It is related that once a man came to the prophet Muhammad (peace be upon him). Advancing forward before him he said unto him " O ' prophet of Allah will you tell me what is religion ? To him the prophet said : " Religion is good behaviour. Again the man advaned to his right side and delivered the same Question to which the prophet gave the same answer. Once more the man turning to his left side asked the same question. Again the prophet gave the same answer emphasizing that religion is good behaviour: In a last effort the man moving to his back uttered the same question. The prophet may peace be upon him at once turned to face him and said " Have not you understood ? Religion is how to behave with others. It is to keep calm and not get excited " .

It is cited that on anther occasion somebody told the prophet (Peace be upon him) that a certain woman had kept fasting all her days long and praying all her night but she had always smitten her neighbours by her tongue. On answering him the prophet said " she is no good, she will be in hell " .

Ali Ibn Abu Talib (may God bless him) once said, " We have been sitting with the prophet one day when a highlander showed in and said unto the pophet. " O, Muhammad will you instruct me as to the toughest performance in religion (meaning Islam) and as the easiest one, To such question the prophet gave the following answer " The easiest O, brother is the declaration that there is no God but Allah and that Muhammad is his meesenger and the toughest O, brothr is to stick to honesty. " Verily the man who no honesty has no religion at all though he keeps Ramadan and says his prayers regularly.

Such is the place of those who misunderstood religions and took it to be false appearances without any impression upon their behaviours and dealings with their fellows.

The third division.

The third division comprises the true believer whose hearts are full of fear of God and His power. They are those who believe in His righteousness and fair justice. They are those who practise tenets of Islam.

Concious and influenced in their behaviours and dealings of the Divine revelation. Thus displaying no hatred, no jealousy, no spite, no anger, no parsimony, no renouncement, no cowardice and no selfishness in their behaviour. No forgery, no decepition, no trickery no adversity,

sharing in any charitable deed and often reluctant in paying their liabilities. They almost tend to bargaining in every transaction whether worthy or unworthy of such bargaining. They invariably undervalue other people's properties and never give them their right share. Harshly they treat their kith and kin, never care of their well-being and always sever the links of relationship. They deliberately renounce the poor and abstain from helping the needy out of avarice and selfishness. They are gold diggers amassing wealth in fear of poverty. In public calamities, whether religious, social or moral, they never share the responsibility of mitigating the misfortunes of the people. They prefer to live secluded unawares of the troubles of their countrymen. They would rather lead a life without a name than take an active part in their people's struggle for establishing truth.

The Qur'an's portrayal for such people

No portrayal for such people is more vivid and more expressive of their innate mischief than that mentioned in the following chapter of the holy Qur'an. It clearly indicates how far they are away from the right path enjoined by religion "Hast thou seen him who belies religion ? That is the one who is rough to the orphan, And urges not the feeding ones, who are unmindful of their prayer who do (good) to be seen, And of the needy. So woe to the prhying refrain from acts of kindness !" (Surah. 107, Vs. 1 — 7).

Allah adresses in this chapter his prophet Muhamad " may peace be upon him" as well as every reasonable man saying : If you do not know the unbelievers herein are their signs by which you could easily rcognise them. They are those whose hearts are deprived of pity and fear. They are those who do not heed to rights of others and try their best to get rid of them by illegal means. They are those who ignore that their prayers call them to [be fearful of God in all their actions, to be obedient to his orders, to be observant to the truth and to be equitable to the weak. They are those who betray people by deceptive piety and showy prayers to cover their depravity and envious hearts which never tend to good deeds or charitable actions.

All prophets have laid down in their traditions, which are the true guide and illuminating light to humanity in all ages, the real meaning of religion. They have as well indicated accordingly the status of such hypocrites in the order of religiosity. Doubtless they have nothing to do with religiousness. Consequently they

The offences of second division

The most serious offence of such people is that they show religion to be rigid, inactive and dreadful. Their portrayal of religion indicates that it neither allwos free thinking nor open discussion nor debating. To Such people the creed is only what so and so have said, the legislation is the compliance to what so and so have adopted, the interpretation of Qur'an is the submission to what so and so have written and the explanation of the traditions of the prophet is the following of what so and so have dealt with. According to them no body coming after our sage forefathers who have set down their ideas and conceptions in black and white is allowed to ponder upon the Qur'an to re - interpret or the traditions of the prophet to re - explain or derive from. Anyone other than those former theologians is forbidden to deal as they have dealt or to think as they have thought or even to give preponderance as they have given :

Their slogan is that " All good accrues from sticking to the views of our greet ancestors and all evils come out from following the novel ideas of the predecessors. Such policy has led to divrsion of thought amongst the believeres. Not only divsion of thought have they produced but also break and enmity amongst the adherents of one religion, the followers of one Prophet and the believers in one Book. They contend against each other and, exchange insults, and accusations of blasphemy and atheism.

In their discussions they have nothing to deal with but futile arguments for which Allah has revealed no warrent betraying themselves that their deeds are in close accord to religion going hand in hand with its fundamentals.

Traits of this division

The people of this division always pretend to have the guiding force to which the whole creatures must submit. It is up to them to decide who is the believer and who is the unbeliever. The blessed are those who follow their steps and stick to their ways complying with their whims. The cursed are those who refuse to be guided by their rules. Such people are incessantly trying to persuade people to believe that they are the source of illumination and guidance. Theoritically speaking the pre-mentioned traits are theirs, but practically speaking we can say that they are far from being impressed by true religiousness for they are slack to respond to any call urging to do good or to lend a hand to the needy. They are rather parsimonious, always shrinking from

and lusts, having no limit to stop at in their creeds, no bridle to their thoughts, no restraint to their vices and no curb to their whims. They behave as if there is neither God nor religion, nor prophets, no resurrection nor judgement nor punishment.

The link of such people to religion is merely a word to be said on occaisons and an attribution to be mentioned before their names on the lists of Census. They will remain as such all the span of their lives far from religion and its benefits, away from its guidance and deprived of its merit. On the dooms day they will be treated as aliens to this religion with no liniament to connect them to its adherents. They will be forbidden its protection when there is nothing to keep them but its shade. God has described such people in the Qur'an by saying : "And certainly We have created for hell many of the jinn and the men - they have hearts wherewith they understand not, and they have eyes wherewith they see not, and they have ears wherewith they hear not. They are as cattle ; nay, they are more astray. These are the heedless ones " (Surah 7, V. 179).

The signs of the first division.

As to the signs by which such division is to be recognised, they are again mentioned in the holy Qur'an as follows : " And when thou seest them, their persons please thee ; and if they speak, thou listenst to their speech. They are like pieces of wood, clad with garments. They think every cry to be against them. They are the enemy, so beware of them. May God destroy them ! How they are turned back ! And when it is said to them : Come, the Messenger of God will ask forgiveness for you, they turn away their heads and thou seest them hindering (others) , and they are big with pride. It is alike to them whether thou ask forgiveness for them or ask not forgiveness for them- God will never forgive them, Surely God guides not the transgressing people " (Surah 63, Vs. 4 - 6) .

The Second divsion.

The second division comprises a group of people who takes religroussness to be a formal pattern of praying, fasting and utterance of certain hymns of praise and glorification in prescribed postures and chosen dresses affecting special movenents and casting certain looks. Such men understand religiosity to be only the repittion of set words during certain occaisons, the bewailing of lost morals, the lamentation of neglected religion and the censure to those who dare to secede from their prescribed limits of religiousness and their narrow conception of religion.

Religion is How to Deal with People

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

The Rector of Al-Azhar University

Men's order in the grades of religiosity does differ in the same manner as their conceptions of religion do. In evaluating a man's religiosity an old saying flashed to my mind. It is a true statement by which our ancestors used to weigh men's attitudes towards religion. It is an expression which shows the real objectives of religion as revealed by God to His servants. Accordingly religion is simply a manner of conduct towards the Creator and a way of dealing with other people. This illuminating saying is the heading which we have chosen to our discourse to-day namely " Religion is how to deal with people".

Such a saying if well-realized, thoroughly understood and minutely sifted with reference to Koranic verses and orthodox traditions of the Prophet everyone will surely stick to it, and adopt it as his motto in life and take it as a standard to weigh upon one's deeds and as a measure to fathom one's religious depth. The more one's knowledge of its significance is deepened the more one practices it as a way of salvation in the hereafter and as a means of securing success in this world. Most unforunately there are still some people who are unawares of its true significance.

Attitudes of Peoples towards religiosity.

To classify people according to their grades in religiousness bearing the above heading in mind. They will fall under three divisions.

The first division.

The People falling under the first division always take religion superficially. Their religiousness is an ostensible declaration of Islam's two fundamental articles : There is no God but Allah and Muhammad is His Messenger. They consider themselves by so doing to have accomplished their part as enjoined by heavenly guidance, and as called for by sound reason. Apart from such declaration they never bother themselves about good deeds and moral behaviour. They simply let loose their minds giving reins to their caprices

They inherited the legacies of Abraham, Moses and Jesus, the cultures of the Greeks, Arabs and Indians, and the civilization of the Egyptians, the Romans, and Persians. All these legacies, religions and civilizations were subjected to the influence of the Islamic genius wherein they were purified, corrected, clarified, and completed in such a way as to make them fit for Edification of intellects, encouragement of the hearts, extension of thougts and the formation of a strong and free society directed only by right and truth, and governed only by the word of God.

It was a great merit to human kind that the light of God has emerged in a central spot between east and west to enable the easterners as well as westerners lost in the darkness of ignorance to find their way to right and truth by the guidance of its illuminating light.

Nevertheless, the light of God in no time have flooded the whole east up to China, and the west up to Gaul. Those deprived the blessing of its guidance and leader ship were not forbidden the merit of enjoyning its cluture and civilization. The Christians of Egypt took the culture of the Arabs through Maghreb and Andoulsia during the Conquests of the Crescent. They too acquired the knowlege of Moslems through Egypt and Palestine during the crusades. Again Islam spread all over east Europe as a result of the Islamic Conquest of constantinople. Christian knowledge thereupon was shifted to the central part of the continent causing the renaissance movement.

The Renaissance was nothing but the intermarriage of the Latin culture which Sultan Mohamed the Conquerer liberated from the monasteries and churches, and the Greek culture which Mohamed El Mamoun revived in the mosques and the schools. Out of these two cultures and the other Islamic arts and sciences which were mixed with these legacies emerged the modern culture and the present civilization.

Thus the Islamic conquests were not for the sake of colonisation and collecting taxes, but they were means of guidance and liberation.

They were conquests for establishing freedom and construction, for calling to monotheism and true belief, for fostering truth and reason, for spreading justice and benevolence, for disseminating Arabic literature and rhetoric, for encouraging science to help reform and innovation, and for extending art to incite creation and novelty. It is in the hands of the merciful, the compassionate to give predominance to the religion of truth over all other religions, for Islamism is humanism, the Koran is the discriminator between right and wrong, and between truth and falsehood, and Islam is the peace.

all the civilised parts of the world, and completely seculded that no body ever heard of them and they never heard of anybody else.

Such was the state of affairs during these dark ages : misleading guidence and reigning ignarance full of menaces and impediments and opening the door for evil - doers to incite riots, dissiminate vices and corrupt religion by all means and not the less the feminine temptation.

However, God, the merciful, the omnipotent, did not leave his servants to be led astray in the wilderness of life and to grope in darkness all their life long, and thus ordained this night to terminate and the morning to dawn. It was his will that the break of day had to emerge out of the cave of Hiraa.

Therein God sent his revelation unto the mount of Light and thereupon the light of guidance flooded all over the land of Hegaz. Thus the chosen messenger descended from the cave with the divine light shed around him, and the Voice of the divine spirit (Gabriel) resounding in his ears, and called the bedouins, the shepherds whom the Almighty had chosen to guide His creatures and to keep the commandements of Islam. Later on the prophet extended the call to the whole caravan of humanity lost in wilderness, weary of long struggle in search of salvation, needful to a guide and a leader who can lead them to the right path.

As a result of his guidance the lost found his way, the renegade returned, the deserter was allured and the hopeless was given hope, and self confidence by reciting to him the words of God.

Thereupon those who had given themselves to struggle to maintain the way of God, started their battles of purification and liberation. They chastised the souls and got rid of all evils. They established the freedom of thought and liberated the minds from shackles of polytheism. They dethroned both Caesers an Chosroes, and demolished their palaces wherein they built upon their debris the minaret of Bilal and the pulpit of Muhammad. In these liberated and chastised countries, they applied the divine law that respects human dignity, keeps human rights, and puts an end to social prejudices and distinctions. Then they carried eastwards and westwards the torch of knowledge which they had lit by the heritage collected from remote religions and past cultures and civilizations. Thus they gave light and illumination to people who had never experienced such light before the advent of Islam.

rendered inaudible by the materialism of the Hebrews darkness beclouded the whole universe and ignornce spread all over the world. Consequently the caravan of life hit at random erroneously in the wilderness driven about eastwards by the persians and westwards by the Romans. Romans were then a disintegrated state embellished by wealth, and dipped in luxuries to the ears with Corrupted creeds and contended sects. Such corruption led to obstinate disputes about the nature of christ at Byzantine and arbitrary debates about the attributes of such nature reducing its religion to such trifle contests. Conversely their worldly affairs were materialised in hankering after Pleasures and indulging in lustful deeds and self - satisfaction to such an extent that silenced the call of reason and got rid of the guide of the spirit. As a result of the reign of a mutilated religion and a lustful way of life, the order of govermnent in both parts of the declining EmPire turned to be foolish, immoral and wasteful. People were overtaxed, the civil - servants took to bribery and the society at large became vicious and corrupted. The enslávement of the common People and their feeling of humilation, led them to glorify the leaders, to venerate the lords, and to deify the Caesars. The world was thus plunged in the abyss of degradation, and perdition. Similarily were the Persians at that time : they were the wreckage of a lost state and the chattered fragments of a broken generation affected by the same disintegration, immorality, the prevalanse of lust, the distinction of classes, the oppression of Kings and the corruption of religion as well as the Romans.

However it added to these drawbacks the rise of crooked beliefs and the predominance of abnormal behaviour, such as the symbolism of Zorasters who paved the way for the foolish Magianism, the Nihilism of Manes who prohibited marriage to hasten extinction, existionalism of Masdians which made people partners in fortunes and women, and a rotten state of affair wherein no man can live freely and no sovreignity can maintain its power.

People beyond these two states were living in a more disintegrated state suffering privation and drudgery. Arabs and Hebrews were leading a life so plainly depicted by the holy Koran needless to dwell upon. Indians and chinese were under the ferule of Budhism and Brahmanism in an unobstructed state of heathenism with no limit to the number of its idols, no restraint to its delusions and no panacea to its social and moral evils.

As to the nordic and western Europeans, they were utterly cut off of

The Advent of Islam USHERED In A New World

by

AHMED HASSAN EL-ZAYAT

Editor - in - Chief

Without trespassing upon historians we can take the advent of Islam as a line of division between an old world wherein people were suffering pangs of death, and a new world wherein people were inhaling the first breath of life. We can also call that old world reigning in both east and west the age of ignorance and call the new dawing world comprising both christians and mohamedans the age of Islam.

The fact that God has sent His messenger Muhammad to guide the whole uninverse to the way of Allah; Whereby it was his tradition before to send his chosen messengers particularly to the corrupted nation - and the straying community does support this demarcation.

When ignorance prevailed, falsehood wide - spread and humanity was doomed; God's will intervened to rescue his servants and lead them to the right path. Thus He send Muhammad to the whole world with a universal message and a comprehensive call. The nature of such uninversal legislation is to be integral, complete ever green and fit for all peoples and all times so as to afford panacea to every evil, a solution to every problem and a way of life to every community. Such are the characteristecs of the divine law after which the revelation ceased and such are the traits of its messenger who was the seal of all prophets.

The universal ignorance which preceded the universal Islamism was the reigning factor of a world groping in utter darkness and plunged in the abysmal chaos and misery.

Throughout this nocturnal nights glimpses of illumination doth appear from time to time as such caused by man's intellect in Thebes and Athens and as such inspired by God's revelation in sinai and Juraslem. But when the light of intellect was exitnguished by the bestiality of the Romans and the Voice of divine inspiration was

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء السابع — رجب سنة ١٣٧٩ هـ — يناير سنة ١٩٦٠ م — المجلد الحادي والثلاثون

١٢ ٢٢٢٤٦

دوريات

الفهـــرس

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

أول من أعلن حقوق الإنسان

بمناسبة الذكرى الحادية عشرة لإعلانها فى الأمم المتحدة

بقلم : أحمد حسن الزيات

فى اليوم التاسع من شهر ديسمبر من عام ١٩٤٩ ، وفى فورة من فورات النفاق الدولى ، أعلن الساسة فى هيئة الأمم المتحدة حقوق الإنسان . ثم احتفلوا واحتفل معهم الناس بالذكرى الحادية عشرة لهذا الإعلان منذ اثنين وعشرين يوما ، فبشروا بالنعيم المقيم والخير العميم والسلام الدائم ، ومن قبل هؤلاء الساسة (الإنسانيين) أعلن قادة الثورة الفرنسية هذه الحقوق عام ١٧٨٩ وصاغوها فى سبع عشرة مادة جعلوها ديباجة لدستور سنة ١٧٩١ .

ومن السهل على الذهن الاجتماعى أن يعلل صيحة الثوار الفرنسيين بحقوق الإنسان بعد أن كابدوا ما كابدوا من استعباد النبلاء واستبداد الكهنة ، وأن يفسر احتضان هيئة الأمم المتحدة لهذه الحقوق بعد أن رأت حوت الشيوعية معترضا فى خضم الحياة وقد فغرفاه الهائل المروع ليلتقم الديمقراطية الرأسمالية وما تسيطر عليه من أرزاق الناس وأسواق العالم بالاستعمار أو بالنفوذ . ولكن من الصعب على الذهن المنطق أن يدرك ما يريده الأوروبيون والأمريكيون من لفظ (الإنسان) الذى أعلنوا له هذه الحقوق ، وظاهروا عليه هذا العطف ! أغلب الظن أنهم يريدون بإنسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذى تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون ! أما الإنسان الأحمر فى أمريكا فهو فى رأى أبناء العم سام ضرب مهين من الخلق عليه كل واجب وليس له أى حق ؛ وهذا الوجود المعدوم فى بلاد الديمقراطيين الأحرار لا يزال فى رأى المسلمين أغلظ كذبة فى دستور الديمقراطية بواشنطون ، وأكبر لعنة على تمثال الحرية فى (نيويورك) ، وأما الإنسان الأسمر والأسود فى أفريقا ، أو الأخضر والأصفر فى آسيا ، فهو فى نظر الفرنسيين

والإنجليز نوع من بهيمة الأنعام ، وجنس من المواد الخام ، يولد ليسخر ، ويروّض ليستثمر ، ويُنتج ليستهلك ، وهو موضوع الخصومة فى السلم ، ومادة الغنيمة فى الحرب ؛

وهذا الحق المهضوم بين أمم العلم والدستور لا يزال فى نظر المسلمين اتهاما لصحة الثقافة فى جامعات فرنسا ، وإنكاراً لحقيقة العدل فى برلمان انجلترا ! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الإنسان فى القديم والحديث اضطرب الأساس وفسد القياس واختلف التقدير ، فلكل جنس وزنه ، ولكل لون قيمته ، ولكل دين حسابه . ومدار الوزن والتقويم والحساب هو على قدرة الإنسان وعجزه ، لا على إنسانيته وفضله ، فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة ؛ والجهل والفقر والضعف سبيل العبودية . والسيادة حق ليس بإزائه واجب ، والعبودية واجب ليس بإزائه حق ،

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد ، ومحمد وحده هو الذى أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله ، والله وحده هو الذى ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة .

أرسله رحمة للذين استضعفوا فى الأرض لقلة المال كالمساكين ، أو لفقد العشير كالموالى ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للفقير بالزكاة ، وضمن العز للذليل بالعدل ، ويسر الحرية للرقيق بالعتق ، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة .

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبين ، ولا من وطن معين : إنما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربى والفارسى والرومى والتركى والهندى والصينى والبربرى والحبشى على شرع واحد هو شرع الإسلام ، وتحت تاج واحد هو تاج الخلافة !

والإسلام الذى يقول شارعه العظيم « ولقد كرمنا بنى آدم » لم يخص بالتكريم لونا دون لون ، ولا طبقة دون طبقة ؛ إنما ربأ ببنى آدم جميعاً أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان ، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان .

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سواء والعدم . وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض ومن سواهم خدم ، وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان ومن عداهم عجم . وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والرجبوت من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوى الأمر بين رأس وكتف وقدم ! وكان النظام الاجتماعى العالمى قائما كله على الامتياز بالجنس

أو بالدين، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال، حتى جاء محمد بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه «إنما المؤمنون إخوة»، «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وأكدها بقوله صلوات الله عليه: «الناس سواسية كأسنان المشط»، «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب».

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء لا يملكان ولا يتصرفان، فضيق الإسلام حدود الرق، وجعل كفارة الذنوب بالصدقة والعتق، وسوى بين الرجال والنساء فى الحق والواجب.

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى «لا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى»، «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟». واحترم عقائد أهل الكتاب وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء، وأمر الولاة أن يرعوهم ويعطفوا عليهم، وأوصى المسلمين أن يبروهم ويقسطوا إليهم.

ثم أعلن الإسلام حرية الفكر والرأى فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد، وأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض. ووسع صدره لأهل السياسة حتى تعددت الأحزاب، ولأهل الجدل حتى كثرت الفرق، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب. وسمح لأهل الذمة وأصحاب النحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها فى المدارس والمجالس والبيع ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتى هى أحسن.

ثم احترم الملكية وثبت لها الأصول، ونظم المواريث ورتب عليها التعامل. وهذه هى جماع الحقوق الطبيعية التى كفلها الإسلام للإنسان على اختلاف ألوانه وأديانه وألسنته.

أعلنها محمد بن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن والأمر يومئذ للجهالة والرأى للضلالة والحكم للطغيان، فأنقذ الإنسانية من إسار المادية والعصبية والأثرة، ثم أكرمها ونعمها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد. ولكن الإنسانية وا أسفاه أضلت هذا السبيل! أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق، وهم يسرون فى أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق؟

أحمد حسن الزيات

نداء الأستاذ الأكبر إلى العالم

بمناسبة الذكرى العالمية لإعلان حقوق الإنسان

أيها الاخوة فى الإنسانية :

ناداكم ربكم « يأيها الناس » ومنذ شرع لكم دينكم ، جمعكم على الأخوة فى الإنسانية ، ولم يناد طائفة منكم دون طائفة أو أمة دون أمة أو جنسا دون جنس أو لونا دون لون ، ولم يخص بالنداء الأغنياء دون الفقراء ولا الأقوياء دون الضعفاء ، ولا الكبار دون الصغار ، وإنما وجه نداءه إلى جميع البشر ، ولقد سوى بينكم فى أبوتكم لرجل واحد هو آدم حين ناداكم « يابنى آدم » ليذكركم بأنكم جميعاً من آدم وأن آدم من تراب . ثم أوصاكم ربكم بالتراحم فيما بينكم . « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وأوصاكم بالتعاون والتساند بقوله : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ... ثم ميز بعضكم على بعض لا بظهر أو بطن أو لون أو عنصر ولكن بتقواه وطاعته ورعاية وجهه فى النفس والوالدين والزوج والمال والولد وذوى الرحم والجار والأخوة فى الإنسانية ، وفضل بعضكم على بعض بالتقوى ، فقال : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« يأيها الناس » بهذا أمركم ربكم ، ولهذا أرسل رسله ، وبهذه الآيات المحكمات ناداكم على لسان خاتم النبيين منذ تسع وسبعين وثلاثمائة وألف سنة خلت .

ومنذ أحد عشر عاما بدت فى أفق الحياة الإنسانية بادرة طيبة مبشرة إذ أصدرت أمم العالم إعلاناً لحقوق الإنسان فى وثيقة تنادى بأن جميع الناس قد ولدوا أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلا وضميراً ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء .

وثيقة تنادى « أن لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان بدون تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى أو المحتد سواء فى كل ذلك الرجل أو المرأة أو الثروة .

« لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه » .

ومنذ حوالى أربعة عشر قرنا وضعت شريعة الإسلام أصول تلك الحقوق ، وبينها القرآن فيما تلونا من آياته الحكيمة وغير ما تلونا ، وهو كثير فى القرآن .

وإنه لعيد جدير بالاعتبار ، عيد ذكرى إعلان حقوق الإنسان — حقيق بأن نتذكر فيه تعاليم الدين ، وأن تعمل على تطبيقها لأسعاد البشر ، وأن تكف الدولة القوية عن زعزعة الشعوب الضعيفة وأن تجعل أمر هذه الشعوب بيدها ، وأن تعيد إليها حقها كاملا غير منقوص . عندئذ يكون هذا اليوم عيداً سعيداً جديرا بأن تفخر به البشرية وأن تحتفل كل عام بحلوله .

أيها الإخوة فى جميع بقاع العالم ، إن على المؤمنين أن يتذكروا دائما ما قطعوه على أنفسهم من عهد وما قطعته السماء عليهم من مواثيق التعاون والتضامن والأخذ بناصر الضعيف ، وأن يتدبروا ما تعانيه البشرية هنا وهناك جزاء النكث بالعهد والحنث بالوعد ، دم يراق فى الجزائر ، ونساء وأطفال ورجال بين شيخ مسن ، وطفل فى المهد قد شردوا من فلسطين وأخرجوا من ديارهم عنوة ، وغير أولئك وهؤلاء ممن يقاسون ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

ألا فليعلم الناس قاطبة أن الوثيقة التى تحتفل بذكراها اليوم إن هى إلا رجوع إلى أمر الله قد نادى بها الإسلام ونادت بها سائر الأديان .

يا أيها الناس ، يا أيها المؤمنون ، يا أيها الذين يحترمون حقوق الإنسان عودوا إلى عهدكم ، عودوا إلى دينكم ، التمسوا النور من ربكم ، واسألوه التوفيق والسداد فى رأيكم وعملكم .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

محمود شلتوت
شيخ الجامع الأزهر

الأدبُ العربيّ والتخصّص

للأستاذ عبّاس محمود العقّاد

كلمة الأدب فى اللغة العربية تشمل منظومها ومنثورها ودراسات النقد وشروحه فى هذا الموضوع ؟ .

والباحثون فى الآداب الغربية لا يجدون صعوبة فى فهم معنى الأدب من اللفظ الذى يدل عليه بلغاتهم ، وهو لفظ (لتراتور) بالفرنسية Littérature ولتراتشر Literature بالانجليزية ، وكلاهما مأخوذ من مادة الحرف أو الكلمة . فكل ما يتناول فن الكلام نظماً ونثراً فهو أدب ، ولا تبتعد الشقة ، بالباحث عندهم فى بحثه عن العلاقة بين فن الكلام وبين الشعر والنثر وأقوال النقاد والشراح فى هذا الموضوع بجملته .

ولكن ما هى العلاقة بين كلمة « أدب » وبين موضوع الشعر والبلاغة ؟ بل ما العلاقة بينها وبين السلوك الحسن إذا اعتبرنا أن الكلمة وضعت أصلا للدلالة عليه ؟ .

لماذا تدل كلمة مؤلفة من الهمزة والدال والباء على السلوك الحسن ؟ ولماذا تدل . بعد ذلك على الشعر والنثر والبلاغة إذا اهتدينا إلى الدلالة بينها وبين حسن السلوك ؟ .

هذه هى المشكلة فى رأى بعض الباحثين ممن يريدون أن يربطوا بين اللفظ ومعناه فى اللغة العربية بمثل العلاقة التى بين الكلمة الفرنسية أو الكلمة الانجليزية وما تدل عليه . وقد حاول بعضهم أن يرد كلمة « الأدب » إلى المأدبة ، وحاول آخرون أن يجعلوها مقلوبة من « الدأب » ويستخرجوا من السعى معنى السعى إلى المعرفة والكمال ، فتقترب الشقة — من ثم — بين الأدب وبين معانى المنظوم والمنثور .

ولم نر بين الباحثين ، على هذا الرأى ، من هو أوفى بحثاً فيه وأوفر استدلالا عليه من الأديب العالم باللغات السامية الأب « مرمرجى » ، صاحب المؤلفات المعروفة فى مباحث اللغة ، ومنها كتابه المعجمات العربية السامية ، الذى يقول فيه تحت مادة أدب :

« يطلق لفظ الأدب على العلوم العربية ، وهو علم يحترز به من جميع أنواع الخطأ وتعرف به أساليب الكلام البليغ فى كل حال من أحواله ، ويكتسب بالدرس والحفظ والنظر فى الآثار الأدبية من منظوم ومنثور . . . ويراد بكلمة « أدب » معنى

صنع صنيعا ودعا الناس إليه ويرادفه أقام وليمة وصنع غداء ودعا إليه دعوة .

فجميع هذه الفحاوى مع ما يظهر فيها من التباين عائدة إلى أصل واحد : وهو العمل أو الصنع أو الجهد فى عدة أحوال ، بيد أن لفظة أدب الثلاثية بحالتها هذه لا تتضمن حسب الاشتقاق معنى يدل على العمل والجد والكسب ، ولهذا تضاربت الآراء فى تأصيلها حتى قال بعضهم بأنها دخيلة من اليونانية كأنما العربية مفتقرة إلى الأجنبية حتى فى قوام العلوم اللغوية والأخلاقية والحياة الاجتماعية ، على أننا نرى هناك وسيلة لجعل هذا الاشتقاق منطبقا على تحديد الكلمة وتفرع معانيها فيصبح هذا الاشتقاق معقولا متساوقا منطبقا . ألا وهى وسيلة الرجوع إلى الأصل الثنائى ... غير أنه يقتضى الفرض أولا أن كلمة أدب ليست بأصلية بل هى مقلوبة عن لفظة أخرى وهى (دأب) المراد بها (جد فى عمله مستمرا) ، والدأب العادة والشأن ، مما يتطلب المثابرة على العمل ... إلا أن (دأب) ذاته صادر عن الثنائى (دب) ومدلوله مشى على هينة وسرى وجرى .

« إذن من المشى والجرى توسع المعنى إلى العمل بجد ومثابرة ، ومن ذلك تحصل العادة المتوقفة على تكرار الفعل ، مما ينجم عنه الملكات . فإذا كانت هذه الملكات حسنة صدرت عنها الأخلاق الحميدة . وإذا كانت هذه الملكات مترسخة فى تصرف المرء ومعاملته لأقرانه فى الحياة الاجتماعية تولد منها الظرف والكياسة ، وحسن المعاشرة ، وإذا جد المرء فى اقتباس العلوم اللغوية من منظوم ومنثور فى الكلام والكتابة والوقوف على آثار الكتاب والأدباء نشأ عن ذلك علم الأدب أى مجمل المعارف والآثار العربية التى تولدت بعد الإسلام » .

* * *

وهذه أقرب مرحلة بين لفظ الأدب ومعناه فى رأى الباحثين على هذه الوجهة ، وهى الوجهة التى تهديهم إلى أن كلمة الأدب مقلوبة من كلمة الدأب ، وأن المشابهة بينهما هى المشابهة بين العادة على حسنها وسوئها وبين الملكة الفنية أو اللغة .

وأبعد من هذه المرحلة مرحلة القائلين بأن الأدب من « المأدبة » ... وإنما ينبغى أن تكون المأدبة من الأدب على القياس المفهوم ، فلا تنطوى المأدبة على معنى من معانى الفن والبلاغة إلا إذا كان هذا المعنى أصيلا فى كلمة الأدب قبل أن تؤخذ منها كلمة « المأدبة » .

والذى نعجب منه هو هذا الإبعاد فى التأويل والتخريج مع قرب المورد فى هذه المادة خاصة ووفرة الدلالة عليه بحروفها ومعانيها .

فمن هو الرجل المؤدب فى لغتنا العربية ؟ هو الرجل « المهذب » ، ولا زيادة عليه ولا حاجة إلى تأويل كثير أو قليل .

وهنا تتمثل لنا المادة بحروفها جميعا ودلالتها جميعا فى استعارتها لهذا المعنى المطرد بين كلمة « هذب » وكلمة « هدب » وكلمة « أدب » وهى مؤلفة من حروف يعرض لها الإبدال فى مئات من أصول الكلمات العربية .

يقال « هذب » الشجرة إذا أزال أشواكها وفضول أوراقها وسوى فروعها وغصونها ، ومن هنا يستعار التهذيب للإنسان الذى تزال عيوبه وتنتظم أحواله وأعماله ، وليس للتهذيب الإنسانى أصل غير هذه الاستعارة فى هذه المادة وفيما يشبهها من مواد اللغة لفظا ومعنى ، وأشهرها التثقيف من إزالة الزوائد والفضول من الأعواد والأغصان .

والتهديب كالتهذيب فى دلالته على إزالة الأهداب وتسويتها وتنظيمها ، وليس أسهل من إبدال الهمزة بالهاء أو إبدال الدال بالذال .

ويؤيد هذا من جانب النظر إلى المعنى أن صفة التأديب هى صفة التهذيب فى جميع تفصيلاتها ، فلا يمكن أن تكون المشابهة عرضية بين كلمات التهذيب والتهديب والتأديب ولا بد من شبه أصيل بينها فى النطق والمدلول والمجاز .

* * *

وإذا تبين لنا من المقابلة بين لفظ الكلمة ؟ معنى الأدب أصلا ومجازا فالمقصود بالأدب يتبين لنا من المقابلة بين أوصاف الإنسان المؤدب فى لغات الحضارة ، ومنها اللغة العربية .

والواضح لنا من المقابلة بين هذه الأوصاف فى جميع اللغات أن كلمة « المؤدب » مرادفة لكلمة « المتمدن » فى كل معرض من معارضها المتكررة ، ويعزز ذلك قول الشاعر البدوى عندنا :

وإنى على ما فى من عنجهية
ولوثة أعرابية لأديب

فالأديب إذن هو الإنسان الذى سلم من خشونة البداوة وتعود شمائل المعيشة فى الحاضرة ، وهو « المتمدن » أو المدنى بعبارة أخرى .

ويقابل ذلك فى لغات الحضارة الأوربية قديمها وحديثها أن شمائل الظرف والكياسة تنتسب عندهم إلى المدنية فى لفظها ومعناها ، فالمؤدب عندهم مرادف لابن المدينة أو ابن الحاضرة . وكلمة Civilised فى أصلها مأخوذة من كلمة Civis أى مدينة وإذا قيل عن رجل عندهم أنه ابن مجتمع .

Man of Society

فمعنى ذلك أنه مصقول مهذب ، وعلى هذا النحو يوصف الرجل فى اللغة الفرنسية بأنه

رجل صالون Homme de Salon ويعنون به أنه رجل مهذب صالح لمعاشرة الناس فى مجالس المهذبين . وهم يقولون عن الرجل إنه مصقول Polished أو إنه مؤدب Polite بلفظ متشابه فى النطق والدلالة ، ولعلهما - معا - يرجعان إلى الكلمة اليونانية بوليتكوس Politicos من المدنية أى « بوليس » Polis عند اليونان .

وعلى هذا نفهم علاقة الأدب بالمأدبة بل نفهم هذه العلاقة فى اللغات الأوربية بين التمدن والفنون المهذبة التى يطلقون عليها أحيانا كلمة Polite-Arts أى فنون الظرف والتهذيب ، وترجع الصفة « بولايت » فى اشتقاقها إلى الصقل أو إلى المدينة كما تقدم.

ونستطرد إلى المعانى المجازية فى هذا الباب فنرى أنها تتفق فى البداهة الإنسانية كما يظهر من اصطلاح الخاصة والعامة بلغتنا العربية الدارجة ، فهم يقولون عن إنسان من الناس إنه قادم من الريف « بعبله » أى أنه لم يهذب بتهذيب الحضارة ، أو يقولون عنه إنه « لم ينجر » من التنجير وهو علاج الخشب بما ينفى عنه القشور والزوائد . ولا فرق فى جوهر المجاز بين التهذيب والتهديب والتأديب وبين كلمة « التنجير » فى هذا الباب!

فالمقصود من التأديب فى مصطلحات اللغات كافة أن يصلح الإنسان للمعاشرة والتفاهم بين أهل المعرفة والكياسة ، ووسائل ذلك فى التربية العربية بإجماع الروايات أن يلقن الناشئ صفوة الأشعار والأمثال والحكم وأيام العرب وأصول الأنساب ، وأن يتفقه مع ذلك فى دينه وأن يقوم لسانه وفكره ويحترز من الخطأ فى عباراته وإشاراته . فهو بلغة المجاز - إذن - شجرة مثمرة بغير أشواك وبغير قشور ، وهو مهذب أو مؤدب أو مثقف بمعنى واحد فى الأصل والمجاز .

ونعود إلى التخصص فى التربية فنرى أن مذهب العرب فيها منذ صدر الإسلام أقرب إلى التعميم والإحاطة ، وأبعد ما يكون عن الحصر والتضييق فى مجال المعرفة والتعريف، فمن تربى على رواية الشعر والمثل والحكمة وتربى مع ذلك على حفظ الأنساب والأيام وفقه الدين واللغة فهو فى عرف العصر الحديث قد تربى على العلم بالأدب والتاريخ والحكمة وجمع بين ثقافة الفكر والضمير ، وأصبح زميلا صالحا للمحادثة وتبادل الرأى والفهم فى كل مجتمع مهذب يتنزه المشتركون فيه عن إزجاء الوقت باللغو والثرثرة وفضول القول خوضا فى الأعراض وإسفافا إلى صغائر الأمور .

ونود أن نجيب هنا على ملاحظة بعض القراء علينا فيما كتبناه عن التخصص فى إحدى مقالاتنا الصحفية ، إذ قلنا : إن التخصص الذى يعزل المتعلم عن سائر فنون المعرفة غير فنه الذى يشتغل به ولا يتعداه

إنما هو مسخ للفكر وبتر للملكات الإنسانية لا تحمد مغبته فى حياة المجتمع ولا فى الحياة الفردية .

فنقول لأصحاب الملاحظة : إننا لا ننكر التخصص ولا نوصى باجتنابه ، بل نحذر من إهماله كما يحذر من ذلك الإهمال أشد المتخصصين ، ولكننا ننكر من التخصص ما يجعل المرء غريبا فى البيئة الإنسانية عاجزا عن التفاهم معها أو عن معاشرتها الفكرية على مشاركة فى الحس والعاطفة .

ونضيف إلى ذلك أن « التخصص » المدعى ليس بالفتح الحديث فى تاريخ الناس ، وليس بالمزية التى نتركها فنعود إلى الوراء متقهقرين مئات السنين كما قال أصحاب الملاحظة التى نشير إليها ... إذ الحقيقة أن هذا التخصيص عادة عتيقة جداً أشار إليها أقدم المؤرخين وقال هيرودوت كما قال غيره إن المصريين الأقدمين كانوا يتوارثون الصناعات فلا تشتغل الأسرة بغير صناعة واحدة ، وإن أطباءهم كانوا يقسمون بينهم أنواع العلاج فلا يعالج أمراض الرأس منهم من يعالج أمراض الجوف ولا يتعرض هذان لعلاج أمراض العين أو أمراض العظام . فليس هذا الحصر فى العلم والتعلم تقدما عصريا لم نسبق إليه ، ولكنه ضرورة من ضرورات العادة التى تتبدل من حين إلى حين ، وينبغى أن تتبدل كلما وضحت المصلحة فى تبديلها ، وهى واضحة على ما نرى من دواعى التقدم العلمى الذى يفرض « السعة العالمية » فى التفكير كما فرضها العصر فى كل مجال من مجالات الرأى والعمل ، وفى كل علاقة من علاقات ذوى الآراء والأعمال ؟ .

عباس محمود العقاد

التكافل الاجتماعى

أوجب الإسلام على الأغنياء من الأقرباء الإنفاق على الفقراء والعاجزين عن الكسب من أقربائهم ، وأوجب على أهل كل حى أن يعيش بعضهم مع بعض فى حالة تكافل وتعاضد ؛ يرق غنيهم لفقيرهم ، ويسد شبعانهم حاجة جائعهم ، حتى لقد ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى مسئولية البلد الذى يموت أحد أفراده جوعا ؛ فيؤدى أهله جميعا الدية متضامنين كأنهم شركاء فى موته .

[من كتاب حقوق الإنسان فى الإسلام للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى]

كيف يتصل الشباب بالدين ؟

للأستاذ الدكتور محمد البهى

أن هناك عقبات تحول دون أن يرى الشباب الدين كمصدر توجيه ، وهناك حواجز كذلك توضع فى طريق الشباب نحو الدين .

فشبابنا اليوم وجد فى وقت برزت فيه آثار الاستعمار فى السياسة التعليمية فى مصر وفى الشرق الإسلامى على العموم . هذه السياسة هى الفصل بين ماضى الشباب من جانب وبين حاضره من جانب آخر . وبالتالى العمل على أن يظل النشء فى توجيهه تابعا لما يرسمه الغرب فى فكره الاستعمارى ، وبعيداً كل البعد عن أن يذكر ماضيه وعن الأمجاد والقيم التى تملأ صفحات تاريخ الأمة منذ أجيال .

وفى حديث للمستشرق الانجليزى « جب » فى سنة ١٩٣٨ فى وصفه لسياسة التعليم القائمة : مصر فى محاضرة عامة ألقاها فى جامعة هامبورج أشار فيها إلى أن سياسة التعليم القائمة فى مصر جعلت فى الوطن الواحد فريقين يبتعد أحدهما عن الآخر ويصارع أحدهما الآخر . فريق يسند ظهره إلى التراث العقلى والروحى للشعوب الإسلامية ، وفى الوقت نفسه لا يعيش فى حاضر الحياة ولا يستطيع أن يصل حاضره بأمسه ، وفريق آخر ابتعد تماما عن المواريث وعن القيم الثقافية والروحية فى تاريخ الشعوب الإسلامية ، وولى وجهه نحو الغرب يسمع لتوجيهه ويتبع نصحه . وبينما الفريق الأول يجمد فى مكانه فى أرض الوطن ، فإن الفريق الثانى لا يستطيع أن يضع قدميه على مكان فيه .

ويهمنا هنا فى هذا الحديث أن نشير إلى أن الوضع الخاص بالفريق الثانى فى إبعاده عن القيم والخصائص التى للتراث العربى الإسلامى ـ هو أثر لسياسة التعليم فيما مضى ، منذ الاحتلال البريطانى لمصر . فقد رسمت هذه السياسة خطط التعليم على أساس انفصالى . وعرضت بذلك رواد المدارس فى صورها العديدة للابتعاد فحسب عن تلك القيم التى يصورها تراثنا الثقافى وتلك الأمجاد التى يعرضها تاريخنا ـ بل عرضتهم فوق ذلك إما للاستخفاف بهذه القيم والأمجاد ، وإما لإنكار اعتبارها فى حياة الإنسان .

ومن بين هذه القيم ، القيم الخاصة بالدين والتى ترتبط بتعاليمه ويطلب من الدين نفسه الحرص على تمثلها وتطبيقها فى الحياة العملية . وهنا قامت على توالى الزمن عقبات فى طريق الاتصال بالدين وهى عقبات نفسية ؛ لأنها

تتصل بتقدير هذه القيم . فمن ينكر اعتبارها أو يستخف بها لا يتصل بها على الأقل . ومن يعرضها على تلاميذه على أنها عديمة الجدوى والقيمة فى الحياة فقد حمل تلاميذه بالتالى على الوقوف منها موقفا على الأقل هو عدم الرغبة فيها والإعراض عنها إن لم يكن الاستخفاف بها والحمل عليها .

وهكذا لم يكن تدخل الاستعمار فى سياسة التعليم إلا لتحقيق هذه الانفصالية . ولم تنضج ثمار هذه السياسة إلا بعد فترة تمتد إلى جيل أو جيلين .

وهناك عقبات أخرى بجانب هذه العقبات النفسية لم تكن من رسم سياسة المستعمر وإنما كانت وليدة عوامل داخلية . وهى عرض القيم الدينية وعرض تراثنا الثقافى والروحى عرضا يتمشى مع ما تتطلبه العقلية الحديثة والمعاصرة . فنحن نعلم أن العقلية العلمية التى سيطرت فى القرن التاسع عشر حملت معها عوامل الحقد والكراهية أو عوامل الاستخفاف والسخرية بالدين والقيم المثالية على وجه العموم . وهذه العقلية التى سيطرت فى أوروبا منذ القرن التاسع عشر لم تبق فى نطاق الثقافة الغربية . بل باتصال الشرق بالغرب تجاوزت هذه العقلية كما تجاوزت آثارها وما حملته معها من مقاييس خاصة إلى بلاد الشرق الإسلامى . وموجة التشكيك التى أعقبت سيطرة هذه العقلية فى أوروبا بالنسبة إلى الدين والقيم المثالية أيضا تسربت ونفذت إلى الشرق الإسلامى واتجهت إلى الدين فيه وإلى القيم الروحية كذلك .

ولكى تعرض القيم الدينية عرضا قويا وواضحا بحيث لا تنال منها موجة التشكيك ولا موجة الاستخفاف ـ يجب أن يكون أسلوب العرض أسلوبا حديثا على معنى أنه يسلك بهذا العرض المسلك الموصل للإقناع والاقتناع . والدراسات النفسية والاجتماعية لها وزنها فى هذا المسلك عند عرض الفكر المثالية أو القيم الأخلاقية والدينية . ولذا فالعرض الحديث لقيم الدين كان يجب أن يقوم على أساس سيكلوجى أو نفسى واجتماعى ، ولا يبقى فى حدود أساليب المنطق الأرسطى وهى أساليب الجدل والحجية التى سيطرت على أساليب العرض منذ أن دخل الفكر الإغريقى إلى الجماعة الإسلامية واستعان المسلمون بمنطق أرسطو من هذا الفكر على وجه خاص .

فتخلف العرض للقيم الدينية عن أن يكون متمشياً مع أساليب العقلية الحديثة وعن أن يستعان فيه بالدراسات النفسية والسيكلوجية والاجتماعية ـــ كان أيضاً من العقبات التى وقفت فى طريق الشباب إلى الدين .

وهنا اجتمع نوعان من العقبات : النوع النفسى والنوع المادى . أما النوع النفسى فهو الميل إلى الاستخفاف بهذه القيم نتيجة لسياسة التعليم الانفصالية كما ذكرنا . والنوع المادى وهو تخلف العرض للقيم الدينية عن أن يكون داعيا إلى قبولها أو على الأقل داعياً إلى النظر فيها بدافع الرغبة فى البحث والدرس .

(٢) الحواجز :

ومع وجود هذين النوعين من العقبات — وإن كانت آثارهما قد خفت عن ذى قبل — نظراً لسياسة القومية العربية من جانب ، ونظراً للتعرف على أساليب العقلية المعاصرة فى العرض من جانب آخر — وإن كان فى نطاق ضيق — فإن هناك حواجز أخرى تقام فى صور مختلفة من شأنها أن تبقى على التقدير الذى كان للقيم الدينية على نحو ما أثمرت سياسة الاستعمار فى التعليم إن لم تزد فى أمره . وبذلك تبقى العقبات فى طريق وصول الشباب إلى الدين كما هى ، أو على الأقل يضعف أثر القومية العربية وأثر التعرف على أساليب العرض الحديث فى الحد من نتائج تلك العقبات .

أولى هذه الحواجز أسلوب الصحافة . فالصحافة المصرية مع تطورها ومع مسايرتها لأحدث أساليب الإعلام — تستخدم فى كثير من الأحايين هذه المسايرة لأحدث أساليب الإعلام فى التقليل من شأن القيم الدينية . وأقصد إلى نوع معالجتها لمشاكل الأسرة مثلا فى الزواج والطلاق وفى دفاعها عن حرية المرأة وفى عرضها لقضية المساواة. فإنها فى هذه الجوانب لا تعرض الرأى منتزعا من دراسة ولا منبثقا عن فهم أصيل لمبادىء الإسلام فى الطلاق والزواج وفى صلة المرأة بالرجل فى الأسرة على العموم . وإنما تميل الصحافة فى عرضها إلى حزبية معينة وتأييد رأى سابق على البحث والفهم لمبادىء الإسلام . ولا أعدو الصواب إذا ذكرت أن هذا الرأى الذى تميل إليه الصحافة والذى قد يكون سابقا قبل العرض والبحث والفهم هو رأى مستورد من الخارج ودفع به دفعا إلى مجتمعنا هذا ، قصد به تحطيم هذه القيم التى تعتبر المقوم الأساسى فى شخصيتنا الاجتماعية وفى قوميتنا كعرب مسلمين .

كذلك إذا ما تعرضت الصحافة لمشاكل الشباب فإنها تركز هذه المشاكل على نقطة معينة هى أقرب إلى الإباحية فى صلة الرجل بالمرأة منها إلى تنظيم الوضع الاجتماعى بينهما أو تربية النوعين تربية مهذبة فى صلة أحدهما بالآخر .

وفى دفاعها عن حرية المرأة مثلا ، تلوم التقاليد والعادات ، وقد يكون لها الحق فى

أن تلوم التقاليد والعادات ، ولكنها تخلط في فهم التقاليد والعادات - وربما عن قصد - وتدخل في مفهوم التقاليد والعادات والقيم والمبادئ الدينية ، وإذا تعرضت لهذه العادات والتقاليد فإنها تتعرض لها في كثير من السخرية والاستخفاف دون أن تحاول أن تضع عادات وتقاليد أخرى بدلا منها تصلح أن تكون رباطا ومقوما من بين مقومات مجتمعنا الشرقي والعربي الإسلامي ، وعرضها للتقاليد والعادات على النحو المشار إليه يحول أيضا ويكون منه حاجز في طريق اتصال الشباب بالدين ، وإذا هي حاولت أن تضع عادات وتقاليد أخرى بدلها فإنها تدعو في غير احتياط إلى ما يجرى في الغرب من عادات في مجتمعه ، خيره وشره ، والغرب - كما تعلم - وخصوصاً بعد قيام هاتين الحربين العالميتين في وطنه وبين أطرافه - اهتزت فيه القيم الإنسانية ، وتعرضت التقاليد والعادات لهزات عنيفة يئن منها الغرب نفسه الآن بالشكوى ويحاول أن يجد لهذه الحال علاجا ، ولكن الأمر يكاد يكون مستعصيا عليه ، وفي الأهرام الصادر في ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٩ في الصفحة الثانية تحت عنوان : « فوضى الجنس بين طلبة المدارس الانجليزية ما يلي :

في تقرير وضعه الدكتور طومسون من وزارة الصحة البريطانية أن الفوضى الجنسية قد انتشرت بين صغار المراهقين من طلبة المدارس ذكورا وإناثا بشكل ينذر بخطر جسيم . في إقليم رويكفيلد حيث ركز طومسون بحثه الذي استغرق عامين ، اتضح أن طالبات في الرابعة عشرة من عمرهن يترددن على عيادات خاصة للعلاج من الأمراض السرية ، وأن أخريات في مثل عمرهن يحملن معهن أدوات منع الحمل .

ويقول طومسون أن الحال في رويكفيلد ليست أسوأ ولا أفضل منها في سائر أقاليم انجلترا » .

وإذا تحدث الكاتب عن انجلترا فإنه يتحدث عن بلد أوروبي عرف بالمحافظة على التقاليد التي له ، وهي تقاليد القرون الوسطى التي وضعتها ودعمتها الكنيسة ، وكان للتقاليد والعرف فيها دور رئيسي هو دور القانون ، ولها قيمة لاتهزها الأحداث المحلية والأحداث العالمية .

وبجانب الصحافة في عرضها القيم الروحية والفكر المثالية . لا تقل الإذاعة والكتب والدوريات في تأثيرها بموقف الغرب من الإسلام ، فضلا عن أنه لا يوجد انسجام بين برامج الإذاعة المختلفة فإن بعض هذه البرامج يعرض للقيم الدينية على نحو ما كان يقوم به بعض رجال الفكر في أوروبا في

القرن الثامن عشر . ذلك القرن الذى كان يسمى عصر التنوير ، وأهم مظاهره تمجيد الإنسان فى خالقيته للقانون والأخلاق وللمجتمع والدولة فى مقابل الاستخفاف بالدين كمصدر لتحديد هذه النظم فى هذا العرض الذى تقوم به بعض برامج الإذاعة تعلو بالإنسان فوق مستوى النقد وتصل بالإنسان إلى درجة السيادة المطلقة فيما يخطه لنفسه ولمجتمعه ، وتبرر عدم الحاجة إلى شىء آخر سوى عقل الإنسان وفكره ، وفى بعض الأحايين تسخر بالمصادر الأخرى للتوجيه التى تأخذ لنفسها حق توجيه الإنسان ، والذى يأخذ لنفسه حق التوجيه هو الدين وما اشتمل عليه من قيم وتعاليم .

* * *

هذه هى العقبات وتلك هى الحواجز التى توجد فى طريق الشباب إلى الدين ، وهنا تحديد الوسيلة التى يتصل الشباب عن طريقها بالدين فوق إمكانيات الفرد أو بعض الأفراد أو بعض الهيئات ، إن هذه الوسيلة يجب أن تكون جزءا من سياسة الدولة وسياسة المجتمع التوجيهية بحيث تستخدمها الأجهزة المختلفة فى التوجيه وتكون هذه الأجهزة على اختلافها فى الإرسال معبرة عن فكرة واحدة وهدف واحد ، وإن كانت فى صور متنوعة تعبر عن القيم الدينية وعن أثرها فى التوجيه وتبعد فى هذا التعبير عبارات السخرية من هذه القيم التى درجت على أن يقوم عليها عرضها لتلك القيم .

وتكون هذه الأجهزة مساوقة للمدرسة فيما تهدف إليه من تهذيب الناشئة ومساوقة أيضا لما يهدف إليه المسجد من توجيه الرأى العام توجيها سليما . وإذا قلنا هنا المسجد فلا نقصد الأسلوب التقليدى من الترغيب فى الجنة والتنفير من النار وإنما نقصد بالمسجد ذلك المركز الإسلامى التوجيهى الذى يجب أن تشع منه القيم والتعاليم الإسلامية فى صفائها وأصالتها ، وهى القيم والتعاليم التى تتصل بحياة الإنسان فرداً ومجتمعا ، والتى تعطيه دوما الحلول فى ملاءمة نفسه مع أحداث الحياة ومستحدثاتها .

ولكن بجانب هذه السياسة التوجيهية الموحدة فى عرض القيم الدينية هناك طريق آخر يجب أن يسلكه رجال الدعوة إلى الدين كى يتصل الشباب به . ويؤمن بقيمه ويحصل على تمثل هذه القيم فى حياته اليومية . هناك الطريق لمعالجة مشاكل الشباب النفسية . وليست مشاكل الشباب هى مشاكل الجنس . نعم إن الغريزة الجنسية تلعب دوراً رئيسيا فى حياة الشباب فى سن المراهقة ، ولكنها ليست على درجة من الخطورة إذا ما وجد الشباب توجيها سليما وتحديداً للطريق

الذى ينهجه فى حياته ، ويتغلب به على أزمة الحيرة والقلق ، ومن هنا مشاكل الشباب ليست مشاكل الجنس كما ذكرنا بل هى مشاكل تعريف الشباب بالوجهة التى يتجه إليها وإعطاؤه الحل لأزمة القلق والاضطراب عنده .

وأزمة القلق والاضطراب عند الشباب ، أو أزمة الحيرة ترجع فى واقع الأمر إلى تذبذبه ووقوفه بين مرحلتين متقابلتين من حياة الإنسان : مرحلة الطفولة ومرحلة الرشد الإنسانى . وإذا كانت مرحلة الطفولة ينم عنها ميل الإنسان الطفل إلى الحس ووقوعه تحت تأثير المحس من الأحجام والمقادير والألوان والنغمات والأصوات والصور والأشكال — فإن مرحلة الرشد يعبر عنها ميل الإنسان للفكر والمثل والقيم . ميل الإنسان إلى المبادئ وإذا تميزت مرحلة الطفولة بأن يكون الإنسان تابعا لما يدركه فى حسه وشاهده فإن مرحلة الرشد تتميز بخروج الإنسان عن هذه التبعية وباستقلاله وعدم الطواعية لها . إذا كانت مرحلة الطفولة يميزها إغراء الحس للطفل على نحو ما يرى الحس الحيوان فى حركته إذا تخلت عنه قيادة الإنسان — فإن مرحلة الرشد يميزها انجذاب الإنسان إلى المثل والقيم .

هناك فى حياة الشباب فجوة ، هى الفجوة بين مظاهر الطفولة ومظاهر الرشد . هناك فى حياة الشباب حيرة وتردد ، وهى البقاء تحت تأثير الحس أو الخلاص منه والاستقلال عنه وعدم الطواعية لكل ما يحس . هناك فى حياة الشباب تذبذب ، أإلى ماضى حياته وهو الطفولة يسكن وحوله يدور أم نحو حال اكتمال الإنسان ورشده يسير ويتجه ؟ هناك فى حياة الشباب أزمة ، أيبقى فى التبعية والطواعية التى لا خيار فيها ولا حرية أم يستقل ويصبح ذا سيادة فى حكمه وفى تأثر بها .

هذه هى مشكلة الشباب . هذه هى أزمة الشباب . هى أزمة الحدة والقلق والاضطراب بسبب الوقوع بين عاملين قويين متقابلين . وحل هذا المشكل ـ الذى يجب أن يقدمه له حاملو رسالة الدين ـ هو تبصير بالفصل بين المادية والروحية ، تبصيره بالفصل بين حياة الحس التى لطفولته وحياة العقل والقيم التى لرشده . والروحية ليست طلبا للابتعاد عن الحياة المادية وإنما هى فحسب تعريف بالقيم والمثل فى حياة الإنسان بجانب ما تدفع إليه الحياة الحسية من مظاهر الحس التى تغرى الإنسان فى طفولته ويقع هو تحت تأثيرها وإغرائها فترة من الزمن وهى فترة طفولته : الطبيعة والدين كلاهما إذن ضرورى فى حياة الإنسان ، الطبيعة تدفعه نحو إدراك مظاهرها والدين يبصره بقيمة الإنسان نفسه. لا تستطيع الطبيعة أن تبصر الإنسان بقيمة

حياته وقيمة مستواه لأنها ترغب دائما فى أن يكون خاضعا لهـا وواقفا تحت تأثيرها . ولذلك كانت ضرورة الدين فى حياة الإنسان واضحة لأنه سيوقفه على مستواه ، وبالتالى سيخلصه من إغراء الطبيعة وتأثيرها ويجعله سيداً على نفسه وذا سيطرة على الطبيعة . وبذلك يسخرها بدلا من أن تستخدمه هى . وبذلك ينتفع بها بدلا من أن تجعله فى خدمتها ورفيقا لهـا .

وفى واقع الأمر ضرورة الدين فى حياة الإنسان أشد من ضرورة الطبيعة نفسها لأن إنسانيته تطلب من يكشف عنها ويبصره بقيمتها حتى يكون الإنسان فى مكانه من الطبيعة ، وهو مكان المستقل وصاحب الشأن وليس مكان التابع المسخر.

إن تعاليم الدين هى تعريف بالمشاركة الوجدانية وتعريف بالتعاون ، وتعريف بالسلم، وتعريف بتجنب الاعتداء ، وتعريف بالولاء والمـــودة ، وتعريف بالروابط والأخوة الإنسانية ، وتعريف بالتضحية فى سبيل الغايات العليا للوطن والمجتمع . وما يقوم به الدين إذن هو تعريف للقيم الإنسانية لأن القيم الإنسانية ليست أكثر مما يطلب فى علاقة الإنسان بإنسان كإنسان له خصيصة الإنسانية وقد باشر ممارستها فى حياته العملية .

إن الشباب إذا وقف على حدود إنسانيته وعلى قيمته فى الوجود رغب من غير شك فى الـكفاح من أجل تحقيق مستواه الإنسانى ولـكى تكون له قيمته الخاصة كإنسان . وبذلك يصمم ويعزم على أن يحقق هـذه الغاية فى حياته ، وتضيع بعزمه وتصميمه حيرته ، ويذهب قلقه واضطرابه . وبذا تحل مشكلة الشباب ، وحلها هو الـكفاح من أجل هدف سليم .

وليس هناك عوض عن الدين فى تعريف الشباب بحدود مستواه الإنسانى ، وفى الفصل بين المادية والروحية . وليس هناك من عوض فى فلسفة ولا فى دراسة تاريخية ونفسية ولا أى فرع من فروع العلوم الإنسانية الأخرى يستطيع أن يضع له هذا التعريف وضعاً واضحا لا حزبية ولا محدودية فيه .

فالفلسفة لم تسلم من أن تؤمن بالمادة دون المثل الروحية ، كما لم تسلم من أن تؤمن بالمثل دون المـادية ، كما لم تسلم من إنـكار المادية والمثالية معاً « كما فى الفلسفة الصوفية » . وإذا هى لم تسلم من ذلك فهى لا تستطيع أن تقوم المـادية كما هى والروحية كما هى وبالتالى لا تستطيع أن تفصل بينهما . وهى لم تسلم من الضعف السابق فى هذا الجانب أوفى ذاك أوفى كليهما معا ، لأن صانعها هو الإنسان الذى تخرج فى بيئته وخضع لمؤثرات وضعه ومجتمعه . وهو لذلك لا يصلح أن يكون الإنسان العام

الذى يخطط للإنسان طريق توجيهه ويضع له معالم الطريق .

وكذلك الدراسات النفسية والتاريخية والدراسات الإنسانية الأخرى بوجه عام لا تسلم من الضعف فى تخريج الرأى وتفسير الحادث ورصد الملاحظات . وهى لذلك لا تستطيع بدورها أن توجه الإنسانية على مستوى يتجرد من المحدودية أو التأثر بالظروف الشخصية والمحيط الخاص .

* * *

إن مشكلة الشباب ليست مشكلة الغريزة الجنسية وإنما هى مشكلة الإنسانية والمستوى الإنسانى . تلك المشكلة هى : كيف يكون الشباب إنسانا ولا يعود طفلا ؟ كيف يتخلص الشباب من إغراء مظاهر الحس التى سيطرت على مراحل طفولته إلى إدراك القيم التى تمثل مستواه الإنسانى وتصور نضجه واكتماله ؟

هذه هى مشكلة الشباب فى صميمها . وحل هذه المشكلة رهن بما يقدمه الدين له فى تحديد المستوى الإنسانى الفاضل . وما يقدمه الدين فى ذلك مرهون بدوره بعرض علماء الدين ورجاله لتعاليم الدين . وكلما كانوا فى عرضهم متبعين وسيلة العرض الحديث ، وكلما كانو فى فهمهم لتعاليم الدين قريبين من روح الرسالة الإلهية وجوهرها ، كانوا أقرب إلى نفوس الشباب ، كان الشباب على صله بالدين .

إن قيمة الدين خالدة ، وإن ضرورة الدين فى حياة الشباب واضحة ، وإن صلة الشباب بالدين واجبة لضمان حسن توجيهه وتبصيره بمعانى إنسانيته . ولكن الذى يحول بين الشباب والدين هو إما عقبات أو حواجز يضعها الإنسان ، أو قصور فى فهم الإنسان لتعاليم الدين أو جمود من حاملى رسالة الدين عن مسايرة أساليب العرض التى يتطلبها العصر الحديث والعقلية الحديثة .

كيف يتصل الشباب بالدين ؟ جوابه الانسجام بين أجهزة التوجيه المتنوعة فى المجتمع ، وصحة فهم لتعاليم الدين ، وحسن عرض لقيمته ممن جعلوا دعوته رسالة لهم فى حياتهم .

ولا بد من الأمرين معا حتى يتصل الشباب بالدين . وبعبارة أخرى يكافح الشباب فى سبيل القيم والاستقلال والسيادة؟

دكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

نظرات في فقه عمر رضي الله عنه

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

— ٥ —

من المواقف المذكورة فى تاريخ عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه لم يقبل أن يعطى من الزكاة نصيبا للمؤلفة قلوبهم: وقال لهم: لا حاجة لنا بكم فقد أعز الله الإسلام، وأغنى عنكم، فإن أسلمتم وإلا فالسيف بيننا وبينكم.

وقد أثار هذا الموقف كثيراً من التعليقات والبحوث والأسئلة، واختلف الناس فيه بين ناقد لعمر رضى الله عنه، ومؤيد له، ومخرِّج لفعله على وجه متفق مع أصول الفقه.

فمن الذين نقدوا عمر فى هذا بعض علماء الشيعة الإمامية، وخلاصة نقدهم أن سهم المؤلفة قلوبهم ثابت بنص كتاب الله تعالى فى قوله «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ... الآية

فكيف ساغ لعمر أن يجئ إلى نص محكم فيجتهد فيه اجتهاداً يصادمه ويعطل حكمه؟

وهل يجوز الاجتهاد المبنى على الاستحسان العقلى أو العلة المستنبطة بالظن فى مقابل مثل هذا النص الواضح؟ ثم إن الحكم بعدم حاجة الإسلام إلى التأليف غير مسلم لعمر «فإننا لو أمنا شر المؤلفة قلوبهم فى عهد ما فإن دخولهم فى الإسلام بسبب إعطائهم لا ينقطع بذلك بل ربما اشتد بقوة سلطان الإسلام، وكفى بهذا الأمل موجبا لتألفهم بالعطاء، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤلف بعطائه هذا أصنافا متعددة: صنفاً ليسلموا ويسلم قومهم بإسلامهم، وصنفا كانوا قد أسلموا ولكن على ضعف فى الإيمان فيريد تثبيتهم باعطائه، وصنفاً يعطيهم لدفع شرهم؛ فلو فرضنا أنا أمنا شر أهل الشر منهم؛ فليعط هذا الحق لمن يرجى إسلامه أو إسلام قومه، ولمن يقوى إيمانه ويثبته الله عليه بسبب هذا العطاء، تأسياً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأحبُّ العباد إلى الله تعالى المتأسى بنبيه، والمقتفى أثره، على أن قوة الإسلام تلك التى قهرت عدو المسلمين وأمنتهم من شره قد تغيرت إلى الضد مما كانت عليه فاستحوذت

عليهم الأجانب فاضطرتهم إلى تألفها ومصانعتها بالعطاء وغيره كما هو المشاهد بالعيان فى هذا الزمان وما قبله ، وبهذا يتبين أن إسقاط سهم المؤلفة قلوبهم يوم كان الإسلام قويا ، إنما كان عن اغترار بحالتهم الحاضرة فى ذلك الوقت ، لكن القرآن العظيم إنما هو من لدن عليم حكيم »[1] .

وهذا النقد يتلخص فى نقطتين :

إحداهما : أنه لا يجوز الاجتهاد فى موضع النص ، لأن ذلك يؤدى إلى مصادمة النصوص بمخالفتها أو وقفها .

والثانية : أن رأى عمر فى استغناء الإسلام عن التأليف غير مسلم فالإسلام محتاج إلى التأليف حتى فى عهد قوته .

ونحن مع مخالفتنا للشيعة الإمامية فى هذه المسألة كما سنذكر فى هذا الفصل نود أن نلفت القراء من باب الإنصاف إلى الروح الذى يبدو فى هذا النقد ، فإنه روح الاستمساك بالنص والغيرة عليه ، والمناضلة دونه ، وعدم قبول الخروج عنه بمجرد الاستحسان والظن ، ولاشك أن هذا الروح من شأنه أن يؤنس إخوانهم أهل السنة إلى سلامة قصدهم ، ويبطل ما يتقوله أهل الرغبة فى إفساد ذات البين بين المسلمين .

(١) ص ٢٣ من كتاب « النص والاجتهاد » لمؤلفه المرحوم الشيخ شرف الدين الموسوى الشيعى الإمامى

وهناك من يؤيدون عمر ويدافعون عن تصرفه هذا ، لكنهم يختلفون فى منهج هذا التأييد .

فمنهم من يبيح للمجتهد أن يجتهد فى كل شىء حتى فى تقييد النص ووقف العمل به متى استوفى شروط الاجتهاد المبينة فى كتب أصول الفقه ، وهؤلاء هم قوم من الباحثين المعاصرين ظنوا إن الانطلاق بالشريعة إلى ميادين الاجتهاد الحر المطلق من القيود من شأنه أن يحل مشاكل المسلمين ، وأن يقنع الناس بمرونة الإسلام ومطاوعته للمصالح ، وتجاوبه مع العصور والحضارات والمدنيات ، وقد كتب المرحوم الدكتور احمد أمين فى ذلك ، ومن قوله « والذى يحل مشاكلنا هو فتح باب الاجتهاد بعد أن أغلقه العلماء ...والاجتهاد الذى نريده هو الاجتهاد المطلق لا الاجتهاد فى المذهب ، فهو يشمل كل شىء حتى تقييد النص ووقف العمل به متى استوفى المجتهد شروط الاجتهاد » ثم قال : « وإمامنا فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه » وذكر عنه أحكاما مصدرها ذلك الاجتهاد ، منها عدم إعطاء المؤلفة قلوبهم سهمهم من الزكاة . . . »[1]

(١) الاجتهاد فى الإسلام — مقال منشور بالعدد الثانى من السنة الثالثة من مجلة رسالة الإسلام ص ١٤٦ .

ويقول الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه المسمى (الديمقراطية) ص ١٥٠ .

« ترك عمر بن الخطاب النصوص الدينية المقدسة من القرآن والسنة عندما دعته المصلحة لذلك ، فبينما يقسم القرآن للمؤلفة قلوبهم حظا من الزكاة ويؤديه الرسول وأبو بكر ؛ يأتى عمر فيقول : لا نعطى على الإسلام شيئا . . إلخ » (١) .

ويقول الأستاذ محمود اللبابيدى :

إننا نجد فى كل عصر على الأقل إماما من الأئمة أو أكثر يذهب إلى طريقة جديدة فى التخريج بقصد الوصول إلى التشريع العام لرفع الحرج عن الأمة ، ومن الشواهد التاريخية على ذلك نجد أن عمر بن الخطاب أول من مشى إلى التشريع العام المباشر ، فاعتبر النصوص التشريعية معلولة بعلل مقصودة ، فإذا زالت منها هذه العلل ؛ اقتضى ذلك زوال حكمها ، وتبعا لهذه النظرية وجدت القاعدة العامة التى تقول « العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما » وقالوا : إن عمر « نسخ » نصوصا من القرآن وعددوها ، منها سهم المؤلفة قلوبهم الذى فرضه الله لهم بنص قاطع فى سورة التوبة « إنما الصدقات للفقراء و ... والمؤلفة قلوبهم . . فريضة من الله . . إلخ » .

(١) ص ١٥٠ من كتاب الديمقراطية المشار إليه.

ثم قال « إن ذلك هو من قبيل تعليق النص أو إيقافه لمصلحة عارضة متى زالت عاد العمل بالنص ، وما فعله عمر بن الخطاب ومن جاء بعده من الأئمة يجرى هذا المجرى من تعليق النصوص ليس إلا ، ولا ينسخها النسخ المعروف » (١) .

فهذا كله تأييد لمبدأ فهموه من صنيع عمر فى شأن المؤلفة قلوبهم ، يدور حول ارتباط النصوص بعلل وجواز وقفها إذا زالت هذه العلل ، وفتح باب الاجتهاد فى ذلك حتى يمكن للشريعة أن تكون مطاوعة مرنة . وفى ذلك يقول العلامة الشيخ شرف الدين الموسوى رحمه الله تعالى - وهو من علماء الشيعة الإمامية كما ذكرنا - : « سبحانك اللهم ! إذا صح للمجتهدين ذلك فعلى أحكام الكتاب والسنة ونصوصهما السلام! » (٢) .

وقد سلك الأستاذ معروف الدواليبى منهجا آخر فى تأييد عمر إذ يقول فى كتابه « أصول الفقه » :

« ولعل اجتهاد عمر رضى الله عنه فى قطع العطاء الذى جعله القرآن الكريم للمؤلفة قلوبهم كان فى مقدمة الأحكام التى قال بها عمر تبعاً لتغير المصلحة بتغير الأزمان رغم

(١) انظر رسالتنا « السلطة التشريعية فى الإسلام » ص ١٥ ، وفيها كلام الأستاذ اللبابيدى

(٢) أنظر هامش (١) فى ص ١٤٨ من كتاب النص والاجتهاد .

أن النص القرآنى لا يزال ثابتاً غير منسوخ : والخبر فى هذا أن الله سبحانه وتعالى فرض فى أول الإسلام وعندما كان المسلمون ضعافا عطاء يعطى لبعض من يخشى شرهم من أموال بيت المال الخاص بالصدقات فقال :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » . .

وهكذا قد جعل القرآن الكريم المؤلفة قلوبهم فى جملة مصارف الصدقات ، وجعل لهم بعض المخصصات على نحو ما تفعله الدول اليوم فى تخصيص بعض النفقات من ميزانياتها للدعاية السياسية ... غير أن الإسلام لما اشتد ساعده ، وتوطد سلطانه ؛ رأى عمر رضى الله عنه حرمان المؤلفة قلوبهم من هذا العطاء المفروض لهم بنصوص القرآن ، وليس معنى ذلك أن عمر قد أبطل أو عطل نصاً قرآنيا ، ولكنه نظر إلى علة النص لا إلى ظاهره ، واعتبر إعطاء المؤلفة قلوبهم معللا بظروف زمنية أى مؤقتة وتلك هى تألفهم واتقاء شرهم عند ما كان الإسلام ضعيفا ، فلما قويت شوكة الإسلام ، وتغيرت الظروف الداعية للعطاء ؛ كان من موجبات النص ومن العمل بعلته ، أن يمنعوا من هذا العطاء »[1].

هذا كلام الأستاذ الدواليبي ، وخلاصته أن هذا الحكم معلل ، ومتى ثبت ذلك فهو بمثابة أن يقول المشرع : جعلت للمؤلفة قلوبهم سهما من الزكاة فى حالة احتياج الإسلام إليهم أما إذا استغنى الإسلام عنهم فلا يعطون. فالإعطاء فى الحالة الأولى بالنص ، والحرمان فى الحالة الثانية بالنص ، فلا تعليق ولا نسخ

ويرد الإمامية على هذا التخريج بما يأتى[1] :

أولا : إن ظاهر أخذ وصف فى موضوع حكم ، دخالته فى الحكم وعليته له لا شىء آخر ، فالتأليف علة للحكم لا الحاجة إليه ، ولا هو فى ظرف الحاجة ، فالموضوع موجود بوصفه ولا معنى لرفع حكمه وقطع استمراره الزمانى إلا النسخ ، وهو من شئون المشرع لا يجوز لأحد سواه .

ثانيا . لو سلم ذلك وأن التأليف فعل مصلحى لا يلزم إلا فى ظرف الحاجة ، ولكن الحاجة المعتبرة فيه إنما هى بنظر المشرع الحكم ، فإن الأحكام الشرعية ـ كما هو الحق عند الإمامية ــ تدور مدار المصالح والمقاصد الواقعية ــ إن فى الحكم أو فى الموضوع ــ وذلك لا يكون إلا بنظر المشرع المطلع

(١) ص ١٣٩ من كتاب أصول الفقه للأستاذ معروف الدواليبى .

(١) أنظر ما كتبه الأستاذ العلامة الشيخ محمد على ناصر من علماء الإمامية بلبنان الجنوبى فى مقاله المنشور بالمجلد الرابع من مجلة رسالة الإسلام ص ١٨٤

على الواقع ، والخبير بعواقب الأمور ، لا ينظر غيره مهما كان شأنه .

ومن الناس من يسلك مسلكا آخر فى تخريج صنيع عمر فيقول : إن عمر لم يخالف الآية حين لم يعط المؤلفة قلوبهم يومئذ ، فإن الله عز وجل إنما جعل الأصناف الثمانية فى الآية مصارف للصدقات على سبيل حصر الصرف فيها خاصة دون غيرها ، لا على سبيل توزيعها على الثمانية بأجمعها ، وعلى هذا فمن وضع صدقاته كلها فى صنف واحد من الثمانية تبرأ ذمته كما تبرأ ذمة من وزعها على الثمانية ، وهذا مما أجمع عليه المسلمون وعليه عملهم فى كل خلف منهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأى بأس بما فعله عمر ؟

ولكن هذا مناف لأصل القضية فإن الثابت المروى أن عمر أبى أن يعطى المؤلفة قلوبهم ، واحتج بأن الإسلام قد عز وأن الله أغنى عنهم ، فهو لم يقع اكتفاء ببعض الأصناف الثمانية ، ولكن منعا مقصودا لواحد منها .

* * *

بعد هذا نذكر رأينا فى هذه المسألة فنقول : إن حقيقة الأمر فى ذلك أن عمر والصحابة الذين وافقوه ، ومن جاء بعدهم من العلماء ، لم يخرجوا عن دائرة النص ولم يعلقوه ، وإنما فهموا أن الله سبحانه وتعالى لما قال « والمؤلفة قلوبهم » أثبت لفريق من الناس نصيبا من الزكاة بوصف معين ، هو مناط الاستحقاق ووجوب الإعطاء ، ذلك هو كونهم « مؤلفة قلوبهم » ، ولما كان التأليف ليس وصفا طبيعيا يحدث للناس كما تحدث الأعراض الطبيعية بل هو شىء يقصد إليه ولى الأمر إن وجد الأمة فى حاجة إليه ، ويتركه إن وجدها غير محتاجة إليه ، فإذا اقتضت المصلحة أن يؤلف أناسا وألفهم فعلا ، أصبح الصنف موجوداً فيستحق ، وإذا لم تقتض المصلحة ذلك فلم يتألف أحدا ، فإن الصنف حينئذ يكون معدوما ، فلا يقال إنه منعه لأنه ليس معنا أحد يجرى عليه الضمير البارز فى « منعه » ، وبذلك يتبين أن النص لم يعطل ولم يعلق ، وإنما المحل هو الذى انعدم ، فلو أن ظرفا من الظروف على عهد عمر أو غيره من بعده قضى بأن يتألف الإمام قوما فتألفهم ، لأصبح الصنف موجودا فلا بد من إعطائه .

وقد رد على هذا أن المؤلفة قلوبهم كانوا موجودين فعلا على عهد عمر ، وهم الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تألفهم ، فعمر منعهم مع وجودهم ، فلا يقال إذن إن عدم الإعطاء لعدم وجود الصنف ، وإنما هو لمعنى مصلحى قدره عمر ، وهو أن الإسلام قد أعزه الله ولم يعد هناك سبب

للتأليف ، وهذا يتفق ما يقرره بعض العلماء من أن إعطاء المؤلفة قلوبهم حكم معلل بحاجة الإسلام إلى التأليف ، فإذا انتفت علته انتفى لأن الحكم المعلل يدور مع علته وجودا وعدما .

قد يرد علينا هذا ، وربما كانت عبارة عمر المروية فى هذا الشأن وهى قوله « إن الله قد أعز الإسلام وأغنى عنكم » مؤيدة لهذا الإيراد .

ونقول فى الرد على ذلك : إن قول عمر للمؤلفة الذين كانوا يأخذون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قد أعز الإسلام وأغنى عنكم » معناه : أن رسول الله قد ألف قلوبكم لمصلحة الإسلام فصار لكم هذا الوصف وصف المؤلفة قلوبهم ، فأعطاكم ، لكن هذا الوصف لم يستمر لكم إلى الآن لأن الإسلام قد عز واستغنى فزالت الحاجة إلى التأليف فلم يبق بيننا « مؤلفة قلوبهم » ، بمعنى أنهم موصوفون بهذا الوصف الآن ، وإن كانوا « مؤلفة قلوبهم » باعتبار ما مضى ، وهذا الوصف مما يتغير ويتبدل كوصف الفقر ، فقد يكون المرء فيما مضى فقيراً ، فيكون له فى الزكاة نصيب ، ثم يصبح غنيا فلا يكون له فيها نصيب ؛ ولا ينبغى أن يتوهم أن هؤلاء الناس استحقوا هذا الوصف إلى آخر عمرهم أو أن الإمام يجب عليه أن يعدهم كذلك إلى آخر عمرهم ، وإنما الأمر أمر تقدير المصلحة فى نظر الإمام ، فإن أداه اجتهاده إلى أن يتألف فأعطى ، وإلا فلا .

وإذن فليس معنا نص وقف العمل به أو علق أو نسخ أو عدل ، ولكن معنا نص معمول به لأن معناه مقيد من أول الأمر بالقيد الطبيعى الذى لا يعقل انفكاكه عنه ، كأنه قيل : والمؤلفة قلوبهم إن وجدوا ، كما يقال مثل هذا فى الفقراء والمساكين مثلا : إنما الصدقات للفقراء إن وجد فقراء ، والمساكين إن وجد مساكين ، وفى الرقاب إن وجدت رقاب مملوكة .

فإذا كان هناك من يريد أن يجادل عمر رضى الله عنه فى أن التأليف أى إيجاد صنف المؤلفة قلوبهم واجب على الإمام فى كل حال فهذا جدال فى موضع من مواضع الاجتهاد وليس فى محل النص ، والفرق بين وجوب التأليف ، ووجوب إعطاء المؤلفة قلوبهم حين يكون هناك تأليف ، واضح ، فالأول أمر مصلحى يختلف فيه النظر ، والثانى حكم نصى لا يمكن التصرف فيه بالإبطال أو التعديل أو التعليق .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

رجل الدين بين المسايرة والمكابرة

للأستاذ محمود الشرقاوى

لابن الرومى جريح الشاعر العربى المبدع مطلع لقصيدته فى رثاء أبى الحسين يحيى بن عمر - من آل أبى طالب - لا أجد أصدق منه استهلالا لحديثى عن « رجل الدين بين المسايرة والمكابرة » وهذا البيت هو :

أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج
طريقان شتى : مستقيم وأعوج

وكذلك رجل الدين فى العصر الحديث : أمامه طريقان ، أحدهما أن يساير الحياة ويندمج فيها ويتعرف مايطرأ عليها من التحول أو يجد فيها من التطور ، وثانيهما أن يكابر هذه الظاهرة الطبيعية الضرورية من التطور والتحول ويستدبر الناس معتقدا أن ذلك كفيل بإصلاح حالهم ودفع الشر عن حياتهم ومجتمعهم .

فأى السبيلين هو المستقيم الذى يستطيع رجل الدين أن يؤدى عن طريقه واجبه للحياة وواجبه للدين ولنفسه أيضاً ... ؟

دلالة التاريخ وعبرة الأحداث هى التى نستطيع عن طريقها أن نجيب :

ولكن قبل أن نبدأ الحديث عن دلالة التاريخ وعبرة الأحداث ، نجد أنه لا بد من كلمة نقولها فى موقف رجل الدين حيال ما يستجد من الآراء ومن التحول فى حياة الناس ومجتمعهم .

* * *

الدين ، أو على وجه الدقة مفاهيم رجال الدين عن العقيدة ، تلقى فى العصر الحديث ، فى الغرب والشرق على السواء ، محنة قاسية . كما تجد هذه المفاهيم نفسها أمام طوفان من المذاهب والآراء قد لا يعنى أصحابها أنفسهم بالالتقاء مع المفاهيم الدينية ، بل لعل كثيراً منهم يجد فى نفسه رغبة خاصة ، أو يستر فى ضميره غاية خاصة ليكون رأيه هذا أو مذهبه مصادما للمفاهيم الدينية كما يعتقدها رجل الدين ، ولو لم تصادم الدين نفسه ، كأنما بين أصحاب هذه المذاهب والآراء وبين « رجل الدين » خصومة خاصة .

فما هو موقف رجل الدين عندنا فى الشرق إزاء هذه الأوضاع والمذاهب

والآراء . . . ؟ بعضهم ، أو أكثرهم وسوادهم ، يقف موقفا سلبياً ، كل جهده أن يتكلم أو يكتب أو يعظ ليقول إن العالم قد فسد ، وإنه يسير فى طريق الشر والإثم ، وإنه يجب على الناس أن « يعودوا » إلى ساحة الخير والبر والسلام والحق : أى أن يعودوا — لا أقول للدين — وإنما أقول لمفاهيم خاصة قائمة فى أذهان هؤلاء الخطباء والواعظين عن الدين ، ومدركات محدودة معينة سيطرت على عقولهم وعواطفهم . فالدين نفسه ، كحقيقه وجوهر ، لا يمكن أن يتأثر بتطور الحياة وتقدمها الذى جعله الله ناموسا لها .

ولكنى أعتقد أن هذه الدعوة خاطئة من أساسها ، فليس من الممكن أن « يعود » العالم إلى شىء مرّ به ، أو إلى طور تخطاه وتجاوزه فى طريق سيره الدائب المثابر ، وليس من الممكن أن « يرجع » الناس إلى هذه المفاهيم الخاصة عن الدين ، ولا إلى المدركات المعينة المحدودة القائمة فى أذهان هؤلاء الدعاة وعواطفهم . ليس من طبيعة الحياة ولا من الخير لها أن « تعود » ، وإنما طبيعتها التى لا تتحول والتى أرادها الله لخيرها هى أن تسير وتتقدم .

بعض رجال الدين عندنا ، فى الشرق ، أو أكثرهم يستدبرون الحياة ويتطلعون على الدوام إلى الماضى يرون أنه المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه حياة الناس وسلوكهم ومجتمعهم . والمثل الأعلى الذى نجده من فهم الدين نفسه فهما قويما هو بلا شك على هذا الوضع ، وبهذه المثابة . ولكن حياة الناس فى الماضى الذى ينظرون إليه ويتطلعون لم تكن فى الجملة كذلك عند من يدرسها ويتأملها من غير أن يتأثر بعاطفة ما .

وإلى هؤلاء الملتفتين إلى الماضى والمتعلقين به تعلقا عاطفيا نسوق كلمة حكيمة صادقة قالها رجل لم يكن من رجال الدين ، بل لقد نال فى عصره منهم كل سوء ونكر ، ولو أنه فى ضميره وإحساسه ودعوته أيضا لم يكن بعيدا عن جوهر الدين ولا عن فهمه فهما مستقيما . هذا الرجل هو قاسم أمين ، وكلمته الحكيمة الصادقة عن الماضى والمستقبل هى : « أى زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال إنه « نموذج الكمال البشرى » . ؟

الكمال البشرى لا يجب أن نبحث عنه فى الماضى ، بل إن أراد الله أن يمن به على عباده فلا يكون إلا فى مستقبل بعيد جداً » .

* * *

ليس أمام رجال الدين إذن إلا أن يسيروا هم مع الحياة - مع الاحتفاظ بجوهر رسالاتهم وغاياتها - ليس لهم إلا أن يسيروا مع الحياة ،

لا أن يحاولوا تعويقها أو التصدى لها والوقوف موقف العناد والمكابرة فى طريق سيرها وتقدمها . فإنها فى هذه الحالة ستتخطاهم وتتركهم ؛ ثم لا يجدوا أحداً معهم ولا قريبا منهم . سيجدون أن جميع الأسباب والوشائج قد تقطعت بهم ، وانفصم ما بينهم وبين الناس والحياة ، وأنهم لم يبق لهم فيها أثر ، ولا يسمع لهم فيها صوت ، وليس لهم فى حياة الناس مكان ، ولا يحس بوجودهم أحد ، ولا يندم نادم على فراغ الحياة منهم ومن دعوتهم ووعظهم . ليس أمام أصحاب الديانات المدركين لحقيقة أهدافها وغاياتها إلا أن يطوّعوا مدركاتهم عن الدين ، ومفاهيمهم عنه ، يطوّعوها حتى تساير حياة الناس وتطورات زمنهم وحاجات بيئاتهم وثقافتهم . وأن يشاركوا بفهم وإدراك وسماحة فى تطوير مجتمعهم فى الجانب الذى لا غنى عنه للبشرية ، وهو الدين . وسنجد فى هذا البحث أن الإسلام وما فيه من مرونة وسعة كفيل بتحقيق ذلك .

إما المسايرة وإما المكابرة . والنهاية التى ينتهى إليها كل طريق واضحة بينة لمن يتأمل ويدرك ويخلص ويتشجع فينطق بكلمة الحق فهى وإن أغضبت المتزمتين والسذج والبسطاء والمتجرين بالعقيدة ، إن هى أغضبت هؤلاء وأزعجتهم ، فإنها سترضى المخلصين الواعين من المؤمنين . وعن طريقها يستطيعون أن يُسهموا فى تقدم الحياة وتطويرها ورعاية جانب الخير والإيمان فيها . وهم بذلك يحققون الغاية من الإبقاء على العقيدة فى ضمائر الناس وقلوبهم ، وفى قوانينهم ونظمهم وطرائق حياتهم أيضا ؛ وهذه الغايات هى التى تبرر وجود رجل الدين فى الحياة .

وهذه المقدمة أو « الكلمة » أعتقد أنها بديهية مسلمة عند من يدرك ؛ ولكن بعض القوم ما يزال يحتاج للمقدمات البديهية المسلمة .

* * *

الإسلام ، بما فى تشريعه من مرونة وسعة ورعاية لمصالح الناس ومطاوعة لتطور الزمن والبيئة كفيل بتحقيق هذه المسايرة . ولم تكن المكابرة التى جعلت الدين ، فى البلاد الإسلامية ، يعيش على هامش الحياة ويكتفى منه الناس ، المسلمون بهذه الحياة على الهامش — هو ورجاله — لم تكن هذه المكابرة من الدين نفسه ولكنها كانت من رجال الدين . وهذه كلمة أخرى هى التى نريد أن نقولها فى دلالة التاريخ وعبرة الأحداث ثم ننتقل منها إلى « المطاوعه » و « المسايرة » التى تميزت بها الشريعة الإسلامية .

* * *

عند ما دخل نابليون مصر أدخل على نظمها الاجتماعية وعلى تشريعاتها قوانين ، للشريعة الإسلامية حيالها أحكام ومبادئ ؛ ولكنه لم يخطر بباله أن يعرف رأى الشريعة فى نظمه تلك وتشريعاته ، ولا أن يستشير « العلماء » فيها مع أنه كان حريصا على إبراز مظاهر الاحترام لهم وتملقهم كما كان حريصا على مجاراة الشعور الدينى العام حتى إنه أعلن فى منشوره الذى أذاعه بين الناس قبل دخوله الإسكندرية أنه صديق الإسلام وحليف خليفة المسلمين بل أطلق إشاعة ترضى سكان مصر وتغبط نفوسهم بأنه أسلم وسيقيم فى القاهرة مسجداً ليس له نظير فى جميع بلاد الإسلام .

لم يستشر نابليون رجال الدين فى قوانينه تلك لأنهم — على رغم مكانتهم بين الناس وتقديرهم لهم — لم تكن عندهم الصلاحية لمسايرة ما يمكن أن يفيد الناس من هذه القوانين ولا يخرج فى نفس الوقت عن حدود الشريعة وقواعدها ، أقول حدود الشريعة لا تلك الآراء الفقهية المذهبية الضيقة التى كانوا عاكفين عليها يظنون خطأ أنها شريعة الإسلام . وقد جاء كثير من نظم نابليون وتشريعاته التى أدخلها فى مصر متفقة مع أصول الشريعة الإسلامية ، ولكن ذلك جاء بمحض المصادفة والاتفاق . ولأن أصول هذه الشريعة فيها كل المطاوعة والمسايرة التى تتحقق بها صوالح الناس على تباينها واختلافها .

وعندما أراد إسماعيل بعد ذلك أن يجعل مصر قطعة من أوربا كما قال ، سلك المسلك نفسه حيال رجال الدين ، فنقل إلى القانون المصرى مبادئ القانون الفرنسى والسويسرى دون أن يستأذن أو يستشير العلماء . والسبب واحد فى الحالتين موقف نابليون وموقف إسماعيل .

وكان من نتيجة الخلطة بين الأوربيين والمسلمين فى دار الخلافة العثمانية إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن اشتبكت العلاقات التجارية والمعاملات المالية والقضائية بين الفريقين فأراد جماعة من وجوه الآستانة مجاراة العصر بالتطور التشريعى فى بعض الفروع الإسلامية التى تتعلق بذلك ، واستطاع نفر من الأحرار أن يستميل بعضا من علماء دولة الخلافة حتى قاموا بوضع قانون « التنظيمات » الذى عرف بعد ذلك « بالمجلة العدلية » ، وكان ذلك العمل أول محاولة إصلاحية فى العصر الحديث لتحقيق المسايرة بين التشريع الإسلامى وضرورات الحياة المعاصرة ، وكان ذلك فى سنة ١٨٣٩

(١٢٥٥ هـ) ، واستطاع هـذا الفريق من الأحرار أن ينال موافقة الخليفة بعد موافقة شيخ الإسلام فى الدولة .

وكانت هذه المحاولة فى « قانون التنظيمات » و « المجلة » تحتوى قسطاً صغيراً من التحرر الذهنى والاجتهاد فى الشريعة ، أى المسايرة ، فأدخلت فى باب التعزير الحكم بالتغـــريم والسجن على درجات متفاوته لجرائم معينة ، واعتبر فيهـا نظام « الكمبيالات » المالى و « خطاب الاعتماد » .

وقد كانت هـذه الخطوة الصغيرة شذوذاً فى التفكير الدينى يوم ذاك ، لأن الذين قاموا بها لم يكونوا من « العلماء » بل من الأحرار المدنيين الذين استطاعوا أن ينالوا موافقة العلمـاء ولكنهم لم ينالوا رضاهم القلبى على هذه الموافقة ، لذلك لم تأخذ هـذه الخطوة سيرهـا الطبيعى ، وكان من نتيجة ذلك أن سارت الحياة المدنية فى دار الخلافة إلى حيث تريد، وانفردت بالتشريع والتقنين والاقتباس والنقل عن القوانين الوضعية المدنية كقانون نابليون والقانون السويسرى ، وبقى رجال الفكر الدينى فى تركيـا يضيعون جهدهم ويعنّون نفوسهم بالغضب والثورة لضياع دين الإسلام واستنزال غضب الله والملائكة على الذين هجروا شريعة الله وبدلوها .

ومثل آخر من مصر : نجد أصحاب الحكم فيها — لبعد قلوبهم عن الدين — ويأسهم من مسايرة رجاله ، نجـد أصحاب الحكم فى مصر فى القرن المـاضى يضعون سلطة الدولة وسلطانهـا فى يد نوبار باشا الأرمنى لوضع التشريعات الصالحة لحياة مصر وحياة الأجانب فيها خاصة .

وفى مصر كذلك حاول جماعة من أحرار الفكر المدنى الذين استناروا فى أوربا ولم ينسوا دينهم وقوميتهم ، حاولوا الانتفاع بالأزهر وترويض أهله فى معالجة العـلوم الفقهية واللغوية ودراستهـا على أساليب جديدة وفهم جديد يمكنهم من تولى القضاء وتدريس اللغة فى المدارس . فلمـا كابروا واستعصوا أنشأ هؤلاء الرجال مدرسـة دار العلوم ثم مدرسـة القضاء الشرعى وعدلوا بهما عن الأزهر .

ولمـا احتاجت المحاكم المصرية إلى تقنين الفقه وصوغه فى مواد تشريعية كان الذى قام بهذه الصياغة رجل مدنى هو قدرى باشا .

وما لنا لا نقول إن مكابرة رجال الفكر الدينى فى تركيا أول هـذا القرن ومقاومتهم لكل فكرة مقاومة الصد والجهالة هى التى كانت سببا فيما رأينا من خروج هذه الدولة لا على رجال الدين وحـدهم ، بل على الدين نفسه . . . ؟

لقد كان موقف المكابرة هـذا سببا من

أقوى الأسباب لهذا الخروج ولو أنه ليس السبب الأوحد .

وليست الشريعة الإسلامية ولا رجالها هي وحدها التي تعرضت لهذا الموقف ، على فرق ما بينها وبين الشريعتين المسيحية والموسوية في الصلاحية والمطاوعة واليسر ، فقد وجدت الشريعة اليهودية نفسها أمام هذا الموقف أكثر من مرة في تاريخها ، وكان من هذه المواقف اصطدامها بالشريعة الرومانية. يومئذ لم يجد أحبار اليهود لأنفسهم بدأ من وضع فتاوى و تفسيرات للتوراة هي التي عرفت بعد ذلك « بالتلمود » وأصبحت هذه التفسيرات والفتاوى هي مرجعهم للحكم والتقاضي .

وكذلك وجدت الشريعة المسيحية نفسها في مثل هذا الموقف فوضع آباء الكنيسة الرومانية قانونا كنسيا عرف باسم « شريعة القانون » ثم اصطدم هذا القانون نفسه بالقانون الروماني « وشريعة العادات الموروثة » في القرون الوسطى حتى جاء القرن الثامن عشر برجاله المقتحمين وثوراته فزحزح الكنيسة وتشريعها وقانونها عن مكانها وأخرجها من حياة الناس وتشريعهم .

ولكن هذا الموقف وهذه النتيجة لا تصدق ويجب ألا تصدق بالنسبة للشريعة الإسلامية

* * *

وأعتقد أننا قد بينا « دلالة التاريخ وعبرة الأيام » بما فيه الكفاية ، وبقي أن نبين ما في شريعة الإسلام من المسايرة والمطاوعة واليسر والسعة لكل ما يشمل تطورات الحياة ويحقق للناس سعادتهم أفرادا وجماعات في كل زمن وبيئة .

محمود الشرقاوي

من نوادر الأعراب

• قيل لأعرابي :

أتحب أن يكون لك مائة ألف وأنت أحمق ؟

قال : لا .

قيل : ولم ؟

قال : أخشى أن يجني عليّ حمقي جناية فتذهب مني ويبقى حمقي ... !

• وقال أبو جعفر لرجل من البادية :

أما عندكم في البادية طبيب ؟

فقال : حمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار .

مُثُلٌ عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمّد يوسف موسى

— ٢ —

عرضنا فى الكلمة الأولى إلى بعض ماضربه لنا القادة والهداة من رجالات العرب والإسلام من مثل رائعة فى هذه النواحى : صدق الإيمان وقوة اليقين ، الثبات على العزم والإحساس بالمسئولية ، واليوم نعرض لبعض هذه المثل الفريدة فى تاريخ الإنسانية فى نواح أخرى ، لعل فى ذلك تبصرة لقوم يعقلون ، وما يقوى إيماننا بديننا وتعاليمه ، وبقوميتنا العربية المجيدة ، وبأمتنا التى هى خير أمة أخرجت للناس .

العدل :

أقام الإسلام المجتمع على دعائم قوية ثابتة لا يستقيم أمر الأمة بدونها ، ومن هذه الدعائم العدل بين الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وأديانهم وطبقاتهم ، وبلا فرق بين القريب منهم وغير القريب من الحاكم أو القاضى .

وهو عدل مثالى لا نراه فى دين أو مجتمع آخر ؛ فإنه ما ينبغى أن يتأثر بالقرابة أو الصداقة ، أو الجاه والنفوذ والسلطان ، كما لا يجوز أن يتأثر قليلا أو كثيراً بالبغض أو العداوة ، أو لأى سبب آخر غير هذا وذلك كله .

ويكفى فى بيان هذا أن نذكر هذه الآية من سورة النساء : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

ثم هذه الآية من سورة المائدة ، فهى مكملة ومؤكدة لما جاء فى الآية للسابقة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط . ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

ومن هاتين الآيتين يتبين لنا أن العدل المطلق فرض على المؤمن بالله ودينه وشريعته إذا كان صادق الإيمان ؛ ولهذا بدأ الله تعالى الخطاب فيهما بقوله : « يأيها الذين

آمنوا » ، أى إن هذا هو شأن المؤمن حقا ولهذا أيضا نجد من القرآن تحريم الظلم بكل أنواعه تحريما شديدا ، والوعيد بالعقاب الأليم للظالمين .

وبعد ذاك ، يروى الرسول الصادق الأمين عن الله تعالى أنه قال فى حديث قدسى طويل « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته محرما عليكم ، فلا تظالموا » .

وهذا العدل الذى أمر به الإسلام هو العدل الشامل للناس جميعا كما قلنا آنفا ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو عربى وأعجمى ، ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهداً ، أو تنقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا خصمه يوم القيامة » ، وكذلك جاء عنه أنه قال : (من ظلم ذمياً كنت خصمه).

وبعد الرسول صلى الله عليه وسلم ترى الخليفة الأول يقوم فى الناس خطيباً بعد أن تمت بيعته فيقول فيما قال : (الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه) ، وهكذا ينص الصديق على وجوب العدل الشامل فى أول خطاب له جعله دستوراً لحكمه ، وهكذا كان رضى الله عنه حقيقة طول مدة خلافته .

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يضرب لنا بسيرته فى أهله والمسلمين عامة أحسن المثل فى العدل ، اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، واتباعا لما أمر به الإسلام .

يروى الإمام شمس الدين الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ ، فى كتابه « تاريخ الإسلام » ، أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رجع من بعض الغزوات وقد ابتاع من الغنيمة بأربعين ألف درهم ، فلما قدم على أبيه أنكر عليه ما فعل ؛ إذ لعل أمير الجيش قد باع له بأرخص مما يبيع لغيره لكونه ابن أمير المؤمنين ،ولم يجد شيئا قول ابنه له بأنه قد اتجر كما يتجر غيره .

ثم قال له : إنى قاسم مسئول ، وإنى معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش ، لك ربح الدرهم درهم . ثم دعا التجار فاشتروا ما كان معه بأضعاف ما دفع فيه ، فأعطاه ثمانين ألفا ودفع بالباقى إلى بيت المال ليقسمه بين الناس مع سائر الغنيمة !

ويروى الإمام البخارى فى صحيحه أن عمر ابن الخطاب قسم ثيابا بين بعض نساء أهل « المدينة » فبقى منها ثوب جيد ، فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عندك ، يعنون أم كلثوم بنت على ، فقال عمر : أم سليط أحق به (وهى من نساء الأنصار وممن

بايع رسول الله) ؛ فإنها كانت تزفر (أى تحمل) القرب يوم أحد . فأى عدل فى قسمة المال بعد هذا ؟ !

ويذكر ابن سعد فى طبقاته ، وكذلك غيره من مؤرخى الإسلام ورجالاته ، أن عمر لما أراد إنشاء « ديوان العطاء » استشار بمن يبدأ ، فقيل له : إبدأ بنفسك فأنت الخليفة ، ولكنه رأى البدء بأقارب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم بآل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم يجيء سائر المسلمين حسب منازلهم فى السبق إلى الإسلام والجهاد فى سبيل الله ، ثم قال بعد ذلك : ضعوا عمر حيث وضعه الله .

وفى هذا الديوان فرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم ، فقال له عبد الله ابنه : فرضت لى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة أربعة آلاف ، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة ! أى من المواقف فى الجهاد .

فقال له أبوه : زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول الله عليه السلام من أبيك !

وأخيراً جاء فى سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى أنه جيء إليه بمال ، فبلغ ذلك ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ، حق أقاربك من هذا المال ، قد أوصى الله عز وجل إليك بالأقربين . فقال لها : يا بنية حق أقربائى فى مالى ، وأما هذا ففىء المسلمين ؛ غششت أباك ، ونصحت لأقرباك ، قومى ، فقامت تجر ذيلها !

التسوية :

ومن العدل التسوية فى الحقوق والواجبات بين الوالى والذين تحت ولايته ، فى النواحى المالية وغيرها كالقصاص من الخاصة والعامة من الناس . ونجد فى هذا الخلق الإسلامى الرفيع مثلا عليا رائعة سجلها التاريخ لعمر بن الخطاب وغيره من العرب والمسلمين ولنكتف هنا بذكر القليل منها .

يروى ابن عباس رضى الله عنه أن عمر قدم حاجا فصنع له صفوان بن أمية طعاما ، فأخذ القوم يأكلون وقام الخدام ، فقال عمر مالى أرى خدامكم لا يأكلون معهم ، أترغبون عنهم ! ثم غضب غضباً شديداً وقال : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ! فعل الله بهم وفعل . ثم نادى الخدام وأمرهم بأن يجلسوا ويأكلوا ، ولم يأكل أمير المؤمنين !

قد يقال هنا إن هذا الذى فعله ابن الخطاب كان يناسب حال البداوة التى كانوا عليها فى ذلك العصر ، ولكنه يجب أن نقول مع هذا بأن صنيع أمير المؤمنين ذلك يدل على رسوخ

خلق المساواة ووجوب التسوية بين أناس جمعهم الإسلام بمن فوقهم فى المنزلة الاجتماعية . والإسلام قد استحدث مقاييس جديدة للتفاضل بين الناس ، فقد جاء فى القرآن : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وقال الرسول : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

والإسلام كما نعرف جميعا يوجب إعانة المحتاج من مال الدولة العام ، ما دام لا يجد المحتاج سبيلا للحياة إلا هذا ، ونجد التطبيق العملى الرائع من كثير من رجالات الإسلام والخلفاء والولاة ، وذلك ما نعتبره بحق سبقا فى سبيل التضامن الاجتماعى قبل أن يعرفه الغرب بقرون وقرون من الزمان .

هذا عمر بن الخطاب يرى رجلا غير مسلم يسأل الناس ، فسأله عما ألجأه إلى هذا ؟ فقال : السن والحاجة يا أمير المؤمنين. فقال : والله ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه عند الهرم ! ثم ذهب إلى بيت المال فأعطاه ما يكفيه حاجته ، وكتب كتابا عاما للولاة يقول فيه : أيما ذمى ضعف عن العمل وصار أهل ملته يتصدقون عليه ، عُيِّل هو وعياله ما أقام بدار الإسلام . فأى مثل أروع من هذا فى التسوية فى الحقوق بين المسلمين وغير المسلمين ؟ !

ومن التسوية الواجبة، الاقتصاص من الكبير للصغير ، ولو كان الأول واليا على الثانى ، والتطبيقات لهذا المبدأ كثيرة فى أيام الرسول نفسه وخلفائه من بعده .

يروى ابن الجوزى فى تاريخه عن أنس ابن مالك رضى الله عنه أنه كان عند عمر ابن الخطاب فجاء رجل من أهل مصر يقول له : هذا مقام العائذ بك ، فقال له : مالك ؟ فذكر له أن عمرو بن العاص أمير مصر أجرى الخيل فأقبلت فرس ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسى ، ورب الكعبة ، فلما دنا منى عرفته فقلت : فرسى ورب الكعبة ، فقام إلى يضربنى بالسوط ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين .

فما زاد عمر ، وقد سمع ما سمع ، على أن قال للمصرى : اجلس ، ثم كتب إلى عمرو ابن العاص يقول له : إذا جاءك كتابى هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمد ، فلما وصله الكتاب دعا بابنه وقال له : أأحدثت حدثا ؟ أجنيت جناية ؟ قال : لا ، قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟

ولما قدم على عمر أمير المؤمنين قال : أين المصرى ؟ فقال : هأنذا ، فأعطاه « الدرة » ، وقال له اضرب ابن الأكرمين ! فضربه حتى أثخنه ، ثم قال : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك (أى ابنه) إلا بفضل سلطانه ، فقال : يا أمير المؤمنين :

قد ضربت من ضربني ، قال : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه .

ثم التفت عمر إلى ابن العاص وقال له : أبا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! ثم التفت إلى المصرى فقال : انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إلى .

إن هذه الكلمة الموجزة الرائعة من سيدنا عمر بن الخطاب ، وهى تترجم عن مبادئ الإسلام وتعاليمه السامية فى هذه الناحية ، هى التى قدرت بحق للإنسانية جمعاء « الحرية والإخاء والمساواة » . وإنه لا ينسب ذلك إلى الثورة الفرنسية إلا جاهل بتاريخ العرب والإسلام ، أو معاند للحق مكابر فيه على علم !

وذكر عمر فى خطبته يوما من الأيام أن من ظلمه أميره فليرفع مظلمته إلىّ ، فإنه لا أمير عليه دونى ، حتى أقتص له منه ، فقام عمرو بن العاص فقال :

يا أمير المؤمنين ، أرأيت لو أدّب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه ؟ فقال عمر (كما يروى ابن سعد فى طبقاته) : ومالى لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يُقص من نفسه !

وهكذا كان ، رضوان الله عليه ، يفعل ذلك دائما إلا أن يعفو صاحب الحق ، ولم يكن ينشد بذلك إلا الانتصاف من القوى للضعيف ، والتسوية بين الكبير والصغير .

الأمانة

ونجد فى هذا الخلق الرفيع الذى لا يقوم مجتمع سليم بدونه مثلا أخرى رائعة كثيرة ، كما فى غيره من الأخلاق الإسلامية العربية التى تقوم عليها أمة العرب والإسلام ، ومن ثم كانت ولا تزال أهلا للحياة العزيزة المجيدة .

يقول الله تعالى فى سورة النساء : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الإيمان أمانة ، ولا دين لمن لا أمانة له » . وهكذا يشدد القرآن فى أمر الأمانة ويأمر بأدائها ، مهما كان نوعها إلى أهلها وإن كانوا غير مسلمين ؛ كما يقرر الرسول أنه لا دين لمن لا أمانة له .

وكان من المثل العليا التى ضربها لنا الرسول حتى نقتدى به فى كل أعمالنا وسلوكنا ، فنؤدى الحق لصاحبه ، أنه لما فتح الله له مكة المكرمة وأخذ مفتاح الكعبة ممن كانا يقومان بسدانتها ، وأنزل الله هذه الآية ، فدعاهما وكانا مشركين حينئذ ورد عليهما المفتاح ، وقال لهما : « خذاها (يريد

السدانة) خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وكان لأصحابه من بعده فى ذلك مثل عالية لا نجد لها شبيها أو مقاربا فى أمة أخرى غير الأمة العربية الإسلامية .

ها هو ذا عمر بن الخطاب يجيئه صهر له يطلب منه أن يعطيه شيئا من بيت المال ، فينهره ويقول له : أردت أن ألقى الله ملكا خائنا ! فلما كان بعد ذلك أعطاه - كما يقول ابن سعد - عشرة آلاف درهم من صلب ماله.

وإذا تركنا أشراف العرب المسلمين وخاصتهم ، هؤلاء الذين لهم حسب أصيل يعملون دائما على أن يظل شريفا نقيا ، فإننا نجد لأوساطهم وعامتهم كثيراً أيضا من المثل الطيبة العظيمة فى ناحية الأمانة ؛ وذلك لأن الدين قد أمر بها الناس جميعا .

يذكر الطبرى فى تاريخه أن رجلا استولى، فى حرب بلاد الفرس ، على بغلين وما كان عليهما وذهب بهما إلى « صاحب الأقباض » دون أن توسوس له نفسه بمعرفة ما غنم ، فإذا سفطان كانا على أحد البغلين فى أحدهما تاج كسرى مُفَسَّخا وكان لا يحمله إلا اسطوانتان وفيهما الجواهر .

وإذا على الآخر سفطان أيضا فيهما ثياب كسرى من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ، وغير الديباج منسوجا بالذهب ومنظوما بالجوهر أيضا .

وهذا رجل آخر يدفع إلى صاحب الأقباض « حُقا » كان معه ، فقال (أى من استلمه) هو والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، وما يعدله ما عندنا ولا يقاربه . ثم قالوا له : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأنا .

ثم سألوه عن اسمه فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ، ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه !

ولما عرف سيدنا عمر بن الخطاب هذا ونحوه من المثل الأخرى التى ضربها فى الأمانة والعفة الجند الفاتحون، قال : إن أقواماً أدوا هذا لذو أمانة، فقال له على بن أبى طالب : إنك عففت فعفَّت الرعية !

* * *

رضى الله عن هؤلاء الأبطال المجاهدين ، الذى جمعوا كل خلق جميل ، وضربوا الناس جميعا أروع المثل فى كل ما هو محمود ؟

(الحديث موصول إن شاء الله تعالى)

الدكتور محمد يوسف موسى

نفحات القرآن

من عدالة الإسلام
بيان الجزاء قبل المحاسبة

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

ا — من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها

ب — ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهم لا يظلمون .

لو أن الله بسط علينا تكليفه ولم ينصح لنا عن جزاء نستوجبه بعد ـ لوجب أن نؤمن ونرضى ، ونقول : بيده الأمر وله أن يفعل بنا ما يشاء من عذاب أو مغفرة .

ولكن الله أعدل من أن يكون ذا سلطان دون رحمة ، وأكرم من أن يكون آمراً لنا دون عون من جانبه وتيسير .

وقد جعل من تكريمه للإنسان أن يتبسط فى هدايته ببيان الخير والشر ، وأن يفرض على نفسه تعالى جزاء طيباً لعبده إذا ما أحسن كما أنه يثأر لسلطانه ممن أساء .

وكان من بره بعبده أن يكاشفه بأن الجزاء الحسن لا يقف عند غاية قريبة ، كما كان من لطفه ألا يدفع بالمسىء بعيداً عن تكرمه ورفقه حتى مع إساءته .

وبهذا البيان يكون الله جعل للإنسان شأناً حريا بالتقدير والأخذ به ، إذ وضع له نظام المحاسبة فيما له وما عليه ، ولم يجعله فى مستوى غيره من دواب الأرض .

وبهذا البيان أيضا يكون التفاضل بين الناس ميزانا لأقدارهم ، وتحديداً لمنازلهم ، وهذا هو العدل الذى رضيه الله فيصلا بينه وبين خلقه ، وهو القسطاس الذى شرعه للعباد فيما بينهم تأسيا بسنته فيهم ، واقتباسا من توجيهاته لهم .

وكان مما حفل به القرآن فى هذا قوله سبحانه :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها » .

فالله يوقظ عبده من غفلاته ، ويوثق له العهد من جانبه بأن له عند ربه عن كل حسنة يأتيها فى دينه ، أو فى شأن من شئون الدنيا جزاء طيبا : عشر حسنات .

وهـــذا عهد سيق فى جملة اسمية ، تؤذن

بتأكد جوابها ، إذا وقع مقدمها ، فكيف إذا كان سياق ذلك العهد ممن لا يختلف وعده ـ سبحانه ؟ .

هذه مشارطة انعقدت بين الأعلى وهو الداعى ، أو هو الموجب ، وبين الأدنى ، وهو المدعو . فإذا ـ وعى ماللجانب الأول ـ جانب الداعى ـ من سمو لحسبنا بهذا بل ببعض هذا كفاية من الضمان والاطمئنان ، والترغيب فى الإقبال على الوفاء من أهون الجانبين مع أعز الجانبين ، ولله المثل الأعلى .

على أن الله تعالى لم يقف بوعده عند عشر الحسنات فقط ، بل بسط لدينا طريق الرجاء الحق ، حتى وصل بنا إلى سبعمائة ضعف ، وضرب لنا المثل الذى نحسه ، ولانرتاب فيه فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة » فهذه حبة أنبتت سبعا ، فى مائة ، وليس ذلك مما يستكثره تقديرنا من فيض الله ، بل تجاوز فضل الله ذلك التقدير فقال « والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » وهذه الكثرة مكررة فى غير مقام من آيات الله .

وفى هذا استنهاض للعبد أن يتدارك نفسه وألا يجهل مصيره ، حتى لا ينفق حياته فيما لا يجديه إلا تقلبا فى دنياه ، وتشاغلا بألوان زمانه .

وعجيب من الإنسان أن يتلقى هذا ، وأن يرى بعينيه فى غير خفاء مصداقه فى الحبة والسبع السنابل ، ثم لا ينشط إلى هذا الربح الكثير ولو بالعمل اليسير .

كأن الإنسان قد بلغت به الأنانية أن يطمع فى الثواب مضاعفا دون بذل من عمله ولو قليلا ، وما هكذا سنة الله فى التبادل وفى الأخذ والعطاء ، وفى استحقاق ما عنده من فضل .

ولا يستقيم فى تقدير العقل الذى وكلنا الله إلى الاهتداء به أن يكون حصاد بلا غرس ، أو كسب بلا مجادلة .

مع أن الإنسان قد أعطى من نفسه كثيراً لدنياه ، وأخذ منها ما أخذ ، قليلا أو كثيرا ، غير أنه لم يتحر حلالها من حرامها ، ولم يعدل مع نفسه فى شأن أخراه ، فاضطرب سيره ، وكان دائماً فى غير اعتدال .

والله تعالى لم يبخل عليه بنعمائه لا مع عصيانه ولا مع كفره ، وهى إن لم تكن تكريما له حينئذ فهى حجة عليه ، وتطويق له .

ولقد اقترن الوعد الكريم فى جانب الحسنات بإنذار رجيم فى جانب السيئآت ، فلم يمدد الله يد البطش إلى عبده حين لا يفعل الخير كما بسط له يد الرحمة من قبل ، بل قابل صنيعه السيء بمثله من جزاء دون زيادة ، حتى ذكر الله ذلك فى عبارة حاصرة « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها » .

فمجال الأمل فى الزيادة مفتوح فى باب الخير ، والخوف الذى يقابله من زيادة العقوبة مدفوع ومأمون بهذا النفى الحاصر . فانظر كيف يصاغ الوعد الكريم فى عبارات فضفاضة ، وكيف يصاغ الوعيد المخيف فى عبارة محدودة ؟ وهذا لون من ألوان الفضل يجله العقل حينما يدركه .

وإذا كانت للمحسنين درجات مستحقة بعملهم ، ودرجات تمنح لهم فضلا من ربهم لجميعها صارت حقا لهم فى تقدير الله ، وتفاضلهم ما بين عشر حسنات إلى ما هو أكثر من سبعمائة إنما هو بحسب تفاوتهم فى صدق النية وتحرى موضع البر ، وأهمية الأثر المترتب على العمل ، وما هناك من دوافع خفية ، ومن مآرب يعلمها الله وحده . وعلى أى حال فأقلهم حظا صاحب العشر حسنات ، ولا حرج على منازلهم ألا يكونوا فى وضع واحد « ولكل درجات مما عملوا » .

وتفاوت المسيئين ليس لزيادة فى العقوبة من جانب الله ، بل لتفاوتهم أنفسهم ، فى قبح مساوئهم وبشاعة خطاياهم ، والله تعالى قد طمأن الجانبين على ما أوضحه من تحديد فى الجزاء فقال فى نهاية الآية « وهم لا يظلمون » .

فالإحسان إلى تصاعد فى الجزاء الحسن دون حرمان .

والإساءة غير متجاوزة مداها ، فى العقوبة وقد تكتب حسنة إذا انصرف عنها من كان على نية فعلها .

هذه عدالة اقترن بها لطف وكرم شملت خلق الله ، حتى المسرفين فيهم ؛ فقد ذكر الله فى الكتاب غير مرة أنه لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ...

ولكن كيف نتصور الإحسان فى الآخرة إلى من كفر بالله فى دنياه ؟

كيف وقد هدده القرآن بآيات العذاب والخلود فيه ؟ وبأن ماله من عمل طيب هنا يكون هناك هباء منثوراً ؟ ذلك إشكال ؛ ولكنه إشكال يبدده شىء مرسوم أمامنا فى القرآن ! ...

فالنار دركات ولها سبعة أبواب ، ولكل باب من أهل النار جزء مقسوم . والعذاب فى النار لا يكون من درجة واحدة ، بل هو دركات كما أن نعيم الجنة ليس سواء بين جميع من قسمت لهم الجنة .

وهذا ما اقتضاه شأن ربك ، وشهدت له الآيات ...

فصاحب الطيبات والمبرات من غير المؤمنين يكون فى حالة أخف من سواه ، وعدل الله يأبى أن يكون أبو لهب وأبو جهل مثلا فى جانب أبى طالب ، فهؤلاء جميعاً

لم يؤمنوا ، وحكم الله فيهم واضح ولكن أبا طالب آزر النبي وكفله ، وذب عنه ، وأبو لهب وأمثاله آذوه وآذوه ، فهل يكون الموقف هناك سواء ؟ على أن ذلك التفاوت لا يؤذن مطلقا بهوان العذاب على الكافرين مهما يكن ، وإنما هو تفاوت نسبي فيما بينهم ليؤمنوا وقد فاتهم الأوان بأن الله حقق وعده ووعيده ، وأنه بعدله حكم بين العباد .

هذا هو القسطاس الذى تهدى إليه الفطرة ويشهد به التنزيل « وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير » .

وهذه كلها توجيهات من الله إلى ما يناط بنا من تكاليف ، وما يطلب إلينا من سياسة أنفسنا شعوبا وحكومات وأفرادا وجماعات ، وآخذين ومعطين ، وأتباعا ومتبوعين ، فما بقيت لنا بعد ذلك من حاجة إلى بيان ! ولم يبق إلا أن نعى وأن نأخذ أنفسنا بما وجه إلينا .

وما نكاد نجد ثقلا فى الأمر ولا بعدا عما ننشده من هناءة واحتمال فى يسر ، وإنما هو اقتناع وإقبال على ما دعينا إليه ، والسبيل معبدة ، والمحجة واضحة ، والأهداف كريمة مضمونة .

ولأن هذه السبيل أظلمت قديما فى وجه أناس ، وربما بقيت على ظلامها فى وجوه آخرين ، شاءت رحمة الله ألا تكون الموعظة فى كتابه على نمط واحد ، ولا للمرة الواحدة ، بل صاغها فى عبارات أخاذة ، ورددها فى أساليب رائعة لا يملها لسان ناطق ، ولا تسأمها أذن واعية ، وخلدها فى كتابه فبقيت على روعتها وقوتها منذ تلقاها سماعا وكلم بها ترتيلا محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وستظل على شأنها هذا إلى أن تدخل الدنيا بعوالمها فى عالم سوى هذا كله .

آية الموضوع تعتبر قولا فصلا بما عاهد الله به عباده ، وتعتبر بعد أن سبقها ما سبقها تمهيداً لما بعدها من آيات جاءت من مقاطع الكلام .

الأولى : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم : دينا قيما ، ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » فهنا مجاهرة من محمد لقومه وللناس بأن الله هداه بوحيه وتشريعه إلى الدين المستقيم الموصل إلى الإيمان الحق والعمل الحق والنجاح المنشود ، فهو دين إبراهيم الذى يؤمن به ولا يطعن فيه أولئك المخالفون المتهافتون على نسب إبراهيم من عرب ومن يهود ونصارى .

الثانية : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

مقتضى ما تقرر من حقية دينى أن تكون عباداتى وأعمالى فى الحياة وما يتصل منها بالممات كلها خالصة لوجه الله وحده لا شريك له

كما أمرت بذلك واقتنعت به ، وأنا أول مستجيب من المسلمين .

الثالثة : « قل أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شيء » .

يعنى : إذا استقر الأمر على أن دينى هو الحق ، وأن عملى كله لله الحق ، فكيف أعدل عن ربى الواحد إلى غيره فأتخذه ربا وهو باطل مهما جعلتموه .

تدعوننى يا كفار قريش إلى متابعتكم فى أرباب باطلة ، وتزعمون أنكم تتحملون عنى ما أرتكب ، مع أن كل نفس تحمل مسئوليتها ، وكسبها لا يكون محسوبا على سواها ، فكله مكتوب فى صحائفها ولا يعقل أن يرتكب الوزر إنسان ثم يتحمله عنه فى الآخرة إنسان غيره ! هذه مزاعم شيطانية ، وتخريفات جنونيه ، فكيف أستجيب لها ، وأعدل عن صراطى المستقيم ؟ كل نفس بما كسبت رهينة ، وكلنا راجعون إلى ربنا الحق ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

هذه معالم شاخصة ، وهى بينة الهدى لمن اهتدى ، ومن أغمض عينيه عن ضوئها فلن يضير إلا نفسه ، وستزل قدمه فى ظلمة جهله ويبقى نور الله لا يطفئه ضلال المخالفين :

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة
ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

هذا وقد عرضت الآية الأخيرة للقربات التى يعملها مسلم ويهبها لمسلم متوفى وهل يتفق أن يوهب عملى لغيرى مع أن الآية صرحت بأن كل ما كسبته نفس فهو عليها لا يحمله غيرها ، ولا يكون للإنسان إلا ما سعى .

وقد أفاض فيها المفسرون قديما وحديثا .

والذى لا شك فيه أن عمل الأبناء ودعاءهم مقبول لأبويهم ، وأن الصدقات يصح أن يوهب ثوابها لأى مسلم ولو غير قريب ، وكذا الدعاء .

وأما القراءة والنوافل وجعلها من الأجنبى للأجنبى عنه ، فهى عند الباحثين ، بين نفى وإثبات ، إذ لم يرد فى هذه الأخيرة دليل قاطع ، وربما كان الأمر بحاجة إلى الاقتصاد فى هذه التوسعات ، والله يهدينا إلى سواء السبيل ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء
وأستاذ فى كلية الشريعة

السيد عبد الرحمن الكواكبي

للأستاذ أحمد عبد الجواد الدومي

استكثر رئيس القرناء - أى كبير الأمناء باللغة الحديثة - على السيد جمال الدين الأفغانى أن يلعب بحبات سبحته فى حضرة السلطان عبد الحميد .

فلما خرج من عنده أخذ رئيس القرناء يؤنب جمال الدين على ما ارتكبه من جرم واقترفه من إثم .

وابتسم جمال الدين وقال كلمته :

« السلطان عبد الحميد يلعب بمقدرات الشعوب ويتصرف فى الملايين كيف يشاء ، وجمال الدين لا يتصرف ولا يلعب بحبات سبحته ؟ » .

هذه القصة القصيرة من ورائها معان غزيرة ، ومدلولات كثيرة .

وجمال الدين كان مثلا للأحرار ، وقدوة للمصلحين ، وقمة فى المجد ، وصوتا مدويا للحق . . ولكنه مع هذا كله لا يباح له أن يحرك حبات سبحته فى الحضرة السلطانية ، وأمام العظمة التى يجب لها التقديس والإجلال ! .

وكان ابتسام جمال الدين نوعا من السخرية التى يرسلها الرجل الحر ، لتعبر عن احتقاره واشمئزازه من التصرف البعيد عن السداد ، الغريب عن أودية العقل والفضيلة والرشاد . وبقدر ما فى هذه البسمة من تنفيث عن صاحبها ، يكون فيها كذلك إغاظة وتأنيب خفى للذى توجه إليه ، وتنصب عليه .

وإذا كان جمال الدين يعاتب على تحريك حبات سبحته ، فكيف إذاً كان يعامل الأفراد العاديون فى طول هذه السلطنة وعرضها ! ! .

كيف إذاً كانت تحيا هذه الملايين العديدة فى مصر وفى الشام وفى الآستانة وفى بقية هذه الولايات المتناثرة المترامية الأطراف الدانية القطوف !.

لقد كانت ركاما من البشرية يتحرك بإرادة السلطان ، ويسكن بإرادة السلطان،ومن حول

السلطان حاشية فاسدة تزين له الظلم ، وتسول له الشر ، وتحول بينه وبين الرعية بكل حجاب صفيق وسدود كثاف !

فى هذا الجو الخانق ، ووسط هذه السحب والغيوم نشأ السيد عبد الرحمن الكواكبي من بيت عزيز كريم فى حلب ، تسنده أصالة النسب ، وتؤيده عراقة العز والجاه والمال!

ولقد انتفع الكواكبي بهذه الأصالة وتلك العراقة فى جميع مراحل حياته ، فعاش خافض الجناح ، متواضع الخلق ، سمح الوجه واليد للضعفاء والمساكين ، وفى الوقت ذاته يملؤه الشموخ والعناد ، ويدفعه الشمم والإباء إلى مقاومة طغيان السادة ، وصلف الكبراء . وهذا طبع نادر وقليل .

قلت طبع نادر وقليل ، لأن السجية الغالبة فى الناس أنهم يعكفون لإرضاء السادة ، ويستذلون الأقل منهم .

فأما الكواكبي فكان يعادى أصحاب البطش ، ويقاوم من يملكون البغى والظلم والعسف والجبروت ، فى ثبات قلب ، ورباطة جأش .

هذا هو عارف باشا والى حلب ، يأتم بالسلطان عبد الحميد فيظلم ، ويأتم به فينتهك الحرمات ، ويتأسى بأفعاله فيبغى ويجور ، والرعية خائفة ، تغلى دماؤها وعروقها ، ولكن أين اللسان الناطق ، والعاطفة المعبرة ، والرجل الجرىء ؟

ووجد الكواكبي نفسه وجها لوجه أمام هذه العاصفة الهوجاء فما طأطأ رأسه لتمر ، وما سد بابه أمام الريح ليستريح .

بل جمع رجال حلب وبث فيهم روح الحقد ، الحقد المقدس على أى ظالم مهما كان قدره ولو كان والى حلب ، والممثل للسلطان الأعظم عبد الحميد .

إنها الطبيعة الأصيلة العريقة التى تغلب صاحبها لو أراد الانحراف عنها ، أو الميل عن اتجاهها .

وثار عارف باشا وطلب محاكمة الكواكبي ، ورحب الكواكبي بهذه المحاكمة بشرط أن تكون بعيدة عن سلطته . . وتمت المحاكمة فى بيروت ، وظهرت البراءة الناصعة ، لأنه كان يقاوم لله ، ويدفع للحق ، وينتصر للضعيف .

* * *

كل عظيم فيه نقطة ضعف أو أكثر ، فالعصمة للأنبياء والمرسلين . . وبحثت عن نقط الضعف فى الكواكبي فأعيانى أمره وأهزلنى البحث فيه . . ومع ذلك فبحر الأمجاد الصادقة قد طغى على هذه النقاط حتى جعلها لا تكاد تظهر ولا تكاد تستبين .

لقد كان عميق الفكرة ، فارس النظرة ، حاد العاطفة ، نادر الخلق ، قوى الإيمان ، متحركا نشيطا ، لا يهاب ولا يخاف .

وهذه الصفات الأصيلة عادت عليه هو بالمجد العريض ، والذكر الخالد ، وعادت على أمته بالأثر الحسن ، والذكرى الطيبة !!

فلقد دلت التجربة على أن الشرق غاص بالخامات الصالحة والمناجم الكامنة ، وكل الذى ينقصه القادة المحركون ، والزعماء المصلحون .

فإذا وجد القائد ، وتوحد اللواء ، وصلحت الزعامة ، وجدت الأمة التى تزلزل الكيان ، وتعصف بالأحداث ، وتقاوم الطغيان .

ولذلك حين حرك الكواكبي شعب «حلب» ضد واليها ، اهتز كرسى الوالى ، وتخلخل عرش السلطان .

ولو وجد اليوم فى العراق «كواكبي» تتوحد حوله القيادة ، ويرفع بيده اللواء ، لذابت هذه الطغمة الظالمة ، فى ساعات قليلة ، وزمان محدود .

* * *

كانت «الشهباء» هى جريدة الكواكبي ، الناطقة باسمه ، والمعبرة عن آرائه وأفكاره . ولكن هذه الجريدة لم تكن وحدها كافية لبث هذه الأفكار الجريئة ، والمقالات الساخنة ، فكان يكتب فى غيرها من الجرائد والمجلات كتابة تزلزل أقدام الظلام ، وتملأ قلوب المؤمنين بالبرد والسلام .

من هذه المقالات والأفكار تكون كتاب الكواكبي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ، ويقول المؤلف فى بقية اسم الكتاب : وهى كلمات حق وصيحة فى واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح ، لقد تذهب غداً بالأوتاد !.

وكتاب «طبائع الاستبداد» ليس كتاباً كبيراً ، إن صفحاته لا تتعدى المائة والخمسين ، وإن أسلوبه ليس فريداً ، ولكنه مع ذلك كتاب يطوف بك فى آفاق واسعة ، وتجارب متنوعة ، ورحلات علمية مختلفة ... وأغلب الظن أنك لا تقتنع بقراءته مرة أو مرتين ! .

ولو عاصرنا الظروف التى عاصرها الكواكبي ، لعرفنا الصعوبة التى قاساها ، وهو يخرج لنا هذا الكتاب !.

يقول الكواكبي فى الصفحات الأولى من كتابه :

«الاستبداد لغة : هو اقتصار المرء على رأى نفسه فيما تنبغى المشاورة فيه ! ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات !! وفى اصطلاح السياسيين : هو تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بلا خوف تبعة !» .

وكان استبداد السلطان عبد الحميد شديد القسوة ، عظيم الفتك ، وهذا ما جعل الكواكبي يتعمق فى أوصاف المستبد حتى يقول فى صفحة ١٣ من كتابه :

« المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدى ، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس ، يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته !!

المستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلهما ، والحق أبو البشر ، والحرية أمهم ... المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة ، وكالكلاب تذللا وتملقا ! » . .

وأكبر ظنى أنه لو عاش الكواكبى إلى اليوم ورأى ماذا يجرى فى العراق لأضاف إلى قائمة هذه التعاريف ، تعاريف وحدودا أخرى ، لم تكن تخطر له على بال ...

ثم انتقل الكواكبى إلى موضوع خطير ودقيق ، فهل هناك علاقة بين الاستبداد والدين كما يقول علماء الإفرنج ؟ فرجل الدين يتحكم فى عالم القلوب والأرواح ، ورجل الحكم يتحكم فى مملكة الأجسام ! .

وأفاض الكواكبى فى بيان المشاكلة بين الاستبدادين ، وتوضيح شبهات الغربيين ، ثم يرد هذه الشبه كلها ويدحضها فى قوة حجة وبلاغة منطق وترادف استشهاد !.

ولنستمع إليه وهو يقول فى ص ٢٢ :

« وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتساوى ، حتى فى القصص منه ، ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تبع تخاطب قومها : « يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » فهذه القصة تعلم كيف ينبغى أن يستشير الملوك الملأ ، وأن لا يقطعوا أمراً إلا برأيهم ، وأن تحفظ القوة والبأس فى الرعية ، وأن يخصص الملوك بالتنفيذ » .

واستطرد المؤلف فى ذلك فذكر مواقف مختلفة تنهى فيها الأديان الصحيحة عن أى مظهر للاستبداد ، أو أى أثر من آثاره !

وينتقل بك المؤلف فى كتابه إلى فصول هامة : الاستبداد والعلم ، الاستبداد والمجد ، الاستبداد والمال ، الاستبداد والتربية ، الاستبداد والترقى ، وهكذا .

وفى كل فصل يسبح بك فى أفكاره ويقفز بك إلى عالم من الصدق والحقيقة .

ولنقرأ له هذه الخاطرة :

« المستبد فى لحظة جلوسه على عرشه . . يرى نفسه كان إنسانا فصار إلهاً ، ثم يرجع النظر فيرى نفسه فى نفس الأمر أعجز من كل عاجز ، وأنه ما نال ما نال إلا بواسطة من حوله من الأعوان . ثم يلتفت إلى جماهير الرعية المتفرجين فيراهم مسحورين مبهوتين كأنهم أموات من حين ، وعندئذ يرجع المستبد إلى نفسه قائلا : الأعوان . الأعوان ، أسلمهم القياد ، وأزودهم بجيش من الأوغاد،

وأحارب بهم هؤلاء الأمجاد ، وبغير هذا الحزم لا يدوم استبداد ولا استعباد » .

وبعد أن انتهى الكواكبي من فصوله التي صور فيها طبائع الاستبداد ، لاح له على حد تعبيره أن يرشد قومه ويقف فيهم خطيبا ، فقال لهم :

« ياقوم : أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق ، فلماذا تقلدون أجدادكم في الخرافات والأمور السافلات، ولا تقلدونهم في محامدهم ؟

أين الدين ، أين التربية . أين الإحساس . أين الغيرة . أين الجسارة . أين الثبات . أين الرابطة . أين المنعة . أين الشهامة . أين النخوة . أين الفضيلة . أين المواساة . هل تسمعون أم أنتم نائمون ؟ .

يا قوم إلى متى هذا النوم ؟ وإلى متى هذا التقلب على فراش البؤس ووسادة اليأس .

يا قوم : قاتل الله الغباوة فإنها تملأ القلوب رعبا من لا شيء ، وخوفا من كل شيء ! »

ولقد طالت خطبة الكواكبي وتوجيهاته ، حتى بلغت العشرين أو الثلاثين من صفحات الكتاب . وأشهد أنه كان يصور أدواء الأمة العربية تصويرا دقيقاً وبليغاً بأسلوب حكيم ، وجرأة عديمة المثال .

والكواكبي لم يعش لنفسه، ولا لأهل حلب، ولا لأمته العربية فقط ، بل عاش كذلك لعقيدته المسلمة، ومجموعته الإسلامية الكبيرة!

ولقد برز لنا هذا بوضوح في كتابه الثاني « أم القرى » .

وأهم ما في هذا المؤلف أنه طواف سريع بالأمم الإسلامية وشعوبها الضعيفة المقهورة ، وتقديم للدواء النافع لها .

فلقد صور لنا الكواكبي اجتماع مؤتمر عام لنسلمين في مكة . وكان أعضاء هذا المؤتمر يمثلون البلاد الإسلامية على شتى أوطانها واختلاف لغاتها ، فاجتمع المدنى مع الشامى والمكى مع التونسي ، والفارسى والمصرى مع المقدسى ، واليمنى مع البصرى ، والنجدى مع التركى ، والأفغانى والهندى وهكذا .

وطريقة الحوار التي صورها لنا الكواكبي طريقة غاية في الإبداع والابتكار ، فكان ينطق أشخاص روايته بما يناسب بلدهم وبيئتهم التي عاشوا فيها . فمثلا يتكلم الشامى عن أسباب الفتور بين المسلمين فيرجعها إلى العقيدة الجبرية التي تؤدى إلى الكفاف من الرزق وإماتة المطالب النفسية ونزعات المجد والرياسة ، ويتكلم المكى أو النجدى عن أسباب ضعف المسلمين فيرجعها إلى الخرافات التي دخلت في الإسلام والبدع والأهواء التي استحوذت عليه . ويتكلم المدنى عن هذه

الأسباب نفسها فيرجعها إلى تدليس رجال الدين والغلاة من المتصوفين .

وللمقدسي والأفغاني والهندي والتبريزي وغيرهم من المجتمعين أسباب أخرى للفتور والضعف اللذين يشملان المسلمين ، وأهم هذه الأسباب ترك المسلمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحايل على التحرر من الواجبات وانتشار الدجل والخرافات .

وكذلك كان من الأسباب التي أدت إلى ضعف الأمة الإسلامية فقدانهم للحرية والكرامة وتوالى المصائب عليهم من كل صوب وحدب ، وفساد التعليم والإخلاد إلى الخمود والراحة والجبن في المطالبة بالحقوق العامة والغفلة عن تنظيم شئون الحياة . الخ . ثم قدم الكواكبي أنجع دواء ، وأحسن علاج !

وإذا كنت تخرج من طبائع الاستبداد وأنت ثائر النفس فائر الدم هائج العاطفة ، فأنت كذلك تخرج من أم القرى متحفز الهمة واسع التجربة عظيم الرجاء .

ولولا ضيق المجال لتوسعنا قليلا في الكتابة عن أم القرى ووفينا هذا الكتاب بعض حقه علينا .

والذي نريد أن نقوله باطمئنان : إن عبارة الكواكبي التي يقول فيها « وهي كلمات حق وصيحة في واد ، إن ذهبت يوما مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد » . لذى نريد أن نقوله : إن هذه الكلمات وتلك الصيحة لم تذهب مع الريح وإنما ذهبت فعلا بأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد .

فأين السلطان عبد الحميد وأين الخديوى عباس وأين من بعده من خديوات وملوك ؟ وأين عارف باشا الذي حاكم الكواكبي ، وأين أبو الهدى الصيادي ؟ أين السلاطين وأصحاب العروش .؟ أين الظلمة والسفاكون ؟ لقد ذهبوا جميعا ونثرنا على قبورهم الرماد ، أما الكواكبي فها هي ذكراه تبعث في قلوبنا الأمل ، وتقوى في نفوسنا الرجاء ، وتأخذ بأيدينا إلى العزة والسؤدد والمجد والخلود .

ولئن مات الكواكبي موتة طبيعية أو بسبب تحريض من الأيدي الحاكمة الآثمة أو بسبب الأكلة التي أكلها مع الخديو عباس بالإسكندرية كما يذكر ذلك بعض المؤرخين فإن هذا كله لا يهمنا ولا يعنينا .

إن الذي يعنينا حقا هو ذلك التاريخ الشامخ والأثر الخالد الذي تركه الكواكبي لمن بعده .

لقد تمكن الحكام حين ذاك من تعطيل صحيفته الشهباء ومن كبت أنفاسه بعض الشيء ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا صرخته أن تلف الآفاق وتدوى في القلوب وأن تعمل عملها ولو بعد حين ! !

إن الوظائف الحكومية ضاقت بالكواكبي فلم يعبأ بها ، ولم يحرص على التمرغ فى ترابها « الميرى » بل تركها إلى التجارة ، وبذلك أعطى الحكومات الظالمة درساً مريراً ، فالحر من الرجال لا تستعبده المناصب ، ولا تستذله المطامع .

وإن والى حلب قد ضاق ذرعا بالكواكبي فقال له الكواكبي : ليس للأحرار وطن معين ، ولا أرض مخصوصة . إن حلب قطعة من الأمة العربية ، والوطن العربى كل لا يتجزأ وتظاهر بأنه ذاهب إلى استامبول ... وعندما وصل إلى أرض الكنانة - مصر الحبيبة - وجد فيها راحة قلبه ، وسلامة نفسه ونجوى فؤاده ، ورحب بالبقاء فيها ، فرحب به أحباؤه وأشقاؤه المصريون .

وعاش الكواكبي عامين فى مصر ، يراقب فيهما أحداث الأمة ، ويتجاوب مع حركات الإصلاح التى كان ينادى بها جمال الدين والشيخ محمد عبده .

وفى مساء الخميس ١٤ من يونية سنة ١٩٠٢ فارق الكواكبي الحياة ، وسافر إلى الآخرة بعد أن سافر إلى جملة بلاد ، وطاف بعدة شعوب !! .

ويذهب الذاهبون اليوم إلى باب الوزير بالقاهرة ليجدوا قبراً صغيراً قد ضم رجلا كبيراً وعلى هذا القبر الصغير بيتان من الشعر كتبهما حافظ ابراهيم .

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا
عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبي

رحم الله الكواكبي رحمة واسعة ، وألحقنا به فى الصالحين .

أحمد عبد الجواد الدومى

العـــرب

هم قومى ، وهم أصلى وهم نسبى إذا أنسب
وهم مجدى ، وهم شرفى وهم حصنى إذا أرهب
وهم رمحى وهم ترسى وهم سيفى إذا أغضب

ابن مضاء وتحرير النحو

للأستاذ علي العماري

منذ ظهر كتاب ابن مضاء القرطبي (الرد على النحاة) بل منذ أن عرف، وبعض الأقلام تترسم خطاه، وتنهل من معينه، وتأخذ قضاياه مسلمة، لا شبهة فيها، وكان الإخلاص للعلم يقضي بأن ينعم الناظر البحث، ويطيل النظر، ويستعين بغيره، لا يرى في ذلك نقيصة.

وقد ظهر ابن مضاء القرطبي مرتين قبل ظهوره في كتاب تحرير النحو، وصنوه النحو المنهجي، ظهر في كتاب (إحياء النحو) فتناوله أستاذ كبير من أساتذة الأزهر هو الشيخ محمد عرفه بالدراسة والتمحيص، ورد نظرياته رداً علمياً دقيقاً، في كتاب أخرجه هو (كتاب النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة).

وظهر الكتاب نفسه (نشره أحد مدرسي كلية الآداب بجامعة القاهرة) وصدره بمقدمة طويلة ضمنها آراء ابن مضاء، وقد تناول الكتاب والمقدمة أستاذ كبير من أساتذة الأزهر في بحوث نشرتها مجلة الأزهر منذ عشر سنوات.

وكان على كل باحث بعد ذلك يريد أن يأخذ عن ابن مضاء أن يكون يقظاً حذراً، وأن ينتفع بما كتبه هذان العالمان الجليلان.

ولكن المؤسف حقاً أن التجربة أعيدت للمرة الثالثة، فظهرت نظريات ابن مضاء في كتابين اعتمدتهما وزارة التربية والتعليم، ولكي نضع الدليل أمام القارئ نلخص آراء ابن مضاء، ونحيله بعد ذلك على الكتابين اللذين أشرت إليهما ليرى ما رأينا، ويتعجب كما تعجبنا.

خالف ابن مضاء على النحويين في هذه المسائل:

١ — أنكر العامل، وكثيراً من المسائل التي تترتب عليه.

٢ — رأى إلغاء متعلق الجار والمجرور.

٣ — أخذ على النحويين ما يرونه من استتار الضمائر في المشتقات التي لا ترفع الاسم الظاهر.

٤ — وأخذ عليهم كذلك قولهم باستتار الضمير في الفعل في نحو محمد كتب

وكل هذه الآراء تجدها، وتجد أثرها في الكتابين اللذين نناقشهما في هذه البحوث،

ولأكتف بمثل واحد، وأترك بقية الأمثلة لموضعها من رد العالمين الأزهريين الكبيرين.

رأت اللجنة التى ألفتها وزارة المعارف (التربية والتعليم) أن المتعلق العام للجار والمجرور لا يقدر ، وأن المحمول فى مثل عندك أو فى الدار هو الظرف ، أما المتعلق الخاص فهو كما قرر النحاة ، المتعلق هو المحمول ، والظرف تكملة ، وحين راجع المجمع اللغوى هذا القرار قال ما نصه : « يجب إرشاد المبتدئين إلى أن المتعلق العام للظرف والجار والمجرور فى نحو زيد فى الدار وزيد عندك محذوف ، وإن كانوا لا يكلفون كل مرة تقديره عند الإعراب ، بل يقبل منهم تخفيفا عنهم أن يقولوا فى إعراب زيد فى الدار : ـ فى الدار جار ومجرور مسند » .

وعلى الرغم من رأى لجنة الوزارة ، وقرار المجمع ، ومن قبل ذلك كلام جمهرة النحاة ، نرى أصحاب تحرير النحو يسيرون على أنه لا متعلق للجار والمجرور ولا للظرف فيقولون فى (لله الأمر) الأمر محدث عنه ولله (الجار والمجرور) هو المتحدث به ، وفى (الجنة تحت أقدام الأمهات) الجنة محدث عنه ، و « تحت ... » ظرف متحدث به .

ويحتج صاحب النحو المنهجى لهذا الصنيع بأن الكلام ـ فى الحقيقة ـ مستغن عن المتعلق ، وأنه بدون ملاحظته كلام تام ، فما جاء فى الكتاب قوله : « وبالرجوع إلى الأساليب العربية التى من هذا النحو نجد أن فهمها بلفظها ووضعها اللغوى لا يحتاج إلى هذا التقدير » وقوله » : « ولا شك أن هذا كله (زيد فى الدار) كلام تام مركب من اسمين دالين على معنيين بينهما نسبة ، وتلك النسبة دلت عليها (فى) ولا حاجة إلى غير ذلك » ، وقوله : « وهذا كله كلام تام لا يفتقر السامع له إلى زيادة كائن ، ولا مستقر ، وإذا بطل العامل والعمل فلا شبهة تبقى لمن يدعى هذا الإضمار » .

ونلاحظ أن المؤلف خلط بين أمرين ، بين صحة أن يعتبر الظرف أو الجار والمجرور خبرا ، وبين ضرورة أن يلاحظ المتعلق حتى يصح المعنى ، وزعمه أن الكلام تام دون ملاحظة المتعلق إنكار للبدهى ، ذلك :

١ ـ لأن الخبر حكم على المبتدأ ، وهو صفة معنوية له فبأى شىء حكمنا على زيد فى قولنا زيد فى الدار ؟ هل حكمنا عليه (بفى) أو حكمنا عليه (بالدار) ؟ واضح أن واحدا منهما لا يصلح حكما . إذن لا بد أن يكون الحكم غيرهما ، ولا شىء إلا المتعلق ، إذ لا يصح أن نكون من شيئين لا يصلح واحد منهما حكما ولا يصح أن يكون مجموعهما حكما ؛ لأن هذا المجموع لم يخلط خلطا كيماويا حتى يكون صفة تصلح أن يحكم بها على المسند إليه .

٢ ـ وجدنا أن الجار والمجرور والظرف كثيراً ما يذكر معهما ما يعد متعلقا لهما ، تقول صليت فى المسجد ومكثت عند أخى

شهراً . . . وهكذا . ولا شبهة فى أن (فى المسجد) و (عند أخى) متعلق بالفعل قبله وشأن اللغة الاطراد ، فعلينا أن نقيس ما لم يذكر معه متعلق على ما ذكر معه .

٣ ـ أن الجار والمجرور فى منزلة المفعول من حيث المعنى ، فإذا قلنا (مررت بزيد) كان الفعل كأنه واقع على زيد ففى قولنا زيد فى الدار يكون المعنى على أن (فى الدار) تتمة الكلام ، ومرتبط به ، ولا يرتبط بذات زيد ، لأن الذوات لا ترتبط بها الذوات ، فلا معدى من أن يرتبط بمعنى ، وهذا المعنى هو المتعلق ، ونحن نقول زيد أسد فلا يصح الكلام إلا على تأويل أسد بشجاع ونحوها فإذا قلنا (فى الدار) فلا بد من مراعاة صفة تصلح لأن تسند إلى زيد .

أما أن النحاة ذكروا أن للجار والمجرور متعلقا ، فلهذا قصة ذكرها أستاذنا الشيخ محمد النجار فى رده على ابن مضاء القرطبى قال : « ويذكر ابن مضاء فيما يورده على النحويين تقديرهم متعلق الجار والمجرور فى نحو زيد فى الدار ، إذ يقولون : إن التقدير كائن أو استقر ؛ وليس لهذا التقدير من باعث إلا ما وضعوه من كل أثر إعرابى فلا بد له من عامل ، وأقول له : إن التقدير فى هذا الباب لا يعتقده جميع النحويين ؛ فمن النحويين من يجعل الخبر هو الملفوظ ولا يقدر شيئا ، فقد كان ينبغى أن يعرف ذلك ابن مضاء ويتابعهم إذا شاء ويعرض عن الرأى الآخر ، والذين قدروا دفعوا إلى هذا بما ساقهم إليه النظر فى الكلام العربى ، فقد وقفوا على قول كثير عزة :

فإن يك جثمانى بأرض سواكم
فإن فؤادى عندك الدهر أجمع

إذا قلت : هذا حين أسلو ذكرتها
فظلت لها نفسى تتوق وتنزع

فيرى أن أجمع توكيد مرفوع ، وليس فى الكلام المنطوق ما يصلح أن يكون متبوعا لهذا التوكيد فكان أن ذهب النحاة ـ بحق ـ إلى أن الأصل « كائن عندك » ، وفى كائن ضمير مرفوع انتقل إلى الظرف حين حذف الوصف ، وجاء توكيد هذا الضمير مرفوعا على نسقه ، وحق لهم بعد هذا أن يروا أن العربى ينوى متعلقا فى هذا الأسلوب ، ولولا هذا ما ساغ الإتيان بالتوكيد المرفوع ، ويرى الناظر أن هذا استدلال صحيح ونظر صائب لا يدفعه ابن مضاء أن ابتغى شرعة الإنصاف [1] » .

قلت : وهذه المناقشة مقتصرة على ناحية الصناعة ، أما من ناحية المعنى ، فما أظن ابن مضاء ، ولا سلفه يرون أن الكلام تام دون ملاحظة المتعلق .

(١) مجلة الأزهر العدد السادس ص ٥٢٨ لسنة ١٣٦٧

وأصحاب تحرير النحو لا يتبعون منهجا واضحا موحداً ، وهذا مثل على اضطرابهم فى منهجهم ، ذكروا فى كلا وكلتا أنه إذا أسند إليهما أو عاد عليهما ضمير جاز فيهما :

(١) اعتبار اللفظ فيجرى الحديث عن كلا مفرداً مذكراً كما فى : « وكلا أنفيهما رابى» وعن كلتا مفرداً مؤنثا كما فى قوله تعالى: (كلتا الجنتين آتت أكلها) .

(ب) - اعتبار المعنى فيجرى الحديث عن (كلا) مثنى مذكراً ، كما فى (كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا) وعن كلتا مؤنثا فى مثل قولك (كلتا الشجرتين قد أثمرتا) .

فنلاحظ أنهم لم يأتوا بشاهد عند التمثيل لاعتبار المعنى مع إضافة كلتا إلى الاسم الظاهر ، ويبدو أنه لا شاهد لهذا ، وقد قال الأشمونى عقب ذكره جواز الأمرين ، مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى، قال : « وخص إجراؤهما مجرى المثنى بحالة الإضافة إلى المضمر » ومعنى هذا أنهما إذا أضيفتا إلى اسم ظاهر لم يجز إلا مراعاة اللفظ ، وما إلى هذا الحكم سقت الكلام ، وإنما سقته لأن المؤلفين فى تحرير النحو لم يجدوا شاهدا ، وضربوا بنص الأشمونى عرض الحائط ، فى حين أنهم عند الكلام على معاملة كلا وكلتا معاملة المثنى إذا أضيفتا للضمير : - وهذا هو المشهور عند النحويين - رجحوا الرأى القائل بمعاملتهما معاملة المقصور مطلقاً ، واعتبروه رأيا جديراً بالقبول ، قالوا - وهذه عبارتهم - : « لأن النحويين لم يأتوا بشاهد من كلام العرب مأثور على إعرابهما إعراب المثنى إذا أضيفتا للضمير »

فأولا : لماذا فرقوا بين هذه المسألة ومسألة مراعاة المعنى عند الإضافة للظاهر مع أنهم لم يجدوا شاهدا من كلام العرب فى الحالتين . ولذلك اضطروا أن يجيبوا بمثال من عندهم فى المسألة الأولى .

وثانيا : إذا كانوا مجتهدين فى النحو فلماذا لم يرجعوا إلى كلام العرب ويتدبروه حتى يثبت لديهم إذا كان هناك شاهد أولا ، فإذا لم يجدوا شاهدا كان موقفهم من النحويين قوياً ، فيردون رأيهم الذى درجوا عليه منذ عرف النحو إلى يوم الناس هذا واشتهر عنهم .

وثالثاً : الشاهد موجود فى كلام العرب رأيت فى شرح درة الغواص ، ما يأتى : « وأما إدخال اللام على كل فنقل المقرى فى رسالة الغفران أن أبا على الفارسى كان يجيزه ، وينقله عن سيبويه ، وليس بشائع فى كلام العرب ، وأنشد لسحيم شاهدا عليه قوله :

رأيت الغنى والفقير كليهما
إلى الموت ، يأتى الموت للكل معمدا »

فهذا شاهد من كلام العرب يؤيد ما ذهب إليه النحويون ، وعلى هذا الاستعمال جاء قول أبي تمام فى مدح عبد الله بن طاهر :-

سما للعلا من جانبيها كليهما
سمو عباب الماء جاشت غواربه

وقول المتنبي :

أسد يرى عضويه فيه كليهما
متنا أزل وساعداً مفتولا

وقد كان على أصحابنا إذا أرادوا أن يؤيدوا الاستعمال الآخر أن يجيئوا بشواهد وبشواهد كثيرة استعملت فيها كلا وكلتا استعمال المقصور مع إضافتهما للضمير، أو على الأقل كان المنهج السليم يقتضيهما أن يقفوا فى كل مسألة عند الشاهد فان وجد اعتمدوا الرأى الذى يتأيد به وإن لم يوجد قالوا ما يحلو لهم ، أما أن يفرقوا ، بل يعمدوا إلى مخالفة النحاة ، وفقط مخالفتهم فهذا ليس شأن من يريد أن يحمل الناس على رأى جديد ، وإن كان تأييداً لرأى مرجوح قديم

وهذا مثل نكتفى به فى هذا الاتجاه ، وله فى نحوهم نظائر وأشباه .

ثم نثنى عنان القلم إلى صنيعهم الذى سموه (تحرير النحو) جاء فى مقدمة الكتاب :

« كان الإصلاح من قبل متجها إلى تلخيص القواعد ، وتخليصها من التطويل أو الجدل ، أو إلى طريقة عرضها ووسائل توضيحها وفى هذه المحاولة اتجه الإصلاح إلى ذات القواعد ، ولم ينكل عن تغيير فى ترتيبها »

فلننظر فى التغيير الذى صنعوه فى ترتيب القواعد . لنرى هل حرروا النحو حقيقة ؟ :

١ — كان القدماء يقسمون (المنادى) إلى علم مفرد ونكرة مقصودة ، وإلى مضاف وشبيه به ، ونكرة غير مقصودة ، ويجعلون الأولين مبنيين على ما يرفعان به ، ويجعلون الثلاثة الأخيرة منعوتة فجاء تحرير النحو ليهرب من هذا التقسيم فاتبع الطريق الآتية :

(ا) - إذا كان المنادى مضافا نصب نحو (ربنا لا تؤاخذنا) . (يا سائق السيارات لا تسرعوا) .

(ب) - وإذا كان المنادى علما غير مضاف رفع ومنع التنوين نحو (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) . (يانوح اهبط بسلام منا).

(ح) - وفيما عدا ما تقدم إذا نون المنادى نصب . وإذا منع التنوين رفع ، فمن أمثلة المنادى المنون يا مؤمنا لا تعتمد على غير مولاك ، يا رحيما بالعباد ، يا موقدا نار لغيرك ضوؤها .

فيارا كبا إما عرضت فبلغن
نداماى من نجران ألا تلاقيا [١]

ومن أمثلة المنادى غير المنون (يا جبال أوبى معه) . يا شرطى أمامك اللص . يامتسابقان قفا . وأقول لهم : فى أى منطق يسوغ أن نقول للتلميذ إذا نون المنادى

---

(١) مثل صاحب النحو المنهجى بهذا البيت الشبيه بالمضاف مع أن النحويين مثلوا به النكرة غير المقصودة . وهو الصحيح .

نصب ، وإذا منع التنوين رفع ؟ وهل معنى ذلك إلا أن الناطق مخير فى كل مثال مما ذكرتم بين أن ينون وينصب ، أو يمنع التنوين ويرفع ، فله أن يقول مثلا : يارحيم بالعباد ، ويا راكب إما عرضت ، دون أن يختلف المعنى ، وإذا قلتم إن على المدرس أن يفهم التلاميذ متى ينون ومتى يمنع المنادى من التنوين قلت لامناص — حينئذ — أن يرجع إلى التقسيم القديم فيقول يمنع التنوين إذا كان نكرة مقصودة ، وينون إذا كان شبيها بالمضاف ، أو نكرة غير مقصودة .

ومثل هذا ما فعلوه فى اسم (لا) النافية للجنس ، فقد حرصوا على أن يتركوا التقسيم القديم أيضاً ، ولكن لم يتأت لهم ، فوضعوا القاعدة بحيث تضطرنا اضطراراً إلى الرجوع للتقسيم القديم .

وصنيعهم فى المندوب يدل على أن الدقة فى وضع القواعد لا وزن لها فى حسابهم ، وإلا فلننظر هذه القاعدة ، « وإذا استعمل المندوب من غير زيادة ألف الندبة نحو واعمر ، فاتح مصر ، واصلاح الدين كان له من الإعراب حكم المنادى » .

وليتأمل القارئ هذه القاعدة جيداً ، وليستحضر فى نفسه ما ذكروه فى حكم المنادى ، وليعلم أنهم لم يقيدوا المندوب بشرط من الشروط أكثر من أنه (اختص بنداء المتفجع عليه أو المتوجع منه) وبدهى أن الحكم هو : إذا كان المندوب علماً رفع من غير تنوين ، وإذا كان مضافا نصب ، وفى غير هذا إذا نون نصب ، وإذا منع التنوين رفع . !

أما تابع المنادى فجاء تقعيده — عندهم — بسيطاً سهلا مهلا ، إذا اتبعنا المنادى مضافا خاليا من أل وجب أن يكون التابع منصوبا على أن كلا من التابع والمتبوع منادى مستقلا ذكر حرف النداء فى الأول وحذف من الثانى ، وإذا أتبع بمفرد أو بمضاف فيه أل كان التابع مرفوعا .

فأولا : فرقوا بين نظيرين فجعلوا أحدهما منادى مستقلا ، وجعلوا الثانى تابعاً ، وثانيا لم يبينوا وظيفة الكلمة فى الجملة ، أهى نعت أو توكيد أو بدل ، ولعل ذلك مغزاه وقيمته فى الجملة ، وثالثا كيف تقبل أن تقول فى قولهم : يا زيد نفسه ، إن التقدير يا زيد يا نفسه ، وفى يا تميم كلكم ، إن التقدير يا تميم يا كلكم ، وما قيمة تكرار النداء حينئذ ؟ إن المغزى من التوكيد يذهب ، وهو مغزى لا يصح أن نهدره فى سبيل التيسير على المتعلمين ، لأننا نفقدهم أسرار لغتهم مقابل تدليلهم بعض الوقت .

٢ — قالوا فى فتح همزة إن وكسرها : « وتكسر همزة إن إذا وقعت فى ابتداء الجملة مثل (إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا) . (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) . (كلا إنها تذكرة) .

وكذا إذا حكيت بالقول مثل (قال إنى عبد الله) . (قل إن الله قادر على أن ينزل آية) ، وتفتح همزة إن فى غير ذلك مثل أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) . (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير) . (ذلك بأن الله هو الحق) .

وقعد المتقدمون هذه المسألة ، وسنسوقها فى أوضح صورها وأبسطها فى نظم ابن مالك : —

وهمز إن افتح لسد مصدر
مسدها وفى سوى ذاك اكسر

فاكسر فى الابتدا وفى بدء الصلة
وحيث إن ليمين مكملة

أو حكيت بالقول أو حلت محل
حال كزرته وإنى ذو أمل

وكسروا من بعد فعل علقا
باللام كا علم إنه لذو تقى

إن قاعدتهم قاصرة ، فهم لم يذكروا وقوع (إن) فى بدء الصلة ، ولم يذكروا وقوعها فى القسم ومن ناحية أخرى هم فى حاجة إلى أن يفهموا التلميذ ما معنى وقوع (إن) فى الابتداء ، وهى واقعة بعد (ألا) أو (كلا) أو (واو الحال) أو (حيث) أو واقعة (خبراً عن اسم الذات) ، وكيف يفهم التلميذ أنّ (إن) فى قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لفى خسر » وفى قوله « حم ، والكتاب المبين إنا أنزلناه » .

فإذا قالوا : نقول له إذا وقعت فى الابتداء أو شبهه ونعدد له المواضع ، قلت إن قاعدة النحويين أيسر وأوجز وأحكم .

٣ — جمعوا باب المبتدا والخبر وباب الفاعل ونائب الفاعل فى باب واحد ، سموه باب المسند إليه والمسند ، ولعل هذا أبرز ما فى صنيعهم الجديد ، وكان هذا الصنيع جميلا لو استقام لهم أن يجعلوا الأحكام كلها واحدة فى هذه الأنواع الثلاثة ، ولكنهم اصطدموا بأحكام خاصة بالمبتدا وأحكام خاصة بالخبر ، لا تنسحب على الفاعل ولا على الفعل ، كحذف المبتدا والخبر وجوبا مثلا ، وحين جاءوا إلى هذا الموضع أهملوه ، وفى هذا تنكر للحقائق العلمية ، وظلم للعلم وللغة أن يكون جوابنا عن المشاكل التى تواجهنا إهمالها .

وقد عالج هذه المسألة من قبل أستاذنا الكبير الشيخ محمد عرفة فى كتابه (النحو

والنحاة) بما كان يجب أن يُسَنّى هؤلاء عن معاودة الوقوع فيها ، ومن قوله معترضا على بعض قواعدهم التى عمموها على المبتدا والفاعل (أخ المحمدان ، أخ نكرة لا تصلح للابتداء فتعين أن يكون خبراً مقدما والمسند إليه المحمدان ، وهو مؤخر ، فدخلت تحت قاعدة المؤلف القائلة إذا تأخر المسند إليه وكان مثنى أو جمعا وجب التزام التوحيد فى المسند ، وهو باطل بل الواجب المطابقة فنقول أخوان المحمدان لا أخ المحمدان) .

(إن المؤلف اضطر تحت ضغط اختلاف الأحكام أن يقول المسند إليه إذا تقدم والمسند إليه إذا تأخر فقسمه إلى قسمين ، وهذا مثل قولهم مبتدأ وفاعل ، بل إن قولهم أخصر أو تسميتهم أقل حروفا) .

٤ — وجمعوا المنصوبات تحت اسم واحد هو (التكملة) وهذه أكثر تفاهة من سابقتها فإنهم لم يجدوا رابطة بين هذه المنصوبات إلا فى أنها فضلة ، وأنها منصوبة ، والنحويون قالوا بهذا ، ثم إنهم — أعنى نحاتنا الجدد — قعدوا كل تكملة بباب لا يقل كثيراً عما ذكره النحاة القدامى ، فأى تحرير فى هذا الصنيع ؟ ولا تزال القواعد هى القواعد ، ولم يفدنا جمعها تحت عنوان واحد أية فائدة جديدة ؟ ! .

٥ — وفى الكتاب مسائل وآراء خالف فيها المؤلفون النحاة المتقدمين ، ولكنهم أعرضوا عن مناقشة أدلتهم ، وكان الواجب يقضى على من يستدرك على غيره أو يخطئ من رأيه أن يذكر أدلته ويرد عليها ، ولكنه من غير المقبول أن يكون كل الدليل أننا نريد التيسير أو أننا نعفى تلاميذنا مما لا يروقنا من أدلة المتقدمين وقواعدهم .

من أمثلة ذلك اعتبارهم ضمائر الرفع المتحركة حروفا قالوا حتى لا يخلط التلاميذ بين ألفى الزيدان قاما وبين واوى الزيدون قاموا ، وبين تاء كتبت للمؤنثة (الساكنة) وتا كتبت للتكلم أو الخطاب (المتحركة) . فى الوقت الذى نبهوا فيه على أن (نا) إذا سبقت بناصب أو بجار كانت ضميرا ، فلا مانع عندهم أن يخلط التلاميذ فى هذه الآية « ربنا إننا آمنا » فيقولون إن (نا) الأخيرة حرف ، وأما الأولى والثانية فاسمان ، وكذلك لا مانع أن يخلط التلاميذ بين كافى (ذلك كتابك) فهى حرف فى الكلمة الأولى واسم فى الكلمة الثانية ، ولكن البأس كل البأس أن تختلط على التلاميذ التاءان فى أنت كتبت وهند كتبت.

ومن ذلك إنكارهم للضمير المستتر فى الفعل وفى المشتق ، وقد أشرت فيما سبق إلى هذه المسألة ، ولكنى أريد أن أبين سلبيتهم ، فهم لم يناقشوا دليل النحويين ، على استتار

الضمائر فى الأوصاف ، ومنه قول العرب : مررت بقاع عرفج كله ، ومررت بقوم عرب أجمعون . ألا ترى أن أجمعون توكيد مرفوع ولا وجه له إلا أن يجعل توكيداً للضمير فى عرب وهو مرفوع وكذلك كله توكيد مرفوع تابع للضمير المرفوع فى عرفج ، وذلك على تأويل الجامدين (عرب وعرفج) بالوصف ، فيراد بعرب المتولدون من الجنس المعروف ، وبالعرفج المندرج فى هذا الجنس من الشجر ، وإذا ثبت استتار الضمير فى المؤول بالمشتق فأولى أن يثبت فى المشتق المحض .

وإذا ورد عليهم قول جرير :

ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه
ما لم يكن وأب له لينالا

وقيل إن جريراً عطف على الضمير المستتر فى (يكن) . وقول ابن أبى ربيعة :

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى
كنعاج الفــلا تعسفن رملا

وقيل إن « زهر » ، معطوف على الضمير المستتر فى أقبلت ، إذا قيل لهم هـذا قالوا ، إن جريرا لم يعطف ، وإن عمر لم يعطف ، فنقول لهم : فكيف تخرجون هذا الأسلوب ، وطبعى أن يسكتوا ، ولكنهم لا يرضون بالسكوت ، فيقولون : نحن نعنى تلاميذنا ، ونعلمهم ألا يستعملوا مثل هـذا الأسلوب إذا صادفهم . وهو ـ والله ـ أمر غريب . كأن الذى يقعد قواعد جديدة إنما يجعلها أثوابا يفصلها على تلاميذه ! .

هذه التقعيدات وأشباهها هى كل ما زادوه على النحو القديم ، مع طرحهم العلل وكثيراً من الخلافات ، فإذا كان هذا يعتبر تحريراً للنحو ، فأنا أهنئهم على هذا الفتح المبين ؟

على العمارى

الثعلبـان

وقع ثعلبان فى شرك صائد ، فلما انتصف الليل ، قال أحدهما للآخر : يا أخى أين الملتقى ؟ قال : فى الفرّائين [1] بعد ثلاثة أيام .

الذئب

أخذ رجل ذئبا فجعل يعظه ويقول : إياك وأخذ أغنام الناس فيعاقبك الله ، والذئب يقول : خفف واختصر ، فقدامى قطيع من الغنم ـ لئلا يفوتنى . . . !

---

(١) الفراء : صانع الفراء أى : إننا سنذبح وتتخذ من جلودنا الفراء ،

نعم، ينتفع الميّت بعمل الحىّ

للأستاذ محمد عبد الحميد البوشى

قرأت بمجلة الأزهر فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ تحت عنوان هل ينتفع الميت بعمل الحى ؟ للأستاذ عمر الجندى كلمة تحدث فيها فضيلته عن مدى انتفاع الميت بعمل الحى.

ولما كان فيما كتبه مجافاة عن الصواب أحببت أن أكتب كلمة أبسط فيها الموضوع من جميع وجوهه فأقول : للعامل ثواب ما عمل من الصالحات وقد أجازت الشريعة الإسلامية للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صدقة أو غيرها ، وقد استدل العلماء على ذلك بما جاء فى الصحيحين من أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أحدهما عن نفسه والآخر عن أمته ممن أقر معه بالوحدانية وشهد له بالرسالة ، وبما رواه الدارقطنى:أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان لى أبوان أبرهما حال حياتهما فكيف لى ببرهما بعد موتهما فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن من البر بعد الموت أن تصلى لهما مع صلاتك وتصوم لهما مع صيامك ... » .

كما أجمع العلماء على أن الميت ينتفع من عمل الحى بأمرين :

الأول : ما تسبب فيه الميت حال حياته ، ودليله ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له » ...

وما رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علم علمه ونشره أو ولد صالح تركه أو مصحف ورثه أو مسجد بناه أو بيت لابن السبيل بناه أو نهر أجراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته .

الثانى : دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج والصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر ...

ودليل انتفاع الميت بهذا القرآن والسنة : أما القرآن فقوله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » .

وأما الحديث : فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » .

وفى صحيح البخارى عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها أن تصدقت عنها ؟ قال نعم ، قال فإنى أشهدك أن حائطى «المخراف» صدقة عنها .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » .

وروى البخارى عن ابن عباس أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال حجى عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء .

وصول ثواب قراءة القرآن للميت :

يقول ابن القيم : وأما قراءة القرآن ، وإهداؤها للميت فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

ويقول الشوكانى فى نيل الأوطار مانصه: وقد اختلف فى غير الصدقة من أعمال البر هل يصل إلى الميت أم لا فذهب المعتزلة إلى أنه لا يصل إليه شىء، واستدلوا بعموم الآية « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وقال أهل السنة : إن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صلاة كان أو صوما أو حجا أو صدقة أو قراءة قرآن أو غير ذلك من جميع أنواع البر ، ويصل ذلك إلى الميت وينفعه .

وقال الشافعية فى شرح الروضة فى كتاب الإجارة : إن الذى دل عليه الخبر بالاستنباط أن القرآن إذا قصد به نفع الميت نفعه إذ قد ثبت أن القارئ لما قصد بقراءته نفع الملدوغ نفعته وأقر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله (وما يدريك أنها رقية) وإذا نفعت الحى بالقصد كان نفع الميت بها أولى لأنه يقع عنه من العبادات بغير إذنه مالا يقع عن الحى .

وقال المالكية فى الشرح الكبير : إن قراءة القرآن على الموتى ليست من عمل السلف الصالح لكن المتأخرين على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر وجعل ثوابهما للميت ويحصل له الأجر إن شاء الله وهو مذهب الصالحين من أهل الكشف .

وذهب أحمد بن حنبل إلى أن ثواب قراءة القرآن يصل إلى الميت .

وقال العلماء أيضا : إن قضاء الدين عن الميت يسقط من ذمته ، ولو كان من أجنبى

أو من غير تركتـه ، وإذا كان الميت ينتفع بالإسقاط والإبراء فكذلك ينتفع بالإهداء والهبة ، ولافرق بينهما لأن ثواب العمل من حق المهدى الواجب فإذا جعله للميت انتقل إليه كما أن ما على الميت من الحقوق من دين وغيره هو محض حق الحى فإذا أبرأه وصل الإبراء إليه وسقط من ذمته .

كما ورد عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال : (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليـه) بمعنى أنه يتألم كذلك فإذا كان الميت يعذب ويتـألم بالبـكاء أفلا ينعم ويسر بقراءة القرآن ؟ .

الشبه التى اعتمد عليها المانعون وردها :

قالوا إن هذا لم يكن معروفا فى السلف ولم ينقل عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير .

والجواب أنه قد ثبت وصول ثواب الحج والصوم والدعاء والاستغفار ، بالأحاديث الصحيحة فما هى الخصوصية التى دعت إلى وصول ثواب هذه الأعمال ومنعت من وصـــول ثواب قراءة القرآن وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات .

فإن قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة قلنا : إن ما ورد من أحاديث الحج والصوم والصدقة كان جوابا عن أسئلة السائلين فهذا سأله عن الحج عن ميته ، وذاك سأله عن الصوم ، والآخر سأله عن الصدقة. ولم يرد أن أحداً من الصحابة سأل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن قراءة القرآن على الموتى ، كما أنه لم يرد عن الرسول عليه السلام منع لهذه القراءة .

على أنه قد وردت أحاديث تفيد جواز قراءة القرآن على الموتى .

فقد روى الدار قطنى عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ووهب أجـرها للأموات كان له من الله أجر كبير .

وفى النسائى من حديث معقل بن يسار المزنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اقرءوا يس عند مـوتاكم ، وأخرجه أبو داود وأحمـد فى مسنده وابن حبان وصححه .

وروى الشوكانى فى باب المحتضر عن شريح عن أبى الدرداء وأبى ذر قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من ميت يموت فيقرأ عنده يس إلا هون الله عليه .

ومما استدل به كاتبنا وغيره قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وقوله « ولا تجزون إلا ما كنتم تعلمون » وقوله « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

والحديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وولد صالح يدعو له وعلم ينتفع به بعد موته » .

وأقول لهؤلاء جميعا إن الآيات والحديث لا تثبت مدعاهم .

أما الآية الأولى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » فيقول ابن القيم : إن رد الاستدلال بها من وجهين :

الوجه الأول : أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء وأولد الأولاد وتزوج الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه واهدَوْا له العبادات وذلك من أثر سعيه كما ورد فى الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه) وأيضا فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى فى انتفاع نفسه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض فى الأعمال التى يشتركون فيها كالصلاة فى جماعة والاشتراك فى الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نتيجة سعيه .

الوجه الثانى : أن الآية لم تنف انتفاع الرجل بسعى غيره وإنما نفت ملكه لسعى غيره ، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى ، فالآية تقول : إن الانسان لا يملك إلا سعيه أما سعى غيره فهو ملك له إن شاء أن يبقيه لنفسه أبقاه وإن شاء أن يبذله لغيره فعل .

يقول ابن القيم وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها .

أما الآية الثانية « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » والآية الثالثة « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » فالرد أن سياق الآيتين يدل على نفى عقوبة العبد بعمل غيره ولا يدل على نفى انتفاع غيره فالإنسان ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء وإنما على أنه صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل الله بها على يد بعض عباده .

وأما الاستدلال بالحديث (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . .) فاستدلال باطل أيضا ، فإن الرسول عليه السلام لم يقل انقطع انتفاعه ، وإنما أخبر عن انقطاع عمله ، وأما عمل غيره فهو لعامله ، فإن وهبه لغيره ، فقد وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو فالمنقطع شىء والواصل شىء آخر .

هذه هى أدلة المانعين وردها ، وإذا ثبت بطلانها فقد سقط مدعاهم وهو أن الميت لا ينتفع بعمل الحى .

وثبت مذهب الجمهور من أهل السنة والفقهاء ، وهو ما جرى عليه عمل المسلمين نسأل الله الهداية إلى فهم دينه والعمل بسنة نبيه ، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

محمد عبد الحميد البوشى
المدرس بمعهد سوهاج الدينى

الأزهر منذ أربعين سنة

للأستاذ محمد على غريب

— ٣ —

احتاج الأمر إلى أن نقوم بطائفة من التجارب ، لنسلك سبيلنا إلى مسجد (إبراهيم أغا) على مقربة من القلعة ، وكنا خمسة طلاب فى السنة الأولى ، نخرج من منزل واحد ، وكنت وأخى الأكبر نسكن فى حجرة واسعة ، أجرها فى الشهر أربعون قرشا ، والطريق من (الباطنية) إلى المسجد عجيب ، فإن علينا أن نسير فى طرقات ودروب وأزقة متشعبة .

وفى أول يوم جاء معنا طالب كبير يرشدنا ويوصينا بألا ننسى معالم الطريق ، فكنا نتلفت فى فضول إلى هذه الأبنية القديمة المتخربة ، ونقرأ لافتات الدروب والحوارى والأزقة .

وفجأة برز من أحد المنعطفات صبية وأطفال صغار ، راحوا يقذفوننا بالطوب ويتغنون :

يا مجاور عمتك دابت
م الطرشى والفول النابت

ودهشنا كثيراً وغمرتنا موجات من الغضب والخزى والاضطراب ، فنحن لم نؤذ هؤلاء الصغار ولكنهم يهاجموننا فى عنف وقسوة ، وثمة قليل من السابلة ينظرون إلينا ويضحكون .

وجعل قائدنا يجرى وراء هؤلاء الأطفال ويحصبهم ويصرخ فى وجوههم وهم يحاورونه ويداورونه والابتسامات على شفاههم وأيديهم تعبث فى الأرض لتلتقط الحصى ، ولم يكن هناك مجال لأن ننسحب ونجرى هاربين فإن لنا نحن القرويين كبرياء تمنعنا من اقتراف هذه الخطيئة .

وأصابنا من هذه المباغتة فزع ورعب حقيقيان أرغمانا على أن نلوذ بالصمت ، وفى نفوسنا ثورة من الحنق والأسى والغم ، ولم يكن فى طوق أحدنا أن يرفع عينيه إلى زميله كما لو أننا ضبطنا متلبسين باقتراف إحدى الحماقات ، وفتحت النوافذ على رءوسنا وبرز منها النسوة ضاحكات عابسات ، والتقت كل واحدة منهن بجارتها التى يقع منزلها

قبالتها وراحتا تتخذان من ضعفنا وخزينا مادة للتبسط فى الحديث والثرثرة الممجوجة .

وأعلنت الهدنة بعد أن شبع الأطفال من مزاولة مهنة الحرب التى هى هوايتهم المفضلة مع الطلاب الأزهريين فى هذه البقعة وفى البقاع المحيطة بالأزهر وفى المساجد التى يتلقى العلم فيها طلابها .

وفى الطريق لقينا (الشيخ مصايب) وهو من بلدة تجاور بلدتنا ولنا ببعض أهلها قرابة وكان يعرفنا ، ومظاهرنا القروية تكشف عن هويتنا ، فنحن نمثل خمسة من القرويين يسلكون طريقا بين الحقول إلى غايتهم فى فلاحة الأرض .

وقال لنا الشيخ مصايب :

- رايحين تقشروا درة فين يا مشايخ ؟

ورد عليه أخونا قائلا :

فى عزبة (العظايمة) !

والشيخ مصايب هذا كان طالبا أزهريا وفسد ، وأضحى يغشى مجالس الكبراء والأثرياء والعظماء ويطرفهم بنكاته وأمازيحه وكانوا يفتقدونه إذا غاب ، ويبعثون وراءه بالرسل ليحضروه ... فما ينبغى أن تخلو هذه المجالس الفخمة من مضحك يفتح أفواه هؤلاء السادة المترفين بالابتسامات والضحكات .

ولم يكن هذا هو اسمه . . . بل إنه انتحل اسم (الشيخ مصايب) من أزهرى مثله كان من جهينه وسمى نفسه بهذا الاسم وصار يخالط أهل الثراء والمقدرة ، ويفيد من وراء اتصاله بهم خيراً كثيراً لأنه كان خفيف الظل . . حاضر البديهة ، يملأ جعبته بقدر كبير من النكات والأضاحيك .

وانتهينا أخيراً إلى مسجد (إبراهيم أغا) الذى يدرس فيه طلاب السنة الأولى من القسم الابتدائى بالأزهر ، وصعدنا إليه فى سلم عتيق ، وعلى الباب استقبلنا شيخ ضخم الجثة اسمه بيومى وراح يسألنا عن أسمائنا وينظر فى أوراق مطبوعة بين يديه . ثم أشار إلى المكان الذى سنجلس فيه على الحصير وهو الفصل التاسع عشر .

هل قلت لك إن اسمى أصبح مطبوعا على الورق ؟ . . إننى لم أتأكد من ذلك ، ولكن زملائى راحوا يؤكدونه فداخلنى من السرور بقدر ما يداخل باحثا فى منجم عندما يرى أمامه جبلا من الذهب .

كنت أتمنى أن أرى اسمى مطبوعا ولو سجنت بعدها ثلاثة عشرة عاما ، ولعل هذه الرغبة الصبيانية التى خامرتنى فى ذلك الحين ، والتى أعنف نفسى عليها اليوم تعنيفا شديدا ، رغبة طبع اسمى على الورق ، أقول لعل هذه الرغبة هى من بين الأسباب التى قادتنى إلى امتهان الصحافة والعياذ بالله ! .

وجلسنا على الأرض حول مقعد خشبى ،

ورأينا إخواننا الذين بقوا فى الفصل من العام الماضى لأنهم رسبوا . . قد أحضر بعضهم حذاء خفيفا اسمه (المزج) وانتعل به فى داخل المسجد ، وبعضهم فرش على الحصير مكان جلوسه (فروة خروف) وكل ذلك لاتقاء الرطوبة التى تنبعث من الأحجار .

أما أنا فقد شربت هذه الرطوبة ، واكتويت بنيرانها ، وما تزال آثارها الأليمة عالقة ببدنى . . أحاول جاهدا أن أتخلص منها بالتردد على كثير من الأطباء وتعاطى أشتات من الأدوية .

وجاء الشيخ الذى سليق علينا درس الفقه ، وجلس على الكرسى كما لو أنه يجلس على عرش بلقيس ، ومد إلينا يده فقمنا إليه جميعا ولثمنا هذه اليد ، وهو صامت لا ينطق بحرف .

ثم رحنا نصغى إلى درسه وقد فتحنا كتاب الفقه ، ومضى الشيخ يفسر ما عسى أن يغمض علينا ، ولم يكن الكثيرون منا يفهمون شيئا ، ولكنهم كذلك لم يستطيعوا أن يوجهوا أسئلتهم إلى الشيخ ، فقد عقدت هيبته ألسنتهم ومنعتهم من أن يبوحوا بما يخامرهم من طلب الاستفهام والاستفسار .

على أن زملاءنا الراسبين كانوا أوفر جرأة منا . . فراحوا يسألون . . وفضيلة الشيخ يجيبهم فى صبر وتؤدة ووقار . ولعل هذا قد أغراهم بأن يسرفوا فى الأسئلة فنهرهم الشيخ . . ثم صرخ فى وجوههم . . وهم لا يكفون عن توجيه الأسئلة إليه كما لو أن هذه الصرخات تذهب فى الهواء .

وانتهى درس الفقه ، وجاء درس النحو . . . وجلسنا فى أماكننا بعد فترة يسيرة من الراحة ، وجاء إلينا شيخ لا أدرى كيف أصفه ، فقد هممت بأن أضع يدى فى جيبى وأمنحه إحسانا ... حسبته مستعطيا غافل ملاحظ المسجد وهجم علينا يبتغى الإحسان .

كان جلبابه ممزقا . . وحذاؤه أشبه شىء بحبل من الخوص طغت عليه الأقذار ، وكانت عمامته يعلوها سواد لا أدرى من أين جاء إليها ؟ . . وهو بعد هضيم الوجه . . محدودب الظهر . . وفى عينيه بريق السخط والضجر والتحدى .

ورغم ذلك لثمنا يده وجلسنا . . فبدأ كلامه بالبسملة ... بسم الله الرحمن الرحيم ... ثم طلب إلينا أن نعربها ! وأصابنا وجوم مروع ، وأخفينا وجوهنا فى صدورنا ... فمن أين للطالب الذى يشهد درس النحو لأول مرة أن يعرف إعراب البسملة وكيف يتسنى له أن يدرك شيئا من ذلك وهو لا يعرف ما هو النحو وما هو الإعراب ؟ .

على أن الشيخ كان ماضيا فى سخطه واشمئزازه

دون أن ندرك لذلك سببا ... فنحن بين يديه فى موقف التلميذ الطيع ولم تبدر من أحدنا بادرة إزعاج له أو مضايقة ... حتى يمكن القول بأننا أثرنا حفيظته، وأغضبناه

وعرفنا أخيراً أن هذا الشيخ يشبه (أى) التى يقول النحاة عنها (أىٌ هكذا خلقت) فهذه هى طبيعته الغالبة عليه ولعل ذلك من أثر حياته الشقية المعذبة التى يحياها، فهو يقبض الجنيهات الكثيرة، حيث كان علماء الأزهر قد رفعت مرتباتهم فى ذلك الوقت، ولكنه يرفض أن يستأجر له مسكنا، وهو يقيم فى الأزهر، وينام على أرضه وله خزانة خشبية صغيرة تضم معاشه.

وليس فى استطاعة أحد أن يزعم بأنه يعرف ما ينفقه هذا الشيخ على نفسه فى الشهر، ومن المقطوع به أنه لا يزيد على ستين قرشا مع التسامح الشديد، وما بقى من فلوسه الكثيرة يدخره ليشترى به أرضا فى قريته.

وانهالت الشتائم من فم هذا الشيخ علينا كقذائف المدفع ... شتائم مهينة مؤذية .. تمتد إلى الآباء والأجداد، وكان يردد بين لحظة وأخرى أننا (هاربون من السلطة العسكرية)!.

كنا فى ذلك الوقت فى نهاية الحرب العالمية الأولى، وكان الانجليز يختطفون الرجال من قراهم ليعملوا فى معسكراتهم، ويسمونهم (متطوعين) وكان بعض هؤلاء المساكين يهربون من قراهم ليحتموا فى الأزهر خشية أن تمتد إليهم يد (السلطة العسكرية) الآثمة، وتقودهم إلى الموت.

غير أن أكثرنا لم يكن كذلك، ومع هذا فإن الشيخ أصر على أننا هاربون من السلطة العسكرية وكأنما طاب له هذا التعبير فراح يردده بين كل كلمة وأخرى إمعانا فى إساءتنا وانتقاص كرامتنا ... حتى لم يعد لدينا ما يمكن أن نبذله فى هذا الصدد سوى أن نخفى فى قلوبنا جذوة الحقد على هذا الشيخ المسكين.

وبدأنا نقرأ ما فى إعراب البسملة من وجوه.

قرأنا:

إن ينصب الرحمن أو يرتفعا
فالجر فى الرحيم قطعا منعا

وفهمنا أن هناك تسعة عشر وجها فى إعراب البسملة، وحفظنا الشعر الذى حشيت فيه هذه الوجوه، ولكننا لم نعرف شيئا منها.

وفارقنا أستاذ النحو هذا ... فتنفسنا الصعداء، وحمدنا الله كثيراً ... وإن كان قد ترك وراءه شتائمه المقذعة الفاحشة تملأ علينا جو الفصل التاسع عشر.

وفى منتصف النهار ... أذن لنا بالغداء، فعاد الكثيرون منا إلى منازلهم على أن يرجعوا إلى الدروس مرة أخرى ... وفينا من أحضر غداءه معه وتناوله فى داخل المسجد.

وعند خروجنا من باب المسجد لمحت عربة يجرها جواد مطهم، ورأيت طالبين معنا

يركبان فيها فهى عربتهما الخاصة ، وسألت عنهما ... فقيل لى ... إنهما ابنا فضيلة الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى الديار المصرية فى ذلك الحين .

ولما انفسح الوقت أمامنا ... تكشفت لنا ظاهرة غريبة ، جعلتنا نعجب من أن (مفتى الديار المصرية) يرسل ولديه أو اثنين من أقاربه إلى الأزهر ، مع أن القاعدة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت هى أن أكثر علماء الأزهر كانوا يبخلون بأبنائهم عليه ، ويبعثون بهم إلى المدارس المدنية ...

وكانت القاعدة الثانية . أن أبناء شيوخ الأزهر الذين يدرسون فيه هم أقرب الطلاب إلى التحلل والاندفاع فى مسالك اللهو والعبث .

كانوا يتخذون من نفوذ آبائهم ستراً يخفون تحته حماقاتهم ورذائلهم ، وكانوا وهم طلاب فى الفصول يعرفهم أكثر الأساتذة لأنهم أبناء زملائهم . فيغضون الطرف عن مساوئهم وزلاتهم ، وكثيراً ماترى الواحد منهم يحضر إلى الدرس ، وبعد قليل ينصرف منه بحجة أنه مريض ، وإن كان من الثابت أنه يغادر المسجد إلى المقهى أو إلى الحديقة التى تشرف على قصر النيل فيقضى أوقاته كلها لاهياً عن الدرس ، بعيداً عن محيطه .

مضينا إلى الغداء فى المنزل وأشد ما يخيفنا أن نجد هؤلاء الصبية الصغار يتربصون بنا . على أننا لم نجدهم فى هذه المرة ، وقد حمدنا الله كثيراً ، ولكننا فى العودة لقيناهم وقد اشتبكوا فى معركة مع اثنين من الطلاب الأزهريين الذين سبقونا فى المسير فلم نجد بداً من أن نركض بكل ما وسعنا جهدنا وقوتنا حتى ننجو من هذا العذاب الأليم .

إن هذه المهزلة التى كانت تتكرر فى طرقات العاصمة مع الطلاب الأزهريين دون سواهم كانت تحز فى نفوسنا فى ذلك الوقت وتخدش كبرياءنا ، وتلقى بكرامتنا فى الوحل . فلم يكن أمض على قلوبنا من أن نرى أنفسنا محاصرين بهذه الأغنية المتبذلة ، وبهذه الضحكات الوقحة ، وبهذه النوافذ التى تفتح من فوق رءوسنا لتشهد مأساتنا المخزية ! .

أكان فى وسعنا أن نسلك طريقا آخر إلى المسجد يختفى من منعطفاته هؤلاء الأطفال المجرمون ؟ لم نكن نعرف لسوء حظنا سوى هذا الطريق ، على أنه ، ما الذى يؤكد لنا أننا فى الطريق الآخر لن نفاجأ بصبية آخرين يحفظون عن ظهر قلب هذه الأغنية الدنسة ويروحون يعذبوننا بسخرياتهم المقيتة ؟ .

ورغم هذا كله لم يكن ثمة مجال لأن نصل إلى المسجد طائرين فى الجو أو سالكين دروبا تحت الأرض ، فلا بد لنا من الظهور ولا بد لنا من أن نتلقى عقابنا على أننا طلبة أزهريون ؟

محمد على غريب

وضع الربا في بناء الاقتصاد القومي

للأستاذ عيسى عبده ابراهيم

— ٣ —

موضوع « الربا والثمن العادل » هو من الموضوعات البارزة ، التى ستظل دائماً من معايير التميز بين نظم الحياة فى القرون الوسطى وبين أنظمة العصر الذى نعيش فيه .

فلننظر ، إذن ، إلى ما كانت عليه الحال فى ذلك الوقت المبكر نسبياً ، فى البلاد التى تطورت ووصلت بحضارتها المادية إلى حد جعل غيرها ينظر إليها على أنها صاحبة القيادة فى كل من مجالات النشاط الاقتصادى ، وكذا الفكرى ، فنجد مثلا أنه إلى القرن الثالث عشر تقريبا لم تكن انجلترا قد عرفت بعد ما هى الرأس مالية . بمعنى أنها لم تمارسها ؛ لأن الثروة المجمعة ـ عندئذ ـ لم تكن من الأهمية بحيث تثير هذا المفهوم الاصطلاحى ، بصورة تلفت نظر المجتمع ... بما فى ذلك الجماهير ، والممولين والمصلحين أيضاً .

إلا أنه فى جهات أخرى من أوروبا ـ ومنها فلورنسا والبندقية ولوبيك ـ وجدت عناصر من تجار ذلك الزمن ، الذين كانوا دائما على استعداد للمخاطرة بأموالهم الخاصة وبحياة الآخرين ... فى طلب الثروة ، ومن ثم لم تكن تقف فى سبيلهم أية عقبة مادية أو معنوية ، بل انحصر همهم فى جمع المال ...

وفى بعض المدن الانجليزية ـ على أية حال ـ ومنها لندن وبريستول وبلاد أخرى أقل أهمية ، ظهرت صور متواضعة ، وفى نطاق ضيق ، للرأس مالية .

وقد حفظ التاريخ نماذج لهذه الصورة المبكرة من صور الرأس مالية الباغية ، فى المجتمع الانجليزى لرجال من الوافدين على الجزر البريطانية ، وبخاصة من الجهات التى كانت تتجر مع بريطانيا ، عندئذ . مثل لومبارديا وفلنج وهانزا ...

ومع ظهور البوادر المبكرة للرأسمالية ، زادت حدة مشكلة الربا ، وهى المشكلة التى تأخذ صوراً عديدة ... منها الإقراض بفائدة محددة سلفا ، ومنها صور أخرى أشد إيذاء للمجتمع ، على نحو ما سيتضح فى الموضع المناسب .

* * *

وفى هذا المجال ـ كما فى مجالات كثيرة أخرى ـ تدخلت سلطة الكنيسة بقصد الإرشاد ، ولكن فى رأى الأستاذ كولتن ـ فى كتابه : « تاريخ العصور الوسطى » كان تدخل الكنيسة أقل من حيث الأثر والشمول ، من الصورة المبالغ فيها ، التى عمد بعض المؤرخين إلى مطالعة الناس بها .

كان الآباء من رعاة الكنيسة ، يتجاهلون التجارة على وجه العموم أو يعلنون سخطهم عليها وعلى من يمارسها ، بمقولة : إنها خطيئة وكان موقفهم هذا من التجارة شبيها بموقفهم من إدخال الفنون إلى مبانى الكنائس ، لزخرفتها بالصور والتماثيل .

ولكن يلاحظ أنه فى هذه الآونة ، وفى الأجيال التالية لها ، كانت الكنيسة ، أو كان رجال الإكليروس يملكون بصفتهم هذه أكبر مساحات من الأرض ، وكانوا يحتلون قمة الإقطاع .

ومع ذلك كانوا يقفون من التجارة موقفا لا يكتفون فيه بمجرد الترك والإهمال أو الإنكار .

وإنما تطور موقفهم هذا إلى نوع من العداوة السافرة والاضطهاد .

هذا عن الصراع بين الرأسمالية المبكرة ممثلة فى التجارة وفى عقد القروض بالفوائد الربوية من ناحية ، وبين سلطة الكنيسة التى حرمت النشاط الاقتصادى فى صورته السالفة الذكر ، وأباحت الإقطاع وتربعت على عرشه المادى الخالص .

أما الجماهير ... أما الشعوب ، فإنها كانت بطبيعة الحال ، تحس أو تتجه بميولها وبرغباتها لمجابهة المصالح الخاصة الظالمة التى طالعتها من جانب الإقطاع ، ومن ثم كانت تميل مع التجار والمرابين إلى المجابهة والمعارضة لما يصدر عن هذه السلطات الدينية من تعاليم ومن آراء .

وكان المجتمع الذى يضم هذه الطبقات يرزح تحت السيطرة المادية والمالية لملاك الأراضى وعناصر الإقطاع من ناحية ، ويرسف من ناحية أخرى فى أغلال وقيود فكرية تتمثل فى سلطة روحية غامضة تسترهب العامة . ومن هذه السلطة الروحية موقف الكنيسة من التجارة ومن القروض الربوية على ما بينا .

ولقد تبلورت العقيدة التى تفشت فى الجماهير عندئذ بمعظم الدويلات والممالك الأوربية فى مقابلة غامضة بين فكرة التخليص أو الخلاص أى خلاص النفس من الخطيئة التى تنغمس فيها ، إن هى عارضت آراء الإكليروس ، ونشطت إلى الحرف والتجارة . هذا من ناحية وبين المجازفة بالتردى فى اللعنة التى تحل بالناس إذا هم جرءوا على مجابهة تعاليم الآباء من رجال الدين ، واشتغلوا بالحرف والصناعات وبالتجارة .

ولم تكن الخطيئة مجرد سيئة لا يجزى مقترفها إلا بقدر ما اقترف من ذنب ولكنها كانت ـ كما قيل آنئذ للناس ـ خطيئة أبدية ولعنة مقيمة فى الأرض وفى السماء ، فى الحياة الأولى وفى الحياة الآخرة ، ويقابل هذه

الصورة الموحشة التى ترتعد لها الفرائص ، سلام دائم ، وخلاص للنفس البشرية يدوم أبد الآبدين .

وبين هاتين الصورتين اهتزت نفوس الجماهير بفعل العقيدة التى تولى بثها والدفاع عنها رجال الدين وهم عندئذ من كبار ملاك الإقطاعيات التى كانت تدر عليهم إيرادات وفيرة تكفل لهم النعيم وهو نعيم حلال كما كانوا يقولون .

وإنه لمن المفيد أن ننظر إلى بعض نصوص التشريع السابقة والمعاصرة ذات الصلة بهذا المجال ، ومن ذلك أن القانون الامبراطورى لروما Roman Imperial Law كان ينظر إلى المجادلة عن الثمن (أو الفصال) على أنها مسألة جرأة فى المنافسة ، أو مسألة أسلوب بمجرد أسلوب ، فى ممارسة المنافسة الطليقة ، أو الحرة ، فكان يقول :

sell as dear and buy as cheaply as you can; all is fair, short of actual cheating.

إذا اشتريت فابخس الثمن ما استطعت ، وإذا بعت فضاعف الثمن ما وجدت سبيلا إلى المضاعفة ، ولا حرج ، فهذا وذاك عدل فى المعاملة بشرط ألا تدخل الغش ...

أما قانون الكنيسة (وقد تأثرت به قوانين الحكومات التى عاشت فى ذلك الزمن، أعنى: القرون الوسطى) فقد جنح إلى شىء من الإنسانية حين قرر ما يلى : « كل فرد يرعى مصلحته الخاصة ، ولكنه (أعنى القانون الكنسى) لم يقف عند هذا الحد بل أضاف ضابطين للمعاملات قائلا :

كل يرعى جاره ، وكل فرد مطالب بأن يعامل الناس (أو الآخرين) بما يحب أن يعاملوه به ولكن هذه التعاليم التى جاءت بها قوانين الكنيسة لم تستمر من حيث التطبيق الشامل طويلا ...

وينسب السير وليام أشلى فى بعض مؤلفاته أقوالا لكل من توربليان وجيروم والقديس أوغسطين ..

فيقول الأخير ما يلى : إن ممارسة الأعمال business هى فى حقيقتها خطيئة ، لأنها تصرف النفس عن الحق وهو الله ، وفى الاتجاه إلى الحق وحده الراحة الحقيقية والسلام rest .

ويروى كولتون (المؤرخ العالم المشار إليه آنفا) فقرات أخرى لم يذكرها السير ويليم أشلى ، وقد تضمنتها مؤلفات أخرى ومنها ما هو منسوب إلى جون كيسستوم ، ومفادها من اشترى شيئا لا ليبيعه على هيئته (التى اشتراه عليها) وإنما ليكون مادة لإعداد شىء آخر ، فانه لا يعتبر تاجرا . . . ولكن الشخص الذى يشترى شيئا ليعود فيبيعه على حالته وبغير تعديل يجريه عليه ، فإن هذا الشخص الأخير يدخل فى زمرة المشترين والبائعين المبعدين عن حظيرة

المعبد وقدسيته (هكذا فى الأصل) وواضح أن المقصود ، هو الإبعاد عن جانب الله ، أو الطرد من رحمة الله .

ومن ثم كان شراء السلعة لإعادة بيعها (كما هى) خطيئة لا تقل عن الربا من حيث جسامة الجرم ، سوى درجة واحدة .

وهذه الأقوال ، لا تخرج عن كونها امتدادا منطقيا لتعاليم بولس الرسول ، أو القديس بولس الذى قرر بأنه : من حيث إن المسيحى لا ينبغى له أن ينازع أخاه المسيحى نزاعا قضائيا فإنه يتعين ألا تكون بين المسيحيين تجارة ناشطة .

* * *

ولكن تعاليم الكنيسة تراجعت فى مواجهة التنظيم الوضعى للنشاط الاقتصادى ، ومن ثم نبتت فكرة الثمن العادل The just Price التى تبيح البيع والشراء على شريطة ألا يكون هنالك غلو فى الربح . وكل غلو يعتبر كسبا محرما . وكل تجارة تجىء لصاحبها بما يزيد على الكسب المشروع (فى نظر المجتمع) تعتبر بدورها تجارة محرمة ، كتحريم الربا وحد الكسب المشروع ، هو ما يحفظ على التاجر مركزه العادى فى الوسط الذى يعيش فيه .

إلى هذه الدرجة ، إذن ، تطورت التعاليم التى كانت تحكم التجارة فى أواخر القرون الوسطى ، المبكرة ، أى حول القرن الخامس عشر .

ويرى الأستاذ كولتون ، أنه عند هذا الحد ينبغى القول بأنه لم يكن من المستساغ أن تنسى هذه التعاليم وأن تطرح تماما ، وبالفصل بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد السياسى ؛ لأن الفصل بين العلمين فصلا تاما - فى رأيه خطأ ، كالفصل بين أى علمين آخرين ، ونقول بأن هذا الرأى صواب كما نقول أيضا بأنه عندما تراجعت الكنيسة عن التحريم القطعى للتجارة ، إلى القول بالثمن العدل . وعندما قالت بتحريم الكسب الفاحش وأنزلته منزلة الربا ، قد وصلت بالتأمل إلى رأى صائب ؛ لأن الربا فى حقيقته هو كل اعتصار للضعيف ، سواء أكان هذا الجرم يتخذ صورة القرض النقدى ، أم صورة من صور الحيل التى تضفى على العقد صورة البيع ، وهو فى حقيقته ربا ... أم كان الاعتصار بأساليب أخرى كاحتكار الأقوات .

* * *

على أن التطور الذى أشرنا إليه ، وقلنا بأنه قضى على التحريم القطعى للتجارة (وقد قالت به الكنيسة فى أوائل العصر الوسيط ، وعلى الخصوص فى كل من القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، وأفسح المجال

لفكرة الثمن العدل) أنهى حالة الجمود والركود ، ومهد التطوير من جديد ... فجاء « الأب توماس الإكويني » - بدوره - بفلسفته عن الثمن العادل فى القرن الثالث عشر.

وفى رأيه أن التجارة فى حد ذاتها ليست من الخطيئة فى شيء ، لكنها تحمل بذور الشر بما تنطوى عليه من فرص الإغراء بالكسب الفاحش ، ومن ثم فرص الإغراء بالوقوع فى الخطيئة .

وكان الأب توما الإكويني على شيء من العلم . ومن ثم فقد خشى أن يصطدم بالتعاليم التى وضعتها الكنيسة من قبل ، ولذلك حين تكلم عن التجارة دار دورة كبيرة وحاول أن يفرق بين المبادلة التى تستهدف مصلحة عامة ، وتلك التى تنصرف انصرافا تاما إلى تحقيق الكسب ، وانتهى إلى القول بأنها (أى التجارة) مشوبة فى أساسها بقدر من الوزر لأنها تغرى بالتزيد فى الكسب غير المشروع ، لأنها لا تستهدف ، على وجه العموم ، خدمة عامة أو فعلا خيرا ... ومع ذلك هى لا تحمل فى ثنايا تكوينها الطبيعى - إذا جردناها من طمع الإنسان - بذور الإثم والخطيئة ، ولاعوامل مناهضة الفضيلة.

وتأسيسا على ما تقدم - يقول الأب توما الإكويني - بأنه ليس هنالك ما يمنع من القول بأن المتاجرة مأذون بها قانونا ، إن كانت تستهدف تحقيق غاية ضرورية ، أو هدفا نبيلا ...

وهنا بالذات نود التنبيه إلى أن فلسفة الأب توما وما يدور فى فلكها ، هى التى حملت الكنيسة فى القرون المتأخرة (أعنى الثامن عشر والتاسع عشر) على أن تسكت - على الأقل تسكت - حين وجهت أوروبا جهودها نحو الشرق البعيد والشرق الأوسط وشمال إفريقيا فى محاولات لتحقيق هدف ضرورى أو هدف شريف (عند الصليبيين) وهو انتقاص الأمم الإسلامية من أطرافها ، بكل وسيلة ، ومن هذه الوسائل ، بل من أهمها الإقراض بالربا الفاحش المضاعف ، وتحقيق الأرباح الخيالية . أوقل الاغتصاب والنهب المنظم لخيرات البلاد التى رزئت بنزول الفرنجة فيها .

وحين أهل القرن التاسع عشر ، اتخذت هذه الظاهرة سمتها إلى القمة ، فكانت أساليب المتاجرة مع الصين لنهب خيراتها تعتمد - فيما تعتمد عليه - على تخدير الشعب بتشجيع تعاطى الأفيون . وكانت القروض تمنح للولاة وللسلاطين بالفوائد الفاحشة ، وكانت عقود الامتياز للمتاجرة ولاستغلال الخيرات تصمم على أساس السلب المنظم ، بدعوى حق الامتياز ، ولم تحرك الكنيسة ساكنا . لأن الأهداف - فى نظر الفلسفة الإكوينية

وتطويرها ـ هى أهداف مشروعة أوشريفة أو هى على الأقل ضرورية للحد من خطر الإسلام الذى بق على وجه الأرض نوراً للبشرية وقذى فى عيون المبطلين .

وفى جو هذا التنازع بين الفضيلة النظرية المتخاذلة المضطربة ، وبين الصعوبات العملية عند التطبيق فى النشاط الاقتصادى ، مع الوقوف عند حد الثمن العدل ، بقيت مشكلة الربا كواحدة من مشكلات الاقتصاد السياسى المعروف فى القرون الوسطى ، ولكنها تميزت باعتبارها شائكة قاسية ومحرقة. لايكاد الباحث يلمسها حتى تتنازعه تيارات الفضيلة الشفوية من ناحية ، والاعتبارات العملية من ناحية أخرى .

ومما ساعد على بقائها بغير حل ، ادعاء أوروبا فى إبان عصر النهضة أنها تتمسك بدين السيد المسيح عليه السلام ، وأنها صليبية على عهدها السابق ، وأنها تؤمن بالإنجيل الذى يقول بالنص الصريح ، بتحريم الربا والفائدة فى جميع صورها ، ويعرف هذه المعاملات التى يحرمها بأنها « أخذ أى قدر زائد على أصل القرض » .

ولفظة القرض فى لغة التمويل ، أو فى سوق رأس المال تنصرف إلى الدين والمشاركة والمساهمة . على خلاف لغة القانون التى تفصل بين المفاهيم فصلا يقتضيه وضع القواعد الضابطة لكل نوع من أنواع المعاملات والعقود .

ولا تزال لفظة القرض إلى وقتنا هذا — فى دراسة التمويل — تفيد الإمداد بالمدخرات ، بصرف النظر عن الشكل القانونى الذى تصب فيه عملية التمويل . ويظل هذا النظر صحيحاً فى دراسة التمويل ، عندما يكون التمويل فى داخل إقليم معين ، وعندما يكون فى المجال الدولى على السواء ، وهكذا يتضح أن رجال الكنيسة لم يتجنوا بقولهم بأن القرض محرم ، ولا بقولهم بأن المتاجرة والمرابحة والمشاركة والمضاربة كلها حرام ؛ لأن النص الذى يتلونه يحض المسيحى، أن يعيش فى سلام ومن أجل السلام وراحة النفس ... ومن شأن النشاط الاقتصادى وحب المال ، أن يصرف النفس عن الله . والله وحده الحق .

كان طبيعياً إذن أن تبق مشكلة الربا شائكة إلى القرون القريبة وإبان عصر النهضة . واستمرت الحال كذلك حتى ثارت المشكلات فى مناسبات دينية ، كالاعتراف . إذ كان القس يسأل المعترف ، والمعترف يجيب ، أو يلجمه الحرج . ولذلك رأت روما أن تصدر تعليماتها المشددة إلى الآباء الذين يخدمون كرسى الاعتراف ، بألا يمسوا

الناحية المالية فى أسئلتهم . بمعنى أن يغضوا الطرف تماما عن ماهيـة الاستثمارات التى مارسها المعترف بخطاياه . وصدر بهـذه التعليمات منشور بابوى فى سنة ١٨٣٠ .

والمحصلة الأخيرة لهذه الأوضاع ، تتلخص فى أن تعاليم الأخوة والتراحم التى انتشرت فى الغرب الأوروبى ، بانتشار تعاليم السيد المسيح ومن تولى الدعوة إليها إلى أن كانت القرون الوسطى — حين بدأ نشاط التجارة يدب دبيبه الأول — قبل الاهتداء إلى الصناعة بمعناها المعروف خـلال مائة وخمسين عاما مضت ... أقول بأن هذه التعاليم التى تفيض سماحة ، قد تحولت عندئذ مع تقدم النشاط التجارى والمالى إلى كلام عذب ، لا شأن له بمجالات التطبيق .

وعلى الرغم من التصايح والاحتجاج بين آن وآن ، فإن هذه الأوضاع سادت وبقيت المعـاملات والأجور والأثمـان وأساليب تثمير المدخرات لا تجـد ضابطا فعالا إلا من العـادات والتنظيمات الخاصة التى تعمل على حماية جماعة معينة أو أصحـاب مهنة أو حرفة . ولم يصل التطور الاجتماعى عندئذ إلى هدفه الذى يتمثل فى قيـام مجتمع متماسك ، وذلك بسبب ضعف المواصلات ومن ثم لم يـكن هنالك رأى عام بأى قدر له وزنه ولم يكن هنالك أيضا ما يعرف بالضمير الاجتماعى ...

وفى ظروف كهذه لم تـكن هنالك فـكرة واضحة عن العدالة الاجتماعية التى تمثلها الغرب فيما بعد فى مذاهب اقتصادية دائمة التطور .

* * *

وبارتخاء قبضة رجال الدين عن شئون المـال بل عن الشـئون الدنيوية ، تقدمت الرأسمالية بخطوات ثابتة وأخذت فى تهذيب الوسائل العتيقة والتخفيف من قسوتها ، ومن ذلك تخفيف الربا ، إلى الفائدة ، على أنه يتعين التنبيه إلى أن فصل الدين والأخلاق عن الاقتصاد قد أفسح المجال أمام المغامرين لـكى ينشطوا فى مجالات التنمية بغير ضابط من الخلق أو الضمير ، ولم يتورع أحدهم عن ظلم جاره أو شريـكه أو منافسه ، وإن كان هذا الظلم يؤدى إلى تحطيم الخصم .

إلا أن الوقائع المحلية كانت فردية وغـير خطيرة ، وإنمـا تمثلت وحشية الرأس مالية فى زحفها على كل من آسيا وإفريقيا من جهة وعلى أمريـكا اللاتينية من ناحية أخرى .

بحيث نجد فى تاريخ استغلال موارد هذه القارات صفحات من التاريخ لا تدانيهـا وحشية المجوس والتتار .

ومن أقدر الأقلام التى تعرضت لوصف مصادر المدنية المادية الحديثة ، قلم الاقتصادى الأمريكى ثورشتين فبلن ، الذى لم يقف عند حد دراسة أصل الحضارة المادية ، الرأسمالية

الحاضرة ، بل عكف على تجريد الحضارة المعاصرة من زيفها وعرضها للقارئ على حقيقتها. فإذا بها ربآ فاحش وتجارة بالعرض وبحياة الآخرين ، وقد كتب إلى آخر حياته فى سنة ١٩٢٩ ، وكان طبيعياً أن يعيش مضطهداً وأن يموت مغموراً فى وظيفة أستاذ للاقتصاد بجامعة صغيرة ، بعد أن طارد أصحاب الصناعات وهم جبابرة المال ، وهم أيضا الممولون للجامعات الكبيرة .

إلا أنه وجد أيضا من يدافع عن الرأسمالية المؤسسة على المعاملات الربوية ، ومنهم آرثر لنك فى كتابه عن التطور الرأسمالى فى الولايات المتحدة من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٥٥ .

ومن الاقتصاديين الأمريكيين أيضا من يرى أن الحياة الاقتصادية الحاضرة ، لا تقوم إلا على الربا، وقد وصل بتحليل ظريف إلى أن إيجار الأرض والعقار ، فائدة ، والأجور والمرتبات ، فائدة ، وجزاء رأس المال الخالص ، فائدة ، وربح المنظم فائدة أيضا . وعنده أن الظاهرة الربوية المخففة هى علة النشاط وهى المعيار الأوحد للعدل فى توزيع الثمرات ، أى ناتج كل نشاط يباشره الإنسان بتسخيره لقوى الطبيعة وتوظيف رأس المال والجهد والكفاية ، ومن هؤلاء بول صامولسون الأستاذ ببعض الجامعات الأمريكية (الاقتصاد والتحليل سنة ١٩٥٣).

خفت صوت الدين إذن فى الغرب ، من أربعة قرون على الأقل ، فى مشكلة الربا والفائدة والربح الفاحش ، وكلما اقتربنا من القرن التاسع نجد أن الرأسمالية قد استقلت بوضع أقيستها ومعاييرها للمعاملات، وبخاصة بعد الثورة العلنية على السلطة البابوية فى شئون الدنيا ، وقد رفع رايتها نابليون فى حفل تتويجه على ما هو معروف ، عندما تناول التاج بيده وأقره على رأسه ، على خلاف التقليد الذى كان باقيا لإنقاذ الشكل ، بعد أن ضاع الجوهر ، والذى كان يقضى بأن يكون إسناد السلطة الزمنية إلى الامبراطور أو الملك ، بيد الكنيسة ممثلة فى رجل الدين.

ولذلك يتعين القول ، بأن البحث فى الربا والفائدة ، يعتبر عند علماء الغرب ، من القرن التاسع عشر إلى الآن ترفا تاريخياً أو بقية من التعصب الأعمى .

* * *

ووجه الخطورة فى هذه الجزئية أننا هنا فى الشرق ، قد تأثرنا إلى حد ما ، ونكاد نيأس من إخضاع النظم الاقتصادية لأحكام الدين الحنيف ، ولهذا أرى لزاما أن أختم هذا الجزء من المحاضرة بالتنبيه إلى إنعدام الشبه بين موقف السلطة الروحية من مشكلة الربا فى الغرب ، ومن ثم لجور الرأسمالية وتطورها إلى استعمار وحروب اقتصادية

وبيلة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى موقف الأحكام القرآنية من المشكلة الاقتصادية على وجه العموم ، وجزئية الربا على التخصيص وبيان ذلك :

موقف الكنيسة :

كان موقف الكنيسة ميئوساً منه ، ما فى ذلك شك ، ولهذا تراجعت ثم خسرت المعركة نهائيا بعد أن طال دفاعها . وأما الأسباب فتتلخص فيما يلى :

١ — نص الإنجيل : رأينا أن النص الصريح الوارد فى الإنجيل يحرم كل زيادة على القرض ، وعلمنا بأن القرض هو التمويل ، ومن ثم فهمت الكنيسة فهما صحيحا أن المتاجرة مشوبة على الأقل ، إن لم تكن محرمة قطعا فى كل صورها ، بما فى ذلك القرض الربوى بحكم النص .

ولم يكن فى وسعها أن تناقش صحة الرواية التى انتهت إليها الأناجيل الأربعة . ولم يكن فى وسعها أن تقول بأن كل إنجيل إنما يمثل ما فهمه كاتبه من تعاليم السيد المسيح .

ولم يكن فى وسعها أن تقول بأن كلام الله لا يمكن أن يجئ على العديد من الصور ، ولم يكن فى وسعها — وهذا هو الأهم — أن تقول بأن المسيحية دين سماوى ، ولكنه لفترة من الزمن ، وأنه يدعو إلى المحبة ، والسلام ، ولا يتعرض لتنظيم شئون الناس فى معاشهم ومن ثم فإن التعاليم التى تضعها الكنيسة هى قوانين وضعية يجوز عليها التطور والتعديل وأخيرا الإلغاء ... وقد كان .

٢ — موقف الكنيسة من التجارة :

حرمت الكنيسة على شعوبها أن تتجر وتوعدتهم باللعنة الأبدية إذا هم فعلوا .

إلا أن تاريخ القانون ، وتطوراته فى القرون الوسطى المتأخرة ، إلى الثامن عشر ـ وقد جمعته لجان بتكليف من نابليون عندما أراد أن يضع قانونه ـ قد حفلت بأصناف من العقود السرية ومنها عقد التوصية البحرى وفى كل عقد من هذه العقود طرف مستتر هو نبيل أو واحد من رجال الدين . وطرف ظاهر ، هو البحار الذى ينقل السلع والمحصولات فيجلب الربح ويقتسم مع الشريك المستخفى . وكانت أطراف العقود إما من الأفراد أو من الجماعات ، وكان الشريك المستتر دائما أو الشركاء ممن تقدم ذكرهم .

وكانت الجماهير تعلم ذلك ، وتتناقله ولكنها مع ذلك كانت فى حيرة من أمر العقيدة الغامضة من ناحية ، ونشاط رجل الدين فى مجالات يحرمها على الجماهير من ناحية أخرى ، ولكن فكرة خلاص النفس خلاصا أبدياً وخشية الطرد من رحمة الله ، خدرت الشعوب الأوروبية طويلا ، إلى أن كان عصر الإصلاح .

وبالتالى ، حين فقدت الكنيسة سلطتها

الزمنية ، اندفعت الشعوب الأوربية إلى النشاط الاقتصادى بطاقة مكبوتة فانطلقت لا تلوى على شيء ، وكان من الطبيعى ألا يستمع الفرد منهم إلى فكرة تحريم المعاملات الربوية ، بل إن علماءهم يتحدثون عنها الآن بوصفها من آثار جبروت السلطة الروحية التى كانت تتجر وتحرِّم التجارة فى آن واحد .

أما عقد التوصية البحرى ، وقد كان عقداً سرياً كما قدمنا ، فقد هذبه قانون نابليون وطوره إلى عقد شركة التوصية البسيطة ، وفيها شريك مستتر إلى حد ما ، وفى هذا تفصيل واف فى تاريخ عقد الشركة .

٣ — سلوك بعض رجال الدين : يقول كيتشن فى كتابه عن الطلاق Divorce by ki-tchen بأن حياة النعيم التى كان يعيشها المترفون من رجال الإقطاع ، وكذا العصاة من المشتغلين بالتجارة فى القرون الوسطى ، قد كانت مذهلة .

ويقول فى معرض الكلام عن تعدد الزوجات بأن الترف الذى أغدقته إيرادات الإقطاع على السلطة الروحية فى القرون الوسطى ، قد أدت إلى انغماس البعض من رجال هذه السلطة فى ألوان من المتع الحسية تدق عن الوصف ويقول أيضا بأن الغزوات والحروب وإعادة تخطيط المدن ، قد أدت جميعا إلى تهدم بعض الأديرة ، والكشف عن آثار وعن وثائق ، كانت مادتها محل الحدس والتكهن فى القرون الوسطى وكانت تساهم فى خلق حالات القلق والارتياب والغموض التى كانت تتألف منها عقيدة ذاهلة تحمل على التسليم فى ضيق وارتياب .

ويقول أيضا بأن الكشوف المذكورة ، وقد نشرت فى وثائق استند إليها فى مؤلفه ، قد بينت أن بعضا من الرهبان ، الذين يحرمون على أنفسهم الزواج العلنى ، كان يتخذ الواحد منهم ، ثلاثا من الراهبات ، واحدة للأب ، والثانية للابن ، والثالثة للروح القدس ، وكان التأويل الذى تطمئن إليه نفوس الجماعات التى نمت على هذا النحو ، من الذكور ومن الإناث ، أن امتزاج الروح والبدن فى تنظيم ثلاثى للراهب الواحد ، هو امتداد لعقيدة التثليث ، وشهادة على التسليم بها .

أما ثمار هذا الاتصال البدنى الروحى ، فقد كانت تدفن فى أقبية الأديرة ، فلم يكن من المفروض أن يظهر الوليد ، وقد وجدت هذه الهياكل الآدمية فى أمكنتها حال الهدم والإزالة ... لم تكن هذه الحقائق مطوية تماما عن الشعوب ، ولكنها لم تكن معلنة كذلك ، على نحو ما ارتآه المؤرخون فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وما وصل منها إلى علم الجماهير الساعية فى طلب البركة أو إلى كرسى الاعتراف ، كان كافياً لغض الطرف عن تضييق الخناق على المعترف ، وقد قامت بشأن المعاملات الربوية حال الاعتراف ، مشكلات كثيرة فى القرن الثامن عشر وفى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى أصدر البابا أمره الذى أشرنا إليه (فى سنة ١٨٣٠) .

ومن شأن سلوك بعض رجال الدين على النحو الذى يقول به كيتشن ، ألا يبقى مجال للقول فى يسر ، بقدسية تعاليم الكنيسة التى حرمت التجارة ولعنت الربا .

ومن ثم كان موقف الكنيسة من هذه المشكلة ، ميئوسا منه ، على ما قدمنا .

* * *

وإنه لأمر بالغ العجب ، أن نقول بأنه قياسا على يأس الكنيسة من مشكلة المعاملات الربوية ، واطراح رأى الدين عند النظر فى التنظيم الاقتصادى يحل لنا نحن أن نطرح حكما أو نؤوله لكى يتفق مع التنظيم الرأسمالى الجامح الذى قاد العالم إلى حروب مدمرة ، هى بعض الآثار الملموسة ، لقوله تعالى فى سورة البقرة : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وفى الجزء الأول من الآية وصف بليغ لاقتصاديات القرون الأخيرة ، التى تستنزف منها الحروب وأدوات التدمير ما يدلنا على لون من ألوان المحق ، ويكفى أن نلاحظ أن الاستعداد للحرب يكلف الشعوب فى البلاد الكبرى ما يزيد على ٤٠ ٪ من الدخل القومى

وأن هذا المال الذى يهلكه البشر طواعية واختياراً ، أو يمحقه البشر بفعلهم ، يبلغ مائة ألف مليون جنيه ، وأنه إذا وزع على سكان الأرض لخص كل فرد أربعين جنيها فى السنة ، وإذا كانت الأسرة تتألف من خمسة أشخاص ، فإن نصيبها من هذا القدر الممحوق يكون ٢٠٠ جنيه فى السنة ، فما هو إذن النصيب الحقيقى من المال المهدر لكل أسرة من الأسر فى البلاد التى تتحمل العبء الأكبر من تبعات الاستعداد للحرب ، خوفا من الحرب .

وهل صح قوله تعالى : « يمحق الله الربا » أم لم يصح بعد ؟ .

إن عصر المعجزات قد ولى مع الرسل ، ونحن البشر نتولى محق رءوس الأموال وقد شابها الربا ، بفعلنا وبتنظيمنا الخارج على إرادة الله سبحانه وتعالى ، ولكن لهذا القول موضع لا يجىء فى هذا الحديث .

« يتبع »

عيسى عبده ابراهيم
الأستاذ المساعد بكلية التجارة
جامعة عين شمس

هذا الرجل ... ماذا وراءه ؟؟

للأستاذ محمد عبد الله السمان

أهو نبي يدعو إلى دين جديد ... ولكن بدون برنامج ولا رسالة ولا أتباع ؟.

أم هو مجتهد ... ولكن المجتهدين إنما يجتهدون فى الفروع ، ولا يمسكون بمعاول ليهدموا بها الأصول ، ويضربوا بعضها ببعض ، ويخلقوا منها عجينة لا شكل ولا طعم لها ؟.

أم هو تاجر يهدف إلى الربح من مطبوعاته العديدة الضخمة ... ولكن هذه المطبوعات يوزعها بالمجان ؟.

أم هو مجموعة من الاهتزازات العقلية ، تعيش معه منذ سنين ... ولكنه يشغل منصبا فنيا دقيقاً فى الدولة ؟.

أم هو ممثل لاتجاه خطير هدام ، وموجه إلى الإسلام ... ولكن الدلائل كلها لم تثبت أن للرجل تابعاً واحداً تأثر به أو تشيع له ، رغم قيامه بدعوته منذ سنوات بعيدة ؟.

أم هو عميل لجهة أجنبية تمول مشروعاته ، ولكن الرجل يتمتع بثراء عريض ؟.

أم هو أخيراً ممن أصيبوا بمركب نقص ، يحاول عن طريق شذوذ الأفكار أن يعوض ما فاته ... ولكن الرجل يتولى منصباً كبيراً وليس بينه وبين كرسى الوزارة إلا بضع خطوات ؟.

إننى فى حيرة ...

ثلاثة أيام كاملة وأنا عاكف على رسائله التى بلغت بضع عشرة رسالة ، وكتابه عن الصلاة الذى بلغت صفحاته أكثر من سبعمائة صحيفة ، وحاولت أن أخرج منها جميعها ببرنامج واضح للرجل ، أو اتجاه محدد ، فضاعت كل محاولاتى عبثاً ، ولكننى لم أشك لحظة ، فى أن الرجل كأنما كان يكتب لنفسه وحده ، وفى منطقة نائية عن العمران ، وهو على ثقة من أن إنسانا لن يلقاه ، ومن أن أحداً - كائنا من كان - لن يقرأ حرفا مما كتبه ... ولم يكن شيئاً غريباً منه أن يعتقد أنه لا وجود اليوم لأربعمائة مليون مسلم فى أنحاء العالم ، فقد سأله سائل عن سر استعباد المسلمين ، وأسباب الفقر الذى يهدد كيانهم ، فأجاب كما هو وارد فى الرسالة الأولى الصفحة الثالثة :

« السبب ياسيدى بسيط للغاية ، فلم يعد هناك مسلمون يسلمون لله حقاً ، ويخضعون لأوامر الله وحدها فى رسالته إليهم ، وليس هناك من يدين بالإسلام لله ويتخذ من الإسلام لله دينا له ... » .

إن للرجل ندوة يقيمها مساء مرتين كل أسبوع ، أطلق عليها « ندوة أنصار القرآن »

وتحت هـذا العنوان يحاول أن يظهر بمظهر المتحمس لنصرة القرآن . ولـكن فى حدود قلب الأوضاع الإسلامية رأسا على عقب ، حتى ليتأكد للمطلع على حقيقة أفكار الرجل أنه إنما يدعو إلى دين جديد باسم القرآن ، ولا صلة له من قريب أو بعيد بالإسلام .

والدين الجـديد الذى يدعو إليه الرجل يلغى شخصية الرسول ـ صلوات الله عليه ـ إلغاء تاما ، وينفى نفيا باتا أن الرسول قد نطق لسانه بغـير القرآن ، وأن الأحاديث النبوية المنسوبة إليه هى من وضع أعـداء الإسلام ، وأن من يعتقد أن الرسول قال ـ ولو حديثا واحدا ـ يطعن فى أمانة الرسول نفسه ، لأن أمانة الرسول تقتضى ألا ينطق بغير القرآن ، الذى جاء كاملا ، وما فرط الله فيه من شىء ... وإزاء ذلك يتحتم علينا أن نترحم ألف مرة على الوضع الإسلامى منذ أن حمل رسالته محمد صلوات الله عليه إلى يومنا هذا ، وأن نترحم بجانب ذلك على فقهاء المسلمين وجهودهم فى خدمة التشريع الإسلامى.

العبادات كلها بوضعها الحالى كفر وخروج عن الإسلام الصحيح .

والصلاة المفروضة عشر :

صلاة التلاوة ، أى بعد تلاوة القرآن أو سماعه وصلاة إدبار السجود . أى عقب السجود ، وصلاة الفجر ، وصـلاة الصبح ، وصـلاة الأصيل قبيل الغروب ، ثم صلاة المغرب ، ثم صلاة العشاء ، وصلاة القيام أثناء الليل وصلاة الجمعـة ، وصلاة التهجد ، والأخيرة نافلة .

أما صلاة الظهر فهى مدسوسة على الإسلام.

وسند الرجل فى هذه الفرائض العشر التى اختلس المسلمون نصفها آيات من القرآن ، ففرضية صلاة التلاوة سندها : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى »

وصلاة إدبار السجود وسندها : « ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » .

وصـلاة الفجر سندها : « يا أيهـا الذين آمنوا ليستأذنـكم الذين ملـكت أيمانـكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر » .

وصلاة الأصيل هى العصر فى زعمه ، إلا أن أعداء الإسلام حرفوا وقتها .

وصلاة القيام سندها : « ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » .

وصلاة التهجد سندها : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » .

وصلاة العيد هى من وضع أعداء الإسلام وهى عود إلى عبادة الشمس ، لأنهـا تصلى وقت شروق الشمس .

وصلاة الجمعة تصلى فى أى وقت من نهار يوم الجمعة ، وكل الصلوات المفروضة لا يؤذن لهـا إلا الجمعة ، والخطبة قبل صلاة الجمعة من وضع مروان بن الحـكم .

والصـلوات كلها تصلى ركعتين ركعتين ، ركعتين لفريضة الصلاة ، وركعتين لفريضة

لإدبار السجود ، والصلاة التى يقرأ فيها التشهد باطلة ، لأن التشهد بالطبع لم يرد فى القرآن .

أما الزكاة ، فتحديدها ليس من الإسلام ، فالمسلم بعد أن يحتفظ بقوته الضرورى يسلم أمواله لبيت المال .

وأما الصوم ، فالمسلم مخير بين أن يصوم ، أو يطعم مسكينا ولو كان قادراً على الصوم .

وأما الحج ، فهو أربعة أشهر كاملة : شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، يقضيها الحاج دون التخلف يوما ، وليس فرضاً إلا على القادة وأقطاب الصناعة والأعمال .

إن للرجل قـــدرة لا تطاق على تحميل القرآن ما لا يطيق ، وهو فى سبيل إصراره على إنكار الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله - صلوات الله عليه - يحمل القرآن كل شىء ، دون ما مراعاة لقواعد اللغة والمنطق والفهم .

فهو مثلا ليدلل على عدم الجواز للمأموم أن يتقدم على الإمام ، يلجأ إلى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنو لا تقدموا بين يدى الله ورسوله . » .

وليدلل على ضرورة أن يكون أمير المؤمنين رجلا ، يلجأ إلى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » .

وليدلل على ضرورة خلع المصلى حذاءه حين يبدأ الصلاة ، يستند إلى قوله تعالى : « فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » .

وللرجل آراء لا يمكن لعقل مهما كان ضعيفا أن يهضمها ، وهو فى سبيل تأييدها يلجأ للقرآن أيضا . وهو حـين يلجأ للقرآن يعلن عن تضخم فى شذوذ هذه الآراء ...

فمثلا ، يقول : التأميم وسيطرة الحكومة على المرافق العامة حرام ، وسنده من القرآن : « وما كان لنبى أن يغل ... » .

وهو يقول : الوقف الخيرى حـرام ، لأن الواقف يتعالى على الله ، فـكما وهب لم من ملكه ، يهب هو من ملكه لله بعد وفاته ، وسنده من القرآن : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا : هذا لله بزعمهم ... »

وهناك خليط من الآراء لا طعم ولا لون لهـا ...

فمن معجزات الرسول : أن السماء قبـل الإسلام لم تكن مزينة ، وزينت عند مجيئه ، لأن لله يقـول : « إنا زينـا السماء الدنيـا بزينة الكواكب ... » وبنـاء عليه يعتبر أن الله لم يرسل موسى إلى فرعون إلا بعد مجىء الإسلام ، لأن القرآن يقول : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ... »

وإذاعة القرآن نهاراً حرام . بل كفر ، والمذيعون كفار ، لأنهم يذيعون القرآن حيث لا يتمكن المسلمون من تأدية فريضة صلاة التلاوة .

والعمل ليـلا حرام لأن ذلك تبـديل

لكلمات الله الذى يقول : « وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » .

والنطق بعبارة « السلام عليكم » كفر ، لأن ذلك اعتداء على قدسية القرآن ، فهذه العبارة وردت فى القرآن بدون « أل » ...

وأبو هريرة يهودى . وأبو حنيفة يهودى أما الأزهر فله أهمية كبرى لدى الرجل ...

فهو - كما يقول فى كتاب الصلاة ص ٨٤ - من أشهر المدارس التى أنشأها أعداء الإسلام لتدريس ما وضعوه للناس من خرافات على أنها إسلام .

وأول من وضع له البرامج اليهود ، وأول من ألقى الدروس فيه اليهود أيضا ...

وقد جعل مؤسسو الأزهر مواد الدراسة فيه وسيله لعيش الخريجين ، حتى إذا هاجم أحدهم ما يدرس فيه قام من يتخذه وسيلة لكسب العيش يدافعون عنه .

ولقد استمر الأزهر يخدم هذه الغاية وينشرها ، ويدرس ماوضعه أعداء الإسلام على أنه إسلام ، حتى استقر فى أذهان الناس بمرور السنين الطويلة التى بلغت ألف عام !

* * *

وبعد ...

فليست هذه الأفكار المضطربة ، الآخذ بعضها برقاب بعض والتى لا حاجة بنا إلى مناقشتها ، هى مصدر الحيرة ...

وإنما مصدر الحيرة ... هو كيف ظلت أفكاره منذ زهاء عشرين عاما ، يدونها فى كتيبات موجزة أو أسفار ضخمة ، ويوزعها بالمجان ، ويؤجر لأفكاره مكانا فى شارع عام من شوارع القاهرة ليلتقى فيها بزواره مرتين كل أسبوع ، كيف ظلت هذه الأفكار هكذا دون أن تلفت الأنظار ، أو تجتذب الأسماع ... ؟ .

لقد لقيت الرجل الذى يتولى منصب السكرتير العام لإحدى الوزارات فى ندوته ، وليس فيها سوى شخصين متواضعى الحال والثقافة ، فإذا هو مهذب اللفظ كريم اللقاء ، وقد قرأت ما كتبه بتدبر وإمعان ، ولكنى فشلت فى أن أحدد اتجاهه ، وأستوضح برنامجه ، وأدرك حقيقته ...

إن الرجل يعيش فى قلب العاصمة الإسلامية وعلى بعد أمتار من الأزهر الشريف ، ولكن أية حصانة هذه التى تجعله لا يعبأ بأوضاع الدولة ، ولا مقدسات الإسلام ، ويعتبر الأزهر إحدى المدارس الدينية الخاصة التى أنشأها أعداء الإسلام ، ووضع برامجها اليهود ...

قد أعود للكتابة مرة أخرى عن الرجل ولكنى واثق من أنى سأخرج للمرة الثانية بدون نتيجة أيضاً لأقول من أعماق نفسى : هذا الرجل ... ماذا وراءه ؟ ؟ .

محمد عبد الله السمان

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

وصف اسم الجمع

ثار جدل بين مدرس فى إحدى المدارس وبعض المفتشين حول عبارة الشباب الحائر، فيرى المفتش أن هذا خطأ ، والصواب : الشباب الحائرون . وحجته فى هذا أن الشباب جمع ، فلا يوصف بالمفرد . وهو يعتمد على ما جاء فى القاموس : أن الشباب جمع كالشبان.

والحق أن الشباب إذ يستعمل فى معنى الشبان ليس جمعاً فى اصطلاح النحاة ، وإنما هو اسم جمع ، وإن دل على ما يدل عليه الجمع . وذلك أنه لم يأت على أوزان الجموع ، فليس فيها فـَعَال ، وقد جاء فى اللسان مرة أنه جمع ، ومرة أنه اسم جمع ، وهو الموافق لأصول النحاة ». واللغويون فى غالب أمرهم لا يفرقون بين الجمع واسم الجمع ، فعندهم أن كل ما دل على الجماعة جمع حتى اسم الجنس الجمعى كشجر وثمر .

فالشباب كالقوم والرهط والنفر مما ليس له واحد من لفظه . وهذا الضرب يجوز مراعاة معناه فيوصف بالجمع ويعود الضمير عليه جمعاً ، ويجوز مراعاة لفظه ، فيوصف بالمفرد ، ويعود عليه ضمير المفرد ففى الكتاب العزيز : يا « قومنا أجيبوا داعى الله » ، فهذا نظر فيه إلى المعنى ، وفى اللسان (قوم) « وحكى ثعلب أن العرب تقول : يا أيها القوم كفوا عنا وكف عنا على اللفظ وعلى على المعنى » ، ومن أسماء الجموع الجيش . وقد قال كعب بن مالك فى جيش أبى سفيان حين أراد غزو المدينة يستخف به ويغض من شأنه :

جاءوا بجيش لو قيس معرسه
ما كان إلا كمعرس الدئل

معرسه : مكان نزوله ، والدئل : دويبة تشبه ابن عرس — فترى كيف عامله معاملة المفرد ومن هذا الضرب الناس ويقول لبيد :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيدا !

ويقول عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فإني
رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم عليه
وإن كانا له نسب وخير

فقوله : « عليه » أى على الناس ، وفى حاشية الشيخ يس على التصريح فى مبحث الفاعل : « وتذكير ضمير عليه باعتبار أن الناس اسم جمع » . ومن ذلك الجميع والجمع ، وجاء فى سورة القمر : « أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر . فانظر كيف عامل الجميع معاملة المفرد فوصفه بمنتصر ، وعامل الجمع معاملة الجمع فقال : يولون . ومن ذلك الركب يجوز أن يقال : الركب مضى والركب مضوا ، كما قال الرضى فى شرح الكافية (٢/١٧١) : وأنشد على ذلك قول الشنفرى فى لاميته يصف قطا وردت الماء بعده :

فعبت غشاشا ثم مرت كأنها
مع الصبح ركب من أحاظة مجفل (١)

ـ غشاشا : على عجلة وأحاظة : قبيلة من الأزد ، ومجفل : مسرع ـ فترى كيف وصف الركب بالمفرد .

ومما ينبغى أن ينبه عليه أن جواز الوجهين فى اسم الجمع إنما هو فيما يجرى على الآدميين ، كالأمثلة المذكورة . فأما اسم الجمع لغير الآدميين فالأغلب عليه التأنيث كالإبل والغنم والخيل ، فلا يقال : الإبل رعى ، وإنما يقال : رعت . وفى اللسان (أبل) عن الجوهرى فى الإبل : « وهى مؤنثة ، لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم ، على أن هذا ليس مطرد القياس . فمن هذا الضرب الجامل لجماعة الجمال ، ويقول الحطيئة :

فإن تك ذا مال كثير فإنهم
لهم جامل لا يهدأ الليل سامره

ـ أراد بقوله : سامره الرعاء ، فهم لا ينامون لكثرتهم ـ .

ويخرج الباحث من هذا إلى أنه لا نكران فى عبارة « الشباب الحائر » ، وأن لا خطأ فى قول شوقى فى قصيدة المعلم :

أمعلمى الوادى وساسة نشئه
والطابعين شبابه المأمولا

ملىء :

يقال فى هذه الأيام : هذا البلد مليء بالعلماء ، وهذه القرية مليئة بالأغنياء ، يريدون مملوءاً ، أو ملآن أو مملوءة أو ملأى .

وقد أنكر هذا الاستعمال . فيقول اليازجى فى لغة الجرائد ٦٣ : « ويستعملون كلمة

---

(١) انظر فى هذا البيت الخزانة ٣ / ٣٣٤ .

(ملىء) بمعنى مملوء أو ملآن ، فيقولون فى وصف فتاة : وهى مليئة البدن . والملىء فى اللغة : المتمول » . وفى الحق أن الملىء فى المعاجم هو الموسر الغنى ، وفى الحديث : مطل الغنى ظلم ، وإذا أحيل أحدكم على ملىء فليتبع . ويقال فيه : ملؤ الرجل ملاءة فهو ملىء ، وهى مليئة .

وقد بدا لى تصحيح الملىء فى معنى المملوء بحمله على المجاز ، فالإناء إذا امتلأ ماء كان كالغنى به لوفرته فيه ، فصار الملىء ينبئ بالملاءة والوفرة ، فساغ أن يقال : القدح ملىء أى غنى بما فيه ، والفتاة مليئة البدن أى غنية البدن بالشحم واللحم ، وهو كناية عن السمن ، وحاصل هذا التجوز بالملاءة والغنى عن الامتلاء .

ووجه آخر فى تخريج هذه العبارة . وهو أن يكون من باب تحويل مفعول إلى فعيل ، فملىء فى معنى مملوء ، وعلى هذا لا يقال : الفتاة مليئة البدن ، وإنما يقال : ملىء البدن إذ كان فعيل فى معنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث: إلا إذا لم يوجد فى اللفظ دلالة التأنيث .

وتحويل مفعول إلى فعيل يقيسه بعض النحاة إذا لم يكن فى المادة فعيل فى معنى فاعل . ولا يقال : إنه ورد ملىء فى معنى غنىّ ، وهو فى معنى فاعل ، لأن هذا من ملؤ وحديثنا فى ملأ .

على أن صاحب التصريح فى مبحث التعجب فى الكلام على قولهم : ما أملأ القربة ذكر أنه ورد فى نادر اللغات ملؤ فى معنى امتلأ . ولم أقف على هذا فيما لدى من المعاجم اللغوية ، فإن صح هذا كان استعمال ملىء فى معنى الممتلئ صحيحاً جاريا على القياس ؛ فإن الوصف من فَعُل فعيل من غير نكران .

العهدة :

أنكر اليازجى استعمال العُهدة فى المعاهدة تكون بين الرجلين أو بين الدولتين . فهو يقول فى لغة الجرائد ٤٥ : « ويقولون : بين الدولتين عهدة تجارية ، وجاء ذلك فى عهدة برلين ، ولا معنى للعهدة هنا ؛ لأنها بمعنى تبعة الأمر ودَرَكه . والصواب : المعاهدة »

ونرى فى القاموس : « والعهدة : كتاب الحلف ، وكتاب للشراء » . وفى اللسان : « والعهدة : كتاب الحلف والشراء . واستعهد من صاحبه : اشترط عليه وكتب عليه عهدة وهو من باب العُهدة والعَهد ؛ لأن الشرط عَهْد فى الحقيقة » . فكتاب الحلف يسمى عهدة ، وهو الكتاب الذى يتحالف فيه قوم على النصرة والتعاون ، ويأخذ كلٌّ ما شاء لنفسه من الشروط والرغبات ، وهذا يدخل فى باب المعاهدة لا محالة . وكتاب الشراء ما يكتب المتبايعان فيه الشروط التى

يلتزمها كل منهما . وفى المصباح : « وتسمى وثيقة المتبايعين عُهدة ؛ لأنه يُرجع إليها عند الالتباس » .

وعهدة برلين لاتخرج فى معناها عن كتاب الحلف والشراء ، فاستعمالها غير منكر فى العربية .

عموم الناس :

يشيع هـذا التعبير ، فيقال : هذا الأمر معروف عند عموم النـاس . وقـد انتقد هذا اليازجى ، فهو يقول فى لغة الجرائد ٩٨ « و يقولون : هذا أمر يهم ُّ عموم السكان أى يهم السكان عامة ، أو يهمهم بالعموم . وربما استغنوا بلفظ العموم وحده ؛ يقولون : أجمع العموم على كذا أى الجمهور أو عامة الناس مثلا . وكل ذلك من استعمال العامة » .

وقد ورد قول الشاعر :

نصلى للذى صلت قريش
ونعبده وإن جحد العموم[1]

فهذا وفق الاستعمال الذى أنـكره اليازجى ومرد الإنـكار عنده إلى أن العموم مصدر عم الشىء ، فلا تجرى عليـه أحكام الذوات والأعيان ، والعموم فى هذا الاستعمال جمع العم بمعنى الجماعة ، فعموم الناس : جماعاتهم ، وفى اللسان : « والعم . الجماعة . وقيل : الجماعة من الحى ؛ قال مرقّش .

لا يبعـد الله التلبب والغـا
رات إذ قال الخميس : نعم
والعـــدو بين المجلسين إذا
اد العشى وتنـادى العم

تنادوا : تجالسوا فى النادى ، وهو المجلس ومرقش يراد به الأكبر ، ولهم مرقش الأصغر والبيتان من قصيدة فى المفضليات ، والتلبب لبس شكة السلاح ، والخميس : الجيش وقوله نعم : أى هذا نعم وهى الإبل ، يذكر غارته مع الجيش ونهبهم إبل أعدائهم ، وقوله : آد العشى أى مال . ويريد بالعدو بين المجلسين الجرى عند نزول الأضياف لإنزالهم ، وجاء البيت الثانى فى المفضليات هكذا :

والعـدو بين المجلسين إذا
ولى العشى وقـد تنادى العم

وهذه الرواية أوفى بالشعر ، فإن القصيدة من السريع ، ولـكن يغلب فيها مثل هـذا العيب ، فلا يقدح هذا فى رواية اللسان وجاء جمع العم على العموم فى قول لبيد :

لـكيلا يكون السندرى نديدتى
وأجعل أقواما عموما عماعما

أنشده فى اللسان ، وقال : « السندرى شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل ، فدعى لبيد إلى مهاجاته

(١) ورد هـذا البيت فى شواهد الموصول من كتاب القطر .

فأبى ومعنى قوله : « وأجعل أقواما عموما عماعما » أى أجعل أقواما مجتمعين فرقا يريد أن الأقوام العموم : المجتمعون أو الجماعات والعماعم : الجماعات المتفرقون ، فهو يقول : إنى لا أدخل فى الهجاء رغبة عن أن يكون هذا الشاعر ندى فيها جبينى ، ورغبة عن أن أفرق بين الجماعات بالهجاء ، ومما جاء فيه العم بمعنى الجماعة قول أبى العلاء المعرى فى السقط أنشده صاحب المطول فى مبحث التورية :

إذا صدق الجد افترى العم للفتى
مكارم لا تخفى وإن كذب الخال

أراد بالجد الحظ وبالعم الجماعة من الناس وبالخال المخيلة .

نوال البغية :

انتقد هذا التعبير نقاد العصر ، والصواب أن يقال : نيل البغية أى إدراكها . وذلك أن النوال العطاء ، يقال . نلته أى أعطيته من نال ينول الواوى ، وأما إدراك الشىء وإصابته فيقال فيه نال ينيل نيلا .

ويرى الأمير [1] شكيب أرسلان أن النوال فى معنى الإدراك صحيح عربية . ويحتج بقول الحماسى :

أرى الناس يرجون الربيع وإنما
ربيعى الذى أرجو نوال وصالك
لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة
لقد سرنى أنى خطرت ببالك

فنوال الوصال : إدراكه ، على أنه قد يكون النوال فى الشعر العطاء ، على ما هو المعروف عند اللغويين ، يريد أنه يرجو عطاء منها وهو وصالها ، فإضافة نوال إلى الوصال من إضافة العام إلى الخاص كما فى حبة البر وعلم النحو .

محمد علي النجار

(١) انظر مجلة المشرق سنة ١٨٩٩ .

الحـــق

ولم أر مثل الحق أمّا طريقُـه فأمنٌ وأمّا جارُه فعزيز
إذا ما امرؤ آوى إليه فحصنه حصين ومأواه المباح حريز

دراسات لأسلوب القرآن الكريم

للأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة

تمهيد :

وجه الفقهاء عنايتهم إلى مصدر الشريعة الأعظم وهو القرآن الكريم فأحصوا آيات الأحكام وأشبعوا القول فيها والحديث عنها :

فالدارس للفقه يستطيع بسهولة ويسر أن يهتدى إلى الأحكام التى مصدرها القرآن ، والأحكام التى مصدرها غيره . والقرآن الكريم حجة فى العربية بقراءاته المتواترة وغير المتواترة كما هو حجة فى الشريعة .

فالقراءة الشاذة (وهى ما فقدت شرط التواتر) لا تقل شأنا عن موثوق ما نقل إلينا من ألفاظ اللغة وأساليبها ، وقد أجمع العلماء على أن نقل اللغة يكتفى فيه برواية الآحاد ولو أراد دارس النحو أن يحتكم إلى أسلوب القرآن الكريم وقراءاته فى كل ما يعرض له من قواعد النحو والصرف ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ذلك لأن الشعر قد استبد بجهد النحويين فركنوا إليه وعولوا عليه فى الاستشهاد ، بل جاوز كثير من النحويين حده فنسب اللحن إلى القراء فى بعض القراءات ورموهم بأنهم لا يدرون ما العربية (١) ..!

وكان اعتماد النحويين على الشعر ثغرة نفذ منها الطاعنون عليهم ، لأن الشعر موضع ضرورة كما أنه بروايات مختلفة ، لهذا مست الحاجة إلى إنشاء دراسة شاملة لأسلوب القرآن الكريم وقراءاته الكثيرة .

ففى هذه القراءات ثروة لغوية ونحوية جديرة بالدرس ، وفيها دفاع عن النحو تعضد قواعده وتدعم شواهده . بدأت هذه الدراسة منذ ثلاثة عشر عاما وبقيت عاكفا عليها مراعيا لها إلى اليوم ، كتبت فيها عشرة مجلدات سعة المجلد ألف صفحة .

وجدت المصنفين الذين عرضوا لفهرسة ألفاظ القرآن قد تناهت جهودهم عند حصر ألفاظ الأفعال والأسماء وإحصاء آياتها ، وتركوا جمع حروف المعانى وإحصاء آياتها ، كما تركوا هذا الإحصاء فى الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وبعض الظروف

---

(١) عرضت لهذا بإسهاب فى رسالتى عن المبرد وأثره فى علوم العربية .

الكثيرة الذكر، كإذ وإذا. أجل وقفت على كتاب أحصى لنا ألفاظ القرآن لم يترك منها لفظا، وهو كتاب مصباح الإخوان. غير أنه لم يذكر الآيات وإنما اكتفى بذكر أرقام صنعها بنفسه للآيات الكريمة، وهذه الأرقام مع الأسف يشيع فيها الاضطراب، ولا سيما في طوال المفصل. وقد اعتذر عن هذا في مقدمة كتابه التي كتبها باللغة التركية.

أحصيت حروف المعاني والأسماء المبهمة وجمعت آياتها فكملت هذا النقص.

ثم عهدت إلى كتب القراءات السبعية منها والعشرية والشاذة فأحصيت مافيها.

ثم عمدت إلى أمهات كتب الإعراب والتفسير فاستقرأت ما فيها، ثم نثرت ذلك كله على أبوب النحو والصرف واستودعته بطون هذه المجلدات.

وإنما أهدف إلى أن أيسر لدارس النحو والصرف سبيل الاستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته.

فيستطيع أن يعرف متى أراد.

هل مثل هذا الأسلوب وارد في القرآن أو لا؟

وإذا كان ورد فهل ورد كثيرا أو قليلا؟

وفي قراءات متواترة أو غير متواترة.

كما أنه يستطيع أن يحتكم إلى أسلوب القرآن ويرجع إليه في الموازنة بين الآراء المختلفة، كما كان يفعل الصدر الأول في الاحتكام إلى كلام الفصحاء ومشافهتهم قبل أن يدب اللحن إلى الألسنة.

قلت: إن هذه الدراسات ترتكز على الاستقراء، وأتمنى أن يختبر هذه الاستقراءات حفاظ القرآن الكريم وقراء رواياته، فلعل أحدهم أن يستدرك عليها، فإن هذا مما يدخل السرور إلى نفسي إذ يكون أثرا من مظاهر الاهتمام بها.

وعلم الله - ما واتاني هذا الاستقراء عفوا صفوا، ولا وافاني رهوا سهوا، وإنما كان ثمرة جهود مضنية وصبر على عناء البحث والاستقراء.

وقد تيسر لي بعون الله أن استدرك على بعض أئمة النحو واللغة الذين عرضوا لأسلوب القرآن الكريم أوفاتهم أن يحتكموا إليه.

وإنه لمن أحلى أمانينا وأسمى آمالنا: أن يظفر علم النحو فيما بعد برعاية وزارة الثقافة والإرشاد فتضيفه إلى سجل العلوم والفنون التي تستحق بحوثها التقدير والتشجيع.

وها أنذا أعرض لمحات خاطفة عن هذه الدراسات.

لمحات عن مواقع نوني التوكيد
في القرآن الكريم

الفعل الماضي لا يجوز توكيده بالنون

لأن معناه للمضى ؛ ومن شأن نون التوكيد أن تخلص الفعل للاستقبال ، وفعل الأمر يجوز توكيده مطلقاً لأنه للاستقبال ، قال سيبويه ٢/١٤٩ فأما الأمر والنهى فإن شئت أدخلت فيه النون وإن شئت لم تدخل .

ومثله فى المقتضب [١] للمبرد ٢١٩-٢٣١ وسائر كتب النحو وفى مغنى اللبيب أن التوكيد بعد الطلب كثير .

وجعل سيبويه توكيد المضارع الواقع بعد أداة الاستفهام محمولا فى التوكيد على فعل الأمر .

كما جعل المضارع الواقع بعد أداة العرض والتحضيض محمولا على الاستفهام ٢/١٥١ - ١٥٢ .

* * *

أفعال الأمر كثيرة جداً فى القرآن الكريم أحصيت مواضعها فتجاوزت ١٨٤٠ - أربعين وثمانمائة وألف موضع جاء فعل الأمر فى جميع هذه المواضع غير مؤكد بنون التوكيد ، لا فى رواية حفص فحسب وإنما جاء كذلك فى جميع القراءات العشرية المتواترة .

كما جاء كذلك فى الأربعة الشواذ المشهورة فيما بيننا وبذلك خلت القراءات الأربع عشرة من توكيد فعل الأمر ، وهذه ظاهرة لغوية جديرة بالتسجيل والدرس . وإنى أترك الكشف عن أسرارها لغيرى ممن يأنس فى نفسه القدرة على بيان أسرار التنزيل وخصائص أسلوبه .

وكل ما وصلت إليه عن طريق استقرائى لقراءات القرآن : أن وجدت أربع قراءات شاذة ، أكد فيها فعل الأمر ، وهذه القراءات ليست من الأربعة المشهورة فيما بيننا ، وإنما هى مما وراء ذلك .

تفرد أبو حيان برواية اثنتين منها ، وشارك ابن خالويه فى رواية اثنتين ، وفى بعضها شذوذ نحوى .

وها هى ذى القراءات .

١ - « فاتبعونى يحببكم الله » قرأ الزهرى فاتبعونّى بتشديد النون ألحق قبل فعل الأمر نون التوكيد وأدغمها فى نون الوقاية ولم يحذف الواو تشبيهاً بأتحاجونى وهذا توجيه شذوذ البحر المحيط لأبى حيان ٢ - ٤٣١ .

٢ - « القيا فى جهنم » قرأ الحسين ألقين بنون التوكيد الخفيفة وهى شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف . البحر المحيط ٨ - ١٢٦ شواذ القرآن لابن خالويه ١٤٤ . الكشاف ٤ - ٢٧ .

٣ - « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » روى عن طلحة سبحنّ بنون مشددة من غير واو البحر المحيط ٦ - ١٧٦

[١] نسخة مكتوبة نسختها لمكتبتى .

٤ - « فدمرناهم تدميرا » قرأ على والحسن فدمراهم على الأمر

وعن على كذلك، إلا أنه بالنون الشديدة شواذ ابن خالويه ١٠٥ الكشاف ٣ - ٩٧ البحر المحيط ٦ — ٤٩٨ .

* * *

هذا عن فعل الأمر وبقى علينا أن نستعرض أنواع الطلب الأخرى فى المضارع :

المضارع بعد لام الأمر :

جاء المضارع بعد لام الأمر فى أكثر من ٨٠ ثمانين موضعا من القرآن الكريم .

وجاء غير مؤكد بالنون فى القراءات الأربع عشرة فى جميع هذه المواضع .

وقد وقفت على قراءة واحدة أكد فيها المضارع بعد لام الأمر ، رواها ابن خالويه والزمخشرى وأبو حيان وهى :

«فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم»

قرأ أبى لنسوءَنْ بلام الأمر والنون التى للعظمة ونون التوكيد الخفيفة آخراً .

البحر المحيط ٦ - ١١ ابن خالويه ٧٥ الكشاف ٣ - ٣٥٢ .

* * *

المضارع بعد أداتى العرض والتحضيض :

ورد المضارع المثبت بعد ألا ولولا فى أكثر من ستين موضعا ، وجاء بعد لوما فى موضع واحد ، وكان المضارع خاليا من التوكيد فى جميع القراءات .

ولم يقع من أدوات العرض والتحضيض فى القرآن هلاَّ ، ألاّ

المضارع بعد أداتى الترجى والتمنى :

جاء المضارع المثبت بعد لعل فى ١٢٤ موضع .

وجاء بعد ليت فى موضعين ، وكان خاليا من التوكيد فى جميع القراءات .

* * *

المضارع بعد أدوات الاستفهام :

بعد همزة الاستفهام :

جاء المضارع المثبت بعدها فى أكثر من ثمانين موضعا وجاء خاليا من التوكيد فى جميع القراءات .

بعد أنّى :

تجاوزت المواضع عشرين موضعا ومن غير توكيد أيضاً .

بعد أى :

تجاوزت المواضع أربعين موضعا ومن غير توكيد أيضا .

بعد كيف :

قاربت المواضع ثلاثين وكانت من غير توكيد أيضاً .

بعد ما الاستفهامية :

قاربت المواضع أربعين وجاء المضارع غير مؤكد أيضا .

بعد من الاستفهامية :

تجاوزت مواضع المضارع المثبت ثلاثين موضعا وجاء غير مؤكد فى جميعها .

كما جاء المضارع غير مؤكد بعد أين ، أيان الاستفهاميتين .

بعد هل :

جاء المضارع المثبت بعد هل فيما يقرب من خمسين موضعا لم يؤكد فيها إلا فى موضع واحد وهو قوله تعالى : « فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » .

فعلى كثرة أدوات الاستفهام فى القرآن ووقوع المضارع المثبت بعدها ، لم يؤكد المضارع إلا بعد هل فى الآية السابقة .

ولم يقع المضارع بعد متى الاستفهامية ولا بعد كم الاستفهامية فى القرآن الكريم .

المضارع بعد لا الناهية :

جاء المضارع بعد لا الناهية فى مواضع تجاوزت ٤٠٠ أربعمائة وإنما جاء مؤكدا فى بضع وأربعين موضعا .

كما قرئ فى السبعة بالتوكيد وبغير التوكيد فى قوله تعالى : « فلا تسألنى عن شىء » .

شرح الشاطبية ٢٢٢ غيث النفع ١٢٨ - ١٥٧ النشر ٢ / ٢٨٩ - ٣١٢ كما قرئ فى الشواذ بغير التوكيد فى بعض الآيات المؤكدة وبالتوكيد فى غيرها .

وجوب توكيد المضارع :

يجب توكيد المضارع إذا كان مثبتا مستقبلا واقعا فى جواب قسم غير مفصول من لام القسم بفاصل ، على هذا أجمع البصريون ، قال سيبويه ٢ / ١٤٩ ومن مواضعها الفعل الذى لم يجب الذى دخلته لام القسم فذلك لا تفارقه الخفيفة أو الثقيلة لزمه ذلك كما لزمته اللام فى القسم ، وكرر مثل ذلك فى ٢ / ١٥٣ .

فنصوص سيبويه صريحة لا تحتمل تأويلا فى وجوب توكيد المضارع إذا استوفى الشروط المذكورة .

ومن العجيب أن ينقل أبو على الفارسى وابن عطية عن سيبويه غير ما سجله سيبويه فى كتابه .

فى ابن يعيش ٩ / ٣٩ - ٤٣ .

وذهب أبو على إلى أن النون هنا غير لازمة وحكاه عن سيبويه ، وفى البحر المحيط لأبى حيان ٣ - ١٣٦ وقال ابن عطية : وقد لا تلزم هذه النون لام التوكيد قاله سيبويه - وما ذكره سيبويه هو ما سجل فى سائر كتب النحو .

* * *

المضارع المؤكد توكيداً واجبا جاء كثيرا جداً فى القرآن ، وهذه الحالة تفوق جميع الأحوال كثرة ، حتى بلغ من كثرتها أن وجد منها فى آية واحدة ستة أفعال مؤكدة .

قال تعالى : « وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » .

لزم المضارع التوكيد فى القراءات الأربع عشرة .

وقد وجدت قراءة واحدة تفرد بروايتها أبو حيان جاء فيها المضارع غير مؤكد .

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس » قرأ عبد الله ليبينونه من غير توكيد .

والبصريون لا يجيزون ذلك وإنما أجازه الكوفيون وجاء مثله فى الشعر . البحر المحيط ١٣٦/٣ وهذه القراءة ليست من الأربعة الشواذ كما أنها ليست من شواذ ابن خالويه .

المضارع بعد إما : جعل سيبويه توكيد المضارع بعد إن الشرطية المدغمة فى ما الزائدة جائزاً قال ١٥٢/٢ : وإن شئت لم تقحم النون .

وقال المبرد والزجاج توكيد المضارع بعد إما واجب ، لأنه لم يرد فى القرآن إلا مؤكدا

وقال ابن الشجرى فى أماليه ٢ / ٣٤٥ يلزمها فى أكثر الأمر نون التوكيد ، وقد تطرح نون التوكيد فى الشعر . ثم ذكر شواهد لذلك وقال ابن هشام التوكيد بعد إما قريب من الواجب .

جاء المضارع بعد إما المذكورة أو معطوفا على ما بعدها فى عشرين موضعا ، وجاء مؤكدا فى القراءات الأربع عشرة ، وجاء المضارع غير مؤكد فى قراءة رواها ابن مالك فى كتابه : شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح . كما رواها أيضا أبو حيان وفيها شذوذ نحوى .

« فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت » .

قرأ طلحة فإما ترين قال ابن جنى هى شاذة لأنه لم يؤثر الجازم فيحذف النون البحر المحيط ٦ / ١٨٥ شواهد التوضيح ١٩ .

توكيد المضارع المنفى :

المضارع المنفى الواقع فى جواب القسم لا يجوز توكيده بالإجماع كما فى قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف » ، واختلفوا فى غير ذلك .

فجمهور النحويين لا يجيز توكيد المضارع المنفى بلا ، ويحمل ما ورد من ذلك على الندور أو الضرورة ، واختار أبو حيان الجواز لوروده فى الشعر وفى قوله تعالى :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ومن منع جعل لا ناهية معمولة لقول محذوف هو الصفة . البحر المحيط ٤ /٤٨٤ - ٤٨٥ المغنى ١ / ١٩٤ ، ٢ /٧١ - ١٨٣ .

جاء المضارع المنفى بلن مؤكداً فى قراءة شاذة .

قرأ طلحة بن مصرف قوله تعالى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » قرأ لن يصيبنا بنون التوكيد .

قال أبو حيان وجه هذه القراءة تشبيه لن بلا وبلم ، وقد سمع لحاق هذه النون بلا وبلم البحر المحيط ٥ - ٥١ ، شواذ ابن خالويه ٥٣ .

كما قرئ فى الشواذ قوله تعالى « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » بفتح ميم يعلم فقيل الفتحة إتباع أو على إرادة نون التوكيد الخفيفة كما فى قول الشاعر :

لا تهين الفقير علك أن
تركع يوما والدهر قد رفعه

الكشاف ١ - ٢٢٠ ، البحر المحيط ٣ - ٦٦ .

* * *

وقرئ فى الشواذ أيضا قوله تعالى « ألم نشرح لك صدرك » . بفتح الحاء وخرجها ابن عطية وابن هشام على : أن الفعل مؤكد بالنون الخفيفة ولأبى حيان توجيه آخر ، البحر المحيط ٨ - ٤٨٧ .

نونا التوكيد الشديدة والخفيفة :

نون التوكيد الشديدة أكثر من الخفيفة فى جميع القراءات .

وقد قرأ يعقوب أحد القراء العشرة هذه الآيات بالخفيفة :

(١) « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد » .

(٢) « ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

(٣) « فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون » .

(٤) « أو نرينك الذى وعدناهم » .

النشر فى القراءات العشر ٢ - ٢٤٦ - ٣٤٦ - ٣٦٩ .

اتحاف فضلاء البشر ١٨٤ - ٣٤٩ - ٣٨٦

كما قرئ فى الشواذ قوله تعالى :

وليكونا من الصاغرين - لنسفعا بالناصية بنون التوكيد الشديدة .

* * *

لا تقع نون التوكيد الخفيفة بعد الألف عند البصريين .

وقد قرأ ابن عامر أحد القراء السبعة قوله تعالى « ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » بكسر النون خفيفة ، الشاطبية ٢٢١ النشر ٢٨٦ ، وأجاز ذلك يونس والكوفيون محتجين بهذه القراءة .

والبصريون جعلوا لا فى هذه القراءة نافية والنون علامة الرفع والجملة حالية ، والتقرير فاستقيما غير متبعين . الإنصاف فى مسائل الخلاف المسألة ٩٤ ، البحر المحيط ٥ - ٨٧ .

محمد عبد الخالق عضيمة
المدرس فى كلية اللغة العربية

النبوات في تقدير الإنسان

للشيخ عباس طه

ماذا حمل الأنبياء للأمم من التعاليم ، وأى شيء أفادوه المجتمعات المختلفة فى خلال العصور ؟ إن بضاعة الأنبياء معروفة فى كل زمان ومكان ، وهى تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية ، وإدخالها فى حدود الاعتدال ، وتوجيه الشخصية الإنسانية وجهة الخير ، والسمو والصلاح ، وذلك بلفت نظر الناس إلى أن للكون صانعاً حكيما قديراً ، وأن لهم روحا قدر لها الخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وأن العدوان الذى يرتكبه الإنسان فى حياته الأرضية ضد الآداب والحقوق الخاصة والعامة يحاسب عليه فى تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديماً ولا حديثاً أمة بغير دين ، فعلام يدل هذا العموم والشمول حتى والإنسانية فى أحط الأدوار ؟ .

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف إليها — وهل فى الدين إلا واجبات وتكاليف وإشارات وتضحيات — فلو كان الإنسان طيناً محضاً أو صلصالا بحتاً لما هفا إلى هذه التعاليم ولفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطرى إليه .

وقد بلغت المجموعة الإنسانية التى تظلها المجموعة الشمسية اليوم وهى نحو ألف وخمسمائة مليون نسمة من المدنية شأوا لم تكن تقدره الجماعات التى سبقتها فى الوجود . ومع هذا فهى لا تزال تدين بنبوة أربعة أو خمسة رجال مضى على أقربهم عهداً نحو أربعة عشر قرنا ، ولم يستطع أنبه الماديين رغما عما كتبوا فى صرف الناس عن هذه النبوات أن يحولوا عنهم غير عدد محصور من القارئين ، مع أن فى تعاليم بعض هؤلاء الأنبياء ما يكره إلى النفوس الحياة الأرضية ويعد المتع الجسدية رجساً من الأرجاس ، فإن فيهم وليس من أقلهم أتباعا من يقول إن جميع المطالب البدنية أقذار لا تليق بكرامة الإنسان ، وأن ليس ينجيه منها إلا الفناء فى الله — وفيهم من يقول — ولا يقل عن سابقه فى عدد الأشياع — من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن سرقك رداءك فأعطيه قميصك .

فما السر فى بقاء هذه الأديان إلى اليوم سائدة على الأمم المتمدينة رغماً عما أصيب به أكثرها من التحريف والتصحيف والتأويل ؛ — السر غلبة عاطفة علوية على الفطرة البشرية

الأرضية ؛ فهى تدين بهذه الأديان على ما فيها ، لأنها تتنسم من خلال تعاليمها عبير الوحى السماوى الذى تولاها فى طفولتها ، وقومها فى شبيبتها وعزاها فى شيخوختها ولا يزال ينفحها فى سويداء فؤادها بما ينشئها ويكملها .

ويشتد الكتاب الماديون فى ضرورة إبعاد فكرة النبوات من العقلية الإنسانية بحجة منافاتها من ناحية، وعدم حاجة الاجتماع إليها من ناحية أخرى . ويغفلون عن أن العلم اليوم قد أثبت النبوات بأدلة لا تقبل النقض . وما حيلتنا فيمن جمدوا على ما هم عليه ولم يبالوا بما جد فى العلم من الفتوحات ، التى أقامت ألوفاً من العلماء وأقعدتهم فى أربعة أرجاء المعمورة ، ولا تزال تفعل فى النفسية الفلسفية الأفاعيل.

وأما زعمهم بعدم حاجة الاجتماع إلى النبوات فينم عن جهل عظيم بطبائع الاجتماع ؛ فإن المجتمع كالجسم الحى ينفى بقواه الذاتية كل ما ليس به حاجة إليه — أما وهو لم ينف التعلق بالنبوات رغما عن جميع الصوارف التى تستخدم لصرفه — فذلك يدل على أنه لا يزال به حاجة إليها فيجب على كل باحث فى أطوار الإنسان أن يدرك سر تمسكه بها رغما عن جميع الشبهات التى أثيرت حولها .

وقصارى القول فى هذا الموضوع أن الماديين أنصار الشيوعيين وحلفاءهم يطرحون العقائد التى حملها الأنبياء إلى قومهم وتضمنت قيما ومثلات تنذرهم إذا ندوا عنها أو سلكوا غير طريقها المستقيم .

من أجل ذلك قام الأستاذ الأكبر والعالم الأشهر والفقيه الأنخر شيخ الجامع الأزهر بل شيخ المسلمين فى المشرقين وحامى حمى الإسلام بين المسجدين، فنادى بضرورة إرساء قواعد الدعوة الإسلامية على قول من الحق صريح وعلى عدالة مستقيمة تضع لكل شىء حده فى غير لدد ولا خصومة، وأرسل نصائحه السامية المدوية على متن الأثير مرة وبين أنهر الصحافة مرة ، وإلى وكالات الأنباء وإلى المنتديات العلمية فى حرم الجامع الأزهر مرة أخرى . نبه الناس فى كل هذه النذر إلى أن مبادئ الإسلام التى جاءت على رسل الله وأنبيائه يحملها الخلف عن السلف هى خير معوان على بقاء الإنسانية معافة من كل درن اعتقادى ، وكل مبدأ لا يمت إلى الأديان السماوية بسبب وثيق .

نسأل الله أن يجعل رسالة الأزهر على ألسنة أبنائه الصادقين عالية وكلمة شيخ الأزهر نبيلة مدوية إنه أكرم مسئول .

عباس طه

المحامى الشرعى

ما يقال عن الإسلام

ماذا يقولون ؟ بل كيف يقولون ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

عرضنا فى هذا الباب لأشتات من الكتب الحديثة التى يؤلفها الغربيون عن الإسلام والأمم الإسلامية ، ورأينا فيها اختلافاً بين الصواب والخطأ أو الصدق والكذب أو حسن النية وسوئها ، يصح أن نخرج منه بنتيجة عامة كالميزان لآراء القوم نفهم منه كيف يقولون قبل أن نعرض لما يقال أو لموضوع المقال، وفيما تقدم من الملاحظات على الكتب التى عرضنا لها مادة كافية لتحرير هذا الميزان والانتفاع به فى تقويم الآراء وأصحاب الآراء ، كلما وقفنا على مؤلف جديد لهم فيما يتحدثون به عن الدين الإسلامى أو عن الأمم الإسلامية .

وأهم ما يهم فى هذه الأشتات المتفرقة من المؤلفات هو محك الإخلاص فى كتابتها ، فمن هم المخلصون منهم ؟ ولماذا يخلصون ؟ .

كل ما اطلعنا عليه من مؤلفاتهم المتلاحقة فى العصر الحاضر يدل على أن المخلصين منهم فريقان : طلاب المعرفة وطلاب العقيدة ، وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعاً إنهم طلاب الحقيقة فى عالم العلم وفى عالم الضمير .

إن العلماء المتجردين للبحث العلمى عندهم يتحررون جهدهم من الأهواء النفسية التى تحول بين الباحث وتقرير ما يراه كما رآه ، ومنهم من يقرر مذهباً له فلا يفرق بين المشاهدات التى تؤيد مذهبه والمشاهدات التى تنقضه أو تشككه فيه أو تذره معلقاً بين النقض والتأييد ، فينتهى إلى ترجيح مذهبه ثم يتبع الترجيح بقوله إن المذهب حتى الآن ثابت لولا ما يرد عليه من هذه المشاهدة أو تلك فى جملة المشاهدات ... وليس بهؤلاء من خفاء فيما يكتبون لأنه ينم على مقاصد أصحابه بعد مراجعة يسيرة ، ومنهم من عرفوا بالأمانة العلمية فيما كتبوه عن سائر المطالب العلمية غير الإسلام .

أما طلاب العقيدة فهؤلاء هم زمرة من الباحثين داخلهم الشك فى عقائدهم التى ولدوا عليها وغلب عليهم الإيمان بأن الشرق هو مصدر الأديان وأن الباحثين عن العقائد الروحية مرجعهم إليه فى الزمن الحديث كما كانوا يرجعون إليه فى الزمن القديم .

وإذا كان من هؤلاء من وقعت الجفوة بينه وبين رؤساء دينه فالغالب عليه فى كتابته عن الإسلام أن تصطبغ أقـــواله عنه وعن تاريخ الأمم الإسلامية بحماسة بينة تشبه حماسة المؤمن بدينه وإن لم يبلغ به الأمر مبلغ التدين بالعقائد الإسلامية أو مبلغ الانتساب إلى الإسلام ، ومن هؤلاء الكاتب الأسبانى « بلاسكو أبانيز » الذى قال فى كتابه « تحت ظلال الكنيسة » ما لا يزيد عليه المسلم شيئاً من فضائل التاريخ الأندلسى ، ويشبهه « جوزيف مكاب » باللغة الانجليزية فى مقارناته بين التواريخ الأوربية والتواريخ الإسلامية ، فلا يكاد يقارن بين شيئين تشتمل عليهما هذه التواريخ إلا كان الرجحان بينهما للكفة الإسلامية ، مع الإطناب من ناحية والتنديد من الناحية الأخرى .

وفيما عدا طلاب العلم وطلاب العقيدة يندر الإخلاص فى مؤلفات القوم حيثما عرضوا للمسلمين أو عرضوا لما اعتقـــدوه أو تعودوه ، ولكنهم فى قلة الإخلاص أو سوء النية أنواع ودرجات .

فهناك المتعصبون للغرب - وطنياً أو جنسياً - كما يتعصب الريفى الساذج لكل شىء فى قريته على كل شىء فى قرية سواه ، وأكثر ما يظهر هذا التعصب فيما يكتبونه عن المسلمين العرب ، لأنهم إذا كتبوا عن المسلمين الهنود أو الفرس استطاعوا أن يقولوا إنهم من السلالة الآرية التى ينتمى إليها الأوربيون ، واستطاعوا أن يزعموا - مثلا - أن الإسلام قد أخذ التصوف من الفرس وأخذ الحكمة من الهند وتلقى فلسفة الكلام عن اليونان مما نقله النساطرة وسائر المترجمين ، وأن المسلمين العرب كانوا يعوّلون فى خدمة دينهم - بل فى خدمة لغتهم - على المجتهدين من سلالة الآريين ، وقد يلج الغلو بهذه الفئة حتى تنكر دينها لأنه تبشير رسول « يهودى سامى » كما يقولون عن السيد المسيح . وبعضهم ينشئ لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر التى يتبعها أصحاب العبادات ، ويتذرعون بما يدعونه من المزايا الجنسية لتسويغ سيادتهم على الغربيين أنفسهم ؛ لأنهم لم يحرروا عقولهم من العبادات الشرقية أو لأنهم خالطوا الشعوب من غير السلالة الآرية الخالصة فلحقت بهم الهجنة فى الأنساب وفى الأخلاق . . !

هذه طائفة من ذوى النيات السيئة بين كتاب الغرب يؤلفون عن المسلمين عامة

وعن المسلمين العرب على التخصيص ، ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية فى السياسة والاجتماع .

وطائفة أخرى هى طائفة الماديين الملحدين الذين يدعون إلى هدم المجتمعات القائمة ويقولون بأن الأديان كافة عقبة تعترض « الإصلاح الاجتماعى » الذى يلغى « الروحيات » ويستبدل بها « الماديات » فى كل مطلب من مطالب الحياة الدنيا ، ولا حياة غيرها لإنسان .

ونصيب الإسلام عند هؤلاء الماديين الملحدين أوفر الأنصبة وأولاها بالتقديم فى خطة الهدم والتشويه ، لأن المسيحية لا تزاحم مذهبهم الاجتماعى بمذهب شامل لمسائل التشريع والنظم الاجتماعية والحكومية ، ولكن الإسلام يقيم المجتمع على نظامه ويقرر الحقوق والواجبات بقسطاسه ويحيط بشئون الدين والدنيا فى حياة الآحاد وحياة الجماعات ، ويتقبل البناء الجديد على قواعد أساسه الخالد دون أن يضطر المسلم إلى إنكار قاعدة من قواعد العبادات فيه والمعاملات .

ولا يقل عن هؤلاء الكفرة فى عداوتهم للإسلام جماعة « المؤمنين المحترفين » سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها إلى جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء فى البلاد الأوربية والأمريكية .

فهؤلاء أصحاب مصلحة فى تشويه الدين الإسلامى وتمثيل المسلمين على الصورة التى تذكى عند القوم جذوة التعصب وتملى لهم فى الجهالة والغفلة . فلا يسرهم أن تظهر الحقيقة لهم ولمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير ، ولا يندر أن يكون المبشر ملحدا بالدين كله ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه إذا كشف عن إلحاده أو قال عن الإسلام قولة حق وإنصاف تمحو عداوة الأعداء وتضعف غيرتهم وحماستهم للحملات التبشيرية فى بلاد المسلمين ؛ فهو كاذب متعمد منتفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى إلى علمها برضاه .

وينبغى أن نفرق بين هؤلاء « المؤمنين المحترفين » وبين المؤمنين المصدقين برسالتهم عند النظر إلى أقوال المبشرين .

فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية بعاطفته فنظر إلى الأشياء على غير وجهها وأخطأ الحكم عليها غير متعمد أن يخطئ أو يصر على خطئه وربما لاحت له فضيلة من فضائل الدين الذى ينكره أو من فضائل أهله فلم ينكرها ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها ، ولكنه يفسرها على سنة الأقدمين من المبشرين تفسيراً يوافق رأيه فى عقيدته وعقائد المخالفين له من المستحقين لغضب الله فى زعمه . وكذلك فسر المبشرون الأقدمون

فضائل الديانات التى وجدوا عليها أبناء الأمريكتين الوسطى والجنوبية يوم ذهبوا إليها بعد كشف العالم القديم بقليل ، فقد شهدوا بفضائلهم فى بعض عقائدهم وشهدوا بصحة تلك الفضائل على مذهبهم ، ولكنهم قالوا إنها دسيسة من الشيطان أدخلها على عقول أولئك الأمريكيين الأصلاء ليزين لهم ضلالتهم ويزيف عليهم أباطيلهم ، ولا يخطرن لنا أن هذا الزمن قد ولى وانقضى بتأويلاته وتخريجاته التى يأباها العقل ويرفضها المنطق السليم ... ففى عصرنا هذا سمحت سيدة أوربية لعقلها أن يغض من فضائل رجل كالمهاتما غاندى الهندى فلم تنكر عليه تلك الفضائل ولم تجرؤ على ازدرائها عند أبناء أمته ، ولكنها قالت إنها صفات عارضة فى روح غير ناجية ولا عالية ومن هنا كما قالت لم تظهر لروح غاندى مسحة من السماحة على وجهه ... فلحقت به الدمامة وحومت على محياه . ! ولعل المبشر المثقف فى هذا العصر لا يرجع إلى تأويلات الأقدمين ولا يزعم أن فضائل الدين الذى ينكره دسيسة من كيد الشيطان ، ولكنه يقول كما قالت تلك السيدة إنها صفات عارضة لا تتغلغل فى أعماق الروح ولا تحسن سيماها فى الوجوه !

على أن الإخلاص فى الإيمان بدين من الأديان عصمة ولا ريب من التلفيق المتعمد والكذب المقصود . فإذا كتب المبشر المؤمن بدينه عن الإسلام والمسلمين فإنما يكتب الحقيقة كما يراها وتتمثل له فى هواه ، ثم ينم عليه جهله وينكشف للقارىء مصدر خطئه وبواعث انحرافه ، ويختلف أمر المبشرين المحترفين فيما يلفقونه على الأديان التى ينكرونها ويتجردون — على زعمهم — لهداية أصحابها ... فإن هؤلاء المبشرين المحترفين مهرة فى فنون الدعاية مدربون على تمويه الواقع وتلبيس الحق بالباطل ، فلا يشق على عقولهم ولا على ضمائرهم أن يعرضوا أحوال الأمم على الصورة التى تنفر الناس منها ولا سيما المتعصبين المستعدين للنفرة والراغبين فى اختلاقها ، ولا نبالغ فى التقدير إذا قلنا إن تسعة أعشار المبشرين المحترفين فى العصر الحاضر من هذا القبيل .

طائفة أخرى يشوب كتابتها الغرض كلما تحدثت عن البلاد الإسلامية كما يشوبها الغرض كلما تحدثت عن بلد غريب يتطلع القراء الغربيون إلى سماع أخباره ويحبون أن توافق ما تخيلوه من أطواره وأعاجيبه ، ومعظم المتحدثين على هذا الأسلوب يسوقون أحاديثهم إلى قراء ألف ليلة ورباعيات الخيام ورحلات الرواد فى القرون الوسطى ، فلا يحبون أن يسمعوا خبراً يألفونه ويشبه ما تعودوه ، وهواهم كله إلى الأحاديث الشرقية التى تعرض لهم شرقاً فى الواقع كالشرق الذى

قرءوا عنه فى أساطير الخيال . وقد رأينا بعض كتاب الغرائب فى هذا القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم أنه نزل بضيافة شيخ فى الستين له فى مضارب الخيام حوله ثلاثون زوجة وله من الأبناء والبنات ما ليس يحصيه ، ورأينا غيره يزعم أنه زار فى العواصم الإسلامية بيوتا لا تفتح نوافذها وأبوابها بالنهار ولا بالليل وبين جدرانها خليط من الزوجات والسرارى لايهتدين فى الطريق بغير دليل من الخصيان ، ولكن هؤلاء المغربين المتخيلين يشوبون شيئاً فشيئاً إلى الاعتدال فى رواية أخبارهم وأعاجيبهم بعد شيوع الصور المتحركة وانتشار المناظر الشرقية على حقيقتها فيما تعرضه اللوحة البيضاء أو تعرضه الصحف السيارة ، ولم تبق للمغربين المتخيلين غير زاوية واحدة يملئونها بالأعاجيب والمدهشات عن المسلمين والشرقيين وهى زاوية التاريخ والقصور الأثرية التى يعمرونها بأبطال العصور الغابرة ويلحقون بهم أحيانا أبطال العصر الحاضر فيما يؤلفونه عنهم من قصص البيوت والخدور .

وأخطر المغرضين جميعا طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ما ليس لطائفة أخرى من طوائف المغرضين ، وهما طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار .

ويهون خطب الصهيونية الساخرة فى دعايتها السياسية أو العنصرية ، فإن الغربيين يعرفون أكاذيب هؤلاء الصهيونيين ولا يساعدهم من يساعدهم هناك جهلا بما يفترون على ضحاياهم أجمعين ، وإنما يساعدونهم لأن خطر الإسلام عليهم أكبر من خطر الصهيونية وما يماثلها من الأخطار العنصرية ، ولعلهم فى الغرب لم يسلدوا من دعاية صهيونية تحاربهم وتفترى عليهم فى مسائل الدين ومسائل السياسة كلما بدا للصهيونية العالمية مأرب عند هذا البلد أو ذاك ، فإذا أعلن الصهيونيون حملاتهم مصرحين بأسمائهم فلا ثقة بما يروجون ولا ضير على المسلمين منهم ولا غير المسلمين .

لكن الدعاية المقنعة أخطر ما يستطيعه هؤلاء الصهيونيون ، والحملات التى يشنونها فى أرجاء العالم بأسماء غيرهم هى فى الواقع سلاحهم الذى يعولون عليه ، لأن جمهرة القراء يصغون إليها ولا يتهمون قائليها ، بل لا يشعرون بداع إلى الاتهام فى أكثر الأحيان .

وقد عرف الصهيونيون فى عصرنا هذا مواطن القوة التى تسخرها الدعاية فاستولوا على الكثير من أدواتها وبرعوا فى تسخيرها وإخفاء مراميها . فهم يملكون شركات الإعلان فتحسب الصحف الكبيرة قبل الصغيرة حسابهم ولا تتورع عن خدمتهم أو السكوت عنهم على الأقل وكتمان سيئاتهم

ومآربهم . إذ كانت الصحف الكبيرة — خاصة — أحوج إلى الإعلانات لكثرة تكاليفها تبعاً لكثرة صفحاتها ، فلا تكاد أثمانها تفى بتكاليف الورق فضلا عن تكاليف التحرير لولا موارد الإعلانات .

ويملك الصهيونيون دور النشر فيحسب المؤلفون حسابهم كما يحسب الصحفيون ،

وقد يتبرع المؤلف بمرضاتهم ونشر دعايتهم تمهيداً لقبول كتبه ، وإذاعتها بالترويج والتقريظ وخلق « الجو » الصالح للاهتمام بها واللغط حولها ، ولا تقصر وسائلهم أحيانا عن ترشيحها لأكبر الجوائز العالمية من قبيل جائزة نوبل بالسويد وجائزة بولتايزر بالولايات المتحدة ، لأن نوبل نفسه يهودى ولجان التحكيم فى الولايات المتحدة لا تخلو من اليهود أو من يسيطر عليهم اليهود بوسائل الإعلان والترويج .

ويملك الصهيونيون أسهما وافرة فى شركات الصور المتحركة وينتسب إليهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح واللوحة البيضاء .

وإلى جانب هذه الوسائل الفنية أو المالية وسائلهم وراء الستار ـ وأمام الستار ـ بين الساسة والنواب والمرشحين لمراكز الزعامة والمتنازعين على الأصوات فى مواسم الانتخابات ، وليس استخدامهم لوسائل الجمال فى هذه المعارك وما إليها بأقل من استخدامهم لوسائل المال .

والمغرضون فى خدمة الاستعمار قوة تضارع الدعاية الصهيونية الخفية إن لم تزد عليها فى بعض الأحوال ، إذ هى قوة الدولة وقوة المال ، وسائر القوى المسخرة للسياسة والتبشير مجتمعات .

إلا أن الاستعمار فى هذا العصر لم يقترن به الترياق على الرغم منه ، وأوله ترياق النزاع عليه بين المستعمرين .

فإذا جاءت الفرية من جانب المستعمر الفرنسى لم يبخل عليه المستعمر الانجليزى بالتفنيد والتجريح ، مزاحمة له وإحباطا لمسعاه ، وإذا اختلفت برامج السياسة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ففى مجال الخلاف متسع لظهور الغرض المستور إن لم يكن فيه متسع لإنصاف الأمة المفترى عليها وتصحيح الأباطيل التى يروجونها عنها .

وقيام المعارضين للاستعمار فى كل دولة من دوله المشهورة ضمان لتفنيد دعاواه أو الكشف عن خباياه ، فلا تخلو دولة من دول الاستعمار الكبرى من أحزاب تعارض الاستعمار ، إشفاقا من مغارم الضريبة ومجازر الحرب وغارات الهجوم والدفاع ، وزهدا فى مغانمه التى يستأثر بها الرعاة ولا نصيب للرعية منها غير الخسارة والشقاء .

وعلى قدر سموم الاستعمار يكثر الترياق لكل سم من هذه السموم .

فالرغبة فى كسب مودة الضعفاء أقوى اليوم من الرغبة فى احتلال بلادهم واستغلال مرافقهم ، لأن فوائد الاحتلال تنقص ، ومغارمه تزداد ولأن الحروب اليوم حروب عالمية تمتد إلى كل ركن من أركان العالم المعمور فلا تؤمن العاقبة أثناء القتال إذا فوجئ المقاتلون بالمقاومة الحربية أو الاقتصادية فى ركن منها ، كائنا ما كان شأنه من الضعف والانزواء .

وليس من المنتظر ولا من المعقول أن يتصدى المستعمرون لإعلان الحقائق المشرفة لضحاياهم الأولين وضحاياهم الباقين تحت نيرهم ، وهم غير قليلين . ولكن المستعمرين خلقاء أن يعلموا أن معرفة الحقيقة عن الأمم المطموع فيها أجدى عليهم فى معاملاتهم معها من كتمان الحقيقة وتضليل الأذهان عنها إذ كانوا يخدعون أنفسهم ويضللون أبناء بلادهم إذا وضعوا لهم تلك الأمم المطموع فيها على غير حقيقتها ، فيخسرون لا محالة كما يخسر التاجر الذى يجهل أحوال « زبائنه » من الغنى والفقر والأمانة والغش والوفاء والمطال ، وما دامت القوة الغاصبة سلاحا مغلولا فى أيدى الغاصبين فلا مناص لهم من معاملة الناس كما هم فى الواقع بدلا من التعويل على قهرهم وإرغامهم وقلة المبالاة بما يجهلونه من شؤنهم وأخلاقهم ، كما كانوا يفعلون يوم كان الحكم كله للعنف والإذلال .

إن سموم الدعاية الاستعمارية باقية وستبقى إلى حين ، ولكنها اليوم سموم يقترن كل سم منها بترياقه ، ولا تفعل عقاربها ما تفعله أمصالها بين ضحاياها ، بل لا يأمن المستعمر نفسه من جرائر تلك السموم .

والنتيجة التى نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الإسلام والمسلمين فى عصرنا هى تمييز المخلصين منهم وغير المخلصين وحصر البواعث التى تدفع غير المخلصين إلى الجهل بالحقيقة وإخفائها إذا عرفوها .

فالمخلصون منهم هم طلاب العلم وطلاب العقيدة ، وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية والمتعصبون للدعوة المادية والمتعصبون للدين عن إيمان أو عن غش واحتراف ، وطلاب الغرائب ودعاة الصهيونية والاستعمار .

ويعوزنا نحن الشرقيين المفترى عليهم أن نحسن الوزن بهذا الميزان لنفهم ما يقال كما ينبغى أن يفهم ، ولكنها نتيجة سلبية قصاراها أن ننفى ما يقال ، فألزم لنا من هذه النتيجة السلبية أن نقول نحن ما يثبت وما يدفع ما يقال ؟

عباس محمود العقاد

مختار من الشعر القديم والحديث

الكواكبى رائد العروبة

— بمناسبة ذكراه —

للأستاذ محمود غنيم

حركت فى النفس يا شهباء أشجانا — يا وكر أحمد يا غيل ابن حمدانا

ساءلت نفسى أحقاً هذه حلب ؟ — ورحت ألثمها أرضاً وجدرانا

يا بلدة كدت التاريخ سيرتها — وقرحت من رواة الشعر أجفانا

وأخلقت جدة الأيام قلعتها — ولم تمس لها الأيام صفوانا

كم عنك من خبر أصغى الزمان له — وأرهف الفلك الدوار آذانا

حسبت تربك من مسك وغالية — وخلت حصباءه دراً ومرجانا

هذا أديم على مرآته انعكست — مناظر المجد تحكى الطيف ألوانا

فى كل زاوية من أرضه خبر — عن بنت عدنان أو عن مجد عدنانا

إن العروبة لو خطت مفاخرها — سفراً لكنت لهذا السفر عنوانا

هنا بموكب سيف الدولة ائتلقت — تلك البقاع وسار الركب مزدانا

كم شع من أفقها علم ومعرفة — وأنبتت أرضها خيلا وفرسانا

كم قبلت تربها من فارس شفة — وسار فيه سراة الروم عبدانا

يا رب جارية من فوقه خطرت — تنمى إلى عاهل من آل ساسانا

أبناء حمدان لسنا فى ضيافتكم — إنا نزلنا على التاريخ ضيفانا

* * *

إنا ضيوف على ذكرى تفوح شذى — بستانها الدهر نسرينا وريحانا

ذكرى ابن أحمد يروى الشرقُ سيرتها — أنشودةً فيهز العِطف نشوانا
ذكرى التقيِّ الذى يعنو لخالقه — ولا يقدِّسُ غيرَ الله إنسانا
ذكرى الكميِّ الذى قد ثار منفرداً — على الطواغيت من أبناء عثمانا
ذكرى الشهيد الذى ضحى براحته — وقدَّمَ الروح للأوطان قربانا
جئنا نمجِّد شمسا ضَمَّها جدثٌ — قد أيقظت كلَّ طرف غير يقظانا
وبدَّدَتْ بخيوط من أشعتها — غيما على الأفق الشرقيِّ قد رانا
شمس ولكنها فى الشرق قد غربَتْ — كأنَّ موعدَ يوم الحشر قد حانا
جئنا نمجِّد فى إبَّان وحدتنا — موحِّداً بسوى التوحيد ما دانا
أين اليراع الذى قد كان يشهرُهُ — كالسيف إن لان حد السيف ما لانا ؟
يراعةٌ كعصا موسى إذا نفثَتْ — رأيتها فوق ظهر الطِّرس ثعبانا
كم من يراع إذا نار الوغى احتدمت — صبَّ المداد على القرطاس نيرانا
وكم أديب إذا ثارت صحيفته — يوماً أثارت على المحتلِّ بركانا
والشعرُ من زَهَرٍ تلقاه أو شرر — لا تحسبوا الشعر تقطيعاً وأوزانا

* * *

أخا الكواكب فى ومض ومنزلة — هل بتَّ فى العالم العلويِّ جذلانا
إن الذى كنت فى دنياك تغرِسُهُ — قد صار روضا وريف الظل فينانا
فى مهرجانك يبدو صرح وحدتنا — أرسى وأرسخ من أركان ثهلانا
أخا الكواكب قم وانفض ثراك فما — كان الثرى للنجوم الزهر أوطانا
قم من ثراك وغرِّد فى محافلنا — وهات ماغاب عن قسٍّ وسحبانا
قم من ثراك وباركْ صرح وحدتنا — إنا بنيناه كالأهرام بنيانا
صرحاً تعانقَ روُحانا به شغفا — من قبل أن تتلاقى فيه كفَّانا
قد كنتَ فى مشرق الدنيا ومغربها — مثلَ الكواكب لا يأوِينَ بلدانا
ما كنت تعرف داراً للإقامة بل — كانت لسعيك كل الأرض ميدانا
حتى ترحَّلتَ لا جاهٌ ولا نَشَبٌ — بل كان حظك من دنياك حرمانا

وآثرتْ نفسك الأخرى ولو خضعتْ يوما لكان لها دنيا سليمانا
ما حطّ قدرَك سجنٌ أنزلوك به هيهات بل كنت للسجّان سجّانا
قد يرفع السجنُ من يغشاه منزلة ويعصفُ السّجنُ بالسجان أحيانا
صاولتَ فى مصرّ لما أن نزلتَ بها من عرشها ومن المحتلِّ ذؤبانا
والله ما نسيت مسعاك فى زمن سهرت فيه وكان الكل وسنانا
حتى إذا غبتَ عنها ودّعتْ رجلا قد كان أرفعَ من أهرامها شانا
وغسّلتْك بصَوْبٍ من مدامعها مصرُ البريئةُ ترجو منك غفرانا
يا شارب السمّ من كفٍ ملوثةٍ هل تشرب الآن من إبريق رضوانا ؟
لقد تحدّيت فى القبر الفناءَ فهل خلتَ الفناءَ على البسفور سلطانا ؟
والحرُّ يُنصفُهُ تاريخُهُ وكفى بالذكر خلداً وبالتاريخ ميزانا

* * *

أبناءَ يعرُبَ لا كانت عروبتُنا إن لم تُثِرْه عزمَنا ذكرى ضحايانا
يا قومُ تاهتْ لنا فى النجم مملكة قوموا نطالبْ بها الشّعرى وكيوانا
مُلكٌ بنَتْهُ بحدّ السيف منصلتاً أيدى الأوائل من أبناء مَرْوانا
بَنى بَنُوهُ بأيدى العُربِ دولتهم فاشتدّ بنيانها أسّاً وأركانا
ما هجّنوا بموالى الروم نسبتها أو أيدوها بجُند من خراسانا
لم يرفعْ الصوتَ يوماً فى جوانبها مستعجمٌ أو يمدّ الكف قرصانا

* * *

أبناءَ يعرُبَ هذا اليومُ يومُكمو هيّا بنا نستعيدُ الماضى الآنا
نقيمُها دولةً شمّاءَ باذخةً يعنو لها الدهرُ تسليما وإذعانا
تبنى الحضارة بنياناً على أُسس وتزرعُ السلم فوق الأرض بستانا
وتحفظُ الشرقَ إن شرٌّ أريدَ به ممّنْ يظنون أهل الشرق قطعانا
تزلزلُ البرّ فرساناً وأسلحة وتزحمُ البحر بعد البرِّ حيتانا
وتملأ الجوّ أسراباً محلقة تبُثّ فى الأرض تدميراً وعمرانا

إذا صحا الجوُّ طارت فى جوانبه وُرْقا وإن غام طارت فيه عقبانا
إنى أظن وظنى ليس يكذبنى أن الزمانَ الذى نرجوه واتانا
اليومَ ما عاد يشكو النيلُ من رَنَقٍ أو يشتكى بَرَدَى المعسولُ أدْرَانا
يا طالما جَرَيا شهداً لمغتصب وابنُ الحمى بهما قد بات غصَّانا
لا يعرف الضيمُ شَعْباً كان مغفرُهُ وسيفُهُ فى الوغى صبراً وإيمانا
إن الألى غصَبُوا سُورْيا ومصر معاً زاروا القناة فكانوا بعض صرعانا

* * *

أبناءَ يعرُبَ لا كنَّا إذا دلفتْ بنا خطانا إلى العلياء وُحدانا
بغدادُ كم لك فى قلب العروبة من قدْرٍ إذا هانت الأقدارُ ما هانا
إخواننا فى ظلال الكرخ ويحكمو لقد أصبتم لنا فى الكرخ إخوانا
يا أهلَ بغدانَ راعو الله فى رحم موصولة قطعَتْ يا أهل بغدانا
ماذا تقول ؟ أمَنْ صحْنَا به مَلكا بالأمس ندعوه هذا اليوم شيطانا ؟
هيهاتَ تقطعُ ما الرحمنُ واصلهُ يدُ المفرّق لا كانت ولا كانا
إن العروبة قد باتت مُوحَّدة حسَّاً وعاطفة أرضاً وسكانا
ما عاد يجرح أذْنَ الضاد جارحةٌ من ذكر لبنانَ أو من ذكر عمَّانا
الله أكبر ساد الوعىُ واندمجتْ تلك الحدودُ وصار الكل عربانا

* * *

قد سارت الفُلكُ عينُ الله تكلؤها فهللَ البحرُ أمواجا وشطآنا
سرْ يا جمال إلى شط السلام بها قد اصطفاك لها الرحمنُ ربَّانا

محمود غنيم

الكتب

نقد وتعريف

الفتاوى

دراسة لمشكلات المسلم المعاصر فى حياته اليومية والعامة

لفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

محمود شلتوت

من مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر
ويقع فى ٤١٥ صفحة من القطع المتوسط

وهذا كتاب آخر ظفرت به المكتبة الإسلامية من تأليف شيخ المسلمين الأستاذ الأكبر بعد كتابه القيم الذى قدمناه إلى قراء المجلة فى الجزء الماضى وهو (الإسلام عقيدة وشريعة) هذا الكتاب الجديد هو (الفتاوى) وهو مجموعة من الآراء الناضجة تتسم بالجدة والعمق فى تطبيق الفقه الإسلامى على مشكلات المجتمع ، وإنا نكتفى اليوم فى التعريف به بما كتبه الأستاذ الدكتور محمد البهى فى تقديمه . قال الأستاذ :

أى كتاب لـ « لفتوى » هو قاموس للمشاكل يختلف عن أى نوع آخر من أنواع الكتب مهمته — بجانب التبصير كمهمة أى كتاب فى جملته — التى ينفرد بها أنه يسعف صاحب الحاجة إسعافا مباشراً وفى يسر وأنه يتناول ما يجرى فى الحياة اليومية من أحداث تجد أو تتكرر ، لا بانطوائها تحت مبادئ كلية أو نظرية عامة ، وإنما فى جزئياتها وفى تطبيق المبادئ والنظريات العامة على هذه الجزئيات والمبادئ .

وكتاب « القاموس » أصبح شيوعه اليوم فى حياتنا المعاصرة أكثر من ذى قبل ، لأن الحياة فى سيرها اليوم أكثر سرعة ، والوصول إلى الهدف من أيسر السبل وأقربها قبولا أكثر قبولا لدى النفس ، وأشد ضرورة لحياتها الخاصة .

ولذا كان من الواجب على الإدارة العامة للثقافة الإسلامية أن تراعى هذا الطابع الحياة المعاصرة ، بجانب ما تراعى حاجة المسلمين إلى التفقه وإلى إيجاد الحلول الإسلامية لأمورهم ومشاكلهم . وهنا أملى هذا الواجب عليها أن تسعى إلى سد هذه الحاجة .

ومن حسن الحظ أنها وجدت فى جوانب المعرفة العديدة التى يتميز بها شيخ الإسلام وشيخ الأزهر فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ما يسد هذا الفراغ فى حياة المسلمين اليوم ، ويلبى حاجتهم السريعة ، فأخرجت هذا الكتاب : « الفتاوى » .

وإذا كانت الضرورة تدعو إلى تنوير المسلمين فى حياتهم اليومية عن طريق « الفتاوى » ، وإذا كان شأن كتاب « الفتوى » يختلف عن أى نوع آخر من أنواع الكتب فإن فتاوى الأستاذ الأكبر - بجانب ما تحمله من طابع التيسير فى الوصول إلى حل المسائل اليومية الذى هو طابع الفتاوى بوجه عام تتميز بطابع خاص هو الإحساس القوى بالحياة اليومية وبأحداثها ، والعمق فى فهم الإسلام وتطبيق مبادئه .

فالأستاذ الأكبر عاش فى فتاواه بين المسلمين ، وفى صلات المسلمين بغيرهم ، ومرت عليه التطورات العديدة والقوية الأثر فى حياة الإنسان ، وهو مقدر لهذه التطورات التى دفع إليها تقدم العلم ، وكانت ثمرتها تلك الحضارة الصناعية والمادية التى يتمتع بها الإنسان حينا ، وتسد حاجته اليومية حينا آخر ، وقد تشق بها حياته أحيانا فهو لم يكن فى عزلة عن الحياة الإنسانية المعاصرة ، يوم حلل المشكل أى مشكل ، ووضح عناصره وآثاره على الفرد والمجتمع ، ثم استوحى القرآن والحديث الصحيح الرأى بما أفتى به .

ولذا فإن ما تقدم فيما مضى من فتاوى ، وما يوجد من كتب لهذه الفتاوى فى أجيال المسلمين المختلفة والمتعاقبة لا تسد بحال هذا الفراغ الذى يسده كتاب « الفتاوى » للأستاذ الأكبر الشيخ « محمود شلتوت » لسبب بسيط وهو أن ما سبق من فتاوى كان لعلماء عاشوا فى غير أيامنا ، ولم تمر عليهم تلك التطورات البشرية القوية الأثر . ولذلك فصلاحية ما أفتوا به تكاد تكون ذات اتصال مباشر بحياة المسلمين قبل عصرنا هذا .

نعم : كثير من الفتاوى التى قام بها قادة الرأى وأئمة الاجتهاد بين المسلمين قبل الآن ، لها اعتبارها وصلاحيتها اليوم ، وسيظل لها اعتبار ووزن كذلك فى حياة الغد . أما الاستيعاب لأحداث هذا العصر ، أو الاتصال المباشر بها وتطبيق الرأى الإسلامى عليها - فلا نجده فى غير كتابنا هذا الذى نقدمه باسم « الفتاوى » لشيخ المسلمين وشيخ الأزهر .

ومن ثم فكتب «الفتاوى» السابقة يكملها كتابنا هذا، ويتمم فى سلسلة الفتوى حلقة أخرى، تتضح صلاحيتها للمسلم المعاصر على وجه أخص فى حياته اليومية فرداً ومجتمعا على السواء.

وفوق هذا وذاك فإن العمق فى الدراسة والبحث، الذى يتميز به أستاذنا الأكبر فيما يكتب وفيما يفهم من الإسلام بصفة عامة، هو ميزة أخرى تتجلى فى كتاب اليوم: «الفتاوى». والرأى الإسلامى الذى يعطيه الأستاذ الأكبر فى فتاواه هنا ليس ناضجا فحسب من الوجهة العلمية، وإنما هو يعبر تعبيرا لا لبس فيه عن روح الإسلام وأهداف تعاليمه فيما يتعلق بتوجيه الفرد وتوجيه المجتمع.

فهم مستقيم لطبيعة الإنسان، واستيعاب واسع لعناصر المشاكل والأحداث التى تجرى فى عالمنا اليوم، وسلامة فى تحديد أهداف الإسلام وتعاليمه فى توجيه الإنسان، واتصال قريب بالقرآن الكريم وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته الصحيحة ـ كل ذلك أساس «الفتوى» فى كتابنا الذى تقدمه هنا الإدارة العامة للثقافة الإسلامية.

وإذا كان كتاب الأمس: «الإسلام عقيدة وشريعة» قصدت به الإدارة العامة للثقافة الإسلامية أن توقظ الوعى الإسلامى بين المسلمين، وتوقفهم على أهداف الرسالة الإسلامية ليجتمعوا حول الإسلام ويحققوا رسالته ـ فكتاب اليوم: «الفتاوى» يقدم الحلول للمسائل العملية التى تقع فى حياة المسلم المعاصر، كى يسلك فى تصرفاته سلوكا إسلاميا، وكى يبقى مستظلا بظل الإسلام، يسير بمشعله فى حياته، بعد أن يمتلئ قلبه بالإيمان به.

كتاب الأمس كان تنويرا لتفكير المسلم المعاصر بما فى الإسلام من قيم وتعاليم. وكتاب اليوم «الفتاوى» تنوير له فى سلوكه الخاص، وفى أسرته، وفى مجتمعه وفى صلته بربه، وفى علاقته بغيره من مواطنيه أو من الشعوب الأخرى.

وميزة أخرى لهذا الكتاب أنه منذ عصر الركود الذهنى، ومنذ عصر الجمود فى تأليف الكتاب الإسلامى بقيت أنواع المعاملات وبقى الرأى فيها على نحو ما كان معروفا للأئمة بين الفقهاء فى الأجيال الماضية. والفتوى التى كانت تجد بعد ذلك كانت أيضاً لا تخرج عن هذه الأنواع، وإن لم تأخذ حينا بالرأى فيها على نحو ما رأى السابقون. أما شيخ الإسلام وشيخ الأزهر فى كتابه هذا فقد رأى من الواجب عليه ـ لأنه أراد تنوير المسلمين فيما جد من مشاكلهم العديدة ـ أن يبدى الرأى الإسلامى فى الأحداث التى جدت والتى لم يعرفها الأوائل من

الأئمة . فأبدى الرأى مستخدما فيه أصول الفقه التى استخدمها الأئمة من قبل ، ومستعينا بفهمه الدقيق لأهداف الإسلام ، وبتاريخ الدعوة الإسلامية فى مكة ، وتاريخ قيام المجتمع الإسلامى بالمدينة ، وبتاريخ الغزوات الإسلامية وما كان لها من نتائج فى علاقة المسلمين بغيرهم .

و « الفتاوى » التى نقدمها اليوم لذلك تميزت بعدة خصائص سواء بسعة الموضوعات والمشاكل التى تناولتها أو بالرأى الذى تحمله للمسلمين وهى خصائص أقل ما يقال فيها إنها تطمئن الإنسان على أنه يسير فى حياته طبقاً لها — سيرة المسلم الصحيح ، وإنه قد أرضى باتباعها ربه كما أرضى دينه .

والإدارة العامة للثقافة الإسلامية ترجو للمسلمين أن يطمئنوا دوما إلى إسلامهم ، وأن يزيد إيمانهم به على أنه المنهج القويم لسلوك الإنسان صاحب المستوى الرفيع . كما ندعو الله جل وعلا أن يبارك فى فضيلة الأستاذ الأكبر وأن يجزيه خير الجزاء على ما يقوم به من توجيه للمسلمين .

الدكتور محمد البهى

المدير العام للثقافة الإسلامية

الإسلام وحاجة الإنسانية إليه

تأليف الدكتور محمد يوسف موسى

عرض ودراسة — الأستاذ محمد الغزالى

هذا موضوع يجب أن يطول فيه الحديث ، وأن تكثر فيه البحوث ، فإن تقدم العلم فى عصرنا هـذا صحبه تجهم للدين ، وتنكر للإيمان ، ونظر إلى تراث السماء كله وكأنه بقايا من أساطير الأولين لا ينبغى الاكتراث بها .

وشملت هذه النظرة الإسلام بعدما بدأت من غيره ، وأعان عليها ما لحق المسلمين فى الآونة الأخيره من تخلف وعجز يجران التهم جراً إلى دينهم الحنيف ، ويلصقان به ما هو منه برىء ! .

وقد سرنى أن يتصدى الدكتور محمد يوسف موسى لإصدار كتاب حافل فى هـذا الموضوع تضمنت أقسامه الخمسة أطراف البحث كله ، وطوت مراحله الشاسعة طياً يجمع بين الاستقصاء والإيجاز .

وأسلوب الدكتور فى كتابه هـذا تتضح فيـه خصائص نفسه ، ففيـه عمق الفلسفة وليس فيه تعقيدها ، وفيه دقة القانون وليس فيه جفافه ، وإن كانت عباراته دانية يخيـل إليك أنها لا تعلو عن لغة التخاطب المعتاد .. وهذه طريقة فى الأداء يستريح لها الكثيرون

وأظنها فى مجال النثر الفنى أوسع طرائق التعبير للإفهام والاستدلال . . .

وقد ألف الدكتور كتابه على نسق مزدوج فهو يجمع الحقائق ، ويضعها صفا صفا ، ويدعك تشركه فى استخلاص النتائج من المقدمات ، وتنتهى معه إلى حيث يريد .

وتجميع الحقائق من مظانها قد يبدو للفكر القاصر عملا سهلا .

كلا ، إنه فى ميدان البحث الدينى والتشريعى والتاريخى والكونى هو الجهد المضنى ، والعمل المشكور . .

ثم هو بالنسبة إلى الإسلام العمل الفذ الذى لا بد منه . فإن الدفاع عن هذا الدين يتطلب من رجاله أولا وآخراً ، أن يذكروا حقائقه المجردة ، وأن يحسنوا شرحها ، لا بجودة السبك وبهرج اللفظ ، بل بتمحيص الجوهر ، وتعريته عن أية إضافة أخرى .

وذاك ما اضطلع به فى وفاء وقوة مؤلف « الإسلام وحاجة الإنسانية إليه » .

وصفحات الكتاب موزعة على خمسة أقسام نرى ضرورة ذكر عناوينها هنا كى يتعرف القارئ اتجاهات البحث فيه .

أولها : « الإسلام هو الدين الحق ، الحاجة إليه خصائصه » والثانى : « العقيدة ، الإسلام ، وعدالة الله ، ورحمته » والثالث : « النبوة والبعث وما يكون عنه » والرابع « الشريعة الإسلامية » والخامس : « مقاصد الإسلام وغاياته » .

ووراء كل باب من هذه الأبواب الخمسة كلام مستفيض زاخر بالحقائق العلمية والدلائل المورثة لليقين .

خذ مثلا ما كتبه تحت عنوان « من خصائص الإسلام » يقول : « لكل دين خصائصه التى يتميز بها عن الأديان الأخرى فما هى خصائص الإسلام الذى ندعو إليه جاهدين ، والذى لا خلاص للعالم إلا به بعد أن انقسم إلى معسكرات يتربص بعضها ببعض الدوائر ؟ » ثم يجيب على هذا التساؤل بعد تمهيد يسير . « نكتفى هنا أن نتحدث بإيجاز عن بعض هذه الخصائص وهى أنه دين الوحدة الدينية ، والوحدة السياسية ، والوحدة الاجتماعية ، ودين العقل والفكر ودين الفطرة والوضوح ، ودين الحرية والمساواة ، ودين الإنسانية ، وهو لذلك كله دين ودولة ، وهو الذى قرر حقوق الإنسان ، وتحت كل فصل من هذه الفصول أخذ الدكتور يشرح قضاياه ويسوق براهينها سوقا سهلا يعتمد كما قلنا على تجميع الحقائق وإحسان ترتيبها .

ولا بأس من الإلماع إلى الطريقة التى يعالج بها المؤلف موضوعه ، فهو لكى يستدل على حب الإسلام للحرية ، وعلى

تعوف الشارع لرؤية البشر كافة متمتعين بها يثبت لك هذه السطور الصغيرة : «من عناية الإسلام بالحرية وقدرها حق قدرها أن الفقهاء يقولون : إذا وجد صبي غير معروف نسبه مع مسلم وكافر ، فقال الكافر هو ابني وقال المسلم : هو عبدي ، يحكم بحريته وبنوته للكافر ! ! وذلك لأنه بهذا ينال الحرية حالا وينال الإسلام فيما بعد حين يكبر ويفهم الدلائل على وجود الله وبعثة رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام بأكمل الأديان» .

وفى هامش الصفحة يذكر مصدر هذا الحكم الرائع فيكتب «راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه المطبعة الأميرية : الثالثة سنة ١٣٢٥ هـ ح ٤ ص ٤٦٥ - ٤٦٦» .

إن هذا الحكم المنقول أجدى عندى من إنشاء صفحة مليئة بالثناء على موقف الإسلام من قضايا الحرية . . . واستخراجه من مكمنه الخفى جهد يستحق كل احترام . والدكتور موسى من أبرع المؤلفين فى هذه الخطة . إنه يخدم الإسلام بتسليط الأضواء على حقائقه ووضعها أمام الجاحدين ، أو وضع الجاحدين بإزائها . . .

وأعترف بأننى أحد الذين يستفيدون من هذا المنهج أعظم الفائدة .

وبلغة الخطاب العادى التى لا تلمح فيها أثراً لتجويد العبارة وتزيين اللفظ يقول الدكتور فى بيان أن الإسلام دين فطرة والوضوح:

« ... وكذلك فكرة أن الإنسان ولد وجاء إلى هذه الحياة مثقلا بالخطيئة الأصلية التى لا يستطيع منها فكاكا ، وتقول بها المسيحية ونعرفها نحن من كتبها التى بين أيدينا . وهم يعنون بها أن الإنسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم عليه السلام جده الأعلى حين خالف عن أمر ربه وأكل من الشجرة التى حرم الله عليه قربانها . وبذلك يحملونه وزراً لم يجنه ، ويجعلونه يعيش طول حياته وهو وازح تحت أثقال هذه الخطيئة المزعومة ومن ثم يطلبون من الإنسان أن يؤمن بعقيدة «الصلب والفداء» .

أى صلب «المسيح الإله» تفدية للبشر بما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية .

وكيف يستطيع عقل أن يؤمن بأن «الإله» كما زعموا يتمكن منه أعداؤه فيصلبونه وهو يستغيث ولا مغيث له على حين يقول القرآن، كتاب الإسلام ، عن سيدنا آدم : «وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، كما يقرر أنه ليس للإنسان إلا ما سعى وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

كما يقرر من ناحية أخرى أن الإنسان يولد بريئا من كل ذنب أو خطيئة وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» .

وظاهر أن هذا العرض العلمى لا يعنيه شىء إلا سرد الحقائق فى بساطة تامة وكنت أود لو انضم إلى هذه القدرة العلمية شىء من الافتنان فى الأداء ... ! .

والكتاب مشحون بالمادة العلمية التى يتشرح بها صدر المؤمن ، وتستوقف فكر الجاحد ، وترغمه على مزيد من التأمل والانعطاف إلى الحق .

وفى البابين : الثانى والرابع تلخيص للعقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية معا، والمؤلف فى هذين البابين يكتب بخبرة الإخصائيين .

وقد تابعت شرحه لقضايا علم الكلام ، وتنويهه بالدور الذى قام به فى العهد الأول ، ومطالبته بتجديدموضوعاته واستدلالاته حتى توائم حاجة المعاصرين ، وماجد من مشكلات ذهنية ونفسية. والتجديد الذى يقترحه.هو فى الحقيقة عود إلى منهج القرآن الكريم فى إثبات الوجود الأعلى ، ووصف الكمال الذى يستحقه . وإنه لواجب على المعنيين بالدراسات الدينية أن يلتفتوا إلى هذا الاقتراح ، وأن يمهدوا للعمل به فإن دراسة القرآن لفهم العقائد الدينية والتدليل عليها أولى من دراسة كتب علم التوحيد أو الكلام اليوم ؛ لأن هذا العلم نشأ فى زمن كانت الحاجة ماسة فيه للرد على خصوم الإسلام من الدهريين والزنادقة والملاحدة والمبتدعة . أما اليوم وقد ذهبت تلك الخصوم وجاء خصوم آخرون فلا يليق بنا فرض الذاهب حاضرا وترك الحاضر الذى لا يرده إلا كتاب الله إذا بيناه على وجهه .

وليس من الحزم أن يضيع الإنسان عمره فى الاشتغال بخصوم موهومين ويترك الخصم الذى ضيق عليه المسالك ! ! وفضلا عن هذا فإن كتب علم الكلام فيها حجب كثيفة تمنع النور وتحدث الظلمة وربما قضت على اعتقاد ثابت صحيح . وهذا كلام حسن ، وقد طبقه المؤلف حين خاض فى البحوث المتصلة بالعقيدة ، أو المنبثقة عنها . فكان منهجه قرآنيا ، وكانت الشواهد التى استظهر بها للغزالى وابن رشد من هذا القبيل المحكم . وحبذا لو فكر الأزهر فى دراسة علم التوحيد على هذا النحو المجدى ، واطرح الكتب المعتمة التى ما زالت بين أيدى الطلاب . والفصول التى تناولت الفقه الإسلامى فى هذا الكتاب لامعة الفكرة وهى ثمرة كتابات مسهبة ألقاها المؤلف فى كلية الحقوق - جامعة عين شمس. وتمتاز بالتحرر المذهبى ، والإحاطة بوجهات النظر المخاصمة والمصادقة ، ودفع الشريعة إلى الأمام كى تحتل المكانة التى غصبتها منها القوانين الموضوعة .

وبعد : فهذا كتاب يشتمل على ثروة من المعارف الدينيه السليمه تجعله عملا عظيما فى خدمة الإسلام ورفع مناره ليهتدى به الحيارى والمدلجون .

محمد الغزالى

آراء وأحاديث

مبادئ الإسلام هي مبادئ السلام :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمكتبه صباح اليوم مستر كولاند لتر مدير مكتب الأمم المتحدة للإعلام ، وكان يرافقه السيد الأستاذ على خليل نائب المدير .

وقد دار الحديث حول أهداف الأمم المتحدة وما ينبغي أن تكون عليه هذه المنظمة العالمية التي تتطلع إليها جميع الشعوب في الشرق والغرب .

وقد اقترح فضيلة الأستاذ الأكبر على سيادة الزائر أن تتخذ هيئة الأمم المتحدة مبادئها وأسسها من مبادئ الإسلام التي تدعو إلى التعاون والسلام بين جميع الأمم ، وهى تقوم على الأسس الآتية :

١ - قوله تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

٢ - وقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

٣ - قوله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » .

وأضاف فضيلته قوله : إنه لو اتخذت الأمم المتحدة هذه النداءات الثلاث شعاراً لما لأفادت الهيئة من التمسك بهذه المبادئ ، والتف الناس حولها لأن ذلك يؤتى ثماره الطيبة ويكون له أثره الواضح بين جميع الأمم .

ثم قال السيد الزائر : (إننى لأشعر دائما ، وأعلم علم اليقين أن هناك صلات قوية بين مبادئ الإسلام والمبادئ التي تدعو إليها الأمم المتحده والتي تتفق مع النداءات الثلاثة التي ذكرها فضيلة الأستاذ الأكبر ثم قال إنها لفرصة طيبة أن سعدت بلقاء فضيلة الأستاذ الأكبر واستمعت إلى حديثه الطيب كما أنه لمن أهم الأشياء التي قامت بها الأمم المتحدة أن جمعت بين الناس من جميع الأجناس والألوان وإنى لسعيد لوجودى في هذا البلد الإسلامى العظيم .

ثم اقترح على فضيلته أن يعلن هذه النداءات

على العالم يوم ١٠ ديسمبر وهو اليوم الذى تحتفل به هيئة الأمم المتحدة بذكرى إعلان حقوق الإنسان لنشرها على الملأ وليفيد منها الشرق والغرب فأجاب فضيلة الأستاذ الأكبر : إنه لمن دواعى سرورى أن ألبى هذه الرغبة المقترحة ، وإنى على استعداد تام أن أعلن للأمم المتحدة هذه المبادىء القويمة التى سوف تخطو بهذه الهيئة العالمية نحو تحقيق آمال الشعوب وخاصة الشعوب التى تتطلع إلى الحرية والاستقلال حتى يمكن التعاون الوثيق بينها إذ أنه لا يمكن التعاون بين جميع الأمم إلا إذا كانوا جميعا أحراراً.

ثم تحدث فضيلته عن شعب الجزائر وشعب فلسطين مهيبا بالأمم المتحدة أن تعمل من جانبها على تحقيق آمال هذين الشعبين . هذا وقد وعد السيد الزائر أن يحمل رأى فضيلته إلى أروقة الأمم المتحدة لتعلن على ممثلى العالم ، وليقفوا على النداءات التى اقترحها فضيلته شاكراً له حسن استقباله وسعة صدره وآراءه القيمة للنهوض بهذه المنظمة العالمية .

حول الإصلاح الدينى فى الأزهر :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه السيد روبرت بود زيت الصحفى الألمانى الذى تحدث مع فضيلته فى الإصلاحات الدينية التى تنبعث من الأزهر ، فقال فضيلته : إن من بين ذلك رفع التحكم عن العقل الإنسانى وإطلاق الحرية للفكر كى يؤدى واجبه للصالح العام ثم تركيز المسئولية لكل إنسان فى حياته الخاصة أو العامة والرسول يقول : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

ثم قال السيد الصحفى كيف تتحقق مسئولية الفرد والإسلام يقول : « إن الله صانع كل شىء » ، فقال فضيلته : إن الإنسان مسئول بما منحه الله من عقل ، فله الاختيار فى فعله وليس مجبرا على عمله .

وعند ذلك قال الضيف : هل هذا منهج تطورى فى الإسلام ؟ .

فقال فضيلته : هذه هى طبيعة الإسلام منذ بدأت دعوته .

ثم سأل الزائر عن الطلاق فى الإسلام ، وهل أعطى الإسلام حق التطليق للمرأة ؟ .

فأجاب فضيلته : إن الطلاق تخلص من سوء العشرة وللمرأة حق طلب التطليق من زوجها إذا أساء معاملتها ، أو اشترطت أن تكون العصمة بيدها .

ثم تطرق الحديث إلى الحال التى يكون لهما فيها أولاد ، فقال فضيلته : إذا كان الأولاد صغاراً فللأم الحق فى حضانتهم ، أما إذا كانوا كباراً فإن للرجل الحق فى ذلك ، إذ هو أقدر من المرأة على مطالب الحياة

ولما سأل السيد الضيف فضيلة الأستاذ الأكبر عن تعلم المرأة بالأزهر أجاب فضيلته : ليس هناك فكرة الآن لقبول المرأة فى الأزهر ،

غير أن الإسلام قد أعطى المرأة حق الدراسة، وأن تتفقه فى دينها ، وهى فى ذلك كالرجل سواء بسواء ، وذلك موجود فعلا فى دروس الوعظ التى يقوم بها السادة وعاظ الأزهر وأئمة المساجد وخطباؤها ، مما جعل كثيراً منهن يتفقهن فى دينهن ، ويقفن على كثير من جمال نظام المجتمع كطبيعة تكوين الأسرة ، وحقوق الزوج على زوجته والزوجة على زوجها ورعاية الأولاد — وما إلى ذلك — مما يجعل بناء الأسرة قويما.

حال المسلمين فى أمريكا :

ثم استقبل فضيلته السيد جيمس محمد خليل رئيس اتحاد الجمعيات الإسلامية بأمريكا وقد حيا السيد الزائر فضيلة الأستاذ الأكبر تحية إسلامية باللغة العربية وقال : إننى يا فضيلة الأستاذ الأكبر لا أجيد التكلم باللغة العربية وإنما أتكلم بها قليلا فقال فضيلته : إن القليل منكم كثير وإنما يهمنى الإيمان العميق والعقيدة الصالحة والحرص على الوصول إلى الفكرة السامية فيوم نخلص جميعاً فى الدعوة إلى الله يوم يسود السلام الأرض ونبلغ الأهداف جميعها ، ثم سأله فضيلة الأستاذ الأكبر عن المدارس الإسلامية وهل توجد فى أمريكا فقال : لا ، ولكننا نعمد إلى بعض المساجد فنقيم بها بعض الدراسات الخاصة ، ثم سأله عن اجتماع المسلمين فى المساجد ، قال : إن صلاتنا الجامعة نعقدها يوم الأحد وذلك لأنه يوم عطلتنا وليس أحد يستطيع أن يجتمع فى غير هذا اليوم لارتباط المسلمين بالأعمال العامة يوم الجمعة ، ونحن فى انتظار الأئمة الأزهريين فوعده فضيلة الأستاذ الأكبر بسفرهم فى أقرب فرصة .

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه سيادة بطريرك القسطنطينية المسكوفو أثينا غوارس الأول ، ولما استقر المجلس بسيادته قال : إن لنا مزيد الشرف أن قدمنا لزيارة فضيلتكم معربين عن صادق تقديرنا نحو الدعوة إلى المبادئ الإنسانية التى تعملون جاهدين من أجلها .

فقال فضيلته : إنه لمن دواعى سرورنا أن تلتقى الأديان من أجل المبادئ الإنسانية كما أنه ليوم مشهود أن صادف ذكرى إعلان حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة ، وأن أملنا لكبير فى أن يكون مثل هذا اليوم عيداً حقيقياً جديراً بالاحتفال بعد أن تأمن الشعوب الصغيرة على مستقبلها ، وتنال حقها كاملا غير منقوص .

ثم أضاف فضيلته : إنها لمقابلة تاريخية تلك التى نرجو أن يكون لها أعظم الأثر فى مستقبل تضامن الأديان من أجل الإنسانية

وإنى أنتهز هذه الفرصة ليضع كل منا يده فى يد الآخر عاملين على خدمة الإنسانية والسلام.

وقد أبدى سيادة البطريرك سروره وارتياحه لاقتراح فضيلة الأستاذ الأكبر بإصدار بيان مشترك لدعوة رؤساء الدول إلى الوقوف فى وجه فرنسا لتحول بينها وبين تفجير القنبلة الذرية فى الصحراء الكبرى، ولترفع يدها عن الجزائر، ولتعمل على إنصاف الشعوب المهضومة الحق حتى تنال استقلالها، وأن تهيئ للاجئين الفلسطينيين سبيل العودة إلى وطنهم فى أمان واستقرار فإن الأديان تدعو إلى الإنشاء والتعمير لا إلى الهدم والتخريب.

وأضاف سيادة البطريرك قائلا: إننى بعد العودة إلى تركيا سأعرض الأمر على المجمع الكنسى لاستصدار قرار بضرورة الاشتراك فى هذا البيان.

كما قال فضيلة الأستاذ الأكبر: «لا حرب ولا ذرية»، وكررها مرارا مع فضيلته سيادة البطريرك.

وقد أكد فضيلته الدعوة إلى السلام بقوله تعالى «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا»، ولقد ذكركم سبحانه وتعالى فى القرآن قال: «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون» ومعنى ذلك أنهم لا يستكبرون عن قبول الحق ولا عن الرجوع إليه.

وهنا ابتسم البطريرك ابتسامة الرضا والابتهاج قائلا: هذا ما ينادى به الإنجيل أيضا.

وإننى لسعيد: بهذا اللقاء، فإنك رجل مملوء بالخير، وقد قرأت ذلك فى عينيك اللتين تتوقدان إيمانا وقوة، وفى لسانك الذى ينطق بهذه العبارات التى تحمل أسمى معنى لخدمة الإنسانية، وإننا لنشكر سيادة الرئيس جمال عبد الناصر والجمهورية العربية المتحدة جزيل الشكر، ونعبر عن عظيم امتناننا للتضامن الذى لمسناه من جميع الأديان، وتعاونها الوثيق، والمعاملة الطيبة التى تلقاها الكنيسة المسيحية فى هذا البلد العظيم.

ثم قال الأستاذ الأكبر: لقد كانت فرصة طيبة أن اجتمعت الأيدى متصافحة متآزرة، وإنى إذ أتقبل هذه التحية بصدر رحب ولسان صادق، نشكركم على زيارتكم التاريخية، وندعو الله أن يوفقنا وإياكم للعمل من أجل المبادئ الإنسانية التى تنادى بها جميع الأديان كما أعبر عن شعورى الأخوى الذى يحمل لكم أصدق التقدير على تعاونكم، كما أدعو أن يحفظ قائدنا الهمام الرئيس جمال عبد الناصر الذى يعمل حريصاً من أجل هذه المبادئ.

هذا وقد وجه سيادة البطريرك الدعوة إلى فضيلته لزيارة تركيا فأجاب فضيلته : إنه ليسعدنى أن ألبى هذه الرغبة عندما تتاح الفرصة لذلك .

اللغة العربية هى لغة المسلمين كافة :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه السيد محمد خير جوهرى وزير التربية والتعليم بالملايو والسيد شيد جعفر البار نائب وزير الاستعلامات بالملايو والسيد سيد ناصر مدير المجمع اللغوى بالملايو والسيد صالح عثمان مدير الشئون الثقافية والعربية بوزارة التربية والتعليم بالملايو .

وكان يرافق الوفد السيد ابراهيم حمودة مدير عام التخطيط بوزارة التربية والتعليم المركزية والسيد محمد محمد عبد الرءوف مبعوث الأزهر وعميد الكلية الإسلامية العليا بالملايو والسيد محمد بيومى ابراهيم العضو الفنى بالعلاقات الثقافية والخارجية بوزارة التربية والتعليم المركزية .

وقال فضيلة الأستاذ الأكبر مرحبا بالزائر الكريم : إن الصلة الوثيقة بيننا وبينكم تجعلنا مسرورين بهذه الزيارة ، ثم سأل فضيلته عمن يعرف اللغة العربية فيهم فأجاب اثنان منهم إننا نجيد هذه اللغة فقد تعلم أحدنا فى الأزهر وأما الآخر فقد تعلمها فى الملايو .

فقال فضيلته : مرحبا بكما فوق الترحيب بإخوانكما جميعا لأننى أرى من الضرورى أن توحد لغتنا جميعاً لترتبط ارتباطا وثيقا ، فالرباط القلبي موجود ،ولكن ينقصنا أن نتفاهم ونتقارب ، والتقارب دعامة الاتحاد والقوة ،وثقوا أن الفضل كل الفضل للغة العربية إذ هى ثوب الإسلام الذى اكتساه ثم طاف به فى جميع أنحاء العالم فدخل فى القلوب وامتلأت به النفوس ناشراً العقيدة الصحيحة والإيمان العميق . ووزارة التربية فى أى شعب من الشعوب واجبها أن تعنى بتزكية الروح وتربية الخلق عن طريق هذه العقيدة ثم تبدأ فى تعليم الناس،وهذا هو الذى يشير إليه تعالى بقوله : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

وثقوا أن لا وجود لأية وزارة من وزارات التربية إلا إذا توفرت على التربية الروحية والخلقية ، ومن جهتنا نحن فإننى أقول لكم : إن الأزهر يعاهدكم على أن يتيح لكم تحقيق هذه الأغراض .

إن عليكم يا وزراء التربية فى أنحاء العالم الإسلامى والعربى — واجبا مضاعفا لأنكم أنتم الذين تربون الجيل فأنتم أجيال فى أشخاص وأملى ألا تتهاونوا فى هذه النواحى ، خاصة وأنتم تدركون ما ينهال على البلاد الإسلامية من تيارات جارفة من وجودية خاوية ، إلى شيوعية متجردة من الروح ، إلى إلحادية تمشى

دون هدى أو إصلاح، وإنما تتخبط فى طريقها؛ فإن أسستم بنيانكم، وأقمتموه على تقوى من الله أقمتم الحصون القوية المنيعة التى لا تؤثر فيها العواصف ولا الصواعق ولا تصل إليها هذه المبادئ الهدامة.

تعالوا بنا — وعلى رأسكم أخى وزير التربية والتعليم بالملايو بنفسه الطيبة وقلبه الكبير — نعاهد الله (ثم التفوا جميعا حول فضيلته واضعين أيديهم فى يده، ثم قال: هذا عهد الله بينى وبينكم وبين الذين يقومون على تربية النشء، وقد تعاهدت قبلكم مع السيد كمال الدين حسين على ما نعاهد الله عليه الآن من إخلاص فى تربية الجيل على أساس من الإيمان والتربية الصالحة، وأنا مطمئن إلى أنكم يا أبناء الملايو منفذون لهذا العهد فإن هذا الخلق الهادئ والطبيعة السليمة إذا ما انضم إليها خلق الدين وتسامحه يصبح أسمى خلق وأقدر نوع من هذه الأنواع على التوجيه السليم.

ثم أضاف فضيلته قائلا: «كان الرسول صلى الله عليه وسلم — مع أصحابه إذا اجتمعوا على أمر هام لا يفترقون إلا إذا قرءوا قوله تعالى: «والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا».

ثم قدم إليهم فضيلته كتابيه «الإسلام عقيدة وشريعة»، «والفتاوى»، وهنا وقف أحد الأعضاء فقال فليأذن فضيلة الأستاذ الأكبر فى أن أترجم هذين الكتابين إلى لغة الملايو فأذن فضيلته وقال هذه كتب المسلمين جميعا لا تحتاج إلى إذن فى الترجمة ولا فى القراءة، فهى مباحة كالماء والهواء.

ثم ارتجل السيد محمد خير جوهرى وزير التربية والتعليم بالملايو الكلمة الآتية: بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن الزملاء أغتنم هذه الفرصة لأقدم لفضيلتكم عظيم شكرى لتفضلكم بقبول زيارتنا لكم ولأشكركم على هذه الدرر والنصائح الثمينة التى نطقتم بها، وأنا من جانبى ومن جانب حكومتنا أعدكم بأن أنفذ هذه النصائح الكاملة، وأغتنمها فرصة لأقدم الأزهر فى شخص فضيلتكم أبلغ الثناء على ما قام به من مساعدة لأبناء الملايو، سواء فى مصر أو فى خارجها وإن سفيركم الرسمى وهو الأستاذ محمد عبد الرءوف عميد كلية الشوق فى الملايو ليشهد على ما نكنه لكم من حب وتقدير، كما أرجو من فضيلتكم أن تعملوا على جعل الشهادات التى يحصل عليها الطلاب من كلية الشريعة فى الملايو معادلة لقرينتها فى الجمهورية العربية المتحدة التى يمنحها الأزهر لطلابه، وقد وعدهم فضيلته بتحقيقها.

ثم انصرف الوفد شاكراً لفضيلته حسن استقباله لهم.

هدية شاه إيران إلى الأزهر:

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه السيد الوزير المفوض للسفارة الإيرانية نائبا عن السيد السفير الموجود فى رحلة خارج القاهرة ، وكان موضوع الزيارة حمله تحيات جلالة امبراطور إيران وهديته إلى الأزهر الشريف وهى أربعة كتب من القطع الكبير عن الفقه الجعفرى وهى : كتاب « جواهر الأحكام » ستة أجزاء ، « شرائع الإسلام » و « قواعد الأحكام » و « مدارك الأحكام » .

وحينما قدمها سيادة الوزير إلى فضيلته قال: « إن هذه الكتب رمز لتوطيد العلاقات الثقافية ، والعلاقات الناشئة من التقريب بين المذاهب التى أزالت الفرقة بين المسلمين جميعا ، وألفت بين قلوبهم ، فتقبل فضيلته هذه الهدية الغالية قائلا : إن الرباط القوى بين قلوب المسلمين جميعا فى أنحاء العالم إنما هو القوة التى سنهدف إليها ونحرض عليها ، وما شتت قلوب المسلمين ولا أضاع قوتهم إلا هذه الفرقة الناشئة عن العصبية التى يجب أن تزول عن المسلمين ، فإنه لا عصبية فى الإسلام ، إننا جميعا نستقى من منهل واحد إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ، وما أصاب المسلمين فى أنفسهم وفى دينهم إلا نتيجة لهذه الفرقة .

ثم تلا قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

ثم أضاف فضيلته قائلا : « ولقد أصبحت جماعة التقريب - التى أسهمت أيضا فى إنشائها منذ مدة طويلة مع فضيلة أستاذنا الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم وقطعنا فى ذلك شوطا كبيرا لم نقصد فيه إلا خدمة الإسلام والمسلمين موئلا لجمع شمل المسلمين وكلمتهم فى عصر هذه النهضة الحديثة .

ثم قال سيادة الوزير : « لقد كان يسعد سيادة السفير أن يتشرف بزيارتكم ولكنه الآن فى رحلة خارج القاهرة ، وإنى أقدم هذه الهدية نيابة عن جلالة الامبراطور الذى يرجو لكم دوام التوفيق حتى يصير المسلمون وحدة قوية متماسكة ضد كل استعمار واحتلال .

هذا وقد دعا السيد الوزير فضيلة الأستاذ الأكبر لزيارة إيران ، ورجاه أن يزور السيد السفير فى منزله ليقيم له حفلا خاصا .

بريد المجلة

نداء من جماعة التبشير الإسلامى :
بالسودان

هل يعلم المسلمون ماذا تصنعه قوى الاستعمار بالإسلام كدين ؟ وبالمسلمين كمجموعة يجب أن تعيش ؟.

وهل يعلم المسلمون هذه الميزانيات الضخمة التى يرصدها التبشير الاستعمارى للقضاء على الإسلام ولانحلال المسلمين ؟ .

وهل يعلم المسلمون هذه الاجتماعات المتوالية بين كبار البابوات والمستشرقين المنحرفين من أجل هدف واحد هو هدم العقائد فى قلوب المسلمين والحيلولة بينهم وبين شريعتهم السمحة ودينهم الخاتم للإيمان .

إن صرختنا اليوم التى نتوجه بها إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها من أجل ما عمله الاستعمار فى السنين الطويلة الماضية عندنا فى جنوب السودان .

إن الوثنية ببركات التبشير الاستعمارى عششت وباضت وأفرخت فى مديريات كاملة فى الجنوب .

وإنا نطالب المسلمين أن يشدوا الرحال إلى مديرية بحر الغزال ، والمديريه الاستوائية ومديرية أعالى النيل ، وما جاورها فى جنوب السودان ، وسيسألون هناك الركام المتراكم من المخلوقات البشرية عن الإله واسم الرسول وسوف يجدون ما يصعقهم ويدهشهم سوف لا يجدون رجلا واحدا يعرف اسم النبى محمد ، وسوف لا يجدون إنسانا واحداً يفقه حدود الدين ولا الإنسانية .

إنهم أناس يبلغون المئات من الألوف يعيشون معزولين عن الحياة وعن المجموعة المسلمة التى حولهم .

إنهم أشباح لا أرواح ، إنهم أنصاف ناس .

ومن أجل هـــذا قامت جماعة التبشير الإسلامى بالسودان ، أى والله قامت تبشر بالإسلام فى جنوب السودان .

فهل تركنا الاستعمار فى السنين الماضية ؟ .

أقام أمامنا العقبات والعراقيل كلما طلب واحد من الجماعة أن يذهب إلى تلك البقاع منعه زبانية الاستعمار من الذهاب إلى هناك .

إن هؤلاء الزبانية لا يهمم إسـلام ولا مسلمون .

واستطاعت الجماعة أن تتنفس وأن تعاود نشاطها رغم أنف الاستعمار وفى فترة وجيزة جداً دخل فى الإسلام ما يزيد على العشرة آلاف نفس من جبال متفرقة من سكان مديرية جبال النوبة .

ما أعظم فرحة الجماعة حين يدخل رجل واحد فى الإسلام فضلا عن عشرة آلاف وسيتبعهم العشرات من الآلاف .

ولقد رأت الجماعة أن تتصل بالأقطار الشقيقة والبلاد الإسلامية . فأوفدت بعضا من أعضائها ليطوفوا ويستنهضوا ويشحذوا العـزائم .

فيأيها المسلمون وأصحاب القلوب المؤمنة والنفوس التى تغـار على الإسـلام وعلى حرمات الله . إنا نتوجه إليكم بهذه الصرخة المدوية إلى كل قلب مسلم . وإلى رؤساء الحكومات الإسلامية وإلى فضيلة الشيخ الأكبر نتوجه بهذه الصرخـة لكى تمدوا إلينا العون . كل بمـا يستطيع وفى حدود الطـاقة .

ونذكركم بقصة واقعية حدثت فعلا فى مؤتمـر عام للبشرين حيث وقف رئيس المؤتمر ووبخ وفداً من المبشرين ضد الإسلام بأنه لم يستطع أن يجعل مسلماً واحـداً يتزحزح عن دينه فوقف الوفد وقال :

(أنا وإن عجزت عن هذا حقا فقد جعلت عامة المسلمين هناك لامسلمين ولامسيحيين) .

فأما فى جنوب السودان فالوثنية تزحف بخيلها ورجلها وأساليبها المختلفـة ودهائها الخبيث .

وتصوروا أيها الإخوان أن هذه المجموعة الكبيرة تتلفت حولها فلا تجـد مسجداً واحداً عندها ثم تجد عشرات من الكنائس والصلبان .

إننا نريد غضبة عمرية للحق تهز النائمين وتحرك الجامدين ألا هل بلغنا اللهم فاشهد .

عبد الله شوقى الأسمر

السكرتير العام لجماعة التبشير بالإسلام والإصلاح بالسودان

اقتراح من زنجبار

نحن من طلبة الأزهر الوافدين إليه من زنجبـار .

نتشرف بأن ننهى إلى سيادتـكم ما يعانيه الإسلام فى شرق إفريقيا من حملات المبشرين والقاديانيين تحت ستار الاستعمار .

ونرى أن بعض المقالات المترجمة إلى اللغة الانجليزية فكرة ناجحة غير أنها قليلة النفع بالنسبة لشرق إفريقيا ، ذلك لأن المسلمين فى هذه البلدان لا يعرف اللغـة الانجليزية إلا قليل منهم ، ومصر ولا ريب عاصمة الشرق على الإطلاق وبها الأزهر المعمور

قبلة الثقافة الإسلامية ، والعربية والمعقل الوحيد الذى ثبت لحملات المغيرين ، وقد انتهت إليه أمانة الرسول واستقرت، فيه وديعة السلف فلا عجب أن يتلقى المسلمون كل ما يصدر عنه بالرضا والقبول .

وتحقيقا للنفع فى بلادنا نقترح أن تترجم المقالات التى تنشرها مجلتكم الغراء إلى اللغة السواحلية إذ هى المنتشرة فى شرق إفريقيا وأوسطها فى منطقة تشمل : تنجانيقا ، وكينيا ،وأوغندا، وروديسيا ، ونياسلاند ، والكنغو وتمتد إلى غانا وغينيا .

فسكان هذه البلاد جميعها يتكلمون بهذه اللغة وحبذا لو سمحت الظروف بإصدار عدد خاص من مجلتكم الإسلامية الهادية باللغة المذكورة يصد عادية الإلحاد والتبشير فقد اجتمعت على بلادنا والبلاد المجاورة لنا الدعوات الهدامة مثل القاديانية والأحمدية والبهائية والصهيونية والشيوعية .

فالأحمديون قد بلغ بهم الأمر أن أذاعوا ترجمة للقرآن الكريم باللغة السواحلية ودسوا فيها ما دسوا من أنواع الكذب والتضليل ومما قالوه أن علياً آخر نبى قد بعث بعد محمد كما حرفوا الكلم عن مواضعه فى هذه الترجمة هادفين بذلك إلى تأييد مذهبهم الضال ونشره فى تلك البقاع معتمدين على ضعف الوعى الثقافى والجهالة .

أما البهائيون ومركزهم فى نيروبى ومصدر وحيهم الهند فقد عملوا على نشر عقيدتهم الباطلة الرامية إلى إسقاط التكاليف الشرعية وفى اعتبارهم الباطل أن محمدا ليس بنبى إنما هو رجل عبقرى فذ فحسب . ويروجون لمذهبهم بالمال إذ كل من يسلك طريقهم وينضم إليهم يخصصون له مرتبا شهريا لا يقل عن خمسة وعشرين جنيها كل شهر ولقد نجحوا نجاحا ملموسا إذ أصبح بعض الإفريقيين الذين كانوا على الفترة ينادون بأن فى اعتناق الإسلام تمكين من الاستعمار العربى فى بلادهم ، ونحن لسنا عربا حتى نتبع نبيا عربيا جاء بقرآن عربى ولو أراد الله لنا الإسلام لأرسل إلينا رجلا منا يخاطبنا بلغتنا ومعه كتاب نفهمه .

ولقد استغل الصهاينة القارة البكر لنشر تعاليمهم الصهيونية ونجحوا فى خلق أحزاب برز اثنان منها فى تنجانيقا تنادى بأن الإسرائيليين هم أصحاب الدين الحق وتصف إسرائيل بالدولة الأم .

ويعتنق بعض الزعماء فى شرق إفريقيا المذهب الشيوعى ويتحينون الفرص للمجاهرة به والدعوة إليه . وفى اعتقادنا أن أقوى الوسائل لمقاومة هؤلاء الأعداء إيجاد صلة قوية بين الأزهر وبين الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام فى تلك البقاع ، وذلك بأن يزودهم الأزهر بالكتب والنشرات مكتوبة باللغة السواحلية ليستطيعوا بها إحباط ما ينشره

المضللون من أكاذيب وأضاليل حيث إن ما يصدر من الأزهر موثوق به عند جميع المسلمين وبخاصة مسلمى إفريقيا .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمد سليمان محمد العلوى الزنجبارى

وطاهر أحمد مولانا جمل الليل الزنجبارى

* * *

الحياد الإيجابى فى النقد الأدبى . . .

للحياد الإيجابى مفهوم سياسى كلنا تقريباً فهمناه ... وهو باختصار عدم الانحياز إلى أى من المعسكرين المتنازعين. على ألا يعزلنا هذا الحياد عن إبداء رأينا فى المشاكل العالمية التى تثار ... وذلك بوازع من ضميرنا .

ولقد ظهرت فوائد تطبيق هذا المسلك الخلقى فى عالم السياسة فيما أصبناه فى المجال الدولى من نجاح مائة فى المائة ... فلماذا إذن لا نفهم هذا المفهوم للحياد الإيجابى ولا نحصره فى هذا النطاق السياسى ...

فمثلا معركة النقد التى تنشأ عادة بين المؤلف والنقاد فور صدور عمل أدبى ...

إن القارئ كثيرا ما يضل بين النقاد ... ولا يستطيع أن يقف على الحقيقة لكثرة ما تتضاربها الآراء ... لعدم دراسة العمل الأدبى موضوعيا أو لتحامل الناقد أو لجوء البعض إلى التهكم المرذول ...

ولو أن كل ناقد التزم هذا المبدأ الحيادى الإيجابى . لاستطاع أن يقدم لنا شيئا فنيا لأنه سيعالج العمل بطريقة موضوعية ... ولضاقت الهوة التى تعزل النقاد عن الأدباء .

الأدباء يشعرون أن النقاد خصوم لهم يجعلون من الحبة قبة ... والنقاد يعاملون الأدباء بالمسطرة والقلم الأحمر .. كما يعامل التلاميذ . ولو أنهم التزموا منهجا فى كتاباتهم النقدية فسيتعاون الجميع من أجل الجميع ... ولن تكون بينهم تلك الخصومات الدامية .

المسألة مسألة ضمير ... من الأديب إلى الناشر ... إلى الناقد إلى القارئ قبل وبعد كل شيء ... ؟

صلاح الدين اسماعيل

ديوان الموظفين

عيد القرآن

فى جماعة التربية الإسلامية

هناك فى حى شبرا قامت جماعة التربية الإسلامية منذ سنوات تحارب أعداء ثلاثة : الفقر والجهل والمرض . وهى أشد فتكا بالإنسانية ، وأكبر ضرراً بالقومية العربية من الاعتداء الثلاثى الذى وقع عام ١٩٥٦ على وطننا العزيز من : انجلترا ، وفرنسا ، وذيلهما إسرائيل .

تحارب الفقر ، بالمقررات المالية الشهرية للبائسين المعوزين ، وتحارب المرض ،

فى مستشفاها الخيرى بتيسير العلاج ، والدواء للمرضى والمحتاجين ، وتحارب الجهل ، بالوعظ فى المساجد ، والدروس الدينية ، والثقافية فى مدرستيها : النهارية ، والليلية .

درجت هذه الجماعة منذ سنوات على إقامة حفل فى مستهل العام الدراسى لاختبار طلاب مدرستها لتحفيظ القرآن الكريم فيما حفظوه من المقررات القرآنية أثناء العام الماضى بمعرفة لجنة مختارة من أكابر العلماء .

وفى مساء الخميس الخامس والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ أقيم هذا الحفل بمسجد الجماعة مشمولا برعاية حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وحضور ضيف الشرف فضيلة الشيخ محمد مصطفى أبو العلا المشرف العام على تحفيظ القرآن الكريم بالأزهر الشريف ، وحضور جمهور كبير من العلماء ، والوجهاء ، ورؤساء الجمعيات الدينية ، والسيد حكمدار العاصمة المساعد ، وكثير من أهل العلم والفضل ، وأولياء الأمور . ثم ألقى رئيس الجماعة الشيخ على المنصورى كلمة مختصرة فى فضل القرآن ووجوب العناية به حفظا ، وتجويداً ، ودراسة . وأشار إلى جهود الجماعة فى تحفيظه لطلاب مدرستها ، وقد نجح منهم فى امتحان القبول بالأزهر الشريف أثناء العامين الماضيين زهاء الثلاثين طالبا ، مما حمل معهد القاهرة الدينى على توجيه خطاب شكر إلى المدرسة والقائمين بشأنها ، وفى ختامها حث الحاضرين على تلاوة القرآن ومدراسته ، وافتتح الحفل بتلاوة من الذكر الحكيم ، من أحد طلبة المدرسة بدأها بقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » جمعت مع حسن الأداء ، وشرف المناسبة جميل الصوت وجودة الترتيل ، ثم أجرت لجنة الامتحان برياسة فضيلة الشيخ أحمد أحمد على الأستاذ بكلية أصول الدين ، وعضوية طائفة من العلماء امتحان الطلاب ، والطالبات فأظهر الجميع مهارة فى الحفظ ، ودقة فى الأداء مما يبشر بحسن المستقبل لهذه المدرسة وخريجيها ، وفى فترة الاستراحة قام الطلاب بإلقاء نشيد القرآن .

هل بين دنيانا أسمى من الذكر
نزجى تحايانا يا سورة العصر

فحاز إعجاب الحاضرين ، ورضاهم ، ثم اختتم الحفل بتلاوة آى من الذكر الحكيم وانصرف المدعوون شاكرين للجماعة عظيم جهادها ولسان حالهم يقول : « لمثل هذا فليعمل العاملون » « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

أنباء الأزهر

حفل افتتاح الدراسات الاجتماعية بالأزهر

فى التاسع من جمادى الآخرة أقيم حفل ، افتتاح الدراسات الاجتماعية بالأزهر ، وقد تحدث فيه الأستاذ محمد صفوت المدير العام لإدارة التدريب ، فأشار إلى الغرض من هذه الدراسات وهو إعداد قادة اجتماعيين دينيين ، يلمون بمعرفة حلول المشاكل الاجتماعية ، وبذلك يقومون بالمسئولية الكبرى نحو مواطنيهم . وفى مقدمة القادة شباب الأزهر .

وقال : إن الأزهر احتل من قديم منزلته السامية فى القلوب ، وسيظل مدرسة الشعب كله ، بل والعالم الإسلامى كله .

وأعقبه الأستاذ الشيخ محمد المدنى ، فذكر أمثلة حية للتعاون الاجتماعى الصادق فى الإسلام ، وأوضح أن الإسلام ليس عبادات فقط وإنما هو عبادات ومعاملات وأخلاق وتعاون ومحبة .

ثم ألقيت كلمة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، وجاء فيها : إن مما يزيد فى سرورنا أن يشرف هذا الحفل أخى فى الله السيد توفيق عبد الفتاح وزير الشئون الاجتماعية ذلكم الرجل الذى عرفت فيه حبه للخير ، وأدركت إيمانه العميق بكل ما يعلى كلمة الإسلام .

وذكر أن الدراسات الاجتماعية إنما هى إبراز لما تعلمه الأزهريون من شريعتنا الغراء . وبتكوين الفرد تكوينا صالحا يتكون المجتمع الفاضل . ثم دعا الشباب إلى الفهم الصحيح الواعى ، وتركيز الخدمة للأمة لتسعد وترقى ، وقد ذكر أن صلاح المجتمع وصلاح الأمم إنما هو بالتعاون والتعاطف والتواد (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) إنكم يا أبناء الأزهر مرجوون لأمتكم فى يومها وفى غدها فكونوا عند حسن ظنها ، وتمثلوا أنكم فى عصر نهضة إصلاحية يقودها الذى جمع قلوب العرب والمسلمين فى عقد واحد الشاب المؤمن القوى بالله الرئيس جمال عبد الناصر .

وأخيراً تكلم السيد محمد توفيق عبدالفتاح وزير الشئون الاجتماعية التنفيذى ، ومما قاله : حديثى إليكم حديث الأخ لأخيه لينفذ إلى الأعماق ففى قلبى تجاوب بينى وبين رجال الدين الذين شربت من مبادئهم وتوجيهاتهم فكان لهم أكبر أثر فى حياتى . وذكر أن القرآن والسنة وفعل الرسول والصحابة هى المصادر الأولى لتعاليم الخدمات الاجتماعية والتعاونية .

والأمل كبير فى نهوض شباب الأزهر بالعبء الكبير فى حل المشاكل الاجتماعية بماله من حصافة ومكانة ، ولما يمتاز به من تربية دينية سليمة .

وفد اتحاد جامعة عين شمس يزور الأزهر :

زار وفد يمثل اتحاد جامعة عين شمس اتحاد الجامعة الأزهرية ، وهى فكرة تقوم على أساس التعارف بين الجامعات فى الجمهورية العربية المتحدة ، وقد بدأ الأعضاء بزيارة كلية الشريعة وألقى فضيلة الشيخ محمد المدنى عميد الكلية ورئيس الاتحاد كلمة عرفهم فيها عن الأزهر ونواحيه وأقسامه ثم تكلم فضيلة الشيخ عبد الحكيم سرور مدير الشئون العامة بالأزهر عن ميزات أخرى فى الأزهر على أساس أنه صاحب الدعوة للحرية الكاملة التى لا تعارض نصا من الكتاب أو السنة وأبان أن الناس فى هذه الحدود يستطيعون أن يخدموا الإنسانية خدمة كاملة ، فالأزهر الذى يكبح جماح الالحادية العمياء والوجودية الهزيلة الضائعة والشيوعية اللادينية ، وهو صاحب الدعوة إلى المساواة بين الناس جميعا لا فرق بين أبيضهم وأسودهم ولا أحمرهم وأصفرهم ؛ فإنه لا عصبية فى الإسلام فكلكم لآدم وآدم من تراب، ومن أجل ذلك فإن الأزهر هو الجامعة الوحيدة التى تضم فوق ستين جنسية من مختلف بلاد العالم الإسلامى فهو هيئة الأمم الحقيقية التى تعمل عن هدى ومعرفة وصدق وإيمان . هى صاحبة الدعوة إلى احترام حقوق الإنسان لأن رسالتها هى رسالة محمد بن عبد الله .

ثم زار الوفد كلية اللغة العربية وشاهد ألوان النشاط فيها من جمعيات التصوير والكشافة والفرق الرياضية ، وتحدث إليهم فضيلة الدكتور محمد الفحام عميد الكلية عن تاريخ الكلية وأمجادها .

هذا وقد أقام لهم اتحاد الأزهر حفل تكريم بقاعة المحاضرات الأزهرية ثم زار الوفد بعد ذلك دار الكتب الأزهرية والجامع الأزهر ومدينة البعوث الإسلامية التى يقيم بها طلاب البعوث الإسلامية .

THE ENGLISH DIVISION

Contents

keeping the teachings of the Divine message and its moral commandments to deal with man's psychological problems. When they take this step towards " science " and the people of human knowlege take their described step towards the Divine message, both parties will meet and there will be no gap between them. They will adhere to one uniform and consistent kind of knowledge. They will be in agreement on (*a*) the belief in the Divine message and its universal laws, (*b*) the continuance of discovering the material aspects in the nature of the universe by means of modern " science " and (*c*) the perservation of the religious teachings to provide the selves with calm and security.

The mistake which should be shunned by all learned authorities, religious and secular, is that of making a " gap " between religion and science or between people of Divine knowledge and those of human knowledge. The people of Divine knowledge should not make the mistake of depriving themselves of discovering the nature of our universe. Likewis, the people of human knowledge must avoid the error of disregarding the Divine message and its universal principles.

It is clear by then that in the universe there is " dualism " but with no gap between its two sides. There is God the Creator by Whom the universe was created, but there is no void between the Creator and the creatures. Man consists of soul and body, yet he cannot survive withont the two together.

Because of the beblief in a split between God and man, contemporary people have strayed in their knowledge and have been non-disciplined in their behaviour. And because of the belife that man is made up of matter alone, people of this belief are more animal - like in their conduct.

Faith in God is the reliable source of every knowledge. The oneness of God is the standard which should be followed by the learned people in their search for harmony between the two apects in the dualistic nature of the universe, especislly with regard to the human nature of soul and body as well as with regard to the social relations of man to his fellow man. " God the One " should be the emblem of every learned investigator and explorer of the universe.

To avoid all mistakes, then, we must believe in God, and to be accurate in our knowledge we must believe in His Oneness.

Spirituality is an indispensable necessity of human nature, and religion is a prerequisite to accuracy in knowledge. A man with no spirituality is a like a meaningless void, and knowledge without religion is scarcely certain.

its inclusive consequences, they will be in agreement with those of Divine knowledge who started from the same point and understood this universal natural law with 'which the Divine message came to save them from tension and hostility. If they set off from this point, they will avoid errors and deception manifested in the bankruPcy of their ideas, because their guide will be the heavenly revelation at which falsehood cannot come from before or behind and which guides to that which is most uPright in the life of man.

This universe is made subservient to man. " And He has made subservient to you whatsoever is in the heavens and whatsoever is in the earth, all, from Himself " (Surah 45, V. 13). "And He has made subservient for you the night and the day and the sun and the moon. And the stars are made subservient by His command. Surely there are signs in this for a people who understand. And what He has created for you in the earth is of varied hues. Surely there is a sign in this for a people who are mindful. And He it is Who has made the sea subservient that you may eat fresh flesh from it and bring forth from it ornaments which you wear. And you see the ships cleaving through it, so that you seek of His bounty and that you may give thanks " (Surah 16, Vs. 12-14).

These quoted verses mean that man should be the master in the universe instead of being subjugated to its powers. They also mean that the understanding of this natural law will enable the people of human knowledge to employ the modern science in a way as to realize the mastery of man and make him benefit from the things made subservient to him by God. When this is accomplished, " science " will not be used for destructive purposes but will do its natural service to man.

If the people of contemporary human knowledge follow the direction of the Divine message and start from this Divine basis, thier knowledge will be a means of developing man and improving his qualities which consist of dualistic elements, in which case his development will take its natural course as it will include both soul and body which make up the nature of man.

We have said that the people of contemporary human knowledge must derive from the Divine message to be correct and upright and to be in harmony with the people of Divine knowledge. But this should not stop at the belief in God as the Creator and in the universe as created by Him. Besides this belief and their religious knowlede, they must also use " science " to discover the material nature of the universe while

This " Science " has disregarded the spiritual qualities of man and has failed to Provide precautions and security even against its very laws and results. With this " science " man is insecure and subject to the tyranny of matter. And when the spiritual side in man weakens or stands inactive, this " science " - which controls the material nature of the universe-works in the wrong course and destroys man together with civilization.

The Duty of the people of Human Knowledge:

It is necessary, in the light of all what has been said, that people of human knowledge should discontinue their look to man as a mere material object to be tested by tubes and other experimental and laboratory instruments. They must understand man as composed of soul and body, and that he is a member in the category of the beings of the universe whose nature is based on dualism. When they do this, their solutions to man's problems and crises will be consistent with the logic of the natural law of existence, which law was brought forth in the message of God. But to attain such an aim, they have to seek help from the message of God and its teachings, because by virtue of that message they elude falsehood and deception in thier knowledge of the universe, and especially in their knowledge of man. It is beyond doubt that when they are guided by the teachings of the Divine message and become aware of the universal natural law, they will put an end to their errors and misleading and will come back to conformity with the law of existence. Then, what-ever solutions to man's problems they suggest will be effective for they will not be contradictory to the dualistic nature of man.

People of human knowledege may use the experimental method of knowledge in their research about the material nature of man. But when they deal with psychological problems and social relations, they have to derive guidance and seek help from the Divine message only to which there is no alternative. Thus if they wish to have a right start and avoid frustration in their knowledge, they must begin with belief in this universal natural law and its inevitable consequences. They must believe in God as *the* Creator and in the visible universe as created. They must also grasp that God is distinguished by being the Creator, the One on Whom all depend, whereas other beings are distinguished by their dualism and their dualistic nature.

If the peole of human knowledge start from this point and accept all

of human knowledge has contributed in the fields of philosophy, law, economy, and ethics — we shall find that these contributions have failed to provide man with stability, peace and repose. This failure is due to the very simple fact that people who made these contributions did not take into consideration the necessity of harmony between man's soul and body. They instead concentrated only on the material side of him.

The main objéct of man in his contemporary knowledge in the fields of philosophy, economy. law and ethics, is to satisfy the requirements and caprices of the body and to facilitate life. In his knowledge he does not try to restore peace to the self when it is upset or make it steadfast when it confronts crises. Nor does he attempt to establish the relations among individuals on a basis of mutual confidence and useful co-operation. This is why we see in modern society only helpless and upset selves, and find egoism and individuality prevailing in the relations of individuals to one another.

Whenever the contemporary man observes the instability of self and the unfriendly relations among individuals, he endeavours to make a readjustment by modifying his philosophy, his thinking about man, legislation, economical conditions and ethical outlooks on life. Nevrtheless, whatever he produces out of this modification in the said spheres remains far from restoring stability to the self of individual and confidence together with co-operation to the course of relations among people. This is, again, the result of the contemporary man's failure to see the spiritual side of the human beings and to liberate himself from the conventional method of knowledge, namely, the testing - tube and laboratory which suit only the material part in the two sides of the dualistic nature of the universe.

If we leave the theoretical knowledge of the contemporary man in philosophy, economy, ethics and law, to consider his scientific knowledge which he acquired in the name of "science" and upon which he founded the present material civilization and industrial evolution in the twentieth century - we shall see that this "science" with its laws and results has been fruitful in developing the machine which is used foremost in destructive ways instead of being constructive and helpful to man in the various aspects of his life. This "science" with its laws and results has remained far from offering remedy to unstable selves or curing the psychological cirses.

and weakness. So if his testing - tubes and laboratory supposedly work well and be impartial, he himself cannot get away from his feelings and centiments while recording the result of experiments.

Man's knowledge is, therefore, subject to the law of "becoming" and changeability. To-day's knowledge is unlike yesterday's, and to-morrow's may be different from to-day's and so on. And however man of this knowledge is certain about its results, his certainty about these results does not outlive him and he lives a short period of time.

Man of this knowledge may get concited and boastful of the results he reaches. He may be motivated by his vanity to think that his testing-tube and laboratory are the only means to perceive the whole universe, and thus make himself blind to the nature of the Creator and deny his divinity. Because the nature of the universe is dualistic and because man of human knowledge can perceive of this nature only its explicit aspect, the material side, and neglects the significance of spirit as representing one part in the dualism of nature and denies the spirituality of man. Then he thinks that the whole existence is confined only to waht he can subjugate to his means of knowledge, i. e., the testing-tube and laboratory. And by so doing he misses the secret of the whole existence. He fails to understand the natural law - already mentioned - of dualism which necessarily results in faith in the Creator as such and the creatures as being created by Him.

Man of human knowledge, accordingly, rejects the quality of createdness in man and grant him the faculty of createdness. He is unaware of the principle of dualism which we have shown as the law of the whole existence. So he tries to depict man in a material framework only and establishes all his knowledge of the human beings on a materialist basis.

It is strange that while the man of human knowledge fails to perceive human nature as dualistic he accepts dualism with regard to many other things, such as electricity, his attitude is contradictory; when he perceives the principle of dualism in some beings other than man, he is right and his attitude is consistent with the universal law of existence. But when he rejects this principle of dualism with regard to man, he becomes illogical with himself and stumbles in the solutions he suggests to his problems.

If we carefully examine the theories and doctrines which the man

And if his faith in the sense of his existence, of life and death increased, he would undoubtedly gain victory in his struggle against imperialism, atheism and oppressive materialism.

It is incumbent upon us, the learned Muslims, to lead the battle of victory against egoism, the imperialistic powers and the tyranny of machine over man to make faith truimphant. We want our peoples to be realistic in accordance with the message of Islam. We want them to have sovereignty over their societies and mastery over themselvs. This is our duty because we are guides, leaders and authority. We are the followers of the first commander, the first believer, the first striver and the acquirer of the first victory in the battle of peoples life and the peace of humanity ; namely Muhammad son of Âbdullah, may the blessings and peace of God be upon him.

The Human Knowledge :

In *contrast* with the Divine knowledge and its people there are the human knowledge and its possessors. The latter knowledge is that in which man tries to rely only on his mind, observation, experiences and experiments to discover his own nature and the nature of the whole universe in which he lives including the earth and the sky, the clouds and the seas, the air and all the creatures.

The subject matter of this human konwledge is this universe; namely, these beings in which matter is mixed with soul and which are based on the principle of "dualism" in their inner nature. This knowledge may be precise and truely representative of the reality of this universe and may be otherwise; because its source is not God the Creator of the universe and the Knower Who sent down His revelation to explain the law of the universe and the principle of existence, and to enlighten people obout both the Creator and the creatures. The source of this human knowledge is man who is limited by his heritage, environment, private and social circumstances. In his knowledge he tries in our contemporary age to get rid of this limitedness and not to be influenced by its factors. He wants to be free from limitedness and the effect of these circumstancial factors. This is why he uses testing - tubes and laboratories and adopts the method of synthasis and decomposition to acquire the knowledge he seeks without being affected by limitedness

At any rate, it is man who has different feelings and who fluctuates from moment between love and hatred, happiness and gloom, health

if they are considered self-controllers and conductors of their fellow patriots through their knowledge and deeds, they are also considered, on the same way, leaders of the sons of the whole Islamic nation throughout the world.

If it is possible for those who are close to them to see their deeds and then follow their example, their writings for the Muslims in the far countries should manifest a plain picture about their practical life and behaviour. That is because faith and clear conception do not rest only hidden in the heart and the mind but are also manifested in deeds and practices.

We, the learned Muslims, live in an era in which the spiritual values are shaking and the magnanimity of the spirit as well as faith in God has almost become immutable and stagnant. We are living in an age in which not only atheism conflicts with faith in God, but the immortal human values, love and fraternity among people, the internal psychological repose and external international peace have been also fluctuating as a result of the tyranny of caprices, individuality and egoism. We are facing an epoch in which machine is trying to replace God, Exalted be He, to be worshiped instead of Him and to be the master of the whole universe. We are living in an age in which the tendency to destruction by the machine is more prevalent than the inclination to construction by means of spirituality and religion.

There is in our society, that of the Muslim countries, beyond all this another sort of conflict. In these countries imperialistic powers as well as the tyranny of foriegn domination are in conflict with our rights of life, mastery on ourselves and sovereignty over our lands. If we awaken the conscience of Muslims, enlighten them with the guidance of God and make them aware of the principle of life, then not only their faith in God improve, but also they will be more prepared to conceive death as inevitable and as a shift from this temporary life to the immortal one. In this connection God says. "Whereever you are, death will overtake you, though you are in towers, raised high", (Surah 4, V. 78). They will know that whosoever dies in the way of God or martyrs because of the faith in the message of His messenger, may the blessings and peace of God be upon him, is expecting the immortal life of those who believe and struggle in His way : "And think not of those who are killed in God's way as dead. Nay, they are alive being provided sustenance from their Lord". (Surah 3, V. 168).

precise understanding of the message of God to His Messenger, peace be upon him, together with these he, to be successful, must apply this law and the teachings of the Heavenly message in his practical life in a clearer and more impressive manner so that he may be a standard example to follow, and his explicit conduct and practical behaviour may be true representatives of his inner nature and his conception. This is because the practical example and genuine application given by propagators of any call is the most effective medium through which the propagated call appeals to people who are invited to it. People are usually more attracted in the beginning by deeds than by words, and the logic of tangible objects has more impact upon them than that of pure rationalism. It is reported that Aishah the Messenger's wife, may God be pleased with her, said in her description of his characters: " His morals were the Qur'an". By this she meant that the Messenger, peace and blessings be upon him, followed thoroughly the teachings of the Qur'an and his behaviour was completely representative of the Qur'anic Call which he was commanded by God to convey to all people.

When the man of Divine knowledge becomes weak in his conception of the principles of that knowledge, or when there is a gap between what he conceives of it and what he practises, it will be difficult for him to impart his call to others or persuade them to accept it.

The duty of religious authorities or people of Divine knowledge, then, is to have a clear vision of the message of God and approach the source of that knowledge to derive therefrom opinions and solutions in a direct way without taking any intermediary or interceder between themselves and that source except those who have sincerely and impartially adhered to it. They have to live in the atmosphere of what they derive from the Book of God and the Traditions of His Messenger, may the blessings and peace of God be upon him. Because they are leaders and authorities, and possessors of virtue. They are to call people to the message of God by means of their knowledge together with their deeds. Their greatest leader Muhammad, may the blessings and peace of God be upon him, was following the morals of the glorious Qur'an as we have mentioned before.

The religious authorities as well as the possessors of the Divine knowledge have then responsibilitis towards themselves and towards the believers in the Book of God and the Traditions of His Messenger. And

society. In other words, it establishes the meaning of justice between body and soul in the one hand, and between the individual and his fellow man in the other hand.

These are the consequences of the principle of dualism, that natural principle of the universe, whose logic the message of God does not oppose or contradict in any means. And this is because when it ordains the belief in God and His oneness, it demands harmony and justice, and prescribes the virtuous morality as well.

After all this, if we see a call for atheism and the rejection of divinity as well as the creativeness of God, or if we see another call for evolving the body and centering all attention in it alone, or if we see a call for monkery and the retirement from the material life, or if we see a call for fomenting anxiety, disorder, hostility and conflict — if we see all this or some of it, we must know that it opposes the nature of the universe as well as the message of God and His revelation.

The aim of the Divine message is to act in accordance with that law. And the sign of God to man is to enlighten him about that principle. And the straight path of God which He drew for man is which that is in paralell with that principle and in complete coherence with it in all its stages.

Men of Divine Knowledge:

Men of Divine Knowledge, therefore, are those whose duty is to give enlightenment about this natural law. To be effective and clear in their prescribed endeavour they have to conceive this law vividly and adhere to it in their behaviour and practical life. People of this Divine knowledge, accordingly, are not isolated in their knowledge from reality nor are they alien to the natural course of existence.

Man of such knowledge is realistic and at the same time speaking in Divine terms so for as his message is concerned. He propagates the revelation of God to His Messenger, and his knowledge is Divine because it is not originally derived from the nature of the universe nor from his own mind. So, such knowledge is exempt from deception and treachery. Thus if he sometimes seems far from this law and goes astray, it is his own fault, not the responsibility of the knowledge to which he belongs.

It is not sufficient for the man of Divine knowledge to have clear conception of this natural law and

man alone or his spirituality alone is inharmonious with that principle and illogical with its consequences.

There are two things: The whole existence which must have Creator and in which existence all beings are created by Him. Hence, the belief in God the Creator, is not only derived from the necessities of the nature of the whole existence, but the belief in His oneness is also more attached to the conception of that nature and more logical and consistent with its necessities. God, the Creator, the One has absolute perfection and glory and He it is to Whom worship should be confined whereas the beings created by Him are linked with Him by the chain of need and worship. The Qur'an says " And I have not Created the jinn and the men except that they should serve me." (Surah. 51, V. 56). " And there is not a single being but glorifies Him with His praise " (Surah. 17, V. 44) " See you not that to God makes submission whoever is in the heavens and whoever is in the earth, and the sun and the moon and the stars, and the mountains and the trees, and the animals and many of the people ? " (Surah. 22, V. 18).

Secondly, the existence of the creatures which have dualistic natures and which, accordingly, should endeavour to attain harmony between the two opposite sides in their dualism, and must also be linked with the Creator Who is the source of their existence.

The principle of existence supplies us with many significent things. It inspires us with faith in God. It lays down before our eyes the fact that all beings other than God depend on Him to keep their existence and survival. It illustrates the need of the creatures for harmony among themselves individually and collectively; harmony between body and soul in man and between male and female.

We have already mentioned that the message of God is the enlightenment of people about that principle and that it is an expression of its results. We have seen then that there are many verses of the glorious Qur'an attest the authenticity of that principle. Faith in God as a result of the said enlightenment guides man to be truthful to the Creator and try to realize in his behaviour God's perfection, and then attempts to adapt himself to the morals of God. The prophet, may peace and blessings of God be upon him, refers to that by saying " Follow the morals of God ". Belief in the necessity of man's endeavour to achieve harmony and erase antagonism realizes the sense of peace and tranquility in the life of man as well as in the life of his

God loves not the mischief-makers ". (Surah, 28, V. 77). In this respect and in many verses of the Qur'an God disaproves the attitude of those who endeavour to support the soul at the expense of the body; " Say: Who has forbidden the adornment of God, which He has brought forth for His servants, and the good provisions? Say: There are for the believers in the life of this world, purely (theirs) on the Resurrection day. Thus do We make the messages clear for a people who know" (Surah 7, V. 32).

Moreover, the Qur'an came with an appeal to prevent hatred and antagonism between couples. It says " Divorce may be (pronounced) twice; then keep (the wives) in good fellowship or let (them) go with kindness " (Surah. 2, V. 229). " And when you divorce women and they reach their prescribed time, then retain them in kindness or set them free with kindness " (Ipid., V. 231).

Likewise, it called the alive human being to prepare himself to the reception of death, and to expect revival after his death; In this connection the Qur'an says. " Every soul will taste of death. And you will be paid your reward fully only on the Resurrection day. Then whoever is removed far from the Fire and is made to enter the Gardens, he indeed attains the object. And the life of this world is nothing but a provision of vanity". (Surah 3, V., 184).

" And speak not of those who are slain in God's way as dead. Nay, (they are) alive, but you perceive not". (Surah 2, V. 154). "And think not of those who are killed in God's way as dead. Nay, they are alive being provided sustenance from their Lord. Rejoicing in what God has given them out of His grace, and they rejoice for the sake of those who (being lift) behind them, have not yet joined them, that they have no fear, nor shall they grieve". (Surah 3, Vs. 168-169).

In addition to all this, the Qur'an tells us that strength may become weakness and vise versa. It says: " God is He Who created you from a state of weakness, then He gave strength after weakness, then ordained weakness and hoary hair after strength. He creates what He pleases and He is the Knowing, the Powerful ". (Surah 30, V. 54).

The principle of dualism is representative of the nature of the universe, the human nature and the nature of all other beings. And if the rejection by man of the Creator gives an expression of utter deficiency or negligence to conceive that principle, the belief in the materiality of

should be no vaccum between the Creator and the creatures, not to speak of any contradiction between the Creator and creatures.

It is unnatural to make man's life confined to his body only or to his soul alone. It is also unnatural if there is disbelief in God the Creator and belief in man the created. Belief in God is a necessary result of the natural law of existence whereas disbelief in Him is a failure to appreciate that law or is a sign of neglecting and disregarding it. This is why the message of the Almighty God which was brought by the messengers, may the peace and blessings of God be upon them all, aimed at enlightening mankind about this natural law and teaching them that this nature is created and has a Creator, and that the relation between the created and the Creator should be in this visible world between the soul and the body, the pairs of male and female, lif and death, strength and weakness, etc. The relation between the Creator and the created grows strong by means of endeavour from the latter's side to increase faith in the former. It also grows strong between the soul and the body by virtue of making them harmonious with each other without the domination of any of them over the other. The relation between the male and the female is made strong by avoiding causes of aversion, hostility and malice. Similarly, it is made strong relation between life and death through the readiness of the alive being to face death and through his preparedness to receive a new life after his death. The strength of relation between weakness and its opposite is rendered possible when the strong person realizes that he may get weak and the weak person conceives the possibility of his getting strong.

The enlightening of the youth about this natural law of "dualism" is the essence of the Divine knowledge and is the centre around which the Heavenly message goes. So, the glorious Qur'an, the Book of God in which He presented His last message to all people, came with the call for permanent faith in God; "O you who believe, believe in God and His Messenger and the Book which He has revealed to His Messenger and the Book which He revealed before" (Surah V. 136). It also came with the call for harmony between the soul and the body without making any of them grow or improve at the expense of the other. "And seek the abode of the hereafter by means of what God has given thee, and neglect not thy portion of the world, and do good (to others) as God has done good to thee, and seek not to make mischief in the land. Surely

may be otherwise. So, the criterion by which we can correctly judge the Divine knowledge must be derived from the source of revelation itself befor referring to the sayings or deeds of any of the followers of that message.

The Divine knowledge in itself is not new to man's nature nor is it strange to his existence. It is in complete harmony with the nature of the whole universe including the nature of man and his human course of life. In fine it is the same as the nature of existence. It is the guidance of God to man, and therefore it must be consistent with his nature as well as with the laws of nature and the rules of life.

The whole existence is based on the principle of " dualism, " and the Creator of it is God, Exalted be He, and the created entities are the natures of the different beings. God the Almighty is a pure *mind* free from matter and personification, whereas the natures of other beings, which emanated from Him and which He wanted for His creatures, are a mixture of matter and *mind.* These other beings consist of *mind* and matter. It is a combinaton of visible and conceivable substances. The " dualism " in these beings is also represented in the existence of both male and femal "And that He creates pairs, the male and the female " (Surah 53, V. 45); of life and death " Who created death and life... " (Surah 67, V. 2) ; of strength and weakness " God is He Who created you from a state of weakness, then He gave strength after weakness, then ordained weakness and hoary hair after strength . . . " (Surah 30, V. 45) etc. The principle of " dualism ", thus, is the natural law of the whole existence which is created and mixed with matter and which has a Creator Who is a pure *mind.*

So, if the principle of "dualism" is the law of existence and the basis of human life, it is only logical that the message of God the Almighty to man must aim at establishing harmony between the two sides of this " dualism " in the life of man. It would be illogical if the message of God aimed at strengthening or improving one of the two sides at the expense of the other. The purpose of the Divine message in the sphere of the human nature, then, is to harmonize the soul and the body, and its purpose in the whole existence is to make an adjustment between the Creator and the creatures.

There should be no vaccum in man's life so far as his soul and body are concerned. Nor should there be any contradiction between the soul and the body. Similarly, there

THE DUTY OF THE LEARNED
(al-ULAMMAA)

by

Dr. Muhammad El - Bahay

Director General of The Islamic Culture Administration.

The Learned Man:

The learned man is he who has knowledge. And knowledge in turn may emanate from the revelation of God to one of His messengers, may the blessings and peace of God be upon them all. It may also stem from man's attempt to be independent in his research to discover the nature of his own self and of the universe in which he lives. The former kind of knowledge is considered Divine or religious whose source is God, while the latter is described as human whose source is man himself.

The Divine Knowledge:

When the possessors of the Divine knowledge convey their knowledge to people, they in fact speak in accordance with what God ordained and in a truthful manner without any deviation. Nevertheless, their speech may more or less get mixed up with some of their own human characteristics, in which case they will not be true representatives of what God revaled to His Messenger. However, the Messenger, peace be upon him, is the only human being whose expression is in complete conformity with God's will. The contemporary companions of the Messenger and their successors differ among themselves in their representation of the Divine will. The more the propagator of the Divine message is cautious as to his expression of the will of God in that message, the closer he is to what God ordained to guide people. Likewise, the more he is affected by his subjective inclinations and his own limited environment, the remoter he is from the straight course of God's revelation.

The sayings of the possessors of the Divine knowledge, therefore, may express exactly the will of God in the teachings of His Message and

As for those who yield to these fallacious arguments in the Crey Note - Book and whose faith might be shaken thereafter, they are the farthest from the essence of religion. Nevertheless, this Note-BooK with its fallacies and contradictions may cause the most superficial and weak-hearted believes to reflect once again on their faith and might help them to uproot the malice with their own hands and refute the big lies with their tongues. If the case were not that the Arab Communist is a *voluntary* disbeliever depending on *evidence* inspired by rancour and stubborness, all the contents of the Grey Note- Rook would have been scattered motes. The Note-Book constitutes an argument in support of religion against those who reject it. The alleged poof in this Note-Book is inconsistent and illogical, and it will, however popular, now face its avoidless fate of disappearance; because it cannot affect a bit the certainty of any believer.

Note-Book mistranslates the verse " Indeed we see the turning of your face (Muhammad) to heaven", which means seeking the help from God, and explains it in a most literal and narrow sense to mean the mere aimless turning of the prophet's face to heaven. Besides that, there are many Qur'anic verses which the Arabic translator, after finding out their numbers in the foreign sources. reproduced without knowing their meanings.

The first thing we can understand, after viewing the Crey-Note Book, is that the pseudo Arabs and Muslims who propagaed it among their people were *voluntary* disblievers instead of reading their Book, the Qur'an, Comprhending the history of thier religion and refuting those who are trying to criticize and defame Islam with a retort reply and conscious attitude. Conversely, their hearts were sealed whit animosity and rebellion ; because they envy people and have an evil feeling against them. So they became disbelievers without Knowing what faith is or why the Marxist rejected Islam and the other religions.

All this is a well known unfounded propaganda repeated once and again by the Marxists, however dissimilar their intellectual standards may be, as they boastfully assume that their writings are scientific or "analytic". In these writings they have not produced anything new except the " economical " factors which they cite in their own way by means of statements scattered here and there with the aid of some deceptive words learnt by heart such as exploitaion, greed, wages, hard work and exhausted labourers which words are mentioned in comparison with bitter references to properties of capitalists estimated at millions. Obviously the mention of these words is quite sufficient to arouse the feelings of hatered and envy in the hearts of both audience and readers. And whoso accepets these words, he then is prepared to accept blasphemy which is jastified by *voluntary* disbelievers through reasons they parrot without any sound argument save their spite, meanness, and the lust of slander against God's bondmen and even against God Himself whom they conceive as non — existente. Actually all what they said against God is clear evidence that they spite Him simply because He is the Possessor of power over all things.

Ill intention is a necessary prerequisite to the Marxist rejection of the Islamic principle prohibting usury which rejection is based on taking usury sometimes in some Muslim countries. Accordingly, the Marxists consider Islam as a feudal religion serving the feudalists only. This is because no sound person dares to assume that law does not prohibit any crime whatsoever beause people simply commit that crime. The Marxists are the last to adopt such an assumption for Marxism has not prevented the accusation, hurled against thousands from amoag the spokesmen of and adherents to Marxism, of exploiting their offices, betraying the people and violating the established rules of the doctrine. Likewise, this application did not impede the uprising of Hungarian labourers and peasants because they called for bread and clothes. Nor has it avoided the plundering of freedom of thought and expression to impose on people what they do not believe in or to force them to accept an idea which they would not welcome otherwise.

The author of the Grey Note - Book is obviously ignorant of Islam and the history of the Arabian Peninsula. And the Arab Communist who spread it is more ignorant of the history of Baghdad and its outskirts both before and after Islam. He, for exemple, does not know the history of the Lakhmys (al-Lakhmiyeen) and calls them Lakhmeeds following the appellation of foreigners.

He speaks of the Zang (Black) Revolt in a wrong way and refers to it as the Zengah. When he mentions the tribe of Thaqueef, to which al-Hajjaj the famous ruler of Iraq belonged, he identifies it as the tribe of al-Thaqueef. He has not even read the Glorious Qur'an especially the Chapter of Victory which is the subject matter of launching attacks againct the Islamic principle of *al-jihad* (struggling in the way of God) and against the Muslim victories which have been ascribed to factors other than the religious enthusiasm of Muslims. He translates the words *al-Sirat al - Mustaqeem* which mean the right path, by al - Tareeq al - Aala, which mean the highway. This kind of misquotation in every single word from the Qur'an is often repeated in the Note-Book which mentions the word *al - Hunafeyeen* a word that never occured in the Qur'an - instead of the words *Haneef* and *Hunafaa* which mean the upright. Similarly, it speakes of the Sacred moths (in which war is forbidden) as "holy" months by using the epithet *Muqaddas* instead of using *Hurum* which is actually mantioned in the Qur'an. Moreover, the

heavy taxes and intolerable religious persecutions. So they did not show any desire to resist the *conquerors* besides they had no motive to struggle.

It is not our wish to ask why the defeated Persians hastened at their own will to embrace Islam, and why they were followed by countless numbers of their fellow Asians who had been Budhists or pagans or idolators, and who never engaged in any battle with the *invading* Arabs. What we wish to do, however, is to arrest the long fallacies of the materialists and raise this question: Why were the Arab Muslims able to defeat the Arab polythiests although the number of the latter was in some wars ten times as much in proportion to that of the former ? The warriors of both parties consisted of similar categories as far as wealth and poverty, freedom and enslavement, supremacy and lowness were concerned. In the Muslim army as well as in the army of th disbelievers there were masters and slaves.

The disbelievers were not all feudalists nor were the Muslims all poor and heavily burdened with debts. Among the well-to-do Muslims there were Abu Bakr, Uthman and Khalid Ibn al-Walid, whereas there existed in the army of disbelievers thousands of slaves and destitute people. What powrs then, except that of religious zeal, made the less in number gain victory over the numerous ? This quistion leads us to raise another imposed by the repeated mention of exploitation and weighless individuals throughout Marxist writings. We would like to ask them: Did Islam rise because the exploiters founded it or because the weighless people stablishad it by means of revolting against those exploiters ? What economical interest did the Prophet, peace be upon him, have to make him support the feudalists ? And what did he gain for himself or for his family through the alleged aid he extended to the feudalists ? Why did he arouse the weak against them in order that he himself might lead the same humble life as that of the weak ? If " economy " can give satisfactory answers to all these questions, it would then be an odd form of economy created by the supernatural power of the jinn. Nay, it is a self contradictory creature.

This materialistic compilation of mistakes and lies and the misleading course of materialists in connection with religions could not be the result of ignorance alone. But together with ignorance there must be evil intention to misinterpret the virtues of religions by means of persistent deformation and denunciation without any proof except the vicious caprices of self.

Success has certainly a ed the Materialists, the Marxists, in their "Grey Not-Book" which they publicized in Iraq and compiled therein all the sayings of the Materialist writers, old and modern, on the advent of Islam and the causes and circumstances of the rise of the Islamic Call. Never before has a great number of errors and contradictions been compiled in a note-book such as this. The embodiment of these errors and contradictions in such a note-book could not have been without misleading and false inspiration in which mistakes and deviation together with silly lies predominate over truth.

It is a historical fact that the defeat of Chosroes in the battle of Dhe Qar was the reason of the revolt of the Arabs against Persia. But after a few lines in the Marxist Note - Book you read that Quraysh in her objection to the Call of the Arab Prophet was relying on the support of Chosroes the King of Persia " whose death in 628 A. C. was among the reasons of the submission of Quraysh because Chosroes was known as the protector of idolators., So the people of Quraysh lost upon his death every hope to receive any support from without.

While reading this, one is struck by a statement which says that one of the strongest reasons of the prevalence of Islam was the triumph of Quraysh's god over all the other gods. As for the followers of Muhammad, who were called the children of God, they belonged to the weak tribes, and this is why they followed him.

The Grey Note - Book does not reveal to us why Quraysh hatefully resisted the propagation of the Call of God and opposed the Propagator in a most inflexible way, and why those obstinate opponents did not surrender until they became desperate and hopless as to the protection of the Persian king who was a well known idolator. Moreover, the Note-Book does not say why the Prophet was forced to leave the country of Quraysh, the worshippers of the supreme deity, to seek the help of the residents of Medina (al- Madinah) who disbelieved in Quraysh's deity and were not worshippers of God.

Furthermore, you read in the Note-Book that the victories of the Arabs were not a result of their religious enthusiasm, but were the outcome of the disintegration of the two great world powers, the Byzantine and Persian empires which were exhausted by long-standing wars.

The subjects of the two empires suffered so much from increasingly

SUBVERSIVE DOCTRINES DESTROY THEMSELVES

by

Abbas Mahmoud El-Aqqad

The Marxists write so much about religions, especially Islam, and the reason of their existence and development. In their writings they drive from one and the same idea and adopt their method without making any distinction between religions in spite of the fact that there may exist among the various religions some contradictions which cannot arise from one cause or from similar causes. Nay, it often happens that some religions bear elements which may destroy the beliefs, injunctions and morals of other religions, and may necessitate their invalidity, hold disbelievers their adherents and excommunicate them from the range of those who believe in the True God and the righteous messengers.

Whenever I finish reading a chapter of the Marxist writings on religion in general and on Islam in particular, the question comes to my mind: Which of the two parties is more entitled to speak up: the supporters of Marxism or the believers of religion which the Marxists criticize and wish to refute by their analysis of the cause of its existence?

The virtues of religion may require some effort to uncover its secrets and expound the profound reasons out of which beliefs emerge and take forms and symbols adaptable to every age and harmonious with every stage in the course of development of thinking and knowledge. The true appreciation of these virtues, however clear thay may be, is realized only through explanation and evidence. Contrary to that, the obviousness of stupidity and fallacies in the Marxist writings on religions is so clear that it needs no evidence or proof, and whenever these writings are re-examined they appear weaker and weaker and their fallacies become more vivid so much so that they constitute an argument for religion not against it.

be sequited for it and will not find for himself besides God a friend or a helper. And whoever does good deeds, whether male or female, and he (or she) is a believer - these will enter the Garden, and they will not be dealt with a whit unjustly " (Surah 4, Vs. 123-124).

Equality of Man and Woman In Religious Responsibilty:

The verses mentioned above indicate that Islam task man and woman with equal religious responsibilities. Both are equally demanded to have faith and do good deeds. Moreover, these verses indicate that woman's is a responsibility independent from that of man, and as long as she is righteous the evil deeds and corrupt faith of man cannot affect her. Similarly, if she is bad and her faith is corrupt, the righteousness of man cannot do her any good because everyone of them is self-responsible for his good or otherwise deeds and will accordingly be rewarded. In reference to this principle God says: " God sets forth an example for those who disbelieve - the wife of Noah and the wife of Lot. They were both under two of Our righteous servants, but they acted treacherously towards them, so they availed them naught against God, and it was said: Enter the Fire with those who enter. And God sets forth an example for those who believe — the wife of Pharaoh, when she said: My Lord, build for me a house with You in the garden and deliver me from Pharaoh and his work, and deliver me from the iniquitous people " (Surah. 66, Vs. 10 — 11).

In the same way the Qur'an stipulates that both father and son are equally entitled to religious independent responsibility from the day the latter reaches the age of maturity and adulthood. " O people, keep your duty to your Lord and dread the day when no father can avail his son in aught, nor the child will avail his father". (Surah. 31, V. 33).

(Translated from the Arabic text which appeared in the book titled:

ISLAM: BELIEF AND LAW

by His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout Rector of al-Azhar University.

Al-Azhar Press, Cairo, 1959).

* * *

who say, our Lord is God, then continue on the right way, on them is no fear, nor shall they grieve " (Surah 46, V. 13).

Therefrom it is proved that Islam did not come as a Belief only nor was it concerned merely with organizing the course of relations between man and God. But it came as a Belief and as a conductive law to guide man to all aspects of good in life.

Belief is the Source and Law is the Branch:

According to Islam, belief is the foundation upon which the law is built, and law is the necessary result of belief. So law does not really exist or flourish apart from the existence of belief. This is because law without belief is like an edifice which has no ground; it lacks the backing of moral and spiritual power which instigates the believers to intrinsicly respect the law, apply its articles and follow its guidance.

The Relation Between Belief and Law:

Islam, therefore, demands the adhesion of belief and law in such a manner as to make meaningless the existence of either of them separate a from the other. Yet it ordains belief as a generating power leading to law which will then be a natural response to the interaction of the heart with belief. Such adhesion of belief and law is the way of salvation and gaining the reward promised by God for those who believe in Him. Thus whoso satisfies himself with belief and disregards the law or obeys the latter and neglects the former is not a true Muslim in the sight of God nor is he taking the straight path.

Equality of Human Beings In Islam:

This is Islam which in its belief and law equalizes all human beings. It is addressed to all races and parties irrespective of physical differences of sex, i. e., male and female, or of colour. i. e., white and black, and irrespective of social differences between the ruling authorities and the ruled, the rich and the poor. Man becomes close to God's favour inasmuch as he is firm in belief and sincere in obeying His law. In connection with this point the Qur'an says: " O mankind surely We have created you from a male and a female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful" (Surah. 49, V. 13). " It will not be in accordance with your vain desires nor the vain desires of the people of the Book. Whoever does evil, will

human mind grows mature and the life becomes flourishing.

Islam : Belief (Aqeedah) and Law (Shareeah):

From God, Muhammad received the glorious Qur'an which is the comprehensive source of all beliefs and laws of Islam. With God as well as with Muslims the Qur'an is the principal source of knowing the basic teachiugs of Islam. It is a well-attested fact that through the Qur'an we know that Islam consists of two fundamental departments, namely, belief and law. Without the realization of these two departments in man's mind, heart and life, the essence of Islam and its significance alike are meaningless.

A — *Belief* :

Belief is the theoretical basis upon which the practical aspects of Islam were built and which all Muslims are demanded first of all to embrace whole - heartedly and undoubtedly. By its nature belief is established through unanimous and inequivocal texts as well as through the consensus of all Muslims from the beginning of the Islamic Call, though there have been different opinions in connection with matters other than belief. The first thing which the Messenger advocated and to which he called all people was belief. This call to belief was the mission of every messenger sent by God as stated in the Qur'an in its references to prophets and messengers.

B — *The Law* :

The law of Islam consists of the very regulations ordained by God or of the general rules made by Him for man to follow in his relation with God, with his co - religionist, with his fellow man, with the universe and with life at large.

The Qur'anic Conception of Belief and Law.

In many clear verses of the Qur'an belief is viewed as " faith " and law is interpreted in terms of "good deeds". It says : "As for those who believe and do good deeds, for them are Gardens of Paradise, an entertainment, to abide therein ; they will not desire removal therefrom " (Surah 18, Vs. 107-108). " Whoever does good, whether male or female, and is a believer, We shall certainly make him live a good life, and We shall certainly give them their reward for the best of what they did " (Surah 16, V. 97). " By the time ! Surely man is in loss, except those who believe and do good, and exhort one another to Truth and exhort one another to patience " (Surah 103, Vs. 1-3). "Surely those

not - and you can never do (it) — then be on your guard against the fire whose fuel is men and stones " (Surah 2, Vs. 23 - 24). " Say : If men and Jinn should combine together to bring the like of this Qur'an, they could not bring the like of it, though some of them were aiders to others" (Surah. 17, V. 88).

The Human Understanding of Islam Is Not a Religion to Be Followed :

After the death of Muhammad and his ascension to join the company of God, the notions of learned Muslim authorities as to the interpretation of some verses which bear more than one meaning became attached to the study of the Qur'an. Hence the field of human thought expanded and the opinions and doctrines related to theoretical as well as practical matters multiplied. Yet those opinions and doctrines were not conceived as a religion to which adherence was obligatory but as mere opinions and notions concerned with some Qur'anic verses which might suggest more than one interpretaiton according to the different approaches of interpreters in the light of their understanding of the Qur'anic text with the aid of what they hold valid of the sayings and deeds of the Prophet or of what they conceived of general principles revealed by the common spirit of religion. This attitude taken by the learned authorities was only believed to be an exercise of personal judgement (ijtihad). None of those authorities imposed his own opinion upon others who were qualified to exercise a like, free judgement.

As for the fundamental beliefs of Islam such as the belief in God, the Day of Resurrection, the ordinance of prayer, alms - giving, and consecration of self, honour and property, the texts concerned with these articles came very clear in the Qur'an and were in no need to free judgement or explanation. This is why there have been many opinions and doctrines in connection with the supplmentary branches of the basic beliefs and in relevance to practice subordinate to the principles of laws and injunctions.

Adaptability to Islam :

The nature of Islam proves that it is a religion of reasonable intellectual freedom, and that, beyond its fundamental beliefs and principles of legislation, it does not confine itself to any particular kind of thinking or any special method of legislation. By virtue of this freedom Islam has been a religion to which all forms of sound cultures and beneficial civilizations are adaptable, however the

AN INTRODUCTION TO ISLAM

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

The Rector of Al-Azhar University

What is Islam?

Islam is the religion of God Who revealed its teachings, principles and laws to the Messenger Muhammad, peace be upon him, and Who tasked him with conveying it to all people and calling them to embrace it. Through Islam Muhammad received from his Lord the glorious Qur'an and made it known in the same way it was revealed. In response to the demand of God and by virtue of His guidance Muhammad expounded the non-detailed verses of the Qur'an and translated its texts into practice by his deeds. Then people received it from him generation after generation until it came to us, just as complete and perfect as it was revealed, through a chain of reporters without any doubt in it.

The Qur'an is the Book of God:

A conclusive argument has been established with those who studied the Qur'an, appreciated its style, reflected upon its meaning and contents and then aquired comprehensive knowledge of the life and environment of Muhammad - that the Qur'an could not have been the production of Muhammad nor of any other human being who might have received from him. Thus all those whose hearts incline to the truth believe that the Qur'an came from God Who revealed it to His chosen Messenger who in turn made it known to people, and so the Qur'an is - to those who believe in it - the source of religious beliefs, injunctions and laws.

God has ascertained in the Qur'an itself the failure of human beings to bring the like of it, a result which was proved by the fact that they fell short in their attempt to bring its like. God challenged those who gave their backs to the Qur'an by disclosing their perpetual incapability of imitating the Qur'an; He says: " And if you are in doubt as to what We have reveald to Our servant, then produce a chapter like it and call on your helpers besides God if you are truthful. But if you do (it)

has reserved for them of pleasant reward. This is expressed in fascinating speech and inequivocal metaphor.

The approach of Islam to the problem of poverty is not confined to what we have already mentioned. But there are other ways through which Islam tackles this problem. It ordains the restriction of passions, the moderation of ambitions and the avoidance of greed. So it recommends the rich to lead a life of self-denying, commands the haves to exercise satisfaction and praises the contented poor.

This is how Islam treats the incurable disease of poverty which puzzled humanity since the existence of the universe. This treatment-although comprehensive, simple and effective - is a sound argument against those who pretend that the Law of the Qur'an is inharmonious with civilization, and the Code of Napoleon is more suitable to mankind than the law of God, and the Marxist ideology is more useful to the world than that of Muhammad.

If every Muslim observes the right of God in his wealth and follows his kind nature as to give away of his surplus and console the miserable and behave in an altruist manner; and if all this finds rulers to administer it in the proper way - it will be easy then to establish peace in the earth, spread love among people. As a result, the ill feelings of hatred will calm in the envious, the tears of the miserable will dry, the stomach of the poor will be in peace, and the fears of the rich will cease. Prosperity then will prevail and people will enjoy the happiness of the earth and the bleessing of Heaven.

---

connection, if he deliberately and with no excuse breaks the fasting, he must feed sixty poor men or free a slave. Furthermore, if the pilgrim violates any rule of pilgrimage, he has to expiate by offering a slaughtered sacrifice, e.g., a ram, to the poor. The father celebrates the seventh day of his child's birth by offering a sacrifice to the poor. On the occasions of the Lesser Bairam (Ied al - Fitr) marking the end of the fasting month of Ramadan and the Corban Bairam (Ied-al-Adha) marking the end of pilgrimage, the rich people have to relieve the poor by means of distributing the alms of fast — breaking (zakatul - fitr) and offering the oblations.

When the Muslim makes a vow, religion enjoins upon him to be faithful to his vow in order that he may be kind to the poor and helpful to the needy. In the Islamic law there is a wise rule which sets a duty against every right. Accordingly, when a person fails to stand for the demands of his livelihood, religion tasks those who are entitled to inherit him after his death with his subsistence. Thus the wealthy son, brother and husband have to maintain the needy father, brother and wife respectively and vice - versa. The second Calif Umar Ibn al - Khattab once saw a completely disable Jew. He stood by him and said : We have not treated you justly O Jew. When you were able we took tribute from you and now in your weakness we must not let you down. Then he arranged a sufficient salary to be paid to that Jew regularly from the Muslim Treasury.

The Islamic law came with strong recommendations that when death draws nigh to anyone, he is to make will covering one - third of his property to be spent in charitable ways, besides his will to the parents and kinsmen. One of the blessings of the kind Messenger Muhammad is his praise of and exhortation to maintaining permanent sources of charity by virtue of mortmain to sustain the sick, the poor, the wayfarers, the pilgrims and the students. These people enjoy the benefit of this mortmain through the care and comfort they receive in benevolent hospitals, orphanages, hostels, monastry-like buildings, schools, and mosques. To appreciate the good and incessant results of the permanent sources of charity throughout the Muslim world one has only to cast a glance at the ways in which the revenue of mortmain is spent. In addition to all this, there are many verses in the Qur'an and numerous sayings and actions of the Messenger which urge the believers to spend in the way of God and endear what God

Then the first results of the Divine reform were clipping the nails of poverty, healing the wounds of the poor and suppressing the pains of misery. This Divine reform united the hearts of the people and fraternized them, equalized the various races, protected them from committing murders and purified the wealth from excessive usury. Finally it solved the same enduring disease of poverty in such a manner which, if adopted by reformers, will enable them to avoid the evils of these wars which disturb the peace of people and to save them from the defects of the ideologies which destroy the structure of human society. It solved the problem of poverty by creating a link between the rich and the poor on the basis of acknowledging the right of possession and maintaining the freedom of enterprise, so that no owner can be driven away from his property and no person can be opposed in his freedom. Accordingly, it entitles the poor to a certain right in the wealth of the rich whose religion is incomplete without giving that right. This right, i.e., alms-giving, is the third pillar in the five ones upon which Islam was built. It is not supplementary nor is it supererogatory or subordinate. Alms-giving has no insignificant effect in the life of the poor. It is estimated at one-fourtieth of properties,

If alms is collected, as estimated, with honesty and distributed with justice as prescribed, it will cure the souls from rancour and save the society from misery. Thus there will be no vagabons on the streets or hungry in homes or disqualified labourers.

Islam in its treatment of poverty did not stop at the injunction of alms-giving. It has in the sphere of worships and dealings ordained inexhaustible sources of kindness and charity. When a person commits perjury he expiates it by feeding ten poor men with the average food he feeds his family with, or by clothing them, or by freeing a slave. Likewise, if he swears not to do a certain thing but then discovers that its doing is better than its leaving, he may do it after expiation by feeding the poor. Similarly, if he declares his wife as forbidden for him as his mother(zihar) and then decides to go back on his declaration, he must feed sixty poor men or free a slave. And if he kills a self by mistake, he feeds the poor or free a slave besides paying a blood-money (diyah).

Moreover, when the person is unable to fast the month of Ramadan because of illness or decrepitude, he may break the fasting and feed a poor man against every day he breaks the fasting of. In the same

When Islam plays its proper rôle in the life of Muslims, the whole nation becomes one family and all people become brothren among whom you may find the *poor* but not the deprived, and the weak but not the wronged. This is because the law of God has ordained a link of kindness between the wealthy and the poor and established a relation of mercy between the strong and the weak.

Islam has prescribed the remedy of poverty with clear awareness of the fact that it is the source of every disease and the origin of all evils. This remedy is one of the most fundamental pillars of Islam which come in grade after the Oneness of God. If you examine the verses of the Qur'an and the sayings of the Messenger concerning the poor-duty and kindness, you may think that the message of Islem was sent from God through Muhammad the Last Prophet only to save humanity from the calamities of poverty and evils of hunger. It is good proof to know that the verses of fasting in the Qur'an are four, and those of pilgrimage are about fifteen, while the verses of prayer are less than thirty. But with alms-giving and charity the Qur'an takes a different and stronger attitude described in more than fifty of its verses.

It seems that God chose the poorest nation and the most barren land to combat poverty in its strongest fortress and vastest field; because if poverty is defeated in the desert of Hejaz (al-Hijaz), its defeat in the country of Egypt and that of Iraq would be far easier and much faster. Moreover, God chose His Messenger from among the poor to show more vividly His power in combating poverty, just as He chose him from among the illiterate to be a more conclusive argument in his support.

During the advent of the great Call of Islam the Arabian Peninsula was a deplorable example of what poverty afflicts upon mankind of savage instincts, dissolution of relations, aggressive assaults, suffering deprivation, slaying the children, excessive usury, devouring the forbidden things, cheating in measures, injustice of the heads, egoism of the rich, insecurity, the falling of man into the lowest depth of animal life, etc. But when God sent His Messenger with guidance and the true religion, his greatest miracle was the perfect Book (the Qur'an) which made of those bleeding and disintegrated bodies a strong and powerful nation and abrogated those corrupt systems to replace them with a constitution of solid foundations and immortal wisdom,

HOW ISLAM TACKLES POVERTY

by

AHMED HASSAN EL-ZAYAT

Editor - in - Chief

Take off your eyes this magic glass made by literature and art, and look into the various aspects of life. You will find that life is a formidable struggle for food. This struggle never ceases or weakens. It is continuous and common, and has caused the death and injury of many people, who were let down by their weakness to die martyrs or live in poverty. As for death, it is irresistable and there is nothing to be done about it, but poverty is the incurable disease which has been befalling humanity since God created it with the dual nature of power and disability, perfection and deficiency.

This disease has been the subject of social treatment which tried to mitigate its pain by sedative means and relieve its acuteness by charms. But the effective tackling of poverty remained inaccessible to the social treatment until God described it in His religion and applied it in His law. Then the contagious effect of the disease was terminated and the danger was removed.

If you see in the Muslim world victims of poverty and preys to hunger, you must believe God and distrust your eyes ; because the world you see is not the one which shines with the light of God, nor is it the one which is perfumed with the breeze of Paradise. But it is Like a debris deserted by its people and a patient neglected by his comforters. The world you see is populated by " Muslims" who failed to appreciate the values of the Qur'an and - instead - glorified its words, and is governed by rulers who miss the solid foundations of sound government to satisfy themselves - instead - with its superficial forms.

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثامن — شعبان سنة ١٣٧٩ هـ — فبراير سنة ١٩٦٠ م — المجلد الحادي والثلاثون

المعركة التي أنقذت الإسلام والعروبة

بمناسبة احتفال الجمهورية بذكراها

بقلم : أحمد حسن الزيات

— ١ —

أيام النصر كواكب سعد تتألق في ليل جهادنا الداجي الطويل ، أو هي أعلام مجد تخفق على شواهق تاريخنا الجليل الحفيل ؛ فيوم بدر ، ويوم مكة ، ويوم اليرموك ، ويوم القادسية ، ويوم حطين ، ويوم المنصورة ، ويوم رشيد ، ويوم بورسعيد ، مراحل هادية في طريق الركب البشري نقلته كل مرحلة منها إلى منزلة من منازل الكمال الاجتماعي ؛ من الشرك إلى الوحدانية ، ومن الرق إلى الحرية ، ومن همجية الفوضى إلى مدنية النظام ، ومن فرقة الجهالة إلى ألفة السلام ، ومن قيادة الهوى الحاكم إلى سياسة العقل الحكيم ، فالاحتفال بذكرياتها احتفال بكرامة الإنسان ، وغلبة العدل والإحسان ، وسيادة العلم والنور .

وقد احتفلت الجمهورية منذ أسابيع بيومي رشيد وبورسعيد ، وستحتفل في الثامن من هذا الشهر : شهر فبراير بيوم المنصورة ، وهو اليوم الأغر الذي صدق الله فيه وعده للمسلمين فانطفأت على مياه (البحر الصغير) آخر حرب أوقد نارها الاستعمار الكافر ، باسم الصليب على أرض الكنانة فأنقذ الأمة الوسط من عاقبة كعاقبتها في الأندلس مع الفرنج ، ومن كارثة ككارثتها في العراق من المغول .

— ٢ —

كان العرش العباسي في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد قد زعزع المغول قوائمه وأوشكوا أن يقوضوه ، وكان الوطن العربي قد مزقته المطامع وكاد أهله أن يفقدوه ؛ وكان آل الصليب ممن وترهم صلاح الدين في حطين يجمعون الأهبة ويتحينون الفرصة لاسترداد بيت المقدس بالعودة إلى غزو الشام وفلسطين ، ورأى لويس التاسع ملك فرنسا

أن الفرصة قد واتته بهجوم التتار على العراق، وعبث الحشاشين فى الشام، وتنازع الأيوبيين فى مصر، فاعتزم الغزوة الصليبية السابعة. ونصح له أصحاب رأيه، وأركان حربه أن يستولى أولا على مصر؛ لأنها معقل الإسلام وموئل العروبة؛ والاستيلاء عليها يفتح الطريق إلى فلسطين وسورية والعراق فيدخلها من غير حائل ولا وائل. أليست مصر هى التى سحقت الصليبيين فى حطين فأنقذت دين الله، وصدت التتار فى عين جالوت فأنقذت تراث محمد؟.

هنالك دعا القسيس لويس ومن شايعه من أقطاب النصرانية إلى الغزو - الأمراء والفرسان وعشاق المغامرات ممن يطمعون أن يكون لهم فى مصر إقطاعيات وإمارات على نحو ما كان لأسلافهم فى بلاد الشام وشمال العراق منذ قرن ونصف. فاجتمع إليهم من فجاج الأرض زهاء خمسين ومائة ألف فارس، واحتشد لديهم من موانى البحر ألف وثلاثمائة سفينة، وأبحروا إلى مصر بهذا الجيش العرمرم فى هذا الأسطول الضخم. يسوقهم الإيمان الأعمى، ويقودهم الطمع الجشع، ويرشدهم ضلال من سبقوهم من الغزاة المغلوبين، ويحرضهم الثأر لمن صرعهم صلاح الدين، ولو أن الجد الناهض كان فى صف العدو لوقعت مصر والشرق العربى كله فى قبضة فرنسا منذ سبعة قرون، ولا استحال على العرب وهم تحت سلطانها المميت المدمر أن يدركوا معنى الوجود إلى يوم الناس هذا؛ ولكن موقعة المنصورة وهى حطين الثانية كانت كلمة من وعد الله الصادق بالنصر لحماة دينه، فحولت مجرى التاريخ، وغيرت وجه الأحداث، وألقت إلينا بمقاليد القدر.

— ٣ —

فى أواخر سبتمبر من عام ١٢٤٨ م أرسى أسطول القديس لويس على شواطىء (ليماسول) ميناء قبرص، فنزل منه الفوارس الغلاظ الشداد عليهم القمصان البيض والصلبان السود، فسطعت فى أنوفهم من بعيد ريح الخمر القبرصية وما ينتشر حولها من وهيج الشواء وأريج النساء وفوحة الزهر، فتلقاهم ملك الجزيرة (هنرى) بما يشتهون. فلبثوا يقصفون ويفسقون ثمانية أشهر جعلوا قبرص كلها فى هذه المدة ماخوراً كبيراً وحانة عظيمة! وكان الملك القديس فى أثنائها يجمع المئونة ويكمل العدة وينتظر من تخلف عنه من هواة الإقطاع، ويستقبل من وفد عليه من سفراء المغول؛ ليحالفوه على قبض النفوذ المصرى من الشرق بعد أن استحال عليهم ذلك، فلما قرروا الإبحار إلى مصر كتب لويس إلى ملكها الصالح نجم الدين أيوب كتابا ينذره فيه بالهجوم جريا على سنن الفروسية فى العصر الوسيط جاء فيه على ما روى المقريزى:

« أما بعد: فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما إنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وإنى غير مخف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا،

ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل وعددهم كعدد الحصى » .

فردعليه الملك الصالح بجواب من إنشاء القاضى الشاعر بهاء الدين زهير نقتطف منه قوله :

« .. وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . وستعض أناملك ندما فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، ونعود إلى قول الله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

— ٤ —

رسا الأسطول الفرنسى على ساحل دمياط فى اليوم الرابع من شهر يونيه من السنة نفسها وكانت غير محصنة فاحتلها ، ودخلها الفرنسيون دخول الطاعون الوافد ، فوجدوا أهلها قد جلوا عنها وراء القائد فخر الدين بن شيخ الشيوخ وتركوا منازلهم معمورة بالأرزاق ومتاجرهم مغمورة بالبضائع ، فرتعوا فيها رتوع الخنازير ، واشتعلوا بها اشتعال الجرذان ، وحول الجيش المدارس مواخير ، والساحات مراقص ، كما حول الملك لويس المسجد الجامع كنيسة للعذراء ، والمساجد الأخرى كنائس للقديسين ، وحصن القواد الأسوار ، وشيدوا الأبراج ، وأعدوا وسائل الدفاع . وظل القائد القديس يقيم القداديس ويقدم القرابين وجيشه يقيم المراقص ويأتى الفواحش أربعة أشهر ، ثم قرروا المسير إلى القاهرة عن طريق المنصورة .

وكان جيشنا يستعد فى القاهرة للدفاع ، وشعبنا يتجمع فى الدلتا للهجوم ، وآلاف المتطوعين يتقاطرون على معسكرات العدو يتغفلونهم بالليل ويتخطفونهم بالنهار .

ورأى القواد المصريون أن يحاصروا الغزاة فى الدلتا وألا يخلوا بينهم وبين القاهرة ، فتقدم الملك الصالح الجيش إلى المنصورة وهى قلعة مصر الشمالية ونزل بقصرها ليكون على مقربة من المعركة .

وبين عشية وضحاها انقلب هذا الشعب الأصيل الحر من فلاح يحرث وصانع يعمل وتاجر يبيع وعاطل يلهو ، كتلة واحدة من البأس تتسعر شوقا إلى الحرب ، وتفور حقدا على العدو ، وتبذل كل ما تملك فى سبيل الذياد عن الوطن ، والدفاع عن استقلاله . وأعجب العجب أن بلاء المتطوعين كان أشد وجهادهم كان أصدق ... !

— ٥ —

تجمع الجيش النظامى فى المنصورة وانتشر المتطوعون حول جيش العدو فى الموقع المثلث الذى اختاره بين الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة ، والشمال الغربى من فرع دمياط ، والجنوب الشرقى من بحر أشموم طناح ، وكانت قيادة العدو قد عسكرت فى شرمساح والبرمون ، فلم يكن بين الجيشين من فاصل

إلا (البحر الصغير) وكان النيل لا يزال فى فيضانه . وتعذر على الفرنسيين عبور البحر الصغير فظلوا يكابدون هجوم العصائب من المجاهدين المتطوعين فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار . ولهؤلاء الفدائيين آيات من التضحية والبطولة سجلها مؤرخو هذه المعركة . منها أن أحدهم قور بطيخة ووضع رأسه فيها ثم سبح فى النهر حتى اقترب من الشاطئ الشرقى ، فنزل أحد الصليبيين ليأخذ البطيخة فسحبه المصرى وعاد به سابحا إلى المعسكر .

فلما أعيا الفرنسيين الأمر لجأ ملكهم إلى الصلاة ، فيقال : إن من (كراماته) أن أعرابيا خائنا طمع فى مالهم فدلهم على مخاضة فى النهر عند (سلامون) فخاضها فريق من الجيش بقيادة الكونت دارتوا أخى الملك ، وباغتوا المصريين بالمدينة فى اليوم الثامن من شهر فبراير عام ١٢٥٠ فوقع الاضطراب وعم الفزع واغتيل القائد فخر الدين حتى قال ابن واصل المؤرخ وكان فيمن جاهد وشاهد : « انزعجنا وغلب على الظنون بوار الإسلام ، على أنه كان من سعادة المسلمين تفرق الإفرنج فى الأزقة » . وتولى القيادة بيبرس فحصر بالماليك البحرية الجيش المهاجم فى شوارع المنصورة الضيقة ، وأخذوهم بالسيوف والدبابيس ، وتلقفهم الأهلون قذفا بالحجارة وضربا بالحديد وخطفا باليد ، فلم يدروا كيف يتقون المنايا وقد تخطفتهم من كل مكان ، فهلكوا جميعا وفيهم (دارتوا) . وطلب الجيش والشعب بقية الصليبيين جنوب النهر ، فالتحم الفريقان وتعاقب بينهما المد والجزر . وكان الأسطول المصرى قد شارك فى القتال فحصر مراكب العدو فى النيل وقطع ما بينها وبين جيشه ، فعز القوت وفشت المجاعة وانتشر الوباء واستحر القتل ، ففقد الصليبيون أربعين ألف قتيل ومائة ألف أسير ، فلم ير ملك فرنسا بدا من أن يتقهقر هو وأركان حربه إلى (منية أبى عبد الله) وأن ينزل فى بيت فرنسية كانت من ضواحى باريس ، ثم استسلم واستأسر . وتفاوض المصريون والفرنسيون فى شروط الهدنة ، فاتفقوا على أن يسلم هؤلاء دمياط ، وأن يفدوا ملكهم بثمانمائة ألف دينار ، وأن يسجن حتى ينفذوا هذه الشروط .

— ٦ —

اقتيد الملك لويس التاسع هو والكونت أنجو ، والكونت بواتو ، إلى دار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء ، وكلف الطواشى صبيح بالقيام على أمره ، فلبث فى السجن حتى ردت دمياط وأديت الفدية ، فحمل هو ومن معه على سفينة جنوية أقلتهم إلى عكا ، والمصريون يودعونه بهذه الأبيات التى قالها جمال الدين بن مطروح :

حديث الأستاذ الأكبر في عيد النصر

إخواني :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وبعد :

فإن لكل أمة فيما مضى من حياتها أحداث بارزة هيأت لها في حاضرها القوة أو الضعف ، والاستقرار أو الاضطراب .

وأن هذه الأحداث التي يسجلها التاريخ وتعرفها الأمم مرآة صادقة تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة أحداث الخير وأسبابها ، وأحداث الشر وعواملها ، ومن هنا استقر في ضمير المجتمعات البشرية الرجوع إلى الماضي واستحضار أحداثه وتقليب النظر في أسبابها ونتائجها لتمهد لنفسها سبل السير في حياتها المقبلة على ضوء ما عرفت من أحداث الماضي .

وإننا ونحن في هذه الآونة نذكر فضل الله علينا بالنصر في موقعة بور سعيد الخالدة حين تألبت قوى الشر على الحق وجنده ، فنذكر فضل الله علينا وعلى أمة العرب والمسلمين ، بتأييده لعباده ونصره لهم وهزيمة أولئك البغاة الطغاة .

قل للفرنسيس إذا جئته
مقال صدق من قئول فصيح
آجرك الله على ما جرى
من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها
تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم
ضاق به في ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح :
سبعون ألفا لا يرى منهم
إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها
لعل عيسى منكمو يستريح
وقل لهم إن أزمعوا عودة
لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشي صبيح

وقد أجاب الله دعوة الشاعر فعاد حفدة لويس إلى ديارنا يرتكبون الجرائر ، وانتقلت دار ابن لقمان وقيدها وطواشيها من مصر إلى الجزائر !.

أحمد حسن الزيات

أيها المسلمون : أيها العرب :

إن اليوم الذى حطمت فيه هذه القوى فى بور سعيد ، جدير أن نتخذه عيداً نذكر به فضل الله علينا ، إذ أمكننا من عدونا فعادت إلينا كرامتنا كاملة ، ورجع إلينا حقنا كاملا غير منقوص .

هذا وللنصر مكانته عند الله ، سجله القرآن الكريم فضلا من الله العزيز الحكيم على عباده « وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » ولقد أعز الله بالنصر النفوس ، وقرن به فتح القلوب لا فتح البلاد « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصراً عزيزاً . هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

وجعله تعالى نعمة من نعمه تستوجب من عباده تسبيحه وحمده « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » وإذا كنا بسبيل من ذكرى نصر بور سعيد فإننا نذكر بها يوماً آخر من أيام النصر ، ذلك هو ذكرى هزيمة الأحزاب على نحو ما هزم الله انجلترا وفرنسا وإسرائيل . إذ تجمعت فى كل منهما عوامل الحقد ، ونوازع الشر ، ثم بدد الله فى الحالتين شمل الجميع وفرق وحدتهم وفلّ جموعهم « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم . ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا » .

هذه ذكريات فى النصر ، والذى أريد الآن أن أسجله فى هذا المقام أننا لم نحصل على هذا النصر بكثرة العدد ولا بوفرة العتاد ، وإنما حصلنا عليه برعب قذفه الله فى قلوب أعدائنا كما قذفه بالأمس فى قلوب الأحزاب « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا » . وهذا تحقيق لقوله صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالرعب » . والرعب ليس قوة إيجابية مادية ، وإنما هو أثر من روعة الإيمان واندفاعاته ، وأثر من قوة الاتحاد ، ومعانى الرجولة المجتمعة فى صدور المؤمنين من صبر وجلد . وسيظل هذا الإيمان يقذف الرعب فى قلوب الأعداء فلا تقوم لهم شوكة ، ولا تقوى لهم عدة .

وفقنا الله وأدام التوفيق لقادتنا ، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

واعلموا أن الفضل دائما فى القيادة التى يهيئها الله لهذه التجمعات الروحية القوية فى نفوس المؤمنين إذا قالوا . وإذا فعلوا

أيها المسلمون ، أيها العرب :

« قد جاءتكم آية من ربكم ، وآثارها قائمة ، ماثلة أمامكم ، كلما ذكرنا بور سعيد وكلما مر علينا اليوم الثالث والعشرون من ديسمبر . دلتنا هذه الآية على أنه لا نصر إلا بالإيمان بالله ، ولا إيمان إلا بحب الله ورسوله ، والعودة إلى فهم دينه والوقوف عنده ، والتمسك به والسير فى حدود ما شرع الله وبين « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

محمود شلتوت

الأدب والتاريخ
فى معرض النقد الحديث

للأستاذ عباس محمود العقاد

لا بد من حيلة ناجعة غير حيلة الرفض المطلق أو القبول المطلق أو الظن المتردد بين الطرفين ، كلما عرضت للناقد مشكلة من مشكلات الأخبار الأدبية أو التاريخية التى يختلط فيها الصدق بالكذب والخرافة بالواقع والحقيقة بالخيال ، ولا يخلو منها مرجع من مراجع التاريخ القديم أو من المراجع العصرية فى كثير من الأحيان .

فما هى هذه الحيلة الناجعة ؟ إن الظن فيها لا يغنى شيئا إلا إذا أخذناه مأخذ الظنون ولم نزعم له أنه يترقى إلى مرتبة القول الملزم أو الرأى المقبول .

ونعتقد أن النقد العلمى فى العصر الحديث وشيك أن يعتمد على وسيلة من أوثق الوسائل التى تستند إلى الحجة المقنعة ولا تكتفى بترجيحات الظن أو الذوق على ديدن النقاد قبل العصر الأخير ، ونود فى هذا المقال أن نجرب طريقة هذا النقد العلمى فى سيرة من أحوج السير إلى التمحيص ، وأكثرها قبولا لتطبيق هذه الطريقة على وجه واضح ...

وتلك هى سيرة « امرئ القيس » الذى أضل تاريخه الكثيرين قبل أن يلقبوه بالملك الضليل .

فمن اليسير عندنا أن نعرض أخباره على التفسير العلمى فنعلم منها يقينا ما ليس بالمختلق لاستحالة اختلاقه على مؤرخيه فى صدر الإسلام وبعد صدر الإسلام إلى الأزمنة المتأخرة ؛ لأن أولئك المؤرخين يجهلون التفسيرات العلمية التى يؤخذ من أخبارهم فيما يصححون روايته أو يتعمدون فيه التزيد والتلفيق .

وهذه أمثلة متفرقة من الأخبار التى تضم بعضها إلى بعض فيتم بها تفسير سيرة الشاعر على نحو لا يستطاع تلفيقه فى زمانه أو فى أزمنة مؤرخيه .

(١) يقول كتاب الشعر والشعراء : «كان امرؤ القيس جميلا وسيما، ومع جماله وحسنه مفركا لا تريده النساء إذا جربنه ، وقال لامرأة تزوجها : ما يكره النساء منى ؟ قالت : يكرهن منك أنك ثقيل الصدر خفيف العجز ، سريع الإراقة ، وسأل أخرى فقالت : يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت برائحة كلب ، فقال إنك صدقتنى وإن أهلى أرضعونى بلبن كلبة .

(٢) وروى غير مصدر من مصادر تاريخه « أنه تزوج امرأة من طيء فأبغضته من ليلتها وكرهت مكانها معه فجعلت تقول له : يا خير الفتيان أصبحت ، فيرفع رأسه فينظر فإذا الليل كما هو فتقول : أصبح ليل ! ... فلما أصبح قال لها : قد علمت ما صنعت الليلة فما الذى كرهت منى ؟ ولم يزل بها حتى قالت مثل ما تقدم.

٣ — وروى الميدانى أنه لما جاور فى طيء نزل به علقمة الفحل التميمى فقال كل واحد منهما لصاحبه أنا أشعر منك ، فتحاكما إلى امرأته فقالت له : علقمة أشعر منك ، لأنك زجرت فرسك وحركته بساقك وضربته بسوطك وأنه أدرك الصيد ثانياً من عنان فرسه . فغضب امرؤ القيس وقال : ليس كما قلت ، ولكنك هويته ، فطلقها فتزوجها علقمة وبهذا لقب علقمة الفحل .

٤ — وأجمع المؤرخون على أنه كان يلقب بذى القروح ، ولكنهم اختلفوا فى إصابته بالقروح فقال بعضهم : إنها مرض كالجدرى وقال آخرون إنها من حلة مسمومة خلعها عليه قيصر بعد سفره من القسطنطينية انتقاما منه ؛ لأن رجلا من بنى أسد كان على صلة بحاشية قيصر فسمع أن امرأ القيس يغازل بنت قيصر فوشى به وألقى إلى الملك أن امرأ القيس (غوى داعر) وسيفضح ابنته بشعره .

٥ — وغير هؤلاء الرواة يقولون : بل

كان قيصر راضياً عن الشاعر إلى ما بعد وفاته وأمر بإقامة تمثال له عند قبره شاهده الخليفة المأمون لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة .

* * *

هذه جملة أخبار متفرقة يؤخذ منها أن امرأ القيس كان مصابا بالتهاب جلدى يحدث من اجتذاب المواد الدهنية والسكرية لطائفة من الطفيليات ، ويفوح العرق فى هذه الحالة برائحة كرائحة الكلب ؛ لأن الكلب قليل المسام فى جلده ، فيشبه عرقه عرق جلد الإنسان المصاب .

ويضاف إلى ذلك أن العلاقة بين الأمراض الجلدية وأمراض الوظائف الجنسية معروفة ؛ ولهذه العلاقة يتخصص أطباء هذه الأمراض بعلاج الأمراض الجنسية كما هو معلوم .

فمن الواضح إذن أن أخبار الرواة عن الخلل الجنسى فى بنية امرئ القيس صحيحة لا يستطيع الرواة أن يلفقوها ويجمعوا بين دلالتها على هذه الصورة ، ومن الواضح كذلك أن تعليل رائحة العرق برضاع لبن الكلبة وهم باطل ؛ لأن هذا الرضاع لو حدث لم تحدث منه تلك الرائحة ، ونفهم من هذه القرائن بالبداهة أن قصة الحلة المسمومة وهم كهذا الوهم ؛ لأن القروح لابد أن تنشأ من ذلك المرض الجنسى بعد طول العهد بالإصابة ؛ ولأن الرجل الذى تبغضه زوجته لعيوبه الجنسية لا يبلغ من غوايته للمرأة أن يستهوى ابنة قيصر ، وأن يتعرض فى جريرة ذلك للوشاية والانتقام .

* * *

وننتقل من روايات زواجه ومرضه إلى روايات أخلاقه فنعلم من جملتها ما يفسر لنا سمعته وما اشتهر به من الإباحة وافتضاح السيرة فى أمور النساء .

(١) ظهر مذهب مزدك على عهد الملك الفارسى قباذ ، وهو مذهب يدعو إلى المشاركة فى الأموال والزوجات ، أراد الملك الفارسى أن ينشره بين العرب فأنكره المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وارتضاه الحارث بن عمرو ملك كنده .

(٢) وكان المهلهل الشاعر خال امرئ القيس ماجنا مشتهرا بمصاحبة النساء ولقب من أجل ذلك بالزير وهو الرجل الذى يكثر من مزاورة النساء .

(٣) وكان امرؤ القيس يبيح فى شعره ما لا يباح من التحدث بالفسوق والخيانة وغشيان الخدور ، فلا جرم يقال عنه أنه غوى داعر ويتردد وصفه بهذه الصفة على ألسنة رواته .

فهذه أخبار عدة تفسر لنا سمعة الشاعر

وتبين لنا البواعث النفسية التى تنبعث بها تلك الخليقة وتهيئ لها جوها الاجتماعى ولوازمها العاطفية (أولا) من خلائق القبيلة التى ولد فيها وسمحت لها أحوالها الاجتماعية بقبول مذهب مزدك ومطاوعة الملك الفارسى حيث خالفه ملك الحيرة .

ويأتى جو الأسرة بعد جو القبيلة فلا يستغرب من امرئ القيس الناشئ أن يشبه خاله زير النساء من جانب الطبيعة ومن جانب الصناعة الفنية ، إذ كان خاله شاعرا يقول بفنه ما طبع عليه بوراثته ، وقد يزيد امرؤ القيس تماديا فى المجون والخلاعة أنه يدفع بهما شبهة النقص ويعوض بهما قولا ما ليس له فى الحقيقة .

* * *

وعلى هذا النحو من المقابلة بين الروايات نعلم حدود الكذب أو حدود الوضع حتى عند ثبوت الوضع أو ثبوت التناقض بين الروايات فى الخبر الواحد .

فإن كذب الوضاع ينتهى عند حدود الاستطاعة التى لا يقدرون على مجاوزتها ، فليس فى مقدورهم أن يختلقوا العوارض الطبية التى تصلح دون غيرها لتفسير أخبارهم ونقائضهم واستخراج الحقائق الظاهرة أو المستترة بين طواياها .

وليس فى مقدورهم أن يصنعوا بيئة القبيلة ولا بيئة الأسرة ولا بيئة الجو النفسانى الذى نشأ فيه الشاعر وعاش فيه حتى اتفقت هذه البيئات جميعا على التمهيد لتكوين إنسان موجود ، ولا بد أن يكون موجودا إذا تلازمت مقدمات وجوده ونتائجها على وجه يمتنع فيه الكذب ، لأنه كذب لا يستطيعه من يأتى به ولو أراده وتحراه .

* * *

فالشخصية التاريخية الصادقة هى الشخصية التى تتوافق عناصرها ، وتتجمع ملامحها وتتلاقى أجزاؤها كما تتلاقى أجزاء الهيكل المتفرق بين حفائر الأرض ، فيركب كل منها فى مكانه وتستوى الأعضاء من هنا وهناك كما تستوى فى الكائن الطبيعى والصورة الحية .

وربما كان هذا الاستواء الذى لا حيلة فيه للرواة الكذبة ولا للرواة الأمناء أحق بالاعتماد عليه من ورود السيرة فى كتب التاريخ من مصادر أخرى بعيدة من مصادرها العربية . فقد وردت سيرة امرئ القيس فى كتب نونوز وكتب بروكوب من مؤرخى الروم ، وورودها هنالك دليل وثيق على شخصية تاريخية لم تنفرد بها المصادر العربية ، ولكن الصدق الذى تأتى به الأخبار على غير قصد من رواتها ووضاعها أصح فى الدلالة من المكتوب المقصود الذى لا يستحيل عليه ظن التدبير ؟

عباس محمود العقاد

المجتمع الحديث

للأستاذ الدكتور محمد البهىّ

تمهيد :

المجتمع الحديث هو وليد النهضة الأوربية ، والثورات القومية لشعوب أوربا ، والتطور الصناعى فيها . والنهضة الأوربية كانت بدورها نتيجة لوضع الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى وسلطانها ، ليس على اتجاه التوجيه والمعرفة فى هذه الشعوب فحسب ، بل مع ذلك على سياستها الداخلية والخارجية ، وعلى السلم والحرب فى علاقاتها مع الشعوب الأخرى غير الأوربية . والحروب الصليبية ـ التى دامت قرابة ثلاثة قرون ، والتى قصدت الكنيسة فيها غزو الشرق الإسلامى والاستيلاء على بيت المقدس وتحريره من سلطان المسلمين ـ تمثل سلطان الكنيسة الكاثوليكية على توجيه الشعوب الأوربية فى ذلك الوقت .

حاولت أوربا بعد هذه الحروب الصليبية ـ بفضل الاتصال بالإسلام ـ أن تتخلص من نفوذ الكنيسة ، وتستقل على الأقل بالسلطة داخل شعوبها ، فكانت الثورات القومية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا . كما حاولت أن تخفف من التزام توجيه الكنيسة فى المعرفة والبحث ، فكانت النهضة العلمية الأوربية . وهى نهضة تتميز بتركيز البحث فى الطبيعة ، والتخلى عن مجال الألوهية للمعرفة الدينية وحدها التى كانت من حق الكنيسة ورجالها ، ولم تزل حتى الآن .

وأفادت الشعوب الأوربية من هذه النهضة ـ أو بالأحرى من معارضتها لنفوذ الكنيسة ـ فى تحديد كيانها الداخلى . وفى تقدمها فى الكشف عن الطبيعة وأسرارها . فكان من أثر تحديد كيانها الداخلى نمو القانون الوضعى ونمو ملكة التشريع عندها . وكان من أثر التقدم فى الكشف عن الطبيعة وأسرارها بدء قيام العلم الحديث ، وبدء تطور الصناعة ، وبدء استغلال الخامات والطاقات الكونية استغلالا منظما . وهنا جاء عصر « البخار » وحل فى توليد القوى المحركة محل الشراع فى البحر ، ومحل الخيل والإبل فى البر . ثم أعقبه عصر الكهرباء فى توليد هذه القوى ، حتى جاء عهدنا الحاضر وهو عهد الذرة . والذرة وإن لم يستخدمها الإنسان حتى الآن فى توليد قوى

الدفع فى نطاق واسع وبنفقات محتملة ، إلا أن استخدام الكهرباء بلغ الذروة فى يومنا هذا فى سعة النطاق ورخص التكلفة ، وأصبحت الكهرباء عاملا رئيسيا لا يستغنى عنه تدبير المنزل ، وإنتاج المصنع ، ولا تستغنى عنه حياة الإنسان فى صحته ومرضه ، وفى حله وترحيله .

ثم عند ما تقدم البحث فى الطبيعة وتعدد كشف الإنسان لأسرارها أو لقوانينها ، وتطورت الصناعة على أثر هذا التقدم ، وامتلك الإنسان الأوربى بهذه الصناعة ناصية الأمر فى تسخير قوى الكون - أخذ يعلن معارضته لقيم المعرفة الدينية التى استندت اليها الكنيسة فى بسط نفوذها على الشعوب الأوربية فى القرون الوسطى وبعدها بقليل . وبالتدريج شيئاً فشيئاً قام بنقد هذه القيم ومحاولة تقويضها . وكلما تطور « العلم » الحديث ، وكلما تطورت الصناعة فى شتى جوانبها ، وبالتالى كلما تمكن الإنسان الأوربى عن طريق العلم وطريق تطور الصناعة من الأرض التى يعيش فوقها ، ومن الفضاء الذى يظلله ، ومن البحر الذى يسير فيه ، كلما سعى إلى الحد من قيم التعاليم الدينية فى حياة الإنسان ، إن لم يسع إلى السخرية منها ومحاولة انتقاصها .

ظواهر المجتمع الحديث :

وهنا ظهرت فى المجتمع الأوربى عدة ظواهر تعتبر مقومات المجتمع الحديث :

١ — ظهر القانون الوضعى ، وبرزت معه ملكة الفقه والتشريع .

٢ — ظهر العلم الحديث ، وبرز معه نمو الصناعة وحضارة الآلة .

٣ — ظهرت معارضة القيم الدينية التى تتبناها الكنيسة ، وبرزت مع هذه المعارضة الرغبة فى انتقاص هذه القيم وفى محاولة إضعافها وإبعادها عن مجال الحياة الإنسانية .

والمجتمع الحديث إذن مجتمع انبثق من الصراع مع الكنيسة الكاثوليكية فى أوربا ، ويقوم على القانون الوضعى ، وعلى العلم الطبيعى ، وعلى إبعاد الدين عن مجال توجيه الإنسان .

وإذا قيل : الدين هنا ، فهو المسيحية بفهم الكنيسة الكاثوليكية . والكنيسة الكاثوليكية تحاول أن تستنطق رسالة المسيح عليه السلام بمبدأ التثليث ، ومبدأ الغفران والوساطة ، ومبدأ عصمة البابا فى قوله وفعله ، ومبدأ إنابته عن الله فى الأرض ومباشرته أمر الحكومة الإلهية عليها . والحكومة الإلهية حكومة لا تقبل النقد من البشر ؛ إذ هى منزهة عن الخطأ ،

وعلى جميع رعاياها طاعتها وتقديسها . والتاريخ البشرى لا يعرف حكومة استمدت تعاليمها من رسالة دينية على هـذا النحو ، إلا حكومة « البابا » أو حكومة الكنيسة الكاثوليكية ، تلك الحكومة التى كانت النهضة الأوربية ـ كما أشرنا ـ مظهراً لمعارضة شعوب أوربا لنفوذها وسلطانها .

ويضل كثير من الكاتبين إذا ما حاول أن يقيس حكم الخلفاء المسلمين على الحكم البابوى . فالخلفاء لم يدعوا لأنفسهم ولحكومتهم العصمة لخطة ما ، ولم يدعوا إنابتهم عن الله فى الأرض حتى يكون لقولهم من القداسة ما لكتاب الله ووحيه . رسول الله كان بشرا ، وظل بشرا ، ومات بشرا ؛ « قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » .

« قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشرا رسولا » . وخلفاؤه من بعده أدخل فى البشرية منه . وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ـ وهم الخلفاء الراشدون ـ لم يسلم واحد منهم من النقد ، ولم تسلم حكوماتهم من المعارضة ولم يدع أحد منهم العصمة لنفسه . فأبو بكر يخطب فى الناس عقب بيعته ويقول : « أيها الناس ، فإنى وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » . ولما كانت الردة رأى أبو بكر قتال المرتدين وعارضه كثير من الصحابة ـ أول الأمر ـ وفيهم عمر حتى شرح الله صدورهم لما رآه أبو بكر . وقد وقف عمر ابن الخطاب ـ فى خلافته ـ على المنبر ينهى الناس عن المغالاة فى المهور فقامت امرأة وقالت كيف تنهى عن ذلك وقد قال الله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » ، فقال رضى الله عنه أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ومعارضة كثير من المسلمين لعثمان ولعلى أيام خلافتهما معروفة مشهورة . وما قامت جماعة الخوارج ، وما قامت الشيعة ، وتألفت السنة ، إلا لنصرة رأى فى الحكم ومعارضة رأى فيه .

العلمانية : خداع فى المجتمع الحديث :

المجتمع الحديث إذن مجتمع يتميز بـ « العلمانية » فى التوجيه . والعلمانية فى التوجيه شعار يقصد منه أن الدولة العلمانية تبعد فى سياستها الداخلية والخارجية ، وفى توجيهها للناشئة ـ عن طريق المدرسة والجامعة ، وللرأى العام عن طريق الصحافة والإذاعة والنشر ـ تبعد الدين كما تبعد رجاله عن أن تكون لهم حظوة عند الشعب أو نفوذ عليه .

والمجتمع العلمانى أو الدولة العلمانية ، هو المجتمع أو الدولة التى تدخل فى اعتبارها من أول الأمر تتبع الاتجاهات الدينية وتنحيتها

عن مجال التوجيه ، أو على الأقل تجاهل هذه الاتجاهات وتناسيها .

المجتمع الحديث في أوربا مجتمع مسيحي :

وكان من المنتظر - والمجتمع الحديث وليد الصراع في البيئة الأوربية - أن تكون المجتمعات والدول الأوربية مجتمعات ودولا « علمانية » . ولكن أوربا الحديثة وأوربا المعاصرة ، مجتمعاتها ودولها مجتمعات ودول دينية ، هي مجتمعات ودول أخذت في الاعتبار منذ قيامها وتكوينها حماية الدين والذود عن المسيحية . فانجلترا حامية البروتستنتينية ، وفرنسا حامية الكثلكة بل راعية التبشير بها خارج أوربا كلها ، في آسيا وإفريقيا ، وعلى الأخص في المستعمرات والشعوب الخاضعة لنفوذ هاتين الدولتين .

وليست حماية هاتين الدولتين المسيحية على هذا النحو فحسب . وإنما حمايتهما للمسيحية كما يتمثل في صون العقيدة الكاثوليكية والبروتستنتينية في انجلترا وفرنسا ، وفي التبشير بها في آسيا وإفريقيا - يتمثل أيضا في مطاردة القوى الروحية التي تقف في طريق التبشير بها في آسيا وإفريقيا . يتمثل على وجه أخص في مطاردة الإسلام في هاتين القارتين ، بعدما قامت محاكم التفتيش في إبعاده عن أسبانيا ، وامبراطورية النمسا في دفعه عن حدود فينا إلى بلاد البلقان ، وروسيا القيصرية في دفعه عن القرم ، ثم السياسة الأوربية الشرقية والغربية على السواء في دفعه بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية من بلاد البلقان ، ومن بلاد القوقاز إلى الحدود المتاخمة جنوبا للبلقان والقوقاز .

مطاردة المجتمع الأوربي الحديث للإسلام

ومطاردة حماة المسيحية الكاثوليكية والبروتستنتينية في أوربا ، من الانجليز والفرنسيين للإسلام في آسيا وإفريقيا لا تتجلى في سياسة « الانفصالية » في التعليم بين تعليم مدني وتعليم آخر ديني التي رسمها ونفذها المستشارون الأجانب للتعليم في البلاد الآسيوية والإفريقية ، التي خضعت للنفوذ الانجليزي أو الفرنسي ، من أمثال « المستر » دانلوب في مصر ، وإنما تتجلى هذه المطاردة في قوة وفي وضوح فيما كتبه المستشرقون ضد الإسلام مما سموه بحوثا ومعرفة ادعوا أنها أقيمت على منهج علمي ، ثم صدروه مرة إلى الشرق الإسلامي في صورة كتب وفي صورة علماء وأساتذة ، أو لقنوه في جامعاتهم مرة أخرى لمبعوثين من هذا الشرق الإسلامي أرسلوا بهم إلى هناك ليقفوا على الدراسات الإسلامية ويتعلموا التاريخ والفلسفة الإسلامية . وهم لا يتعلمون إلا من قساوسة امتلأت صدورهم بالحقد الصليبي

على الإسلام ، وملئت عقولهم بالترويج للاستعمار فى بلاد المسلمين .

ورأوا أن إضعاف الإسلام بهذا الطريق أو بذاك لا يفسح الطريق فحسب للانتشار المسيحية فى القارتين الآسيوية والإفريقية ، وإنما سيمكن للنفوذ الأوربى السياسى ، كما سيمكن للاقتصاد الغربى من الاحتفاظ بمستواه أو بمستوى أرفع ، بفضل وفرة الخامات الأولية واليد العاملة فى أراضى هاتين القارتين ووفرة الخدمات البشرية ورخصها فى بلادهما .

وعنى حماة المسيحية فى أوربا بمطاردة الإسلام على وجه أخص فى أراضيه وبلاده فى آسيا وإفريقيا ، لأنهم وجدوه وحده بين أديان هاتين القارتين قوة إيجابية فى الحياة لا يدعو إلى الهرب منها واعتزالها ، وإنما يدعو إلى السيادة فيها ، يدعو المسلم إلى أن يسود على نفسه ليكون قوة فى الأزمة والرخاء على السواء ، ويدعو المجتمع الإسلامى إلى أن يحتفظ بسيادته فلا يتماع فى مجتمع آخر سواه ، ويدعو المسلمين إلى أن يحتفظوا باستقلالهم وبكيانهم ، ويدعوهم إلى أن يكون ولاؤهم لبعضهم دون دخيل عليهم « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » . يحرم عليهم أن ينقلوا ولاءهم لأجنبى عنهم ، دون إخوانهم الآخرين « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » . يدعوهم إلى استئصال بذور الفتنة فى الداخل ، كما يدعوهم إلى الذود عن استقلال مجتمعهم فى مواجهة اعتداء الغير عليهم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ، « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . طلب إليهم إعداد القوة المادية لصون هذا الاستقلال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . وطلب إليهم أن يكونوا باستمرار فى تعبئة روحية ففرض الجهاد عليهم بالإيمان والقلم والعلم ، والدعوة إلى الخير « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله » ، « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » ، « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

لم يكن المجتمع الحديث فى أوربا — وقد خرج من المعارضة للكنيسة وتعاليمها — إذن مجتمعا علمانيا ، بل كان مجتمعا حريصا على الدين ومعنيا به ، إن لم يكن فى اتباع تعاليمه فعلى الأقل فى الارتباط به وفى التكتل

فى مقاومة الإسلام، وبسط نفوذ الاستعمار.

والمجتمع الأوربى فى وقتنا المعاصر الذى عادى المسيحية كدين وبقية الأديان الأخرى ولكن فى الوقت نفسه استعاض عنها بدين آخر جديد من صنع الأرض والإنسان ولم يكن من وحى السماء - هو المجتمع الشيوعى وبالرغم من ذلك فلا يجوز أن نسميه مجتمعا علمانيا ؛ لأنه مجتمع إيمان بدين وكفر بدين آخر . والمجتمع العلمانى فى تحديد مدلوله — من منطقه ، لا من واقع المجتمعات الإنسانية — هو الذى لا يقوم على دين ولا يدعو إلى دين . ينفر من العقيدة ، ويفتش عن التعليل .

المجتمع الحديث لم يبعد فى تشريعاته عن عرف الماضى وتقاليده :

وإذا كان المجتمع الأوربى الحديث ليس مجتمعا علمانيا فهو كذلك فى قانونه وتشريعاته لم يبعد عن العرف والتقاليد التى لماضى مجتمعاته السابقة • إذ لم يزل رجال القضاء فى انجلترا وفرنسا حتى الآن يحافظون — وهم فوق منصة الحكم — على التزيى بزى أسلافهم فى القرون الوسطى ، وقد كان زى رجال الكنيسة فى ذلك الوقت ؛ لأن الكنيسة ، كما أسلفنا ، كانت صاحبة النفوذ والكلمة الأولى فى التوجيه فى تلك العصور.

حافظ المجتمع الأوربى الحديث إذن على الإبقاء على المسيحية والوقوف بجانبها ، رغم ما روجه المفكرون الأوربيون واليهود - من بينهم على وجه أخص - من اتجاه « العلمانية » فى هذا المجتمع . ومفكرو اليهود كان لهم دور كبير فى ترويج هذه « العلمانية » فى توجيه المجتمع الأوروبى ؛ تحقيقا لغاية يهدفون إليها . وهى إضعاف المقومات التى من شأنها أن تبلور المجتمعات الإنسانية من جانب ، والتنفيس عن عدائهم التقليدى للمسيح ورسالته وحوارييه من جانب آخر . فكل حركة ترمى إلى زعزعة الشعوب وإبعادها عن الارتباط بمقوماتها الضرورية نجد وراءها بعض المفكرين اليهود . والحركات التى ترمى إلى رفع الوطنية والقومية من أهداف الشعوب وإحلال « العالمية » أو « الدولية » مكانها تكاد تكون من صنع مفكرى اليهود وحدهم. فالحكومة « العالمية » ، واللغة « العالمية » ، وهى لغة الاسبرانتو ، والشيوعية الدولية تكاد تكون جميعها من وحى مفكرى اليهود وحدهم.

والمجتمع الأوربى الحديث إذا أعلنت فيه بعض المجتمعات الأخذ بتوجيه «العلمانية» وبفكرة « التطور » فى التشريع والقانون - فإن ذلك لا يعدو أن يكون أمراً نظرياً يعلو سطح الحياة الفكرية فى هذه المجتمعات دون أن يمس صميمها وجوهرها . ومن

يصدق إذن أن المجتمع الأوربى الحديث قد « تطور » بمعنى أنه تخلص من ماضى المجتمعات السابقة من عرف وتقاليد وابتعد عن المسيحية فى توجيهه السياسى والثقافى والفكرى ـ فإنه لم يصل بعد فى دراسته لهذه المجتمعات إلى ما يجرى فيها من حقائق وما لها من واقع .

نعم هذه المجتمعات انفصلت عن سلطان الكنيسة إلى حد ما . وكما ذكرنا قد كان للكنيسة سلطان ونفوذ حكومى وتنفيذى . ولكنها لم تنفصل لحظة ما عن القيم المسيحية ولا عن التقاليد والعرف وغير ذلك مما كان للمجتمعات السابقة . وفرق بين الابتعاد عن الدين والانفصال عن سلطان الكنيسة . إذ الابتعاد عن الدين معناه إلغاء اعتباره ، بينما الانفصال عن سلطان الكنيسة معناه عدم الخضوع لرجال الكنيسة فى سياسة الدولة وفى محيطها الداخلى وفى علاقاتها بالدول والشعوب الأخرى .

وحتى الانفصال عن سلطان الكنيسة لم يكن تاما ولا نهائيا من جانب المجتمع الأوربى الحديث . إذ لم يزل للكنيسة سلطان ولم يزل لها نفوذ فى توجيه السياسة الداخلية للمجتمعات الأوربية الحديثة ، ولم يزل لرجال الدين رأى فيما يجرى داخل هذه الدول وفى علاقاتها بغيرها من الشعوب .

والأحزاب السياسية التى نشأت وتنشأ فى هذه المجتمعات الأوربية الحديثة باسم الأحزاب الديموقراطية المسيحية ، على نحو ما هو موجود فى بلجيكا وفى فرنسا ، وفى إيطاليا وفى ألمانيا ـ هى أحزاب تنتمى إلى الكنيسة الكاثوليكية وتتلقى التوجيه منها ، كما تتلقى الأحزاب الشيوعية فى المجتمعات الشرقية والغربية توجيهها من عاصمة الشيوعية وهى موسكو .

وما حصل من اتفاق الكنيسة الكاثوليكية فى روما والسلطات المدنية فى المجتمعات الأوربية على أن تستقل الحكومات الأوربية بالشئون المدنية بينما تختص الكنيسة بالشئون الروحية ـ لا يخلخل من نفوذ الكنيسة فى الجانب المدنى والسياسى إلا بمقدار يسير . وفى واقع الأمر تجرى الحياة الروحية والمدنية على السواء فى كثير من الأحايين تحت تأثير السلطة البابوية فى روما وطبقا لتوجيهاتها وبدافع الحرص على إرضاء تلك السلطة وعدم إزعاجها .

والمجتمعات الأوربية الأخرى ذات الحزب الواحد ـ كالمجتمع الأسبانى الحديث ـ تسير فيه السلطة المدنية بمشاركة الكنيسة الكاثوليكية هناك فى الرأى والتوجيه . وما نقرؤه أحيانا عن زيارة بعض رجال السياسة فى أمريكا أو فى أوربا للفاتيكان له فى واقع الأمر صلة

وثيقة بمجريات الأحداث السياسية فى مجتمعات هؤلاء الرجال ، فزيارة ستيفنسون المرشح الديموقراطى السابق للرياسة فى الولايات المتحدة لها صلة وثيقة بموقف الكنيسة الكاثوليكية هناك من الانتخابات القادمة سنة ١٩٦٠ . ومحاولة بيرون ، دكتاتور الأرجنتين السابق - زيارته للفاتيكان فى هذه الآونة ، يقصد منها التكفير عن ماضيه السياسى الذى كان سببا فى لعنه وإخراجه من الكنيسة ، كى يستعيد نفوذه السياسى من جديد فى بلاده ، وما يرى الآن من اتصال رئيس الحزب الديموقراطى المسيحى فى ألمانيا ، أديناور ، ورئيس الجمهورية الفرنسية ديجول ، ثم زيارة كل منهما لرئيس وزراء إيطاليا ، لا يقصد منه إلا توثيق الروابط بين هذه البلاد الثلاثة ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ، على أساس من إشراف الكنيسة فى الفاتيكان وبوحى منها . رغم أن العداوة التقليديه بين ألمانيا وفرنسا لم يكن من السهل التغاضى عنها فى وقت يسير .

والفاتيكان ليس دولة دينية بمعنى الانعزال عن الحياة السياسية وإنما لها نشاط سياسى توجيهى يقوم على تنفيذه النظام الكنسى فى المجتمعات العديدة ، وتنشره الإذاعة الخاصة به ، كما تنشره الصحيفة الرسمية له . ولدى الفاتيكان تمثيل سياسى لمعظم دول العالم ويعيش فى المحيط السياسى فى الفاتيكان مندوبون يراسلون جميع الصحف العالمية الكبرى ، ومحطة إذاعة الفاتيكان تخصص يوما من أيام الأسبوع لإفريقيا بالخصوص وهو يوم الثلاثاء ، ترسم فيه خطة التبشير كما توضح العقبات القائمة فى طريقه وتضع الوسائل الكفيلة تبذليلها . وبجانب رسم خطة التبشير تعلن تعليقاتها السياسية على الأحداث الدولية .

« البقية فى الجزء القادم »

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

من الشعر الموجه

والأمانى شر ما تمنى به همة المرء إذا المرء اعتزم

الكرامة والعزّة في القرآن الكريم

للأستاذ محمد محمد المدني

١ – الكرامة

١ – القرآن الكريم يقرر مبدأ « الكرامة الإنسانية » ويجعلها حقا من حقوق بنى آدم التى فاض بها الجود الإلهى عليهم ، كما فاض بتقويمهم فى الخلق وتمييزهم بالعقل ، وتسخير كل شىء فى السموات والأرض لهم .

يقول الله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . (٧٠ – الإسراء)

وهذه الآية مؤلفة من أربع جمل :

الجملة الأولى : قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » ، ونستطيع أن نستخلص منها الحقائق الآتية : –

١ – لبنى آدم كرامة ، وهذه الكرامة صادرة من الله تعالى ، فهى حق لهم وَهَبه الخالق ، فليس لمخلوق أن ينكره أو يهدره .

٢ – وهذا الحق مؤكد لا ريب فيه ، حرص القرآن على أن يقرره بعبارة قوية مشتملة على توكيدات ثلاثة هى « اللام » و « قد » والصيغة التى جاء عليها الفعل مؤذنة بتضعيف المعنى وتكثيره .

٣ – ثم هو تكريم شامل مستغرق لجميع أفراد هذا النوع من الخلق ، ولذلك اتخذ لهم فيه أعم عنوان ، وهو كونهم « بنى آدم » فلا تمييز فيه بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين آرى وسامى ، ولا بين شرقى وغربى ، ولا بين ذكر وأنثى ، ولا بين قوى وضعيف ، ولا بين غنى وفقير .

هذا هو مبدأ « الكرامة الإنسانية » تقرره هذه الجملة واضحا حاسما ، أما الجمل الثلاث بعدها فهى تذكر المظاهر الرئيسية لهذا التكريم الإلهى :

فقوله تعالى « وحملناهم فى البر والبحر » فيه تصوير لمظهر العلو ، وأن الإنسان مخدوم محمول حيثما حل ، سخر الله له فى البر ما يحمله ، وسخر له فى البحر ما يحمله .

وقد كانوا قديما يفهمون هذا « الحمل » بمعناه الضيق الذى لم يكن معروفا سواه يومئذ ، وهو الحمل على الحيوانات التى

تركب من الخيل والبغال والحمير والجمال وعلى السفن التى تجرى فى البحر بالشراع والهواء ، أما الآن فإننا نفهم هذا الحمل على المعنى الواسع الذى صارت إليه حياتنا ، وهدانا الله إليه بالعلم ، وهو يشمل الآلات المحركة من قطارات وسيارات وطائرات وسابحات فوق الماء وتحت الماء وغير ذلك مما يشير إليه قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » .

أما قوله تعالى « ورزقناهم من الطيبات » فهو تصوير للمستوى الرفيع الذى عليه الإنسان فى مطعمه ومشربه ومسكنه وملبسه وهو ما يمتاز به على ما سواه من الأجناس الحية .

وقوله تعالى : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » فيه إجمال للمزايا الإنسانية ، والمواهب التى فطر الله عليها هذا النوع ، مواهب العقل والقدرة على متابعة التفكير ، وإدراك الروابط الحسية والمعنوية ، والاستعداد للانتفاع بما فى هذا الكون ، وغير ذلك من ملكات انفرد بها ، أو امتاز فيها ، فكان من أجل هذا مفضلا على غيره من أصناف المخلوقات الحية .

* * *

٢ — وإذا انتقلنا من هذه الآية إلى آيات أخرى ، فإننا نجد القرآن الكريم يقرر فى كثير من مواضعه أن الله جل جلاله قد خلق هذا الكون للإنسان وسخر له ما فيه من قوى . ومكن له فيه ، ويقرر فى بعض المواضع أنه جعله خليفة فى الأرض ، وأنه آثره بهذه الخلافة حتى على الملأ الأعلى من خلقه ، وأمرهم جميعا بأن يعترفوا بهذا الوضع ويخضعوا له .

(ا) فمما جاء فى الأمر الأول قوله تعالى فى سورة النحل :

« والأنعام خلقها . لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى

الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (٥ - ١٦)

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

(٦٦ — ٦٩)

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفسدة ورزقكم من الطيبات . (٧٢)

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

(٧٨ — ٨١)

وفى سورة الفرقان :

« وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشوراً . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيراً » .

(٤٧ — ٤٨)

« وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا » .

(٥٣ — ٥٤)

فنى هذه الآيات وأمثالها تتجلى عناية القرآن بتعداد مظاهر التكريم الإلهى للإنسان فى جانب تسخير ماخلق من الأشياء والحيوان له ، ونراه حريصا على ترديد أسلوب الخطاب للناس حيث يقول « لكم » و « تحمل أثقالكم » و « سخر لكم » و « جعل لكم » إلى غير ذلك من التعبيرات المؤذنة بالتخويل

والتمليك للخاطبين وما كان ذلك إلا لكرامة هذا النوع على الله .

إنى لأقف كثيرا موقف التأمل من هذه الآيات ، وأمثالها فى كتاب الله الكريم فأحس بكرامتى كإنسان ، وأشعر فى أعماق نفسى بهذا الفضل الإلهى العظيم . حيث يعتد الله جل شأنه بهذا النوع الذى أنا واحد منه فيخاطبه ويستجلب عاطفته ويذكره ويناشد عقله ويفتح له آفاق النظر والتدبر ، ويمده بأسباب الاقتناع والتقبل ، تارة فى رحمة واستعطاف ، وتارة فيما يشبه العتاب الهادئ اللطيف ، وتارة فى صورة من التأنيب والحساب العنيف ، وهو فى كل حال لا يؤنسه ولا يقنطه بل يناديه بأنه التواب الرحيم ، « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » ، « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » ، ويصف الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا الخلق الإلهى ، أو هذه الرحمة العظمى فيقول : « والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يفقد ضالته ثم لا يزال يطلبها حتى يجدها فيفرح بها فيقول من شدة فرحته اللهم أنت عبدى وأنا ربك » - أخطأ من شدة الفرح - هذا الوصف العاطفى الجميل ، الذى يدركه من وقف مثل هذا الموقف ، لو كان يوصف به إنسان لكان صورة من صور التلهف والرغبة الشديدة ، ولكنه فى جانب الله ، ولله المثل الأعلى ، يعطينا فكرة سامية عن مدى رحمة الله ، وعن مدى عناية الله بالإنسان ، وعن مدى اعتداده بهذا المخلوق ، وتكريمه لهذا المخلوق !

* * *

(ب) وفى معنى استخلاف الله للإنسان فى الأرض يقول عز وجل فى سورة البقرة :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون » (٣٠) .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٣٤ - ٣٩) .

وفى هذه الآيات بيان لشأن الإنسان من حيث قيمته ووزنه ومركزه فى هذا الكوكب وأن له رجحانا وأفضلية وصفات تجعله أولى من غيره بالخلافة فيه ، وأنه وضع فى مركز المسيطر الذى يجب أن يخضع له ما سواه ، وأنه حتى فى حالة خطئه مكرم بأنه حين يعتذر عنه ويندم عليه ، يقبل عذره ، وتطهره ندامته ويعود له وداد خالقه وإرشاده وهداه .

أليس هذا كله من مظاهر التكريم الإلهى للإنسان ؟ .

* * *

٣ ـ فإذا نظرنا إلى ما كرم الله به الإنسان فى جانب الاعتداد بعقله ، والسمو بمستواه الفكرى ، وجدنا آيات كثيرة فى الكتاب الكريم ترفع من شأن العقل ، وتحث على النظر والتدبر والتفكير ثقة بأن هذا العقل جوهرة صافية من شأنها أن تدرك الواقع ، وتستكشف المجهول من المعلوم ، وتعتبر وتقيس وتستنبط ، وتخترع ، وتجدد ، وعلى الجملة ينظر القرآن إلى العقل على أنه هاد يهدى إلى الخير ، ويحذر من الشر ويدفع إلى الأمام ، ويضىء السبيل لصاحبه إذا استضاء بنوره .

(ا) فمن هذا أن القرآن كثيراً ما يناشد العقول بمثل قوله : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ، « إنما يتذكر أولو الألباب » ، « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ، « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ، « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » « أفلا يعقلون » ، « أفلم تكونوا تعقلون » « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هدى الله ؛ وأولئك هم أولو الألباب » .

(ب) ومن هذا أن القرآن الكريم ينعى على الآخذين بالظنون والأوهام فيقول فيهم « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ، « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

ونراه يبين أن الله تعالى سائل كل ذى عقل وعلم عن اعتقاده الناشىء عن غير علم وعقل ، إذ يقول « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

فالسمع والبصر والفؤاد هى وسائل العلم ومنافذ العقل ، والقرآن يكرمها ويضعها فى موضع الاعتبار والمسئولية ، ولا شك أن المسئولية كرامة وتقدير .

(ج) ومن هذا أن القرآن يعظم شأن الحجة والبرهان ، ويطالب الناس بأن ينزلوا على حكم الدليل والنظر السليم ، وألا يقلدوا غيرهم « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »

« البقية على صفحة ٨٠٦ »

نفحات القرآن

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

من شئون الله فى خلقه أنه يرفع أقواما ويخفض آخرين

(ا) وهو الذى جعلكم خلائف الأرض .
(ب) ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم .
(جـ) إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم .

مقامات ثلاثة:
- الأول : مقام استخـلاف الله لعباده فى أرضه .
- الثانى : مقام التفاوت فى درجات العطاء لابتلاء الناس .
- الثالث : مقام الجزاء على ما كان من صنيعهم .

(ا) استخلف الله عباده فى أرضه ليعمرها بهم ، ويعمروها بجهودهم ، وقد هيأ لهم أسباب العمل ، بما أوجد فيها من وسائل ، وأودع فيها وفى الكون كله من مؤهلات ، وجعل كل ما تحمله الأرض ، أو يجول فى الفضاء ، أو يبدو فى السماء مسخرا لمنفعة الإنسان ، وتوفير متاعه فى دنياه ـ سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ـ خلق لكم ما فى الأرض جميعا .

ثم طلب من عباده أن يعملوا ، بصيغة الإطلاق فى العمل ، دون أن يقصرهم على عمل خاص بالدين ، أو بالدنيا ، بل هو عمل إيجابى يشهد لهم به الله ، ورسوله ، والمؤمنون منهم ، ويقدره الله لهم فى حسابه ، ويقدره الرسول فى شهادته ، ويقدره المؤمنون فى الاعتراف به وإعطاء العاملين حظهم من الإجلال والثناء ، فيكون لهم من السؤدد ما ليس لذوى البطالة « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ، ورسوله والمؤمنون » .

وتلك قضية مفروغ منها . . وإنما نذكرها لأنها فى مطلع الآية التى معنا ، ولتذكير القراء بأن الإسلام ينظر إلى الناس على أنهم سواسية كأسنان المشط ، وأنه يعتبرهم جميعا أمة دعوة إلى الأخذ به ، والإيمان بالله ، وبكل ما جاء على لسان رسوله الخاتم .

ولهذا الاعتبار يخاطبهم كثيرا بنداء

سواء - يأيها الناس . . يا بنى آدم . . يا عبادى - وبمثل هـذه الدعوات يلقنهم مبدأ المساواة ، ويوقظ وعيهم إلى أنهم من أصل واحد وأن بينهم من وشائج القربى والنسب ما يكبح الأنانية أن تستبد ببعضهم على بعض ، ويذودهم عن التأثر بالعصبيات القبلية ، وعن المنازعات الإقليمية ، أو الطائفية .

وقد بادر الإسلام فأنكر على أهله ما كان فى العرب من شموخ بالأنساب ، ومن التراشق بالأهاجى والتنابذ بالألقاب .

لما فى هذا كله من تشاغل باللغو ، وتعرض للتقاطع وقعود عن العمل والتجديد فى الحياة ، وتلك رسالتهم فى دنياهم .

وأبدلهم الإسلام من ذلك الماضى المضطرب توجيها إلى المؤاخاة ، وغرس فى أذهانهم أن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، وأنه لا فضل لعربى على غيره إلا بالتقوى والعمل ، ففى هذين سلم المجد لمن شاء الظفر بالمجد الصحيح .

وبهذه التوجيهات أدرك الفاقهون من الناس قديما أن التطاول مذموم ، وأن السيادة بين متبوع وتابع لم تعد مستساغة فى الحياة الإسلامية المشرقة بالتعاليم .

بل أصبحت بينهم مساواة رسمها الدين ، وكفلتها عدالته ، وهى تتمثل فى قضائه ، وفى سلطان حكامه ، وسياسة ولاته الحارسين لحدود الله ، ولحقوق الناس أن يعبث بها عابث .

وهذه أصول مجملة : تراها مبثوثة فى إطار واسع للنهج الصحيح الذى قامت عليه حياة مثالية سعدت بها الجماعة الإسلامية حينا من الزمن وكانت تسعد بها الدنيا جميعا لو قدر للناس ألا يحيدوا ، وأن يستجيبوا لأمر ربهم ، ويجنحوا إلى الإخاء والتراحم لا إلى المغالبة والتنازع .

(ب) ومع هذه المساواة التى يشيد بها الدين ويوصينا أن نتخذها طابعا لحياتنا لم يغفل القرآن جانبا آخر قد يتعارض مع هذا بتأثير النوازع المتباينة ، وما ينساق الناس إليه من مفاخرة يغريهم بها غرور ، ومن تعلق بحب الأرجحية ، ولو بسبب باطل أو تافه .

ذلك : هو جانب الاعتزاز بحظ فى المال أو كثرة العشيرة وقوتها أو بنصيب فى الجاه والسلطان ، أو بموهبة كريمة تتعلق بها الرغبات : كالعلم ، والذكاء ، والجمال ، وسوى هذا مما تتفاوت فيه الحظوظ المقسومة .

فقد يفطن الناس بأفهامهم إلى ما بينهم من مساواة فى الأوضاع والحقوق التى كفلها التشريع الإسلامى كالحرية والتعامل وبساط العدالة الاجتماعية ... ولكنهم ينحرفون عن هذه المساواة حينما يزهيهم الحظ الموفور

فى شىء من أعراض الدنيا ، أو فى موهبة شخصيـة .

وقديما كان فى الناس من فتنه حظه فى المال ـ مثلا ـ حتى نسى أن لله فضلا عليه ، وقرر أنه جـدير بهذا وفاخر وقال ـ « إنمـا أوتيته على علم عندى » .

وكان فيهم من « دخل جنته وهو ظالم لنفسه فقال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ... ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا » .

فهذا لم يقف به غروره عند حدود دنياه بل زعم نفسه حريا بخير من ذلك إذا صح أنه سيموت ويرجع إلى ربه .

ولم تزل هـــذه النزعة الجامحة موروثة فى المجموع الإنسانى، ولم تزل بحاجـة إلى علاج وكان علاجها فى آيات : منها آية الموضوع ، « ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » فالتعرض لرفع بعض الدرجات على بعض ، يقصد منه « والله الأعلم » أولا : التنويه على أن الله هو الذى أعطى ، وفاضل فى العطاء ، وبذلك ينتزع من الأنفس غرورها بأن لهـا فضلا خاصا عند الله يميزها عن سواها ، إذ الأنفس كلها متساوية فى الإنسانية وفى العلائق الاجتماعية ، وفى اعتبارهم عند الله عبادا ، وإخوة ، لا يرجح بعضهم على بعض إلا من ناحيـة عمله ، وكسبه للخير ، ونفعه للمجتمع : لا من ناحيـــة حظه فى المـال أو نحوه .

ويقصد ثانيا : من ذكر التفاضل فى الدرجات ، كما صرحت الآية ـ أن العطاء والتفاوت فيه ، لتمكين الناس أن يعملوا ، واختبـارهم فى نظرتهم إلى النعمـة التى أتيحت لهم :

هل هى فى اعتبارهم حق مفروض لهم على الله كما زعم أولئك المستـكبرون قديما ؟ أوهى فضل يقتضيهم الشكر ، وأن يقدروا النعمة قدرها فيحسنوا التصرف فيها ، والانتفاع والنفع بها لأنفسهم ولغيرهم ؟؟.

تقصد الآية ـ والله الأعلم ـ هذين الغرضين وفى إدراك مقصدها كف للأنفس عن الفتنة بالنعمة ، وعن تجاهل الحكمة الصحيحة فى تفاوت الحظوظ الدنيوية ، بين الأفراد أو الجماعات ، فهى فوارق تتناسق بها الحياة بين البشر جميعا ، لتكون ميدانا للتسابق فى العمل بقـدر ما تهيأ لـكل منا ، من تلك النعم التى هى وسائل العمل .

وليـكون التفاضل نفسه جامعا بين الصفوف لا مفرقا بين الأنفس ، وباعثا على الشموخ إذ التفاضل هو الذى يجعل الحوائج متبادلة والجهود متكافلة ، والآمال متعاونة .

فالقوى بماله يحتاج إلى القوى بعضـله ، والموهوب فى ذكائه أو علمه بحاجـة إلى من

يؤازره فى إبراز مواهبه . ومن هذا التفاوت فى الحظوظ ، وفى الجهود ، والإنتاج يكون الحظ من ثواب الله أو عقابه

فذلك هو التفاوت فى أدوات السعى فى الحياة ، ويقابله تناقص الحظ عند المحرومين وكلاهما مقدمة الحكم على ما صنع الناس من عمل يرضاه الله ويشكره ، أويسخطه ويعاقب عليه ؟ . والله يقول فى الحض على الإمعان فى حكمته : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » .

وهناك آية تعزز هذه فى ذكر الحظوظ وحكمة التفاضل فيها ... غير أن الحكمة هنا هى ابتلاء الناس والحكمة فى تلك الآية هى حاجة الناس إلى التعاون .

وهى قوله تعالى ـ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ـ يعنى ليستخدم كل امرئ غيره بحكم تنوع المهن ، وتباين الأوضاع ، وتكافل الخلق فيما تكمل به حياتهم ، فكل يد بحاجة إلى تبادل النفع مع الأخرى ، ومهما يكن لإنسان من مال أو جاه فهو بحاجة قصوى إلى غيره فى عمله ، وإن يكن من أهون الطبقات .

وما يمكن عقلا أن يستقيم الأمر وتستقر أوضاع الحياة لوفرضنا الناس جميعاً فى ميزان متساو من كل ناحية ، والتساوى غير معقول فى ذاته ، فإنه لا يتضح ، ولا يتضح التفاوت إلا بالقياس بين الأشياء .

فما ينبغى إزاء وضوح الحكمة فى تفاوت الحظوظ أن يتعاظم إنسان على إنسان ، وأن يتخذ من فضل الله عليه وسيلة إلى إغفال ما فرض الله عليه .

وقد وضح كثيراً أن لكل إنسان حقا على غيره فيما وهبه الله ، وفى حدود مرسومة فكاتم العلم ملعون عند الله ، وإن العلم هبة تضىء للناس مسالك الحياة ، فعلى ذى العلم أن يبذله لينتفع به الناس فى ناحيته الخاصة به ، وليس له أن يؤذى بعلمه فإن الإيذاء به شر من كتمانه .

وعلى القوى ببدنه أن يعمل وأن يجعل لهذه النعمة أثرا إيجابيا فى دفع المعتدى على وطنه ، أو الباغى على ضعيف ، أو المتحكم فى سواه دون وجه من الحق .

وعلى ذى السلطة فى عمله أن يقسط ، ويتحرى . ويتقى : فإن السلطة محدودة بأيامها الموقوتة ، وهى إلى تقلص مهما اتسعت ، أو ضاقت جوانبها .

وما يكون الغرور بالسلطة إلا لونا من الحمق ، ونزعة من السفه ، وصاحب السلطة فى شأن شئون الناس كالمتحلى بثوب من غيره ، فهو خالعه حتما لصاحبه : إن قريباً أو بعيداً .

وربما كانت صولة النفوذ ، وأبهة السلطة

فى أبهج مناظرها وساعة شبابها كاشفة للناس عن عورات لا يعيها المتجمل ببهرجها .

فمن الحق على كل ذى نصيب من سلطان بين الناس أن يؤمن بأنه كمن يلبس ثوباً مستعاراً ، يتراءى به بين الناس :

ثوب الرياء يشف عما تحته

فإذا التحفت به فإنك عار

وكذا صاحب المال ، والإحسان بالمال فى غير حاجة إلى الحديث عنه ، فقد أخذ حظه من عناية القرآن به ، مما جعله بديهيا فى الأفهام .. حتى ليغلب على بعض الأذهان عند ذكر الإحسان أنه لا يتجاوز المال ، والإحسان بالمال لم يقف عند إيجاب الزكاة والنص على أنها حق يملكه الفقير فى أموال الأغنياء بل توسع الأمر به ، حتى طالب ببذله تطوعا ، وحث عليه كثيراً من الفاضل عن حوائج الإنسان - ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو -

بل فرض الإسلام فى أهله أن منهم الخير الذى لا يقف عند الزكاة الواجبة ، ولا عند الصدقة المستحبة من العفو ، بل يكون محتاجا لما بيده ، ثم يؤثر على نفسه من يكون أشد منه حاجة ، فامتدح من كان كذلك ، ليستنهض من يكون على غرارهم - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وتلك النعم - التى يتفاوت فيها الحظ ، والتى قصد منها ما أوجزناه من التمتع بها ، ومن امتحان الناس فيما يصنعون بها ، وفيما يتعلق بها من ربط الناس ببعضهم فى مجال الحياة والرجوع بنتائجها إلى الله - لا ينبغى أن تتأثر بزهادة أو تواضع : مما يخلع عليه بعض الناس اسم التصوف ، أو القناعة ، فإن شيئاً من ذلك التدين أو التعفف لا يتعارض مطلقاً مع النشاط فى الاستثمار والتحول مع الرضا بما قسم وقدر لتلك الجهود من نجاح أو غيره .

وإذا كانت الفطرة لم تترك الناس يقعدون عن طلب الرزق ، ويعتمدون على ما تمطرهم السماء من فضة أو ذهب ، أو المن والسلوى ، فقد جاء الإسلام معززاً لتلك الفطرة فى تطلعها إلى السعى ، وفاتحا أمامها مغاليق السبل ، وآفاق الفكر فى جنبات الكون وإبراز ما انطوت عليه أسرار الطبيعة .

وجاء الإسلام بتكليفه الحثيث أن ننظر ، ونجتهد ونستنبط ونتنج ، ولم يجئ بطلب الزهادة إلا بمقدار ما يكفنا عن الشره ، وعن مطاوعة الهوى فى ملاعب الدنيا .

فإنه يمتن علينا بما أنعم ، وبما نجد من نعماء جديدة ، لا بما نزهد ونحرم - « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » - « أولم

ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شئ » ـ .

« كلوا من طيبات ما رزقناكم ـ خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ـ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ـ » .

فالعمل مطلوب ، حتى إن الإسلام ليعتبر العمل للدنيا خير مرغوب فيه ، ومثاب عليه ما دام فى حدود الجواز وبذلك يكون اجتهاد الناس حصانة للمجتمع الإسلامى من مظهر الفقر والمذلة فإن الله عزيز ، ولم يرض إلا العزة لرسوله وللمؤمنين ، فهى عزة بالخلق ، وبالتضامن . وبالعمل ولأن يحتطب المرء بالحبل على ظهره ، ثم يبيع ما جمع من حطب فيستغنى به عن الناس أحب إلى الله من متعبد يقعد عن السعى فى رزقه وهو يعتمد على معونة الناس .

ولقد أعجب النبى ـ صلوات الله عليه ـ ببيت قاله عنترة وقال : هذا أكرم بيت قالته العرب :

ولقد أبيت على الطوى ـ الجوع ـ وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

(ح) وإزاء ما عرفنا من رسالة الناس فى دنياهم ـ دينا ، وعملا ـ وما عرفنا من تفاضلهم فى العطاء ليجنح بعضهم إلى بعض، ويتعاون بعضهم مع بعض : يكون واضحاً أن الأمر ليس فرطا ، ولا متروكا على مواهبه ، بل من وراء ذلك محاسبة ، ومجازاة « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » وإذا كانت المحاسبة والمجازاة لإحلال كل منهم فى مقعده المستحسن له بعد جهاده فى الدنيا ، وتحقيقا لوعد الله ووعيده من العدل بين خلقه ، وأنه يوفيهم أجورهم على عملهم أو تكاسلهم فإن التذكير بأن هناك جزاء ولا محالة : يعتبر ـ كما قلنا فى كلام سابق ـ عدالة معنا فى تنبيهنا فوراً ، وقبل فوات الفرصة إلى ما يجب أن نحتاط به ، حتى لا تكون لنا معذرة عند الله ، وهذا التنبيه فى نفسه استنهاض إلى التنافس ، والمسابقة لمن أراد السبق فاجتماع هاتيك المقاصد فى قوله تعالى ـ « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » ـ يشبه عناصر الدواء الناجع : تتألف من صفوف ثم يكون مجموعها دواءا واحدا ففى ذكر الجزاء تنبيه على أن الأمر جد لا هزل فيه ، وتنبيه على أن عدل الله يأبى التسوية بين العامل والمتقاعد ، وتنبيه على انتهاء الفرصة قبل إفلاتها واستنهاض إلى المسابقة فإن هناك درجات يطمع فيها أولو العزم من الناس وهناك حياة خالدة على ما استقرت عليه درجة الإنسان فى أخراه .

* * *

وانصراف الناس عن ذكر الجزاء ليس معناه أن التناسى له يبعده عنهم ، أو يفلتهم منه وليس تخلف الجزاء إلى معناه صرفه عنهم ، أو إرجاؤه إلى نسمة من الوقت بل الجزاء متوقع فى كل حين ، والمفاجأة به ، ليست مأمونة . . وشىء منه يصيب الناس فى دنياهم وإن لم يلحظه الكثير منهم ... وشىء منه وهو الأشد له وقت محدود فى علم الله وبهذا يكون العقاب المتوقع سريعا وإن طالت المهلة ، فإنها مقضية ولا ريب ، .

وبعد هذا البيان كله يظل باب التوبة مفتوحا ، والأمل فى عفو الله مرجوا ، وهذا ما انتهت به الآيات البينة ـ « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » ـ .

ومهما يكن من ذكر وتذكير فإن رجاءنا إلى الله أن يجعلنا موفقين لما أراد . ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء
وأستاذ فى كلية الشريعة

(بقية المنشور على صفحة ٧٩٩)

« قل فلله الحجة البالغة » ، « إن عندكم من سلطان بهذا » ، « فأتونا بسلطان مبين » ، « لولا يأتون عليهم بسلطان بين » ، « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » .

(د) ويصل أمر القرآن الكريم فى الاعتداد بالبرهان العقلى إلى أن يقول فى شأن العقيدة الأولى ، عقيدة التوحيد « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » فمن المعلوم أنه لا برهان أبدا على الشرك ولكن القرآن مع هذا يفرض المستحيل ، ويخرج القضية فى هذه الصورة التى تكرم شأن البرهان العقلى وتصوره هو الحكم وهو الفيصل « فمن كان له برهان حتى فى هذا الشأن الخطير ينافى ما عليه الواقع ، فإنه يكون معذوراً ، وبديهى أن هذا فى الحقيقة مستحيل ، ولكن القرآن يفرضه احتراما للعقل وتكريما له وثقة بحكمه ، وفى ذلك اعتداد أى اعتداد بالعقل الإنسانى ، وبالتالى بالإنسان نفسه ؟

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة

مُثُل عُليا إسلامية عربية

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

— ٣ —

الشجاعة :

كان العرب فى جاهليتهم وإسلامهم مضرب المثل حقا فى الشجاعة ؛ إذ كانت من غرائزهم الفطرية وسجاياهم الطبيعية ، ومن أخلاقهم التى عرفوا بها فى قديم الزمن وحديثه . فكانوا يتهافتون إلى الحرب والقتال ، أفراداً وجماعات، إذا دعا الداعى لحماية العرض والمال والدفاع عن الجار والشرف ، ويجدون فى ذلك الحياة العزيزة المجيدة الكريمة .

وكانوا يتمدحون بالموت تحت ظلال السيوف ، أو طعنا بالرماح ؛ كما يتهاجون بالموت على الفراش ، ويقولون فيمن يموت كذلك : فلان مات حتف أنفه . وفى هذا يقول بعضهم حين بلغه موت أخيه : إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه ؛ والله إنا لا نموت حتفا ، ولكن قطعاً بأطراف الرماح وتحت ظلال السيوف كما يقول أحد شعرائهم فى الجاهليه :

وما مات منا سيد حتف أنفه
ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباة نفوسنا
وليس على غير الظباة تسيل

وربما كانت القبيلة منهم — لتأصل هذا الخلق القوى فى نفوسهم ، وغلبته على طباعهم — تندفع إلى القتال دون تعرف السبب الذى أهاجهم ، وتبيَّن إن كان حريا بالحرب وما فيها من أخطار ، وفى هذا يقول قائلهم :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم
للنائبات على ما قال برهانا

إن الحياة لا قيمة لها عندهم إذا كانت حياة فيها شىء من الذلة ، وإن للمرء أجلا لا يعدوه متى جاء حينه سواء كان قتلا أو على فراش ناعم وثير ، وإن الإقدام على المكروه قد يكون سبب الحياة الماجدة ؛ ومن ثم كانوا — وما يزالون — سريعى الإقدام على المكاره متى وجب الأمر فى رأيهم .

وفى هذا يقول أحدهم ، وهو عنترة أحد فوارسهم الشجعان المشاهير :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنيـة منهل
لابد أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك ، لا أبالك ، واعلمي
أني امرؤ سـأموت إن لم أقتل

كما يقول الحصين بن الحمام المرى :

ولما رأيت الود ليس بنافعي
عمدت إلى الأمر الذي كان أحزما
فلست بمبتاع الحيــاة بذلة
ولا مرتق من خشية الموت سلما
تأخرت، أستبقي الحيـاة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

ويقول المتنبي في هذا المعنى أيضاً :

عش عزيزاً ، أو مت وأنت كريم
بين ظل القنا وخفق البنود

ويقول آخر ، وهو قيس بن الخطيم ، معبراً عن الإقدام في الحرب :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها
خطانا إلى أعدائنا فنضارب

هذا ، وقد سجل شعر العرب وتاريخهم المجيد مآثر في الشجاعة لا نجد مايدانيها عنـد غيرهم من الأمم الأخرى ، ولهم في ذلك « أيام » معروفة في كتب التاريخ والأدب لا نرى حاجة إلى ذكر بعضها في هذه الكلمة ، إلا أننا مع هذا نشير إلى يوم أغر من تلك الأيام ، وهو « يوم ذي قار » الذي انتصر فيـه العرب على الفرس لأول مرة في التاريخ .

وكان من خبره ، كما يذكر ابن الأثير المؤرخ المعروف في كتابه الكامل ، أن كسرى غضب على النعمان بن المنذر واليه على الحيرة ، وأرسل إليه يستدعيه إلى حضرته بالمدائن عاصمة ملكه ، فعرف النعمان الشر في ذلك ، ولكنه ذهب إليه فحبسه حتى مات .

وكان النعمان قد أودع ، قبل توجهـه إلى كسرى ، أهله وسلاحه وما قدر عليه من ماله لدى هانئ بن مسعود الشيباني وهو رئيس بيته وسيد من سادات العرب ، فأمره كسرى أن يسلم هـذه الودائع والأمانات إلى واليه الجديد على الحيرة ، فامتنع هانئ من ذلك مدفوعا بما هو معروف عند العرب من الحمية والأنفة .

فأمر ملك الفرس عامله بحرب هانئ ومن معه ، وكان أن التقى الجمعان : جيش الفرس وجيش العرب « بذي قار » . وحينئذ أدرك هانئ أنه لا طاقة للعرب بحرب كسرى وجيوشه ، فأشار على من معه بالتفرق في الصحراء طلبا للنجاة قبل أن يخوضوا معركة لا عهد لهم بمثلها ، ولا قبل لهم بها ولا طاقة .

ولكن رجلا معه ، وهو حنظلة بن ثعلبة العجلي ، وثب إليه وقال له : يا هانئ !

أردت نجاتنا فألقيتنا فى الهلكة ! وما كان إلا أن رد الناس إلى مواقعهم ، وقطع أحزمة الهوادج ، وضرب على نفسه قبة ، وأقسم ألا يفر حتى تفر القبة .

فزاد صنيعه الناس شجاعة ، ثم التقى الفريقان فى معركة هائلة ، فكان أن كتب الله النصر للعرب على العجم ، وذلك بفضل شجاعتهم واستبسالهم وإقدامهم على الموت وهم ينظرون .

وعندئذ عرف العجم أن للعرب أحسابا ومثلا عليا يدافعون عنها ، وأن لهم قومية فى طور النمو والظهور متى جدت أسبابها ، وأن لهم يوما له ما بعده .

وفى هذه الموقعة يذكر ابن الأثير أن النبى صلى الله عليه وسلم لما عرف بما كان من انتصار العرب نصراً مؤزراً ، قال : « هذا أول يوم انتصفت العرب من العجم ، وبى نصروا » . وصدق الرسول الذى لا ينطق عن الهوى ، وكان بعد ذلك أن توالى نصر العرب والمسلمين حتى أزال الله على أيديهم دولة الفرس ودولة الرومان ، والنصر بيد الله العزيز الحكيم يؤتيه من يراهم أهلا له .

* * *

وقد زاد الإسلام حين أشرق نوره على العرب هذا الخلق الأصيل فيهم قوة وذلك إذ جعل للقتال والإقدام على المكاره غاية هى أشرف الغايات ، وهى الجهاد فى سبيل الحق وإعلاء كلمة الله ودينه ، كما جعل لمن يقتل فى هذه السبيل شرف أن يكون شهيدا له عند الله الدرجات العلى فى الدار الآخرة ، فضلا عما يناله من المجد وحسن الذكر فى الدار الدنيا .

ها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر فى بعض أحاديثه أن من قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد . كما يذكر فى حديث آخر : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » . ويقول الله تعالى : فى القرآن : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

ومن ثم أتى العرب والمسلمون فى هذه الناحية بالعجب العُجاب ، فقد أزالوا من الوجود دولة الأكاسرة والقياصرة من الوجود ، على ما كان لهم من القوة والمنعة وشدة البأس فى الحروب ، وعلى ما كان لهم من شديد السلطان على العرب وغير العرب قبل الإسلام .

وكان الواحد منهم يقدم على الخطر غير هياب ولا وجل لا يبالى أمات أم عاد حيا . يروى ابن قتيبة فى عيون الأخبار : أن عمر ابن الخطاب بعث الأحنف بن قيس على جيش

إلى خراسان ، فبيتهم العدو ليلا وفرقوا جيوشهم ، وأقبلوا معهم الطبل ففزع الناس منه ، فتقلد الأحنف سيفه ثم مضى نحو الصوت وهو يقول :

إن على كل رئيس حقا
أن يخضب الصعدة أو تندقا

ثم حمل على صاحب الطبل فقتله ، وكان ذلك سبب هزيمة العدو بعد أن فقدوا الصوت ، ثم حمل على الكتيبة الأخرى ففعل مثل ذلك وحده ، ثم جاء الناس وقد انهزم العدو بأجمعه هزيمة منكرة فاتبعوهم يقتلونهم فى كل ناحية ، ثم مضوا حتى فتحوا مدينة « قرو الروذ » .

كما كان الواحد منهم يستبسل فى القتال ويعرض نفسه للموت ، لا يبغى جزاء ولا شكوراً إلا من الله وحده ، بل لا يبغى أن يعرف اسمه فيذكر بالحمد والثناء .

يذكر صاحب عيون الأخبار أيضا أن « مسلمة » حاصر حصنا فندب الناس إلى نقب منه ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله معرضا نفسه للموت ففتحه الله عليهم ، فنادى مسلمة : أين صاحب النقب فما جاء أحد ، فنادى : إنى قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتى فعزمت عليه إلا جاء .

فجاء رجل ودخل عليه وقال له : إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثا ، ألا تكتبوا اسمه فى صحيفة إلى الخليفة ، ولا تأمروا له بشىء ولا تسالوه من هو . قال مسلمة : فذاك له ، قال : أنا هو . فكان مسلمة لا يصلى بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب ! .

كما كانوا يستشرفون للموت قتلا ويتمدحون بذلك ؛ هذا سيف الله خالد بن الوليد يقول لقد لقيت كذا وكذا زحفا وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه طعنة أو ضربة أو رمية ، ثم ها أنا أموت على فراشى حتف أنفى (وفى رواية أخرى : ثم ها أنا ذا أموت حتف نفسى كما يموت العير) فلا نامت أعين الجبناء.

هكذا كانت شجاعة العرب والمسلمين مثلا فى التاريخ ، وهى ما تزال كذلك حتى اليوم لأن ما بالطبع لا يتغير كما يقال بحق ، ويكفى أن نشير إلى معركة « بورسعيد» التى انتصرنا فيها على الدول الثلاث العاتية ، وذلك بفضل الإيمان بالله وبحق الوطن ، وبفضل الشجاعة التى صارت مضرب الأمثال .

٨ - الكرم والإيثار :

وكذلك الأمر فى الجود والكرم فى الجاهلية والإسلام حتى اليوم ، فالكرم من الأخلاق التى تأصلت فى نفوسهم ، وتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ، وربما نزل الضيف بأحدهم ولا مال له إلا ناقة واحدة هى قوام حياته وحياة ولده ، فلا يتردد فى ذبحها لضيفه

خشية أن ينال شيء من مروءته وعرضه ، وقديما قال قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو
ما سوف يحمد أو يلوم

هــذا حاتم الطائى الذى ضربت بجوده الأمثال ، وكان به كما يقول صاحب الأمالى : مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا أسر أطلق ، كما كان إذا أهل رجب ، وهو شهر كانت العرب تعظمه فى الجاهلية ، نحر كل يوم عشرا من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه .

وقد عرف بالكرم منذ صغره ، فكان يخرج طعامه فإذا وجد أحدا أكل معه ، وإن لم يجد أحدا طرحه ، وكذلك كان يفعل حين ألحقه أبوه بالإبل ، فكان يبغى الناس حيث هو معها فى المرعى فلا يجد أحداً ، فيأتى الطريق عساه يجد من يكرمه إلى أقصى الغاية .

ووجد ذات يوم ركباً سائرين فى الطريق فأتاهم فقالوا له : يا فتى ! هل عندك من قرى ؟ فقال : تسألونى عن القرى وقد رأيتم الإبل انزلوا ، فنزلوا وكانوا ثلاثة ، فنحر لهم ثلاثة من الإبل .

فقال أحدهم له : إنما أردنا اللبن وكانت تكفينا بكرة إذ كنت لا بد متكلفا لنا ، فقال له حاتم : قد عرفت ، ولكنى رأيت وجوها مختلفة وألوانا متفرقة ، فعلمت أن البلدان غير واحدة ، فأحببت أن يبقى لى منكم فى كل بلد ذكر ، فقالوا فيه شعراً يمتدحونه ويذكرون فضله .

فقال لهم : إنما أردت أن أحسن إليكم ؛ فصار لكم على الفضل ، وأخيراً وهب لهم الإبل كلها فأصاب كل منهم تسعة وثلاثين بعيراً ، ومضوا على سفرهم ، ولما سأله أبوه عن الإبل قال له : يا أبت ! قد طوقتك طوق الحمامة مجدا وذكرا ، لا يزال رجل يحمل لنا بيت شعر أبداً بإبلك .

وهــذا رجل آخر ، وهو سالم ابن قحطان ، يجيئه رجل يستمنحه ، فيعطيه بعيرا ويطلب من امرأته حبلا يربطه به ببعيره الذى جاء عليه ، ثم يعطيه ثانيا وثالثا وفى كل مرة يطلب حبلا من امرأته حتى لم تجد حبلا ، فقال لها هذه الكلمة التى ذهبت مثلا : علىَّ الجمال وعليك الحبال ! فرمت إليه خمارها ليجعله حبلا لبعضها ، فقال :

لا تعذلينى فى العطاء ، ويسرى
لكل بعير جاء طالبه حبــلا
فلم أر مثل الإبل مالا لمقتن
ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

وقد زاد الإسلام هذا الخلق العظيم قوة ، ولذلك بحثه على إكرام الضيف وإعانة المحتاج ، ووعده على هذا بالخير الكثير

فى الدنيا والآخرة ، وهذا إلى أصالة هذا الخلق فى نفوس العرب كما هو معروف ، فكان من ذلك مثل رائعة فى الكرم والإيثار .

يذكر ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى اللغة والأدب » أن الأحنف بن قيس قال : كثرت على الديات فلم أجدها فى حاضرة تميم فخرجت نحو « تبرين » فسألت عن المقصود هناك ، فأرشدت إلى قبة فإذا شيخ جالس بفنائها مؤتزر بشملة محتب بحبل .

فسلمت عليه وانتسبت له ، ... ثم ذكرت له الديات التى لزمتنا للأزد وربيعة ، فقال لى : أقم ، فإذا راع قد أراح ألف بعير ، فقال : خذها ، ثم أراح عليه آخر مثلها فقال : خذها ، فقلت : لا أحتاج إليها ؛ فانصرفت بالألف عنه ، والله ما أدرى من هو إلى الساعة ! .

وفى صحيح الإمام مسلم أن رجلا نزل برسول الله وشكا إليه ما به من جهد ، فأرسل إلى أمهات المؤمنين فلم يجد عندهن شيئاً يقدمه له ، فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة وأخذه إلى رحله وطلب من امرأته إكرامه فأخبرته أنه ليس عندها إلا قوت الصبيان .

فطلب منها أن تعلل الصبية حتى يناموا ، وأن تطفئ السراج وتقرب للضيف ما عندها ، وهكذا أكل الضيف ما كان عندهم كله ، وباتا طاوِيَيْن وكذلك الصبيان . فلما أصبح غداً على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : « قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة » ! وفى هذا نزل قوله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

ونكتفى بهذا القدر ، وفى الكلمة الآتية نتناول مثلا رائعة أخرى ، ومن الله العون والتوفيق ؟

محمد يوسف موسى

الثناء بعد البلاء

قال الأحنف لزياد حين قدم البصرة وخطب خطبته المشهورة : أصلح الله الأمير ! إن الجواد بشده ، وإن السيف بحده ، وإن المرء بجده ، وإن جدك قد بلغ بك ما ترى . وإن الثناء بعد البلاء . ولسنا نثنى عليك حتى نبتليك ، فأول خيراً نثن به ... !

الشّريعة والنّاس

للأستاذ محمود الشرقاوى

دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله : كلمة من كلمات السيد المسيح اتخذها قوم شعاراً يرمزون به إلى مبدإ عرف فى ترجمته العربية المتداولة باسم : « فصل الدين عن الدولة » وكلمة السيد المسيح عند ما يتخذها بعض القوم شعارا ورمزا لمبدئهم هذا ، هى كلمة يصـــدق عليها المثل القديم : « حق يراد به باطل » .

قال السيد المسيح كلمته تلك ليرد كيد خصومه من اليهود عندما تقدموا إليه يسألونه عن تلك الصورة التى يجدونها منقوشة على « الدينار » الرومانى . وكانوا يتمنون لو أنه ثار به الغضب فقال كلمة سوء عن صاحب هذه الصورة المنقوشة : قيصر الإمبراطور، فيحاسب المسيح على كلمته تلك ويلقى جزاءه بسقطة لسانه .

ولكن الله ألهم نبيه المسيح أن يرد عليهم كيدهم بكلمته تلك التى يريد بها أنه لا شأن له بسلطان الدولة والتعرض لسطوة الحاكم . فإنما أرسله الله « لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة » كما جاء فى الإنجيل ، فلتكن دعوته لله وليترك ما لقيصر لقيصر .

وقد بدأنا نسمع ونقرأ هذا الشعار يردده ويكتبه قوم فى الآونة الأخيرة وهم يعلمون كما نعلم أن الجمهورية العربية المتحدة تفكر أو تعمل على تعديل قانون الأحوال الشخصية وللشريعة فى هذا القانون شأن ورأى يجب أن يكون هو الشأن الأول والرأى المقدم .

وقد رأينا مسلما من رجال الثقافة والقانون يرفع راية هذا الشعار علنا فى صحيفة كبرى فيطلب من الدولة أن تعتبر تشريع الزواج والطلاق من المسائل التى لا صلة لها بالدين[1] ورأينا من يناصره ويجهر بمثل ما يجهر .

ولا بأس فى أن نقول كلمة فى هذه الدعوة قبل أن نسوق ما يبطلها ويفندها .

* * *

الذين يدعون إلى أن « ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » يقولون أو يزعمون أن مكان العقيدة ومكان رجالها فى حياة الناس هو التوجيه السديد ، القائم على الإدراك والوعى ، لأخلاق الفرد . والاتصال القائم على المحبة والبر والفهم لروحه وعواطفه .

---

(١) انظر كلمة فضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكى فى عدد جمادى الآخرة من (مجلة الأزهر)

والاندماج القائم على التعاطف والمواساة فى الجماعة البشرية مكان العقيدة ومكان رجالها عندهم هو التربية الروحية والتوجيه الخلقى، واستخدام العاطفة الدينية فى قلوب الناس ومشاعرهم لتمكين الفضائل النفسية والخلقية فى هذه القلوب والمشاعر. وليس من شأن العقيدة ولا من حق رجالها، فى زعمهم، أن يسيطروا، ولا أن يوجهوا، ولا أن يشاركوا فى السلطة الزمنية بأى وجه من الوجوه، ولا من أى سبيل من السبل.

وهم يقولون: ما دمنا نقول إن العقيدة ضرورة من ضرورات الحياة للفرد والجماعة، فإن واجب رجالها هو اتخاذها وسيلة ومتكأ لتهذيب الفرد وتربية الجماعة، وليس لها ولا لرجالها أن يطمعوا فى شىء آخر من المشاركة فى السلطة الزمنية وقوانينها وما تفعل وما تدع لاستقامة حياة الناس وتنظيمها وتقدمها. وحسبهم أن يفعلوا ذلك، وما هو بأمر يسير.

* * *

وهذه الدعوة ليست شيئاً جديداً فى حياة الناس ولا فى عالم الأفكار والدعوات.

فقد كانت صيحة مسموعة فى القرن الثامن عشر فى أوربا عامة وفى فرنسا خاصة. فهى بضاعة مجلوبة لن تجد لها عندنا سوقا. وهى صيحة كانت لها أسبابها ومبرراتها فى بيئتها وزمنها. وسنرى قبل أن ننتهى من هذا المقال أنها تبور فى غير زمنها وبيئتها.

ولكى نربط بين هذه الدعوة وبين بيئتها وزمنها نسوق رأيا فيها، أو شرحا لها، قاله رجل من أبرز الدعاة لها ومن أبرز الثائرين على الكنيسة وعلى الملكية فى القرن الثامن عشر هو: « فولتير » الذى كان قلمه وكانت سخريته من أقوى العوامل فى قيام الثورة الفرنسية التى زلزلت الملكية والكنيسة معا.

الواجب المقدس الذى تؤديه للأمة تلك الهيئة المنظمة فى داخلها، الممثلة للدين والمهيمنة عليه، ليس أن تتحد مع الدولة أو تندمج فيها، ولا أن تغتصب سلطتها السياسية الزمنية، ولا أن تملى على الرجال المسئولين فى شئون السياسة والاجتماع والفكر، وترغمهم على الخضوع لهذا الإملاء. ولا أن تستخدم نفوذها وسلطتها على حياة الناس وعقولهم. مما لا تدعيه أية هيئة بشرية أخرى. كلا. إنما واجب الهيئة الدينية فى كل أمة أن ترشد الناس إلى الله فى طهر الحياة ونقاوة الفكر، وأن تجىء بهم إلى معرفة الله الحقة، حتى تتغلب روح الله وعدالته وحقه فى تصاريف الشئون ومناحى الحياة المختلفة. ومتى شهدت الهيئة الدينية شهادة أمينة صادقة لحق الله وتقدير الشئون الروحية، فإنها — بطريق غير

مباشر — تملك أقوى سلطة فى حياة الشعب المدنية ؛ لأن الناس لا بد يطبقون مبادئها وآراءها وينفذونها عملا فى حياتهم اليومية . فتصبح الأعمال ترجمان الأفكار والمبادئ .

أما إذا أبت الهيئة الدينية أن تعمل فى دائرة اختصاصها ، وعجزت عن التفريق بين هذا وذاك ، فإن الناس — عاجلا أو آجلا — سيشعرون بشدة وطأة تدخلها ، أو مظالمها ، فيخلعون عنهم رداء الولاء لها ، ويعيشون حياة طليقة سائبة بعيدة عن الله . وهى فى نظرهم خير وأفضل من تلك الحياة المقيدة الضيقة (١) .

ومن يتأمل كلمة « فولتير » هذه - وهى من أقوى الدعوات وأسبقها وجوداً فى الجهر بفصل الدين عن الدولة - يدرك أنه كان يحارب سلطة الكنيسة الزمنية يوم كان « البابا » يجمع بينها وبين السلطة الروحية ، ويحرم من جنة الله ، ويتلقى رجال الحكم السلطة من يده ، ويتوج الملوك ويسقطهم إذا شاء . ويدرك من يتأمل أن « فولتير » وأصحاب دعوته كانوا يحاربون سطوة الكنيسة ، وسطوة رجال الدين وشططهم ومظالمهم التى يعرفها من يدرس تاريخ أوربا فى القرون الوسطى .

وشتان بين هذا وبين موقف الإسلام من الحياة . وبين الوضع فى القرن الثامن عشر فى أوربا ، وبينه وبين حاضرنا فى الشرق العربى ، أو الإسلامى .

وليس من الخير ولا من الكرامة ، ونحن نبنى قوميتنا العربية ، أن نتابع دعوات لا تصدق على ديننا ولا على بيئتنا وزمننا . بل بينها وبين ديننا من التنافر والتدابر ما يدركه كل منصف .

والذين يدعون أن يترك « ما لله لله وما لقيصر لقيصر » يعززون دعواهم هذه بأن الدين لا يدعو إلى تغيير جوهرى فى حياة الناس ، بل يؤيد الأوضاع القائمة ويتصدى لظواهر الأمور دون أن يمس جوهرها . فهو ، مثلا ، يشجع التصدق والإحسان على الفقراء ، دون التفكير فى القضاء على الفقر ، أو على النظام الذى أدى إليه . وذلك - فى رأيهم - عمل رجل الاقتصاد والاجتماع . وهذا قد يصدق على غير دين الإسلام الذى فرض الزكاة وأوجبها وجعلها ركناً من أركانه التى بنى عليها ولكن أهل الشطط هؤلاء ، يقلدون الفكر الأوربى فى خروجه على المسيحية مع أن الفرق واضح بينها وبين الإسلام فى ذلك . فالمسيحية لم تتعرض لشئون الناس فى دنياهم ولم تتناول تنظيم المجتمع . ولكن الإسلام كما تضمن

---

(١) من بحث كتبته كاترين هنرى عن (فولتير) : كتاب « أعلام الفكر الفرنسى » ص ٦٧ .

« العقيدة » والهـــداية وألزم بالعبادات والتكاليف ، تضمن « الشريعة » فنظم بها حياتهم ومعاشهم ودنياهم . والفهم المستقيم للشريعة لايجعل منها خصما ، بل ولا معارضا ، لاستقامة الحياة البشرية وهنائها على جميع المستويات البشرية ولا فى جميع العصور ، ولكل الأجناس .

ونضرب لهؤلاء الذين يقيسون الإسلام على المسيحية فى ذلك مثلا : فنحن نعرف أن الإسلام أمر بالطهارة ، أى بالنظافة ، عند كل صلاة ، أو عند صلاتين أو أكثر إذا دام وضوء المصلى .

ومعنى ذلك أن المسلم مأمور بأن يستعمل الماء فى الأصل ، إلا إذا لم يجده ، فى كل يوم مرة على الأقل لنظافة أعضائه الخارجية . ومأمور باستعماله لتحقيق غايات أخرى وفى أماكن أخرى من جسمه . وقد يكون هذا الاستعمال لأكثر من مرة فى اليوم . والمسلم مأمور بأن يغتسل ، أى ينظف جسده كله بالماء ، عند مباشرة المرأة بينما نجد الكنيسة فى العصور الوسطى كانت ترى من دلائل الصلاح وتمكن العقيدة المسيحية فى قلب أتباعها أن يبتعد المسيحى الصادق عن الماء ويمتنع عن الاستحمام حتى لايزول عن جسده ماء المعمودية الطاهر .

وكان ملايين الناس فى أوربا فى القرون الوسطى يطيعون تعاليم الكنيسة هذه ، بل أوامرها ، ليكونوا مسيحيين صالحين محتفظين بطهارة المعمودية . وكم من الأمراض والأوبئة اجتاحتهم وأنهت حياة الآلاف منهم بسبب « طهارة الروح » على حساب طهارة الجسد .

ومن الحقائق التى نسوقها لهؤلاء القوم أن الكنيسة فى أسبانيا ، فى هذه القرون الوسطى حظرت على المسيحيين جميعا غسل أجسادهم ومنعته منعاً باتا . وأن الكردينال « سبينوزا » أحد رجال الدين المسيحى فى أسبانيا هدم فى سنة ٤٦٧ ميلادية الحمامات التى كان قد بناها المسلمون فى تلك البلاد .

وفى بلاد الحبشة يمتنع كثير من المسيحيين عن الاستحمام - إلى الآن - حتى لا يتشبهوا بالمسلمين .

فقياس الإسلام على المسيحية قياس غير قائم وغير صحيح .

وليس من همى ولا من غايتى أن أتعرض للديانة المسيحية ولا أن أوازن بينها وبين الإسلام ، فأنا مسلم يأمر دينى بالاعتراف بالمسيحية والإيمان برسالة عيسى عليه السلام . وأنا حريص على عواطف المسيحيين الذين يكونون فى هذا الشرق الذى نسكنه سواداً كثيرا كبير الأهمية فى تحقق هذه « القومية العربية » .

وبديهى أن الإسلام يثبت أن التوراة والإنجيل دخلهما تغيير وتبديل، كما نص القرآن الكريم على ذلك فى آيات كثيرة. والمثقفون من المسيحيين أنفسهم يعترفون بأن المسيحية بعد المائة الأولى لمولد السيد المسيح كانت مغايرة مغايرة كبيرة لمسيحية القرن الأول. ويعترفون بأن المسيحية كما يعرفها ويعتقدها المسيحيون الآن هى مسيحية بطرس الرسول وقسطنطين وليست مسيحية عيسى.

وهذا أمر لا يسىء - عند التأمل الهادئ - إلى المسيحية. بل لعله أن يرفع من شأنها، ويبعد عن «أصلها» المآخذ، كما كان يقول المصلح العظيم لوثر، مجدد المسيحية ومصلحها وعماد الكنيسة البروتستانتينية.

والذى أريد أن أقرره - وأنا أذكر قصة الطهارة والماء والوضوء قبل قليل - هو أن الإسلام يتضمن إلى جانب العقيدة «شريعة» تنسق حياة الناس وتشكل نظامهم فى هذه الدنيا. وأن الإسلام فى عقيدته نفسها يرعى مصلحة الناس ويحرص على خيرهم، فمع أن الصلاة عبادة، والغسل من الجنابة عبادة، فقد جعل الإسلام الطهارة بالماء شرطا لصحة الصلاة والغسل من الجنابة شرطا لها أيضاً. وهو فى ذلك يرعى صوالح الناس، ويحرص على خيرهم وسعادتهم وصحة أجسامهم فى هذه الدنيا، حتى فى أوامره بالعبادة المحضة التى لا صلة لها بمعاش الناس ونظم حياتهم وتشكيل مجتمعهم، وهو فى شريعته كذلك حريص على خيرهم وسعادتهم واستقامة حياتهم، وفيها من السعة والمرونة والمطاوعة ما يكفل تحقيق ذلك، لذلك كان من الخطأ المحض أن يقاس الإسلام على المسيحية فى تنحيته عن الحياة العامة، وعن التشريع والدعوة إلى «فصل الدين عن الدولة» أو «إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله» كما يقولون، فهذه دعوة صدقت فى أوربا على المسيحية لأسباب خاصة بها وبالمجتمع الأوربى، ولكنها لا تصدق على الإسلام.

ومن الأسباب التى قامت بسببها هذه الدعوة أو الثورة على المسيحية أنها تعرضت بآراء جازمة لبعض شئون الحياة والعلم. فهى، مثلا، قد نصت على أن الأرض ثابتة لا تتحرك، وأنها مركز الكون. وبسبب ذلك لقى كوبر نيكوس ولقيت مستكشفاته وآراؤه المعارضة لذلك ما لقى ولقيت من رجال الدين المسيحى، ثم تغلب العلم على رجال الدين بعد جهاد يعرفه من يدرس تاريخ الصراع بين العلم والدين فى أوربا، وأصبحت «تنحية الدين عن الحياة» شعارا لا يحيد عنه المفكرون فى الغرب ولا كذلك الإسلام، كما ذكرنا.

ولكن هذه الصيحة أو هذا الشعار إذا نقل إلى الشرق كان تقليداً يحمل فى طياته الشر لكل من الإسلام والحياة معا . وهو فوق ذلك دعوى لا أساس لها ولا سند ، بل هى فى خصوص الإسلام الصحيح ، دعوى منهارة .

فقد حفظت شريعة الإسلام ما لقيصر وأبقته له . وتركت له — أى للحاكم — شيئا كثيرا جدا يحقق به ما يرى من الخير للناس على مطاوعة من الشريعة نفسها ، وعلى أساس من الدين نفسه . وذلك أمر طبيعى لأن الله جعلها آخر الرسالات فلزم أن تصلح لحياة الناس فى جميع الأمكنة والأزمان ، وأن تتسع لحاجاتهم كلها ، وأن يكون فيها من المرونة ما يكفل ذلك . فهى لم تفرط تفريط المسيحية ولم تضيق تضييق اليهودية ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١)

* * *

وقد كنت أريد هنا أن أقول كلمة فى السياسة الشرعية ، أو فيما يعرفه فقهاء المذهب الحنفى « بالاستحسان » وفقهاء المذهب المالكى والحنبلى بالمصالح المرسلة .

كنت أريد أن أقول كلمة فى ذلك تدل على المدى الفسيح الذى يجده المشرع والمقنن فى شريعة الإسلام . ولكنى وقعت على كلمة للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر تغنى عن كل قول . فهو يقسم الحكم فى الشريعة الإسلاميه إلى نوعين : حكم نص عليه القرآن والسنة نصاً صريحا لا يحتمل التأويل ولا يحتمل الاجتهاد ، وهو قليل . والنوع الآخر : (حكم لم يرد به قرآن ولا سنة ، أو ورد به أحدهما ولم يكن الوارد به قطعيا فيه ، بل محتملا له ولغيره وكان ذلك محلا لاجتهاد الفقهاء والمشرعين فاجتهدوا فيه ، وكان لكل مجتهد رأيه ووجهة نظره « وأكثر الأحكام الإسلامية من هذا النوع الاجتهادى » ثم يقول فضيلته :

(إذا علمنا هذا استطعنا أن نقول : إن الحكم فى النوع الثانى ـ وهو النوع الاجتهادى « ولو خالف جميع الآراء والمذاهب الإسلامية » ـ فإنه ما دام أساسه تحرى العدل والمصلحة لا اتباع الهوى والشهوة ـ فإن الإسلام لا يمنعه ولا يمقته ... ذلك أن الإسلام ليس له فى هذا النوع حكم معين ، وإنما حكمه هو ما يصل إليه المجتهد باجتهاده المبنى على تحرى المصلحة والعدل ، فمتى وجد العدل والمصلحة فثم شرع الله وحكمه)(١).

* * *

(١) ١٤٣ سورة البقرة .

(١) الفتاوى ص ٣٨ من مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر

هذا رأى يجهر به الآن شيخ الجامع الأزهر وإمام المسلمين الآن . ونستطيع أن نضرب لذلك مثلا من أقدم الأمثلة وأقواها دلالة على عدم الالتزام الحرفى كأمر ملزم بات لا مفر منه ولا محيد عنه . وهو مثل يعرفه المؤرخون ويعرفه علماء السيرة وكتابها ومؤرخوها . فهؤلاء وهؤلاء يجمعون على أنه لما قتل العبد الأسود أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسرع ابنه عبيد الله فقتل الهرمزان وجفينة بالتهمة والظنة فى اشتراكهما أو تدبيرهما أو تحريضهما على قتل أبيه . وما كان خطأ أن يقتل عبيد الله أحداً لأنه قتل مسلما هو الهرمزان ، دون أن يستشهد عليه ودون أن يرفع أمره إلى الخليفة بعد اختياره وتنصيبه ، أو بعد شفائه لو أن الله أراد لعمر أن يشفى من طعنته . وكان من الممكن أن يقال إن حد الله فى هذا بين واضح لا شك فيه ولا مرية عليه ولا لبس . فقد قتل عبيد الله الهرمزان قتلة جاهلية بغير حق ، أو بحق انفرد به لنفسه وأقرها عليه وأقدم على قصاص هو من حق ولىّ الأمر لا يقيمه إلا على قواعد وأسس تطمئن لها النفس ويستريح منها الضمير . وكتاب التاريخ وعلماء السيرة يقولون إن هذا كله تحدث به المسلمون يوم ذاك فغضبوا من تسرع عبيد الله وإقدامه على قتل رجل مسلم بلا إقرار ولا بينة ولا شهادة ولا محاكمة . وأن هؤلاء المسلمين أعلنوا غضبهم هذا إلى عثمان . وأن جماعة من أصحاب النبى ألحوا عليه فى أن يقتل عبيد الله فى الهرمزان ، وأن يقيم عليه حد من يقتل مسلما عامدا متعمدا بغير حق وذلك كان رأى على ، وكتاب التاريخ وعلماء السيرة يقولون إن عثمان لم ينكر عليهم ذلك ولم يحاججهم فى الحد ولا فى أن عبيد الله يستحقه. ولو أنه أمر به فأقيم ، لقتل عبيد الله جزاء قتله المرزبان . لم ينكر الخليفة عثمان على صحابة النبى ذلك ولا شيئاً منه . بل كان جوابه أن قال : أخشى إن قتلت عبيد الله أن يقول الناس : « قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ».

وعثمان حين يفعل ذلك لا يخرج عن حد الشريعة ـ وحاشاه ـ ولا يجاوز الإدراك السليم لمصلحة الجماعة الإسلامية . فهو ولى أمر المسلمين وقد رأى ـ وكان حكما فى ذلك ـ أن يتجاوز عن شطط عبيد الله رعاية لمصلحة أعلى ، واتقاء لفتنة لم يكن يدرى أحد يوم ذاك إلى أى مدى يصيب شرها المسلمين جميعاً والعقيدة نفسها أيضاً .

وهذا هو السداد الذى يجعل « السبت للإنسان ولا يجعل الإنسان للسبت » كما تقول آية الإنجيل ؟

محمود الشرقاوى

الحرية الدينية فى الإسلام
وعلاقتها بالاجتهاد والتقليد

للدكتور علي عبد الواحد وافى

سار الإسلام حيال الحرية الدينية على أسس سمحة نبيلة . فلم يلبث أن استقر ، وتبينت للناس تعاليمه ، حتى قرر فى هذا الصدد أربعة مبادئ هى أسمى ما يمكن أن يصل إليه التشريع فى حرية الأديان والمعتقدات :

١ — أحدها أنه لا يرغم أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام . وفى هذا يقول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » . وعلى هذا المبدأ سار المسلمون فى معاملاتهم وحروبهم مع أهل الأديان الأخرى . فكانوا يبيحون لأهل البلد الذى يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة . وكانوا فى مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ، ويحترمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم . وفى هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى معاهدته مع أهل بيت المقدس عقب فتحه له : « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم ... لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ، لا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

ويقول عمرو بن العاص فى معاهدته مع المصريين بعد فتحه لمصر : « هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص » .

ومع أن الإسلام يجعل الرجل قواما على امرأته فى كل ما يحقق صالح الأسرة والصالح العام ، فإنه لا يجيز للمسلم المتزوج كتابية أن يرغمها على ترك دينها ، بل لا يجيز له أن يمنعها من أداء عباداتها وشعائرها ؛ بل إن بعض المذاهب لترى أنه ينبغى له أن يصطحبها إلى حيث تؤدى هذه العبادات والشعائر فى كنيستها أو بيعتها إذا رغبت فى ذلك .

٢ — والمبدأ الثانى الذى سنه الإسلام فى هذا الصدد هو حرية المناقشات الدينية . ولذلك ينصح الله تعالى المسلمين أن يلتزموا جادة العقل والمنطق فى مناقشاتهم مع أهل الأديان الأخرى ، وأن يكون عمادهم الإقناع وقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل . وفى هذا يقول الله تعالى مخاطباً رسوله عليه السلام : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة

الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . ويقول مخاطبا أهل الأديان الأخرى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ؛ « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ » ؛ « قل أرأيتم ماتدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » ـ ولا يكتفى القرآن بذلك بل يغرى الكفار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم، فيتظاهر جدلا بأنه لا يقطع بأنه على حق وأنهم هم على باطل ، فيقول : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

وكان الخلفاء من بنى العباس وغيرهم يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون ينتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق ، فيتناقشون فى شئون العقائد ، ويوازنون بين الأديان ، كل يدلى بحجته ، ويبين رأيه فى حرية وأمن واطمئنان . ولم يكن الخلفاء يحتملون هذه المناقشات فحسب، بل كانوا يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ، ويشتركون فيها بأنفسهم .

٣ ـ والمبدأ الثالث الذى سنه الإسلام فى هذا الصدد هو أن الإيمان الصحيح هو ما كان منبعثا عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع . وبذلك حطم الإسلام القواعد التى كان يسير عليها التدين فى كثير من الأمم من قبله ، وهى قواعد التقليد والاتباع وإهمال النظر والتفكير الحر ، وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم فى عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلى والمنطق السليم ، ودعا إلى النظر والتفكير ، وحث على رفض ما لا يؤيده علم ، ولا يعززه دليل ـ ومن ثم ذهب بعض علماء التوحيد إلى أن إيمان المقلد غير صحيح ؛ وأخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغفالهم جانب النظر والتفكير ؛ قال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ ! » ؛ « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون؟!». ـ ويقول الإمام الشيخ محمد عبده : « إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربى على التسليم بغير عقل وعلى العمل ـ ولو صالحا ـ بغير فقه ، فهو غير مؤمن . فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته » .

٤ — والمبدأ الرابع الذى سنه الإسلام فى هذا الصدد هو إباحة الاجتهاد فى فروع الشريعة لكل قادر عليه ، وهو المتمكن من الكتاب والسنة واللغة العربية وقواعد الاستنباط . فيباح لكل مسلم توافرت فيه هذه الشروط أن يجتهد ويستنبط الأحكام من أصولها وأدلتها ، ويعمل بما يراه ، ويجهر بما انتهى إليه رأيه . والإسلام يكفل له حرية الرأى ، ويحمى حريته ، ويحترم رأيه حتى لو كان خاطئا فى نظر غيره أو كان مجانبا للصواب . فمن المقرر فى الشريعة الإسلامية أن المجتهد مشكور ومأجور فى حالتى صوابه وخطئه : فإن أخطأ فله أجر ؛ وإذا أصاب فله أجران .

وعلى هذا المبدأ سار الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم . فكان كل منهم يعتمد على اجتهاده الخاص متى كان قادراً على ذلك ، ويبيح لغيره الاجتهاد ، ويحترم رأى غيره متى كان قائما على دليل من الكتاب أو السنة ، بل يرجع عن رأيه ويأخذ برأى غيره إذا تبين له رجحان هذا عن ذاك . ومواقفهم هذه — رضوان الله عليهم — كثيرة مشهورة قد زخرت بها كتب التاريخ الإسلامى مسجلة لهم أسمى مبدأ فى حرية الرأى والحث على الاجتهاد .

وقد اختلف أئمة المسلمين فى جواز التقليد فى فروع الشريعة لمن يقدر على الاجتهاد ، وانقسموا فى ذلك ثلاثة مذاهب :

(ا) فيرى كثير منهم أنه يجب عليه الاجتهاد ولا يجوز له التقليد ، فالإسلام فى نظر هؤلاء لا يقتصر فى هذا الصدد على إباحة حرية الرأى ، بل يوجب العمل بها إيجابا على كل قادر ولا يجيز له أن يتخلى عن حقه فيها .

وإلى ذلك ذهب كثير من أئمة المذاهب الأربعة ، وفقهائها ، وغيرهم :

فذهب إليه كثير من فقهاء الحنفية على رأسهم العلامة أبو زيد الدبوسى (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) وقد أبان عن وجهة نظره هذه فى كتابه « تقويم الأدلة » إذ يقول : « أصل التقليد باطل لأن الله تعالى رد على الكفرة احتجاجهم باتباع الآباء ... من غير نظر واستدلال ... والمقلد فى حاصل أمره ملحق نفسه بالبهائم فى اتباع الأولاد الأمهات على مناهجها بدون تمييز . فإن ألحق نفسه بها لفقد آلة التمييز فمعذور ... وإن ألحق نفسه بها ومعه آلة التمييز فالسيف أولى به حتى يقبل على الآلة فيستخدمها ، ويجيب خطاب الله المفترض طاعته » وقد ذم تعالى الكفرة على قولهم اتبعنا أكابرنا وسلفنا ، ويقول فى موضع آخر من هذا الكتاب : « وكان الناس فى الصدر الأول أعنى : الصحابة والتابعين والصالحين رضوان

الله عليهم يبنون أمرهم على الحجة ، فكانوا يأخذون بالكتاب ثم بالسنة ثم بأقوال من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصح بالحجة . فكان الرجل يأخذ بقول عمر رضى الله عنه فى مسألة ثم يخالفه بقول على رضى الله عنه فى مسألة أخرى . وقد ظهر من أصحاب أبى حنيفة رحمهم الله أنهم وافقوه مرة وخالفوه أخرى على حسب ما تتضح لهم الحجة . ولم يكن المذهب فى الشريعة عمريا ولا علويا ، بل النسبة كانت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وذهب إلى ذلك كثير من فقهاء المالكية ومنهم الإمام القرافى نفسه ، فقد نقل عنه صاحب « إرشاد الفحول » أنه قال « إن مذهب مالك وجمهور العلماء : وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد ويعنى بذلك من يقدر على الاجتهاد وتتوافر له وسائله .

وذهب إلى ذلك أيضا كثير من فقهاء الشافعية وعلى رأسهم الإمام الغزالى فى كتابه « المستصفى » فبعد أن أورد فى كتابه هذا بعض الآراء فى موضوع التقليد ، أبان عما يرتضيه هو فقال : إن القادر على على تحصيل العلم والظن « ينبغى أن يطلب الحق بنفسه ... فكيف يبنى الأمر على عماية كالعميان وهو بصير ؟ ! » ثم استدل على ما ذهب إليه من وجوب الاجتهاد على القادر بآيات من كتاب الله كقوله عز شأنه « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وقوله « أفلا يتدبرون القرآن » وقوله « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » وقوله « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله » .

وذهب إلى ذلك معظم أئمة الحنابلة وعلى رأسهم ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » .

وذهب إلى ذلك كثير من الظاهرية وعلى رأسهم ابن حزم ، بل لقد ادعى ابن حزم أن الإجماع قد انعقد على هذا المذهب .

وذهب إلى ذلك الشيعة الإمامية ، فهم يوجبون الاجتهاد على كل قادر عليه. ولا يزال لديهم إلى الوقت الحاضر أئمة مجتهدون فى النجف الأشرف وطهران وغيرهما .

(ب) والمذهب الثانى يجيز التقليد للقادر على الاجتهاد ، ولكنه يوجب عليه معرفة دليل الإمام الذى يقلده ، حتى يكون تقليده له عن بينة وحتى لا يعطل تفكيره تعطيلا تاما فى مسائل الفقه : ومن هؤلاء : ابن زروق المالكى : فهو يعرف التقليد بأنه « أخذ القول من غير استناد لوجه فى المقول ، وهو مذموم مطلقا لاستهزاء صاحبه بدينه » فهو إذن لا يرى بأسا من التقليد متى استند المقلد على دليل الإمام الذى يقلده : بل إنه لا يسمى هذه الحالة تقليدا ويلحقها بحالات الاجتهاد .

(ج) والمذهب الثالث مذهب جماعة من المتأخرين يبيحون التقليد للقادر على

الاجتهاد بدون أن يوجبوا عليه معرفة دليل من يقلده ، بل يتوسع بعض هؤلاء فيبيحون لهذا المقلد الفتوى متى كان حافظا لرأى الإمام فى الفرع الذى يفتى فيه .

وقد تصدى ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » للرد على آرائهم وخاصة على مايذهبون إليه من إباحة الفتوى للمقلد فقال : « لابد للعامى من تقليد عالم فيما جهله لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره فى القبلة لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك ، ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا فى شرائع دين الله ، فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك وتصييرها إلى غير من كانت فى يده بقول لا يعرف صحته ولا قام له الدليل عليه ؟ .

فإن من أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع لزمه أن يجيزه للعامة . وكفى بهذا جهلا وردا للقرآن ، قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، وقال : « أتقولون على الله ما لا تعلمون » . وقد أجمع العلماء على أنه عند عدم اليقين والتبين لا يكون ثمة إلا الظن ، والظن لا يغنى من الحق شيئا .

* * *

وهذا كله فى القادر على الاجتهاد ، وأما غير القادر عليه لعدم توافر عدة الاجتهاد وثقافته لديه ، فيكاد الإجماع ينعقد على إباحة التقليد له . فعليه أن يستفتى ويرجع إلى العلماء ويعتمد فى عباداته ومعاملاته على مذهب إمام أو أكثر ؛ لقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، ولإجماع الصحابة على هذا فإنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمرونهم بنيل رتبة الاجتهاد ، بل إن الصحابة أنفسهم لم يكونوا جميعا مجتهدين ؛ بل كان منهم المجتهد ومنهم المقلد ، وفى هذا يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته : « ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبى ... وكانوا يسمون لذلك القراء ، أى الذين يقرءون الكتاب ؛ لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم » .

هذا إلى أن تكليف جميع المسلمين الوصول إلى رتبة الاجتهاد ينطوى على الحرج والعنت وشريعة الإسلام قائمة على دفع الحرج ؛ قال تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقال « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » . بل إن هذا التكليف تكليف بما يستحيل

تحققه لأنه يؤدى إلى تعطيل الحرف والصنائع وجميع أنواع الكسب وجميع العلوم الأخرى غير علوم الشريعة ؛ وهذا يؤدى إلى خراب المجتمع البشرى ، وحتى لو فرضنا جدلا أنه أمكن أن يقف جميع المسلمين حياتهم على التفقه فى الدين ، فإنه لا يمكن أن يصلوا جميعا إلى مرتبة الاجتهاد .

* * *

هذا ، وقد ظهرت طائفة من المتأخرين تقول : إن الأمة الإسلامية أصبحت اليوم معذورة فى تقليدها الأئمة الأربعة ؛ لأنها أصبحت غير قادرة على الاستنباط من الكتاب بل ذهب بعض هؤلاء إلى أن باب الاجتهاد قد أوصد وأنه قد أصبح واجبا على كل مسلم تقليد واحد من الأئمة الأربعة .

ويمثل هؤلاء اللقانى إذ يقول فى جوهرته : « وواجب تقليد حبر منهم » (أى من الأئمة الأربعة) ، وابن عابدين (من المؤلفين فى فقه أبى حنيفة) إذ ينقل عن بعض رسائل ابن نجيم « إن القياس بعد الأربعمائة منقطع » وقد عبر عن ذلك أيضا ابن خلدون إذ يقول فى مقدمته : « ولما كثر تشعب الاصطلاحات فى العلوم ، وعاق ذلك عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولما خشى من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والإعواز ، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء ، ، كل بمن اختص به من المقلدين ... ولم يبق إلا نقل مذاهبهم ، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم ... ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة » .

وهذا الاتجاه ينم على جهل بروح الشريعة الإسلامية وعمل الصحابة وآراء السلف ، وينطوى على تشجيع على إهمال البحث والتحقيق وتعطيل العقل فى فهم شئون الدين ، كما ينطوى على مخالفة صريحة لما يوجبه القرآن الكريم إذ يقول : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » ، والتفقه لا يكون بالتقليد وإنما يكون بالوقوف على أدلة الأحكام واستنباط الفروع من الأصول .

غير أن ما نقلناه عن ابن خلدون ليدل على أن العلماء كانوا قد انتهوا فى عصره (القرن الثامن الهجرى) إلى الإذعان لهذا الرأى الفاسد والتسليم به ، وأن هذه النكسة قد ظهرت عند المسلمين منذ عهد بعيد؟

الدكتور على عبد الواحد وافى

الخليقة والسليقة

للدكتور تمام حسان

يقول صاحب القاموس : الخليقة الطبيعة والناس . ويقول : والسلق أثر دبرة البعير إذا برأت وابيض موضعها كالسَّلَق محركة ، وأثر النسع في جنب البعير ، والاسم السليقة. ثم يقول : ويتكلم بالسليقيه أى عن طبعه لا عن تعلم . وفي الصحاح أن الخليقة الطبيعة ، والجمع خلائق . ويقول ابن أبى سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فإذا نظرنا فى معنى كل من هاتين الكلمتين أدركنا أن الاستعمال اللغوى العام لا يفرق بينهما فى المعنى تفريقا كبيراً . ولكن الاستعمال اللغوى من طبعه ألا يكون دقيقا ولا محددا بقدر ما نجد الدقة والتحديد فى الاستعمال الاصطلاحى . ذلك بأن المعنى اللغوى كما يحتمل الحقيقة يحتمل المجاز ، وكما يحتمل الإطناب يحتمل الإيجاز ، وكما يحتمل التصريح يحتمل الإيماء والتلميح ، وكما يحتمل المعنى الواحد يحتمل المعنيين . ففيه عدم الخصوص ، وعدم المحدودية ، وتعدد المعنى للكلمة الواحدة .

ويقابل هذا الاستعمال اللغوى استعمال آخر اصطلاحى للكلمات ، تتخذ الكلمة فى محيطه معنى ثابتا لا يعتوره مجاز ولا تلميح ولا تعدد ، وإنما يكون نصا فى الكلمة كما تكون الكلمة نصا فيه ، لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص . والاصطلاح الفنى كاسم العلم من حيث صلاحيته فى المبدأ للإطلاق على أكثر من واحد . فالفاعل فى اصطلاح النحو غير الفاعل فى اصطلاح الفلسفة ، وهما غيره فى اصطلاح القانون الجنائى ، ولكن لفظ الاصطلاح واحد فى هذه الحالات جميعا . بيد أن الاصطلاح الفنى يختلف عن اسم العلم من نواح معينة ؛ لأنه لا بد عند استخدامه من مراعاة الاعتبارات الآتية :

١ — أن هذا الاصطلاح المستعمل لا يدل إلا على مدلول واحد .

٢ — أن دلالته عليه إنما تكون بطريق الحقيقة العرفية لا المجاز .

٣ — أن هذه الدلالة لا بد أن تكون جامعة مانعة ، لا تحتمل التوسع ولا الحصر

على نحو ما يحـــدث أحيانا فى المفردات والأساليب غـير العلمية . أى أن الدلالة لا بد أن تحدد قبل الاستعمال الفعلى .

٤ أن يكون لفظ الاصطلاح مختصرا حتى يسهل تداوله .

٥ ـ أن يكون منسجما قـدر الطاقة مع طرق صياغـة الكلمات فى اللغـــة التى يستخدم فيها .

تلك هى الاعتبارات التى لابد أن تتوافر فى فى استخدام الاصطلاح الفنى . ولقد رأينا العرب فى تحقيقهم لأول هـذه الاعتبارات وهو ضرورة وحدانية المدلول ينصون فى تحديد كل اصطلاح قبل استعماله على المعنى اللغوى الذى يستخدم به أولا ، ثم على المعنى الاصطلاحى الوحيد الذى يساق له . وهم يشيرون عادة إلى المعنى اللغوى الذى لا يقصد من الاصطلاح إذا كان الاصطلاح قد خصصت دلالته بمعناه الفنى بعد أن كان مستعملا فى فسحة الاستعمال اللغـوى العـام . فهم يقولون مثلا : الصلاة لغة الدعاء ، واصطلاحا أقوال وأفعال مخصوصة ... الخ

يقول الجـاحظ فى تبيـان الفرق بين اصطلاحات المتـكلمين وألفـاظ الخطباء . « ولأن كبار المتكلمين ورؤساء الناظرين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء : وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا بذلك سلفا لـكل خلف وقدوة لـكل تابع ولذلك قالوا : العرض والجوهر وأيس وليس وفرقوا بين البطلان والتلاشى وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك . وكما وضع الخليل ابن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تـكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والـكامل وأشباه ذلك وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف » .

فإذا كان صاحب القاموس وصاحب الصحاح وزهـير بن أبى سلمى قد ذكروا أو حددوا لنـا الاستعمال اللغوى للخليقة والسليقة فإننا نحاول هنا أن نرسم استخداما اصطلاحيا لأولاهما ونتقصى فى الثانيـة استعمالها الاصطلاحى قـديما وحديثا ، ثم نستخلص لأنفسنا منها فهما اصطلاحيا مشتقا من هذه الاستعمالات ثم نبتدع تقابلا بين هذين الاصطلاحين يقوم على تخصيص معنى لـكل منهما لا يلتقى مع معنى الآخر بالفهم العلمى .

فأما الخليقة فسنرتضى لها معنى شبيها بما فى استعمالها اللغوى ، فنقصد بها أن الإنسان

بطبعه مجبول على استخدام اللغة ، وأنه لا يستطيع أن يحيا فى مجتمع إلا بواسطة هذه الأداة الهائلة الخطيرة ، وما كان ليستطيع إلا بها أن يخرج من لعنة العزلة القاتلة التى كان يمكن أن تضرب ستاراً من الصمت والجهل التام حتى بينه وبين أمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، وتحول بينه وبين نقل أفكاره إلى الآخرين أو استقبال أفكار هؤلاء الآخرين .

وقديماً لم يجد المناطقة تعريفا للإنسان إلا أنه حيوان ناطق . فجعلوا الناطقية من طبيعته كما جعلوا الحيوانية تماما . وفى القرآن أن الله تعالى بعد أن خلق آدم عليه السلام علمه الأسماء كلها فأعطاه بذلك ما لم يعط الملائكة الأخيار . ولقد اشتغل الناس منذ بدء المدنية بناحية الطبع اللغوى فى تكوين الإنسان وحاولوا أن يكشفوا بعض مظاهر هذا الطبع اللغوى فى تكوين الإنسان وحاولوا أن يكشفوا بعض مظاهر هذا الطبع عن طريق التجارب التى يقومون بها على الأطفال دون سن الكلام .

يروى بلومفيلد فى الصفحة الرابعة من كتابه اللغة أن الإغريق كانت لهم ملكة التفكير فيما يقبله الآخرون قبول التسليم وأنهم كانوا يفكرون فى أصل اللغة وتاريخها وبنيتها . ويقول إن هيرودوت المؤرخ الإغريقى أخبرنا فى القرن الخامس قبل الميلاد أن أبسماتيك أحد فراعنة مصر قد ألقى بطفلين حديثى الميلاد فى عزلة لينظر بعد أن ينطقا ما إذا كانت لغتهما التى يتكلمانها هى هذه اللغة أو تلك . وكان يرى أنه أياما كانت هذه اللغة التى سيتكلمانها فهى لا بد أن تكون أصل اللغات جميعا لأن هذين الطفلين فى ظنه كانا مثالين لنشأة الإنسان الأول فلا بد أن تكون لغتهما لغة هذا الإنسان لهذا السبب . وتذهب الرواية إلى أن هذين الطفلين نطقا أول ما نطقا بإحدى لغات آسيا الصغرى وهى اللغة الفريجية .

ويبدو أن هيرودوت قد جانب الدقة هنا فى تحرى الحوادث التاريخية إما لكونه قبل الرواية عند سماعها قبول التسليم دون نظر فيها وإما لأنه أعطاها لونا من التعصب القومى . فقد تكون القصة فى أصلها ذات جانب من الصحة ولكن الذى أتصوره نتيجة لحدوثها أن ينشأ الطفلان على التفاهم بطريقة بدائية لا ترقى إلى مستوى لغة من اللغات المعاصرة حينئذ . ولكن هيرودوت قد استبعد المصرية أن تكون أصل اللغات الإنسانية وأحل محلها لغة هندية أوربية يتكلمها قوم يقعون ولو من الناحية الجغرافية على الأقل فى المجال الحيوى الإغريقى فى ذلك الوقت .

والذى يهمنا من هذه القصة سواء أكانت صادقة أم كاذبة أن هيرودوت وحده على أسوأ الفروض أو هو ومعاصريه على أحسنها كانوا يرون أن الطفل الوليد لو ترك وشأنه لأجبرته خليقته اللغوية التى فى تكوينه على الكلام أياً كانت لغة هذا الكلام .

ومرة أخرى :

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وإن ابن طفيل لم يجعل حى بن يقظان يتكلم فحسب وإنما جعل لغته من الغنى والنمو إلى درجة مكنته من أن يفكر بها تفكيراً فلسفيا . ويحسن هنا أن نلاحظ كذلك أن ابن طفيل جعل حيا يتكلم العربية .

ثمة إذن ما يمكن أن نسميه من الناحية الاصطلاحية « الخلقية اللغوية » ، ونقصد بهذا تلبس الإنسان بطبيعة الناطقية التى فى خلقه وتكوينه ولا نقصد بذلك أنه يتكلم لغة بعينها ، وإنما نعنى أن الإنسان وله هذه الخليقة صالح لأن يتكلم أية لغة من لغات هذا الكوكب الذى نعيش على سطحه . وإن الذى يحدد له اللغة المعينة التى يتكلمها إنما هو ما يصادفه من ظروف النشأة والاكتساب وهى الظروف التى تتصل بالسليقة لا بالخليقة .

يقول بلوخ وتريجر فى كتابهما « تخطيط عام للتحليل اللغوى » : « إن عملية اكتساب اللغة سواء أكانت فى الطفولة (إذ يكتسب الطفل لغة أسرته) أو فى الحياة المتأخرة (حين يتعلم المرء لغة أجنبية) هى عملية واحدة فى جوهرها . فلا بد للمرء فيها من أن يكون له منبع للمعلومات ولابد أن يتعلم المرء كيف يميز عمليات النطق ، ويعيد أداءها حين يمده هذا المنبع بها ، ويجب أن يكون المرء قادراً على تحليل عمليات النطق التى يتعلمها وعلى تقسيمها » .

والذى يهمنا هنا هو كيفية كسب الطفل للغة ، لأنها هى العملية التى نستطيع بعد ذلك على أساسها أن نقرر معنى « السليقة » ، وأن نقابل بينه وبين معنى « الخليقة » ، ثم نرى ما إذا كان معنى السليقة يتصل بالطبع أو يتصل بالتطبع . والذى يبدو لأول وهلة أن عملية اكتساب اللغة من الناحية النفسية أكثر ما تكون شبها بعملية اكتساب العادات . وبهذا المعنى يصح أن نصف ما يقوم به المرء من حركات وسكنات أثناء التلفظ بلغته بأنه « عادات نطقية » . ولم يكن ابن فارس مجانبا للصواب حين قال فى الصفحة الثلاثين من كتابه « الصاحبى » : « تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبى العربى يسمع أبويه وغيرهما فهو يأخذ اللغة عنهم وعلى مر الأوقات » .

وواضح أن عملية اكتساب اللغة هذه تستمر طالما كان الفرد عضوا فى جماعة. واكتساب الفرد للغة عملية تدوم ما دامت الحياة: فى الطفولة، وفى المدرسة، وفى الحياة العملية. يتعلم كل فرد كيف يتصل بزملائه؛ فلا يكاد الطفل يلج باب الحياة حتى يبدأ فى الحصول على لغة الأم. ولأمر ما جعل الله المرأة أكثر من الرجل شغفا بالكلام. وقد يكون هذا الشغف فى نفسه خير معوان للطفل فى مراحل اكتسابه اللغة؛ فهو ينتفع منها به فيسمع كثيرا ويشارك ويحاكى ويلاحظ الصواب فى الاستعمال. ولو أن العناية بالطفل كانت من نصيب أبيه وهو أميل إلى الصمت من أمه لكانت فرصة المحاكاة عنده أقل، ومن ثم يقل تقدمه فى اكتساب اللغة. ويقول مرنجر: إن النساء والأطفال أشد محافظة من الرجال من وجهة النظر اللغوية. فيما يختص بتطور اللغة.

ويقول لويس فى كتاب له ترجمته عنه بعنوان « اللغة فى المجتمع »: « وفى خلال سنوات ثلاث أو حولها يستكمل (أى الطفل) المعرفة بمجموع أصواتها ونظام بنيتها ومفرداتها معرفة كافية لجعله واضحا فى التعبير عن حاجاته الملحة، ولاستجابته استجابة مناسبة لما يطلبه منه الآخرون مما يتصل بهذه الحاجات. وكل هذا الدور الإعدادى فى التنشئة اللغوية يجرى فى البيت بأقل توجيه متعمد من هؤلاء المحيطين بالطفل ».

المسألة إذن مسألة تدريب مستمر على نطق أصوات اللغة وعلى الإحاطة بصيغها وما يكون ضروريا للفرد من مفرداتها وعلى معرفة طرق صياغة جملها المفيدة. وهذا التدريب شبيه بما يقوم به الراغبون فى اكتساب العادات. وليس صحيحاً أن اللغة العربية فى دم العربى تظهر على لسانه ولو ولد فى بيئة أجنبية. وليس مقبولا أن اللغة توقيفية من عند الله، وأن الله تعالى قد أنزل على العرب لغة ذات أصوات معينة وصيغ ومفردات وجمل بعينها ثم أنزل عكس ذلك مفصلا على الفرس وغيره على الترك والروس والهند والإغريق وهلم جرا. وليس مستساغا أن المرء إذا نشأ على الكلام بلغة بقى أمينا على تمثيل هذه اللغة ونطقها برغم المؤثرات الخارجية، بل إن الأدلة على عكس ذلك قائمة فى التاريخ العربى نفسه، إذ أن نفوذ الموالى الفرس على لغة العرب فى صدر الإسلام ونفوذ الترك على لهجات العرب التى يتكلمونها فى عصرهم الحديث ثابتان وراء حدود الشك ويدلان على أن الناشىء فى لغة ما قد يلحق التعديل بعض عاداته النطقية إذا دفعه الاستعمال والاختلاط إلى عادات نطقية أخرى تحل محلها.

وإذا كان صحيحا أن الطفل يكتسب اللغة بالاحتكاك بمن حوله فيتعلم بالمشاركة والمحاكاة فإن المشاركة والمحاكاة تؤثران فى الكبير كما تؤثران فى الطفل . وإذا كان أثرهما فى الطفل يتمثل فى إعانته على مطابقة الاستعمالات اللغوية فى داخل الأسرة التى هى مجتمعه وعالمه فإن الكبير سيجد فى فسحة الاختلاط أسرة تشمل المتكلمين بلهجات أو ربما بلغات مختلفة ، ولن تكون المشاركة والمحاكاة هنا عاملين من عوامل المطابقة فحسب . وإنما تكونان كذلك عاملين من عوامل التشعب وعدم التجانس فى العادات النطقية للمتكلمين بلهجة واحدة . ومعنى ذلك أن العربى من تميم إذا كان قد رحل إلى مكة فأقام فى قريش مدة من الزمان فلربما رجع إلى أهله بعد ذلك وعلى لسانه نطق ما الحجازية فى مكان ما التميمية ؛ ولربما أقام بين بنى عمومته زمنا وهو يخالفهم فى هذا الاستعمال حتى يتعود لهجته القديمة من جديد . ولو ظفر به راوية أو لغوى فى ذلك الوقت لذهب عند سماعه إلى أن بعض بنى تميم ينطقون ما الحجازية ، وجعل ذلك من كشوفه اللغوية التى يبنى عليها القواعد . ولاشك أن ذلك لو حدث لكان خطأ منهجيا لا يغتفر .

ويظن الكثيرون أن اللغة العربية الفصحى كانت محصورة فى شبه الجزيرة وما تاخمه فى الشمال من إقليمى المناذرة والغساسنة وأن العرب لم يكونوا قبل الإسلام يخالطون غيرهم من الأمم ، وأن صلة الفرس والسريان والنبط والروم والقبط بالعرب صلة لم يأت بها إلا الفتح الإسلامى ؛ ومن ثم ظلت اللغة العربية الفصحى قبل الإسلام مبرأة من نفوذ جاراتها لا تتأثر بهن ولا تؤثر فيهن ، وأن العربى قبل الإسلام كان ينطق الفصيح ولا يعلك بين شدقيه كلمة أجنبية مهما كانت الظروف ؛ ولكن العربى بعد الإسلام كما يظنون قد « لان جلده » على حد تعبير أبى عمرو حين قالها لأبى خيرة الأعرابى . وهذا خطأ لاشك فيه . وإن وجود بعض الكلمات ذات الأصل الفارسى أو الرومى فى القرآن نفسه لدليل على أن هذه الكلمات قد دخلت لغة العرب قبل الإسلام بمدة كافية لتعريبها وشيوعها فى الاستعمال حتى استحقت شرف الورود فى نص دينى عربى معجز كالقرآن الكريم . ثم هو دليل كذلك على أن التأثير والتأثر عمليتان قد يمتان فى علاقة اللغات بعضها ببعض، وأن ما تجربه اللغة العربية الآن من تعرض لنفوذ اللغات الأجنبية عن شرقها وغربها لا يستحق كل هذا الجزع من أحبار اللغة لأنه ظاهرة اجتماعية لغوية جربتها العربية فى الجاهلية والإسلام ولا تزال تجربها حتى اليوم . وهذا دليل أيضا على أن اللحن فى صدر الإسلام إن كان قد دفع إلى دراسة اللغة التى ورد بها القرآن فما كان ينبغى أن يتعدى ذلك

إلى أن يكون دافعا على تمجيد حالة اللغة العربية التى كانت عليها تمجيداً زاده سوءاً ما جربه العرب فى العصر التركى من جهل وانصراف عن البحث العلمى حتى شهدت الأيام الأولى من نهضتنا العلميـة أناسا ذوى آراء غريبة فى اللغة يرون من صالحها أن تظل متحجرة لا تقبل التطور . وقد عادت آراؤهم على دراسة اللغة العربيـة وعلى هيبة أهل اللغة بأوخم العواقب .

إذن كان العربى دائما ولا يزال يتعلم لغة أسرته طفلا ثم ينمو ويضرب فى أرض الله ويخالط قوما على غير لهجته أو على غير لغته فيؤثر فيهم ويتأثر بهم ، ثم يعود إلى أهله وقد عدل من عاداته اللغوية فيؤثر فيهم حينا ويصحح نطقه بصحبتهم حينا آخر .

ولم تكن الموجة التى سموها شيوع اللحن فى صدر الإسلام إلا واحدة من هذه الموجات التى التقى العرب فيها بالمتكلمين بلغات أجنبية. وأغلب الظن أن هـذه الموجة لو لم تدفع العرب إلى دراسة اللغة فى ذلك العصر لكانت العربية التى ندرسها الآن على صورة أخرى أحـدث عهدا فى التاريخ ولـكان من بين مصادر قواعدها أشعار يمنعون الآن الاحتجاج بها فى النحو واللغة . بل لربما صح الاحتجاج بشعر البارودى وحافظ وشوقى وغيرهم من غير ذوى السليقة على نحو ما يفعل الغربيون من الاحتجاج بلغة المعاصرين من أهل الأدب من بينهم .

ولـكن بعض علماء اللغة العربية يصورون الأمور فى صورة ملحمة جبارة يشتبك فيها العرب بالأجانب وقد نسبوا للعرب فيها من صدق الطبع فى لغتهم ما كان يجعلهم يعجزون حتى عن ترديد الـكلمة التى أرادوا أن ينطقوها نطقا مغايراً للصواب .

يقول ابن جنى : « أخبرنا أبو إسحق ابراهيم بن أحمد القرميسينى عن أبى بكر محمد بن هارون الرويانى عن أبى حاتم سهل ابن محمـد السجستانى فى كتابه الـكبير فى القراءات قال : قرأ على أعرابى بالحرم « طيبى لهم وحسن مآب » فقلت له طوبى فقال طيبى فأعدت فقلت طوبى فقال طيبى فقلت طوطو قال طى‌طى . أفلا ترى إلى هـذا الأعرابى وأنت تعتقده جافيا كزا لا دمثا ولا طيعاً كيف نبا طبعه عن ثقل الواو. إلى الياء فلم يؤثر فيه التلقين ، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين ؟ وما ظنك به إذا خلى مع سومه وتساند إلى سليقته ونجره . فنحن نرى أن السليقة كما رواها ابن جنى قد منعت الأعرابى من نطق كلمة فى القرآن كما هى ، وإن ابن جنى ليشيد بهذه السليقة على رغم هذه الحقيقة التى فى الخبر . فما هى تلك السليقة المدهشة ؟ وأى نوع من السحر هى ؟

بل فى أى قسم تقع من أقسام البطولات .

إن العلماء يختلفون فى معناها بين الطبع والاكتساب وإن كان القائلون بالطبع فيها كثرة . لقد مر بنا الاقتباس الذى أخذناه من خصائص ابن جنى عن الأعرابى الذى لم يستطع أن يحول الخطأ الذى فى طبعه إلى الصواب الذى فى طوبى بسبب سليقته .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك اقتباسات أخرى من كتاب قدماء ومحدثين يرون أن السليقة طبع .

١ — قال عمار الكلبي :

ماذا لقينا من المستعربين ومن
قياس نحوهم هـــذا الذى ابتدعوا

إن قلت قافية بكرا يكون بها
بيت خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا

قالوا لحنت وهـــذا ليس منتصبا
وذاك خفض وهذا ليس يرتفع

وحرضوا بين عبد الله من حمـق
وبين زيد فطال الضرب والوجع

كم بين قـوم قد احتالوا لمنطقهم
وبين قـوم على إعرابهم طبعوا

ما كل قولى مشروحا لـكم فخذوا
ما تعرفون وما لم تعرفوا فـدعوا

لأن أرضى أرض لا تشب بهـا
نار المجوس ولا تبنى بهـا البيع

٢ — يقول صاحب المزهر فى صفحة ٣٠٩ من الجزء الثانى : « وإنما مكنت القول فى هذا الموضع ليقوى فى نفسك قـوة حس هؤلاء القوم ، وأنهم قد يلاحظون بالمنة والطباع ما لا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع » .

٣ — قدمنا أن صاحب القاموس يقول فى مادة (س ل ق) :

« ويتكلم بالسليقية أى عن طبعه لا عن تعـــلم » .

٤ — يقول ابن فارس فى ص٢٣ من كتابه الصاحبى : « وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب » .

٥ — يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى فى الصفحة الثانية من إحياء النحو :

« وتأليف الكلمات فى كل لغـة يجرى على نظام خاص بهـا لا تكون العبارات مفهمة ولا مصورة لمـا يراد حتى تجرى عليـه ولا تزيغ عنه .

والقوانين التى تمثل هـذا النظام وتحدده تستقر فى نفوس المتكلمين وملكاتهم وعنها يصدر الكلام ؟ فإذا كشفت ووصفت ودونت فهى علم النحو » .

٥ - يقول الدكتور ابراهيم أنيس فى ص ٧٤ ، ٧٥ من اللهجات العربية :

« ولا يعقل أن صاحب السليقة اللغوية يخطئ إلا إذا نطق بلغة خاصة يتمسك فيها بقواعد وأصول لا يراعى فى حياته العادية حين ينطلق على سجيته » .

نحن نلاحظ أن الشاعر فى أول هذه الاقتباسات يرى نفسه مطبوعا على الإعراب، فلو أراد أن ينطق بما يعارضه لما استطاع إلى ذلك سبيلا مثله فى ذلك مثل الذى جبل على أن يفرز جسمه العرق فلو أرا أو أراده إنسان أن يفرز من مسامه عطرا لحالت الطبيعة بينه وبين ذلك لأن الطبع يغلب التطبع كما يقولون ، فالعربى فى رأيه يعرب لأنه عربى لا لأنه اكتسب لغة العرب ، وليت هذا كان يعد من مبالغات الشعراء ، إذن لكان مقبولا وطريفا ، وكان يمكن أن يصبح مبالغة شعرية لو أن علماء اللغة لم يؤيدوه فيما ذهب إليه .

فالسيوطى يرى أن العرب فى كلامهم يلاحظون بالمنة والطبع ما لا نلاحظه نحن بطول المباحثة والسماع ، فهم يلاحظون رفع الفاعل ونصب المفعول وإعراب المضارع وبناء الماضى ، واتباع الوصف والعطف والتوكيد والبدل وهلم جرا . وتلك أمور تتطلب من متعلم العربية أن ينتبه إليها إذا أراد أن يكون كلامه صحيحا من الناحية النحوية، ولكنها لم تكن تتطلب من أصحاب السليقة مثل هذا الانتباه لأن هذه الأمور فى طبعهم . وصاحب القاموس لا يكتفى بإثبات الطبع ، وإنما يقوى ذلك بنفى التعلم ، والمقصود بالتعلم اكتساب اللغة فى الصغر أو فى الكبر على حد سواء ، ولا شك أن الناشئ العربى فى كل قبيلة كان كما يقرر ابن فارس يأخذ اللغة تعوداً أى تعلماً واكتسابا ، ولكن ابن فارس لم يحافظ على نقاء رأيه هذا حتى رأيناه يصف قريشاً بقوله : « فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها» وما كان أجدر ابن فارس بالبقاء على الرأى الأول الذى نقله عنه السيوطى وآخرون .

وقد رأينا أن أستاذين معاصرين من ذوى البصر باللغه قد انحازا إلى جانب الطبع . فأما الأستاذ إبراهيم مصطفى ففى كلامه عن النظام النحوى للغة رأى أن هذا النظام يستقر فى نفوس المتكلمين وملكاتهم . وإن كلامه هذا وإن لم يركن صراحة إلى القول بالطبع ليبدو فى استعمال كلمتى الملكة والنفس فى أثنائه من الغموض ما لم يجعلنى أطمئن اطمئنانا تاما إلى سلكه فى عداد القائلين بالاكتساب . وإنما نسبت الغموض إلى استعماله « الملكة والنفس » لتراوح استعمال هاتين الكلمتين بين دقة الاصطلاح ورخصة

التوسع . فلما لم يتضح لى مقصده بهما رأيت أن أضعه بين القائلين بالطبع وأنبه إلى موقفى منه . وأما الدكتور أنيس فيرى من غير المعقول أن يخطئ صاحب السليقة اللغوية . وإننى بعد أن نشأت على التكلم بلهجة بلدى « الكرنك » وبعد أن بقيت ببلدى هذا حتى الثانية عشرة من عمرى جئت إلى القاهرة فأقمت بها . وكنت أعود إلى الكرنك فى فترة محدودة من صيف كل عام تجعلنى أستعيد اللهجة إلى عاداتى النطقية ومع ذلك أجدنى الآن برغم هذا أقف فى كلامى وسطا بين لهجة الكرنك وبين لهجة القاهرة يخطئنى المتكلمون بكلتيهما فى بعض الأصوات والتراكيب والتعبيرات ، فإذاصح أن صاحب السليقة لا يخطئ فإننى إذن غير صاحب سليقة لا فى القاهرة ولا فى الكرنك ، إلا إذا قيل بأن لكل امرئ سليقته الخاصة ، وتلك مسألة أخرى على أى حال .

ولقد سبق أن قدمنا اقتباسات تقول إن اللغة تكتسب ، وكانت هذه الاقتباسات لكتاب أمريكيين وبريطانيين وعرب ، ونحب أن نضيف إلى ذلك اقتباسا من خصائص ابن جنى إذ يقول فى صفحة ٤٠٥ من الجزء الأول : « وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها وترك تلقى ما يرد عنها . وعلى ذلك العمل فى يومنا هذا لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا » ... فالفصاحة عند ابن جنى عادة لا أكثر ولا أقل ، أى أن السليقة عنده اكتساب وتعود ، ولو أنها كانت فى نظره طبعا أو سجية أو نحيزه كما كانوا يقولون لما جعل ابن جنى بين أبواب خصائصه « بابا فى العربى الفصيح ينتقل لسانه . » والانتقال فى نظره إما أن يكون إلى لغة فصيحة أو أخرى فاسدة ، فإذا كان الانتقال إلى لغة فصيحة جرى الاحتجاج بكلامه بها وإن كان إلى لغة فاسدة لم يحتج بكلامه . وإن رأى ابن جنى هذا ليعطى الحق لمن تمكن من العربية من أدبائنا المعاصرين أن يحتج بكلامه لأن حكمه حينئذ حكم من انتقل لسانه من القدماء إلى لغة فصيحة .

ولو كانت السليقة طبيعة فى العربى ما وجد اللحن سبيلا إلى كلام العرب ولو تعاونت على خلقه عوامل الأرض والسماء . والذى لا جدال فيه أن اللحن كان معروفا قبل الإسلام وفى وقت ظهوره وأنه كان جائزاً حتى من سادة العرب وأشرافهم . ففى الجزء الأول من الجامع الصحيح للسيوطى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أعرب العرب ولدتنى قريش ونشأت فى سعد بن بكر فأنى يأتينى اللحن ؟ » وإن نفى اللحن عنه صلى الله

عليه وسلم ليعنى أن اللحن كان ظاهرة معروفة حينئذ وأن بعض سادة العرب كانوا يلحنون. ولذلك رأى عليه السلام أن ينص على أنه غير هؤلاء الذين يصدر اللحن منهم. ولقد لحن رجل فى حضرته عليه السلام فقال صلى الله عليه وسلم لمن حوله: « أرشدوا أخاكم فقد ضل » . وإن شعراء العربية كانوا موضع اتهام فى الجاهلية والإسلام . فقصة بيت النابغة الذى بدا فيه الإقواء قصة شهيرة ، وأشهر منها قصة الفرزدق وعبد الله ابن أبى إسحق الحضرمى النحوى . ويقول ابن فارس : « وما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الخطأ والغلط ، فما صح من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية وأصولها فمردود . بلى للشاعر إذا لم يطرد له الذى يريده فى وزن شعره أن يأتى بما يقوم مقامه بسطا واختصاراً وإبدالا بعد ألا يكون فيما يأتيه مخطئا أو لاحنا » . وكان عبدالملك يقول : « شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » . وقد عابوا على مالك بن أنس فى مخاطبة العامة : « مطرنا البارحة مطراً أى مطراً » . وكان الحجاج يقول ليحيى بن يعمر النحوى : « أترانى ألحن ؟ » .

نخلص من كل ذلك إلى أن السليقة هى اكتساب اللغة فى مرحلة خاصة من حياة الإنسان هى مرحلة الطفولة ، أى أن تعلم الطفل لغة أمه هو السليقة التى كان العرب يتكلمون عنها ، وإن أخطأ بعضهم بأن نحا بها منحى الطبع والجبلة . فأما مرد الطبع والجبلة فى اللغة فإلى أن الإنسان بطبعه حيوان ناطق من شأنه ومن طبعه أن يتخذ لنفسه لغة أى لغة فلا يتحتم أن تكون عربية أو فارسية أو هندية أو غير ذلك . وناحية الطبع هذه هى التى اصطلحنا من أول الأمر على أن نسميها الخليقة . فالخليقة إذن تدفع إلى السليقة ، أى أن طبع الناطقية يدفع إلى اكتساب لغة بعينها . فالخليقة والسليقة معا هما العنصران اللذان تتكون منهما شخصية المتكلم . بل إننا لو جعلنا معنى الخليقة ينصرف إلى كل ما يولد المرء به من طبائع واستعدادات وصرفنا معنى السليقة إلى كل ما يكتسبه المرء من بيئته كالعادات والتقاليد والمعلومات لكانت الخليقة والسليقة معا ملاك شخصية الإنسان لا باعتباره متكلما فحسب وإنما باعتباره فرداً يعيش فى مجتمع . ودراسة الخليقة اللغوية من منهج الاجتماع ولكن دراسة السليقة اللغوية من منهج اللغة ؟

دكتور تمام حسان
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم

حول قضية المرأة

مسألة العصمة

للأستاذ منصور رجب

الحديث عن مسألة «العصمة» فى قضية المرأة - هذه القضية التى شغلت العالم من لدن آدم حتى الساعة. الحديث عنها يثير فى النفس مسائل كثيرة:

المسألة الأولى: ما هى العصمة؟...

العصمة وردت فى القرآن الكريم بمعنى الحفظ. يقول الله تبارك وتعالى - فى سورة المائدة -: «والله يعصمك من الناس» (١) - أى يحفظك - ووردت كلمة العصمة أيضا فى القرآن الكريم بمعنى العقد أو السبب. فقال تعالى - فى سورة الممتحنة: «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» (٢). الكوافر: جمع كافرة. والعصم جمع عصمة: وهو ما يعتصم به من عقد أو سبب. ولتجلية مدلول العصمة فى هذه الآية الكريمة نذكر سبب نزولها.

كان صلح الحديبية على: أن من أتى المسلمين من الكفار رد إليهم، ومن أتى الكفار من المسلمين لم يرد. وكتبوا بذلك كتابا وختموه. فجاءت سُبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة والنبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية، فأقبل زوجها: مسافر المخزومى. وقيل: صيفى بن الراهب. فقال: يا محمد: أردد إلىّ امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا. وهذه طية الكتاب لم تجف. فأنزل الله تبارك وتعالى: يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا.. ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن.. ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا.. ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم».

فجاءت هذه الآية الكريمة بيانا لأن الشرط إنما كان فى الرجال دون النساء. ولأن اختلاف الدين يقطع العصمة. ويحل العقدة عقدة النكاح - وعلى ذلك فالعصمة - هنا - هى عقدة النكاح. أو هى عقد الزواج.. ولما كان الزواج من شأنه أن يحفظ الإنسان من الوقوع فى الفحش والخفا التقى مدلوله

---

(١) آية - ٦٧ (٢) آية ١٠

هذه الآية الكريمة مع مدلول الآية الأولى. هذه مسألة.

المسألة الثانية: ما مدلول كلمة العصمة مضافة إلى المرأة حين نقول: عصمة هذه المرأة بيدها.

الطلاق فى الأصل حق الرجل. فهل إذا فوض الرجل امرأته فى أن تطلق نفسها متى شاءت. هل يعتبر هذا تنازلا من الرجل عن حقه فى الطلاق للمرأة؟.

كلا: لا يعتبر تنازلا بدليل أن له أن يطلق هو أيضا متى شاء. وإذا لم يكن تنازلا فماذا يكون؟.

إنه «تفويض» أو «تخيير» أو «تسليط» ولا يسلب حق الرجل فى الطلاق.

المسألة الثالثة: ما سند إعطاء المرأة حق أن تطلق نفسها متى شاءت؟ ...

أولا: سندها الإجماع.. هذا بعد الزواج.. أما قبله كشرط فى العقد.. فقد انقسم فيها الأئمة إلى قسمين: بعضهم أجاز وبعضهم منع.

ثانياً: احتجوا لها أيضاً بآية التخيير.. وهى قوله تبارك وتعالى ـ فى سورة الأحزاب ـ: «يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا.. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما» [1].

ولآية التخيير هذه أيضاً سبب.. فقد تظاهر نساء النبى صلى الله عليه وسلم.. تظاهرن عليه يطلبن منه أن يوسع عليهن فى النفقة والزينة.. تظاهرن عليه حتى أثرن غضبه وموجدته عليهن صلوات الله عليه.. فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله أنه قال:

دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم.. فأذن لأبى بكر.. ثم دخل عمر. فاستأذن فأذن له.. فوجد النبى صلى الله عليه وسلم جالساً حوله نساؤه واجما ساكتا.. فقال أبو بكر: لأقولن شيئاً أضحك النبى صلى الله عليه وسلم. فقال: يارسول الله.. لو رأيت ابنة خارجة ـ زوجته ـ سألتنى النفقة لقمت إليها فوجأت عنقها ـ وجأ عنقها لكزه بيده.. أولواه ـ فضحك رسول الله وقال: «هن حولى كما ترى يسألننى النفقة.. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها.. وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها.. كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده. فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده.. ثم اعتزلهن شهراً.. أو تسعا وعشرين يوما ثم نزلت الآية.. فبدأ بعائشة.. فقال: يا عائشة: إنى أريد أن أعرض عليك أمراً

---

(1) آية ٢٨، ٢٩.

أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك .. قالت : وما هو يا رسول الله . . فتلا عليها الآية . . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى ؟ . . بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .. وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت . . فقال صلوات الله عليه : لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها . . إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا . . ولكن بعثنى معلماً ميسراً .. ثم خيرهن كلهن فاخترن ماهو خيرلهن ـ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

يحتج قوم بآية التخيير هذه على جواز أن يفوض الرجل امرأته فى أن تطلق نفسها متى شاءت .

ويعترض معترض فيقول : إن هذه الآية ليس فيها تفويض الطلاق .. بل كل الذى فيها إنما هو التخيير بين المقام معه صلوات الله عليه وبين أن يفارقنه ، فإذا اخترن أن يفارقنه طلقهن رسول الله بنفسه بدليل قوله تعالى : فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا .

أجيب عن هذا بأنه لما فوض إليهن سبب الفراق ـ وهو اختيار الدنيا ـ جاز أن يفوض إليهن المسبب الذى هو الفراق . وهذا منطق معقول وتخريج مقبول .. وقياس صحيح .

المسألة الرابعة : من الناس من ينكر أو يشمئز من جعل العصمة للمرأة بحجة أن هذا ينافى مسألة القوامة ـ قوامة الرجل على المرأة ـ فالله سبحانه وتعالى يقول ـ فى سورة النساء: «الرجال قوامون على النساء» وبحجة أن المرأة مخلوق عاطفى .. فلو أعطيت لها العصمة لأساءت استعمالها .

مسألة العصمة هذه ليست أصلا فى التشريع الإسلامى .. وإنما هى كاستثناء من القاعدة للضرورة .. فالطلاق فى الأصل حق الرجل .. وللرجل أن يوكل فى حقه . . أو يملك . . أو يفوض . . على أن إعطاء المرأة حق أن تطلق نفسها متى شاءت فيه تحميل المرأة مسئولية هدم بيت الزوجية .. وبذلك تقطع حجتها إذا هى ألبت أهلها على الرجل وآله . وهذا لون من الأدب فيه رحمة بالمرأة.وحنان..

وما أكثر عطف الإسلام على المرأة . فلو قارنا بينه وبين غيره لرأينا أن المرأة لم تنصفها شريعة كما أنصفها الإسلام . . فالتبرم بآدابه وتعاليمه ومبادئه رجوع بالإنسانية إلى الوراء .

فالبرلمان الانجليزى فى عصر هنرى الثامن أصدر قراراً يحرم على النساء قراءة الأناجيل .. فأين هذا من وضع الصحابة المصحف الأول الذى كتب فى عهد أبى بكر رضى الله عنه عن امرأة هى . . حفصة . . أم المؤمنين رضى الله عنها

والبرلمان الإسكوتلاندى فى القرن السادس عشر أصدر قراراً بأن المرأة لا يجوز أن تمنح سلطة على أى شىء من الأشياء . فأين هذا

من إعطاء المرأة فى الإسلام حق الملك . . وحق التصرف فى ملكها بما تشاء وكما تشاء .

وشريعة اليهود تفرض للمرأة مهراً لكنها لا تملكه بالفعل إلا إذا مات زوجها أو طلقت . . لأنه ليس لها أن تتصرف فى مالها وهى متزوجة . . والإسلام يعطيها المهر ملكا تتصرف فيه متى شاءت وكيفما تشاء . والأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين تقول : « المتوفى عنها زوجها إذا لم يترك أولاداً وكان له شقيق أو أخ لأبيه عدت زوجته زوجة له شرعا ولا تحل لغيره ما دام حياً إلا إذا تبرأ منها .

فأين هذا « الحبس » من حرية المتوفى عنها مثل هذا الزوج فى أن تتزوج بمن تشاء وتقول : « على الزوجة خدمة زوجها بشخصها خدمة لا يهينها بها .

والإسلام لا يوجب عليها أن تخدم الرجل مطلقاً بل يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « المرأة ريحانة ، وليست قهرمانة » .

وإذ كان لى من كلمة بعد هذا الاستطراد الذى جر إليه الحديث عن مسألة على هامش قضية المرأة فهى أن يتفهم الجنسان ـ الرجل والمرأة ـ روح التشريع الإسلامى . . وأن لا نصدر فى تصرفاتنا عن الأنانية البغيضة . فيتقى الله الرجال فى النساء كما أمر بانى المجتمع الصالح « محمد صلى الله عليه وسلم » ويتقى الله النساء فيعملن على تنشئة الجيل الذى يحيا . أو ينبغى أن يحيا كما تكون الحياة . والحياة نبوغ وخلق . نبوغ ينشأ فى سكون العزلة . وخلق يكون فى زحمة الدنيا وغمرات الحياة . وللمرأة فى هذه الحياة رسالة كبيرة خطيرة .

إن الإسلام يطلب أن نعرض آدابه وتعاليمه فى سلوكنا . وتصرفاتنا عرضاً يجعلنا نبدو أمة لها شخصيتها ولها إرادتها وكيانها : أمة أصيلة لا تابعة . أمة تحيا فى آدابها وبآدابها هى .

من محاسن الإسلام أنه لا تعتريه « شيوخة » ولا أقول « شيخوخة » فخاء وخاء أمر ثقيل فى النطق وعلى الأذن فى كلمة واحدة . أقول من محاسن الإسلام أنه أوجد لأهله « نوافذ » ينفذون منها أرجو أن تظل مفتوحة . فالإسلام صالح لكل زمان ومكان . فليس علينا إلا أن ننهل من أصوله لنعيش فى زماننا نحن . وبروح عصرنا نحن . وصدق رسول الله صلوات الله عليه : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » .

إن العصر الذى نعيش فيه ، والضرورات التى تحيط بنا إحاطة السوار بالمعصم ... وإن الرواسب التى خلفها لنا عصر الاستعمار البغيض كل ذلك يتطلب منا انتفاضة إلى الاعتصام بتعاليم الإسلام الصحيحة لا بأفهام الناس فيه ... وكفى .

منصور رجب
الأستاذ فى كلية أصول الدين

الحلاج

منزلته الحقيقية ومبادئه الصوفية

للدكتور محمد غلاب

لا توجد شخصية من شخصيات صوفية المسلمين فى القرون الأولى للهجرة قد ظفرت من عناية الجماهير واهتمامها بمثل ما ظفرت به شخصية أبى عبد الله الحسين بن منصور الحلاج ، بل إن حياته وآراءه وعباراته وشطحاته قد استهوت ولا تزال حتى الآن تستهوى الجماهير فى جميع الأصقاع التى يسود فيها الإسلام ، وأكثر من ذلك أن الكافة فى عدد غير يسير من البقاع الإسلامية لا تزال مؤمنة بأن الحلاج من أئمة الأولياء ذوى الكرامات التى لا نزاع فيها ولا شحناء ، وذلك بخراسان والأهواز وما إليهما . وليس هذا فحسب ، بل إن العلماء والباحثين والكتاب والشعراء فى مشارق الأرض ومغاربها ، وفى ماضى العصور الإسلامية وحاضرها ، قد افتتنوا بهذه الشخصية العظمى افتتانا بالغا ، وألفوا فى نواحيها المختلفة مئات الكتب ، وأنشئوا مئات القصائد والمقطوعات بلغاتهم المتباينة ، وأساليبهم المتنوعة . فمن ذلك مثلا ما حدثنا به المستشرق الكبير الأستاذ ماسينيون من أنه قد ألف عن الحلاج أكثر من تسعمائة مؤلف ، منها خمسمائة باللغة العربية ، وأكثر من مائتين باللغات الأوروبية ، ومائة باللغة الفارسية ، وسبعون بالتركية ، والباقى بالهندية والسريانية والعبرية . وهذا فى منتهى العجب خصوصا وأن أشياع طريقته قد انقرضوا منذ القرن الخامس ، وأن خصومه من معاصريه قد سوغوا تعذيبه وقتله بمسوغ دينى محدد ، أو على الأقل ألبسوا هذا المسوغ رداء دينيا من شأنه أن يدفع المسلمين إلى إهمال الحلاج والاستهانة به ، بل إلى بغضه ومقته . ولا ريب أن هذه الظاهرة تحمل الباحث العصرى على الاستيقان بأن باب النقاش فى هذا الحادث العظيم لم يغلق بعد ، وتدفعه إلى العودة إليه فى قوة وعناية ، لعله يعثر بين ثنايا التاريخ على بواعث سياسية أو اجتماعية أو شخصية تكون هى التى دفعت أولئك المغرضين إلى اقتراف ما اقترفوا بإزاء هذه الشخصية العظيمة ، لكى يرضى هذا الباحث ضميره من ناحية ، ويبرز الضمير الإسلامى أمام العلماء المحايدين نقيا منزها عن شوائب

الظلم والوهم والتعصب والتسرع والسطحية من ناحية أخرى . وهذا هو الذى حدث فعلا ، فقد تبين للمثقفين النزهاء واسعى الأفق أن الحلاج شخصية قوية قضت عليها بالإعدام سلسلة من الظروف السياسية والدينية التى تمثل ذلك العصر أكثر مما تمثل روح الإسلام الحقيقية ، ومبادئه التأسيسية . ومن آيات ذلك أن إجماع الأمة المشيد على التقوى الخالصة يوشك أن يكون منعقداً على أن الحلاج كان من الأولياء والصديقين ، وأن علماء المسلمين النزهاء الذين لم يخضعوا للأهواء السياسية ، ولم تستعبدهم الأحقاد الشخصية ، ولم يعمهم التعصب عن إدراك الحقيقة ، قد أيدوا هذا الإجماع ، وبذلوا فى التدليل عليه جهوداً مقدرة مشكورة . ومما لا ينبغى إغفاله أيضاً فى هذا الصدد ذلك الأثر الأدبى الباهر الذى امتلأت به الأوساط الشعبية فى مختلف البلاد الإسلامية كما شع من آفاق الصفوة الممتازة من شعراء العرب والفرس والهنود والترك الذين اتخذوا من حادثة الحلاج المؤثرة منبعا صافيا انتهلوا منه أبدع نماذج الجمال والحب إلى حد أن الحلاج قد برز فى قصائد أولئك الشعراء كأروع وأكمل مثال للصوفى المسلم المدله فى الحب الإلهى ، والذى قضى عليه بالإعدام لا لشىء إلا لأنه ثمل بخمرة هذا الحب، فصاح أثناء هذا الثمل قائلا : «أنا الحق»

ونحن ، لكى نسجل هنا يقظة الضمير الإسلامى من جهة ، ونسوغ موقف الباحث العصرى المسلم من جهة أخرى ، يجب علينا أن نشير إشارة عابرة إلى أولئك الأعلام الذين جزموا بأن الحلاج كان على حق ، بل بأنه كان من أتقى صوفية المسلمين وأنقاهم ، وأنه قتل ظلما ، وأن الأهواء قد لعبت فى قضيته دوراً بارزاً ، وأن من واجب كل مسلم نزيه أن يقف فى صفه ، وأن يدافع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومن أولئك الأعلام الذين أعلنوا مناصرتهم للحلاج حجة الإسلام الإمام الغزالى وابن خفيف من الأشاعرة وابن عقيل والهروى وعبد القادر الكيلانى من الحنابلة ، وعلى القارى من الحنفية ونصير الدين الطوسى ، وصدر الدين الشيرازى من المتفلسفين ، ونور الله الششترى من الإمامية وغيرهم .

ونحن نعلم علم اليقين أن أولئك الأعلام لا تربطهم بالحلاج صلات خاصة أو منفعة مشتركة ، وإنما السبب الذى دفعهم إلى مناصرته فى وسط تلك الأجواء المكفهرة ، وهاتيك الفتن الهوجاء العاتية ، هو قصة حياته المؤثرة ، وإعجابهم بثباته وصبره ، وافتتانهم بتلك الصور الصادقة التى رسمها له نزهاء الكتاب والشعراء من معاصريه ، ودراستهم الدقيقة . وتأملهم الطويل المتعمق فى منتجاته وأقواله وأفعاله التى تبينوا من خلالها أنها متفقة تمام الاتفاق

مع أسمى ما فى نظرياتهم الشخصية من حقائق تمثل المبادئ الإسلامية الصحيحة ظاهرها وخفيها أصدق تمثيل . ومن أروع العبارات التى أثرت عن أولئك الأعلام قول ابن خفيف : « إذا لم يكن الحلاج مؤمنا بالله ، فليس فى العالم مؤمن واحد » .

ومهما يكن من الأمر ، فإن اتجاهات البحوث الحديثة تكاد تكون مجمعة على أن الحلاج كان ضحية الأهواء والأحقاد وضيق الأفق . وأنه كان بريئا من الأغراض السياسية والثورة الاجتماعية والطعون الدينية براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وأن المصدر الوحيد لكارثته ، هو أنه باح بالسر الربانى الذى احتفظ غيره من الصوفية بكتمانه فعاقبه الله على ذلك بأن سلط عليه أشرار خلقه فرموه بما هو منه براء .

كانت هذه النظرة العاجلة ضرورية لتحديد هذه المنزلة الخاصة التى تفرد بها الحلاج بين صوفية المسلمين والتى شغلت من صفحات التاريخ مكانا فسيحا بارزا ، ولنمر الآن مسرعين بتلك الحياة المائجة بالعواصف والأحداث ، مشيرين من تلك الأحداث إلى ما ساهم فى تكوين مذهبه الذى حددته عظاته وتعاليمه العامة تحديدا انتهى إلى تهيئة الفرصة لخصومه باتهامه بالكفر والزندقة على نحو ما سنراه . غير أن حياة الحلاج منذ نشأته إلى تاريخ اعتقاله قد وصلت إلينا فى صورة قصص متفرقة : إما عن طريق أصدقائه كابن خفيف، وأحمد بن فاتك ، وعلى بن عبد الرحيم القناد، وإما عن طريق خصومه كالديلمى ، والقاضى محاسن الطنوخى ، ومن إلى أولئك وهؤلاء . ومن ثم فإن تلك القصص المتباينة جاءت مفعمة بالتضارب والتناقض ، ولكن أكثر هذه الروايات اعتدالا وتحددا رواية ابنه حمد . ولذا اعتمد عليها الباحثون رغم أنها تحمل فى داخلها عناصر الحذر منها ؛ لأنها شهادة ابن لأبيه .

أما الأعوام العشرة الأخيرة التى تلت اعتقاله ، فقد عرفت معرفة واضحة بسبب تفاصيل القضية وما ورد فيها من تسجيلات رسمية حينا ، وملاحظات خاصة مؤسسة على مشاهدات العيان أحيانا . ومهما يكن من الأمر ، فهاك نبذة خاطفة عن هذه الحياة :

ولد أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج فى بيضا حوالى سنة ٢٤٤ هجرية . ولما شب تلقى العلم عن سهل بن عبد الله التسترى الذى اشتهر فى عصره بقوة مبادئه الأخلاقية ، فكان لذلك أثر بعيد فى تأسيس أخلاق تلميذه الناشئ .

وعند ما نفى سهل إلى البصرة تبعه الحلاج ولازمه زمنا . وفى سنة ٢٦٢ ه ارتحل إلى بغداد حيث تتلمذ على عمرو بن عثمان المكى

زهاء ثمانية عشر شهرا ثم تزوج بابنة أبى يعقوب الاقطع ، سكرتير المكى . ولم يكن الأستاذ مسرورا من هذا الزواج ؛ لأنه كان يحس بأن لتلميذه آراء متعارضة مع آرائه . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لم يلبثا أن افترقا . وفى سنة ٢٦٤ ه التقى بالجنيد ، وكان يعرفه من قبل فتتلمذ عليه وتأثر به تأثرا بالغا ، بل كان أستاذه الأساسى ، ورائد وجدانه ، وهو الذى أرشده إلى الخلوة ، ومرنه على حياة العزلة ، وأمره بارتداء ثياب الصوف البيض التى كانت طابع الصوفية فى ذلك الحين . وفى هذه الحقبة اتصل بابن عطاء اتصالا متين الأواصر لم تنفصم عراه حتى الموت . وعلى أثر عودته من مكة فى سنة ٢٨٢ ه قطع علاقته بالجنيد أولا ، ثم بأكثر أعلام صوفية بغداد بعد ذلك وارتحل إلى تستر فأقام بها سنتين قاسى أثناءهما عناء شديدا ؛ لأن صوفية هذه المدينة كانوا يهاجمونه فى عنف ولعل القراء الكرام يتعجبون من هذه القطيعة ويدهشون لذلك الهجوم ، ولكن إذا ظهر السبب بطل العجب كما يقولون . وبيان هذه الأسباب : هو أن الحلاج قد اتخذ أساتذته من بين أعلام المحدثين ، ومشاهير أهل السنة المتزمتين الذين كانت جهودهم مقصورة على إرجاع جميع الطقوس الإسلامية إلى ظواهر المأثورات النبوية ، والذين كانت نتائج الفيض الإلهى عندهم تنحصر فى إعداد المؤمنين لأداء واجبات العبادة على أكمل ما يمكن أن يكون ، والذين كانوا يحذرون أشد الحذر من كل انفعال نفسانى ، ويجحدون أتم الجحود قيمة ما يتخيل الإنسان أن قلبه يشعر به ، أو يتصور أن روحه تلمحه . وفى هذا يقول المكى والجنيد إن كل ما يحسب القلب أنه يتصل به من : لذة أو بهجة أو نور أو جمال أو كائن أو شبح ليس لله فيه أدنى دخل ولا أقل علاقة .

هذا هو أساس الأزمة الباطنية التى ألمت بالحلاج ، إذ أنه لم يكن يستطيع أن يحتمل هذا التصوف السلبى ، لأنه كان يعتقد أن ذلك الخمول المجدب ليس من روح الإسلام فى شىء من جهة ، وكان يشعر بانفعالات داخلية ، ويسمع أحاديث باطنية يعتقد أنها آتية من الله من جهة أخرى ، وأن هذه الأحاديث الإلهامية كانت تقدم إليه حلولا لمعضلات فى العبادات ، هى موضع جدل بين أهل السنة وغيرهم من المسلمين ، وأنه كان يقيد هذه الأحاديث الهامة حتى لا ينساها أو يحرفها عن مواضعها . وكما كانت تلك السلبية سببا فى نفور الحلاج من أساتذته ، كانت دعوى الإلهام من جانبه سببا فى نفور أساتذته منه . ومن ذلك ما يحدثنا به القشيرى من أن سبب القطيعة بين المكى والحلاج أنه

فاجأه وهو يسجل بعض تلك الإلهامات فسأله عما يكتب ، فأجابه الحلاج بأنه يكتب كلاما يمكن أن يشبه بالقرآن .

أما منشأ قطيعته مع الجنيد فإنه قد وجه إليه سؤالا عن قيمة الإلهام الباطنى بوصف أنه قاعـــدة من قواعد التقوى والعبادة ، فرفض الجنيد الإجابة على هـذا السؤال ثم أطلق على الحلاج اسم المدعى ، أو رجل المطامع . ومنذ ذلك الحين اشتعل لهيب الحرب بين الحلاج وأكثر أهل الحديث وأعلام الصوفية المتمسكين بالظواهر فى بغداد ، فلما اشتدت هذه الحملة ، لم يسع الحلاج إلا أن ينزع ملابس الصوفية وأن يلقى بها جانبا ، وأن يختلط بأهل الدنيا (على حد تعبير بعض المؤرخين) لكى يرشدهم إلى مبادئه . وهكذا قذف بنفسه فى وسط أفكار العصر وثقافته ، فدرس الفلسفة الإغريقية ، ونبذ منطق الأشاعرة واعتنق منطق أرسطو الذى كان يبدو له أكثر مرونة ، وارتبط بالرازى الطبيب وأبى سعيد الجنابى المصلح الاجتماعى وبعض ذوى السلطان كالأمير الحسين بن على الروضى ، ثم ارتحل على أثر ذلك إلى خراسان والأهواز ، وظل يتنقل فى تلك الأصقاع ، وهو يزاول الحياة التنسكية غير مقيد بشعائرها ولا بمظهرها . وكان إذ ذاك متصلا بالجماهير التى تحبه وتلتف حوله ، فيعظها بمداومة الندم ومزاولة الزهد ، ويتحدث إليها عن الضمائر والوجدانات ، وجعل يكشف لمستمعيه ما يدور بخواطرهم وقلوبهم ، ولذا دعوه بحلاج الأسرار . وينبغى أن نسجل هنا أنه قد بقى على هـذه الحالة خمسة أعوام كاملة ارتحل بعدها إلى مكة فأدى شعيرة الحج للمرة الثانية ، وكان ذلك فى سنة ٢٩١هـ ثم عاد إلى بغداد فألفاها على ما كانت عليه من التجهم له والحنق عليه ، فارتحل منها إلى خراسان ، وهناك خطرت له فكرة اقتنع بها اقتناعا قويا وهى أن يرتحل إلى الأصقاع الوثنية ليهدى أهلها إلى الإسلام ، فاتجه إلى الهند ثم إلى التركستان ، وتغلغل فيها إلى حدود الصين . وفى هذه البلاد النائية عرفت قيمته ، ففى الهند كانوا يدعونه بالشفيع ، وفى الصين والتركستان كانوا يسمونه بالمطعم كما كان فريق من أشياعه فى بغداد يطلق عليه اسم المنجذب ، وفريق من أنصاره فى البصرة يلقبه بالمنبهر .

ولا يفوتنا أن نسجل هنا أن هذه الرحلة التى قام بها الحلاج إلى البلاد الوثنية كانت طليعة تلك الحملات الروحية التى وجهها صوفية الإسلام إلى الوثنيين ، فكان لها من النتائج السعيدة فى نشر الإسلام فى تلك الأصقاع أضعاف ما بذله الفاتحون من جهود كما شهد بذلك أعيان المستشرقين الأوربيين والسر

فى هذا النجاح الباهر هو أن أولئك الصوفية كانوا قدوة مثالية فى الفضيلة والتقوى والتضحية والفدائية .

عاد الحلاج بعد ذلك إلى مكة فأدى الحج للمرة الثالثة وأقام بها سنتين ثم ألقى عصا التسيار أخيراً فى بغداد فى سنة ٢٩٦ﻫ . وهنا غير تيار حياته العملية ، فبدأ سلسلة من العظات العامة أخذ رنينها يجلجل فى أنحاء بغداد ، وجعل يوجهها إلى الكافة ويعرض فيها مذهبه النهائى. ومما هو جدير بالذكر هنا، بل قد يكون هو الأول من نوعه فى البلاد الإسلامية هو أنه كان يؤيد مذهبه بالخوارق العامة التى كانت حتى عهده مقصورة على الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ومهما يكن من الأمر ، فإن هذا المذهب الذى أعلنه الحلاج وأيده بتلك الخوارق ، تركز أخيرا فيما كان يبدو له أنه هو الغاية الحقيقية للصوفى ، وهو الاتصال بين الله وروح الولى. ومن ثم لم تكن الزهادة الجنيدية السلبية فى رأيه سوى إعداد أولىّ لهذه الغاية المثلى التى عند ما يصل إليها الصوفى يظفر بحظ وافر من الفيض الإلهى ، وبالتالى يستطيع دائما وفى كل شىء أن يعبر عن الإرادة الإلهية، وأن يكون لسانها الناطق .

ومما تتحتم الإشارة إليه هنا هو أن الحلاج كان يجزم دائما بأن الإله هو الموجود الأسمى المفارق ، وهذا يبرئه تبرئة تامة من تهمة وحدة الوجود التى رماه بها السطحيون حين أساءوا تفسير عبارة « أنا الحق » وإنما كل ما كان الحلاج يؤمن به فى هذا الصدد هو أن الله يمثل فى أرواح أوليائه ، لا عن طريق الحلول التحيزى ، بل بوساطة فيضه التشريفى الذى يرفع أرواح الأتقياء إلى المراتب القدسية . وعنده أن أفعال التقى فى حالة هذا الاتصال ، أى « عين الجمع » تبقى مسيرة بإرادته الشخصية ، منظمة مترابطة بفعل عقله الخاص . ومعنى هذا أن ذلك الاتصال لا يهدف إلى هدم شخصية الصوفى ، بل هو يرمى إلى سموها وكمالها وفوزها بالمساهمة فى الفيض الإلهى .

كان الاتصال الإلهى الذى يقع للحلاج أثناء انجذاباته وغيبوباته ، يتمثل فى مناجاة أليفة ملتهبة مستمرة بين روحه ومحادثها الأسمى الذى تشعر بوجوده فى أعماقها دون كيف ولا انحصار ولا تحيز ولا حلول ،وهى تستعمل فى تلك المناجاة كلمتى : « أنت وأنا » وتتقدم إلى باريها بذاتها وبما تحتويه من آلامها وآمالها ورغباتها وتأسفاتها وندمها وتوبتها ، ولكن ذلك كله فى عبارات عفيفة طاهرة نقية مترفعة عن مواطن العلائق الدنيوية إلى أن قيل : إنه لا يوجد صوفى مسلم قد استعمل عبارات أطهر ولا أعف

من عبارات الحلاج ، بل إنه لم يلجأ قط إلى المفردات التى تستعمل للتعبير عن الحب البشرى.

حسبنا اليوم هذه الوقفة الخاطفة التى نقفها عند مذهب ذلك الصوفى العظيم آملين أن تتيح لنا الظروف فرصة العودة إليه فى شىء من التفصيل .

بيد أن هذه العظات العامة التى كان الحلاج يعلن فيها ابتهاجه بظفره بالاتصال الإلهى ، لم تلبث أن اصطدمت بسيل من المعارضة فى أوساط الفقهاء والساسة والصوفية حيث أخذوا عليه إفشاء الكرامات والتصريح بالحب المتبادل بين الله والبشر ، ونسبوا إليه التزندق بادّعاء الربوبية . وعلى أثر ذلك جعل أعداؤه يسعون سعيا حثيثا حتى ظفروا بفتوى من الفقيه ابن داود الظاهرى تنص على أن كل تصريحاته باطلة ، وأن الشرع يبيح قتله ، وعندما تم لهم ما أرادوا تقرر اعتقاله ، وقد حاول الفرار ، ولكن رجال الشرطة عثروا عليه فى مدينة سوس فاعتقلوه وأرسلوه إلى بغداد فى سنة ٣٠١ هـ .

غير أن الوزير ابن عيسى الذى كان مؤمنا معتدلا ، وتقيا واسع الأفق ، لم يجد ضده سببا محددا يثبت زندقته ، ويقتضى قتله ، فاكتفى بعقابه وإبقائه فى السجن فظل رهينه ثمانية أعوام وسبعة شهور ، وكان هذا السجن أول الأمر قاسيا على نفسه ، ولكن هذه القسوة لم تلبث أن تلاشت أمام صبره وتقواه ، فاعتاد هذه الحياة الجديدة ، وكان نموذجا من نماذج الورع والرضى بالقضاء والقدر وقد دفعت هذه الخطة القلوب إلى الالتفاف حوله رغم ذلك الحجاب الصفيق الذى أقامه السجن بينه وبينهم وكان من بين مقدريه وعارفى فضله نصر القشورى ، وهو إذ ذاك أحد كبار رجال القصر ، فكان يلقبه بالشيخ الصالح ، وقد شاءت الأقدار فى ذلك الحين أن يمرض الخليفة المقتدر ووالدته وأن يكون برؤهما على يد الحلاج لا عن طريق الأدوية والعقاقير ، بل بتلاوة آيات من القرآن الكريم عليهما ، فكان ذلك سببا فى عودة اسمه إلى السطوع فألهب هذا الامتياز قلوب خصومه بالحقد والحسد ، وكان ذلك فى سنة ٣٠٨ هـ ومن سوء حظه أن الوزير حامدا كان يمقت نصر القشورى مقتا شديداً وكان خصوم الحلاج يعرفون ذلك فأشعلوا لهيب القضية من جديد ووكلوا أمرها إلى هذا الوزير المغيظ المحنق الذى لا يعرف فى سبيل إرضاء شهواته السياسية خلقا ولا دينا ، فصمم على قتل الحلاج وسلك لذلك كل الوسائل الممكنة فحاول أن يظفر من القضاة بفتوى تنص على ادعائه الربوبية فلم يفلح ، فلجأ إلى حيلة تزييف مستندات تشهد بأن الحلاج قال بصحة تأدية فريضة الحج فى المنزل إذا

تعذرت تأديتها فى الحرم ، ثم عرض هذه التهمة على القاضى أبى جعفر ابن بهلول فأبى أن يفتى بقتله استنادا إلى أن ناقل الرأى الباطل إذا لم يكن يؤمن به ، فلا شىء عليه ، لأن ناقل الكفر ليس بكافر ، وأن صاحب هذا الرأى لا يدان إلا إذا سئل فأصر على ما نسب إليه واستتيب فلم يتب ، ولكن الوزير المغرض سرعان ما وجد قاضيا آخر وهو أبو عمر بن يوسف الذى لم يتردد فى أن يفتى بأن تصريح الحلاج هذا زندقة تستوجب الإعدام وأن الحاكم ليس مكلفا باستتابة الزنديق .

وقد انتهز الوزير غيبة ذلك القاضى القوى النزيه ، فعرض هذه الفتوى على المحكمة فأقرتها وأصدرت الحكم بالإعدام على هذا الصوفى العظيم . ولم تنجح جهود نصر القشورى إلا فى تأخير التنفيذ بضعة أيام . وأخيرا تم ذلك فى ٢٤ ذى القعدة من سنة ٣٠٩ ﻫ .

أما قصص تعذيبه الشهير المعروف، ولوحة التنكيل به فهى كثيرة ، وقد بقيت لنا منها روايات ابنه حمد وابن خفيف ، وابن زنجى كاتب المحكمة ، وشقيق أحمد بن فاتك ، وأبى بكر الشبلى ومن إليهم .

على أنه ينبغى لنا قبل مغادرة هذا الموقف أن نعلن أن قصص حياة الحلاج واتهامه ، وقضيته وتعذيبه وموته لم تكشف لنا إلا جانبا محدودا من جوانبه المتشعبة التى يعتبر من أهمها التغلغل إلى أعماق مذهبه والتمعن فى أسسه الرئيسية على ضوء عبارات « أنا الحق » و « ما فى الجبة إلا الله » وما شاكل ذلك ثم إبانة المنزلة الحقيقية التى شغلها الحلاج فى الأفق الإسلامى فيما يرى الفقهاء وأهل الحديث وأعلام التصوف الإسلامى وأفذاذ الباحثين المحدثين الذين صرح أحدهم بأن تاريخ الحلاج لم يبدأ إلا بعد وفاته .

الدكتور محمد غلاب

غنى النفس

قال محمود الوراق :

من كان ذا مال كثير ولم يقنع فذاك الموسر المعسر

وكل من كان قنوعا وإن كان مقلا فهو المكثر

الفقر فى النفس وفيها الغنى وفى غنى النفس الغنى الأكبر

دمع النصر

للأستاذ أحمد أحمد شلباية

أليست هذه القناة لنا ؟ أليست الأرض أرضنا ؟ أليس من حفرها هم آباؤنا وأجدادنا ؟ فما بال الذين لم يدفعوا فيها درهما يأخذون منها الملايين ، ما بال الذين لم يبذلوا فى سبيلها نقطة من عرق يتحكمون فى مصيرها ويحكمون ؟ ما بالهم عند ما سمعوا بتأميمها تكاد قلوبهم تتميز من الغيظ ، وأفئدتهم تنفطر من الهم ، وجوانحهم تتمزق من اللوعة.

كأنما كان علينا أن نظل هكذا : حياة بلا أمل ، وأملا بلا عمل ، وعملا بلا فائدة ، أو فائدة تعود على غيرنا ونحن ننظر ، وتحمل على ظهورنا ونحن نئن ، وتساق إلى عدونا ليقتلنا بها . كأنما كان علينا أن نكد .

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

ونردد فى حيرة قول شوقى :

أحرام على بلابله الدو
ح حلال للطير من كل جنس

ونتعثر فى جهالة :

كالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .

كأنما كان علينا أن نؤمم الخطأ ، ونقنع بالضيق ، ونرضى بالكفاف ، ونقبل الهوان . ما دام آباؤنا قد قبلوه عن إكراه فيجب أن نقبله عن رضا . وما دام آباؤنا قد أجبروا عليه عن فاقة فيجب أن نجبر عليه عن غنى. وما دام آباؤنا قد التبس عليهم وجه الحق فيجب علينا أن نؤثر وجه الباطل عن عمد وقصد كأنما كان علينا أن نتابع السير ولو عن ضلالة ، ونغط فى النوم كأهل الكهف ، ونستلقى على ظهورنا إلى الأبد ، لا يصح أن نتحرك إلا بأدب ، ولا ينبغى أن نفتح عيوننا إلا بانكسار ، ولا يحق لنا أن نقول إلا ما يرضى السيد الآمر ويشرح صدر المستعمر وينم عن إحسان وعرفان .

كأنما كان علينا أن نزرع وغيرنا يحصد ، أن نشقى وغيرنا يسعد ، أن نبنى وغيرنا يسكن . أن نكد وغيرنا يجنى ثمرة الكفاح . لا يصح للمظلوم أن يرفع ظلامته إلا إلى الله ، ولا للمهموم أن ينفث همومه إلا فى صدره ، ولا ينبغى أن نرفع عيوننا إلا بالبكاء ،

ولا أن نمد أيدينا إلا باستجداء ، ولا أن نرفع أصواتنا إلا برجاء وتضرع وخشية .

كأنما كان علينا أن نقبل الظلم على أنه قضاء لا يرد ، على أنه كتاب لا يأتيه الباطل ، على أنه دستور له حرمته وله جلاله ، على أنه سنة من سنن الحياة ، على أنه زمن تولى وذهب والذاهب لا يعود ، على أنه قضية بديهية لا تقبل الجدال والشك ، على أنه خير ونعمة وبركة ، ورد الخير حماقة ، وغمط النعمة كفران ، وجحود البركة جهل ..! فإذا استرد صاحب الحق حقه صار مبطلا لأن حقه بمرور الزمن تحول إلى باطل ، وإذا قام المظلوم ونفض عن رأسه غبار الظلم صار ظالما ؛ لأن ظلمهم بتقادم العهد تحول إلى عدل . وإذا قام صاحب المال فأخذ المال من سارقه فقد صار سارقا ؛ لأن السرقة لها فى كل زمان تعريف ، وفى كل دولة رسم . وإذا قام المغتصب يطالب من غاصبه حقه المسلوب فقد صار غاصبا ، كافراً بالقيم ؛ لأن انتفاع الغرب بأرزاقنا قيم ، وامتصاصه لدمائنا دين . وإذا قامت مصر وأممت قناتها لأنها قناتها ، ولأن الأرض أرضها ، ولأن أهلها هم الذين حفروها بأيديهم فقد جاوزت الحد وتجرأت على المبادئ وخرجت على القانون ، وتعدت على اللوائح ، وأسرفت فى الظلم ، وأمعنت فى السرقة ، وبالغت فى الجريمة وهذا منطق ، منطق القوى مع الضعيف ، منطق الاستعمار عندما تنتفخ اوداجه ، وتتصلب عروقه ، ويحتدم وجهه ، فيذل الشعوب ويستعبدها ، ويغتصب أرزاقها وأقواتها ، ويتركها جثثا هامدة لا حراك بها .

ولكن تأميم القناة كان لطمة قوية أصابت العدو فى عقله فأخذ يهذى كمن به مس ويتخبط كالأعشى ، واختلط عليه أمره ، وفسد عليه تدبيره ، وأصبح أعجز من أن يرسم الطريق لنفسه .

وأصابته فى ضميره ، فنسى العهود والمواثيق ونسى الواجبات والحقوق ، ونسى المروءة وأصحاب المروءة ، ونسى الفضل وصاحب الفضل .

وأصابته فى عظمته ففقد كبرياءه وفقد ثقته فى نفسه ، واستعان بغيره واستجار بسواه ، ليهاجم دولة صغيرة جثم على صدرها كالكابوس أكثر من ثمانين عاما ،

وأصابته فى فلسفته وفى منطقه على حد سواء فإذا بمكره ودهائه ، وإذا بقوته وجبروته وإذا باستعماره وإذلاله ، وإذا بخبرة العمر وتجارب الزمن ، إذا كل أولئك كأنها آلات دمرت نفسها بنفسها وصارت مخلفات ...

ونظر العدو فوجد نفسه أمام أمة صغيرة ولكنها أكبر منه ، أمة لا تزال فى المهد ولكنها أقوى من الشباب ، أمة لم يكد يجلو عنها عدوها حتى هبت كالعاصفة ، وانطلقت كالمارد تمسح العار عنها لتلطخ به جبينه ، وتسترد أموالها فى عزة ؛ لتلهب بالحرمان

جوفه . وتستمرئ أرزاقها فى سعادة لتقطع بالمرارة أحشاءه ، وتبنى سدها العالى فى عزم وهمة فى كرامة وعظمة، ليموت فى حمأة الضلال بغيظه ، وتضيف إلى ميزانيتها كل عام أكثر من خمسين مليونا من الجنيهات كان بها العدو ينعم ويسعد ، ويشرب ويطرب ، ويزهو ويختال .

نظر العدو فوجد كل ذلك يحدث أمامه ، على مرأى منه ومسمع ، فأخذته العزة بالإثم وكبر على حكومة المحافظين أن ترى أسدها البريطانى يتجمد وكأنما أصيب بالشلل ، أمام الفريسة التى كان بالأمس القريب ينشب أظفاره فى لحمها ، وأن ترى شمسها التى كانت لا تغيب عنها وعن بلادها لحظة واحدة تغطيها سحابة سوداء .

وعز على جى موليه أن يرى تراث نابليون وقد أصبح أطمارا بالية اتسعت خروقها على الراقع ، وكشفت عن هزال شبه ناد أما يكون بالسل ، وأن يرى كل يوم جديد يجئ ومعه هم جديد .

وعظم على كلتا الحكومتين أن ينتهى حسابها فى القناة إلى هذا الحد ليتحول إلى رصيد عدوها فى الجزائر أو فى عدن أو فى عمان أوفى البحرين ، وأقض المضاجع الوثيرة وشتت الرقاد عن العيون الزرق أن يكون هذا أول البعث فى أمة العرب ، وأن يتبع تأميم القناة فى مصر تأميم البترول فى العراق وفى الكويت ، ويومها يقف الضجيج الهادر فى المصانع ، والهدير الزاخر فى المتاجر ، والتنافس الصاعد إلى أبواب المجد والمدنية والسيطرة ، ويومها تصبح كلتا الدولتين رهين العجز والضعف والفاقة ، ويومها بعد هذا وذاك تصبح كلتا الدولتين غير آمنة فى السلم والحرب ، فلن تسلم فى السلم من مرارة الانتقام ولن تنجو فى الحرب من غضبة الجبار .

وابتدأت المسرحية ووقف الأسد البريطانى يهز ذيله فى غرور ، ويميل برأسه فى خيلاء ويكشر عن أنيابه فى غضب ، وجلس العالم أمام المسرح يراقب باهتمام فصول المسرحية .

الأساطيل تتحرك ، هذه ناقلة الجنود وتلك حاملة الطائرات ، هذه تحمل المعدات الثقيلة وتلك تحمل الذخيرة ، هذا قائد القوات البرية وذلك قائد القوات البحرية ، هذه القطع قادمة من لندن وتلك قادمة من باريس ، وهذه الاجتماعات بعضها سرى وبعضها علنى وإيدن يطير إلى فرنسا ، وجى موليه يطير إلى لندن . وهذه جلسة تضم القيادة العليا فى قبرص ، الوزارة الانجليزية تعقد جلسة مستعجلة برئاسة إيدن ، والوزارة الفرنسية تنعقد إلى ساعة متأخرة من الليل ، ولكن كل هذه التجمعات كل هذه التحركات ، هذه الحرب الباردة لم تستطع أن تغير من اتجاه الشاب الأسمر ، ولا أن تزحزحه من مكانه ، ولا أن تطفئ الابتسامة التى تتلألأ على شفتيه .

وقالوا نجادلهم بالتى هى أحسن ، فتحاكموا إلى مجلس الأمن ، ومع أن المجلس مجلسهم ، يدين لهم بالولاء والطاعة ، فإنه لم يستطع أن يشوه وجه الحق ولا أن يزين وجه الباطل ، فردهم على أعقابهم .

وقالوا لا يحسنون إدارة القناة وسحبوا المرشدين الأجانب ، وألقى فى روعهم أننا سنعجز لا محالة ، وأن العالم من حولنا سوف يضحك علينا ، فإذا بالمصريين يتقدمون ويعملون بالليل والنهار فى مهارة وإتقان ، وإذا بالعالم يصفق لنا .

وجلس العدو بعد هذه الجولة يلتقط أنفاسه المبهورة ، ويستجمع قواه المتفرقة ويراجع كشف الحساب الذى أعده بنفسه ، وجد المسكين أن الركائز التى أعدها تميد من تحته ، وأن القواعد التى بناها تنهال على رأسه ، وأن الآمال التى كان يشيد منها ناطحات السحاب ذهبت أدراج الرياح ، وبدلا من أن يكون سحب المرشدين وبالا على مصر أصبح والحمد لله خيرا لها ونعمة ، تم به تأمين العمل بالقناة وصار المصريون وحدهم هم الذين يملكون أمر المرور فيها ، وبدلا من أن يكون مجلس الأمن آلة طيعة فى يد الغرب وزرا كهربائيا يضغط عليه فى الوقت المناسب ، فقد تحول وجهه نحو الحق واستطاع أن يثبت وجوده وأن يبلغ رشده . وبدلا من أن تكون الحرب الباردة حركة بارعة يقصد بها تجميد القوى وترويع النفوس وإثارة المخاوف ، ووضع العالم على شفا الهاوية ، فقد تجردت الحرب الباردة من معناها ، فبدد أعاصيرها الوعى الحق ، ووزع ضبابها الفهم الصحيح ، وكسر حدتها الصمود الراسخ ، وأذاب جليدها الصبر والثقة والصلابة والإيمان .

ورأى المسكين أن الشبكة التى ألقاها تلتف حول عنقه ، وأن السهام التى ريشها قد ارتدت إلى نحره ، وأن المدفع الذى صوبه قد استدار إلى صدره ، فركب رأسه والرأس جموح ، وأطاع نفسه والنفس أمارة ، وتبع هواه والهوى أعمى ، وتمنطق بالحماقة والحماقة داء ، ولحق بالشيطان والشيطان مضل ، وحرك ذنبه الأبتر فتحرك إلى سيناء ، لتدفع إسرائيل ثمن وجودها ، لتدفع ضريبة بقائها ، لتؤدى رسالتها رسالة الخراب والدمار والقلاقل والفتن ، وتأخذ لقاء كل ذلك ملك سليمان .

وأعلنت انجلترا وفرنسا أنهما سيقومان بعمل بوليسى ، يقف من الفريقين المتخاصمين . من أجل ذلك طيرت إلى مصر آلاف الطائرات فغطت وجه الشمس ، الشمس التى لا تغيب عن بلادها وأبحرت عشرات السفن الحربية فغطت البحار ، البحار التى نحن وراءها . وألقت مئات القنابل على الأهالى العزل وهذا هو العمل البوليسى ، وأشعلت

النيران فى المساجد والمعابد والمدارس وهذا هو السلام ، وقطعوا المياه عن الشيوخ والأطفال والعجزة وهذه هى الديمقراطية ، وغطوا وجه الأرض بالجثث والأشلاء وهذه هى الإنسانية وهذه هى الرحمة .

ومن بين اللهيب المرتفع والدخان الكثيف ، من تحت الأنقاض المنهدمة والأحجار المشتعلة من بين الدماء الغزيرة والعظام المتناثرة ، من دوى المدافع وانفجار القنابل ، ومن كل أولئك تكونت ملامح بورسعيد ، كعذراء تدافع عن شرفها بحرارة ، كقديسة تدافع عن عقيدتها بإيمان ، كأم تفتدى أكبادها بصدق ، كشواظ من نار أحال العدو إلى رماد ، كبركان ثائر يقذف بالردى والحمم ، كعاصفة هوجاء تدمر كل شىء بأمر ربها ، كبطلة تعرف تاريخها فى التاريخ ببسالة ، كأنشودة تهز أعطاف الزمان فى فخار ، كلحن أبدى يتخذه الخلود شعاره ، كحكمة بالغة ، كعظة ساطعة : أن زمن القوة قد راح ، وأن الحق أمضى سلاح ، وأن جواد العدوان عاثر ، وأن حظ الطغيان خاسر ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

وفى لذة ونشوة داعبت العيون الزرق أحلام وصور ، وفى متعة وحنان أمالت الشعر الأصفر نسمات رطبة من الآمال والأمانى ، وفى ثقة واعتزاز حدثت الثالوث المغرور نفسه : أن اللقمة سائغة لا تحتاج إلى عناء ، وأن الحمل وحده قد تخلف عن الراعى ، وأن البيت مفتوح ليس عليه حارس ، وأن الطريق معبد ليس فيه صعاب ، وأن مصر من طول ما قاست من ذلة واستعباد أصبح الانحناء فيها عبادة ، وصار الاستسلام فيها طبيعة ، وغدا الهوان فى أخلاقها كرامة ، وما هو إلا أن يطل الاستعمار بوجهه من جديد ـ ومصر لا تطيق فراقه ـ حتى تتخلص من حال بينها وبينه ، فعدل ظهرها المقوس ، ورفع ظهرها المنكس ، ومحا من قاموسها كلمات الذل والهوان والعجزه وهكذا حدثت الثالوث نفسه ، وهذا آخر ما وصل إليه علم المخابرات والجاسوسية .

فكنت ــ يا بور سعيد الغصة القاتلة واللقمة المسمومة ، تساقط الأعداء دونك فكانوا كهشيم المحتظر أو كعصف مأكول ، وكنت ـ يا بور سعيد ـ العناية المهداة والرحمة الواسعة ، تجمعت من حولك أمة العرب ، واهتدى بهديك القطيع الضال ، واستيقظ على صوتك ضمير العالم ، وكنت ـ يا بور سيعد ـ رمز الكفاح المر والجهاد الحق ، حين وزعت حول العرين أسودك تنقض فى غير رحمة ، وطيرت فى السماء بزاتك ترمى بالصواعق والشهب ، وفجرت من تحت أطباق الماء الموت الأحمر حتى عرف العدو

إن للبيت ربا يحميه ، وكنت ـ يا بور سعيد ـ فى الطريق الذى ظنوه طريق الملذات جاءوا ليقضوا بين حواشيه الخضر نزهة قصيرة ، أو فترة سعيدة ، أو رحلة ميمونة يعودون بعدها إلى بلادهم وبأيديهم مقاليد الحكم فى الشرق ، ومفاتيح الأمر فى القناة ، والقول الفصل فى العالم . ولكنك كنت ـ يا بور سعيد ـ الطريق إلى النهاية ، النهاية المؤلمة الحزينة ، والألغام التى فصلت الرءوس عن الأجسام ، وأحالت الثقة إلى أوهام ، وردت الحقائق إلى خيبة ، وكنت الصخرة العاتية التى تحطمت عليها آمال الاستعمار ، وتكسرت سهام الأعداء .

لم أنس ـ يا بور سعيد ـ طائراتهم وهى تتساقط كالذباب ثم تصير رماداً ، ولا أساطيلهم وهى تهرب كالجرذان وقد كانت تمخر العباب فى ثقة وشمم ، ولا أبناءك الغر الميامين وهم يستقبلون الموت فيستحيل أمامهم إلى حياة ، ويبذلون دماءهم فتتحول هذه الدماء إلى عظمة ، ويقدمون أرواحهم فتطير إلى عالم المجد والخلود والنور . لم أنس أطفالك ـ يا بور سعيد ـ وهم يجاهدون فى الشوارع ، ولا نساءك وهن يقاومن فى البيوت ، ولا شبابك وهم يردون العار فى عزم وثبات . ولا جول جمال وهو يتقدم إلى فرنسا فيلطخ أمجادها بالخزى ، ويذل أنفها الأعز ، ويصرع باطلها المغرور ، وتهن أسطولها المتكبر ، ثم تعود روحه لتكون أول لبنة فى بناء الوحدة ، وأكبر شاهد على قومية العرب .

من بين ضجيج المدافع وانفجار الألغام لم أنس صوتك ـ يا بورسعيد ـ وهو يدوى فيهز أركان لندن وباريس وتل أبيب ، يتردد صداه فى جوانب الوطن العربى كله متدفقا مع البترول الذى يسيل على أرض سوريا بعد تحطيم الأنابيب ، قويا مع دماء الشهداء فى النجف وكربلاء بالعراق على أيدى الأذناب ، صادقا مع الشعور الجياش الملتهب أمام السفارة المصرية فى بيروت ، عزيزاً كإباء الملك العزيز وهو يمنع نزول الطائرات على أرض ليبيا ، أبيا مع النفوس الأبية للعمال العرب وهم يصرون ولو ضاقت بهم الحياة ، وانقطعت أرزاقهم وربطوا الأحجار على بطونهم من الجوع .

أليس هذا هو القومية العربية ، وإلا فما الذى جمع بالعرب ما تفرق ، وألف بهم ما تنافر ، وقرب بهم ما تباعد ، وزين إليهم الشهادة ، وحبب إليهم الزهادة ، وجعلهم إخوانا فى الله فى السلم والحرب ، فى الحياة والموت ، فى السراء والضراء .

ولم أنس فى زحمة الأفراح ـ يا بور سعيد ـ أصدقاءنا الذين وقفوا إلى جانبنا ساعة البأس.

لم أنس الإنذار الروسى وقد أصطكت له أسنان العدو رعباً وفزعاً ، ولا الحشد الصينى وهو يتدفق على السفارة المصرية للتطوع ، ولا استقالة همرشولد وهو يقدمها فى جد وحزم احتجاجا وسخطا ، ولا العالم كله يوم وقف فى هيئة الأمم ليحق الحق ويبطل الباطل ولم يكن مع أعدائنا وأسفاه إلا أصواتهم التى لا تكاد تبين .

ووقع الأعداء الثلاثة فى حيرة وارتباك : مصالحهم فى بلاد العرب قد توقفت وأصيبت بالشلل ، وسمعتهم أمام العالم قد دمغت بالعدوان وهم الذين زعموا أنهم قوة من البوليس ، وهيبتهم قد انتهت وأصبحت دولهم من الدرجة الثالثة أو الرابعة وقد كانت دولا عظمى ، ومدينة واحدة ردتهم على أعقابهم وهم الذين جاءوا فى نزهة قصيرة يعودون بعدها وبأيديهم مفاتيح الغيب ، أو هم الذين جاءوا ليحتلوا أرض مصر فى أربع وعشرين ساعة .

وسقطت الأقنعة الرثة البالية فكشفت عن وجوده كوجوده القردة الخاسئين ، وأذابت قطرات العرق والخزى والعار ما على الوجنات من مساحيق وأصباغ فبدت كأنها وجوه الشياطين ، فإذا بالجمال كان صناعيا ، وإذا بالسلام والحرية والديمقراطية ألوان زائفة ، وعناوين خادعة ، وألفاظ ليس لمعناها عندهم وجود ، وشباك من حرير ليقع فيها البله والمساكين ، وبيدك الصغيرة - يا بور سعيد - انتزعت الأنياب المذهبة نابا بعد ناب ، والتى كانت تشع من بعيد ، فيظن العالم أن الليث يبتسم .

ورجعت إسرائيل لا يملك سليمان وإنما بخفى حنين ، ورجع الأسد البريطانى يهز ذيله ولكن فى خيبة وانكسار ، وقد تأكدت القناة لأهلها ، وزاد عبدالناصر قوة وصلابة وعاد الجيش الفرنسى يضيف إلى هزائمه فى الجزائر هزيمة نكراء لا ينساها التاريخ ، ولا يمحوها الزمن .

واليوم تقف وفودهم فى استجداء تلح فى الاستغفار وتلحف فى الرجاء ، وتسرف فى الندم . فما رأيك - يا بورسعيد - أنتوب على من تاب ؟

ولكننا لم ننس ، ولن ننسى شهداءنا الأبرار ، ولا أبطالنا الميامين . لن ننسى أخواننا الذين آزرونا ولا أصدقاءنا الذين وقفوا إلى جوارنا ، ولا العالم كله ، ولن ننسى عدونا يوم حجب عنا السماء بطائراته ، وغطى وجه الماء بأساطيله ، وألقى فوق رءوسنا آلاف القنابل ، لن ننسى ، وليحفظ الزمن ، وليشهد التاريخ ...

أحمد أحمد جلباية
مبعوث الأزهر فى لبنان

البابا السابق يعترف بالإسلام

ولكن المنية حالت دون إعلان هذا الاعتراف

للأستاذ محمد عبد الله السمان

« إن البابا السابق الراحل كان قد ألف لجنة لدراسة القرآن والدين الإسلامي ورسالة محمد ، وإن اللجنة رفعت لقداسته تقريرها .

وبعد مراجعة ودراسة طويلة اقتنع البابا السابق بأن رسالة محمد رسالة صحيحة سليمة من عند الله ، وقرر أن يعلن ذلك ولكن وافته المنية .

فلما خلفه البابا الحالي وجد البحث ووجد القرار ... فإذا أعلن ... فسوف يكون خبر العام الجديد » .

هذا هو الخبر الذي نشرته مجلة المصور القاهرية في عدد ٢٣ ديسمبر الماضي تحت عنوان : جاسوسيتنا تقول : والمعروف أن أخبار الجاسوسية في مجلة المصور إنما يحررها ويتحراها بدقة الأستاذ فكرى أباظه رئيس التحرير ، وهو من الأمثلة الطيبة لكبار الصحفيين الذين يحترمون رسالتهم الصحفية ويحوطونها بمزيج من النزاهة والدقة والضمير ...

والذين قرءوا هذا الخبر آلمهم أن المنية قد وافت البابا السابق قبل أن يعلن رأيه ، لا لأنهم كانوا يتوقعون دخول المسيحيين جميعا في الإسلام فيزداد عدداً وقوة ، ولكن لأن مثل هذا الإعلان كان سيسهم بنصيب كبير في حل مشكلة السلام حلا سريعا حاسما ، هذه المشكلة التي تقف المطامع لها بالمرصاد لتزيدها تعقيداً على تعقيدها .

فمن جانب : كان من الممكن أن يتحد العالمان : الإسلامي والمسيحي اتحادا صادقا ضد الشيوعية الإلحادية ، التي هي طرف له خطورته في مشكلة السلام ، وهذا الاتحاد لن يكون يوما ما صادقا إلا إذا اعترفت المسيحية بالإسلام كدين سماوي ، كما اعترف الإسلام من قبل بالمسيحية دينا سماويا ، وكل اتحاد لا يقوم على هذا الأساس لن يكتب له ذرة من النجاح ، والمحاولات التي تقتضيها ظروف سياسية هي محاولات يشوبها النفاق السياسي في أجلى مظاهره ، ويجعل منها بناء هشا لا يصمد أمام نسمات الهواء الوديعة .

إن أتباع كلا هذين الدينين الكبيرين يعيشون في ظل عقيدتهم ، ولا يمكن لاتحاد بينهما أن يكون ما دامت العقيدتان تعيشان إلى اليوم على طرفي نقيض .

ومن جانب آخر : كان من المؤكد بعد

إعلان اعتراف البابا السابق الراحل أن يزول التوتر العقيدى وأثره السياسى بين المسلمين والمسيحيين فى شتى بقاع العالم .

وهذا التوتر بدأ منذ ظهور الإسلام ولا زال إلى اليوم ، ونحن حين نحاول الزعم بتلاشى هذا التوتر فكأنما نزعم ألا وجود لهذا الوجود فى الحياة .

وقد بدأ بهذا التوتر العالم المسيحى أولا .

فالإسلام ظهر فى جزيرة العرب معترفا بكلتا اليهودية والمسيحية دينا كتابيا سماويا مع تحوير فى أصليهما اقتضته ظروف سياسية، ومع ذلك فقد أعلن حرية العقيدة لأتباعهما فى ظل الإسلام.بعيداً عن جزيرة العرب كمنطقة محرمة يجب أن تكون مؤمنة للدين الجديد .

ولم يفكر الإسلام فى غزو الروم التى هى مركز المسيحية حينذاك ، إلا بعد أن تأكد لديه سوء نية الروم وظهرت بوادرها حين أعدت العدة وجمعت الجموع لاغتيال دعوة الإسلام وهى فى خضرة العمر ... ومنذ ذاك الوقت إلى يومنا هــذا لم تهادن المسيحية الإسلام يوما واحداً ، رغم أن الإسلام قد أعلن سياسته واضحة ، وهى تقوم على أساس التسامح مع أهل الكتاب جميعا فى ظل قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » ، والعدل معهم فى ظل قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ... » ومع هذه السياسة الواضحة العادلة النزيهة لم تتخل المسيحية فى إطار دولها القوية عن أحقادها ضد الإسلام وبلاده يوما واحداً ، وما ذاقه الإسلام وشعوبه على أيدى الاستعمار الصليبي قد سجله التاريخ ـ ولا زال يسجل ـ صفحات سوداء هى بريئة من روح المسيحية الحقة ، وإن لم تبرأ من العقليات الصليبية المتحجرة ..

ونحن لا نحاول أن نقلب صفحات الحروب الصليبية السابقة التى استمرت من القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر ، والتى كانت الكنيسة مدبرها وقائدها ، وباعت فى سبيلها صكوك الغفران للسذج البله لتجمع نفقات حملاتها البربرية باسم الصليب ، وقد اشترك فى الحرب الثانية منها جيش من الرهبان مكون من فرقتى : الداوية والاسبتارية ، مع أن الرهبان مهمتهم العزوف عن الدنيا بما فيها ومن فيها .

ونحن لا نحاول أيضا ، أن نقلب صفحات الحروب الصليبية الحديثة وهى امتداد لروح الحروب الصليبية القديمة ، ولكنها فى إهاب آخر اسمه الاستعمار ، الذى انقض ولا زال ينقض على ديار الإسلام بوحشية وجشع ووقاحة ...

ونحن لا نحاول ثالثا : أن نقلب صفحات الفكر الصليبي الذى هو تمهيد لهذا الاستعمار الصليبي الحديث ، ولكنه فى هذه الحال باسم التبشير ، وهو يمثل خطراً داهما محققا ...

ولكننا لا نجد بدا من أن نؤكد من أن هناك فى كلا الميدانين : الاستعمار الصليبى والفكر الصليبى ، دافعاً واحداً وهدفاً واحداً أيضاً ...

أما الدافع فهو العقيدة الصليبية . . وأما الهدف فهو السيطرة الصليبية على أنقاض الإسلام .. وإليك مثلا ولدينا منه الكثير ، وهو من إيطاليا قلب المسيحية :

فقد غزت إيطاليا ليبيا المسلمة عام ١٩١١م وليس بين البلدين أية روابط تذكر ، ولا أية مطامع إلا المطمع الصليبى ، وأنفقت فى هذا العام زهاء مائة مليون جنيه فى حملتها على ليبيا ، وحسبك أن تقرأ معى هذا النشيد الطليانى الذى ردده الشباب الإيطالى خلال الغزو :

« إن من أعظم الآلام لشاب فى العشرين من عمره أن لا يحارب فى سبيل وطنه مع دوام القتال فى طرابلس ، والراية المثلثة الألوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة :

يا أماه ... أتمى صلاتك ولا تبكى . . بل اضحكى وتأملى .. ألا تعلمين أن إيطالية تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسروراً لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية التى تجيز البنات الأبكار للسلطان .

سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن . . .

ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليًّا حقا .

يا أماه أنا مسافر . . ألا تعلمين أن على الأمواج الزرقاء الصافية من بحر ناستلقى سفائننا المراسى ؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسروراً لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعونى ، وذلك القطر تحت ظلها . .

لا تموتى لأننا فى طريق الحياة ، وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك . . ولكن اذهبى فى كل مساء وزورى المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذى يأبى الحداد على قبر فلذة كبدك ، وإن سألك أحد عن عدم حدادك على فأجيبيه :

إنه مات فى « محاربة الإسلام . . »

وإليك مثلا آخر من فرنسا قلب الكاثوليكية المتعطشة :

ففرنسا لم تكن لتقنع بالاستيلاء على شمال إفريقيا ، ولكن لها هدفا صليبيا أكثر تعمقا فى الصليبية الجشعة ، وهو تنصير البربر المغربى لتضم إلى الكاثوليكية ثمانية ملايين من البربر المسلمين . .

وإليك مثلا ثالثاً من الدول الصليبية جمعاء على اختلاف مذاهبها المسيحية :

فالريف المغربى يثور فى وجه أسبانيا المسيحية ، ويفتك بزهاء ستة وعشرين ألفاً من جنودها ، واستصرخت أسبانيا النخوة الصليبية ، فاستجابت فرنسا وحشدت مع الأسبان ثلاثمائة ألف مقاتل ، وأدركتهما أمريكا بطائراتها المقاتلة ، وتم لهم محاصرة منطقة الريف البالغ عدد سكانها قرابة ثلاثة

أرباع المليون : براً وبحراً وجواً، واستطاعت أن تؤدى جمعية الصليب الأحمر دوراً فعالا .. أيضاً . .

وهولاندة فى إندونيسيا . . . يزعم أحد نواب برلمانها فخوراً ، أن الجيش الهولاندى استطاع أن ينصر حوالى مليون مسلم من مسلمى جاوة . .

وفى أفريقيا الجنوبية حيث التبشير الصليبى استطاع الاستعمار البلجيكى أن ينصر من الوثنيين أكثر من مليون ونصف ، ولكنه يضيق ذرعا بمائة وخمسين ألفا من المسلمين فيعمل فيهم تقتيلا وتشريداً . .

ويفزع الدكتور « دوجست دوجلاس رئيس أساقفة مدينة الكاب فى جنوبى إفريقيا ، فى سبتمبر الماضى ؛ لأن سياسة الاستعمار الصليبى تقوم على أساس التفرقة العنصرية ، بينما الإسلام يتوغل فى قلب القارة الإفريقية بمبادىء العدالة والمساواة . .

وخاتمة الأثافى من امبراطورية إفريقية يرأسها امبراطور صليبى :

فى امبراطوريته يمثل المسلمون ثلثى سكانها ، ولكنهم يعيشون فى إطار قاتم من الرعب والفزع ، وبدون وضع أو هدف ، أما الامبراطور (العظيم) فيصرح فى الكونجرس الأمريكى منذ سنوات ويقول متحدثا عن أهم أهدافه :

« إن أهم الأهداف التى نسعى إليها هو توحيد الدين واللغة فى بلادنا ، وبدون ذلك لا يمكن أن نحقق شيئا من التقدم » .

ولما سئل عن المسلمين فى بلاده أجاب بكل تبجح .

نعم : توجد هناك (أقلية مسلمة) فى الجنوب اعتنقت الإسلام بتأثير الأجانب التجار ، وقد وضعنا لها برامج منذ اثنى عشر عاما ، فلا يمضى وقت طويل إلا وقد عادت إلى حظيرة دين آبائها » .

ولك أن تعيد إلى مسامعك بعدئذ كلمة القائد الانجليزى اللورد اللنبى فى نهاية الحرب العالمية الأولى :

« الآن انتهت الحروب الصليبية » وكلمة الجنرال الفرنسى غورد حين زار قبر صلاح الدين فى دمشق : « ها قد عدنا ياصلاح الدين..!! »

وبعد ـ فقد كنا نود من صميم قلوبنا أن يعلن البابا السابق الراحل اعترافه بالإسلام، كما لا زلنا نأمل أن يكتب التاريخ الخلود للبابا اللاحق ، ولسنا نطمع فى أن يسلم العالم المسيحى، ولكننا نطمع فى أن يعيش العالمان الإسلامى والمسيحى فى ظل أخوة صادقة ، وتعيش الإنسانية بأسرها فى مأمن من الخوف والفزع وأساليب التوتر العقيدى، والاستعمار الصليبى المتعطش دائما إلى عقائد المسلمين ودمائهم . . !

محمد عبد الله السمان

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

حول « كلفته بأمر » :

كنت فى بعض « لغويات » عرضت لهذا الأسلوب والتمست له وجها يصححه ، إذ كانت التعدية بالحرف ذاعت عند المؤلفين وعلى ألسنة الناس من قديم ، وإن كان الذى جاء فى فصيح الكلام ومأثور القول التعدية إلى المفعول الثانى من غير صلة .

وقد كتب إلى الأستاذ ابراهيم عبد المطلب بديوان وزارة التربية والتعليم أن تصحيح هذا الأسلوب يغرى الناس به ويذلل لهم الاستمساك به ، إذ يوافق ما ألفوه ودرجوا عليه ، وهو يقول : « وأعتقد أن الذى يحدث بعد قراءة مقالكم هذا هو أن الذين يكتبون هذا الفعل متعديا بغير باء باتوا يتشككون فى ذلك ، وأن الذين يكتبونه متعديا بالباء ازدادوا إصرارا على خطئهم ، بعد أن وجدوا ما يؤيده ويزكيه ، وذلك لأن المقال لم يبين مثلا ـ كما كنا نود ـ حقيقة هامة ، وهى أن هذه الأمثلة على تعديه بالباء قليلة وتكاد تكون شاذة ولا يمكن الأخذ بها شأنها فى ذلك شأن كل قاعدة تتعدد فيها الآراء ولا تخلو من شواذ هى فى حد ذاتها مجرد آراء فى أذهان أصحابها » .

وإنى لأشكر الأستاذ وأقدر أدبه وفضله وأذكر أن سبيلى فى الحديث عن الأساليب المنحرفة عن الجادة أن أحاول تخريجها إذا وجدت لها وجها يسوغها ، وهذا لا يعنى تسويتها بالأساليب الأصلية فى الفصاحة والجودة ؛ فالأسلوب الأصلى أقوم وأسد ، والآتى به هو الذى استمسك بالعروة الوثقى فى القول ، وهو الذى لم تزل قدمه فيمن زل .

وفى مسألتنا هـــذه لا مرية فى أن تعدية « كلف » إلى مفعولين من غير وسط هو أفصح كلاما وأقوم قيلا . وأود أن يكون هذا المنهج معلوما عنى فيما آخذ بسبيله فى تصحيح ما جاء منحرفا عن السنن السوى .

استدراك على « ملىء »

ذكرت فى « لغويات » الجزء الماضى من مجلة الأزهر الغراء أن مليئا بمعنى مملوء لم يجئ

فى اللغة ، وقد بان أنه على انحرافه قديم فى ألسنة العامة .

فقد جاء فى تهذيب اللغة للأزهرى ـ وهو لما يطبع ـ : « وأخبرنى أبو الفضل المنذرى أنه سأل أبا العباس أحمد بن يحيى عن كتاب العين ، فقال : ذاك كتاب ملىء غدد . قال : وهذا كان لفظ أبى العباس ، وحقه عند النحويين : ملآن غددا . ولكن أبا العباس كان يخاطب الناس على قدر أفهامهم ، أراد أن فى كتاب العين حروفا كثيرة أزيلت عن صورها ومعانيها بالتصحيف والتغيير ، فهى فاسدة كفساد الغدد وضرها آكلها » .

وأبو العباس أحمد بن يحيى هو الإمام ثعلب من أئمة الكوفيين فى النحو واللغة والأدب ؛ توفى سنة ٢٩١ هـ . وكتاب العين هو أول كتاب فى اللغة ، وينسب إلى الخليل والمنذرى يريد أن ثعلبا لحن فى موضعين : أن عبر بالملىء فى موضع الملآن ، وأن وقف على المنصوب المنون بالسكون فقال : غدد ، والوجه أن يقال : غددا ، والأمر الثانى له وجه صحيح فى العربية فإن الوقف بهذا يعزى إلى قبيلة ربيعة ، وهى لغة معروفة ، وجاء منها قول أعشى قيس ـ وهو من ربيعة ـ :

إلى المرء قيس نطيل السرى
وناخذ من كل حى عصم

وكان ثعلب ربعيا ، إذ كان من بنى شيبان بالولاء . فأما ملىء فلا يجرى على لغة تسنده ؛ على أنى قد قلت فيه قولا يمكن به تصحيحه ، فليرجع إليه من شاء .

وإذا كان الشىء يذكر بالشىء فإن ثعلبا روى عنه فيما كان يقع فيه من مجاراة العامة غير ذلك . وفى معجم الأدباء لياقوت ٥ / ١١٧ : « قال أحمد بن فارس : كان أبو العباس ثعلب لا يتكلف الإعراب فى كلامه . كان يدخل المجلس فنقوم له ، فيقول : اقعدوا ، اقعدوا ، بفتح الألف » . وجاء ذكر الغدة ، ويفسرها فى المصباح بأنها لحم يحدث من داء بين الجلد واللحم يتحرك بالتحريك .

النادى والنوادى :

أنكر اليازجى جمع النادى على النوادى . وهو يقول فى لغة الجرائد ٣٧ : « ويقولون : قد شاع هذا الخبر فى النوادى ، يريدون جمع النادى . وهو ـ مع كونه القياس ـ غير مستعمل ، وإنما يقال فى جمعه : الأندية . وهو فى الأصل جمع ندى بمعنى النادى ؛ استغنوا عن جمع النادى كما استغنوا بالأحاديث الذى هو جمع الأحدوثة عن جمع الحديث » ، وتبع اليازجى الأب أنستاس الكرملى فى مجلة لغة العرب (المجلد الرابع ص ١٠) .

وقد اعتمد اليازجى فى هذا القول على أن

المعاجم لم تذكر النوادى فى جمع النادى . ويقول فى الأساس : « جلس فى نادى قومه ونديهم وندوتهم ومنتداهم . ولهم أندية وأنديات ، قال كثير :

لهم أنديات بالعشى وبالضحا
بها ليل يرجو الراغبون نوالها

وناديتهم : « جالستهم » . وظاهر أن الأنديات جمع الأندية ، كالأعطيات جمع الأعطية جمع العطاء ، فهذا من باب جمع الجمع ، كما لا يخفى .

وجاء فى اللسان جمع النادى على الأنداء ، كما يقال : شاهدو أشهاد .

وكأن الذى دعاهم إلى إهمال النوادى والاستغناء عنه بالأندية جمع الندى أن النوادى استعملوها فى معان أخرى . فالنوادى : الحوادث ، ونوادى الإبل : شواردها ، ونوادى النوى : ما تطاير منها عند رضخها .

على أن هذا الذى قاله اليازجى رد عليه ، فتناوله الأمير شكيب أرسلان فى مجلة المشرق (سنة ١٨٩٩ ص ١١٦٦) وأثبت أنه جاء جمع النوادى للنادى فى شعر لمعاذ الخزاعى فى أمثال الميدانى يقول فيه :

ولست برعديد إذا راع معضل
ولا فى نوادى القوم بالضيق المسك

(المَسْك : الجلد . يقول : إنه فى مجالس القوم لا يضيق بما يحدث فيها من جدل ، فهو حليم واسع الحيلة ، ليس بضيق العطن) . فترى فى هذا النوادى جمعا للنادى .

على أن لقائل أن يقول : وما تنكر أن يكون نوادى القوم فى بيت معاذ يراد بها حوادث القوم وخطوبهم وما يعن من شئونهم ، كحمالات الديات والمغارم فى إصلاح ذات البين ! ولكن هذا تخريج بعيد ، والقريب المتبادر أن النوادى فى البيت جمع النادى للمجلس .

اللقانة والحرام :

اللقانة فى الريف إناء من الفخار يُعجن فيه وقد عنانى أن أبحث عن مأتى هذه الكلمة فى اللغة . وكان بدا لى من دهر مضى أن أصلها الإجانة ، وهى إناء يغسل فيه الثياب أو نحوه ، فنطقوا بالجيم كالقاف المعقودة وقربوها من الكاف ، وهى لغة لبعض أهل اليمن ، ينطقون بها كما تنطق الجيم الفارسية أو القاهرية فى هذه الأيام ، ونقلوا كسرة الهمزة فى إجانة إلى لام التعريف وحذفوا الهمزة ، كما يقال فى الإحسان : لِحسان ، وكان الواجب أن يقال بعد هذا : لِجَّانة أو فى ابتداء الكلام : ألجَّانة ، ولكن ظُنّ أن الكلمة الأصلية لجانة فأدخلوا عليها أداة التعريف فقالوا : اللجانة بالجيم الفارسية ، ويظنها بعض الكاتبين أنها بالقاف

فيقولون : اللقانة . ويقرب من هذا التخريج قولهم : الحرام لـكساء من الصوف يلتحف به وأصله الإحرام ، وهـو الإحـرام بالحج أو العمرة ، أطلق على هذا الـكساء لما كان يلتحف به عند الإحرام بدلا من القميص المخيط . وسوغ هذا الإطلاق أن الإحرام سبب فيه وحامل عليه ، ولو من إطلاق السبب على المسبب ، وقد قالوا : أجـنّك يريدون : أمن أجل أنك ، فترى كيف حذف من والهمزة من أجل ، ومن أنك وغيرت الجيم من السكون إلى الـكسر . وجاء فى اللسان فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه أن امرأته سألته أن يكسوها جلبابا ، فقال : إنى أخشى أن تدعى جلباب الله الذى جَـلْبَـبك . فقالت : وماهو ؟ قال : بيتك . قالت : أجنك من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم تقول هذا ، وعامة زماننا يقولون : أجرنك يريدون : أمن جراء أنك أى من أجل أنك . هذا وإعراب مصر مازالوا يقولون : هات‌لحرام ، ولا يقولون : الحرام ونطقهم هو الصحيح .

وقد وجـدت فى اللسان فى لقن : « اللقن إعراب لـكن : شبه طست من صفر » يريد أن اللقن معرّب وأصـله لـكن ، وهذا أقرب وأدنى أن يخرج عليه اللقانة فأصلها اللقن وتصرف فيه العامة حتى أصاروه إلى اللقانة ، وليس هذا ببعيد من فعلهم .

المخاتير :

يطلق فى سورية المختار على رئيس القرية ، ويقال له فى مصر : العمدة ؛ وكان يقال له فى فارس : الدهقان ، وإياه عَنى من يقول :

إنما الذلفاء يا قوتة
أخرجت من كيس دهقان

وقد رأيت جمع المختار فى بعض الصحف الدورية على المخاتير ، فورد فيها : « مخاتير القرى » .

وهذا الجمع تنبو به العربية وتجفو عنه . وذلك أن التاء فى المختار زائدة فهى تاء الافتعال ، فلا تقع بعد ألف الجمع ، فإنما يقع بعدها العين فى الـكلمة ؛ ألا ترى أنك تقول فى جمع مقامة : مقاوم ، وفى جمع تجربة : تجارب .

والحديث فى جمعه يقضى بالبحث فى أصله فهو فى الأصل اسم مفعول ، وحقه إذ كان كذلك ألا يجمع جمع تكسير بل جمع تصحيح فيقال : المختارون . ولـكن المختار لرئيس القرية صار اسما وانسلخ من الوصفية ، فساغ أن يجمع جمع تـكسير . وجمعه على هـذا : مخاير بذكر الياء فيه التى انقلبت ألفاً بعد ألف

الجمع وحذف التاء ، ويجوز أن يقال : مخايير بزيادة ياء تعويضاً عن التاء المحذوفة .

والقول فى تصغير مختار كالقول فى تكسيره ؛ إذ كان البابان يجريان مجرى واحداً . وقد كان تصغير مختار وتكسيره مدرجة للخطأ ، وقع فيه بعض أئمة اللغة ممن لا يعنى بالقياس وقواعد النحو المستنبطة . وحسبك فى هذا أن الأصمعى — وهو من هو — وقع[1] فى هذا الخطأ ، استدرجه إليه نحوى ماهر هو الجرمى تلميذ سيبويه ، وكان الأصمعى أصاب الفلج والغلب على الجرمى فى لفظة لغوية ، فأراد الجرمى أن يثأر لنفسه من الأصمعى فى النحو ، فجاءه يوما فى مجلسه وقال له : كيف تحقر مختاراً ؟ فقال الأصمعى . مخيتير . فقال أبو عمر الجرمى : أخطأت ، إنما هو مخير أو مخيير ، تحذف التاء ؛ لأنها زائدة .

محمد على النجار

(١) انظر الخصائص ٣/٣٠٠ .

الدين كقانون ...!

لابد للناس من قوانين تساس بها شئونهم ، ولأجل أن تحقق القوانين غايتها المقصودة منها ، لا بد أن تقع فى نفوسهم موقع العقيدة ، والاحترام والتقديس ؛ فيكون لها بمكانتها فى النفوس ، وبهيمنتها على الجماعة قوة التفاعل بين وازع العقيدة ووازع الحكم فى التوجيه إلى الطريق السوى الذى يرضى الله ويعلى من شأن الجماعة ، ويطمئن المصلحين ، القائمين على الأمر ، المهيمنين على القانون .

من كتاب « منهج القرآن فى بناء المجتمع »
لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ . محمود شلتوت

محمد بن موسى الخوارزمى
واضع علم الجبر

للأستاذ سليمان فياض

بين العلماء العرب ، نجد اسم محمد بن موسى الخوارزمى منقوشا بحروف من نور ، فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى . وفى هذه الفترة كانت البداية الرائعة ، للنهضة العلمية الأولى للعرب ، وكانت الحياة راكدة خامدة فى أوربا التى كانت تمر بمرحلة معروفة فى التاريخ ، باسم العصور الوسطى المظلمة .

وفى هذا القرن التاسع للميلاد ، الذى عاصرته حياة محمد بن موسى الخوارزمى ، كانت الخلافة العباسية فى أوج مجدها ، وكان نظام الحكم نظاما امبراطوريا كاملا ، على نمط نظام الحكم الامبراطورى ، الذى عرفته فارس ، والهند واليونان ، والرومان ، والصين ، وكانت المرحلة الاجتماعية التى يمر بها العرب ، ويمر بها العالم كله معهم مرحلة إقطاعية ، بكل ما للإقطاع من ملامح وسمات . وهذا يعنى فى البداية والنهاية ، أن حياة الفكر والمفكرين كانت مشدودة إلى الحكام من خلفاء وأمراء وولاة ووزراء ، فهم الذين يساعدون العلماء والأدباء بالبذل والتقدير ، ويشجعونهم على على البحث والمعرفة والتفرغ للعلم أو الأدب .

وكان هذا القرن الذى عاش فيه الخوارزمى هو القرن الثانى لوقوف العرب على علوم الفرس والهنود والإغريق . فمنذ منتصف القرن الثامن الميلادى ، وأواخر القرن الثانى الهجرى ، بدأ العرب فى نقل معارف الفرس والهنود والإغريق العلمية إلى لغتهم ، بعد أن فرغوا من السيطرة على شعوب عديدة متجانسة طوتها الفتوحات العربية تحت راية الإسلام ، وكانت عملية النقل والترجمة لمعارف الإغريق والهنود والفرس ، تتم فى الأعم الأغلب بواسطة المترجمين غير العرب ، بسبب بصرهم بعدة لغات ، بينها اللغة العربية التى ينقلون إليها ، وكانت نتيجة حركة النقل والترجمة هذه ، هى هذا العلم العربى المعجز ، على حد تعبير ساراطون ، الذى أثر إلى حد بعيد ، فى تبديد ظلام القرون الوسطى عن الحياة والفكر فى أوربا ، بل وساعد إلى مدى أكثر بعدا فى نشوء عصر النهضة الأوربية الحديثة منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وذلك بعد أن توقف العلم الإغريقى عن النمو ، منذ أواخر القرن الرابع الميلادى . بل لقد أثر هذا

العلم العربى « المعجز » ، فى حياة الدول البوذية فى شرقى آسيا وجنوبها .

كانت حركة النقل والترجمة إذن فى ذروة وجودها ، بعد أن انقضى عليها ما يقرب من قرن ، وكانت بواكير الإبداع العلمى للعرب قد أخذت فى الظهور ، وراحته إرهاصاتها القوية تبشر بنهضة علمية عربية ، قدر لها أن تملأ فراغ ثلاثة قرون من الزمان وبرهن العلماء العرب منذ مطالع هذا القرن التاسع الميلادى ، على أنهم ليسوا مجرد نقلة لعلوم العالم إلى قومهم ، وليسوا مجرد دارسين وعالمين بهذه العلوم ، فقد راحوا يهضمون هذه العلوم ، ويتمثلونها ويعلقون عليها ، ويشرحون غوامضها ، ويقارنون بين نظائرها بل أخطر من ذلك أنهم راحوا يضمون أشتاتها المتفرقه بين الشرق والغرب ، وهذا العلم وذاك . ويصنعون من أمشاجها المتناثرة هنا وهناك علوما جديدة ، لم تخطر من قبل ببال الإغريق أو الفرس أو الهنود . وهكذا كان وجود عقلية إنسانية ، تستوعب علوم الهنود والفرس والإغريق ، ضرورة تاريخية بالنسبة لتقدم العلوم وتقدم الإنسانية معاً . وقدر للعرب أن يكونوا فى التاريخ أصحاب هذه العقلية الضخمة فى تلك المرحلة التى وقفت فيها الإنسانية والمعرفة على مفارق الزمن .

ومحمد بن موسى الخوارزمى واحد من هؤلاء العلماء العرب الذين وقفوا على مفارق الزمن ، ليحملوا راية التقدم العلمى من ناحية ويجنوا ثمرات المعرفة الإنسانية فى تلك الحقبة من الزمن من ناحية أخرى . وكان الخوارزمى متمتعا مثل أنداده من العلماء العرب بهذه العقلية الهاضمة والمبدعة فى الوقت نفسه .

ولما كان التاريخ القديم والوسيط فى العالم يحفل بتراجم الأدباء والفلاسفة ، أكثر بكثير من اهتمامه بتاريخ العلماء ، لأسباب عديدة لا تغيب عن بال متأمل . فقد ولد الخوارزمى وعاش ومات ، دون أن نعرف من تاريخ العلوم والعلماء شيئا عن ميلاده وموته ، بل دون أن نعرف شيئا يغنى عن حياته ومعيشته . فنحن لا نكاد نعرف عن الخوارزمى الإنسان شيئاً يذكر عن أسرته وأساتذته وعلاقاته . فكل ما نعرفه عن الخوارزمى أنه كان من خوارزم (خيوه) ، وأنه كان أحد أبناء بنى موسى الذين لهم على العلم أياد بيضاء . وأنه كان معاصرا للخليفة المأمون وأنه كان منقطعاً إلى خزانة الحكمة ، فى ظل المأمون ومعونته وتشجيعه إياه . ومعنى ذلك ، أن الخوارزمى كان يعيش فى القرن التاسع الميلادى الذى حكم المأمون أثناء ثلثه الأول ما يقرب من عشرين سنة .

ولكن محمد بن موسى الخوارزمى، العالم نعرف عنه، وعن آثاره العلمية، وعن تأثيره العلمى فى الشرق والغرب شيئا كثيراً. فها هو ابن النديم يذكر فى الفهرست (ص ٣٨٤ ط القاهرة): «وله من الكتب: كتاب الزيج نسختان أولى وثانية، وكتاب الرخامة، وكتاب العمل بالإسطرلابات، وكتاب عمل الإسطرلاب، وكتاب التاريخ».

ولكن ابن النديم لم يذكر لنا أربعة كتب أخرى ألفها الخوارزمى، وقدر لها أن تصل إلى أيدينا، بين مترجمة إلى اللاتينية أو بنصها العربى. وهذه الكتب هى: الحساب، والجبر والمقابلة، وتقويم البلدان، وكتاب آخر جمع فيه الخوارزمى بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك.

وإذن فمحمد بن موسى الخوارزمى يعتبر بهذه الكتب: مؤرخا بكتابه فى التاريخ، وجغرافيا بكتابه فى تقويم البلدان، وفلكيا بكتبه الفلكية، ورياضيا بكتبه الرياضية. وفى رسالة للمستشرق الإيطالى «نلينو» يقول عن كتاب الخوارزمى «تقويم البلدان» وشرحه فيه لآراء بطليموس: «إن عمل الخوارزمى ليس مجرد تقليد للآراء الإغريقية، بل هو بحث جديد مستقل فى علم الجغرافيا، يمتاز امتيازاً ظاهراً عن كتابات المؤلفين الأوربيين فى ذلك العصر». وقد ذكر بعض المتقدمين من مؤرخى العرب، أن محمد بن موسى الخوارزمى قد اشترك بتكليف من المأمون فى قياس درجة من درجات محيط الكرة الأرضية. وهذا مايعتقد «سوتر» بناء على تحقيقاته الجغرافية. وبين كتب الخوارزمى نجد أن كتاب «الجبر والمقابلة» هو أعظم كتبه على الإطلاق، وأكثرها تأثيراً وشهرة لاسمه فى عصره والعصور التى تلته، فى الشرق وفى الغرب. بل إن الخوارزمى يعد بهذا الكتاب، الواضع الأول لعلم الجبر.

ويدلنا على مدى تأثير الخوارزمى وشهرته فى الشرق، أن كتابه «الجبر والمقابلة» قد شرحه كل من: سنان بن الفتح، وعبدالله ابن الحسن العدنانى، وأبو الوفا البزجانى. وفى القرن الحادى عشر الميلادى، نجد أن البيرونى، وهو أيضاً من خوارزم، له ما لا يقل عن ثلاثة مؤلفات، كلها شروح لكتب الخوارزمى. ونجد أن عمر بن ابراهيم الخيام، صاحب الرباعيات المشهور، قد اقتبس من جبر الخوارزمى. ونجد أن محمد بن الحسين الكرخى قد اعتمد على هذا الكتاب أيضا فى تصنيفه فى علم الجبر. أما فى القرن العاشر، فقد كان الرجل العربى الثانى الذى كتب فى علم الجبر، هو: أبو كامل الخوجه بن أسلم، فله مؤلف مشهور فى علم الجبر، اعترف فيه بأنه

اقتبس من جبر الخوارزمى ، وأشار إليه دائما كمرجع لعلمه . وقد ذكر زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، أن « الخوارزمى هو أول من ترجم علم الجبر للمسلمين . بينما ذكر ابن خلدون فى مقدمته التى كتبها فى القرن الرابع عشر الميلادى أن « الخوارزمى هو أول من كتب فى علم الجبر » . وبين النصين كما نرى تعارض واضح ، لا يخفى على أحد . فثمرة النص الأول تعنى أن الخوارزمى لم يضع علم الجبر ، وأن علم الجبر كان معروفا لدى السابقين من غير العرب ، وأن دور الخوارزمى فى معرفة العرب به ، لا يجاوز أن يكون دور الناقل أو المترجم ، ولا يرقى إلى درجة الوضع والتأليف . وثمرة النص الثانى ، تعنى أن الخوارزمى هو الواضع الأول لعلم الجبر فى العالم كله . وهو تعارض له قيمته التاريخية التى سنقوم ببحثها بعد قليل . .

ويدلنا على مدى تأثير الخوارزمى وشهرته فى الغرب ، أن اسم الخوارزمى قد أصبح كلمة دخلت معاجم أكثر لغات أوربا ، بل وأصبحت هذه الكلمة تدل فى الاصطلاح اللغوى على الطريقة الوضعية فى حل المسائل فنحن نجد أيضا أن اسم علم الجبر فى جميع اللغات الإفرنجية مشتق من كلمة « الجبر » العربية ، التى استخدمها الخوارزمى ، ونجد أن الكلمة الأسبانية التى تعنى الأعداد والأرقام هى « جوارزمو » . وعن طريق الخوارزمى هذا ، تعلم الغربيون علم الحساب حتى القرن السادس عشر الميلادى عن طريق كتب أوربية ، بنيت على كتابه فى الحساب وبين هذه الكتب كتاب لإسكندر دى فيلادى فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد نظم كتابه ذاك فى أبيات من الشعر . على نمط ألفية ابن مالك . وكتاب لساكرو بوسكو فى القرن الثالث عشر أيضا وذلك بعد أن ترجم كتاب الخوارزمى فى الحساب إلى اللاتينية . ومن بين كتب الخوارزمى التى ترجمت إلى اللاتينية ، كتاب الزيج (وهو عبارة عن جداول رياضية) ، وقد ترجمه إديلارد البريطانى فى القرن الثانى عشر الميلادى وعلق عليه عالم دانمركى ونشره فى كوبنهاجن فى مطالع القرن العشرين .

ونعود إلى المسألة التى تدور حول الخوارزمى ، كعالم رياضى مبدع ، ابتكر الجبر كعلم ، لأول مرة فى التاريخ . فابن خلدون يذكر أن الخوارزمى هو أول من كتب فى علم الجبر ، والقزوينى المعاصر للقفطى ، يذكر أن الخوارزمى هو أول من ترجم هذا العلم للمسلمين . وبين هذين المؤرخين ، كما قلنا تعارض يضعنا أمام هذا السؤال : هل كان الخوارزمى هو الواضع الأول لعلم الجبر ، أم دور الخوارزمى فى تعريفه للعرب بهذا

العلم ، لا يجاوز دور المترجم الأمين ؟ ...
لا مفر إذن من الرجوع إلى التاريخ الخاص لعلم الرياضة ، لتحديد الإجابة على هذا السؤال . وهى إجابة يسرها لنا الدكتور على مصطفى مشرفة حين تحدث عن الخوارزمى وصلته بعلم الجبر .

من المعروف أن الحساب علم هندى ، وأن الهندسة علم إغريقى ، ومن المعروف أيضا أن العقلية الهندية كانت عقيمة فى الهندسة ، بقدر ما كانت العقلية الإغريقية عقيمة فى علم الحساب ، إلى درجة أن الإغريق كانوا يرمزون للأعداد من واحد إلى تسعة بالحروف الأبجدية . ومن المعروف أن حل المعادلات الجبرية يرجع إلى ما قبل الميلاد بألفى سنة ، أى إلى ما قبل الإغريق فى مصر ثم بابل . ومن المعروف أن قاعدة حل معادلات الدرجة الثانية كانت معروفة عند الإغريق والهنود . وإذن فإن مسائل علم الجبر ، كانت معروفة لدى الإغريق والهنود بل ولدى المصريين والبابليين والصينيين ، ولما كان الخوارزمى على علم بالحساب الهندى وألف فيه ، وعلى علم بالهندسة الإغريقية وألف فيها ، فمعنى ذلك ، أن الخوارزمى كان على علم بمسائل الجبر لدى الإغريق والهنود وهذا ما يؤكد أن الخوارزمى لم يأت كما يقول القزوينى ، فى الرياضة بجديد ، وأن دوره لا يعدو أن يكون دور المترجم الأمين .

ولكن الأبحاث العديدة فى تاريخ الرياضة عند الإغريق والهنود ، لم تتح لمؤرخ فرصة العثور على كتاب واحد يشبه كتاب الخوارزمى « الجبر والمقابلة » . ثم إن الجبر كعلم له أصوله وأسسه وقواعده وقوانينه ، لم يكن معروفا عند الإغريق ولا عند الهنود ، بل كان الجبر مسائل رياضية متفرقة بين علم الحساب الهندى وعلم الهندسة الإغريقية ، وقد جعله الخوارزمى علما بعد أن جمع هذه المسائل وقعدها وقننها وجعل منها علما جديدا ، عن الهندسة والحساب ، علما آخر يقوم على أساس الجمع بين الفكرة الهندسية والفكرة العددية . وإذن فعبقرية الخوارزمى العلمية ، تتجلى فى جمع شتات هذه المسائل وصياغتها فى صورة علم منسق موحد ، وإذن فإن دور الخوارزمى فى هذا العلم لا يمكن أن يكون هو دور المترجم ، بل دور الواضع المؤلف . ومن الطبيعى أن علماً ما لا يمكن ابتكاره من العدم ، ولا يمكن أن يأتى ثمرة لجهد مصطنع وتمرين عقلى منعزل .

و «نيوتن» مثلا ، وضع علم حركة الأجسام « الديناميكا » من أشتات موزعة ، وقد كانت معظم معلومات هذا العلم معروفة فى زمان نيوتن وقبل أهل زمانه ، وكان دور نيوتن فى هذا العلم كدور الخوارزمى فى علم الجبر ، فالخوارزمى بلا شك يعتبر واضعا لعلم

الجبر ، بقدر ما يكون نيوتن واضعا لعلم حركة الأجسام ، وكان كلاهما بهذا العمل ، عالما عبقريا ، وهل كانت العبقرية العلمية سوى قدرة على التجميع والتفريق ، والتمييز والاختيار ، والربط والتصنيف ؟ ! .

كان ضروريا إذن ، أن توجد الهندسة الإغريقية ، والحساب الهندى ، لكى ينشأ علم الجبر ، . وكان ضروريا أن توجد بذور علم الجبر فى هندسة الإغريق ، وحساب الهنود لكى يتحول إلى علم . ولما عرف العرب أرقام الهند ، وهندسة الإغريق ، وامتزج العلمان فى العقلية العربية ، أصبح من الممكن لعبقرى عربى من طراز الخوارزمى أن يضع علم الجبر لأول مرة فى تاريخ العلوم .

وإلى كتاب الخوارزمى « الجبر والمقابلة » يرجع الفضل الأول فى انتشار هذا العلم فى الشرق والغرب ، وفى تقدم العلوم الرياضية على مر القرون .

وهكذا كان الخوارزمى العالم الفلكى ، المؤرخ، الجغرافى رياضيا من الدرجة الأولى، فاستحق بذلك لقب عالم ، كما استحقه نيوتن بعده بقرون . وكان الخوارزمى فى ما كتبه وألفه ، كل هؤلاء الرجال الثلاثة الذين تحدث عنهم فى مقدمة كتابه « الجبر والمقابلة » : « . إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجا قبله فورثه من بعده . وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقا فأوضح طريقه ، وسهل مسلكه ، وقرب مأخذه . وإما رجل وجد فى بعض الكتب خللا فلم شعثه ، وأقام أوده ، وأحسن الظن بصاحبه ، غير راد عليه ، ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه » .. فالخوارزمى كان الرجل الأول فى ما أبدعه فى كتابه الجبر والمقابلة ، وكان الرجل الثانى بما فعله فى الحساب والهندسة ، وكان الرجل الثالث بما فعله فى تقويم البلدان من شرح لآراء بطليموس الإغريقى .

سليمان فياض

من المبادئ التى ميزت الإسلام التوحيد وهو سبيل القوة ، والإخاء وهو سبيل التعاون ، والمساواة وهى سبيل العدل ، والحرية وهى سبيل الكرامة ، والبر وهو سبيل المحبة ، والسلام وهو سبيل الرخاء ... ! .

ا . ح الزيات

العالم الروحى فى تقدير الإسلام

للشيخ عباس طه

نريد أن نوازن فى هذا البحث بين ما سلكه الإسلام فى مقومات الجسد وإشباع غرائزه فى حدود مثالية ليكون له عوناً على السمو الروحى الذى يرتفع إلى عالم الملكوت الأعلى فى بعض الأحايين - فالجوع والحرمان والعرى استهدافاً للسغبة أولا ثم السمو بالروح إلى منزلتها العليا ثانيا ليس من خصائص الإسلام ومميزاته - بل من سمات الإسلام الظاهرة أن يمارس المسلم مزايا بناء الجسد وتطويره تطويراً يوائم التدرج الروحى فى حدود ما أمر الله به أن يُفعل وتلك أولى خصائص الإسلام وأفضاله وأسراره ومقدراته .

فقد عُنى الإسلام بالمقومات الجثمانية عنايته بالمقومات الروحية والعقلية وهذه ميزة لم يشاركه فيها دين من الأديان المنتشرة بين جماعات البشر اليوم ، على معنى أن الإسلام قد عُنى ببناء الجسد ليكون هذا الجسد محوراً تدور عليه التصرفات الروحية المنبثقة من الروح التى هى المدبرة المسخرة الآمرة لهذا الجسد يقول الله جل علاه : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » . فالإسلام فى مدلوله ومراميه يحض على تطوير الأجسام تطويراً يحتمل مجاهدة النفس ومجاهدة العقل ومجاهدة الشدائد فى أوسع معانيها وفى الحديث الشريف « إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً » أما الذى يعرف عن الأديان الأخرى أنها تهدر العناية بالجسد فى جانب السمو بالروح ولكل منها فى ذلك أسلوب خاص اشتهرت به فى هذا العهد .

فالبراهمة والبوذيون فى الهند يرهقون أنفسهم عسراً ويسومونها التكاليف والرياضات المضنية كسرا لطغيان الجسم ومناهضة لسلطانه تذرعاً للوصول إلى السمو الروحى ، ويروى عن خاصتهم فى هذا المجال من ضروب التعذيب التى يعاملون بها أجسادهم طموحاً إلى هذه المنزلة فمنهم من يجلسون وينامون على أسنة مشرعة من المسامير ينضدونها متقاربة من أسفل أسرتهم لتلامس

أطرافها المحددة أبدانهم ومنهم من يقللون من طعامهم وشرابهم حتى يصيروا كالهيا كل العظمية هزالا ونحولا .

أما الإسرائيليون فإن فى ديانتهم إرهاقات جسدية لايتحملها إلا الأتقياء منهم ، وكانت سبباً فى خروج الكثرة من إسرائيلى أوربا عن تقاليدهم فى مسألة السبت والشئون الغذائية واتباعهم مايجرى عليه الناس هنالك . ونظراً لفداحة التكاليف الجسدية فى الديانة اليهودية وعجز أكثر الناس عن القيام بأدائها قد كلف كل ربانى يتقدم إليه رجل طالبا الدخول فى هذه الملة أن يحاول رده عن قصده حتى لا يرتد بعد شهوده ، يقول المسيو جوليان ويل حاخام باريس فى كتابه عن « الديانة الإسرائيلية » - يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول فى عهد إبراهيم ثلاث مرات لافتا نظره إلى الصعوبات التى سيصادفها والتكاليف الشاقة التى سيتحملها والأخطار التى سيتعرض لها . فإذا أصر على طلبه وتحقق الربانى بأن الدواعى التى تدعوه للتهود سليمة أمكنه أن يقبله فى حظيرة البيعة .

أما المسيحية فإنها وإن كانت لا تبلغ شأو اليهودية فى التكاليف الشاقة فهى بنص كتابها وشروح علمائها ديانة زهد وتقشف وتخلص من علاقات الدنيا واعتداد بالروح دون الجسد .

أما الإسلام فقد امتاز عن جميع الأديان المعروفة بالعدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد فهو يحض على المتع المادية والملذات الجسدية ما دام تناولها من طريقها المشروع وفى حدها المعتدل .

لم يقم الإسلام على هذا الصراط السوى بين الروح والجسد ذهاباً إلى أنهما سواء فى الدرجة أو أن الحياة الدنيا تساوى الحياة الآخرة . لا ولكن لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الدين العام الخالد مبنيا على قواعد العلم ونواميس الطبيعة . وقد قرر العلم أن العقل السليم لا يكون إلا فى الجسم السليم ، وأن السمو الروحانى لا يتأتى من حرمان الجسد من حاجاته ، ولكن من توفية تلك الحاجات فى دائرة الاعتدال . وأن ذلك السمو ليس فى أن يعيش الإنسان حياة سلبية لا أثر لها فى الخارج ، ولكن فى أن يعيش حياة إيجابية تستفيد من الوجود علماً وحكمة ، وتفيضهما على من يجاورها من المزاملين لها فى الحياة .

نعم إن السمو الروحانى لا ينال بحرمان الجسد من حاجاته فإن قصارى من يسلك هذه الطريقة أن ينفق السنين الطوال فى ترويض نفسه على الإقلال ذائدا إياها عن التطلع للمتع المادية باذلا فى هذا السبيل جميع ما أوتى من مذخور معنوى ثم يخرج من هذا الكفاح المضنى غير حاصل إلا على

ميزة واحدة وهى ضبط النفس عما سوى الضرورى من مقومات الحياة ولكن لا يكون حاصلا على السمو الروحى الذى يجد وراءه أهل الطموح العالى وهو أن يكونوا مالكين لقياد أنفسهم يصرفونها فيما يجب من الأعمال ومؤثرين فيما حولهم يوجهونهم إلى حيث كرامة الحياة وشرف الوجود .

فالإسلام قصد من الدين أن يكون دستورا عمليا لا خيالا وهميا وأن تكون ثمرته إنشاء أمة تكون مثلا أعلا للأمم فى حماية بيضتها والذياد عن كرامتها والجرى على أكرم أصول العدالة وأشرف مبادئ الاجتماع لتصل إلى أبعد شأن من المدنية الفاضلة وينصرف آحادها إلى تحقيق مراد الله من تكميل الخليقة لا تصدهم عنه خاطرة من شهوة ولا بادرة من هوى ولا سانحة من وهن .

فإن الأمة الإسلامية فى صدر الإسلام كانت مثالا حياً لما نقول . ألم تتألف على أكرم المبادئ وأشرف الأصول طلبا للحق فى ذاته لا لدنيا تصيبها ولا لسيادة تحصلها . وكان آحادها من السمو الخلقى بحيث ضربت بهم الأمثال وتناقلت سيرهم الأجيال فلما اختلطوا بالأمم داخلها من إكبارهم وإعظام شأنهم ما حملها على الدخول فى ملتهم طوعا لا كرها فهل عهد فى تاريخ البشرية أن فئة من الناس تألفت فى أبعد بلاد الله عن الاجتماع وسياسة الشعوب تستهوى فضائلها مائة مليون من البشر فى مدى قرن واحد بدون دعوة غير السمت الصالح والمظهر الفاتن ؟.

أليس ما نقوله هو ما نطقت به الحوادث وقرره التاريخ وشهد به حتى الأجانب ؟ .

فالإسلام قد رمى بأصوله ومبادئه إلى إحداث مثل هذا الحدث الضخم فى العالم وما كان ليتأتى ذلك جريا على مبادئ رياضية سلبية تجرد النفس من أشرف نزعاتها الإيجابية وتميت فيها أكرم غرائزها الفطرية وتضعف منها أقوى عواملها المعنوية . فما خلق الله فى الإنسان هذه القوى الغريزية عبثا أو لتستوعب رياضتها وقمعها حياة الإنسان كلها ثم لا تكون ثمرة هذا الجهاد كله فى أمة أو أمم برمتها إلا أن تصبح كالموميات المصبرة أو كالأشباح التى لا حياة فيها ، ولكنه خلق الإنسان على هذه الصورة من تباين القوى وتنوع الغرائز وتخالف الميول ليصل بامتلاك ناصيتها وتصريفها فيما خلقت له إلى مكانه من السمو وعدالة التصرف بحيث يصلح أن يكون خليفة الله فى أرضه .

الذى يراه الناس اليوم أن الجماعات البشرية قسمان : قسم على المبادئ السلبية وهى لا تفترق عن قطعان الماشية فى أيدى الأمم المتغلبة وقسم على الأصول الإباحية وهى قد حصلت

على حظ من القوة والبطش بيد أنها قد انحطت إلى الإباحة البهيمية التى لا تتناسب وكرامة الإنسانية وأنا لا أقول ذلك تعصباً لمذهبى ولكن هذا ما يقوله علماؤها وفلاسفتها حتى الماديون منهم .

ولو كانت هذه الإباحة سليمة من جراثيم العطب لأمكن أشياعها أن يدعوا أنها هى المثل الأعلى للحياة الأرضية ولكنها مبتلاة بجراثيم الأمراض الاجتماعية ومهددة بقارعة حرب عمومية لو حدثت لتصوحت زهرة المدنية وارتكست الإنسانية لأسوأ عهودها البربرية . وقد ارتكست أمم متمدنة مرات عديدة إلى البربرية الماحقة فمنها من أتيح لها الخلاص منها وفيها من بادت أو فنيت فى جثمان أمة أخرى .

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية الباحتة أمر يستدعيه الاتزان الاجتماعى والاستقرار العالمى ولا يوجد فيما بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة فى تركيب هو غاية فى الحكمة غير التعاليم الإسلامية .

نعم : قرر الإسلام أن الآخرة خير من الأولى وأن الكمال الروحانى هو الغاية التى يجب أن يتجه إليها كل مسلم ولكنه أمره ألا يغفل حظه من الكمال المادى حتى تكاد لا تجد فى القرآن تخصيصا على منزلة روحية إلا مقرونة بتخصيص على نيل مكانة مادية قال عز من قائل : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

« وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم أجرهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » وقد دلنا على ما يجب أن يكون عليه دعاء المؤمنين من الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة فقال تعالى : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة تحض المؤمنين على وجوب العناية بالجسم من ناحية النظافة وحفظ الصحة وعدم إرهاقه بالمشاق ولا حرمانه من متع الحياة واللذات المشروعة قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ، « ياأيها

الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

ومما ينبغى التنبيه إليه فى هذه الآية الأخيرة أنه سمى حرمان النفس مما أحله الله اعتداء أى خروجاً عن صراط العدل بين الطبيعتين وهذه غاية فى عناية الإسلام بالناحية المادية من الحياة الإنسانية .

أما السنة فهى حافلة فى هذه الناحية بالحكم الباهرة من ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعبدالله بن عمرو بن العاص وقد بلغه أنه يفرط فى التنسك : يصوم الدهر ويقوم الليل : « يا عبد الله أتصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال عمرو : فقلت نعم يا رسول الله قال : فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لزورك [1] عليك حقا وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر كله . قال عمرو : فشددت فشدد على . قلت يا رسول الله فإنى أجد قوة قال فصم صيام نبى الله داود ولا تزد ، قلت وما صيام نبى الله داود عليه السلام ؟ قال رسول الله نصف الدهر » فكان عبد الله بن عمرو بعد أن كبر يقول : ليتنى قبلت رخصة النبى صلى الله عليه وسلم .

أرأيت أحكم من هذا ؟ رسول الله كان يعبد الله حتى تتورم قدماه ، ويربط الحجر على بطنه من ألم الجوع ، ينهى آخذاً بدينه أن يبالغ فى العبادة [1] ؟ أتراه كان يصده عن خير ؟ لا ولكنها الحكمة الإسلامية ترشد أهلها إلى الكمال الإنسانى المنشود ، الذى لا ينال بإرهاق الأجسام ولكن بالعلم وتحرى الحق وتجنب الباطل وتطهير القلب وتهذيب النفس ، والوصول إلى درجة الرجولة الكاملة . ؟

عباس طه

---

[١] لزورك أى لزائريك جمع زائر .

[١] لا يعترض معترض بقوله : كيف ينهى النبى صلى الله عليه وسلم الناس عما كان يفعله هو من المبالغة فى العبادة فإن للنبوة باتصالها بالعالم الروحانى شأناً غير شأن الناس كافة .

ما يقال عن الإسلام

الإسلام والعصر الحديث

للأستاذ عباس محمود العقاد

تأليف الدكتورة إلس ليختنستادتر

ISLAM AND THE MSDERN AGE

BY. ILSE LICTENSTADTER

مؤلفة هذا الكتاب « الإسلام والعصر الحديث » سيدة ألمانية درست العلوم العربية والإسلاميه فى جامعة فرنكفورت ثم فى جامعة لندن وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرق الأدنى والشرق الأوسط وزارت إيران والباكستان وعنيت عناية خاصة بالمقابلة بين مذاهب السنة ومذاهب الشيعة ودعوات الاجتهاد والتجديد . كما استطاعت أن تفهمها أو تتلقاها من مصادرها التى عرفتها أثناء إقامتها بالمدن الإسلامية .

وخطتها فى دراسة موضوعاتها هى الخطة الغالبة على المؤلفين المعاصرين من الغربيين حين يكتبون عن الدين الإسلامى أو عن الأمم الإسلامية من وجهة دينية . فإن هؤلاء المؤلفين يتجنبون أسلوب الاستخفاف الذى اشتهر به كتاب القرن التاسع عشر ترفعا منهم عن علاج موضوعات الإسلام على خطة المساواة بينها وبين موضوعات العقائد أو المعارف التى تشيع بين الغربيين ، واعتزازاً منهم بسيطرة الحاكم الذى يتحدث عن محكومية ورعاياه ومن هم عنده فى طبقة المحكومين والرعايا ، وتعصبا منهم لعقيدة يؤمنون بحروفها ومعانيها كما يؤمنون ببطلان العقائد التى تخالفها .

فالمؤلفون المعاصرون يتجنبون ذلك الأسلوب لأنه أسلوب زمن مضى بأسبابه ودواعيه ، وليس أقلها ولا أهونها أن سيطرة الأمس قد ذهبت بذهابه وأن العصبية قد تزعزعت بعد الرسوخ وترددت بعد المضاء ، وأن العالم الإسلامى قد أثبت له

موجوداً ـ سياسياً أو ثقافياً ـ يقدره أصحاب الرأى ويعرفونه فلا يتجاهلونه فى كتاباتهم عنه ووصفهم لحاضره وماضيه .

والدكتورة صاحبة كتاب « الإسلام والعصر الحديث » تنهج هذا النهج وتعرض لشئون العالم الإسلامى والديانة الإسلامية بما ينبغى من الأدب والرعاية وتجتهد غاية اجتهادها فى تحقيق مسائل البحث وإدراكها على الوجه الصحيح . ولكنها كغيرها من مؤلفى الغرب قد تفهم أكثر هذه الشئون بما تحدثه من الصدى وتثيره من اللغط فى دوائر المستشرقين ، وقلما تفهم حركات التجديد بفهمها للحقائق التى تدور عليها أو بفهمها لحقائق الرأى عند المحافظين أو حقائق الرأى عند أصحاب الدعوة إلى الجديد ، وكثيرا ما يكون هؤلاء الذين يحسبون من دعاة التجديد مقلدين يتحذلقون بمزاعم المستشرقين فيثيرون بها من اللغط ما ليس له علاقة بالدين ولا بالإصلاح ، وإنما هو تقليد كتقليد المتعالمين بما يجهلون . يصل حديثه إلى المشتغلين بالمسائل الإسلامية فى الغرب فيحسون صداه ولا يسبرون غوره أو يدركون مداه .

ويظهر أن معرفة الكاتبة بالبلاد الإسلامية فى أواسط آسيا أوسع وأوفى من معرفتها بغيرها من بلاد العالم الإسلامى ، لأنها لم تعول على المصادر العربية كما عولت على مصادر اللغات الأوربية واستعانت بمن يعرفها أو ينقلها إليها . ومنهم صاحب المقدمة الأستاذ ظفر الله خان الذى يعرفه المصريون .

على أن الفكرة التى لاحظتها الكاتبة فى جملة آرائها تقوم على أساس صحيح يرتضيه المسلم وإن لم يذهب مذهب الكاتبة فى تفصيل تلك الآراء والإشارة إلى أغراضها ومقاصدها ؛ فهى تقرر أن المسلم العصرى يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له ، بل يوجب عليه ، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت إليها علوم زمنه ، وأن دعاة الإصلاح لم يعسر عليهم أن يجدوا السند القوى من القرآن لكل ما دعوا إليه من جديد ، وكل ما انتقدوه من تقليد ، وأن مزية القرآن ـ فى عقيدة المسلم ـ أنه متمم للكتب السماوية يوافقها فى أصول الإيمان ولكنه يختلف عنها فى صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضى مع مضى عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها . وكل ما يراد به الدوام ينبغى أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان.

وللكاتبة فى توضيح هذه الفكرة أسلوب يقتبس من أساليب التصوف كما يقتبس من أساليب الفلسفة الدينية ، فهى تقول فى فصلها عن أسس الإسلام : « إنه من الضرورى لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب دينى وكتاب اجتماعى أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساسا

لأداة الحكم المعقدة التى تعالج مشكلات المجتمع الحديث . فإن النبى يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله فى كماله الإلهى وبين خليقته التى يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الإنسان ، وأن واجب الإنسان أن يعمل بمشيئة الله للتقريب والتنسيق بين العالم الإلهى وبين عالم الخلق والشهادة ، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه جماعة إنسانية تتحرى أعمق الأوامر الإلهية وألزمها وهى أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان ، وتلك هى الوسائل التى يضعها الله فى يد الإنسان لتحقيق نجاته ، فهو من ثم مسئول عن أعماله ومسئول كذلك عن مصيره ... » .

وترى الكاتبة - بحق - أن رد الفعل الأول للثقافة العصرية أن المصلحين المجددين من أئمة الإسلام رحبوا بالعلم الحديث وانبروا لإثبات الموافقة بينه وبين حقائق القرآن الكونية وشرائعه الاجتماعية ، وكان دور التنبيه فى هذه الحركة من عمل السيد جمال الدين ودور التعليم من عمل صاحبه ومريده الأستاذ الإمام محمد عبده ومن خلفوه من تلاميذه المقربين .

قالت : « إن المسلمين أرادوا مطلبا أكثر من مجرد النهضة السياسية ، إذ كانت رسالة الإسلام الدينية تتطلب التمكين والتثبيت أمام هجمة الشكوك العصرية التى جاءت فى ذيول العلم الحديث . وكانت دعوة الأفغانى إلى نهضة الإسلام الروحية ميراثا تسلمه محمد عبده وبرهانا فى هذه العصور الأخيرة على اشتباك المسائل السياسية والمسائل الدينية فى الديانة الإسلامية . وقد كان محمد عبده أقرب أعوان الأفغانى خلال الأيام التى قضياها منفيين بباريس ، فأصدرا صحيفتهما المشهورة باسم العروة الوثقى لسان حال الأفغانى فى الدعوة إلى الوحدة كما يدل اسمها المقتبس من القرآن ، وأدرك محمد عبده بعد بحثه فى أسباب انتشار الشكوك بين شباب المسلمين أن العقيدة الدينية تتطلب إعادة التوجيه كى لا تنفصم العروة الوثقى بين المسلم وضميره ، ورأى الأستاذ أن العلم لا يناقض الإسلام بل ينفع المسلم لتعزيز إيمانه وتثبيت يقينه ، وأن القرآن إذا فهم على وجهه كان هو والعلم كلاهما عونا لصاحبه على الفهم والإيمان ، واجتهد فى تفسيره لآيات القرآن أن يوفق بينها وبين كشوف العلم لظواهر الطبيعة وقصد إلى إثبات المطابقة بين هذه الكشوف وما تقدم به الوحى القديم لا اختلاف بينهما إلا أن الكشوف الحديثة تقرير دراسى مفصل لما تمليه البصيرة الهادية ، فإذا كان العلم قد أثبت حقائقه بالتجارب أو المعادلات الرياضية فالنبى قد تلقاها بالوحى من عند الله العليم بكل شىء وأفضى بها إلى الناس فى رسالة النبوة الرفيعة وآياتها البليغة » .

واستطردت من شرح دعوة الأستاذ الإمام

إلى المقابلة بينها و بين دعاة التجديد من أتباع العقائد الكتابية. فقالت : إن شهادة الإنصاف لهذا الإمام الأزهرى تقتضينا أن نعلم أن طريقته لم تكن أغرب من طرائق اللاهوتيين المؤمنين بالتوراة والإنجيل حين ذهبوا يتتبعون كشوف أشور و بابل ليثبتوا أنها جاءت مؤيدة لأنباء العهدين القديم والجديد، وأن أقوالها عن الظواهر الكونية تقبل التأويل الذى يوفق بين العلم والإيمان .

ويحلو للكاتبة كما يحلو لكتاب الغرب جميعا أن يقرنوا بين يقظة المسلمين ونهضتهم لإصلاح مجتمعاتهم وبين أثر الحضارة الأوربية وتقاليدها الاجتماعية ، ولكنها أقرب إلى العناية بما يهم المرأة على الخصوص من شئون الزواج والأسرة وأولها قضية تعدد الزوجات .

تقول : « إنه من الأمثلة التى طال بحثها واشتهر أمرها مثل النظام الذى يبيح تعدد الزوجات . فليس فى البلاد الإسلامية ـ ما عدا البلاد التركية ـ قانون يحرم هذا النظام بحكم القضاء العام أو القضاء الخاص بالأحوال الشخصية والمحاكمات الشرعية ، فلا يزال تعدد الزوجات عملا مشروعا فى ج . ع . م والباكستان وإيران والعراق وأندنيسية ، وأن العرف ليتجه ـ بتأثير القدوة الغربية وتأثير متاعب تعدد الزوجات ـ إلى النفور منه، ويزداد هذا النفور مع الزمن فينظر المسلم المعاصر إلى البناء بأكثر من زوجة واحدة كأنه طراز عتيق ، وتختلط هذه النظرة بشىء من الترفع لأنه عمل يكاد أن ينحصر فى الطبقة الوضيعة ، وأن المصلحين ليجدون السند الأقوى للاكتفاء بالزوجة الواحدة فى آيات الكتاب ، إذ تدل الكلمات الأخيرة من الآية المشهورة فى السورة الرابعة على أن الزواج المفضل هو البناء بزوجة واحدة » .

وقد تكون الكاتبة غير بعيدة عن إيحاء طبيعتها الأنثوية حين تفرد للجهاد فى الإسلام بحثا خاصا تفسره فيه تفسيراً يزيل بعض الشبهات التى ترد على خواطر الغربيين كلما ذكروا كلمة « الجهاد » وفهموا منها أنه شريعة توجب على المسلم أن يقاتل غير المسلمين ويناصبهم العداء لإكراههم على الدخول فى الإسلام .

قالت فى شرحها لقواعد الإسلام : « إن النظرية الإسلامية فى القرون الوسطى تقسم العالم إلى قسمين : دار الإسلام ودار الحرب ، ودار الإسلام تشمل البلاد التى انبسط عليها سلطان الإسلام عقيدة وحكما ، ودار الحرب تشمل البلاد التى يصح من الوجهة النظرية فتحها للإسلام ولو بالسيف إذا اقتضى الحال ، ولهذين الاصطلاحين شأن فى مبادىء السياسة الإسلامية والعلاقات الدولية وينبغى ـ لسوء فهمها بالمعنى الصحيح الذى تنطويان عليه ـ أن يبحثا ببعض التفصيل .

« إن كلمة الجهاد مشتقة من جذر فى اللغة يعنى الجهد أو المشقة ، ويمكن أن يصدق على الدراسة الفقهية وعلى تطبيق الشريعة وتنفيذ الأحكام ، إذ يسمى الفقيه أو القاضى إلى هذه الأيام بالمجتهد أى الباحث الذى يتوفر على المعرفة جادا فى بحثه . وقد أمر القرآن بجهاد الكفار ولم يعين الجهود التى تعمل لذلك ، وقد استثنى الإكراه فى الدين بنص الآية القرآنية . ولكن الجهاد اكتسب فى أيام الفتوح الظافرة بعد وفاة النبى معنى القتال بما يفيد أن الحرب فى هذه الحالة مقدسة تشهر فى سبيل نصر الله وتعظيمه ، وكاد أن يحسب ركنا من أركان الإيمان المفروضة على كل مسلم . ومن الوجهة النظرية تعد دار الحرب خاضعة لحكم الفتح ، ولكن خلفاء الإسلام وسلاطينه عقدوا المحالفات واتفقوا على عهود السلم والمودة والمعاملات التجارية مع الأمراء من غير المسلمين على الأقل ، منذ عهد هارون الرشيد وشرلمان .

« وقد جسمت العداوة المسيحية خطر الحرب المقدسة فى إخضاع البلاد التى لا تدين بالإسلام للسيطرة الإسلاميه ؛ إذ أن القتال لم يكن له كل هذا العمل فى انتشار الفتوح حتى فى إبان القرن الأول بعد الدعوة ، وإنما تم معظم هذه الفتوح بالتسليم ومعاهدات الصلح ، ووردت فى هذه المعاهدات فقرات تبيح لأهل الكتاب من أبناء البلاد المفتوحة أن يحتفظوا بعقائدهم وشعائرهم بشروط ليست على الجملة بالمرهقة فليست فكرة النار والحديد بالفكرة الصحيحة التى يؤيدها الواقع ، ومن الميسور كما يقول المؤرخ توينبى أن نسقط الدعوى التى شاعت بين جوانب العالم المسيحى غلوا فى تجسيم أثر الإكراه فى الدعوة الإسلامية إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف وإنما كان تخييراً بين الإسلام والجزية وهى الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك فى البلاد الانجليزية على عهد الملكة « إليصابات » .

« بل نحن نجد أن الوثنيين من أهل البلاد المفتوحة لم يعرضوا على السيف على قول الفقهاء المسلمين ، وهم أكثر الداخلين فى الإسلام عددا خلال القرون التالية ، وهم أصدق برهان على الخطة العملية التى لم تدر دائما للرأى وفاقا أى بصيغته النظرية » .

وتمضى المؤلفة على هذا النحو فى تفسير معنى الجهاد قولا وعملا إلى العصر الحاضر إذ يفهم من بعض تطبيقاته على أنه عمل واجب لاسترداد كل أرض مغصوبة أخرج فيها المسلمون من ديارهم عنوة وبغيا ، وهو بهذه المثابة دفاع محتوم .

* * *

وانتهت المؤلفة إلى الكلام على « الدولة الإسلامية » فى العصر الحديث فأشارت إلى اعتقاد بعض الغربيين أن الإسلام لا يصلح

لإقامة دولة تساس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية ، وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين ، فقالت : إن تاريخ الحكم الإسلامي يدحض هذه الظنون ، وأن مفكرى الإسلام فى جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية وأخرجوا الأممهم مذاهب فى السياسة والولاية تسمو إلى الطبقة العليا ، وقد اشتهر منهم اثنان هما ابن خلدون المتوفى (سنة ١٤٠٦ ميلادية) والفارابى الذى سبقه ببضعة قرون.

وتقول الكاتبة إن الفارابى رجع بآرائه عن الحكومة والدولة إلى أسس إغريقية ، أو أسس قائمة على الأفلاطونية الحديثة ، ولكن الفيلسوفين المسلمين لم ينحرفا عن قواعد الإسلام فى وصف الحكومة ، وإن كان كل منهما يصف المجتمع الإسلامى كما عهده بين أقوام زمانه .

والفصل الأخير من الكتاب يلم أطراف البحث ليضع العالم الإسلامى والعالم الغربى وجها لوجه فى موقف المقابلة وموقف الحاجة إلى الفهم المتبادل والمعاونة الإنسانية وتذكر المؤلفة طائفة من الغربيين يرون أن المسلم العصرى يحاول أن يجارى العصر ولكنه يغمض عينيه عن المناقضات التى تحول بينه وبين مجاراة عصره مع تسليمه السابق بصواب كل حكم من أحكام دينه وصلاح كل حالة من أحوال ذلك الدين لدواعى الزمن الحاضر ودواعى ، الأزمنة التى تتلوه . ولا ينتظر أن تجرى على منواله . وتعود ، فتذكر صعوبة الموقف من وجهة النظر الإسلامية مع سوء الظن بمقاصد الغرب وقلة الثقة بمزايا الحضارة الغربية ، وعندها أن التفاهم لا يأتى من جانب واحد ، وأن الصعوبة من هنا تقابلها صعوبة من هناك ، وكلتاهما عصية على التذليل مالم تكن عند الفريقين رغبة صادقة فى التقارب وأمل قوى فى إمكانه .

وتتم الكتاب بهذه الأسطر القليلة التى عبرت بها المؤلفة عن نتيجة الواقع وأمنية المستقبل فى وقت واحد ، فقالت : « إن محاولة التوفيق والملاءمة بين الظروف فى هذه الدنيا العصرية المستحكمة آخذة لا تزال فى مجراها إلى غايتها من جانب الشرق ومن جانب الغرب ، وأن الغرب ينظر وهو يقنع بالمراقبة وقلما يقترح الحلول وإن عمل على رفع العوائق من حين إلى حين ، وعليه كيفما كانت الحال أن يحاذر الاستخفاف أو التعرض بوحى الطمع والأثرة لجهود الشرق فيما يعالجه من السعى إلى غايته لتقرير مكانه بين صفوف الإنسانية دون أن يفقد كيانه أو يفرط فى وجدانه » .

عباس محمود العقاد

مختار من الشعر القديم والحديث

الإسراء

للدكتور أمجد الطرابلسي
وزير التربية والتعليم بالإقليم الشمالي

رقدتْ ملءَ عينها البيداءُ | واحتوتها في سرِّها الظلماءُ
وأوى موكب الطيور إلى النخل | وحنّت لزغبها الورقاءُ
والمهَا أطبقت على الصفو عينيها | ومالتْ إلى الكناس الظباءُ
سكنَ الليلُ لا هتافٌ ولا عزْ | فٌ ولا آهةٌ ولا ضوضاءُ
ليسَ إلا النجومُ تهمسُ فرحى | في الرحاب العُلى فتُصغي الجِواءُ
وسجتْ مكةُ فلا اللهوُ لهوٌ | في حماها ولا الغناءُ غناءُ
أطفأتْ في الخِيامِ كلَّ سراجٍ | رَقصَتْ فوقَ ثغرِهِ الأضواءُ
وانقضى كلُّ سامرٍ أسكرتْهُ | بالفنون الرُّواةُ والشُّعَراءُ
وتهادَى النَّسيمُ بين الرَّوابي | كلمَّا هبَّ هدَّهُ الإعياءُ
مِلءُ أعطافِهِ أريجُ الخُزامى | وبقايا الكئوسِ والأنداءُ
نامتْ البيدُ هلْ رأيتَ سريراً | رقدتْ فوق صدرِهِ عذراءُ ؟
الطيوفُ الفرحى تطوفُ حوا | ليْهِ كما طافَ بالقُلوبِ الهناءُ
والمُنى الضاحكات تلثمُ خدَّ | يها فيفترُّ ثغرُها الوضّاءُ
يا جمالَ البيداءِ ماذا ينالُ الوصفُ منه وما يُصيبُ الثّناءُ
كلها السِّحرُ والرّحيقُ المصفّى | كلها الشِّعرُ والهوى والبهاءُ
كلها المجدُ والبُطولة والسؤْ | دَدُ والعزُّ والنّدى والإباءُ

إيهِ يا مَنْبَعَ الصنَاديدِ يابيـــــدُ إذا رَج جَانِبَيْكَ نِداءُ
يا مَهبَّ الفُرْسان إن صرخَ المجـــدُ يُنَادِيهِمُ وهُزَّ اللواءُ
نام يا بيدُ فى سُكونك ندْبٌ حَفِظَتْهُ وهَدْهَدَتْهُ السَّماءُ
سهرتْ حولهُ العِنايةُ ترْعا هُ وحامتْ منْ فوْقهِ الآلاءْ
منْ ذُؤاباتِ هاشمٍ كلُّهُ طُهْرٌ ونُبْلٌ ورحْمَةٌ ووفاءُ
أرْوعٌ أيْنَ من عزِيمتِهِ السَّيـــفُ ومن جُود كفِّهِ الأنواء
عربىٌّ تهلل الكوْنُ كما كرَّمتْهُ النُّبُوَّةُ الغرَّاءُ
شاع منهُ الهُدى فهاجتْ وماجتْ حنقاً جاهليــةٌ رعْناءُ
دينُها البغْىُ والتَّناحرُ والثَّا راتُ والبطشُ والأذى والدِّماءُ
فاحفظيه يا بيدُ فهو رجاءُ الكون وسط الظَّلام وهو الضِّياءُ
لا يدُومُ العمى إذا أسْفر الحقُّ ولا النُّورُ والظَّلامُ ســواءُ
إيهِ يا نائماً تُداعبُ جفْنَيْـــهِ الخيالاتُ والرُّؤى الشمَّاءُ
يا نبيّاً فى صدْرِهِ خفق الكوْ نُ جميعاً جِراحُهُ والدَّواءُ
يا رســولا ترْنو لطلعته الأمــلاءُ حَيْرى قدْ عمَّها الإدْجاءُ
أيُّها النَّائمُ انتبهْ قدْ أتاك الروحُ يحدُوهُ منْ عُلاهُ القضاءُ
البُراقُ السَّعيدُ حمحم فىَ البا ب اشتياقاً فاهتزَّت الصَّحْراءُ
طِرْ عليه تَمضِ القفارُ سراعا تحْت وثباته ويُطوى الفضاء
والسَّموات تسْتعدُّ لمسْرا كَ وقدْ زغْردتْ بها البُشراءُ
تتغنىَّ فيها الملائكُ فرْحى وتهادى البشــائرَ الأنبياءُ
رَفرِفا فى سماءِ مكةَ فالرِّ يحُ ذلولٌ تحت البُراق رُخاءُ
وامْضيا يمحىَّ الفــلا والمسافا تُ وكأنَّ ابتداءَهن َّ انْتهاءُ
فإذا شمْتُما على البُعْدِ سيْنا ءَ ولاحتْ كُثْبانُها السَّمْراءُ
فاهبِطا طرفةَ العُيُون إليْها يا لربىٍّ لما رأتْ سيْناءُ
يوْمَ ناجى الكليمُ فى جانبيْها ربَّهُ ملْءَ أصغرَيْه الرَّجاءُ

فهوى مُرْعشاً وقدْ هالهُ النُّو ... رُ وأعشى عُيُونَهُ اللألاءُ
ثم سيرا حتى إذاً بيتُ لحْمٍ ... دوَّمتْ من بُرُوجها الأصداءُ
فاهبطا تُرْبها الزكيَّ فمنْهُ ... أسفر الرِّفقُ والهُدى والحياءُ
وأتيا المسجد الذى بارك اللهُ حواليْه مُنْذُ كان البناءُ
فاسجُدا فيه للذى غمر الكوْ ... نَ نداهُ وعطْفُهُ ورضاءُ
صليِّاً يبْسم المصلى ابتهاجا ... لكما فى الدُجى ويشْدُو الغناءُ
واعرُجا صاعدَيْن سبْعاً طباقا ... لا حِجابٌ لا دُجيةٌ لا غماءُ
ألقٌ باهرٌ وبحْرٌ من النُو ... رِ خِضَمٌّ وروْعةٌ وصفاءُ
ليْس إلا ملائكٌ تحْملُ البُشرى ورُسْلٌ أحبَّةٌ أصْفياءُ
اصْعدا فى الجمالِ حتى تجلَّى ... لكما سدْرَةُ العَصْمَاء
وانظُرَا من علٍ إلى هذه الأجْـ ... ـرامِ طرّاً يجلُّ عنْها الهباءُ
نظْرةً نُنْظمُ العوالِمُ والآ ... بادُ فيها وتلتقى الأملاءُ
اسْمُوَا ! اسْمُوَا ! فما أعظمَ الأنفُسَ تفْنى منْ دُونها العلْياءُ
ما أجلَّ الأرْواح تعْلو وتعْلو ... ثُمَّ تعْلو وإنْ تناهى العلاءُ
إيه مَسرَى النبيّ قد تنكرُ الأنـ ... ـوارَ والفجرَ مُقْلةٌ عمْياءُ
ما على جاحديكَ لوْمٌ إذا ضلوا . هل النَّاسُ كلُّهُمْ أنْبياءُ ؟
مَعْرَجَ المصطفى إليك التَّحايا ... شعْشعتْها دُمُوعُنا والدِّماءُ
بُورِكتْ أرْضكَ النّديَّةُ يا قدْ ... سُ ووشَّتْ رِياضكَ النعْماءُ
أنْت أم الدُّنى ومَهْدُ النُّبُوَّا ... تِ ومنْك استضاءَتْ الآناءُ
فيكَ موسى ألقى عصاهُ ارتياحاً ... بعْدَ أنْ طوَّحتْ به الأرْزاءُ
والمسيحُ العظيمُ فيك تجلَّى ... يملأُ الأرضَ من هُداهُ السَّناءُ
علَّم الكوْنَ رحمةَ العبْد للعبْدِ ، فلا قسْوةٌ ولا إيذاءُ
وغذاهُ الحُبَّ الطَّهُورَ فلا بُغْضٌ ولا نفْرَةٌ ولا أعْداءُ
يا حُماة المسيحِ فى القُدْس ما فى ... دينِهِ أنْ يُعذَّبَ الضُّعفاءُ

ليْسَ فيه طَرْدُ الهِزارِ من الأيك لتحتل وكْرَهُ ورْقاءُ
ليْسَ فى شَرْعِهِ هَوانَ المواثيـق إذا ما تواثقَ الشُّرفاءُ
يالدَّمعَ ما كانَ أصْفا هُ ولكنَّ رُوحكُمْ كدْراءُ
سَائلُوا مَهْدَهُ المطهَّرَ هلْ صا نتْهُ إلا العُروبَةُ العرْباءُ
سَائلوهُ ياناسُ عنْ عُمرَ الفا رُوقِ ما كانَ عدْلُهُ والوفاءُ
سَائلوهُ عن ابْن أيُّوبَ كما صَنعتْ جُنَّةٌ بكمْ هَوْجاءُ
يَوْمَ جاءتْ جيُوشُكم مثْلَ ما انحطَّتْ على المنْهلِ النُّسورُ الظِّماءُ
تغرقُ المهْدَ مثْلَ ما تغرقُ المجْد منها الدِّماءُ والأشْلاءُ
يَومْ ضاقتْ عَنهـا الأباطحُ فى البرِّ وناءتْ بحمْلِها الدَّأماءُ
يُلهبُ الحِقْدُ والعِداءُ مآقيـها وتنْزُو فى صَدْرِها الأدْواءُ
وابْنُ أيُّوبَ يُطْفِئُ النَّارَ بالحلـمِ وتجْرى بنصْرِهِ الأنْباءُ
أنتُمُ تعْرفُونَ عدْلَ صَلاحِ الدِّينِ وسْط العجاج يا طُلقاءُ
لمْ يهجكم للثَّأرِ دينٌ ولكنْ جَشعُ الذِّئبِ أمْلتْهُ الدِّماءُ
أىُّ دينٍ يُحِلُّ ذَبْحَ اليتامى أىُّ شرْعٍ تُبادُ فيه النساءُ
إنما العُرْبُ نعْمةُ الله فى الأرْ ضِ وهُمْ فى ظلامها الأضْواءُ
لهمُ العِزُّ والنُّبُوَّةُ فيهـا ولهمْ دونَ أهْلِها الكِبْرياءُ
حَملوا مشعْلَ الحضَارةِ والكوْ نُ ظلامٌ وحيرةٌ وعَماءُ
هُمْ شُمُوسُ الورَى وصَفْوةُ خلقِ اللهِ والمُخْلصُونَ والحُنفاءُ
كل مَجْدٍ لمجْدِهمْ يَخْفضُ الرَّأْ سَ خُشُوعا ولوْ نمتْهُ السَّماءُ
دُمتَ ، « قُدْسَ » العُلا ودام لك العِزُّ وذَاتْ فى غابكَ الدُّخلاءُ
دُمتَ فوْقَ السُّها ودَامَ لكَ العُرْ بُ فداءً ونِعْمَ هذا الفِداءُ

دمشق أمجد الطرابلسى

من وحي السد

للأستاذ محمود غنيم

على أساسَيْن من عزم وإيمان ... َنبنيه لا من َجرانيت ٍ وَصوَّان ِ
ما كاليقين ولا كالعزم إن َصدَقا ... مُخطِّطٌ فوق ظهر الأرض ِ أوبان ِ
إنَّ الأُلى رفعوا الأهرامَ شامخةً ... هيهات يُعجزُهم إنشاءُ خزان ِ
أطلَّ من قبره فرعون مبتسما ... وقال : إن جمالا توءَمي الثاني
فقلتُ . شتَّانَ يومَ الفخر بينهما ... فما هما فى مجال الفخر سيَّان ِ
بنى الحياةَ جمالٌ والرخاءَ معاً ... لكنَّ « خوفو » بنى قبراً لجُثمان ِ
مَنْ أطلقَ النيلَ أمسى وهو يحبسُهُ ... جمالُ يثنى عليك المطلقُ العاني
يا بانىَ السَّدِ قد فنَّدْت ما زعموا ... بالأمس عن مصرَ من إفك ٍ وبُهتان ِ
أقسمتُ لم تبْنِ الخزَّانَ منفرداً ... بل الكرامةَ والخزَّانَ فى آن ِ
هيهات يُعجزُكَ البنيانُ من حجر ٍ ... وأنت بنَّاءُ دولات ٍ وأوطان ِ
أسَّسْتَ سَدّاً به كانت معلقةً ... كرامةُ العُرْب ِ من أبناء ِ عدنان ِ
خلْنا جنادله الصَّمَّاءَ ألْسنَة ... تشدو بذكرك فى سِرٍّ وإعلان ِ
لأنتَ فى كلٍّ حرب سيفُ معركة ... وأنت فى كلِّ سِلم كفُّ عُمْران
فليسمعْ الغربُ إن كانت له أذُنٌ ... وليُبصرْ الغربُ . هل للغرب عينان ؟
أقسمتُ أنَّ البراكين التى انفجرتْ ... فى الصخر كانت لها رنَّاتُ ألحان ِ
ما أعولَ الصخرُ لكنْ قد شدا طرباً ... كما شدا الطيرُ فوقَ الأيك والبان ِ

قد كان يشكوك صادينا وغارقنا يا نيلُ . حالاك فى واديك ضدّانِ
ما عدتَ يا نيلُ بعد اليوم تظمئنا أو عدتَ تطغى علينا أىَّ طغيانِ
إن صان ماءكَ فى حرزٍ بنوك فكم فدّوه من قبل هذا بالدم القانى
كأنه من فتاتِ المسك سمرته فلا نجود به إلا بميزانِ
يا أيها السدّ بشر بالرخاء فما حويتَ ماءً ولكن ذوب عقيانِ
ما أنتَ حرزُ مياه فاض زاخرها بل أنت كنزُ يواقيت ومرجانِ
قالوا العجائبُ سبعٌ قلتُ ويحكمو ما هذه السبعُ إلا سدُّ أسوانِ

محمود غنيم

أطوار الشعر العربى

إذا أخذت الشعر العربى كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحى وجدته قد تطور فى موضوعه تطور الأمة العربية ، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية ؛ فهو فى الجاهلية أنغام صبا ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرة ، وفى الإسلام أناشيد جهاد . وثوران عصبية ، وأطماع حياة . ثم استحار شبابه واكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما عبث شباب ، وأغانى طرب ، ومظاهر ترف . ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل فى أوساطها فبدا فى شعر ابن الرومى وأبى تمام والمتنبى وأمثالهم دروس تجربة ، ونتائج حكمة ، وخواطر فلسفة . ثم أدركه الهرم فى أواخرها فظهر فى شعر المتأخرين تمويه صنعة ، وخرف شيخوخة ، ومعالجة روح . أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلا فى علمه .

[من كتاب تاريخ الأدب العربى للأستاذ الزيات]

آراء وأحاديث

السينما من وجهة نظر الدين :

أدلى الأستاذ الأكبر بهذا الحديث إلى مجلة الإذاعة قال : إن السينما بالنظر إلى ذاتها وبغض النظر عن قصصها وموضوعها وما يقترن بها ، جهاز طيب صالح لاستخدامه فى الاسترشاد بالمبادئ الإنسانية التى تضمنها التاريخ والسنن الاجتماعيه « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض » ، والواقع أنه مامن شىء إلا وفيه جانب الخير وجانب الشر ، فلو خلينا جوانب الشر ونحيناها وأخذنا جوانب الخير وركزناها لكان لنا هذا الجهاز الصالح فى التهذيب والتوجيه والإرشاد وبناء جيل قوى فى مبادئه ومناهجه وأسسه وخططه ولعلك قد لمست الآن أن السينما عندنا بوضعها الحالى أداة تهدم ولا تبنى ، بل وتغرى بالفساد وقد تدفع إليه ؛ فإن أكثر جمهور نظارتها هم الشباب والشباب مشبوب العاطفة متأجج النظرات يتخطف ما يروى ظمأ وجدانه أو يرضى تياراته المتنازعة فى نفسه المتزاحمة تزاحما يطغى على نضوج العقل وسلامة التفكير .

وطبيعة الحياة تقضى بألا يقدم لكل إنسان إلا ما يناسبه فى حياته من طعام وشراب وكذلك فى جانب القراءة والمعرفة وفى جانب الاطلاع بأى لون كان ، سواء أكان فى الإذاعة أو فى السينما كذلك يجب أن ينتقى له ما يناسبه ويحفظ له كل مقوماته ويأخذ بيده إلى البناء لا إلى الهدم والشباب كالمريض الذى يمر بدور النقاهة عرضة للعدوى بأى جرثومة ومن أى ميكروبة ؛ لذا كان لابد من اتخاذ الحيطة والحذر بالنسبة له وخاصة فى الموضوعات السينمائيه التى تحتل من نفسه المكانة الأولى .

فالآفة إذن هى فى الموضوع الذى يختار ليقدم لجيلنا ولمجتمعنا الذى نرجو له الخير فى كل نواحيه وكذلك فى شكل العرض وطريقة الإخراج .

وأنا لا أحب أبدا أن يقال إن الجيل الجديد من الشبان يتطلب كذا وكذا ويحتاج إلى مسايرة المدنية ولا بد أن تطوع أحكام الإسلام لمقتضيات الجيل ، لا أحب أبدا أن أقوله ولا أحب أن أسمعه فإن تطويع الدين لغير الجهة التى حددها خروج عن وضعه وإفساد لتعاليمه .

وإنما علينا أن نفهم ديننا فهما صحيحا

ولا نحكم فيه رغباتنا وشهواتنا والإسلام بطبيعته يدعو إلى التقدم الرزين وإلى النهضة القويمة وإلى المدنية السليمة ثم إلى العزة والكرامة وحسب الفتيات عندنا والفتيان أن تغرس فيهم هذه المبادئ فتعرج بهم فى مدارج الكمال وتسعى بهم صعدا إلى قمم المجد والسؤدد .

وأمتنا أمة ذات رسالة فلا يجوز أن تتخلى عنها ولا أن تتجاهل قيمتها ولا أن تتخلف عن حملها ؛ لأن التخلف عن حملها يؤدى إلى إيجاد ثغرة بين ماضينا الإسلامى الزاهر وحاضرنا فى النهضة المتوثبة المتوجهة إلى البناء والتعمير .

إن القصص الوافدة علينا فى أفلام براقة تطوى بين جنباتها سهاما قاتلة وتنفث فى مجتمعنا سموما تحطم الآمال فى هذا المجتمع الجديد وترسم فى عقول الشباب خطوط الفساد وقد تخط فى أذهانهم ما يدفعهم فى وقت ما إلى ما يؤذيهم أو يؤذى مجتمعهم وما هذه الحوادث التى تقع من كثير من الشباب إلا أثر من آثار الأفلام التى تعرضها دور السينما فى غير ما حياطة ولا حذر .

وإننا - نحن المتعاونين فى هذا البناء المخلصين فيه - يجب أن نرقب فى صحو ويقظة من يرى السوء ثم لا ينحيه ، فإننا أمة ذات حضارة وذات دين وذات موقف خاص فى الوسط الدولى الإسلامى فيجب ألا ننأى عن مقاييسنا ومبادئنا وقيمنا بل نظل على الحفاظ عليها والتمسك بها ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

القصص والموضوعات التى أرشحها :

السينما التاريخية الأخلاقية التى تجمع أمجاد المسلمين من لدن الرسول صلى الله عليه وسلم وكذا كل من رسم خطا من خطوط النهضات الإصلاحية المتوالية ، والموضوعات الأخلاقية لها من الأثر فى دعم مجتمعنا دعما يقوم على الأسس السليمة حتى يصبح مجتمعا قويا صنع من فولاذ من الإيمان الذى لا تهده عواصف ولا تزعزعه صواعق ولا أعاصير ولا مبادئ هدامة وافدة وإن القصص التى تعرض من النوع التاريخى الأخلاقى سبيل للدعوة إلى إحياء الوعى التاريخى الخلقى بشرط أن تنقى مما يثير الغرائز وأن توجه عواطف الشباب بما يتفق مع الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

كما أننا نرى أن تكون سبيلا من سبل التعليم ونشره ؛ فان التطبيق العلمى فى كل شىء مدعاة الفهم الصحيح ومتى فهمت الموضوعات فهما صحيحا استطعنا أن نحل مشاكلنا .

وأما الأفلام التى شاهدتها فهى أفلام تتصل كل الاتصال بما رسمنا وما نرجوه للأفلام المعروضة ، ولقد شاهدت قصة ظهور الإسلام

وهى تعريف بما ينبغى أن نعرفه فإنه من التاريخ الموجه الذى يبين مزايا التضحية وآثار العقيدة الصالحة القوية فى بناء المجتمع ودعمه وكيف يستسهل الصعب فى سبيل الفكرة السليمة والإيمان العميق. لقد لمسنا فيه التعبير عن مبادئ الإسلام من الحرية والمساواة وانعدام العصبية أن الناس جميعا سواء لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالعمل الصالح والإيمان المنتج وشاهدت كذلك قصة خالد بن الوليد واشتركت فى وضع أصول كثيرة من مشاهدها، مثل هذه الأفلام التى تبرز المبادئ وتوضح المثل هى التى نحتاج إليها ويجب أن نحرص عليها، لقد أصبح المشرفون على الأفلام الوافدة والمنتجون للأفلام المحلية لا يعنيهم من أمر شبابنا ولا من أمر جيلنا شىء من فكرة الإصلاح التى يجب أن تكون رائدنا وهدفنا.

إن لمجتمعنا مشاكل لو أنها عولجت عن طريق السينما لحلت هذه المشاكل ولغدت السينما جهازاً قويا موجها وبانيا ولاعتبرت حقا جزء من مدنية يجب أن نخلقها نحن ونضع أسسها لنخرج إلى الناس مدنية تفيض بمبادئ الإسلام وتوجيهاته.

وليس يعنينا أن تكسد صناعة السينما أو تنجح فنجاح مجتمعنا هو الذى نرجوه وننشده ونحرص عليه وكل فكرة لا تحرص على ذلك فإنها فكرة غير صالحة ينبغى أن نطرحها ولا نعاون عليها وإن جمعت لصاحبها ما جمعت الدنيا لقارون.

وكلمة عامة صريحة يجب تنقية الإذاعة والصحف والسينما من كل ما يؤذى مجتمعنا أو يسبب انتكاس القوى التى ترفع شأنه وتقوى لبناته من أفراد وجماعات، تقوية تجعل بناء المجتمع بناء مثالياً فاضلا.

وهذه دعوتى وتلك نصيحتى أوجهها إلى إخوانى موجهى هذه الأجهزة والمشرفين عليها فإنهم بعملهم ووطنيتهم شركاء فى الدعوة إلى الله وبناء أمتنا ومجتمعنا بناء على أساس الحق والقوة، هدانا الله جميعا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

الحياة فى الكواكب ورأى الدين فيها:

قال محرر الأهرام الاقتصادية للأستاذ الأكبر:

تحدث العالم الروسى «ديجل» بأنه من المعتقد وجود كائنات حية أرقى وأذكى من الإنسان وذلك فى القمر وغيره من الكواكب فما موقف الدين بالنسبة لهذا الزعم وهل فى الدين ما يؤيده؟.

فقال فضيلته: ليس فى القرآن ولا فى الأحاديث الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدل دلالة قاطعة على أن فى القمر أو فى غيره من الكواكب كائنات حية، نعم توجد آية فى سورة الشورى من القرآن الكريم وهى

قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة » يدل ظاهرها — كما قال الإمام المفسر الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ قال : إن ظاهرها يدل على وجود كائنات حية فى السموات وفى الأرض (وما بث فيهما) ومعناه أن دلالتها على وجود الكائنات الحية فى السموات ليست قطعية وإنما هى ظن واحتمال . ثم قال ولا يبعد أن يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور مختلفة وأحوال شتى لا نعلمها ولم تذكر الأحاديث شيئا منها ولا عنها . وقد قال الله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » واسترسل الألوسى فقال : وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم مخلوقات فى جرم القمر ولم يحققوا أمرها لنقص فيما لديهم من آلات الرصد . وعلى كل فرأينا فى الموضوع هو كما قال الإمام الألوسى : ليس فى الإسلام دليل قاطع يدل على الوجود أو العدم ولو فرضنا أن ذلك قد ثبت وبان بالكشف الإنسانى وبالأجهزة التى تفيد اليقين ما ضر ذلك شيئا فى العقيدة وكذلك إذا لم يثبت شىء فالمصادر الإسلامية ليس فيها قول قاطع لا بالثبوت ولا بالنفى وإذن فالإنسان فى حل من اعتقاد هذا أو ذاك مالم يقف أمامه الاكتشاف الصحيح الذى يفيد اليقين والله أعلم بما خلق ويخلق وهو على كل شىء قدير .

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمكتبه السيد ريستر كليسترينا الدكتور فى الفلسفة الصينية التاووتية والمحرر فى مجلة فيكوجورنال السويدية .

لحياه الأستاذ الأكبر قائلا : أهلا وسهلا .

ثم دار بينهما هذا الحديث :

هل زرت القاهرة قبل اليوم ؟ .

فقال الزائر : نعم ـ زرتها فى العام الماضى .

فقال فضيلته : وهل زرت الأزهر ؟ .

قال : لم ـ أتشرف بزيارته قبل هذه المرة .

فقال فضيلته : أنت دكتور فى الفلسفة على المذهب الصينى التاووتى ؟ فما هى أهداف هذا المذهب .

فقال الزائر : هذه الفلسفة جزء من الفلسفة الإلهيــة وهدفها رفع المعانى الفاضلة فى الإنسان .

تحديد النسل :

ثم سأل فضيلة الأستاذ الأكبر عن تحديد النسل .

فأجاب فضيلته قائلا : إن الإسلام يبيح التنظيم ويمنع التحديد ، أما التنظيم فهو مباح إذا كان يؤدى إلى حفظ صحة المرأة ، فهو إذن جائز أولا للسيدات اللاتى يسرع إليهن الحمل ، وثانياً بالنسبة لذوى الأمراض

المتنقلة ، أو بالنسبة للذين تضعف أعصابهم عن مواجهة المسئوليات ، إن تنظيم النسل لشيء منها إنما هو تنظيم فردى ، لا يتعدى مجاله إنه شيء علاجى تدفع به أضرار محققة والتنظيم بهذا المعنى لا يجافى الطبيعة ولا يأباه الوعى القومى ولا تمنعه الشريعة بل هى تطلبه وتحث عليه . وإذا كانت الشريعة تتطلب كثرة قوية لا هزيلة فهى تعمل على صيانة النسل من الضعف والهزال ، وتعمل أيضا على دفع الضرر الذى يلحق الإنسان فى حياته ومن هنا قرر العلماء منع الحمل - مؤقتا - بين زوجين بهما أو بأحدهما داء من شأنه أن ينتقل فى الذرية والأحفاد .

وهكذا ترى أن الشريعة تحافظ على قوة الأمة وقوة أفرادها وتباعد بينها وبين أسباب الضعف .

ثم سأل السيد الزائر فضيلته عن الإجهاض .

فقال الأستاذ الأكبر : إنه اعتداء على « حى » فيه بذرة الحياة والإسلام لا يقره .

ثم سأل الزائر : ما رأيكم فى أن كثرة النسل قد ينحط معها مستوى المعيشة ؟ .

فرد فضيلته : إن كثرة النسل ، وخاصة النسل الذى ترعاه الأمة ، النسل القوى يتفق دائما مع روح التشريع الإسلامى ، وتحديده لا يتفق مع أمة تريد النهوض والقوة واتساع العمران ، وكثرة الأيدى العاملة فى الزراعة والصناعة والمشروعات الهامة ، والتحديد بمدلول هذا اللفظ ، لا يتفق أيضا مع ما حثت عليه الشريعة الإسلامية من الزواج وما بينته أيضا من امتنان المولى على البشرية بنعمة البنين والحفدة كأثر من آثار الزواج إذ يقول جل شأنه « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات » . وجاء فى وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم يوم القيامة » ، « وسوداء ولود خير من حسناء عقيم » ، « ومن ترك الزواج مخافة العيال فليس منا » ، والقرآن ينعى على أهل الجاهلية قتل أبنائهم مخافة الفقر . « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

وأيضا قد أعد الله مائدة لعباده فى ظاهر الأرض وباطنها ، ولا يمكن أن تضيق عن حاجتهم وحاجة نسلهم مهما كثروا ، فالتحديد بهذا المعنى تأباه الطبيعة كما لا ترضاه حكمة الحكيم . وتنبه الوعى القومى يرده ، وكثرة المصانع وطلب الأيدى العاملة فيها والحرص على النهضة بالمجتمعات واستصلاح الأراضى الزراعية - كل ذلك - يرفض هذا التحديد ، فلا تدعوا الناس إلى التكاسل ؛ فإن كثرة العيال الأقوياء يدعو الآباء والأمهات إلى النشاط والجد ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الروحية والمادية :

ثم سأل الصحفى فضيلته ـ عن أن الثروة المادية فى السويد تطغى على الروحية وأما هنا فقد رأيت الروحية تطغى على المادية .

فرد فضيلته : لأنهم هنا يؤمنون بالله وبرسله وذلك عميق فى نفوسهم ، ويعملون بمقتضى التعاليم الإسلامية ، والأديان تدعو إلى السمو فى الروح ، ومع ذلك فنحن لا نغفل جانب العمل لأن الدين يدعو إليه ويحرص عليه ، إن جميع الرسل قد جاءوا بما يعلى الروحية ويسمو بها وأكد ذلك محمد صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى العمل وإلى الجد فيه ، فلو أن الناس جميعا رجعوا إلى كلمة الحق والتوحيد لنعمت البشرية واستقر أمرها .

إن المادة المظلمة لا ينبعث منها نور على القلب الإنسانى ، لكن الروحية تفتح على الإنسان باب العلم والمعرفة ، والخلق الكريم وتهدى الإنسان إلى أبواب السعادة الحقة .

وأما المادية فليس لأصحابها إلا الأحجار والأصنام يعبدونها من دون الله .

هذا .وقال الزائر : إننى أوافقكم على ذلك ولذا فإننا فى السويد بدأنا نتجه الاتجاه الروحى لتسلم لنا الحياة .

ثم قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الأزهر حريص على نشر التربية الروحية . والشريعة الإسلامية تضمن للبشرية الخير والسعادة والرفاهية والمساواة التامة .

ثم سأل السيد الزائر : أليس هناك اتجاه سياسى من وراء هذه الروحية ؟.

فأجاب فضيلته : إن الاتجاه إنما هو التعاون على خير الإنسانية والعمل على إسعادها والوقوف فى وجه التخريب والتدمير ، ورد غائلة الطغاة والمستعمرين ، هذه هى الروحية ولو أخذ بها الشرق والغرب لعاش الناس جميعا فى أمن ورخاء .

التوحيد سبيل الإصلاح :

ثم سأل بعض الأسئلة التى تتصل بالتوحيد وما هو الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه أوربا وغيرها فقال فضيلته : إن الواجب هو الرجوع إلى التوحيد فهو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ولا تصلح البشرية إلا به وأنت يا أخى أليس لك قلب واحد ولسان واحد ؟ فاعرف حينئذ أن خالقك وموجدك وبارئك ومصورك واحد لا إله إلا هو .

فقال الزائر : أجل ، وأنا أوافقكم على هذا الاتجاه وأنه لا صلاح إلا بالتوحيد ، وسأدعو إلى ذلك فى السويد فما أحوجنا إلى هذه الدعوة ، ثم أضاف أن هناك فى السويد بعض المبعوثين المسلمين ، وبعد أن التقيت

بكم ، واستمعت إلى حديثكم الذى يخرج من قلب مؤمن كامل فإنى سأعمل على الاتصال بهم . فقال فضيلته : هو واجب الإنسانية جميعا ، والفلسفة الصحيحة . وواجب عليك أن تنصح الشعب السويدى بالتوحيد ، وأنا أهنئكم بميلاد عيسى الذى جاء بالتوحيد ولقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم يؤكده ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين فادع قومك إلى ذلك فقال : نعم . وسأحمل هذه الرسالة إلى السويد ثم قال : أرجو من فضيلتكم أن تأذنوا لى بالزيارة إذا زرت القاهرة مرة أخرى ، وعند انصرافه قبل يد فضيلته .

رجال الأديان يقاومون الإلحاد :

قالت صحيفة « وطنى » الأسبوعية التى تصدر عن القاهرة :

إن موجات الإلحاد تزحف موجة بعد موجة ، تريد أن تحطم مقومات الأديان ، وأن تشكك الناس فى معتقداتهم ، وتمحو الفضائل التى قررتها الأديان السماوية يوم أن سمت بالبشرية إلى معارج الكمال ، وتقضى على أعز ما كسبته البشرية فى كفاحها الطويل ؛ لتحقيق الخير الشامل والصالح العام ، وقد تحدثنا إلى فضيلة الأستاذ الأكبر وقداسة البابا وطائفة من رجال الدين والفكر فاتفقت آراؤهم جميعاً على الوقوف صفاً واحداً والعمل يداً واحدة على محاربة الإلحاد ومقاومته .

قال فضيلة الأستاذ الأكبر :

إنه لمن دواعى سرورنا أن تلتقى الأديان من أجل المبادىء الإنسانية ، وقد قلت للبطريرك المسكوفى « أثينا غوراس الأول » يوم زارنى فى الشهر الماضى : إننى أرجو أن يكون لهذه المقابلة التاريخية أعظم الأثر فى مستقبل ، تعمل فيه الأديان من أجل الإنسانية ، وإنى أنتهز هذه الفرصة لأدعو إلى أن يضع كل منا يده فى يد الآخر عاملا على خدمة الإنسانية والسلام .

هذا ما قلته لسيادة البطريرك وأزيد عليه أن تلاقى الأديان لمقاومة الإلحاد هو تحقيق لرسالة الأديان لخير البشرية ، واقتلاع لجذور الشر من النفوس ؛ لأن وازع الدين إذا تمكن فى القلوب ينهض بمعنوياتها ويحول بينها وبين الاستجابة لدعوات الإلحاد ، ويوجهها إلى الخير وإلى العمل المفيد .

والرأى عندى : هو الوقوف صفاً واحداً أمام تيارات المادية المظلمة التى لا تعرف دينا ولا ترعى خلقا ولا تقيم وزنا للإنسانية الحقة . وهذه التيارات إذا ترك لها الانتشار قضت على البشرية جمعاء ؛ لأنها لا تعرف إلا التحلل ، وإضعاف الأمم ، وتمزيق وحدتها . إن الأديان جميعا تدعو إلى الفضيلة ، وحبنا

لديننا ووطننا يقتضينا أن نقف سداً عالياً أمام هذه التيارات الهوجاء فالغرب حين يرسل إلينا مدنيته إنما يرسلها سافرة الوجه فعلينا نحن جميعا أن نوجه الناس إلى الخير والفضيلة ليتقوا هذه التيارات وبخاصة اللادينية، التى أصابت كثيراً ممن لا يفقهون ولا يفهمون: «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتبعنى»: «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله».

* * *

وقال قداسة البابا كيرلس السادس:

يقول معلمنا بولس الرسول فى رسالته إلى أهل روما.

إن الذين يحيدون عن الأديان أو يلحدون لا تبقى لهم مثل عليا، ولا دوافع خير؛ لذلك ينحرفون عن الصواب وينتشر الفساد فى مجتمعهم وتضطرب حياتهم. إن الرسالة الأولى للدين هى تقويم النفوس حتى تحظى بأكبر قدر من السلام القلبى والأمن والسيادة عن طريق التعاون مع الآخرين بالمحبة والفهم والتقدير المتبادل لمشاعر الناس، ولو استطاع رجال الأديان فهم هذه الرسالة، وتبليغ الدين بهذه الصورة إلى أتباعهم لتعاونوا معاً بروح المحبة والإخاء الذى تمليه الأديان، ولوقفوا صفاً واحداً لمحاربة المادية والإلحاد اللذين يزعزعان كيان المجتمع البشرى الحديث.

وقال صاحب الفضيلة الأستاذ حسن مأمون مفتى الإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية.

نحن نعتبر المسيحية دينا من الأديان السماوية تدعو إلى الإيمان بالله وحده ونفى الشرك عنه، ومن هذه الناحية نعتبر المسيحية كالإسلام فى الدعوة إلى هدم الإلحاد ومناهضته. لذلك أؤيد فكرة تعاون الدينين الإسلامى والمسيحى على محاربة الإلحاد فى كل صورة من صوره.

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى عميد كلية الشريعة:

إن القرآن الكريم يدعو إلى التعاون الكامل بين المسلمين وأهل الكتاب فى مقاومة الإلحاد، وأعتقد أن الخطوة الأولى فى هذا الشأن يجب أن يتقدم بها الغرب المسيحى بأن يعترف بالحقوق الطبيعية للشعوب الشرقية، فلا يرضى لها الاستعمار كما لا يرضاه لشعوبه، ولا يرضى مثل الوضع الحالى للاجئين فى فلسطين. كما لا يرضاه لأى شعب فى أوروبا. إنهم إذا اتجهوا إلى هذا الاتجاه فقد اتجهوا إلى العدل والاستقامة على الطريق الطبيعى وبالتالى لايكونون ملحدين بحقوق الشعوب، ولا يمكن أن يتجزأ الإيمان بالحق؛ فإننى إذا آمنت بالحق فى جانب، وكفرت به

فى جانب ، كنت فى الواقع غير مؤمن به ، فالذين يلحدون بالحق فى جانب يظلون ملحدين ولو آمنوا به فى جوانب أخرى ؛ لذلك أكرر ما قلته من وجوب تقدم الغرب للشرق بالخطوة الأولى حتى يقوم التعاون فى مقاومة الإلحاد على أساس سليم من الإخلاص للحق ولله الذى سمى نفسه بالحق .

* * *

الأزهر يحرص على توثيق العلاقات الثقافية

بين البلاد العربية

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر السيد عبد الجواد فرج مدير جامعة ليبيا ، ودار الحديث حول العلاقات الثقافية والأخوية بين البلدين ، وقد قال سيادة الزائر : إنى أحمل إليكم تحيات أبناء ليبيا التى هى جزء من العالم العربى والإسلامى والتى تشعر نحوكم بشعور الأخوة والصداقة اللتين تربطان بين البلدين الشقيقين .

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الأزهر حريص دائما على أن يقوى العلاقات بين البلاد العربية والإسلامية . ويسعى جاهداً لمد هذه البلاد الشقيقة بما لديه من ثقافات وأفكار، لتتوطد الروح العربية والإسلامية بين أبنائها ولتأخذ طريقها دائما إلى الكمال وإننا إذا تكاتفنا ووضع كل منا يده فى يد الآخر أمكننا أن نكون قوة واحدة تقف فى وجه من تسول له نفسه النيل منا ومن وحدتنا .

كما أمكننا أن نعتز بإعلاء كلمة الله أينما كانت وحيثما قيلت « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فنحن دائما فى خدمة قائليها بعلمائنا وثقافاتنا وأفكارنا . ثم أفضى الحديث حول أحاديث فضيلة الأستاذ الأكبر فى الإذاعة والصحف فقال السيد الزائر : إنها ليست مجاملة أن أذكر لفضيلتكم أننا نتتبع أحاديثكم فى الإذاعة والصحف ونهتدى بهديها . ونسترشد بها فى تفهم تعاليم الله وشريعة محمد السمحاء ، وإنه لمما يشرفنى أن كنت فى يوم من الأيام جنديا من جنود الأزهر وما زلت أعتبر نفسى هذا الجندى ، أعمل على هداه وتعاليمه . وإنه لعهد علينا نقطعه على أنفسنا ، أن نعمل دائما على خدمة الإسلام والمسلمين . وأن نسلك السبيل الذى يوصلنا إلى وحدة الغاية وسلامة الهدف إن شاء الله .

ثم استقبل فضيلته السيد أبو الأعلى المودودى رئيس الجماعة الإسلامية فى باكستان يرافقه السيد محمد عاصم مترجم كتب سيادته إلى اللغة العربية والسيد غلام محمد .

وقد قال الأستاذ الأكبر : مرحبا بكم فى القاهرة ، ومرحبا بكم فى الأزهر ـ مهد العلم والمعرفة ـ الذى تخرج فيه وعلى رجاله كثير

من رجالات العلم والمعرفة فى العالم الإسلامى أنت يا أخى نعرفك بعلمك وبكتبك ، وإننا ليهمنا أن يتضامن علماؤنا مع علماء المسلمين فى أنحاء الأرض للعمل على إظهار العقيدة الإسلامية بعيدة عن الشوائب ، خالية من البدع ، فنعود بالفكرة الإسلامية إلى الوضع الإسلامى الرصين ، إيمانا بكتاب الله وسنة رسوله .

قال السيد الزائر : نعم - يا فضيلة الأستاذ الأكبر : إن العالم فى حاجة ماسة إلى الدين الخالص .

فقال فضيلته : وليس هناك من طريق إلى الدين الخالص إلا عن طريق أهله الذين يفهمونه ويعدونه إعدادا كاملا ، ثم يعرضونه على الناس فيثمر ثمرته ، ويؤتى أكله بإذن الله وثق يا أخى أن الترابط الذى بيننا هو ترابط الفكر والدين ، وهما رباطان قويان لا يقوى على فصمهما شىء .

وإن الأديان لا تقف حائلا دون التقدم ، بل هى التقدم نفسه ولو أن أمم الغرب تمسكت بالأديان ، وارتبطت بها ، وعكفت عليها وحرصت على فهمها ما رأيت تطاحنا ولا تكالبا ، إنهم أصحاب إختراعات ولكنهم ينقصهم معين هذه الاختراعات الذى لا ينضب تنقصهم الروح ، فماديتهم مادية مظلمة لا تعرف للإنسانية طريقا يوصلها إلى الخير ، ثم اتجه مرة أخرى إلى زائره وقال اسمع يا أخى : نحن فى زمن السرعة ، فى زمن الصاروخ ، فى زمن يصعد فيه الإنسان إلى الكواكب ، فى زمن الوضوح وأنا أقول أيضاً : يجب أن يكون الإسلام فى وضوحه وفى سرعته مع الناس ملائما لهذا الزمن وعلى رجال الدين نشر ذلك . وأنا - وإن كنت أراك شيخا - لكنى ألمس فيك روح الشباب القوى المنتج ، وأرجو أن يكون عملك - يا أخى - وعمل العلماء جميعا فى شيخوختهم أقوى من عملهم فى ريعان شبابهم

إننا نريد أن نعاهد الله على توحيد الفكرة الإسلامية لتنتشر فى كافة بقاع العالم .

فسر السيد الزائر بهذه الفكرة .

ثم انصرف الوفد ليزور مجلة الأزهر ، وقاعة المحاضرات ودار الكتب الأزهرية ، والجامع الأزهر .

الكتب

نقد وتعريف

ديوانان من الإقليم الشمالي

"نجوى" : لعدنان مردم - "مع الله" : لعمر بهاء الدين الأميري

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

أما « نجوى » للشاعر عدنان مردم مجموعة من القصائد فى الغزل والوصف والتاريخ والمتأمل فى هذا الديوان يدرك أن صاحبه يتخذ طريقا وسطا بين الابتداعية والاتباعيه. فلا يذهب فى الأولى مذهب ناجى وعلى طه ولا يصنع فى الأخيرة صنيع الجارم ومحرم ، وإنما يلائم بين المذهبين كما ينبغى أن تكون الملاءمة ، فيأخذ من الابتداعية ، لقصائده العاطفية ، رقه اللفظ ، ورهافة الحس ، وعذوبة النغم ، ويأخذ من الاتباعية لقصائده الوصفية والتاريخية ، جزالة اللفظ ، وفخامة المعنى ، وقوة الجرس :

ولست أدرى ، ما الذى جعل شاعرنا يبدأ ديوانه بشعر الغزل ، وليس هو خير ما جادت به قريحته ، وفاضت به عاطفته ، وأبدعه خياله ؟ وأشهد أنى حين أخذت فى قراءة هذا الشعر كدت أنزل بالشاعر عن مستواه الذى عرفته له . حين لم أجد فيه الكثير من فورة العاطفة ، وثورة الوجدان وإن وجدت فيه الكثير من نصاعة اللفظ ، وبراعة المعنى ، وجمال الصياغة . ولكنى لم أكد أنتهى من شعر الغزل ، وأبدأ فى شعر الطبيعة حتى ملأنى الإعجاب بما يتجلى فى هذا الشعر من دقة الوصف وبراعة التصور وروعة الخيال ، إن شعر الوصف هو المجال الذى يسبق فيه شاعرنا الكثيرين من شعراء هذا العصر وهو القمة التى يتسنمها مع القليلين من شعراء هذا الجيل . ونحن من خلال هذا الشعر ، ندرك أن شاعرنا يحس الطبيعة إحساسا قويا ويشعر بها شعورا عميقا ، فيتمثلها قلوبا تنبض

ونفوسا تحس ، وأرواحا تشعر ، وليست الطبيعة عنده ظواهر مادية ، يعرف حقيقتها حين يعرف طبيعة وجودها الخارجي ، ولكنها كائنات حية تفصح عن جوهرها دخائل النفوس وخفايا الضمائر . وهو يرى الطبيعة المليئة بالحياة والإلهام فى كثير مما يدركه البصر ويشمله الحس ... يراها فى الربيع والخريف والشتاء ، وفى الصباح والأصيل والمساء ، بل إنه يراها ، بروعة تأثيرها ، وقوة تعبيرها ، فى غير ما تعود الناس أن يروه من صور الطبيعة التى تأسر القلوب ، وتسحر الألباب وتفتن المشاعر ... يراها فى الصحراء الصامتة الموحشة ، وفى النار المستعرة المتأججة ، وفى الدخان الكثيف المتصاعد ، لأنه لا يقف من الأشياء عند ظواهرها الخارجية . ولكنه يبلغ أعماقها الخفية ، فيرى ما لا يراه غيره ، ويدرك ما لا يدركه سواه .

وهو فى شعره الوصفى لا يعرض فى إطار القصيدة الواحدة ، صوراً صغيرة لا تأتلف كل صورة مع أختها ، كما يفعل بعض الشعراء ، ولكنه يعرض فى كل قصيدة من قصائده الوصفية لوحة كبيرة تتسق فيها الظلال والألوان ، وتستقر كل لمسة فيما يلائمها من مكان يبدو ذلك فى قصيدة الصحراء حين يقول :

عاينتها والصبح مؤتلق
ينساح موارا ويتسع
وهضابها راحت على ضجر
فى شملة الإعياء تلتفع
أنست بوحشتها وأسعدها
صمت كداجى الليل متسع
واستسلمت للنوم ناعمة
بعميق صمت ليس ينقشع

وسر براعته فى الوصف أنه يشعر بموصوفه شعوراً عميقا ، لأنه يجد نظيره ماثلا فى حياته النفسية ، وتجربته العاطفية ، فهو يبرع فى وصف النار التى تنتهى إلى رماد ، لأنه جرب النار الخالدة فى قلوب المحبين :

ما كان حبك غير مؤتلق اللظى
تفرى لواعجه القلوب بباتر
كم فى الهوى والنار من متقارب
ومشابه فى باطن أو ظاهر
وأرى اللهيب إلى الرماد مآله
ولهيب حبك خالد بسرائرى

وهو يبدع فى وصف الخريف ، لأن أوراقه التى تبددها الرياح ، تذكره بآماله التى بددتها صروف الحياة ، ولأن خريف الطبيعة يقابله خريف عمره الذى يبكى فيه ربيعه الذى ذهب ولن يعود :

آمالنـــا ورق تقاذفه
يد عابث فى لجة الحقب
وشبابنا الفينان فاكهة
لكنها نهب لمغتصب

أسفا ، أكل شبيبة سمقت
تلوى بدوحتها يد العطب ؟

ولشاعرنا فى شعره الوصفى لمسات إنسانية تهز المشاعر ، وتثير القلوب ، فحينما يرى موكب الخريف ، ويلمس حزن الطبيعة ، يذكر أخاه الذى فجعه الدهر بفقده ، فيقول فى حزن :

ألفيت كر الدهر ينسى
المرء أوطانا وجارا
وحوادث الأيام تس
دل دون مانهوى ستارا
لكن جرحى لم يزل
فى الصدر يستعر استعارا
أأروم بعدك يا أخى
سلوى وقد بدلت دارا ؟
إنى إذن ضيعت عه
دك ظالما ، وأتيت عارا
هيهات ينسينى الزما
ن العهد ، أو كر السنين

ومن لمساته الإنسانية التى تنم عن سماحة النفس ، ورجاحة العقل ، ونبل الخلق ، قوله فى قصيدته « غفران » :

إنى إذا ما أمكنتنى فرصة
من ظالم ، وقرعته بسنان
غلب الحنان على العداء ، ولم يعد
فى الصدر يحضرنى سوى الإحسان
سر السعادة أن نمد لخاطئ
يد راحم ونمن بالغفران
يسع الحنان لخاطئ أوزاره
ولكم أقال الدمع عثرة جان

ويبقى بعد ذلك أن نذكر بعض ما وجدناه فى هذا الديوان من هنات لا تغض من قيمة الشعر ، ولا تنقص من قدر الشاعر . من هذه الهنات أنه فى بعض صوره لا يحقق الملاءمة النفسية بين أجزاء الصورة الواحدة ، ففى قصيدته « وقفة على قبر أخى » يقول :

دعوتك والظلال علي
لك أرخت فضل أردان
وللأزهار من عبث الصب
ا تهويم سكران

و « عبث الصبا » و « تهويم سكران » لا يلائمان القبر الذى يثير الحزن ، ولا يوائمان الشاعر الذى يشعر بالفجيعة .

ومنها أنه لم يحسن الملاءمة بين المعطوف والمعطوف عليه ، حين عطف الماضى على المضارع فى هذا البيت :

ويكفك الدنيا تفيض سنا
من رحمة وتدفقت عطر

وأنه زاد وحدة صوتية « تفعيلة » فى هذا البيت من قصيدته « الأرز » :

وشهدتن مولد الملك الأم
ثل حيرام سليل الأمجاد والأبطال(١) .

---

(١) يمكن تصحيح البيت على هذا النحو :
وشهدتن مولد الملك حيرا
م سليل الأمجاد والابطال
بإسكان لام « الملك » : نجا

وهناك بعض هنات أخرى يضيق المقام عن ذكرها .

ومهما يكن من شيء ، فهذا الديوان خليق بالدراسة ، وصاحبه جدير بالتقدير .

* * *

وأما (مع الله) للأستاذ الشاعر عمر بهاء الدين الأيدى فالقول فيه إنه إذا كان الميدان الذى يسبق فيه شاعرنا عدنان هو ميدان الوصف، فإن المجال الذى يتفوق فيه شاعرنا عمر هو مجال التصوف ؛ فديوانه هذا لا يضم غير الجانب الإلهى من شعره ، ونحن من خلال هذا الشعر نلمس هذه الصوفية الرقيقة التى تضفى على الأشياء ألوانا من السحر والجمال ، وتسمو بالروح إلى سموات من الصفاء والإشراق . .

هذه الصوفية التى يصورها الشاعر أجمل تصوير فى مقطوعته « آفاق وآفاق » حيث يقول :

تمتد بالأبصار آفاقها
إلى التقاءات السما بالثرى
ويبلغ التمييز غاياته
عند حدود الأفق المقترى
لكن أهل الله تسرى بهم
بصائر الإيمان أنى سرى
وفى التقاءات جباه التقى
بالأرض آفاق لبعض الورى
تجتاز بالأرواح دنيا الفنا
حتى ترى فى الله ما لا يرى

وصوفية شاعرنا تخلو من « الشطحات » البعيدة التى يذهب الناس فى تفسيرها مذاهب شتى ؛ فإذا كان الحلاج يقول فى إحدى شطحاته : « ما فى الجبة إلا الله » فيثير بهذا القول كثيراً من الجدل والخصام ، فإن شاعرنا يرى نفسه قبسا من نور الله ، وهو يؤمن بربه لأنه يراه فى خلقه ، يراه فى الفجر، وفى الضحى ، وفى جنح الفلس :

كيف لا أومن بالله ، وهل
لذوى الألباب فيه ملتبس
كيف لا أبصره فى خلقه
فى الضحى، فى الفجر، فى جنح الفلس
كيف لا أحيا به والروح من
أمره فى غور ذراتى انبجس
كيف لا تسعد نفسى بسنا
نوره فى كل ترديد نفس
وأنا ، فى سر كنهى ، من أنا ؟
أنا من إبداعه السامى قبس

فصوفيته إذن صافية أرق الصفاء ، واضحة أشد الوضوح ، ليس فيها هذا الغموض الكثيف الذى يبلبل الأفكار ، ويحير العقول . وليس فيها هذا « الانجذاب » العنيف الذى يوشك أن يكون عند بعض الناس مرضا من أمراض النفس ، أو وسيلة

من وسائل العيش ، وليس من الكشف أو الوصول فى قليل أو كثير . وأى صفاء أرق من الصفاء الذى يتجلى فى هذه الأبيات :

فى تناجى القلوب بالحب روح
فيه للروح والحشا خير قوت
فيه صفو ونشوة وهناء
وانطلاق من الأسى المكبوت
حين تصغى بعض القلوب لبعض
فى الحديث النقى أو فى السكوت
يشرق الله بالصفاء عليها
وينادى أعماقها : هل رضيت ؟
فى تناجى القلوب بالحب
يتسامى بها إلى الملكوت

وهذه الصوفية الصافيه بعيدة كل البعد عن صوفية الغوغاء ، تلك الصوفية العاجزة البليدة التى يتخذها بعض الناس ستاراً للجهل ، ويلتزمها فراراً من السعى ، ولكنها صوفية عاقلة عاملة تتسم بالثقافة والمعرفة والإدراك ، وتعبر عن قوة الروح ، وسمو النفس ، وترى الأشياء فى جوهرها الداخلى لا فى مظهرها الخارجى . . . فقيمة الكعبة عند شاعرنا ليست بأحجارها المرفوعة ، وأستارها الموضوعة ، ولكن بأنها محور أمجاد الأمة العربية ، ومصدر أنوارها الربانية ، وهى لذلك معنى يجده المؤمن فى نفسه ، يطوف حوله أنى ذهب ، وحيثما كان :

الكعبة الشماء فى مذهبى
قيمتها ليست بأحجارها
والقرب من خالقها ليس فى
تشبث المرء بأستارها
قدسية الكعبة فى جمعها
أمتنا من كل أقطارها
وأنها محور أمجادها
وأنها مصدر أنوارها
وكعبة المؤمن فى قلبه
يطوف أنى كان فى دارها

* * *

والصوفية قد تكون مظهراً من مظاهر انطواء النفس ، واعتزال الناس ، وكره الحياة ، وهذه صوفية ضعيفة لا تقف أمام الإغراء ، ولا تثبت فى مجال الصراع ، وقد تكون الصوفية وليدة خبرة بالحياة ، ومعرفة بالناس . وصراع مع النفس ، وهذه هى الصوفية الراسخة التى لا تعصف بها الأعاصير ولا تذيبها الشهوات . ومن هذا الطراز صوفية شاعرنا التى تتجلى فى نفسه ، وتنعكس على شعره .

آمن بالله وبالإغراء
وزلل القلب مع الأهواء
والضعف أنأه عن الإغواء
وغفوة العفة والإباء
وفتنة البهاء فى النساء
ومكرهن البارع المرائى

آمن إيمان خبير رائى
أحيط من أطرافه بالداء
وكاد أن يهوى فى البلاء
لو لم ير البرهان فى السماء

وشاعرنا كلما أظلمت من حوله الحياة ، اعتزل دنيا الناس ، ولاذ بنور الله ، فوجد فى هذا النور طمأنينة النفس ، وسكينة الحس وسعادة الروح ، وعزلته هذه ليست عزلة الجبان الذى يهرب من الميدان حفظا لنفسه ، وحرصا على حياته ، ولكنها عزلة الرابض المتحفز ، الذى يعد نفسه ، ويهيء سلاحه ، لمنازلة الأعداء فى ميدان الكفاح .

قالوا اعتزلت ، فقلت عزلة رابض
متحفز للوثبة الشماء
إنى لأرجو أن أحاول صادقا
فى صوغ ذاتى من تقى ومضاء
لأكون فى الجلى إذا الداعى دعا
سهما يصيب مقاتل الأعداء

فأجود بالنفس الزكية فى رضا
ربى ، وأرخص فى الإله دمائى

ولكن ماذا يبغى شاعرنا من الحياة ؟ إنه يبغى تحرر النفس من قيد الجسد ، وانطلاق الروح من أسر المادة ، لارتياد المجاهل ، والاستغراق فى النشوة ، حين تلامس النفس أسرار الوجود ، وتصافح الروح أنوار الإله ؛ فإذا احتدم الصراع بين الروح الذى من شأنه أن ينطلق ، والمادة التى من طبيعتها أن تمسك ، فإن شاعرنا يستسلم حينئذ لأمر الله ، الذى كتب على خلقه هذا الصراع الخالد بين الروح والمادة ، لحكمة لا يعلمها حق العلم أحد سواه :

سلمت للرحمن تسليم العزيز إذا عزم
ورضيت حكم الله فى الروح المضرج بالألم

وهكذا يبدأ الشاعر ديوانه مع الله ، ويختمه مستسلما لأمر الله .

إبراهيم محمد نجا
من خريجى الأزهر

بريد المجلة

أين كتب الأستاذ الأكبر؟:

ألقى إلينا البريد طائفة من الرسائل يقول فيها مرسلوها أن المجلة كتبت عن كتابى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر: (الإسلام عقيدة وشريعة) و (الفتاوى) ولم تذكر من الناشر ولا أين تباع.

ويقول السيد أحمد عبيد من دمشق أنه تعب فى الاستدلال على عنوان الناشر أو المعهد وكان يريد أن يطلبها رأسا من فضيلة الأستاذ الأكبر وطلب منا أن نساعده على ذلك؛ ليستطيع إجابة الطلب الشديد المتصل على اقتناء هذه الكتب. ونحن نقول لهؤلاء السادة إن الأستاذ الأكبر لاصلة له بنشر هذه الكتب ولا بتوزيعها، وإنما تبرع بها للإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر فنشرتها على مألوف عادتها وفى حدود اختصاصها من نشر الكتب العربية أو الأجنبية التى تخدم الإسلام بتفقيه الناس فيه، أورد الشبه عنه، وهى توزعها على الهيئات العلمية والإسلامية بالمجان.

من أخلاق المحدثين:

قرأت ما كتبه الأستاذ السيد أحمد خيرى عن (المغير لاحمد الغمارى) فرجعت إليه وإلى غيره من مؤلفاته فرأيته يملخ فى الباطل ويهذى بما لا يرضاه عاقل لنفسه، وهو فيما اطلعت عليه من كتبه يعوزه خلق المحدث.

وإنى أسوق الآن كلمات فى خلق المحدث، ليستبين القارىء منها أنه ليس له طبع على أصيل يؤهله لتحرير ما يعرض له من البحوث الحديثية والفقهية وغيرها:

إن أول مايجب أن يستفيده حامل الحديث من الحديث هو كرم الطبع ولين الجانب والتلطف بالمسلمين، والابتعاد عن هجر القول والعجرفة، كأنه عاش مع النبى صلى الله عليه وسلم وعاشره وتربى بسيرته فى إرشاد الأمة.

إن علم الحديث يطهر النفس فيكون المحدث صورة للخير والفضيلة: لايداهن ولا يشاحن ولا يختال ولا يحسد ولا يحقد ولا يسفه ولا يطعن ولا يلعن ولا يسب.

روى القاضي ابن خلكان أن سهل بن عبد الله التستري جاء لأبي داود صاحب السنن ، فقيل له يا أبا داود : هذا سهل بن عبد الله قد أتاك زائراً ، فرحب به وأجله . فقال سهل يا أبا داود : لي اليك حاجة ، قال وما هي ؟ قال حتى تقول قضيتها مع الإمكان ، قال قد قضيتها مع الإمكان . قال أخرج لسانك الذى حدثت به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبله . قال فأخرج لسانه فقبله .

ورووا عن الإمام يحي بن معين أنه كان يقول : حدثنا (اسماعيل بن علية) فنهاه الإمام أحمد وقال : قل (اسماعيل بن ابراهيم) فإنه بلغني إنه كان يكره أن ينسب إلى أمه ، فقال قد قبلنا منك يا معلم الخير .

هذا خلق المحدث ذى الفطرة السليمة والتربية المثلى . أما ذو الفطرة السيئة المنحرفة الذى نشأ في بيئة لا تعرف الحياء إذا تشاغل بالحديث كان له كالماء يرتد عن الجلمود لا يرويه ولا يتروى به . طلب الحديث للفخر والرياء ، والجدال والمراء ، وتأكل به الأغنياء ، وهو ينسب نفسه إلى المحدثين ، وأخلاقه أخلاق سفلة الجاهلين .

قال ابن عيينة : إذا كان نهارى نهار سفيه ، وليلى ليل جاهل ، فما أصنع بالعلم الذى كتبت .

وأصدق مثل لهذا الخلق هو ما جاء في كتاب المغير لأحمد الصديق ، فقد طعن في الحافظ السيوطى والحافظ ابن الجوزى - من حملة الحديث النبوى - وغيرهما من العلماء أكثر من عشرين مرة ، لا بارك الله فيه .

وما اطلعت عليه من كتبه مشحون بمثل هذا ، فهو يلعن بعض العلماء والقضاة ، ويكفر بعضهم .

واللعنة ترجع إلى قائلها إذا لم تجد مساغاً . ومن دعا رجلا بالكفر وليس كذلك حار عليه . على ما في الصحيحين وغيرهما . والله يغار على العلماء ، ويفضح من يتنقصهم .

وهو ينال في بعض كتبه من أناس لعيب يراه فيهم ، ثم يتملق آخرين وهم متصفون بتلك الصفة ، مما يدل على أنه يكتب وهو حذر ، لأن اليقظان لا يتناقض .

قال الإمام الأعظم أبو حنيفة : ما صليت صلاة منذ مات شيخى حماد إلا استغفرت له مع والدى ، وما مددت رجلى نحو داره وإن بيني وبينها سبع سكك ، وإنى لأستغفر لمن تعلمت منه او علمنى .

وأحمد الغمارى يرد بحور العلماء ثم يستلذ الوقيعة فيهم .

ترجم العلامة الأديب ابن خلكان لحماد عجرد فلما وصل إلى ذكر أبيات ماجنة قالها هذا الشاعر في أحد الأئمة لم يرض ابن خلكان أن يصرح باسم هذا الإمام بل قال : يحكى أنه

كانت بينه وبين أحد الأئمة الكبار ، وما يليق التصريح باسمه ...

وهذا من سمو الأدب فى التأليف ورعاية حرمة العالم للعالم ، وأما الجاهل المغرور فلا يحترم نفسه ولا الناس ولا الحق .

رووا أنه تغير خاطر الحافظ السيوطى على العلامة القسطلانى وقال : إنه ينقل من كتبى ولا ينسب اليها . فمشى القسطلانى من القاهرة إلى الروضة - وكان السيوطى بها منعزلا عن الناس ، فدق عليه الباب وقال أنا القسطلانى جئت اليك حافياً ليطيب خاطرك على ، قال طاب خاطرى عليك .

هذا هو أدب أهل الحديث النبوى .

وأختم قولى بنصيحة لهذا الرجل إذا كان السلف أبقى عنده مكاناً لقبولها :

قال الإمام الشعبى : (العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله . ومن نال الشبر الثانى صغرت اليه نفسه وعلم أنه لم ينله . وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا) . وفى هذا بلاغ للعاقل .

أبو الفضل محمد الحيدرى

هذا الرجل : ماذا وراءه ؟

فى العدد الفائت من المجلة كتبت مقالا عن هذا الرجل الذى يدعو إلى دين جديد مبتكر باسم الإسلام ليقوض به أركان الإسلام نفسه ...

وعقب نشر المقال وظهور العدد استفسر كثير من القراء عن هذه الشخصية العجيبة التى تعيش فى عالم غريب ...

ونحن نبادر أولا فنقول للقراء الأفاضل بأنه ما منعنا من ذكر اسمه إلا علمنا بأن هناك إجراءات رسمية قد اتخذت لمحاسبته على آرائه الشاذة ..

ومن الجدير بالذكر أن مجلة « صوت الإسلام » كانت قد نشرت ما يكشف ستر الرجل بقلم الأستاذ عطية خميس المحامى رئيس تحريرها ، وتبجح الرجل ورد عليه مدعيا أنه إنما يستند إلى القرآن وحده ومتجنيا على الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر ، زاعماً أن فضيلته قرر فى كتابه الأخير : الإسلام عقيدة وشريعة » الاستناد إلى القرآن وحده ففضح عقله قبل أن يفضحه لسانه ، فالأستاذ الأكبر قرر فى كتابه : أن العقيدة لا تثبت إلا بخبر قطعى الدلالة والورود ، سواء أكان قرآنا أم حديثا متواتراً ، وهذا ما عليه جمهور العلماء . وتجاهل هذا الرجل فى رده أن الأستاذ الأكبر حين تحدث عن مصادر الشريعة ذكر السنة كمصدر ثان بعد القرآن ، وفند زعم القائلين بأن القرآن هو المصدر الأول والأخير ، فذكر فضيلته فى ص ٤٢٥ : تحت عنوان : الرد على شبهة هؤلاء » ... إن الرأى السابق مخالف لإجماع الذين يعتد بإجماعهم

وأن ما ذكروه من الشبه لا قيمة له أمام العمل المستمر من عهد الرسول إلى يومنا هذا فى نزوع المسلمين فى تعرف أحكامهم إلى السنة المروية .

ويظهر أن الرجل نسى أن دعوته المزعومة تقوم على انتكار الأحاديث جملة وتفصيلا ، وأن محمداً صلوات الله عليه — لم يقل حديثا واحدا ، وأنه من يدعى بأنه قال ولو حديثا واحداً يتهمه بالخيانه ، وهذا قول لا يجد تابعا واحدا إلا ممن سقطت عنهم التكاليف والعجيب مرة أخرى أن الرجل ذكر فى رده على مجلة (صوت الإسلام) أن كتاب الأستاذ الأكبر ص ٥٤ تضمن حديث) : من تحدث عنى فليتبوأ مقعده من النار) وبالرجوع إلى الكتاب اتضح أن للرجل جرأة على الاختلاق لا تجارى ، فإن صيغة الحديث كما وردت فى الكتاب : « من كذب على الخ .

أما الرجل فهو السيد / محمد المتولى نجيب سكرتير عام وزارة المواصلات الذى أصبح منذ أيام قلائل : وكيلا مساعداً لوزارة المواصلات أيضا ...

محمد عبد الله السمان

غلاة الشيعة لم ينقرضوا بعد :

قرأت فى عدد جمادى الآخرة من مجلة الأزهر مقالا للأستاذ محمد محمد المدنى بعنوان « رجعة البعث الجديد لفت نظرى منه قوله عن الشيعة الضالين عن سبيل الحق ، وقد انقرضوا ولم يعد لهم أثر فى العلم الإسلامى وهم كفار خارجون على ملة الإسلام ملعونون من أهل السنة والشيعة ، أما إنهم مارقون من الإسلام ملعونون من المسلمين كافة فهذا أمر لاخلاف فيه ، وأما إنهم قد انقرضوا فهذا كلام فيه نظر ؛ فإن هذه الفرق من الشيعة الذين يقولون بألوهية على وأن جبريل أخطأ حين كان ينزل بالوحى فكان حقه أن ينزل على علىّ فنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه الشرذمة ما زالت تعيش فى بلاد الشام ومنهم الدروز والنصيرية والإسماعيلية وهم يقولون بتناسخ الأرواح ويفسرون القرآن بأهوائهم ويقولون إن علياً حل فى القمر ؛ وبعضهم يقول إنه حل فى الشمس ؛ ولذلك يعبدون الشمس والقمر ولا يعلمون الدين إلا لمن بلغ الثامنة عشرة من عمره ، ويحجبون المرأة عن كل ما له علاقة بالدين الذى يزعمون أنه جوهرة ثمينة والمرأة غير أمينة عليها ! والغريب من أمرهم أنهم يتسمون بالأسماء الإسلامية ما عدا أبا بكر وعمر وعثمان . ومما يبشر بالخير ماحدث من انتشار الإسلام بينهم أى بين النصيرية والإسماعيلية ، فقد بلغ عدد المسلمين حتى الآن من النصيرية ما يزيد على خمسة آلاف مسلم ومسلمة ، وبين يدى

وأنا أحرر هذه الكلمة كتاب من أخ فاضل يبشرنى بأن الإسلام ينتشر بين هؤلاء انتشاراً سريعا ، وأن لجنة التبشير الإسلامى المنبعثة عن جمعية العلماء فى حمص قد نجحت فى مهمتها مبدئيا ، غير أنه ينقصها المال الكافى حتى تستطيع أن تبلغ الرسالة وتؤدى الأمانة ، كما أنها أخذت تهتم بالاسماعيلية بعد أن تبين لها أن الاسلام يغزو هذه الطائفة فى ديارها ، فقد بلغ عدد المسلمين من هؤلاء أكثر من سبعة آلاف فى قضاء المسلمية وما حولها . وقد أرسل إليهم الأزهر هذا العام الأستاذ الشيخ عبد اللطيف مشتهرى واعظاً وداعيا إلى الاسلام ، غير أنه لم يمكث بينهم إلا شهرا واحدا هو شهر رمضان وعاد إلى القاهرة .

وهكذا نجد أن هذه الطوائف لم تنقرض بعد ، وما ذلك إلا من إهمال المسلمين وعدم اهتمامهم بنشر الاسلام وبعث الروح الاسلامى من جديد . إنهم هم المسئولون وحدهم عن هؤلاء الذين لا يعلمون عن الاسلام قليلا أو كثيراً ، فلم لا يدرس الأزهر حياة هؤلاء وعقائدهم وأحوالهم الاجتماعية وأوضاعهم ثم يقوم بما تتطلبه أوضاعهم من عمل يرجى من ورائه هدايتهم ودخولهم فى دين الله .

ولقد بذل المبشرون جهوداً جبارة فى سبيل إدخالهم فى النصرانية غير أنها باءت بالفشل رغم ما أغدقوا على كثير منهم من أموال وثياب ، وشتى أنواع المغريات .

وهناك طائفة أخرى غير هذه الطوائف الثلاث هى طائفة اليزيدية التى تقطن الجهات الشمالية من الإقليم السورى وهى تعبد الشيطان ، وأذكر أن عدداً من القرى من هذه الطائفة كان قد دخل فى الإسلام منذ سنوات على قلة الدعاة والمرشدين ، وقد بعث المبشرون النصارى وفدا ليدرس أحوالهم الدينية والاجتماعية وحياتهم العامة وتقاليدهم الخاصة ، كل هذا وغيره يجرى والمسلمون فى غفلة ساهون عن التبشير بدينهم فى ديارهم وفى غير ديارهم .

حسن عمر عمر

with proper guidance or lead mankind in a way free from the factors of limitedness and subjectiveness.

It has been established from what we have already mentioned that the real problem of the youth is not a sexual one but of human nature and pertaining to the value and standard of humanity in the conceptions of the youth. It is how to make the adolescent a mature *human* being, so that he may not return to the childish characters or yield to the attraction of matter, and may, instead, seek to realize the values which represent the human standard of maturity and perfection.

This is the nucleus of the problem of the youth and the solution is dependent on what religion can do in making the youth appreciate the virtuous standard of humanity. This in turn depends on how *ministers* of religion present the religious values. The more these *ministers* adopt modern methods in their pesentations and the nearer they come to the spirit of the Divine message, the closer they are to the hearts of the youth whose relation to religion will go stronger and stronger.

The value of religion is everlasting, and its necessity in man's life is unquestionable. The adherence of the youth to religion is indispensable to make them appreciative of their human values and guarantee good guidance on their part.

To make the youth associate themselves with religion tbere must be (a) a harmony between the various mediums of guidance in society ; (b) true understanding of the religious teachings and (c) a good presentation of the religious values on the part of those who have made religion their responsibility and mission in life.

These are the presequisite to the association of the youth with religion which is irreplaceable and which empowers the youth to strive for *independence, sovereignty* and values.

---

peace and avoidance of aggression, propagate sincerity and love, guide to brotherly human relations and sacrifice in the way of noble causes, national and social alike. The mission of religion, therefore, is nothing but making a sound presentation of the human values which ordain the proper course of man's relations to his fellow human being.

If the youth become clearly aware of their human nature and their values in life, they will undoubtedly be desirous to strive for attainig their human standard and enjoying the sense of their existence as human beings endowed with peculiar values. And when the youth are determined to struggle for such noble aims, their resolution will remove their uncertainty, and their tension, anxiety, will disappear. Thus we can find the right solution to the problem of the youth. This solution is to busy the youth with a struggle to achieve a good end.

It is religion only, to which there is no alternative in this respect, which can familiarize the youth with their human standard and with the necessity of making distinction between materialism and spirituality. For religion there is no substitute in philosophy or historical studies or psychology or any other branch of humanities, because none of these subjects is exempt from partiality and limitation, and none of them can replace religion in making the youth familiar with their human standard and the position of spirituality in contrast to materialism in life.

Philosophy in some schools believes in *matter* only and pays no attention to the spiritual ideals; in some other schools it believes in ideals only apart from *matter* or rejects both *matter* and idealism as is the case with mystical philosophy. Philosophy in a broad sense could not get rid of these defects and could not evaluate materialism as such and spirituality as such. Consequently, it could not introduce the needed distinction between materialism and spirituality. It could not rid itself of the mentioned defects because it is man's production, it is man made, and he is limited by the social factors and environmental circumstances working in his society. Such a man is not the *universal* man who is qualified to draw the general course of humanity and lead mankind to the right way.

Similarly, psychological and historical studies together with other departments of humanities are not absolutely and thoroughly sound in their conclusions, interpretations and observations respectively. Hence they, too, cannot provide humanity

The crisis of instability and anxiety in the youth, or the problem of their uncertainty is actually due to the fact that they fluctuate between two opposite stages in man's life : childhood and maturity. The former stage is distinguished by the child's inclination and attraction to tangible objects of size, quantity, colour, tune, sound, picture and from. Contrary to that is the latter stage of maturity which is distinguished by man's inclination to ideas, values and ideals; and by his attraction to principles. In the stage of childhood the human being is subject to what he perceives of material objects, while in the stage of maturity he emancipates himself from the subjugation of the tangible and shows independence from the attraction by things of concrete nature or tangible characters.

There is a gap in the life of the youth. It is the gap between the irresponsible conduct of childhood and the sound behaviour of maturity. There is in the life of the youth a great deal of uncertainty and fluctuation : Will they remain subject and enslaved to the tangible objects or grow independent in their attitudes and mature in thier decisions ? This is the real crisis and the acute problem of the youth. The remedy of this problem, which should be produced by the people of religion, is to make the youth have clear distinction between materialism and spirituality, between two different stages in life, which require different attitudes, the stage of childhood, of the sense, and the stage of maturity, of sound mind and values. The youth should be taught to understand that spirituality is not a request to shun the course of material life. They should understand that spiritnality means acquaintance with the significant role played by values and ideals in man's life besides the role played by the senses and material inclinations.

Nature and religion, then, are very necessary in man's life, Nature gives him the incentive to discover its wonders and perceive its aspacts, whereas religion inspires him with insight into the real value of man, a function of which nature is absolutely incapable. The necessity of religion in man's life is beyond doubt because religion makes him conscious of his value and, consquently, emancipates him from the attraction of nature. Religion enables man to be his own master and the master of nature itself in a way as to render it subservient and useful to him, instead of the reverse.

Religious principles teach hearty sympathy and co-operation, advocate

religious values in a wrong manner. Some of these programmes introduce the religious values in the same way as some European intellectuals used to do in the Age of Enlightenment. This attitude is marked with some features the most important of which is glorifying man as the maker of law, morals, society and the state on the one hand; and disregarding religion as the source of all these systems and institutions, on the other hand. Some radio programmes depict man as being above the level of any criticism and as endowed with absolute authority to define the course of life in his own personal realm or in the whole social sphere. These programmes picture man as a conpletely self - sufficient being who needs nothing besides his mind, whereas religion and its values, as a right source of guidance, are derided and misrepresented by these programmes.

These are the obstacles and barriers standing in the way of the youth to religion. The definition of the way which associates the youth with religion is far beyond the ability of any individual or group of individuals, however capable they may be. If this way to religion is to be found and followed, it must be a part of the state policy and an element in the guiding forces of society in such a manner as to make all divisions and systems of the state respect the religious values, represent them properly and finally seek them. When this is realized together with the proper function of the school and the mosque, which function aims at bringing up well - mannered youth, the public will become enlightened, discipline will prevale and public opinion will prove sound.

To attract the youth to the line of religion it is not sufficient to only present the religious values in a uniform way of guidance. But, in addition to that, religious teachers must produce good solutions to the psychological problems of the youth whose problems are not merely sexual, although sexual instincts play a dangerously important role in the period of adolescence. Yet the sexual dangers of adolescence can be arrested if the youth are provided with right guidance and clear instructions as to the way they should follow in their life and as to how to overcome the crisis of instability and anxiety in themselves. Hence we believe that the problems of the youth are not sexual ones. The acute real problem is how to make the youth aware of the attitude they should adopt and clear about the way they should follow in life, and how to give them solutions to their crisis of instability and anxiety.

immaterial. When it deals with social questions like marriage and divorce or like the freedom and equality of woman, Egyptian journalism does not make a fair presentation of these questions, nor does it discuss them with deep insight to and genuine understanding of the principles of Islam concerning the course of relations between man and woman in divorce and marriage and in the family system as a whole. On the contrary, it deals with such questions in a very biased and partial way and with a preoccupied mentality. It is not far from truth to say that the ideas and opinions propagated by journalism are imported ones. They are introduced from the outside world to our society with the intention of underminig the values which are considered the basic elements in our social and nationalist personality as Arabs and Muslims.

Similarly, when journalism deals with the problems of the youth, it adopts a sexual approach and concentrates all these problems in a certain point at which the relation between man and woman appears more chaotic and more licentious than disciplined and well-organized. On the subject of defeneing the freedom of woman journalism is both confused and misleading. It blames the customs and traditions of the people - and this may be justifiable - but it mixes, and perhaps intentionally, the meannig of customs and traditions with the conception of religious principles and values. And if it refers to these customs and traditions in a *critical* spirit, it does so in a very disrespectlu and sarcastic manner without trying to produce any substitute for them to serve as a social bond and a basis in the construction of our Arab - Muslim society. By so doing journalism diverts the youth from the way to religion. Even when it tries to produce a substitute for the prevaling customs and traditions, it advocates with no precaution the adoption of Western customs and traditions bad and good alike.

This is done in spite of the fact that in the West, as we know especially after the two World wars, human values have shaken, and the customs together with traditiois have faced a shocking crisis because of which the West is moaning with complaints and to which is trying to find a solution but in vain.

It should be borne in mind that the *attitude of* journalism is not the only example of the barriers in the way to religion. There are also books, the broadcasfing service, periodicals whose influence is very much the same like that of journalism in its attitude to Islam. The radio programmes, for example, present the

of modern mind. We know that the scientific mentality prevaled in Europe during the nineteenth century, and that it originated an attitude of hostility, deriding and carelessness towards religion as well as idealist values at large. The prevalence of this scientific mentality in Europe blew a wave of scepticism about religion and doubt in the abstract values. When the East came into close contact with the West, the effects of this scientific mentality and of its prevalence in Europe expanded to the Islamic East and caused some doubt and scepticism.

To challenge this wave of doubt and combat the attitude of carelessness about religion, it is necessary to present our religious values in a clear and healthy way. The method of presentation should be *modern* in the sense that it should be meant to lead to persuasion and conviction. Psychological and social studies are of great help in making any good presentation of ideals and religious or moral values. If the people of the past depended in their presentations on the Aristotelian logic and found it sufficient, it is indispensable for the people of modern time to employ psychology and sociology, so that they can make successful presentations of the religious values they cherish.

Thus we see that the absence of psychological and sociological appoaches in making presentation of the religious values has created another obstacle and caused an additional difficulty in the way of the youth to religion. Moreover, we see that there are two kinds of obstacles one of which is psychological and the other is material. The former kind is manifested in disrespectfulness to the religious values as a result of the educational policy of separation between religious and non - religious education. The latter one is demonstrated in the failure to make persuasive or at least interesting presentations of the religious values.

Besides these two kinds of psychological and material obstables, although their effects have mitigated for various reasons, there are barriers blocking the way of the youth to religion. These barriers serve the purpose of imperialism in the sense that they make the religious values continue to be disregarded and disdainedjust as imperialism pleased. The first of these barriers is the journalistic style and manners. Egyptian journalism, which has developed considerably and adopted itself to the latest developments in the field, abuses the advantages of its developments by way of presenting the religious values as insignificant or

two parties away from one another and struggling against one another. Accordingly, there was a section of the people ascribed only to the intellectual and spiritual legacy of the Muslim peoples and isolated, at the same time, from the course of contemporary life without being able to make any association between the past and the present. There was another secteon whose members completely abandoned the cultural legacy and the spiritual values of the Islamic history and turned their faces to the West to receive its guidance and follow its advice. The persons who constituted the former section stood stagnant and immutable in their respective homelands, whereas those of the latter section were strangers and foreigners in their countries in which they lived with their bodies only devoting their minds and loyalties to foreign places, Gibb concluded.

It is of particular interest to us here to point to the fact that the position of the latter group resulted from the educational policy followed in Egypt since and during the British occupation. That policy was planned on the basis of laying barriers between "religious" and "secular" education and stressing the differences between the "two" kinds of education. This policy made the school guides and instructors of all levels abandon our religious values, disrespect our historical glories and deny our cultural contributions to human civilization.

Among the values mocked at are those of religion. When these religious values are depreciated or rejected, it follows that they will be deserted by the people who depreciate or reject them, and consequently immaterial to many others, who will find psychological difficulties and perplexities to adhere to values considered as reactionary forces and disdained by the so - called secular intellectuals.

Thus the interference of imperialism in the policy of education aimed at creating this phenomenon of educational dualism and of separation between secular and religious education. The harmful results of this policy of separation appeared afterwards in a course of a generation or two.

Besides these psychological obstacles which blocked the way of the youth to religion and which were caused by the imperialist policy in education, there are obstacles of a different nature produced by internal factors amongst which is the form in which we present our religious values and our cultural and spiritual legacy, a form which does not satisfy the intellectual demand

HOW TO MAKE THE YOUTH ADHERE TO RELIGION

by
Dr. Muhammad El - Bahay
Director General of The Islamic Culture Administration.

The article we introduce here, although originally written for the Arab and Muslim youth, is addressed to youth of all faiths and nations as well as to people of responsibility for the guidance of youth. The context of the article may appear local and particular but the thesis of it is universal and concerned with humanity at larg. Youth of other nations may have different circumstances unlike those of the Arab and Muslim youth, yet we believe that youth everywhere face common problems and similar difficulties, and their adherence to " religion " is a 9reat service to peace and humanity.

Hammudah Abdul-Ati

There are obstacls in the way of the youth to conceive religion as a source of guidance. There are also barriers standing in their path to religion. Our youth of to - day find themselves living in an age marked with bad effects of imperialism in the sphere of educational policy in Egypt and the Muslim world as a whole. This imperiailstic policy was meant to disassociate the past of the youth from their present and make them derive their guidance from imperialistic sources without paying any attention to their glorious past and the values which history has throughont witnessed and recorded.

In a public lecture delivered in 1938 at the university of Hamburg, the English Orientalist Gibb pointed out that the educational policy followed in Egypt divided the people of the one and the same nation into

pledges and non-fulfilment of vows. Blood is mercilessly shed in Algeria, men, women, and children, including aged persons and infants have been forcibly driven out of their homeland, Palestine, and several other peoples, are still suffering man's oppression to his fellow human beings.

Let all people learn that this Charter, the declaration of which we are celebrating today, is simply a form of re-adherence to God's injunctions as advocated by Islam and by all other Divine religions,

I exhort all people, all the faithfull and all those who hold human rights in high esteem, to bo inspired with the dictates of their religion, seeking enlightenment and guidance by association with righteonsness.

" It is not righteousness that ye turn your faces to the East and the West; but righteous is he who believeth in God and the Last Day and the angels and the Scripture and the propherts; and giveth of his wealth, however cherished, to kinsfolk and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask, and to set slaves free; and cbserveth proper worship and payeth the poor-due. And those who keep their treaty when they make one, and the patient in affliction and adversity and time of distress. Such are they who are sincere. Such are they who keep their duty" (2, 177).

---

father or mother, or a specific race or colour, but by being dutiful to Him, by obedience to His injunctions and becuase of benevolence to self, parents, husband or wife, sons and daughters, kinsfolk, neighbours and all brethren in humanity. This has been the reason for any person's distinction from others: " Lo! the noblest of you, in the sight of God, is the best in conduct ".

O mankind, the above are God's injunctions, and it is for these reasons that He has sent His messengers and by these words of wisdom He appealed to you, through the last of His prophets, 1379 years ago.

Eleven years ago, a development of good augury loomed up in the horizon of human life in the form of the Universal Declaration of Human Rights. This Charter proclaimed that all people were born free and equal in dignity and rights. It also says that they are endowed with reason and conscience and should act towards one another in a spirit of brotherhood. This document further stresses that all human beings are entitled to all the rights and freedoms set forth in that Declaration, without distinction of any kind, such as race, colour, sex, language, religion, political or other opinion, material or social origin, property, birth or other status, without any distinction between men and women.

It also stipulates that everyone has the right to life, liberty and security of person.

Fourteen Centuries ago, the religion of Islam laid the foundations of all these rights as set forth in several verses of the Holy Qur'an.

It is a Day deserving special consideration. Human Rights Day should be an occasion of recalling the precepts of religion, and stressing the necessity for their application in a manner designed to bring happiness to the human race. It should act as a deterrant to big powers from undermining the status of small peoples. It should serve as an incentive to them to recognize these people's right to self-gevernment, restoring to them their full rights.

If these cherished aims were to be attained, then Human Rights Day should be celebrated by all humanity as a happy festival in which the entire human race should take pride.

O brethren throughout the world. All human beings, inspired with true faith in religion, should ever remember their own pledges and the vows enjoined upon them by Heaven to adopt an attitude of co-operation, solidarity and aid to the weak. They should consider the pains suffered by humanity here and there, as a result of the repudiation of

An Appeal to the World on the Occasion of Human Rights' Day

In the Name of God the Most Merciful, Most Copassionate

On the occasion of the celebration of the eleventh anniversary of the Universal Declaration of Human Rights, His Eminence Sheikh Mahmoud Shaltout, Rector of Al-Azhar University, has issued the following appeal to the members of the entire humanity throughout the world.

This is an appeal by the Almighty God Who says in the Holy Qur'an; " O mankind! Lo we have created you from a male and a female, and have made you nations and tribes that ye may know one another. Lo! the noblest of you, in the sight of God, is the best in conduct. Lo! Allah is Knower, Aware" (49: 13).

" O mankind Be careful of your duty to your Lord Who created you from a single soul and from it created its mate and from them hath spread abroad a multitude of men and women. Be careful of your duty toward Allah in Whom ye claim (your rights) of one another, and toward the wombs (that bare you). Lo ! Allah hath been a watcher over you "(4: 1)

O brethren in humanity, God has addressed you as " mankind " and since He created your religion, He has proclaimed your human fraternity. He has not appealed to a particular section, a particular nation, a specific race or a special colour. He has not addressed the rich, excluding the poor; the strong instead of the weak, the fully grown persons instead of these of tender age. He has appealed to the entire human race, as descendants of one father, Adam. This is why He has called you " Adam's Sons " to remind you of the fact that you have descended from Adam and that Adam was moulded from pure dust.

God has called upon you to be animated by a spirit of mutual compassion among yourselves by saying: "We have created you from a male and a female ". He has also appealed to you to resort to co-operation and solidarity saying: "We have made you nations and tribes that ye may know one another ". He has distinguished some of you not because they belong to a particular nation,

This is the understandable sense of the Qur'anic verses related to the end of Jesus with his people. It is easily conceivable by the reader of these verses, once he acquaints himself with the way of God concerning His prophets-when their opponents turn against them-and emancipates his mind from the stories and narratives to which the Qur'an is not to be subject. It is hard to perceive any other sense. One wonders as to how the salvation of Jesus by taking him from among his enemies and elevating his body to heaven could be considered *planning* of God, and how this could be described as *better* than and *superior* to the *planning* of the enemies who could not possibly resist or avoid the action of God which is beyond human power.

The confusion we come to from the thesis of this discussion is (a) There is nothing in the Qur'an or the genuine Traditions to establish the belief that Jesus was elevated with his body to heaven where he is alive now and will continue to live until he comes down to the earth near the end of the world. (b) All that which can be understood from the verses concerning that matter is a promise from God to cause the death of Jesus, exalt him and clear him of those who disbelieve, a promise which was thoroughly fulfilled and according to which Jesus was not killed nor crucified by his enemies but was made to enjoy his life fully and to exalt in God's presence. (c) The rejection of the notion that Jesus was raised to heaven by his body where he is alive now and wherefrom he will come down to the earth when the world comes near its end-does not drive a Muslim out of the way of Islam or faith. Such a rejection does not justify the virdict of apostasy passed against those who question the notion. They are Muslims, believers, and should be treated as such during their lives as well as upon their death; because the rejection of this notion does not imply a rejection of any fundamental principle of Islam.

It is obvious therefore that Jesus was exalted in God's presence, because the Arabic word *rafa*, is mentioned in the verse after the word death, and so it means exaltation of Jesus, not the elevation of his body to heaven. This meaning is supported by the statement in which God promised to clear him of those who disbelieved, which indicates that the whole matter signifies honour and veneration for Jesus. It is also supported by the usages of the word *rafa*, in many Qur'anic verses and various classical expressions. Consequently, the word used in connection with Jesus can reveal one sense only, the sense of care and protection by God. Any other interpretation would do injustice to the Qur'an and would only appease unfounded stories and fabricated narratives.

After all, Jesus is but a messenger, before him messengers have already passed away. His people opposed him and on their faces appeared signs of hostility and evil. He, like all other prophets and messengers, took refuge with God Who saved him with His might and wisdom and frustrated His enemies' planning. This is the proper sense embodied in the verses which read as follows : " But when Jesus perceived disbelief on their part, he said: ' Who will be my helpers in God's way ? ' The disciples said : ' We are God's helpers, we believe in God, and bear thou witness that we are submitting ones (Muslims). Our Lord, we believe in that which Thou hast revealed and we follow the messenger, so write us down with those who bear witness. And (the Jews) planned and God (also) planned. And God is the best of planners. When God said : " O Jesus, I will cause thee to die and exalt thee in My presence and clear thee of those who disbelieve and make those who follow thee above those who disbelieve to the day of Resurrection. Then to Me is your return, so I shall decide between you concerning that wherein you differ " (Surah. 3, Vs. 51 — 54). These verses explain that God's power of planning is far superior to that of His enemies who plotted the assassination of Jesus and whose tactics in that matter ended with mere frustration, while Jesus was saved and protected by God. This was the fulfillment of the promise of God Who said : " O Jesus, I will cause thee to die and exalt thee in My presence and clear thee of those who disbelieve". In that promise God gave him the good news that He would save him from the plots of the enemies and frustrate them, and that he would complete his course of life to die in a natural way without killing or crucifixion and then be exalted in His presence.

also unreasonable to say that the word death, *wafah*, in the passage means Jesus will die after his descension from heaven - accordiug to the opinion which presumes that he is alive in heaven and will come down at the end of the world. This is because the passage speaks in clear terms of his relations to his own people, not to the other people who will exist near the end of the world and who are unanimously conceived to be Muhammad's peole not the peole of Jesus.

The Meaning of Rafa (Exaltation) :

The above-mentioned verse in the chapter of Women, which reads: "Nay, God exalted him (Jesus) in His presence " is taken by the majority of interpreters to mean that the body of Jesus was elevated to heaven where he is alive now, and wherefrom he will come down to the earth at the end of the world to kill all pigs and smash all crosses. They derive this opinion from narratives which indicate that Jesus will come down at a certain time near the end of the world. They do that in spite of the fact that these narratives are inconsistent and equivocal, and are reported through questionable sources. They hold this opinion unaware, perhaps, that they contradict themselves and twist the meanings of the Qur'an and the Traditions by ascribing to them senses which they cannot bear or suggest.

If we leave these interpreters aside, and come to reflect on the verse of the Family of Amran, in which God says: " O Jesus, I will cause thee to die, and exalt thee in My presence, " together with the verse of Women " Nay, God exalted him in His presence " - we shall find that the former verse indicates a promise from God the fulfillment of which is revealed and attested by the latter one. The promise of God as stated in the former verse, was that He would cause the death of Jesus, exalt him and clear him of those who disbelieve. The latter verse makes no reference to these meanings as such but is confined to the mention of exaltation in God's presence. This means that the two verses should be interpreted in the light of each other to be consistent, which - in turn - maens that God actually caused the death of Jesus, exalted him in His presence and cleared him of those who disbelieved. The great authority of Qur'anic exegesis al - Alusi interpreted the sentence " will cause thee die " in a way as to mean that God made Jesus complete his life and die a natural death without being let down by God to the enemies to kill him or do to him the afflictions they intended to.

is in Thy mind. Surely Thou art the great Knower of the unseen. I said to them naught save as Thou didst command me: Serve God, my Lord and your Lord; and I was a witness over them so long as I was with them, but when Thou didst cause me to die Thou wast the Watcher over them. And Thou art Witness of all things" (Surah. 5, Vs. 116—117).

These are the verses in which the Qur'an makes references as to how the life of Jesus with his people ended. The very last verses of *the Table* bear a special significance where they deal with Jesus and his mother as being worshiped by their people. They make it clear that Jesus, peace be upon him, did not say to his people anything except what God had commanded him to say i.e. "Serve God, my Lord and your Lord". They also state that he was a witness of his people when he was among them, but since the time God caused him to die, he knew nothing about what they did,

The Meaning of the word Tawaffa (*to cause to die*):

The word *tawaffa* is frequently mentioned in the Qur,an to mean to cause death. This is the first and foremost sense of the word whenever it is mentioned. If it is used to mean something other than that, there is always with it what points to the new meaning in which the word is used. The following verses show what the word and its derivations originally mean. The Qur'an says: "*Qul yatawaffakum malakul-mawt,*" which means "Say: The angel of death, who is given charge of you, will cause you to die" (Surah. 32, V. 11). "As for those whom the angels cause to die (*this is represented in Arabic by the words* "*tawaffahum al-Malaikah*) while they are unjust to themselves ..." (Surah. 4, V. 97). "And if thou couldst see when the angels cause to die those who disbelieve — this is represented in Arabic by the words '*yatawaffa al - ladhin kafarou al - malaikato*' - " (Surah. 8, V. 50). Besides these, there are many verses to support this notion.

It is logical, therefore, that the word *tawaffaytani* - mentioned above in connection with Jesus in the passage of *the Table* - should mean natural death in the normal way which people conceive and which the Arab-speaking people understand from both the text and the context. So if we take this passage in its original and proper sense, it should be concluded that Jesus died and that there is no argument to justify the notion which assumes that he is still alive and to him death never came. It is

THE "ASCENSION" OF JESUS

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

Rector of Al-Azhar University

In three chapters the Glorious Qur'an deals with the question of Jesus' end. First, God says in the chapter of the Family of *Amran* : " But when Jesus perceived disbelief on their part, he said : Who will be my helpers in God's way ? The disciples said: We are God's helpers, we believe in God, and bear thou witness that we are submitting ones (the Arabic word used in the text is *Muslims*). Our Lord, we believe in that which Thou hast revealed and we follow the messenger, so write us down with those who bear witness. And (*the Jews*) planned and God (*also*) planned. And God is the best of planners. When God said : O Jesus, I will cause thee to die and exalt thee in My presence and clear thee of those who disbelieve and make those who follow thee above those who disbelieve to the day of Resurrection. Then to Me is your return, so I shall decide between you concerning that wherein you differ " (Surah 2, Vs. 51 — 54).

Secondly, in the chapter o *Women* God, exalted be He, says : " And for their disbelief and for their uttering against Mary a grievious calumny (we condemned them) : And for their saying: We have killed the Messiah. Jesus, son of Mary, the messenger of God, and they killed him not, nor did they crucify him, but a likeness of that was shown to them. And certainly those who differ therein are in doubt obout it. They have no knowledge about it, but only follow a conjecture, and they killed him not for certain. Nay, God exalted him in His presence. And God is ever Mighty, Wise " (Surah 4, Vs. 156 - 158).

Thirdly, in the chapter of *the Table* God, glorified be He, says: " And when God will say: O Jesus, son of Mary, didst thou say to men, Take me and my mother for two gods besides God. He will say Glory be to Thee : it was not for me to say what I had not right to (say). If I had said it, Thou wouldst indeed have known it. Thou knowest what is in my mind, and I know not what

the right of ownership and enterprise. When Islam came, it tightened the sphere of slavery and made an atonement charity and the emancipation of slaves. It also equilized man and woman so for as rights and duties are concerned. Moreover, Islam declared the freedom of conscience or belief ; as God says in the Qur'an : "There is no compulsion in religion ; the right way is indeed clearly distinct from error " (Surah 2, V. 256). " And if thy Lord had pleased, all those who are in the earth would have believed, all of them. Wilt thou then force men till they are believers " (Surah 10, V. 99).

Furthermore, it respected the beliefs of the people of the Scripture Jews and Christi a ns alike and guaranteed for them freedom of worship, security and justice. Muslim rulers and laymen are demanded to care for them, be kind and fair to them.

Besides all this, Islam declared the freedom of thought and opinion, and so rejected the faith of imitators and opposed the authority of dictators. With the same spirit Islam enjoined reflection upon the wonders of the heavens and the earth. It adopted a tolerant attitude towards politicians, intellectuals and jurists. And this is why there have been in the history of Islam many political parties, various intellectual trends and different schools of law. It is also why non-Muslims are allowed to propagate their religions and practise their rituals without being interfered with or argued against except in a way which is best.

In fine, Islam has restored due respect to the right of ownership and established it on solid bases. It has regulated the laws and systems of inheritance and set up the course of dealing accordingly. These are the substance of the natural rights which Islam guarantees for man irrespective of his colour, religion and tongue.

Thirteen and a half centuries ago, where ignorance and error as well as oppression prevaled, Muhammad son of Abdullah declared these rights. Thus he emancipated humanity from the fetters of materialism, fanaticism and egoism. Further, he honoured humanity and guided it to the straight path, to a far more perfect system, to a better world and a happier life. But humanity unfortunately went astray from this path and was misled by those hypocrites who to-day declare these rights and do emphasize from the depth of their hearts the existence of distinctions and differences of all sorts among people.

* * *

justice; facilitated the freedom of slaves by virtue of exhortation to the setting free of the slaves, and granted woman's rights in a manner of equality.

The weak upon whom God bestowed His mercy through the message of Muhammad were not confined to any particular race or country. They constituted a universal community of different races and regions where Arabs and Persians, Romans and Turks, Indians and Chinese, Barbars and Ethiopians all enjoyed the true justice of Islam and the protection of the califate.

Islam, whose Most Supreme Ordainer says: "Surely We have honoured the children of Adam", does not restrict its honour to any special colour or any particular class of people. On the contrary, it venerates all the children of Adam and so forbids them to prostrate to an idol or an image or a tree or an animal. It does not allow them to yield to the oppression of any monk or man of authority.

The Jews assumed that they alone were the beloved children of God and all other people were nothing. Likewise, the Romans claimed that they were created to be the masters of the world while pepole other than themselves were only servants. The Arabs also used to think of themselves as gifted from among all people with eloquence and privileged with rhetorical qualities. The Indians, too, had their own imaginations of distinction to which some classes were entitled at the expense of other classes which were disdained and *untouched.* Thus the universal social system was based on recognition of social, racial and religious superiority of some people over others. This was the rule until the Messemger Muhammad son of Abdullah came with guidance and true religion to make it above all other religions. He declared equality in the words of God " The blievers indeed are brothers ", " O mankind, We have created you from a male and a female and have made you nations and tribes so that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you (Surah 49, Vs. 10, 13).

The Prophet gave more emphasis to this point by saying: "All people are like comb teeth. No Arab is superior to non Arab except by virtue of dutifulness. You all belong to Adam, and Adam was created from the pure earth".

Before the coming of Islam slaves and women were not considered human beings, but were conceived as mere material things deprived of

the Red Indian of America, he is considered by the Sons of Uncle Sam as a mean and disdained creature who is to be burdened with all kinds of duty and deprived of every right. His unrecognized existence in the countries of liberal democrats is still, from the Muslim's point of view, a big lie in the democratic Constitution of Washington and a horrid curse on the Statue of Liberty in New york.

Likewise, the coloured and black man of Africa, or the yellow man of Asia is viewed by the French and the English imperialists as a worthless animal and a sort of row material. He is born to be exploited and developed to be invested, and his production is to be consumed by others. He is the subject of hostility in times of peace and the substance of spoil in war. Yet his blundered right in the constitutional and educated nations is still in the opinion of the Muslims a case against the soundness of culture taught in the universities of France and a flat refutaion of the truth of justice in the Parliament of England.

It is due to this false interpretation of the reality of man that the basis on which he is evaluated has been shaking and the criterion by which he is measured has been inaccurate. Accordingly, the value of man has been given different explanations. His race, colour and religion all have a special weight on and a particular significance in his account. Man is not venerated because he is a human being of virtue, but his honour and value depend entirely on his conditions of ability and weakness. Consequently, knowledge, wealth and power are the means of mastery, whereas ignorance, poverty and impotency are the way to enslavement. Mastery in this sense means the enjoyment of all rights without having any obligation, and enslavement means the burdening with obligations without enjoying any right.

In contrast to this it is useful to say that it is the Muslims only who understand the true value of man because they are the followers of Muhammad, who alone declared the rights of man with a clear vision of his real value and natural status. This is so because Muhammad was the Messenger of God Who inspired him with these rights as he was sent from God to be a mercy for all people. God sent him to be a mercy to the weak who lack money or have no ally or supporting relatives, or who are weak by the nature of their creation like women. Thus he guaranteed provisions for the poor by means of obligatory alms ; assured the weak of dignity by way of

Muhammad the Messenger of God The First to Declare Human Rights

Written on the occasion of the Eleventh anniversary of the Declaration of Human Fights in the United Nations Organization.

by

AHMED HASSAN EL-ZAYAT
Editor - in - Chief

On December 10, 1948 and with an artificial feeling of enthusiasm motivated by international hypocrisy, the politicians delegated to the General Assembly of the United Nations Organization adopted and proclaimed the Universal Declaration of Human Rights. A few weeks ago the officials of the organization together with other people concerned celebrated the Eleventh Anniversary of that historic declaration. On this occasion they gave glad tidings about the abiding boons, the copious prosperity and the perpetual peace. Before these *humane* ;politicians the leaders of the French Revolution had declared these very human rights in the year 1789, codified them in seventeen articles and made them a prologue of the Constitution of 1791.

It is easy for the social mind to reason out the utterance by the French revolutionsts of the human rights ater having so painfully suffered from the subjugation of nobility and the despotism of religious authorities. It is also easy to explain the adoption by the United Nations Organization of these rights after having seen the Communist monster obstructing the course of of life and opening its huge horrible mouth to devour the capitalist democracy and the spheres of its domination over people's sources of living and world markets through imperialism and influence. But it is difficult for the logical mind to conceive what the Europeans and Americans mean by the word *man* for whose sake they supposedly declared these rights and showed sympathy. Yet it seems probable that they mean by man entitled to these rights the luxurious white man who descended from Latin or Saxon origins. But as for

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء التاسع — رمضان سنة ١٣٧٩ هـ — مارس سنة ١٩٦٠ م — المجلد الحادى والثلاثون

الفهـــــرس

يومان من أيام رمضان

يوم القرآن و يوم الفرقان

بقلم : أحمد حسن الزيات

يستقبل المؤمنون فى شهر رمضان ربيع القلوب ونعيم الأنفس وصيام الجوارح عن الأذى ، وفطام المشاعر عن الهوى ، بعد أحد عشر شهراً قضوها فى صراع المادة وجهاد العيش ، تكدر فيها القلب وتبلد الحس وتلوث الضمير ، فيجلو صدورهم بالذكر ، ويطهر نفوسهم بالعبادة ، ويزود قلوبهم من مذخور الخير بما يقويها على احتمال الفتن والمحن فى دنيا الآمال والآلام بقية العام كله .

رمضان هو التمرين الرياضى السنوى للنفس ، يشترك فيه المسلمون فى جميع أقطار الأرض ، يصومون فى وقت واحد ، ويفطرون فى وقت واحد ، وينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله ، فيغضوا أبصارهم عن المنكر ، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش ، ويصموا آذانهم عن اللغو ، ويغلوا أيديهم عن السوء ؛ وتلك هى العناصر الجوهرية لعقيدة الصوم ، وهذه القيود والحدود التى تضمنها معنى الصوم هى المجاهدة التى تعود الإنسان ضبط النفس وقوة الإرادة .

وضعف الإرادة إنما يقوى برياضة النفس على الحرمان المؤلم . كما يقوى الجسم برياضة البدن على الجهد العنيف ، وكما يقوى العقل برياضة الذهن على التفكير العميق . والرياضة الروحية هى حكمة الصيام فى الأديان كلها . .

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » فتقوى الله ومجاهدة النفس هما الغاية من هذه الحكمة . وقد اجتمعتا فى قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » . فالخوف من الله هو التقوى ، ونهى النفس عن الهوى هو المجاهدة . أما قول من قال إن حكمة الصوم هى أن يذوق الغنى عذاب الجوع ليشفق على الجائع ويرأف بالفقير فقول سطحى توحى به النظرة العابرة والفكرة السريعة ، فإن إجاعة الأغنياء ليشعروا بآلام الفقراء قد تكون معنى من معانى الصوم ، ولكن حكمة الله من صوم رمضان أسمى وأجل وأبعد .

خص الله شهر رمضان من بين الشهور بقيام الركن الرابع من أركان الإسلام فيه، وهو الصوم؛ ليومين من أيامه كان لهما فى تاريخ العالم أرفع الشأن، وفى مصير الإنسان أبلغ الأثر: يومه السابع عشر من السنة الحادية والأربعين من مولد الرسول وهو يوم القرآن، ويومه السابع عشر من السنة الثانية لهجرته وهو يوم الفرقان.

فأما يوم القرآن ففى ليلته المباركة تجلى الله لجبل النور كما تجلى من قبل لجبل الطور فأنزل الروح الأمين بالإشراقة الأولى من كتابه الكريم على قلب نبيه العظيم، فاستعلنت منذ تلك الليلة معانى الحق، واستبانت سبل السلام، واستقامت موازين العدل، وخرج الناس من ظلام حالك كانوا يعمهون فيه، إلى نور ساطع أصبحوا يهتدون به، ولقد كان لصباح هذا اليوم المسفر تباشير كانت تلوح فى حياة محمد صلوات الله عليه فى هذا الشهر من كل عام، كان كلما أقبل شهر رمضان هجر المهاد اللين، وفارق الزوجة الحنون، وتزود الزاد اليسير، ثم صعد جبل حراء على ألف وخمسمائة متر من شمال مكة؛ ليستعين بالصوم والاعتكاف والتأمل على استجلاء الحقيقة الإلهية التى خفيت بين جاهلية العرب ووثنية قريش، وهناك على قمة الجبل المخروطى الشاهق، وفى صمته الملهم الرائع، وفى غيابة الفضاء الرهيب، كان يفكر فى الملكوت الدائم، ويسبح للجلال القائم، ويفنى فى الوجود المطلق. فإذا جنه الليل أرسل نظره وفكره فى أشعة القمر أو فى أضواء النجوم، يستطلع المجهول ويستجلى الغامض، ويرقب انبثاق النور عن الخالق، وانكشاف الستور عن الحق؛ حتى إذا أجهده التفكير وأرهقته الحيرة، أوى إلى الغار الموحش النابى فيستلقى على صخره سويعات ثم يستيقظ قبل أن تغور النجوم فيتعبد ويتجه بروحه اللطيف الصافى إلى الملأ الأعلى حتى تهيأ بطول الرياضة والعبادة والخلوة لتبليغ الرسالة.

ففى الليلة المباركة وهى ليلة القدر رأى وهو نائم فى الغار أن رجلا جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب وقال له اقرأ. وكيف يقرأ محمد الأمى ولم يتل من قبل كتابا ولا خطه بيمينه؟ قال للرجل بعد أن راعه ما سمع منه وآذاه ماصنع به: ماذا أقرأ؟ قال له: « اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» فقرأها وانصرف الرجل عنه وقد انتقشت فى لوح قلبه.

* * *

وأما يوم الفرقان فهو يوم التقى الجمعان: جمع المدينة وجمع مكة فى بدر، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين، وكان

المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة قريش، فكان موقف الإسلام من الشرك يومئذ موقف محنة. كان بين العدوتين الدنيا والقصوى فى بدر مفرق الطريق : فإما أن يقود محمد زمام البشرية فى سبيل الله فتنجو، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك. وقفت مدنية الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبى جهل على الكثيب. فكان طريق وعقبة، ونور وظلمة، وإله وشيطان؛ فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر، ويتبدد نور الله فى هذا القفر. وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر، ويتصل الماضى بالمستقبل من هذا الطريق، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة. وما هى إلا خفقة من خفقات الوحى حتى نزل الوعد بالنصر وجاءت البشرى بالجنة، فغاب البدريون فى إشراق عجيب من الإيمان لا يرسم فى أخيلتهم إلا الحور، ولا يصور فى أعينهم إلا الملائكة، وقذف الله فى قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض، من صخور بدر، وانجاب القتم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب، وانكشفت المعجزة الإلهية عن انتصار ثلاثمائة على قرابة ألف!.

موقعة بدر الكبرى لا نذكر بخطتها وعدتها ونفقتها فى تاريخ الحرب، وإنما تذكر بنتائجها وآثارها فى تاريخ السلم؛ لأنها كانت حكما قاطعا من أحكام القدر غير مجرى التاريخ وعدل وجهة الدنيا ومكن للعرب فى دورهم أن يبلغوا رسالة الله ويؤدوا أمانة الحضارة ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم.

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة، ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان والصدق والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح، وفيها الحب والإيثار، فلا تبالى العدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر.

بهذا الإيمان الصادق خلق الله من الضعف قوة فى بدر والقادسية واليرموك. وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة، عمرانا طبق الأرض بالخير، وملكا نظم الدنيا بالعدل، ودينا ألف القلوب بالرحمة.؟

أحمد حسن الزيات

تحية من الأستاذ الأكبر

إلى جميع المسلمين في شهر رمضان

إخواني وأبنائي المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته - وبالسلام أحييكم أصدق تحية ، تحية من عند الله طيبة مباركة - أوجهها إليكم ، عنوانا على ما بيننا من الأخوة المشتركة ، والمحبة الصادقة والإيمان بالله ورسوله .

أيها السادة :

إن الله في علمه الخلق والاصطفاء ، فهو يخلق ما يشاء لما يشاء ، ويصطفي من يشاء لما يشاء ، يخلق البشر ، ويصطفي منهم للقيادة من شاء ، يصطفي الأنبياء والمرسلين ، ويصطفي العلماء والفلاسفة ، ويصطفي القواد والمصلحين. ويخلق الأمكنة ، ويصطفي منها مهابط الوحي ، ومنابت الذكريات ، ومثابة التقديس والعبادة. يصطفي منها على سائر الأماكن ، ويجعل أفئدة من الناس تهوى إليها ، ويخلق الأزمنة ، ويصطفي منها مواسم لرحمته ، وأياما وليالي لنعمه وأفضاله .

ومصداق الخلق والاصطفاء في القرآن على وجه عام قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » وفي الاصطفاء الإنساني يقول سبحانه : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، ويقول : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » ، ويقول : « يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » ويقول : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات » .

وفي الاصطفاء المكاني يقول تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم » ، « يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى . وأنا اخترتك » .

وفي الاصطفاء الزماني يقول « إن قرآن الفجر كان مشهودا » ، « إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر » .

على هذه السنة ، سنة الاصطفاء في الزمان

والمكان والخلق اصطفى شهر رمضان وكان هو الشهر الذى تهتز له قلوب المؤمنين ، ويذكرون به نعم الله وأفضاله ، ويرقبون فيه رحمته ورضوانه ، وكان مظهر اصطفاء رمضان جملة أمور :

أولا : أنه الشهر الوحيد الذى صرح القرآن باسمه .

ثانياً : أنه الشهر الوحيد الذى ظهرت فيه أكبر نعم الله على عباده وهى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ثالثاً : أنه فرض صومه وجعل صومه فريضة محكمة من أنكرها فقد خرج عن دائرة الإسلام واستحق اللعنة الأبدية ، وحرم جميع خصائص المسلمين ، فهو لا يدفن فى مقابر المسلمين ، ولا يرثهم ولا يرثونه ، وتبين منه زوجته ، وتنقطع ما بينه وبين أبنائه صلات البنوة والحفادة ، وكذلك تنقطع بينه وبين سائر المسلمين صلات المحبة والإخاء والولاية .

وصوم رمضان عبادة تلتقى فى هدفها مع أهداف القرآن كلاهما يربى العقول ويسمو بالأرواح .

ولرمضان فى صومه مظهر خاص ، فهو يوحد بين المسلمين فى أوقات الفراغ والعمل ، وأوقات الطعام والشراب ، ويفرغ عليهم جميعاً صبغة الإنابة والرجوع إلى الله ، ويرطب ألسنتهم بالتسبيح والتقديس ، ويعفها عن الإيذاء والتجريح ، ويسد عليهم منافذ الشر ، والتفكير فيه ، ويملأ قلوبهم بمحبة الخير والبر لعباد الله ، ويغرس فى نفوسهم خلق الصبر الذى هو عدة الحياة .

وشهر رمضان بعد هذا كله هو شهر الذكريات الإسلامية الأولى ، ففيه يذكر المسلمون نزول القرآن الكريم « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وفيه يذكر المسلمون تركيز الإسلام بالقوة على أساس من كبح جماح الشرك والوثنية وذلك كما نراه فى غزوة بدر الكبرى .

ويذكرنا بعودة المسلمين من المدينة إلى مكة المكرمة ، بعد أن أخرجوا منها لا لشىء سوى أنهم قالوا : « ربنا الله » ، وبذلك تم على أيديهم الفتح المبين ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

أيها السادة :

إن الصوم حرمان من الطعام والشراب وما ألفه الإنسان من شهوات ، ويجب أن نتنبه إلى أن هذا الحرمان ليس هو مقصود الله من الصوم ، وإنما مقصوده الذى يريده من عباده هو إعداد نفوسهم بالصوم للخير

البحث العلمى فى تاريخ الأدب

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتبنا فى مقال سابق عن فائدة البحث العلمى فى تمحيص تاريخ الأدب . ورأينا أن استخدام هـذا البحث قمين أن يبين لنـا موضع الصحة وموضع التلفيق من كل خبر وكل رواية ، لأنه يبين لنـا صعوبة التلفيق ، بل استحالته أحيانا على من يريده ويتعمده ، إذا تكشفت المقابلة بين الأخبار والروايات عن حقيقة علمية كانت مجهولة فى الزمن الذى ترجع إليه .

وقد تكشفت المقابلة بين أخبار امرئ القيس الذى عرضنا سيرته فى ذلك المقـال

والتقوى ، وادكروا فى ذلك قوله تعالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

عنى القرآن عناية خاصة بفرضية الصيام ، وجعل منه مظهر وحدة للمسلمين ، لا يؤثر على هذه الوحدة تباين أمكنتهم ، ولا اختلاف ألسنتهم ، ولا تعدد جنسياتهم . فالإسـلام وحد بينهم فى العقيـدة وفى العبـادات ، وفى المعاملات ، وفى الأخلاق وفى المسئولية . فالكل يؤمنون برب واحد ، وإله واحد ، ويتجهون إلى قبلة واحدة ، ويصومون شهراً واحداً ، ويرقبون هدفا واحداً . ويرتبطون بالصالح العام .

أمام هذه الوحدة التى يرسمها الإسـلام للمسلمين ، ويمد خطوطها شهر رمضان ، أمام هذا كله أهنئكم بشهر رمضان وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين فى جميع الأقطار للتكاتف والتعاون ، وسد منافذ الشر التى تفد إليهم من الاستعمار والاستغلال ، والإلحادية « يأيها الذين آمنوا ، هل أدلـكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سـبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم » .

وفقنا الله جميعا ، ووفق أولى الأمر منا فى أنحاء الأرض إلى خيرى الدين والدنيا ، والله المستعان ـ وكل عام وأنتم بخير .

محمود شلتوت

عن حقيقة القروح التي قيل إنه أصيب بها من أثر حلة مسمومة أرسلها إليه قيصر انتقاما منه - لمغازلته بعض حرمه . فإذا بالإصابة كلها تتمشى بأعراضها من أيام صباه ، إذ كان له - كما قالت إحدى صواحبه - عرق يفوح برائحة كلب . وكانت تلازمه حالة من حالات الخلل الجنسي تشاهد مع حالات الالتهاب الجلدي ، ولا بد أن تنتهي مع إهمال العلاج إلى عواقبها - التي ظهرت قبيل وفاته .

ونود أن نتبسط الآن بعض التبسط في أمثال هذا الخبر عن موت امرئ القيس ، فإنني تبينت بعد المقابلة بين أخبار الكثيرين ممن توسعت في درس سيرتهم وقيل عنهم بإجماع الرواة إنهم ماتوا مسمومين أن الآفة كلها في هذه الأخبار إنما هي آفة العجز عن تطبيق النقد العلمي والتعجل في صرف الحوادث التاريخية بالعلل القريبة ، على مثال التحقيقات الجنائية التي تختم بإحالة الأمر على القضاء والقدر ، إيثاراً للسهولة وإخلاداً إلى العفو والعافية .

ومن أصحاب السير التي توسعت في درسها وانتهت حياة أصحابها على قول المؤرخين بدس السم لهم في الطعام أو الدواء سيرة ابن الرومي في الأقدمين وسيرة جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي في المحدثين ، فإن أيسر مراجعة علمية للأعراض التي صحبت وفاتهم خليقة أن توجه النظر إلى تعليل الوفاة بأسباب غير السم ، وأن تصحح أخطاء المؤرخين في أمور كثيرة ترتبط بتاريخ العصر كله ولا تنحصر في سير أولئك الأدباء والزعماء .

فالمشهور عن وفاة ابن الرومي كما جاء في تاريخ ابن خلكان وغيره : « أن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش . فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو في مجلسه فلما أكلها أحس بالسم ، فقال له الوزير : إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الموضع الذي بعثتني إليه ، فقال له : سلم على والدي . ! فقال له : ما طريقي على النار ... » .

وقد تداول المؤرخون من الشرقيين والمستشرقين هذه القصة وأعجبهم موقع النكتة منها مع وضوح الكذب فيها وسهولة الاهتداء إليه بالرجوع إلى تاريخ وفاة عبيد الله بن سليمان الذي طلب الوزير إلى الشاعر أن يبلغه سلامه في العالم الآخر ، فإنه كان حياً بعد آخر تاريخ ذكره الرواة لوفاة ابن الرومي بأربع سنوات ، إذ مات سنة ثمان وثمانين ومائتين .

والعجيب في قصور وسائل التحقيق عند المؤرخين أنهم لو راجعوا شعر الشاعر لعلموا أنه عاش إلى ما بعد سنة ثمانين لأنه بلغ الستين كما قال :

طربت ولم تطرب على حين مطرب
وكيف التصابي بابن ستين أشيب

أما سبب الوفاة الصحيح فلا ريب عندنا

فيه وهو تسمم جرح فسد فى جسم مريض مصاب بمرض السكر ، وليس أوضح من ذلك عند مراجعة جملة الأخبار والحقائق التالية :

١ — كان ابن الرومى مشهوراً بالنهم والإفراط فى أكل الحلوى والدسم .

٢ — أصيب بجرح غلط فيه الطبيب كما قال:

غلط الطبيب على غلطة مورد
عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما
غلط الطبيب إصابة الأقدار

٣ — زاره صديقه الناجم فى مرض وفاته فرآه يشكو من إلحاح البول وعنده ماء مثلوج ، فلما لاحظ الناجم ذلك قال الشاعر :

غــداً ينقطع البول
ويأتى الهــول والغول

وجعل الشاعر يشرب من الماء المثلوج ولا يروى فقال :

وأراه زائداً فى حرقتى
فكأن الماء للنار حطب

ولا حاجة إلى غير المقابلة بين هذه الأخبار والروايات لنعلم أننا أمام حالة مرضية معروفة لاشك فيها : حالة رجل منهوم مفرط منذ صباه إلى شيخوخته فى أكل الحلوى والدسم ، فقصده الطبيب وهو لايعلم خطر الفصد فى مثل حالته ثم فسد الجرح فاعتراه كل مايعترى مريض السكر من شدة الظمأ وإلحاح البول والشعور بمثل مايشعر به المسموم .

وليس بنا ـ هنا ـ أن نحاسب المؤرخين الأقدمين على قلة إدراكهم لهذه الحقيقة من جملة الأخبار التى رووها ، ولكننا نستدل على صــدق رواياتهم بهذه المطابقة بينها وبين الأسباب العلمية ، ونخرج من ذلك إلى تحقيق جديد لرأى القائل : إن لسان الحال أصدق من لسان المقال ، وإننا مطالبون بأن نستمع اليوم إلى لسان الحال قبل أن نستمع إلى أقوال المؤرخين وآرائهم فيما يقصدونه ويتعمدونه من العلل والتفسيرات .

* * *

ولقد شاع عن أسباب وفاة السيد جمال الدين الأفغانى أنه مات بمرض السرطان فى فكه ، وأن هذا المرض أصابه من يد طبيب مدسوس عليه من قبل السلطان أو من قبل رئيس الشرطة .

لكن السرطان لم تكن له جراثيم معروفة يلقح بها المريض فى أوائل القرن العشرين ، وقد أصيب السيد بآلام فى فكه قبل أن يعرض حالته على الطبيب ، وقبل أن يسوء علاجه عمداً أو خطأ ، إن صح أنه ساء .

وليس من المستغرب أن يصاب السيد جمال الدين بالتهاب الفك مع إفراطه فى تدخين التبغ الحار وإفراطه فى تناول الشاى

المرير ، وأن يتعسر بعد ذلك علاج الداء كما تعسر علاج داء قريب من هذا فى فك (أحمدفؤاد) ملك مصر السابق ، مع الفارق الكبير فى العناية بالحالتين ، ومع التقدم فى فنون العلاج خلال ثلاثين سنه بعد أيام السيد جمال الدين .

* * *

وقد دعتنى الكتابة عن الكواكبى إلى استقصاء الأخبار عن سبب وفاته ، فكان أشهرها وأسبقها إلى خواطر أبناء عصره أنه مات مسموما ولم يستطع شهود الوفاة من صحبه أن يعللوا وفاته بعد هذه العلة .

ولكننى راجعت تفصيلات الخبر فى مراجع عدة فرأيت الأستاذ محمد كرد على يقول : « إنه شعر بالأمس بوجع فى ذراعه وما عرف له تعليلا » .

ورأيت الأستاذ صالح عيسى يقول : إن السيد عبد الرحمن : « استدعانى إليه وكنت جالسا إلى قربه وقال لى : أحس بوجع شديد فى خاصرتى اليسرى » .

وجاء فى خبر نشرته مجلة الحديث الحلبية « أنه شرب قهوة مرة وبعد نصف ساعة أحس بألم فى أمعائه فقام للحال وقصد مع ابنه السيد كاظم فى عربة حنطور إلى الدار وظل يقىء حتى قارب الليل منتصفه فأصيب بنوبة قلبية ضعيفة ... » .

وليس يحق للمؤرخ أن يبعد من ذهنه علة الذبحة الصدرية وهو يقابل بين هذه الأعراض من ألم الذراع وألم الخاصرة والنوبة القلبية على أثر القىء وألم الأمعاء ، وقد ذكر الأستاذ محمد لطفى جمعه فعلا فى مقال نشره بمجلة الحديث سنة ١٩٣٧ أن الكواكبى « ذهب ضحية ذبحة صدرية » .

* * *

تلك سير ثلاث ، لم أتعهد جمعها من عصر واحد ولم أبحثها فى وقت واحد ، ولكنها مصادفات تدل كل مصادفة منها على فائدة البحث العلمى للتمييز بين مواضع الصدق ومواضع التلفيق فى أقوال المؤرخين ، وأن التاريخ بحذافيره وشيك أن يتغير إذا عرضناه على ضوء المعارف التى كانت مجهولة من قبل ثم انجلت عنها غشاوة الجهل شيئا فشيئا حتى بلغت مداها من الوضوح والثبوت فى العصر الحاضر ، ونعود فى ختام هذا المقال إلى الرأى الذى بسطناه من قبل عن معنى التخصص للأدب أو للعلم فى الثقافة العصرية ، فلا بد لميزان النقد اليوم من تمام الأداة التى ينتفع بها فى هذه الصناعة ، ولا غنى للأديب ولا للعالم عن الإلمام بغير ثقافته الخاصة ، لتصحيح الحكم على حقيقة من حقائق المعرفة العامة . ؟

عباس محمود العقاد

المجتمع الحديث

للأستاذ الدكتور محمد البهى

— ٢ —

المجتمع الإسلامى تأثر بالصراع فى البيئة الأوروبية مع الكنيسة أكثر من تأثر المجتمع الأوربى نفسه به :

وهكذا نرى المجتمع الأوربى الحديث حتى الآن لم يتأثر بما بشر به فى دعواه من السير فى خط « العلمانية » ، ومن التخلص بالتدريج من العرف والتقاليد الماضية فيما يحدثه ويصدره من تشريعات وقوانين ، وإذا كان هناك مجتمع إنسانى حديث تأثر بالصراع فى البيئة الأوربية مع الكنيسة . وقبل « العلمانية » فى توجيهه ، وحاول أن يتخلص من ماضيه من عرف وتقاليد — فهو بعض المجتمعات الشرقية الإسلامية .

فـ « النهضة » التركية التى قام بها مصطفى كمال أتاتورك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أقامت مجتمعاً حديثا ، له خصائص المجتمع الذى طالب به الصراع فى البيئة الأوربية مع الكنيسة وهو المجتمع « العلمانى » .

فالمجتمع التركى الحديث — كما يحدده دستور الثورة التركيــــة الكمالية — مجتمع ينزع إلى « العلمانية » أى ينزع إلى التغاضى عن الدين ، ودين الأمة والشعب ، وهو الإسلام . بل ينزع إلى تحديه ومحاولة إبعاده عن التوجيه فى عنف وفى قوة .

وكما ينزع هـذا المجتمع إلى الأخذ بفكرة « العلمانية » ، فإنه ينزع كذلك إلى إهمال التقاليد والعرف اللذين كانا للشعب التركى فى تاريخه الإسلامى .

ومصطفى كمال أقام هذا المجتمع تحت التأثر بالحركات العالمية الدولية — كالحركة الماسونية — وتحت التأثر كذلك بالفلسفة الوضعية ، فلسفة أوجست كومت . وهى الفلسفة التى قامت لتمجد العلم الطبيعى وتدعو إلى تأليهه وإلى عبادته ، وإلى أن يتجرد محراب العبادة فى المجتمع من كل إله آخر سوى إله هـذا العلم الواقعى الطبيعى . تأثر كمال أتاتورك بالشاعر التركى « ظياجوك ألب » ، فيما اتجه إليه من إقامة المجتمع التركى الحديث . وهـذا الشاعر كان من أنصار الفلسفة الوضعية ومن مؤيدى « العلمانية » ، والابتعاد عن الدين .

وعلى ذات الأسس التى أقام عليها أتاتورك المجتمع التركى حاول بورقيبة فى تونس البلد العربى الصغير أن يقيم مجتمعا كهذا ، تحت تأثير التوجيه الاستعمارى واليهودى معا. ففى إحدى إذاعاته الرسمية الأسبوعية أعلن أن القرآن لم يعد صالحاً لهذا المجتمع الحديث ، وأن من الواجب تركه . وفعلا أصدر من القوانين ما يبعد الشريعة الإسلامية عن الأحوال الشخصية فى الميراث وفى الزواج وفى الطلاق.

والمجتمع التركى الحديث إذا أخذ فى توجيهه بمبدأ « العلمانية » ، وإبعاد الإسلام عن محيطه الداخلى وفى علاقاته مع الشعوب الأخرى ، وإذا ابتعد عن أن يكون لعرف الشعب التركى وتقاليده صدى فى قانونه الوضعى الحديث - فإن هذا المجتمع فى حاضره يهتز فى وضعه وفى مقوماته . لأنه لم يجد قانونا واحدا من القوانين الغربية يستعيض به عما كان للمجتمع التركى السابق من قوانين. إذ أن القوانين الغربية هى قوانين روعى فيها عرف الشعوب وتقاليدها . ولذا كانت قوانين مختلفة ، وإن اشتركت القيم المسيحية فيها جميعا .

وسويسرا البلد المحايد فى وسط أوربا قانونها ليس قانونا موحدا . وإنما هو قانون تمثلت فيه الاعتبارات والتقاليد والعرف الذى لمجتمعات الشعوب الإيطالية والفرنسية والألمانية ، لأن الشعب السويسرى يتكون من مجموعات تنتمى إلى هذه الشعوب . ولذا لو أرادت تركيا الحديثة أن تحاكى سويسرا فى قانونها وتقتبس منه للشعب التركى - ففوق أنه أجنبى عن طباع الشعب وخصائصه وعرفه وتقاليده ، فإنه نفسه لا يمثل الوحدة الواحدة .

ومن هنا كان هناك فراغ فى المجتمع التركى الحديث ، فراغ فقهى وقانونى لم تملأه بعد تلك الاقتباسات العديدة المختلفة من القوانين الغربية .

وبجانب هذا الفراغ فى دائرة التشريع يوجد فراغ آخر فى هذا المجتمع ، وهو الفراغ الذى حدث بإبعاد الدين رسميا عن محيط التوجيه الداخلى وفى العلاقات الخارجية.

إن الدين فى كل مجتمع هو مصدر الترابط الروحى والتماسك النفسى بين أفراد المجتمع نفسه . هو الذى يكون وحدتهم الداخلية كما يصون هذه الوحدة من التفتت أو الضياع. والشعب التركى فى مجتمعه الحديث - وبالأخص الأجيال التى نشأت بعد قيام هذا المجتمع - يعانى أزمة دينية لم تستطع أية ثقافة أخرى أن تحل محل الإسلام هناك . ولذا كان توجيه هذه الأجيال توجيها مشتتا لا انسجام بين خطوطه . يميل إلى الغرب ويميل إلى

الشرق . وإذا مال إلى الغرب مثلا فلا يدرى إلى أى مجتمع فى الغرب يميل : أهو المجتمع الأوربى أم المجتمع الأمريكى . أهو المجتمع الانجليزى أم المجتمع الفرنسى . أهو المجتمع الألمانى أم المجتمع الإيطالى . أهو المجتمع السويسرى أم المجتمع الشمالى فى بلاد اسكانديناڤيا ؟

ومن هنا يعيش المجتمع التركى الحديث بعد أن نزع إلى « العلمانية » دون أن يستند إلى دعائم ماضية ، كما يعيش فى حاضره وهو لا يستطيع أن يعرف على وجه التحديد : أين يتجه ، ومن هنا كان المجتمع التركى الحديث مجتمعا غير ذى شخصية ، مجتمعا مفككا مائعا ، وسياسة الحكم فيه لا ترسم من داخله وإنما يرسمها أصحاب النفوذ السياسى والاقتصادى فيه ، يرسمها الغربيون ، وعلى وجه الأخص الولايات المتحدة الأمريكية .

ولذا لا نعجب إذا رأينا صداقة قائمة بين إسرائيل عدوة البلاد العربية والإسلامية على السواء وبين تركيا الحديثة ، لا نعجب إذا رأينا أن تركيا تتحايل على حل أزمات إسرائيل الاقتصادية بتموينها من جيرانها العرب والمسلمين مرة ، وبترويج بضائعها فى هذه البلاد المجاورة مرة أخرى ، لا نعجب لأن السياسة الأمريكية ـ وهى السياسة التى خلقت إسرائيل ، وأوجدت كيانها الدولى ، ومولتها حتى الآن عن طريق التبرعات من الأفراد والجمعيات الأمريكية ، وعن طريق المساعدات الرسمية الحكومية ـ إذا هى حفزت السياسة التركية الحديثة على أن تعين إسرائيل فى وجودها ، وفى حل أزماتها بما أشرنا إليه سابقا .

وإذا سار الحبيب بورقيبه فى المجتمع التونسى الحديث مثل ما سارت الثورة التركية ، ونزع إلى توكيد « العلمانية » ، وإبعاد الإسلام ، وعمل على إبعاد العرف والتقاليد فى المجتمع التونسى من أن يكون لها صدى فى التشريع والقانون ـ فإن نفس المصير الذى صار إليه المجتمع التركى الحديث سيسير إليه المجتمع التونسى ونفس الفراغ الذى يوجد فى المجتمع التركى الحديث سيوجد فى المجتمع التونسى ، ونفس التخلخل فى العلاقات والتحلل فى المجتمع التركى الحديث سيحدث فى المجتمع العربى فى تونس ، إذا ما استمر الحبيب بورقيبه فى سياسته اليهودية العالمية .

وإذا كنا ذكرنا أن ما صنعه كمال أتاتورك من إقامة مجتمع تركى حديث ينزع إلى « العلمانية » ، وإلى التغاضى عن العرف والتقاليد إنما تم تحت تأثره بالاتجاه الدولى العالمى ، وهو الاتجاه الماسونى وباتجاه المذهب الوضعى الذى قدس العلم وحول محراب العبادة إليه ، فإنا لا ننسى أن نذكر هنا أيضاً أنه كان من

العوامل فى ذلك جمود العلماء فى فهمهم للدين وفى عرضهم لقيمه، فلم يستبن له ولم يستبن لمرافقيه قيم هذا الدين فى الحياة الإنسانية الفردية والجماعية والدولية، وهناك عامل آخر بجوار هذا العامل الداخلى يتصل بالاستعمار الغربى بصلة وبتلك العقدة النفسية التى خلفتها هزائم الحروب الصليبية فى نفوس الغربيين وانتصارات المسلمين عليهم فى صورة يفخر بها العرب والمسلمون على السواء، وإذا كان أتاتورك قد أقام هذا المجتمع الحديث بين الشعب التركى - فإن استمرار المحافظة على بقائه على نحو ماوصفنا يرجع إلى النفوذ الغربى أكثر مما يرجع إلى اطمئنان نفوس الشعب التركى إليه وقرة أعينهم به. إن السياسة الغربية تروج فى البلاد العربية والإسلامية للمجتمع التركى الحديث وتجعله نموذجا للمجتمع الإنسانى طموح. يطلب من العرب والمسلمين على السواء أن يحاكوه، إن هم أرادوا تقدما وتطورا ومدنية، ويتجلى هذا الميل الاستعمارى الغربى فى صور عديدة، أهمها الكتابة، والدعوة إليه عن طريق «العلماء» الأمريكان فى محاضراتهم وأحاديثهم فى مواجهة المسلمين والعرب وفى كتاباتهم لأبناء العروبة والإسلام.

ولكن أصحاب هذا النفوذ الاستعمارى لا يكتبون بتمجيد هذا النموذج التركى إلى أبنائهم وشعوبهم إن هم واجهوهم بحقائق التاريخ. بل على العكس نرى كثيراً من كتاب الغرب يسخرون من تركيا الحديثة لأنها فقدت كل مقوم من مقومات المجتمع الإنسانى دون أن تستعيض عنه بمقومات يمكن اعتبارها مقومات ذاتية للشعب التركى فى مجتمعه الجديد.

— ٣ —

دور الثورة المصرية فى إعادة بناء المجتمع العربى والشرقى:

وربما كان يخشى من انتشار هذا النموذج للمجتمع التركى الحديث بين الشعوب العربية والإسلامية فى إفريقيا وآسيا، بفعل الدعوة العنيفة إلى محاكاة هذا المجتمع بين الشرقيين والمسلمين والتغاضى عن إسلامهم وقيمهم وعرفهم وتقاليدهم والنزوح إلى «العلمانية» وتمجيد العلم الوضعى تمجيداً يدفع إلى التخلى عن العقيدة الأصيلة - لو أن هذه الثورة المصرية لم تقم، ولو أن راعيها وزعيمها لم يكن جمال عبد الناصر.

فهذه الثورة - وهى من صنعه - يصح أن نسميها ثورة لإعادة بناء المجتمع العربى والشرقى. لم تكن ثورة لمحاكاة أى مجتمع آخر حديث سواء فى منطقة النفوذ الشرقى الشيوعى أو فى منطقة النفوذ الغربى الصليبى وإنما كانت ثورة لخلق مجتمع حيادى يقوم

على سند من الماضى فى التوجيه والأخذ بالقيم الأخلاقية فى حياة الشعوب العربية والإسلامية . ويأخذ فى حاضره بما يأتى من العلم فى رفع المستوى الاقتصادى للشعوب . وبذلك يكون مجتمعا جمع فى مقوماته بين خصائص الشعوب الإسلامية والعربية وبين ثمرة العلم الطبيعى فى تطور الصناعة وإيجاد الإمكانيات العديدة فى الانتفاع بثروة البلاد التى تعيش فيها هذه الشعوب سواء منها ماكان فى باطنها أو يطفو على ظاهرها .

فسياسة الحياد الإيجابى التى يدعو إليها الرئيس عبد الناصر هى ليست رسما للعلاقات الخارجية فقط بين الجمهورية العربية المتحدة من جانب وبين شعوب الأمم الأخرى من جانب آخر ، وإنما هى مع ذلك وفوق ذلك رسم للبناء الداخلى للمجتمع العربى الحديث . ومنطق هذه السياسة ، سياسة الحياد الإيجابى يدعو إلى اعتبار القيم الروحية والدينية والأخلاقية والتاريخية من جديد التى للشعب العربى والشعوب الإسلامية - فى تخطيط سياسة التعليم والتوجيه . منطق هذه السياسة يدعو إلى الأخذ بالعلم الطبيعى ، ولكنه لا يدعو إلى « العلمانية » يدعو إلى تطوير القانون والتشريع ، ولكنه لا يهمل شأن العرف والتقاليد فيما يصدر من قوانين وتشريعات . يدعو إلى السلم فى العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة وبين المجتمعات الأخرى الحديثة ، ولكنه فى الوقت نفسه يدعو إلى عدم قبول أى نفوذ سياسى أو توجيهى أو ثقافى من الغرب أو من الشرق .

إنه يدعو إلى الاحتفاظ بخصائص الشعب العربى والشعوب الإسلامية واعتبار ما لها من قيم فى التوجيه ، وفى الوقت نفسه يدعو إلى العلم وإلى التصنيع . وليس هناك تضاد بين ما يدعو إليه هذا المنطق لأن العلم الحديث هو علم محايد ، هو علم الآلة والصناعة ، هو علم الكشف عن الطبيعة المجردة ، هو علم القوة والسيادة على الكون . وهو بهذا الوضع لا يرسم توجيها معينا فى الحياة لا يرسم توجيها إلى الشرق ولا إلى الغرب . وبذلك بقى مجال التوجيه فى حياة المجتمع العربى والمجتمعات الإسلامية للقيم الخاصة بهذه المجتمعات .

الحياد الإيجابى ليس كلمة وإنما هو شعار يحمل أهداف المجتمع العربى والإسلامى فى محيطه الخاص وفى المجال الدولى العام على سواء . نريد السلام ولا نحب الاعتداء ولكن ندفع الاعتداء بكل ما نملك من قوة النفس والمال والعدة يوم يعتدى علينا . نحن عرب فى مجتمعنا نفخر بعروبتنا وبأمجادنا فى تاريخنا وبقيمنا الروحية والأخلاقية التى أتى بها ديننا ومع ذلك نحن إنسانيون على معنى أننا نسعى إلى تمجيد القيم الإنسانية ، لأنها لا تخرج عن القيم الروحية والأخلاقية التى جاءت بها وصايا الإسلام ، ولكننا لسنا إنسانيين

على معنى أن نذوب فى مجتمعات وشعوب أخرى، أو أن نبدد ما لنا من قيم وخصائص تميز مجتمعنا عن أى مجتمع آخر ، كما تحاول « العلمانية » فى المجتمعات الحديثة أن تبدد ما لهذه المجتمعات من قيم وعرف وتقاليد .

إن لغتنا لغة عربية ، وإن ديننا هو الإسلام ، وإن وطننا هو **وطن الأمة** العربية . هكذا ينطق دستور الثورة . **إن** توجيهنا ينبثق مما لنا من قيم ، **إن تعليمنا يجب أن يصدر عن هذه القيم ، وعمالنا من مواريث فى ثقافتنا العربية والإسلامية .**

إن البناء الداخلى لهذا المجتمع العربى يحتاج إلى تضافر وإلى تعاون . إلى تضافر وتعاون فى الإيمان به والعمل على تشييد معالمه بحيث يبقى عقيدة قوية فى مواجهة الأحداث والأزمات ، كما بقيت للروحية الإسلامية وللنظم الإسلامية قيمتها فى مواجهة هجمات الاستعمار ومحاولاته العديدة التى حاول أن يرهب بها تلك القيم ويفتت بعد ذلك المجتمع الإسلامى والعربى . لذا كان التعاون مقوما من مقومات مجتمعنا الجديد ، مجتمع الثورة المصرية والعربية كما كانت الديمقراطية مقوما آخر من مقوماته لأن الإيمان بهذا المجتمع لا يؤتى ثمرته إلا إذا كان من وحى الإرادة الحرة للفرد . والديمقراطية ليست صورة للتصويت الشعبي فحسب، وإنما هى أيضا عنوان على المشيئة والاختيار فى الإنسانية .

والتعاون إذا كان من مقومات هذا المجتمع فإنه لا محالة يتطلب أن تقوم الروابط بين الأفراد بعضهم مع بعض على أساس لا حقد فيه من حاقد ولا ظلم فيه من ظالم . **وذلك لا يكون إلا إذا كانت هناك اشتراكية فيما يثير الحقد وفيما يدفع إلى الظلم، اشتراكية فى مجال الملكية والاقتصاد .**

وهنا سياسة الحياد الإيجابى التى جعلت شعاراً لهذه الثورة . كان من مستتبعاتها حتما فى البناء الداخلى : التعاونية والديمقراطية والاشتراكية .

المجتمع العربى الجديد هو مجتمع مستقل تماما فى توجيهه وفى علاقاته ، ولكنه ليس فى عزلة عن المجتمعات الأخرى ولا عن تبادل النفع بينه وبينها .

إن الحياد الإيجابى الذى قام عليه مجتمعنا الجديد كما يعتبر صدا لاندفاع « العلمانية » فى الشرق العربى والإسلامى حتى لا تبقى المجتمعات الأوربية مستمرة فى ممارسة نفوذها وسلطانها فى هذا المجتمع إن هذا الحياد الإيجابى كما كان صدا لتيار « العلمانية » هو فى الوقت نفسه رسم لبناء المجتمع العربى والإسلامى : كيف تقوم المجتمعات الحديثة فى البلاد العربية والإسلامية دون أن تخضع لنفوذ الشرق أو الغرب ، ودون أن تفقد ما لها من قيم ،

ودون أن تترك الانتفاع بالعلم والصناعات الحديثة ؟ .

تجيب عن هـــذا السؤال سياسة الحياد الإيجابى .

كيف يبنى المجتمع العربى أو الإسلامى وكيف تقام الدعائم فى بناء المحيط الداخلى حتى يكون مجتمعا متوازنا ؟ تجيب عن هذا السؤال الاشتراكية الديمقراطية التعاونية .

كيف نبتعد عن مناطق النفوذ للغرب والشرق وكيف لا نقع تحت نفوذ التوجيه الخارجى فى الشرق أو فى الغرب ؟ سؤال تجيب عنه سياسة الحياد الإيجابى .

دور الأزهر :

وإذا كان مجتمع الثورة الجديد هو بناء أعيد من لبنات الماضى فى ضوء ما للحاضر من علم وصناعة ، وإذا كانت تلك اللبنات هى ما للشعوب العربية والإسلامية من قيم فى التوجيه ـ فأجدر بالمعهد الذى يباشر تبليغ هذه القيم وصيانتها من العبث على ممر الزمان وهو الأزهر، أن يسهم إسهاما إيجابيا فى عرضه هذه اللبنات من جديد . وعرضها الجديد ليس إلا تفريغها مما آلت إليه من أفهام منحرفة وشحنها من جديد بتلك المعانى الخالدة التى جاء بها القرآن وبلغها للناس محمد صلى الله عليه وسلم ، وصانها من بعده صحابته رضوان الله عليهم . يجب عليه أن يعيد المفاهيم الأولى

(البقية على صفحة ٩٣١)

لتلك القيم الإسلامية وينحى عنها تلك المفاهيم التى آلت إليها بسبب الضعف السياسى والاقتصادى فى الشعوب الإسلامية ، وبسبب ركود الفكر وجمود الذهن لدى علماء المسلمين المتأخرين ففى مثل قوله تعالى : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » ، وقوله « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ، وقوله « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، وقوله « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ، لا بد من تصحيح مفاهيم التوكل والصبر والقناعة والزهد والقضاء والقدر وتحديدها على نحو يسمو بالنفس البشرية ويدفعها إلى القوة والاحتمال والسعى فى الحياة ومسايرتها فى نموها وتطورها .

ذلك دور الأزهر . أما دور المدارس والجامعات فهو أشبه بدور الأزهر ، لكن لا فى إعادة المفاهيم الأولى إلى القيم الإسلامية ولكن فى إعادة الاعتبار لتلك القيم الإسلامية والتخلى عن ذلك التغاضى لهذه القيم الذى أوجدته سياسة التعليم فى عهد الاستعمار وعهد الانفصال بين المدارس المدنية والمعاهد الدينية .

يجب على المدارس والجامعات أن تعيد فى نفس المترددين عليها أننا نعيش فى الشرق وبعقلية المتطلع إلى السيادة من جديد ، فيقدرون ما للشرق من قيم ويسعون إلى الأخذ بما هو وسيلة لتلك السيادة وهو العلم والصناعة ، يجب عليها أن تطرح زعامة الغرب الثقافية

الكرامة والعزة فى القرآن الكريم

للأستاذ محمد محمد المدنى

٢ – الكرامة

٤ – والقرآن فى تقريره للعقيدة الأولى : « لا إله إلا الله » يسمو بالإنسان سمواً عظيما ، إذ يغرس فى نفس كل فرد من أفراده أنه متساو مع غيره ، وأنه ليس فوقهم من يخضع له ويذعن لسلطانه إذعان الإيمان إلا الله ، وهذا غراس طيب ينبت الكرامة الإنسانية ويغذيها دائما وينميها ، مع ربط الروح برابطة الإيمان بالله ، وهو من جهة أخرى علاج لما عسى أن يخطر للحاكمين من عتو أو استعلاء ، ولذلك يقول الله تعالى مخاطبا رسوله فى سورة « محمد » بعد أن عرض لما يقاسيه من خصوم دعوته : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم » .

فعلم المرء أن (لا إله إلا الله) يرفعه عن أن يحقر نفسه ، ويرفعه أيضاً عن أن يتجاوز مداه ، فهو فى الحالين صون لكرامته ، وحفظ لها فى مستواها الطبيعى الذى يورثها النزول عنه صفة الصغار والدناءة ، ويورثها العلو عنه الغرور والاستعلاء بالباطل .

وعلم المرء أن (لا إله إلا الله) يجعله أيضا فى نظر نفسه محتاجا إلى مغفرة ذلك الإله الواحد ، عارفا بأنه فى هذه الحاجة متساو مع من هو مثله من المؤمنين والمؤمنات ، فهو يطلب هذه المغفرة لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات .

* * *

٥ – والقرآن الكريم ينظر إلى حياة الإنسان من نواحيها المختلفة نظرة اعتداد واهتمام ، ويشرع لها على أساس من الرغبة فى صونها والحفاظ عليها .

(ا) فهو ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله فلا يحق لأحد أن يهدمه ، وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى إلا بالحق « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة بغير حق كأنما اعتدى على الإنسانية كلها ، ومن حقن نفسا واحدة ، فكأنما حقن دم الإنسانية كلها ، وذلك قوله تعالى : « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

وفى هذه الآية تقرير للمبدأ الأول والأهم

الذى تستقر عليه حياة البشر وأمنهم ، فإن الإنسان - كسائر الحيوان - يعتمد على القوة وتنازع البقاء ، فإذا ترك إلى طبيعته عمد إلى قوته فاتخذها سبيلا إلى قضاء مآربه ، وإزاحة كل من حال بينه وبين هذه المآرب من بنى جنسه عن طريق سفك دمه ، وفى هذا ما فيه من تفانى هذا النوع وانقراضه وفيه كذلك انتشار الخوف بين الناس وفساد حياتهم ، واستحالة تعاونهم المثمر بسبب انعدام الثقة ، وفيه إهدار للكرامة الإنسانية واستهانة بهذا النوع الذى جعله الله خليفة فى الأرض.

لكن إذا تقرر أن من قتل نفسا بغير حق كان كمن قتل الناس جميعا ؛ لأنه اعتدى على النوع كله باعتدائه على فرد منه ، ولأنه فتح باب الضراوة والبغى وهدم ما بنى الله ، فإن الناس حينئذ يشعرون بكرامة النوع شعورا يبعثهم على التعاون فى الضرب على يد المعتدى واعتبار أنفسهم معتدى عليهم ، ومن واجبهم رد هذا العدوان ، فيوجد التكافل على حفظ الحياة ، والتضامن على إقرار الأمن والسكينة وإقرار الصون والكرامة للجنس البشرى .

هذا فى جانب رد العدوان أما الشطر الثانى من المبدأ ، وهو قوله تعالى : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » ، فقد يمكن تفسيره بالقصاص ، وذلك أن فى القصاص من المعتدى حياة للناس ، كما جاء فى قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » ، فإن المعتدى إذا اقتص منه علم كل من تحدثه نفسه بالاعتداء أنه سيلقى جزاء ما قدمت يداه ، فيكف عن عدوانه ، فتحيا النفوس .

وعندى أن هذا بعض ما تفيده العبارة ، وليس هو كل ما تفيده ، ولو شاء قائل أن يقول : إنها تشمل الإحياء بالعلم والهداية لكان له ذلك ، على نحو ماجاء تفسيراً لقوله تعالى : « أومن كان ميتاً فأحييناه » ، وحينئذ يدل هذا على أن الناس متكافلون فى ترقية الإنسانية ورفع مستواها العقلى ، كما هم متكافلون فى حفظ الحياة والأمن ، فمن أحيا نفسا بالعلم ورفع مستواها ، فإن إحياءه إنما هو صنيع جميل للإنسانية كلها ورعاية لما يقضى به روح تكريمها وكرامتها .

(ب) وكما ينظر القرآن الكريم إلى وجود الإنسان هذه النظرة السامية . فيحرص على عصمة دمه إلا بالحق ، ينظر مثل هذه النظرة إلى « العرض الإنسانى » .

ذلك أن العرض مصون فلا يجوز لأحد أن يعتدى على عرض غيره ، ولا أن يتقبل من غيره أن يعتدى على عرضه « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » ، « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد

عذابهما طائفة من المؤمنين . الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » كما لا يجوز لأحد أن يخوض فى أعراض الناس بالباطل ، وأن يلغ فى كراماتهم « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » ، « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون » .

(ج) والعقول مصونة فلا يجوز تناول ما يفسدها أو يغطيها من مسكر أو نحوه « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ، كما لا يجوز أن تمتهن العقول بترويج الخرافات والتقليد الأعمى واتباع الظن « ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » .

* * *

(د) والأموال مصونة ، فمن سرق من مال لا شبهة له فيه وجب قطعه : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » ، ولا يجوز أكل أموال الناس بالباطل أو استعمالها فى الرشوة « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . وأموال السفهاء يجب أن تحفظ ولا تترك لهم يبددونها ، والقرآن يعتبرها أموالا للأمة يجب أن تقوم عليها وترعاها « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

إلى غير ذلك ...

* * *

٦ - والقرآن الكريم ينظر إلا المخالفين فى الدين نظرة فيها سمو ورحمة وبر ، فبينما ينهى أشد النهى عن اتخاذهم أولياء يرتبطون بهم ارتباط المتناصرين بعضهم ببعض ، بأن يستعينوا بهم على المؤمنين ، ويعينوهم عليهم ؛ نراه يبيح للمؤمنين أن يعاملوهم معاملة أساسها البر والرحمة والقسط ، ما دام لم يصدر منهم إيذاء لهم ، ولا تحريض عليهم ، ولا محاولة لفتنتهم عن دينهم « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » بل يذهب القرآن الكريم إلى أبعد من هذا فى التسامح ، فيبيح للمسلم أن يتخذ البر والقسط أساساً للتعامل بينه وبين

مخالفه وإن آذاه، بشرط ألا يصل الأمر بينهما إلى حد الولاية والنصرة، ويدل على ذلك قوله تعالى بعد الآية المتقدمة: «إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَولَّوْهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون». فقد صرحت هذه الآية بأن المنهى عنه - فى شأن هؤلاء - هو اتخاذهم أولياء، لا مجرد البر بهم، والقسط إليهم.

وقبل هاتين الآيتين يقول جل شأنه: «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة. والله قدير، والله غفور رحيم».

وفى هذا إيحاء بأن العداوات ليست دائمة، وأن القلوب تتغير وتتحول، وأن الرفق والإحسان قد يكونان سبيلا إلى إصلاح النفوس، وتقريب القلوب، وقد حدث فعلا فى تاريخ المسلمين أن كثيراً ممن كانوا أعداء لهم وحربا عليهم، أسلموا وحسن إسلامهم، وأبلوا فى الدفاع عن الإسلام بلاء حسنا.

فالله تعالى لا يرضى بأن يتخذ المؤمن مخالفه فى الدين وليا ومناصرا، ولكنه مع ذلك يعطى هذا المخالف حقه فى علاقات المعاشرة والمواطنة، ويقيم هذه العلاقات على البر والرحمة والقسط، وكلا الأمرين هو غاية الحكمة والدستور الطبيعى للإنسانية فى كال وعيها، وكال رقيها وسموها، وما ينبغى لها من الكرامة.

٧ - والقرآن الكريم حين يذكر الخدم والأتباع لا يسميهم خدما، ولا يعبر عنهم بلفظ فيه إيلام لهم، أو جرح لكرامتهم، وإنما يعبر عنهم بعبارة فيها كناية لطيفة. وفيها تكريم، إذ يقول «الفتى»، و «الفتيان» و «الفتيات».

ومن المعلوم أن الفتى هو الشاب فى قوته وميعة صباه، ولما كان من عادة الناس أن يستخدموا فى شئونهم فتى جلدا يستطيع أن يقوم بها، ويصبر على متاعبها ويؤديها أداء حسنا، كان من المناسب أن يعبر عن التابع أو الخادم بكلمة «الفتى» حفظاً لكرامته.

ولذلك نرى القرآن الكريم بينما يعبر عن الشبان الذين هجروا بيئة الشرك والبغى إلى الكهف فيقول: «إنهم فتية»، ويعبر عن إبراهيم عليه السلام بقوله: «قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم»، نراه كذلك يعبر عن تابع موسى بالفتى فيقول: «وإذ قال موسى لفتاه»، ويعبر عن أتباع عزيز مصر بالفتيان حيث يقول: «وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم»، ويعبر عن الإماء المملوكات بالفتيات حيث يقول: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء»، وفى آية أخرى «فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات».

وفى هذا إرشاد كريم إلى ما يجب علينا من الرفق والتلطف فى معاملة من تحت أيدينا

من عباد الله خدما كانوا أو أتباعاً أو عمالا أو أعواناً فإن لهم كرامة يجب أن نرعاها .

وقد أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأدب القرآنى حيث يقول « ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ، ولا يقل عبدى وأمتى » . كما سمى عليه الصلاة والسلام « الخدم والخول » - أى الأعوان - إخوانا فقال : « إخوانكم خولكم » ، وقال فى تعبير عاطفى كريم : « فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يطعم . الخ » ونهر صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه حين قال لعبده : « يا ابن السوداء » فقال له : « أعيرته بسواد أمه ؟ إنه ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء ، وإنك امرؤ فيك جاهلية » .

وقد قررت الشريعة تمشيا مع هذا الروح الإنسانى الكريم أن العبد المملوك يعتق على سيده جبراً إذا مثل به أو أساء عشرته .

* * *

٨ — والقرآن الكريم ، كما يثبت الكرامة الإنسانية على النحو الذى تبيناه فيما تقدم ، يقرر أن هذه الكرامة قابلة للنمو والزيادة ، وأنها تتفاوت فى الناس تبعاً .

ونستطيع أن نأخذ هذا من مثل قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أعطى كل إنسان قسطه الأول من الكرامة الإنسانية فى الخلق والإنعام والتشريع والاعتداد بالنوع ، فالناس جميعا من هذه الناحية متساوون لا فضل لأحد على أحد ، ولا لجنس على جنس ، ولكنه بعد ذلك فتح الباب للتفاوت والتفاضل وأن يمتاز فرد على فرد وأن يتطلب الناس المنازل الكريمة ويشرئبوا لتحصيل الغايات الشريفة .

وكل من هذا وذاك مقتضى الرحمة والحكمة وأساس الصلاح والعمران اللذين سخر لهما هذا الإنسان ، واستخلف من أجلهما فى هذا الكوكب ، فلم يكن يصلح أمر الناس على التفاوت فى أصل الكرامة تفاوتا مرجعه إلى الخلقة ، أو إلى الاختصاص بالإنعام أو التخويل أو العصمة فى الدماء والحقوق والأموال ، لأن التوازن حينئذ يكون مختلا ، ولأن التعاون الضرورى للعمران لا يوجد ، إذ يشعر بعض أفراد الإنسان أنهم مسخرون لغيرهم ، وأن مستواهم فى هذا العالم كمستوى الحيوان الأعجم بالنسبة للإنسان ، أو قريب من هذا المستوى ، واليوم الذى يشعر فيه فريق من البشر بهذا ، ويستقر هذا الشعور فى قلوبهم ، ويتواضع العالم عليه ، هو اليوم الذى تتعثر فيه الإنسانية ، وتنتابها الكوارث وتخطو خطاها السريعة إلى الزوال والفناء .

وهذا هو العالم الآن يشهد ألوان الاضطراب التى أحدثتها فكرة تقسيم الناس إلى سادة

ومسودين ، ومستعمرين ومستعمرين ، تلك الفكرة التى غزت أوربا حينا من الزمان وسيطرت على عقول أبنائها ، فخيل لهم أن الشرق ما خلق إلا ليكون مادة للغرب يمدهم بما يحتاجون إليه ، وسوقا تصرف فيه بضائعهم وسلعهم ويعينهم على أن يكونوا فى مستوى عال من المعيشة على حساب المستهلكين الذين يستغلون ، ويفرض عليهم من الأوضاع ما يحقق ذلك ، ثم وصل الأمر بهم إلى أن الجيوش الأوربية كانت تستخدم الجنود من الشرق ليجعلوهم فى المقدمة فيلاقوا الموت فى أبشع صورة ، ويحصدوا حصدا لأن أرواحهم رخيصة لا ترتفع قيمتها إلى أرواح الذين استخدموهم أوساقوهم إلى المذابح كما تساق القطعان .

هذا المبدأ الذى أجاز هذا الصنيع يتنافى مع « الكرامة الإنسانية » التى قررها الله للإنسان ، ولكنه فى الوقت نفسه سنة من سنن الله الكونية المطردة فى كل من فرط فى كرامته ، ولم يحتفظ بها ، ورضى بأن يكون مسوقا مسخراً مذللا لسواه ممن هو مثله وفى مستواه ، وله مثل حقوقه بحكم الخلق والتكوين والإنسانية ؟ .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

(بقية المنشور على صفحة ٩٢٥)

والتوجيهية ، لكن فى الوقت نفسه تأخذ بما له من أسباب القوة المادية والصناعية . وبذلك يعيش النشء فى صلة من ماضيه وفى حاضره .

أما الاتحاد القومى فدوره لا يقل عن دور الأزهر ولا دور المدارس والجامعات ، دوره أن يعيد إلى الشعب ما لمواريثه الثقافية والروحية من قيم ، وفى الوقت نفسه يعده لتقبل الحضارة الصناعية واستخدامها فيما ينتج وفيما يحتاج فتكون له من روحانية الإسلام قوة الدفع والتماسك ويكون له من الحضارة الصناعية مزيد الإنتاج ويسر العيش .

إننا أمة عربية إسلامية ، ومجتمعنا يجب أن يظل عربيا إسلاميا . ولكن لا نظل عربا مسلمين فى وجه هذه القوى من الشرق والغرب التى تتربص بنا إلا إذا امتلأت نفوسنا بقيمنا وكان لنا من العلم سلاح ندفع به مع هذه القيم ما يواجهنا به المتربصون بنا من عدوان .

إننا شعب حيادى وفى الوقت نفسه شعب إنسانى . إن مجتمعنا مجتمع جديد ولكن لماضينا وتاريخنا القوة فى بنائه والدفع فى بقائه .

دكتور محمد البهى

المدير العام للثقافة الإسلامية

مُثُل عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمّد يوسف موسى

٤ — فى العلاقات الدولية

ذهب العرب والمسلمون ، كما عرفنا من الكلمات السابقة ، مثلا إنسانية فى الأولين والآخرين ؛ فى العدل ، والأمانة ، والوفاء بالعهود والمواثيق ، وفى غير ذلك من الخلال والأخلاق التى عرضنا لها . وذلك بفضل طباعهم الأصيلة النقية ، وبفضل الإسلام وشريعته وتعاليمه .

ونعرض اليوم فى هذه الكلمة إلى أن ذلك لم يكن شأنهم فيما بينهم وبين بعضهم فحسب ، وفى حال السلم وحدها ، بل إن ذلك كان شأنهم فى كل حال من السلم والحرب ، ومع الناس جميعاً حتى أعداء الدين والوطن .

إن الإسلام حين بين لنا القيم الأخلاقية النبيلة ، مثل العدل والأمانة والوفاء وأمرنا باتباعها وأن تكون الباعث القوى لسلوكنا وأعمالنا ومعاملاتنا ، أمرنا بها فى كل حال ومع الناس جميعاً ؛ فى السراء والضراء ، بلا فرق بين جنس وجنس ، ولا بين قوى وضعيف .

والسبب فى ذلك ، كما قلنا فى كتاب ظهر منذ شهور[1] ، أن الإسلام ليس دينا مغلقا على شعب واحد أو أمة واحدة ، بل هو دين مفتوح لكل من يطلب الحق ويريد لنفسه الخير ، هو دين عالمى للناس جميعاً فى كل زمان ومكان . ولذلك كان من الطبيعى أن يطالب المسلمين برعاية هذه القيم بالنسبة للناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ودياناتهم .

ولذلك لا يأمر الإسلام أبناءه بمعاداة غير المسلم لأنه يخالفه فى العقيدة ، بل إنه ليأمر فى كثير من آيات القرآن بمودة المخالفين لنا فى الدين ماداموا لا يقفون منا موقف الأعداء الباغين المعتدين ؛ وإلا ، وجب علينا رد الاعتداء بمثله .

ومن أهداف الإسلام السامية أن يعيش العالم كله فى سلام ومحبة وتعاون وعدالة ، ولهذا يحرص الحرص كله على الوفاء بما يكون من مواثيق وعهود بين بنيه وغيرهم حتى ولو كانوا فى حالة حرب ، وحتى لو كان نقض العهد فى مصلحة المسلمين فى بادى الرأى وأول الأمر .

وهذا كلام يحتاج إلى شىء من التفصيل فيما يتعلق بالعلاقات الدولية بين الدولة العربية

(١) هو كتاب « الإسلام وحاجة الإنسانية إليه » .

الإسلامية والدول الأخرى فى حالة الحرب ، فعلينا هنا أن نتعرض لهذه العلاقات من جميع نواحيها فى حدود هذا المقال ؛ أى من ناحية المقدمات التى تسبق الحرب . ثم متى نشبت فعلا ، ثم ما تنتهى به من محالفات ومعاهدات .

فنبين فى إجمال القواعد الإسلامية التى تحكم هذه الحالات جميعها ، والوصايا التى يجب اتباعها حالة الحرب كما أثرت عن الرسول وخلفائه الراشدين ، وكيف أظهرت الحوادث والتاريخ كيف كان العرب والمسلمون حريصين على اتباع تلك القواعد والوصايا ، ثم ننتهى بأثر ذلك كله وجدواه فى إقرار السلام العالمى :

لا يجيز الإسلام أن تفاجئ أمته أمة غيرها بالحرب ، بل لا بد من دعوتها أولا إلى دين الله الذى رضيه للإنسانية كلها ، ثم إلى طلب الإنصاف والعدل ؛ فإن أبى العدو هذا وذاك ، كانت الحرب حينئذ ضرورة لا بد منها ، ومن ثم يجب أن يتبع المسلمون وصايا الرسول وخلفائه الأمجاد حتى ينحصر الشر فى أضيق حدود ، وحتى لا يضار غير المحارب ويناله الشر والأذى .

فقد جاء فى الحديث الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا أمّر أميرا على جيش أوسرية أوصاه خيرا بتقوى الله تعالى ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث فأيّتهنّ أجابوك إليها فاقبل منهم وكفّ عنهم ... » .

ومن البدهىّ أن يقتدى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم به فى هذه الوصايا والأوامر ، كما فى كل ما جاء به من تشريعات وآداب ، ولذلك نرى سيدنا أبا بكر الصديق يقول فى وصيته لأسامة بن زيد حين أرسله على رأس الجيش إلى الشام لينتصف من الروم بما كان منهم من قبل .

« لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخا كبيرا ولا امرأة [1] ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكذلك جاء فى كتاب لسيدنا عمر ابن الخطاب لجيش من جيوشه : « لا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ، واتّقوا الله فى الفلاحين » كما كان من وصاياه لأمراء الجنود : « ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات » .

أين هذه الأوامر الرائعة مما رأيناه

[1] لأنهم لا يحاربون .

فى أيامنا هذه من دول الحضارة الحديثة الزائفة من تدمير المدن بما فيها من نساء وشيوخ وأطفال أبرياء وغيرهم من العجزة غير المحاربين ؛ بل من تدمير مدينة بأسرها بما فيها من عشرات أو مئات الآلاف من السكان الآمنين وذلك فقط لتجربة قنبلة ذرية ومعرفة مدى ما تفعله من التدمير ! ...

* * *

هذا وقد حافظ أمراء العروبة والإسلام فى العصور المختلفة على ألا ينال غير المحاربين من النساء والأطفال ومن إليهم أى ضرر . وفى التاريخ أمثلة كثيرة فى هذه الناحية نذكر منها هنا مثالا واحدا وقع إبان اشتداد الحروب الصليبية فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

وذلك أن امرأة من هؤلاء الأعداء الصليبيين فقدت طفلها الرضيع ولم تقف له على أثر ، فباتت بشر حال تدعو بالويل والثبور طوال الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم فقالوا لها : إن صلاح الدين رجل عادل رحيم القلب ، وقد أذنا لك فى الخروج إليه ولقائه وطلب مساعدته حتى يردّ إليك طفلك .

فخرجت حتى وصلت إلى الحرس واستغاثت بهم مما نزل بها ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فلقيته وهو راكب وفى خدمته خلق عظيم فبكت بكاءا شديدا واستغاثت به ولما علم بقصتها غضب غضبا شديدا ورق لها ودمعت عيناه .

ثم أمر بالبحث عن ولدها وإحضاره إليه حتى يسلمه لها ، فظهر أنه قد أخذ فى غارة من الغارات ، وأنه بيع فى السوق كما يباع الرقيق ، فأمر باسترداده ممن اشتراه ، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل وتسلمته أمه الوالهة الباكية . فأرضعته ساعة ، ثم أمر السلطان فحملت على فرس إلى معسكر قومها مع طفلها !.

* * *

وقد يحدث فى أثناء الحرب أن يعطى بعض الجنود المسلمين أمانا للعدو أو للبعض منهم ، فما حكم الإسلام فى هذا ، وفى الأمان بصفة عامة ؟ أى سواء كان الذى أعطاه أمير الجيش ، أو أحد القادة ، أو رجلا آخر من عامة الجند حراً كان أو عبدا ؟ .

هنا نجد الإسلام يضرب للناس جميعا أروع الأمثال فى احترام « الأمان » ولو كان الذى أعطاه من عامة الجند أو رجلا رقيقاً والأصل فى هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » .

بل إنه صلى الله عليه وسلم أجاز تأمين « أم هانئ » بنت سيدنا على بن أبى طالب رجلا من المشركين ، وقال لها : « قد أجرنا من أمّنت يا أم هانئ » .

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقاد إليه « الهرمزان » أسيراً ، وهو كما نعلم

كان من رجال فارس الذين لقى منهم المسلمون عنتاً كثيراً ، فيقول له عمر : تكلم ، فقال الهرمزان : أكلام حى أم كلام ميت ؟ فقال عمر : تكلم لا بأس ، فاعتبر الهرمزان هذه الكلمة أمانا له .

ولما أمر عمر بعد انتهاء الحديث بقتله جزاء ما قتل من المسلمين ، قال له بعض من كان حاضراً من الصحابة : ليس إلى قتله من سبيل ، إذ قلت له : لا بأس . يريد هذا القائل أن كلمة سيدنا عمر العابرة تعتبر تأمينا له ؛ فكانت النتيجة أن سيدنا عمر أطلق الهرمزان من إساره ، فأسلم وفرض له نصيبه من العطاء .

وكان هذا الصنيع منطقيا من عمر مع ما عرف عنه من قبل ؛ فهو الذى يقول فى كتاب له إلى سعد بن أبى وقاص حين وجهه إلى قتال الفرس : « فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان ، أو قرفه بإشارة أو لسان (١) كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به ، وكان عندهم أمانا . فاجروا ذلك مجرى الأمان » .

ويروى « البلاذرى » فى كتابه فتوح البلدان : أن المسلمين حاصروا حصنا فى بلاد فارس حتى أوشك أن يقع بين أيديهم ، ولكن حدث أن عبدا مسلماً فى الجيش أمن أهل الحصن من نفسه دون أن يدرى أحد ، وكان هذا الأمان مكتوبا رمى به فى سهم إليهم .

وكان ذلك مشكلة بين أهل الحصن والمسلمين المحاصرين : فإن هؤلاء لم يعتبروا هذا أمانا ، وقالوا : ليس أمان العبد بشىء ، وقال أهل الحصن : لسنا نفرق الحر من العبد .

ولما استعصى حل هذه المشكلة على المسلمين هناك ، كتبوا بالأمر إلى سيدنا عمر ، فكتب إليهم يقول : إن العبد المسلم من المسلمين ، وذمته كذمتهم ، فلينفذوا أمانه ، فأنفذوه .

وفى رواية أخرى أنه كتب إلى أبى عبيدة وكان قائد الجيش هناك ، يقول : إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا ؛ فوفوا إليهم ، وانصرفوا عنهم .

* * *

هذا عن احترام العرب والمسلمين للأمان الذى يعطيه أى فرد من الجيش حال الحرب ، حتى ولو كان عبدا مملوكا ، أما عن الوفاء بالعهود والمواثيق التى تكون بيننا وبين الأعداء فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى حديث طويل . وذلك بعد أن أكد القرآن العظيم فى كثير من آياته . وكذلك الرسول فى كثير من أحاديثه وجوب الوفاء بالعهود على كل حال .

ونحب هنا أن نذكر بهذه الحقيقة التى أثبت التاريخ صحتها فى الأزمان المختلفة ، وهى أن الإسلام لا يعنيه من المبادئ الإنسانية السامية التى يقررها كالعدل والأمانة والوفاء بالعقود والعهود ـ حتى فى حالة الحروب مع الأعداء ـ لألاؤها وبريقها ، وإنما يعنيه إلى الدرجة

[١] قرفه : داناه ، أو ألتى إليه .

القصوى تطبيقها والعمل بها فى كل حال من الرخاء والشدة .

وبعد ذلك نكتفى فى ناحية الوفاء فى العلاقات الدولية بحادثتين اثنتين ، ففيهما بيان أى بيان لتقديس العروبة والإسلام للوفاء ، وللحرص الشديد على صيانة المجتمع العربى الإسلامى من الغدر ، وذلك لما يكون منه من نزع الثقة بين الأفراد والمجتمعات والدول .

١ — روى أبو داود والترمذى ، وغيرهما من أصحاب السنن ، أنه كان بين معاوية بن أبى سفيان وبين الروم عهد ، فأخذ فى السير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ! فنظروا إليه فإذا هو عمرو ابن عبسة .

فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من كان بينه بين قوم عهد فليشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء» ، فرجع معاوية بالناس .

٢ — وروى البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان ، عن أبى عبيدة وغيره من الرجال الثقات : أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز جاءه وفد من أهل «سمرقند» فذكروا أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر بما كان بينهم وبينه من عهد ، فكتب عمر رضى الله عنه إلى عامله هناك يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فى شكايتهم التى رفعوها إليه فان قضى بإخراج المسلمين، وجب إنفاذ قضائه.

ففعل العامل ذلك ، وبعد أن نظر القاضى فى الأمر حكم بأن يخرج المسلمون من المدينة على أن ينابذوهم على سواء ؛ فكره أهل سمرقند الحرب ، ورضوا بإقرار المسلمين على ما هم عليه ، وذلك بعد أن أمنوا إليهم وحمدوا سيرتهم فيهم ! .

ولا ريب فى أن هذا صنيع لا يعرف التاريخ مثيلا له ، إلا أن يكون فى تاريخ العرب والمسلمين ؛ وقد أقدم عليه سيدنا عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه حبا للوفاء الذى شدد الله ورسوله فى وجوبه ، واتقاء لشبهة الغدر الذى حرمه الله وتوعد عليه .

* * *

وبقى بعد ذلك كله أن نتكلم عن معاملة الأسرى فى الإسلام .وعن القواعد والأصول التى يجب اتباعها بشأنهم ، ثم عما كان للإسلام وتعاليمه بصفة عامة ، وسير رجالاته من أثر فى إقرار السلام العالمى وتقوية أركانه ودعائمه ؛ وذلك موعدنا به الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى ؟

الدكتور محمد يوسف موسى

الطاقة الدينية

للأستاذ محمد فتحي عثمان

إن إيقاع الدين على النفس البشرية ، يحتاج إلى ملاحظة وتأمل ... !

فالنفس البشرية قد تقتنع ، وقد تميل ، وقد تخشى ... والإنسان قد يتأثر من المنطق ، أو الرغبة أو الرهبة ... ولكن الطاقة التى يطلقها الدين فى الفرد والمجموع شىء أكبر من هذا كله وأعمق من هذا كله وأبقى من هذا كله .

ولنستمع إلى جوستاف لوبون يرصد هذه الطاقة الهائلة ، وسأنقل كلماته عن كتابه (روح السياسة) سواء منها ما كان للدين أو عليه ، ليتبين أن الذين يسجلون حقائق التأثير الدينى ليسوا من كهنة الدين المستسلمين لأمره المسبحين بحمده المتحمسين من أجله !! إنه يقول : « أحرار الفكر الذين يحملون على المعتقدات لا يفقهون شيئاً من تأثير الديانات ، فمع أن الديانات لا تشتمل إلا على قليل من الحقيقة من الوجهة العقلية ..! دلنا التاريخ على أن أهم الحضارات قامت عليها ، وأنها زينت حياة ملايين من الرجال بما لا تقدر على فعله مذاهب الفلسفة من زهد وإخلاص وإنكار الذات ومحبة الغير ، فالديانات عبارة عن قوى يجب الانتفاع بها لا هدمها ، ولا يجوز أن يضطهد رجال الدين إلا إذا أرادوا أن يضطهدوا المعتقدات الأخرى . الديانات - وهى التى تورث النفوس آمالا كباراً - ملجأ البائسين فى كل وقت . فلنعد الخياليين الذين أوجدوا الآلهة وعبادتها من المحسنين إلى البشر ، والعلم الذى عرفهم أخذ يعدل عن مقاتلتهم ويعترف بشأنهم الكبير ، فقد كانوا فى الماضى عوامل فى ثبات الأمم الخلقى ، وهم وإن كانوا سيتحولون فى المستقبل لن يزولوا ، ما دام البشر يحتاج إلى الأمل » .

وعندما غاب الدين عن التوجيه ، حاولت ديانات مصطنعة أن تكلف الناس فوق ما يكلفهم به أى دين لتحتل فى نفوسهم مكان الدين وتعبئ الطاقة الدينية المعطلة وتشغل الفراغ المهول[1] ... إن الفيلسوف الانجليزى الكبير برتراندرسل يحلل شعور (الوطنية)

---

[١] المقالان السابقان (عصر نبذ الإله الواحد فوقع فى شرك آلهة شتى) ، (الديانات الجديدة) بمجلة الأزهر .

فيقول فى كتابه (نحو عالم أفضل) : «والوطنية شعور معقد أيما تعقيد ، يتكون من الغرائز الفطرية ومن المعتقدات الراسخة فى الذهن ... وفضلا عن ذلك كله هناك عنصر آخر ، هو عنصر العبادة ، عنصر التضحية الصادقة ، عنصر اندماج حياة الفرد وهو راضى النفس فى حياة الأمة ، وهذا العنصر الدينى من عناصر الوطنية ، عنصر جوهرى لقوة الدولة مذ كان يسجل أحسن ما تنطوى عليه صدور الذين يؤمنون بالفداء القومى» . والفيلسوف الفرنسى لوبون يتحدث عن النظريات التى روجها الاشتراكيون فى بلاده وغيرها بقوله : «ولا تنتشر الاشتراكية لما فى مثلها الأعلى المادى الذى تقترحه من قيمة ، إنها تنتشر لما تبذره فى النفوس من أمل دينى فى جنات دنيوية يتمتع فيها جميع الناس بسعادة سرمدية وقد أتيح لى مرات كثيرة أن أثبت أن الناس اقتتلوا فى غضون التاريخ فى سبيل المبادىء أكثر مما فعلوا فى سبيل قضاء حاجاتهم المادية ... عاش الناس للمبدأ والخيال أكثر ما للمادة ، فقد مجدوا رجال الحرب الذين أتوا بضروب البطولة وأحيوا ذكريات قادة الفكر وأرباب الفن الذين لم تكن لآثارهم فائدة عملية ، وأما الذين أتوا بالمخترعات التى لا غنى للناس عنها فيظهر أن أسماءهم طمرت فى عالم النسيان ، فكأن الناس ما عاشوا وما ماتوا إلا لأجل المبادىء» .

هذه حقيقة ينبغى ألا تغيب عمن يسجلون آثار الدين ... ويتناولون مدى الحاجة إليه . وما أصدق ما يقرره باستيد فى كتابه (مبادىء علم الاجتماع الدينى) : «لقد فرق كورنو فى رسالته عن (تسلسل الأفكار الرئيسية) بين الغريزة الدينية وبين الأفكار التى تعبر عنها ، فمن الممكن أن تولد الديانات وأن تموت وأن تحل مكانها ديانات أخرى ، ولكن الأشياء التى تولد وتموت على هذا النحو ليست سوى مجموعات الأفكار والعقائد والأساطير ، أما الغريزة الدينية التى أثارت هذه الأمور وهى غريزة فطرية فى الإنسان فتبقى دائما ، لأنها تخلق صوراً دينية جديدة على أنقاض الصور القديمة» .

والفيلسوف الكبير برتراندرسل لا يتهم بالتحيز للدين ، ومع ذلك فإنه قد عرف جيداً نزوع الإنسان لإرضاء طاقته الروحية ، فهو يقول «ويمكننا أن نقول : إن الناس يصدرون فى أعمالهم عن أصول ثلاثة ليس بين بعضها كبير فرق إلا أنها تتميز عن بعضها البعض بما يكفى لتسميتها بأسماء مختلفة : الغريزة ، والعقل ، والروح . وحياة الروح هى التى تصنع الدين ... إن الغريزة هى التى تهبنا القوة ، وإن العقل هو الذى يهبنا وسيلة توجيه القوة إلى الغايات المنشودة . والروح هى التى توحى بالفوائد غير الشخصية للقوة التى تكون من نوع لا يستطيع العقل أن يحط من شأنه

بالنقد . ومن شأن حياة العقل بسبب انعزالها أن تفصل بين الإنسان وبين غيره من الناس فصلا داخليا ، طالما تكون غير متوازنة وحياة الروح . ولهذا السبب يستطيع العقل إذا استقل عن الروح أن يسبب فساد الغريزة وأن يلحق بها الهزال ... ولكى تحصل الحياة الإنسانية على الحيوية فلا بد من أن تكون النزعات الغريزية قوية ومستقيمة ، ولكن لكى تكون الحياة الإنسانية صالحة فلا بد أن تسيطر على هذه النزعات وتتولاها بالرقابة رغبات أقل شخصية وأقل قسوة ، أقل قابلية للإفضاء إلى النزاع من الرغبات التى توحى بها الغريزة وحدها .

نحن فى حاجة إلى شىء كلى وغير شخصى أولا وقبل كل شىء مما ينشأ عن مبدأ النمو الفردى ، وهذا هو ما تمنحنا إياه حياة الروح » .

* * *

ومن عناصر القوة فى الشعور الدينى أنه ليس إدراكا ونظرا فحسب ، إنه وجدان وانفعال ، والتقاء واتصال ، وتذوق ومناجاة مع تلك القوة العليا التى اقتنع وآمن بها الإنسان والأستاذ كليمانت وب يشير إلى هذه الخاصية التى يتفرد بها الدين فى بحثه الممتع (الدين والفلسفة والتاريخ ـ المجلة التاريخية المصرية اكتوبر ١٩٥٠) حيث يقول :

« يرى بنديتو كروتشى أن الدين ليس إلا صورة من صور الإدراك المحض للنشاط الروحى . وأعتقد أن ليس فى وسعنا أن ننكر أن الإنسان قد بدأ يتفلسف حين فكر فى الدين ، أى حين أخذ يكون فكرة عن العالم ككل ، وبما أنه لا شك فى أن هذه المهمة ـ تكوين فكرة عن العالم ككل ـ تقع بتقدم المدنية على عاتق الفلسفة شيئا فشيئا ، فإن النتيجة أن الفلسفة ـ إن كانت هذه هى وظيفة الدين الوحيدة ـ لابد أن تغتصب فى نهاية الأمر مجال الدين كله . ولكنى لا أعتقد أن هذه هى وظيفة الدين الوحيدة ، ففى الدين ينشد الإنسان الاتصال بما يظن أنه يقوم وراء كل تجاربه ، بل وراء نفسه التى تقوم فى نفس الوقت بهذه التجارب . إنه لا يقنع بأن يدركه باعتباره شاملا لمبدأ الحياة الأقصى ونعنى به سر الوجود ، بل يتوق إلى الائتلاف معه بحيث لا يصبح موضوعا للمعرفة فحسب ، بل يصبح فريقا ... إن مدرسة معاصرة من متفلسفة رجال اللاهوت بألمانيا قد استرعت النظر إلى أن مخاطبتنا لله بضمير المخاطب لا الغائب فى الدعاء والصلاة يكشف عن عمق الصلة بين المؤمن وبين الله » .

وما أروع كلمات العقاد المنيرة الهادية فى كتابه (أبو الأنبياء) :

« إن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بإرادة ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضى بها إلى وجهة غير وجهتها . فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى ، بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ... أما ميزان العدل الإلهى فهو الذى أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة ، وكل ما عداها من دعامة فإنما هى دعائم القوة ممن يقدر عليها . وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم إلى بعض ... فإذا ارتفع الميزان إلى اليد الإلهية ، فهذا القوى مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ندان متساويان ومخلوقان أمام خالق واحد ...

والإله الواحد لم يكن حل مسألة ولم يكن سر أخبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد . بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهى ، وإليه المرجع والمآب .

كانت عبادته (مسألة حية) تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوى عنها زاوية فى الكون ولا فى ضمير الإنسان ... كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهى صحبة الخلود الذى لا يعرف الفناء » .

* * *

« إن الثورات الدينية يمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيرا ، وقد شوهد ذلك عند ماحول محمد بما جاء به قبائل العرب الضعيفة إلى أمة عزيزة . ولا يقتصر المعتقد الدينى الجديد على جعل الأمة متجانسة ، بل يأتى بما يتعذر على أى فيلسوف أو قانون أن يأتى بمثله ، إنه يغير عواطف الأمة الثابتة ... ولم تقتصر المسيحية على تحويل العادات بل أثرت تأثيراً كبيرا فى سير الحضارة مدى ألفى سنة فمتى يتم النصر لمعتقد دينى تلائمه الحضارة ملاءمة تتحول بها ، ولا يفعل الكتاب ورجال الأدب والفن والفلاسفة وقتئذ غير الإشارة إلى المعتقد الجديد فى تآليفهم » .

هذا ما يقرره لوبون فى كتابه (روح الثورات) .

والواقع أن الطاقة الدينية تظهر ثمارها فى الجماعات كما تظهر فى الأفراد .

فالدين يؤدى وظيفة هامة جداً فى تغيير بنية المجتمع ... وإذا أردنا أن نكون لأنفسنا فكرة أكثر دقة عن هذا التأثير

فربما كان من المستحسن أن نلجأ إلى تفرقة برجسون الشهيرة بين الديانات المغلقة والديانات المفتوحة ، فالديانات الأولى تنبثق على نحو تلقائى من البيئة الإنسانية لتحل فيها مكان الغريزة الاجتماعية المشرفة على الأفول ، ولكى تدفع عن المجتمعات أسباب الانهيار ، أما الديانات المفتوحة فتستخدم قوتها الديناميكية فى نسف الحدود وفى القضاء على العادات التقليدية ، فتأثيرها يدعو إلى التحول بل هو تأثير ثورى ... يقول ديبار : « يحمل المسكن طابع الآراء الوهمية والاعتقادات والطقوس الخاصة » ... وزيادة النسل أو نقصانه تتأثر بالعامل الدينى ... وترجع بعض النظم الاجتماعية إلى عامل دينى ... وهناك اتصال مستمر بين النظم الدينية والسياسية ، فإعلان حقوق الإنسان على أثر اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ يرتبط مباشرة — عن طريق التصريح الأمريكى السابق عليه — بالإصلاح البروتستنتى فى القرن السادس عشر ، وتؤدى المطالب الاشتراكية إلى طبع كثير من الاتجاهات الروحية المسيحية بطابع مدنى ...

وعلى الرغم مما كتبه أحد الماركسيين : « ما كان للدين والفلسفة أن يوجدا دون الشروط الاقتصادية التى تجعل ظهورهما أمرا ممكناً » ، فقد يكون تطور الدين هو الذى يغير النظام الاقتصادى ، فلقد وضع جيفونز وفريزر وريناخ فرضاً يربط بين استئناس الحيوان وبين الديانة التوتمية ، ويبدو لجرانت ألين وميتهوف ارتباط الزراعة بدفن الموتى ، وبين الاقتصادى دولافيلى أن رخاء الشعوب يتوقف على عقائدها « وعندما يرى المرء أن البروتستنتيين اللاتينيين يتفوقون على الشعوب الجرمانية الكاثوليكية وعندما يلاحظ أن تقدم البروتستنت أكثر سرعة واطراداً فى نفس البلد وفى نفس الجماعة ومن نفس اللغة والأصل ، فمن العسير جداً ألا ينسب تفوق هؤلاء على أولئك إلى طبيعة العقيدة التى يؤمن بها كل منهم » . وأبرز ماكس فيبر وجود علاقة بين المذهب البروتستنتى والنظام الرأسمالى فى أسمى درجاته وليس معنى هذا أن البروتستنتى يفوق الكاثوليكى فى اتجاهه المادى فإن لدى (البيوريتان) فكرة تقوم على الزهد ، ولما كان الزهد يحفز على الاقتصاد فقد ساعد على تركيز رءوس الأموال ، وهكذا استخدم على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالى . ثم إن البروتستنتى لما كان يتخذ عمله المهنى سبيلا إلى تحقيق سعادة أخروية فإنه يؤدى عمله على أكمل وجه طبقا لما يوحى به ضميره وهكذا يصبح مديراً صناعيا ممتازا - باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى) . هذا هو أثر

« البقية على صفحة ٩٥١ »

نفحات القرآن

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

الصوم عبادة صامتة ، ولكنه مناجاة عظمى بين العبد وربه

(ا) يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام .
(ب) كما كتب على الذين من قبلكم .
(حـ) لعلكم تتقون

(ا) شرع الصوم ركنا من أركان الإسلام الخمسة ، فهو — بعد الشهادتين — أحد مقوماته الأربعة . التى يشخص فيها كدين له كيانه ، وله شعائره التى ترتبط بها حياة المجتمع ، وينعكس ضوؤها فى مظهر الجماعة : هداية ، وخلقا ، وعملا نافعاً ، وحضارة ناضجة بريئة من شوائب : الزلل والفساد .

وفقدان الصوم أو غيره من الأركان المساوية له ينتقص من دين المرء ، ويجعله فى تدينه كالمتجمل بثوب تمزقت وشائجه ، فلم يعد واقيا له من عوادى السوء وليس الذنب ذنب الدين ، ولا العيب عيبه ، وإنما هى جناية أهله على أنفسهم بالمروق من حوزته أو من بعض نواحيها .

أما فقدان الركن الأول — الشهادتين — فهو انهيار الأساس من قاعدته الأصيلة ، ولا يستقيم شىء من الأركان الأخرى على غير أساس .

والصوم إمساك عن شهوتى البطن والفرج وجهاد للنفس بحرمانها من ملذاتها . فهو غير هين الاحتمال : إذ النفس تكره الاحتباس ، وتجنح دائما إلى التحلل .

لذلك كانت الدعوة إليه فى أسلوب هين ، وتلطف مشوق ، وكان سياقها سياق تكريم بنداء رحيم — يا أيها الذين آمنوا —

فهذا تسجيل لإيمانهم ، وشهادة بأهلية المؤمنين للدعوة إلى خير يريده الله لهم ، وليس المؤمنون بالجفاة الذين يقسو عليهم الكتاب فى نجواه معهم ، كما يقسو على المتخلفين وإنما هم المصغون المستجيبون ، فحسبهم أن يسمعوا ليطيعوا ، وذلك ديدنهم ، وهو شأن الإيمان ،

وهكذا خطابهم فى كل مقام يراد به تزويدهم من تعاليم الدين وآدابه ، وتكميلهم بكماله .

ثم يقترن بهذا النداء ثلاث كلمات فى تشريع الصوم ، وتركيزه كركن من أركان الإسلام ، وما بعد هذه الثلاث فبيان لقدر أيامه ، وموعدها ، وبيان أحكام تتعلق به من ترخيص فى الفطر ، وقضاء للصوم ، أو فدية عنه إلخ ..

الكلمة الأولى ـ كتب عليكم الصيام ـ المراد : يا معشر المؤمنين ، فرض عليكم الصيام !! ولم يكن عليهم صيام مفروض قبل ذلك .

وكان هذا التشريع فى السنة الثانية للهجرة . وكانت الهجرة فى ربيع الأول ، من السنة الثالثة والخمسين من عمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد مضى عليه بعد رسالته ثلاثة عشر عاما فى مكة وبعد سنة من الهجرة يكون النبى عاش تسع سنوات فى المدينة ، وهى التى صام فيها رمضان .

(ب) الكلمة الثانية ـ كما كتب على الذين من قبلكم ـ .

يفيدنا أن الصوم ليس بدعا فى الإسلام ، بل كان فى الأمم السابقة ، وهذا مما يشهد بأن الديانات السماوية لا يباين بعضها بعضا ، بل هى على أصل واحد فى التوحيد والعبادة لله ، وإن اختلفت رسوم العبادات أحيانا فى شكلها ، كما تختلف صلاتنا عن صلاة غيرنا .

فصوم المسلمين أشبه بصوم غيرهم من ناحية أنه تشريع سماوى إيجابى ، وإن اختلف صومنا عن صومهم فى مدته وأوصافه ...

وقد يقال : إن صومهم كان أشبه بصومنا تماما ، غير أنهم أحدثوا تغييرات لم تكن ، حتى صار مخالفا لما نحن عليه .

وحسبنا أن يكون التشبيه بين الصومين فى أصل وجوبهما .

وذكر هذا التشبيه يحفزنا على القبول ، فالنفوس أميل إلى التقليد وإذا عرف أن شيئا كان مقبولا عند غيرنا هان علينا أن نأخذ به .

بل نحن أولى بالاستجابة ، والسبق إلى تحصيل الثواب ، وقد اعتبرنا الله خير أمة أخرجت للناس .

فلنكن أقوى صلة بالله ، وأحرص على الاتصال به ، ولنكن أحفظ لأمانة الصوم على ما ورد بها تشريعه ، فلا نزيد فيها ، ولا ننقص منها ، ولا نشوبها بتصرف من عندنا ... حتى لا نقع فيما وقع فيه سوانا من إلحاد فى دين الله ، وزعزعة لعقيدة الناس ، والله سبحانه يقول فى هذا وفى غيره « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ؟ ؟ أم : من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ ؟ اعملوا ما شئتم ، إنه بما

تعملون بصير ! ! » ـ وهذا تهديد شديد لا ينبغي أن يتعرض له عاقل .

أما الصوم المستحب في نحو يوم عرفة وعاشوراء ، ومثلهما ، فليس زيادة على الفرض ، بل ذلك زيادة مسنونة ، كما نزيد في الزكاة بصدقات التطوع ـ فمن تطوع خيرا فهو خير له ـ .

(ج) الكلمة الثالثة ـ لعلكم تتقون ـ .

يعنى : شرع الصوم وسيلة إلى التقوى ، ورجاء حصولها للصائمين ، وهي الهدف من التشريع .

وإذا كان الصوم حرمانا من الملاذ ، وحبساً للنفس عن حريتها ، فالحرمان يثير الألم ، ويحمل على الضيق والتذمر ، فكيف يكون مرضيا ، ومجلبة للتقوى التي لا تكون غالبا إلا عن طمأنينة وارتياح ؟ .

جواب ذلك أن الصائم يجد نفسه بين إحساس بالحرمان ، وشعور وجداني بأنه يترفع أثناء الصوم عن الشهوات البهيمية التي لا تتجاوز بطنه وفرجه .

فهو يتشبه في صومه بالملائكة في تجردهم عن شواغل الملذات الحسية التي تسيطر كثيراً على روح الإنسان ، وتقعد به عن النشاط في جانب الله سبحانه ، وتدفعه من شهوة إلى شهوة ، ومن لذة إلى لذة ـ والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع ـ .

وفي التشبه بالملائكة سيطرة على الشهوة ، وترويض للنفس على التزهد ، والصبر .

فإذا ماعاش المرء في يسر فهو قادر على ضبطها عن الإسراف ، والتورط في الجشع والتبذير ، ويذكرها بما عليه المحرومون من الحاجة المريرة ، والعجز عن ضروراتهم ، فتقوى فيه عاطفة الآدمية ، والأخوة الإنسانية ، والناس بحاجة إلى التراحم في كل أوساطهم ، وظروفهم .

وإذا لم يكن في حياة المرء يسر فالصوم تدريب على الصبر ، وتعويد على الرضا ، واعتبار بما تورط فيه بعض الموسرين ، والمترفون من الغرور بالنعمة والانهماك في مطاوعة النفس ، وتتبع الأهواء ، حتى كأن النعمة أنستهم خشية الله ، فهم يحاربون ربهم بما أغدق عليهم من رزق ، ويتجاهلون أن وراءهم حسابا عسيراً ، وهذا عزاء ـ ولا شك ـ للمحروم .

وفي هذه المشاعر التي يوحي بها الصوم للواجد وللمعسر نمط كريم للتربية ، واتجاه إلى أطيب المسالك.

فإن يكن الصوم شاقا من ناحية ، فهو هناءة روحية من ناحية أرجح وأقوى : ناحية الوجدان .

وإن يكن تكليفا غير محبب عند المستهترين ، فهو عبادة صامتة ، وهو مناجاة

عظمى عند المهتدين : مناجاة لها شأنها ، ولها قدرها ، ولها ملذتها ... وعبادة كهذه كفيلة بتوثيق الصلة بين العبد وربه ، وكفيلة بإيقاظ الضمير ، وتبديد الغفلة ، والجنوح إلى توجيهات الله نحو الدين والدنيا ... وتلك كلها من معانى التقوى ... فلا جرم أن يكون الصوم سبيلا إليها كما جاءت به الآية — « لعلكم تتقون » .

ثم تنتقل بنا الآيات مرة ثانية إلى ناحية مما يتعلق بالصوم .

« أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له » .

ففى هذه المرحلة يبين الله أن الصوم المفروض إنما هو فى أيام محصورة العدد ، وأن العاجز لمرضه ، والمسافر فى أثناء الصوم لهما أن يفطرا ، وعليهما القضاء فى أيام غير رمضان ، وهذا ترخيص للمعذور الذى يجهده الصوم أو يجلب عليه ضرراً .

والمرض المذكور يراد به ما يسمى فى العرف مرضا يكون الصوم معه شاقا ، والسفر كذلك ما يعتبر سفرا فى العرف ، وقد حدد العلماء مسافته بما يعادل ثمانين كيلو مترا وشرطوا فيه أن يكون سفراً مباحا : لا لمعصية .

ولا يمنع من رخصة السفر أن يكون المسافر فى قطار ، أو سيارة ، أو باخرة ، أو طيارة فالسفر نفسه سبب الترخيص ، ولو لم تكن معه مشقة ولا تعب ، أما الذين يطيقون الصوم — يعنى يؤدونه فى طاقة ، وهى غاية جهدهم ، كالعجوز الذى يشق عليه الصوم ويبلغ نهاية طاقته وقدرته ، وكالحامل ، والضعيف ، وصاحب العمل المجهد ، أو العمل الذى لا تؤمن عواقبه مع الصوم كالطبيب الجراح ، والقاضى بين الناس ، فكل أولئك لهم الترخص فى الفطر ، فإن كانت لهم فرصة القضاء فالأصل ذلك وجوبا . وإن لم تكن لهم فرصة القضاء لاستمرار العذر عندهم فعلى كل منهم الفدية بدلا من كل يوم .

وقدر الفدية إعطاء المساكين عن كل يوم ثمن قدح من القمح لكل مسكين أو قدحا بالكيل إن تيسر ، أو أكلة مشبعة تساوى ثمن القدح - لكل واحد ، والمقصود أن يظل الصوم محتفظا به ، أو يرمز إليه بتلك الصدقات على الفقراء .

والفداء عن أيام الصوم غير الزكاة الواجبة فى عيد الفطر . . والزيادة فى الفدية عن القدر الواجب طاعة مشكورة « فمن تطوع خيرا فهو خير له » .

والحديث عن الصوم فى تشريعه ، وفى ذكر أيامه المعدودات ، وفى الترخيص بفطره

للمريض ونحوه يثير فى النفس تطلعا إلى تعيين الأيام المعدودة ببيان موعدها ، والتعريف بشأنها ، حتى لا يكون فيها إبهام ، وحكمة الله تأبى أن يكون فى تشريعه إبهام ، ولذلك انتقلت بنا الآية مرة ثالثة إلى استيفاء هذا .

فقال تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » فهذا إفصاح بذكر الشهر الذى يصام ، وهو إفصاح يشفى غلة النفس ، ويجعل لذكر رمضان وقعا كريما فى السمع ، ومحبة فى القلب ، ويشعر بفضل هذا الشهر على غيره ، فهو الذى أنزل فيه القرآن ، وهو الذى ابتدأت فيه بعثة محمد إلى الناس كافة ، وفيه ليلة القدر ، أى ليلة الشرف التى كانت مستورة فى علم الله حتى أظهرها لعباده بنزول القرآن وببعثة محمد فيها ، وهى عند الله الليلة المباركة التى اختارها المولى سبحانه لهذه الأحداث الكريمة ، فهى لذلك خير من ألف شهر ، وهى ذات مناقب كثيرة ليست لليلة سواها ، ولا فى شهر غير رمضان .

ذلك هو الصوم ، وهذا شأن الشهر الذى شرع فيه ، فهل يغيب عن واع ألا يدع الصوم ، ولا يتخلف عن الفضل فى شهر من السنة ؟ .

ولكن : هل كل من صام يكون فى مستوى الصائمين حقا ؟ إن الصوم كما تحدثنا عبادة صامتة ، فقد يرى الناس بعضهم بعضا فى صلاة ، أو فى حج ، أو فى إمساك عن طعام وشراب ، ولكنهم لا يدرون شأن بعضهم فى ساعات الخلوة ، فقد يكون فيهم الصائم الكاذب ولا يعلم خلوته إلا الله وحده ، والخلوة هى مجال الاختبار ، حيث لا رقابة لأحد ولا حاجة إلى رياء وتظاهر .

وإنما هو خدعة كانت فى العلن ، والخلوة راحة منها ...

أو هى تقوى صادقة والخلوة والعلن فيها سواء ، فالمعتصم بربه من شيطانه والمتقى لله لا لعباده هم المناجون لربهم فى خشية دائمة ، وطاعة حقة ، والله يجزى على الطاعة أجرها الموعود ، ويضاعف ثوابا غير محدود ، وهو الذى يقول - كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به - كأن العبادات كلها بجانب الصوم دونه شأنا : أما الصوم فقد تمحض لله ، لما فيه من مزيد الإخلاص جهراً وسراً ، فثوابه موكول إلى الله يتولاه بكرمه الوفير .

والله نرجو أن يجعل طاعته محببة إلى قلوبنا ، وخالصة لوجهه الكريم ؟

عبد اللطيف السبكى

عضو جماعة كبار العلماء

صيام رمضان
وصلته بصيام المانوية والصابئين والعرب فى الجاهلية

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

من أشهر النحل الدينية التى كان معتنقوها يزاولون قبل الإسلام صياما شبيها بصيام رمضان نحل المانوية والصابئين والعرب فى الجاهلية .

فقد ذكر ابن النديم فى كتابه «الفهرست»(١) أن شريعة الحرانيين المعروفين بالصابئة أو الصابئين والذين قد بقى فى ديانتهم رواسب كثيرة من الديانة البابلية القديمة القائمة على تقديس الكواكب « تفترض عليهم الصيام ثلاثين يوما أولها لثمان مضين من اجتماع آذار (مارس) » . ويظهر من عبارته أن صيامهم هذا كان إمساكا عن جميع أنواع الطعام والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها ، وأنه كان تكريما للقمر .

وذكر فى أثناء كلامه عن الثنوية الكلدانيين أو المانوية (وديانتهم خليط من البابلية القديمة والمسيحية والفارسية ويقوم كثير من مظاهرها على تقديس الكواكب)(١) أنهم كانوا يصومون ثلاثين يوما تبدأ عندما « يهل الهلال وتنزل الشمس إلى الدلو ويمضى من الشهر ثمانية أيام » ، وأنهم كانوا ينظرون فى كل يوم منها « عند غروب الشمس » . ويظهر من عبارته أن صومهم هذا كان متصلا اتصالا وثيقا بالظواهر الفلكية وأنه كان يقوم على تقديس الكواكب كصوم الثلاثين عند الصابئين .

ولم يكن الصوم هو المظهر الفذ لتأثر الصابئين والمانوية بالديانة البابلية القديمة القائمة على تقديس الكواكب ، بل ظهر هذا التأثر كذلك فى صورة جلية فى صلواتهم وأوقاتها .

فقد جاء فى « فهرست » ابن النديم (وهو من أهم المراجع فى هاتين النحلتين) ما يدل على اتصال هذه الأوقات اتصالا وثيقا بحركات الشمس الظاهرة . أما الصابئون فقد ذكر فى صددهم أن المفترض عليهم من الصلاة « فى كل يوم ثلاث : أولها قبل طلوع الشمس

---

(١) انظر الجزء التاسع من كتاب الفهرست لابن النديم .

(١) يدعى زعيمهم الذى تنسب إليه هذه الديانة « مانى بن فتق » .

بنصف ساعة أو أقل لتنقضي مع طلوع الشمس وهي ثماني ركعات وثلاث سجدات في كل ركعة ؛ والثانية انقضاؤها مع زوال الشمس وهي خمس ركعات وثلاث سجدات في كل ركعة ؛ والثالثة مثل الثانية انقضاؤها عند غروب الشمس » .

وعقب على ذلك بقوله . « وإنما ألزمت هذه الأوقات لمواضع الأوتاد الثلاثة التي هي وتد المشرق ووتد وسط السماء ووتد المغرب » « وصلواتهم النافلة التي هي بمنزلة الوتر في لزومه للمسلمين ثلاث في كل يوم : الأولى في الساعة الثانية من النهار (وهي تقابل صلاة الضحى عند المسلمين) ؛ والثانية في الساعة التاسعة من النهار (وهي تقابل العصر) والثالثة في الساعة الثالثة من الليل (وهي تقابل العشاء) . ولا صلاة عندهم إلا على طهور » . —

وأما المانويون فقد ذكر ابن النديم أنه قد فرض عليهم من الصلوات أربعا . « فأما الصلاة الأولى فعند الزوال ؛ والصلاة الثانية بين الزوال وغروب الشمس ، ثم صلاة المغرب بعد غروب الشمس ثم صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات » . ووصف صلاتهم في العبارات الآتية التي تدل على أنهم كانوا يقيمونها تقديساً للكواكب وبخاصة الشمس ، فقال : « وذلك أن يقوم الرجل فيمسح بالماء الجاري أو غيره ، ويستقبل النير الأعظم قائما ، ثم يسجد ويقول في سجوده مبارك هادينا الفار قليط رسول النور ومبارك ملائكته الحفظة ومسبح جنوده النيرون ، يقول هذا وهو يسجد ويقوم ولا يلبث في سجوده ويكون منتصبا ، ثم يقول في السجدة الثانية : مسبح أنت أيها النير أصل الضياء » .

* * *

هذا ، وقد حاول كثير ممن في قلوبهم مرض ، وممن وقفوا جهودهم على النيل من الإسلام والكيد له تحت ستار البحوث التاريخية والتحقيقات الاجتماعية أن يرجعوا أنواع صيام رمضان عند المسلمين إلى صيام الثلاثين عند المانوية والصابئين ، كما حاولوا أن يرجعوا صلواتنا إلى صلواتهم . فزعموا قبحهم الله ، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ـ أن محمدا عليه السلام قد نقل عن هاتين الديانتين ـ ديانة المانوية وديانة الصابئين ما جاء به من صيام وصلاة وأن الأوقات التي شرعت فيها صلوات المسلمين وصيامهم واتصال هذه الأوقات بحركات القمر والشمس والكواكب ، كل ذلك ينم على الأصول الصابئة والمانوية التي استمدت منها هذه العبادات .

ومن هؤلاء الدكتور جاكوب الألماني . فقد قرر في رسالة كتبها في صيام رمضان ، بعد تحقيقات حسابية طويلة وموازنات

بين التقويم العربى من جهة والتقويمين البابلى والميلادى من جهة أخرى ، أن أول سنة شرع فيها الصيام ، وهى سنة ٦٢٣ ميلادية (كانت فرضيته يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت الهجرة يوم الجمعة ١٦ يولية سنة ٦٢٢ ميلادية). كان أول يوم من رمضانها يوافق الثامن من شهر آزار ، أى أن أول شهر صامه المسلمون كان موافقا فى مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الصابئين ، ويرى جاكوب فى هذا دليلا قاطعا على أن محمدا قد نقل صيام رمضان عن شريعة الصابئين [1] . وذهب وسترمارك الفنلندى إلى ما يقرب من هذا الرأى مع شىء من الاعتدال والحيطة فى التعبير ، إذ يقول : « إن وجوه الشبه بين صيام رمضان وصيام الصابئين والمانوية لبالغة من الوضوح مبلغا يحمل الباحث على أن ينظر إلى هذه الأنواع الثلاثة من الصيام نظرته إلى ثلاث شعب متفرعة عن أصل واحد ، فمن الراجح أن يكون محمد قد نقل صيام رمضان عن الصابئين أو عن المانوية أو عنهما معا »[2].

(1) Jacob (K. G.): Der muslimisch Festenmonat Romadân; dans : VI Gesellschaft Zu Grefawald, 1ère partie 1893-96 p. 2 et suiv.

(2) Westermarck: Origine et Développment des Idées Morales. T. II. p. p. 3υ1,302 (trad. fran).

وهذه لعمرى شنشنة عرفناها عن كل من تصدى من الفرنجة لبحث عقائد الدين الإسلامى وشعائره . فنراهم قبل أن يفهموا الموضوع الإسلامى الذى يتصدون لدراسته حق الفهم ، يوجهون كل همهم إلى البحث عن نظير له فى الديانات الأخرى ولا يكادون يعثرون عليه حتى يوحى إليهم تعصبهم أنه لا بد أن يكون هذا منقولا عن ذاك ؛ ثم لا تعوزهم الحيل والمنافذ التاريخية لإلباس أهوائهم ثوب الحق .

ومع أن المقام لا يتسع لرد مفصل على ما زعموه بصدد صيام رمضان لا نرى مندوحة عن الإشارة إلى بعض أمور أعماهم تعصبهم عن النظر إليها ، وهى خليقة أن تقوض مزاعمهم رأساً على عقب .

فمن ذلك أنه لم يحدث فى الجاهلية اتصال فكرى أو دينى بين قريش التى نشأ فيها الرسول عليه السلام وبين المانوية والصابئين وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة : منها اختلاف اللغة والرسم والثقافة والحضارة ومنها بعد المسافة بين مواطن هؤلاء وأولئك فقد كانت بلاد الصابئين والمانوية على حدود فارس من الغرب ، على حين أن القرشيين كانوا يقطنون الحجاز والمواطن المتاخمة له ، وكانت أسفارهم التجارية لا تتجاوز طريقى الشام واليمن ، يسلكون أحدهما فى رحلة

الشتاء والآخر فى رحلة الصيف ، ولم يعرف عن الرسول عليه السلام أنه اتصل قبل بعثته بالصابئين والمانوية أو احتك بثقافتهم الدينية أو عنى بدراسة شرائعهم أو وقف على شىء منها ، وظل هذا حاله إلى ما بعد رسالته بأمد غير قصير .

ومما يرد به كذلك على أصحاب هذا الإفك أن صوم رمضان يختلف اختلافا جوهريا فى شروطه وقواعده ووقته وطريقة أدائه ومقاصده وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند المانوية والصابئين . فليس بينهما من وجوه الشبه إلا الاتفاق فى عدد الأيام وتتابعها . وهذه ناحية شكلية من التعسف اتخاذها دليلا على أن أحدهما منقول عن الآخر . على أنهما فى هذه الناحية نفسها يختلفان اختلافا غير يسير . فالصيام الإسلامى مدته شهر قمرى ، على حين أن صيام الصابئين والمانوية مدته ثلاثون يوما تبدأ بالثامن من شهر شمسى . والصيام الإسلامى يبدأ بابتداء الشهر وينتهى بانتهائه ؟ أما صيامهم فيبدأ من الثامن من الشهر ولا ينتهى إلا فى الشهر التالى له .

وقد بين الله تعالى فى كتابه الكريم السبب الذى من أجله اختير شهر رمضان بالذات ليكون شهراً للصيام ، فذكر أن السبب فى ذلك يرجع إلى أنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن . قال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . فالحادث الذى من أجله اختير شهر رمضان بالذات ليكون شهراً للصيام هو حادث إسلامى بحت ولا علاقة له مطلقاً بأى شأن من شئون المانوية ولا الصابئين .

هذا إلى أن القرآن الكريم ينص على أن ما سن لنا من الشرائع قد سن مثله لكثير من الامم من قبلنا ؛ قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » وقال عز وجل فى صيام رمضان نفسه : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » . فمن المحتمل إذن أن يكون صيام الثلاثين عند الصابئة والمانوية مستمداً فى الأصل من شريعة سماوية تقادم عليها العهد فدخلها التحريف والتبديل ، وبعدت عن غايتها وأصولها الأولى ، وصبغت بصبغة التقديس للكواكب ، وأن الدين الإسلامى قد كتب الصوم نفسه الذى كتبته هذه الشريعة ، فأحياها نقية طاهرة ، وقضى على كل ما علق بها من أدران الشرك .

وما قيل فى صيام رمضان يقال مثله فى جميع أنواع الصلاة عند المسلمين .

* * *

وقد ذهب بعض المؤرخين من المسلمين

وغيرهم إلى أن صيام رمضان كان منتشراً عند بعض قبائل العرب فى الجاهلية ولا سيما قريش. ويؤيدون رأيهم هذا بأن النبى عليه السلام نفسه كان قبل بعثته يقضى فى غار حراء شهر رمضان من كل عام متحنثاً صائماً. وقد اختلفوا فى أصل هذا التشريع. فمنهم من يرى أنه كان من الشرائع التى جاء بها إبراهيم عليه السلام؛ ويستدل على ذلك بأن الذين ثبت أداؤهم لهذه الشعيرة فى الجاهلية كانوا من المعروفين باتباعهم لملة إبراهيم. ومنهم من يرى أن عبد المطلب جد النبى عليه السلام كان أول من سن هذا الصيام وعمل به. وقد أخذ بهذا الرأى موير فى كتابه عن «حياة محمد»(1).

ولكن لم يثبت بعد شىء من هذا كله بدليل قاطع. على أنه لا يضير الدين الإسلامى فى شىء أن يكون صيام رمضان متبعاً قبل بعثة الرسول. فقد ثبت أن الشريعة المحمدية أقرت كثيراً من عادات العرب وشعائرهم فى الحج وغيره بعد أن خلصتها مما كان عالقاً بها من أدران الشرك وعبادة الأصنام؟.

دكتور على عبد الواحد وافى

(1) Muir: Lif of Mohamed, II, 56.

«الطاقة الدينية» بقية المنشور على صفحة ٩٤١

الدين الاجتماعى الذى سجلته الملاحظات الدقيقة ....

إنه أثر شمل الفرد والجماعة، وامتد من الماضى إلى الحاضر ... وتجاهل هذا الأثر تعطيل لطاقة ضخمة فى الإنسان، وإضعاف لقواه الأخرى على مر الزمن.

لقد تألقت كشوف العلم فى فترة فوهبت الإنسان حماسة ونفحته بروح خيل له معها أنه لم يفقد بطرح الدين شيئاً ... ومضت أمام عينيه أضواء النظريات فى عهد من تاريخ الإنسان يصح أن يسمى (بعهد الإزم ism) خلعت عليه هذا الاسم أكداس المذاهب التى تنتهى بهذه النهاية اللغوية فى شتى مجالات الفكر والحياة، فاندفع الإنسان لا يلوى على شىء، وأوهمته دفعة التعصب لمذهبه أن فى وسعه أن يستغنى بما عنده عن الوحى والدين ...

ومضت الأيام، وفتر وميض الكشوف والمبادئ، وبرد الإنسان ....

وعاد يبحث من جديد:

ترى هل يستطيع الدين أن يعيد المعجزة، ويبرئ أكمه الروح ويحيي موتى القلوب؟.؟

فتحى عثمان

البلاغة العربية بين منهجين

للأستاذ على العمارى

من المعروف عند دارسى البلاغة العربية أنها برزت إلى الحياة فى ثوبين متميزين، ووصلت إلينا بطريقتين مختلفتين، طريقة الأدباء، وطريقة المتكلمين وأنها ظلت زمنا غير قليل تبدو فى معارض أنيقة من صنع الأدباء، وتتنفس فى أجواء عبقة بنفحات الشعر.

قال الجاحظ: «طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب. فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات».

فعلم الشعر الذى كان يطلبه الجاحظ، والذى ظهر أثره فى كتبه، ولا سيما كتاب (البيان والتبيين) قد كان عند أدباء الكتاب، وعلم الشعر هذا هو المحاولات الأولى لعلوم البلاغة.

فلما تقدم الزمن، ودخلت العلوم المترجمة على العربية ونشأ أصحاب العقول الفلسفية، والأذهان المنطقية أخذت تتحول أصول البلاغة من جوها الأدبى إلى جو علمى فلسفى منطقى، وقد كان ذلك مشهوراً متعارفا فى وقت مبكر، يدل على ذلك قول أبى هلال العسكرى: «وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب، فلهذا لم أطل الكلام فى هذا الفصل»[1].

ومن هذا النص الموجز نتبين أن المنهجين، منهج المتكلمين، ومنهج صناع الكلام من الشعراء والكتاب. كانا معروفين فى عصر أبى هلال، ومن مراجعة الفصل الذى يشير إليه نتبين الفرق بين المنهجين.

فأبو هلال كان يتكلم فى الإبانة عن معنى الفصاحة وما يتشعب منه، وعن موضوع البلاغة فى اللغة وما يجرى معه من تصرف لفظها، وهو لم يطل فى هذا الفصل كما يقول، بل اقتصر على بعض تعريفات البلاغة، والفصاحة وبعض الأمثلة الجيدة، وهذا مثل من هذا الفصل: «وشهدت قوما يذهبون إلى أن الكلام لا يسمى فصيحا حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة فيكون مثل

---

(١) الصناعتين ص ٩ ط. الحلبى

قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » .

ومثل كلام الحسين بن على رضى الله عنهما : « الناس عبيد الأموال ، والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معايشهم ، فإذا محصوا بالابتلاء قل الديانون » ومثل المنظوم قول الشاعر :

ترى غابة الخطى فوق رءوسهم
كما أشرفت فوق الصوار قرونها

قالوا : وإذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ، ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سمى بليغاً ولم يسم فصيحاً كقول بعضهم وقد سئل عن حاله عند الوفاة فقال : ما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد ، ويقدم على ملك عادل بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بلا أنيس ؟ .

وقول آخر لأخ له : مددت إلى المودة يداً فشكرناك وشفعت ذلك بشىء من الجفاء فعذرناك ، والرجوع إلى محمود الود أولى بك من المقام على مكروه الصد .

وأنشدنا أبو أحمد عن أبى بكر الصولى لابراهيم بن العباس :

تمر الصبا صفحا بساكنة الغضا
ويصدع قلبى أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما
هوى كل نفس حيث حل حبيبها

فالبيت الأول فصيح بليغ ، والبيت الثانى بليغ وليس بفصيح » .

فإذا استحضرنا هذه الصورة فى الحديث عن البلاغة والفصاحة ثم رجعنا إلى تعريفها فى كتب البلاغة التقليدية التى ندرسها ، والتى ظلت قروناً طويلة موضع عناية الدارسين ، عرفنا الفروق بين هذه الطريقة الأدبية والطريقة الأخرى التى وسمها أبو هلال بأنها (مذهب المتكلمين) .

وليس من العسير على الناظر فى مختلف كتب البلاغة أن يتبين أن المنهج الأدبى لا يعنى بما يعنى به المنهج الكلامى من التعريفات المنطقية ومناقشة هذه التعريفات بدقة زائدة ، وإطالة الجدل حول الألفاظ ، وما يؤخذ منها ، فى حين لم يعن بالشواهد وتحليلها ، وتبين موضع الجمال فيها ، وعلى كثرة ما ترى فى هذا المنهج من التقسيمات والتفريعات لا تجده يقف عند كل تقسيم ليتبين فيه ما يؤدى إليه من جودة أو ركة فى الكلام ، وإنما هو تقسيم خال من الهدف وربما كان الملحظ فيه عقلياً فحسب ، ولا طائل وراءه مما يعنى البلاغى الذى همه أن يميز بين الجيد والردىء ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ولقد اعتبر ابن خلدون عمل السكاكى فى هذا الفن عملا جليلا ، « لأن المتقدمين أول من تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل

الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر ابن يحي والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن مخض السكاكى زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه [١] » .

ولا شك أن عقلية ابن خلدون كانت عقلية عالية ، تعجب بالتحديد والتقييد ، وتحتفل للضوابط والقوانين ، ومن هنا - وهو أمر لا ينتهى العجب منه - أهمل الإمام عبد القاهر عند تاريخه لهذا الفن ، كأن صنيع عبد القاهر لا يعد شيئا يذكر ، أو كأنه لم يصل إلى علم ابن خلدون .

ومنذ قيد السكاكى هذا الفن بالسلاسل والأغلال والعلماء يدورون حول كتابه يلخصونه أو يشرحونه أو ينظمونه ، ومع هذا كان يظهر فى الفينة بعد الفينة من يترسم خطا المنهج الأدبى ، وينسج على منواله .

فضياء الدين بن الأثير يؤلف كتابه المثل السائر ، وينحو فيه هذا المنحى ، والسيوطى يتحدث عن نفسه فيقول : ورزقت التبحر فى سبعة علوم . ويذكر منها المعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة .

ومن هذا النص . ونص آخر جاء فى مقدمة ابن خلدون يقول فيه : « وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة » أقول من هذين النصين أخذ بعض الباحثين قضية عامة فوسموا المذهب الكلامى بأنه (مذهب العجم) والمنهج الأدبى بأنه (منهج العرب) بل خطا أحدهم خطوة أخرى فسماه (المذهب المصرى) والحق أن وسم هذين المذهبين بالشعبين العربى والعجمى مجانف للصواب ، ذلك أن من الأعاجم من قضى حياته فى بلاد العجم وروحه روح أدبية فعبد القاهر الجرجانى لم يفارق جرجان ، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى صاحب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، قد قضى حياته كلها فى بلاد الشرق البعيدة ، وهذان العالمان الجليلان يمثلان المذهب الأدبى أتم تمثيل ، وفى العلماء من عاش فى مصر ، وروحه روح كلامية كبهاء الدين بن السبكى ، وقد عده بعض الباحثين من رجالات المدرسة المصرية فى البلاغة ذات الطابع الخاص ، لأنه قال فى مقدمة كتابه (عروس الأفراح) : « أما أهل بلادنا يقصد المصريين - فهم مستغنون عن ذلك - يريد فن البلاغة - بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرق من النسيم وألطف من ماء الحياة فى المحيا الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه

[١] المقدمة ص ٥٠٢ ج ١ التجارية .

العلماء فضلا عن الاغمار الأعمار ويرون فى مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار » .

فى حين أن الرجل مبالغ فى النزع عن القوس السكاكية ، فقد حشا شرحه بالتحقيقات النحوية والمنطقية ، والمناقشات اللفظية ، بما لا يمكن أن نعتبره مع ذلك من المدرسة المصرية أو من مدرسة الأدباء بعامة .

ويكفى أنه ندب نفسه لحل معضلات مر عليها أسلافه وهم عن حلاوة حلها معرضون .

بل إننا لنجعل أسلوبه فى مقدمة كتابه أكبر دليل على تأثره بهذه المدرسة الكلامية وهذه فقرات منها « الحمد لله الذى فتق عن بديع المعانى لسان أهل البيان ، ورتق الأفواه عن تفسير المثانى إلى أن فتحتها بلاغة آل عدنان وحق ببراعة كتابه العربى ، وأسنة دينه القوى ما خالفهما من جدال اللسان ... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشتمل على جناس القلب فتسكن بعد النصر لهبا يرمى بشرر كالقصر ... ونشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله صاحب الفصل والوصل فى الواقعة إذا وقف الصف يوم الحشر ، والمسند إليه الشفاعة إذا التفت الساق بالساق » . وهكذا يمضى مقتبسا اصطلاحات البلاغيين ويكفى أن نضع بجانب هذه المقدمة مقدمة مؤلف آخر عاش فى مصر زمنا ، وفى القرن الذى سبق قرن ابن السبكى هو ضياء الدين بن الأثير ، فإننا ندرك الفرق واضحا ونتبين أن بهاء الدين السبكى ، لم يكن من رجال المدرسة الأدبية ، وليس بينه وبين رجال المدرسة السكاكية فارق كبير .

فالطريق المأمون الذى نسلكه حين ننسب هذا المذهب أو ذاك ، أن نعدد الأشخاص ، فنقول مثلا : إن السعد والسيد والعضد الأيمن من رجال المذهب الكلامى ، وإن عبد القاهر وابن سنان الخفاجى ، وابن الأثير ، من رجال المذهب الأدبى ... وهكذا .

بعد هذا العرض الموجز للمذهبين الأدبى والكلامى ، نريد أن نحدد مواضع أقدامنا من دراسة البلاغة ، وأحب ألا تضيق بما أقوله صدور ، سواء كانت من هنا أو هناك وقبل أن نحدد الوضع الذى نريده نلمح بشىء عن الطرق التى تسير عليها دراسة البلاغة عندنا .

فالأزهر والمعاهد التى تحذو حذوه ، لا تزال كلها تدور فى فلك السكاكى ، تدرس التلخيص أو الإيضاح ، مشروحين على الطريقة القديمة ، أو على الطريقة الحديثة ، وإذا كان قد جد شىء فى السنوات الأخيرة ، فإنما هو لفتة ضعيفة إلى كتب عبد القاهر ، وحذف لبعض المجادلات اللفظية ، وإذن

فلا تزال آراء السعد والسيد والعضد والرازى والسكاكى هى التى تدرس ، ولا تزال طريقتهم هى الطريقة ، وقد قرأت قول الكافيجى : « والسيد الشريف وقطب الدين الرازى لم يذوقا علم العربية » . وقرأت أن ابن خلدون كان ينكر على الطريقة المتأخرة التى أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم من التوغل فى المشاحة اللفظية والتسلسل فى الحدية والرسمية اللتين أثارهما العضد وأتباعه ، وأن العلم - كما يقول ابن خلدون - وراء ذلك كله .

ورجال وزارة التربية والتعليم نظروا فى البلاغه الغربية ، فنقلوها إلينا جملة ، فالطريقة من هناك والأمثلة من هنا ولقد تقرأ الكتاب الموسوم بالبلاغة والنقد ، المقرر على الفرقة الأخيرة من المرحلة الثانوية فلا نجد فيه أثراً لقاعدة من القواعد . ولقد جاءنى كثير من التلاميذ ، وهم أشبه بالضالين فى بيداء لا يعرفون منها مخرجا .

نعم تعلم اللغة يكون أجدى لو كان بالممارسة فيخلى التلميذ ونفسه ليقرأ ويتحدث ويجد ويلحظ فيتذوق ويكتسب . ولكن كم من الوقت والجهد يحتاجه التلميذ ليصل بهذه الوسيلة إلى غايته . لو أن فى الوقت متسعاً ولو أن التلميذ لا يدرس إلا هذه المادة لقلنا : إن هذه أجدى طريقة ، ولكن إذا كانت العلوم الأخرى تملأ كل وقته ، وإذا كانت المدة التى يقضيها فى دراسة البلاغة مدة وجيزة فكيف نتوهم أنه يتمكن من اكتساب الذوق وتكوين الملكة .

إننى لا أدعو إلى حشو ذهن الطالب بالقواعد والضوابط ولكنى معه ذلك لا أرى أن يخرج من المرحلة الثانوية وهو يجهل قواعد البلاغة وضوابطها .

وأبعد من ذلك فى الخيال ، وفى توهم أن تثمر دراسة البلاغة أن تترك الأمر للمدرس نعم يرى بعض الذين قضوا أعمارهم فى دراسة البلاغة أن تترك الأمر للمدرس ، وفى ذلك يقول أحدهم : « ولعلى فى هذا المقام أجهر ببقية رأيى وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس - وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية التى تتأثر بإقليمها أو بيئتها تأثراً شديداً - يترك كل مدرس ليضع بين يدى تلاميذه مراجع لمذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها عليهم ، وما أهون أن يهيئ لهم ذلك إذا ما يسرت له الجهات الإدارية سبله ببذل قليل مما تنفقه ثمنا لهذه الكتب » (١) .

وما أشك أن هذا كلام يقوله رجل لم يختلط بأوساط المدرسين ، وقد يظن أن كثيرين منهم نوابغ يستطيعون أن يضعوا

---

(١) فن القول ص ٢٣ .

انحدار الأذواق

للأستاذ شفيق جبرى

زرت مرة وأنا فى الولايات المتحدة الأمريكية جامعة « يوتا » فكلفنى أستاذ اللغة الانكليزية أن أتلو على طلابه شيئاً من شعر العرب حتى يسمعوا نغمه ففعلت ، ثم سألنى أن أشرح لهم بعض أوزان الشعر فأجبت ، ولما انقضت الساعة ودعت الأستاذ والطلاب وانصرفت ، فلحقتنى طالبة وأهدت إلى ديوان الشاعر : روبر فروست ، وقد وجدت فى خلال مطالعتى لبعض هذا الديوان عبارة لشارحه وهذه ترجمتها :

« والذى يجعل شاعراً يختلف عن شاعر أو قصيدة تختلف عن قصيدة إنما هو سبيل التعبير

إن مثل هذا الرأى كثير فى كتب أدبنا فلا أجد فيه شيئاً من الطرافة بالنسبة إلينا معاشر العرب ، ولكن الذى جعلنى أستشهد بهذه العبارة أنها وردت فى كتاب طبع فى « نيويورك » ، وقد رسخ فى أذهان طائفة من شباب هذا العصر ان الأمم المبنية حضارتها الحديثة على المادة قليلة الاهتمام بمذاهب البيان فإن الفكر وحده هو الغالب على كتابة كتابها .

وقد جر مثل هذا الاعتقاد إلى عواقب غير محمودة نشهدها فى أدبنا فى هذه الأيام ، وإنى لأقابل بين عناية شعرائنا وكتابنا بالبيان من نصف قرن أو أكثر وبين تهاوننا

(بقية) البلاغة العربية بين منهجين ص ٩٥٦

المنهج ويؤلفوا عليه المذكرات ، ويلقنوه بعد ذلك لتلاميذهم ... .

والخلاصة أن على الذين يتمسكون بمنهج المتكلمين أن يتخلوا قليلا عن تعصبهم لهذا المنهج ، وأن يلتفتوا إلى الكتب الأخرى التى ألفت على منهج آخر ، فيأخذوا منها ، ما يلطف هذا الجو الذى لا أجد وصفاً له إلا ما وصف به شعر أبى تمام ، فقد قالوا إن أبا تمام « استكره الألفاظ والمعانى . ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه »(١).

وعلى الذين يعيشون فى أجواء باريس أو لندن ، أن يدركوا أن لنا بلاغة عربية مهما قيل فيها ، فإنه لا غنى لعربى عنها ، وأن الضوابط ليست عديمة الجدوى ، بل ربما كانت ضرورية فى بعض الأحايين .

ويا حبذا لو تقاربت البلاغتان ، فكان منهما مزج طيب يبقى على تراثنا القديم ، ويسير بنا فى الطريق السوى ، ويعطى الدارس ذوقا وعلما ؟ .

على العمارى

[١] الموازنة ص ١٩ . ط محيى الدين .

بهذا البيان فى يومنا الذى نعيش فيه ، فأدهش كل الدهش من تفاوت الأمرين ولولا بقية صالحة من هذه الطبقة من الكتاب والشعراء الذين يقدسون لغتهم ويحرصون على بيان العرب لدخل اليأس على قلوبنا من انحدار الأذواق فى عصرنا ، لولا ما نشهده من سلاسة التعبير وإدماج الفكر القوى فى الصيغة القوية والحرص على بلاغة العرب والدفاع عن هذه البلاغة فى كتابات بعض الأئمة وفى مقدمتهم الدكتور طـه حسين والأستاذ العقاد والأستاذ الزيات ، لكدنا نقطع الأمل من حسن البيان :

هذه الطبقة من الأئمة وقليل من الكتاب غيرهم هم بقايا البلغاء الذين يقدرون لغتهم حق قدرها ، ويغارون عليها أشد غيرة ، ويدافعون عنها أقوى دفاع . ولست أدرى ما الذى حمل شبابنا فى هذا العصر على الاستخفاف بمذاهب البيان ، فإذا قالوا إن العالم قد « تطور » فلم يبق للصيغة المقام الذى كان لها من نصف قرن وإنما القارىء همه الوقوف على الفكرة والوصول إلى هذه الفكرة من أى وجه كان ، إذا قالوا هذا القول ، قلنا : لماذا تطور العالم فى نظرنا ولم يتطور فى نظر الأمريكان وغيرهم من الأمم الحريصة على المادة وأشكالها ، لماذا نجد فى آفاقهم من يرى أن سبيل التعبير وحده هو الذى يجعل الشاعر يختلف عن الشاعر ، والقصيدة تختلف عن القصيدة ، أفلسنا أحق من كل أمة بمثل هذه العناية باللغة والبيان .

كان كتابنا وشعراؤنا من نصف قرن يجودون كتاباتهم وشعرهم التجويد كله ، وكذلك كان أولئك الكتاب والشعراء فى خلال نهضتنا الحديثة ، وقد كان ميل الأدباء إلى التمتع بمحاسن شعرهم وكتاباتهم لا يعدله ميل . وأذكر أن المنفلوطى كان إذا نشر نظرة من نظراته فى الصحف شغل الناس وكذلك كان الأدباء إذا اطلعوا على قصيدة للبارودى أو لإسماعيل صبرى أو لشوقى أو لحافظ أو لمطران ، كان شعر هذه الطبقة فى مصر وفى بلاد العرب بمنزلة الكنز الذى لا يفنى على الإنفاق ، فلماذا تغيرت الأرض غير الأرض والسموات ، لماذا نجد الصحف الكبيرة فى هذه الأيام تهتم بسفاسف الأمور أشدَّ من اهتمامها بمقال إمام من أئمة الأدب أو بقصيدة شاعر من كبار الشعراء ، لماذا انحدرت الأذواق فقد يكتب أحدنا مقالا أو ينشر قصيدة فلا نجد من يبالى بخطأ يستفيض فى هذا المقال أو بغلط يشيع فى هذه القصيدة وقد كان أئمة النقد قبل نصف قرن يقفون بالمرصاد لكل خطأ يقع ، وينبهون على كل غلط يحدث ، فكانوا يقومون اعوجاج الألسن على صفحات الجرائد حتى كان الكاتب أو الشاعر يشوق إلى التحفظ ويخاف الزلل ، فأين هذه الطبقة من البلغاء الذين نشئوا فى مصر وغيرها قبل أيامنا ؟ .

أين الإمام الشيخ محمد عبده والسيد رشيد

رضا ؟ أين المويلحى والمنفلوطى ؟ أين الشدياق واليازجى وأرسلان ؟ أين البازودى وشوقى ؟

حقاً إن العالم قد تغير ، ولكن تغير العالم لا يستلزم انحطاط الذوق وفساد البيان ، فقد يجوز أن تغير العالم يستوجب تغير صيغة الكتابة ، ولكن تغير هذه الصيغة لا يراد به النزول إلى ما يقرب من العامية ، فقد جاءت عصور كثيرة من عصورنا الأدبية ، وتغير فيها العالم ولكنه نشأ عن هذا التغير شىء من العلو فى الذوق والبيان ، ولم ينشأ عنه شىء من الانحدار ، فإن أبا تمام فى الماضى قد جدد الشعر ولكن تجديده لم يهبط بهذا الشعر إلى الدرك الأسفل ، وإنما رفعه إلى أعلى مراتب البلاغة ، والجاحظ قد عدل الكتابة ولكنه لم يمسخ البيان ولم يشوه الذوق ، وإنما رفع الكتابة بتعديله إلى الهضبة التى لا تعلوها هضبة . !

لماذا هذا الانحدار فى التعبير ؟ وما فائدة هذه القصص التى تستفيض فى العامة إذا لم تقوم أذواق العامة فهل خلقت القصص لتنحدر إلى مستوى العامة ؟ أم إنها خلقت لترفع مستوى العامة إلى مستوى لائق ؟ أفلا نجد فى لغتنا سهولة فى بلاغة ، وبلاغة فى سهولة ؟ ومتى كانت البلاغة الإتيان بكلام يدق على الأفهام .

إن فى لغتنا ما هو صالح بكل طبقة من الطبقات ، ولكن بعض الكتاب والشعراء فى هذه الأيام ، قد ضاقت أخلاقهم وضاقت أوقاتهم ، فهم يريدون السرعة فى كل شىء ، إنهم يريدون أن يعيشوا على الساحل ، لأنهم يخافون الإمعان فى العباب وما علموا أن الكاتب أو الشاعر لا ينضج بيانه إلا بعد أن يملأ ذهنه سنين طويلة من كتب البلغاء .وليس هذا الأمر أمرنا وحدنا ولكنه أمر الأمم الحديثة فى نشأتها وتاريخها فإنها ترى أن سبيل التعبير إنما هو رأس البلاغة . . . !.

فى جمهوريتنا مجلس أعلى للفنون والآداب ينشط القرائح ويشجع الخواطر ، فلم يبخل على شاعر يجود ولا على كاتب يبرز ، ولا على قاص يحلق ، ولكنى أرجو أن يعاقب هذا المجلس المتهاونين بلغتهم وبيانهم كما يكافئ المعتنين بهذه اللغة .وبهذا البيان. فالذى أشهده ويشهده غيرى أن الطبقة الرفيعة من الكتاب والشعراء الذين كانوا زينة مصر وبعض بلاد العرب ، قد ذهبت فلم تأت بعدها طبقة مثلها ، ولا مشى على آثارها أحد ولولا أمل قوى فى بعض شعراء وكتاب ، يحافظون على عبقرية اللغة وروح البيان ، لما علم إلا الله وحده كيف تكون هذه اللغة وهذا البيان فى الآتى .

شفيق جبرى

الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي

للأستاذ منصور رجب

الاتجاهات الحديثة فى الفكر الإسلامى : موضوع يشغل الآن بال كثير من المفكرين ... يكتب فيه كل من ناحية . . كتب فيه أستاذ « أكسفورد » الأستاذ « جب » فاتهم الفكر العربى بأن من خواصه الفطرية : « الذرية » أى عدم القدرة على « التعميم » أو نزوعه إلى تناول مشكلات الحياة ذرة ذرة . . وعزا الحركة الإسلامية الحديثة إلى تأثير الثقافة الأوربية .. وإنى حين أتناول هذا الموضوع فى مجلة « الأزهر » أقدم جامعة تبنت الفكر الإسلامى ـ إذا استثنينا جامع الزيتونة »[1] ـ أقدم بكلمة يقتضيها المقام لهذا الموضوع مشيراً إلى الآيات .. أو بعض الآيات .. التى ذكرها القرآن الكريم . . كتابنا العزيز . . مادة للتفكير .. وسلما يصعد فيه المفكر إلى حيث يحلق فى سماء الفكر الإنسانى . . وإن هذه الدعوة . . القرآنية . . القوية . . الحية . . هى التى جعلت للفكر العربى .. أو الإسلامى قدرة على « التعميم » وإن الفكر الإسلامى هو الذى أثر فى الفكر الأوربى فى ميدان .. العلم والأخلاق . . خلال القرون الوسطى وعصر النهضة .

وإذا كان الفكر الإسلامى قد توقف ـ إلى حد ما ـ عن الجهد العقلى . . بسبب اضطهاد العالم الإسلامى . . هذا الاضطهاد الطويل العريض الذى انتهى بقيام المزعومة « إسرائيل » فلن يلدغ المؤمن من جحر مرتين .. فلقد طلع الفجر . . وبدد ضباب « الغفلة » وإن أشعته لتضىء لنا الطريق.. طريق العزة .. والقوة . والكرامة .. وإن أنواره لتجذبنا إلى مبادئ الإسلام القوية التى تنادى بأن ليس لأحد أن يفخر إلا بما عمل.. : « لا فضل

---

(١) تم بناؤه عام ١٤١ هـ . . وتخرج فيه ابن خلدون . وأبو الحسن الشاذلى أما الأزهر فقد تم بناؤه عام ٣٦١ هـ وفتح للصلاة فى نفس الشهر الذى كمل فيه البناء . وأول تاريخ علمى له فى صفر من سنة ٣٦٥

لعربى على عجمى . . ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

أقول :

الفكر ــ بالكسر ويفتح ــ : إعمال النظر فى الشئ : كالفكرة والفكرى : بكسرهما .

ويعرفه المناطقة بأنه : ترتيب أمور معلومة للتأدى إلى مجهول .

ويقول بعض الأدباء : الفكر مقلوب عن « الفرك » لكن : يستعمل الفكر فى المعانى : وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للحقيقة (١) .

والفكر ــ ككل معنى من المعانى ــ شئ مجرد لا وجود له إلا بآثاره : فى الدين : فى العلم : فى الأخلاق : فى السياسة : فى الاقتصاد : فى الاجتماع ، فى كل ناحية من مناحى الحياة .

والتفكر : جولان الفكرة بحسب نظر العقل : وذلك للإنسان دون الحيوان : فالإنسان تشاركه جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس : والحركة : والغذاء : والكن : وغير ذلك : ويتميز الإنسان عنها بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه : والتعاون عليه بأبناء جنسه : والاجتماع المهيئ لذلك التعاون : وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تبارك وتعالى والعمل به : فهو مفكر فى ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين : بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر .

وعن الفكر تنشأ العلوم ، والفنون ، والآداب ، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يكون له صورة فى القلب : ولهذا روى : « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » لأن الله تبارك وتعالى منزه عن أن يوصف بصورة .

والقرآن الكريم يطلب منا أن نفرك الأمور وأن نبحثها طلباً للوصول إلى الحقيقة فى كل مناحى الحياة .

يقول ــ فى سورة البقرة ــ : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة »(١) .

ويقول ــ فى سورة النحل ــ : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون »(٢) .

ويقول ــ فى السورة نفسها ــ : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون : ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من

(١) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى ص ٣٩٢ .

(١) آية ٢١٩ .

(٢) آية ٤٤ .

بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »[١] .

ويقول — فى هذه السورة أيضا — : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون : ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »[٢] .

ويقول - فى سورة سبأ - : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا »[٣] .

ويقول - فى سورة الزمر - : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٤] .

ويقول - فى سورة الجاثية - : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٥] .

إلى آخر ما ورد فى هذه المادة أو ما يؤدى معناها كقوله تبارك وتعالى - فى سورة الذاريات - : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »[٦] .

وكقوله - فى سورة الحديد - : « اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون »[١] .

وكقوله تعالى - فى سورة الزمر - : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب »[٢] .

وكقوله - فى هذه السورة نفسها - : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون »[٣] .

هذه الدعوة القرآنية . . القوية . . الحية إلى إعمال النظر فى كل شىء : فى الدنيا . . فى الآخرة . . فى الحيوان . . فى الطير . . فى الشجر . . فى النبات . . فى الماء . . فى الموت . . فى الحياة . . فى السماء . . فى الأرض . . فى النفس . . فى العلم . . فى الجهل . . فى كل شىء يدرك بالحس وبالعقل . . هذه الدعوة القرآنية القوية الحية . . إنما هى دعوة إلى « التعميم الذى لولاه ما كانت العلوم الإسلامية ولما استطاع الفكر أن يدرك الأنواع باعتبارها متميزة عن الأشياء الجزئية . ولا أن يدرك الأشياء مجردة عن صفاتها . . فالقرآن الكريم يوجه الفكر إلى التعميم . . واتجه اليه الفكر الإسلامى بالفعل حتى أصبح التعميم من خواصه .

قدرة الفكر على التعميم هى التى أوجدت

---

(١) آية ٦٨ ، ٦٩ . (٢) آية ١١ .
(٣) آية ٤٦ . (٤) آية ٤٢ .
(٥) آية ١٣ . (٦) آية ٢٠ .

---

(١) آية ١٧ . (٢) آية ٩ .
(٣) آية ٢٧ .

لنا هذه الثروة الضخمة فى العلوم والفنون والآداب .

أنار القرآن الكريم طريق الفكر ودعا إليه : أناره لتمشى فيه مدركا بحواسك وعقلك سابحا بخيالك فى روعته وجماله . . ودعا إليه مبيناً فقهه . . والفهم له . والتوجيه إليه .

فى هندسة النحل آية للفكر . . فى إنزال الماء من السماء آية للفكر . . فى إنبات الزرع من التراب آية للفكر . . فى النوم والموت آية للفكر . . فى اختلاف الليل والنهار آية للفكر . . فى العلم والجهل آية للفكر . . فى تسخير كل ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً للإنسان آية للفكر . . فى كل ناحية من مناحى الحياة يدور الفكر . . وفى كل ناحية له آية لقوم يتفكرون .

والقرآن الكريم حين يدعو إلى التفكر يدعو الناس جميعاً : فالآيات التى ذكرها للتفكر فيها موجهة للكل . لتبين للناس ما نزل إليهم . . فيه شفاء للناس . . ينبت لكم به الزرع . . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض . . قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . إلخ .

والذين يعلمون ما نزل إليهم فقهت نفوسهم . . وأشد ما كانوا فقها فى فجر الإسلام . . ذلك أن حياة سيد المفكرين . . محمد صلى الله عليه وسلم كانت تفسيراً بليغاً للقرآن الكريم . سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلوات الله عليه فقالت : « كان خلقه القرآن » وجاء الصحابة من بعده رضوان الله عليهم . . فاقتدوا به صلوات الله عليه .

أحاط القرآن الكريم سياج الفكر بحائط من حديد ... تلك هى حرية الرأى ... حتى قال يخاطب سيد المفكرين . . محمداً صلى الله عليه وسلم : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[1] . وقال : « لا إكراه فى الدين »[2] وقال : « وما أنت عليهم بجبار »[3] . وقال : « إن عليك إلا البلاغ »[4] ، وقال : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »[5] . وعلى هذه الآية الأخيرة أرسيت قاعدة الفكر ، وهى « الشك أصل اليقين » من قبل أن يطنطن بها « ديكارت » وغير ديكارت ... ممن يأخذون منا ... ويبيعون علينا .

هناك شك مريب ... وشك هو لعب . . وشك الغرض منه ترجيح أحد الطرفين على الآخر ـ وهذا هو الذى عناه القرآن الكريم وسماه النبى صلى الله عليه وسلم : « صريح الإيمان » ، فقد وفد عليه من الصحابة من يقول :

---

(١) الكهف آية ٢٨ . (٢) البقرة آية ٢٥٦ .
(٣) ق آية ٤٥ . (٤) الشورى آية ٤٨ .
(٥) سبأ آية ٢٤ .

يا رسول الله ... إنا لنجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يقوله .. فقال صلوات الله عليه : أو قد وجدتموه ؟ ... قالوا : نعم . . قال : ذلك صريح الإيمان » رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة .

وفى رواية أخرى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن « الوسوسة » فقالوا : إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة ـ الحمم الفحم ... أى يصير فحما من شدة الاحتراق ـ أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به ... قال : (ذلك محض الإيمان) أخرجه مسلم .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أحرار الرأى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل به وحى فإذا نزل كفوا .. فها هو ذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يراجع رسول الله صلوات الله عليه فى صلح الحديبية ... وكان هذا الصلح قد تم على أن من أتى المسلمين من الكفار رد إليهم ـ فيما عدا النساء فقد نزل القرآن الكريم مبينا ذلك ـ ومن أتى الكفار من المسلمين لم يرد ... حتى إن « جندل ابن سهل بن عمر » جاء يرسف فى قيوده فاراً من مشركى قريش فرده النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبيه سهل وفاء بما شرطوه فى عقد الصلح .

قال عمر : يا رسول الله . . ألسنا على حق وهم على باطل ؟ ... قال : بلى .. قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ ... قال : بلى قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ . قال : يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولم يضيعنى الله أبداً . فانطلق عمر ولم يصبر متغيظا فأتى أبا بكر فقال له مثل ذلك ... فقال أبو بكر : إنه رسول الله ولم يضيعه الله أبدا ... ومضت فترة خالط المسلمين فيها الكآبة والحزن لشدة الإشكال عليهم والتباس الأمر . . فنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح « سورة الفتح » فأرسل إلى عمر ... فأقرأه إياها : فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم « فطابت نفسه ورجع [1] » .

وهذا مثل آخر : فى غزوة الأحزاب . . لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة الأمر بعث إلى اثنين من قواد المشركين هما : عيينة بن حصن الفزارى ، والحارث بن عوف المرى . . فى أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بحق معهما عنه . فجاءا مستخفيين من أبى سفيان .. فوافقاه على ذلك بعد أن طلبا النصف . . فأبى عليهما إلا الثلث فرضيا وكتبا بذلك صحيفة .

---

(١) الموافقات للشاطبى ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ .

وفى رواية أحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان رضى الله عنه الصلح فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقع الصلح على ذلك بعث إلى : « سعد ابن معاذ » و « سعد بن عبادة » رضى الله عنهما فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه . فقالا : يا رسول الله : أمراً تحبه فتصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بدلنا من العمل به ؟ إن كان أمراً من السماء فامض له ، وإن كان إنما هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أمرنى الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة : وكالبوكم من كل جانب : فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما . فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله : والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا و بينهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك ، فأخذ سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شق الكتاب ، فشقه سعد : وقال لعيينة والحارث ارجعا بيننا و بينكم السيف(١) .

والفكر الإسلامى يدور على أصول كلية هى :

الدين : والنفس : والعقل : والنسل : والمال :

(١) ص ٢١١ ، ج ٢١٢ — السيرة الحلبية .

أما الدين : فما هو ؟ ولمصلحة من أمرنا بحدوده وقيوده ؟ ...

كلمة « دين » وردت فى القرآن الكريم فى أكثر من ثمانين موضعا : وفى حوالى أربعين سورة - إن لم تخن الذاكرة — : وردت فى سورة « الفاتحة » آية ٤ : وفى سورة « البقرة » آية ٣٢ ، ١٩٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٦ : وفى سورة « آل عمران » آية ١٩ ، ٢٤ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٥ . وفى سورة « النساء » آية ٤٥ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، : وفى سورة « المائدة » آية ٣ ، ٥٣ ، وفى سورة « الأنعام » آية ٧٠ ، ١٦١ : وفى سورة « الأعراف » آية ٢٩ ، ٥١ ، : وفى سورة « الأنفال » آية ٣٩ ، ٤٩ ، ٧٢ : وفى سورة « التوبة » آية ١١ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٣ : وفى سورة « يونس » آية ١٠٤ ، ١٠٥ : وفى سورة « يوسف » آية ٤٠ ، ٧٦ ، وفى سورة « الحجر » آية ٣٥ ، وفى سورة « النحل » آية ٥٢ ، وفى سورة « الحج » آية ٧٨ . وفى سورة « النور » آية ٢ ، ٢٥ ، وفى سورة « الشعراء » آية ٨٢ ، وفى سورة « العنكبوت » آية ٦٥ ، وفى سورة « الروم » آية ٣٠ ، ٤٣ وفى سورة « لقمان » آية ٣٢ ، وفى سورة « الأحزاب » آية ٥ ، وفى سورة « الصافات » آية ٢٠ ، ٥٣ ، وفى سورة « ص » آية ٧٨ ، وفى سورة « الزمر » آية ٣ ، ١٤ ، وفى سورة

« المؤمن » آية ٢٦ ، وفى سورة « الشورى » ١٣ ، وفى سورة « الحجرات » آية ١٦ ، وفى سورة « الذاريات » آية ٦ ، ١٢ ، وفى سورة « الواقعة » آية ٥٦ ، ٨٦ ، وفى سورة « الممتحنة » آية ٨ ، وفى سورة « المعارج » آية ٢٦ ، وفى سورة « المدثر » آية ٤٦ ، وفى سورة « الانفطار » آية ٩ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، وفى سورة « المطففين » آية ١١ ، وفى سورة « التين » آية ٧ ، وفى سورة « البينة » آية ٥ ، وفى سورة « الماعون » آية ١ ، وفى سورة « الكافرون » آية ٦ وفى سورة « النصر » آية ٢ .

وإذا رجعنا إلى مدلول كلمة « دين » فى لغة العرب ولسان القرآن الكريم نراها تعنى : الطاعة ، والذلة ، يقول الشاعر :

ويوم الحزن إذ حشدت معد
وكان الناس إلا نحن دينا

يعنى بذلك مطيعين على وجه الذل ، ومنه قول « القطامى » :

« كانت ، نوار ، تدينك الأديانا » .

يعنى تذلك ـ فى رواية أخرى كانت « جنوب » ، وكلا اللفظين اسم امرأة فلعل فى البيت روايتين ـ ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس :

هودان الرباب إذ كرهوا الدين، دراكا بغزوة وصيال

يعنى بقوله : « دان » ذلل . وبقوله : كرهوا الدين « الطاعة » .

ويقول الله تبارك وتعالى ـ سورة آل عمران آية ١٩ ـ : « إن الدين عند الله الإسلام » يعنى الانقياد بالخضوع . والتذلل بالخشوع . فالفعل من الإسلام . . أسلم أى دخل فى السلم . . كما يقال : أقحط القوم إذا دخلوا فى القحط . وأربعوا إذا دخلوا فى الربيع . فكذلك أسلموا إذا دخلوا فى السلم . . وهو الانقياد بالخضوع وترك المخالفة .

وإذا كان ذلك كذلك . . فتأويل (الآية) إن الطاعة التى هى الطاعة عنده : الطاعة له . وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذلة. وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى . . وتذللها له بذلك من غير استكبار عليه ولا انحراف عنه دون إشراك غيره من خلقه معه فى العبودية والألوهية (١) .

وتطلق كلمة (دين) العربية أيضا فى لسان القرآن على الجزاء والحساب . . ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى : « مالك يوم الدين » روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير هذه الآية : يوم الدين . . يوم حساب الخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر . .

(١) تفسير الطبرى ج ٣ ص ١٤١ طبعة المطبعة الأميرية .

إلا من عفا عنه فالأمر أمره . . ثم قال : ألا له الخلق والأمر .

ومن ذلك أيضا قول الله تبارك وتعالى ـ فى سورة « الانفطار » آية ٩ ـ : « كلا بل تكذبون بالدين » . (يعنى بالجزاء) . ويؤيد هذا قوله فى الآيات بعدها : « وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين . وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » .

أما المعنى الشرعى لكلمة دين . . فالدين لا يكون إلا وحيا من الله سبحانه وتعالى إلى أنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله . . يقول الله تعالى ـ فى سورة « الرعد » آية ٣٠ ـ : « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك » ، ويقول ـ فى سورة النحل آية ٤٣ : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

والدين ـ فى أصله ـ واحد لا فرق بين دين ودين ، لا فرق بين (يهودية) و(مسيحية) و (إسلام) ولذلك يقول الله تبارك وتعالى فى سورة « الشورى » آية ١٣ ـ : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . فالدين الذى أوصى الله سبحانه وتعالى به محمدا هو الذى أوصى به موسى وهو الذى أوصى به عيسى عليهما السلام . . وإنما الخلاف فى الشرائع . . ولذلك يقول القرآن الكريم ـ سورة « المائدة » آية ٤٨ ـ : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .

والآية ٦٢ من سورة « البقرة » : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » هذه الآية صريحة فى أن أصول دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله هذه الثلاثة : الإيمان بالله . . والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء . . والعمل الصالح .

وبهذه المناسبة أقول : إن الذين لا يعتبرون « الدين » مقوما من مقومات القومية العربية بحجة أن بيننا من المسيحيين . حتى اليهود . منهم ما يمنع جعل الدين من مقومات القومية العربية . أقول : إن هؤلاء مخطئون . فالمسألة محلولة . ونحن الذين نعقدها . محلولة على معنى أن الأديان السماوية فى الأصل واحدة لا فرق بينها وإنما الفرق إنما هو فى الشريعة . فإذا قلنا : إن الدين مقوم لم يمنع

هذا أو لم يخرج ما عدا المسلمين . . على أن الأديان كلها تدعو إلى البر والخير . والإيمان بالله وباليوم الآخر ... وهل القومية العربية تخرج عن هذه الدعوة ؟ ...

والدين الإسلامى يأبى التحكم فى عقائد الناس . ويأمر بتركهم وما يدينون .

أما فى العقيدة : فيقول القرآن الكريم فى سورة البقرة آية ٢٥٦ : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له : « الحصين » كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلا مسلما فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ؟ . فأنزل الله هذه الآية .

وأما فى الشريعة فإنه يأمر بتركهم يحتكمون فى أقضيتهم لقاضى دينهم ليحكم بينهم بحكم دينهم يقول القرآن الكريم — فى شأن الذميين ... : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ... »[١] .

ويقول : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التواة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »[٢] .

هذه السياسة التى رسمها القرآن الكريم : والتى سار عليها العرب فى حكم البلاد التى خضعت لسلطانهم : هذه السياسة الحكيمة كانت المصدر الفقهى لإحدى القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص: وهى قاعدة: « شخصية قوانين الأحوال الشخصية » التى تقررت فى بلاد الغرب لأول مرة فى مجمع « أكسفورد » سنة ١٨٨٢ : وفى مؤتمر « لاهاى » سنة ١٩٠٤ : وأخيراً فى اتفاقية « مونترو » سنة ١٩٣١[٣] .

وإذا كان الإسلام يأبى التحكم فى عقائد الناس : ويأمر بتركهم وما يدينون : فإن المرتدين لهم حكم آخر : ذلك لأنهم قوم متلاعبون لا إرادة لهم : ولذلك يقول القرآن الكريم فى شأنهم : «ومن يرتدد منكم عن دينه

---

(١) المائدة : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) المائدة : ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) بحث للأستاذ صليب سامى نشر فى جريدة الأهرام ٥ / ٦ / ١٩٤٥ .

فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[1] » .

ولقد قاتلهم الخليفة الأول أبو بكر رضى الله عنه وأمر ذلك مشهور معلوم مستفيض .

والإسلام دين الفطرة . يقول القرآن الكريم - سورة « الروم » آية ٣٠ - : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » - الحنف بالحاء : هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة وعكسه الجنف بالجيم : وهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال ويجمع الحنف على حنفاء . يقول الله تعالى : « واجتنبوا قول الزور حنفاء » - والإسلام دين مقوم لكل أمور المعاش والمعاد . يقول الله تعالى فى سورة « الأنعام » آية ١٦١ : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا » ، قيما : أى ثابتا مقوما - فالإسلام إذاً : دين ودنيا .

والأمة التى تقوم فى معاشها ومعادها بالقسط هى الأمة « القيمة » سماها القرآن الكريم بهذا فقال - فى سورة « البينة » آية ٥ - : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

وأساس دين الإسلام وقواعده التى عليها يبنى وبها يقوم بينها رسول الله عليه وسلم فى قوله : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان . رواه البخارى ومسلم .

وعلى جملة من القول يدعو الدين إلى التسامح والإيثار واحترام شخص الإنسان . . .

منصور رجب
الأستاذ بكلية أصول الدين

(١) البقرة آية ٢١٧ .

صاحب النفس العزيزة

قال : محمد بن على من : كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

الكواكبى والقومية العربية

للأستاذ محمد سعيد العريان

فى منتصف القرن الماضى نشأ الكواكبى ، وفى مستهل هذا القرن مات ...

نشأ فى سورية ، ومات فى مصر .

تنفس أول أنسام الحياة فى حلب ، ولفظ آخر أنفاسه فى القاهرة ..

وفيما بين حلب والقاهرة ، وفيما وراءهما من بلاد الأمة العربية ، ومن بلاد المسلمين ، كان له خطوات ، ونظرات ، وانفعالات ، ثم كان له من ذلك كله دعوة إلى الإصلاح جريئة وصريحة ...

نصف قرن عاش فى هذا العالم ، هو نصف القرن الذى يصنع للبشرية فى كل العالم اليوم تاريخها المعاصر ؛ لأنه نصف القرن الذى تماوجت فيه الأحداث والآراء ، فكان من تماوجها وقتذاك هذه المذاهب السياسية والاجتماعية التى تحكم عالمنا المعاصر : الفوضوية ، والاشتراكية ، والديمقراطية التى نراها اليوم فى شتى صورها . هى صور الحكم التى تمخض عنها اصطراع الآراء ، وانفعالات النفوس ، وأزمات القلب والعقل فى النصف الثانى من القرن الماضى . . . نصف القرن الذى عاشه الكواكبى على أرض البشر .

من تلك الصور التى كانت تتراءى للناس فى مرآة الحوادث ، خلال ذلك النصف الثانى من القرن الماضى ، كانت تتراءى لأعين الناس صورتان متشابهتان أعظم التشابه ، إحداهما : فى بلاط السلطان عبد الحميد ، والأخرى فى بلاط القيصر ...

أما فى بلاط السلطان عبد الحميد فكان الخليفة الذى يزعم أنه باسم الله يحكم ويستبد ويسيطر ، وباسمه يخنق ويغرق ويحرق ، وباسمه يسفك ويفتك ويهتك ، ومن حوله أبو لهدى الصيادى وأمثاله ، يزعمون للخليفة ، ولأنفسهم ، وللناس ، أن هذا اللون الفاسد من الحكم هو شرع الله ، وهو الدين ، وباسم الله ، وباسم الدين ، يجب أن يذل الناس ، وأن تطأطأ الرءوس ، وأن يعيش البشر كالرقيق ، أو كقطعان الماشية ، ليس لها حرية ولا رأى ولا إرادة ؛ لأن الحرية والرأى والإرادة هى حق الخليفة الجالس على عرش الله وحده . وليس لها عزة ولا كرامة ولا نعمة ؛ لأن العزة والكرامة والنعمة حق أبى الهدى الصيادى دون سائر المحكومين من رعية الخليفة .

هذه الصورة فى بلاط السلطان عبد الحميد

لعهد الكواكبي كانت تقابلها صورة أخرى مشابهة فى بلاط قيصر روسيا .

كان ثمة القيصر ، وكان فى بطانته راسبوتين ، وكان الخنق والإغراق والإحراق ، وكان السفك والفتك والهتك ، وكانت الشهوات والمباذل ، وكان الملايين من المحكومين كالرقيق أو كقطعان الماشية . بلا حرية ولا رأى ولا إرادة ، وبلا عزة ولا كرامة ولا نعمة ، وكان ذلك كله بفتوى راسبوتين هو الدين ، وهو شرع الله . وكان القيصر هناك ، مثل السلطان هنا ، هو ظل الله على الأرض ...

من هاتين الصورتين المتقابلتين فى استنبول وبطرسبورج ، كان تماوج آراء ، وكان اصطراع مذاهب ، وكانت أزمة العقيدة التى زلزلت إيمان الملايين بالله ، وبالديانات ، وأنشأت الخصومة بين الدين والحرية ...

فى إبان هذه الأزمة التى أوشكت أن تعصف بطمأنينة البشر وسلام العالم ، كان الفيلسوف العربى عبد الرحمن الكواكبى فى بلادنا ، وكان متفلسفة آخرون فى روسيا وفيما يجاورها من البلاد ...

أما عبد الرحمن الكواكبى فقال : لماذا الخصومة بين الدين والحرية ؟ إن الدين لا يخاصم الحرية ، إنه سلام العالم ، وطمأنينة البشر ، وضمير الكون ، وسلوك الإنسانية الراشدة ، وما تلك الصور التى يزيفها أمثال راسبوتين فى بلاط القيصر ، وأبى الهدى الصيادى فى بلاط السلطان - ما تلك الصورة من الدين إلا زيف وضلال وفضول وبدعة وباطل ... اعرفوا الدين الحق تعرفوا الحرية ، وتعرفوا الإرادة ، وتعرفوا العزة والكرامة ... فأصلحوا دينكم تصلح لكم الحياة ، وتعز وتكرم . .

وأما متفلسفة روسيا فلم يستطيعوا أن ينظروا إلى ما وراء الصورة الظاهرة ، فقالوا إنه أفيون الشعوب ، يخدر العقول ، ويسلب الإرادة ، ويناهض الحرية ...

فلسفتان متقابلتان هنا وهنالك ، أما إحداهما ففلسفة أصيلة عميقة تبحث عن الأسباب والعلل وتطب لأصل الداء ، وأما الأخرى فدعوة تدمير وهدم ورجعية ، تريد أن تنتكس البشرية وتعود أدراجها إلى حيث بدأت ، لا يوجه سلوكها ضمير ، ولا يربط بين آحادها إيمان ولا تهتدى بغير الغريزة . . .

فى أزمة العقيدة التى استحكمت خلال تلك السنين التى اصطدمت فيها العقيدة بالرغبة فى الحرية ، كانت دعوة الكواكبى إلى إصلاح الدين وتجريده ، وإلى وحدة الأمة العربية لتنهض برسالتها لدعم الحضارة وتقدم الإنسانية ، وكانت دعوة لينين ، مقترف الشيوعية الأول ، إلى تدمير الدين ومحوه ،

فى ضوء فلسفة الكواكبى كان الميلاد الجديد لفكرة القومية العربية كما يؤمن بها اليوم كل عربى بين الشاطئين .

وفى ضوء فلسفة لينين ، كان أول الشر الذى يتربص بالبشرية كلها الدمار فى هذه الأيام ، بما يتهددها من خطر الشيوعية الحمراء .

إننا إذ نحتفل اليوم بذكرى الكواكبى فى ضوء الانتصارات الباهرة التى حققتها القومية العربية خلال نصف القرن الذى مضى منذ وفاة صاحب هذه الدعوة ، ليقتضينا واجب الوفاء لصاحب الذكرى ، وواجب الوفاء لأنفسنا وقومنا ، وواجب الوفاء للقومية العربية ذاتها – أن نذكر بإعجاب وفخر أن هذه الانتصارات التى تضىء مشاعلها وترفرف راياتها على رءوسنا ، إنما حققها إيماننا بالله . .

إن إيماننا بالله هو أول أسباب نصرنا ... فمن هذا الإيمان بالله ، كان اقتحامنا على المصاعب ، وكان اصطبارنا على كل ما نزل بنا من البلاء ، وكانت قوتنا فى مواجهة الأحداث ، وكانت استهانتنا بكل مايدبر لنا من أسباب الكيد .

فى بور سعيد ، حين أحاطت بنا أسباب الدمار والتهلكة من البر والبحر والجو . كانت « الله أكبر » هى درعنا الواقية ، وهى قوتنا المدافعة ، وهى ثباتنا الراسخ ، وهى يقيننا الذى لايتزعزع ، وبهذا اليقين ، وهذا الثبات ، وهذه القوة ، كان النصر الذى تحقق لنا فى بور سعيد ...

وفى كل معركة قبل بور سعيد ، وفى كل معركة تلت أو تلى بور سعيد فى جمهوريتنا ، أو فيما وراء جمهوريتنا ، فى أرض فلسطين أو فى الجزائر أو فى عمان والبحرين وعدن – إيماننا بالله هو عدتنا ، وهو قوتنا ، وهو درعنا الواقية وسيفنا القاطع . . .

إن إيماننا بالله هو بعض قوميتنا ، لأن تراثنا الروحى هو بعض مشخصات وجودنا ...

نحن الأمة العربية ، فى هذا الوطن العربى ، وأول نسبنا أننا من أسرة محمد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأول خصائصنا أن بلادنا أرض النبوات ، على ثراها كان ابراهيم أبو الأنبياء ، ومن أفقها شعت أنوار الرسالات القدسية على موسى وعيسى ومحمد . . . .

ما نحن إن لم نعرف لأنفسنا هذا النسب !

ما نحن إذا انقطعت بيننا الأواصر التى تربطنا قلباً إلى قلب ، بسلوك وضمير وإيمان بالله الواحد ؟ .

والدين ، كل دين ، هو الارتفاع بنفس كل ذى دين فوق كل ذى قوة ، فلا سلطان عليه إلا سلطان الضمير المؤمن الذى لا يعنو إلا لله ، لله وحده ، لأن الله أكبر ... ولأن الله أكبر ، كانت الحرية .

إن بعض الذين ينتحلون الفلسفة من قومنا ، يزعمون أن الدين شىء ليس من القومية ، يقولونها ملقنين ، أو يقولونها مخدوعين ، وإنما هى دعوة ضلال وخيانة وفتنة . . .

لست أظلمهم فأزعم أنهم جميعاً يريدون لأمتهم ضلالا وخيانة ، ولكنهم أرادوا أن يوصفوا بعلم ، فترجموا كلاما يقوله بعض عدونا ويزعم أنه العلم فزعموا مثل الذين ترجموا عنهم أن القومية شىء غير الدين ...

أى قومية يعنون؟ .

ربما كان قصدهم أن يتحدثوا عن قوميات أخرى غير قوميتنا ، ولم يعرفوا فرق ما بين قوميتنا وقوميات أخرى ، فلم يحكموا بعقل وإنما تبيغوا . . . !.

إن الأمة العربية أمة ذات رسالة ، رسالة يؤمن بها مسيحيها ومسلمها على سواء ، وليس لأمة من الأمم التى عرفوا أو وصفت لهم ، رسالة مثل رسالتنا ... !.

رسالتنا ذات الطابع الروحى التى جعلت بلادنا منذ الأزل مهبط الأديان ومن آفاقها كان مشرق الحضارة على أيدى رسل المسيح وأتباع محمد . . !.

روحيتنا بعض قوميتنا العربية ، لأنها بعض تراثنا الروحى ، ولأنها طابعنا الأصيل الباقى على الزمن ، وليس لقومية من القوميات التى يحتضنون فكرتها ويدعون إلى مذهبها فى القومية ، مثل تراثنا الروحى ... !.

إن العرب أمة لا تشبههم أمة فى الأرض ، وخصائص قوميتنا لا تشبهها خصائص أمة غيرنا ، وأول خصائصنا ، إيماننا بالله ، فلسنا عربا ولا قوميين ، ولا أحراراً ، إذا لم يكن بعض إيماننا بالعروبة إيماننا بالله ، وبعض إيماننا بالحرية إيماننا بالله .

قوة الإيمان بالله . . .

إن الإيمان بالله قوة لكل ذى دين فى دينه ، وقوة لكل ذى وطن فى وطنه ، وقوة لكل فرد فى جماعته ، وقوة لكل جماعة فى مواجهة الأحداث ، وهو الرباط الإنسانى الذى يشد كل إنسان إلى أخيه الإنسان . . . ! .

إن الدين ، كل دين ، فى حقيقته الفطرية البسيطة هو التسامح ، وهو الحب ، وهو السلام ، وهو الأخوة الإنسانية ، فلا أخوة بلا دين ، إنما تلك أخوة القطيع ، أخوة ساعة على منفعة مشتركة ، ثم آكل ومأكول .

تلك هى دعوة الكواكبى للقومية العربية ، وكان معه على دعوته مسلمون ومسيحيون فى كل بلد من بلاد الأمة العربية ، عرفوا الدين إيمانا بالله ، وسلوكا فى المجتمع ، وضميراً يصرف الناس فى الحياة على دستور ، فآمنوا بالقومية العربية دينا مشتركا يؤمن بها المسلم

العربى والمسيحى العربى ؛ لأن بينهما إيمانا مشتركا بالله الواحد ، وأخوة مشتركة فى الوطن العربى الواحد .

إن مقترف الشيوعية الأول ، لينين ، الذى زعم مضللا أو مضللا أن الدين أفيون الشعوب ، لم يلبث أن اتخذ لقومه ديناً جديداً غير دين الله ، وإلهاً جديداً غير الله ، وكانت الشيوعية هى ذلك الدين ،

إن كان الدين أفيونا كما زعم مقترف الشيوعية الأول ، فماذا فعل وفعل خلفاؤه غير أن أبدلوا بأفيون أفيونا ثم تألهوا ؟ أبدلوا بدين التسامح والأخوة والرحمة والتعاطف الإنسانى ، ديناً متعصباً أصلب الرأى سفاكا لا يؤمن فرداً على حريته ولا يعترف له بكيان مستقل عن الجماعة ...

ناهضوا الدين باسم الحرية ، ليلفقوا لقومهم ديناً بلا حرية ، ففقدوا الدين والحرية جميعاً . . !

إنى لا أخشى هنا ، فى وطنى ، دعوة أخرى تشاكل تلك الدعوة إذ يقول بعض أولئك الذين وصفت من منتحلى الفلسفة ، أو من مزيفى القومية ، إن القومية العربية شىء غير الدين ...

طاشوا وضلوا . . !

إن هؤلاء الذين يبرءون من دينهم لأنهم ينكرون صلة الدين بالقومية ليسوا من أمتنا ، ولا من قومنا ، إنهم كالعناوين العربية على كتب مترجمة ليس فيها من معنى العروبة إلا صور الحروف .

إن الكواكبى الذى احتفلت الأمة العربية بذكراه منذ عهد قريب ، فى ضوء مشاعل النصر الذى حققناه بكفاحنا ، وإيماننا ، ودماء ضحايانا قد رسم الصورة الصحيحة للقومية العربية كما نؤمن بها اليوم وندعو لها . . .

- إنها دعوة القومية العربية المؤمنة بالله ، وبالقيم والمثل العربية الصحيحة .

- دعوة الوحدة الوطنية التى تجمع العرب فى شتى ديارهم على الولاء للأمة العربية .

- دعوة الاشتراكية التعاونية التى تقوم على أساس الشورى واختيار الحاكم بإرادة المحكومين .

- دعوة المساواة بين الطبقات والأفراد فى الحقوق والواجبات ، والتقارب فى الثروة ودرجات المعيشة .

- دعوة الأخوة العمومية بين الأفراد فى الأمة العربية .

- دعوة الاتحاد القومى العربى .

هذه دعوتنا منذ كنا ، هى دعوة الكواكبى أمس ، وهى دعوتنا اليوم ، وهى دعوة الأجيال فى غد ؛ لتبعث الأمة العربية من جديد وتنشر رسالتها الحضارية بين البشر ، ليتحقق للبشر السلام والأمن والحرية .

محمد سعيد العريان

أهكذا كان الحلاج؟

للأستاذ محمد خليل هراس

كتب أستاذنا الدكتور محمد غلاب فى العدد الماضى من مجلة الأزهر مقالا عن الحلاج يهدف منه إلى إنصافه وبيان منزلته بين المتصوفة. وقد حاول الدكتور جاهداً - بما أوتى من حسن العبارة - أن يجعل منه الصوفى الإسلامى الأول. وأن يجعل من حادث مقتله مأساة تصور الظلم والاضطهاد فى أبشع صورهما وتمثل الحلاج ضحية بريئة. تألبت عليها عوامل الحقد والحسد.

ونحن وإن كنا نقدر للدكتور هذه العاطفة فى الدفاع المتحمس عمن يظن أنه مظلوم برىء، إلا أننا نأخذ عليه الغلو فى الحب والإفراط فى الثقة والميل عن منهج العلماء فى دقة البحث ونزاهة الحكم وتمحيص الحقائق: يقول الدكتور: «إن حياة الحلاج وآراءه وعباراته وشطحاته قد استهوت ولا تزال تستهوى الجماهير وإن الكافة فى عدد غير يسير من البقاع الإسلامية لا تزال مؤمنة بأن الحلاج من أئمة الأولياء ذوى الكرامات التى لا نزاع فيها ولا شحناء».

فماذا يعنى الدكتور بهذا؟ هل يعنى أن ولاية الحلاج وكراماته قد أصبحت حقا لا ريب فيه لأن الجماهير التى استهوتها آراؤه وعباراته لا تزال مؤمنة بذلك. فمتى كان إيمان الجماهير وإعجابها مقياسا؟ سيما والولاية أمر باطنى لا يطلع عليه أحد فهى ليست مما يخضع لحكم الجماهير. وإن جماهير تستهويها عبارات وشطحات تمثل الغلو والانحراف وتجافى أبسط قواعد الإسلام لا يمكن أن يكون لرأيهم وزن ولا لحكمهم اعتبار.

فالعبرة فى صحة العقيدة وسلامتها ليس مرده إلى حكم الجماهير ولكن مرده إلى موافقة الكتاب والسنة أو مخالفتهما فإنهما الميزان الذى لا يضل ولا يجور، وقد أمرنا الله عز وجل أن نرد إليهما كل ما تنازعنا فيه وجعل ذلك من علامة الإيمان بالله واليوم الآخر وأخبر أن ذلك خير وأحسن تأويلا.

وإنا لنربأ بالدكتور وأمثاله من رجالات الفكر أن ينخدعوا بهذا الهراء الصوفى وأن يجاروا العامة فى التأثر بهذه المخاريق والشعوذات التى تسمى باطلا كرامات، فما كانت الكرامة حرفة يحترفها نفر مخصوص من الناس ولكنها نوع من المعونة التى يكرم الله بها بعض عباده ممن يحسنون الاتباع

والموافقة لأحكام الشريعة ، ويتقربون إلى الله عز وجل بما شرعه لهم من أنواع الطاعات ويقفون عندما حده لهم بلا مغالاة ولا تقصير أما الذين يشرعون لأنفسهم ما لم يأذن به الله ويعبدونه بالهوى والبدعة ، ويشاقون رسوله صلى الله عليه وسلم ويتبعون غير سبيل المؤمنين فهؤلاء مهما ادعوا محبة الله عز وجل والفناء فيه فلن يكونوا موضعا للتكريم الإلهى الذى لا يناله إلا المؤمنون المتقون .

ويقول الدكتور : « فقد تبين للمثقفين النزهاء واسعى الأفق أن الحلاج شخصية قوية قضت عليها بالإعدام سلسلة من الظروف السياسية والدينية التى تمثل ذلك العصر أكثر مما تمثل روح الإسلام الحقيقية ومبادئه التأسيسية » .

ونحن لا ننكر أن الحلاج شخصية قوية لها قدرة عجيبة على التأثير والاستهواء ولكن القوة شىء غير استقامة القصد وسلامة الاعتقاد والتزام الحدود ، فإن القوة لها مظاهر كثيرة قد لا تكون كلها محمودة فهناك قوة فى المكر والدهاء وسعة الحيلة وهناك قوة فى الحكم والسياسة وهناك قوة فى الحق والتزام الجادة والقوة فى أى مظهر من مظاهرها قد تثير الإعجاب ولكنها لا يصح أن تحمل على الافتتان بصاحبها إلى حد التقديس والإجلال .

وقد يكون الحلاج كذلك قد قضت عليه بالإعدام سلسلة من الظروف السياسية والدينية كما يقول الدكتور ولكن من الذى هيأ لتلك الظروف الفرصة لكى تطيح برأس الحلاج ؟ إنه هو وحده المسئول عن المصير الذى لقيه بما أظهر من أقوال وعقائد تنافى المبادئ الأساسية للإسلام كتصريحه بأن الله حل فيه حتى رووا عنه أنه قال :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا

وكذلك كان يدعى أنه يسمع نداء الله من داخل نفسه ويعتقد أن هذا النداء وحى يلتزم العمل به ولا يرجع فى شىء من ذلك إلى كتاب ولا سنة إلى غير ذلك من ادعاءاته الكثيرة التى يكفى أحدها لإخراج صاحبه عن الإسلام .

ويقول الدكتور : ومن أولئك الأعلام الذين أعلنوا مناصرتهم للحلاج حجة الإسلام الغزالى وابن خفيف من الأشاعرة وابن عقيل والهروى وعبد القادر الكيلانى من الحنابلة ، وعلى القارى من الحنفية ، ونصير الدين الطوسى وصدر الدين الشيرازى من المتفلسفين ونور الله الششترى من الإمامية وغيرهم ،

وأحب فى هذا المقام أن أذكر أستاذنا الكبير بكلمة قالها أمير المؤمنين على بن أبى

طالب رضى الله عنه وهى : (اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله) فليست مناصرة هؤلاء الأعلام للحلاج فى باطله بمغنية عنه شيئا ما دام قد فعل ما يوجب مؤاخذته دينا وشرعا، وهؤلاء فى مناصرتهم للحلاج لم يتعدوا دائرة الاعتذار عنه بأنه قال ماقال وهو فى حال غيبوبة وسكر، ولكن لا أظن أن أحداً منهم يستطيع أن ينكر أن ظاهر قوله كفر إن قيل فى حال الوعى والإدراك ، والذى يذكره التاريخ أن الحلاج كان يلهج بهذه الكلمات ويبشر بمذهبه فى الحلول فى حالة من الصحو التام ، مما جعل أعلام الصوفية كالجنيد وغيره ، يقاطعونه وينكرون أحواله ، على أن كثيراً من هؤلاء الذين يذكر الدكتور أنهم ناصروه هم أيضاً متهمون فى بعض ما قالوه . ومن شاء دليلا فليقرأ ميزان العمل أو المضنون به على غير أهله للغزالى وليقرأ منازل السائرين للهروى ، وليقرأ بعض مؤلفات الطوسى ليعلم أن تأييد هؤلاء للحلاج ليس فى نظر المتدين البصير حجة على صحة ما يقوله الحلاج مهما اجتهدوا فى تخريجه وتأويله ، ويقول الدكتور: إن المصرع الوحيد لكارثته هو أنه باح بالسر الربانى ، الذى احتفظ غيره من الصوفية بكتمانه فعاقبه الله على ذلك بأن سلط عليه أشرار خلقه فرموه بما هو منه براء .

فأى سر هذا الذى باح به الحلاج فأحل سفك دمه ؟ لعل هذا السر هو ما كان يخفيه فى نفسه من اعتقاد الحلول والاتصال وسماعه نجوى المحبوب ، فلما باح بهذا الكفر وأظهره على لسانه فى مثل قوله :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا ـ وقوله أنا الله ـ ومافى الجبة إلا الله وغير ذلك كان هذا هو سر نكبته إذ لم يسع الدولة المسلمة بما فيها من حكام وقضاة وفقهاء ومفتين أن تسكت على هذا الهراء .

فكيف يصح أن يقال : إنهم رموه بما هو منه براء .

ويقول الدكتور فى سبب قطيعة الصوفية للحلاج : « إنه لم يرفض التصوف السلبى والخمول المجدب الذى يقوم على أداء العبادات على أكمل وجه دون رجوع إلى تأمل النفس واعتبار لانفعالاتها وما تحس به من فيض فأخذ هو يدعى أنه يسمع أحاديث باطنية يعتقد أنها آتية من جهة الله كما أنه أيضاً لم يرفض طريقة المحدثين الذين كانوا يرجعون جميع الطقوس الدينية إلى ظواهر المأثورات النبوية » .

وأظن أن هذا الكلام يكفى كل منصف ليتهم الحلاج بالمروق فإنه لم يكن فى منهجه وآرائه موضع رضى لا من أهل الحديث المتمسكين بظواهر النصوص، ولا من إخوانه

فى التصوف كالجنيد والمكى وغيرهما فكيف يمكن تبرئته مما نسب إليه وقد شهد عليه شاهد من أهله ؟ لا سيما وأن الذين قاطعوه كانوا من أعلام المتصوفة الذين تعتبر أقوالهم ميزانا للتصوف الصحيح .

ويقول الدكتور كذلك : « إنه بعد ما أدى فريضة الحج للمرة الثالثة عاد إلى بغداد وغير تيار حياته العملية وبدأ سلسلة من المواعظ العامة أعلن فيها مذهبه النهائى، وأنه كان يؤيد مذهبه بالخوارق العامة التى كانت حتى عهده مقصورة على الرسل عليهم الصلاة والسلام » .

ولا بد أن نقف عند قوله أنه كان يؤيد مذهبه بالخوارق التى كانت حتى عهده مقصورة على الرسل، فهل معنى هذا أن الدكتور يلحق الحلاج بأصحاب الرسالات ؟ إننا لا نحب أن نتهم الدكتور فى عقيدته ولكن كلامه هذا يبلبل الأفكار إلى حد كبير — إننا لا نعرف فى الإسلام صاحب مذهب كان يؤيد مذهبه بالخوارق، فإن الخوارق ما جعلها الله عز وجل إلا لتصديق رسله فيما يبلغون عنه، وأما أصحاب المذاهب فهم كسائر الناس يخطئون ويصيبون ولو صح أن الله أيد مذهب الحلاج بالخوارق لما وسع أحداً من الناس مخالفته ، ولوجب أن يكون كل أحد حلاجيا . إن الخوارق التى تتحدث عنها يا سيدى الدكتور قد قيل فيها الكثير من أهل عصر الحلاج وثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه كان يزيف الكرامات ويصطنع الحيل التى يخدع بها العامة والبسطاء وربما جازت على بعض الأذكياء لغرابتها .

كما روى أنه حرك يده ذات مرة فانتثر منها طيب، وحركها مرة أخرى فانتثرت منها دراهم فقال له بعض الأذكياء من الحاضرين ممن لم يخدعوا بترهاته إن أتيت بدراهم عليها اسمك واسم أبيك آمنت بكرامتك ، فقال له كيف هذا وهذا لا يصنع ؟ فقال له الرجل إن من أحضر ما ليس بحاضر لا يعجز أن يصنع ما ليس بمصنوع ! .

هذا وفى المقال كثير مما كنا لا نحب للدكتور أن يتورط فيه ولكنى سأقتصر على هذا القدر هذه المرة راجياً أن يكون منها لكل من يكتب فى مثل هذه الموضوعات الشائكة الحساسة أن لا يخط حرفا قبل أن يقدر بنفسه ما يقول ...

والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

محمد خليل هراس
المدرس بكلية أصول الدين

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

غصن يانع :

تكثر فى كلام الناس هذه العبارة . وقد سبق بتخطئتها اليازجى ؛ فهو يقول فى لغة الجرائد ١٠ : « ويقولون : غصن يانع أى نضير أورطب ، وكذا زهرة يانعة وروض يانع . ولا يأتى ينع بهذا المعنى ، إنما يقال ثمر يانع وينيع أى ناضج ، وقد ينع الثمر وأينع إذا أدرك وحان قطافه ، واليانع أيضا الأحمر من كل شىء وثمر يانع : إذا لون . ومن الغريب أن هذا الوهم ورد فى كلام أناس من المتقدمين . وممن وهم فيه الحريرى صاحب درة الغواص ، قال فى المقامة النصيبية وكان يوما حامى الوديقة ، يانع الحديقة ؛ وفسر الشريشى يانع الحديقة بقوله : ناعم الروضة . وجاء للشريشى أيضا فى خطبة شرحه . ولم يزل فى كل عصر من حملته بدر طالع ، وزهر غصن يانع . ومن كلام القاضى شهاب الدين بن فضل الله : حتى تدفق نهره ، وأينع زهره ، رواه صاحب فوات الوفيات وقال الصفدى :

يامن حواه اللحد غصنا يانعا
وكذا كسوف البدر وهو تمام

وهو كثير فى كلامهم . ووقوع مثل هذا من أمثال هؤلاء الأئمة فى منتهى الغرابة » .

وقد يصحح ما خطأه اليازجى ما جاء فى اللسان : « امرأة يانعة الوجنتين » فهذا معناه : نضارة الوجنتين لا نضجهما .

ورد على اليازجى كاتب فاضل فى مجلة المشرق سنة ١٩٠٦ فأورد شواهد تشهد للعبارة المنقودة . منها ما جاء فى اللسان (صخا) من قول الشاعر :

طربت وهاجتك الحمام السواجع
تميل بها صخوا غصون يوانع

وهذا البيت أورده ابن برى شاهدا على أن الصخو لغة فى الصخا . وابن برى لغوى ثقة لا يستشهد إلا بالصحيح من القول ، وله الحواشى الجليلة على الصحاح للجوهرى وكانت وفاته سنة ٥٨٢ هـ .

عدو لدود :

وهذه العبارة أنكرها أيضا اليازجى ، فهو يقول فى لغة الجرائد ٢٨ : « ويقولون : عدو لدود ، وهو ألد أعداء فلان ، يريدون باللدود : الشديد العداوة ؛ وهو خلاف المعروف فى استعمال العرب ؛ لأن اللدود عندهم : الذى يغلب فى الخصومة ، يقال : لده يلده فهو لاد له ، وهو رجل لدود . ويقال : خصم ألد إذا كان شديد الخصام لا يذعن للحجة ومأخذه من اللديد ، وهو صفحة العنق ؛ لأن الخاصم ينصب لديديه عند الخصام » .

وقد تعقبه الأمير شكيب أرسلان فى مجلة المشرق فقال : « يظهر أن اللدد من الصفات التى قد يتصف بها العدو ، ويتبعه الحنق والحقد وما أشبه ذلك . قال الشاعر – وهو ربيعة بن مقروم الضبى – :

وألد ذى حنق على كأنما
تغلى عداوة صدره فى مرجل

فإذا كان يقال : ألد ذو حنق فكيف يمتنع أن يقال : عدو ألد ! » .

النجمة :

اشتهر استعمال النجمة فى غير النيرين – الشمس والقمر من الكواكب . والصواب النجم ، وجمعه الأنجم والنجوم . فأما النجمة فواحدة النجم مقابل الشجر ، وهو ما لا ساق له من النبات . وقد حمل عليه قوله تعالى : والنجم والشجر يسجدان ، فى أظهر الأقوال . وقد تقال النجمة للنبتة الصغيرة ، وهو من المعنى السابق .

الساقية :

الساقية فى اللغة : نهير صغير ، كما فى القاموس واللسان . وفى المصباح : « ويقال للقناة الصغيرة ساقية ؛ لأنها تسقى الأرض » . ويقول أبو الطيب المتنبى فى مدحه لكافور الإخشيدى :

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا

وفى سجعات الأساس : « من لقى جالينوس استجهل الرواقى ، ومن قصد البحر استقل السواقى » .

واشتهرت الساقية فى عرف الناس فى أداة يرفع بها الماء يديرها الحيوان لسقى الأرض . ويقال لها فى العربية الناعورة والدولاب . وفى الناعورة يقول الشاعر[1] :

وناعورة قد ضاعفت بنواحها
نواحى وأجرت مقلتى دموعها
وقد ضعفت مما تئن فقد غدت
من الضعف والشكوى تعد ضلوعها

(١) انظر مطالع البدور ١/٤٢ .

وفى الدولاب[1] يقول مجير الدين بن تميم :

تأمل تر الدولاب والنهر إذ جرى
ودمعهما بين الرياض غزير
كأن النسيم الرطب قد ضاع منهما
فأصبح ذا يجرى وذاك يدور

وفى هـذا الـكتاب ١/٤٠ عن صاحب بدائع البـدائه : « مررنا فى بعض العشايا على بعض البساتين المجاورة لبحر النيل ، فرأينا بئراً عليها دولابان متحاذيان قد دارت أفلاكهما بنجوم القواديس ، ولعبت بقلوب ناظريهما لعب الأمانى بالمفاليس » .

واستعمال الساقية فى معناها المعروف قريب فى العربية ، لأن الناعورة سبب فى سقى الأرض ، فمن القريب إسناد السقى إليها على حد المجاز ، كما أسند إلى القناة فى الاستعمال القـديم ، أو ذلك لأن الناعورة تصب فى القناة التى هى الساقية ، فكانت بسبب منها ، فخلع على الأداة اسم الساقية لهـذه العلاقة والمناسبة . وجاء فى تاج العروس بعد عبارة القاموس التى سبق التنويه بها : « والآن يطلقونها على ما يستقى عليها بالسوانى » : والسوانى جمع السانية ، وهو البعير ونحوه يسنى عليه أى يستقى من البئر ونحوها .

وقد جاءت الساقية فى معناها المعروف اليوم فى نفح الطيب ٧/١٦٦ (بتحقيق الشيخ محمد محى الدين) فى قصة قوم كانوا فى سجن بعض الأمراء « فرأى أبو جمعة بن على التلانسى الجرائحى منهم كأنه قائم على ساقية دائرة ، وجميع قواديسها يصب فى نقير فى وسطها » . وجاء فى حسن المحاضرة ٢/٢٢٩ فى الكلام على بركة الحبش : « وفى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة أمر الناصر بن قلاوون بحفر خليج من النيل (عند) حائط الرصد ببركة الحبش ، وحفر عشر آبار كل بئر أربعون ذراعا يركب عليها السواقى ليجرى الماء منها إلى القنـاطر التى تحمل الماء إلى القلعة » .

وجاء فى عبارة نفح الطيب وعبارة صاحب بدائع البـدائه ذكر القواديس ـ وهى جمع القادوس ـ لأوعية الساقية اللاتى تغترف الماء من البئر فترتفع إلى الحوض أو القناة . وهذا مما حرفته العامة عن سننه ، وصوابها الأقداس جمع القدس ، بالتحريك . وهـذا الانحراف قديم نبه عليه الزبيدى الأندلسى فى كتابه « ما تلحن فيه العامة » . فقـد جاء فيه ـ على ما نقله عنـه الصفدى فى كتابه « تصحيح التصحيف » ـ : « ويقولون لبعض الآنية : قادوس ، ويجمعونه على قواديس ، والصواب قدس والجمع أقداس . وقال أبو إسحاق الزجاج : إنما سمى السطل قدساً لأنه يتطهر به ويتوضأ منه والقدس : الطهر» وكانت وفاة الزبيدى سنة ٣٧٩ هـ

---

(١) مطالع البدور ١/٤١ .

العفشة ، العفاشة ، العفش :

تطلق العفشة فى لسان العامة على ما فى كرش الحيوان من أمعاء وكبد وطحال وما إلى ذلك : يقول القائل : اشتريت عفشة الخروف ، وقد بدالى أن أصل العفشة العفج وهو المعى والمصير ، وجمعه الأعفاج ، وقد قلبت الجيم فى العفج شيناً ، ومن العرب من يقرب الجيم من الشين ، ويعبر سيبويه عن هذا الحرف بالجيم القريبة من الشين ، وهو نطق أعراب اليوم ، فليس بعيداً من العامة إبدال الجيم شيناً ، والجيم والشين متقاربان فى المخرج ، كما هو معروف ، وقد قيل فى الشماعة للشجب يعلق عليه الثياب : إن أصلها الجماعة ، لأنها تجمع ما يعلق عليها ، وقد زيدت التاء فى العفش لتأنيث اللفظ ، وأطلقت العفشة على الأمعاء وما يحل معها فى بطن الحيوان .

وعندى أنه جاء من العفشة بمعناها السابق العفاشة للقذارة والدنس ، إذ كانت الأمعاء مما يستقذر ويتقزز منه ، لما فيها من الروث وجاء من هذا رجل عفش للقذر والخبيث .

على أنه جاء فى اللغة العفش للجمع ، يقال : عفش الشىء : جمعه ، ويقال من هذا قوم عفاشة ـ بضم العين ـ لا خير فيهم ، كأنهم جمعوا من هنا وهناك ليس لهم أصل يجمعهم فهم أخلاط ، كما يقال فى العامية : لمامة . فقد يقال : إن العفاشة ـ بضم العين ـ أخذ منها الحقارة والهوان ، وما يتبع ذلك من القذارة ، فجاءت العفاشة ـ بفتح العين ـ وجاء من هذا رجل عفش . ولكن التخريج الأول أسوغ وأظهر .

وهناك فى العامية العفش لمتاع البيت وأثاثه وما يدخل فى هذا المعنى ، وهذا أصله الحفش ويجمع على الأحفاش ، وجاء فى القاموس أن أحفاش البيت قماشه ورزال متاعه . والقماش : ما على وجه الأرض من فتات الأشياء ، والعين والحاء يتبادلان ، يقال : بعثر المتاع وبحثره ، وضبعت الخيل وضبحت ونزل بحراه وعراه أى قريباً منه .

تعال عاد :

تجرى هذه العبارة وأمثالها فى بعض قرى الصعيد ، يأتون بكلمة (عاد) صلة فى الكلام وكأنما يريدون : تعال إذن . ويقولون : فى طلب الاكتفاء بأمر : بزيادة عاد ، أى حسبك أو نحو هذا .

وقد كنت بحثت عن أصل هذه الصلة فلم أهتد لها إلى تخريج ولا أولية ، حتى وقفت على أن (عاد) كانت فى لسان أهل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، فوقر فى نفسى أنها انتقلت من الأندلس إلى بلاد المغرب ،

ثم انتقلت إلى الصعيد مع المغاربة الذين كانوا يهاجرون إلى مصر ، وقد كان أكثر ما ينزلون بلاد الصعيد لمصاقبتها لبلادهم ، ولا يزال كثير من أسر الصعيد يرجعون إلى أصل مغربى .

وقد أنبأنا بشأن (عاد) عند الأندلسيين الزبيدى فى كتابه « ما تلحن فيه العامة » فقد جاء فيه : « ويقولون : لم أفعل هذا عاد ، بمعنى حتى الآن . والصواب : لم أفعل هذا بعد . وأما عاد فاسم الأمة . وعاد أيضا جمع عادة ، ولا وجه له هنا » .

وقد بدا لى أن (عاد) فى قول أهل الأندلس : لم أفعل هذا عاد ، أصلها بعد ، فحركوا العين بالفتح ، وهذا كثير عند بعض الناطقين ، ثم مدوا العين فقالوا : بعاد ، وقد نقل عن أهل الأندلس أنهم يقولون فى العنب : العناب ، ثم حذفوا الباء لكثرة الاستعمال فصار عاد . وقد قيل فى قول العامة: حيعمل كذا : إن أصله : رايح يعمل كذا ، وما هنا أقرب من اختصار (رايح) إلى حاء واحدة .

وإذا كانت هذه الصلة (عاد) فى أصل وضعها تأتى مع النفى كما هو ظاهر كلام الزبيدى فقد كثر فيها التصرف حتى صارت تستعمل مع غير النفى ، كما فى قول أهل الصعيد : تعال عاد .

وقد يسبق إلى الذهن أن (عاد) هنا فعل من العود ، فقوله : لم أفعل هذا عاد أى عاد الحديث إلى تأكيد هذا الخبر ، وكأنه أمارة الإصرار على الخبر أو الطلب ، ولكن الأقرب ما ذكرت أولا .

خذه بعبله :

يقولون : جاء بعبله أى غير معنى بهندامه وبزته ، ولا متنوق . ويقولون : خذ هذا الشىء بعبله ، أى كما هو ، على علاته . والعبل - كما فى القاموس - : « كل ورق مفتول غير منبسط ، كورق الطرف ، وثمر الأرطى أو هدبه إذا غلظ وصلح أن يدبغ به أو الورق الدقيق » وحاصله : أن العبل الورق . ويبدو لى أن مأخذ العبارة المشهورة أن الشجر أو الزرع إذا بقى بورقه ولم يشريف كان أدنى إلى التشعث ، وقد يفسد الزرع حينئذ فيدخله الدخل والمعاب . وفى القاموس : « شريفه : قطع شريافه » . وفيه : « والشرياف - كجريال - : ورق الزرع إذا طال وكثر حتى يخاف فساده فيقطع » . فإذا قطع ورق الزرع أو الشجر كان ذلك آية تهذيبه وتجويده ، وإذا لم يقطع كان آية إهماله ورثاثته ، فمن هذا قيل : جاء بعبله . وقد يكون العبل محرفا عن العبالة بتشديد اللام وتخفيفها - وهى الثقل والكلفة . يقال : ألقى عليه عبالته . فمعنى خذه بعبله أى مكلفته وثقله وعيبه .

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية
وعضو المجمع اللغوى

دراسات لأسلوب القرآن الكريم

للأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة

— ١ —

المستثنى التام الموجب يجب نصبه وقد قرئ في الشواذ برفع المستثنى في قوله تعالى :

« ثم توليتم إلا قليلا منكم » . شواذ ابن خالويه ٧ البحر المحيط ١/٢٨٧ .

« فشربوا منه إلا قليلا منهم » . ابن خالويه - ١٥ - شواهد التوضيح ، والتصحيح لابن مالك ٤٣ البحر المحيط ٢٦٦٢

« فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس» ابن خالويه ٤ .

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس » . البحر المحيط ٥/١٩٢ .

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا » . البحر المحيط ٥/٢٧١ .

وكذلك جاء رفع المستثنى التام الموجب في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كقوله :

(كل أمتي معافى إلا المجاهرون) رواه البخاري .

(أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم) رواه البخاري .

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا امرأة أو مسافر أو عبد أو مريض - رواه الدارقطني) .

(الناس كلهم هالكون إلا العالمون ، والعالمون كلهم هالكون إلا العاملون ، والعاملون كلهم هالكون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم) . شرح الرضي للكافية ١ / ٢٢٧ فماذا صنع النحويون في هذا المسموع .

جمهور النحويين لا يجيز إبدال المستثنى من المستثنى منه في الموجب وإنما يجيز ذلك في المنفي وقد عرض سيبويه في كتابه ١/٣٦٩ لتعليل هذا الحكم قائلا: إن الإبدال إنما يجوز إذا صلح البدل لأن يحل محل المبدل منه وهذا إنما يصلح في النفي لا في الإثبات .

وكان اعتماد النحويين بعد سيبويه على ما ذكره في كتابه فالمبرد في كتابيه المقتضب والكامل يذكر هذا الحكم وعلته وكمال الدين الأنباري يفعل ذلك في كتابه أسرار العربية ٢٠٦ وغيرهما من المتأخرين

والزمخشري يؤول الفعل المثبت بفعل منفي في قوله تعالى : « فشربوا منه إلا قليلا » في قراءة من رفع قال أي لم يطيعوه هكذا

لجأ إلى التأويل ، وقد أجاز الإبدال فى الاستثناء التام المثبت فى غير الآيات المذكورة .

أجاز فى قوله تعالى : « إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى » . أن يكون الذى بدلا من المجرور بمن .

وأبو البقاء العكبرى فى إعراب القرآن يمنع الإبدال فى الآية « ثم توليتم إلا قليل منكم » بالرفع وجعل المرفوع فاعلا لفعل محذوف تقديره امتنع أو مبتدأ والخبر محذوف أو توكيدا للضمير المرفوع ، ويقول سيبويه يسميه نعتا .

إعراب القرآن للعكبرى ١/٢٧ .

صحيح أن سيبويه يسمى التوكيد صفة كما ذكر ذلك فى كتابه ١/١٤٠ ، ولكن من أى أقسام التوكيد يكون ذلك ، على أن العكبرى قد أجاز البدلية فى آيات أخرى .

قال فى قوله تعالى : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم » . ولو قرئ بالجر على البدل لكان مستقيما . العكبرى ١-١١٩ .

وكذلك قال فى قوله تعالى : « وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع » . العكبرى ٢ - ٣٩ .

أما ابن مالك فقد عقد فى كتابه شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح بابا لرفع المستثنى التام الموجب ٤١ . ذكر فيه بعض أحاديث البخارى ، وخرج المرفوع على أنه مبتدأ ثم قال :

ولا يعرف أكثر المتأخرين من البصريين فى هذا النوع إلا النصب وقد أغفلوا وروده مرفوعا بالابتداء ثابت الخبر ومحذوفه .

والرضى يخرج الحديث الرابع على أن إلا صفة .

ويخرج قراءة الرفع فى الآية : « فشربوا منه إلا قليل » .

على تأويل الفعل المثبت بفعل منفى كما صنع الزمخشرى .

وأبو حيان خرج الرفع فى الآية على أن إلا صفة ورد على من أول الفعل المثبت بفعل منفى كما رد إعراب ابن مالك له مبتدأ بقوله وهذه أعاريب من لم يمعن فى النحو .

ينظر البحر المحيط ١ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

وقد خرج أبو حيان فى البحر الرفع بعد لولا التحضيضية فى الآيتين السابقتين على البدليه لأن التحضيض يتضمن النفى وهو مذهب للفراء ينظر معانى القرآن للفراء ١ - ١٦٧ .

وقد جمع كل هذه التخريجات ابن هشام فى المغنى ٢/٧١ - ١٨٩ .

ونقل السيوطى فى اللمع ٢ / ٢٢٥ أن الإتباع فى الاستثناء التام الموجب لغة، وألف ابن عمار المالكى رسالة سماها التاج المذهب فى رفع المستثنى من الموجب :

— ٢ —

عقد سيبويه فى كتابه /٣٧٠ بابا عنونه بقوله :

هذا باب ما يكون فيه إلا وما بعدها وصفاً .

ذكر فيه أمثلة وشواهد يصح فى بعضها الاستثناء ولا يصح الاستثناء فى بعض آخر .

وفيها التام المثبت والتام المنفى غاية الأمر أن الموصوف فى كل هذه الأمثلة والشواهد نكرة .

والمبرد فى المقتضب ٤٧٦ صرح بأنه ينعت بإلا ما ينعت بغير وذلك النكرة والمعرفة التى بالألف واللام على غير معهود .

وابن الحاجب شرط للوصف بإلا تعذر الاستثناء ثم قال وهذا مذهب المحققين . شرح الكافية لابن الحاجب ٤٧ وابن يعيش فى فى شرح المفصل ٢ / ٨٩ — ٩٠ — شرط للوصف بإلا صلاحية الكلام للاستثناء وأن يكون الموصوف نكرة أو معرفا بأل الجنسية .

وينقل أبو حيان أن الوصف بإلا يخالف سائر الأوصاف فيوصف بها النكرة والمعرفة والمضمر وغيره البحر ٢ / ٢٦٧ وكذلك ينقل السيوطى فى السمع ١/٢٢٩

وفى البرهان للزركشى ٤/٢٣٩ أن الوصف بإلا يكون فى الاستثناء المتصل وفى الاستثناء المنقطع ومثل له بآية من القرآن وهذه هى الآيات التى أجاز النحويون فيها الوصف بإلا

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ،

« والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم » .

« وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع » .

« الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » .

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم »

— ٣ —

يترجح إتباع المستثنى للمستثنى منه فى الاستثناء التام المنفى المتصل عند النحويين وكذلك وقع فى القرآن .

وقد وقرأ ابن عامر من السبعة قوله تعالى « ما فعلوه إلا قليلا منهم » بنصب قليل .

وقد قرأ خمسة من السبعة قوله تعالى : « فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك » .

بنصب التاء فى قوله إلا امرأتك وقد خرج هذه القراءة بعض النحويين على أن الاستثناء من قوله فأسر بأهلك حتى لا يجتمع أكثر السبعة على الوجه المرجوح .

وفى كتاب سيبويه ١ / ٣٦٣ حدثنا بذلك يونس وعيسى جميعا أن بعض العرب الموثوق

بعربيته يقول : ما مررت بأحد إلا زيدا وما أتانى أحد إلا زيدا .

وفى آيات كثيرة أجاز المعربون أن يكون المستثنى منصوبا على الاستثناء أو تابعا للمستثنى منه وذلك فى المستثنى الذى لا تظهر عليه حركة الإعراب كقوله تعالى :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه» العكبرى ٣٦/١ البحر ٣٩٤/١ .

« ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة » البحر ٣٥٣/٧ .

« ليس لهم طعام إلا من ضريع » العكبرى ١٥٣/٢ البحر ٤٦٢/٨ .

فى كلمة التوحيد لا إله إلا الله :

يرى الرضى أن النصب على الاستثناء فيها أضعف منه فى نحو لا أحد فيها إلا زيد ؛ لأن العامل وهو خبر لا محذوف وكذلك يرى أبو حيان .

وفى كليات أبى البقاء لم يأت فى القرآن فيها غير الرفع .

جاء تكرير حرف الجر مع المستثنى عند الإبدال فى قوله تعالى :

« ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء »

الاستفهام كالنفى فى الاستثناء التام المنفى وقد جاء فى القرآن فى آيات كثيرة كقوله تعالى .

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه » .

« ومن يغفر الذنوب الا الله » .

« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون »

« فماذا بعد الحق إلا الضلال » .

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم » .

كما جاء بعد النهى فى آيات كثيرة

النساء - ٢٩ - ٩٠ - هود - ٨١ العنكبوت - ٤٦ .

جاء الاستثناء التام المنفى فى القرآن بعد هذه الأدوات من أدوات النفى

لا النافية للجنس وغير النافية للجنس

ما — لن — لم — ليس

تميم تجيز فى الاستثناء التام المنفى المنقطع الإتباع وقد جاء ذلك فى الشعر وفى بعض القراءات فى قوله تعالى

« وما لاحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » .

قرأ ابن وثاب ابتغاء بالرفع على البدل من موضع نعمة وهى لغة تميم، البحر المحيط ٤٨٤/٨ .

لا بد أن يتقدم إلا حكم فى الاستثناء التام فلو وجد فى الكلام جزء الجملة قدر الجزء الآخر المحذوف كما فى كلمة التوحيد وكما فى قوله تعالى « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره » إذا أعرب من مبتدأ فى من كفر أى فعليهم غضب من الله البحر المحيط ٥٤٠/٥ .

محمد عبد الخالق عضيمة

الحواجز التى أقمناها بأيدينا

للأستاذ محمد عبد الله السمان

منذ شهور وردت رسالة من أحد المسلمين بالبلدان البعيدة إلى أحد المسئولين من علماء الدين ، يقول فيها : « إنه بعيد عن مسقط رأسه ببضع مئات من الأميال حيث تقتضى مصلحة عمله ذلك ، وحاول أن تصحبه زوجه معه فأبى عليها والدها هذه الصحبة ، فطلب بعد أن وصل مقر عمله صورة « فوتوغرافية » لها تبقى معه بمثابة تذكار له وتسلية فى غربته وعاصم من الانحراف الشكلى والموضوعى ، فأبى الوالد أيضاً بحجة أن الإسلام يحرم ذلك وهو يطلب من المسئولين فتوى بحل الصورة « الفوتوغرافية » لإقناعه .

وكان المنتظر أن ترسل الإجابة فى كلمات معدودة تقضى بأن الإسلام يجيز التصوير الفوتوغرافى وكفى ، ولكن الإجابة أرسلت فى أكثر من صفحتين عرض فيها آراء الفقهاء المتأخرين فى التصوير المؤيدين لها والمعارضين ، دون أن تتضمن صراحة وبوضوح ما يقنع الوالد المتزمت ، ومسكين ذلك السائل الذى لجأ إلى علماء الإسلام فلم يجد ما يشفى غلته ، وما شككت لحظة فى أنه حين تصله الإجابة ؟ سيصاب بصدمة نفسية وخيبة أمل

ومنذ أسابيع طلب أحد المسلمين من المحكمة الشرعية بالإقليم الشمالى أن تقر طلاق زوجه لأن صورتها نشرت فى بعض الصحف ، ونشر بعد ذلك أن المحكمة أقرت الطلاق . .

ومنذ أيام قدم إلى القاهرة مفكر إسلامى ومجاهد عظيم فى ميدان الفكرة الإسلامية ، وله مؤلفات تدنو إلى المائة ترجم بعضها إلى اللغة العربية ، وحين طلبت من سكرتيره الخاص صورة « فوتوغرافية » للعالم الكبير اعتذر بأن الرجل لا يحتفظ بصور لأنه يرى الكراهية فى التصوير الفوتوغرافى ، ودهشت فى صمت .. وكفى ...

ولا زال فى العواصم الإسلامية جمعيات دينية متطرفة تنادى بأن وجه المرأة وكفيها عورة ، وبأن صوتها عورة ، وبأن خروجها إلى ميدان العمل منكر يأباه الإسلام ، ولو اضطرت إلى لقمة العيش وصون كرامتها وعفتها ، وتتهم هذه الجمعيات نشاط المرأة بالمروق الوطنى والتوجيه الاستعمارى ومحاربة الإسلام .

وفى حى الزمالك أرقى أحياء القاهرة شيخ لازال يفتى فى مسجده بأن الصلاة فى « البدلة » مكروهة وأن على الموظف أن يدع فى حقيبته « جلابية » حتى يصلى فيها إذا حانت الصلاة .

وفى العاصمة أيضا جمعية « شرعية » دائبة

فى إنشاء المساجد الشرعية حتى إنها أنشأت فى قرية أكثر من عشرة مساجد شرعية ، والمسجد الشرعى فى نظرها يجب أن يكون بدون مئذنة ومحراب ، وأن يكون منبره ثلاث درجات بدون جدار ، والصلاة لا تجوز إلا فى هذه المساجد الشرعية التى تخيلتها عقلياتها .

وإزاء هذا التزمت البغيض يسوغ لنا أن نتساءل :

لم هذا الإعراض عن الإسلام حتى لم يعد لثقافته كيان فى نفوس المسلمين فضلا عن غير المسلمين ؟ ؟

لم هذا التفريط فى ثقافة الإسلام حتى لم يعد عقيدة تتفاعل فى قلوب الشباب كما تتفاعل الثقافات الأخرى الفنية .. ؟؟ :

لم لم نسمع بأن المجلس الأعلى لرعاية الفنون قد رصد جائزة للبحوث الإسلامية كما رصد الجوائز للبحوث الأدبية والعلمية وما إليها ؟؟

أليست للإسلام ثقافات واضحة المعالم والحدود والأهداف ؟؟ .

والإجابة عن هذا التساؤل أوضح من أن توضح ... ودليل وضوحها هذا التزمت الذى يعانى الإسلام منه الكثير . .

إن لدينا علماء إسلاميين ، ولكن الكثرة منهم إذا اشتغلت بالثقافة الإسلامية ففى حدود الشكليات التى لا تتصل بالثقافة الأصيلة للإسلام ، وإذا لم تشتغل وقفت بالمرصاد لكل رأى جرىء تتهمه إما بالإلحاد ، وإما بصلته بالاستعمار الأجنبى .

كم استنفدت من جهودنا معارك : التوسل ، وليلة النصف من شعبان ، وكرامات الأولياء ، والخلاف فى إسراء الرسول بالجسد أو الروح أو هما معاً ، والصلاة على الرسول بعد الأذان؟.

وإزاء هذه الجهود ، من من العلماء المتأخرين - إذا استثنينا القليل المعدود على الأصابع - من جارى المتقدمين فى تصانيفهم الضخمة التى لا زلنا عيالا عليها . . من أمثال الغزالى وابن حزم وابن تيمية ؟.

ومن من العلماء المتأخرين من خرج عن حدود الفقه والتوحيد والسيرة والتفسير ، إلى الفنون الأخرى. الرياضة والفلك والهندسة والطبيعة والكيمياء والفلسفة ، كما فعل ابن سينا والخوارزمى والقزوينى والبيرونى والكندى والفارابى ؟ ؟ .

إن العقليات الإسلامية القديمة لو كانت تهضم كراهية التصوير « الفوتوغرافى » مثلا ، ولو أنها شغلت بتوافه الأمور ، ولو أنها فهمت أن الدنيا للكفرة ، والآخرة للمسلمين ، لحرمت الإنسانية هذا التراث العلمى الضخم الذى تركته . والذى باركه خلفاء المسلمين وأئمتهم ..

فالحضارة بلغت أقصاها باسم الإسلام فى بغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وغرناطة ، والقيروان ، وتلمسان ، وسمرقند والقاهرة ..

والعلوم الإنسانية على اختلافها أسهم فيها بأوفى نصيب علماء مسلمون ..

فالخوارزمى بتكليف من الخليفة المأمون كان أول من وضع علم الجبر . .

وكان الكندى أحد اثنى عشر عبقريا فى العالم .. كما يقول « كاردانو » وقد ألف حوالى ٢٣٠ كتابا عدا رسائله فى المعادن والجواهر . .

وكان جابر بن حيان من ألمع علماء الكيمياء العالميين . .

وكان البيرونى أعظم عقلية فى التاريخ كما يقول « شاو » أحد علماء الغرب .

وكان البنانى أحد عشرين فلكيا مشهورين فى العالم . .

وكانت كتابات ابن الهيثم فى الضوء هى التى أوحت باختراع النظارات كما اعترفت بذلك دائرة المعارف البريطانية .

وكان الدينور صاحب مؤلفات ضخمة فى شتى العلوم ، وله فى القرآن مؤلف فى ثلاثة عشر مجلداً .

وكان ابن سينا صاحب مؤلفات عديدة فى كل شىء ، وكتابه الشفاء فى ثمانية عشر مجلداً فى المنطق والطبيعة والفلسفة والموسيقى ..

وكان الفخر الرازى حجة فى المنطق والفلسفة والهندسة وتفسيره للقرآن من الشهرة بمكان . .

وعلماء العرب المسلمون القدامى قد أسدوا جليل الخدمات إلى هذا العلم ، الذى تتجلى لنا فيه عظمة الابتكار الإسلامى : كما يقول الدكتور « ماكس ماير هوف » .

وهذه هى العقليات الإسلامية المتحررة التى خدمت الإنسانية باسم الإسلام ، ولكن عقليات متزمتة خلفتها ، تزعم أن الإسلام دين غير متحضر ، لا يعنى إلا بالتوحيد والفقه والتفسير .

إن « سيكار » أحد المبشرين الفرنسيين فى المغرب ألف منذ ربع قرن كتابا ضد الإسلام يتهمه بالجمود وعدم الأخذ بأسباب الرقى والحضارة وحرمانه من المدنية ، ولم يستند فى هجومه إلا على العقليات المتزمتة وفى مقدمتها عقليات الطرق الصوفية ، التى تحاول أن تربط المسلم بالآخرة وتزهده فى الدنيا ، وقد رد عليه فى « المنار » أمير البيان « شكيب أرسلان » . ففند مزاعمه وأباطيله .

العرب المسلمون فتحوا الدنيا فى نصف قرن كما قال نابليون ، لأنهم كانوا يفهمون أن الإسلام يربط المسلم بالأرض قبل أن يربطه بالسماء ، ويربطه بالدنيا قبل أن يربطه بالآخرة ، ونحن فى عهد القنبلة الذرية ، وغزو القمر ، لازلنا باسم الإسلام نناقش الصورة « الفوتوغرافية » أحلال هى أم حرام ، أجائزة هى أم مكروهة ، ثم نشكو تخلف الشعوب والدول الإسلامية عن ركب الحضارة والمدنية . . ونشكو تخلف الثقافة الإسلامية عن ركب الثقافات الأخرى المتحفزة ، ونتجاهل أننا نحن الذين نقيم حاجزاً بأيدينا بين الإسلام والحياة . . !

محمد عبد الله السمان

حكم الاجتهاد في تقدير الشريعة الإسلامية

للأستاذ عباس طه

استرعى انتباهنا ما يكتبه صديقنا الأستاذ محمد محمد المدنى شيخ كلية الشريعة عن وظيفة الكلية التى يرأسها وما تؤديه من أعمال جسام للعالم الإسلامى فى المشرقين وما تميزت به من سمات فاضلة هى خلق مجتمع إسلامى بعيد الأثر فى المبادئ الإسلامية عميق المرامى فى النظريات الدينية محيط بإحكام الروابط فى كل ما ينجم عن مناحى الدين وآفاقه فى العبادات والمعاملات المنبثقة عن رضى الخالق ورضى المخلوق على السواء ـ وقد حفزنى إلى معالجة هذا الموضوع فى ساعتنا القائمة الراهنة أن نجم ناجم فيها ينادى بضرورة الخروج على أوضاع اعتبرها السلف الإسلامى والمجتمع الدينى جزءاً من الماضى الحبيب . إلى شغاف القلوب غير منفصل عنه ولا سابق عليه ـ صيحة اصطنعت من بيئات نائية عن المستويات الدينية نحلت نفسها صفة العلم ثم أطلقت صيحتها فى واد غير ذى زرع .

فأكبر رجائنا أن شيخ هذه الساعة وهو الأستاذ الأكبر يعنى بتلك الضجة المصطنعة التى اصطنعها المغرضون وجعلوها داخلة فيما يمارسونه من أعمال ليخرجوا بها على مجتمعنا الإسلامى الحصيف كعلاج يداوون به ناحية من نواحى هذا المجتمع المتعلقة بأحواله الشخصية فى ذات الإنسان .

١ ــ قال حجة الإسلام الإمام الغزالى :

(ا) فى المنخول « الاجتهاد ركن عظيم فى الشريعة لا ينكره منكر ، وعليه عول الصحابة بعد أن استأثر الله برسوله صلى الله عليه وسلم وتابعهم عليه التابعون إلى زماننا » ، والغزالى متوفى سنة ٥٠٥ هـ .

(ب) وقال فى المستصفى : « إنا نعتقد أن لله سراً فى رد العباد إلى ظنونهم حتى لا يكونوا مهملين ، متبعين الهوى ، مسترسلين استرسال البهم من غير أن يزمهم لجام التكليف ، فيردهم من جانب إلى جانب » .

٢ ــ وقال الإمام النووى فى شرح مسلم :

قال تعالى « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ؛ فالاعتبار بالاستنباط من آكد الواجبات المطلوبة ؛ لأن النصوص الصريحة لا تفى إلا باليسير من المسائل الحادثة ، وإذا أهمل الاستنباط فات القضاء فى معظم الحوادث والأحكام النازلة أو بعضها .

٣ — وقال العلامة محمد بن الحسن الحجوى: أصول الفقه كملت فى العهد النبوى ، والفروع لا تنتهى أبداً ، لذلك شرع الاجتهاد

٤ — وقال ابن برهان :

قد جعل الله المذاهب دولا ، والآراء نوبا ، ولذلك المعنى يحدث فى كل زمان مذهب تصغى إليه الأفئدة ، وتميل نحوه الأنفس .

إذن فما هو حكم الاجتهاد شرعا :

قال الإمام الجلال السيوطى :

١ — الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفاية ، ولا يجوز شرعاً خلو العصر منه ونصوص العلماء من جميع المذاهب متفقة على ذلك .

٢ — فقد نقل المزنى فى مختصره من الإمام الشافعى رضى الله عنه : أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره ، ولا يمكن نهى الخلق كلهم عن التقليد ؛ لأن العوام يجوز لهم التقليد بالإجماع ، وإنما نهى الشافعى عن ذلك حتى لا يجمع أهل العصر كلهم على التقليد ؛ لأن فيه تعطيل فرض من فروض الكفايات ، وهو الاجتهاد ، فحث على الاجتهاد ليكون فى كل عصر من يقوم بهذا الفرض .

٣ — وقال الإمام الماوردى فى الجزء السابع من كتابه الحاوى الكبير : فإن قيل : لم نهى الشافعى عن تقليده وتقليد غيره ، وتقليده جائز لمن استفتاه من العامة ؟ قيل : التقليد مختلف باختلاف أحوال الناس بما فيهم من آلة الاجتهاد المؤدى إليه أو عدمه ؛ لأن طلب العلم من فروض الكفاية ولو منع جميع الناس من التقليد ، وكلفوا الاجتهاد ، لتعين فرض العلم على الكافة ، وفى هذا اختلال نظام وفساد فلو كان يجمعهم التقليد لبطل الاجتهاد وسقط فرض العلم ، وفى هذا تعطيل الشريعة وذهاب العلم ، فلذلك وجب الاجتهاد عمن تقع به كفاية ، ليكون الباقون تبعا ومقلدين ، قال تعالى: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . فلم يسقط الاجتهاد عن جميعهم . ولا أمر به كافتهم .

٤ — وقال الرويانى فى كتابه البحر :

إنما نهى الإمام الشافعى عن التقليد ليقتصر طالب العلم فى تعرف وجوه الأحكام ودلائلها ، ثم ينظر فيها لدينه ويحتاط لنفسه .

٥ — وقال الإمام البغوى فى كتابه التهذيب :

العلم فرض عين وفرض كفاية وبعد أن تكلم على فرض العين قال : وفرض الكفاية : هو أن يتعلم ما يبلغ رتبة الاجتهاد ، ومحل الفتوى والقضاء ، ويخرج من عداد المقلدين فعلى كافة الناس القيام بتعلمه ، غير أنه إذا قام من كل ناحية واحد أو اثنان سقط الفرض عن الباقين ، فإذا قعد الكل عن تعلمه عصوا جميعاً لما فيه من تعطيل أحكام الشرع .

٦ ـــ وقال الإمام ابن سراقة فى كتابه إعجاز القرآن :

لو كان القرآن جميعه جليا محكما لعدم الثواب على الاستنباط ، وسقط حكم الاجتهاد المؤدى إلى شرف المنزلة ، وعظم المروءة ، ولهذا المعنى لم ينص الله تعالى على حكم جميع الحوادث مفصلا ، بل أبان بعضها ، وذكر أشياء فى الجملة وكل بيانها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبان النبي صلى الله عليه وسلم منها ، ووكل ما يطرأ منها على العلماء بعده ، وجعلهم ورثته ، والقائمين مقامه فى إرشاد أمته إلى حكم التأويل . ولو كان جميع العلم جليا لا يحتاج إلى بحث واجتهاد ، ولا إلى نظر واستنباط لكان فى ذلك إبطال الشريعة .

٧ ـــ وقال ابن سراقة أيضاً فى أحكام الموطأ :

إن طريق أقسام الفقه وحدوده ودلائله وتفريعه طريق استنباط وذلك يختلف فى الناس على حسب ما أراده الله من تفضيل بعضهم على بعض بقوة الاستنباط وصحة الاجتهاد .

٨ ـــ وقال الإمام الغزالى فى كتابه البسيط :

أما سفر الولد للحج بعد الوجوب فإنه لا يتوقف على إذن الوالدين ، لأنه واجب متعين ، وأما سفر طلب العلم فإن كان متعينا لما يحتاج إليه فلا يحتاج إلى إذن ، بل أولى من الحج لأنه على الفور ، وكذلك إذا كان يطلب رتبة المجتهدين حيث شغر البلد عن المجتهد فلا يشترط الإذن كالحج بل أولى لأنه على الفور وإن كان يطلب رتبة الفتوى وفى البلد مفتون ففيه وجهان والظاهر أنه يجوز بغير إذن .

وقال جلال السيوطى تعليقا على هذا : انظر كيف جعل رتبة الاجتهاد فرضا وجعله على الفور مقدما على الحج حيث شغر البلد عن المجتهد.

٩ ـــ وقال ابن القصار فى كتابه المقدمة وهو من أئمة المالكية :

أفتى أصحابنا بأن العلم على قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية وتكلم على فرض العين ثم قال : أما فرض الكفاية فهو العلم الذى لا يتعلق بحالة الإنسان فيجب على الأمة أن تكون منهم طائفة يتفقهون فى الدين ليكونوا قدوة المسلمين ؛ حفظا للشرع من الضياع ، والذى يتعين لهذا من الناس من جاد حفظه وحسن إدراكه وطابت سجيته .

١٠ ـــ أما أئمة الحنفية ، والحنابلة فقد نقل ابن الحاجب فى مختصره وابن الساعاتى فى كتابه البديع أنهم قالوا :

لا يجوز خلو العصر من مجتهد لأن الاجتهاد فرض كفاية ، والخلو منه يستلزم اتفاق الأمة على الباطل .

هل يجوز خلو الزمان من مجتهد ؟ :

قال الإمام الجلال السيوطى :

نص العلماء على أن الدهر لا يخلو من مجتهد وأنه لا يجوز خلو العصر منه .

١ ــ فذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجوز خلو الزمان من مجتهد لقوله صلى الله عليه وسلم (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله). رواه الشيخان وغيرهما . قالوا : لأن الاجتهاد فرض كفاية فيستلزم انتفاؤه اتفاق المسلمين على الباطل ، وذلك محال لعصمة الأمة من اجتماعها على الباطل .

٢ ــ وقال الإمام الزركشى فى البحر : لم ينفرد بذلك الحنابلة بل جزم به أيضاً جماعة من الشافعية منهم الأستاذ أبو إسحق فقد قال: وتحت قول الفقهاء لا يخلى الله زمانا من قائم لله بالحجة ، سر عظيم وكأن الله تعالى ألهمهم ذلك . ومعناه : أن الله تعالى لو أخلى زمانا من قائم بالحجة لزال التكليف ، إذ التكليف لا يثبت إلا بالحجة الظاهرة ، وإذا زال التكليف بطلت أحكام الشريعة . ومنهم الزبيدى فقد قال فى المسكت : لن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة فى كل وقت وعهد وزمان : لأنه لو فقد المجتهدون لم تقم الفرائض كلها ، ولو بطلت الفرائض لحلت النقمة بذلك فى الخلق ، كما جاء فى الخبر : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » .

وقد نقل هذه العبارة الزركشى فى المحيط وقال : إن وجه ذلك أن الخلو من مجتهد يلزم منه اجتماع الأمة على الخطأ وهو ترك الاجتهاد الذى هو فرض كفاية .

٣ ــ وعلق الجلال السيوطى على عبارة الأستاذ أبى إسحق السابقة فقال : قول الأستاذ أبى إسحق : كأن الله ألهمهم ذلك ، يشعر بأنه لم يقف له على مستند من الحديث مع أن له مستندا : أخرج أبو نعيم فى الحلية عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « إن الله أجل على خلقه من أن يخلى الأرض من قائم له بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما باطنا مستوراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك هم الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً » . وهذا موقوف له حكم الرفع لأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأى .

٤ ــ وقال إمام الحرمين فى البرهان : إذا خلا الزمان من مجتهد صار كزمان الفترة أى فتتعطل أحكام الشريعة ويبطل التكليف .

٥ ــ ونقل ابن عرفة عن ابن عبد السلام ــ وهما من أئمة المالكية : لا يخلو الزمان من مجتهد إلى زمن انقطاع العلم ، كما أخبر به صلى الله عليه وسلم وإلا كانت الأمة مجمعة على الخطأ .

٦ ــ وقال الجلال السيوطى :

أقام الله فى الأعصار ، قائما لله بالحجة من العلماء الأحبار ، وضمن حفظ شريعة نبيه المختار ، بطائفة من أمته موعودين بالنصر والإظهار ، وخص شريعة رسوله محمد

بالاستمرار ، كما خص أمته ببقاء المجتهدين فيها على مرور الأعصار ، ولقد غلب على الناس الجهل ، فاستعظموا دعوى الاجتهاد ، وعدوه منكراً بين العباد ، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات فى كل عصر ، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل قطر .

هل يعتبر فى المجتهدين عدد التواتر ؟ :

١ — نقل ابن عرفة عن الفخر الرازى أنه قال فى المحصول :

لو بقى من المجتهدين واحد - والعياذ بالله تعالى - كان قوله حجة .

قال الجلال السيوطى : فاستعاذتهم تدل على بقاء المجتهدين فى عصرهم . والفخر الرازى توفى سنة ٦٠٦ هـ .

٢ — وقال التبريزى فى تنقيح المحصول :

لا يعتبر فى المجمعين عدد التواتر ، فلو انتهوا - والعياذ بالله تعالى - إلى ثلاثة ، كان إجماعهم حجة ؛ ولو لم يبق إلا واحد كان قوله حجة ؛ لأنه كل الأمة ، وإن كان ينبو عنه لفظ الإجماع .

٣ — وقال الزركشى فى البحر .

قال الأستاذ أبو إسحق : يجوز أن لا يبقى فى الدهر إلا مجتهد واحد ، ولو اتفق ذلك فقوله حجة كالإجماع ، ويجوز أن يقال للواحد أمة كما قال تعالى : « إن إبراهيم كان أمة » . ونقله الهندى عن الأكثرين ، وبه جزم ابن شريح فى كتاب الودائع فقال : « وحقيقة الإجماع هو القول بالحق ، فإذا حصل القول بالحق من واحد فهو إجماع » .

كم يلزم لكل قطر من المجتهدين ؟ :

١ — قال إمام الحرمين فى النهاية يقوم الشرع بالمجتهدين ، ويجب أن يكون فى كل قطر من يراجع أحكام الله تعالى ، وقد قال الفقهاء : يجب أن يعتبر فى هذا مسافة القصر ، فإذا سكن مجتهد بقعة استقل به من هو على مسافة القصر منه فى الجوانب .

٢ — وقال الزركشى فى القواعد والبحر :

لا بد أن يكون وجود المجتهد من فروض الكفاية ، ولا بد أن يكون فى كل قطر من يقوم به الكفاية ، ولهذا قالوا : إن الاجتهاد من فروض الكفاية .

وهنا يبدو تساؤل من جانب أهل العلم .

هل الاجتهاد وهو فرض كفائى لا يزال ماثلا إلى عصرنا الذى نعيش فيه ولا تزال رسالته مرفوعة اللواء مبسوطة الرواق قائمة ماثلة ؟ .

يقيننا أن الاجتهاد ليس متحققا بمعناه الذى أفاضت فيه علماء الفروع فى أمهات أسفارهم مما قد نعود إليه فى فرصة سانحة إن شاء الله .

عباس طه

ظاهرة التفخيم بين الفصحى والعامية

للأستاذ الدكتور تمام حسان

يحلو لكثير من الناس أن ينتقصوا من خطر دراسة اللهجات العامية المعاصرة ، ويرون الاهتمام بهذه الدراسة ضربا من مزاحمة الفصحى والانصراف عنها ، أو نوعا من أنواع الترف العقلى الذى لا طائل تحته ، إن لم يكن عبثا لا يقره عرف ولا مصلحة . الحوق أن دراسة اللهجات العامية ليست جديدة على علماء العربية ، فقد فطن الأقدمون من جلة العلماء إلى أن اللغة العربية الفصحى كانت تتأثر فى نطقها ونظامها الصوتى بالعاميات القبلية ، وكان من المعروف معرفة لا تحتاج إلى بيان أن العربى بين أهله وأبناء عمومته لم يكن يتكلم تلك اللغة الفصحى الأدبية التى ندرسها الآن فى بطون الكتب ، وإنما كان يتكلم لهجة خاصة بقبيلته ، بينها وبين الفصحى رحم ونسب ، ولكن بين هذه وتلك فى نفس الوقت وجوه خلاف من الناحية الصوتية النطقية ، ومن نواحى الصرف والنحو ومفردات المعجم . حتى إذا ما أراد صاحب هذه العامية القبلية أن ينطق باللغة الفصحى المعهودة فعل ذلك وهو واقع تحت سيطرة عاداته اللغوية فى تلك النواحى المذكورة جميعا . ومن هنا جاءت التلتلة والطمطمانية والكشكشة والعنعنة وهلم جرا ، كما جاءت الإمالة والتسهيل وغيرهما .

ونستطيع أن نقيس موقف القبائل العربية المختلفة فى صبغ نطق الفصحى بصبغة لهجاتها العامية على موقف العرب المعاصرين حين يفعلون ذلك . فنحن إذ نسمع اللغة الفصحى على ألسنة المغاربة وأبناء الإقليم الجنوبى وأهل الشام وأبناء الجزيرة والعراقيين والسودانيين نستطيع بشىء من التأمل أن نرد ألفاظها الفصيحة إلى الإقليم الذى جاء منه من ينطقها . فالجيم الفصيحة فى يومنا هذا حرف شمسى على ألسنة العراقيين وبعض أهل الصعيد ، وحرف قمرى عند غيرهم من العرب . ويمكن تحقيق ذلك بالاستماع إلى إذاعة بغداد ، أو إعطاء نص أدبى لأحد أبناء العراق ليقرأه بصوت مسموع ، والجيم نفسها تختلف فى نطقها على ألسنة العرب فى أقاليمهم المختلفة بين التعطيش والإرواء ، وتستطيع أن تطلب إلى خليط من أبناء الأقاليم العربية المختلفة أن يتلوا بصوت مسموع قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل

من قلبين فى جوفه » ، إنهم إذا لم يكونوا قد تمرسوا بأساليب القراء والمجودين فستسمع هذه الآية منهم وقد اختلف نطق جيماتها اختلافا كبيرا : إذ ينطقها القاهرى شديدة مرواة على حسب لهجته ، وينطقها الدمشقى رخوة ظاهرة التعطيش ،كما لو كانت شينا مجرورة ، وينطقها الصعيدى والسودانى مركبة من عنصرى الشدة والرخاوة إذ تبدأ شديدة وتنتهى رخوة معطشة ، وهلم جرا .

ونستطيع أن نستبين مثل هذا الاختلاف فى تفخيم الحروف وترقيقها فى نطق الفصحى بحسب العادات النطقية العامية ، حين يتكلم عدد من أبناء الأقاليم المختلفة بعبارة معينة ، فلو أعطينا عبارة « اتفاقية الهدنة » للمذيعين بإذاعة القاهرة لراعنا اختلافهم فيها تفخيما وترقيقا ، ولوجدنا أن مذيعاً كالسيد نبيل بدر مثلا يفخم الفاء فى هذه العبارة تفخيما واضحا ، على حين يختلف الآخرون فى ترقيقها بين الاعتدال والتطرف ، وإن طريقة نطق نبيل بدر من ناحية التفخيم والترقيق لتذكرنى بنطق أستاذنا السباعى بيومى ، مما يجعلنى أرجح انتسابهما إلى إقليم واحد ، ولهجة واحدة من لهجات مديرية الغربية ، ونستطيع كذلك أن ندرك اختلاف العرب فى نطق الفصحى بالنسبة للكلمات المنتهية بتاء التأنيث إذ يختلفون فى الفتحة التى قبل هذه التاء بين الصراحة والإمالة .

فإذا كان نطق الفصحى فى القديم والحديث عرضة لنفوذ اللهجات العامية ، فلا أرى وجها لموقف الذين ينتقصون من خطر دراسة اللهجات العامية ؛ ذلك بأن دراسة هذه اللهجات دراسة مستفيضة تفتح لنا آفاقا جديدة فى فهم الظواهر المختلفة فى اللغة الفصحى التى هى رباط القومية العربية ، ولغة الكتاب الكريم .

وأود الآن أن أوضح الفرق بين نظام التفخيم فى اللغة الفصحى وبينه فى لهجة عامية معاصرة هى لهجة الكرنك بمديرية قنا ، وهى ليست الكرنك الشهيرة بآثارها بمركز الأقصر وإنما هى قرية أخرى إلى الشمال منها بقرب فرشوط ، وترتبط مع عدد كبير من القرى المحيطة بها برباط الانتساب إلى قبيلة القليعات من قبائل هوارة ، تلك هى القرية التى نشأت فيها ، وأتيت منها ، ولا أزال أنتسب إليها .

والتفخيم أثر صوتى فى النطق ناشئ عن تكييف تجويف الفم بكيفية خاصة باعتباره حجرة رنين ، ويحدث هذا التكييف نتيجة لرفع مؤخر اللسان أثناء النطق حتى يقرب من الجزء اللحمى المتحرك من سقف الفم ، وهو الذى أسميه « الطبق » . ذلك أن سقف الفم مكون من ثلاثة أجزاء هى : اللثة أو مغارز الأسنان فى المقدمة ، والغار أو الجزء العظمى من سقف الفم وهو يوجد فيما يتلو اللثة إلى

الخلف ، ثم الطبق وهو الجزء اللحمى الذى يلى الغار وينتهى باللهاة ، وكل ارتفاع فى مؤخر اللسان المقابل للطبق يسمى «استعلاء» عند علماء التجويد ، ثم إن هـذا الاستعلاء إلى الطبق لا يخـلو من أن يكون إما نطقا فى مخرج الطبق وإما إطباقا ، فإذا بلغ اللسان فى ارتفاعه الطبق ولصق به فهذا نطق فى مخرج الطبق أى المخرج الذى كان علمـاء التجويد يسمونه « أدنى الحلق إلى الفم » ، وهو مخرج الغين والخاء ، ثم يقع مخرج القاف خلفهما فى اللهاة ، أما إذا لم يصـل ارتفاع مؤخر اللسان إلى حـد الالتصاق بالطبق ، وكان مخرج الصوت فى مكان آخر غير الطبق فذلك هو الإطباق وهو صفة الصاد والضاد والطاء والظاء ، ولمـا كان مفهوم الاستعلاء قاصرا على حالتى الإطباق والنطق فى مخرج الطبق ، كانت الأصوات المستعلية فى اللغـة العربية هى الأصوات المطبقة والأصوات الطبقية ، وكل ما عدا ذلك فهو من الأصوات المستفلة لا المستعلية .

يقول ابن الجزرى فى الجزء الأول من كتاب النشر فى القراءات العشر ص ٢١٥ : « فاعلم أن الحروف المستفلة كلها مرققة لا يجوز تفخيم شىء منها ، إلا اللام من اسم الله تعالى بعد فتحة أو ضمة إجماعا ، أو بعد بعض حروف الإطباق فى بعض الروايات ، وإلا الراء المضمومة أو المفتوحة مطلقا فى أكثر الروايات ، والساكنة فى بعض الأحوال ، كما سيأتى تفصيل ذلك فى بابه إن شاء الله تعالى . والحروف المستعلية كلها مفخمة ، لا يستثنى شىء منها فى حال من الأحوال » .

ويقول عنـد ذكـر حروف الاستعلاء فى ص ٢٠٢ من نفس الجزء : « وهى سبعة يجمعها قولك : قظ خص ضغط ، وهى حروف التفخيم على الصواب . وأعلاها الطاء ، كما أن أسفل المستفلة الياء . وقيل حروف التفخيم هى حروف الإطباق ، ولا شك أنها أقواها تفخيما » .

ويمكن عند النظر فى هاتين العبارتين من عبارات ابن الجزرى أن نستخلص ما يأتى :

١ — أن التفخيم فى اللغة العربية الفصحى مرتبط بحروف معينة ، وفى كل موقع تقع فيه هذه الحروف ، وتلك هى حروف الاستعلاء .

٢ — أن بعض الحروف المستفلة كالراء واللام قد تستعلى فى بعض المواضع فيلحقها التفخيم ، ومفهوم أن الاستعلاء يكون برفع مؤخر اللسان أثناء نطقها .

٣ — أن التفخيم يقع فى درجتين على الأقل : إحداهما أقوى ، وهى درجة تفخيم الحروف المطبقة ، والثانية قوية ، وهى درجة تفخيم الحروف الثلاثة الطبقية .

٤ — أن القاعدة العامة فى الحروف المستفلة أن تكون مرققة دائما وفى كل المواضع .

تلك هى الخطوط العامة للتفخيم فى اللغة الفصحى ؛ أما فى اللهجات العامية فالأمر مختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، ولكل لهجة منها نظامها التفخيمى الخاص . وتلتقى هذه اللهجات جميعا مع الفصحى فى الالتزام بتفخيم الأربعة المطبقة وهى الصاد والضاد والطاء والظاء . أما الطبقية الثلاثة وهى القاف والغين والخاء فإن حكمها فى التفخيم والترقيق يباين حكم الأربعة المطبقة ، فتفخم فى هذه العاميات حينا وترقق حينا آخر ؛ وكذلك بقية الحروف يلحقها التفخيم أو يلحقها الترقيق بحسب الموقع .

لقد قلت إننى سأختار لهجة بعينها لمقارنتها باللغة الفصحى من حيث التفخيم والترقيق ، ووعدت بأن تكون هذه اللهجة هى لهجة الكرنك ، أى لهجتى التى نشأت عليها .

إن الحروف فى هذه اللهجة تنقسم بالنسبة لدراسة التفخيم إلى مجموعات خمس ؛ ولكل مجموعة منها سلوك تفخيمى خاص يختلف عن سلوك بقية المجموعات ، تلك المجموعات هى :

١ — ص ـ ض ـ ط ـ ظ ـ وهى المجموعة المطبقة أى التى يرتفع مؤخر اللسان فى نطقها مع أن مخرجها عند مقدم اللسان

٢ — ر ، وهى تكرارية مخرجها اللثة

٣ — خ ـ غ ـ ك ـ ك ، وهى المجموعة التى تخرج من مخرج الطبق فى هذه اللهجة ، ونطق الأخير وهو القاف منها كنطق الجيم القاهرية .

٤ — ب ، م ، و ، ف ثم ح ، ع ، ء ، ه وهى مجموعة المخارج القصوى ، حيث تخرج الأربعة الأولى من مخرج شفوى ، على حين تخرج الأربعة الأخيرة من مخرج حلق أو حنجرى .

٥ — ت ، د ، س ، ز ، ل ، ن ، ج ، ش ، ى ، ويضاف إليها الكسرة الصريحة والخفضة التى بين الكسرة والفتحة والتى تشبه صوت الإمالة ، وتلك هى مجموعة مقدم اللسان .

ونحن نرى من وصف هذه المجموعات بالإطباق والتكرار والطبقية وهلم جرا أن كل مجموعة منها تربطها رابطة مخرجية خاصة . والمجموعة الأولى مفخمة دائما وفى جميع الأحوال ، ولكن كل حرف من حروف المجموعات الأخرى إنما يلحقه التفخيم أو الترقيق بحسب الموقع . ومن هنا صح أن نعتبر التفخيم فى هذه اللهجة وغيرها من العاميات ظاهرة من الظواهر الموقعية ، مثله فى ذلك مثل همزة الوصل ، تظهر فى موقع من الكلام ، وتختفى فى موقع آخر فلا تنطق .

وإذ نجد الحروف مقسمة هذا التقسيم لا بد أن نتوقع وجود قاعدة تكمن وراء

هذه القسمة ، وهو توقع له ما يبرره ، لأن أى تقسيم دراسى لا بد أن يستند إلى سند من التوافق والتخالف بحيث يكون من الأقسام المتكاملة نظام عام تعبر عنه القاعدة المستنبطة من مفردات الاستقراء . هذه القاعدة هى :

١ — حروف المجموعة الأولى مفخمة فى كل المواقع والأحوال ، وكل ما يسبق حرفا منها فى الكلمة فهو مفخم مثله مهما كانت المجموعة التى ينتمى إليها . فالتفخيم صفة كل حرف من حروف الأفعال الماضية الآتية التى ينتهى كل منها بأحد حروف المجموعة الأولى :

رقص — خبص — خبط — سمط — هبط — عرض — نفض — لفظ — شفط

ثم هو صفة الحرف المطبق وما سبقه فى الأفعال الآتية :

وصف — رطن — قطع — سطل — رطز — حصب — حضن — لطف .

٢ — كل حرف يسبق الراء فهو مفخم مثلها ، إلا إذا سبق بكسرة أو خفضة تشبه الحركة الممالة ، وهما غير مسبوقتين بأحد حروف المجموعة الأولى ، وإلا إذا كانت الراء متلوة بحرف من حروف المجموعة الخامسة . ففى هاتين الحالتين ترقق الراء وما قبلها .

مثال ما استوفى شروط التفخيم فى الكلمة بكل حروفها هو الأفعال الآتية :

خمر — قشر — عبر — بتر — نقر — زمر — ندر .

ومثال ما استوفاهما فى الحرفين الأولين :

شرم — برك — فرم — عرك — برق جرح — شرح — شرع .

ومثال ما فقد فيه شرط التفخيم لأن الراء متلوة بحرف من حروف المجموعة الخامسة ، ومن ثم رفقت الراء وما قبلها :

غرز — قرش — جرس — شرد — هرس — حرث — فرش .

ومثال ما فقد منه شرط التفخيم لأن الراء مسبوقة بكسرة أو خفضة تشبه الحركة الممالة غير مسبوقتين بحرف من حروف المجموعة الأولى :

سيرة — خميرة — غيرة — سروال — غربال — برباوى . فإذا سبقت الكسرة أو الخفضة بحرف من المجموعة الأولى فخمت الراء نحو : طيرة — صيرة — فطيرة — ضراضر .

٣ — كل ما سبق حرفا من حروف المجموعة الثالثة فهو مفخم إلا :

(ا) حين يكون أول الكلمة ووسطها من حروف المجموعة الرابعة أو الخامسة أو كلتيهما .

(ب) حين يكون الوسط حرفا من حروف المجموعة الخامسة.

مثال ما استوفى شروط التفخيم الأفعال الآتية :

رقم — رمح — قمع — صبغ — فقع — خمع — نكف .

ومثال ما كان أوله ووسطه من المجموعة الرابعة أو الخامسة أو كلتيهما بأى ترتيب :

مسك — دلق — سلق — نهب — تلف — سلب — جلب — شلف — بزق .

ومثال ما كان وسطه من المجموعة الخامسة:

رزع — خلف — غلب — خدم — كسف — كتب — هدم — ردم .

وهذه الكلمات التى لم تستوف الشروط مرققة بجميع حروفها .

٤ — إذا انتهت الكلمة بحرف من حروف المجموعة الخامسة فهى مرققة بجميع حروفها إلا إذا كان هذا الأخير مسبوقا بحرف من حروف المجموعة الأولى إذ يظل حرف المجموعة الأولى مفخما وينسحب التفخيم على ما قبله .

مثال ما لم يكن به حرف من حروف المجموعة الأولى :

غسل — كبس — غزل — حبس — هرش — فرش .

فإذا كان ثمة حرف من المجموعة الأولى بقى مفخما مع ما سبقه كما مضى بيان ذلك تحت قاعدة هذه المجموعة .

من هذا يتضح أن مسلك التفخيم فى اللغة الفصحى غيره فى العامية وأنا أعتقد أن طريقة تقسيم الحروف إلى مجموعات تفخيمية هى طريقة صالحة لأن تتبع فى كل اللهجات العامية فى البلاد العربية . وقد جربتها بنجاح فى دراستى للهجة عدن فى جنوب بلاد العرب وثبت لى أنها صالحة فى دراسة لهجة القاهرة .

وإذا كانت هذه اللهجات مجموعة من العادات النطقية التى تختلف فى إقليم عنها فى الإقليم الآخر ، وكانت هذه العادات من التأصل فى نفوس أصحابها والسيطرة على ألسنتهم ، بحيث تؤثر فى نطقهم اللغة الفصحى ، وقراءة القرآن الكريم ، وإذا كان أسلافنا العرب قد احتفلوا بأثر هذه اللهجات عند قبائل العرب فى كلام أفرادها باللغة الفصحى، فسجلوا من ظواهرها ما سجلوا ، فلست أرى حجة لمن قام يهجن دراسة اللهجات الحديثة العربية ، فكما كانت دراسة اللهجات القبلية القديمة فى خدمة الفصحى فى القديم ، تكون دراسة اللهجات الحديثة فى خدمة الفصحى المعاصرة ؟ .

دكتور تمام حسان

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم

الإسلام والثقافة الإفريقية

للأستاذ عباس محمود العقاد

من تصانيف العصر النافعة كتب مخصصة لتسجيل مظاهر الثقافة ، يوشك أن تنحصر فى الأرقام والخرائط مع بعض التعليقات التى توضح بالكلام أغراض الرسوم والإحصاءات ، وهى رسوم تمثل النسب المتقابلة فى توزيع اللغات والعقائد والفنون والنظم الاجتماعية ، وتقرن أحيانا بالخرائط الجغرافية أو يكتفى فيها بجداول الإحصاء وعلامات النسب البيانية ، وقلما تشتمل هذه التصانيف على آراء خاصة لمؤلفيها أو على الأصح لجامعيها ومبوبيها ، بل هى تترك للقارئ أن يبحث لنفسه ويراجع ما شاء على حسب قصده ، ويبنى ما يعن له من الآراء على بحوثه ومراجعاته .

والقارة الإفريقية أوفر القارات الخمس حظا من هذه التصانيف ، وبخاصة فى هذه السنة الستين بحساب التقويم الميلادى ، لأنهم أطلقوا عليها اسم « سنة الفصل فى القارة القديمة » لاتخاذها فى كثير من أقطار القارة حدا فاصلا لتوقيت مواعيد الانتقال من نظام الانتداب إلى نظام الحكم الذاتى أو الاستقلال أو الحقوق الدستورية .

ولا يخفى على القارئ من النظرة العاجلة فى هذه الكتب مبلغ الاهتمام بالإسلام ومصيره فى القارة القديمة ، وما يتبين للباحث من عوامل الثبات أو عوامل المزاحمة التى تنازعه الغلبة على مقاليد الثقافة الروحية والفكرية .

وفى هذا المقال نعرض بعض الأمثلة لتلك التسجيلات مقتبسة من مصادر مختلفة أشهرها وأحدثها كتاب « الاستمرار والتغير فى الثقافات الإفريقية [1] من مطبوعات جامعة شيكاجو وشركائها فى البلاد الانجليزية » .

وأثر اللغة أول الآثار التى يدركها الإحصاء وتظهر فيها الفوارق بين موضع وموضع ، من البلاد التى تتكلم العربية إلى البلاد التى تتكلم بلهجات متعددة من الألسنة الزنجية ، ففى هذه البلاد تسرى الكلمات العربية بمخارجها الأصيلة أو المحرفة بين قبائل السود حيثما اتصلت بالمسلمين ، ولو لم يدخل أهلها فى الديانة الإسلامية .

---

(1) Continuity and Change in African Cultures.

ويؤخذ من الإحصاءات الأخيرة أن أبناء القارة يتكلمون بنحو سبعمائة لهجة ليس بينها غير أربع صالحات للكتابة بحروف أبجدية ، أولها العربية ثم الأمهرية الحبشية ثم لغة (تماشق) البربرية ثم لغة (فاى) فى ليبيريا ، وهذه إحدى العقبات الكبرى أمام المرسلين المبشرين الذين يفتحون المدارس لتعليم الإفريقيين ، فإنهم يلقون المصاعب الكثيرة لإقناع الإفريقيين بتعلم اللغات الأوربية ويلقون أكثر من هذه المصاعب فى نشر التعليم باللهجات الإفريقية ، ولكن هذه العقبات تتراجع أمام اللغة العربية التى يتكلمها فى القارة نحو سبعين مليونا ولا يتعسر على من يريدون نشرها ويبذلون الجهد فى تعليمها أن يجعلوها لغة الثقافة العامة ، لو أنهم توفروا على تعميم المدارس كما يتوفر المرسلون المبشرون على تعميم مدارس التبشير.

ويفهم من الإحصاءات أيضا أن الإسلام سريع الانتشار ولكن العلم به « سطحى » بين قبائل القارة الأصلاء ، ومن آثاره (الحضارية) حتى فى البلاد التى لا تدين به أن كهانها يتشبهون بشيوخ المسلمين فى أزيائهم وأن القبائل التى تهتم بمحاربة السحر والساحرات من أهل « النيجر » يشتركون مع المسلمين فى استخدام الذرائع التى يحسبونها ناجعة فى إبطال السحر والمكائد السحرية وربما اختلط الأمر فلا يدرى الباحث أى الفريقين يقتدى بالآخر فى استخدام الرقى والتعاويذ .

وقد لوحظ أن الشبان من قبائل (الموسى) Mossi أقرب إلى اقتباس العقائد الإسلامية ، ويعودون إلى أهلهم من بلاد (النيجر) مسلمين متحمسين فى الدعوة إلى عقيدتهم الجديدة ، ثم يقول مؤلفو الكتاب إن هؤلاء الشبان أصغر سنا من أن يسمع لهم بين قومهم ، ولكنهم إذا طال مقامهم بين القبائل الإسلامية وعادوا إلى أهلهم بعد مجاوزة الشباب تفتر حماستهم ويقنعون بما يعتقدونه بينهم وبين أنفسهم ولا يكترثون لإقناع الآخرين بما اكتسبوه من شعائر وأخلاق .

ويرجع فضل العناية بالأبنية وتزيينها بإفريقية الغربية إلى الحضارة الإسلامية التى تأصلت فى الشمال وسرت منه إلى الغرب والجنوب .. « فإن تأثير فن العمارة فى شمال إفريقية ظاهر على أنحاء الصحراء إلى المغرب ، حيث تزدان مساكن الوجهاء بالرسوم الهندسية » ... وقد يرجع كثير من الفضل إلى الاقتداء بالمسلمين فى اتخاذ الملابس حيث لا تستدعيها ضرورات الجو والحاجة ، ويتبع ذلك فضل الاهتمام بصناعات النسيج والحياكة وما إليها .

وتدل البقايا والآثار على قدم صناعة المعادن من الذهب والفضة والشبه فى أقطار

القارة ، ولكن العرب هم الذين توسعوا فى كشف المناجم بعد وصولهم إلى إفريقية الشرقية وتمكنوا من استخراج المقادير الوافرة وتصديرها إلى العالم الإسلامى كله فترة بعد فترة من القرون الوسطى .

ويذكر المؤلفون أثر العرب وأثر الأوربيين والأمريكيين فى حياة الفنون الإفريقية ، فيلاحظون أن سريان الذوق الفنى من قبل العرب لم يهدد كيان الفنون الوطنية بالزوال ولم يطمس معالمها التى تحفظ وجودها وتميزها من الفنون الطارئة عليها ، ولكن القدوة بالأوربيين والأمريكيين أوشكت أن تذهب بالمزايا « المشخصة » للروح الإفريقية وكادت أن تمحو معالمها جميعا لولا انتباه المسؤلين إلى هذا الخطر البالغ من الوجهة « الاثنولوجية » - أى وجهة علم الأجناس - وإسراعهم إلى تدارك البقية الباقية بإنشاء المعاهد والجماعات التى يتعاون فيها الأجانب والوطنيون على حفظ قواعد الفنون ، وإبرازها فى صورتها العصرية ، دون الإخلال بمعانيها التاريخية وسماتها القومية .

والموسيقى إحدى الفنون الجميلة التى انتفعت بدخول المسلمين إلى القاهرة فى كل جانب من جوانبها ، « وقد عرف أثر الموسيقى العربية - كما يقول المؤلفون - وتكرر الاعتراف به كرة بعد كرة ، إلا أنه لم يلق من الدراسة الوافية ما يحيط بجميع نواحيه ، فلا محل للخلاف فى تغلغل هذا الأثر بين أبناء إفريقية الصحراوية ، ولا بين أبناء غانة وشواطئها ، ولا بين أبناء السودان الشرقى وجهات الصومال ولكنه أثر غير واضح ولا مفسر إلى الجنوب من تلك الأقاليم ، وإن يكن ولا شك قويا فى الشاطئ الشمالى والأقاليم الوسطى » .

ويكثر المؤلفون من بيان المصطلحات الفنية وتطبيقها على الأنغام والأصوات ، فى موسيقى القبائل على تفاوت درجاتها من الحضارة والتهذيب ، ولكنهم يذكرون أن (الإيقاع الحار) ، يقل بين القبائل كلما توشجت علاقاتها بالمسلمين ، ويعنون بالإيقاع الحار تلك الحركات العنيفة التى يتتابع فيها الدق والقفز ويوشك الرقص الذى يصاحبها أن يكون تخبطاً عارما ، كتخبط المصروع والمخبول ، ويضاف إلى هذا الأثر المهذب الملطف للذوق والشعور أثر مثله فى أصوات الغناء وتعبيرات الألفاظ ، فلا يصعب على السامع تمييز الأغانى التى ينشدها الزنوج المغرفون فى الهمجية من أغانى الزنوج الذين دانوا بالإسلام أو اتصلوا بالمسلمين ولو لم يدخلو فى الديانة الإسلامية ، فإن الإيقاع « الحار » يندر بين أبناء القبائل التى فارقت همجيتها واقتربت من مواطن العرب المسلمين .

ويشير الكتاب إلى فعل التبشير فى تغيير

الثقافة فيعزو نجاحه حيث نجح إلى تنظيم المدرسة والإشراف على التعليم ، ويقول : « إن جماعات المرسلين ذات شأن فى بلاد النيجر وفى غيرها من البلاد الإفريقية ، ولا يحسب لها هذا الشأن لأنها جاءت إلى أهل البلاد بعقائد جديدة وشعائر مستحدثة وحسب ، بل يقوم شأنها بصفة خاصة على ولايتهالمعظم أعمال التدريس ، ولا يبدو أن هناك شيئا فريداً فيما صنعه المرسلون ببلاد قبيلة (الايبو) قياساً إلى سائر القبائل النجيرية وإن كانت قد بدأت متأخرة بعد ابتدائها فى الجنوب الغربى . أما فى شمال نيجيريا فلم يتسع قط عمل المرسلين لقيام النفوذ الإسلامى هناك ، وإنه لواسع الأثر إلى الجنوب سعته إلى الشرق والغرب الجنوبيين » .

* * *

وتلم الإحصاءات أحيانا بالجوانب الأخلاقية والاجتماعية التى ترتبط بها رعاية الأنساب والأعراض ، فيفهم منها أنها تغيرت كثيراً أو قليلا على قدر اتصالها بالديانتين الإسلامية والمسيحية ، ولكن هذا التغيير لم ينتزع جذور الخرافات القديمة ولم يبطل إيمان القوم بالسحرة والأرواح وأنواع المحظورات التى قدستها التقاليد من أقدم عصور التاريخ المجهول ، وهى بين جوانب القارة الإفريقية توغل فى القدم إلى ما قبل آلاف السنين ولم تنصرم بعد فى أرجاء منها تكتنفها ظلمات المجهول إلى اليوم ، وربما تسربت هذه الخرافات إلى شعائر الإسلام والمسيحية واعتبرها القوم مجالا منفصلا عن مجال العبادة والإيمان ، فهم يقتدون فيها بسحرتهم وشيوخهم ولا يبتغون فيها الهداية من الشيخ أو القسيس .

* * *

ونحن نختم هذا المقال وبين أيدينا بريد الغرب من الصحف والمجلات التى تفرد بعض أبوابها للمسائل الدينية ، نفتح إحداها على باب الدين فنقرأ فيها عنوان « الغزوة لصيد الأرواح » ويسمى الكاتب هذه الغزوة باسمها فى اللغة السواحلية وهو اسم « السفرة » من السفر باللغة العربية . . . ويطلقونه على حملات الصيد التى تخرج إلى الغابات والقفار مزودة بعدتها الكاملة لاصطياد الفيلة والسباع .

أما هذه الغزوة لاصطياد الأرواح

Safari for souls

فقائدها هو الواعظ الإنجيلى المشهور بيلى جراهام وغايتها الطواف بالقارة والنزول بست عشرة مدينة من مدنها المشهورة خلال ستة أسابيع يلتقى فيها بالجموع التى تخف إلى استقباله أو يدفعها حكامها إلى محافله

واجتماعاته ، ويصطحب فى ركابه مترجمين من الوطنيين والأجانب يتكلمون لغات القبائل ويستطيعون أن ينقلوا منها ما يستمعونه من لسانه على أثر إلقائه . وقد بدأ الواعظ غزوته وهو يقول للصحف (إن سنة ١٩٦٠ ربما كانت أهم سنة فى تاريخ هذه القارة ونقلت الصحيفة طرفا من خطابه الأول فكان مثالا جلياً لخطة هذا الواعظ القدير فى سياسة التبشير ، لأنه بدأه باسم السيد المسيح الذى قال عنه إنه ليس بأبيض ولا أسود ، ولكنه حمل إلى القارة الإفريقية وهو طفل صغير للنجاة به من مظالم الملك هيرود ، ثم أنحى على الإنسان « ذى الريالين » يعنى به ظاهرا ذلك الإنسان المادى الذى لا يساوى أكثر من ريالات معدودة إذا قدرت قيمته بثمن لحمه وعظمه فى أسواق الأبدان ، ويعنى به من طرف بعيد أن قيمة الأسود بتقويم الروح أغلى من أثمان أصحاب الريالات ، ومن ثمن الإنسان ذى الريالين !

وستعقب هذه الغزوة غزوات على مثالها كما يظهر من البرنامج المرسوم لسنة الفصل - سنة ١٩٦٠ - فى تقدير الساسة والمرسلين ، وليس لنا أن نلوم غازيا من هؤلاء الغزاة على اجتهاده فى دعوته وتدبيره لنجاح مقصده ، بل ليس لنا أن نلوم أوربيا أو أمريكيا لأنه يحاول أن يعرف عن إفريقية والإفريقيين ما يتعلمه منه الإفريقيون ، ويكسب به من طريق الآخرة ما فاته من طريق الدنيا الحاضرة ... ولكننا نرجو أن نلحق بهم فى هذا المجال ، وأن نحفظ القارة التى تأوينا ذمار الوطن المستقل الآمن على فكره وضميره أن يقاد فى أذيال الواغلين عليه ، ليصطبغ بغير صبغته فى الحياتين ، ويخلص من فتح الديار إلى فتح الضمائر والأفكار ؟ .

عباس محمود العقاد

دمشق

سقى دمشق الشام غيث ممرع   من مستهل ديمة دفاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها   فى سائر الدنيا ولا آفاقها
نسيم ريا روضها متى سرى   فك أخا الهموم من وثاقها
لا تسأم العيون والأنوف من   رؤيتها يوما ولا انتشاقها

الوحدة الخالدة

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

أقبل النصر ناشرا أعلامه   فشدا البشر مرسلا أنغامه
وبدا النيل فى الضفاف سعيدا   حينما نال فى الحياة مرامه
بردى فى ضفافه الخضر أبدى   شوقه نحوه ، وأهدى سلامه
وأتتـه أنسامه عطرات   فأطالت عناقه والتزامه
ثم قالت فى رقة وحنان   ها هنا .. ها هنا تطيب الإقامة
أنعم الله بالوصال علينا   فلقينا بشكرنا إنعامه
سوف نحيا كما تشاء الأمانى   لا نرى البعد ، أو نرى أيامه
أنت منى روحى وحبة قلبى   وأنا منك روحك المستهامة
وحدة تجمع القلوب ، فينسى   كل قلب أشجانه وانقسامه
ووفاء يبقى وتفنى الليالى   وإخاء كان الوفاء وسامه

* * *

نحن شعب بنى من المجد صرحا   باذخ الركن ، مستقر الدعامه
وسيعلى البنـاء حتى يراه   يعجز النجم أن يقوم مقامه
عـربى فى سلمه ، عربى   حين يستل للنضال حسامه
لم يهن مرة أمام العوادى   ولكم هانت العوادى أمامه
عرف الدين حين كان سواه   للضلال البعيد ألقى زمامه
عرف العلم كوكبا بسناه   كل أفق يرد عنه ظلامه

عرف العدل فى الحياة رفيقا ورعى عهده ، وصان ذمامه
فهو عند الفخار أبْعَدُ صوتا من سواه ، وأرفع الناس قامه
هكذا نحن أمة تعمل الخير ، وتهدى إلى الصديق سلامه
هكذا نحن أمة تصرع الشر (م) ويلقى العدو منها حمامه
من قديم قد وحدتنا الليالى وسنبقى حتى تقوم القيامه

* * *

يا رعى الله من بنى العُرْب فردا عزمه عزم أمة مقدامه
« ناصرُ » الحق بالكفاح « جمال » لحياة كانت تفيض جهامه
صَارَع الظلم والفساد حصونا فمحا عزمه الحصون المقامه
ورأى الشعب مثقل الخطو من قيد يغطى حديدُه أقدامه
فدعا شعبه ، فثار على القيد ، وألقى إلى الدمار حطامه
وأقام الحياة عدلا ، فصارت فرحة فى قلوبنا وابتسامه
ودعانا إلى البناء ، وأرسى أصله ثابتا ، وخط نظامه
فبدأنا البناء صرحا جديدا وضمنا بعزمنا إتمامه
نحن نبنى لكى نعيش كراما فبناء الأمجاد سر الكرامه
نحن نبنى خيرا إذا راح يبنى غيرنا شره ، ويبنى أثامه
نحن نبنى فليعلم الغرب أنا قد صحونا ، وليطَّرح أوهامه
ورأينا طريقنا ، وعرفنا يوم سرنا على الطريق ختامه
ولدينا زعيمنا ، لعلاه ينظر النجم ، ثم يخفض هامه
يجد الحق نصره فى حماه ويرى الباطل العتى انهزامه
رأيه فى دجى الخطوب منار ولدى مفرق الأمور علامه
وإذا أسرعت إلينا العوادى لم تطق رأيه ولا إقدامه
عربى الخلال ، لو رام شيئا فوق هام السها ، لنال مرامه
راجح العقل ، صائب القول يُلقى رأيه فى صراحة واستقامه
واسع العلم بالأمور ، فرفق حين يُغنى ، أو شدة وصرامه
عبقرى الذكاء يأتى إلى المبهم يمحو فى لمحة إبهامه

يجد الصعب بالإرادة سهلا ويرى الغيب ما ثلا قدامه
ويرى المستحيل عند سواه ممكنا عنده ، ينال اهتمامه
يجر الصخر ، ثم يعليه سدا تتحامى كل الجبال صدامه
يمنع الجدب أن يقيم ، ويدعو موكب الخصب أن يديم الإقامه
يعشق النيل عزمه ، فتراه ثاويا عنده يبث غرامه
فإذا حان للرحيل أوان ودع السد وهو يطوى خيامه
ومضى فى سبيله يتغنى فتغنى ضفافه البسامه
أينما سار ، فالحياة رخاء ونماء وبهجة ووسامه
ذلك السد من أيادي جمال حفظ الله ناصرا وأدامه
وجد الشعب فيه ما يتمنى فارتضاه زعيمه وإمامه
وعلى حبه توحد حتى لم يعد مغرض يثير انقسامه
وبنى دولة أقام بها المجـد ، فصارت أيامها أيامه
هى للدين والعروبة حصن كلما أطلق الزمان سهامه
وقفت موقف الحياد قويا يردع الشر أن يميط لثامه
وبدت ماردا يروع الأعادى فتراهم يخشون حتى كلامه
وأقامت من العدالة حكما تتمنى كل الشعوب نظامه
كل فرد فيه يعين أخاه جاعلا نصب عينه إكرامه
ويراه ما دام يعمل خيرا ، مستحقا تقديره واحترامه
لم يعد حاكم يجور عليه حينما صار أهله حكامه
هذه دولة يباركها الله (م) ويرعى فى ظلها إسلامه
ويعيش المسيح فيها وفيا لبنى ألقى عليه سلامه
قل لمن قد سعى لفك عراها ليس عقبى مسعاك إلا الندامه
ولمن رام أن يَرُوع حماها هل يروع الأسود « بأس ! » النعامة ؟!
هذه دولة الخلود ، فأبشر أنت بالموت ، جانبتك السلامه

* * *

يا ابنة الشرق ، يا ابنت النور والإشـراق ، يا رمز مجده وقوامه

من الأناشيد الدينية :

مُناجاة

للأستاذ علي محمد حسن العماري

يا إلهي . والمناجاةُ رحيق يا إلهي
لك أسلمتُ فبصِّرني طريقي يا إلهي
يا ألهي يا كثيرَ الرَّحماتْ كم تجلتْ
ضلت النفسُ بوادِي الصَّبواتْ وتجنَّتْ

حدثي الغرب أننا قد نهضنا فملكنا من كل مجد زمامه
وملأنا الأيام عزا وعدلا وهي كانت ذليلة مستضامه
حديثه أننا اتحدنا فصرنا دولة المجد والعلا والكرامه
وملكنا من قوة الخير والإصلاح ما يهدم القوى الهدامه
فإذا ما أراد حربا ، فحرب أو سلاماً ، فما نرد سلامه
نحن نبغي الحياة غصنا نضيرا تتغنى على ذراه حمامه

* * *

بارك الله في جمال وشكري فهما قبلة المنى البسامه
أنشآ وحدة ستكبر حتى يصبح الشرق صرحها والدعامه
فاهتني ياربا الخلود وقولي هكذا المجد والعلا والزعامه

إبراهيم محمد نجا

ثم عاشتْ فى ألـيم الذّ كريات ما تهنت
فاعف عنها
وأعـنْها
لا تهنها
يا إلهـى والمناجاةُ رحـيق يا إلهـى
لك أسلمت فبصرنى طريـقى يا إلهـى
يا إلهـى
فى ظـلام الليل فى هـذا السكونْ لك شاهدْ
فى النجوم الزُّهر تهدى الحائرينْ فى الرّواعدْ
آية تنطق بالحـق المبـين أنت واحد
والبدورْ
كالزهورْ
منك نورْ
يا إلهـــى . والمناجاةُ رحيق يا إلهى
لك أسلـْت فَبصّرنى طَـريقى يا إلهى
الطّيور الزغبُ فى العش المنيعْ حَالماتْ
والمرُوجُ الخضرْ فى السهـّل الوَسِيعْ راقداتْ
ورؤى الأطفالِ فى المـْهد الوَدِيعْ بَاسِماتْ
ودُعاها
فى لغاها
وكفاها
يا إلهـى .
يا إلهـى . والمناجاةُ رَحَـيق يا إلهـى

لك أسلمتُ فبصرنى طريقى   يا إلهى
كمْ لهيف فى هدوء الليل ماجا   همّ قلبهْ
وجد الراحة فى النجوى فناجى   فضلَ ربه
لم يجد فى غير نجواك علاجا   فبحسبهِ

فلكَ كربى
أنتَ ربى
لك حبى

يا إلهى

يا إلهى والمناجاةُ رحيقى   يا إلهى
لك أسلمت فبصرنى طريقى   يا إلهى
يا إلهى . يا رفيعَ الدرجات   أنتَ نورْ
لك محياى وما بعد المماتْ   والمصيرْ
ولكَ الملكُ تجُدْ لِى بالهباتْ   يا قدير

وارض عنا
وأجرْنا
حيث كنا

يا إلهى

يا إلهى . والمناجاةُ رحيقى   يا إلهى
لكَ أسلمتُ فبصرنى طريقى   يا إلهى

علي العماري

الكتب

نقد وتعريف

تفسير القرآن

للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

أوشك الجزء الأول من هذا التفسير الكاشف عن أسرار الكتاب العزيز ومراميه أن يصدر عن (دار القلم) وقد صدره الأستاذ الدكتور محمد البهى بمقدمة وجيزة لخصت مزاياه وفصلت مناهجه و ننشرها اليوم ريثما يصدر الجزء فنعود إليه بالتعريف والإبانة .

كانت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية تود أن يكون هذا التفسير للقرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الأكبر، إمام المسلمين وشيخ الجامع الأزهر، الشيخ محمود شلتوت، من بين المطبوعات التى تنشرها فى هذا العام، بعد أن تبرع فضيلته — جزاه الله خيراً — بإنتاجه الخصب فى جميع المجالات الإسلامية لتلك الإدارة كى تضعه فى متناول المسلمين ليرجعوا إليه فى فهم تعاليم الإسلام، وفهم كلام الله فى قرآنه المجيد. وهو إنتاج كرس له حياته العلمية فى غضون خمسين عاماً أو تزيد .

ولكن ما رصد من مال فى بند نشر الثقافة الإسلامية لهذا العام لم يعد يسمح — بعد طبع الكتب الثلاثة لفضيلته — بشراء ورق يغطى حجم «التفسير» لو رغبت فى إخراجه، وانتهزت تلك الفرصة العظيمة التى هيأها فضيلته للإدارة العامة للثقافة الإسلامية بتبرعه بالطبعة الأولى من إنتاجه كله لتوزع على المسلمين فى جميع أنحاء العالم حسبة منه لله سبحانه وتعالى .

وعندئذ — ونظراً لحاجة المسلمين الماسة فى وقتنا الحاضر إلى كتاب لتفسير القرآن الكريم يكون نموذجا فى منهجه وفى يسر الوصول عن طريقه إلى القرآن الكريم وفهم أهدافه — تنازلت عنه الإدارة العامة للثقافة الإسلامية مكرهة غير راضية إلى « دار القلم » حباً فى الإفادة منه . وها هى ذى دار القلم تدفع به بعد القيام بطبعه إلى العالم الإسلامى اليوم .

وبذلك ساهمت هذه الدار مساهمة مشكورة فى تلبية حاجة من أهم حاجات المسلمين اليوم فى وعيهم ويقظتهم الراهنة .

ورغم أن الإدارة العامة للثقافة الإسلامية تنازلت عن طبع التفسير لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت (لدار القلم) فإنه يطيب لها أن تقدمه للمسلمين وتكشف عما له من مزايا ، وهى مزايا تجعل منه طريقاً واضحاً يسير فيه القارئ إلى كتاب الله مباشرة ، دون أن يمر بصنعة المفسرين المختلفة ، فى أجيالهم العديدة وتحت ضغط مذاهبهم فى الفقه والعقيدة ، أو تحت تأثير ما اقتنعوا به مقدما من اتجاهات حملتها إليهم ثقافات الشرق والغرب فى صلاتهم بغيرهم ، بعدما اتسعت فتوحات المسلمين ، واشتد اختلاطهم بأرباب الثقافات القديمة السابقة على الإسلام .

والقارئ لهذا التفسير فى طريقه إلى القرآن الكريم ، وفى مروره بصنعة المفسرين المتعددة الطوابع والخصائص ، لا يمر بهذه الصنعة مروراً عابراً ، وإنما فى أثناء سيره يقف على ما كان لهذه الصنعة من أثر فى تفكيك وحدة المسلمين ، وفى تعقيد فهم كتاب الله ، وفى حجب المسلمين عن تلك الروح الصافية لهداية القرآن الكريم .

مزايا هذا التفسير :

هذا « التفسير » رسم لنفسه مرحلتين كى يقف مباشرة ووجهاً لوجه أمام كتاب الله ، أمام سوره وآياته ، ومدلولات ألفاظه وتراكيبه :

المرحلة الأولى : أنه يعقب على ما كان للمتقدمين من آراء وهو سائر فى طريقه إلى استخلاص المعانى التى يرشد إليها الكتاب الكريم ، بعد أن يوضح هذه الآراء ويبين بُعد كثير منها عن أن يكون مصوراً لما يقصده الله جل شأنه فى كتابه العزيز .

المرحلة الثانية : أنه بعد أن يعقب على آراء المفسرين ، وخصوصاً أولئكم الذين تأثروا فى تفسيرهم بحزبية خاصة ، أو بعصبية لمذهب معين أو عقيدة معينة ، يضع القارئ أمام المعنى المقصود من القرآن وجهاً لوجه ، وبذلك يصل بين ما لله فى كتابه وبين ما للإنسان فى قلبه من إيمان بهذا الكتاب .

هذا « التفسير » هو أجدر أن يسمى : « تفسير » مشاكل التفسير . أو يسمى « نهضة » فى تفسير القرآن ، ورجوعاً به إلى طبيعته لرد المسلمين إليه نفسه ، لا إلى أقوال قد يحجب الكثير منها ما له من مدلول أو قيمة .

هو أجدر أن يسمى : « تعقيباً » على تفسير المفسرين ، ليرفض الصنعة ويرد الأمر إلى مصدره ، فيؤخذ منه فى وضوح ، وبذلك يرفع العقبات ويزيل الحواجز .

والقارئ لهذا التفسير لا يدرك هذه المزايا إلا إذا ألم بمناهج التفسير المختلفة السابقة عليه . فبعد تفسير الطبرى

(٢٥١ - ٣١٠هـ) - وهو التفسير بالمأثور ، كما يقال عنه ، أى تفسير القرآن بالقرآن أو السنة الصحيحة أو بما نقل عن الصحابة والتابعين - لم يعد القرآن يُستوحى فيوحى ، ولا يُستلهم فيلهم ؛ وإنما يقسر قسراً إلى رأى محدد سابق ، أو يحمل جبراً على مذهب معين ، ولو لم يكن هذا المذهب مذهب عقيدة ، أو فقه ، أو تصوف ، بل قد يكون مذهباً فى قواعد اللغة أو فى فقهها .

ولو استعرضنا فى هذا التقديم الموجز لكتابنا اليوم أربعة من التفاسير المتداولة والتى تعد من عمد كتب التفسير ، لو استعرضنا « الكشاف » للزمخشرى المتوفى ٥٣٨ هـ ، و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى المتوفى ٦٧١ هـ ، و « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » للبيضاوى المتوفى ٧٩١ هـ ، و « روح المعانى » للألوسى المتوفى ١٢٧٠ هـ - لوجدنا أن هذه التفاسير الأربعة تمثل ألوانا لها طوابع مختلفة :

فبينما « الكشاف » يعنى بإبراز مذهب الاعتزال فى العقيدة ، ويعنى بمسلكهم فى التأويل على نحو ما يحاول أن يستخرجه من قوله : « الذين يؤمنون بالغيب » لما هو معروف للمعتزلة من وضع « الفاسق » فى منزلة بين المؤمن والكافر ، وعلى نحو ما يشرح قول الله تعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » من قصد ما يتمذهب به رجال الاعتزال من أن الرزق المسند إلى الله هو الحلال فقط إذا بالقرطبى يعنى باستنباط الأحكام الفقهية ويذكر التفاصيل الخاصة بموضوعات هذه الأحكام ، على نحو ما يعنى بشرح الصلاة مثلا وما لها من أركان وشروط فى تفسير قوله تعالى « ويقيمون الصلاة » .

وبينما البيضاوى فى تفسيره يعنى بذكر رأى أهل السنة والرد على آراء غيرهم على نحو ما يشرح (الإيمان) بأنه التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والبعث والجزاء ، دون ما يعرف لجمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج من أنه مجموع أمور ثلاثة : الاعتقاد بالحق والإقرار به والعمل بمقتضاه ، وذلك فى شرح قول الله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » إذا بالألوسى يسلك فى تفسيره مسلك التفسير الإشارى الذى عرف للمتصوفة ، وذلك على نحو ما يفسر به (التقوى) فى قول الله تعالى : « هدى للمتقين » من أنها هى : التنزه عن كل ما يشغل السر عن الحق ، وفى هذا الميدان تراكضت أرواح العاشقين وتفانت أشباح السالكين .

وبجانب أن لكل من هذه التفاسير الأربعة طابعاً خاصاً به ، يتصل بمذهب معين أو عقيدة معينة ، أو اتجاه معين فى التفكير ، أو فى التمذهب والاعتقاد . فإن بعضها يعنى كثيراً بالإعراب وقواعده ، على نحو ما يعنى البيضاوى والبعض الآخر يعنى بالبحوث اللغوية ، كالقرطبى فى تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » .

وبدخول صنعة الإعراب والبحث اللغوى تفتتت آيات القرآن إلى كلمات ، وتفتتت الكلمات إلى وحدات ، وأصبح ما يراد من القرآن عن طريق هذه التفاسير : إما مذهباً معيناً اجتمعت عليه مدرسة خاصة من مدارس الفكر الإسلامى ، أو معنى لغوياً ، أو قاعدة إعرابية ، أما ما يرشد إليه الله فكثيرا ما بقى غامضاً ـ بسبب هذه الصنعة ـ فى أفهام المسلمين

والقرون التى تلت عهود هذه التفاسير كانت تردد مناهجها فى صور مختصرة ، أو فى تعليقات عليها .

ولم يزل يتأثر بمناهجها إلى حد كبير فى عصرنا الحاضر كثير ممن يعالجون تفسير القرآن . فلم يتخلوا عن هذا الطريق فى التفسير ، وهو طريق التفكيك أو طريق القسر والإكراه على رأى خاص ، كما لم يتخلوا عما صاحب بعضها من أبحاث لغوية ، أو تفتيش عن قواعد إعرابية ، والذين يجددون من بين هؤلاء المتبعين لهذا المنهج فى وقتنا الراهن « يلفقون » فى النقل عنها ، فيضيفون إلى ما يؤخذ من واحد منها ما أخذ عن الآخر . وبذلك تبدو صنعة « الترقيع » بجانب تلك الصنعة التى عرفت لهذه النماذج المتعددة المشار إليها ، ومن هنا اشتد البعد ـ عن طريق هذه التفاسير الجديدة ـ بين المسلمين وبين ما يرشد إليه الله من قرآنه الكريم .

نعم ؛ قام بعض الخالدين ـ وهم قلة فى تاريخ الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى ـ بمحاولة فى تفسير القرآن الكريم ، يتميز بها تفسيرهم عن تفسير السابقين فى تضمين تراكيب القرآن وألفاظه ، المعانى الخلقية التى أمر بها الإسلام وشرعها الله سبحانه لتهذيب النفس ، وتزكية الوجدان ، ونهضة الشعوب ، وتنمية المعرفة ، والسمو بالإنسانية عن الدنايا والخبائث فى السلوك والعلاقات العامة ، وبذلك يكون القرآن ملبياً لحاجات المسلمين فى كل وقت . والمبادئ أو القضايا التى استحدثتها الحضارات الإنسانية الحديثة أو أوجدتها بعض الأحداث العالمية ، أما الانتصار لمذهب على مذهب فقد بقى طابعاً غالباً لهذه المحاولة ، وإن تجنب اللجاجة فى الجدل ، ولكنها مع ذلك محاولة من غير شك تستحق التقدير ؛ لأنها فتحت المنفذ على التغيير ، فيما خلفه الأقدمون من المفسرين كما أعطت للقارئ لها والباحث فيها ، حرية الحكم على ما كان لهذه التفاسير من منهج ، أو ما تراكم فيها من صنعة .

وفى مقدمة هذه القلة من الخالدين فى الفكر الإسلامى المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده والعالم الإسلامى الكبير السيد محمد رشيد رضا فى « تفسير المنار » .

أما « التفسير » الذى نقدمه اليوم للمسلمين فهو تفسير للمسلمين أجمعين ، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا للون من ألوان

العقيدة الكلامية ، ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن .

فقد خلا من هذه العصبية التى فرقت وحدة المسلمين بعد أن وضح ضعفها ، كما خلا من تفتيت آيات القرآن إلى كلمات ليخرج بشاهد على قاعدة إعرابية أو معنى لغوى ، بعد أن أبان أن القرآن كتاب هداية وليس كتاب تمرين واختبار ، ولذا كان منهجه يتمثل فيما يلى :

أولا : جعل السورة وحدة واحدة ، يوضح مراميها وأهدافها وما فيها من عبر ومبادئ إنسانية عامة .

ثانياً : عدم إقحام غير القرآن على القرآن من رأى خارج عنه ، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر ، فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضاً ، كما أطلق الحرية للقرآن فى أن يدلى بما يريد ، دون أن يحمل على ما يراد .

ثالثاً : لم يكن له أن يدع القرآن ينطق بما يدل عليه ، إلا بعد أن يزيل العقبات التى كانت تحول دون ذلك ، فكان من منهجه التعقيب على آراء المفسرين السابقين .

ولأنه تفسير للمسلمين جميعاً آثر به فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر - منذ أن توفر عليه فى عام ١٩٤٩ - مجلة « رسالة الإسلام » ، التى تصدرها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة . وهى جماعة تألفت فى يناير سنة ١٩٤٧ .

وقد آثر فضيلته هذه المجلة بهذا « التفسير » لأنه اقتنع ، بعد أن كان من المؤسسين للجماعة بأنها اللسان الذى ينقل للمسلمين ما يريده الإسلام لهم فى قرآنه الكريم ، لا ما يريده مذهب معين ولا اتجاه فكرى خاص .

ولذا فهو تفسير سيلقاه العالم الإسلامى جميعه بالترحيب . سنيه وشيعيه ، وكل من آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

وكافينا الآن أنه « التفسير » الذى تخلص من تلك الحزبية السياسية والمذهبية والطائفية وبذلك يفتح قلب المؤمن وعقله إلى كتاب الله مباشرة ، ويصل بين روح المسلم ومبادئ الرسالة الإسلامية الخالدة .

وإذا أملنا فى شىء بعد صدور هذا الجزء من « التفسير » فإنا نؤمل أن يطيل الله فى حياة فضيلة الأستاذ الأكبر ليتم نعمته عليه فيتم تفسير القرآن الكريم على هذا المنهج ، وبذلك تلبى حاجة المسلمين إلى تيسير فهم كتاب الله تلبية غير كاملة منقوصة .

وإلى أن يخرج تفسير القرآن الكريم كاملا لفضيلة الأستاذ الأكبر ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين إلى الانتفاع بما نقدمه لهم اليوم منه ، ووعى ما فيه من توجيهات ومبادئ ، تجمع قلوبهم على كلمة الإسلام ، وتصل بينهم وبين كتاب الله دون واسطة أو دخيل . والله الموفق والمعين ؟ .

دكتور محمد البهى
المدير العام
لإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر

آراء وأحاديث

الأستاذ الأكبر
يعتذر من قبول ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية

كانت إدارة الثقافة الإسلامية وإدارة الجامعة الأزهرية قد رشحتا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ، وكتبتا بهذا الترشيح إلى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم الاجتماعية ولم يكد يعلم شيخ الشيوخ بهذا الترشيح حتى بادر إلى الاعتذار من قبوله ربوءا بجلالة منصبه أن تتعرض لما يتعرض له هذا الأمر من دعاية وتنافس وقد كتب إلى رياسة المجلس الأعلى هذا الكتاب :

السيد الأستاذ رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية :

السلام عليكم ورحمة الله وبعد: فقد تقدمت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية وإدارة الجامعة الأزهرية إلى سيادتكم بطلب ترشيحى لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية لعام ١٩٦٠ م .

وإنى مع عميق امتنانى لما قامت به الإدارتان المذكورتان ومع خالص شكرى للسيد رئيس المجلس الأعلى أود أن أعرب لسيادتكم عن رغبة خاصة فى هذا الصدد .

لكم كنت أرغب فى ترشيح نفسى لهذه الجائزة التقديرية لو لم تلق دواعى المصلحة العامة مقاليد الأمور فى الأزهر على شخصى فى الوقت الحاضر ، وكم كنت أحب أن أتوج حياتى العلمية والثقافية بهذا التقدير الكبير من الدولة ممثلا فى جائزتها التقديرية لو لم أكن أشغل منصب مشيخة الأزهر . وهو منصب له فى نفوس المسلمين هيبة وله فى عقول المفكرين ارتباط وثيق بالتوجيه العام وبالقيادة الدينية الواعية بين المسلمين وهى كلها أمور سجلها تاريخنا القومى والثقافى على مرور السنين ، ومعان ارتبطت بها زعامة الجمهورية العربية المتحدة فى المجالين السياسى والثقافى فى الشرق الأوسط .

ومن أجل أن نحتفظ لهذا المنصب الخطير بهيبته فى نفوس المسلمين وبقيمته التوجيهية فى عقول المفكرين والموجهين ، ولكى تبقى هذه الهيبة وتلك القيمة بعيدتين عن التعرض لهزات الانتخاب والتصويت والاقتراح ، وبعيدتين فى الوقت نفسه عن الاهتزاز فى نفوس المسلمين وعقولهم ، وحتى لا يكون هناك إحراج أدبى لأى مسئول ولا مخاطرة بقيمة المشيخة ومركزها ، رأيت أن أتقدم إلى سيادتكم راجيا اعتبار ترشيح الإدارتين المذكورتين كأن لم يكن ، ومعبراً فى الوقت نفسه عن خالص شكرى وعميق تقديرى لسيادتكم وللإدارتين المرشحتين .

وفق الله الجميع وسدد خطا العاملين لما فيه الخير والرشاد .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمود شلتوت

شيخ الجامع الأزهر

وقد أجاب السيد رئيس المجلس على كتاب فضيلته بهذا الكتاب :

فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

تحية طيبة وبعد :

فقد تلقيت كتاب فضيلتكم الذى تشيرون فيه إلى اعتبار ترشيح الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، وإدارة الجامعة الأزهرية لفضيلتكم لنيل جائزة الدولة التقديرية لعام ٩٥٩-٩٦٠ كأنه لم يكن .

وإنى إذ أقدر الأسباب التى أبديتموها فضيلتكم لعدم قبول الترشيح ، يهمنى أن أنوه بمكانتكم فى العالم العربى عامة وفى نفوس المسلمين خاصة ، والتى لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تكون موضع المفاضلة والمقارنة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

رئيس المجلس

كمال الدين حسين

* * *

مجلة المعهد العالى للخدمة الاجتماعية

تسأل والاستاذ الاكبر يجيب

تقدم محرر مجلة المعهد العالى للخدمة الاجتماعية إلى الأستاذ الأكبر بعشرة أسئلة فى أمور مختلفة أجاب عنها فضيلته بما يلى :

س — ما دور الجامعة الأزهرية فى نشر الثقافة الاسلامية بالخارج ؟ .

ج — الأزهر هو الجامعة الوحيدة فى العالم التى تربط المسلمين والعرب بعضهم ببعض ، والتى يتجه إليها الناس لا بأنظارهم ولكن بقلوب تنشد الاصلاح وتتطلع إلى نواحى الكمال من الخلق والفضيلة . والأزهر كذلك هو الجامعة الوحيدة التى تضم أمم الأرض بين أحضانها فتحنو عليهم وتوجههم وتثقفهم فى دينهم ، وتجعل منهم رجالا يحبون مجتمعهم ويفهمون ويعملون على إسعاده ، فهو يضم

فوق الخمسين جنسية ، ففيه السودانى والحبشى والبــولونى والروسى والتركى والأمريكى والأندونيسى والفلبينى وغير هؤلاء ، وهم بهذا الوضع يوم يتخرجون فيه يكونون ألسنة صادقة لجمهوريتنا العربية لدى أممهم فى أنحاء المعمورة .

وإننا لحريصين كل الحرص على العناية بطلاب البعوث وتطوير مناهج معهد البعوث الإسـلامية تطويراً يتفق وما لهم من رسالة عظيمة ومهمة سامية ، فيفيد منه كل طالب ويهيأ لأن يعيش فى بيئته التى سيعيش فيها .

هذا جزء من رسالة الأزهر بالنسبة للعالم، ومن ناحية أخرى فإن للأزهر مبعوثيه من العلماء إلى البلاد العربية والإسلامية وهؤلاء وضعنا لهم أسساً وقواعد بحيث لا يوفد إلى شعوب الأرض إلا الصالح المؤمن برسالة الاسلام الحقة الصحيحة القادرعلى أداء مهمته خيرأداء فإنها مهمة جمهوريتنا الناهضة ومهمة الدين الحنيف ورسالته الحقة .

وحتى البلاد الإسـلامية التى لا تتكلم اللغة العربية أعـددنا لها مبعوثين يجيدون لغات البلاد التى يوفدون إليها . فالأزهر الآن يدرس هذه اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والأندونيســية والأردية والســواحلية والفارسية فلم يعد بين الأزهر وبين العالم أجمع حجاب أو مانع ولم تقتصر العناية بالأزهر على ذلك بل أخذ العلماء يتنافسون فى التأليف وتوجيه العالم عن طريق العلم المكتوب والبحث المستفيض ، واشترك فى ذلك كثير من رجالات العلم والفكر عن طريق القاعه الكبرى للأزهر ، تلقى فيها المحاضرات ثم تطبع بمختلف اللغات وتوزع على دوائر العلم والمعرفة فى أنحاء العالم كما تعتبر مجلة الأزهر الآن فى ثوبها الجديد ـــ مجلة إسلامية عالمية يطلع عليها الكثيرون من العرب والمسلمين. والله المستعان ، ومنه نستمد الرعاية والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير .

س ـــ ما أهم نواحى التطور الأخير فى فى المناهج بالجامعة الأزهرية ؟ .

ج ـــ لقد عملنا ـ والحمد لله ـ على تطوير المناهج الأزهرية تطويراً يتفق ومهمة الأزهر العالمية والمحلية. ومعنى ذلك أنها ليست مقيدة ببيئة واحدة وإنما اتصالها بشتى البيئات المختلفة يقتضيها التسلح والتهيؤ لها . والعالم الذى يتصل به الأزهر عالم تعددت لغاته واختلفت نواحيه الاجتماعية لذلك أدخلنا فى مناهج التعليم العام فى الأزهر وفى كلياته اللغات الأجنبية الفرنسية والانجليزية وسندخل الألمانية قريباً ـ إن شاء الله .

ولم نقف عند هذا الحد وإنما أنشأنا معهداً للإعداد والتوجيه يدرس الطلاب فيه على مستوى عال اللغات المختلفة فوق دراسة

طبائع الشعوب وبيئاتهم وخصائصهم . والمتخرجون فى هذا المعهد هم الذين نرسل منهم بعثات الأزهر إلى العالم الإسلامى لتوجيه الشعوب التى لا تتحدث العربية بلغاتهم وتنوير بصائرهم بتعاليم الإسلام الخالدة . أو نرسل بهم إلى جامعات الغرب للاستزادة من دراسة اللغات، وحتى يكونوا نواة للارتفاع بدراسة اللغات فى الأزهر .

هذا من ناحية اللغات ولم يقف التطوير عند هذا الحد وإنما أدخلنا الدراسات القانونية فى كلية الشريعة من تجارية ومالية ومدنية وجنائية والمقارنة بينها وبين الشريعة الإسلامية حتى يتخرج الطلاب وقد اتسعت آفاقهم لحل مشاكل مجتمعهم الذى يتطور مع الزمن فإن المشاكل متعددة وكثيرة . والمتخرج فى الأزهر مقصد وملجأ يلجأ إليه الناس فى حل مشاكلهم فلابد أن يكون مزوداً وملما بكل النواحى .

وقد عملنا كذلك على تطوير الدراسة فى معهد البعوث الإسلامية وكليتى أصول الدين واللغة العربية وسنعمل — بمعونة الله ثم بهمة المخلصين من إخواننا وأبنائنا على ما من شأنه أن يرفع شأن الأزهر ويعلى من كرامته ويعيد إليه أمجاده السالفة ، فإن النهوض به نهوض بالفكرة الإسلامية الصحيحة .

س — هل كان لفضيلتكم مشروعات للنهوض بالمناهج الأزهرية ؟ .

ج — نعم ـ ويكفى أن تعرفوا أننى أستمد العون من الله فى تنفيذ ما أطمئن إليه فى النهوض بالأزهر ، فإننى لا أحب الحديث عن النفس وإنما أسأل الله تعالى أن يؤدى الأزهر مهمته بأمانة وإخلاص ، وهذا هو اليوم الذى أطمئن فيه ويهدأ بالى ، وتقر أعين المسلمين .

س — كان هناك مشروع لإنشاء معهد خاص للبنات ، فلماذا لم ينشأ بعد مع أنه كان سيساعد على نشر الوعى الدينى بين المثقفات ؟.

ج — نحن نؤمن بأن المرأة فى المجتمع قطب الرحى ، فلا بد من العناية بها وتوجيهها التوجيه الدينى الصحيح ، والسلوك بها السلوك الأخلاقى القويم ، فإنها فتاة اليوم وأم المستقبل ، وهى المدرسة الأولى التى تحتضن الجيل الجديد وتوجهه فلا بد من استقامة الدين والخلق والفكر ، وخاصة أمام تيارات المدنية العارمة فهى أولى إذن بأن ينشأ لها معهد يأخذ بيدها ويوجهها ويثقفها ، لكن الوقت بإنشاء معهد خاص لم يتهيأ بعد ، وعندما تسنح هذه الفرصة يكون أولى المشروعات بالتنفيذ ، على أننا لم نغفل هذه الناحية ، فإن السادة الوعاظ

فى الأزهر والسادة أئمة وخطباء وزارة الأوقاف يعنون كل العناية بتثقيف النساء وتوجيههن ، بما كان لذلك من أثر فى جيلنا من خلق مجتمع فاضل من النساء يؤمن بالمثل العليا ومن يدرى ؛ لعل هؤلاء يكن النواة الصالحة لإنشاء هذا المعهد النسوى الكبير .

س — نعلم أنه قد أنشئ قسم لدراسة الخدمة الاجتماعية بالأزهر فما شروط الالتحاق بهذا القسم؟.

ج — هذه الدراسات أنشئت لطلاب الكليات الأزهرية من السنتين الثانية والثالثة ويختار الطالب بعد اختيار شخصى يؤديه أمام لجنة تؤلف فى كل كلية ، ويمكن الحصول على معلومات أوسع من إدارة الشئون العامة بالأزهر .

س — ما دور الجامعة الأزهرية فى بث الدعوة للقومية العربية فى العالم الإسلامى ؟ وما موقفها إزاء المناهضين لهذه الدعوة ؟ .

ج — للجامعة الأزهرية الدور الخطير فى بث الدعوة للقومية العربية ، فالأزهر يتغذى منه آلاف الوافدين من مختلف الأقطار والشعوب ، والقومية العربية تقوم على دراسة اللغة العربية ومعرفة نواحيها واتجاهاتها وشعوبها ومقوماتها ، وذلك كله بعض من دراسات الأزهر فيتلقاها الطلاب فيه ثم يعودون إلى شعوبهم رسلا للمعرفة والهداية ، وإن البعوث التى يوفدها الأزهر من بين علمائه إلى العالم لهى خير سبيل لمناهضة أولئك المتعثرين فى فهم القومية العربية .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو صاحب الدعوة إلى توحيد الأمة العربية بما جمعهم عليه من كتاب الله الكريم الذى أنزل على رسوله العظيم ، وذلك مما طبعهم بطابع القومية العربية السليمة ، ورسالة الأزهر هى رسالة محمد بن عبد الله ، فالأزهر مؤمن بهذه القومية حريص عليها ، واللغة العربية جزء من مقوماته إذ هو حصنها وراعيها ، واللغة هى الثوب الذى لبسته الشريعة الإسلامية منذ فجر الد[illegible]ة وطافت به أنحاء العالم ، فملأت كل مسمع ، واستقرت فى كل قلب . حقق الله الآمال ، إنه سبحانه على كل شىء قدير .

س — ما أوجه الرعاية الاجتماعية التى يعتزمها الأزهر للطلاب المبعوثين إليه من العالم الإسلامى ؟ .

ج — إن لمدينة البعوث الإسلامية التى تضم الوافدين إلى الأزهر مشرفين يوجهونهم إلى كل أنواع النشاط الاجتماعى والثقافى والرياضى . ونحن نحرص على دمجهم فى المجتمع والتخلق بأخلاقنا الدينية التى تنبثق من القيم الإسلامية الصحيحة .

س ـ لقد خذلت فرنسا الضمير العالمى بتصميمها على تفجير قنبلتها الذرية فى صحراء الجزائر فما رأى فضيلتكم ؟.

ج ـ إن كل دولة لا تقيم وزنا للقيم الخلقية ولا للمثل العليا دولة هزيلة لا تنى بعهد ولا تحتفظ برباط ، وفرنسا مع أنها صاحبة الدعوة إلى الإيمان بحقوق الإنسان إلا أنها لا تؤمن بهذه الحقوق ولا ترعاها ، فهى تقتل النساء والأطفال والشيوخ فى الجزائر وتسلبهم التمتع بالحرية فى أوطانهم ، فهل تستكثر عليها ما تفعل بعد ؟ لا ، وفى الحديث : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

س ـ هناك جمعية لتحضير الأرواح ، وقد انضم إليها بعض أساتذة الجامعات فهل تؤمن فضيلتكم بحقيقة تحضير الأرواح ومخاطبتها ؟.

ج ـ إنه لم يقم دليل حتى الآن يثبت إمكان تحضيرها وتسخيرها لدعوة الإنسان كما لم يدل عليه حس موثوق به أو تجربة صادقة ، وكل ما نسمعه عن ذلك لا يعدو أن يكون خداعا وأوهاما لا تلبث أن ينكشف أمرها ، وما دام الأمر كذلك فنحن فى حل من رفضها إلى أن يقوم الدليل على صدق ما يذهبون إليه وحسب المؤمن أن يقف عند ما أخبر الله به ، وصح عن رسوله .

س ـ ما نصيحة فضيلتكم لطلاب العلم وطالباته ؟.

ج : أما نصيحتى لطلاب العلم وطالباته فهى التمسك بأهداب الخلق والفضيلة ، وذلك عن طريق معرفة الدين وما فيه من صفات خلقية حميدة واجتماعية قويمة ـ فالدين ملىء بالخير يدفع به الإنسان إلى الإمام ، ففيه التعاون الصادق . وتعاونوا على البر التقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . وفيه التعاضد الوثيق . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وما أقوى دعوة المساواة التى يدعو إليها الدين « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » والرسول يقول « لا عصبية فى الإسلام » ويقول « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

تلكم المساواة الحقة التى تفتقر إليها مجتمعات الغرب . والإسلام لا ينظر إلى لون أو جنس بل الناس عنده سواسية كأسنان المشط لا فضل لأبيض على أسود ، ولا لأحمر على أصفر ، ولكن المبدأ الذى يجمع بين الناس جميعا : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والشباب خير من يتجه بالحياة اتجاها سليما إذا استقامت موجهاته ، ولا يستقيم أبداً إلا إذا استقامت الحياة الروحية . وإن الكفايات العلمية لا خير فيها إذا لم تصحبها القوة الروحية ، فإن المادية المظلمة لا تؤمن

بمثل ، ولا تدين بقيم . والتيارات الوافدة من الغرب تضعف المثل والقيم عندنا ، فعلينا أن نحصن شبابنا بعمق الإيمان ، والمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف .

إن السموم القاتلة — دائما — تكون فى نواح يتجه إليها الشباب ، ويرتمى فى أحشائها ، فمن كتب تحمل هذه السموم إلى قصص إلى روايات تجىء إلينا من كل ناحية إلى أفلام تعرضها دور السينما ، إلى صور خليعة تحملها صحفنا وتقدمها إلى شبابنا ، تحرك بها الغرائز الهابطة فتثير كوامنها ، وتضعف عقلية الشباب ، فلا يفكر إلا فى إشباع هذه الغرائز مما يضعف قوة الإنتاج العملى عندنا

وإن الأغانى الرخيصة والمبتذلة لا تقل شأنا فى الانحدار بهذه المستويات ، ولست بملق هذه التبعات على الشباب وحده - إنما ألقيها أيضا على أجهزة التوجيه عندنا — من صحافة وإذاعة وسينما وتمثيل ، فهؤلاء جميعا مسئولون عن كل انحدار فى مجتمعنا .

إن النهضة فى حياتنا الجديدة لتحتاج إلى قوة فى التفكير وسمو فى الروح ، وذلك كله لا يستقيم إلا إذا اتجهت هذه الموجهات للشباب وجهتها السليمة وبعدت عن إغراء الشباب بما تنشره وتذيعه .

إننى أحذر أبناءنا وبناتنا أن يكونوا فريسة لهذه التيارات الجارفة وإذا ما حذرت فإننى أنصح بأن يأخذوا بأسباب الدين والخلق والفضيلة فإن ذلك خير لهم فى حياتهم وإذا ما نصحت الشباب عامة فإننى أخص شابات الخدمة الاجتماعية — فتيات اليوم وأمهات المستقبل - أخصهن بأن يتخيرن فى القراءة وفى السماع وفى المشاهدة الجيد البعيد عن مواطن الزلل وأن تكون لهن الشخصية القومية العربية الإسلامية بعيدات عن هذه « البدع » التى تفد إلينا سافرة مبتذلة .

والله أدعو أن يتولى شبابنا وشاباتنا بالخير والتوفيق .

محمود شلتوت

واستقبل فضيلته سير « جوزيف كونيكا » زعيم أوغندا الذى وفد إلى الأزهر ليبلغ فضيلته تحيات المسلمين فى أوغندا .

كما استقبل فضيلته وفدا من كبار علماء إيران على رأسهم آية الله الشيخ ميرزا خليل كمرا لشكر فضيلته على مؤلفاته القيمة وإذاعاته التى يستمعون إليها وقد قالوا لفضيلته : إن الخطوة المباركة التى ألفتم فيها بين قلوب المسلمين فى أنحاء الأرض آتت ثمارها الطيبة فلم يعد للطائفية أثر بين المسلمين جميعا .

وقال فضيلته : لا شكر على واجب مقدس ولولا أنى أحسست أنكم جميعا تؤمنون بهذا

وأنكم كنتم منتظرين هذه الوحدة ما استطعت أن أصل إلى شيء فيها فإن الإسلام لا يعرف الطائفية ولا العصبية إنما يعرف دينا واحدا وربا واحدا فالحمد لله على ما وفقت إليه .

هذا وقد أهدى الوفد إلى فضيلته كتابا عن قبلة الإسلام « الكعبة » كما أهدى إليهم فضيلته كتبه التى كان لها أعظم الأثر فى نفوسهم .

ثم استقبل فضيلته الزعيم السنغالى الشيخ تورى الذى قال بعد أن حيا فضيلته : لقد قرأت كتابكم الإسلام عقيدة وشريعة الذى قدم لى فى المغرب وإنى أطلب ترجمته وتوزيعه على إفريقيا والسنغال ثم طلب معونة الأزهر للعلماء وقوبل طلبه هذا بالترحيب من فضيلة الأستاذ الأكبر .

كما استقبل فضيلته الشيخ محمد بن داود المغربى الذى كان يرافق جلالة الملك محمد الخامس أثناء زيارته للدول العربية وتخلف فى بيروت من أجل زيارة فضيلة الأستاذ الأكبر الذى يعرفه منذ ٢٢ سنة وتتلمذ بعض الوقت عليه .

من جلالة ملك المغرب إلى الأستاذ الأكبر:

تلقى فضيلة الأستاذ الأكبر الرسالة التالية من السيد مدير الديوان الملكى نصها كما يأتى:

حضرة صاحب الفضيلة الفقيه الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فقد رفعت إلى مقام مولاى صاحب الجلالة محمد الخامس — أعزه الله — الكتب التى تفضلتم بإهدائها إلى مقامه الرفيع : فتأثر — أعزه الله — من نبل عواطفكم التى حدت بكم إلى تقديم ثمار قرائحكم إليه « وهى أعز ما يهدى » وأثنى على الجهود العظيمة التى تبذلونها دون انقطاع لخدمة الثقافة العربية والدين الإسلامى الحنيف .

وأمرنى جنابه الشريف أن أبلغكم شكره السامى وتقديره لجهوداتكم ودعاءه لكم بمزيد التوفيق والنجاح .

وإنى إذ أبلغكم هذا العطف الملكى السامى أرجو أن تتكرم فضيلتكم بقبول خالص تقديرى .

مدير الديوان الملكى

من سيادة رئيس الجمهورية إلى الأستاذ الأكبر

الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر :

تلقيت بخالص التقدير برقيتكم التى أعربتم فيها عن أصدق المشاعر وأخلص التهانى بمناسبة بدء بناء السد العالى ، وإنا لنحمد الله على أن حقق آمالنا بإقامة هذا الصرح

المنيع والذى نرجو أن يكون بإذن الله منبعاً للخير العميم ولرخاء طال ارتقابه ، ضارعين إليه تعالى أن يكتب لجمهوريتنا الفتية كل ما نبغيه لها من عزة وسؤدد ، وأن يحقق للأمة العربيـة والإسلامية فى ظل التضامن والتساند كل خير ومجد ، ويسرنى أن أبعث إليكم بأجل الشكر مقرونا بأطيب تمنيات الصحة والهناء .

(جمال عبد الناصر)

رخصة الإفطار للجنود المقاتلين :

قال فضيلة الأستاذ الأكبر بعد أن حمد الله وصلى على رسوله ، فإن الله جلت قدرته قد فرض صيام رمضان على المسلمين تصفية لروحهم، وتهذيباً لنفوسهم وتقوية لإرادتهم، وتربية لهم على تحمل المكاره ، ومخالفة المألوف ، ودربة لهم على ترك الشهوات ، كل ذلك فى سبيل الله وطاعته وابتغاء مرضاته وهو ما عبر عنه القرآن بالكلمة الجامعة « التقوى» فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

ولكن الله الرحيم بعباده أقام تشريع الصيام — كما أقام الشريعة كلها — على التيسير ودفع الحرج عن عباده ، فكان من ذلك ما شرعه جلت حكمته ، وعمت رحمته من الإفطار للمريض والمسافر فى رمضان ، قال تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

هذا وأولى الناس بالأخذ برخصة الإفطار فى السفر هم الجنود المجاهدون، الذين يباشرون قتال العدو فعلا ، أو يتهيأون له ما بين ساعة وأخرى — كالجنود الذين فى شرقى القناة الآن — ذلك لأنهم مسافرون أولا ، والسفر يبيح الإفطار ، وخاصه إذا صحبته المشقة والعنت .

وثانياً ، لأنهم مجاهدون فى سبيل الله ، والإسلام يريد أن يوفر كل أسباب القوة للمجاهد ، حتى تكون قوته شوكة فى جنب الأعداء ، وغصة فى حلوقهم ، وحتى لا يصيبه أذى وهن أو ضعف فى منازلتهم وردهم على أعقابهم خاسئين ، فإذا كان صومه عن الطعام والشراب لله ، ولمرضاة الله ، فإن إفطاره عند النضال والنزال لله وفى سبيل الله ، لأنه به يقوى ويشتد فيحقق الله له الغلبة والنصر بإذنه .

ويستوى فى ذلك من يقاتل ، ومن يجهز للمقاتلين ويعد لهم ما يحتاجون إليه من تموين وغيره .

روت كتب السنة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنهم سافروا مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة فى غزوة الفتح — وهم

صيام — فنزلوا منزلا قريبا من مكة — وهي يومئذ حصن المشركين — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم، فكانت رخصة — أي لم يأمرهم أمر إلزام — فمنهم من صام ومنهم من أفطر، ثم نزلوا منزلا آخر كانوا فيه أقرب إلى العدو، فقال صلى الله عليه وسلم لهم: «إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم فأفطروا».

وهكذا أصدر النبي أمره الصريح، وعلله بهذا التعليل الواضح «فأنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا».

قال أبو سعيد: فكانت عزمة فأفطرنا.

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث الصحيح أن الفطر أولى للمجاهدين إذا كانوا فى مكان يظن فيه لقاء العدو، أما إذا كان اللقاء مؤكدا فالإفطار واجب لا مجرد رخصة، تقوية للمجاهد، وإعانة له على مغالبة أعداء الله وما جعل عليكم فى الدين من حرج. وإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه.

وأما من كان بعيدا عن مواطن ملاقاة العدو ولكنه يتأهب للرحيل والزحف إلى إخوانه فى الخطوط الأمامية كالذين فى غرب القناة مثلا — فهؤلاء ما داموا غير مستقرين فى مناطقهم يعدون مسافرين، لهم رخصة الإفطار، ولهم أن يصوموا حسب قدرتهم ومن شق عليه الصوم كان عليه أن يفطر، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فى سفر أجهده الصوم فيه حتى نصبوا عليه ظلة تظلله فقال: ماهذا؟ فقالوا: إنه لصائم، فقال ليس من البر الصوم فى السفر أى الصوم مع مثل هذه المشقة.

فلنتقبل رخصة الله التى رخص لنا فإنه سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ولتكن نيتكم أيها الجنود القوة على أعداء الله (ولكل امرئ ما نوى) ولتعلموا أن الجهاد فى سبيل الله أعظم عبادة وأجل قربة إلى الله وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما.

وفقكم الله لما يحب ويرضى، وجعل هذا الشهر الكريم — شهر البشر وشهر الفتح المبين بشير نصر لكم ولأمتنا الكبيرة آمين.

هذا وأما من كان بعيدا عن منطقة القتال والتأهب للحاق بالمقاتلين — كالجنود الذين فى منقباد — فإنهم يعدون مقيمين مستقرين لا يباح لهم الفطر إلا إذا صدر إليهم أوامر بالرحيل فحينئذ يأخذون حكم الذين فى غرب القناة.

والله المستعان وهو ولى المتقين لا ملجأ منه إلا إليه وهو المولى ونعم النصير. هذا واعلموا أن ما قدمته لكم إنما هو حكم الله

تعالى بالنسبة لصيام المجاهدين والمقاتلين وبقى الحكم بالنسبة لقضاء هذه الأيام، فاعلموا جميعا أن من وجد وقتا يقضى فيه الصوم فعليه قضاء هذه الأيام التى أفطرها لقوله تعالى: «فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر».

وأما من لم يتيسر له هذا الوقت بأن ظل مشغولا فى مثل هذا العمل وكان عمله يقتضيه ذلك كأولئك الذين يعملون طول حياتهم فى المناجم وفى صهر الحديد فعلى من كان مثل ذلك فدية، يطعم عن كل يوم مسكينا والله الموفق والمستعان.

من الأستاذ موسى عز الدين

إلى الأستاذ الأكبر

توحيد كلمة الأمة وجمع شتاتها لا تستحقون عليه شكرنا فحسب، ولكن شكر الأجيال القادمة كذلك لأنه خير ما قام به روحانى جليل فى تاريخ أمتنا، وفقكم الله وسدد خطاكم لكل ما يعود على الأمة الإسلامية والعرب أجمع بما فيه الخير والصلاح.

خادم العلم الشريف

موسى عز الدين

من كبار علماء الشيعة الإمامية فى لبنان

من الأستاذ الأكبر

إلى رئيس المؤتمر الآسيوى الإفريقى

السيد رئيس المؤتمر الآسيوى الإفريقى بالقاهرة:

إن مؤتمركم المنعقد اليوم ليعلن لكل مستهتر بحقوق الإنسان أننا بقوة الاتحاد والتعاون، ومبدأ التضحية التى رسمتها لنا الأديان سنرد عليهم بغيهم وطغيانهم فلم يعد العالم يتحمل إثم هذه العقليات الاستعمارية المأفونة التى تنادى بمبادىء لا تستطيع حمايتها ولا تعتمل فى نفوس أصحابها، فإن كل ما تأتى به إنما هو من الإنسانية التى يظنون أنهم منها وهى منهم براء.

لقد خلقنا الله من نفس واحدة، فنحن إخوة متحابون تجمعنا الإنسانية فلو كانت فرنسا تؤمن بهذه المعانى ما أقدمت على تفجير الذرة، وطالما نادينا بالكف عن الإقدام على تحطيم المعانى الإنسانية بتفجير هذه القنبلة فلم ترعو فرنسا ولا مؤيدوها، وإنما كان إصرارهم إصرار المستبد الذى لا يحترم حقوقا ولا يعرف للإنسانية كيانا، وكيف يتحقق هذا مع تشدقها بحق تقرير المصير، ألا فلتبؤ هى وكل معتد بالخسران المبين.

ولنتوجه إلى الله تعالى أن يقوى وحدة القلوب المليئة بالرحمة التى لا تعرف القسوة، والتى تحنو على بنى الإنسان وترعاهم.

أيدكم الله وأيد الحق بكم، وأيد الزعيم العظيم والبطل القوى المؤمن بالله وبحقوق الوطن الأكبر السيد الرئيس جمال عبدالناصر وأدام الله له توفيقه فى خدمة الإنسانية حتى

لا نرى فى إفريقيا وآسيا إلا أمة حرة قوية تبنى مجدها على أساس من الاتحاد والصبر فتطهرها من كيد الكائدين .

محمود شلتوت
شيخ الجامع الأزهر

الأستاذ الأكبر يستقبل مدير اليونسكو

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه الدكتور فيتورينو فيرونيز مدير عام منظمة « اليونسكو » وبعد أن حياه فضيلته وحيا مرافقيه قائلا لهم « مرحبا بكم فأنا أحب البيئات - والأفراد الذين يعملون للإنسانية عامة - وهيئة اليونسكو - هيئة التربية والثقافة نحبها كذلك ما دامت تعمل للخدمات الإنسانية عامة . وأقوى ما فى هذه الخدمات أن تقيم وزنًا لكل ما يبقى على آثار السلف الصالح ؛ فللقرآن اهتمام كبير بآثار السلف ما دامت نافعة وما دامت تحيى فكرة وتنير ذكرى وتحرك معانى يكون لها الأثر الصالح فى تربية الأجيال وتنشئتها « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

إن الآثار التى تعلن عن قوة الأمم ورفعة شأنها وقوتها فى الحضارة وعمقها فى الإيمان بالوطنية ، هذه يجب أن تتعاون الأمم جميعا على الحرص عليها والاحتفاظ بها فإنها رمز لأمم وأجيال تربعت على عرش الحضارة وخلدت ذكريات فى التاريخ .

وليست هذه عندنا فى مكانة آثار تدل على الضعف والاستكانة . فشتان ما بين هذا وذاك .

إن الأزهر قد قام على حفظ التراث القوى النافع المفيد وظل يدأب على ذلك أكثر من ألف عام وسيظل بإذن الله يؤدى رسالته ويقوم على مهمته فى قوة وإيمان وفهم لهذه المهمة . إنه رائد التربية والثقافة فى أنحاء العالم الإسلامى ، ومنظمة اليونسكو رسالتها التربية والثقافة وهى على هذا النحو شريكة الأزهر ، فلابد من التعاون بين البيئتين - بين البيئة التى وقفت على قدمها وبين البيئة التى بدأت تشارك فى هذه المهمة .

إن أول نداء وجه من المولى - جلت قدرته - إلى محمد صلى الله عليه وسلم - النبى الأمى إنما كان رسالة تطارد الجهل فى كل أوكاره وتحث على العلم بكل أنواعه « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم » .

إننا ينبغى أن نحرص كل الحرص على ألا يبقى فى العالم إنسان جاهل فإن الجهل شرما فى الوجود والله يقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ولا يحيا العلم ويموت الجهل إلا فى الأمم المستقرة

المطمئنة ، والاستقرار والأمن هما المائدة التى يطعم منها الناس طعام العلم والمعرفة ويستقون من مناهلها . فعلى كل متجه إلى العلم أن يعمل على دعم والاستقرار الأمان والطمأنينة فمن الواجب حينئذ أن نتضامن على تخفيف ويلات الإنسانية التى تحل بها وتخفيف الويلات التى يصبها الأقوياء على رءوس الضعفاء . فإن أمة كالجزائر - كيف ينتشر العلم بينها والسهام مصوبة نحو أبنائها ، وذئاب البشرية يتربصون بهم ، ينحون الإنسانية جانبا ولا يذكرون إلا الطمع وحب السيطرة والنفوذ والاستعمار الذى يؤمنون به .

ثم كيف ينتشر العلم فى فلسطين المنكوبة التى شرد أهلها وذووها . إن أصحاب المثل وذوى المبادئ هم الذين يحرصون على أن يؤدوا للبشرية خدمات عامة وأولها الاطمئنان والاستقرار .

وهنا رد مدير اليونسكو قائلا :

أنا أتفق مع فضيلتكم فى العداء للجهل ، ونأمل أن تهيأ للثقافة والعلم كل هذه النواحى .

فقال الأستاذ الأكبر :

إن الإسلام يدعو إلى التعاون . فهذا كتاب الله يقول « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ومن البر تعليم الجاهلين . وإننى أرى أن مشكلات العالم التى يئن منها ويرزح تحت أعبائها لا يمكن حلها إلا عن طريق التربية والتثقيف . ثم إن التربية لا تنفع وحدها إذا خلت من الضمير الذى يربط الفرد والجماعة بالرقيب الجبار ، فيحس الضمير معه فى كل عمل ، وبهذا يستقيم الأمر وتحيا مقومات المجتمع لأن عوامل الهدم حينئذ - لا يكون لها أثر بين الأمم حيث لا غش ولا خداع ولا خيانة ولا سرقة ولا نهب ، وحيث الرحمة تعتمل فى النفوس ، فلا قسوة ولا ظلم ولا طغيان .

هذه بعض مثل الإسلام ومبادئه وقيمه ، وهى الأصول التى نستنير بها ، وهى تأخذ بأيدينا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم . هذه المثل هى مبادئ الأديان جميعاً . وأصل من أصولها لهذا لو سار الناس جميعا فى دربها واقتفوا آثارها . إن النفوس الخيرة هى التى تستطيع أن تتجاوب مع أوامر السماء بخلاف النفوس التى لم تطبع على الخير ، ولم يحرك الإيمان أوتار قلوبها فمن أولئك الذين يعيشون تحت تأثير المادية المظلمة فهؤلاء جميعا ندعو الله أن يوجههم إلى فهم معانى التراحم والتواد والتعاطف .

فقال السيد الزائر :

إنى لأشكر هذه الظروف التى أتاحت لى هذه الزيارة ، وإنه ليسرنى أن أعبر لكم عن خالص شكرى وتقديرى .

فقال فضيلته :

« وأنا أشكر لكم هذا التقدير » ...

بريد المجلة

من ذكريات رمضان

عاد شهر رمضان شهر الخير والبركة والإحسان شهر الوئام والحب والتعاون عاد رمضان وعاد معه الخير الوفير والثواب الجزيل . عاد رمضان شهر الخيرات والبركات ففيه أنزل القرآن « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . ففرض الله علينا صيامه تمجيداً له وتعظيما . وفى شهر رمضان فتحت مكة فقد فتحها الرسول الكريم فى العام الثامن للهجرة فكان لفتحها الأثر البالغ فى قلب العرب . وتم فتح مصر فى الشهر المبارك من العام العشرين للهجرة فأصبحت مصر بعد فتحها قطعة من الوطن العربى الكبير . وإنه لمن الصدف الحميدة أن الجامع الأزهر الشريف ذلك الرمز العظيم الذى يعتبر مركزاً عظيما من مراكز الإشعاع العلمى والثقافى والذى يفد إليه كل عام مئات الآلاف من شباب الوطن العربى يطلبون العلم والمعرفة من بين رحابه قد تم بناؤه فى شهر رمضان المبارك سنة « ٣٦١ هـ » فى عهد الفاطميين وفى شهر رمضان أيضاً تم انتصار صلاح الدين الأيوبى على أعدائه فاستطاع أن يوحد كلمة العرب وأن يوحد صفوفهم وأن يجمع شملهم . فما أعظمه من شهر تحققت فيه كثير من آمال العرب فهو حقاً شهر الخيرات والبركات .

ولكن ما هو الهدف من صيامنا وما هى الدروس التى نستخلصها من الصيام ؟ لقد فرض الله علينا صيام رمضان حتى نتعلم من الصيام أشياء كثيرة فنحن عندما نصوم نشعر بالجوع والعطش وهذا الإحساس يدفعنا إلى أن ندرك مدى ما يعانيه الفقير من آلام عندما يقرصه الجوع ولنلمس ما يكابده الفقير المحتاج من بؤس وشقاء فإن هذا الشعور يدفعنا دفعاً إلى أن نعطف على الفقراء والمساكين وإلى أن نمد لهم يد العون والمساعدة . ولنعطف عليهم عن طيب خاطر . والصوم يعلمنا الصبر والاحتمال على الشدائد وهما من أهم عناصر نجاح الإنسان فى الحياة كما أن الصوم يحد من كبريائنا ويجعلنا نبتعد عن التعالى ونشعر بالمساواة وبأننا جميعاً من جنس واحد فلا فرق بيننا إلا بما نقدمه من عمل صالح يرضى الله والرسول . ولقد فرض علينا الصيام لكى تصفو نفوسنا

وتبتعد عن الأحقاد وما أجمل أن تصفو نفس الإنسان وتبتعد عن المنكرات فليس الصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب فحسب بل الإمساك عن السب والشتم والقول الجارح أيضاً . انظر إلى قول رسول الله عليه السلام حين يقول : « ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل : إنى صائم إنى صائم » . ويقول فى حديث آخر :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فما أجمل أن نتعلم من شهر رمضان معنى الجمال والحب جمال الروح وحب الناس جميعاً فهو شهر كريم خليق أن يبعث فى نفوسنا الإيمان والتقوى وعمل الخير والبعد عما يغضب الله ورسوله وما أجمل أن يكون هذا الشهر باعثا لنا على التعاون والسعى من أجل رفع شأن وطننا ومرحبا بشهر رمضان شهر اليمن والبركات .

سعد توفيق حمدى

مجاهد إسلامى :

يزور القاهرة الآن مجاهد إسلامى هو الشيخ تورى رئيس الاتحاد الإسلامى الثقافى فى غربى إفريقيا .

وقد زار فضيلة الأستاذ الأكبر فى مكتبه حيث تحدثا طويلا فى شئون المسلمين ووضع الإسلام فى إفريقيا الغربية .

والشيخ تورى درس الإسلام والعربية فى دار جمعية العلماء بالجزائر ، وأعيد إلى مسقط رأسه « السنغال » حين شبت الثورة فى شمالى إفريقيا . ثم بدأ اتصاله بالمهتمين بالشئون الإسلامية من المثقفين ، وتأسس الاتحاد الإسلامى الثقافى واختير رئيسا له عام ١٩٥٣ م .

وبذل الاستعمار الفرنسى جهودا ضخمة ليعرقل الاتحاد ، وفشلت الجهود ، وعقد أول مؤتمر إسلامى عام لغربى إفريقيا ، حضره جميع المنظمات الإسلامية فى جميع المقاطعات الإسلامية ، واتخذ قرارات كان لها أثرها فى تعبئة الوعى الإسلامى .

هذا وقد أنشأ الاتحاد زهاء خمسين مدرسة ابتدائية لتدريس العربية ومبادئ الشريعة ، وشجع تسلل الشباب إلى البلاد العربية الإسلامية لا سيما شمالى إفريقيا ليتزودوا بأكبر قسط من الثقافة الإسلامية ، وأرسل بعثة إلى تونس للدراسة فى جامعة الزيتونة كان عددها ٣٢ طالبا منهم ثلاث فتيات .

والشيخ تورى شاب مسلم مجاهد ، لا يألو جهدا فى العمل المتواصل من أجل المحافظة على كيان الشعب المسلم فى غربى إفريقيا ، ولقد قابل السيد وزير الأوقاف ، والسيد

أنور السادات سكرتير المؤتمر الإسلامى ، واستطاع أن يتلقى وعدا بضرورة التعاون مع الاتحاد الثقافى الإسلامى ، الذى يتربص به الاستعمار الفرنسى الدوائر .

ويعتقد الشيخ تورى أن العاطفة الإسلامية من أقوى العواطف ويمكن استغلالها استغلالا خالصا فى توحيد كلمة الشعوب الإسلامية فى سائر أنحاء العالم ، ويقول :

« لقد كانت معركة فلسطين من قبل ، كما أن حرب الجزائر اليوم ، تلهبان إحساسات المسلمين ومشاعرهم فى كل إفريقيا ، ولو كانوا يملكون من الأمر شيئا لسعوا بأرواحهم يقدمونها قربانا لفلسطين الشهيد . . والجزائر المكافحة المناضلة .

ولكن ماحيلتهم وهم فى قبضة استعمار تجرد من كل دوافع الشهامة والشرف . . »

م - ع - السمان

بل يجب أن تبقى هذه العقوبة !!

قرأت فى جريدة الجمهورية الصادرة فى ٩/٢/١٩٦٠ مقالا للأستاذ إبراهيم نوار رئيس التحرير يطالب فيه بإلغاء عقوبة الإعدام .

والمقال يفيض باللوعة والأسى من أجل فئة ضالة ، خرجت على القوانين ، وتمردت على الأديان ، وأحلت لنفسها ما حرم الله ، ويمتلئ رحمة وشفقة بأناس تجردوا من الإنسانية وانتزعت من قلوبهم كل رحمة ، فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، والكاتب القدير يولول وينتحب على مصيرهم السيئ ، وحظهم العاثر ، بما يدعو إلى الدهشة والعجب .

ومما لاشك فيه أن حكمة الله بالغة ، وأن ما وضعه من حدود كفيل بسعادة المجتمع ورقيه وازدهاره ، وما رسمه للناس من تشريع يهيء لهم أسباب الحياة الوادعة الآمنة المطمئنة ، وما أروع قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » ، « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص » ، ويعلم الله أن فئة من القوم سوف يخرجون على هذه التعاليم ، ويتعدون تلك الحدود ، فحذرنا من ذلك « تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وإذا كان السيد الكاتب يصف المجرم القاتل الأثيم بالمسكنة ، ويستجدى له الرأى العام الرحمة ويطالب من أجله بإلغاء العقوبة فبم يصف الضحية المسكينة البريئة ، التى سلبت حق الحياة ، وحرمت نعمة البقاء ؟ ؟ وبماذا يطالب من أجلها ؟ ؟ .

سيدى الكاتب : إن الجلاد يسلب المذنب حياته باسم القانون والعدالة وبحق الدين

والتقاليد ، ولكن القاتل الذى تدافع عنه.. بأى حق أراق الدماء ، ثم قل لى بربك ! ألو تركنا القاتل حيا ستنصلح حاله وتتحرر نفسه مما اعتراها من عقد وانحرافات ؟ قطعا لا ، فكم من قاتل لم يعدم ، وخرج من السجن ليعيد سيرته من جديد ، وليريق دماء الناس ظلما وعدوانا ، ثم ألا ترى أن أهل القتيل إذا أعدم القاتل هدأت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بينما لو لم يعدم انتظروا خروجه من سجنه ليأخذوا بالثأر وتصور نفسك والدا أو أخاً لقتيل ، فهل ستدافع عن القاتل هذا الدفاع المجيد ؟ ! وهل ستطالب له بحق البقاء ؟ !

وتأكد يا سيدى أن القانون حينما منح المحكوم عليه بالإعدام حق الالتجاء إلى النقض لم يمعن فى تعذيبه كما قررت ، ولم يكرر موته كما قلت ، وإنما منحه فرصة يثبت فيها براءته إن كان بريئاً ، وأعطاه أملا يعيش عليه تلك الأيام الباقية فى حياته ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فالله عليم بما صنعوا وبما يصنعون - لو لم ينفذ فيهم الحكم - من سفك الدماء ، ونشر الخوف والفوضى بين الناس .

ثم هل دافعت عن كل المظلومين، ومهضومى الحقوق ، ولم يبق أمامك إلا الدفاع عن القتلة المجرمين ، شىء غريب ! !

مصطفى أحمد أبو عميرة

حول النصيرية والاسماعيلية :
فى الاقليم الشمالى

وبعد : فقد قرأت فى عدد شعبان ١٣٧٩ھ فى باب (بريد المجلة) تحت عنوان (غلاة الشيعة لم ينقرضوا بعد) كلمة للأستاذ حسن عمر عمر - بشر فيها بالخير لانتشار الإسلام بين طوائف (النصيرية والإسماعيلية) فى بلاد الشام وأن الأزهر قد أرسل إليهم هذا العام الأستاذ الشيخ عبد اللطيف مشتهرى واعظاً وداعياً إلى الإسلام غير أنه لم يمكث بينهم إلا شهراً واحداً هو شهر رمضان وعاد إلى القاهرة ... ثم وجه الأستاذ كلمة عتاب للمسلمين لإهمالهم نشر الإسلام بين هؤلاء ورجا الأزهر أن يدرس حياتهم وعقائدهم وأحوالهم الاجتماعية ليقوم معهم بواجب الإرشاد لقاء ما يبذله المبشرون فى هذه المناطق .

وإنصافا للحقيقة أقرر - وأنا المشار إليه فى كلمة الأستاذ والذى أرسلنى الأزهر إليهم فى رمضان الماضى - أن أهل هذه المناطق لديهم استعداد طيب للهداية ولا ينقصهم إلا الواعظ المخلص المقيم بينهم وبما لمسوه منى وسمعوه فى هذه الفترة القصيرة وبما قمت به أثناءها من زيارات فى قرى الجبل والساحل والمدينة بمحافظة اللاذقية وهى معقلهم إذ يبلغ عدد السنيين فيها الخمس والباقى علويون ومسيحيون

أقول بما لمسوه أبرقوا إلى المسئولين بالقاهرة لانتدابى لهم بصفة دائمة ، وقد تم الانتداب ووافق الأزهر على سفرى إليهم لهذا الغرض السامى بعد دراسة مستفيضة عن أحوالهم ومذاهبهم ومبادئ المنطقه كلها ووصلت إليهم من أول شهر ربيع الآخر هذا العام وقمت بإلقاء المحاضرات والدروس وبالزيارات لبلاد المحافظة ، حتى جمع الله على يدى عناصر الشعب هناك (سنيين وعلويين ومسيحيين) ولأول مرة فى تاريخ اللاذقيه بالذات يجتمع العلوى فى المساجد بأخيه السنى ويجتمع المسيحى فى المسجد بأخيه المسلم تحت راية العروبة الصاعدة والقيادة الناصرية الرشيدة ، وكانت فرق العلويين تتوافد كل يوم علينا بالعشرات طالبة الهداية وطالبة زيارتهم وقمت بزيارة قضاء الحفة وبانياس وطرطوس وجبلة وقرى جسر الشفور وحريصون ودباش وقرداحه ويارتا وبيت سوهين ومزيرعه ... حتى أبرق العلويون ومفتوهم ومشايخهم إلى السيد الرئيس والمشير عامر والسراج وشيخ الأزهر يشكرونهم على انتدابى الذى وحد كلمتهم ونشرت هذه البرقيات فى جريدة (الأيام) السورية تاريخ ١٩٦٠/١/٨ وقد رد عليهم المسئولون ببرقيات شكر كما أرسل إلى السيد الرئيس ـ حفظه الله ـ لهذه المناسبة بطاقة شكر على تجميع العناصر وبسبب عشرات الألوف من البشر الزاحفين على بيوت الله كل يوم ، حتى ضاق وسع الجوامع عن استيعابهم مما دعا المجلس الإسلامى الأعلى لأوقاف الشام بجلسته ١٩٦٠/١/٧ إلى تقرير توسيع جامع (العجان) بمدينة اللاذقيه لشدة إقبال الرجال والسيدات كما قرر مفتش دار الفتوى العامة السورية بعد مروره على دروسى فى تقرير رفعه للسيد وزير الداخلية أن الإقبال منقطع النظير . ونشرت صحيفة الأيام مقالا من أربعه أعمدة بتاريخ ١٩٥٩/١٢/٣١ عن الأثر الطيب بين الشباب والسيدات لهذا الانتداب وأرسل لى الأزهر كتاب شكر على أداء الرسالة كاملة . وكنت كل يوم أنتقل من نصر إلى نصر فى إعلاء كلمة الله .

وغاظ تجمع المسيحيين والعلويين والسنيين عملاء الاستعمار من الملحدين والحزبيين ، فحاول أحدهم مقاومة موجة الإيمان والوحدة العربية الموحدة بربها ، فألقى بالمركز الثقافى العربى باللاذقية محاضرة عن العدالة الاجتماعية قرر فيها أن الإسلام حقق العدالة الاجتماعية فى النصوص أكثر منه فى الواقع وأن الرسول مات قبل تأدية رسالته وأن كارل ماركس هو نبى الاشتراكية . وأنه مع أنجلزهما اللذان حققا مبادئ العدالة فى منتصف القرن التاسع عشر ، وأن مدة الخلفاء الراشدين لم تكف لتكوين الفرد المدنى الصالح ؛ وأن

القانون الفرنسى غزا الفقه الإسلامى وأثر فيه وأنه العقل المدون وأول شريعة مكتوبة، وأن السلف حاولوا تحقيق العدالة الاجتماعية، ولكن حال دون ذلك التطاحن على كراسى الحكم وتحكم الأغنياء فى الفقراء وجهل علماء المسلمين ومشايخهم بأمور الحياة سوى العبادات وبعض المعاملات. وأن النصرانية حاولت تحقيق العدالة ولكن تكالب رهبانها على الشهوات حال دون ذلك وكان هذا المحاضر هو أحمد المحمود المحامى باللاذقية.

وقامت فى المحافظة موجة من السخط والتذمر من المسلمين والمسيحيين على هذه المحاضرة، وجاءنى مدير المركز الثقافى ووكيله وطلبا منى إلقاء محاضرة عن العدالة الاجتماعية فى الإسلام وحضرها أكثر من ٢٥ ألفاً من المسيحيين والعلويين والسنيين، ومكثت ثلاث ساعات ونصف ساعة أرد فيها شبهاته وأفند ادعاءاته، وسجلت هذه المحاضرة التاريخية وهى معى، وقد نالت رضا الجميع وأعادت الطمأنينة إلى النفوس.

وما أشعر بعد ذلك بأسبوع إلا بالأمر من المسئولين فى اللاذقية لأغادر عملى إلى القاهرة وحاولت أن أتعرف الأسباب فلم أستطع حتى أبرقت للأستاذ الأكبر وأنا بدمشق لأستأنس برأيه فمنعوا وصول البرقية إلا بعد خمسة أيام وبعد وصولى للقاهرة حيث أركبونى الطائرة بالقوة وقدمت تقريرا مفصلا للأزهر وأبرقت إلى السيد الرئيس بملخص الموضوع وطالبت بالتحقيق السريع لصالح الوطن — وقد قامت فى المحافظة مظاهرات ضخمة من الشباب والسيدات والرجال للمطالبة بعودتى وجرح منهم من جرح وأرسلت مئات البرقيات للمسئولين بذلك وأبرق أعضاء الاتحاد القومى باللاذقية - وهم - ثلاثون عضوا منهم ثلاثة مسيحيون لإعادتى.

والمشكلة التى أقررها على مسئوليتى ان بعض المسئولين فى المحافظة من حزب البعث المنحل ولا تزال روح الحزبية البغيضة تعمل عملها فيهم ولا يسرهم أبدا أن يروا مصلحا تجتمع عليه كلمة الأمة ويجمع عناصرها المختلفة تحت لواء العروبة - وأنا أحتفظ معى بالوثائق المثبتة لكل كلمة من مقالى وأقرر أخيراً أن الواجب يقتضى لصالح العروبة والإسلام أن نطهر البلد من بقايا النفعيين والملحدين وقد اقترحت فى تقريرى أن تسافر لجنة من العلماء والمسئولين إلى اللاذقية لترى وتسمع بنفسها عن الأثر الذى تركته فى هذه المدة القصيرة «والله متم نوره ولو كره الكافرون».

عبد اللطيف مشتهرى

مبعوث الأزهر لسوريا - اللاذقية

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

يشترك فى التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ فى الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء العاشر — شوال سنة ١٣٧٩ هـ — أبريل سنة ١٩٦٠ م — المجلد الحادى والثلاثون

الفهـــرس



أمة التوحيد لابد أن تتحد

بقلم : أحمد حسن الزيات

التوحيد أصل الأصول فى دين الله ـ عليه قامت العقيدة واجتمعت الكلمة واتحدت الأمة ، وبه فتح العرب أكثر الأرض وحكم المسلمون أكثر الناس .

وليس التوحيد أن تقول : لا إله إلا الله . ثم تجعل معناها الجامع ومرماها البعيد وراء عقلك ودون وعيك ، فإن توحيدك الله معناه اعتقادك بأن لا سلطان إلا سلطانه ، وأن لا دستور إلا قرآنه ، وأن لا سبيل إلا شرعه ، وشرع الله إنما قام على الوحدة والجماعة ، لأن شرع الجاهلية كان يقوم على الشتات والفرقة . والشتات سببه الضلالة ، والفرقة أصلها الجهالة ، والضلالة والجهالة لا تجتمعان فى طريق ولا تتوافيان على غاية .

والعالم كان يوم بعث الرسول وظهر الإسلام جائر السبيل حائر الدليل خائر العزيمة ، يكابد فى هيكله المنحل عوامل البلى من وثنية توبق الروح ، وعصبية تمزق الشمل وجاهلية تقطع الطريق . وكان العرب يومئذ على الأخص أشتاتا من غير جامع ، وهملا من غير رابط ، فاضت فى نفوسهم الحياة وزخرت فى صدورهم القوة فصرفوا هذا النشاط العارم إلى نزاع لا ينقطع وصراع لا يفتر . فاقتضت حكمة العليم الخبير أن يكون لباب الدعوة المحمدية الوئام والسلام والهداية . ومن أجل ذلك كانت الصفات الغالبة على شرع الله فى كتابه هى النور والهدى والاستقامة والرحمة : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » . « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » .

ومن أجل ذلك أيضا كانت عزائم الله

فى الكتاب قائمة على ما يحقق الوحدة ويوثق العقدة ويديم الألفة «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» . «ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم» . «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» . «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» .

فالتوحيد إذن من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة ، فهو يدل بمفهوم لفظه على توحيد الله ، ويلازم معناه على توحيد الرأى وتوحيد الحكم وتوحيد القبلة وتوحيد الخطة وتوحيد الغاية وتوحيد القوة وتوحيد القيادة . وفى سبيل هذا التوحيد قضى الإسلام على الفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة أن يقتل . وعلى الطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين أن تقاتل .

ومهما تختلف الآراء وتتشعب المذاهب وتتعدد الفرق فإن التوحيد الذى تضمن سر الإسلام كما تضمنت النواة سر النخلة ، يظل بنجوة من الخلاف لا يخرج عنه ولا يمارى فيه إلا مشرك أو مرتد . كذلك الوحدة التى انبثقت عنه انبثاق النور عن الشمس والعبير عن الروض والحياة عن الروح ، لا يجوز فى عقل واع ولا إيمان خالص أن تفرقها عصبية لحزب أو مذهب ، ولا أنانية لزعيم أو حاكم .

والوحدة كما توجبها الشريعة لسلام الجماعة ، توجبها الطبيعة لسلامة الفرد ؛ لأن التشتت بعثرة للقوة وتوزيع للعدة ، وليس فى الرمل المتزايل شدة الجبل المتماسك ، ولا فى القطر المتفرق قوة السيل المجتمع وإذا كان للقوى أن يعيش منفردا كالأسود ، فليس للضعيف إلا أن يعيش مجتمعاً كالقرود .

ومن أسرار الطبيعة فى الحى إذا خُلق أعزل من الناب الأعصل والظفر الحاد أن تنمى عدده بكثرة النسل ، وتقوى ضعفه بضرورة الاجتماع ، وتهبه الأخلاق التى تمسك المجتمع وتقويه من إيثار للغير وإنكار الذات واتحاد بالجماعة ؛ ليستطيع فى حمى جنسه أن يضمن القوت ويأمن العدو . ومن أعجب العجب أن العالم العربى وقد قل بالانقسام وذل بالتخاذل يرى الخطوب تتواثب على جوانبه ، والنوازل تتفاقم فى أحشائه ، ثم تظل كل دولة من دوله سادرة فى مشاعب هواها لا تعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النحل والنمل من التكافل والتعاون ، ولا بما فرضته الشريعة على المستضعفين من التواصل والتضامن ، وقد كانوا أحرياء بحكم الطبع والشرع أن يتحدوا فى السياسة الموجهة والقوة المدافعة والدستور المشرع والرئيس الحاكم .

إن الدويلات الضعيفة كان لها فيما مضى من الزمن السعيد حارس من سلطان الدين وحكم القانون وعرف السياسة ، فكانت تعيش فى ظلال الخلق الإنسانى العام حرة آمنة

لا تجد من جارتها الكبرى إلا ما يجد الصغير من عطف الكبير والفقير من عون الغنى .

فلما استكلب الطغيان واستشرى الطمع وامتدت أعين الأقوياء إلى ما فى أيدى الضعفاء ، عاش الناس عيش الوحش فى البر يفترس قويه ضعيفه ، أو السمك فى البحر يبتلع كبيره صغيره ، وسمى العادون المخربون هذا البغى الكافر استعمارا والتمسوا له العلل والأسباب ، وعاقبوا عليه الأسماء والألقاب ، وأدخلوه بمصطلحاته المقررة ومسوغاته المزورة فى دنيا الاسترقاق من أبواب القانون الدولى العام ! وحينئذ ذل الحق وعزت القوة ، وخرس العقل وتكلم الهوى ، وأفلس المنطق وأغنى السلاح ، وشعرت الأمم التى لا تملك العدد ولا العتاد ولا المال ولا العلم حين رأت أشداق الجبارين المستعمرين من دول الغرب تتحلب طمعا فى احتلال الشرق واستغلاله ، شعرت أنها موضوع النزاع وموضع الصراع وغنيمة الحرب ، فاعتراها ما يعترى القطيع من التجمع والتضام حين يسمع من بعيد هيعة الذئب ، وسعى بعضها إلى بعض بالتعارف والتحالف على اختلاف الجنس وتباعد الموطن ليتحدوا . ولكن الاتحاد الذى ألفه الله من صلة الدم ونسب الروح ورابطة اللسان وشركة الدار لا بد أن ينتهى إلى وحدة .

وقد آن لأبناء الأمة الوسطى وورات الدعوة العظمى أن يذكروا ما نسوا ، ويجددوا ما طمسوا ، ويعلموا أن الحق هو القوة ، وأن القوة هى الوحدة ، وأن وحدة العرب كانت معجزة دين التوحيد ، قام عليها تاريخهم القديم ولن يقوم على غيرها تاريخهم الجديد .

إن اتحاد الدول العربية ضرورة خلقتها غريزة حب البقاء وهو لا بد واقع . أما وحدة الأمة العربية فهى واقعة بالفعل ؛ لأن كتاب الله لا يزال مقروءاً وسنة رسوله لا تزال متبعة . فمن يقل إن العراق منشق على الوحدة لأن فلانا انشق ليسمى نفسه الزعيم الأوحد ، وأن الأردن قد فارق الجماعة لأن علانا فارقها لينعم فى ظلال انجلترا بالعيش الأرغد ، وأن تونس تركت العقدة لأن (أبا جان) تركها لتصير عقدته بفرنسا أوثق وأعقد ، من يقل ذلك يكن من الذين لا يزالون يقولون بأن هوى الزعيم مشيئة الأمة ، وأن إرادة الملك شريعة المملكة ! .

إن الأمة العربية جمعاء لسان واحد وسيف واحد فى جهاد الاستعمار والبغى . فمن لم يكن معها فيه فهو عليها . ومن يمالئ عدوها لغلول فى صدره أو نكول فى طبعه فليس منها .

ومن تسول له نفسه أن ينقض اليمين بعد توكيدها ، ويفرق الأمة بعد توحيدها ، فهو عربى من غير عروبة ، ومسلم من غير إيمان ، وإنسان من غير ضمير ؟

أحمد حسن الزيات

الإسلام وحدة وجماعة

لصاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

أيها الإخوة المؤمنون :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فإن الأعياد سنة فطرية جبل عليها الناس وعرفوها منذ فهموا التقاليد وأدركوا معنى الاجتماع ، ومرت بهم أحداث الخير والشر ومظاهر النصر والهزيمة . وبمقتضى هذه السنة الفطرية كان لكل أمة أعياد تظهر فيها أفراحها وتأخذ فيها زينتها ، تذكيراً بفضل أنعم الله عليها وتمكينا للمعانى السامية التى وصلت إليها وتركيزاً للمثل العليا التى اقتحمت بها عقبات الحياة ، وما أحرانا اليوم حين بزغت علينا شمس العيد مذكرة لنا بما أفاء الله علينا من نعمة النصر كأثر للوحدة التى كانت تلبية للمعانى المستقرة فى نفوسنا من إيمان عميق وعقيدة راسخة وقلوب متآلفة ولغة وأهداف واحدة ، ماتت معها العصبيات المفرقة والطائفية المشتتة واستيقظت معانى الإيثار ، وقويت التضحية ، استجابة للمعانى الإنسانية والمثل العليا التى حوتها شريعتنا الإسلامية الغراء وبينها لنا القرآن الكريم وتحدثت بها السنة النبوية الكريمة «إنما المؤمنون إخوة» ، «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» ، «وأمرهم شورى بينهم» «وشاورهم فى الأمر» ، «والناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» .

ذلكم أن السلام رائدنا والوحدة هدفنا والوحدة هى دعامة السلام وأساس النظام وقوة للأمم المهيضة الجناح فأنعم بها يوم أن انبثقت من نفوس شعبينا فى قوة إرادة ، وصدق عزيمة فأيدها الله وملأ بها القلوب ، وها هى ذى تؤتى ثمرتها فترهق الأعداء بما أينعت ، ومن ثم دارت رءوسهم ، وتفطرت عقولهم فلا يجدون إلا أن يطلقوا شياطينهم توسوس هنا وهناك ظنا منهم أن ذلك البناء الأشم يستطيعون أن يتطاولوا إليه بعد أن غدا سامقا لا يرقى إليه طير ولا تصل إليه وسوسة وهيهات هيهات فإنها الوحدة التى صاغتها القلوب المتآلفة ووقفت من خلفها الأرواح الزاكية تحميها وتذود عنها ، ولكم ظلت آمال العروبة تهفو إليها بحرارة وشوق عاملة على جعل الحلم حقيقة واقعة . ولكم ظللنا نرقب ذلك وظل أملا تتطلع إليه النفوس المؤمنة حتى هيأ الله لهذه المعانى من أبرزها ، فإذا بالخيال يغدو واقعا ، وإذا بالأحلام تصبح حقائق .

وللجماعة فى نظر الإسلام شخصية مميزة شعارها الوحدة الكاملة وإن أبرز ما يطالعنا من النواحى التى كانت أساسا للوحدة والتى اتخذمنها الشعار العام للشخصية الإسلامية ما حكاه الله عن جدى العروبة والإسلام : ابراهيم وولده إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » .

إنهما قد دعوا بالإسلام لله والإخلاص له والاعتصام بدعوته دون أن يكون لسلطان الدنيا أو شهوات النفس ومقتضيات العصبية سلطان عليهما ولا على قلبيهما ، وقد طلبا ذلك لذريتهما أيضا « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » . ومن ثم كانت الوحدة فى الإيمان والعمل أساسا وشعارا للجماعة فى نظر الإسلام منذ أن وضعت اللبنة الأولى فى بنائه على عهد جدى العروبة : ابراهيم وولده اسماعيل وبذا كانت العروبة والإسلام قوتين متعاونتين تشد إحداهما أزر الأخرى وتهيئان النفوس المستعدة للخير والإصلاح إلى اقتحام ما يكيد به أرباب الفساد والشر الأثيم ويضعونه عقبات فى طريق النمو الإنسانى الفاضل الكريم . وحينما اكتمل النمو البشرى السليم جاء الإسلام دين الوحدة والجماعة يحمله كتاب عربى على لسان رسول عربى كريم . وقد نحى عن أمته صبغة الجنسية والإقليمية ليجعل منها أمة واحدة متراصة متكاملة البناء قوية الدعائم فلطالما أغرت هذه العصبيات بين الناس العداوة والبغضاء ، وقضت على روح التعاون والتحاب والتواد والتراحم ، جاء الإسلام بوحدة العقيدة ووحدة العبادة ، ووحدة السلوك ، ووحدة الأهداف مع وحدة الرحم ، وأخذ ينادى الخلق بنداءات إلهية مختلفة تحرك فى نفوسهم كل معانى الوحدة الفاضلة وتبعث فى قلوبهم الألفة والمحبة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، « يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » . ولا بد لحماية هذه الوحدة من عوامل أخرى تتصل بالغير وترتبط به والله سبحانه وتعالى ينادى عباده بأن يكونوا إيجابيين فى بناء وحدتهم ويحذرهم من عوامل الفرقة والتفرق ويحذرهم أن يستمعوا إلى أراجيف المرجفين الذين يضيقون ذرعا بنتائج الوحدة والألفة فيحاولون العبث والإفساد « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » .

ونذكر فى هذا المقام موقف اليهودى الذى ساءته وحدة الأوس والخزرج فحاول أن يغرى بينهم العداوة والبغضاء فهموا إلى السيوف يعيدون الحرب جذعة وكاد الفريقان يقتتلان لولا أن وقف الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم وقال : « يا معشر المسلمين أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ؟ الله .. الله ، الله فى دينكم الله فى إسلامكم ! » فأدرك القوم أن ما أريد لهم من فرقة إنما هى نزعة شيطان وكيد عدو ، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى سمع وطاعة ، وهكذا التأمت الجراح وعادت الوحدة إليهم ، وما أشبه الليلة بالبارحة حيث يسعى قوم بين وحدة العرب بالفساد ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . وينوه الله بنعمة الوحدة والألفة فيقول : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

إن الأجيال جميعا لترقب هذه الوحدة وإننا لندعوه سبحانه أن يكمل عقدها وأن تصبح شاملة فتقهر الاستعمار وتحيا فى ظلها أمم غلبت فيهم كلمة التفريق فأرغمتهم على حياة القهر والذل ، وحينئذ تكون هذه الوحدة مصدر سعادة العرب أجمعين يرتفع بها شأننا ، وتصد الغوائل عنا ، وتطهر أرضنا من المرجفين الذين ينفثون سمومهم « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » .

ولنتجه جميعاً إلى الحق الذى رسمه الله لنا ، أدام الله التوفيق لفتى العروبة والإسلام وبطل هذه الأمة جمال عبد الناصر .

ووفقنا الله وباعد بين العروبة وبين المفسدين الذين تدفعهم العصبية الهوجاء إلى الغل والحقد والضغينة .

والسلام عليكم ورحمة الله .

محمود شلتوت

عَودٌ إلى الثّقافتين

ليس فى الإسلام مشكلة ثقافيّة

للأستاذ عبّاس محمود العقاد

عرضنا فى إحدى مقالاتنا بمجلة (الأزهر) لمشكلة الثقافتين عند الأمم الغربية . والمقصود بها مشكلة الانفصال بين ثقافة العلم وثقافة الأدب ، واتساع الهاوية فترة بعد فترة بين تفكير العلماء وتفكير الأدباء وأصحاب الآراء النظرية، مما ينذر بإصابة « الشخصية الإنسانية» فى هذا العصر بداء كداء الفصام ، ويجعل الإنسان الناشئ على إحدى هاتين الثقافتين دون الأخرى كأنه نصف إنسان .

وقد كانت هذه المشكلة مدار البحث فى سلسلة المحاضرات الفلسفية التى ألقاها الكاتب - العلمى الأدبى - الأستاذ سنو Snow فى شهر مايو الماضى ، فثارت حولها ضجة من النقاش والنقد والتعقيب لم تنقطع إلى هذه الأيام ؛ لأن المشكلة - على ما هو ظاهر ليست فى المشكلات التى ينتهى الفصل فيها بسلسلة من المحاضرات ، أو بطائفة من الآراء تنشر ثم تطوى بعد أسابيع أو شهور ، ولا مناص فيها من إتباع القول بالعمل على منهاج متفق عليه ، فإن لم يبلغ التفاهم عليه مبلغ الاتفاق فلا أقل من أن يكون صالحا للتنفيذ والتقرير .

وقد عاد الأستاذ (سنو) إلى بحثه فى مقال نشرته مجلة المساجلة Encounter فى عددها الصادر فى شهر فبراير الماضى ، وأراد بمقاله هذا أن يلم أطراف المناقشة ويعقب عليها بخلاصة رأيه بعد عرض أقوال الموافقين والمخالفين من الباحثين قبله أو بعده فى مشكلة الثقافتين، وقد جمعهم إلى طوائف ثلاث : موافقين فى الرأى والنتيجة، وموافقين فى الرأى مخالفين فى النتيجة ، ومخالفين يعارضون نظرته كل المعارضة فى وصف المشكلة ويرون أن العصر الحديث كالعصر القديم فى تعدد الثقافات ، مع اختلاف الموضوع والمقدار .

ولا يعنينا هنا تفصيل أسباب الخلاف بين آراء الموافقين والمعارضين . فذلك شرح يطول ولا علاقة له بالناحية التى نحول إليها البحث من أمر الثقافة الإسلامية .

ولكننا نجتزئ بالإشارة إلى رده المجمل على المخالفين ، ثم بالإشارة إلى الحل الذى يقترحه لعلاج المشكلة من الوجهة العامة .

فالمخالفون يقولون : إن الحال لم تتغير فى جوهرها من أيام عصر النهضة إلى اليوم . فلو تلاقى عالم فقيه وشاعر فنان قبيل القرن

السادس عشر لما كان بينهما من التفاهم والتقارب أكثر مما يكون بين علماء العصر الحاضر وأدبائه أو مفكريه النظريين.

وجواب الكاتب على هؤلاء أنه لا يسلم بأن المسافة بين الفريقين كانت على هذا البعد منذ ثلاثة قرون، ولا يقول إن العلم والأدب كانا قريبين متلاقيين فى القرن السادس عشر، ولكنه يقول إن القنطرة بينهما كانت موجودة مستقرة وهى اليوم تتهدم شيئا فشيئا وتوشك أن تزول، وأنه على أية حال لا يريد أن تتوحد معرفة العالم ومعرفة الأديب، ولا أن يتم التفاهم على نمط واحد بين جميع المثقفين، وإنما يريد أن تقام القنطرة وتظل قائمة لمن يعبرها، ولا يعجز أحد عن عبورها إذا أراد.

أما حل مشكلة الثقافتين من الوجهة العامة عند الكاتب فهو تعميم التصنيع فى المجتمعات الحديثة، ولا بد — على رأيه — من الاختيار بين البدائية الهمجية وبين تصنيع المجتمع وتعويد الناس جميعا أن يعيشوا معيشة الحضارة العلمية، فيصبح التثقف العلمى حقيقة واقعة يزاولها الناس فى البيوت والأسواق وفى ميادين الرياضة البدنية والنفسية، وفى حينها تحول الإنسان بين العمل الصالح واللهو البرىء، لاضطرارهم إلى استخدام الآلات.

والكاتب، فيما نعتقد، مصيب من الجانب الذى ينظر إليه، وهو جانب (الإنسان الغربى) وارث العلم والأدب فى البلاد الأوربية أو الأمريكية من القرون الأولى بعد الميلاد.

فقد عاش هذا الإنسان على الدوام فى ميدانين متقابلين من عالم الثقافة: ميدان الروح وميدان الجسد، أو ميدان ملكوت السماء وميدان ملكوت الأرض، وكان الانفصال بين الميدانين بعيد الأمد يكاد ينتهى إلى عالمين متناقضين أحدهما ملعون منبوذ هو هذا العالم المشهود، والآخر مقدس مطلوب ولكنه غائب وراء الحواس بل وراء العقول التى تتصرف فى الأمور الدنيوية.

وليس الانفصال بين العلم والأدب فى القرن التاسع عشر وما بعده إلا ميراثاً منقولا من ذلك الفاصل القديم، ولا غنى فى هذه الحالة عن تقريب القواعد قبل تقريب البناء الذى يقام عليها.

ولهذا لا غنى عن سؤال يجاب عليه قبل البحث فى الحلول العامة المقترحة، سواء منها حل الكاتب الانجليزى وحل غيره من المفكرين العلميين والنظريين.

هذا السؤال هو: ما الرأى فى « الشخصية الإنسانية » على أى وضع من الأوضاع الاجتماعية فى العصر الأخير: عصر الصناعة وحضارة العلم الحديث أو عصور الزراعة والعلاقات الاقتصادية على اختلافها.

هل « الشخصية الإنسانية » هى موضع التربية والتثقيف وغرضهما ومدارهما فى جميع الأحوال ، أو أن موضع التربية والتثقيف وغرضهما ومدارهما شىء آخر لا يبالى مصير هذه الشخصية ؟ .

إن الإسلام لا مشكلة فيه من جهة الثقافة على أنواعها ؛ لأن « الضمير الإنسانى » هو المسئول دنيا وأخرى عما يعمله الإنسان وما يعلمه وعما يدين به فى نجواه وما يدين به بينه وبين غيره .

والتربية فى الإسلام هى تهذيب هذه « الشخصية » وتزويد قواها الفكرية والبدنية معا بكل ما يصلحها للعلم والعمل .

وكل تربية ينالها الإنسان فهى امتداد لقوة من قواه ، سواء منها قوة البدن وقوة الروح ، وإنما تعرف قيمتها بميزان القوة التى تمدها وتزيدها وتهيئها للعمل فى الحياة الخاصة أو الحياة الاجتماعية العامة .

فالتربية الصناعية تجعل للإنسان يدا أقوى من يده أو قدما أقوى من قدمه ، أو بصراً أقوى من بصره ، أو سمعا أقوى من سمعه ، وهى تربية ضرورية نافعة لاغنى عن تعميمها بين الناس فى المجتمعات الحديثة ، ولا غنى لهذه المجتمعات عنها فى عصر الصناعة والمخترعات .

هذه التربية الصناعية قوة تمنح الإصبع قدرة على أن يحرك الجبال بالضغط على زر صغير ، وتمنح العين قدرة على النظر بالمجاهر والمناظير إلى دقائق الخفاء وإلى آفاق السماء .

ولكن هذه القوى جميعا لن تبلغ فى القيم الإنسانية مبلغ القدرة التى ترفع ضميره وتوليه من الشعور والفكر وسيلة توسع أمامه آفاق الحياة وتبسط بين يديه كونا أعظم من الكون الذى يعيش فيه جسده ووجودا أتم من الوجود الذى يلابسه بأعضائه البدنية ولو بلغت غاية مداها من بسطة وامتداد .

إن « زرا » يضغطه الإنسان بإصبعه قد تمنحه قوة ألف إصبع أو آلاف من الأصابع تحسب بالملايين ، ولكن « الشخصية الإنسانية » لا تتوقف عليه ، وقد تصنعه للإنسان شخصية أخرى فيعمل به كل عمله المطلوب ، فليس فى الضرورى أن يكون صانع الزر هو المنتفع به أو هو المتعلم لتركيبه واستخدامه ، ولا شأن له فى إتمام « كيانه الإنسانى » ولا فى الارتفاع به إلى ماهو أهل له من مراتب الكمال .

ولكن القدرة الروحية إذا عرف بها الإنسان مزايا الخير والجمال وتذوق بها محاسن الحياة الفكرية والعاطفية تتوقف على « الشخصية » التى تستطيعها ولا تصنعها لها شخصية أخرى كما تصنع الأزرار والمجاهر والمناظير .

وهذا هو الفارق بين تربية وتربية ، وبين إنسان مثقف وإنسان ناقص التثقيف ، أيا كان نظام المجتمع وأيا كان حظه من التصنيع .

فإذا وجب التصنيع فإنما يجب لتمكين الإنسان من الانتفاع بصناعات عصره وتوزيع منافع الصناعات بين جميع أبناء المجتمع على سنة الإنصاف والتعاون فى المصلحة والخير ، ولكن المجتمع الذى سيصنع الأزرار والمجاهر والمناظير لأبنائه لا يعطيهم كل شىء ولا يزودهم بمقومات الحياة التى يحتويها كل ضمير بينه وبين الله وبينه وبين الناس ولا يستطيع أن يعول فيها على معمل من معامل التصنيع يتكفل بتوريد الضمائر لأبنائه كما تتكفل المعامل بتوريد هذه الأداة أو ذلك المخترع المصنوع .

ولن تتم فى مجتمع من المجتمعات ثقافة عالية جديرة بأن تسمى ثقافة إنسان مالم تكن ثقافة شاملة يتم بها قوام « الشخصية الإنسانية » بريئة من داء الفصام موفورة الحظ من الضمير والجسد ، ومن العلم والأدب ومن مطالب الأذواق ومطالب العقول .

عباس محمود العقاد

قلم الحبر اختراع عربى

قيل : إن قلم الحبر اخترع فى القرن الثامن عشر الميلادى . وقيل إن الأمريكيين كانوا أسبق الناس إلى معرفته .

والحق أن الذى اخترعه هو المعز لدين الله الفاطمى فقد جاء فى كتاب المجالس والمسامرات على لسان القاضى أبى حنيفة النعمان بن محمد بن منصور التميمى قاضى قضاة المعز المتوفى سنة ٣٦٣ ﻫ قال : ذكر الإمام المعز لدين الله القلم فوصف فضله .

ثم قال : « نحن نريد أن نعمل قلما يكتب به بلا استمداد من دواة منه يجعله الكاتب فى كمه أو حيث شاء فلا يؤثر فيه ولا يرشح شىء من المداد منه ، ولا يكون ذلك إلا عند ما يبتغى منه فيكون آلة عجيبة لم نعلم أنا قد سبقنا إليها ، فقلت : أو يكون هذا يا مولانا عليك سلام الله ؟ قال : يكون إن شاء الله .

فما مر بعد ذلك إلا أيام حتى جاء الصانع الذى وصف له الصنعة ومعه قلم من ذهب فأودعه المداد وكتب به فكتب وزاد شيئا فى المداد على مقدار الحاجة ، وأمر بإصلاح شىء منه فأصلحه وجاء به وإذا هو قلم يقلب فى اليد ويميل إلى كل ناحية ، فلا يبدو منه شىء من المداد وإذا أخذه الكاتب وكتب به كتب أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد .

أ - ح - الزيات

دور الأمومة فى الخدمة الاجتماعية

للأستاذ الدكتور محمد البهى

ما هى الخدمة الاجتماعية :

أول ما يتبادر إلى معالج لهذا الموضوع أن يسأل : ما هى الخدمة الاجتماعية ؟ ولكى يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال يجب أن يتعرض لجوانب المجتمع العديدة . والمجتمع البشرى ـ كمجتمع ـ يقوم على إقرار بهدف معين لأفراده . وهذا الهدف المعين المشترك بين الأفراد يدفع بالضرورة إلى إيجاد نوع من العلاقات بينهم ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يتركوها فتضعف ، فضلا عن أن يتخلوا عنها . وإلا انحل المجتمع من نفسه وصار مجموعة من الأفراد ، يعيشون وحدات مفرقة منثورة ، تختلف أهدافهم وتتعارض اتجاهاتهم تبعا لاختلاف أهدافهم فى الحياة .

المجتمع البشرى يصنع ، ولذا فهو طارئ فإذا ذهب الهدف الذى من أجله قام مجتمع من المجتمعات ، ذهب هذا المجتمع فى مجتمع آخر قائم بالفعل أو مجتمع ينشأ عنه وعندئذ ينشأ لهدف . وربما يكون هذا الهدف الهدف السابق نفسه فتكون نشأة المجتمع وقتئذ « نهضة » . فإذا كان الهدف على الضد من الهدف السابق كان مجتمعا آخر جديداً ، مع أن أفراد المجتمع السابق هم أفراد المجتمع الجديد .

جاء الإسلام فوجد مجتمعاً عربيا فى شبه الجزيرة العربية ، له عرفه وتقاليده ، وله هدفه وغايته . ووجد مجتمعاً فارسيا فى منطقة الامبراطورية الفارسية له عرفه وتقاليده ، وله هدفه وغايته ، ووجد مجتمعا رومانيا شرقيا فى رقعة الشرق الأدنى له عرفه وتقاليده ، وله هدفه وغايته . ووجد مجتمعا مصريا وآخر فى شمال إفريقيا لكل منهما عرفه وتقاليده ، وهدفه .

١ ـ فكان من العرف والتقاليد التى سادت هذه المجتمعات بصفة مشتركة ـ اضطراب التوازن الاجتماعى وتعدد الطبقات فى المجتمع ، مرة على أساس من النسب ، وأخرى على أساس من الثراء فى الملك والتجارة ، ومرة ثالثة على أساس من المعرفة الدينية ، ورابعة على أساس من جاه الحكم فكانت هناك الطبقة الاستقراطية فى الشرف والطبقة الأخرى الوضيعة المقابلة لها ، وكانت هناك الطبقة الرأسمالية والأخرى العاملة المستذلة ، وكانت هناك طبقة الكهان

أصحاب العرافة أو المعرفة الدينية والطبقة الأخرى التى تطيعها ولا تناقشها ،وهى طبقة المستسلمين أو التابعين ، وكان هناك البيت الحاكم أو الأسرة الحاكمة من جانب والرعايا المحكومون من جانب آخر .ووصل اختلال هذا التوازن الاجتماعى إلى أن أصبح الإنسان سلعة تباع وتشرى ، وأصبح الرق البشرى تجارة رابحة ، وأصبح الذل والاستذلال طابعا لحياة فريق فى المجتمع ، بينما الصلف - ومن توابعه الظلم - طابعا لفريق آخر فيه .

٢ — وكان من العرف والتقاليد التى تميزت بها هذه المجتمعات شيوع الترف القائم على الإسراف والفساد ، والانحراف عن خط الاستقامة والسلوك المهذب فى جانب ، وفى الوقت نفسه شيوع الفقر والفاقة فى جانب آخر .

وكما كانت « الفجوة » أو « التناقض والمقابلة » مظهرا مسيطرا بين طبقات المجتمع وفى جوانبه - كانت هذه الفجوة أو هذه المقابلة مظهرا مسيطرا كذلك بين نوعى الأفراد فى بعض هذه المجتمعات . فكان للرجل قيمة وللمرأة من الأفراد قيمة أخرى، تقربها من أن تكون طبيعة منفعلة على الدوام ، ليس لها إيجابية فى المجتمع سوى أن تقبل التوجيه فى صوره المختلفة من الرجل.

٣ — وكان من العقائد وصور الإيمان التى كانت تحكم هذه المجتمعات - ولعل ذلك كان نتيجة لتلك المفارقات والفجوات الواضحة فيها ، التى قامت عليها الطوائف والطبقات هناك - أن رفع الإنسان إنسانا آخر فألهه وعبده ،أو دنا بنفسه فى التقدير فعبد ما هو دون الإنسان فى موجودات هذه الأرض من نار أو حجر ، وبذلك أضفى القدسية ، وأسند النفع والضر ، إلى مالا قدسية له من طبيعته ، ولا نفع أو ضر ينبثق أصلا عن ذاته . فكان الشرك فى العبادة ، وكان الهوان فى الاعتقاد .

الإسلام خلق مجتمعا جديدا :

جاء الإسلام بنظام وبرسالة للبشرية . وحدد فى هذا النظام وفى هذه الرسالة هدف المجتمع الإسلامى . حدده برفع الظلم الاجتماعى ورفع الطائفية والطبقية من مجتمعه ، وأعلن قيمة الإنسان من خصائصه البشرية وحدها ، لا من أرستقراطيته فى شرف سابق فى النسب ولا من جاهه فى الثراء أو الحكم ، ولا من انتسابه للون معين من العرافة أو المعرفة ، فكان قول القرآن الكريم : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فالناس جميعا بمقتضى هذه الآية من خلق واحد . فكل فرد جاء من ذكر وأنثى . وإذن أصل النشأة واحد . ثم هم بعد

التشابه وعدم التغاير فى أصل النشأة يتميز بعضهم عن بعض بمدى تنمية طبيعته وتطوير إمكانياتها واستعداداتها البشرية ، وهى إمكانيات واستعدادات تختلف تماماً عن تلك التى يشارك فيها الحيوان . ولذا كان التعبير فى هذه الآية عن هذا التميز بعد التشابه فى الطبيعة بقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » - تعبيرا فى غاية الدقة . لأنه أفاد : أن أمارة هذا التميز هو الاتقاء والتجنب . وشأن الاتقاء والتجنب لأى أمر أو تصرف وسلوك لا يتم إلا بإرادة . والذى يدرك من الكائنات حدود ما يُتقى ويُتجنب هو الإنسان وحده . ولذا الذى له إرادة من بينها - وبالأخص عند الاتقاء والتجنب - هو الإنسان وحده أيضا . إذ الحيوان لا يفرق بين ما ينبغى ومالا ينبغى ، ثم ليست له إرادة بجانب عدم إدراكه المميز . فشأن الحيوان أن يُدفع ويساق ، وأن يُحال بينه وبين أمر ما . وهو لا يعرف أن يُقدم ، فضلا أن يدرك : متى يقدم ؟ . لا يعرف أن يمتنع ، فضلا عن أن يدرك : متى يمتنع ؟ .

وبجانب إعلان الإسلام لقيمة الإنسان على هذا النحو - فألغى بذلك الطبقية والطائفية ، وفى ضمن إلغاء الطائفية والطبقية إلغاء الرق والبيع والشراء للإنسان - أعلن المساواة فى النشأة والأصل بين الذكر والانثى من الإنسان ، وذلك فيما تذكره هذه الآية الكريمة : « ومن كل شىء خلقنا زوجين . » إذ بمقتضى منطوق هذه الآية الكريمة أن كل جنس من أجناس الكائنات خلق منه زوجان ذكر وأنثى فى الإنسان ، والحيوان ، والنبات . وقابل وفاعل أو موجب وسالب فيما عدا الإنسان والحيوان والنبات .

وكما كانت نظرة الإسلام إلى البشر فى أنهم شعوب وقبائل هى للتعارف والائتلاف والانسجام ، وليست للتباين والتعارض والنفرة - كذلك نظرته إلى خلق الزوجين من كل شىء كانت غايته أيضاً الائتلاف والانسجام وليس النفرة والتعارض . ويشير إلى هذه الغاية ما تنطق به آية أخرى هى قوله تعالى فى شأن الذكر والأنثى من الإنسان : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ، وقوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » .

وكان لابد من وجهة نظر الإسلام - وقد أعلن مساواة البشر فى الطبيعة ، ومساواة الذكر والأنثى فى الأصل والنشأة ، وألغى تبعاً لذلك كل المفارقات والفجوات التى لا تتصل بالطبيعة الإنسانية - أن يدعو الإنسان إلى الاحتفاظ بقيمته الإنسانية سواء فيما يتصور ، أو فيما يتصرف ، أو فيما يعتقد .

وهنا فى دائرة الاعتقاد لا ينبغى له إذن

أن يؤله مساويا له في البشرية ، وبالأولى لا يؤله أقل منه في الطبيعة . وإلا إن فعل واحد منهما — يكون قد عكس آية الوجود فيما يتصل بخلقه ووجوده .

وهنا كان منطق الإسلام في دائرة العقيدة والإيمان أن يدعو الإنسان إلى أن يتجه بإيمانه وعبادته إلى حقيقة هي أعلى من الإنسان، وهي ذات المولى جل شأنه ، وأمارة كون هذه الحقيقة حقيقة عليا ، أنها ليست شبيهة لكائنات أي جنس من أجناس الوجود . وقد عرفنا أن أجناس الوجود تقوم جميعها على الزوجية الذكر والأنثى . أو الفاعل والقابل ، وأنه عن طريق هذه الزوجية يكون الولد وتكون الكثرة والزيادة . فإذا كانت هذه الحقيقة العليا لم تولد فهي لا تلد أيضا ، وإذن فهي فرد صمد . وهذا ما ذكره الإسلام في سورة من السور القصيرة في كتابه في قوله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

وبهذا كله حدد الإسلام غاية رسالته ، وخلق من التابعين له والذين آمنوا به من أفراد المجتمعات السابقة عليه المختلفة في الجنس أو الاعتقاد أو العرف والعادة ، مجتمعا جديدا . وأصبح التاريخ الإنساني يتحدث عن «مجتمع إسلامي» دخل فيه العرب والفرس ومن سيطر عليهم الرومان في الشرق الأدنى ، ثم امتد فوصل إلى ما وصل إليه انتشار الإسلام في إفريقيا وآسيا ، وفيما وراء إفريقيا وآسيا من قارات العالم القديم .

وهنا نجد أنه نشأ مجتمع جديد انحلت فيه المجتمعات التي سبقته ، وكان لهذا المجتمع الجديد هدف يغاير أهداف تلك المجتمعات السابقة ، وتبعا لقيام هذا المجتمع الجديد وجد نوع من الروابط بين أفراده ، يقصد إلى تحقيق الهدف وصيانة المجتمع نفسه من الضعف أو الانحلال . وتحقيق الهدف هنا هو توكيد اعتبار القيم التي جاءت بها الرسالة الإسلامية ، وهذه القيم هي ما يتعلق بوضع الإنسان وضعا متساويا للإنسان الآخر في الطبيعة والاعتبار ، وإلغاء الفوارق التي تقوم عليها عادة الطبقات والطوائف تبعا لذلك ، وكذا ما يتعلق بتحديد المقياس الذي يتميز بمقتضاه إنسان عن إنسان آخر ويفضل به شخص شخصا آخر ، وهو مقياس التنمية للمواهب والاستعدادات البشرية ، وليس مقياس النمو والتزيد في الشرف أو المال أو الجاه .

وجدّة المجتمع الإسلامي إذن أنه مجتمع لا يعترف بالطبقات ، ويقوم على أساس المساواة ، وإن كان يقر مبدأ التفوق والمفاضلة في المعاني الإنسانية ، بينما المجتمعات

السابقة كانت مجتمعات طبقية ، أساس المفارقات بين الأفراد فيها عوارض تعرض لذات الإنسان ، دون طبيعة الذات نفسها ، وجدته أيضا فى أنه - بناء على رد الاعتبار للإنسان أى إنسان من حيث إنه طبيعة إنسانية - حول الإيمان بالشرك فى الألوهية - لأنه لا يتفق مع كرامة الانسان - إلى الإيمان بالوحدة ، لفت النظر إلى أن المعبود الواحد هو فوق الإنسان ، وأول الموجودات ، وأصل الوجود ونهايته كذلك « هو الأول والآخر » ، « كل شىء هالك إلا وجهه » .

* * *

هذا مثل يوضح كيف أن المجتمع الإنسانى يُصنع ، وأن صنع أى مجتمع جديد لابد أن تسبقه دعوة إلى تحديد هدف جديد ، ويتلو تحديد الهدف الروابط بين الأفراد ، تلك الروابط التى تساعد على تحقيق الهدف الجديد أو استمرار قيام المجتمع الناشئ .

الثورة المصرية نهضة فى مجتمع قائم :

ومثل آخر لا يوضح قيام مجتمع جديد ، ولكن يوضح « نهضة » المجتمع القائم بالفعل ، ونهضة أى مجتمع قائم تساوى قيام مجتمع جديد فى الحاجة إلى دعوة وفى الإيمان بما تتجه الدعوة إليه من هدف من قائد الدعوة نفسها ، والفرق بعد ذلك بين قيام مجتمع جديد ونهضة مجتمع قائم هو فى ذات الهدف ، فعند النهضة هدف المجتمع لم يتغير ، بينما عند قيام مجتمع جديد يستلزم الأمر تحديد هدف آخر يغاير تماما ما كان من هدف للمجتمع السابق عليه .

هذا المثل الآخر هو مجتمع « ثورة الإقليم المصرى » فى يوليو سنة ١٩٥٢ ، فمجتمع الإقليم الجنوبى قبل الثورة هو مجتمع إسلامى فى رقعة الوطن العربى ولكن غشاه من الانحراف ما جعله مجتمعا لا يعبر عن هدف المجتمع الأصيل ، فالمساواة التى دعا إليها الإسلام تحولت فى المجتمع إلى طبقات وطوائف ، وكرامة الإنسان التى أعلن عنها الإسلام فى توجيه العبادة والإيمان إلى الله وحده سقط اعتبارها تبعا لنمو المعنى الطبقى والطائفى فى ذاك المجتمع ، وهنا ابتعد المجتمع المصرى السابق على الثورة عن هدفه ، وإذا ابتعد أى مجتمع عن هدفه ضعفت أو تلاشت الروابط التى ربطت بين أفراده لأن تلك الروابط وجدت لوجود الهدف وفى سبيل المحافظة عليه .

وعندما قامت ثورة الإقليم الجنوبى أعلنت هدفها فى : المساواة ، والكرامة الإنسانية ، أى أعلنت الهدف الذى هو للمجتمع الإسلامى فى رقعة الوطن العربى - الإقليم المصرى - فهى ثورة لا انقلاب ، ولكن لإعادة المجتمع الإسلامى العربى فى الإقليم المصرى ، بعد ما ابتعد عن هدفه

وضعفت روابطه بين أفراده فيما قبل قيامها ورد أى مجتمع إلى هدفه الذى قام من أجله هو نهضة ، وليس إنشاء لمجتمع آخر جديد ، لأن الهدف لم يختلف عندئذ .

وإذن مجتمع الثورة العربية هو مجتمع إسلامى عربى ، أى مجتمع يرتبط بهدف المساواة ، ورفع الطبقية والطائفية ، وبالكرامة الإنسانية فى بلد عربى ، والقومية العربية لا تعنى إلا تحقيق هذا الهدف فى الوطن العربى ، ولا تعنى بحال شيئاً آخر فى ذلك ، وإلا كانت تعبيراً لا مدلول له ، وهدف المساواة والكرامة الإنسانية هو هدف الرسالة الإسلامية التى قام المجتمع الإسلامى على أساسها ، وحدد الروابط بين أفراده قصداً إلى تحقيقها ، وقد تجلى لنا هذا الهدف من توضيح قيام هذا المجتمع الإسلامى على أنقاض المجتمعات السابقة عليه .

وهنا نعود إلى شرح معنى : الخدمة الاجتماعية . ومعناها الآن بسيط كل البساطة : الخدمة الاجتماعية هى إذن كل عمل يصون هدف المجتمع من الضعف . هى كل عمل يسعى بطريق مباشر أو غير مباشر إلى وقاية هذا الهدف من التخلخل فى نفوس أفراد المجتمع . هو كل عمل يتمثل فيه هذا الهدف .

كيف ؟ إن توجيه الناشئة إلى القيم التى تتبلور فى هذا الهدف خدمة اجتماعية . وإن دفع أفراد المجتمع بالقول أو بالعمل إلى تنمية الشعور المشترك بينهم ، ذلك الشعور الذى يعكس بدوره هدف المجتمع - خدمة اجتماعية : إن إشعار الإنسان لإنسان آخر فى مجتمعه بمساواته له فى معنى الإنسانية ، وفى الكرامة والاعتبار - خدمة اجتماعية . فمثلا إن أسند إليه عملا ، أو أعطاه شيئا ما يدفع به حاجته أو يدفع عنه أذى - لا يشعره بأنه أقل منه فى معنى الإنسانية أو فى الاعتبار والقيمة .

الإحسان فى صوره العديدة - فى العشرة والمعاملة ، فى الإعطاء والمنح ، فى الرعاية والولاية ، فى التوجيه والقيادة - خدمة اجتماعية .

الزكاة والصدقة - إن لم يصحبهما عدم الزهو وعدم الرياء - يصوران معنى الخدمة الاجتماعية . « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » . والأذى الذى يتبع الصدقة ليس هو الأذى المادى وحده ، بل والأذى النفسى . ومصدر الأذى النفسى عند المتصدق هو فى زهوه وريائه بصدقته .

إن قيام كل فرد بواجبه فى نطاق ما يناط به - خدمة اجتماعية : فقيام الموظف بوظيفته ، وقيام العامل بعمله - فى إتقان - فى مصنعه أو متجره ، وقيام صاحب العمل فى المصنع أو المتجر برعاية حق المستهلك والعامل معا ، وقيام الجندى فى الميدان بما يقتضى حق الدفاع عن الوطن ، وقيام رجل الشرطة بتنفيذ

القانون فى غير تحيز ، وقيام القاضى برسالة العدالة فى قضائه ، وقيام الطبيب برسالة الإنسانية فى مباشرته لعلاج زائريه .

كل ذلك خدمة اجتماعية . لأنه ينمى شعور الترابط بين الأفراد الذى أوجده هدف المجتمع من المساواة والكرامة . فهو بطريق غير مباشر يقى هدف المجتمع من الضعف أو التلاشى .

* * *

الأمومة والمجتمع :

وهنا يأتى الحديث عن دور الأمومة فى الخدمة الاجتماعية . والأمومة ترجع إلى « الأم » فى معناها . والأم هى المرأة ذات الحنو والعطف . وكل امرأة معدة بطبيعتها ـ التى تمثل فى الأنوثة ـ لأن تكون ذات حنو وعطف .

والحنو مشترك مع الانحناء فى المعنى ، والعطف مشترك مع الانعطاف وهو الميل كذلك فى معناه . وإذن من لوازم الأمومة الحنو والعطف أو الانحناء على الغير والانعطاف والميل نحوه . ودور الأمومة لذلك هو دور الانحناء على الغير والميل نحوه . ولأن الحنو والعطف أمر طبيعى فى الأم فالدور الذى تؤديه الأمومة من الانحناء على الغير والميل نحوه دور طبيعى، ينبثق من طبيعة المرأة. وينميه فقط ممارستها لهذا الدور.

وكل عمل يقوم به الإنسان عن ميل واستعداد فطرى فيه ، يجد فيه متعة ، ويكون فى الوقت نفسه مثمراً . فأى جانب أو أية جوانب من جوانب المجتمع فى حاجة إلى حنو وعطف ، وبالتالى فى حاجة إلى دور الأمومة ؟ .

إنه جانب « الضعف » فى المجتمع ليقوى ، وجانب « الركود » ليستأنف حركته ، وجانب « الهبوط » لينهض .

إنه ميدان التربية والتنشئة ، ليسير الصغير ويعتدل فى سيره ، إنه ميدان التمريض ليدفع المريض عن كاهله ثقل المرض ويستأنف حركته فى الحياة ، .

إنه ميدان الحرب ليزيل الجندى عن نفسه داعى الجبن وخور العزيمة ، وينهض بروح وثابة ملؤها الإقدام والأمل .

إن هذه الميادين يثمر فيها دور الأمومة ، دور الحنو والعطف ، أكثر وأسرع مما يثمر دور الرجل . بل إن قوة عضلات الرجل ، وصلابة إرادته قد تزيد ضعف الصغير والناشئ أو قد تدفعه إلى الاعوجاج فضلا عن أن تخلق من ضعفه هذا قوة واستقامة . وقد ترهق المريض بالإضافة إلى مرضه ، فضلا عن أن تعجل باستئنافه الحركة فى الحياة . وربما تكره الجندى على القتال ، ولكنها لا تجعل منه محبا للاستشهاد فى سبيل وطنه ومجتمعه .

إن الصغير والناشئ تستهويه نظرات الأم ويحن إليها كما يحن إلى أن يمتص اللبن من ثديها مباشرة ، فيطيعها ويتبعها فيما تفعل أو تقول فى يسر وفى هدوء وفى مقابل ذلك يخشى نظرات أبيه لأنها نظرات إنسان له من قوة الصوت وخشونة الحركة وضخامة بناء الجسم - بالقياس إلى المرأة - ما لا يغرى طفله بأن يسكن ويطمئن إليه كما يسكن ويطمئن إلى أمه . ومن هنا ندرك : أن رقة صوت المرأة ، وخفة حركتها ، ونعومة تكوينها الجسمى — هى التعبير الحسى المشاهد عما أودع فى طبيعتها من العطف والحنان . كما ندرك أن هذه الرقة فى الصوت ، وهذه الخفة فى الحركة، وهذه النعومة فى تكوينها الجسمى التى جعلها الرجل فى بعض الأحايين أمارة على ضعفها - هى التى تفعل فعلها فى تحويل الضعف فى الناشئ إلى قوة ، والجمود فى المريض إلى حركة ، والانحطاط النفسية ، وهبوطها عند الجندى المحارب إلى إقدام واستبسال عند الاشتباك فى ميدان الحرب والقتال .

وكذلك المريض فى سرير مرضه يستهويه ما يستهوى الصغير الناشئ من عطف الأمومة وحنانها إن قامت المرأة بتمريضه والعناية به إنه يشعر بما وهبها الله من طبيعة الأنثى ، عندما تلتقى نظرته بنظرتها ، أو عندما تقدم له بيدها الناعمة ما يسكن ألمه من علاج ، أو يشبع نفسه من طعام ، أو عندما يقترب وقع قدميها من سريره فى غير إزعاج — إنه يشعر بذلك فتتحرك الحياة فى نفسه ويقوى أمله فى الحياة من جديد . وهنا إذا قوى الأمل فى الإنسان ارتفعت قدرته على اجتياز الأزمات ، واستهان بها . وذلك سر النجاح فى الحياة ، ليس على المرض وحده وإنما على كثير من العقبات .

وشأن الجندى فى ميدان الحرب لا يتخلف عن أن يتأثر بعطف الأم وحنوها ، لأنه إذا رأى هذه الرقيقة فى صوتها ، والخفيفة فى حركتها ، والناعمة فى تكوينها تقاسمه مخاطر الميدان بوجودها فيه أو بالقيام على خدمته فى صحته ، أو بالعناية به فى مرضه — تذكر أنه رجل قوى العضلات ، صلب الإرادة ، أعد بقوة عضلاته وصلابة إرادته للدفاع عن وطنه ومجتمعه . وفى وطنه ومجتمعه من ينتظر منه أداء دوره الخاص به فى الحياة . فى وطنه أمه ، وامرأته ، وطفله ، وأبوه الشيخ وأولو رحمه . فى وطنه ومجتمعه فوق ذلك « العلم » الذى يرمز إلى شخصية هذا الوطن . « العلم » الذى يعبر عن الهدف الذى قام أو نهض من أجله هذا المجتمع . فإذا تذكر رجولته ودوره الخاص به فى حياة مجتمعه ارتفعت معنويته وتملكه الإقدام وأصبح جنديا لا يهاب الموت لأنه سيرى فيه الحياة .

سبحانك اللهم فى خلقك ! كيف ميزت بين الرجل والمرأة ؟ وما ميزت بينهما إلا لتجمع بينهما . وما أفردت واحد منهما بطبيعته ليستغنى عن الآخر أو ليعتزله فى الحياة . ولكنك زودت كلا منهما بطاقة ليتم الوفاق بينهما، وليكون أحدهما عونا للآخر فى حياته .

وإن مجتمعا إنسانيا لا يستقيم أمره أبدا ، إذا كان مجتمع رجال فقط ، أو مجتمع نساء فقط ، أو عطلت فيه طاقة الرجل ، أو عطلت فيه طاقة المرأة . إنه عندئذ يكون غير مجتمع طبيعى . إنه عندئذ لايكون هو المجتمع الذى أراده الله الخالق ، الذى ميز كلا من الرجل والمرأة بميزة تدفع إلى لقائهما ، وإلى الحركة معا فى طريق الحياة البشرية .

* * *

الأمومة والأسرة :

هذا الذى للمرأة بحكم أمومتها من ميادين الخدمة الاجتماعية إن بدا متفرقا فى حياة المجتمع ، فهو مجتمع فى حياة الأسرة : فى الأسرة صغير وناشئ ، وفى الأسرة مريض ، وفى الأسرة من هو فى حاجة إلى أن ينهض كما ينهض الجندى فى الميدان .

فى الأسرة الولد ، وفى الأسرة المريض من الأولاد أو الزوج ، وفى الأسرة الزوج ، وهو فى حاجة - كالجندى سواء - إلى أن ينهض ويقدم فى حركته فى الحياة .

والأم لا غيرها بعطفها وحنانها ، برقة صوتها وخفة حركتها ، ونعومة تكوينها ، هى التى تستطيع أن تعين الصغير على السير والاعتدال فيه ، وتعطى الأمل للمريض فى الشفاء واجتياز أزمات المرض ، وتجعل من الزوج رجل إقدام وشجاعة فى الحياة .

إن هى قامت بدور الأمومة فى خدمة الأسرة خدمت المجتمع كله . ومن السهل عليها أن تقوم بدور الأمومة فى خدمة الأسرة لأنها أنثى وامرأة . والذى يصعب عليها أمر القيام بهذا الدور ليس هو طبيعتها . وإنما أمر خارج عما لها من طبيعة ، تميزت بالاستعداد للأمومة . قد تكون تنشئتها الأولى حرفت فيها هذه الطبيعة . وقد يكون عنادها للرجل أو تقليدها إياه قد استبد بها فكبتت ما لها من أنوثة . وبذلك ابتعدت عن أن تقوم بدور الأمومة . وهى إذ تبتعد عن أن تقوم بدور الأمومة ، لا تستطيع أن تقوم بدور الرجولة ، وإن حاولت أن تمثله لأن ذلك ضد طبيعتها الأولى . والإنسان لا يفقد خصائص طبيعته الأولى بحال ، وإن تعطل بعضها الحين بالقسر وقوة الإرادة ، أو بحكم التكوين والتنشئة فى أدوارها المختلفة .

والمرأة التى تحاكى الرجل ، والرجل الذى يحاكى المرأة كلاهما يعيش فى صراع مع نفسه . وطرفا هذا الصراع فى نفسه : الطبيعة الخاصة

بواحد منهما والأسلوب فى الحياة الذى يريد أن يكره طبيعته عليه .

وكما أن تفريغ المجتمع، أو تعطيله من المرأة أو الرجل يجعله مجتمعا غير طبيعى وعلى الضد مما أراده الله للإنسان - كذلك محاولة المرأة لأن تكون رجلا ، أو محاولة الرجل ليكون امرأة أمر غير طبيعى وعلى الضد مما أراده الله للإنسان .

* * *

الأمومة والتربية :

ولكن متى يؤدى دور الأمومة خدمة للمجتمع الكبير وهو الوطن أو المجتمع الصغير وهو الأسرة ؟ .

ليس فقط فى أن يكون فى تلك الجوانب من حياة المجتمع التى تحتاج إلى عطف وحنو . وإنما مع ذلك بأن يكون ذا قيمة وعلى صلة بالهدف الذى قام من أجله المجتمع ، أو نهض لبعثه من جديد .

وعلى نحو ما تفعل « الراهبة » فى مدرسة الصغار ، وفى ملجأ اليتامى أو الأطفال غير الشرعيين ، وفى المستشفى ، وفى ميدان القتال - فى أنها تقوم بدورها فى أى واحد منها لتنفذ إلى رسالتها ، وهى رسالة التبشير بما آمنت به . يجب أن يكون دور الأم - وهى كل امرأة - فى مجال الأمومة فى حياة المجتمع والأسرة معا .

يجب أن تذكر الصغير برسالة المجتمع الذى يعيش فيه . ورسالة المجتمع هى التى تحقق هدفه . يجب أن توقفه على خطوط هذه الرسالة تباعا وبالتدريج . ففى مجتمع - كمجتمعنا هذا - يجب أن تعرفه ما هو الإسلام ؟ وما هى القومية العربية ؟ .

يجب أن تذكر المريض بالله وبأنه محل الأمل ، وأنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون . يجب أن تثير فى الجندى حماس الاستشهاد فى سبيل الله . وسبيل الله هو سبيل الصالح العام للمجتمع .

ليست التربية زيا ، ولا غدوا ورواحا إلى مكان التعليم ، ولا نجاحا وسقوطا آخر العام ولا شهادة بإتمام الدراسة . إنما التربية تكوين عقلية وتكوين روح وخلق . أما العقلية فلكى يهتدى بها الإنسان فى حياته، فلا يتخبط فى أحكامه وإدراكه لأحوال مجتمعه . وأما الروح والخلق فلكى يسلك فى حياته السلوك السليم ، سلوك المهذب وسلوك المضحى فى سبيل مثل مجتمعه ، لا سلوك الأنانى أو سلوك المخدوع بما فيه من واقع .

والمرأة التى تقوم بدور أمومتها فى مجالات الأمومة فى حياة المجتمع ، هى التى تقوم أولا بهذا الدور فى أسرتها الخاصة . لأنها عندئذ كمن يقيم البناء من أساسه .

الدكتور

محمد البهى

المدير العام للثقافة الإسلامية

نفحات القرآن

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

جانب من العبرة فى قصة آدم عليه السلام

ا وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة !!

ب قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟؟

ج قال : إنى أعلم مالا تعلمون !! .

تمهيد :

خلق آدم هو الومضة الأولى فى مجاهل الدنيا ، وكانت قصة آدم أول أحدوثة فى مطلع الحياة .

والقصص عن آدم ليس جديداً فى القرآن بل هو فيما اشتملت عليه الكتب السماوية ، وكتب الحديث النبوى عندنا ، وكتب التاريخ الإسلامى وغير الإسلامى .

وقد عنى القرآن فتعرض لقصة آدم فى ست وستين آية أو تزيد ، وجاءت هذه الآيات مبثوثه فى سبع سور، وتناولت من شأن آدم جوانب عدة .

ولو أن القرآن الكريم أراد بنا استيعاب هذه الجوانب كلها من طريقة خاصة لأخذ فى تفصيل أوسع مما ورد فيه ، ولكن القرآن كما عودنا نهجه فى كثير من قضاياه وقصصه يكشف لنا الغطاء عما يكون مستوراً علينا ، وينبهنا فى قصد من البيان إلى ما ينبغى أن نحيط به ، ثم يكتفى بهذا الإيجاز فى توجيهنا إلى الاستقصاء من طريق بحثنا ، وتتبع ما يصل إليه جهدنا العلمى فى تراث الأنبياء والعلماء من أهل الذكر .

وفى هذا التوجيه مسايرة لقوله تعالى ـ إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ـ ومسايرة كذلك لقوله تعالى ـ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون

وإذا كان للحديث عن آدم شعاب تطول ، فإنا نكتفى بجانب من العبرة فيه ، وهو حسبنا فيما زيد من نفحات القرآن .

١ ـ أفادتنا الآيات السابقة أن الله أخبر ملائكته أنه سيجعل خليفة فى الأرض ، وأن الملائكة ـ وكانوا على شعور سابق بأن آدم هو الذى سيستخلف ـ أخذهم حب الاستطلاع أن يتعرفوا وجه الأرجحية لآدم عليهم .. إذ هم المسبحون بحمد الله، والمقدسون له . . أما آدم فليس ملكا متعبداً بل هو إنسان فيه ما فيه من طباع الشر ، فسيكون له فى الأرض فساد، وسفك الدماء ، فكيف يختار دونهم ، وكأنهم حسبوا أن الخلافة مسألة روحانية ، لمجرد العبادة ، لا لشىء آخر، فهم يستفهمون عن المرجح لآدم ، وهو دون مستواهم عبادة : لا مباهاة بأنفسهم ، ولا تدخلا فى فعل الله ـ فكان الجواب إجمالا فى قوله تعالى ـ إنى أعلم ما لا تعلمون ـ .

وقد كان فضلا من الله على الملائكة أن يخبرهم بشأن اقتضته حكمته ، وفى هذا توجيه لنا إلى سياسة رشيدة فى مجتمعنا : وهى مكاشفة الأعلى لمن هو دونه بما يفيده العلم به ، إذ لم يكن هذا النبأ استشاريا للملائكة ، ولا استعانة بهم ، ولا وفاء لهم بحق عند الله فيما يريد أن يفعله بملكه ، وهو لا يسأل عما يفعل .

بل كان ـ أولا ـ محض تلطف من جانبه ليشعر ملائكته أنه يكرمهم حين يفضى إليهم بما يريده ، ولعل هذا من مظاهر السمو حين يرى صاحب السلطان أن يطمئن المقربين إليه على مكانتهم عنده ، فيزيدهم ذلك عرفانا لفضله ، وشكراً على تلطفه معهم .

وكان هذا النبأ ـ ثانياً ـ سبقا إلى وضع معالم الهداية فى طريق الإنسان ، قبل أن يأخذ الإنسان طريقه فى دنياه ، فإذا برز الإنسان من أفقه المحدود فى عالم الغيب إلى أفقه الفسيح المهيأ لحياته ، ولحركاته وسكناته استطاع أن يقتبس لنفسه مما صنع الله مع ملائكته ، وأدرك أن الله قد بذر لعباده بذور المعرفة ، وعلمهم أن يفضى بعضهم إلى بعض بما يعنيهم من شأن ، وأن يجعلوا تدبيرهم جماعياً لا فردياً ، واستشارياً ، لا استبدادياً ، كما أفصحت عن ذلك الشرائع بعد .

وشاهد العبرة واضح فيما صنع الله ، فإذا لم يكن هذا الذى قررناه مستفاداً من صنيع الله ، فماذا يكون القصد الذى نلتمسه من إخبار الله للملائكة ؟ .

أيكون مجرد خبر لا غير ؟ ذلك بعيد !

وكان من مظاهر السمو والتلطف ـ مرة ثالثة ـ أن يتقبل الله استفهام الملائكة ، ويجيبهم إجمالا بأنه يعلم ما لا يعلمون .

فلم ينقم عليهم أن يسألوه ، ولم يبخل عليهم بالتنبيه إجمالا على أن لديه حكمة يعلمها وحده

ومن هذا فطن الملائكة إلى أن الأمر فوق تقديرهم ، فازدادوا طمأنينة إلى صنع الله وأيقنوا أن فى آدم صلاحية للخلافة ليست فيهم .

ومن هذه الفقرة فى القصة نستفيد أن توجيه الاستفهام من الأدنى إلى الأعلى رغبة فى العلم ليس تطاولا ، ولا مساس فيه بأحد الجانبين .

وأن الاقتصاد فى السؤال مع الأعاظم ضرب من الأدب الكريم كما تأدب الملائكة مع الله عز شأنه ، وفى التأسى بهم كمال وفلاح .

ثم يتجه التدبير الإلهى نحو الإعراب عن مقام آدم ، وكرامته على ربه ، فيخلق الله فى آدم علما بأسماء الكائنات من سموات ، وأرض ، وشمس ، وقمر ، وحيوان ، ونبات ، وهواء ، ونور ، وظلمة ، وجبال ، وبحار ، ونحو هذا مما يلابس أهل الدنيا ، ويحتاج المقيم فيها إلى معرفته ، ليستطيع مزاولة الحياة فيها ، وبخاصة من يكون خليفة يقيم العدل ، ويدفع الظلم ، وينهض بتدبير الأمر فى مجتمعه .

علم الله آدم أسماء تلك المسميات تكميلا له ، ورفعا لشأنه ، ثم طرحت من جانب الله مناظرة علمية بين الملائكة ليذكروا أسماء هذه الكائنات إن كانوا أهلا ـ أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ـ وكان هذا أمر تعجيز لا تكليف ، وكيف يكلفون بما لا يعرفونه ؟ ؟ وإنما هو ترفق حكيم فى إشعارهم بفضل آدم ، وبيان استعداده لما لم يكن فيهم استعداد له من معارف وتدبيرات تتصل بالعالم الأرضى .

فلم يسعهم إلا الاعتذار بقولهم : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »

ثم أجاب آدم عما عجزوا عنه ، ونهضت له الحجة ، وثبتت له المكانة المرموقة عند الملائكة .

وتبينت لهم الحكمة التى كانوا يتوقون إلى معرفتها من قبل ، وهى صلاحية آدم لأمر لا يلائمهم ، ولا تتهيأ له فطرتهم .

وحينئذ سجل الله على الملائكة تكريم آدم ، فأمرهم بالسجود له : سجود تعظيم لا سجود عبادة ، وسجودا فى صورة ما ، لا سجودا على الجباه كما نسجد نحن ! ! .

فإن ذلك لم يشرع إلا عبادة لله وحده .

وما كان آدم فى قدره بالغا ما بلغ إلا بفضل ما منحه الله من علم نافع وعندى ـ غير مبالغ ـ أن هذه الحفاوة بآدم لعلمه تعتبر إيذانا بعيد العلم الذى أخذنا به أخيرا ... وأى شىء أجدر بالتكريم من العلم ؟ ؟ .

وكيف يكرم العلم فى شخص آدم بالسجود له

من الملائكة بين يدى الله وفى الجنة ، ثم لا يكون ذلك عيدا مستحبا عندنا .

وإذا كان علم آدم تعريفا بمسميات وأسمائها وليس خصوص أمور روحانية ، فلنا أن نعتبر العلم كله قبسا من فيض الله ، وأن المشاهد الذى ندركه من طريق الحس لم يكن متاحا إلا بمعونة الله وهديه ، وعلى هذا يستوى فى مفهوم العلم ما يكون للدين أو للدنيا ولو أن علم الدين أحب إلى الله ، وأقرب مثوبة ، وأعم نفعا .

فعيد العلم بوجه عام لا يحبس على نوع دون نوع وإن تفاوتت قيم العلوم .

غير أن العلم ـ وهو كما عرفنا من غراس الجنة ، وإشراقة من إشراقات الله فيها ... وأول نفحة من نفحاته وأعياده كانت فى رياضها لا يليق بشأنه ، ولا بالإنسان الذى كرمه ربه بالعلم وأسجد الملائكة له من أجل العلم أن يضار أحد به .

بل يكون المرء ماجدا بالعلم فى نفسه وبين الناس ، ونافعا لنفسه وللناس .

ومن آفة العلم أن يسخر فى غير أهدافه ، أو يكون مضيعا بين أهله ، فربما كان ساعتئذ كالخمر : إثمه أكبر من نفعه .

ومع ما تم من تكريم آدم بالسجود له أبى الله إلا أن يكون للعلم خصوم لا يدينون به وأن يكون لآدم حاقد لا يسجد له ، وأن يكون من وراء هذه القصة الرحيمة قصة أخرى شقيت بها الإنسانية ، وعاشت فى مرارتها ، ولن تخمد نارها إلا إذا خلت الأرض من سكانها

وتلك القصة هى تمرد إبليس ، وعدم سجوده لآدم كما سجد الملائكة ، ووقوفه من الله موقف الجدل .

وقد انفردت سورة البقرة بذكر الجانب الأول المتعلق بخلق آدم ، وتعليمه ، وإقناع الملائكة بمكانته ، وبالسجود له .

ثم جاء الاستثناء لإخراج إبليس من الساجدين ، ووصفه بأقبح صفات ثلاث : إلا إبليس ، أبى ، واستكبر ، وكان من الكافرين .

ومع أن هذه القصة وردت فى خمس سور أخرى سوى البقرة ، فكلها تكتفى بالجانب السلبى المتعلق بتمرد إبليس ، وتقبيحه ، وطرده ، وتحذيرنا منه ، ومن ذريته وجنوده ، لأن جانب الحذر من إبليس ، والتخويف منه ، والحث على مخالفته أشد اتصالا بنا ، وأهم عناية به ، فأطبقت السور كلها على ترديد هذا الجانب الخطير فى حياتنا ، وإشعارنا بوجوب الحيطة له : دون حاجة إلى تكرار صدر القصة وما فيها من حوار مع الملائكة وأنت ترى فى سورة الأعراف ـ مثلا ـ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس

لم يكن من الساجدين - وترى فى آية أخرى بسورة الحجر - إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين - وفى سورة الكهف - فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه - وفى سورة طه - فسجدوا إلا إبليس أبى - وفى سورة ص - فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين .

ففى هذه المواطن كلها ترديد لامتناع إبليس وأنه كان من الجن ففسق عن أمر ربه وتقبيح له بالاستكبار والإباء والكفر وفى كل موطن سئل فيه إبليس عن سبب امتناعه لم يكن له من معذرة يتعلل بها : غير أنه كان مخلوقا من النار ، وأن آدم من طين .

وليس هذا بجواب ، وإنما هو إمعان فى السفه ، وشطط فى العناد والتبجح ولم يكن أزكى من الملائكة ولا مثلهم ، حتى يستكبر عما لم يستكبروا عليه ، فهم من نور صاف ، وهو من مارج تختلط ناره بدخانه ، فليس له من وجه فى الحجاج ، وإنما هى شقوة غلبت عليه ، وغضب أحاط به .

ومن هذا التشبث بالجدل الذى عابه الله على إبليس ، وكرره بأسلوب التشنيع وقرنه باللعنة والمهانة يمكن أن ندرك معابة الجدل والمشادة فى النقاش ، والركون إلى الغلبة فى عنف وبذاءة ، ومما ورد فى كراهية الجدل قول النبى صلوات الله عليه (أنا زعيم ببيت فى أعلى الجنة لمن ترك المراء ولو كان حقا) .

وهنا موقف بين الآيات يحتاج إلى شئ من التمحيص فالقرآن يقول فى كل آيات القصة فسجدوا إلا إبليس ، أو فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس وهكذا مما يفيد أنه من الملائكة ، ثم يقول القرآن فى آية أخرى - إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه - وهذا يفيد أنه من الجن : لا من الملائكة . . وإبليس نفسه يقول - خلقتنى من نار ، وخلقته من طين فهذا قاطع بأنه من الجن والجن من النار لا جرم - والله يقول : والجان خلقناه من قبل من نار السموم - فكيف يطلق على إبليس أنه من الملائكة .

تكلف العلماء فى تحقيق هذا كلا ما كثيراً وأيسره قبولا أنه يذكر مع الملائكة تبعا لا استقلالا فقد كان يعيش فى زمرتهم ويحاكيهم فى أعمالهم، وبهذا تلقى الأمر بالسجود معهم ، فكان حريا به أن يستجيب .

ونحن نرى من شاهد أحوالنا أن المقيم فى أهل بلد يتابعهم فيما يطلب إليهم ، وأنه ما دام يعاشرهم ويساكنهم كواحد منهم فهو مسئول عما يسألون عنه ، وإلا كان شذوذه عنهم مجلبة لما لا يرضاه ، فكيف إذا كان شذوذا مقصودا يتشبث به ؟ .

لهذا كان من عدل الله فى جزائه ، ومن حكمته فى قضائه أن يطرد إبليس بعيداً

عن الملائكة ، وأن يبادره بقوله — فاهبط منها — من الجنة — فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين — وكان كذلك من العدل فى الجزاء والحكمة فى القضاء أن يسجل عليه اللعنة إلى يوم الدين — يوم القيامة .

وكان من رحمة الله بعباده أن يحذر آدم وزوجه من عدوهما هذا وأن يحذرنا نحن من عداوته لنا ، وفتنته إيانا ، حتى لا نقع فى شراكه كما أخرج أبوينا من الجنة .

وقد حدثنا الكتاب العزيز فى آيات القصة وفى مواطن غيرها أن الشيطان لا يفتر نشاطه فى إفسادنا ، وأنه وقد يئس من رحمة الله له أعلن أمام الله فى سفه وتبجح أنه ليفتنن أبناء آدم أجمعين إلا عباد الله المخلصين .

وحدثنا الكتاب العزيز أن الله سيعصم من اعتصم بربه إلا الغاوين من أرباب الهوى والفساد ، وأنصار الضلال .

وعلمنا الكتاب العزيز أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كلما خشينا من غواية الشيطان — « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » — والأمر لا يكلفنا عند مخالجة الشيطان ، بل وفى كل حال غير استعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، وحينئذ يندحر الشيطان ويخفت نشاطه ، وقد صدق الله فى وعده لنا برعايته « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون » — .

هذا وقد اكتفينا من القصة بما ذكرنا ، ولها جوانب أخرى فسيحة كما أسلفنا . والله يهدينا به إلى خير ما يحبه من عمل خالص ؟ .

عبد اللطيف السبكى

عضو جماعة كبار العلماء

وأستاذ فى كلية الشريعة

الهمة العالية [من الشعر الجيد]

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالإقلال من شيمى
وما أظن بنات الدهر تتركنى حتى تسد عليها طرقها هممى
سيصحب النصل منى مثل مضربه وينجلى خبرى عن صمة الصمم

مُثُل عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

٥ - فى العلاقات الدولية (تتمة)

فى كل حرب يكون أسرى، فكيف يعامل الإسلام هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم ووقعوا فى الأسر أثناء الحرب أو بعدها ؟ كيف يعاملهم ، بخاصة بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وقد استقر بهم الأمر فى الأسر لا حول لهم ولا قوة ، وهم لا ينتظرون إلا القتل جزاء ما فعلوا بالمسلمين من كيد وقتال وأذى كبير ؟ .

إن الله اللطيف الخبير بالنفوس الإنسانية، وبما ينتابها أحيانا من الضعف الذى يضل بها عن الطريق المستقيم ، يطلب منا أن نرحم هذا الضعف ، وأن نطلب له الطب والشفاء بالخير والحسنى لا بالإعنات الذى ينتهى غالبا إلى العناد ، والضلال الذى لا هدى يعقبه بحال .

ومن ثم ، نجد الإسلام يضرب أروع الأمثال فى معاملة الأسرى معاملة إنسانية، إن ما أثر عنه فى هذه الناحية لا يعرف التاريخ ما يقرب منه فى أى دين آخر ، ولا فى أى قانون أو نظام وضعى فى قديم الزمن وحديثه حتى هذه الأيام ، أيام المدنية الحديثة كما يزعمون !.

وقد وضع القرآن الكريم الأساس الأول فيما يجب أن تكون عليه معاملة الأسرى ، ثم جاءت السنة النبوية بعد هذا بالتفصيل ، وصار هذا وذاك أمرا متبعا وقواعد ملزمة يجب أن تحكم هذه الحالة التى تتخلف عادة عن الحروب ، وذلك تخفيفا من ويلاتها التى تصيب الجميع ، الغالب والمغلوب كما هو مشاهد ومحسوس .

يقول الله تعالى فى سورة محمد عليه السلام: « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها».

وبهذا النص القرآنى صار ولى الأمر له الخيار بين أمرين فيما يختص بالأسرى : إما أن يمن عليهم ، أو على من يشاء منهم ، ويخلى سبيلهم دون أى عوض، أى لوجه الله تعالى وحده ، وإما أن يكون إطلاقهم وتخلية سبيلهم نظير فدية ينتفع بها المسلمون ،

وليكون هذا فيه شيء من التعويض والجزاء بما فعلوه .

ولذلك ذهب كثير من الفقهاء ورجال العلم والتفسير إلى كراهة قتل الأسير [1] ، ومن هؤلاء عطاء والحسن وابن عمر وكثير آخرون غيرهم .

جاء فى كتاب أحكام القرآن للإمام الرازى الجصاص ، عن الحسن أنه كره قتل الأسير ، وقال : من عليه أو فاده [2] . وجاء فيه أيضا أن رجلا سأل الحسن عما يصنع بالأسير ، فقال : يصنع به ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى بدر ؛ يمن عليه ، أو يفادى به .

وروى عن ابن عمر أنه دفع إليه عظيم من عظماء « اصطخر » ليقتله ، فأبى أن يقتله ، وتلا قول الله تعالى : « فإمّا مَنًّا بَعدُ ، وإما فداء » .

* * *

على أن من الفقهاء من أجاز لولىّ الأمر قتل الأسير ، وذلك بالرجوع إلى القرآن وإلى فعل الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم . ففى القرآن قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ، وقوله فى سورة التوبة : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخِنَ فى الأرض » الآية . .

وهذه الآية الثانية نزلت فى أسارى « بدر » حين مال الرسول إلى رأى سيدنا أبى بكر وأخذ به ، ولم يرض بقول سيدنا عمر الذى أشار بقتلهم ، وكان أن أطلق الرسول الأسرى نظير الفدية التى أخذها المسلمون ، ولكن القرآن نزل مبينا أن القتل كان هو الرأى الصحيح الذى ينبغى الأخذ به .

وأما السنة ، فإن من المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل يوم « بدر » عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، بعد الأسر كما قتل يوم « أحد » أباعزّة الشاعر بعد أن صار فى الأسر .

وكذلك كان الأمر فى بنى قريظة ، بعد أن نزلوا على حكم سعد بن معاذ فصاروا بذلك فى حكم الأسرى ، فقد حكم بقتل المقاتلة منهم وسبى الذرية ، وكذلك كان .

وهكذا نرى رأيين متعارضين فى بادئ الرأى ، ولكل منهما سنده من الكتاب والسنة وأنصاره من رجال التفسير والفقه .

ولكن ينبغى أن نفرق بين حالين مختلفين وبذا يزول التعارض : حال غزوة بدر وأمثالها وما كان فيها من ضراوة المشركين وفجورهم وإمعانهم فى الشر والاعتداء ،

(١) ينبغى أن نلاحظ أن الكراهة فى ذلك الزمن كانت تطلق على التحريم ، ويشهد بذلك كثير من النصوص الفقهية عن الشافعى ومالك وغيرهم .

(٢) جـ ٣ : ٤٨١ ، المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ .

وخروج صناديدهم وقادتهم للقضاء على الإسلام والمسلمين .

وتلك حال شاذة يجب أن يكون لها حكم يناسبها ، وهو عدم المن على الأسرى ، وبذلك يكونون عبرة لغيرهم ، وتتمكن هيبة المسلمين ورهبتهم فى قلوب الأعداء الذين لا يصلح معهم العفو ، بل الخير أخذهم بالشدة والعقاب الغليظ .

وبجانب هذا الحال الشاذ ، الأحوال الأخرى العادية ، فهنا لا يكون القتل هو الواجب ، بل المنّ والعفو أو الفداء لعل الله يميل بهم إلى الإسلام ، ويكون منهم حماة وناشرون له فيما بعد .

* * *

ومهما يكن من جواز قتل الأسير أو كراهته فإن الإسلام يوصى بمعاملته معاملة تليق به باعتباره إنسانا ، كذلك كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة فى زمنه ، وكذلك ينبغى أن يفعل المسلمون فى كل زمان .

حدث أن وقع ثمامة بن أثال أسيرا بين أيدى المسلمين ، وكان سيد أهل اليمامة ، فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإكرامه ، وذلك بقوله : « أحسنوا إساره » ، فكانوا يقدمون له لبن ناقة الرسول غُدُواً ورواحا ، وبهذا كان على خير حال يكون لأسير .

وكان من أمره أن النبى خرج إليه وقال له : « ماذا عندك يا ثمامة ؟ » ، قال : عندى يا محمد خير ! إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنْعِمْ تنعم على شاكر ! وإن كنت تريد المال ، فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئت .

فتركه الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كان الغد ، فخرج إليه كالمرة الأولى وقال : « ماعندك يا ثمامة » ؟ قال : عندى ما قلت لك فقال : « أطلقوا ثمامة » ، فأطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، يا محمد ! والله ما كان على الأرض أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلها إلىّ . والله ما كان دين أبغض إلىّ من دينك ، فأصبح دينك أحبّ الدين كله إلىّ ! وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله وأمره أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ؟ أى ملت إلى الإسلام ، فقال : لا ، ولكنى أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا تأتيكم من يمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وزاد ابن هشام على هذا أنه خرج فيما بعد إلى اليمامة فمنع أهلها أن يحملوا إلى مكة شيئا ، فكتب المشركون إلى النبى يذكرونه بما يأمر به من صلة الرحم ، فكان أن كتب إلى

ثمامة أن يخلى بين أهل مكة وما يريدون من حمل الحنطه إليهم .

وكان صلى الله عليه وسلم يعنى عناية خاصة بالنساء ، ويجاملهن ويترفق بهن غاية الرفق . حدث أن وقعت ابنة حاتم الطائى (أحد من ضرب بهم المثل فى الكرم) فى أيدى المسلمين، فأنزلوها بمكان يراها فيه الرسول إذا مر به ، فتعرضت له وقالت : هلك الولد ، وغاب الرافد (تعنى أخاها عديا) ، فامنن منّ الله عليك . فقال لها :

« قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك » .

فأقامت بين المسلمين حتى أتاها رهط من قومها وعزمت على الرجوع معهم ، فكساها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعطاها ما يلزمها من النفقة ، فخرجت معهم مكرمة ، وعادت إلى بلدها وقومها .

* * *

هذا عن المن بلا عوض وأثره الطيب فيمن يُمَنّ عليه . وفى الفداء بعوض كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرعى العدل دائما شأنه فى كل عمل يأتيه ، فلا يفرق فى هذا بين قريب أو حميم أو غيرهم .

روى الإمام القرطبى فى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » (١) ، عن ابن إسحاق ، أن العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم كان من أسرى يوم « بدر » ، وقد بعثت قريش إلى الرسول فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا .

أما العباس فقال : يارسول الله إنى كنت مسلما ، فقال الرسول : « الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك بذلك ، فأما ظاهر أمرك فكان علينا ، فافد نفسك وابنى أخويك : نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب ، وحليفك عتبة بن عمر أخا بنى الحارث بن فهر » .

فقال العباس : ماذاك عندى يا رسول الله قال : « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل (وهى امرأة العباس) فقلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا ، فهذا المال لبنى الفضل وعبد الله وقثم ؟ » .

فقال أيا رسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغير أم الفضل » . ثم فدى نفسه وبنى أخويه وحليفه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه ، وكان فداؤه مائه أوقية من ذهب ، وكان هذا أكبر فداء لأنه كان رجلا موسراً .

وعن ابن شهاب أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، إئذن لنا فلنترك

(١) جـ ٨ : ٥٢ ـ ٥٣ .

لابن أختنا عباس فداءه ، فقال : « والله لاتذرون درهما » ، بل قال : « أضعفوا الفداء على العباس » ، فأخذ منه المبلغ الذى ذكرناه على حين كان فداء كل واحد من الأسارى أربعين أوقية لاغير .

* * *

وبعد ! ما أكبر الفرق بين حكم الإسلام فى الأسرى ، وما وصى به رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم من معاملتهم برفق وإحسان وإكرام مما كان له أثر كبير طيب فيما بعد ، وبين ما نعرفه اليوم من معاملة الأسرى من الدول الغربية المتمدنة كما تزعم .

لقد رأينا بأنفسنا سنة ١٩٤٥ بأوربا نفسها عند سفرنا إليها كيف كانت فرنسا تعامل الأسرى الألمان ، إنها كانت تعتبرهم بمنزلة الحيوانات التى لا تحس ولا تشعر بكرامة أو إهانة تنزل بها ، وكانت تسومهم سوء العذاب ، وتنزلهم منزلة الهوان فى كل شىء .

إنهم كانوا يعاملونهم على أنهم أرقاء ملكوا رقابهم ، أو يسخرونهم فى الأعمال الشاقة التى لا يقوم بها عادة إلا الحيوان . وكانوا يتعمدون أن يشعروهم بالذل والهوان ، حتى لقد رأيت بنفسى أن الفرنسى الذى كان يحادث الأسير الألمانى ، كما يحادث الإنسان الإنسان كان يعتبر خائنا ويستحق العقاب ! .

ورأيت مثل ذلك ، أنا وكثير من إخوانى وزملائى ، بألمانيا بالمنطقة التى ابتليت منها بالاحتلال الأمريكى ، فقد كان الألمان فى هذه المنطقة وغيرها أذلاء حقا بكل معنى الكلمة ، وذلك إلى درجة أن كان اليأس يتمكن من قلوبهم أن يعودوا من بنى الإنسان كما كانوا من قبل .

من هذه المقارنة السريعة ، فى هذه الناحية وحدها فصلا عن النواحى الأخرى ، يتبين لنا بوضوح كيف يفهم الغربيون الحضارة وكيف يطبقونها فعلا فى حالة السلم والحرب وما هى تعاليم الإسلام العادلة وشرائعه الرحيمة ، وكيف فهمها رجاله الأمجاد وكيف يطبقونها فى كل زمان .

إن الإسلام وسير رجاله فى حالة السلم والحرب ، يظهر لنا ولكل منصف من غير المسلمين أنه الدين الحق العادل الرحيم ، وأنه الدين الذى يصلح للناس جميعا فى كل مكان وزمان .

وقد كان لتطبيق رجالاته تعاليمه وآدابه وتقاليده الطيبة أكبر الأثر على الغربيين غير المسلمين ، حتى لقد دخل الكثير منهم فيه وجعلوه دينا لهم ، وذلك من غير تبشير به من جانبنا .

هدانا الله للخير دائما ، وجعلنا بسيرتنا وأعمالنا من المبشرين بالإسلام الداعين له ، والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم ؟

دكتور محمد يوسف موسى
مستشار وزارة الأوقاف للشئون الدينية والثقافية

الكرامة والعزّة فى القرآن الكريم

للأستاذ محمد محمد المدنى

(ب) العـــزة

— ١ —

« العزة » حالة يشعر معها صاحبها بأنه قوى منيع لا يسهل قهره واهتضامه والتغلب عليـه .

وهذا الشعور الذى تنبعث عنه « العزة » قد يكون شعوراً صادقا له ما يبرره من واقع صاحبه ، وقد يكون شعوراً كاذبا منشؤة الغرور أو الجهـل وعدم إدراك الواقع الصحيح للأشياء .

ولذلك تختلف « العزة » فتـكون تارة ممدوحة ، وتارة مذمومة ، فإذا كان الشعور بالعزة ناشئا عن صفات وأحوال واقعية تثمرها وتؤدى إليها ، وتجعل صاحبها متسلحا بها أمام القوى المضادة له ، قادرا بها على أن يقاوم ويناضل ويغلب ويتفوق ، فإن العزة حينئذ تـكون حقيقية . أما إذا كان الشعور بالعزة ناشئا عن غرور أو عدم تقدير للأمور ، ولم يكن لصاحبه من الصفات القوية ما يجعله منيعاً مصونا ؛ فإن العزة حينئذ تـكون وهمية مصطنعة ، ولا يكون لها بقاء .

والقرآن الـكريم يرشدنا إلى هذين النوعين المختلفين من العزة فى كثير من آياته ، فيعتبر العزة الأولى هى القوة بالإيمان والاستقامة على الطريقة المثلى فى كل شىء ، ويعتبر الثانية هى العزة بالإثم أو الـكفر أو الالتواء عن الصراط المستقيم ، أو الجهل وفساد التصور . يقول الله تعالى :

١ — « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الـكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمـكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » .

وهذه الآية تقرر أن من كان يريد أن يكـتسب العزة ويتحقق له معناها الدائم الحقيقى ، فليلتمس ذلك وليكـتسبه من الله . فإن العزة لله كلها ، والتماسها من الله إنما هو بالسير على ما رسم ، وتوخى طاعته ورضاه والنزول

على حكمه ، والله تعالى لم يشرع لعباده إلا الخير والأعمال الصالحة المثمرة للصلاح والقوة سواء أكانت أعمالا شخصية أم أعمالا جماعية أو اجتماعية ، كما أنه عز وجل لم يمنع عباده من فعل شيء إلا إذا كان هذا الفعل منافيا للخير والرشد ومن شأنه أن ينزل بالإنسان عن المستوى اللائق بكرامته فى شخصه أو مجتمعه أو فيهما معا فإذا ترسم المرء ذلك فيما يأتيه من الأمر وفيما يتركه كان ملتمساً لأسباب العزة الحقيقيه من حيث تلتمس فى الواقع ، وكان حرياً بأن يصيب هذه الأسباب وبأن ينال بها ما يطلب من العزة التى هى القوة والمنعة والامتياز والأفضلية ، فتكون عزته ثابتة قائمة على أصول سليمة ، مستقرة غير قابلة للتزلزل أو التحول .

وقد أتبع الله تقرير هذه الحقيقة بتقرير حقيقة أخرى توضحها وتبين سرها ، فعرفنا أن ما يصدر عن الإنسان من قول أو عمل ، إما أن يكون طيبا صالحا ، فهذا هو الذى يصعد إلى الله ، وإما أن يكون عملا خبيثا ، ومكرا سيئا ، فهو لا يرتفع ولكن يرد فيبور ولا ينال صاحبه منه إلا العذاب والوبال .

ومعنى صعود القول الطيب إلى الله ، وارتفاع العمل الصالح ، هو تحقق الغاية ، وحصول الثمرة ، ونجاح القصد ، ومعنى بوار المكر والتدبير السيء هو عدم وصول ذلك إلى الغاية المرجوة منه ، فهو لا بد فاشل ضائع مهدر لا ثمرة له ولا انتفاع لصاحبه به .

وإذا فالعزة لها مصدر واحد ، هو ترسم ما رسم الله ، ولست أقصد مجرد التزام الأوامر واجتناب النواهى فيما شرع الله من عبادات ، ولكن أقصد مع ذلك التزام المنهج الإلهى الذى رسمه الله فى احتفاظ الإنسان بكرامته ، وفى سعيه لاداء واجبه والقيام بنصيبه من الخلافة فى الأرض ، وفى ترفعه عن كل ما يهبط به عن تلك المنزلة الشريفة ، أو يلتوى به عن ذلك الصراط المستقيم .

٢ - « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » .

والمتبادر فى هذه الآية أن المقصود هم آلهة الشرك والوثنية التى يتخذها أهل الكفر اعتقادا بأنها تمنعهم يوم القيامة وتدرأ عنهم العذاب ، فيكونون بها ذوى عزة ومنعة ونجاة وأن الله تعالى يرد عليهم بأن ذلك لن يكون ، وإنما الذى يكون هو عكسه ، فهذه الآلهة ستنكر عبادتهم ، وتكفر بها أى تجحدها وتتبرأ منها وتكون عليهم ضدا ، فهم قد التمسوا العزة والمنعة من غير مصدرها فانتهى أمرهم إلى عكس ما التمسوا ، فذلوا بما به استعزوا .

هذا هو المتبادر ، و « الذى يشرح به الآية فعلا كثير من أعلام المفسرين .

ولكننا لا نجد مانعاً من أن نتوسع فى معنى الآلهة التى يتخذها الناس من دون الله ، وألا نقصرها على آلهة الأحجار أو الأشجار ، أو الكواكب أو غيرها من آلهة الوثنية الحجرية أو الجمادية ، فإن الناس يتخذون آلهة أخرى من دون الله غير هذه الآلهة ، ويلتمسون بها العز ، فهم يتخذون الرؤساء آلهة معبودة ، ينزلون على حكمها ولو تعارضت مع حكم الله ، ويتخذون المال إلها معبوداً ، ويتخذون الأهواء والشهوات ويتخذون الجاه ، ويتخذون غير ذلك من الشئون العاجلة مؤثرين إياها على الآجلة ، يريدون بذلك العز والقوة والمنعة ، ويحسبون أنهم واصلون إليها . وربما اغتروا بأوائل الحال ، والله تعالى يذكر فى هذا المقام بسنته فى خلقه ، ويقول إن هذا اللون من التماس العزة والعلو باطل غير مؤد إلى المقصود منه ، بل هو مؤد إلى عكس هذا المقصود ، فإن هذا ما هو إلا التواء عن الطريق المستقيم ، وما هو إلا نزول عن مستوى المثل الرفيعة ، والغايات الشريفة ، وما هو إلا تزوير لعوامل العلو والعزة والمنعة لا بد أن ينكشف ، ولا يلبث أن يفتضح أمره ، ويسقط صاحبه .

٣ - « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً » .

وهذه الآية أصرح فى المعنى الذى ذكرناه آنفاً فهى تذكر فريقاً من الناس يلتمسون العزة من غير وجوهها الصحيحة ، فيخرجون على « الكرامة الإنسانية » التى ينبغى لهم أن يحتفظوا بها ، حيث يرضون بأن يوالوا أهل الفساد وأهل الباطل المعبر عنهم « بالكافرين » دون أهل الحق والصلاح المعبر عنهم « بالمؤمنين » فليس من شأن الكريم الذى يعرف حق كرامته ، ونعمة الله فيها عليه ، أن يوالى الشر من دون الخير ، وأن يوالى الفساد من دون الصلاح ، وأن يوالى الباطل من دون الحق ، ذلك ما عبرت عنه الآية بقولها : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » ثم تساءلت عن البواعث الخفية التى تبعث مثل هؤلاء إلى هذا الالتواء عن الفطرة ، وعن الكرامة ، وعن المنطق الطبيعى الذى تستوى فيه العقول كلها ، تساءلت عن ذلك فى عبارة واضحة فاضحة تساؤلا كاشفاً واصفا : علمنا منه أنهم إنما يبتغون عندهم العزة يريدون أن يتخذوا لديهم أيادى تنفعهم وتشفع لهم ولو على حساب الحق والخير والصلاح ، وما دروا أن ذلك سعى غير حميد ، وقصد لا يمكن أن يصل

بصاحبه إلى ما يريد ، فإن العزة كلها إنما هى لله ، وليس اتخاذ الأولياء من المبطلين والمفسدين من الله فى شىء فإن الله هو الحق المبين ، وأن الله لا يحب المفسدين .

ونحن - معاشر الشرقيين - قد ابتلينا بهذا النوع من الذين يبتغون العزة من غير سبيلها ويرجون أن يقتنصوها من غير ميدانها ، أو أن يستطلعوها من غير أفقها ، ابتلينا بهذا النوع من المواطنين: كانوا يوالون أعداءنا ، ويصانعون الغاصبين لحقوقنا العاملين على كل ما فيه ذلنا وموتنا ، وإذا كان بعض المؤمنين منا قد عرف هؤلاء فى بلد أو غيره من بلاد الإسلام ، ونادوا فى أقوامهم محذرين ، فإن خطرهم ما يزال ماثلا فى الشعوب والدول ، وإن علينا جميعا أن نفتح عيوننا لكى نراهم ونحذرهم ونحذر منهم ، كما حذر الله من أمثالهم سلفنا الصالحين الأولين .

٤ — يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون .

وهذه الآية تتحدث عن نوع آخر من المنافقين المرجفين الذين يغترون بظواهر العزة الكاذبة ، من الأغراض التى ليس لها بقاء ، وليس لها أمام الإيمان والثقة قوة ولا احتمال .

فهؤلاء ، المنافقون يرجفون على المؤمنين ويريدون أن يَفُتُّوا فى عضدهم ، ويقوضوا تكتلهم واجتماعهم على مقاومة الباطل ، ويريدون فى الوقت نفسه أن يقووا روح الباطل والشرك ، وأن ينفثوا فى روع الكافرين المقاومين لدعوة الحق طمأنينة وثقة ، فهم يلوحون بكثرة المبطلين ومظاهر عزتهم ونفوذهم ، وأن ذلك سيكون وبالا على المقاومين المناضلين ، لما هم فيه من القلة وضعف النفوذ ، فلذلك يتوقعون أن يخرج من المدينة أقل الفريقين عددا ، وأضعفهم مددا ، وأهونهم منعة وقوة ، - يريدون بذلك المؤمنين - والله تعالى لا يرد عليهم ظاهر قولهم ، ولكن يقرهم عليه ، والذين سيخرجون من المدينة هم الأذلون حقا ، والذين سيخرجونهم هم الأعزاء حقا ، ولكن العزة ليست فى هذا الأفق الذى يتطلع إليه المنافقون ، وإنما هى فى أفق آخر ، هو أفق الإيمان والحق « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » ، لأنهم انخدعوا بما يبدو من المظاهر البراقة ، والعناوين الخادعة ، وما دروا أن الإيمان حصن منيع إذا تحصن به صاحبه أمن وغلب ، وما دروا أن الله هو العزيز ، وأن الله هو الغلاب القاهر ، وأن رسوله هو المؤيد ، لأنه هو الداعى إلى الحق ،

والمدافع عن الحق « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز » .

٥ — « ص . والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » يذكر الله تعالى فى مطلع هذه السورة الكريمة المانع الذى منع من الانتفاع بالقرآن الكريم وتصديقه ، وهذا المانع هو ما فيه هؤلاء الكفار من « عزة وشقاق » فالعزة فى هذا المقام هى التمنع والتعزز ، والاستكبار عن قبول الحق والإذعان له ، والشقاق : المشاقة والمخالفة وكونك فى شق غير شق صاحبك ، وكثير من الناس يأتيهم الفساد ، ويقعون فى الباطل من جهة الاستكبار عن قبول الحق والمشاقة فيه ، والمناهضة له ، وهؤلاء يظنون أن الرضوخ ضعف وذل ولو كان للحق وما استبان من الهدى ، مع أن الرجوع إلى الحق فضيلة والنزول على حكمه حكمة ورشد ، ولذلك نراهم يصرون على ما يرون فى عناد وتصميم مهما تبين لهم أنه خطأ أو ضلال ، يبتغون بذلك موقف الرجولة أو البطولة ، ويرونه عزاً ومنعة وقوة .

والحقيقة أن من أكبر مظاهر القوة المقدرة على قبول الحق بعد ما تبين ، وأن المرء لا يكون قويا حقيقة إلا إذا كان قويا أمام نفسه وهواه كما هو قوى أمام غيره ، وأن النزول على مقتضى الحق ليس ذلا وإنما هو العز كل العز ، وإذاً فهؤلاء الكافرون ليسوا أعزاء فى الحقيقة ، وإنما هم فى عزة مزورة ، وشقاق باطل .

٦ — وقد وصف الله بعض الناس بقوله « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » وقابل بينهم وبين عباد آخرين بقوله « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » .

وهما صورتان متقابلتان : إحداهما صورة الرجل المستكبر المتعنت الذى يرى نفسه فوق الناس ، وفوق الحق ، ويرى أنه أرفع وأكبر من أن ينبه إلى خطأ ، ومن أن يوجه إلى خير وصلاح ، فإذا نصحه ناصح ازور عنه مغضبا ، وولى مستكبرا ، وغضب وانتفخت أوداجه ، فهذا هو الذى أخذته العزة بالإثم ، أى أنه اعتز وتمنع لا بالحق ولا بالبر والصواب ، ولكن بالإثم والخطأ وأى إثم وخطأ أكبر من العناد واللجاج والاستكبار عن الحق بعد ما تبين ، وإيثار العزة الباطلة والقوة المفتعلة ، أما الصورة الثانية فهى صورة رجل يشرى نفسه أى يبيعها ابتغاء مرضاة الله ، ومعنى كونه يشريها أو يبيعها لله ، أنه لا يرى لنفسه حقا أمام الحق ، ولا يرى نفسه إلا مملوكة لله ، وهذا يقتضيه أن يؤدى حق هذا الملك فيبذل نفسه

عيد الفطر فى التاريخ والأدب

لأديب من العراق

ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى والنويرى فى نهاية الأدب فى فنون الأرب : أن الأعياد الإسلامية التى وردت بها الشريعة - اثنان : عيد الفطر وعيد الأضحى والسبب فى اتخاذهما ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيهما فقال صلى الله عليه وسلم ماهذان اليومان ؟ فقالوا كنا نلعب فيهما فى الجاهلية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد بدلكم خيراً منهما يوم الفطر ويوم الأضحى فأول ما بدىء به فى العيدين عيد الفطر وذلك فى السنة الثانية من الهجرة وفيها كان عيد الأضحى (١) ولقد كان لهذين العيدين مظاهر إسلامية تعرض فيها عظمة الدولة وجلال الملك وكان فى العصور الإسلامية الزاهرة تبدو فيهما سطوة الإسلام وشوكته وإننا اليوم فى حاجة ملحة إلى تعزيز الروح القومية بالإشادة بمفاخرنا وأعيادنا الشعبية وحبذا لو أكثرنا من إقامة ذكريات لأعياد قومية منسية لتبعث فى الأمة الحياة والعزة وتثير فى الشباب النخوة والشعور القومى. فعلى المسلمين والعرب أن يحتفلوا اليوم بعيد ذكرى فتح العرب للأندلس، وعيد دخول العرب وتوغل جيوشهم فى فرنسا ، وعيد نزول جيوش العرب إلى إيطاليا بعد فتحهم صقلية ، وعيد فتح العرب المدائن عاصمة

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ونهاية الارب للنورى.

لمالكها غير ضنين بها ، ولا حريص عليها ، ولا مستشعر ذلا فيما يفعل .

والصورتان متقابلتان تمام التقابل إحداهما لنفس مغرورة معتزة بالباطل لا تعبأ بالحق ولا تنزل عن كبريائها ، لشىء من الأشياء ، والأخرى نفس معتزة برضا الله ، حريصة على هذه المنزلة ، متنازلة عن أنانيتها فى سبيلها فالنفس الأولى معتزة بالإثم والنفس الثانية معتزة بالله .

وهكذا يبين لنا القرآن فى هذه الآيات وفى غيرها أن « العزة » الحقيقية الباقية المستقرة هى العزة التى تقوم على أساس من الاستقامة والعمل الصالح ، والتى يتجه صاحبها فى اتجاه الخير والبر ، أما العزة المصطنعة المفتعلة فهى التى تقوم على أساس من الباطل والإثم والاغترار والاستهتار والاستكبار .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

* * *

الأكاسرة ، وعيد فتح المسلمين للقسطنطينية على يد محمد الفاتح ، وعيد إخراج الصليبيين فى فلسطين وأمثال ذلك فى الأعياد القومية الإسلامية التى تبعث فى النفوس نشوة الانتصار وتعيد ذكرى الفتوح التى سيطر بها آباؤنا على البلاد وهدوا العباد وأقاموا منار الرشاد . وعلينا أن نفخم الاحتفالات بالأعياد الدينية الشعبية التقليدية لأنها توحد الرأى العام فى الشرق العربى وتفهم سكانه وتذكرهم بالروابط الروحية والتاريخية التى تجمع بين أقطار الشرق الأدنى فى مراكش إلى إيران وتركستان والهند وأندونيسيا ومن تركيا وألبانيا إلى اليمن وزنجبار ضامة بين جناحيها الجمهورية العربية المتحدة والسودان ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق والحجاز ونجد والبحرين وحضرموت وعدن والأفغانستان وغير ذلك من الأقطار الإسلامية وإن الاحتفال بهذه الأعياد الإسلامية قديماً كان يشتد ويقوى حيث يكون الشعور الإسلامى أقوى حيث يعظم التنافس بين أتباع راية الإسلام وبين خصومهم : قال الأستاذ آدم متز Adam Metz فى كتابه القيم : (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) : كان عيد الفطر والأضحى هما العيدين الوحيدين الكبيرين اللذين كان يحتفل بهما بالأبهة الإسلامية احتفالا رسمياً ، وكانا إلى جانب النيروز الفارسى أكبر الأعياد عند أهل بغداد (كما يستفاد من تاريخ الطبرى) قال متز : « وكان الاحتفال بها يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى على أقواه مثل طرسوس حيث كان يأتى غزاة المسلمين فى كل أنحاء المملكة الإسلامية حتى كان عيداها يعتبران من محاسن الإسلام ولما ضاعت طرسوس من المسلمين بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها » . [١]

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه (تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى) : « عنى المسلمون منذ عهد بعيد بالاحتفال بالعيدين فى شىء كثير من الأبهة والعظمة وكانوا يحتفلون برمضان احتفالا شائقا ويتخذون غرة رمضان فى مواسمهم الدينية كما كانوا يحتفلون بالعيدين احتفالا دينيا فيؤم خلفاء المسلمين الناس فى الصلاة ويلقون عليهم خطبة فى فضائل العيد وبما يجب على المسلمين مراعاته للمحافظة على شعائر الإسلام ولا عجب فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بالعيدين فى البلاد الإسلامية وبخاصة فى بغداد وبيت المقدس ودمشق والقاهرة . وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز .

(٢) تاريخ الإسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن

فيها الشعور الإسلامى قويا مثل طرسوس حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين فى أنحاء البلاد الإسلامية وترد إليها تبرعات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للغزو بأنفسهم (٢) ولا يخفى ماكان هنالك من أثر واضح لوقوع طرسوس على حدود المملكة الإسلامية فى قصد إظهار جلال الإسلام وأبهته وإظهار قوة المسلمين أمام أعدائهم من الروم فى الثغور وذلك بتعظيم شعائر الإسلام فى الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى فى تلك المدينة الاحتفالا فخما مما جعل العيدين هنالك من محاسن الإسلام كما عدهما المؤرخون » .

ولنعد إلى حديث العيد قال الأستاذ آدم متز فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) : « إن المسلمين لما أضاعوا طرسوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها ويؤيد قوله ما قرأت فى كتاب (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) للمقدسى وهو من كتب العرب فى الجغرافيا والمقدسى من مؤلفى القرن الرابع الهجرى وقد تحدث عن حسن العيدين بصقلية من بلاد الإسلام فذكر أن العيدين فى هذا الثغر يمتازان بمظاهرهما كما امتازت الجمعة فى بغداد مثلا (١) » .

[١] الحضاره الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز .

هكذا كانت الجيوش الإسلامية المجاهدة تحتفل فى الثغور التى ترابط فيها وتعظم من الاحتفاء بالعيدين لأن ذلك مما يظهر شوكة الإسلام وجلال سلطانه .

لقد كانت المدن الإسلامية (١) ـ خصوصاً بغـــداد فى عهد العباسيين والقاهرة فى عهد الفاطميين ـ تسطع فى أرجائها الأنوار فى ليالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات وتسطع فى جوانبها أنوار القناديل، وتتلألأ الأنوار الخاطفة الأبصار من قصور الخلافة ، وقد لبست الجماهير فى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية الطيالسة السود تشبها بالخلفاء العباسيين (يقول فى المنجد : الطيلسان كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء وهو من لباس العجم) . الذين اتخذوا السواد شعارا لهم وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة (القلنسوة نوع من ملابس الرأس على هيئات متعددة ويلبسون بدل الدروع دراريع كتب عليها « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » (والدراريع جمع دراعة ، وهى جبة مشقوقة المقدم) ولقد

[١] الدكتور حسن إبراهيم حسن فى (كتابه تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى) ج ٣ ص ٦٠٥ .

أفاض جميل نخله صاحب كتاب (حضارة الإسلام فى دار السلام) وأسهب فى وصف الحالة الاجتماعية فى بغداد على لسان رحالة فارسى أدخلة بغداد ليلة عيد رمضان فأخذ يحدثنا الرحالة هذا عما شاهده فيها وقد اقتبس مؤلف الكتاب مواد بنائه من الكتب التاريخية الموثوقة متخذاً لها كمصادر اعتمد عليها وقال فى مقدمة الكتاب : « هذه رسائل وصفت فيها عصراً من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملئوا العالم بآثار جمالهم وجعلت الكلام فيها لرحالة فارسى طوفته معظم البلدان الإسلامية فى المائة الثانية للهجرة » ونقتطف من هذا الكتاب اللطيف صفحة جميلة يصف بها بغداد ليلة العيد قال[1] : « اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العتمة هى : (الثلث الأول من الليل) وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسبحين بحمد الله والمقدسين له نغمات ترددها معهم أرجاء المدينة وتعذر المسير على مركبنا تجاه باب البصرة (وهو باب من أبواب بغداد) أوكاد، لازدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان وهى مطلية بأبهى الأصباغ والألوان مرصعة بأنوار القناديل الحسان حتى كأن دجلة فى الزوراء أشبه بالمجرة فى كبد السماء ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقربة من الجسر وعلى مطل من قصور الخلافة (فى المنجد : المطل : المكان يشرف منه) التى كانت تتلألأ بضوء الشان (نقلا عن الأغانى ج ٤ ص ١٨٩) فركبت البر فى الموضع المعروف بجزيرة العباس (فى المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع) وقد غص بجموع من الناس قد لبسوا الطيالس السود تشبها بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد فى شعار الخلافة حزنا على شهدائهم من أهل البيت ونعياً على بنى أمية فى قتلهم . وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العمائم قلانس طوالا مصنوعة من القصب والورق ملبسة بالسواد أيضا وبدل الدروع دراعات مكتوباً عليها بين كتفى الرجل « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » أخبرنى (نقلا عن ابن الأثير ص ٢٤٥ ج ٥ والأغانى ج ٥ ص ٩٥) بعض من لقيته فى تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذى أحب أن تتزيا حوزته (حوزة المملكة ما بين تخومها) بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين . قال ولما تجولت فى المدينة وانتهيت إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبى جعفر وجدته كأحسن وأحفل ما يكون من الشوارع وله السيادة عليها بأمرين : الأول اتساعه إلى أربعين ذراعاً وإن كان يشاركه فيه غيره والثانى طوله من دار الخلافة إلى

[١] حضارة الإسلام فى دار السلام لجميل نخلة .

باب الشام على استقامة ليس فى الإمكان أصح منها فلما صرت فيه استقبلت فى دور الخلافة زينة كضوء الشمس قد اتخذت على القبة الخضراء (عن المسعودى والقزوينى) التى رفعها أبو جعفر إلى علو يزيد عن ثمانين ذراعاً ليشرف منها على جهات المدينة وما يجوارها من البساتين كما أنه عنى بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتداره على عظائم الأعمال فكانت تظهر زينتها فى تلك الليلة وهى مرتفعة فى الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام . ثم إنى أقبلت فى صدر هذا الشارع على مسجد جامع عليه ازدحام فملت إليه فإذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون ممراً بين جموعهم ووراءهم رجل طويل (عن العقد الفريد) أسمر نحيف خفيف العارضين معرق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة بوبر أسود (عن ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر) من الأوبار الغالية الثمن وفى وجهه مهابة الملوك وجلالتهم فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل عليه حاشيته إذ الشمس لا تخفى وإن سترت ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى توارى بين الجموع وركب بغلة (عن ابن خلدون) عليها حلية خفيفة من الفضة وكان لجامها فى يد حاجب من حجاب الخليفة وقد دخل صاحبنا بغداد فى عهد بانيها أبى جعفر المنصور ولم يلق المؤلف كلماته جزافا ومن دون سند تاريخى بل إنه اعتمد على أوثق المصادر .

والذى يظهر من قصيدة البحترى التى يهنئ بها المتوكل بعيد الفطر أنه كانت بغداد تشهد موكباً رائعاً للخلافة بتلك المناسبة الكريمة ويؤيد ذلك المؤرخون قال الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه (تاريخ الإسلام): «كانت تتجلى عظمة الخلفاء العباسيين وأبهتهم فى الاحتفال بالعيد واتجهت سياستهم إلى اجتذاب الشعب على اختلاف طبقاته بالعطايا والأرزاق والهبات والأسمطة التى كانوا يمدونها فى الأعياد والمواسم وعنوا باحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالا رائعا» .

ويعرض علينا ابن قتيبة فى عيون الأخبار خطبة طويلة للمأمون فى عيد الفطر قال فيها مخاطباً المسلمين :

(إن يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمة الشهر وأول أيام شهور الحج وجعله معقبا لمفروض صيامكم ومتنفل قيامكم فاطلبوا إلى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم فإنه يقال لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار) .

ولقد كان الخلفاء العباسيون يجلسون فى الأعياد لاستماع تهانى الشعراء وجر ذلك إلى أن يتنافس هؤلاء فى تجويد روائع الشعر يمدحون بها جبابرة العباسيين لينالوا من هباتهم وعطاياهم الأموال الغزيرة إذ كانت ثروة الدولة الإسلامية تجبى إلى الخليفة ببغداد أو سامراء فينفقها كما يشاء ولمن يشاء .

وإنك لتجد الخلفاء عامة ، (والفاطميين خاصة) يحتفلون بعيد الفطر الذى كانوا يتبركون به وتعم خيراتهم الناس فيه ، فمن هذه الخيرات تفرقة الفطرة والكسوة وعمل السماط وركوب الخليفة لصلاة العيد . وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون بالاحتفال بعيد الفطر فى العشر الأخيرة من رمضان ، واتخذ الفاطميون فى القصر بابا خاصا أطلقوا عليه (باب العيد) ؛ لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيد إلى المصلى شرقى القصر الكبير فى الفضاء الذى تشغله الآن قرافة باب النصر وراء حى الحسينية (كما حقق ذلك الأستاذ ابراهيم حسن) .

أما الأستاذ آدم متز Adam Metz فإنه ينقل فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) عن المقريزى ج ١ ص٣٨٧ وعن النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٢ ص٤٧٣ وعن رحلة ناصر خسرو ص١٥٨) أنه فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٠ حمل يأنس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقا فيها تماثيل من الحلوى وحمل أيضا على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها فى شوارع القاهرة . وكانت تعمل أسمطة أخرى فى القصر يحضرها الخليفة بنفسه فى يوم عيد الفطر ، وعيد النحر . ففى عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ثلاثمائة ذراع فى سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند فإذا صلى الخليفة الفجر جلس ومكن الناس من ذلك السماط (وهو مائدة طويلة ممدودة فيهجمون عليه وينهبونه ويحملونه [1] .

ويحدثنا المقريزى فى الخطط ج ٢ ص٣٢٢ أنه ركب المعز لدين الله يوم الفطر لصلاة العيد إلى مصلى القاهرة التى بناها القائد جوهر فأقبل فى زيه وبنوده وقبابه ، وصلى بالناس وأطال الصلاة وهى صلاة جده على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : فلما فرغ المعز من الصلاة ، صعد المنبر وسلم على الناس يميناً وشمالا ، ثم ستر بالسترين اللذين كانا على المنبر فخطب وراءهما على رسمه وكان فى أعلى درجة من المنبر وسادة ديباج مثقل فجلس عليها بين

---

(١) الحضارة الاسلاميه فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ورحلة ناصر خسرو .

الخطبتين وكان معه على المنبر القائد جوهر، وخطب وأبلغ وأبكى الناس، وكانت خطبة بخشوع وخضوع فلما فرغ من خطبته انصرف فى عساكره وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ على الخيل بأحسن زى وساروا بين يديه بالفيلة، فلما حضر فى قصره أحضر الناس فأكلوا وقدمت السمط ونشطهم على الطعام، وعتب على من تأخر وهدد من بلغه صيامه العيد[1] ونقل المقريزى أنه فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٠هـ (نقلا عن المسبحى) بقيت مصاطب ما بين القصور إلى المصلى ظاهر باب النصر عليها المؤذنون حتى يتصل التكبير من المصلى إلى القصر وفيه تقدم أمر القاضى ابن النعمان بإحضار المتفقهة والمؤمنين يعنى الشيعة، وأمرهم بالجلوس يوم العيد على هذه المصاطب وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد، وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والعزيزيه والإخشيدية والكافورية وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسروج بالعنبر وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة (والزراقون هم الذين يقذفون بالنار اليونانية وقد اقتبسها العرب من الروم وهى فى الأصل من اختراع المشارقة وهى مواد مشتعلة تقذف نحو العدو باسطوانات نحاسية مستطيلة: نقلا عن كتاب الجندية فى الدولة العباسية لضابط عراقى)[2] وخرج الخليفة الفاطمى بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده على بن أبى طالب عليه السلام فصلى على رسمه (على عادته).

ولما استوزر بعد الأفضل المأمون بن البطائحى انتقد عدم ظهور الخليفة وقال هذا نقص فى حق العيد ولا يعلم السبب فى كون الخليفة لا يظهر فقال الخليفة الآمر بأحكام الله فما تراه أنت؟ فقال: يجلس مولانا فى المنظرة التى استجدت بين باب الذهب وباب البحر، فإذا جلس مولانا فى المنظرة وفتحت الطاقات وقف المملوك بين يديه فى قوس باب الذهب وتجوز العساكر فارسها وراجلها، وتشملها بركة نظر مولانا إليها، فإذا حان وقت الصلاة توجه المملوك بالموكب والزى وجميع الأمراء والأجناد واجتاز بأبواب القصر ودخل الإيوان فاستحسن ذلك منه واستصوب رأيه وبالغ فى شكره. ثم عاد المأمون إلى مجلسه وأمر بتفرقة كسوة العيد والهبات وجملة العين ثلاثة آلاف وثلاثمائة دينار وسبعة دنانير ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع برسم الأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين وكاتب الدست ومتولى حجبة الدار وغيرهم

(١) الخطط للمقريزى.

(٢) الجندية فى الدولة العباسية لضابط عراقى.

قال : ووصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر شهر رمضان من سنة ٥١٦ ﻫ وهى تشتمل على دون العشرين ألف دينار وهو عند الفاطميين الموسم الكبير ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجماعة وفى غيره للأعيان خاصة قال المقريزى ولما كان فى التاسع والعشرين من رمضان سنة ٥١٦ ﻫ خرجت الأوامر بأضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة باسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر وحضر المأمون (الوزير) فى آخر النهار الفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة على العادة ، وحضر المقرئون والمؤذنون ، وجلسوا تحت الروشن وحمل من عند معظم الجهات والسيدات من أهل القصور بلاحى (فى معجم دوزى أنها ضرب من الأوانى لحفظ العطور) وموكبيات (فى معجم دوزى شمعدانات موكبية أى تستعمل فى المواكب) مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى (يقول دوزى هى قطع من النسيج يلف بها الرأس) ودبيقى (قماش صنع مدينة دبيق بمصر) وجعلت أمام المذكورين ليشملها بركة ختم القرآن واستفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبا ، ثم خطب من أسمع ودعا ، فأبلغ ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات ثم كبر المؤذنون وهللوا وأخذوا فى الصوفيات إلى أن نثر عليهم من الروشن دراهم ودنانير ، وقدمت جفان القطائف (طعام يسوى من الدقيق المرق بالماء) مع الحلوى فجروا على عاداتهم وملئوا أكمامهم ثم خرج أستاذ من باب الدار الجليلة بخلع خلعها على الخطيب وغيره ودراهم تفرق على المقرئين والمؤذنين ورسم أن تحمل الفطرة إلى قاعة الذهب وأن تكون التعبئة فى مجلس الملك حيث تمد الأسمطة وحضر الخليفة واستدعى المأمون (الوزير) وعرضت المظال المذهبة وكان المقرئون يلوحون عند ذكرها بالآيات التى فى سورة النحل « والله جعل لكم مما خلق ظلالا » إلى آخرها.

وجلس الخليفة الفاطمى ورفعت الستور وسلم الرسل الواصلون من جميع الأقاليم ووقفوا فى آخر الإيوان وحضر الأمراء ورجال الدولة واستعرضت الدواب وهى ما يزيد على ألف فرس عدا البغال وعرضت الوحوش بالأجلة والديباج والدبيقى بقباب الذهب والمناطق والأهلة وعرض السلاح وآلات الموكب جميعها ونصبت الكسوات على باب الذهب وحملت الفطرة الخاصة التى يفطر عليها الخليفة بأصناف الجوارشات (فى المنجد الجوارش نوع من الحلاوات) بالمسك والعود والكافور والزعفران والتمور المصبغة التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره وتسد وتختم وسلمت للمستخدمين فى القصور وعبيت فى مواعين الذهب المكللة

بالجواهر وخرجت الأعلام والبنود وركب المأمون (الوزير) فلما حصل بقاعة الذهب أخذ فى مشاهدة السماط من سرير الملك إلى آخره وخرج الخليفة وطلع إلى سرير ملكه وبين يديه الصوانى التى فيها الفطرة الخاصة والمقرئون يتلون والمؤذنون يهللون ويكبرون فيفطر الخليفة ويدخل الناس فيأخذون جميع ما هناك فلما انقضى الفطور ضربت الطبول والأبواق على أبواب القصور وخرجت أزمة العساكر فارسها وراجلها ورتبت الصفوف من القصر إلى المصلى[1] .

هذه صفحة رائعة من احتفاء الدولة الفاطمية بمصر بعيد رمضان ومن تعقب وخاض كتب التاريخ الإسلامى وجد الدول الإسلامية جمعاء تحتفى بهذا العيد فهذه الدولة البويهية يحدثنا الأستاذ آدم متز فى كتابه عن الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى الذى هو عصرها الذى ازدهرت فيها العلوم وأينعت الفنون — يحدثنا (نقلا عن معجم الأدباء لياقوت الحموى) أن ابن عباد وهو من وزراء البويهيين كانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نسمة تفطر فيها وأن أصدقاءه وأقرباءه فى هذا الشهر كانوا يزورونه بكثرة تبلغ مبلغ زيارتهم له فى جميع شهور السنة .

(١) الخطط للمقريزى.

عربى يصف قومه

وإنى من القـوم الذين همُ همُ إذا مات منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غار كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وما زال منهم (حيث كانوا) مسوّد تسير المنايا حيث سارت كواكبه

شعراء الوحدة

للأستاذ على العمارى

منذ أكثر من ثمانية قرون، وعلى التحديد فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى، وأوائل القرن السابع، كانت تعيش البلاد العربية فى ظروف تشبه كل المشابهة الظروف التى نعيش فيها الآن ؛ أعداء من خارج البلاد يتربصون بها الدوائر، ويبغون لها الغوائل، ويهاجمونها كلما عنت لهم فرصة، وأعداء فى داخل البلاد، من أهلها، يتنكرون للشعوب ويعاونون الأعداء.

وفى ذلك التاريخ اصطفت الأقدار للعرب بطلا، خالص العقيدة، طاهر الطوية شديد البأس، هو السلطان الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب. الذى يتصل نسبه ببنى أمية، فدحر الصليبيين، وخلص البلاد من شرورهم، ووحد الأقطار الإسلامية.

وفى أثناء هذه الحروب الشهيرة، برزت ظاهرة أفادت منها الأقطار الإسلامية، تلك هى الشعور بوحدة الدم والعقيدة والتاريخ، وقد كان للشعراء شأن أى شأن فى الإشادة بهذه الوحدة، والعمل على إذكائها فى النفوس، والشعر - يومذاك - بل الأدب بعامة هو الموجه والرائد، حتى قال صلاح الدين الأيوبى «ما فتحت البلاد بالعساكر، وإنما فتحتها بكلام الفاضل» يقصد وزيره القاضى الفاضل.

وقد ازدحم (بلاط) صلاح الدين بالشعراء الذين غنوا على قيثاراتهم أهازيج النصر، ورددوا أناشيد الوحدة، ومن هؤلاء: ابن سناء الملك، والعماد الأصفهانى، والقاضى الفاضل، وغيرهم من شعراء الإقليم المصرى فى القرن السادس الهجرى.

وسنكتب كلمة عن كل واحد من هؤلاء، نتتبع فيها أثره فى توحيد الصف، وإشاعة العزة والمجد فى نفوس الشعوب، إذ ذاك.

ابن سناء الملك

— ١ —

نشأته :

هو أبو القاسم هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن المعتمد بن محمد بن هبة الله السعدى، ويلقب بالقاضى السعيد، ويعرف فى الكتب بابن سناء الملك، وسناء الملك لقب أبيه جعفر، وقد ذكره ابن خلكان عقب (المعتمد) فيكون - على رأيه - لقبا لجد القاضى السعيد، ويدل لقب جده سناء الملك أنه كان من كبار الموظفين فى الدولة

الفاطمية، فقد خلع هذا اللقب أيضاً على حسين ابن بدر الجمالى، الوزير الفاطمى المشهور، (١)

وولد ابن سناء الملك بمصر، فى أسرة غنية فى حدود سنة ٥٥٠ هـ. وقد حفظ القرآن وبرع فى العلوم الدينية واللغوية والأدبية، وتفقه فى الدين الإسلامى على مذهب أهل السنة، وإن كان ابن سعيد المغربى يذكر أنه كان متشيعا، بل وغالياً فى التشيع، وقد انفرد ابن سعيد بهذا. ويظهر أنه بقيت فى نفس ابن سناء رواسب شيعية، وآية ذلك أننا نجد بعض العقائد الفاطمية فى شعره، وهو يمدح ملوك الأيوبيين، من ذلك - مثلا - قوله فى مدح صلاح الدين:

أعدت إلى مصر سياسة «يوسف»
وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته
فأنت (ابن يعقوب) وأنت (ابن مريما)

وقد وقفت طويلا عند هذين البيتين من شعر ابن سناء، وهما من قصيدة فى مدح القاضى الفاضل، قال:

أصبحت فى مدح الأجل موحداً
ولكم أتتنى من أياديه ثنى
وغدوت فى حبى له متشعياً
من ذا رأى متشيعاً متسننا

ولم أستبعد أن يكون ابن سناء يخفى فى نفسه العقيدة الشيعية، ويبدو أمام الأيوبيين متمسكا بالمذهب السنى، وقد خدعه العقل الباطن فى هذا الشعر، فأجرى على لسانه التعجب من (متشيع متسنن). ولا وجه للتعجب، فابن سناء نفسه هو ذلك الرجل.

وأيا ما كان فقد كان ابن سناء من رجالات الدولة الأيوبية، وكل آثاره التى بين أيدينا تدل على أنه كان فى ريعان الشباب وفى كهولته وفى شيخوخته (متسننا) على حد تعبيره.

وقد تولى ابن سناء القضاء. وتوثقت المودة بينه وبين القاضى الفاضل. وصنف كتبا، أهمها (دار الطراز) فى الموشحات، و(نصوص الفصوص، وعقود العقول) وهو لا يزال مخطوطا، واختصر كتاب الحيوان للجاحظ، وسمى المختصر (روح الحيوان) وقد أعجبت هذه التسمية (ابن خلكان) فقال: وهى تسمية لطيفة. وله ديوان شعر منه نسخة خطية فى مكتبة الأزهر، وهى نسخة كثيرة الأخطاء.

وتوفى ابن سناء باتفاق الذين ترجموا له فى سنة ثمان وستمائة، فى شهر رمضان من السنة المذكورة، وهى توافق سنة ١٢١١ م.

أدبه وخصائصه:

يعتبر ابن سناء من كبار الشعراء المصريين

---

(١) هامش جريدة القصر: القسم المصرى جـ ١ ص ٦٤.

فى العصر الأيوبى، وديوان شعره يضم شعراً فى كل الأغراض التى تعنى الشعراء فى ذلك العصر من مدح ورثاء وغزل ووصف، إلى هجو، إلى إخوانيات.

أما الفن الذى نبغ فيه ابن سناء فهو فن الموشح وكتابه (دار الطراز) يعتبر الأول من نوعه فى موضوعه، فقد قام فيه بمهمة وضع قواعد واضحة للموشح، وليس معنى هذا أن أحداً قبله لم يتعرض لهذه الأصول، فإن بعض هذه الأصول وردت - ولو بطريق الإشارة - فى بعض الكتب الأندلسية كالذخيرة لابن بسام، وإنما معناه أن تحديد قواعد الموشح وتبيان خصائصه وطرق نظمه، وأوزانه، ثم تأييد هذه الأصول بأمثلة من الموشحات، هذا العمل لم يعمله أحد قبل ابن سناء، بل، وكل الذين جاءوا بعده، وتحدثوا عن الموشح كانوا عيالا عليه.

وكان ابن سناء منذ شبابه المبكر أظهر ميلا قوياً للأدب، ولاسيما الشعر، وقد جاء فى مقدمته لدار الطراز أنه لم يأخذ فن الموشح عن أستاذ أو شيخ، ولم يتعلمه فى كتاب، وقد ظهرت عبقريته بشكل واضح فى الموشحات ومما قاله فى كتاب (النصوص الفصوص) الورقة (٢١) : «وكنت لما أولعت بعمل الموشحات قد نكبت عما يعمله المصريون من استعارتهم لخرجات موشحاتهم خرجات موشحات المغاربة، فكنت إذا عملت موشحا لا أستعير خرجة غيرى، بل أبتكرها وأخترعها، ولا أرضى باستعارتها، وقد كنت نحوت فيها نحو المغاربة وقصدت ما قصدوه واخترعت أوزانا ما وقعوا عليها، ولم يبق شىء عملوه إلا عملته إلا الخرجات الأعجمية فإنها كانت بربرية، فلما اتفق لى أن تعلمت اللغة الفارسيّة عملت هذا الموشح وغيره وجعلت خرجته فارسية بدلا من الخرجة البربرية [1].

وظهرت فى شعر ابن سناء السمات التى طبعت شعر العصر الأيوبى، من التأنق اللفظى والتكلف المقيت، والقصد إلى المحسنات البديعية من جناس وطباق وتورية، حتى لقد كان الجناس يملأ تفكيرهم فنرى ابن سناء يتوهمه فى بعض الأفعال، فهو يتحدث عن عين عشقت، لأن عينا نظرت إليها، فيحاول أن يتخذ من هذا دعوى قصد الجناس فيقول:

يا جور هذا الحب فى أحكامه
خد يحد، وطرف عين قد زنا
وأظنه قصد الجناس لأنه
طرف زنا لما رأى طرفا رنا

فيدعى أن طرف العاشق إنما (زنا) بالنظر إلى المعشوق لأن طرف المعشوق (رنا) إليه ونظر، وسبب هذا إنما هو قصد الجناس بين زنا ورنا.

---

[1] هامش دار الطراز ص ١٣٥ تحقيق دكتور جودت الركابى.

وللشعراء المصريين مذاهب فى هذا ومن ذلك قول الشاعر :

وقالوا يا قبيح الوجه تهوى
مليحا ، دونه السمر الرقاق
فقلت وهل أنا إلا أديب
فكيف يفوتنى هذا الطباق

والشواهد كثيرة من شعر ابن سناء على تكلفه المحسنات البديعية ، حتى مقدمته فى دار الطراز جاءت مسجوعة ، مع أنها مقدمة جليلة من حيث ما تضمنته من أصول الموشحات.

كان القاضى الفاضل يثنى كثيرا على ابن سناء ، وعلى بلاغته ، وصناعته فى النظم ومن قوله فى ذلك : « أما بلاغته فقد بلغت الغاية ، وأما قلمه فإنه به قد أعطى الراية » وكان معاصره العماد الأصفهانى الكاتب صاحب خريدة القصر يثنى عليه ، ويعجب به ، وكذلك أثنى عليه ياقوت الحموى فى أكثر من موضع فى كتابه « معجم الأدباء » ومما قاله : « أحد أدباء العصر وشعرائه المجيدين ، ذاع صيته ، وسار ذكره » وامتدح قصيدته التى سارت بها الركبان - على حد قوله - والحماسية الغزلية . وهى :

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

وبعد أن ذكر أبياتا كثيرة منها قال : « والقصيدة طويلة ، كل بيت فيها فريدة فى عقد ، وشعره كثير ، وأكثره جيد » . وأثنى عليه القاضى ابن خلكان ، بأنه صاحب الشعر البديع والنظم الرائق . وأحد الفضلاء النبلاء الأدباء . وأعجب بوصفه لنقصان النيل وقال إنه أحسن ما يوصف به ، وعبارة ابن سناء : وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه ونقطعت أصابعه ، وتيمم العمود لصلاة الاستسقاء ، وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء » .

ابن سناء والوحدة :

ذكرت فيما سبق أن القاضى السعيد قال الشعر فى كل الأغراض التى كان يقول فيها الشعراء فى عصره ، وقلت : إن الفن الذى نبغ فيه هو فن الموشحات ، وأضيف هنا أن شعر المدح عند ابن سناء لا يقل أهمية عن موشحاته التى امتاز بها ، ذلك أننا يمكن أن نعتبر هذا الشعر وثائق تاريخية فيما يتعلق بالسياسة العامة ، ولا سيما السياسة الحربية الأيوبيين ، كما يمكن أن نتخذه دليلا على شعور هذا الشاعر بما يمكن أن يطلق عليه (الوحدة العربية) وقبل أن نمضى فى دراسة هذا الشعر ، نقدم كلمة مجملة عن البيئة التى عاش فيها هذا الشاعر من الناحية السياسية.

ولد ابن سناء فى سنة خمسين وخمسمائة ، وتوفى فى سنة ثمان وستمائة ، فهو قد عاش زهاء الستين عاما عاصر فيها أواخر الخلفاء الفاطميين ، وعاصر من الأيوبيين السلطان صلاح الدين وابنه العزيز عثمان ، وولد

العزيز الملك المنصور محمد ، ثم الملك العادل ابن الأمير نجم الدين أيوب ، وهو أخو صلاح الدين ، وفى هذه الفترة كان ملوك آخرون من الأيوبيين فى دمشق وحلب واليمن ، ومنذ أن ولد ابن سناء إلى أن توفى ، وملوك المسلمين يشنون غزوات على الفرنج ، والفرنج يحاربون المسلمين ، ويغيرون على البلاد المصرية ، وينتصر المسلمون حينا ، وينتصر الفرنج حينا آخر ، وقد يعقد الصلح بين الفريقين ، وليس من شك أن الشعور العام للمسلمين فى ذلك العهد كان الضيق الشديد بحركات الفرنج ، والفرح المتزايد بكل انتصار يحرزه المسلمون .

ومما يدلنا على الشعور النبيل فى نفوس المسلمين فى ذلك ، وبغضهم الشديد للفرنج ، هذه القصة المعبرة : كاتب (شاور) وزير العاضد الفرنج ليحاربوا معه (أسد الدين شيركوه) فلما تأخر الفرنج خاف شاور « فعمل فى عمل دعوة لأسد الدين المذكور ولأمرائه ويقبض عليهم فنهاه ابنه الكامل ، وقال : والله لئن لم تنته عن هذا الأمر لأعرفن أسد الدين فقال له أبوه شاور : والله لئن لم نفعل لنقتلن كلنا ، فقال له ابنه الكامل : لأن نقتل والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل والبلاد فى يد الفرنج » (١) . ولما بلغ أعيان الدولة أن شاور كاتب الفرنج اجتمعوا عند الملك المنصور أسد الدين شيركوه وقالوا له : شاور فساد العباد والبلاد . وقد كاتب الفرنج ، وهو يكون سبب هلاك الإسلام » . ومن الآراء التى قيلت فى موت شاور أن الأمراء قتلوه لما علموا بما فعل .

ولم يكن الفرنج وحدهم هم الذين يهددون وحدة المسلمين ، بل كان فى داخل البلاد أفراد يعملون على الثورة ولكن صلاح الدين قضى عليهم واحداً بعد آخر .

وكادت تقع الفتنة بين بنى أيوب أنفسهم بعد صلاح الدين لولا أن الله تداركهم بفضله فتم بينهم الصلح .

هذه صورة مصغرة لما كانت عليه البلاد الإسلامية فى السنوات التى عاشها القاضى السعيد ولابد أنه وهو رجل مسلم ، شاعر ، ومقرب من السلاطين والأمراء كان أشد شعوراً بكل هذه الأحداث ، فلا عجب أن نجد فى شعره رنة الفرح كلما أحرز المسلمون انتصاراً أو ملكوا بلداً ، أو فتحوا حصناً ، وكان كل ذلك كثير الحدوث ، فقد فتح نور الدين محمود فى مدة ولايته نيفاً وخمسين حصناً ، وأما صلاح الدين فقد أعاد للإسلام سطوته ، وللعروبة قوتها ، بالانتصارات المتتالية التى أحرزها .

وقد أسهم ابن سناء بنصيب موفور فى تسجيل انتصارات صلاح الدين ، من ذلك قوله يهنئه بفتح حلب :

(١) ، ٢ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥١ .

وفى زمان ابن أيوب غدت حلب
من أرض مصر، وعادت مصر من حلب

ولابن أيوب دانت كل مملكة
بالفتح والصلح أو بالحرب والحرب

أرض الجزيرة لم تظفر بمالكها
بمالك قطن أو سائس درب

بمالك لم يدبرها مدبرها
إلا برأى خصى أو بعقل صبى

حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت
من الفساد كما صحت من الوصب

ويمدح صلاح الدين فى قصيدة أخرى فيقول: إنه أنام بنى الإسلام فى كهف بأسه، هكذا (بنى الإسلام) لا بنى مصر وحدها، ولا بنى الشام وحدهم، ولا بنى قطر من الأقطار وإنما هم (بنو الإسلام) بهذا العنوان مما يدلنا على شعور الشاعر بالوحدة الإسلامية ويمضى فى مدح صاحبه فيقول إنه عوض المسلمين من سخطهم رضا، ومن خوفهم أمناً وأنه أقام بدار الكفر تجبى له الجزية، والكفار صاغرون، وهذا غاية ما يتمناه كل مسلم.

ويقول فى قصيدة ثالثة فى مدح صلاح الدين:

لقد نصر الإسلام منه بناصر
يرى مغرما فى الدين ما كان مغرما

يذب عن البيت المحرم جنده
فلولاهم ما كان بيتا محرما

ولولاهم ما كان زمزم زمرما
ولولاهم كان الحطيم محطما

وفى هذا ما يشير إلى ما كان عليه أعداء الإسلام من قوة هائلة، وأنه لولا صلاح الدين لتغيرت معالم الإسلام، ولكنه أعاد للدين حرمته وقوم ما كان قد طرأ عليه من اعوجاج.

وكان صلاح الدين فى الشام، فكتب ابن سناء يذكر له شوق مصر إليه، ويقول:

تغايرت الأقطار فيك فواحد
لبعدك يبكى أو لقربك يبسم

ولا شك فى أن الديار كأهلها
كما قيل تشقى بالزمان وتنعم

وما برحت مصر أحق بيوسف
من الشام لكن الحظوظ تقسم

بمصر كما بى من جوى وصبابة
كلانا معنى بالأحبة مغرم

فهذه البلاد التى (تغايرت) لا شك أنها بلاد واحدة، تنظر إلى زعيم واحد، ويجمعها الشوق إليه، والغيرة عليه، وهذا هو أصرح تعبير عن الوحدة التى عمل لها صلاح الدين والتى تمت فى عهده، وغذاها الشعراء والأدباء بما ينظمون وما ينثرون.

ويهنئ صلاح الدين بفتح الشام، فيقول:

لست أدرى بأى فتح تهنا
يا منيل الإسلام ما قد تمنى

أنهنيك أن تملكت شاما
أم نهنيك أن تملكت عدنا

إن دين الإسلام من على الخلـ
ـق وأنت الذى على الدين منا

قد ملكت البلاد شرقا وغربا
وحويت الآفاق سهلا وحزنا

وهـذه القطعة على صغرها مملوءة بالمعانى تؤيد ما ذهبنا إليه من أن هـذا الشاعر كان من المغردين بالوحـدة ، وأن الشعور بهذه الوحدة كان يملأ نفسه،وأن شعره صورة صادقة لما كان عليه الشعراء فى ذلك العهد ، وواضح من هذه الأبيات أن الوحدة الكبرى تمت لصلاح الدين: الشام وعدن ، ومن قبل الجزيرة والفرات ، وفلسطين وعسقلان .

وقـد لاحظت أن ابن سناء كان حريصاً على أن يقارن بين ماضى الإسلام وحاضره بين ماضيه مذ درست معالمه ، وضعف سلطان تعاليمه ، وبين حاضره حيث أحياه صلاح الدين من موت ، وأعتقه من عبودية ، وإن ما يثلج صدر كل مسلم أن يملك صلاح الدين (البلاد شرقا وغرباً) فهو جدير بأن يهنأ ، بل وأن يهنأ الإسـلام والمسلمون بهـذه الفتوحات العظيمة التى أنالت الإسلام ما كان يتمناه ، وهل كان يتمنى الإسلام إلا جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم . بل يصرح ابن سناء فى أبيات أخرى بأن صلاح الدين قد جمع شمل المسلمين فيقول عن فتحه لإحدى البلاد :

وصليت فيهـا جمعـة بجماعـة
تناديك للإسلام يا جامع الشمل
فحبك مفروض على كل مسلم
ويعلم هذا فيك بالعقل والنقل

فلا عجب بعد هذا أن يقول أحد الكاتبين فى ابن سناء الملك ومدائحه : « أنت ترى خلال هذه المدائح نفسا عربية مخلصة تجيش بالإكبار والإجلال نحو الرجل الذى صان الديار الإسلامية وفرض احترامها على من حاول العبث بها ، وطهر بيت المقدس من المغـير على أرضه ، فيهجر الشاعر الصنعة والتكلف عفوا ليترك العاطفة تتحدث ، وترتفع نشوى فى أجواء النصر والمجد[1] » .

وظـل ابن سناء بعد صلاح الدين يمـدح ملوك الأيوبيين ، وفى كل مدائحـه تظهر الروح التى ظهرت فى مدائحه لصلاح الدين .

(وبعد) : فإن ابن سناء شاعر كبير ، وهو من الشعراء الذين خدموا الوحدة بين البلاد العربية بمـا نظموه فيها من أشعار .

ولقد أعاد التاريخ نفسه فجعل من عبد الناصر ، الناصر صلاح الدين الثـانى ، فهل نجـد من شعرائنا من يكون ابن سناء الملك الثانى يتغنى بوحدة العرب ، ويسجل لنـا مظاهر النصر التى تملأ حياتنا الحاضرة .

ولولا أن الأناشيد ، والأغنيات الشعبية ملكت ناصية الأمر فى هذه الأيام لكنا نطمع، فى شعر كثير جميل يبقى على مر الأيام، يتحدث بانتصاراتنا ويسجل أروع صفحات تاريخنا ؟

على العمارى

(١) مقدمة دار الطراز للدكتور جودت كامل ص ١١ .

الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين

لفاضلين من علماء الأزهر

حملة قديمة - الإيمان بالألوهية ضرورة عقلية - إرسال النبيين من آثار الرحمة الالهية - رسالة الاسلام - القرآن هو الآية الكبرى على رسالة محمد - القرآن آية وهداية أين المعارضون للقرآن - الاسلام عقيدة ونظام مزايا العقيدة الاسلامية - شبهات حول العقيدة « الجبر والاختيار » - حول الايمان بالآخرة - نظام الاسلام - عبادة الله وحده - العلاقات الانسانية - العلاقة بين الأغنياء والفقراء - بيت المال ملك الامة - الاسلام يقيم التوازن بين الأغنيا والفقراء .

الحملة على الأديان ليست بنت اليوم ولا وليدة الأمس وليست من مبتكرات المادية الماركسية التي زعمت أن الدين أفيون الشعوب .

قال الأديب الفرنسي « فولتير » أن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء .

وفولتير أيضا لم يكن مبتكرا لهذا فمن قديم ظهر مثل هذا الزعم عند «السوفسطائيين» من اليونان الذين أنكروا حقائق الأشياء أو شككوا فيها وكان فيما روجوه من مغالطات وتشكيكات أن الإنسان فى أول نشأته كان لا يخضع إلا للقوة لا لخلق ولا لقانون ، ثم كان أن وضعت القوانين ، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهنالك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شىء وتسمع كل شىء ، وتهيمن بحكمتها على كل شىء (١) .

ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت فى عصر ما أو أن يكون ثمت وضع خاص من أوضاع العبادات قد جاء مجلوبا مصنوعا فذلك سائغ فى العقل بل واقع بالفعل . أما فكرة التدين فى جوهرها ، فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان .

---

(١) الدين للمرحوم الدكتور دراز ص ٧٤ .

يقول معجم « لاروس » للقرن العشرين : إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية . . . وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى ، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية .

ويقول هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بدون ديانة .

ويقول أرنست رينان فى تاريخ الأديان : « إن من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة فى الحياة الأرضية » .

ويعلق الأستاذ محمد فريد وجدى على هذه الكلمة فى دائرة معارفه فيقول فى مادة «دين» : « نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان بل إن هذا الميل سيزداد ... ففطرة التدين ستلاحق الإنسان مادام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه .

والحق أن الإيمان بقوة عليا — خلقت هذا الكون وقامت بتدبيره ورعايته على أحكم نظام — ضرورة عقلية بعد كونه ضرورة فطرية وجدانية ، فإن العقل الإنسانى بغير تعلم ولا اكتساب يؤمن بقانون السببية ولا يقبل فعلا من غير فاعل ، ولا صنعة من غير صانع .

وبدون التدين والإيمان سيظل هذا السؤال الذى أثاره القرآن حائراً بغير جواب « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ؟ » وبداهة لم يخلقوا من غير شىء ، وطبعاً لم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يزعم أحد أنه خلق ذرة فى السموات أو فى الأرض ، فلم يبق إلا الاعتراف بوجود الخالق العليم الحكيم الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

والذين فروا من الاعتراف بالألوهية الخالقة لأنها شىء غير مشاهد ولا محسوس ولا يدخل تحت التجربة ، لم يمكنهم إلا أن يلجئوا إلى قوة غامضة خفية هى الأخرى أطلقوا عليها « الطبيعة » .

وقد كان الوثنيون والجاهليون أقوم فكراً وأصرح رأياً حين اعترفوا بموجب الفطرة ومقتضى العقل فلم يلفوا ويدوروا كهؤلاء الذين يقولون : بالدهر والطبيعة ، فحين سئلوا من خلق السموات والأرض ؟ قالوا

فى صراحة وصدق : خلقهن العزيز العليم .
« قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون : الله »

* * *

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواسعة ألا يترك الناس سدى أو هملا يتخبطون على غير هدى أو يختلفون بغير حكم ولا مرجع ... فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه . وليضعوا لهم أسس الحياة الفاضلة ، وليرسموا لهم الطريق إلى الله وإلى سعادة الآخرة والأولى « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

وكان من حكمة الله أن يكون هؤلاء بشراً لا ملائكة يبعثون من بين أقوامهم ليكونوا آنس بهم وأعرف بأحوالهم وأقدر على التأسى بأخلاقهم وقد تعجب بعض الناس أن يرسل الله بشراً فرد الله عليهم « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » ، « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم » .

وقد أيد الله هؤلاء المرسلين بالحجة القاطعة والآيات البينات على صدق دعوتهم وأنهم رسل الله حتما ولم يملك المنصفون من معاصريهم إلا أن يذعنوا لهم ويؤمنوا برسالتهم « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » ، وأوضح مثل على ذلك سحرة فرعون الذين انتقلوا من الإيمان بربوبية فرعون إلى الإيمان الحق و « قالوا : آمنا برب هرون وموسى » ... « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا » .

وقد تعهد الله البشرية فى شتى عصورها بأنبياء ومرسلين كانوا منارات هادية وقادة مبينين ومعلمين إلى أن أكمل الله الدين وختم الرسالات ببعثة النبى الأمى محمد بن عبد الله بالرسالة العامة الخالدة ليكون للعالمين نذيرا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

* * *

يخطىء كل الخطأ من يحاول أن ينعت الإسلام بأنه رسالة أرضية اخترعها بشر ونسقها فكر إنسان ، أو أنه ظاهرة اجتماعية أوحت بها أسباب تارخية أو عوامل اقتصادية .

... إن من يحاول هذه المحاولة يخدع نفسه أولا ويكذب على الناس ثانيا ... ذلك أنه يعصب عينيه ويستر عقله عن كل عوامل المعرفة الصحيحة ، فهو يتجاهل التاريخ الصحيح ، ويضل عن الواقع الاجتماعى والعملى فى جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده ...

فإن أحوال القبائل العربية فى مكة وما حولها معروفة فى التاريخ كانت حياتها حياة انتجاع وسفر وتجارة ، وسمر ولهو ، وحرب وخصام على ناقة أو فرس — كما نعرف من حرب البسوس ، وداحس والغبراء .

ومن ناحية العقيدة معروف كذلك أنه كان لكل قبيلة وثن تعبده وتستعينه وتستقسم عنده ، وكانت الكعبة معظمة عندهم يتوارثون تعظيمها من قديم وكانت كل قبيلة تأتى بصنمها فتجعله حول الكعبة حتى بلغ عدد الأصنام فى الكعبة ثلثمائة وستين .

ولم تكن الوثنية سطحية فى بلاد العرب بل كانت متغلغلة فى أعماق حياتهم : ظهر ذلك فى حجهم ونذورهم وبحائرهم وسوائبهم وسائر شئونهم « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » .

والتحنف قبل الإسلام لم يعرف به إلا أفراد معدودون كانوا أسلم فطرة وأنضج عقولا من أن يجاروا تيار الوثنية فى قومهم فهجروا الأوثان وتعبدوا على ما بلغهم من دين أبيهم إبراهيم ، أو اعتنقوا ديانة كتابية كالنصرانية .

ومن هؤلاء أربعة نفر ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم ، فالقرشيون عمر بن نفيل بن عبد العزى العدوى ، وورقة بن نوفل الأسدى الذى قرأ الكتب القديمة ، وعرف النصرانية واتبعها . وعثمان بن الحويرث الأسدى والرابع عبيد الله بن جحش ابن أسد بن خزيمة ...

ولم يكن لهؤلاء دعوة أو أثر فى قومهم يخفف من غلواء وثنيتهم وتمسكهم بأصنامهم حتى إن دعوة الرسول محمد إلى التوحيد لقيت استنكاراً بالغاً ورفضاً صارماً « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » .

ولمعرفة الرسول بعصبية قومه لوثنيتهم لم يفاجئهم بدعوته إلى التوحيد وتحسس طريقه إلى القلوب لمدة ثلاث سنوات ثم بدأ ينذر عشيرته الأقربين ويتدرج فى التبشير بالدعوة ومع هذا لم يكد يعثر إلا على الفرد بعد الفرد مدة ثلاثة عشر عاما لقى فيها مرير الأذى وصنوف العذاب هو وأصحابه واضطر أن يأمرهم بالهجرة إلى الحبشة مرتين .

وأعقب هذا الاضطهاد والناس فى مكة صراع دام فى المدينه دافعت به الوثنية عن نفسها وألقت بكل ما تملك من أرواح وأموال حتى لا يقوم فى الأرض دين التوحيد ...

فهل يمكن أن يقال بعد هذا إن الجزيرة العربيه كانت تتطور إلى التوحيد بتأثير

العوامل الاجتماعيه ، وأن التحنف كان ظاهرة عامة قبل الإسلام .

كان من حق الناس أن يقولوا لمن يدعى النبـــوة عن الله : ائت بآية إن كنت من الصادقين وقد أيد الله رسله بآيات كونية ناسبت عصرهم وما برع فيه قومهم من مثل قلب العصا حية لموسى ، وإحياء الميت وإبراء الأكمه لعيسى ..

ولما كانت دعوة محمد دعوة عامة خالدة للإنسانية كلها وللأجيال كلها شاءت حكمة الله أن يؤيده بآية عامة خالدة أيضاً ، آية عقلية معنوية هى (القرآن الكريم) .

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين »

« أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ، وقد اشتمل القرآن على وجوه من الإعجاز خرست أمامها ألسنة المعارضين وانقطعت حجتهم أمام التحدى الواضح المثير « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

« قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

« قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » وحقت عليهم الغلبة والإذعان التى سجلها التاريخ والواقع .. وصدق قول القرآن نفسه « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

واستطاع هذا الكتاب المبين أن يحدث أكبر ثورة نفسية واجتماعية غيرت وجه التاريخ وأنشأت أمة من العدم قوتها من ضعف وهدتها من ضلالة وجمعتها من شتات . فأصبح لها بفضل هذا القرآن كيان واحد وتشريع يحتكم إليه وأخلاق توجه سلوكها وأعم لها وجهة الخير ، ورسالة عالمية تدعو الناس إليها « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » .

وقد امتاز القرآن عن آيات الأنبياء جميعا بأنه آية وهداية معا أو كما وصف نفسه : « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

والآية المعجزة إذا كانت من جنس الرسالة والدعوة ، كانت أدل على صدق من أيد بها وأثبت عند العقل من الآيات الخارجة عنها .

وضرب بعض العلماء لذلك مثلا : رجلا ادعى فى بلاد كثرت فيها الأمراض أنه طبيب وأن دليله على ذلك أنه ألف كتابا فى علم الطب ، يداوى المرضى بما دونه فيه فيبرءون فاطلع عليه الأطباء البارعون ، فشهدوا بأنه خير الكتب فى الطب وما يتعلق به من عمل ثم عرض عليه من لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الأدوية فبرئوا من عللهم ، وصاروا أحسن صحة ، فهل يمكن المراء فى صحة هذه الدعوى - دعوى الطبيب - مع هذين البرهانين العلمى والعملى ؟ .

كلا . وإن العلم بطب الأرواح أعلى وأعز منالا من طب الأجسام وإن معالجة أمراض الأخلاق وأدواء الاجتماع أعسر من مداواة أعضاء الأفراد .

ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن مشتمل على العقائد الصحيحة والآداب العالية ، وأصول التشريع الاجتماعى والمدنى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم عالج به أمة عريقة فى الشقاق وحمية الجاهلية ، غريقة فى الجهل والأمية ، ورذائل الوثنية ، فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة ، وسادت الأمم من بدو وحضر ، مع أنه كان أميا لم يتعلم شيئًا من العلوم ولم يتمرس فى سياسة الشعوب .

« كفاك بالعلم فى الأمى معجزة
فى الجاهلية والتأديب فى اليتم »

لو استدل ذلك الطبيب الجسدانى على صحة دعواه بعمل غير مألوف للناس ، ولكن لا علاقة له بالطب ، لأمكن المراء فى صحة دعواه ، كذلك شأن هذا النبى فى ادعائه أنه مرسل من الله لهداية البشر ، فإن كتابه العلمى المؤيد بنجاح العمل به ، أدل على كونه وحيا أوحاه الله إليه من جعل عصا حية أو إحيائه ميتا لأن هذين - على غرابتهما - ليسا من موضوع الإرشاد والتعليم ، كما أنهما ليسا من موضوع الطب ، فهما إن دلا على صدق الرسول فدلالتهما ليست فى أنفسهما .

والإتيان بعمل خارق للمألوف فى العادة من سنن الكون ، هو دون الإتيان بالعلوم العالية الإلهية والتشريعية من غير تعليم ، فكيف بالإتيان بأنباء الغيب : الماضى والمستقبل ؟ فكيف بصلاح حال من عملوا بهذه العلوم دينا ودنيا ؟ .

فالقرآن إذا برهان على أن ما فيه من الطب الروحانى والاجتماعى وحى من المدبر الحكيم لا يمارى فيه إلا معاند مكابر أو مقلد جاهل (١) .

* * *

ظهر بعد نجاح الدعوة الإسلامية فى الجزيرة العربية - لأسباب نفسية وقبلية - بعض مدعى النبوة ، فماذا كانت حجتهم ؟

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٢١٨ .

وما هى كتبهم التى دعوا إليها الناس ، وماهى أعمالهم التى ترجمت رسالاتهم ؟.

فى العام التاسع والعاشر من هجرة الرسول، ثم فى عهد أبى بكر ، تنبأ مسيلمة الذى ظهر فى اليمامة فى قومه بنى حنيفة - مناوئة لقريش أن تستأثر بالنبوة فى زعمهم وزعمه .

والأسود العنسى الذى تنبأ فى (اليمن) .

وطلحة بن خويلد الأسدى الذى ظهر فى قبيلة (أسد) .

وسجاح بنت الحارث والتى ظهرت فى (بنى تغلب) .

وقد تحدثت الروايات عن مسيلمة وغيره أنهم أنشئوا كتبا يعارضون بها القرآن ، لم تسع ذاكرة الأدب والتاريخ شيئا منها إلا ما تندرت به الروايات من مثل قول مسيلمة : « يا ضفدع يا بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » .

وسواء صحت هذه الروايات أو لم تصح فإن التاريخ الذى ترك لنا تراثا هائلا من الشعر والحكم والأمثال وغيرها لم يجد شيئا ذا قيمة أدبية يمكن أن يسجله أو يحتفظ به .

ولم يستطع باطل هؤلاء أن يصمد طويلا أمام الإسلام الحق فسرعان ما انتهى أمرهم ، بعضهم بالموت وبعضهم بالإذعان للإسلام كما فعل طلحة الذى انضم إلى صفوف المجاهدين المسلمين بحماسة بالغة ، يكفر بها عن ماضيه فى مناوأة الإسلام .

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

وفى عهد الدولة العباسة تحكى لنا بعض الروايات عن أشخاص اتهموا بمعارضة القرآن منهم « ابن المقفع » ولم تعزز هذه التهمة بذكر نصوص هذا القرآن المقلد .

فقد ذكر ابن قيم الجوزية والباقلانى أن ابن المقفع عندما انتهى إلى قوله تعالى : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور » إلى قوله تعالى : « وقيل بعداً للقوم الظالمين [1] » . عدل عن إنشاء قرآنه وقال : هذا ما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، وترك المعارضة ، وأحرق ما كان قد اختلقه .

ويقول الباقلانى : إن قوما ادعوا أن ابن المقفع عارض القرآن فى كتابه « الدرة اليتيمة » ولم يجد الباقلانى فيما أنشأ ابن المقفع بهذا الكتاب ما يصح أن يكون تقليداً للقرآن [1] .

ومن الذين اتهموا بهذه التهمة وهى محاولة محاكاة القرآن « أبو العلاء المعرى » فى كتاب الفصول والغايات » وما ورد فى هذا الكتاب « أقسم بخالق الخيل . والريح الهابة بليل

(١) القرآن لمحمد صبيح ص ١٥٨ .

بين الشرط ومطالع سهيل. إن الكافر لطويل الويل . وإن العمر لمكفوف الذيل . فعد مدارج السبيل ، وطالع التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج » .

ويقول الرافعي في إعجاز القرآن (١) :

ولا ريب أن هذا فرية على المعرى أراده بها عدو حاذق ، لأن الرجل أبصر بنفسه ، وبطبقة الكلام الذي يعارضه ، وما أراه إلا أعرف الناس باضطراب أسلوبه ، والتواء مذهبه ... الخ .

ويقول طه حسين في كتابه « مع أبي العلاء في سجنه » (٢) هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن في الفصول والغايات كما ظن بعض القدماء ، نعم ، ولا .

نعم : إن فهمنا في المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة ، إن فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى في الفن الأدبي فتأثره ، وجد في تقليده ، كما يتأثر كل أديب بما يعجب به من المثل الفنية العليا . ذلك شيء لا شك فيه، فأيسر نظر في كتاب « الفصول والغايات » يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها ، وليس المهم أنه وفق في هـــذا التقليد أو لم يوفق بل من المحقق أن التوفيق لم يقدر له كما لم يقدر لغيره ، بل من المحقق أيضا أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان » ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة في الكتاب ولا تلزمه إثما ولا حوبا .

ولا : إن فهم من المعارضة الاستجابة للتحدي ومحاولة الإتيان بسورة أو سور مثل القرآن فهذا خاطر ما أحسبه خطر لأبي العلاء ، فقد كان أشد تواضعاً من أن يبلغ به الكبر إلى هذا ، وقد كان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته ... إلخ .

وآخر ما عرفنا من محاولات المتنبئين الذين يتحدثون عن صلتهم بوحي السماء ، وأنه ينزل عليهم قرآنا ، كما كان ينزل القرآن على محمد هي محاولات :غلام أحمد الهندي القادياني وميرزا على الباب ، وتلميذه البهاء .

ومن حسن الحظ أن أتباع هؤلاء لا يظهرون هذه القرآنات المزعومة ، بل يسترونها كما تستر العورات . . ومن استطاع بوسيلة ما أن يقرأ شيئا من هذه الكتب لم يجد إلا الغثاثة والتفاهة الفكرية والبيانية ... وخرج منها بيقين أعمق بأن هذا القرآن من عندالله « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

والإسلام الذي بعث به محمد وكان القرآن مصدره الأول ليس — كما يظن القاصرون

---

(١) ص ١٨٩ .

(٢) ٣٣٦ .

دينا لاهوتيا ، وليس عقيدة فقط تعنى بالجانب الروحى للإنسان دون أن تعنى بتنظيم علاقته بالكون ، وعلاقته بالحياة ، وعلاقته بإخوانه بنى الإنسان أفراداً وأسراً ومجتمعات ودولا .

كلا إن الإسلام عقيدة شاملة ينبثق عنها نظام عالمى كامل تقوم على أساسه أمة عالمية متوازنة أبرز سماتها ما وصفها به القرآن : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

* * *

وللعقيدة الإسلامية مزايا وخصائص لا تتوافر لغيرها من العقائد الدينية فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ، تتلخص فى أن وراء هذا العالم المنسق البديع المحكم ربا واحداً ، خلقه ونظمه ، وقدر كل شىء فيه تقديراً وهذا الرب والإله ليس له شريك ولا شبيه ، ولا صاحبة ولا ولد ، « بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون » .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة . فالعقل دائما يطلب الرابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ويريد أن يرجع الأشياء دوما إلى سبب واحد والواقع المطرد يثبت أبداً أن تعدد الإرادات لا ينتج عنه أثر متكامل أو نظام متسق والقرآن يقرر هذه الحقيقة فيقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ، ولامناقضة لها ، بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وهى عقيدة ثابتة محددة ، لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل ، فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العلمية ، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يضيف إليها ، أو يحور فيها ، وكل تحوير أو إضافة مردود على صاحبه ونبى الإسلام يقول : (من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد) أى مردود عليه والقرآن يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » .

وعلى هــذا فكل البدع والخرافات ، والإضافات التى لصقت بعقائد المسلمين أو دست فى بعض كتبهم ، أو أشيعت بين عامتهم - باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه .

* * *

مسألة الجبر والاختيار ، مسألة حار العقل البشرى فى الوصول إلى رأى قاطع فيها وتنازع

فيها الفلاسفة ، وعلماء الأخلاق ، والنفس والتربية وغيرهم منذ تفلسف الإنسان إلى اليوم وبحث .

وعقيدة الإسلام فى هذا هى العقيدة المتوازنة المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد .

فالإنسان بالنسبة لهذه العقيدة ، حر مسئول عن نفسه وعمله — فى دائرة أعماله الاختيارية — له أن يقدم وله أن يحجم كما تشهد بذلك بديهته وإحساسه . وكما تشهد نصوص القرآن نفسه « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » ، « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » ، « فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » ، « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » إلى غير ذلك من آيات تبلغ الستين أو تزيد ، كلها تقرر حرية الإنسان وكسبه ، ومسئوليته عن عمله « ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

ولم يكتف القرآن بهذا التقرير الإيجابى ، ولكنه زاد على ذلك لحمل بقوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر محتجين . بمشيئة الله تعالى فى فعل ما فعلوا ، أو ترك ما تركوا

وفى أربع سور من القرآن يرد الله تعالى على هذا الزعم للباطل فى سورة الأنعام : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون قل : « فلله الحجة البالغة » .

وفى سورة النحل « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » .

وفى سورة يس « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين » .

وفى سورة الزخرف « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » .

وبهذه الردود الصريحة على الجبر من القدماء قل هل عندكم من علم . . ؟ كذلك فعل الذين من قبلهم . . إن أنتم إلا فى ضلال مبين — ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، عرف

موقف القرآن الحاسم من مشكلة الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية .

بيد أن الإنسان - كما هو الواقع - ليس مطلق الإرادة ، كامل الاختيار ، بحيث يفعل كل ما يشاء وينفذ كل ما يريد ، ولو فعل لكان إلها .

ولم يستطع أحد - مهما بلغ فى الانتصار للحرية الإنسانية - أن ينكر محدودية الإرادة البشرية . فحكموا فيها الوراثة أو البيئة أو كليهما ، وعبر عن ذلك بعض الفلاسفة بقوله : « الإنسان حر فى ميدان من القيود » .

حتى أولئك الماديون الجدليون قيدوا الإنسان بوسائل الإنتاج وظواهر الاقتصاد فهى التى تكيف تفكيره وسلوكه . وتوجه سير أحداثه . وبذلك نزلوا بالإنسان إلى أحط مستوى من الجبرية حين جعلوه عبدا خاضعا لمظاهر المادة ، لا سيداً مهيمنا عليها كما يقرر الإسلام .

هذه الحقيقة المتفق عليها - محدودية الإرادة البشرية - قررها الإسلام فى صورة أشرف وأكرم للإنسان من الجبرية المادية أو التاريخية فالإنسان فى عقيدة الإسلام حر مختار فى دائرة ما رسم الله للوجود من سنن يجريها بقدرته ومشيئته ووفق علمه وحكمته - على أجزاء الكون كله ، ومنها هذا الإنسان .

الإنسان إذا حر ، لأن الله أراد له الحرية أو هو يشاء ، لأن الله قدر له أن يشاء : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

ولا عجب أن يذكر القرآن - بجانب حرية الإرادة الإنسانية عمل الإرادة الإلهية ، وهيمنة القدر الأعلى ، الذى يرعى الإنسان والكون جميعا « إنا كل شىء خلقناه بقدر » «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا» ، « فعال لما يريد » ، « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » .

وإيمان المسلم بقدر الله ليس إيمانا بعقيدة جبرية ولا بمذهب أهل الصدفة والاتفاق ، وإنما هو إيمان بأن الكون لا يمشى بغير غاية ولا يسير بغير تدبير ، كيف وكل ذرة من ذراته فى الأرض أو فى السماء يحيط بها علمه وتجرى عليها مشيئته وقدرته وفق حكمته البالغة ، ورحمته الواسعة ... « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

هذا والإيمان بالقدر على هذا النحو لا ينافى الاجتهاد فى العمل ، واتخاذ كل ما يمكن من أسباب ، فإن الله كما كتب المسببات كتب الأسباب ، وكما قدر النتائج قدر المقدمات ، فهو لا يقدر للطالب مثلا النجاح فحسب بحيث يصل إلى هذه النتيجة عمل أو لم يعمل ولكنه تعالى قدر له النجاح ، بوسائله من

جد وحرص وانتباه ووعى وصبر ومداومة إلى آخر هذه الأسباب فهذا مقدر مكتوب وذاك مقدر مكتوب .

وإذا فالأخذ بالأسباب لا ينافى القدر بل هو من القدر أيضا ولهذا حين سئل صلى الله عليه وسلم عن الأدوية والأسباب التى يتقى بها المكروه : « هل ترد من قدر الله شيئا ؟ كان جوابه الفاصل : هى من قدر الله » .

ولما انتشر الوباء فى بلاد الشام قرر عمر بمشورة الصحابة . العدول عن دخولها والرجوع بمن معه من المسلمين ، فقيل له : أتفر من قدر الله يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن نزلت بقعتين من الأرض إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت المجدبة رعيتها بقدر الله .

والرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهو أقوى الناس إيمانا بقدر الله ـ كان أكثر الناس اتخاذا للأسباب وعملا بمقتضاها ، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش ، وبعث الطلائع والعيون ، ولبس المغفر على رأسه ، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة ... إلى آخر ما نعرف من سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه المهتدين .

ومع وضوح هذه القضية فى الإسلام على نحو ما رأينا قولا وعملا ، ونظرا وتطبيقا فإن النبى صلى الله عليه وسلم من الناحية العملية كمرب وقائد وإمام أمر أصحابه ـ سدا للذريعة ، ودرءا للفتن ـ أن يغلقوا أبواب الجدل العقيم حول المسائل الشائكة التى حارت فيها العقول من قديم ، وهدى الوحى الإلهى الناس فيها إلى القدر الذى فيه نفعهم فى الدين والدنيا ... ومنها « مسألة القدر » .

قال الشيخ محمد عبده : « ولكن وا أسفاه نتأت رءوس بين المسلمين كأنها رءوس الشياطين ... جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ، ولبسوا لباس الإسلام ، وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد ، وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن التكلم فى القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزوروا الكلام حتى كان ما كان من تفرق المسلمين شيعا ، والله يقول لنبيه : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » » .

وجد بين المسلمين طائفة تعرف (بالجبرية) ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يعذلها الحق ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ، وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجبر والعمل وصدق الإيمان ... إلخ .

يثير بعض الماديين المتحذلقين غبارا

حول ما ذكره القرآن ، بل الكتب السماوية جميعاً عن انتهاء هذه الحياة ، وقيام الساعة ، ويوم الجزاء ، والجنة والنار .

وكان مما أثاره هؤلاء : أن القرآن يقول : « لعل الساعة تكون قريباً » ، وقد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ولم تقم الساعة بعد ونسى هؤلاء أو تناسوا أن القرب والبعد مسألة نسبية ، وألف عام أو أكثر ليس إلا زمناً يسيراً وعهداً قريباً بالنسبة لعمر الدنيا وخاصة إذا عرفنا ما يقوله علماء الجيولجيا الذين يقدرون عمر الأرض بالملايين من السنين والقرون ، ونضيف إلى هذا أن محمداً خاتم الأنبياء ، وأن رسالته هى الكلمة الأخيرة من الله للناس . وبذلك يكون معنى القرب واضحا . فلا نبى بعده ، ولا رسالة بعده حتى تقوم الساعة .

أما الحياة الآخرة فهى نشأة أخرى يستوفى فيها كل عامل جزاء عمله بالعدل التام والقسط الأوفى ، فكثيراً ما تقصر الحياة الأولى عن تكافئ الأخيار بما قدموا ، أو تجزى الأشرار بما أسرفوا ، والإيمان بوجود إله عادل حكيم يستوجب وجود هذه الدار الأخرى « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » ، « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار . » .

والإيمان بدار الجزاء والخلود ليس معناه اضطراح الدنيا ، واستدبار الحياة والعيش فيها عيشة التواكل والتمنى الفارغ ... كلا فإن استحقاق السعادة فى الآخرة لا ينال إلا بالعمل الدائب والجد المتواصل « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

وحسبنا فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ما فهموا الحياة ولا عاشوها إلا سعيا وكفاحا ، وضربا فى الأرض ، وسعياً فى كل ميدان من ميادين الحياة ، لم يقعدوا ولم يكسلوا انتظاراً للجنة وما فيها من نعيم ، وللآخرة وما فيها من راحة ، كيف وقرآنهم يقول : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

والنظام الإسلامى لا يقتصر على ناحية من نواحى النفس أو المجتمع أو الحياة ، أو يهتم بها على حساب غيرها .. كلا إنه يشمل كل النواحى وينظم كل العلاقات الروحية والمادية . الفردية والاجتماعية ، ويقيمها جميعاً على أساس من التوازن والعدل فيما بينها بالقسطاس المستقيم ، فلا يطغى المادة على الروح ، كما هو سمة اليهودية ، ولا يهضم جانب المادة من أجل الروح كما هو دعوى النصرانية ، ولا يطغى الفرد على حساب المجتمع كما هو نظام الرأسمالية ، ولا المجتمع على حساب الفرد كما هو الشأن والواقع فى الشيوعية .

ذلك أن هذا النظام لم يأت نتيجة ثورة جامحة كانت رد فعل لأوضاع فقاومت التطرف فى اليمين بالتطرف فى اليسار كما هو الشأن فى الثورات التى جمحت دائما وجاءت بأنظمة شكا الناس منها وعدلوها بعد زمن قليل .

ولم يضع هذا النظام فرد أو مجموعة أفراد من البشر تحكم عليهم مواريثهم وبيئتهم وظروفهم وثقافتهم - فضلا عن أهوائهم وشهواتهم - فيتجهون بالنظام الذى يضعونه وجهة ذاتية توافق تكوينهم الشخصى ، وظرفهم الزمنى ، ووضعهم الإقليمى ونزوعهم القومى . . ولذلك لا يلبث الناس بعد حين أن يتبينوا نقصا أو انحرافا فيما وضعوا أو وضع لهم من نظام .. فيقومون أو يطالبون بالتغيير والتعديل والتبديل . . . أما نظام الإسلام فواضعه هو الله رب الناس ملك الناس إله الناس ، لا يتحيز لجنس على جنس ولا لطبقة على طبقة ، ولا لجيل على جيل لأنهم جميعاً عباده وهو رب العالمين ، كما أنه تعالى لسعة علمه لا تخفى عليه مصلحة ، ولسعة رحمته لا يريد لعباده عسراً ولا عنتاً « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

وأول ما شرعه نظام الإسلام هو تنظيم العلاقة بين الله وبين عباده . فإن العباد لم يخلقوا أنفسهم ، ولا أنشئوا فى الأرض أو فى السماء شيئا مما حولهم من نعم غامرة ، ورحمة سابغة ، فحق الخلق لهم والإنعام عليهم ، والتكريم لهم على من سواهم من الخلق .. يقتضيهم أن يقوموا بشكر ربهم ويعرفوا له حقه ، فيعبدوه وحده لا شريك له ، ويخلصوا له الدين هذا ما تنادى به الفطرة السليمة وهو عين ما جاء به الإسلام « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

وقد نقى الإسلام العبادة مما ألصقها به أهل الملل والنحل المختلفة ، من طقوس شركية ووساطات زعموها بين الله وعباده وابتداعات وثنية لم يأذن بها الله ، فالصلاة اتجاه إلى الله وحده لا يتوقف على إذن كاهن ، ومكان خاص « فالأرض كلها مسجد ، وأيما رجل مسلم أدركته الصلاة أذن وكبر وصلى » .

والإمام فى صلاة الجماعة — التى فضلها الإسلام على صلاة الفرد بدرجات كبيرة ليس رجل كهنوت وإنما هو واحد منهم ، يقدمونه لعلمه أو صلاحه ، يستمعون له إذا قرأ ويصححون له إذا أخطأ .. ومرد القبول فى صلاة الجميع إلى الله وحده الذى يعلم الصادق من غيره « إنما يتقبل الله من المتقين » .

وهذه الصلاة الإسلامية بكيفيتها ، ومواقيتها وشروطها ، وما يتلى فيها من أقوال ، وما يؤدى فيها من أعمال لم تعرف لدين ، ولا لمذهب من قبل ، إنها الصلة اليومية للمسلم بربه ، وهى طهارة للجسد ، وزكاة للنفس وتربية للخلق ، وتنمية للوازع الأدبى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » كما أنها بما شرع فيها من جمعة وجماعة رباط اجتماعى وثيق ومدرسة يتعلم فيها المسلم بطريقة عملية — النظام والإخاء والمساواة وهى بما اشترط لها من استقبال قبلة واحدة تعلم المسلمين فى أنحاء الأرض وحدة الغاية والفكرة والاتجاه ، والحج رحلة يتجه فيها المسلم بدينه وقلبه إلى بيت جعله الله رمز التوحيد والوحدة : ذلك البيت الذى بناه إبراهيم الخليل محطم الأصنام وهادم الشرك والوثنية وأبو الأنبياء المرسلين . والذى أمره الله بالتأذين بالحج فى الناس «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات» .

لكن هذه العبادة التى وضع أساسها إبراهيم خالصة لله .. لم يلبث كر الأيام ومر السنين أن بعد بالناس عن شرع الله فيها ، وجرهم الجهل والهوى والخرافة ، فاتخذوا من دون الله أوثانا وضعوها فى بيت التوحيد وبدلوا فى شعائر الحج ومناسكه فطافوا بالبيت عرايا وقدموا القرابين للأصنام وخلطوا ما بقى من التوحيد بما ابتدعوا من شرك فكانوا يقولون فى تلبيتهم « لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك » يعنون بهذا الشريك أصناما لهم .

جاء الإسلام والقوم على هذه الحال فمحا معالم الشرك وحطم النبى بيده الأصنام التى نصبوها حول الكعبة — يوم الفتح — وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن

الباطل كان زهوقا، وخلصت الكعبة للتوحيد، ورد النبي الحج إلى ما كان عليه فى عهد أبيه إبراهيم وخلصه من آثار الوثنية الجاهلية وأصبح شعار الحج « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » وما ربط الله شعائر الحج بأماكن معينة فى البلد الحرام مكة إلا لأنها أرض الذكريات وميراث إبراهيم ، ونبت الدعوة ، فهى وصلة بين قديم المؤمنين وجديدهم وكل ما يقوم به المؤمنون من أعمال فى الحج إنما هى رموز لها دلالتها وإيحاءاتها فى أنفسهم مجردة من أى قصد ذاتى لها إلا قصد التعبد لله باتباع ما أمر وأداء ما أوجب ، وقديماً وقف عمر أمام الحجر الأسود وقال : « أيها الحجر إنى أقبلك وأنا أعلم أنك لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

أفيقال بعد هذا إن المسلمين إنما يحجون إلى حجر أسود أو أحمر يسجدون له ويتبركون به .

إنما كان الحج قوى فى عين أعداء الإسلام لأنه المؤتمر الإلهى الجامع ، الذى يتنادى إليه المسلمون من كل فج وصوب فيربط بين قلوبهم برباط الأخوة الإسلامية العامة ، ويذكرهم بوحدة الهدف ، ووحدة الآمال والآلام، ويوحى إليهم أن يعملوا ويتعاونوا ليعودوا من جديد خير أمة أخرجت للناس، وهذا ما تغص به حلوق أعداء الإسلام !!

وحسبنا هذه الكلمة الموجزة فى هاتين العبادتين ، وهى كافية فى التعبير عن روح الإسلام فى تنظيم العلاقة بين الله والناس .

ولننظر الآن كيف نظم الإسلام العلاقات بين الناس هل أيد الإسلام الإقطاعيين ؟ هل أقر الظلم الاجتماعى ؟ هل أعان طبقة على طبقة أو قويا على ضعيف ؟ هل ترك المجتمع تتحكم فيه الفوارق المصطنعة من عنصرية ، أو وراثة حسب أو جاه ؟ .

ذلك ما نجيب عنه فى الصفحات التالية :

إن أدنى دراسة لتعليم الإسلام تبين أنه ليس دين طبقة خاصة أو فئة معينة إنما هو دين قامت أسسه الاجتماعية على : الأخوة والعدالة ، والمساواة وضح ذلك فى شعائره وعباداته كما وضح ذلك فى أنظمته الاقتصادية والسياسية .

اعترف الإسلام بالتفاوت الفطرى المعقول فى الأرزاق بين الناس ، إذ قبل ذلك ثبت تفاوتهم الفطرى فى القدر والمواهب والملكات والطاقات .

والإسلام - كدين يعترف بالفطرة ويسمو بها ولا يقاومها - اعترف بالملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع ليشبع بذلك الدوافع البشرية الفطرية فى حب التملك والمنافسة والادخار. ولكن الإسلام لا يحترم الملكية الفردية إذا نشأت عن سبب غير مشروع، كالغصب، والسرقة الجلية، أو الخفية، كالهدايا للحكام، واستغلال النفوذ، وأخذ الرشوة والتحايل على أكل أموال الناس بالباطل بل يصادر هذه الملكيات مهما طال عليها الزمن واختلف الليل والنهار، فطول الزمن لا يبيح المحظور، ولا يقلب الحرام حلالا.

والإنسان فى الإسلام ليس مالكا حقيقيا، يتصرف فى ماله كيف يشاء، لا، فالمال مال الله ... ، ومعنى هذه العبارة أنه مال الجماعة، والغنى موظف على رعايته وتنميته، وإنفاقه بما يوافق صالح الجماعة لا بما يضارها، فهو مستخلف على المال «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» «وآتوهم من مال الله الذى آتاكم».

فالملكية إذا: وظيفة اجتماعية، والغنى إذا مطالب إزاء مجتمعه بواجبات مالية أدناها الزكاة... وهى: ليست تبرعا ولا إحسانا يعطيه الغنى للفقير فيشعر بالاستعلاء، ويشعر الفقير بالمذلة والهوان، بل هى حق معلوم وضريبة مفروضة تأخذها الحكومة بواسطة «الجباة» العاملين عليها، وتنفقها على المحتاجين أو على المصالح العامة «وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله».

والزكاة ليست تعليما فرعيا أو ثانويا من تعاليم الإسلام بل هى ركن من أركانه وأصل من أصوله لا يكون الفرد مسلما إلا بأدائها، ولا تكون الدولة مسلمة إلا بالعمل على تحصيلها وجبايتها وقد حدثنا التاريخ أن أرباب المال من العرب عز عليهم دفع هذه الزكاة، فأبى أبو بكر أن يقبل أى تهاون فى حق الفقير وجهز أحد عشر لواء لمحاربة الرأسماليين الأشرار وقال كلمته المشهورة: «والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه».

وقد أشاع بعض المغرضين كلاما مرذولا حول بيت المال الذى تجمع فيه الزكاة والموارد الأخرى للدولة الإسلامية، زاعمين أن هذا المال إنما يجمع للخلفاء والسلاطين وأن بيت المال إن هو إلا خزينة خاصة ينفقون منها كيف شاءوا دون معقب أو محاسب.

والحق الذى يعرفه كل من درس شريعة الإسلام وتاريخه، أن بيت المال ليس ملكا للخليفة، وإنما هو ملك للأمة جميعا،

والخليفة إنما هو خازن أمين ، ليس له منه إلا راتبه بالمعروف كما قال أبو بكر (أعطونى كأوسط رجل من قريش ليس كأوكسهم ولا أعلاهم) ذلك أن أبا بكر صبيحة بويع بالخلافة ذهب إلى السوق كعادته ليتاجر ، ويقوت نفسه وأهله ، فلقيه عمر فقال له : إلى أين ؟ قال إلى السوق ، قال عمر : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : من أين أطعم عيالى ، فقال عمر : انطلق يفرض لك أبو عبيدة أمين بيت المال . ، فانطلق إلى أبى عبيدة ، فقال للخليفة : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلقت شيئا رددته وأخذت غيره .

وقال عمر : إنما أنا وهذا المال . كولى اليتيم ، إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

وأبى على بن أبى طالب أن يأخذ من بيت المال شيئا لنفسه وأهله هذا هو مسلك الراشدين من حكام المسلمين وخلفائهم ، أما انحرافات بعض الحكام فليست حجة على الإسلام ولا يسأل عنها .

واعتراف الإسلام بالتفاوت الطبيعى فى الرزق ، ليس معناه أن يدع الغنى يزداد غنى ، والفقير يزداد فقرا ، بل تدخل بتشريعه القانونى ، وتوجيهه الأخلاقى لتقريب الشقة بين الأغنياء والفقراء ، فحد من طغيان أولئك ، ورفع من مستوى هؤلاء ... حرم على الأغنياء الكسب بالباطل .

وحظر عليهم الربا قليله وكثيره ، جليه وخفيه ، واعتبر آكل الربا محاربا بالله ولرسوله ولعن كل من شارك فى أمر الربا لأنه امتصاص الضعفاء لحساب الأقوياء « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » (لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه) .

وحرم عليهم الاحتكار الذى هو سمة الرأسمالية الجشعة وأعلن رسول الإسلام (الجالب مرزوق والمحتكر ملعون) .

وحرم عليهم السرف والتبذير ، وجعل للحاكم سلطة الحجر على المبذرين السفهاء .

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » .

« إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

وحرم عليهم ألوان الترف الذى يفسد الأفراد والأمم ، فالخمر ممنوعة ، وأوانى الذهب والفضة محظورة ، ولبس الذهب والحرير للرجال محرم ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، (من شرب فى آنية ذهب أو فضة فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم) .

ثم حرم الكنز وأنذر القرآن الكانزين بوعيد تنخلع له القلوب « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ولم يحارب الكنز بالقول بل بالعمل ، فالزكاة محاربة عملية لكل مال يكنز إذ ينقص منه كل عام ٢٫٥٪ اثنان ونصف فى المائة ، فإن لم يعمل ويستثمر استهلكته الزكاة .

وبهذه الأساليب من تحريم للربا والاحتكار والسرف والترف من جانب ، ومحاربة للكنز وإيجاب للزكاة من جانب آخر أصبح مفروضا على صاحب المال أن يوجه ماله إلى الاستثمار المشروع والنماء لمنفعة الجماعة ، فيتحقق التوازن العادل الذى يريده الإسلام ويشير إليه قوله تعالى : « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

ومن ناحية أخرى أتاح الإسلام الفرص المتكافئة للفقراء ليقفوا على قدم المساواة مع الأغنياء ، فباب العمل والكسب مفتوح للجميع ، ليس محتكرا لطائفة ولا مسدودا أمام أحد فمن أحيا أرضا ميتة فهى له ، ومن طرق باب تجارة فربحها له ، ومن عثر فى باطن الأرض على ركاز يدفع الخمس منه والباقى له .

ومن لم يجد عملا وجب على ولى الأمر أن يهيئ له عملا ، فإن لم يهيئ له أو كان عاجزا عن العمل أو كان أجره من عمله لا يكفيه كان واجبا على ولى الأمر أن يرعاه ويهيئ له ما هو حق لكل مسلم أو ذمى فى ظل دولة الإسلام من مأكل ومشرب وملبس فى الصيف وملبس للشتاء ، ومسكن يكنه ويأويه كما قرر فقهاء الإسلام .

وللحاكم إذا لم تكف الزكاة ، والموارد العادية لسد هـذه الحاجات أن يفرض على أغنياء المسلمين الضرائب الكافية التى تقيم مصالح المسلمين ... وقد قرر علماء المسلمين هـذا المبدأ : « إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد ، وقد اتخذ الإسلام طرقا مثمرة فى تفتيت الثروات أبرزها تشريع الميراث الذى يوزع ثروة الرجل الواحد بين زوجته وأبويه وأولاده جميعا ، أو عصبته أو ذوى أرحامه توزيعا عادلا حكيما شمل الذكور والإناث ، لا الذكور فقط كما كان يفعل العرب فى الجاهلية ، ولا الابن الأكبر فحسب كما تصنع بعض الدول اليوم كانجلترا مثلا .

ونظام الإسلام يتسع للأغنياء كأفراد يجمعون الثروات من حلها وينفقونها فى حلها ولا يبخلون بها عند الحاجة إليها ، يتسع لهم كأفراد لا كطبقة لها مزايا شرعية ، أو حقوق قانونية ، أو سيادة اجتماعية يتوارثها الآباء عن الأبناء ، والأحفاد عن الأجداد فجميع الناس أمام القانون وأمام الله وكتابه سواء ، لا يتفاضلون إلا بمقدار وفائهم لإنسانيتهم وإيمانهم بالله واحترامهم لحقوقهم العامة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، (الناس سواسية كأسنان المشط) .

وإذا فالأغنياء إنما هم أفراد يثرون بجهدهم ونشاطهم ، وقد لا يدوم لهم الثراء ، بل قد ينقص أو ينتقل ميراثه إلى غيرهم ، فالفقر أو الغنى فى المجتمع الإسلامى ليس شيئا ثابتا مؤبدا ، بل هو أمر دائم التغير بتغير ظروف الحياة وفرص الكسب ، وقوانين الميراث .

ليس فى الإسلام إذا طبقات بهذا المعنى الذى كان معروفا فى الغرب — بمعنى طبقة لها مزايا وحقوق متوارثة كطبقة الحكام وطبقة الأشراف ، أو النبلاء وطبقة الفرسان وطبقة رجال الدين ... الخ .

الحكام أفراد تختارهم الأمة بواسطة أهل الحل والعقد فيها أو بأى وسيلة تختارها ، وليسوا من فئة أو أسرة معينة بل قال الرسول : « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى يقودكم بكتاب الله » وقال عمر قبيل موته « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته » .

ونظام توارث الحكم والخلافة نظام دخيل على الإسلام فلا يقره ولا يعترف به.

والفقهاء فى الإسلام ليسوا طبقة كهنوتية كرجال الأديان الآخرين إنما هم علماء متخصصون فى دراسة الإسلام عقيدته وتشريعه وأخلاقه ، فهم فى الحقيقة علماء دين ، وعلماء قانون وعلماء أخلاق واجتماع وليسوا واسطة بين الله وعباده ، ولا هم يملكون مفاتيح الجنة ولا هم باعة لصكوك المغفرة والرضوان.

لا طبقات إذا فى الإسلام بالمفهوم الغربى لهذه الكلمة وإذا سمى بعض الناس الأفراد الأغنياء فى دولة الإسلام طبقة فلا ضير فى التسميه إذا وضحت المسميات فقد قسم بعض الباحثين الناس إلى ثلاث طبقات : غنية وفقيرة ، وميسورة ، وهو تقسيم على وجه التقريب والتشبيه كتقسيم الناس إلى أبيض وأسود وأصفر من حيث اللون . ووجود

الطبقة بهذا المعنى أمر اقتضاه نظام الوجود كله الذى قضى بالاختلاف والتفاوت حتى بين النباتات والجمادات ، فما بالنا بالإنسان وبين أفراده من التفاوت ما لا يوجد فى أى نوع من الأنواع الأخرى للكائنات ؟ ولقد زال رأس المال من روسيا وزال معه أغنياؤها وثرواتها ونبلاؤها ، وعلى هذا ظهرت فيها — كما قال الأستاذ العقاد طبقة حاكمة من الخبراء والمهندسين لا تدانيها فى سطوتها واستبدادها طبقة حاكمة فى أشهر البلاد ، لاستبداد نظم الصناعة ورأس المال (١) .

ولقد كان الإسلام دين الفطرة والواقع حقا حين اعترف بالتفضيل الموجود فعلا فى كل بلاد الدنيا — رأسمالية أو شيوعية — قال تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » .

وإذا كان هذا صنع الله فالله لا يصنع شيئا عبثا ، إنما يصنعه لحكمة بالغة والحكمة هنا كما ذكر القرآن أمران : أولهما : الابتلاء الذى على أساسه يقوم التكليف والجزاء « ليبلوكم فيما أتاكم » ثانيهما التسخير — « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » ، وهذا ليس تسخير القهر والإذلال كما يوهمه المدلول العرفى للكلمة إنما هو تسخير النظام والمصلحة المشتركة .

فلو كانت الحياة مصنعا لم يكن صلاحه أن يكون كل العاملين فيه مديرين أو مهندسين بل لابد من المدير والمهندس والكاتب والعامل والخفير .

وإذا كان التفاضل فى الرزق لا يمنح صاحبه ميزة أو مرتبة دينية أو تشريعية فى المجتمع المسلم ، فإن التفاضل الحقيقى المعترف به ، هو التفاضل فى مجال العلم والإيمان ، والعمل :

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »

« ولكل درجات مما عملوا وماربك بغافل عما يعملون » .

وهكذا أقام الإسلام العلاقة بين الغنى والفقير على أساس العدل والمساواة والإخاء ، فهو يسوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات العامة .

ويتيح الفرصة للجميع ليكتسبوا .

ويقول للأغنياء بعد هذا : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

ويقول لولى الأمر : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »

ويقول للفقير : (لا تحقد ولا تحسد) .

---

(١) حقائق الإسلام ٢٠١

« لا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم»

ثم يقول للجميع: (كونوا عباد الله إخوانا).

وكذلك فإن الإخاء يسود المجتمع الإسلامى كله، فلم يحقد فقير على غنى، ولم يبغ غنى على فقير، وشعر الغنى أن الفقير أخوه، وشعر الفقير أن مال الغنى ماله ...

فلا عجب أن رأينا بلال بن رباح، وعمار ابن ياسر، وأبا هريرة وأهل الصفة يعملون جنبا إلى جنب مع عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن عبادة، لا يشعرون إلا بالحب والتعاون والإخاء.

ومن السهل بعد هذا أن نعرف إذا كان الإسلام يشجع الطبقية أو يعترف بالإقطاع والإقطاعيين !!.

جاء الإسلام فوجد العالم كله يعترف بنظام الرقيق: رق الأسرى فى الحروب، ورق السبى فى إغارات القبائل بعضها على بعض، ورق الاستدانة أو الوفاء بالديون.

فماذا كان موقفه؟ لم يرد نص واحد بالاسترقاق على حين وردت عشرات النصوص تدعو إلى العتق، وتفتح أبواب التحرير للرقاب[1] ولم تدعه للأفراد وحدهم يكفرون به من خطاياهم أو يتقربون به إلى ربهم، بل جعله واجبا على الدولة تساهم به من مال الزكاة « وفى الرقاب ».

ولم يقتصر على فتح أبواب العتق بل قبل ذلك سد كل ما يمكن سده من منافذ الاسترقاق ولم يبق منه إلا ما أبقاه العالم المتحضر الآن. فإن الأمم التى اتفقت على معاهدات منع الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة أو التعويض. أما فى عصر الدعوة الإسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين. وإذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب فى الحروب الحديثة، فالإسلام لم يجعله حتما مقضيا فى جميع الحروب، وحرص على التخفيف من شدته ما تيسر التخفيف منه وجعل المن فى التسريح أفضل الخطتين « فإما منا بعد وإما فداء ». وشريعة تجعل الرق فى أضيق نطاق وتوسع مجالات التحرير وترفع من شأن الرقيق فتجعله عضوا فى الأسرة (إخوانكم خولكم) لا يمكن أن توصف بأنها تشجع الرق أو ملاك الرقيق، إنما هى فى الحقيقة جاءت لتقوم بتصفية هذا النظام فى العالم بتدرج حكيم وخطة مثلى ... فلم يكن من السهل إلغاء نظام تغلغلت جذوره فى الحياة الاجتماعية

---

(١) العتق ـ التدبير ـ الكتابة ـ الكفارات ـ أمهات الأولاد ـ من ملك ذوى رحم محرم.

الأمة فى الإسلام هى الحاكمة وهى صاحبة السلطة . هى التى تختار حاكمها ، وهى التى تشير عليه ، وهى التى تنصح له وتعينه ، وهى التى تعزله إذا انحرف وجار .

والخليفة فى الإسلام ليس نائبا عن الله ولا وكيلا له فى الأرض ، إنما هو وكيل للأمة ونائب عنها .

والخلفاء الراشدون لم يكونوا خلفاء عن الله بل خلفاء لرسول الله فى حكم الأمة بما أنزل الله ، وسياستها بما أمر الله ورسوله .

أخرج الإمام أحمد عن ابن أبى مليكة قيل لأبى بكر : يا خليفة الله ، قال : أنا خليفة رسول الله ، وأنا راض به .

وحين ولى الخلافة خطب خطبته الشهيرة فقال : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وعمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة وبايعه الناس قام يخطب فقال : « إنما أنا كأحدكم غير أن الله جعلنى أثقلكم حملا » .

هذا هو الخليفة ، ليس أفضل الناس وإن كان أكثرهم مسئولية ، هو وكيل للأمة بل هو خادم وأجير لها . عرف ذلك الخلفاء أنفسهم ، وعرف ذلك العلماء ، وعرف ذلك الأدباء والشعراء ، وعرف ذلك عامة الناس .

يروى لنا الإمام البخارى عن عائشة قالت : لما استخلف أبو بكر قال : لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مئونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين ، فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ، وسأحترف للمسلمين .

هذه هى وظيفة الحاكم محترف للمسلمين ، وبعبارة أخرى مستخدم أو أجير للأمة . هى التى وظفته وهى التى منحته راتبه ، وهى التى تعينه إذا استقام ، وتقومه إذا اعوج .

ويدخل العالم الجليل أبو مسلم الخولانى على معاوية أمير المؤمنين ، فيقول له فى صراحة : السلام عليك أيها الأجير ، ويقول جلساؤه : قل السلام عليك أيها الأمير ، فيقول أبو مسلم : السلام عليك أيها الأجير فيعيدون قولهم ، ويعيد قوله ، وهنا يقول معاوية ، دعوا أبا مسلم فهو أدرى بما يقول .

وينظم الشاعر المعروف أبو العلاء المعرى هذا المعنى ساخطاً على انحراف الأمراء والحكام عن وظيفتهم فى العدل والإصلاح للأمة فيقول :

مل المقام فكم أعاشر أمة

أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها

وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ويشيع هذا المعنى فى الناس جميعا متعلمهم وأميهم . حضريهم وبدويهم ، فلا يؤمنون بقداسة لخليفة ، أو بعلو حاكم على الناس حتى إن رجلا بدوياً دخل على أحد الخلفاء فوجده جالسا على مكان مرتفع والناس دونه فى مكان منخفض ، فقال له البدوى : هل أنت الله ؟ فقال الخليفة : لست الله ، فقال الرجل : هل أنت جبريل ؟ قال : لا . فقال لست الله ولا جبريل فلماذا تجلس مرتفعا ؟ انزل واجلس مع الناس .

وكان من ثمرات هذا الفهم أن شعر كل مسلم بمسؤليته وشخصيته فى رعاية الحق والعدل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تخطىء امرأة خليفة على المنبر فلا يجد غضاضة أن يعلن على الناس : أصابت المرأة وأخطأت .

بعد ثلاثة عشر عاما من احتمال صنوف العذاب والأذى وهجرة المسلمين إلى الحبشة مرتين ، وبعد أن أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ، وتركوا إخوانهم المستضعفين فى مكة يسامون سوء العذاب ، وبعد أن همت نفوسهم بالانتقام من الظالمين وردهم الرسول إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلا « لم أومر بقتال . لم أومر بقتال » ولما طال الصبر ولم يتحول المشركون عن اضطهادهم للمستضعفين ، ومصادرتهم الدعوة ، أنزل الله فى شأن القتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

وابتدأ الصراع بين جبروت الشرك ودعوة الإسلام الذى استمر عدة أعوام وقعت فيها الغزوات المعروفة فى السيرة النبوية ، وكانت كلها ردا على عدوان المشركين وغدر اليهود .

وفى الوقت الذى كان فيه الصراع دائراً داخل الجزيرة بين قوى الإيمان والشرك كانت هناك دولتان استعماريتان كبيرتان تتنازعان العالم إذ ذاك وتفرضان سيطرتهما على أجزاء من بلاد العرب ... هما دولتا : فارس الوثنية التى تسيطر على العراق ، والروم المسيحية التى تسيطر على الشام .

ولم يكن المسلمون فى هذا الوقت بحيث يفكرون فى فتح امبراطوريات ضخمة مثل فارس والروم أو العدوان عليها ، وإنما بدأ هؤلاء بالشر والعدوان :

بدأت فارس حين أرسل كسرى - رداً على دعوة الرسول له - إلى واليه باليمن « بأذان » يقول له : بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه ، أيكتب إلى هذا الكتاب وهو عبدى ؟!! .

ولم يكن هذا الغرور والاستهتار عند الفرس وحدهم ، فإن الروم أيضاً بدءوا بالتحرش والعدوان ، فقتلوا مبعوث رسول الله إلى والى الروم ببصرى ، ولم يتركوا الحرية لمن شاء أن يسلم بل قتلوا وعذبوا ... ثم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك بالأردن تنذر وتهدد ، وعلم النبى أنهم ينوون مهاجمته فى عقر داره فكان من حسن السياسة أن يبادرهم قبل أن يبادروه ويهاجمهم قبل أن يهاجموه ، وبدأ قتال مربر بسرية « مؤتة » ، « وغزوة تبوك » واستمر فى عهد الخلافة الإسلامية .

لم يكن المسلمون يبغون من ورائه إكراه أحد على دين ، أو إعلاء جنس على جنس أو طلب منفعة ، أو استرزاق ، كيف وقد سئل نبيهم : « يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه ، والرجل يقاتل حمية - أى عصبية - فأيهم فى سبيل الله ؟ فأجاب بالجواب الجامع : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ولم يكن هذا الفتح فتح استعمار وسلب ونهب ، وإنما كان إزالة للسلطات الطاغية ، وتأمينا للحريات ، ونشرا لمبادئ العدل والمساواة ...

« أين هذا الفتح من فتوح أبادت أجناسا ، وقتلت شعوبا ، وخربت دياراً ؟ وقد صدق جوستاف لوبون حين قال : « ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » .

كانت المرأة فى الجاهلية متاعا أو كالمتاع لا تعرف لنفسها قيمة ، ولا يعترف لها برأى أو إرادة حتى شك بعض الناس ألها روح أم لا ؟ . وكانت نزعة الزراية بها والهضم لشخصيتها تسود العالم كله .. حتى جاء الإسلام فأعلن كتابه « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » ، « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » ، « إن المسلمين والمسلمات » ، وبذلك حطم الأغلال عن عنقها ، وأظهر شخصيتها وأعلن مساواتها للرجل فى الحقوق والواجبات إلا ما تقتضيه طبيعة كل منهما .

وحسبنا فى هذا أن الله يقول : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وأن النبى يقول : (إنما النساء شقائق الرجال) .

وخلق حواء من ضلع آدم — الذى يقال

إنه يوحي بطغيان الرجل على المرأة — لم تدل عليه آية صريحة فى القرآن ، وماذكره فى ذلك بعض المفسرين رده عليهم آخرون ، والذين ذكروه إنما استمدوه مما ذكر فى (سفر التكوين) من العهد القديم ، وقوله تعالى :

« خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » معناه خلق من جنسها زوجها ، كما علل ذلك فى آية أخرى : « ليسكن إليها » وذلك كقوله مخاطبا للجميع : « خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » أى من جنسكم .

كل ما للرجل من ميزة هو الدرجة التى ذكرها الله « وللرجال عليهن درجة » وهى درجة القوامة والمسئولية عن البيت « الرجال قوامون على النساء » ليست درجة القهر والعنف ، ولا درجة الاستبداد ، إنما هى الرياسة التى تقتضيها الفطرة ، ويوجبها الواقع وطبائع الأمور . وهذه الرياسة لا تنال من حريتها الدينية ، ولا حريتها الفكرية ، ولا حريتها المدنية ، ولا تصرفها فى أحوالها الشخصية ، ولا تهضمها حقا مقرراً لها .

إن إعطاء القيادة للرجل أمر طبيعى ، فالحياة لا تنتظم من الوحدة الصغيرة إلى الوحـــدة الكبيرة — إلا بقائد أو مسئول ، والرجل أولى وأحق بهذه القيادة ؛ لأنه القائم بجلب القوت والمنفعة ، وبالمسئولية عن رعاية البيت وحمايته ، وهو أشد قوة وأعظم قدرة من المرأة ... بل كما ذكر فى عالم الحيوان نراه أقوى من الأنثى ... نرى ذلك فى الديك والدجاجة والكبش والنعجة ... الخ ، سنة من سنن الله .

وما يذكره بعض الجاهلين بالإسلام (شاوروهن وخالفوهن) فليس له أساس صحيح فى دين الله بل فيه ما يناقضه وينقضه ، تقرأ ذلك فى القرآن وفى السنة ، فالقرآن يجعل للمرأة حق المشاركة وإبداء الرأى فى رضاع ولدها وفطامه وتربيته « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » والسنة تجعل للأم رأيا فى زواج بناتها (آمروا النساء فى بناتهن) وتجعل الرأى الأخير للبنت نفسها (البكر تستأذن وإذنها صمتها والثيب أحق بنفسها) .

إذا كانت بعض الأديان تقول : أطفئوا نور العقل . . اطمسوا عين البصيرة ... أو تقول : اعتقد وأنت أعمى ... أو آمن ثم اعلم ... فإن الإسلام يقيم عقيدته من أول الأمر على أساس من النظر والتفكير لا التبعية والتقليد :

« قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم » .

« أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » .

والقرآن هو الكتاب الذى يهيب بتاليه وسامعه دائما : « أفلا تتفكرون ... لو كانوا يعلمون ... أفلا تبصرون ... إن كنتم تعلمون .. إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .. لقوم يتفكرون . . لقوم يعلمون . . آية للعالمين » .

والعلم فى الإسلام يقوم على الإيمان ، والإيمان ثمرة له ، ومترتب عليه ، اقرأ قوله تعالى : « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ... الآية » .

والعلم الكونى فى القرآن سبيل إلى خشية الله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ، كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وما ذكر فى الآيتين يشير إلى علوم الفلك والنبات والجيولوجيا والحيوان . . وكلها علوم كونية ، والقرآن يمجد العلم من حيث هو علم ، ولا يسوى بين من يعلم ومن لا يعلم بغض النظر عما يعلمه « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

ويحترم الاختصاص فى كل فرع من فروع المعرفة ، ويرد الناس إليه « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

ولا يرضى للمسلم أن يسير وراء الوهم أو الظن ويحكم بغير بينة أو علم « ولا تقف ما ليس لك به علم » « ان الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

ويحارب التقليد والجمود على موروثات الآباء « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

كتاب يهيب بالعقل البشرى مثل هذه الإهابة ، ويصيح به هذه الصيحة المدوية لا يمكن أن يخشى نتيجة النظر أو التفكير ، وما يستتبع ذلك النظر من حقائق ومعلومات!

والقرآن أنزله الله كتاب هداية وتوجيه وتشريع ، وليس من مهمته التحدث عن نظريات العلوم الكونية أو الطبيعية ، وحسبه أن يدعو الناس للوصول إليها بوسائلهم وجهدهم ، ولم يمنع هذا أن يشير أثناء حديثه عن الكون وما فيه من آيات ـ إلى حقائق علمية كانت مجهولة للبشر ، كشف الزمن عن صدقها . وقد ألف علماء متخصصون مخلصون فى التنبيه إليها كتبا شتى ، ومن حسن الحظ أن هذه الكتب لم يؤلفها أحد من علماء الدين الذين اطلعوا على علوم الكون ، بل ألفها فى الغالب

متخصصون فى هذه العلوم اطلعوا على الدين وعلى القرآن الكريم .

ومع أننا لا نوافق على كل ما فى هذه الكتب ، ولا على منهج بعضها ، فإنا نجد فى مثل هذه الكثرة من الكتب أدلة واضحة على أن القرآن فى نظر المتبحرين فى العلوم الحديثة ليس غير مصادم لها فحسب ، بل هو هاد إليها ودال عليها ، وسابق فى بعض الأحيان لما قررته .

والقرآن لا يعارض حقيقة علمية قاطعة ، ولكنه قد يعارض بعض الآراء والفروض والنظريات التى لم تصل بعد إلى مرتبة الحقائق الثابتة ، ولا ضير على القرآن فى هذا . فكم من آراء ونظريات كانت عند أصحابها فى مرتبة اليقين الذى لا ريب فيه ، فإذا كر الغداة ومر العشى وتطور البحث العلمى يجعلها أوهاما فى أوهام .

وحسبنا ما كان يعتقده بعض من عرفوا بفلاسفة المسلمين : « كأبى نصر الفارابى وأبى على بن سينا ، من إيمانهم بالنظريات الفلكية اليونانية إيمانا جعلهم يؤولون آيات القرآن ؛ فالأرض عندهم مركز الكون ، والافلاك عندهم لا تقبل الخرم ولا الالتئام ، والعناصر أربعة لا زيادة فيها ... الخ ثم يثبت العلم التجريبى أن هذا كله باطل لا يقوم على أساس فذهبت ظنونهم ... وبقى ما هدى إليه القرآن « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

ولكن المعتدلين من المفكرين المسلمين لم يجددوا فى آيات القرآن شيئا يناقض ما ذهبوا إليه أو وصلوا إليه من ظواهر الطبيعة أو حقائق العلم ، ومن هؤلاء البيرونى العالم المؤرخ الفيلسوف المعروف .

وننقل هنا ما قاله المستشرق الألمانى دى بوير فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الإسلام »(١) قال : « لا شك أن البيرونى كان سنيا مستنيراً ، وهو لعلو كعبه فى العلم وسعة فكره ، وتنوع معارفه ، وتفطنه للحدود التى لا يصح أن تتجاوزها أحكام التجربة الإنسانية المعتمدة على المشاهدة ـ يتمسك بحقائق الدين العميقة فلا يعجبه التأويل الهازل للقرآن ، ولا الانكسار المتحذلق ـ من غير أساس كاف ـ لما يروى من غريب الأفكار . وهو يتمسك بالقرآن فيؤلف مثلا كتابا جليلا يسمى « لوازم الحركتين » مقتبسا أكثر كلماته عن القرآن (معجم الأدباء الياقوت ج ٦ ص ٣١١) .

ويقول فى كتابه عن الهند ص ١٣٢ : إن القرآن لم ينطق فى أمر صورة السماء والأرض وفى كل شىء ضرورى بما يحوج إلى تعسف فى التأويل . فهو فى الأشياء الضرورية معها

(١) ص ٣٠٢ ترجمة الدكتور عبدالهادى أبوريدة .

حذو القدة بالقدة ، ولم يشتمل على شيء مما اختلف أيسر من الوصول إليه ...

ويصف البيرونى كيد مظهرى انتحال الإسلام له ، وإدخالهما فى كتبهم فيه تصديق ذوى القلوب السليمة - الساذجة - لهم . وفى بعض الأحيان يذكر الزنادقة من أصحاب مانى ويذكر الحركات والاتجاهات غير الإسلامية ناقدا لها ، راجع كتابه عن الهند ص ٧٦ - ١٣٢! الآثار — ٢١٠ — ٢١٤ ٢٦٤ — ٢٦٥ — ١٩٦)

هذا هو الإسلام الذى قامت على أساسه حضارة علمية واسعة معتدة فى وقت لم تكن أوربا ترى فيه النور إلا من سم الخياط ، وفى تاريخه الطويل لم يضق صدره بعالم أو باحث كما حدث فى أوربا من معارك بين العلم والدين ومجازر تقشعر لها الأبدان .

وما نقل من حوادث فردية وقع فيها صدام بين من اشتغلوا بالفلسفه و بين الفقهاء وعلماء الكلام ، فما كان صداما مع علم سليم الأسس والقواعد بل كان صداما على الجانب الميتافيزيقى الإلهى من الفلسفه الإغريقية بالذات ، وهو جانب يبحث فى أمور قطع الوحى فيها برأى حاسم لا مجال بعده لتخمين العقول ، وافتراض الفروض . وإضاعة الأوقات فى غير نفع ولا فائدة للإنسان والحياة

مصادر الإسلام :

للإسلام مصادر محددة ، تعرف منها رسالته ووجهته ، ولا يمكن أن يحكم له أو عليه بالاستمداد من غيرها ... وتنحصر هذه المصادر فيما يلى :

أولا : القرآن الكريم

وهو مصدر إلهى بلفظه ومعناه ، ليس من عمل محمد ، وإنما هو قول رسول كريم هو جبريل ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم بلسان عربى مبين على قلب محمد فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ من أستاذه نصا من النصوص ولم يكن عمل بعد ذلك إلا : —

١ — الوعى والحفظ : « سنقرئك فلا تنسى » .

٢ — الحكاية والتبليغ : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا »

٣ — البيان والتفسير : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

٤ — التطبيق والتنفيذ : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله» .

وقد نقل إلينا هذا القرآن كاملا متواتراً نقلته أجيال عن أجيال تلاوة بالألسنة وحفظا فى الصدور ، وكتابة فى المصاحف ، وشهادة التاريخ بتواتر هذا الكتاب شهادة ناصعة لا يماثلها ولا يدانيها كشهادته لكتاب غيره ظهر على وجه الأرض . . .

هذا الكتاب هو المصدر الوحيد لعقائد

الإسلام، وهو المصدر الأول لنظمه وتشريعاته وآدابه وتوجيهاته .

وقد تلقاه المسلمون بالشرح والتفسير والتحليل كل فى مجال عمله واختصاصه واستنبطوا منه أحكام دينهم وأصول مجتمعهم ... هذا فى مجال العقيدة وذاك فى مجال الفقه والتشريع وثالث فى مجال الآداب والأخلاق.

وقد وضعوا الأسس السليمة ، والقواعد المتينة لفهم هذا الكتاب والاستنباط منه وفق ما عرفوه من أساليب لغتهم العربية ، وما خطه لهم النبى من توجيهات ، وما فهموه من جملة تعاليم الإسلام وروحه العامة ...

ولم يجد هؤلاء العلماء فى آيات هذا الكتاب إلا التناسق والائتلاف . فهى يصدق بعضها بعضا ، ويفسر بعضها بعضا ، وما يظنه القاصرون - الذين يجهلون أسرار العربية وأساليبها - تعارضا أو اختلافا ، فما هو بالتعارض ولا الاختلاف ... وإنما هى نصوص عامة تقيدها نصوص خاصة أو آية مطلقة تفسرها آية مقيدة ... وهكذا « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » .

نعم إن فى القرآن آيات محكمات وأخر متشابهات ، كما قال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » .

وليس المحكم هو الواضح ، والمتشابه هو غير الواضح أو غير المفهوم ، كما يظن أو يقال ، فالقرآن كله واضح مبين . وإنما المحكم : هو المقطوع بدلالته جزما ، والمتشابه هو : ما اختلفت الأذهان فى دلالته ، ولعل سائلا يسأل : لماذا لم ينزل القرآن كله محكما ويريح الناس من التشابه ؟

ومن عرف حكمة الابتلاء والتكليف للإنسان أولا ، وعرف طبيعة اللغات وتنوع دلالتها ثانيا ، وعرف طبيعة بنى آدم واختلاف عقولهم واتجاههم ثالثا ، وعرف عموم القرآن لكل البيئات والأزمان ، والأجيال المتطورة رابعا ، وعرف طبيعة الإسلام الذى يحث على إعمال العقل والاجتهاد والاستنباط خامسا ... من عرف هذا كله لم يشتبه عليه الأمر ولم يحتج إلى هذا السؤال بل قال ما قاله الراسخون فى العلم : « آمنا به كل من عند ربنا » .

لقد اقتضت حكمة الله أن تكون الآيات المحكمات فى كتابه ، هى الأصول التى لا خلاف عليها ، والأسس التى يرد غيرها إليها ، والمحور الذى يلتف حوله الجميع ، أما الآيات الأخرى فقد جعلها الله من السعة والمرونة بحيث تتسع

لمختلف الأفهام المعقولة فى شتى البيئات والعصور بحيث يعذر بعض الفاهمين بعضا ، ولا يكفر بعضهم بعضا وشعارهم تلك الكلمة الحكيمة « نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه » وبهذا يكون القرآن مصدر تجميع لا مثير تفرقة ، يكون كتابا للإنسانية كلها ، فى كل أحوالها ، وجميع أزمنتها وشتى بلادها ولو كانت كل آياته محكمة قاطعة الدلالة ، لكانت هذه هى النقمة الكبرى التى تغلق على المجتهدين باب الفهم ، وتطفىء تألق الفكر ، وتشل حركة العقل . . . ولا تليق إلا بصنف واحد من الناس ولزاوية واحدة من النظر ، وما لهذا أنزل الله القرآن « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

ثانيا : السنة :

وهى الأقوال والأعمال الثابتة عن محمد رسول الله ، وضح بها مجمل القرآن ، وفسر بها مراد ربه ، وطبق بها شرائعه وآدابه تحقيقا لقول الله « لتبين للناس ما نزل إليهم » .

هذه السنة هى المصدر الثانى فى تعرف نظام الإسلام وتعاليمه . . ، وإذا ثبت أن محمداً رسول موحى إليه ، كان لما يقوله ويهدى إليه فى تبيين هذا الإسلام ، وتوضيح معالمه ، وتطبيقه فى الحياة ، منزلة الوحى المعنوى ، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه السنة مشت فى رحاب القرآن ، وعبرت عن روحه شارحة وموضحة وتركت للناس أبواب الفهم والتجديد فى أمور حياتهم المتطورة ، التى تتصل بوسائل المعايش التى تتغير بتغير البيئات والأزمان ، وفى ذلك يقول رسول الله « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

وقد وجدت هذه السنة من الرعاية فى حفظها ، وجمعها ، وتنقيتها من الدخيل عليها ما لا يزال التاريخ العلمى يذكره بالفخر والإعجاب ...

فقد حاول أعداء الإسلام أن يدسوا فيها ما ليس منها ، ليكدروا نقاءها ، فوضعوا أحاديث مكذوبة ، وروايات ملفقة ، ونسبوها زوراً إلى رسول الله منتهزين ما حاق بالمسلمين من فتن فى فترة من الدهر ، ولكن سرعان ما وقف الأفذاذ من سلف هذه الأمة الذين كرسوا حياتهم ، يطوفون البلاد ، ويجوبون القفار ، بحثا عن صحيح السنة ، وكشفا عن زائفها ... وكان العهد قريبا بالرسول وصحابته ، والأمة العربية أمة حفظ ووعى ، فوضع هؤلاء العلماء الأصول والقواعد للرواية ، وبحثوا عن الرجال ، وجرحوا وعدلوا ، وألفوا الكتب الكثيرة فى التاريخ والسير والأسماء ، ولم يأخذوا إلا عن ثقة عدل حافظ ضابط حتى لقد أفردوا كتبا للثقات من الرواة ، وكتبا للضعفاء ، وذلك جهد لم يعرف لأمة فى صيانة تراث نبيها ...

وما يقال : إنهم اهتموا بسند الحديث ورواته دون موضوعه أو متنه ، فهذا كلام غير صحيح لأنهم اهتموا بالموضوع أيضا فردوا الحديث الشاذ المخالف لما عرفوا من أصول ، وردوا الأحاديث لعلل قادحة تتصل أحيانا بالموضوع كما تتصل بالسند ...

نعم إنهم وجهوا جل همتهم إلى السند والرواة لأن الموضوع تختلف العقول فى قبوله ورده حسب عصورهم وثقافاتهم ... وما كان يعتبر صحيحا مقبولا بالأمس ، قد يعد خطأ مرفوضا اليوم ، وبالعكس ...

فقاموا بما عليهم فى نقد الرواة وتجلية حالهم ، وتركوا لمن يأتى بعدهم الحكم على موضوع الحديث بما يتفق وما عندهم من وسائل الفهم وموازين النقد ...

ثالثا : الاجتهاد :

لم يشرع الإسلام فى مصدريه : القرآن والسنة للمسلمين فى كل شىء ، فيضيق عليهم فيما لهم فيه فسحة ، ولم يدع التشريع فى كل شىء فيتركهم تائهين بلا أصل يعتمدون عليه ، ولكنه شرع وحدد فيما لا مجال للرأى فيه كالعبادات وفيما لا يختلف باختلاف الأزمان والأحوال كالقواعد الكلية ، والحدود والعقارات والمواريث وأكثر شئون الأسرة .

وترك التشريع أو النص والتحديد فيما يختلف باختلاف الأوقات والبيئات ، وأعطى بذلك العقل الإنسانى حقه فى الاجتهاد والقياس والاستنباط ، وجعل للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب .

وعلى هذا الأساس قامت حركة فقهية تساير تطور الزمن وحاجة الناس ... وقال الفقهاء « تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من أمور » .

ولم يوضع الفقه فى عهد الخلافة العباسية — كما قاله بعض الجاهلين — بل وجد الفقه منذ عهد الرسول ، ونما فى عهد الصحابة ، وزاد نمواً فى عهد التابعين ، وكان تدوينه فى عهد العباسيين .

وهنا لابد أن ننبه — إلى الفرق بين الشريعة الإسلامية ، والفقه الإسلامى .

فالشريعة هى النصوص المقدسة من الكتاب والسنة الثابتة ، والفقه هو : استنباطات الفقهاء فى دائرة النصوص ، أو فيما لا نص فيه .

الشريعة : ثابتة لا تتغير ولا تتطور ، والفقه مرن متحرك يتغير ويتطور ، الشريعة وحى الله والفقه عمل الإنسان[1] .

ولكن مهما قلنا إن الفقه من صنعة العقل الإسلامى ، فإن فقهاء الإسلام كانوا يحرصون حسب طاقتهم على أن يكون اجتهادهم داخل

[١] راجع مقال الدكتور محمد البهى فى مجلة الأزهر تحت عنوان مع المذاهب الاسلامية عدد صفر ١٣٧٩هـ.

إطار الشريعة ، وتبعاً لها محاولين التحرر من الهوى والذاتية ما استطاعوا ...

ولم يهدف الفقهاء فى فقههم إلا إلى ما هدفت إليه الشريعة ، من رعاية مصالح العباد ، من ضروريات ، وحاجيات ، وتحسينات – كما عبر الشاطبى .

« لم يهدفوا إلى رعاية مصلحة خاصة لطائفة أو فرد أو خليفة ، كيف وكلهم رفضوا المناصب والقربى من الخلفاء ، وتحملوا الأذى فى سبيل تجردهم العلمى » .

رفض أبو حنيفة القضاء وتقبل السجن راضيا ، وروى أنه مات فيه .

وضرب مالك بالسياط فى سبيل أن يغير أو يكتم رأيا رآه فأبى .

وأوذى الشافعى من أجل تجرده وأمانته .

واحتمل أحمد بن حنبل من العذاب ما لا يحتمله إلا المؤمنون الأبطال .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم مؤسسو المذاهب السنية المشهورة فى المسلمين .

وهذه المذاهب الأربعة وغيرها لا تلزم المسلمين باتباع أحدها إنما هى اجتهادات لأصحابها الذين لم يزعموا لأنفسهم العصمة ، ولم يلزموا الناس بتقليدهم يوما ، ولم ينظر واحد من هؤلاء الفقهاء إلى غيره نظرة التعصب أو الخصومة ، بل نظرة ملؤها التسامح والمودة ، وتقدير آراء الآخرين .

قال أبو حنيفة : هذا رأينا فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه .

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وقال الشافعى : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب .

وما عرف فى بعض العصور والأقاليم من التعصب لمذهب ضد غيره ، فهو ثمرة من ثمرات الجهل ، والتأخر العقلى الذى أصيب به المسلمون حينذاك والإسلام وفقهاء الإسلام منه براء .

ونحب أن نقرر هنا أن الخلاف بين المذاهب السنية ، وبين الشيعة المعتدلة ليس خلافا جوهريا يمتد الى أصول العقيدة ، وإنما وسع الهوة بينهما أهواء الحكام ، ودسائس خصوم الإسلام ، فالجميع من سنيين وشيعة ، يؤمنون بإله واحد ، ويقدسون كتابا واحدا ويتبعون رسولا واحدا ، ويتجهون إلى قبلة واحدة .. هم جميعا يقيمون الصلاة ، ويؤدون الزكاة ويصومون رمضان ، ويحجون البيت إن استطاعوا إليه سبيلا .

إن فى الفقه الإسلامى ثروة من القواعد والتطبيقات والنظرات العميقة فى كل مجال من مجالات الحياة : أسرية ، ومدنية ، وجنائية ودستورية ، ودولية ، اعترفت بقيمتها وصلاحيتها المؤتمرات الدولية التشريعية

الحديثة ، كمؤتمر « لا هاى » وغيره .

وهى ثروة صالحة لأن يقوم عليها صرح تشريعى مكين إذا توفر باب الفقه والقانون عليها ... ، وفعلا قد اقتبس واضعو القوانين المدنية فى البلاد العربية منها كثيرا من المواد والقواعد . . .

وبعد : فإن مبادئ الإسلام هى أفضل المبادئ لإصلاح الأفراد وإسعاد الأسر ، وتنظيم المجتمعات ، وتوجيه الحكومات ، وهداية الإنسانية كلها إلى الصراط المستقيم .

بيد أن المبادئ وحدها لاتغنى إذا لم تجد رجالا يؤمنون بها ، وينقلونها إلى واقع تراه الأعين ويلمسه الناس ، وبدون هذا سنظل نردد قول القائل :

« يا له من دين لو كان له رجال » .

وحسبنا أن تعلم أنه حين تهيأ للإسلام حكم عادل ، وخلافة راشدة فى عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدنيا فى مدى عامين - ٩٩ - ١٠١ هـ - من العدالة والنظام ، والقوة ، والرخاء ما لم تحققه عشرات السنين من بعد .

ومن كان يريد أن يستدل بالتاريخ فليستدل بأمثال هذه السير المنيرة . . وإلا فليعرف الإسلام من كتابه المنزل ، وسيرة نبيه الثابتة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

يوسف القرضاوى ، أحمد العسال

العلم

العِلْم مذ كان ، محتاج إلى العَلَم ... وشفرة السيف تستغنى عن القلم

وخير خيلك (إن غامرت فى شرف) ... عزم يفرق بين الساق والقدم

لا يدرك المجد إلا كل مقتحم ... فى موج ملتطم أو فوج مضطرم

ورب أمر يهاب الناس غايته ... والأمر أهون فيه من يد لفم

تنمى قوى الشىء بالتدريج إن رزقت ... لطفاً ويقوى شرار النار بالضرم

المذهبيّة والتّقليد

للأستاذ محمود الشرقاوى

« التقليد إبطال منفعة العقل ، لأنه خلق للتدبر والتأمل »
[أبو الفرج ابن الجوزى]

المذهبية والتقليد مظهران من مظاهر الانحراف الذى ندعو إلى تقويمه فى الفكر الدينى ، ولكنهما مظهران أخذا يتحولان أو يزولان فى السنوات الأخيرة . ولكنى أعتقد أن الأمر لا يزال يحتاج إلى معالجة ، لأنه على وجه اليقين ، لا يزال كذلك موجوداً فى غير مصر من بلاد الشرق . ولا يزال التعصب للمذهب أساساً لا يحيد عنه كثير من رجال الدين فى بعض البلاد الإسلامية من شرقنا العربى . ونعتقد أن بعض رجال الدين عندنا لا يزال فى نفوسهم شىء كثير من هذا التقيد بالعصبية المذهبية والانتصار لما يتبعون من المذاهب . مع أنهم ورثوا تبعيتهم لهذه المذاهب عن آبائهم وأجدادهم ولا مدخل فيها للفهم والرأى والترجيح ولم يستمسك المقلدون بمتابعة مقلديهم إلا بعد أن فشت الجهالة بين الناس .

لذلك نجد العلماء وأصحاب الرأى لا يقلدون ولا يرضون لغيرهم أن يقلد .

من ذلك أن أحمد بن حنبل كان يقول : « من ضيق علم العالم أن يقلد فى اعتقاده رجلا » . وذكر له رأى لابن المبارك فقال : « إن ابن المبارك لم ينزل من السماء . وقيل له : قال إبراهيم بن أدهم ، فقال : جئتمونى ببنيات الطريق ، عليكم بالأصل . فلا ينبغى أن يترك - أى الأصل - لقول معظم فى النفس ، فإن الشرع أعظم ، والخطأ فى التأويل على الناس يجرى » .

وقد نهى الإمام الشافعى عن التقليد . وروى عنه وعن غيره من الأئمة قوله : إذا صح الحديث فهو مذهبى ، واضربوا بقولى عرض الحائط .

بل إن بعض العلماء — كأبى الفرج ابن الجوزى — يرى أن يجتهد العامى أيضا ، لا العلماء وحدهم ، واجتهاد العامى فى اختيار من يقلده : « وأما الفرعيات فإنها لما كثرت حوادثها واعتاص على العامى عرفانها ، وقرب له أمر الخطأ فيها كان أصلح ما يفعله العامى

التقليد فيها لمن سبر ونظر ، إلا أن اجتهاد العامى فى اختيار من يقلده » (١) .

ويقول ابن الجوزى فى التقليد رأيا هو :

« إعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد . وفى التقليد إبطال منفعة العقل لأنه إنما خلق للتدبر والتأمل . وقبيح بمن اعطى شمعة يستضىء بها أن يطفئها ويمشى فى الظلمة » .

وكذلك يقول : « واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم فى قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال ، وهذا عين الضلال . لأن النظر ينبغى أن يكون إلى القول لا إلى القائل » (٢) .

ثم يروى أبو الفرج أن الحارث بن حوط قال لعلى رضى الله عنه : أيظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على باطل ؟ فقال له على : « ياحارث : إنه ملبوس عليك . إن الحق لا يعرف بالرجال ، إعرف الحق تعرف أهله » .

ويقول الإمام ابن حزم : المقلد راض أن يغبن فى عقله » .

ومن الذين وقفوا موقف الخصومة من التقليد العالم المجتهد الذى كان فخر عصره علما وعملا وخلقاً : الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، الذى يقول :

ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه ، بحيث لايجد لضعفه مدفعا وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة له ، ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده » .

ثم يصف الشيخ عز الدين كيف كان المتقدمون يتعبدون ويعرفون أمور دينهم فيقول :

« لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ، ولا إنكار على أحد من السائلين ، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال ، كأنه نبى أرسل ، وهذا نأى عن الحق وبعد عن الصواب ، لا يرضى به أحد من ذوى الألباب » .

فالتقليد عند عز الدين بن عبد السلام : بعد عن الحق ، وعن الصواب ، لا يرضى بهما عاقل .

وعز الدين بن عبد السلام من أعظم علماء الشافعية فى جميع العصور ، وكان أبرز علماء مصر فى القرن السابع الهجرى .

وفى شرح مسلم الثبوت لابن عبد الشكور البهارى أن من ألزم بالتقليد ، فقد ألزم بشرع لم يأمر الله أحدا بالتزامه ، فهو يقول إن إيجاب التقليد « تشريع شرع جديد » .

---

[١] ص ٨٧ من كتابه : « نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس » السعادة ١٣٤٠ هـ .

[٢] ص ٧٦ ـ ٨٧ من المصدر السابق .

وأن إلزام العمل بمذهب معين نقمه على الناس وشدة .

كانت المذهبية والتقليد تعصبا وعوجا ابتلى به الفكر الديني عند ما ضعف العلم وفشا الجهل . حتى رأينا من (أوجب) هذا التقليد . كصاحب الجوهرة الذى يقول : وواجب تقليد حبر منهم .

وقد كان لهذه العصبية المذهبية الضيقة أثرها فى حياة المجتمع الإسلامى حتى رأينا بعض الفقهاء يجعل من مسائل فقهه هذا السؤال : الابن الذى أبوه شافعى المذهب ، هل هو كفؤ للزواج من بنت الحنفى ؟ .

وحتى رأينا من يعرض بحنفى المذهب فيقول : إذا وقع النبيذ على طعام أو عجين ، فارم به إلى كلب أو إلى حنفى ، يريد أن بعض الحنفية يرى تحليل النبيذ وطهارته .

فانظر ماذا تفعل العصبية وضيق الفهم بأواصر المسلمين الذين جعلهم الله أمة واحدة وجعلهم الحديث الشريف كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وقد قلنا أول هذا المقال إن هذا الانحراف فى الفكر الدينى أخذ يتحول ويزول ، عندنا على الأقل ، وبقى أن يعمل رجال الفكر الدينى على القضاء على ما بقى منه فيها وفى غيرها وقد رأينا وجه الحق ورأى العلماء فيه .

حدود المذاهب الأربعة :

ننتقل بعد ذلك من (المذاهبية والتقليد) إلى أفق أوسع : إلى حدود المذاهب الأربعة فقد مضت على الفكر الدينى عصور من التخلف والضيق كان يرى فيها أن (الشريعة) هى مذهب أبى حنيفة ، كما كانت ترى دولة الخلافة العثمانية فى عصور طويلة . وكما كان غيرها يرى الرأى نفسه فى مذهب الشافعى ، أو مالك ، أو مذهب الشيعة ، كما فعلت الدولة الفاطمية زمنا ما . وكما يرى غيرهم الرأى نفسه فى مذهب الزيدية ، أو الوهابية .

ولكن هذه النظرة خاطئة بقدر ما هى ضيقة . وشريعة الله أفسح وأرحب من حدود هذه المذاهب ، ونحن لا نريد أن نفصل أمر هذه المذاهب الأربعة وما بعد الأربعة ولا أن نذكر أمر نشأتها وتداولها ، واستقرارها وأسباب الغلبة التى جعلت بعضها يشيع ويثبت ويستقر وبعضها الآخر يضيق ويتهافت ويضعف ، أو يتلاشى لا نريد أن نستطرد إلى شىء من ذلك الذى يستطيع أن يعرفه من يريده فى تاريخ التشريع

ولكن الذى نقوله إن العمل برأى ضعيف أو مرجوح فى هذه المذاهب ، وترك العمل بالراجح القوى فيها ، ليس خروجا على الشريعة ، وما دامت المصلحة هى الدافع على

ترك القوى الراجح إلى الضعيف المرجوح وترك العمل برأى فى هذه المذاهب بعضها أو كلها ، إلى رأى قيل به فى مذهب آخر وراء هذه المذاهب الأربعة ليس كذلك خروجا على الشريعة ما دامت المصلحة هى الدافع والغرض ، أو أن يرى صاحب الأمر ذلك لخير الجماعة . وصاحب الأمر الآن هو الدولة . وعلى رجال الفكر الدينى الفاقهين ، أن يهيئوا لها ذلك وأن يمكنوها منه .

أسباب السيادة لبعض المذاهب

ونحن نعرف أن السيادة قد تقررت لهذه المذاهب بشيوعها وغلبتها على بقية المذاهب وتداول كتبها ودراسة رجالها ومعرفة الناس لهم وتلبسهم بهذه المعرفة السنين الطوال . ولكننا نعرف بعد ذلك أن هذه السيادة المقررة وهذا الشيوع والغلبة على بقية المذاهب لم تكن لتفوق الأولى على الثانية من الوجهة العلمية أو الدقة فى الفهم ، بل لذلك أسباب هى إلى السياسة أقرب منها إلى العلم .

ونعرف أيضا أن بعض هذه المذاهب - غير الأربعة - كانت له فى يوم من الأيام وفى أزهر العصور من دول الإسلام مثل هذه الغلبة وهذا التفوق اللذين نجدهما الآن للمذاهب الأربعة . فقد بقيت السيادة فى الذهن وفى الحكم لأصحاب مذهب الاعتزال أكثر من خمسين سنة فى زمن الدولة العباسية .

يقول أبو بكر الصيرفى ، الفقيه الشافعى الأصولى ، « كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله أبا الحسن الأشعرى فجزهم فى أقماع السمسم . ومن وقف على طبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار ، علم ما كانوا عليه من العدد والقوة » .

ونحن ليس من همنا أن نوازن بين المذاهب الأربعة وغيرها من وجهة التاريخ والسيادة بل نحن نزنها من جانب الفائدة العلمية وإمكان الاستفادة مما عند أهلها من الفروق والاختلاف عن المذاهب الأربعة الشائعة فى السعة واليسر ، « وكلهم من رسول الله ملتمس » . كما قال صاحب البردة .

هذه النظرة إلى هذه المذاهب وموازنتها بالمذاهب الأربعة والاستفادة مما قد يكون فيها من اليسر والسعة . سيظهرنا على ميادين فسيحة ، نجد فيها آراء ذات قيمة فى عصرنا الحاضر ، ومجتمعنا الحاضر . وقد نجد لهذه الآراء أيضاً رجحانا فى الفهم والحجة .

أربعة عشر مذهبا :

نحن واجدون أن فى الفكر الإسلامى القديم مذاهب لا يقل بعضها فى القيمة والقوة عن هذه المذاهب الأربعة ، وواجدون

فى هذه المذاهب من الكثرة ومن السعة ما نستطيع أن نفيد منه أكبر الفائدة فى تجديد تفكيرنا الدينى وإمداده بالطريف الصالح مما يوافق العصر والحاجة .

فقد كانت المذاهب فى العصر العباسى نحو أربعة عشر مذهبا كلها من الإسلام وكلها مفيد وكلها مستمد من كتاب الله .

نجد غير هذه المذاهب الأربعة مذهب الأوزاعى فقيه أهل الشام . ومذهب الحسن البصرى ، ومذهب سفيان الثورى ، ومذهب ابن عيينة ، والليث بن سعد فقيه مصر الذى قال فيه الشافعى : « الليث أفقه من مالك ولكن أصحابه أضاعوه أى لم يدونوا فقهه ومذهبه . وهناك مذهب إسحق بن راهويه وأبى ثور . والطبرى وهناك من المتأخرين من لم يشتهر بأنه صاحب مذهب فقهى » . ولكن له آراء يخالف بها أصحاب المذاهب الأخرى ، كابن تيمية وابن حزم .

وبعض هذه المذاهب شاع فى بلاد الإسلام كما شاع مذهب الظاهرى فى فارس والأندلس وكان القضاء فى القرن الرابع للشيعة حتى نقله صلاح الدين إلى الشافعية لأنه شافعى .

ونجد فوق ذلك — وهو ما يهما لأنه مناط الفائدة — نجد من الفوارق بين هذه المذاهب ما يمكننا من نيل أكبر الفائدة حين ندرسها ونقتبس منها ما يوافق حاجة عصرنا ونحن فى كل ذلك ملتزمون حدود الإسلام وأصوله ما دامت هذه المذاهب منه .

وهذه الفوارق بين المذاهب تعد من دلائل اليسار والسعة ، وهى كنز لا يفنى للتجديد الدينى ومطاوعة الشريعة الإسلامية لكل عصر وجيل .

لست أقصد فى هذا البحث أن أتقصى هذه الفوارق بين المذاهب وما نجد فيها من الآراء الموافقة لعصرنا وحاجتنا من غير المذاهب الأربعة التى عكفنا عليها . بل إن مقصدى الأول هو لفت الأنظار إلى هذه المذاهب والفوارق بينها وأنه من الضرورى أن نعترف بها وأن ندرسها لنستفيد مما فيها . وأنا الضمين بأننا سنجد فى ذلك فائدة لا ندرك قيمتها الآن ، وهى تفوق كل ما يخطر على بالنا فى ذلك .

وأخص بالنص ولفت النظر من المذاهب ما يمتاز تفكير الرجال فيه بميزات فائقة من رجاحة العقل وحرية البصر وحدة الفهم ونفاذ الذهن والقوة فى الجدل والبراعة فى الإحاطة بالرأى ونقده وتقديره كمذهب المعتزلة ، وهذه الميزات التى نحتاج إليها لنلقح بها تفكيرنا الدينى الحديث .

وليس بدعا أن ندرس كتب المذاهب المختلفة ولا أن نعرف مقدار رجالها ونستفيد من مذاهبهم وتفكيرهم . فهم مسلمون

كأصحاب المذاهب الأخرى التي تعكف عليها . بل فيهم كثيرون هم الذين حملوا لواء الدفاع عن الإسلام وصمدوا في خصومة المغيرين عليه من رجال التفكير النصرانى واليهودى فى عصرهم .

وبعض هذه المذاهب قريب غاية القرب من المذاهب الأربعة فى العقيدة والشريعة ، كما نجد فى مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية .

نظرة إلى الماضى :

وإذا نظرنا إلى تاريخنا الإسلامى بعد العصر الأول خاصة رأينا ما كان لهذه الخلافات المذهبية من الأثر فى تفتيت المجتمع الإسلامى وتوهين وحدته التى أمر بها القرآن ، حين تمادى أصحاب الخلافات فيها ، فاستحالت بعد ذلك إلى خصومات . استغلتها المطامع والأهواء حتى وقعت بسببها حروب ، وجرت دماء .

نجد فى نظرتنا إلى هذا التاريخ أن الخصومات المذهبية لج فيها أصحابها وتمادوا وأفحشوا حتى خشى منهم الفتنة ، فأصدر الحاكم الفاطمى مرسوما بأن يترك الناس هذا الجدل الفقهى والمذهبى .

ونجد فى فترة من تاريخ مصر أن الحاكم ، وهو المستنصر ، وأبوه وجده كانوا رافضة ، وكانت الخلافة العباسية فى بغداد ، فى نفس الوقت ، على مذهب أهل السنة . وكان الناس فى كلا البلدين الإسلاميين تمزقهم هذه الخصومات المذهبية الحادة .

ولا أريد أن أسترسل فى أخبار هذه الخصومات المذهبية التى كان لها أثر بالغ السوء فيما وقع من الخصومات السياسية والحروب بين البلاد الإسلامية فى تاريخها الطويل . فتلك أخبار مبسوطة فى كتب التاريخ ، ولو أنها تسردها وترويها وتقص عنها دون أن تستنبط أسبابها أو تستخلص عبرتها . وقد أوشكنا ولله الحمد أن نفىء إلى أمر الله ، ونستمسك بحبله ، ونعلو بديننا وعقيدتنا عن هذه الخصومات المفرقة .

لا أريد أن أسترسل فى ذلك . ولكنى أقول إنه ليس من المبالغة القول بأن هذه الخصومات المذهبية أفسدت فى الماضى حياتنا ، وسودت فترات من تاريخنا ، بل ملأته فى بعض الأوقات ، بالشرور والآثام والدنس والخصومات والحروب والمظالم - ويكفى أن نذكر محنة ابن حنبل فى فتنة خلق القرآن وما يشبهها - .

وقد ظهر قليلون من عباقرة العقول والقلوب فى ظلمات هذه الأيام ضاقوا ذرعا بهذه الخصومة السوداء واستطاعوا أن يظهروا

على الملأ سخطهم عليها ومنهم البيرونى [1] ، فقد كان يلبس فى إصبعه خاتماً رسم عليه شعارين : أحدهما لأهل السنة والآخر للشيعة.

ونريد من رجال الفكر الدينى فى عصرنا الحاضر أن ينظروا إلى هذه الخلافات المذهبية كما يجب أن ينظر أهل العلم إلى الرأى المجرد ، نظرة التقدير وحسن الظن والإفادة من خلافاتها لمصلحة الشريعة نفسها ومصلحة الناس . وأن يكون تقديرهم لأصحابها الأول تقدير المجتهد الذى جعل الله له أجرين إن أصاب ، وأجراً إن أخطأ ، كما جاء فى الحديث الشريف . وأن ينظروا إلى أصحابها ومعتقديها الآن نظر الأخ إلى أخيه . وهو النظر الذى جدده قول الرسول الكريم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

ونحن نعرف أن هناك مذاهب متعددة ونحلا كثيرة أدعو لدراسة هذه المذاهب دراسة موضوعية مجردة .

وأعتقد أن أحداً لا يجادل فى أن هذه الدراسة ، على الأسس التى بيناها ، كفيلة بأن تحقق للفكر الدينى ، وللحياة العامة جملة من الفوائد ، فهى ، فى الفكر الدينى ، تزيده نماءاً وخصباً وعمقاً وسعة ، هى ثروة من المعرفة يحتاج لها الفكر الدينى أكبر الحاجة وهى كفيلة بأن تظهر ما فى شريعة الإسلام من السعة وا رونة والكفاية لتحقيق حاجات مجتمعنا الحاضر ووضع الحلول لمشكلاته ، سيجد فيها المقنن والمشرع ما يبتغى أن يجد من القوانين والتشريعات لتنظيم مجتمعنا المعاصر على أسس الشريعة ، بدلا من تنظيمه على أسس دخيلة . وهى — بعد ذلك — ستكون عاملا قوى الأثر فى التقريب بين عواطف الناس فى الجماعة الإسلامية كلها ، وفى الأمة العربيـة التى تريد أن تبنى قوميتها وتقيم أسسها على عواطف الفهم والمحبة والقربى.

محمود الشرقاوى

---

(١) أبو الريحان البيرونى : من عباقرة الفكر الإسلامى ، أصله فارسى ولد بخوارزم سنة ٣٦٣هـ [سبتمبر سنة ٩٧٣ م] نبغ فى الفلك والرياضيات والطب والتقويم والتاريخ . وكان يراسل ابن سينا . وضع فى الفلك « القانون المسعودى » للسلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين فظل حجة فى علم الفلك قرونا . ورحل إلى الهند فأقام بها سنين طويلة يدرس الثقافة اليونانية واللغة السنسكريتية ثم وضع كتابه فى تاريخ الهند : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » فكان أشمل وأكمل كتاب عن تاريخ الهند وثقافتها القديمة ، قد طبع وترجم إلى الانجليزية فى لندن سنة ١٨٨٧ بإشراف المستشرق سخاو وله كتاب « آثار باقية عن القرون الخالية » كان ثمرة من ثمرات رسائله مع ابن سينا ، وقد طبعه سخو أيضاً مع ترجمته الانجليزية فى ليبسك سنة ١٨٧٨ ، وله رسائل ومؤلفات أخرى ، وكان كذلك بارعا فى اللغة الفارسية وله بها مؤلفات فى صناعة التنجيم ، وله عند الأوربيين منزلة عظيمة

توفى البيرونى فى اليوم الثالث من رجب سنة ٤٤٨هـ « ١٣ من ديسمبر سنة ٤٨ ١م » .

عمر الفاروق
فى بعض نواحيه الممتازه
للأستاذ عباس طه

لحياة عمر رضى الله عنه مناح شتى ، دينية واجتماعية وسياسية ، ولعل من أحفلها بالطرافه ناحيتها الفلسفية . وللفلسفة معاييرها فى تقدير الملكات العقلية ، وطرقها فى التنقيب عما ينطوى فى أعمال العاملين من البواعث الدالة على مميزاتهم الأدبية ومراتبهم الروحية . .

نشأ عمر وكبر فى الجاهلية ولم يظهر عليه شىء من السمو الذى ظهر به فى الإسلام ، فكل ما اشتهر به الشدة وقوة الإرادة فلما بعث النبى وبدأ يدعو إلى الله سرا ، بلغه أن أخته قبلت الإسلام دينا ، فغضب لذلك أشد الغضب ، فلما زارآها فى دارها فلما أسرعت فناولته صحيفة فيها من القرآن . فلما قرأها (وكان من القلائل الذين يقرءون) وقع فى قلبه من سمو الإسلام ما حفزه على أن يجتمع بالرسول الأعظم ، فلما التقيا عرض الرسول عليه الاسلام ، وتلا عليه آيات من الفرقان . فآمن بها من فوره .

وكان أول ما عمله فى إسلامه أن قال : يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ فأجابه رسول الله « إنا قلة وقد رأيت ما لقينا » . فقال له عمر والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان ! فلقبه النبى بالفاروق من ذلك اليوم .

قرر علماء النفس أن العبقرية لا تقتصر على العلوم والفنون والحروب ، ولكنها قد تكون فى الحكم أيضا . ولسنا نشك فى أن عمر وقد خلف أبا بكر كان عبقريا لما ظهر من ثمرات أعماله الماجدة الخالدة .

كانت الأداة الحكومية فى منتصف القرن السابع للميلاد على شىء من التركب الآلى ، بحيث تتأثر ما جريات الشئون وأطوارها الاجتماعية بوفاة عاهل وقيام عاهل آخر مقامه . وكانت الحكومات كلها من الضرب الاستبدادى الذى ترجع فيه الأمور إلى القائم بالأمر وخصائصه العقلية والخلقية .

والحكم فى الإسلام وإن كان حاصلا على جميع الأصول التى تدعو إلى إقامة أداة محكمة للحكم ، يكون من عملها تمثيل الأمة فى مجلس نيابى أو مجلسين ، وتقسيم السلطات على هيئات خاصة ، وضمان استقلال كل منها ، فإن الأحداث لا يمكن أن تسبق أزمنتها ،

فكان الحكم فى الإسلام موكولا لمن تراه الأمة أهلا لإقامة تلك الأصول ، اجتهادا من تلقاء نفسه .

وقد دلت الأحداث على أن عمر قد حقق الفراسة فيه ، وبلغ من إقامة الأصول الإسلامية مبلغاً رفعه إلى درجة العبقرية .

ليس من الهين فى دور الشكل الاستبدادى للحكومات أن يقيم القائم بالأمر جميع المثل العليا للتعاليم التى يصدر فى أعماله عنها تمثيلا كاملا ، مهما حرص على ذلك ، إلا إذا كان من الملهمين .

لأنه كيف يتسنى لعقل عادى فى أول عهد القرون الوسطى أن يفهم مغزى أصول مثالية لم نفهمها نحن اليوم إلا تحت ضوء العلوم الحديثة ، ولم ندرك مراسيها البعيدة إلا بعد ظهورها للعيان عقب انقلابات عالمية خطيرة .

نعم إن كلمات عدل وحق ومساواة إلخ ، كانت مدلولاتها معروفة منذ القدم ، ولكنها كانت مدلولات تنقص أهم مؤدياتها المطلقة ، حتى إن واضع الديمقراطية أرسطو لم يفهم مؤداها المطلق ، فقرر فى بحوثه السياسية حرمان العمال والأرقاء من الحقوق المدنية من الناحية السياسية ، الأولين : باعتبار أن نفوسهم ليست من نوع نفوس الأحرار ، والآخرين : لاشتغالهم بالمهن اليدوية ! فشتان بين ديمقراطية أمس وديمقراطية اليوم .

فنبوغ رجل كعمر يدركها وأمثالها على الوجه الذى أراده الإسلام مطلقة وخالصة من كل شائبة بشرية ، فوق ما كان يدركه منها فلاسفة النفس وعلماء الاجتماع على عهده وبعد عهده بأجيال ، أمر يستوقف النظر ويدعو إلى العجب العاجب ، ولا مخرج منها إلا بتعليلها بالعبقرية فى الحكم .

كل ما فى الإسلام من التعاليم الاجتماعية لا تخرج عن إقامة منارة الحق ، ومراعاة المساواة بين الخلق ، والحكم بالعدل ، واحترام حرية القول والعمل ، واللجوء إلى الشورى فى الأمور الجامعة ، فكان عمر مثلا أعلى فى تطبيق هذه الأصول الكلية ، وله فى كل منها مواقف وكلمات نابغة بقيت أعلاما منصوبة ومبادئ عرفية ومكتوبة حتى يومنا الراهن .

ومن أمثلة اعترافه بسلطان الأمة عليه وخضوعه لرقابتها قوله من خطبة : « أيها الناس إذا رأيتم فى إعوجاجا فقوموه » فقام إليه رجل من الحاضرين وقال « والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » .

فلو كان عمر اكتفى بسماع هذه الكلمة وتجاوز عن مؤاخذة قائلها لعد ذلك له منقبة ومفخرة يتناقلها الناس ويعدونها دليلا على

وفور عقله وسعة حلمه، ولكنه أجابه بقوله: « الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » .

قال كعب الأحبار :

« نزلت على رجل يقال له مالك ، وكان جاراً لعمر بن الخطاب ، فقلت له : كيف بالدخول على أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس عليه باب ولا حجاب ، يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلم الناس » .

وعن الحسن البصرى قال :

كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فقال له الرجل : اتق الله ، فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ فقال له عمر : دعه فليقلها لى ، نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها » .

تأمل فى قوله : لاخير فيكم إذا لم تقولوها ! إنها والله لكلمة من أنبغ الكلمات الاجتماعية، وهى كما تدل على مبلغ احترام عمر للمعارضة وهى ركن من أركان الحياة السياسية ، تدل أيضاً على تجرد الأمة التى تتهيب هذا الركن من الخير . وقوله : « ولا خير فينا إذا لم نقبلها » تقرير بأن الحكومة التى لا تطيق المعارضة تكون مجردة عن الخير أيضاً .

أبلغ من كل ما مر فى الدلالة على فهم عمر للديمقراطيه الحقة ، أنه لما دعى إلى بيت المقدس ليتفق والمدافعين عنها على التسليم ، كما شرط عليه ذلك ، شخص إليها على بعير كان يتعاقب عليه هو وسائسه فى الطريق ، ولما شارفوا المدينة كان الدور للسائس فكان راكباً وأمير المؤمنين أخذ عقود الجمل . فقال له خادمه : لو نزلت أنا وركبت أنت حتى لا تقابل الناس على هذه الحال ! فلم يجبه أمير المؤمنين إلى طلبه ، وقدم على مستقبليه راجلا يقود البعير لخادمه . فكانت المفاجأة المذهلة ، ولكن أحداً لم ينبس بكلمة لعلمهم من هو عمر وما هى ديمقراطيته .

وأبلغ مما مر فى الدلالة على فهم عمر للديمقراطية ، كما يريدها الإسلام مطلقة ، أنه لما كان فى بعض انتقالاته بفلسطين عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره وخلع نعليه فأمسكهما بيده ، فخاض الماء ومعه بعيره . فقال له أبو عبيدة كبير قواده : قد صنعت ياأمير المؤمنين صنعاً عظيما عند أهل الأرض فصكه عمر فى صدره وقال : « أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله » .

وأعظم مما مر وأحفله بالمعانى التى لايدركها إلا المستبصرون ما رواه الفضل بن عميرة : أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب

فى وفد من العراق ، قدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر وهو محتجر بعباءة ، يهنأ بعيراً من إبل الصدقة .

فقال عمر : « يا أحنف دع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين »

فقال رجل : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا .

فقال عمر « يا ابن فلانة وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين ، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة » .

إن عمر رضى الله عنه بقوله من : ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين ، وبتوليه عملا هو من مهن العبيد ، وبدعوته الأحنف ليعمل معه فيه ، قد ضرب الأرسطقراطية ضربة قاصمة لن تقوم بعدها لها قائمة فى المسلمين باسم الإسلام قط . وقد تتبعنا سير جميع الحكام النابهين فلم نعثر على مثال فى الديمقراطية يشبه هذا المثال .

وهكذا ثمرات العبقرية تأتى على غير مثال سابق .

ولما أقبل سفراء بيت المقدس لمقابلة أمير المؤمنين عمر ، سألوا أين هو ؟ فأشاروا لهم إليه ، وكان نائما على الأرض فى ظل شجرة ، فهالهم ما رأوا وأبوا أن يتفقوا مع من هذه حالته ، استنكاراً لها ، حتى يستأنسوا برأى كبرائهم . فلما رجعوا وقصوا عليهم ما رأوا قال لهم بطريقهم : ارجعوا أدراجكم إنه طلبتنا ، وهذه حليته فى كتبنا .

نقول : ليس هذا من سقوط الهمة ، ولكنها الديمقراطية يضع عمر بيديه أركانها ويشيد بنيانها ، ويقيم بقدوته أعلامها .

وإذا كان للعظمة معنى يرى بالعين ، فهو ما رآه الناس من أمثال هذا فى سيرة عمر عظمة عبر عنها (أمن وكوتان[1]) « إن هذا العاهل الذى كان يلبس ثوبا مرقعا كانت ترتعد فرائص الملوك عند ذكر اسمه » .

وخطب الفاروق يوما فقال « يا أيها الناس إنى والله ما أرسل عمالا[2] إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى ، فو الذى نفس عمر بيده لأقصينه عنه » .

فوقف عمرو بن العاص فاتح مصر وواليها فقال « يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين أدب بعض رعيته أإنك لتقصينه عنه ؟ » .

(١) عالمان ومؤرخان فرنسيان فى كتابهما المسمى بالتاريخ العام .

(٢) ولاه .

فقال الفاروق :

« أى والذى نفس عمر بيده إنى لأقصينه عنه ، وكيف لا وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه » .

إذا ادعت حكومة بأنها تقيم مبدأ المساواة بين الناس فلتكن من هذا الطراز المطلق ، وإلا فهى صورة ناقصة لها كأكثر ما نسمعه عنها وما نراه منها .

الديمقراطية تسوى بين السادة والعبيد :

من أمثلة المساواة التى كان يقيم عمر حكمه عليها ما رواه الحسن البصرى قال :

حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش بين تلك الرءوس ، وصهيب وبلال من تلك الموالى(١) الذين شهدوا بدراً . فخرج إذن عمر لهم وترك أولئك .

« فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط : يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا .

« فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا : أيها القوم إنى والله أرى الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم(٢) ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذ ادعوا يوم القيامة وتركتم ؟ » .

ومن أجل ما صدر عن الفاروق فى تنفيذ مبدأ الديمقراطية المطلقة قوله وهو يجود بنفسه وقد دعى لأن يعهد بالخلافة لمن يثق به : والله لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا ماجعلتها شورى . أى أنه كان يعهد إليه بالخلافة ولا يحيلها إلى شورى .

هنا لا نجد عبارة تصور إكبارنا لهذه الديمقراطية التى تمثل روح الإسلام فى أبدع وأروع صورة .

وشكا أحد أهل مصر إلى الفاروق ابنا لعمرو بن العاص واليها مدعيا أنه ضربه قائلا له : أنا ابن الأكرمين . فلما ثبت لعمر أنه صادق فى دعواه ، أعطاه درته وقال له : « اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، ثم التفت للناس وقال لهم : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

إن الفاروق لم يرو بما فعل أن يذل ابن أحد ولاته ، ولكنه يرفع علم المساواة إلى أعلا ما يمكن أن يصل إليه ، وليس بعد هذا غاية .

ومن أمثلة حرص عمر على حفظ النظام ما رواه أبو ساعدة الهذلى قال: « رأيت عمر ابن الخطاب يضرب التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ، ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا » .

(١) الذين كانوا أرقاء أو أبناء أرقاء
(٢) يريد دعوا إلى الإسلام .

أليس هـذا بعينه ما نكلف به الشرطة من تنظيم حركة المرور بالعواصم اليوم ؟ فلو كنت شرطيا لباهيت بوظيفتى التى وضع أساسها أكرم حكام الأرض فى أعظم أمة .

قال المسيب ابن دارم « رأيت عمر بن الخطاب يضرب جمالا وهو يقول : حملت جملك ما لا يطيق .

فمن لى بمن يبلغ جماعات الرفق بالحيوان أن عمر بن الخطاب سبقهم إلى سن هذا النظام قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؟

وبعد : فإن هـذه السيرة التى تتجلى فيها المثل العليا للحكم فى غاية أبهتها ، وتطبق إلى أقصى حدودها ، لا تتأتى إلا إذا كان القائم بها عبقريا .

نعم : إن عمر لم يفعل أكثر من أن نفذ الأصول التى دونت فى الكتاب ، والسنة ، ولكن تنفيذها على هذا النحو الباهر لا يتأتى إلا من طريق العبقرية ، فهى وحدها التى تلهم صاحبها المواقف الموفقة فى كل ما يعرض له من للشئون ، وللشئون مآزم لا يغنى فيها مجرد التشدد فى تطبيق حرفية المثل العليا ، فلا بد فيها من تصرف وجدانى يضع الامور مواضعها وهناك مجال فسيح للعبقرية .

وإلا فلم قرر علماء النفس وجود عبقرية للحكم ؟ أليست أصول الأحكام القويمة مقررة مرسومة ؟

نعم . ولكن تطبيقها على الحوادث إلى سبيلها القيم ، واستغلال الظروف لمصلحة الجماعة دون الإخلال بسلطان تلك الأصول والإفادة من مرونتها فى حدودها المقررة وتعيين مواضع هذه الرخصة وأوقاتها المناسبة، كل هذه مجالات تتفاضل فيها النفوس وتجد العبقرية مكانها العالى منها .

هذه سيرة عمر وأنماطه فى الحياة المثالية.

وتلك همة نفس لو أراد بها
شم الجبال لما قرت رواسيها

عباس طه

الوطن

بلد صحبت به الشبيبة والصبا
ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته
وعليه أغصان الشباب تميد

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

الأملوك :

كتب إلى الأستاذ محمد فكرى كمال القدوسى بالقوات المسلحة يقول : « ثار جدل بينى وبين أحد مدرسى اللغة العربية فى المدارس الثانوية بوزارة التربية والتعليم حول كلمة (أملوك) التى وردت فى قول الحجية بن المضرب يمدح يَعفر بن زُرعة من ملوك اليمن :

فإن كنت سآلا عن المجد والعلا
وأين العطاء الجزل والنائل الغمرُ
فنقب عن الأملوك واهتف بيعفر
وعِش جار ظلّ لا يغالبه الدهر

أهى مفرد أم هى جمع ، أم هى اسم جمع فيقول الأستاذ متشبثا : إنها مفرد ، وحجته فى ذلك وجود الألف ، ولو حذفت لكانت جمعا . وقلت أنا : إنها اسم جمع بمعنى الملوك وبعد الرجوع إلى الجزء الأول من كتاب الأمالى للقالى ص ٥٣ ، والاطلاع على هذين البيتين ، وكتاب المزهر ص ٨٣ ، اتضح لى بأن (كذا والصواب أن) صوغ هذه الكلمة يمنىّ إنما تأثر بما جاوره من الصوغ الحبشى فى العهد الذى قيل فيه البيتان ، إذ أن الجمع عند الأحباش يأتى فى الأعم على وزن أفعول . وقد ذكر السيوطى مما جاء على وزن أفعول ثلاث كلمات فى العربية ، هى أمعوذ للقطيع من الظباء ، وأجعوش لجيل الحبش ، وأركوب لجماعة الركاب . وكنت أرى أنه لا يمنع أن تزيد كلمة (أملوك) على الثلاث التى ذكرها السيوطى ، أوما يماثل هذه الكلمة » . والأستاذ يسألنى بعد هذا مزيدا من البحث فى هذه الكلمة .

ويحسن التعريف بالشاعر فهو حجية ابن المضرب الكندى ، والمضرب أبوه بفتح الراء المشدودة لا بكسرها ، كما جاء فى كتاب الأستاذ القدوسى تبعا لنسخة الأمالى ويقول البكرى فى اللآلى ٢٠٤ : « وإنما قيل لأبيه المضرّب لأنه ضُرب بسيف عدة ضربات

فما أحاك فيه » . وزرعة أبو يعفر ممدوح الشاعر كأنه زرعة الرهاوى الوارد ذكره فى سيرة ابن هشام على هامش الروض (٢ - ٣٤٦) .

وأقول بعد : إنه جاء فى الحديث : أن الرسول عليه صلاة الله وسلامه كتب إلى أملوك رَدمان ، وردمان : موضع باليمن . وأكثر اللغويين على أن الأملوك مقاول حِمير . والمقاول جمع مِقْوَل ، وهو الأمير دون الملك الأعلى . ويقال أيضا الأقيال جمع القيل ، والقيل أصله القيّل بتشديد الياء خففت كما يقال : هَيْن فى الهَيّن ومرجع ذلك إلى أن قوله نافذ ماض على رعيته لا يرد . فالأملوك على هذا من المُلك فى معنى جمع الملك ، فإن القَيْل ملك صغير فى قومه : وقال قوم : إن الأملوك مفرد وهو دون الملك كما ذكره الخطابى فى تفسير الحديث ، وقال آخرون : إن الأملوك هو مالك من تبابعة اليمن ، ويريد الشاعر بقوله فنقب عن الاملوك . عن بنى هذا التبع . وعند بعضهم أن الأملوك قبيلة من حمير ، وهذا راجع إلى ما قبله ، فإن المراد قبيلة تسمى باسم أبيها الأملوك .

وإنى أسوق إليك بعض النصوص فى هذه الكلمة .

جاء فى القاموس : « والأملوك بالضم : اسم للجمع — أى لجمع ملك ، وقوم من العرب ، أو هم مقاول حمير » . وفى اللسان « والأملوك قوم من العرب من حمير . وفى التهذيب : مقاول حمير » . ويقول القالى فى يعفر بن زرعة : « أحد الأملوك أملوك ردمان » ، فيقول أبو عبيد البكرى فى اللآلى ٢٠٥ : « فالأملوك قبيلة من حمير . وقال الخطابى : « الأملوك واحد . وهو دون الملك » ، ويقول السهيلى فى الروض الأنف ٢٣/١ فى مالك الذى هو أبو شمر أحد التبابعة ومالك هو الأملوك . وفى بنى الأملوك يقول الشاعر :

فنقب عن الأملوك واهتف بيعفر
وعش جار عز لا يناليه الدهر

وقد قيل : إن الأملوك كان على عهد منُوشِهر . وذلك فى زمن موسى عليه السلام » .

وأظهر هذه الأقوال أن الأملوك مقاول اليمن ، وهم كالولاة ورؤساء الأقاليم . وإذا صح أن الأفعول من صيغ الجمع فى لغة الحبش فالقريب أن هذه الصيغة كانت فى اليمنية إما بالأصالة أو بالاستعارة من الحبشية ، فيكون الأملوك جمعا لملك ، ويكون من هذا القبيل ما ذكره السيوطى ، فالأمعوز والأركوب والأحبوش صيغ يمنية وبقيت

فى المضرية : ويقابل هذه الصيغة فى المضرية الأفعال فيقابل الأملوك الأملاك والأحبوش الأحباش وقد جاء عن اليمنية أبنية لم تعهد فى المضرية :

فمن أسماء المواضع عندهم حوريت ، وهو لا يأتى على بناء من أبنية الأسماء التى دونها سيبويه فى كتابه ، وفى الخصائص ٣/٢٠٧ : « وأما حوريت فدخلت يوما على أبى على - رحمه الله - فحين رآنى قال : أين أنت أنا أطلبك . قلت : وما هو ؟ قال : ما تقول فى حوريت ؟ فخضنا فيه فرأيناه خارجا عن الكتاب (يريد كتاب سيبويه) . وصانع أبو على عنه بأن قال : إنه ليس من لغة ابنى نزار ، فأقل الحفل به لذلك » . ويريد بابنى نزار ربيعة ومصر .

شىء ملذ :

أنكر (١) اليازجى هذا الاستعمال . وذلك أنه يقال : لذذت الشىء أى أحسست له شهوة ومالت النفس إليه .

ويقال أيضاً : لذلى الشىء ، فهو لذ ولذيذ وفى الكتاب العزيز فى صفة خمر الجنة : يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين . وفى المصباح : « لذ الشىء يلذ لذاذا ولذاذة - بالفتح - : صار شهيا ، فهو لذ ولذيذ . ولذذته ألذه : وجدته كذلك ، يتعدى ولا يتعدى » . ولم أقف فى اللغة على ألذه من الإلذاذ .

على أن بعض الباحثين يرى صواب الملذ لما يحدث اللذة : وقد جاء فى الأساس فى مادة رذذ : « وباتت السماء ترذنا وتقول : إن السماء مرذ ، وإن السماع ملذ ، فهل أنت إلينا مغذ . أراد سماع الحديث والعلم ، لا سماع الغناء » . والظاهر أن الذى أوقع الزمخشرى فى هذا رغبته فى السجع وكلفه بالازدواج . فاستعمال الملذ إنما سوغه مشاكلته للمرذ والمغذ . ويدل على هذا أنه لم يذكر الملذ فى مادة (لذذ) . والسجع والازدواج يجوزان ما لا يجوز فى غيرهما . وفى حديث (١) ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين بهذه الكلمات : أعيذكما بكلمة الله التامة ، من شر كل سامة ، ومن كل عين لامة ؛ قال أبو عبيد : قال : لامة ولم يقل ملمة ، وأصلها من ألممت بالشىء تأتيه وتلم به ليزاوج قوله : من شر كل سامة . وقد ذهب اليازجى فى مجلة الضياء ٨/٤٢١ هذا المذهب فى تخريج كلام الزمخشرى ، فهو يقول : « استدرجه إليه

---

(١) انظر لغة الجرائد ٤٦ .

(١) انظر اللسان فى [لمم] .

قصد التجنيس بين سماء وسماع ، ومرذ وملذ ولذلك عدل إلى تذكير السماء وهى أضعف اللغتين » .

فلاں مندوب من وزارة التربية :

عاب بعض النقاد هذا الأسلوب ، وذلك أن الفاعل قد حذف حين بنى الوصف للمفعول ، وقد ذكر بعد (من) فإن الوزارة هى التى قامت بالندب ، ففى هذا شبه النقض للغرض الذى ابتدئ به الكلام . وقد قيل : إن هذا ترجمة لأسلوب افرنجى ناب عن العربية .

ولم أر من نص من القدماء على إنكار هذا الأسلوب . فأما الحذف للفاعل ثم ذكره فقد يكون له غرض صحيح ، وهو الإجمال ثم التفصيل ، وهو من مقاصد البلغاء . وقد جاء قريب مما نحن فيه فى قول الشاعر :

ليُبْكَ يزيدُ ضارع لخصومة
ومختبط مما تطيح الطوائح

وجاء قوله تعالى فى سورة النور : « يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » ، بفتح الباء من (يسبح) فى قراءة أبى بكر عن عاصم ، وقراءة ابن عامر . فالفعل فى البيت والآية مبنى للمفعول ، ثم ذكر الفاعل مرفوعا بفعل محذوف . وهذا وإن كان الكلام فيه من جملتين فهما كالجملة الواحدة فى الاتصال ، فهو لا يختلف عما نحن فيه .

وقد جاء من هذا الأسلوب كثير فى الكتاب العزيز . فمنه قوله تعالى : « فمن عُفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » ، إذا أريد بالأخ ولى المقتول ، ويقدره بعض المفسرين : من دم أخيه أى المقتول فلا يكون من بابنا . ومنه قوله تعالى : « قل إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى » ، وقوله تعالى : « أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه » . ؟

محمد على النجار

ما يقال عن الإسلام

« الله » فى العقيدة الإسلامية
وفى أقوال علماء المقارنة بين الأديان

للأستاذ عباس محمود العقاد

علم « المقارنة بين الأديان » يسمى علماً مع الحيطة المتفاهم عليها بين الباحثين والقراء لأنه من المعارف التى يقيمها المشتغلون به على أسس مختلفة كاختلافهم فى العقيدة الدينية وفى النظر إليها .

فمن علمائه من يؤمن بعقيدة يصدقها ولا يصدق غيرها ، فهو يبتدئ البحث بحكم قاطع على العقائد الأخرى بجزم بتكذيبها قبل الموازنة العلمية بين أدلة التصديق وأدلة التكذيب .

ومن علمائه من يؤمن بعقيدته ويؤمن بصدق العقائد الأخرى فى أوقاتها ومناسباتها ، ويرجع بالخطأ والنقص فيها إلى انتهاء زمانها أو إلى عوامل التشويه والتبديل التى طرأت عليها ، فهذا العالم يواجه البحث مفتوح العينين مستعداً لقبول الحسنة والسيئة ولكنه يرتبط بنتيجة سابقة لا يسمح للمقدمات أن تذهب به إلى نتيجة غيرها .

ومن علماء المقارنة بين الأديان من يؤمن بالغيب ويؤمن بالإله ، ولكنه يحكم على الأديان كأنها أعمال إنسانية تقاس بمقاييس النظر إلى الرسل والأنبياء وإلى التابعين لهم من الأمم والجماعات أو الآحاد . فهو يحفظ لموضوع البحث حرمته وقداسته ويقبل التفصيلات بعد ذلك أو يرفضها على حسب أسانيدها الإنسانية وظروفها الواقعية ، فيعالجها تارة بمقاييس الغيب المجهول وتارة أخرى بمقاييس الواقع المشهود التى تتردد بين الأنباء والأفكار .

ومن علماء المقارنة بين الأديان من ينكر الأديان أصلا ولكنه يؤمن بصلاحها لسياسة الأمم وتعزية النفوس ، ومنهم من ينكرها أصلا وينكر فائدتها وصلاحها ، بل يرى أنها خدعة مقصودة وغير مقصودة يخترعها الرؤساء وتمالئهم على اختراعها البديهة الشعبية فلا تستحق بعد فوات الخدعة غير التفنيد والتجريح .

وهؤلاء المنكرون جميعاً يبحثون العقيدة غير معتقدين ، فيخفى عليهم جوهر العقيدة فى صميمه ولا يتأتى لهم أن يحكموا على شىء يجهلونه أو إحساس لا يشعرون به حكماً يصدر عن فهم واع وإدراك محيط ، فإنهم

كمن يحكم على الكائن الحى بعد وصوله إلى مائدة التشريح مفقود الحياة ، فلا يخلو حكمهم من النقص الذى يتعرض له كل حكم على مجهول غير محسوس به على وجهه الذى يتم به وجوده فى عالم العمل والحياة .

ومن أولئك الباحثين من يقارب موضوعه كما يقارب الشاعر موضوع ملحمة تاريخية يؤمن بحدوثها إيمانا لا شك فيه ولكنه يتصوره كما يتصور ملاحم البطولة بين المجاز والخيال والواقع ، فلا يعرضها ليقول للقارئ هل يؤمن بها أو يرفضها ولكنه يعرضها ليشهد القارئ ما فيها من بواعث الروعة والجمال وما تحدثه فى الخواطر من دواعى الشعور والتأثير ، وهؤلاء الباحثون يقرأهم القارئ فلا يحاسبهم بحساب الدين ولا بحساب العلم ، وإنما يحاسبهم بحساب الأسلوب ، أو بحساب العرض الفنى ، ولا يعطيهم من العناية فوق هذا المقدار .

من هؤلاء الأخيرين الأستاذ استاس هايدون Eustace Haydon صاحب كتاب « تراجم الأرباب » Biography of the Gods وقد كان أستاذا لعلم تاريخ الأديان بجامعة شيكاغو عند تأليف هذا الكتاب ، ويظهر أسلوبه وموضوعه من عنوانه القصصى ، لأنه يتكلم عن حياة الإله المعبود كأنها ترجمة تبدأ بظهور الديانة التى تدعو إليه وتتقدم بين النشأة والشباب والبقاء أو الزوال على حسب مصير الديانة من الشيوع والانتشار أو من الخمول والتبدل والانقراض .

وفى هذا الكتاب تتابعت تراجم أرباب الديانات المجوسية والصينية واليابانية ، ثم انتهى الكتاب بالكلام على « الله » بعد الكلام على « يهوا » كما يصفه كتاب العهد القديم ، فكانت فاتحة الكلام على الإله فى العقيدة الإسلامية أن الاعتقاد به غير مستعار من ديانات الأمم الأخرى ، وأن الدعوة إلى الايمان بالله كان يمكن أن تظهر حيث ظهرت ولو لم تدخل الجزيرة العربية عبادة من خارجها ، لأن وحدانية الله فى الإسلام لم يسبقها مثيل لها فى صفة الوحدانية التى لا هوادة فيها ولا فى غيرها من جملة الصفات المستفادة من أسماء الله الحسنى .

ولا حاجة إلى بيان الخلاف بين المفهوم من صفات الله فى عقيدة المؤمن المسلم وبين المفهوم من هذه الصفات فى هذا الكتاب ، ولكن المؤمن المسلم لا ينتظر من غير المسلمين ولا من الكاتبين بهذا الأسلوب الذى يسوق الدراسات مساق القصة فكرة عن « الله » هى أقرب إلى « الاحترام » من فكرة الله فى كتاب تراجم الأرباب .

إن « الله » الذى يدين به المسلمون لم يخذلهم فى حياة البادية ولم يتركهم فى حياة الحضارة الممتزجة من بقايا الدول الفارسية والبيزنطية التى انتقل إليها المسلمون بعد انتشار الإسلام فى الأقطار الآسيوية والإفريقية ، وقد وصل إلى أبعد أقطار العالم المعمور فى هذه القارات قبل انتهاء

المائة الثانية من تاريخ قيام الدعوة المحمدية .

وفى خلال هذه الرحلات المتباعدة لقى المسلمون عقيدة الفلسفة اليونانية القديمة ، وسمعوا بإله يسميه أرسطو السبب الأول ، وتقول الأفلاطونية الحديثة إنه يكل تدبير العالم الأرضى إلى فيض بعد فيض من خلائقه العليا حتى ينتهى إلى ما دون فلك القمر فيتصل بعالم الفساد على بعد ويمهل عباده على الأرض إلى حين ، ريثما تعود عقولهم الهيولانية إلى الاتصال بعد الجهاد ، بالعقل الأول مصدر هذه الفيوضات .

ولو أن معبوداً آخر فهم المفكرون من عباده أنه لا يعدو أن يكون « سبباً أول » أو علة رياضية بعيدة عن هذه الحياة الإنسانية لما بقيت لعبادته بقية فى عقول قراء العلم والفلسفة ، ولأصابه ما أصاب المعبودات المهجورة من (الأنيميا) القاتلة للأرباب الباطلة على حد تعبير الكتاب .

ولكن الفلسفة اليونانية لم تزعزع عقيدة المسلم المفكر فى (الله) بل استطاع الضمير الإسلامى أن يخرج لتلك الفلسفة أنداداً لها من المفكرين على طريقة الإمام الغزالى : « برأس فيلسوف ، وقلب ناسك » أو على طريقة الإمام الأشعرى بتسليم صاحب البحث وبحث صاحب التسليم ، فخرج الإيمان بالله وصفاته المتعددة سليما ، منزه الوحدانية بعيداً من شبهات الفلاسفة وأتباع الزندقة المثنوية ويتخلل الكتاب خلط كثير يمتزج بالسخافة أحيانا كلما حاول تصوير الظروف الطبيعية ، والاجتماعية ، التى يفسر بها ثبات المسلم على الإيمان بإله أحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ولكنه يعود حينا بعد حين إلى عناصر قوية تكمن فى ذلك الإيمان وتهيء له أسباب النجاة من الشكوك والبدع التى لا تسوقها تقلبات الزمن وعوارض الاحتكاك بالحضارات الأجنبية ، وهذه العناصر القوية هى التى أنجدته مرة أخرى بعد محنة الفلسفة اليونانية عندما واجهته العصور المتأخرة بمحنة كبرى لا تذكر محنة الفلسفة اليونانية بالقياس إليها ، ففى هذه العصور المتأخرة استطاع الضمير الإسلامى أن يخرج للمحنة الجديدة أندادا لها من المفكرين المؤمنين خلفاء الغزالى والأشعرى وورثة الحكمة والتصوف وأعلام المحافظة والإصلاح ، « وأعظمهم الإمام المصرى الشيخ محمد عبده . فإنه حفظ العقيدة الموروثة دون أن يمس بها وجدد الإيمان بإله الإسلام السرمدى بلا أول ولا آخر ، فردا لا مثيل له فى قدرته وكماله ، حيا عالما مريدا سميعا متكلما بصيرا ، يخيل إلى من ينظر إلى هذه الصفات لأول وهلة أنها حكاية معادة من بقايا الماضى ، لولا أن الشيخ محمد عبده ينفض عن الدين ما علق به من جمود القدرية ويقرر نصيب الإنسان من التبعة وواجبه فى إصلاح العالم معتمدا على عون

الله له فى إقامة النظام الاجتماعى الصالح والقيم الأخلاقية الملائمة لذلك النظام » .

* * *

ومن متاعب علماء المقارنة بين الأديان من يعولون أولا وآخرا على طبيعة الأرض والسكان فى تعليل العقائد أن يعللوا هذه القوة - قوة العقيدة الإلهية فى الإسلام - بعلة طبيعية يتواضعون عليها ويطبقونها على سائر العقائد ، إذا كان المسلمون قد انتشروا فى بقاع كثيرة بين أمم مختلفة فى أزمنة متفاوتة فلا تصلح العلل المتفرقة بين هذه البقاع والأزمنة لتعليل عقيدة واحدة ، ولا معنى للتفسير إذا اشتركت جميع هذه العلل فى أثر واحد ...

ولكنهم - على وضوح الخطأ فى الاستناد إلى سبب طبيعى واحد لتفسير هذه الظواهر المتعددة يتلاقون عند وجهة يكررونها على نحو متشابه ، ولا يقع الخلاف فيها كثيرا بين مدارسهم المتناقضة ، ومنها المدارس التى تعطى الأديان حقها من أدب الرعاية والاحترام والمدارس التى تستخف بأسبابها ونتائجها ، ولا تتكلف لها ما ينبغى لموضوعها من التثبت والإمعان فى المراجعه والتحقيق .

تلك الوجهة الواحدة هى غلبة العوامل « الجسدية » على عقائد الديانة الإسلامية ، وبرهان هذه الفلسفة الحسية عندهم هو الاعتماد على السيف فى نشر الدعوة وأوصاف النعيم السماوى فى الدار الآخرة .

وقد يكفى لإسقاط هذا الرأى ما ألمعنا إليه من استحالة تفسير العوامل المتناقضة بعلة طبيعية واحدة ، أو يكفى لإسقاطه إحصاء المسلمين والمقابلة بين عددهم فى البلاد التى فتحت بالسيف ، والبلاد التى لم تحارب المسلمين ولم يحاربوها ، أو إحصاء عدد الداخلين فى الإسلام على أثر الفتح وعدد الداخلين فيه مختارين بعد ذلك بعصور متطاولة ولكننا نكتب هذا المقال بين معالم شهر رمضان ونقنع منه بصبغة واحدة تدل على حكم الإسلام فى مسائل الحس وواجب المسلم نحوها ، ولا تحتاج إلى دلالة أخرى لتقرير موقف الإسلام بين الحياة الروحية ، والحياة الجسدية ، وتلك الصفة هى تخصيص شهر كامل من شهور السنة ، تقوم فيه حياة المسلم خلال هذا الشهر على حكم شهوات الحس وإخضاعها للإرادة فى أقوى مطالب الجسد من طعام ومتاع ، وهى فريضة تعلم المسلم واجبه فى سائر أيام حياته ، وتلهمه أنه صاحب ضمير يملك زمام نفسه ويأخذ من الحس بما يشاء الإنسان العاقل المريد .

وكل فريضة من فرائض الإسلام هى فى الواقع صورة أخرى من صور هذه الرياضة العامة فى جميع أوقات الحياة . فالمسلم لا يقف

بين يدى الله خمس مرات فى اليوم ليكون (مخلوقا حسيا) مستغرقا فى مطالبه الجسدية ولا تجب عليه الزكاة لأنه (مخلوق حسى) ينقاد لمطامع النفس وشهوات الجسد ، وليس الحج بواجبه عليه لأنه (مخلوق حسى) يستسلم للدعة ويطمئن إلى الراحة ويحجم عن مشقة السفر وبذل المال والتضحية بشىء منه وهو مرتحل أو مقيم ، بل هو لا يشهد بوحدانية الله ليشرك معبودا آخر مع الله يتمثل فى عبادة الدنيا والاستسلام لغواياتها على وجه من الوجوه .

إنما العقيدة الإلهية فى الإسلام عقيدة حسية روحية كما ينبغى أن تكون كل عقيدة يؤمن بها كائن حى عاقل له جسد وروح .

والله خالق الحياتين ومانح السعادتين فى الدارين ، فلا ينبغى أن يكون قوام عبادته مسخ الجسد وازدراء الدنيا ، ولا أن يكون قوام عبادته تسليم الدنيا للشيطان والابتعاد منها كأنها من عمل عدو لله وليست من عمل الله ولا من نعمه التى ارتضاها لعباده بتدبيره وهداه .

* * *

ونختم هذا المقال كما بدأناه فنعيد فى ختامه أن علم (المقارنة بين الأديان) يسمى علما مع الحيطة ... لأنه معارف شخصية يقيمها المشتغلون به على أسس مختلفة ، ولكننا نعيده لنضيف إليه شاهدا من الشواهد « المحسوسة » على وجوب الحيطة فى تناول آراء الباحثين فى هذا العلم ، فإن بها لنقصا يتبين للناظر فيها كلما قابل بينها وبين الحقائق الثابتة عن تاريخ الإسلام ، فلا مناص من تغييرها أو تغيير التاريخ الثابت الذى لا ينكرونه إذا عادوا إليه بالتمحيص النزيه .

إذا صدق علم المقارنة بين الأديان على أسس الأسباب الطبيعية التى تفهمها مدرسة التعليل الطبيعى وجب أن يكون اعتقاد المسلم بالله كالاعتقاد (بشيخ عربى) كبير تضاعفت قواه الحسية عن النسبة التى تكون بين رئيس قبيلة وبين رئيس الخلائق جميعا .

وصاحب الأمر والنهى فى السماوات والأرضين .

ولكن علم المقارنة بين الأديان لا يصدق الحكم فى هذه القضية ، لأن « الله » فى عقيدة المسلم ينسخ آداب الشيخ العربى القديم وأولها العصبية وإيثار الآل والبنين . وأين يجد الباحثون أثرا من آثار الشيخ العربى فى معبود سرمدى لم يلد ولم يولد ولا فضل لأحد من العالمين عنده بغير التقوى ، وليس يحب العدوان والمعتدين ولا يأمر بغير البر والإحسان .

فإن دليل المقارنين بين الأديان ليتخبط فى طريق مضلة لا تهديه إلى شيخ ولا إلى شىء لأنه يولى وجهه إلى قبلة غير القبلة وعلى سبيل غير السبيل فإذا أدار وجهه عنها فأينما يول فثم وجه الله .

عباس محمود العقاد

مختار من الشعر القديم والحديث

نجد

للأستاذ حسن جاد
مبعوث الأزهر بالرياض

تلك الرياضُ وهــذه نجــدُ ... الشعرُ والتاريخُ والمجـدُ
ماضى العروبة فى مفاخرها ... وعلى رُباها رفرف الخُلد
وأرومة الفصحى وقد درجتْ ... فى حِجرها وصفا له، الوِرْدُ
شبَّ البيانُ العبقرىُّ بها ... فرعتــه وهى لعبقرٍ مَهْدُ
وعلى ثراها من مشارعه ... هطل الحيا وتفجــر الصَّلد
عُصمُ إذا (ثهلان) رجّعها ... صغت الرُّبا وتلفت الوَهْد (١)
يا نجد أين صباك مُلهمةً ... للشعر وهى رقيقةٌ رَوْدُ (٢)
مسكيّةُ النفحات ضمخها ... العَبْهرُ المنضور والرَّند (٣)
والبرق حنَّ لخفق وامضــه ... قلبُ المشــوق فكاد ينقد
كم شاقَهُ اللهفان مُدَّكراً ... وتوهمتــه حُليَّها الخوْدُ
وشميمُ ذياك العرارِ وقــد ... رقَّ العشىُّ وراق يا نجــد
طارتْ إليك بنا مجنحــة ... كالبرق أعجل ومضه الحفْدُ (٤)
ركبتْ سراة الريحُ ملجمة ... فعنا الجماحُ وذُلِّل القوْدُ (٥)

---

(١) الوهد : الأرض المنخفضة وثهلان : جبل بنجد . (٢) رود : لينة .
(٣) العبهر : النرجس أو الياسمين ــ الرند : شجرة طيب الرائحة .
(٤) الحفد . الإسراع (٥) السراة : الظهر . والقــود : القيادة .

تطـوى الفضاء فلا يعوقهـا ... بحـر طغى موجا ولا طـودُ
وتشـق جيب السـحب عانيـة ... وأزيزُها فى جوفها رعـــد
تنقض جارحة فإن صعدت ... فمُسدَّد لم يُخطه القصـــد (١)
وكأنما الجبل الأشم يُرى ... منها كثيب رمْلُه مَهدُ (٢)
حتى أظلتنـــا سماءُ رُباً ... فى ظلها يستروح الجهد
يا ساهر الأشـــواق أرقه ... طولُ الحنين وشـفه الوجـد
يصـــبو لأهل بمصر وقـد ... شط المزارُ وأوغل البُعْـد
أقبلت من وطن إلى وطن ... حان فلا بُغض ولا حقـد
أهـلوه أهـلونا يظللنـــا ... علـم ويجمع بيننـا الود
هوِّن عليك فلست مغـترباً ... تلك الديار لنـا بها عهـــد
ســبق الخيال إلى مطارحها ... شوقا وطـار بأفقها يشْدُو
كم قـد غـدا والصبح منبلج ... وسرى وجنح الليل مُرْبَد
ولـكم حكى عنها وصـــورها ... فـكأنها لعيوننا تبدو
حملت صباها منـه راوية ... يحدوه من نفحاتها النَّد (٣)
وعلى ضفاف النيل سامِرُه ... قد شاقه الإنشادُ والسَّرْدُ (٤)
اليوم رَأىَ العين نُبصرها ... بعـد الخيال ويصدُق الوعد
وعلى رمال البيد لاح لنـا ... واد فسيحُ الأفق مُمْتد
مشت الحضارةُ فى جوانبـــه ... فصبا إليها السَّهل والنَّهْدَ
وبدت حواشـــيه مطرزة ... فـكأنه من وَشْيها بُرْد
يجلو (الرياض) على ترائبه ... ركـنا وطيداً ليس ينهـد
شماً بواذخ كلما نهضت ... عصماءُ منها طالها ندُّ (٥)
طلعتْ نجومُ الكهرباء بهـا ... وزانت الشرفاتُ والعُمْد

(١) الجرحة : واحدة الجوارح وهى سباع الطير . والمسدد : السهم
(٢) المهد : الأرض المستوية . (٣) الند : الطيب والعنبر .
(٤) السرد : جودة سياق الحديث .
(٥) طالها : فاقها فى الطول . والند : المماثل ، والمراد بذلك قصور الرياض وعمائرها الضخمة

وترى الموارق فى طرائقها ... زُمراً ينوء بحصرها العد (١)
مجنونة الأبواق نافرة ... نفرَ الظباء يروُعها الصَّيْد
أين النواجى فى مفاوزها ... قُلصاً وأين عِتاقها الجُرْدُ (٢)
أنا من صبا للبيد يأسِرُه ... منها فضاءٌ ماله حدُّ
وسكونُها ذاب الضجيج به ... إلا رسيمُ النوق والوخد (٣)
ومساؤها الساجى يهيم به ... سارى الخيال ويُقدَحُ الزَّندُ (٤)
ونجومها حبباً على ثبج ... والليل مدَّ عُبابه المد (٥)
ورمالها تبر يفضِّضُه ... بعد الأصيل من الضحى رأدُ
وخيامُها السجواء قد سعدت ... فيها الحياة وأسعف الجد
والشاء والراعى ومعزفة ... والشيح والقيْصُوم والمرْدُ (٦)
قف سائل الطلل المحيل بها ... إن كان فيه لسائل رد
أين المهلهل فى ملاعبها ... غزل الشباب يروح أو يغدو
وعلى (عنيزة) أو بذى حُسُم ... كم شدَّ وهو الفارسُ الجلد (٧)
يا نابغىَّ الليل كيف ترى ... ليلا ليوم الحشر يمتد (٨)
كم ضاق قبلك ذو القروح به ... فى (إثمد) وأمضَّه السُّهدْ
ناما بليل ما لأوله ... من آخر أو يأتى الوعد
أغفى به الأعشى وكان بها ... صنَّاجة بسرى الدجى تحدو
شُدتْ أنامله على وتر ... يطويه فى (منفوحة) لحْدُ (٩)

---

(١) المقصود بالموارق : السيارات الكثيرة الصاخبة الأبواق بمدينة الرياض .

(٢) النواجى : جمع ناجية وهى الناقة تنجو براكبها وتجتاز المفاوز . والقلص : جمع قلوص وهى الشابة القوية والعتاق الجرد : الخيل الأصيلة . (٣) الرسيم والوخد : نوعان من سير الإبل .

(٤) الساجى : الساكن الهادى والزند : ما يقدح به الشرر . والمراد تفتح القريحة وتوقدها .

(٥) الحبب : ما يعلو الماء من فقاقيع والثبج : وسط الماء أو اضطرابه .

(٦) المرد : الغض من ثمر الأراك (٧) عنيزة وذو حسم من مواقع حروب البسوس . والجلد : القوى . (٨) كان النابغة وذو القروح (وهو امرؤ القيس) مشهورين بالشكوى من طول الليل . والمراد بالليل الآخر الموت .

(٩) منفوحة : قرية بجوار الرياض بها قبر الأعشى . وكان يسمى صناجة العرب للتغنى بشعره .

أيْك البيان الحُرّ منذ نما | فى الجاهلية غُصنُه الملد (١)
ما زلت فى الإســلام حِلبته | وبه تدفق نبعُك العد (٢)
حتى أظلك بعــد منبهةٍ | ليلُ الخمول وأطبق الرّقد (٣)
فالنبع شحّ وغاض دافقــه | والروض جفَّ وصوح الوَرْد
والجهل أطفأ من خرافته | نور العقول فأبهم القصــد
ثم انتبهت على مُجَلجِلةٍ | للبعث يطلقها فتى نجْدُ (٤)
فسلى (عُيَيْنة) كيف ردّدَها | مثل الأذان إمامُها الفردْ (٥)
(والدّراعيّة) كيف رنّ بها | صوتُ البشير ورفرف البند (٦)
درع حبتْه حين لاذ بها | وجنودها للوائه جنــد
والمشرفيةُ للهدى سند | والدين نعم العونُ والأيدُ (٧)
تقوى السيوف الفاتحاتُ به | وبدعوة الإصلاح تشْتدُّ
والملك مالم يستقل على | أسسٍ من الأخلاق ينهد
قد ينهض الشعبُ الجريح إذا | لم ينطفئْ من رُوحه الوَقْدُ
ويعود مرفوع اللواء وما | لمُضيع أخلاقه عَــوْدُ
والعبدُ حُر من تخلقه | والحُرّ من شهواته عبد
قُلْ للمُدلّ بكل مُخْترع | يُشْقى الحياة ورُوحهُ صَلدُ (٨)
أعماه عن نور الهدى صلف | وأضــله الإلحاد والجَحْد
أين السعادة فى مدمرة | تُفْنى ؟ وأين العيشةُ الرّغد
قالوا : السلام فقلت : ينشدهُ | يا للأسى أعــداؤه اللــد
وبكوه موءوداً ومِنْ عجب | يبكيه من بيمينه الوأدُ

---

(١) الملد : الناعم اللين . (٢) العد : الكثير الماء . (٣) الرقد : النوم

(٤) النجد : الشجاع ، والمقصود به هو الإمام الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » الذى نهض بدعوة الإصلاح الدينى فى نجد بعد رقدتها الطويلة فى ليل الجهل والخرافات ، وذلك حوالى عام ١١٥٠هـ

(٥) عيينة : هى البلدة النجدية التى انبعث منها صوت إمام الدعوة « محمد بن عبد الوهاب » .

(٦) الدارعية : بلد الأمير سعود الذى ناصر دعوة الإمام « ابن عبد الوهاب » ــ البند العلم الكبير .

(٧) الأيد : القوة . (٨) صلد : متحجر .

مدنيّةٌ خُدِعَ الغَرِيرُ بها — لى فى بريق طلائها زُهْدُ
قلق تَعقَّدت النفوسُ به — وتوقع للشر مُمْتَد
وصراعُ غاب من شريعته — أن يستبدّ بأعزل وَرْدُ (١)
ولربما جر الخرابَ على — دنيا الخلائق أحمق وغدُ
السيفُ لم يعتد حامله — بعقيدة أولى به الغمد
والعِلمُ ذو حدين : نافعهُ — حَدٌّ وجانبُ شره حد
إنّا ودينُ الله عمدتنا — لسنا بغير الله نعتد

* * *

زمن أدالك فى تداوله — تجرى عليك النحس والسعد
والدهر صفو بعده كدر — والعيش صاب بعده شهد
قد أذّن الفجر المضىء فلا — يحجبْك عن أضوائه سَدٌّ
صُبْحُ العروبة لاح بعد دُجى — من ليلها وتبين الرشد
فخذى مكانك فى انتفاضته — نهضَ الأسير وحُطِّمَ القيْد
قومى انهضى وابنى ولا تهنى — كيما يعود لأرضنا المجد
حيا صباح عُلاك مُطْلِعِه — وله الثناء الجم والحمد
(وسقى ديارك غير مفسدها) — غدق عميمُ السَّح يا نجد

حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية
ومبعوث الأزهر (بالرياض)

---

(١) الورد : الأسد القوى

الكتب

للأستاذ محمد عبد الله السمان

---

١ – تاريخ الإسلام فى الهند:

للأستاذ عبد المنعم النمر

للإسلام والمسلمين تاريخ حافل فى الهند استقر هناك خلال أكثر من ثمانية قرون ، والأستاذ عبد المنعم النمر المدرس بالأزهر الشريف حين كان مبعوثا للمؤتمر الإسلامى والأزهر فى الهند عام ١٩٥٦ جعل هدفه أن يكتب تاريخ الإسلام فى الهند ، حيث المراجع ميسرة والآثار الإسلامية قريبة منه والعلماء المؤرخون الهنود من المتأخرين لا زالوا على قيد الحياة .

ونحن نتعجب مع المؤلف لهذا الإهمال فى العناية بتدريس تاريخ الإسلام فى الهند ، فى الوقت الذى نعنى بتدريس تاريخ أوربا والغرب المزدحم بالصليبية الحمقاء .

لقد قدم المؤلف لسفره الضخم ببحث ألقى أضواء على الهند عامة تشمل أوضاعها السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وحضارتها ومراحل الغزو الأجنبى منذ الغزو الآرى إلى قبل الميلاد بقرون طويلة إلى الغزو الانجليزى الأخير ، ثم تحدث عن الأديان العديدة التى استقرت فى الهند قبل الإسلام ، وأبرزها الهندوكية والبوذية وعن تسرب الإسلام عن طريق العلاقات التجارية وعن فتح الإسلام للهند على يد الدولة الغزنوية وبطلها الفاتح محمد الغزنوى أواخر القرن الرابع الهجرى إلى أن صفى الاستعمار الانجليزى هذا الحكم الإسلامى فى متوسط القرن التاسع عشر .

وعرض المؤلف لمزايا الحكم الإسلامى فى الهند ، حيث استقر العدل والسلام والأمن وغرس فيها ضروبا من الحضارة فى أرقى أطوارها ، كما عرض لنماذج من البطولات الإسلامية التى صنعت بسواعدها أروع ما عرفته البشرية من الفدائية والتضحية .

وختم المؤلف مؤلفه الذى جاء فى زهاء خمسمائة صفحة ، ببحث عن الثورة الهندية

ضد النفوذ الانجليزى فى مايو عام ١٨٥٧ حيث استمرت أربعة شهور ، استقرت بعدها السيطرة الانجليزية التامة على شبه القارة الهندية وانهارت آخر لبنة فى الحكم الإسلامى .

وفى هذا البحث الأخير قدم المؤلف وصفا دقيقا للوحشية الانجليزية خلال الثورة الهندية ومهما بحثت عن مرادفات للخسة والنذالة والهمجية فى قواميس اللغة بأسرها ، فلن تفى بما هو أهل للوحشية الانجليزية القذرة ولقد تجلت وقاحة الانجليز فى معاملتهم بعد إخماد الثورة لآخر ملوك المسلمين (بهادورشاه) وأبنائه ، بما يجل عن الوصف ، ولا تحتمله الأعصاب .

والواقع أن الأستاذ عبد المنعم النمر قد منح المكتبة الإسلامية العربية مؤلفا كانت فى مسيس الحاجة إليه ، حيث سد فراغا كان لابد أن يملأ ، كما أدى إلى جانب مهمته - كمبعوث للأزهر والمؤتمر الإسلامى - واجب الوفاء ، فقد حقق هدفا أدبياً دينيا ، وليت مبعوثينا فى شتى البلاد الإسلامية يقتدون به فيستطيعون أن يسدوا للتاريخ والإسلام أجل الخدمات .

* * *

٢ — ديوان ابن الدمينة :

للأستاذ أحمد راتب النفاخ

تحقيق هذا الديوان شطر من رسالة الماجستير للمؤلف والشطر الآخر دراسة مطولة للشاعر والديوان معا ، وفى هذا المؤلف جعل دراسته ذات شطرين :

الأول عن ابن الدمينة الرجل ، والآخر عن ابن الدمينة الشاعر ، وجعل الشطر الأول فى فصلين ، أولهما عن مصادر ترجمة ابن الدمينة وقيمتها التاريخية ليعتمد فى الحديث عن حياته على أساس نقدى صحيح ، والآخر عن حياة ابن الدمينة نفسها . وأما الشطر الثانى من الكتاب فقد جعله المؤلف فى ثلاثة فصول ، عن رواية شعر ابن الدمينة وتدوينه ، وعن اختلاط شعره بغيره ، ثم عن أغراض الشاعر الشعرية ومذاهبه فيها .

وابن الدمينة شاعر عربى ينتمى إلى قبيلة خثعم ، ولكن مولده ووفاته مقتولا مجهولان اضطربت فى إثباتهما آراء المؤرخين ، وبذل المؤلف المحقق فى هذا الصدد جهوداً ضخمة مضنية ، وخرج بأن الشاعر لم يكن إسلاميا ولا من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية وإنما كان شاعراً عباسياً محدثا .

وحقق الأستاذ النفاخ شعر الشاعر تحقيقاً دقيقاً عميقا ، وقد اعتبر - كما ذكر فى المقدمة - أن الشطر الأكبر من شعر الشاعر جاء نسيباً عذريا وهو الذى اختلط بشعر غيره ، وأما الباقى فقد جاء نسيباً مشوبا بموضوعات وصفية

من أغراض أهل البادية ، ثم ألم ببعض عيوب القافية فى شعر ابن الدمينة ، وتناولها بالتحليل والتفسير .

إن الأستاذ النفاخ أديب متعمق من الإقليم الشمالى ، وفى تحقيقه لهذا الديوان قدم للمكتبة أثراً أدبيا له قدره ، والتقدير اللائق به ليس لأنه حقق ديوانا ، وإنما لأنه اختار شاعراً مغموراً لم تتفق روايتان على تاريخ مولده ووفاته والعصر الذى عاش فيه ، ولذلك بذل مجهوداً مضنياً وحسبنا دليلا هذه الأمهات من المراجع الأدبية والتاريخية والمخطوطات والمعجمات وهى مائة وستون مرجعا أثبتها فى تحقيقه عدا غيرها مما ضاق به الحصر ، ومع هذا فالأديب النفاخ يرى أن بين عمله وبين ما يريده لهذا الديوان بونا بعيدا ، وهو يأمل أن يجد من آراء الزملاء الدارسين ما يعين على استكمال أسباب التحقيق وفوق كل ذى علم عليم .

٣ — وجهة العالم الإسلامى :

للأستاذ مالك بن نبى

ترجمة الأستاذ عبد الصبور شاهين

الأستاذ مالك بن نبى أحد أبناء الجزائر المناضلة ، وهو من المفكرين القلائل الذين نشئوا فى أوربا وأفنوا زهرة شبابهم فى طلب العلم هناك ، وكان تعمقهم فى الثقافة الأوربية سببا فى تحررهم من نفوذها ومعرفتهم لمصادرها ومواردها .

وللأستاذ مالك مجموعة من المؤلفات القيمة اختار لها عنوان : مشكلات الحضارة ، وبحوثه جميعها ربطها ارتباطاً تاما بالثقافة الإسلامية ، ويقدمها ناضجة واعية ، تبدو عليها هندسة البناء ، فأصبحت تؤسس مدرسة على مستوى أعلى فى الأفكار الإسلامية ...

وكتابه هذا « وجهة العالم الإسلامى » دراسة عميقة ، قسمها إلى ستة فصول :

مجتمع ما بعد الموحدين ناقش فيه نظرية الظاهرة الدورية ، وقدم إنسان ما بعد الموحدين ، والاتصال الأول بين أوربا والإسلام ، والفصل الثانى : النهضة وناقش فيه « حركة الإصلاح » التى بدأت بكتب ابن تيمية وكانت الحركة الوهابية امتداداً لها ، ثم جاءت عقلية جمال الدين الأفغانى التى كان هدفها الأول تقويض نظم الحكم الموجودة آنذاك كما يعيد بناء التنظيم السياسى فى العالم الإسلامى على أساس الأخوة الإسلامية ، أما هدفه الثانى فهو مكافحة المذهب الطبيعى الذى كان متفشيا ، كما ناقش فى هذا الفصل « الحركة الحديثة » التى ليس لها فى الواقع نظرية محددة كما يذكر المؤلف - لا فى وسائلها ولا فى أهدافها ، وهى لم تتجه نحو الأعمال بل اتجهت إلى الأشكال ، كما لم تأت بعناصر

ثقافية جديدة لعدم اتصالها الواقعى بالحضارة الحديثة .

وفى الفصل الثالث تحدث المؤلف عن فوضى العالم الإسلامى الحديث وعواملها الداخلية والخارجية ، وفى الفصل الرابع عن فوضى العالم الغربى ، وفى الفصل الخامس عن الطرق الجديدة لبناء النهضة الشاملة ، وفى الفصل السادس عن بواكير العالم الإسلامى التى تبشر بمستقبل زاهر ، وختم المؤلف كتابه ببحث موجز عن الكمال الروحى لعالم الإسلام .

والحقيقة التى لا نكران فيها أن الأستاذ مالك بن نبى وثيق الصلة بالثقافة الغربية ، ووثيق الصلة بالأفكار الحديثة ، وواسع الاطلاع إلى درجة تفوق الوصف ، وهو فى مؤلفاته يعنى بالتخطيط الهندسى والتعمق فى الدراسة ، والواقعية فى معالجته المشكلات والقضايا .

٤ — أشعة خاصة بنور الإسلام :

للمسيو إيتين دينيه

ترجمة الأستاذ راشد رستم

هذه الرسالة هى العدد السابع عشر من سلسلة الثقافة الإسلامية ، أما المؤلف فهو فنان فرنسى عاش زهرة شبابه فى خضم الفكر الإسلامى ، وبعد بحث وروية وتيقن وتفكر أعلن إسلامه عام ١٩٢٧ ، وجعل مهمته الانتصار للحق ، فبذل جهدا مشكورا فى الدفاع عن الإسلام ودحض المفتريات التى ألصقها بالإسلام - عن قصد - بعض المستشرقين الموتورين ، وأخرج للمكتبة الإسلامية عدداً من المؤلفات الجليلة .

وفى هذه الرسالة عرض المؤلف لمناقشة المعجزات وطابع الإسلام والإصلاحات الدينية إزاء حركة مصطفى كمال أتاتورك ، كما عرض المؤلف لمسائل : الخمر ، والوسيلة ، والعلم ووضعه فى الإسلام ، وتعدد الزوجات وغير ذلك ، وفى كل مسألة ينفى عن الإسلام الأباطيل التى صاغتها الأهواء .

ويقدم المؤلف لرسالته بأنه لا عدوان فى الإسلام . وأن وصية الله لنا معشر المسلمين ألا نعتدى على أحد مسالم لنا ، أما أهل السوء الذين لا ينفكون يهاجمون الإسلام بالأباطيل ويحاربونه بالمفتريات فليس علينا جناح بعد ذلك أن نظهر من نوع سلاحهم ، وندفع عن بيضة الإسلام بهتانهم فواحدة بواحدة والبادي أظلم .

والواقع أن السيد « ناصر الدين دينيه » وهذا هو الاسم الجديد بعد اعتناقه الإسلام، ناقش بعنف الزيغ فى بعض العقائد ، وكان لكتبه أثر بالغ سواء فى فرنسا مسقط رأسه ، أو فى الجزائر وطنه الثانى ، والذى أوصى أن يدفن فيه وقد نفذت وصيته عام ١٩٢٩ م .

محمد عبد الله السمان

بريد المجلة

الرئيس يشيد بالأزهر فى الهند :

الكلمة التى ألقاها السيد / الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى حفل الاستقبال الذى أقامته جمعية علماء الهند تكريما لسيادته :

« أيها السادة العلماء » :

إننى أحمل إليكم من القاهرة ـ مقر الأزهر الشريف ـ تحية إخوان لكم يعملون معكم لنفس الأهداف التى يسعى إليها مجتمعنا ، وهى فى الواقع نفس القيم الإنسانية العالية التى يوصى بها ديننا ، وهى فى الوقت نفسه جزء من التراث الروحى للجنس البشرى — ذلك التراث الخالد الذى استطاع به الجنس البشرى أن يعبر على جسر من الإيمان فى عصور الظلام الأولى إلى الآفاق الروحية المشتركة .

« أيها السادة العلماء » :

إن الشعوب الإسلامية مدعوة اليوم للمساهمة بنصيب وافر فى خدمة المبادئ العليا السامية التى نريد لها أن تسود ، وإنى أعلم أننا لنجد من عقائدها حوافز تدفعها إلى العمل مع غيرها من الأمم التى تسعى خلال عقائدها الخاصة إلى نفس المثل العليا ، التى أرادها الله للعالم الذى خلقه وأبدعه ، وأراد له الخير وأراد له الهدى . وفقكم الله إلى أن تقوموا مع إخوانكم من علماء الإسلام فى النهوض بجزء من أعباء الرسالة العظيمة التى تعمل الشعوب الإسلامية على إقامتها مع غيرها من شعوب العالم المتطلعة إلى الحرية والعدل .

والسلام عليكم ورحمة الله .

شكر الأستاذ الأكبر للسيد الرئيس :

بعث فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر إلى الرئيس جمال عبد الناصر فى الهند يشكره على الكلمة السابقة :

أحمد إليك الله وأشكره على ما أمدك من عونه وتوفيقه فى جمع كلمة العرب والمسلمين على التواصى بالخير والتعاون على البر والتناصر فى الشدة ثم أقدم إلى سيادتكم أخلص الشكر وأصدق الدعاء على تنويهك

برسالة الأزهر فى كلمتك الكريمة الحكيمة للسادة علماء الإسلام فى الهند ، وعلى دعوتك وارثى الدعوة المحمدية وقادة الشعوب الإسلامية إلى العمل معا على نشر مبادئ الرسالة الخالدة: رسالة الوحدة والوئام رسالة الهدى والسلام : رسالة الله العامة التى لا تفرق بين دين ودين، ولا بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون . وعلماء الدين وزعماء الدنيا حريون أن يستجيبوا لهذه الدعوة الجامعة فيتضافروا على رفع المنارة الروحية فى طريق القافلة البشرية ؛ لتهتدى بنور الله إلى السبيل الواضحة وتنتهى إلى الغاية الجامعة ، أيدك الله بنصره وأمدك بروح من عنده وجزاك جزاء المصلحين المخلصين .

رسالة الأستاذ الأكبر

إلى مسلمى الفيلبين :

يحرص إخواننا مسلمو الفيلبين على أن يسمعوا صوت إمام المسلمين وشيخ الأزهر فى الشئون الدينية ، فهم لا يصومون إلا إذا أشار ، ولا يفطرون إلا إذا أفتى ، وقد اتصل بهم فضيلته فى يوم عيد الفطر عن طريق اللاسلكى وأبلغهم هذه الرسالة .

إخوانى فى الدين وفى الله مسلمى الفيلبين .

سلام الله عليكم ورحمته وبركانه وبعد .

فإنه ليسرنى ، ويشرح صدرى أن أعود إليكم فأتحدث معكم مرة أخرى حديثاً متصلا بحديثنا السابق فى غرة رمضان المعظم ، وكان موضوع حديثنا السابق التهنئة بحلول شهر رمضان أما موضوع حديث اليوم فهو التهنئة بحلول عيد الفطر المبارك .

إخوانى :

استقبلنا بالأمس القريب شهر رمضان وتلونا وسمعنا قول الله فيه « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

وكنا أمام هذا الأمر الإلهى فريقين: فريقا آمن بربه وعرف مكانة الشهر عنده فقام بواجبه فيه فصامه ، وأخلص فى صومه ، واستمر الشهر كله صائما حتى أتم الله عليه نعمته بالامتثال والطاعة ، وفريقا آخر انحرف قلبه عن أمر الله ، فانتهك حرمة الشهر بفمه ، فأكل وشرب ، وبقلبه ، فحسد وحقد ودبر الكيد ، وبنفسه فامتدت شهوته إلى ما حرم الله عليه واستمر هكذا حتى ودع رمضان ورمضان ساخط عليه .

فإلى الفريق الأول الذى قام بواجب الصوم نوجه التهنئة له بهذا التوفيق الذى ظفر به ، وتهنئة أخرى باستقبال العيد: عيد الفطر المبارك

الذى نستقبله بفرحة العبادة ، وشكر المولى على ما أنعم به علينا ، وأما الفريق الثانى فإننا ندعو الله أن يوجه قلبه إلى الهداية وأن يأخذ بيده إلى الطريق المستقيم .

أيها السادة :

إن يومنا يوم عيد وقد انقضى شهر رمضان وثبتت رؤية هلال شوال عندنا فى مساء السبت ٢٦ من مارس وبهذا صار يوم الأحد ٢٧ من مارس عيد الفطر صلينا فى صباح العيد وأفطرناه وهنأ به بعضنا بعضا بعد أن ثبتت رؤية هلال شوال فى الجمهورية العربية المتحدة ، وإذا لم تعلموا أنتم برؤية هلال شوال إلا بعد ظهر يوم الأحد المذكور فإن اليوم التالى وهو يوم الاثنين ٢٨ من مارس يكون هو العيد عندكم وعليه يجب أن تعزموا من الآن على صلاة العيد صباح الغد وبهذا صحت الرواية عن النبى صلى الله عليه وسلم ، واختاره جمهور الفقهاء وبه نعمل ونفتى .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأبعث إليكم ، وإلى سائر المسلمين فى جميع بقاع الأرض خالص التهنئة داعيا الله لنا جميعا بالألفة والمحبة ، واتحاد الكلمة ، وجمع الشمل وأن يؤيدنا تعالى فى نشر ديننا والعمل بما يرضيه ويقربنا إليه .

فلتفرحوا وليهنئ بعضكم بعضا متحدين قلبا وهدفا ، وغاية وسلوكا وأمنا وطمأنينة وليمد بعضكم إلى بعض - على ما بينكم - من بعد المسافات ، واختلاف اللغات وتباين الأقاليم - يد التهنئة والتعاون والتكتل ، والتآلف والمحبة التى تجمع قلوبكم وتوحد كلمتكم وتطهر أرضكم من أشواك الاستعمار وظلمه ومكايده والله معكم أينما كنتم «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عيد الفطر عيد مبادئ ومثل :

أبرق فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة بمناسبة عيد الفطر المبارك يقول :

السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة .

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، وبعد فإن عيدنا اليوم عيد مبادئ ومثل لأنه عيد القيام بالواجب الذى فرضه الله علينا ، هو عيد التواد والتآلف والتحاب والتعاطف والتراحم والوحدة الجامعة بين القلوب والسلام لجميع الناس .

المعانى الفاضلة للصيام :

ففرحة المسلمين إنما هى فرحة زينة وعبادة تجمع بين حظى الجسم والروح فتبقى على

المعانى الفاضلة التى اكتسبها المسلمون فى شهر الصيام من إيمان وصبر وعزم وقوة وإرادة ، وما أحوجنا إلى هذه المعانى تستقر فى نفوسنا لتكون لنا النور المشرق الذى نهتدى به فى نهضتنا الحديثة التى أرسيتم قواعدها وأقمتم بناءها الأشم .

الدين أساس القوة والمجد :

وإن مثل هذا البناء الضخم ليحتاج إلى أسس من الدين وقواعد من الخلق قوامها التربية الروحية الأصيلة ؛ لأن قوة الروح هى القوة الدافعة إلى الخير المحققة للنصر فى جميع الميادين .

وما أحرى أمتنا بالشكر تقدمه إلى مولانا وبارئنا على ما أولاها به من نعم النصر وجمع الكلمة ووحدة القلوب على يديكم .

وإنى إذ أهنئكم بالعيد — باسم الأزهر علمائه وطلابه — فإنما أهنئ فيكم المبادئ القوية التى آمنتم بها وآمن بها شعب من ورائكم يؤمن بالبناء والتعمير ولا يعرف التخريب ولا التدمير وبذلك سرتم بنا من نصر إلى نصر .

وإن المبادئ التى تتركز فى النفوس وتؤمن بها القلوب تصبح عند أصحابها أعز من نفوسهم ومن أموالهم ومن كل ما يملكون .

فسيروا على بركة الله تكلؤكم رعايته ، وتحدوكم عنايته والله معكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

محمود شلتوت

بدعة استحضار الأرواح :

كانت الروحية الحديثة أو الدعوة الخبيثة قد شغفتنى ردحا من العمر كنت أحسب خلالها أنى أحسن صنعا - وزين لى باطلها ما روجه لها المروجون وزيفها الداعون . إما عن حسن نية وسذاجة تفكير وإما عن سوء طوية وخبث تدبير ، فألبسوها ثوب العلم المتحرر والتجريب المتكرر حتى شغلت على تفكيرى وأفسدت على تدبيرى ؛ كيف لا وهى تزعم أنها تقتحم الغيب المجهول وكل غيب يستهوى الفؤاد وتتوق إليه العقول ؟ .

حتى فجأنى الحق جل جلاله فى لحظة فأزال الله جل وعز ببركة روحانية رمضان المبارك عن عين قلبى غشاوة الضلال وأبان لى الحرام من الحلال فعلمت ما فى هذه الدعوة الخطيرة الماكرة من سموم تستهدف تمييع العقيدة وتهوين سلطان الدين فى النفوس وعدم الاكتراث بفرائض الله وأوامره بل وامتهانها والتشكيك فى قيمتها ويكفى ما يبثه ما يسمونه سلفربرش أو نبى

الروحية من عقائد زائفة فهو الذى يقول « إن ولاءنا لا لكتاب ولا لنبى ولا لعقيدة ولكن لله وحده » ويقول « دلونى على الرجل الذى لم يحن ركبته قط لله فلم يعترف به ولم يؤمن به بل أنكر وجوده وألحد فيه وهو مع ذلك يعامل الناس بخلق حسن لأقول لكم إنه هو الشخص السعيد الناجى فى عالم الروح » .

ولقد ثبت لى أخيراً ثبوتا قاطعاً لا شك فيه أن الشخصيات التى تحضر فى جلسات التحضير وتزعم أنها أرواح من سبقونا من الأهل والأحباب إن هى إلا شياطين وقرناء من الجن يلبسون على الناس ما يلبسون .

والآن وقد انقشع عن قلبى زيف الباطل ببركة إلحاحى فى الدعاء بقولى: اللهم أرنى الحق حقا فأتبعه وأرنى الباطل باطلا فأجتنبه ، لست أشك أن وراء هذه الحركة منذ نشأتها يهودى خبيث كابن سبأ شأن كل الدعوات الزائفة البراقة من إخوان الصفا قديما إلى الشيوعية والماسونية حديثا .

ولقد آليت على نفسى إبراء للذمة وانخلاعا مما كتبت أو حدثت ، ما جلست مجلساً دعوت فيه لهذه الدعوة الخبيثة عن حسن نية إلا جلست مثيله لهدمها ونقضها ولا كتبت فى صحيفة مؤيدا لها إلا كتبت مستنكرا معتذرا متبرئا ومحذرا إخوانى المسلمين من خداعها وزيفها مقررا بعد هذا الشوط الطويل أنى ما وجدت طريقا صحيحا إلى الله حقا إلا فى كتابه العزيز وسنة رسوله النبى الأمى الذى لا ينطق عن الهوى والتعلق بأهل البيت وعترته الطاهرين .

والآن وأنا أودع هذه الحقبة الشقية من عمرى أجدد فيها إسلامى وأستعيد فيها إيمانى أودع معها زملاء أعزاء وأصدقاء شرفاء لا أحمل لهم فى قلبى إلا كل عطف وإشفاق ورثاء ملحا على الله فى الدعاء أن ينير بصيرتهم وينقذهم من أوحال هذه العقيدة الفاسدة مؤكدا لهم أمرين . أولها أنه كقاعدة لا تتخلف ما من مشتغل بهذه الحركة إلا أصيب بفقد أحب أهله لديه وأعزهم عليه ويمكنهم تتبع ذلك فى كل من يعرفون وأنا أولهم . وثانيهما أن معتنق هذه العقيدة لا يموت حين يموت مسلما أو مؤمنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاللهم إنى أعتذر إليك مما كتبت أو حدثت أو فعلت وأبرأ إليك من ذلك كله ومن كل عقيدة تخالف الإسلام فى أية صورة من الصور .

اللهم قد بلغت اللهم فاشهد .

حسن عبد الوهاب

السكرتير السابق لجمعية الأهرام الروحية

فهرس أبجدى عام
لموضوعات المجلد الحادى والثلاثين

حرف (أ)

(ب)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

With the passing of time the Muslims began to feel impatient, and the idolators did not stop persecuting the weak Muslims nor did they slow down their oppression to the Call of Islam. At this critical stage the revelation of God came down to declare: " Permission (to fight) is given to those on whom war is made, because they are oppressed. And Surely God is able to assist them. Those who are driven from their homes without a just cause except that they say: Our Lord is God, And if God did not repel some people by others, cloisters, and churches, and synagogues and mosques in which God's name is much remembered, would have been pulled down. And surely God will help him who helps Him. Surely God is Strong, Mighty " (Surah. 22, Vs. 39—46).

The conflict between the Call of Islam and *disbelief* was a very serious one. It continued for several years and caused a number of battles by which the Muslims meant to repel the aggression of the disbelievers and the treacherous Jews. When this conflict was taking place inside the Arabian Peninsula, there were two great powers of imperialistic policy, viz., the Zoroastrian Persia and the Roman Empire with Christian foundations. These two powers rivaled each other in dominating the neighbouring regions and in extending the spheres of influence. At that time Persia exercized role over Mesopotamia, while the Roman Empire was in command over Syria.

Under such circumstances it was inconceivable for the Muslims to think of building for themselves a huge empire like the Roman and the Persian empires, or even of attacking them. What happened, however, was that aggression began from the non-Muslim side. When the Messenger Muhammad invited Chosroes the Emperor of Persia to embrace Islam, this wrote to his representative in the Yeman, Badhan, saying : " I have heard that there appeared in Mecca (Makkah) a man from the tribe of Qurayṣh pretending to be a prophet. Go to him and ask him to give up this claim completely, and if he refused to do that kill him and send his head to me. How could he risk writing to me when he is my slave ? "

Vanity and irresponsibility were not confined to the Persians alone. The Romans, too, began by provocation and aggression against the Muslims. They killed the Messennger's delegate to the Roman Mayor of Besra and did not let the people free to join Islam. They slaid and tortured those who were inclined to Islam or attracted by its call. Not only did the Romans do all that, but they further sent out their vanguards to Tabook

(Tobe continued)

to them and repeated his earlier words with the same frankness. They tried again their suggestive remark and he insisted on what he had already uttered. Then Muaawiyah interfered and said: " Let Abu Muslim go his way, he knows better what he says. "

This Islamic principle is well-established and affirmed, and has been observed by Muslim rulers so much so that it became known to all sections of the people. Muslims of different backgrounds consider the Califs and rulers as ordinary men whose infallibility and superiority to other people is no article of faith, and whose injustice and corruption instigate severe criticism from all public sides. This is not only in theory but olso in practice. It has been exercised on many occosions. For example, the famous poet Abu Al-Ala Al-Maarri launched his attacks against his contemporary rulers and governors, when they went wrong and abused their power forgetting their real status as hired employees. Moreover, a nomad once was admitted to the audience of a cretain Caliph, who was sitting on a higher place while the people were below him. Then the nomad asked the Caliph: " Are you God ? " " No, I am not God, " he replied. " Are you Gabriel ? " " No, " he said. The nomad added: " You are neither God nor Gabriel, so why do you sit higher ? Step down and sit with the people ".

These are a few examples but are very significant. Thay prove the practicability of the mentioned principle of the status of the ruler and the rights of the people. This principle was clearly conceived and properly observed by Muslims. The result was that every individual felt conscious of his responsibility and personality as to guard the truth and justice, command the good and shun the indecent. It is with such a spirit that an ordinary woman stood bravely in the mosque to oppose the Calif Umar who felt no humiliation or harm to declare to the people that the woman was right and he was mistaken.

The Policy of Islam in War:

For thirteen years starting from the advent of Islam the Muslims suffered all kinds of harm and persecution. They fled twice to Abyssinia and were finally driven from their homes and properties without any just cause, leaving behind their weak brethren in Mecca to face torture and cruelty from the idolators. Then they felt inclined to take revenge from the wrong enemy, but the Messenger exhorted them to patience and asked them to await the decree of God as he was not by then ordained to fight.

His viceroy on the earth. He is only a representative of the nation and its spokesman. The Four Wise Califs were clear about their position and knew that they were not successors to God but successors to His Messenger Muhammad in ruling the nation according to the Divine revelation. It is reported through Imam Ahmad that when it was said to Abu Bakr: O Calif of God, he said: I am the Calif of the Messenger of God, and I am satisfied with that. Moreover, when he was appointed to the Califate, he made a famous policy statement in which he said: " I have been chosen as your Head of State, but I am not the best of you. So if you find me right, help me; and if I am wrong correct me. The strong among you is weak with me until I take all dues from, and the weak among you is strong until I restore his right to him. Obey me as long as I obey God, but if I disobey Him, I have no right to your obedience."

Furthermore when Umar Ibn Abd-al-Azeez was appointed Calif, he made a public speech in which he said: " I am only like anyone of you, but God has shouldered me with a heavier burden. " This is the real status of Califs in Islam. The Calif is not necessarily the best person, although he is charged with the heaviest responsibility. He is a representative of the nation and a paid employee. This fact was clear to the Califs themselves, to the learned men, the literary figures, the poets and finally to the majority of the public.

It is reported through the great authority of Traditions Imam Bukhari that Aishah, the prophet's wife and daughter of Abu Bakr the First Calif, said: " When Abu Bakr was appointed, he said: My people know well that my profession could produce sufficient provisions to maintain my family, but I have become concerned with the affairs of Muslims. So my family will depend in their livlihood on what they receive from the Treasury as I shall be working for Muslims."

This is the function and status of the Ruler in Islam. He is an employed servant paid by the nation which appoints him and supervises his deeds to help him when he is right and correct him should he deviate.

When Abu Muslim Khawlani, the reverend doctor of Islam, once came in where Muaawiyah the fifth Calif was sitting, he said to him in frank words; " Peace be upon you, O hired employee. " The company of Muaawiyah suggested to Abu Muslim to say: Peace on you O prince, but he paid no attention

agreed to disallow slavery do allow taking prisoners of war and keeping them until a peace treaty is negotiated and the exchange of prisoners or ransom or heavy compensation is agreed to.

Nations at war develop very disturbing worries about their prisoners, and the ill-treatment received by these captives certainly justifies those worries. But with Islam it was a different story. During the propagation of the Islamic Call the prisoners taken by Muslims did not cause any worries to their people and states, because they were assured of fair treatment and did really enjoy it. we are told (Surah. 47, V. 4) that prisoners of war can only be taken after meeting an enemy in a regular battle, and even in that case they must be set free, either as a favour or after taking ransom. The former of these alternatives was the course adopted by the Prophet Muhammad in most cases, and there are many examples reported when thousands of prisoners were set free by the Prophet as a mere favour and with no reference whatsœver to redemption.

Prisoners of war were mentioned here because thier status is closely related to slavery. According to Islam, slaves are formerly prisoners of war taken after regular battles against disbelieving enemies who launch war against Muslims and try to hamper the spread of Islam. But, as already stated, Islam encourages the course of setting the prisoners of war free, and even if they are justifiably made slaves, their freedom is commendable. Thus we see that Islam has come to narrow the sphere of slavery and confine it to the minimum circle, and to enlarge the scope of liberty and raise the standard of slaves. It honours the slave by considering him a member of his master's family so far as treatment is concerned.

This is the attitude of Islam towards slavery. It is clear, therefore, that Islam cannot be said to encourage slavery or support slave-masters. It meant to abolish the slavery-system from the world by gradual and most wise steps. It resorted to this course because it was impracticable to eradicate overnight a system which was deeply rooted in social and economical life.

The Relation Between the Ruling and Ruled In Islam :

Authority in Islam belongs to the Nation, which is the possessor of sovereignty and is empowered to elect the Head of State, help him by good advice and oust him should he deviate or do injustice. The Calif is not the representative of God nor

taken as slaves. So were the captives in tribal and nomadic raids and indebted people who failed to pay back their debts.

When Islam came to find these conditions, it did not advocate slavery or even make any statement in support of it. On the contrary, it took every possible meassure to mitigate the practice of slavery and produced numerous revealed texts urging emancipation of slaves and opening all the possible ways to freedom. From the very beginning Islam did not address individuals only as to set free slaves in atonement for their sins and in seeking God's contentedness, but also made it incumbent upon the State to partake in setting free the slaves by means of contributing some amounts of collected alms to those who are trying to secure freedom through certain payments to their masters (Surah. 9, V. 60).

Nearly fourteen centuries ago Islam organized the emancipation of slave, and gave it full support and utmost encouragemeut. It ordained emancipation by means of exhorting the masters to set free their slaves. To realize this aim Islam encourages voluntary emancipation from the master,s side. Besides this commendable practice, there are other froms designed to help the slaves gain their liberty. For example, there is the *tadbeer*, which is a pledge making the slave's freedom conditional to his master's death. In this case the master makes a statement like " if I die, my slave becomes free, " and upon his death his slave's libeity immediately becomes effective. Another case is the *Kitabah* whereby the master and his slave reach an agreement according to which the latter gains his freedom in return for some payments to the former. Moreoves, when a slave-woman gives her master a child, she enters a transitional period in which she cannot be treated as a slave but enjoys a considerable deal of liberty which becomes complete upon the death of her present husband - like master. Furthermore, emancipation of slaves is enjoined in many cases as the only acceptable atonements for committing sins or making mistakes in swearing or fasting or the like.

The rule of Islam in fostering freedom was never confined to opening the doors of emancipation of the already enslaved people. But it was always concerned with the prevention of slavery and interested in combating it before it would take place. Whatever form of slavery that Islam kept was nothing more than what the civilized world has maintained nowadays. It is a well - known fact that the nations which have

Are those who know and those who know not alike? Only men of understanding mind." (Surah. 39, V. 9.) "God will exalt those of you who believe, and those who are given knowledge, to high ranks" (Surah. 58, V. 11.) "And for all are according to their doings. And thy Lord is not heedless of what they do" (Surah. 6, V. 133).

It is on these bases of justice, equality and brotherhood that Islam has established the relationship between the rich and the poor. It equalizes them in right and public obligations, and provides them with fair opportunities to make earnings. Then, it says to the rich: ". . . Spend of the good things that you earn and of that which We bring forth for you out of the earth . . . (Surah. 2, V. 267,) It commands the Ruler to "Take alms of their (Muslim's) property-thou wouldst cleanse them and purify them thereby . . . ." (Surah. 9, V. 103), and tells the poor to shun spite and envy; "And strain not thine eyes toward that with which we have provided different classes of them, *of* the splendour of this world's life, that we may thereby try them. And the sustenance of thy Lord & better and more abiding" (Surah. 20, V. 131). And to all of them it appeals: "Be God's bondmen, brethren." "The believers are brethren" (Surah. 49, V. 10;) and ". . . remember God's favour to you when you were enemies, then He united your hearts so by His favour you became brethren" (Surah. 3, V. 102.)

Whenever Muslim society is guided by these Divine principles, mutual brotherhood prevails, and grudge against the rich does not find any means to the hearts of the poor nor does injustice to the poor develop in the rich. All will exchange feelings of mutual co-operation and brotherhood.

It is no wonder then that Bilal son of Rabah, Ammar son of Yasir, Abu Hurayrah and the people of Suffah-all belonged to the humble and poor section in the early Muslim society — stood side by side and worked with the richest and noblest people like Uthman son of Affan, Abd al-Rahman son of Auf and Saad son of Abadah. They did not develop feelings except of mutual love, co-operation and brotherhood. It is easily understood by now to know whether Islam supports the class-system or recognizes feudalism and the feudalists.

The Attitude of Islam towards Slavery :

Before the advent of Islam slavery was a universally recognized system. People practised it in various forms. Prisoners of war were

with approximate similarity in colour according to which people are divided into white, black and yellow. The existence of classes in this sense is an indispensable matter resulting from the order of the whole univeerse which order necessitates differences and dissimilarities even among plants and minerals, not to mention mankind among whom there are differences the like of which is not found in anyone of the being species.

It is true that Russia succeeded in eradicating the *Capital* with which were gone the wealthy Russians; Russian riches and nobles. Yet there appeared, accordidg to Aqqad, a ruling class of experts and engineers, who exercise power and despotism unexampled with other rulining classes even in the most capitalist states. (The Truths of Islam ... by A. M. al-Aqqad, P. 207).

Islam proves itself to be the religion of reality and sound nature, when it recognizes the differences which actually exist in all countries, Capitalist and Communist alike. This recognition is declared in God's words: " We portion out among them their livelihood in the life of this world, and We exalt some of them above others in rank, that some of them may take others in service " (Surah. 43, V. 32) and "God has made some of you excel others in the means of subsistence ... " (Surah,. 16, V. 71).

This is the order of God Who never does anything in vain. Whatever He does is done with utmost wisdom and for profound reason. The mentioned classification of mankind was ordered by God, according to the Qur'an, for two reason. First, *trial* of man which is the basis of responsibility and rewarding. Trial is frequently stated in the Qur'an as the objective of many injunctions and ordinances, i. e. " So that He may try you in what He has given you." Secondly, *taking in services* as already mentioned in the verse. But this is not the service of oppression and humiliation as might be derived from the ordinary sense of term *service.* It is the service of common interest and order. Had life been a factory, it could not have been successfully managed if all people working wherein were made mangers or engineers, but there must be the managers, the engineers, the clerks, the labour and the watchmen.

Excellence in the means of subsistence does not entitle its people to any merit or religious or legislative rank in the Muslim society. The real excellence and recognized merit are those which consist in knowledge, faith and good deeds. "Say:

teeth of a comb; no Arab is better than a non - Arab except by dutifulness. "

The rich therefore, are mere individuals who make fortunes through their endeavours and enterprise, yet their fortunes may not last; they may get less or be transferred to new owners. So poverty and wealth in the Muslim society are not fixed or continuous phenomena. On the contrary, they are changeable and subject to the alteration of circumstances and chances of earning, and the change of ownership according to the laws of inheritance.

There Are no Classes In Islam :

Islam then does not recognize existence of social classes in the western terminology. It is free from any class of inherited rights and prerogatives. Its teachings are not familiar with the so-called classes of rulers or nobles or knights or clergy or the like.

The rulers are only individuals chosen by the nation and appointed to office either through the people of authority in it or through any other means the nation may choose. They are not of a special group and do not belong to any particular family. Nay, the Prophet said : " Listen and obey, even if you are ruled by an Abyssinian negro as long as he leads you in accordance with the Book of God; the Qur'an. Just before his death the Calif Umar said: " Had Salim, a former slave of Hudhayfah, been alive, I would have appointed him to succeed me. "

The system of inherited rule and califate is alien to Islam. It is not recognized by its teachings or admitted to them. The jurists of Islam do not constitute a priestly class with alleged Divine powers as is the case with the clergy of other religions. They are only specialized doctors of the Islamic faith, law and morals. Their actual status is that they are scholars of religion and law, of ethics and sociology. They are not, by any means, intercessors between God and His bondmen nor are they in possession of the keys of Paradise or dealers in the *bonds* of God's contentedness and forgiveness.

It is clear, therefore, that if we apply Western terminology and Western conceptions, we shall find no classes in Islam because Western terminology in this respect is inapplicable to Islam. Once this classification is pointed out, it is no harm then if some people call the rich individuals in the Islamic State a *class*, because serious researchers classify mankind to three classes : rich, average and poor. This classification is understandable; since it corresponds

that *whoever* quickens a dead land it belongs to him, and *whoever* trades the profit goes to him ; and *whoever* comes across any source of property or treasure without a known owner and covered by the ground pays only one fifth of it to the State and the rest is his.

It is the duty of the ruler in an Islamic state to find work for the unemployed. If he fails to do so, or if any citizen becomes jobless owing to his disability, or if the worker's wage dose not suffice his needs — it is the responsibility of the ruler to take good care of him. The Muslim ruler must secure for such a citizen, be he a Muslim or otherwise, the due rights of diet, winter and summer clothes and a proper lodge. When the collected alms and ordinary resources of the state do not meet these demands, the ruler is authorized to impose new taxes on the wealthy people to ensure the interests of Muslims. The doctors of Islam have laid down the principle which states that should the Muslims be endangered, their holdings automaticcally become a common property and nothing of it belongs to anybody in particular. Moreover, Islam has taken useful steps to break the big capitals into small units of property. One of the most important measures in this respect is the law of inheritance according to which the wealth of the deceased person is distributed among his wife, parents, his children and other entitled heirs from amongst his kins. This distribution must be carried out in a just manner as to include the male and the female alike, not the former only as the Arabs used to do before Islam nor the eldest son as is practised in some modern nations of today like England.

The Rich Are Not a Class :

The system of Islam accepts the rich as individuals who may ecquire properties by lawful means and use them in like ways without being niggardly or holding back in times of need. It accepts them as such, not as a privileged class of special prerogatives or endowed with social sovereignty inherited from generation to generation. This is because Islam consideresall people equal before God, the Law and the Qur'an; and no preference is granted to anyone except inasmuch as he is faithful to God, truthful to humanity and respectful of his general rights as the Qur'an says : " O mankind, surely We have created you from a male and a female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you " (Surah. 49. V. 13). In addition to that the Prophet said: " Mankind are equal like the

monopolizer cursed. The rich people are strictly forbidden to squander, and the ruler is authorized to decree interdictions against the immature and squandering people. He is authrised to arrest their wasteful use of property. The Qur'an says: "And make not over your property, which God has made a *means of* support for you, to the weak of understanding" (Surah. 4, V. 5,) and "Surely the squanderers are the devil's brethren. And the devil is ever ungrateful to his Lord" (Surah. 17, V. 27.) Moreover, all kinds of luxurious squandering, which sopoils nations and individuals, are prohibited. This is why wine is strictly forbidden and this is why the lavish use of golden as well as silver articles and the adornment of men by wearing gold and silk are ordained unlawful. The Qur'an says: "And when we wish to destroy a town, we send commandments to its people who lead easy lives, but they transgress therein; thus the word proves true against it, so we destroy it with utter destruction" (Surah. 17, V. 16),

Furthermore, Islam prohibits the hoarding of gold, silver and the like. The Qur'an contains frightening warnings addressed to the hoarders; " And those who hoard up gold and silver and spend it not in God's way-announce to them a painful chastisement. On the day when it will be heated in the Fire of Hell, then their foreheads and their sides and their backs will be branded with it: This is what you hoarded up for yourselves, so taste what you used to hoard " (Surah 9. V. 34-35).

Islam does not compaign against hoarding by words only; it prescribes practical measures one of which is the ordained alms which amounts to two and a half percent of the capital. This is in itself an alarm to the proprietor meaning an eventual exhaustion by prescribed alms of his property if he hoards it up or fails to invest it.

It is through these said measures of forbidding usury, monopoly, squandering and lavishness, on the one hand; and of combating all kinds of hoarding and enjoining alms, on the other hand, that the proprietor is compelled to invest his property in a legal way for the common weal of society. Thus the fair balance which Islam seeks can be realized.

Conversely, Islam gives the poor people opportunities equal to those of the rich. The former are entitled to all possibilities and means to attain the standard of the latter and stand with them on equal footing. The door of business and earning is open for all people poor and rich alike. It is not confined to or monopolized by any group nor is it inaccessible to anybody. It is a well-established principle of Islam

man from among the Immigrants and supply you also with winter as well as summer clothes, which you will use till they are worn out and then bring back to take new ones instead of the old."

Moreover, Umar the Second Calif of Islam said: " My attitude towards the property of this Treasury is like that of the guardian of an orphan towards his property; when I am needless I will keep my hands off, but when I am in need I will satisfy my necessary needs therefrom without any excessiveness. Furthermore, Ali son of Abu Talib, the Prophet's cousin and Fourth Calif of the muslims, refused completely while in office to take anything from the Treasury for himself or his family.

This is the practice of the wise califs and pious leaders of Muslims. But the deviations from the right path of some *Muslims* rulers and their errors are not an argument against *Islam*, and Islam is, by no means, responsible for such errors.

Islam Ordains Balance Between the Rich and the poor.

The recognition by Islam of natural dissimilarity in sustenance does not mean that Islam lets the rich free to increase his wealth and the poor to worsen in his poverty. Nay, it interferes by virtue of its legislative system and moral instructions to narrow the gap between the rich and the poor. It has taken the necessary measures to prevent injustice from the former and to raise the standard of the latter.

Islam forbids the rich to make any wealth or earning through unlawful means. It forbids them to swallow usury in any form and by any quantity. It considers the swalawer of usury as fighting against God and His Messenger, and curses everyone who participates in a dealing of usury because it is an unjust deal in which the weak are exhaustively exploited for the interest of the strong. In support of this point the Qur'an says. "O you who believe, keep your duty to God and relinquish what remains (*due*) from usury, if you are *(true)* believers." "And God has allowed trading and forbidden usury." "God will blot out usury, and He causes charity to prosper" (Surah 2, Vs, 275-275, 278). In addition to that the Prophet said: "God will curse the recipient of usury, its giver, its scribe and its witnesses."

On the other hand, Islam forbids them to resort to monopoly which is the character of greedy capitalism. The Prophet of Islam declared that the *distributer of life stocks* would be sustained and the

contribution or a sort of kindness that would make the rich feel superior and exalted, and make the poor develop a sense of self-contempt and disdain. It is a known right, an ordained tax, which is to be collected by the government through appointed tax-collectors and is to be expended on the needy and the common interest "in the way of God and emancipation of slaves."

Alms-giving is not a supplementary principle of Islam, but is a fundamental pillar and without the distribution of which no man can be Muslim. If the State fails to collect the alms and expend it properly, it is not entitled to be called an Islamic state. It is a well-attested historical fact that when some Arab proprietors refused to pay their alms, Abu Bakr, the First Calif, showed no tolerance. He prepared eleven brigades to fight the greedy capitalists and said : " I swear by God, if they retain a camel's tether which they used to give to the Messenger of God, I will fight them for it. ".

The Treasury Belongs to the State:

Some biased people have spread vicious rumours about the Muslim Treasury and its contents of alms and other resources of the Islamic State. They pretend that the Treasury and its contents are nothing but personal propriety of the Califs and Sultans, who can expend of it as they please without any supervision or questioning. But the fact, which is well-known to anyone who has studied the law and history of Islam, is that the Treasury does not belong to the Calif but is a common property for all the people.

The Calif is only an entrusted treasurer who is entitled to nothing of it more than his regular and reasonable salary. It was Abu Bakr the First Calif who laid down this principle when he said : " Pay me as an average person of Quraysh, not like one of the low or one of the upper class. " This happend after he was sworn fealty to the people. He went on the following day to the market for his daily business to maintain himself and his family. Then the great Companion Umar met him and said : " Where are you going ? He replied : I am going to the market to do business. Umar exclaimed saying : What ! how can you do that after having been chosen to administer the affairs of Muslims ? He said: How am I going to maintain my dependents ? Umar answered : Go to the Treasurer Abu Abaydah and ask him to fix a regular salary for you. Abu Bakr went to the Treasurer who said to him. " I shall fix for you victuals sufficient for an average

weak ? Has Islam left society to be dominated by artificial barriers of discrimination on the basis of race or colour or inherited nobility ? This is what we shall give answers to in the following pages.

The lightest examination of the teachings of Islam demonstrates that it is not a religion of any particular class or any special group, but is a religion socially founded on the bases of fraternity, justice and equality. These bases are clearly represented in the rituals and worships of Islam as well as in its economical and political systems.

The Relation Between the Rich and the Poor :

Islam admits the instinctive dissimilarity of people in abilities and natural gifts, faculties and capacities, and it accepts, therefore, their reasonable and instinctive dissimilarity in sustenance. Islam as a religion which recognizes the natural instincts of man and things, sublimes them and does not conflict with them accepts individual ownership as long as it comes from lawful sources. By this attitude Islam means to satisfy the instinctive motives and human desires for ownership competition and saving. But it does not regard the individual property which is obtained through illegal means like usurpation and stealing whether this latter is in apparent or hidden forms such as gifts presented to rulers, exploitation of influence, accepting bribes and taking other people's properties by subtle manners. On the contrary, it confiscates all holdings of this sort however long they remain in the holders' hands, because length of time and succession of day and night do not allow the forbidden or make the prohibited lawful.

In Islam man is not the real owner of property and cannot do with it what he pleases. All holdings belong in fact to God alone. This statement means that they belong to the entire society, and the rich man is a mere employee appointed to take care of what he holds, invest it and spend it in such a way as to agree with the interest of society, without inflicting any harm upon it. In other words, as the Qur'an puts it, the *rich* person is only a successor; "and expend of that unto which He has made you successors" (Surah 47, V. 6); "and give them (the earnest slaves who seek emancipation) of the wealth of God that He has given you" (Surah. 24, V. 33).

Ownership, therefore, is a social function, and the wealthy person is tasked with financial duties to his society the least of which is giving *alms* (zakah). This is not a voluntary

The rituals of pilgrimage are associated with certain place in the sacred city of Makkah only because it is the land of remembrances, the legacy of Abraham and the cradle of the Call. All the rituals performed by the believers in the course of pilgrimage are indicative symbols of suggestive revelation. They have no value or significance in themselves because they are meant for the glorification of God and submission to His ordinances. It is reported that Umar, the Second Caliph and great Companion of the Prophet, stood before the Black Stone in the Kaabah and said : " I kiss you although I know that you are a stone incapable of doing any harm or causing any benefit. And had I not seen the Messenger of God kiss you, I would have never done so. "

In view of these explanations, would there be any ground for the superficial outlook of those who say that the Muslims make pilgrimage to a stone and bow down in prostration before it, seeking its blessings or graces? Any such allegation is a mere nonsense. Pilgrimage is a pointed mote in the eyes of the enemies of Islam because it is the most imperssive Divine convention to which the Muslims come from everywhere in the globe to enjoy the mutual feelings of a common Islamic brotherhood and joint aims, and to dicusss their affairs in co-operative and most understanding manners as to return to their previous state of dignity and power; to be new the best nation raised up for men by enjoining good and forbiddding evil and by believing in God.

It is these Divine principles that vex the blind enemies of Islam and make them hit at random. The advocates of chaos and enemies of humanity stay restless when they face any organized course of relationship either between man and man or between man and God. This is why they look to Islam with unhappy eyes and shamelessly invent all sorts of lies and allegations to set barriers between men and Islam. But we believe that all this will be in vain once Islam is properly presented and correctly represented. It is our hope, however, that the short account given of these two forms of worship (Prayer and Pilgrimage) will be a sufficient expression of the spirit of Islam in drawing the course of relations between God and man.

Human Relations :

Now let us consider how Islam organizes the course of human relations among people. Has Islam ever supported the feudalists, or recognized social injustice, or helped a class of society against another, or favoured the strong at the expense of the

to Islam as they were not known to any religion before Islam. They are the daily contact between the Muslim and his Lord. They are the effective means of purifying the body and the soul, of cultivating the sound conscience and developing decent morals; " Surely prayer keeps (one) away from indecency and evil ... " (Surah. 29, V. 45). They are, especially when performed in congregations, a strong social bond and a practical lesson by which Muslims practise discipline, brotherhood and equality. The condition which enjoins upon all Muslims to turn their face to one direction towards Mecca (Makkah) while praying is profoundly significant as it trains them to be whole-heartedly united in aim, opinion and tendency.

Pilgrimage, another fundamental pillar of Islam, is a journey in which the Muslim turns his heart and body to the House of God at Makkah, the House which was built by Abraham to be the symbol of monotheism and unity. When Abraham, father of the prophets and the enemy of idolatry, established it, God ordained him to proclaim to men the pilgrimage; " And when We pointed to Abraham the place of the House, saying : Associate naught with Me, purify My House for those who make circuits and stand to pray and bow and prostrate themselves. And proclaim to me the Pilgrimage : They will come to thee on foot and on every lean camel, coming from every remote path" (Surah. 22, Vs. 26-27).

This form of worship, started with Abraham as entirely pure for God, was abused and spoiled. The succession of time together with ignorance, caprices and superstitions drove the people out from the path of God to indulge in idolatry and associate images with God. They laid down idols in the House of God to worship them and offer oblations to them, mixing whatever was left of the monotheistic rituals with the accretion which they invented.

When Islam came to find the said condition, it removed all traces of idolatry and abolished the remaining forms of Pastnership in Divinity. Upon the triumphant return of the Prophet Muhammad to Makkah he smashed with his own hands the idols which were set around the House of God at Makkah (the Kaabah), saying : " The Truth has come and falsehood vanished. Surely falsehood is ever bound to vanish" (Surah. 17 V. 81). Thus the House was made pure for God alone and the institution of Pilgrimage restored to its fromer state in the days of Abraham. In forms and slogans, in intention and practice pilgrimage was one again designated to God.

made by an individual or any group of individuals directed by their cultural beckgrounds or environmental circumstances or legacies, not to mention their caprices or passions, to introduce a subjective system doomed to deficiency and change. Islam is the system of God Who is the Lord of men and is free from bias and partiality to any race or class or genertation. He is the Lord of them all and they are His servants. He knows their interest and His mercy is so comprehensive that He does not over-task them: "God desires ease for you, and He desires not hardship for you . . . " (Surah. 2. V. 185).

Worship is God's Alone :

The first article in the faith of Islam is the organization of relationship between God and His bondmen. Mankind do not create themselves nor do they invent any of the many embracing dooms and universal graces in the heaven and the earth. But it is God Who creates them, bestows favours on them and honours them from among his creatures. This leads to one logical conclusion, that is, they ought to be thankful to Him as to know His rights on them and worship Him alone without associating any partner to Him. And this exactly what Islam ordains in the words of the Qur'an "And they are enjoined naught but to serve God, being sincere to Him in obedience, upright, and to keep up prayer and pay the poor-rate, and that is the right religion" (Surah 98, V. 5)

Moreover, Islam does not only confine worship to God alone, but also purifies the rituals from all the idolatrous accretions and innovations invented by the followers of different sects to lay barriers between God and His bondmen and to establish a system of priestly intercession between the Heaven and the earth. Prayer in Islam is a devotion to God only in which man turns his face wherever he happens to be to the Lord without dependence on the permission of any relegious minister. The prayer-leader in a congregational service, which is more preferable to private worship, is not a man of priestly rights but is one of the congregation. They let him lead their prayers for his knowledge or piety and check his recitations to correct him, if he makes any mistake. He cannot assure any member of the congregation that his prayer will be accepted by God; because the final word on acceptance is God's only Who knows the truthful from the otherwise, and Who " accepts only from the dutiful " (Surah. 5, V. 27).

The Islamic prayers with their manners, their time-tables, their conditions and recitations are peculiar

the Garden, and they will not be dealt with a whit unjustly " (Surah. 4, Vs 123 — 124).

It is sufficient to support this argument that the Messenger of God- peace and blessings be upon him-and his Companions as well as their pious successors did not conceive life or live it except as an aspect of serious undertaking and earnest endeavour. It was this spirit that made them surpass other peoples in every field of life. They did not remain stagnant or lazy awaiting the peace of the Hereafter and the boons of the Garden. They could not do it because the Qur'an, their right guide, says : " And say, Work; so God will see your work and (so will) His Messenger and the believers. And you will be brought back to the Knower of the unseen and the seen, then He will inform you of what you did " (Surah. 9, V. 105). " He it is Who made the earth subservient to you, so go about (working) in the spacious sides thereof, and eat of His sustenance. And to Him is the rising (after death) " (Surah. 97, V. 15). Again it says : " O you who belive, when the call is sounded for prayer on Friday, hasten to the remembrance of God and leave off traffic. That is better for you, if you know. But when the prayer is ended, disperse abroad in the land and seek of God's grace, and remember God much that you may be successful " (Surah. 62, V, 6 - 10).

The System of Islam:

Islam has a very unique and universal system which is closely associated with all aspects of life. It is concerned with the individual and the society and is interested in life at large. In a very fair manner and on a well-balanced scale Islam deals with all aspects of life, spiritual and material, personal and social, local and international. No matter is over-rated at the expense of another, but justice in all sides prevailes. Unlike other religions, it does not wear a material uniform or take a material view of life, nor does it over-estimate the spiritual elements of existence. It draws a balance-line between the individual and his society without making the former dominate the latter as is the case with capitalism, or vice-versa, as is the case with communism.

All this is because Islam is not the production of an unguided revolution resulting as a reaction to corrupt conditions or to oppose extreme right with extreme left, as was the case with the unguided revolutions which introduced weak and shaking systems that were the subject if common complaints and inevitable alterations. The system of Islam is not

especially if we take into consideration what geologists say about the estimated age of the world, which goes back millions and millions of years. The Materialists disregard another significant fact, when they do not realize that Muhammad is the last Prophet and his message is the final word from God to mankind. Should they conceive this fact, they would find it easy to clearly understand what the word " nigh " in the verse means, because they will then know that since there is no prophet after Muhammad nor is there any message after his until the day of Resurrection, the Hour is coming and nigh.

The Hereafter is another creation wherein every person will receive a fair return for what he or she has done in first life. In many cases this present life falls short of rewarding the good people for their deeds and punishing the mischievious for what they might have committed. Faith in a Wise, Just God leads by necessity to the belief in the existence of that other life to be. This is the logic of faith in God Who ordained the Hereafter " that He may reward those who do evil for that which they do, and reward those who do good with goodness" (Surah. 53, V. 31) Belief in Resurrection is the logical conclusion of man's creation and his responsibility; " Do you then think that We have created you in vain, and that you will not be returned to Us " (5. 23, V. 115) " And We created not the heaven and the earth and what is between them in vain. That is the opinion of those who disbelieve. So woe to those who disbelieve on account of the Fire. Shall We treat those who believe and do good like the mischief-makers in the earth ? Or shall We make the dutiful like the wicked ? (Surah. 38, Vs. 27 — 28) . If there were no belief in Resurrection, the justice of God and the very principle of laying responsibility on man's shoulder would be very critically questionable; an attitude which could produce nothing but chaos and destruction.

It should be borne in mind, however, that belief in the Hereafter does not mean giving one's back to life and being indifferent to the serious course of events on dependent on others with indulgence in vain wishful thinking. Happiness in the Hereafter is not attainable except through persistent work and serious endeavours. " It will not be in accordance with your vain desires nor the vain desires of the people of the Book. Whoever does evil, will be requited for it and will not find for himself besides God a friend or a helper. And whoever does good deeds, whether male or femal, and he (or she) is a believer — these will enter

The messenger of God, though having the strongest faith in God's Fate, was fully aware of the necessary measures and means to be taken. He therefore, had taken necessary precauitons, mobilzed armies,sent reconnaissance patrols, fought full - armed and had followed the most advanced rules of tactics and strategy.

Although the question of predestination and choice was clear enough in Islam, as we have already seen- through texts, practice, theory and application- the messenger of God, peace be upon him, had ordered his companions to block the way of fruitless discussion about such delicate questions in which the human mind had failed to reach a sound solution for long ago, in order they might escape dissension and divergence of views.

Refering to this question Shaykh Muhammad Abdu had said : " unfortunately some persons who have evil intentions appeared among the Muslims from amongst the Persian and Roman subjects who feigned to be muslims and who brought to Islam what they have had of dissension and hypocrisy. They disobeyed God and his messenger when they violated Their order of forbidding discussion of Fate, and misled Muslims through their ambiguous and absurd words. They even disintegrated their unity and God says to His messenger concerning this attitude : " As for those who split up their religion and became sects, you have no concern with them." (Surah. 6, V. 160).

"Such was a group of determinists who were weak and helpless whose plea could not stand sound reasoning, and whose actions had been so repulsive that they were expelled from the domain of religion. It was left lagging behind until it was fully uprooted. This gave impetus to the prevalence of the tendency calling the majority of Muslims to adopt the trend of moderation between detereminism and choice which is the trend calling to serious activities and true faith.

Faith In Resurrection :

Some Materialist pedants often try to spread doubts about the belief in resurrection and other eschatolgical doctrines, like that of the Day of Judgement, Paradise and Hell-Fire to which doctrines references are made in the Qur'an and all the other Divine Scriptures. In a sarcastic manner they comment on the Qur'ānic verse " Perhaps the Hour is nigh " (Surah. 42, V. 17) by remarking that a period of more than thirteen centuries has elapsed yet, the Hour has not come as yet. They forget or overlook that measurement of time is a relative question, and that a thousand years or more is only a short time in the accouut of history,

and wisdom, and which are applying to all creatures including man himself. Man is free because God wants him to enjoy liberty, and has his own will for God says: " But you will not except as God wills. " (Surah. 76, V. 30.)

There is no wonder then when we read in the Qur'an the combination of both the liberty of the human will and the mastery of Divine will which appears in the following verses: " Verily, all things have We created in porportion and measure." (Surah. 54, V. 49); " And if thy Lord had pleased, all those who are in the earth would have believed. " (Surah. 10, V. 99); "Doer of what He intends. " (Surah. 85, V. 16) and " Surely thy Lord makes plentiful the means of subsistence for whom He pleases, and He straitens. " (Surah. 17, V. 30).

Muslim's belief in Fate, however, does not represent any determinist dogma nor does it express the accidentalists trend, but it is rather the belief in that the universe is heading to an ultimate end and that it is regulated by a Supreme Power. How can it be otherwise while God's knowledge fully comprises every atom in heavens and earth, and directs it according to His conclusive wisdom and mercy? " And not the weigt of an atom in the earth or in the heaven is hidden from thy Lord, nor anything less than that nor greater, but it is (all) in a clear book ". (Surah. 10, V. 61).

Belief in Fate as such depicted does not at any rate contradict the exertion of efforts and the search of whatever possible means to carry out one's own affairs. This is simply because God had ordained causes and means, introductions and conclusions. He had not destine success without any work, but had ordained it through its due means of unflagging efforts, of caution, vigilance, patience, endurance and so forth.

Taking means then does not oppose Fate but in fact is implicitly included in God's Fate. Therefore when the messenger of God was asked this question: " could you prevent the occurance of God's Fate ? " in view of remedies and ways thereby evil might be evaded, his unequivocal answer was: " all happenings are ordained by God's Fate. " Furthermore when epidemic disease was prevailing in Syria Omar Ibn El-Khattab, after his consultation with the companions, had decided not to enter it and returned back with his company. Some companions said to him: " do you run away from God's destiny O Prince of Muslims ? " He said "yes; I run away from God's desting to face God's destiny in other from. "

have made anythig unlawful. Thus did those before them reject (the truth) until they tasted our punishment. Say : Have you any knowledge so you would bring it forth to us ? You only follow a conjecture and you only tell lies." (V. 159). He also says in the chapter of th Bee : "And the idolators say : Had God pleased, we had not served aught but Him, (neither) we nor our fathers nor had we prohibited aught without (order from) Him. Thus did those before them. But have the messengers any duty except a plain delivery (of the message)." (V. 35). He further says in the chapter of Yasin : "And when it is said to them : Spend out of that which God has given you, those who disbelieve say to those who believe : Shall we feed him whom, if God please, He could feed ? You are in naught but clear error. " [V. 47]. And finally He says in the Chapter of Gold : " And they say : If the Beneficent had pleased, we should not have worshipped them. They have no knowledge of this; they only lie. " (V. 29).

By such strong and clear regoinders to the old determinists the decisive attitude taken by the Qur'an towards the question of *the human will* and *Divine will*, is obviously conceived.

Neverthless, man is not actually at absolut liberty or at complete choice in the sense that he does all what he pleases and abstains from all what he displeases; because if he were really free in that sense he would certainly be a God.

No one, whatever his staunch support to the human liberty may be, can deny the determinism of the human will. This is why the authorities concerned always refer it to hiriditary or environmental factors or to both of them. Some philosophors express this notion by saying : " Man is free in a domain of fetters and limits"

The dialictical materialists have even tied man to means of productions as well as to the economical phenomena which direct his way of thinking, his course of behaviour and his current affairs. Thus they degraded man and brought him to the most repugnant standard of determinism when they have made of him a humble slave of matter not a master of it as ordained by Islam.

This well attestad fact, the limitedness of the human will, is decreed by Islam in a way more honourable and dignified to man than that of the materialistic and traditional determinism. Man, from Islam's point of view, is at liberty and choice in the range of what God had ordained of rules being carried out by His will and power according to His knowledge

and still from amongst the most amazing and disputable topics which human mind failed to find out solution or reach a decisive conclusion, and in which philosophers, ethicalists, psychologists and educationalists had disputed so far as philosophy and research are concerned.

Islam in this connection is the balanced religion which is in complete harmony with sound nature and the tangible reality.

Man in view of the belife of predestination and choice is completly free and responsible for his actions and self in the domian of his optional activities. He is at absolute liberty to do or abstain according to his own common sense and feelings.

The Qur'an gives full support to this attitude in the following verses: " So let him who please believe, and let him who please disbelieve." (Surah. 81, V.29). "There is no compulsion in religion — the right way is indeed clearly distinct from error." (Surah. 2, V. 256). " Surely this is a Reminder; so whoever will, let him take away to his Lord. " (Surah. 76, V. 29). " To him among you who will go forward or will remain behind " (Surah. 74, V. 37) " Whoever does good, it is for his own soul; and whoever does evil, it is against it. And thy Lord is not in the least unjust to the servants. " (Surah. 41, V. 46) " If you do good, you do good for your own souls. And if you do evil it is for them. (Surah. 17. V. 7). " God imposes not on any soul a duty beyond its scope. For it is that which it earns (of good) and against it that which it works (of evil)." (Surah. 2, V. 289).

In addition to the above mentioned verses there are many in the Qur'an which stipulate and decree man's liberty, gains and responsibility; "That no bearer of a burden bears another's burden: And that man can have nothing but what he strives for: And his striving will soon be seen. Then he will be rewarded for it with the fullest reward." (Surah, 53, V. 5. 38-41).

This positive attitude adopted by the Qur'an has been backed by a strong campaign against the determinists who ascribe their blasphemy and sins to Fate under the pretext that their actions are directed by the will of God.

In four Suras (chapters) of the Qur'an God, the Almighty, refutes this false assumption. In the Cattle chapter He says: "Those who are polytheists say: If God pleased we would not have set up (aught with Him) nor our fathers, nor would we

merits and characteristics which other religions are lacking · It is a clear and simple belief which may be expressed in the idea that there is beyond this disciplined and unique universe One God who had created and regulated it, and who had destined every thing in this universe. This God has no associate, no counterpart, no wife and no son but "To Him belongs whoever is in the heavens and the earth." (Surah. 21, V. 19.).

This belief is plain and acceptable. Because the human mind seeks always association and unity beyond the apparent variation and multiplication. It incessantly tends to refer all things to one cause. The uniform fact also proves that the multiplication of wills does not produce an integral conclusion or lead to a coherent system. The glorious Qur'an assures this fact when stipulating that: "God has not taken to Himself a son nor is there with Him any (other) god-in that case would each god have taken away what he created, and some of them would have overpowered others." (Surah. 23, V. 92) ; "If there were in them gods besides God, they would both have been in disorder." (Surah. 21, V. 22),

Moreover it is not a belief alien to human nature nor does it contradict this nature at any rate. It is rather in complete harmony and accordance with this nature. The Qur'an illustrates this notion plainly when saying : "So set your face for religion, being upright, the made by God in which He has created men. There is no altering God's creation. That is the right religion-but most people know not. (Surah. 30, V. 30).

It is as well a fixed and defined belief which is not subject to increase or decrease, distortion or change. No ruler whosoever or scientific synod or religious congregation is alowed to make addition or adjustment in this belief. Any addition or adjustment will be held invalid and will only express the point of view of such innovator. The messenger of God in this respect says : " Whoso produces any idea alien to our injunctions will be responsible for this and his innovation will be only ascribed to him " and the Qur'an says : " Or have they associates who have prescribed for them any religion that God does not sanction" (Surah 42. V. 21).

Thus all innovations, superstitions and supplements maliciously entered into Muslim beliefs or foisted into their books or treachrously propagated among uneducated masses are false, unreliable and thoroughly rejected by Islam.

Misconception of predestination and choice

Predestination and choice were

the Qur'an until he reached at the following verse : "At length, behold ! There came our command, and the fountain of the earth gushed forth! " and went on reciting until God's saying : " Away with those who do wrong." (Surah. 11, Vs. 40-44), then he said with admiration : this can not be challenged at all by any human being " and burnt what he had invented. Furthermore, El-Bakellani goes on to say : "there had been persons who assumed that Ibn El Mokaffaa had opposed the Quran in his book titled *the Unique pearl* -Aldurratul Yatim-"; but El Bakellani failed to find any thing in Ibn El-Mukaffaa's work that might be held as an imitation of the Qur'an.

There was also Aboul - Alaa El Maarri who had been accused by the sin of imitating the Qur'an. But-El-Rafei, the Egyptian writer, refuted this charge very strongly. Dr. Taha Hussein, the contemporary Arab writer, refuted as well what had been attributed to Aboul El-Alaa.

The latest attempt of such fraudulent prophets, who claimed to be in touch with the divine revelation, is seen in the assumption made by Mirza Gholam Ahmed El Quadyani-the Indian-, Mirza Ali El-Bab and his disciple El Bahaa.

Fortunately, the followers of those fabulous prophets do not show us what they assume to be Qur'anic verses and hide it in such a manner as it was something to be ashamed at. Whoever manages to read their books will see nonsense and absurd words and ideas. He will be profoundly confident that the Qur'an is the genuine revelation of God; "This is a Book, with verses basic or fundamental (of established meaning), further explained in detail from One Who is Wise and Well - Acquainted (with al things). " (Surah. 11, V. 1).

Islam is a belief as well as a system of life.

Islam is not, as being held by short-sighted individuals, a theological religion nor is it a mere belief taking only into account the spiritual side of man while leaving aside the organization of his relations with the universe, with life and with his fellow human beings whether they are individuals or families or nations. In the contrary Islam is a comprhensive belief out of which an integral as well as a universal system comes forth on which a balanced and universal nation is based. Such nation is depicted in the Qur'an as follows: " And thus We have made you an exalted nation that you may be the bearers of witness to the people." (Surah. 2, v. 143) ; "You are the best nation raised up for men : you enjoin good and forbid evil and you believe in God." (Surah 3. V. 109).

The merits of the Islamic belief.

The Islamic religion has its own

Jesus brought forth alive. Because these two miracles, though unusual, are not a means of instruction and guidance nor are they pertaining to medicine. Therefore their indication is not intrinsic.

However, the doing of supernatural miracles is less important than the making of supreme, divine and legislative sciences without having any sort of knowledge. Yet the Qur'an anticipates the hidden matters in the past and the future, and its teachings lead to success and prosperity. The Qur'an thus is a clear proof that its spiritual as well as social remedy is only revealed by God, the Wise, the Sustainer, and no person whosover can oppose or doubt it.

Was there any opposition to the Qur'an ?

After the shining success of the Islamic call in the Arab peninsula there appeared, for psychological as well as tribal reasons, some persons who claimed themselves to be prophets. What their proofs, their books and their achievements ? The following may give answer to this question.

In the nineth and tenth years after the Immigration there had been some individuals who claimed themselves as prophets. They were : Musaylama of the tribe of Hanifa which had envied Quraysh because the messenger of God belongs to it, Al-Aswad El-Ensi who appeared at Yamama, Talha Ibn Khowayled El-Asadi who appeared within the tribe of Asd and Sagah daughter of of El-Harith who had Known christianity before and who appeared in the tribe of Taghlib.

The different narrations, however, tell us that such pseudo prophets had made books to oppose the Qur'an. But history and literature did not preserve any trace of their works except that had been introduced as anecdotes or Jokes.

The false allegation of these feigned prophets had not managed to stand upright in face of the strong march of Islam. No sooner had they proclaimed their absurd calls than they had met their utter defeat and profane destiny. Some of them had died and others embraced Islam and became sincere believers such as Talha who had joined the army and fought heroically in the way of God to atone for his past attitude against Islam; " Nay, We hurl the truth against falsehood, and it knocks out its brain, and behold, falsehood does perish ! " [Surah. 21, V. 81].

In the Abbaside Caliphate some narrations stated that there had been an opposition to the Qur'an but these narrations were not backed by factual texts. For instance Ibn Kayyem al-Jozyyeh and al - Bakellani stated that Ibn al-Mokaffa had been reciting

others of them, who have not already joined them : And He is exalted in might, wise ". (Surah 62, Vs. 2-3).

The Qur'an is a miracle and guide.

Apart from all other Scriptures the Qur'an stands unique by being a miracle as well as a guide ; "a guide to mankind, also clear Signs ", Howevere if the miraclous sign proved to be in accordance with the spirit of the message, then it would be more indicative of the truthfulness of the messenger and would give him more support than the outward miracle. To illustrate this idea some learned men gave the following example. If there be a man in a city-wherein diseases are spread-claiming to be a physican, and forwarding as a proof of his plea a book written by himself dealing with medicine and adding that patients will find their cure in such a book. If such a book on being examined by other physicians well versed in their subject proved to be the best book bearing on that subject, and if such a physician diagnosed the people's illness and prescribed for them the medicine leading to their recovery; could such a plea be disputed after being confirmed by practical as well as theoritical proofs ? Definetly no one can doubt the authenticity of such clear plea.

If in a likewise manner we apply this reasoning to a more sublte matter that is curing of spiritual and moral maladies the result should be more striking because the treatment of physical maladies is not easy as the treatment of physical ailment. It is rather more subtle and difficult to be attained.

It is a well attested fact that the Qur'an includes the sound creeds, the sublime morals and the origins of social and civil legislation. It is well known too that the prophet, may the blessings and peace of God be upon him, had successfully treated by the virtue of his holy book a peo ple of long-established conflict illiteracy and idolatrous vices. Such people through his treatment recovered and became unified, sophisticated, wise and masters of numerous countries. However it is more striking to notice that the man who attained this success had been illiterate with no background either in science or politics. If the afore mentioned physician proved his claim by means of an action which is unfamiliar to the people and has no bearing on medicine, his claim would propably be suspected. Similar is the case with the prophet Muhammad in his claim that he was sent by God to guide the whole of mankind. His Book, which proved to be sound, is more indicative that it is a revelation from God than the rod of Moses which became snake and the dead womh

Because the message of Muhammad is conclusive, ever-lasting and addressed to all mankind the wisdom of God had backed him by a comprhensive and immortal miracle as well; which is an abstract and intellectual sign i,e., the glorious Qur'an. God refers to this miracle in the Quranic texts by saying: " Yet they say: ' why are not signs sent down to him from his Lord ? ' Say: the signs are indeed with God and I am indeed a clear warner. And is it not enough for them that we have sent down to thee the Book which is rehearsed to them ? Verily, in it is mercy and reminder to those who believe. " (Surah 29, Vs. 50-51). The glorious Qur'an constitutes so many miraclous aspects which lie in its inimitatability and which had strongly retorted the pretexts of the unbelievers, silenced their tongues and brought their arguments to naught; "Let them then produce a recital like unto it,—If (it be) they speak the truth." (Surah 52, V. 34); " Or they may say : he forged it. Say; bring ye then ten suras (chapters) forged, like unto it, and call (to your aid) whomsoever ye can, other than God — If ye speak the truth." (Surah 11, V. 13) ; " And if you are in doubt as to what we have revealed from time to time to Our servant, then produce a Sura (chapter) like thereunto; and call your witness or helpers (if there are any) besides God ; if your (doubts) are true." (Surah 2, V. 23).

Thus the unbelievers had met their utter defeat and faced thir impotence thanks to the startling challenge of the Qur'an. Such defeat was recorded in history and expressed by the Qur'an when saying. " Say : if the whole of mankind and the Jinns were to gather together to produce the like of this Qur'an, they could not produce the like thereof, even if they backed up each other. " (Surah. 17, V. 88).

This clear Book had managed to create the most momentous revolution which turned the face of history. It was a psychological as well as social revolution which had led to the establishment of a strong nation by directing it to the right path and by unifying its scattered groups. Consequently it had attained, by virtue of the Qur'an, an integral status, an ideal legislation, morals to conduct its behaviour, means leading to prosperity, and a universal message to be addressed to the whole of mankind; " It is He Who has sent amongst the unlettered a messenger from among themselves, to rehearse to them His signs, to sanctify them, and to instruct them in Scripture and wisdom - Although they had been, before, in manifest error; - As well as (to confer all these benefits upon)

rejected to fall into the abyss of heathenism. They deserted the worship of idols and either followed the path trod by Abraham or embraced a divine religion such as christianity. The pioneers of this trend before the advent of Islam were of four persons : three of them were from the tribe of Quraysh namely; Amer Ibn Nofayl Ibn Abdu Ozza, Warake Ibn Nawfal-who already knew the old scriptures and adhered to christianity - and Othman Ibn Howayrith, and the fourth was Obaydullah Ibn Gahsh Ibn Asad. However, those four monotheists had utterly no impact upon their fellow men at any rate. This is why the call of the prophet Muhammad to monotheism was met at first by utter frustration and by entire rejection. The Qur'an in this respect says : " Has he made the gods all into one God ? Truly this is a wanderful thing. And the leaders among them go away (impatiently), (saying) Walk ye away, and remain constant to your gods ! For this is truly a thing designed (against you) ! We never heard (the like) of this among the people of these later days : This is nothing but a made - up tale. " (Surah 38, Vs. 5 - 7).

It was rather wise under such circumstances that the messenger of God, who was fully aware of the fanatical adherence of his people to their idols, did not openly declare his call to monotheism, and instead he sought the way to the fulfillment of this sacred objective in secret for three years long. Shortly afterwards and in response to God's command he began to announce his call in public to his close kinsfolk. Neverthless he did not find but a scores of sincere individuals who believed in his message. Simultanuously he togather with his companions had suffered torments and persecution for thirteen years of time. This persecution obliged him to give order to his followers to immigrate twice to Abyssinia. It was followed by a bleading conflict at Medina made by the heathens to defend their cult and to impede the upserge of the monotheist religion.

Is it logical then to assume that the Arab peninsula was evolving towards monotheism as a result of the interaction of some social factors, and that the belief in one God (tahannof) was a general phenomenon before the advent of Islam ?

The Qur'an is the clearest proof of the message of Muhammad.

It was natural that peoples in olden times might harbour doubt about the missions of the prophets and therefore had asked for evidence. God consequently had backed His messengers by cosmic miracles fashionable to their times and similar to dexterities exercised by their peoples such as magic vis-a-vis Moses and medicine in connection with Jesus.

and turned to sound faith. Saying, according to the Qur'an, : "We belive in the Lord of Aaron and Moses . . . " (Surah. 20, V. 70) and also saying : "Never shall we regard you as more than the clear signs that have come to us, or than Him Who created us." (Ibid V. 72).

Throughout all the ages God have sent prophets and messengers to be guiding lights to their peoples and sound educators and were counsellors to them. Such messengers were continuously sent to the people to lead them to the right path until God crowned religions by Islam and ended all messages by the ever-lasting mission of Muhammad son of Abdullah, who was sent to be a mercy to the whole universe; "We have not sent thee, save as a mercey unto all beings". (Surah 21, V. 105).

The message of Islam :

It would be a serious mistake to depict Islam as an unheavenly message merely invented by a human mind, or to illustrate it as a social phenomenon emerging from some historical effects or some economical factors. Whoso believes in such an idea is only deceiving himself and lying to the people as well. He is shutting his eyes and eclipsing his reason to the true facts around him. Furthermore, he ignores the authentic history and misconceives the practical and social facts of the Arab peninsula before and after Islam ; simply because the conditions of the Arab tribes at Mecca and its outskirts are well-known in history. It was the life of nomadism and travelling, commerce and amusments, ventures and raids.

As for their belief it is known that each tribe had its own idol to which it devoted worship. The Kaaba (Sanctuary) was honoured and glorified by all tribes. It was their habit to bring their idols around the Kaaba until the number of these idols reached three hundred and sixty. Paganism was not a superficial phenomenon in the life of the Arabs but it was penetrating deeply theirein. The manifestation of this was obviously seen in their pilgrimage, their vows and all their rituals. The Qur'an in this connection says : " Out of what God has produced in abundance in tilth and in cattle, they assigned Him a share : They say , according to their fancies : ' this is for God, and this for our partners ' ! But the share of their partners reaches not God , whilst the share of God reaches their partners ! " (Surah 6, V. 136).

Belief in one God (Tahannof) was not known before Islam except to a throng of individuals who were so sound and reasonable that they

nature. Pagans and heathens as in this concern were more logical and reasonable. When they were asked to identify who had created both heavens and earth, they said: God;

"Say: 'Who provides you out of heaven and earth, or who possesses hearing and sight, and who brings forth the living from the dead and brings forth the dead from the living, and who directs the affairs? They will surely say, 'God.". [Surah 10, V. 31}.

Sending of prophets is a manifestation of God's mercy.

Thanks to the conclusive wisdom and to the comprhensive mercy of God, the people were not left to go astray or to wonder aimlessly. He sent them messengers and prophets from amongst themselves to warn them and, at the same time, to give glad tidings about the boons of the Hereafter. Those Messengers were provided with heavenly Scriptures 'and commandments thereby they could set the people on the right path, to judge among them with equality and to lay down the foundations of a virtuous and dignified life. The Qur'an refers to that by saying: ". . . So that mankind might have no argument against God." (Surah. 4, V. 165).

Furthermore, the most pervaded wisdom of God necessitated that the messengers should be human individuals, not angels, selected from amongst their own people in order to be well-acquainted with their conditions, with their life, and to sympathise with their joys and sorrows. Some short-sighted persons, however, made an objection against the humanity of the prophets. The answer to this came in the Qur'an in the following verses: "Say, if there were settled, on earth, angels walking about in peace and quiet, we should certainly have sent them down from the heavens an angel for a messenger," (Surah. 12, V. 95) and: "God did confer a great favour on the believers when He sent among them a messenger from among themselves." (Surah 3, V. 164).

God purveyed those messengers with conclusive arguments as well as with clear proofs to show His approbation and to back their messengership. Such backing was so clearly defined that it convinced all fair and just people and made them believe wholeheartedly in the call of those prophets. The Qur'an refers to such an attitude by saying: " Lord, we believe in that You have sent down, and we follow the messenger. Inscribe us therefore with those who bear witness. " (Surah. 3, V. 46)

Another striking example of turning to the right is that related by the holy Qur'an about the magicians of Pharoah who, for their good fortune, had given up blasphemy

Dictionary states the following : "religious instinct is unanimously shared by all human races. It is even shared by the barbrous and savage races. The humanity at large takes great interest in pondering upon the heavenly concepts as well as the metaphysical concepts."

The philosopher Henrie Bergson says : "there had existed and still exist some human groups without sciences, arts and philosophies, but there had never existed any group of individnals without religion or belief."

Earnest Renan in a treatise on the *history of religion* says "it is feasible that any thing we like may decay and the freedom to use mind, sceience and industry may stop functioning, but it is quite impossible that religion can be abolished. It rather stands as a conclusive argument against the fallacious doctrines of materialism which desirously attempt to confine human thought to mean and narrow passages of the mundane life."

Mr. Muhammad Farid Wagdi comments on this quotation by saying: " Nay; It is impossible that the idea of religiousness can be eradicated because it represents the most sublime centiments of the human-being. Therefore the natural tendency to religion will continue deeply implanted in the heart of man so far as he has sound mind to differentiate between beauty and ugliness. "

Faith in God is an intellectual requirement.

It is evident that faith in a Supreme Power, which initiated this universe and maintained its discipline, is an intellectual necessity. This is because the naive human mind firmly believes in the principle of causation and always inclines to justification and reasoning. If there is no religion or faith, the question aroused by the Qur'an will have no answer; which question reads as follows: " or were they created out of nothing ? Or are they the creators ? " (Surah. 52, V. 35) .

Evidently they were not created from nothing nor did they create themselves, then it is inavoidable to recognize the existence of one God who is the Creator, the Knowing and the Wise.

As for those who evaded from the recognition of the creative Divinty because it is unseen, intangible and not subject to experimental tests could not deny utterly the existence of managing power. So they resorted, however, to another vague and esoteric power i, e.;

ISLAM: ITS ORIGIN AND ITS FUTURE

This is a rejoinder to Series number II of All-Union Society for Propagation of Political and Sicentific Knowledge which discusses the same topic under the same caption, and which appeared in Moscow in 1956 and was introduced to the Arab readers as "The Grey Note-Book."

An old Campaign.

The war waged against religions is not the outcome of the present age nor is it the innovation of the materialistic Marxism which assumes that religion is an opium given to the people. Voltaire, the French writer, had expressed such an idea long before the time of Marx, the Jewish thinker, when he said that deification had been an idea contemplated by clever priests to win the hearts of simpletons who enthusiastically took it to heart and believed in it. In such an attitude Voltaire in fact was following the example of the Greek Sophists who had denied or at least suspected the genuineness and naturalness of things. They propagated fallacies and diffused doubts. They alleged that man, since the dawn of humanity, had submiited only to power and not to any code of laws or set of values. Later on when laws were instituted the explicit performance of such chaotic and primitve deeds disappeared. This apparent features gave way to the prevalence of secret crimes which were incessantly committed. Such behaviour inspired certain genius - minded men to initiate the idea of an unforeseeble power which controls the lives of all creatures and masters their fates ; an eternal power all-seeing and all - hearing so as to convince the masses to behave well secretly and in public.

However, it is unwise to deny the assumption that at a certain historical period a new belief or a set of laws of worship had been institnted, for such assumption does not oppose reasòn or contradict facts. Such concession does not at all give any ground to convince us that the idea of religiousness was not as old as humanity itself.

Religiousnese is innate instinct:

Twentieth Century Larousse